موســـــوعة

نســاء ورجــال

من مصــــر

الطبعة الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى
رابعة العدوية - مدينة نصر - ص . ب : ٣٣ البانوراما
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: email: dar@shorouk.com

لمعى المطيعى

موسوعة

نساء ورجال من مصر

دار الشروق

الإهـــــداء

إلى روح أستـــاذنا

عميد الناشرين المصـريين والعرب

الأســــتاذ محـــمـــــد المعـــــلم

لمســــة وفــــاء

لمعـى المطيعى

* وكيل وزارة الثقافة المصرية للنشر (سابقًا).

* نائب رئيس هيئة الكتاب ومستشار المجلس الأعلى للثقافة (سابقًا).

* الكاتب الصحفى والمؤرخ والمفكر (حاليًا)

* عضو مجلس إدارة اتحاد كتاب مصر وعضو مجلس إدارة اتحاد الناشرين المصريين لدورات مختلفة.

* أسهم فى إنشاء مركز جامعة القاهرة للنشر واختير عضواً بأول مجلس إدارة.

* اختارته موسوعة (مؤلفون معاصرون) - جامعة ميتشجان بالولايات المتحدة الأمريكية - كأحد أبرز المفكرين المصريين الذين قدموا رواد بلادهم للقراء.

* صدر له: ١٥ كتابًا تأليفًا و١٥ كتابًا مترجما وكتابًا باللغة الإنجليزية.

* أسهم فى عضوية لجان الترجمة والتاريخ والنشر وثقافة الطفل والجوائز التشجيعية بالمجلس الأعلى للثقافة.

* أعاد إصدار ورأس تحرير مشروع الألف كتاب الثانى (يناير عام ١٩٨٦).

* عضو نقابة الصحفيين واتحاد المؤرخين العرب.

* تم تكريمه أربع مرات: (أسيوط ويوم الأطباء وأوائل الدراسات العليا للإعلام والمجلس الأعلى للثقافة).

تقــديم

أمــا بعــد:

فأحمد الله على توفيقه لنا فى المجلد الأول من (موسوعة هذا الرجل من مصر)، إذ إن الطبعتين الأولى والثانية قد نفدتا فى زمن قياسى. وأشكر (دار الشروق) أولى دور النشر فى البلاد العربية، إذ إنها أخرجت الموسوعة بأسلوب متميز عرفت به فى سائر مطبوعاتها.

وأشكر أيضًا المثقفين والإعلاميين العرب فى أوروبا والبلاد العربية ومصر الذين تفضلوا علينا وعلى الموسوعة بكلمات طيبات. كنت أسعد عندما أطالع صحيفة (الحياة) بلندن و(الأيام) فى البحرين وصحفًا عربية أخرى فى بلاد عربية مختلفة وأجد تنويهًا متعاطفا مع الموسوعة وصاحبها. أما فى مصر قد تفضلت زوايا مختلفة فى التليفزيون والإذاعة بالحديث عن الموسوعة وعن أو مع صاحبها. أما الأقلام المحترمة المنصفة فقد أفاضت بالحديث عن الموسوعة والجهد الذى بذل فيها والدقة والحيدة والموضوعية والروح المصرية التى تميزت بها.. ولا أستثنى صحيفة يومية أو أسبوعية أو مجلة شهرية أو فصلية.. كلها احتضنت الموسوعة ورعتها.. وكان فضل الله علينا عظيمًا.

ولا بأس.. أن أقرأ أو أسمع فى ندوات أو فى بعض البرامج التليفزيونية عرضًا لبعض شخصيات المجلد الأول وهو نص كلامى الذى كتبته فى موسوعتى دون نسبته إلينا! ولم أكن أغضب.. وأقول لنفسى.. يكفى أن الموسوعة قد وصلت إلى هذه الأسماء المعروفة وكانت موضع إعجابهم فآثروا أن ينسبوا هذا الجهد إلى أنفسهم ويعتموا على الأب الشرعى لها. وفى النهاية لا يصح إلا الصحيح.

ثم يجىء الآن - بفضل الله ثم جهود دار الشروق - المجلد الثانى يسير على خطى شقيقه المجلد الأول.. إثراء حقيقيا لذاكرة الأمة، وعقل المجتمع، ووعى المواطن

بما يضمه من دراسات تحليلية لشخصيات ذات توجهات واهتمامات مختلفة . . مع الحرص على توثيق المادة والدقة فى الوقائع والتواريخ والرجوع إلى مصادر مختلفة من الكتب الموروثة أو البشر الأحياء .

وحرصت فى (المجلد الثانى) أن يضم عدداً من الشخصيات النسائية المصرية التى أعطت لمصر فى حدود ما أتيح لها من رؤية . وذلك - إذا شاء الله - تمهيد لمجلد مستقل بعنوان (هذه المرأة من مصر) . والمرأة المصرية لها دورها فى مختلف مناحى المجتمع المصرى . . الوطنية والثقافية والتعليمية والإعلامية والفنية . وقدمت فى المجلد الثانى مجموعة لهذه الأنشطة المختلفة . . «هدى شعراوى - روز اليوسف - أم كلثوم - صفية زغلول - استر فهمى ويصا - أمينة السعيد - سلوى حجازى - سيزا نبراوى - د. سهير القلماوى - نبوية موسى - باحثة البادية - بنت الشاطئ» .

وأرجو من الله العلى القدير أن يعيننى على الاستمرار فى مشروع الموسوعة لأقدم الرجال والنساء الذين أنبتتهم مصر الولود . وكما قلت فى تقديمى للمجلد الأول فإننى مهتم بتقديم تاريخ مصر الاجتماعى والدينى والسياسى والاقتصادى والثقافى والعلمى من خلال رموز هذه الأنشطة ، لأن قراءة التاريخ بشكله القديم أو بشكله الأكاديمى يبدو أنها أصبحت مهمة صعبة على أجيالنا الجديدة . ولأننى علمت - فيما علمت - من أحد الأصدقاء أساتذة التاريخ المرموقين أن (مادة التاريخ) تقرر أن تكون مادة اختيارية فى بعض مراحل الدراسة . ويا للأسف كله قال لى محدثى إن نسبة الإقبال على دراسة التاريخ أصبحت متواضعة للغاية . وليس أمام هذا القلم إلا أن يمضى فى دوره لتنشيط ذاكرة الأمة وتقديم أبناء وبنات هذه الأمة التى أعطت لمصر فى حدود ما أتيح لها من رؤية ومن جهود .

وكتب الله لمصر السلامة . . والله من وراء القصد .

العجوزة فى أكتوبر ٢٠٠١م

لمعى المطيعى

هذه المرأة من مصر

أم كلثـــوم ..



نستأذن «هذا الرجل من مصر» لنقدم اليوم «هذه المرأة من مصر» تقديراً منا لدور المرأة التى تعطى لمصر مثلما يعطى الرجل. وللأمانة فإن العنوان «قيثارة السماء: أم كلثوم» اقتطفناه من «حديقة الأدباء» للأديب «طاهر الطناحى» وبأسلوبه الأدبى الرفيع يقدمها لنا، ثم يترك لنا الساحة لآخر الشوط مع القارئ الكريم فى مشوار «فاطمة إبراهيم البلتاجى» التى عرفناها باسم «أم كلثوم»، وجاء ذكرها فى حديقة الأدباء على أنها: قيثارة السماء أم كلثوم هدية السماء إلى العواطف والوجدان.

فقد خلق الله الكون ومنحه من لحنه الخالد ما تطرب به نفوس البشر وتهتف له الطيور على الشجر. وأسبغ عليه من جماله العظيم ما تتنغم به القلوب والأبصار، وما تبتسم به الرياض والأزهار، وتسبح به الكائنات بالليل والنهار.

وقد جعل الله «أم كلثوم» لحنًا من ألحانه وآية من آيات قدرته وإحسانه، وخصها بصوت ليس ككل الأصوات، وصنعها قيثارة من بديع صنيعه وعجيب إبداعه.

وهى تغنى للغناء، وحين تشاء، لا كما يشاء الآخرون. ولقد أحبت العصافير وأثرتها بالرقة والحنان، وبالعطف والهيام، فكانت أول قصيدة «عصفورة» للمرحوم صادق الرافعى: وأم كلثوم تحب الفن، ولا تعبد إلا خالق الفن، ولا تستجيب إلا لنداء الفن ونداء الوطن.

وقد رحلت من القرى إلى المدن، وانتقلت من البداوة إلى الحضارة، وغردت فى الرياض والقصور، كما أنشدت فى الريف والحقول، وهى محافظة حين تنشد

المدائح النبوية والقصائد العربية الفصحى. ومتحررة حين تغنى الأغانى الشعبية. وقد أخذت الفن من أصوله على العلامة «الشيخ أبو العلا»، وكان هذا الشيخ فنانًا كبيرًا، وموسيقيًا نابغًا، وأستاذًا غزير العلم بفن الغناء، وأتم ما بدأه الأولون، وأم كلثوم غنت من شعر كمال الدين بن النبيه، لا تغنى إلا للعرب أو لسيد العرب محمد - صلى الله عليه وسلم - أو فى الأحداث العربية الكبرى، وغنت لأحمد رامى ولمحمود بيرم التونسى، واختارت من شعر أحمد شوقى وحافظ إبراهيم وعلى الجارم ومحمود حسن إسماعيل ومحمد الأسمر أجمل القصائد. وغنت من رباعيات الخيام.

لقد فشلت الكثيرات ممن أردن تقليدها، والجلوس على عرش من عروشها لأن صوتها جزء منها لا ينفصل عنها وأنغامه إلهام وألحانه عطاء. وهذا هو السر فى أن صوتها أحلى من الموسيقى وأنغامها أسمى من أنغام الأوتار.

ويختتم «الطناحى» قطعته الأدبية: وسبحان خالق الألحان، وواهب الغناء وحسن البيان، والذى يقول لقيثارته الإلهية أن تغنى «فتكون» أم كلثوم.

رحم الله «الطناحى» و«أم كلثوم» ونواصل نحن الحديث.

فاطمة إبراهيم البلتاجى:

ورد فى بعض المصادر أن الطفلة فاطمة إبراهيم البلتاجى ولدت يوم ٢٠ ديسمبر عام ١٨٩٩م. ويذكر زميلنا «عبد الحميد توفيق زكى» أنها ولدت عام ١٩٠٤م وهو التاريخ الأرجح. ولدت فى أسرة متواضعة فى قرية «طماى الزهايرة» التابعة لمركز السنبلاوين، محافظة الدقهلية. واسم القرية حاليًا «قرية أم كلثوم». والدها الشيخ «إبراهيم البلتاجى» كان يعمل مطربًا ومنشدًا فى أفراح القرى. ألحقها أبوها بكتاب القرية. تصادف أن سمعها القاضى «على بك أبو حسين» فقال لوالدها «الديك كنز لا تعرف قدره.. يكمن فى حنجرة ابنتك» وأوصاه بأن يهتم بصوت ابنته. أخذها والدها الشيخ إبراهيم معه فى أفراح القرى. وغنت وهى ترتدى العقال وملابس الصبيان. واشتهرت فى قرى مركز السنبلاوين، وتصادف أن كان الشيخ «أبو العلا»

فى القطار وسمعها تردد ألحانه المشهورة دون أن تعرف أنه موجود بالقطار. ومن يومها توثقت العلاقة بين الأستاذ «أبو العلا» والتلميذة. «أم كلثوم» وبتوجيه من الشيخ «أبو العلا» وصلت «أم كلثوم» إلى القاهرة عام ١٩٢٢م. ونزلت مع والدها فى فندق متواضع ببولاق فى شارع السلطان أبو العلا. وكان بالفندق أحد ظرفاء العصر «محمد البابلى» الذى أعجب بصوت أم كلثوم. وظلت تغنى فى «مسرح البوسفور» المعروف فى ميدان باب الحديد «رمسيس حاليًا» بدون فرقة موسيقية. وغنت على «مسرح حديقة الأزبكية» واشتهرت بقصيدة «وحقك أنت المنى والطلب» من شعر «الإمام عبد الله الشبراوى» إلى حى عابدين. وتشاء الظروف أن تكون هناك أسرتان تسديان معروفًا لأم كلثوم ومرافقيها.. الأسرة الأولى أسرة «آل عبد الرازق»، وكان قصرها فى منطقة عابدين وهى أسرة معروفة منها «حسن عبد الرازق» و«على عبد الرازق» و«الشيخ مصطفى عبد الرازق» والأسرة الثانية أسرة «آل المهدى» ونسبها معروف وقصرها فى باب الخلق.

وتوثقت الصلة بين أم كلثوم وأمين المهدى الذى أسهم فى تعليم أم كلثوم أصول الموسيقى. وتعلمت أم كلثوم عزف «العود» على أيدى: «أمين المهدى ومحمود رحمى ومحمد القصبجى». ويتقدم الشيخ «أبو العلا» الجميع فى بصماته الفنية على «أم كلثوم».

الشيخ أبو العلا:

اسمه الكامل «الشيخ أبو العلا محمد حافظ» ١٨٧٨م-١٩٢٧م ولد فى بلدة «بنى عدى» مركز منفلوط-محافظة أسيوط «بلدة الشيخ حسنين مخلوف». والشيخ أبو العلا نفسه حفيد للشيخ العدوى من جهة الأب وحفيد للأمير حسن كتخدا من جهة الأم.

وتعلم «الشيخ أبو العلا» فى الأزهر واشتهر بصوته المليح وتحول إلى فن الغناء ولمع اسمه بين مشاهير المطربين فى عهده وفى مقدمتهم الشيخ «سيد الصفتى»، و«محمد أفندى السبع» و«زكى مراد». وكان الشيخ «أبو العلا» من مدرسة عبده الحامولى فى الغناء والتلحين. وقد اختلط الأمر على الكثيرين بين عبده الحامولى

والشيخ أبو العلا فظنوا أن قصيدة «أراك عصى الدمع» من لحن الشيخ أبو العلا مع أنها فى حقيقة الأمر من لحن «عبده الحامولى».

وفى يوم ٥ يناير ١٩٢٧م شهدت القاهرة منظراً غير مألوف.. أم كلثوم تمشى فى جنازة أستاذها الشيخ أبى العلا فى مقدمة المشيعين. كان هذا المشهد عرفانا بجميل أم كلثوم لأستاذها الكبير الشيخ أبى العلا محمد حافظ.

ومن أشهر قصائد أبو العلا التى لحنها قصيدة «الصب تفضحه عيونه - وتنم عن وجد شجونه» أداء أم كلثوم ولحن الشيخ أبى العلا وشعر أحمد رامى والتى تعتبر أول عناق بين نظم أحمد رامى وأداء أم كلثوم.. وها نحن وصلنا إلى علاقة أم كلثوم بأحمد رامى.

أحمد رامى:

كان «أحمد رامى» فى باريس حين لحن «الشيخ أبو العلا» قصيدة «الصب تفضحه عيونه» وبعد أن عاد رامى إلى القاهرة عام ١٩٢٤م صحبه أحد أصدقائه إلى مسرح البوسفور وأبلغه حكاية اللحن وأداء أم كلثوم لقصيدة رامى.

ودخل رامى إلى أم كلثوم فى حجرتها وطلب منها أن تغنى قصيدته. وكانت أم كلثوم شديدة الذكاء فقالت له.. «أهلا سى رامى» ومن يومها توثقت العلاقة بين أم كلثوم وسى رامى. وكان تاريخ هذا اللقاء الطريف ٢٢ يوليو ١٩٢٤.

توفيت أم كلثوم فى ٣ فبراير ١٩٧٥م وتوفى رامى فى سنة ١٩٨١م وقد انكسر قلم رامى وابتعد عن الشعر بوفاة أم كلثوم.

وقد ولد «أحمد رامى» فى حى الناصرية - السيدة زينب عام ١٨٩٢م. جده لأمه الأميرالاى حسن عثمان بك الذى اشترك فى حملة السودان وقتل عام ١٨٨٥م. نظم أول قصيدة عام ١٩٠٧م. صدر له ستة دواوين، الأول عام ١٩١٧م، والأخير عام ١٩٦٥م وترجم ١٥ مسرحية. حصل على جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٦٣م.

درس الفارسية في باريس. وقد ترجم رباعيات الخيام عن الفارسية ثم أعدها نظما وهى التى غنت «أم كلثوم» مقاطع منها. وقد جعل رامى أم كلثوم تقرأ الشعر العربى فى عصوره المختلفة.

أمين المهدى:

قالت أم كلثوم: «لم أسمع أشجى ولا أفضل من عزف أمين المهدى على العود». وكان اللقاء الأول بين أم كلثوم وأمين المهدى فى قصر حمد الباسل باشا رجل الوفد المعروف ووثيق الصلة بسعد زغلول باشا. وأعجب أمين المهدى بصوت أم كلثوم وقال عنه إنه «صوت معجز».

وأمين المهدى هو حفيد «الشيخ المهدى» رجل الدين المعروف فى فترة الحملة الفرنسية وأحد المشايخ الذين قرروا اختيار «محمد على» واليًا على مصر فى شهر يوليو ١٨٠٥م وهو أيضًا حفيد الشيخ «العباسى» الذى كان شيخًا للإسلام.

وتعلم أمين المهدى أصول الموسيقى على يد الملحن الكبير كامل الخلعى. وفى فترة الإذاعة المصرية الأولى كان يقدم عزفًا منفردًا على العود وعمل مفتشًا للموسيقى بوزارة المعارف. وعندما انتقلت «أم كلثوم»، إلى القاهرة ارتبطت بأسرة «آل المهدى» كما ذكرنا آنفًا. وارتبطت أم كلثوم بصلة وثيقة بزوجة أمين المهدى وابنته، وأصبح بيت آل المهدى بيتها كما يقال.

لقد غنت أم كلثوم من ألحان عبده الحامولى وسيد درويش وأحمد صبرى النجريدى وأبو العلا محمد ومحمود رحمى ومحمد القصبجى وداود حسنى وزكريا أحمد ورياض السنباطى وفريد غصن وكمال الطويل ومحمد الموجى وبليغ حمدى ومحمد عبد الوهاب وسيد مكاوى.

الست والملحنون:

فى الفترة السابقة سجلنا الملحنين الذين شاركوا فى أعمال أم كلثوم ولا بأس أن

نقدم فقرات قصيرة عن بعض هؤلاء لاستكمال المعرفة :

ـ الشيخ زكريا أحمد ١٨٩٦م ـ ١٩٦١م:

انفرد بتلحين أغانى فيلم «سلامة» ، كما اشترك فى تلحين أغانى جميع أفلام أم كلثوم .

كان الشيخ زكريا قد اتجه إلى المسرح الغنائى بعد رحيل سيد درويش . وتأثر الشيخ زكريا بسيد درويش وكامل الخلعى وداود حسنى . وتأثر فى طفولته بالغناء الصحراوى عن والده .

ـ محمد القصبجى ١٨٩٢م ـ ١٩٦٦م:

استمع القصبجى إلى المغنية الريفية ذات العقال «أم كلثوم» ، ورأى أن هذه المغنية الجديدة تستطيع أن تؤدى أسلوبه فى التلحين . قام بتلحين أول أغنية لأم كلثوم عام ١٩٢٤م . ولحن الفصل الأول من أوبرا «عايدة» الذى غنته أم كلثوم فى فيلمها «عايدة» فى أوائل الأربعينيات . والده المنشد على إبراهيم القصبجى . تأثر القصبجى بالشيخ سلامة حجازى .

ـ محمد رياض السنباطى ١٩١٦م ـ ١٩٨١م:

جاء إلى القاهرة ١٩٢٧م ، وكانت أم كلثوم قد فرضت اسمها على الوسط الفنى ولحن المقدمات الموسيقية لكثير من غنائيات أم كلثوم . كان من أمهر العازفين على العود إلى درجة جعلت الشيخ سيد درويش يفكر فى تبنيه . والده المطرب وعازف العود محمد السنباطى . من مدينة فارسكور محافظة دمياط . عاش طفولته وصباه فى مدينة المنصورة .

ـ لقاء السحاب .. أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب:

فى ١٢ فبراير ١٩٦٤ التقى القطبان فى أغنية انت عمرى . واللافت للنظر أن المقدمة الموسيقية استغرقت ربع ساعة وهى مقدمة طويلة على غير العادة . وسمعت محمد عبد الوهاب يقول فى تفسير ذلك «إنه أراد أن يفيد من «أم كلثوم» وتأثيرها على الجمهور بأن يعطى للجمهور جرعة كبيرة من الموسيقى ليتحملها فى انتظار أداء

أم كلثوم»، وقال عبد الوهاب عن أم كلثوم: «إنها المغنية الوحيدة التى جمعت بين القوة والعاطفة والحساسية. والصوت الوحيد الذى استطاع أن يتمرد على ذل الميكروفون».

العاصمة الفنية والوطنية:

وتحولت أم كلثوم بكل ما توافر لديها من مهارات إلى عاصمة فنية للمصريين والعرب. الجميع ينتظرون الخميس الأول من كل شهر يأتون إليها سفراً بالطائرات، ويرتب الجميع أمورهم حتى يفرغوا لسماع الست فى سهرتها المعتادة.

كانت أم كلثوم مجموعة من الشخصيات فى شخصية واحدة. بسرعة البديهة والفكاهة ولهذا كان يجلس إليها الظرفاء يستمتعون بالطرفة والنكتة الراقية. وتميزت بالمشاعر الإنسانية. ولم تخرج القرية المصرية من وجدانها، اعتادت أن تذهب إلى القناطر الخيرية لترى ـ على حد تعبيرها ـ الميه بتاعة الفيضان إللى لونها البنى ـ مش الرايقة ـ المنظر ده لو قعدت قدامه ساعات ما أزهقش لأنه يذكرنى بطفولتى.

ورقعة التسابيح الدينية واسعة فى فن أم كلثوم.. نهج البردة ـ سلوا قلبى ـ إلى عرفات الله ـ الهمزية.

وقد واكبت أم كلثوم الحركة الوطنية، فهى تغنى لذكرى سعد زغلول وتنشد لفلسطين وإحياء الأعياد الوطنية. وعندما انتكست مصر بعد هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧م قامت أم كلثوم تجوب البلاد العربية وبعض الدول الأجنبية لتجمع الملايين من أجل مصر وجيشها وذهبت إلى باريس، وخرجت الصحف الخارجية تقول نفرتيتى فى برلين وأم كلثوم فى باريس وسألها المصورون عن المكان الذى ترغب أن يلتقطوا لها الصور عنده فأجابت بذكائها المعروف.. أمام المسلة المصرية فى ميدان الكونكورد.

وثمة جانب آخر.. هو دور «أم كلثوم» فى السينما الغنائية. بدأ العصر الذهبى بافتتاح ستوديو مصر عام ١٩٣٥ بفيلم تاريخى غنائى بطولة أم كلثوم بعنوان «وداد» عرض فى فبراير عام ١٩٣٦م. القصة تأليف أحمد رامى وغنت خمس أغنيات من

نظم أحمد رامى. والفيلم الثانى «نشيد الأمل» عرض فى يناير عام ١٩٣٧م حوار وأغانى «أحمد رامى» وغنت به أم كلثوم سبع أغنيات كلها من نظم أحمد رامى والفيلم الثالث «دنانير» عرض فى سبتمبر عام ١٩٤٠م، والفيلم الرابع «عايدة» وعرض فى ديسمبر عام ١٩٤٢م والفيلم الخامس «سلاّمة» وعرض فى أبريل عام ١٩٤٥ . . وكتب أغانيه محمود بيرم التونسى.

موكب الرحيل:

الشعب المصرى الذى تنتمى إليه «أم كلثوم» شعب ذكى وأصيل. فى الساعة الحادية عشرة بدأ سير الجنازة . . وكالمعتاد كان من المقرر أن تنتهى الجنازة عند جامع جركس. ولكن البحر الهادر من المشيعين أبوا ذلك. وتوجهوا إلى مسجد الإمام الحسين حيث صلوا على جثمانها هناك. وأمام ضغط الجموع صاح إمام المسجد . . من يحب أم كلثوم فليجلس فى مكانه ويقرأ الصمدية على روحها . . فاستجاب له الناس لأنهم يحبونها . . ونحن جميعًا نحبها أيضًا . . عليها رحمة الله.

الأسـانيـد

١ ـ زكى طليمات: وجوه وذكريات.

٢ ـ سيد صديق عبد الفتاح: ظرفاء وعظماء القرن العشرين.

٣ ـ طاهر الطناحى: حديقة الأدباء.

٤ ـ عبد الحميد توفيق زكى: أعلام الموسيقى العربية.

٥ ـ محمد السيد شوشة: رواد ورائدات السينما المصرية.

٦ ـ د. نعمات أحمد فؤاد: أم كلثوم وعصر من الفن.

إستر فهمى ويصا ..



منذ أن ولدت بأسيوط فى ١٩ فبراير عام ١٨٩٥م إلى أن تزوجت فى ٢٤ يوليو عام ١٩١٣م كان اسمها «إستر أخنوخ فانوس»، وبعد أن تزوجت «فهمى ويصا» تحول اسمها إلى «إستر فهمى ويصا»، وللكتابة عنها أصبح أمامنا ثلاثة أسماء: «أخنوخ» الأب، و«ويصا» الزوج، و«إستر» صاحبة هذه السيرة. واسم والدها «أخنوخ» من الأسماء التى وردت فى (العهد القديم ـ التوراة) واسم زوجها «ويصا» من الأسماء التى عرفت فى مصر القديمة، أما اسمها «إستر» فبعض المصادر تقول إنه كلمة فارسية معناها (كوكب).

وسوف نؤجل الحديث عن (الكوكب) ونمهد للحديث عنها بعد أن نتحدث عن والدها «أخنوخ» الذى كان له دور فى الحياة الحزبية المصرية فى عام ١٩٠٨. وبعد أن نتحدث عن زوجها «فهمى بك ويصا» الذى كان وزير (الوقاية المدنية) فى ٢ يونيو عام ١٩٤٣، فى التعديل الذى طرأ على وزارة «مصطفى النحاس باشا» السادسة. وكان فهمى بك ويصا وقت ذاك عضوا بمجلس الشيوخ.

أخنوخ فانوس (١٨٥٦ ـ ١٩١٨) المحامى الشهير بأسيوط، التحق بالجامعة الأمريكية ببيروت عام ١٨٧٠م. وعاد ١٨٧٨، أسس جمعية خيرية فى أسيوط لمساعدة منكوبى الأزمة الاقتصادية ونقص المواد الغذائية. اشتغل بالمحاماة أمام المحاكم الأهلية ابتداء من عام ١٨٨٤. ومنحته الجامعة الأمريكية درجة الدكتوراه الفخرية عام ١٩١٠، ورأس المجلس الإنجيلى العام بالقاهرة.

كان شخصية دورها الاجتماعى بدرجة ما ولكنه عندما أراد أن يدخل مجال الأحزاب دخل من الباب الخطأ وهو (الباب الطائفى) كان العقد من (١٩٠٧ - ١٩١٤) عقد تأسيس الأحزاب. وتواجد على الساحة حزبان كبيران . . كل منهما له قيادته المعروفة وله أفكاره وسياسته وهما: الحزب الوطنى . . مصطفى كامل ومحمد فريد، وحزب الأمة . . محمود باشا سليمان، وأحمد لطفى السيد. وعام ١٩٠٨ وعلى صفحات جريدة (مصر) عدد ٢ سبتمبر أصدر «أخنوخ فانوس» دعوته لتأسيس الحزب المصرى . . كان البرنامج مغاليًا فى مصريته وعلمانيته، ودعوة للتمثيل الطائفى فيما اقترحه من نظام نيابى. وظهر الطابع الطائفى للحزب فيما كتبه «أخنوخ فانوس» وترحيب الصحافة الإنجليزية به.

وقاطع الأقباط هذا الحزب كما قاطعه المسلمون ولم يدخله أحد غير مؤسسه، أى أن الحزب مات فى المهد. وفى مقتبل الأيام كان «أخنوخ فانوس» محاصراً من الرموز القبطية ذات الاتجاه الوطنى والقومى أمثال «واصف غالى وويصا واصف وسينوت حنا» وربما كان التوجه الطائفى لدى «أخنوخ» هو الذى أوجد رد الفعل لدى ابنته «إستر» التى عاشت وفدية وماتت وفدية، ولدى ابنه «جميل» الذى اقترب من الوفد فى عهده الجديد بعد أن عاد الوفد للساحة السياسية.

فهمى بك ويصا:

ولد «فهمى بك ويصا» بأسيوط عام ١٨٨٤م. وتعلم فى الجامعة الأمريكية ببيروت، ثم تخرج فى جامعة أكسفورد، الجامعة التى تخرج فيها بلدياته من (مديرية أسيوط) محمد محمود بن محمود باشا سليمان . . وكانت تلك الجامعة مركزًا لتعليم أبناء البيوتات فى تلك السنوات. وفى ٢٤ يوليو عام ١٩١٣ بأسيوط تزوجت «أستر أخنوخ فانوس» وبعد إعلان الوفد الأول فى ١٣ نوفمبر عام ١٩١٨ وأقبل عليه الأقباط أفواجا، انضم فهمى ويصا وإستر فهمى ويصا إلى الوفد وكانا من الأبناء المخلصين لزعيم الأمة «سعد زغلول» ولخليفته «مصطفى النحاس». وظل عضوا بمجلس الشيوخ منذ عام ١٩٢٤ حتى تاريخ وفاته فى ٢ أكتوبر ١٩٥٢.

وشكل «مصطفى النحاس باشا» وزارته السادسة من (مايو عام ١٩٤٢ ـ أكتوبر عام ١٩٤٤)، وكما ذكرنا آنفا أنه طرأ تعديل فى ٢ يونيو عام ١٩٤٣ على الوزارة دخل بمقتضاه «فهمى حنا ويصا بك» عضو مجلس الشيوخ (وزيرا للوقاية المدنية).

المرأة وثورة ١٩١٩:

فى الصف الأول مع السيدات المصريات المناضلات من أجل استقلال الوطن وتحت راية (الوفد) وخلف زعيم الأمة «سعد زغلول» وقفت الوطنية المصرية «إستر فهمى ويصا» إلى جانب هدى شعراوى، وعندما قام الشعب بثورته عام ١٩١٩ اشتركت النساء مع الرجال فى الريف بقطع أسلاك التليفونات، وخطوط السكك الحديدية. وفى مارس عام ١٩١٩ اجتمعت النساء المصريات وانتخبن اللجنة التنفيذية للنساء الوفديات برياسة «هدى شعراوى»، ونظمن مظاهرة صاخبة وتعرضن لرصاص المستعمرين، وسقطت أول امرأة مصرية وهى «شفيقة محمد» صريعة برصاص الإنجليز، وقامت مظاهرة اتجهت إلى بيت «سعد باشا»، وحاصرتهن قوات الاحتلال، ووقفن تحت الشمس المحرقة ثلاث ساعات.

وعند تشكيل الوفد المصرى من الرجال سنة ١٩١٨ تكونت هيئة وفدية من النساء سنة ١٩١٩ لتمثيل المرأة المصرية فى المطالب القومية. وقال «سعد باشا» عند عودته من منفاه: «إن المرأة قد شاركت بجهد خلاق فى نهضتنا الحاضرة وأثبتت شجاعتها فى موقفها أيام الثورة»، فلتهتفوا جميعا . . تحيا السيدة المصرية.)

وفى ١٦ مارس انطلقت كثيرات من عقائل العائلات الراقية يجبن أنحاء القاهرة هاتفات بحياة الحرية والاستقلال ومناديات بسقوط الحماية. ومررن بدور القنصليات ومعتمدى الدول الأجنبية والناس من حولهن يصفقون لهن ويهتفون لهن. والنساء من نوافذ البيوت يزغردن ويهتفن. وضرب الجنود الإنجليز نطاقا حولهن وسددوا إليهن فوهات البنادق والحراب.

لجان الوفد للسيدات:

فيما سبق من أشكال الكفاح الوطنى فى شكل المؤتمرات والمسيرات والمساهرات كانت «إستر فهمى ويصا» فى الصفوف الأولى. ثم جاء شكل آخر ينتهى بالقرارات والبيانات التى توقع عليها من ينبن عن سيدات مصر.

فى ١٣ ديسمبر ١٩١٩ اجتمع عدد كبير من نساء مصر وعرف هذا الاجتماع المهم باسم (اجتماع الكاتدرائية المرقصية)، ولم يشعر المصريون إطلاقا باختلاف المذاهب الدينية بين مسلمين ومسيحيين. وحضر هذا الاجتماع التاريخى «عبدالرحمن فهمى» وحفظ لنا فى مذكراته وقائع هذا الاجتماع. احتجت السيدات المصريات على نفى الزعماء، واحتجت على وزارة وهبة باشا، وعلى لجنة ملنر وطالبن بضرورة إعلان استقلال مصر. ونقرأ من بين أسماء الموقعات على هذه القرارات أسماء: «هدى شعراوى، إستر فهمى ويصا، حرم محمد بك على المحامى، وبرلنتى ويصا واصف، ونعيمة أبو أصبع، وحرم الدكتور إبراهيم المنياوى، وعائشة أبو شادى، وحرم محمد بك نجيب».

وبعد أن تم الإفراج عن «سعد باشا» تألفت لجنة للسيدات فى أوائل يناير ١٩٢٠م وأصدرت احتجاجات على بلاغ ملنر الذى أصدره فى ٢٩ ديسمبر ١٩١٩، وكان التوقيع باسم «هدى شعراوى» رئيسة اللجنة المركزية للسيدات المصريات.

وكان للجنة الوفد المركزية للسيدات نشاط ملحوظ. أصدرت بيانا بأن مطلب مصر الوحيد هو الاستقلال التام.. واحتجت على وزارة «عدلى يكن باشا» لمحاولاته الإيقاع بين «زغلول باشا» والسراى، واحتجت على مشروعات «عدلى» الخاصة بالمفاوضات. وقامت اللجنة بمظاهرة سلمية نسائية، وأعقبتها مظاهرة ثانية بالقاهرة، ومظاهرة نسائية ثالثة بالإسكندرية، ومظاهرة نسائية رابعة بمدينة طنطا. وتوالت بيانات اللجنة المركزية للسيدات احتجاجا على ملنر وعدلى يكن وتأييداً لسعد باشا وتأكيداً على الاستقلال التام. ونقرأ التوقيعات ومنها: «هدى شعراوى، وفكرية حسن، وإستر فهمى ويصا، وبرلنتى ويصا واصف، وبهيرة حرم نجيب فتحى باشا، وعنايات سلطان باشا».

وفى ٢٣ مارس ١٩٢١م أرسلت (لجنة الوفد المركزية للسيدات) خطابا إلى

«عدلى باشا» يعبرن فيه عن أملهن فى عدم التنازل عن مطالب مصر الوطنية وعدم نسيان شهداء الوطن من الرجال والنساء. وأعلن «سعد باشا» عدم الثقة فى وزارة «عدلى» وتفجر الخلاف القديم بين أعضاء الوفد، واستقال «على شعراوى ومحمد محمود وحمد الباسل وعبد اللطيف المكباتى وأحمد لطفى السيد ومحمد على علوبة» فنشر «سعد باشا» في ١٩ أبريل عام ١٩٢١ بيانا إلى الأمة أعلن فيه اعتبار هؤلاء الأعضاء منفصلين عن الوفد. وفى اليوم نفسه اجتمعت (لجنة الوفد المركزية للسيدات)، وقررت سحب الثقة من هؤلاء الأعضاء وجددت الثقة فى معالى رئيس الوفد.

وفى ديسمبر عام ١٩٢١ تم نفى «سعد باشا» إلى عدن، وفى أغسطس من عام ١٩٢٢ نقل إلى جزيرة (سيشل) مما دفع (لجنة الوفد المركزية للسيدات) إلى أن ترسل احتجاجات إلى كل من وزير الخارجية البريطانية فى لندن، وإلى المعتمد البريطانى فى لندن، وإلى المعتمد البريطانى فى مصر، واحتجت اللجنة على قبول «عبدالخالق ثروت» تأليف وزارة واعتبرتها جريمة فى حق الوطن. وأصدر الوفد فى ٣ نوفمبر ١٩٢٢ بيانا طالب الحكومة بالسعى للإفراج عن «سعد باشا»، وطالب بضرورة وضع دستور للبلاد. وفى اليوم نفسه أصدرت (لجنة الوفد المركزية للسيدات) بيانا طالبت فيه الوزارة بوضع هذا الدستور. ووقعت البيان «هدى شعراوى» وإستر فهمى ويصا. وإحسان أحمد، وروچينا خياط، ونعيمة أبو أصبع، وفى عهد الوزارة الحديدية ـ محمد محمود ـ أغسطس عام ١٩٢٨ اجتمعت «ألفت راتب وإستر فهمى ويصا وحياة نور الدين، وروچينا خياط، وتماضر صبرى، ووجيدة ثابت، ورئيفة موسى» وأعلن الاحتجاج على موقف الحكومة غير المشروع من حل البرلمان وإثارة الرعب بين طبقات الشعب وأرسلت صورة من الاحتجاج إلى وزارة الخارجية البريطانية.

الجهود الذاتية:

شاركت «إستر فهمى ويصا» فى المؤتمرات والاجتماعات والاحتجاجات والمظاهرات واللجان العادية والمركزية والاتحادات النسائية وكل شكل من أشكال

الكفاح الوطنى من أجل الاستقلال وتأييد «سعد باشا» والوفد، وإلى جانب هذا كانت لها جهودها الذاتية فى العمل الوطنى.

فى عام ١٩٦٩ أقيم احتفال بيوبيل تحرير المرأة المصرية وكفاحها الوطنى وألقت «إستر فهمى ويصا» كلمة نوجزها فيما يلى:

سيداتى سادتى . . اليوم نحتفل بيوبيل تحرير المرأة المصرية. لقد قامت ثورة ١٩١٩ تحت قيادة «سعد باشا» ولعبت المرأة المصرية دورا مهما فيها، وقد أتيحت للمصريات الفرص لتحقيق آمالهن . . وسأقص جانبا من تجربتى الشخصية . . تم القبض على سعد زغلول ورفاقه ونفيهم إلى مالطة فى ٨ مارس عام ١٩١٩ . وسافرت إلى القاهرة وتوجهت لمقابلة «حرم سعد زغلول» باشا وعبرت لها عن تعاون السيدات المصريات الكامل المخلص فى الحركة حتى يتم الإفراج عن القادة وحتى تحصل بلادنا على الاستقلال.

وفى ١٦ مارس عام ١٩١٩ كانت أول مظاهرة نسائية تطالب بالاستقلال واعترضنا الجنود البريطانيون، وأشارت السيدات إلى صدورهن قائلات للجنود . . اقتلونا. وبعد أن أوقفونا ساعة تحت الشمس الحارة سمحوا لنا بالتفرق والعودة إلى بيوتنا.

وفى اليوم التالى ١٧ مارس عام ١٩١٩ قررنا أن نشكل لجنة تمثل نساء مصر تعمل إلى جانب الوفد- وقد اجتمعنا بالكنيسة المرقسية، وكان عددنا ثلاثة آلاف امرأة. وتم انتخاب «هدى شعراوى» رئيسة وانتخاب «فكرية حسن وإحسان القوصى وإستر فهمى ويصا» لسكرتارية اللجنة. وبدأت أعمالنا بإرسال الاحتجاجات وكتابة المقالات فى الصحف اليومية. وفى يوم آخر عقدنا اجتماعًا سياسيا فى أحد المساجد.

وذلك بعد اعتقال سعد باشا أرسلت إلى «اللورد اللنبى» أوضح أن ينقلوا إلى أماكن أكثر راحة.

الرسالة إلى اللنبى:

إلى صاحب السعادة فيلد مارشال ـ اللورد اللنبى سابا باشا ـ الرمل ـ الإسكندرية ٢٥ سبتمبر عام ١٩٢٢ .

سمعت مؤخراً أن السيدة «حرم زغلول باشا» قد طلبت اللحاق بزوجها «سعد باشا» حيث تلقت أخباراً تفيد مرضه وأرجو أن يكون مرضه ليس خطيرا، حيث إن أى شىء يصيبه قد يفسر بسبب منفاه . . وأشعر أنه من صميم واجبى أن أقنع سعادتكم بأن عودة «زغلول باشا» فى الوقت الحالى ضرورية تمامًا لصالح البلاد ولصالح بريطانيا . وإذا أردتم وضع الحق فى نصابه فإن تأييده يمكن أن يحمى البلاد، كما أنه سيساعد على تسهيل الأمور بالنسبة لكم . إن حياة زغلول باشا غالية ويجب علينا عمل أقصى ما يمكننا لحمايتها . إن زغلول باشا سيظل دائمًا فى عين الشعب البطل القومى ولو أصابه أى مكروه فسيكون هو القديس وهو الشهيد الذى ضحى بحياته فى سبيل المبدأ . إن السياط التى هوت إنما نزلت على ظهور الأبرياء . . أما السجناء فى سيشل . . فأرجو أن تكون سعادتكم قد اتخذت بالفعل الإجراءات الكفيلة بنقلهم من هذا المناخ الرهيب غير المحتمل على الإطلاق .

هل يمكنك يا صاحب السعادة التكرم بإخطارى عن أى خطوات سيتم اتخاذها قريبًا؟ أرجو مخلصة أن يكون القرار قد اتخذ بالفعل، وأن يكون لى الشرف بأن أكون أول من يسمع الأخبار الطيبة .

نائبة رئيسة لجنة الوفد المركزية للسيدات إستر فهمى ويصا:

وكان رد اللنبى على الوجه التالى ٢٥ سبتمبر ١٩٢٢ .

سيدتى الفاضلة مدام ويصا . .

ردًا على خطابك المؤرخ اليوم ليس هناك ما يدعونى إلى الظن بأن صحة «زغلول باشا» قد ساءت، وأشعر بسعادة لأن السيدة حرمه ذاهبة إليه وستكون فى صحبته .

وإذ أشكرك على إسداء النصيحة فى خطابك ـ وأنا واثق من أنك تعنين كل ما تقولينه ـ إلا أننى أعتذر عن عدم إمكانى العمل بكل ما تقولين . . المخلص ـ اللنبى .

حياتها فى سطور

ـ ولدت بأسيوط فى ١٩ فبراير عام ١٨٩٥ .

ـ عام ١٩٠١ التحقت بمدرسة الإرسالية الأمريكية .

ـ فى ٢٤ يوليو عام ١٩١٣ تزوجت من «فهمى بك ويصا»، وهو من أسيوط أيضًا .

ـ انضمت هى وزوجها للوفد عام ١٩١٩ .

ـ فى ١٦ مارس عام ١٩١٩ اشتركت فى أول مظاهرة نسائية تطالب بالاستقلال .

ـ فى عام ١٩١٩ تشكلت لجنة الوفد المركزية للسيدات واختيرت «هدى شعراوى» رئيسة و«فكرية حسن، وإحسان القوصى وإستر فهمى» للسكرتارية .

ـ فى يناير عام ١٩٢٠ تشكلت (لجنة الوفد المركزية للسيدات) واختيرت «هدى شعراوى» رئيسة و«استر فهمى» نائبة للرئيسة .

ـ عام ١٩٢٣ تشكل الاتحاد النسائى تحت قيادة «هدى شعراوى» وعضوية «إستر فهمى ويصا» .

ـ كونت «إستر فهمى ويصا» جمعية المرأة الجديدة .

ـ ارتبطت بجمعية الشابات المسيحيات (١٩٢٠ ـ ١٩٨٣) .

ـ أسست جمعية العمل لمصر عام ١٩٢٤ .

ـ توفيت فى الإسكندرية فى ٢٨ أغسطس عام ١٩٩٠ .

الأسانيد

١ - د. آمال السبكى . . الحركة النسائية فى مصر (١٩١٩ - ١٩٥٢) .

٢ - حنا فهمى ويصا . . (حدوته عائلة مصرية) .

٣ - د. رجائى الطحلاوى ود. يحيى عبد الحميد إبراهيم . . من أعلام أسيوط .

٤ - عبد الرحمن فهمى . . مذكرات .

٥ - قاموس التراجم القبطية .

٦ - نبيل زكى عياد المحامى . . الوفد قلعة الوحدة الوطنية (دراسة تحت الطبع) .

٧ - د. يونان لبيب رزق، الأحزاب السياسية فى مصر (١٩٠٧ - ١٩٨٤) .

أمينة السعيد



زرقاء اليمامة الفتاة العربية من قبيلة جديس - بين نجد واليمن -، عرفت بحدة البصر، وحدة الرأى والنظر، وكانت تبصر الشيء على بعد مسيرة ثلاثة أيام. وعرف عن «الأستاذة أمينة السعيد» الكاتبة المصرية أنها ترى الشيء من مدى ثلاث سنوات أو تزيد. فلا بأس أن يطلق عليها لقب زرقاء اليمامة. وعرف عنها الذكاء المتوقد.

واحتار هذا القلم فى تاريخ ميلاد وفى مكان ميلاد زرقاء اليمامة أمينة السعيد. بعض المصادر ذكرت أنها ولدت بأسيوط فى عام ١٩١٩م. ولكن البحث الدقيق يشير إلى أنها ولدت عام ١٩١٤م وليس فى غير ذلك من تواريخ. ويؤكد أنها ولدت بالقاهرة وليس بأسيوط على غير رغبة الأسايطة.

وقدر لها أن تنتقل إلى رحاب الله عام ١٩٩٥ وليس غير ذلك من تواريخ خاطئة. وتكون بذلك عاشت على هذه الأرض ٨١ عاماً.

تقول العرب:

كل فتاة بأبيها معجبة . . وفى إذاعة صوت العرب تحدثت «زرقاء اليمامة أمينة السعيد» عن والدها وهو من «محافظة الدقهلية»، وكيف أنه لم يكن به جمال يستهوى المرأة . . وكيف أن كلمته كانت واحدة، والقول إن قال، مستنير السلوك،

محب لبناته وحريص على تعليمهن. كان يرضى عن اختلاط بناته بزملائهن ولكن تحت الرقابة. ويحترم النساء والبنات.

وروت «زرقاء اليمامة أمينة السعيد» رواية غريبة عن والدها وهو على فراش الموت . . جمع الوالد بناته وطلب منهن أن يقسمن أمامه أنهن لن يتزوجن إلا بعد إتمام التعليم الجامعى مهما كانت الظروف، وحفظت البنات هذا العهد. كن خمسا من البنات . . عزيزة وكريمة أرسلهما الوالد المستنير إلى إنجلترا للدراسة هناك. وأدخل أمينة وعظيمة المدارس بالقاهرة ليتعلما باللغة الإنجليزية. أما فاطمة فقد اختارها الله إلى جواره فى فترة باكرة.

وإذا كان الوالد أسمر اللون ومن الدقهلية فإن الأم من القاهرة . . الوجه صبوح أبيض كفلقة القمر . . الخدود حمراء . . جميلة بمقياس المرأة فى ذلك الزمان . . ودودة محبة لأولادها وزوجها . . عنصر التهدئة فى البيت الذى يقوده الأب الحمش . . وهذه الصفات كلها هى من عند زرقاء اليمامة المصرية والتى عبرت عنها كواحدة من بنات حواء وحسبما نظرت إلى أبيها وأمها.

وكان الوالد «الدكتور السعيد» من الأطباء المشهورين فى أسيوط . . أخلاق وعلم ووطنية . . اندفع يؤيد ثورة ١٩١٩م . . يدعو وينظم ويحرك ويقود. اعتقلته السلطات البريطانية وأبعدته عن أسيوط وعن أسرته لمدة ثلاثة أشهر، ثم أفرجت عنه بعد أن هدأت الأمور.

هذا الوالد الوطنى المستنير المحبوب من عارفيه شجع ابنته «أمينة» على أن تدخل الجامعة، أما أمها فقد أصيبت بأزمة قلبية بعد أن عرفت أن ابنتها تخالط فى هذا المجال الرجال من أساتذة وزملاء، وأنها أيضًا تكتب قصصا اجتماعية وتذهب مع زميلها فى الجامعة «مصطفى أمين» الكاتب الصحفى الكبير فيما بعد إلى مجلة «آخر ساعة» لتنشر محاولاتها فى كتابة القصص الاجتماعية، وأنها تذهب مع زميلها «محمد فتحى» الذى اشتهر - فيما بعد - بأنه كروان الإذاعة، تذهب إلى دار الإذاعة لتجرب حظها مع الهواة فى لقطة أو لقطتين. الوالد ابن الدقهلية كان يسمح بالاختلاط - تحت الرقابة - والوالدة الجميلة ابنة القاهرة لا تسمح بشىء من هذا . .

رقابة أو غير رقابة . والداهية الكبرى عندما سمعت صوت ابنتها فى الإذاعة تلقى بعض قصصها . . يا عيب الشوم! وكانت الأزمة القلبية للأم طبعًا!

وأحلى ما سمعته وقرأته ما قالته وكتبته «أمينة السعيد»، وهى تتحدث عن والدها . . تتحدث معجبة ومنبهرة وفخورة . . تتحدث عن هذا الوالد الحمش المستنير . . تقول عن نفسها إنها كانت شقية تريد أن تفعل كل ما يفعله الأولاد تجرى و«تتنطط» وما عيب إلا العيب . رأت الأولاد فى أسيوط يلعبون الكرة الشراب وسألت ولدا منهم عن مصدر هذه الكرة العجيبة فقال لها: «هاتى شراب وسأصنعه كرة» كانت صغيرة فأخذت جورب والدها الذى حوله الولد إلى كرتين. وفجأة سأل الوالد عن جوربه فقدمت له الطفلة «أمينة» الكرتين وتوقعت علقة ساخنة من الوالد الذى تحول جوربه إلى كرتين. وفوجئت بالوالد يبتسم، وفوجئت به أكثر وهو يعود إلى البيت ومعه كرتان . . واحدة لها وأخرى للولد الذى حول جوربه إلى كرة. هذا الوالد هو الذى صنع من الطفلة «أمينة» الكاتبة الصحفية الكبيرة «أمينة السعيد».

أســـيوط :

وإذا كان والدها قد ترك فى نفسها هذه الآثار التى تحدثت عنها ، فإن مدينة أسيوط تركت عندها انطباعات طيبة وعظيمة . والذين اقتربوا من «أمينة السعيد» كانوا ينقلون عنها اعتزازها بأسيوط وبالفترة التى عاشتها هناك طفلة وحبيبة إلى أن أخذها والدها إلى مدينة القاهرة وأدخلها مدرسة فى شبرا كان التعليم بها باللغة الإنجليزية. كانت تنظر إلى أسيوط على أنها مدينة لها تاريخ أقامها قدماء المصريين وأطلقوا عليها اسم «سيوط»، وقد أضاف العرب إلى الاسم حرف الألف فأصبحت أسيوط . وكان يسكنها فى عهد الفراعنة نائب الملك لأنها عاصمة الوجه القبلى.

أهم من ذلك كله ما روته «أمينة السعيد» عن شهامة أهل أسيوط مع الأسرة فى فترة اعتقال والدها وكان طبيبا وطنيا محبوبا من أهل أسيوط . كان أصدقاء الوالد يأتون كل ليلة يسهرون تحت شجر اللبخ أمام المنزل يحرسون البيت والأسرة حتى

الصباح ويبدون استعدادهم لتلبية أى مطلب لأسرة طبيبهم الوطنى الذى أحبهم وأحبوه. وتقول «أمينة»: حتى مدير الأمن كان يأتى بين حين وآخر يطمئن على سلامة الأسرة والبيت، ويطمئن على حراسة الأصدقاء لبيت وأسرة «الدكتور السعيد».

وتتحدث «أمينة السعيد» بالود كله عن أسيوط فى ذلك الزمان. . جمالها، ونظافتها، وشوارعها، وعدم ازدحامها، وأشجارها وحدائقها، وأهم من ذلك أهلها وناسها وشهامة الصعايدة إلى أن عاد الوالد من الاعتقال ورد التحية بأحسن منها. أهل أسيوط لهم حق إذن فى نسبة أمينة إلى بلدهم.

فى الجامعـــة:

وكبرت البنت «الشقية» التى تلعب وتتنطط، والتى لعبت الكرة الشراب فى أسيوط ودرست باللغة الإنجليزية فى مدرسة شبرا، وجاء أوان الالتحاق بالجامعة. الوالد متحمس للفكرة وحريص على ألا تتزوج بناته إلا بعد التخرج فى الجامعة. وتمت خطبة «أمينة» إلى شاب خطواته سريعة إلى سلك التدريس بكلية الزراعة ولكن عليه أن ينتظر سنوات أربعا إلى أن تتخرج أمينة فى قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول حسب تعليمات السيد الوالد . . سى السيد المستنير المحب لبناته.

والتحقت «أمينة السعيد» بالجامعة، وكانت أول من شجع البنات المصريات على ممارسة الألعاب الرياضية. وارتدت الشورت وهى تلعب التنس فى ساحة الجامعة، وخلعت غطاء الرأس ولكنها تحرص دائما على كرامة الفتاة المصرية فى التعليم الجامعى.

وإذا كانت قد سعدت بوالدها فقد سعدت أيضًا بخطيبها والذى أصبح زوجها بعد تخرجها فى الجامعة «الدكتور عبد الله» عضو هيئة التدريس بكلية الزراعة. . متفتح مستنير حافظ على عهد أمينة لوالدها وظلا مخطوبين لأربع سنوات حتى انتهت من دراستها الجامعية . . حريص على تعليمها وعملها. كانت عنده سيارة

يقوم بتوصيلها إلى الجامعة أو إلى مجلة آخر ساعة وإلى الإذاعة، ثم يعود بها بعد الانتهاء من مشاويرها. وبعد الزواج كان يناديها دائما بـ «أمينة هانم». ويبدو أن زوجها كان نسخة كربونية من والدها.. الحزم مع الأولاد.. القدوة والإرشاد.. لا ضرب ولا قسوة.. فنجح الأولاد واحتلوا المناصب المرموقة.

وخلال فترة الدراسة كان زميلها في الجامعة «مصطفى أمين» قد قدمها إلى «محمد التابعي» الصحفي المعروف وقت ذلك، فقدمت له بعض القصص الاجتماعية، وقدمها زميلها «محمد فتحي» إلى الإذاعة لتعمل بالقطعة تترجم بعض القصص عن الإنجليزية وتلقيها بصوتها في الميكروفون. وكان خطيبها - الله يستره - يذهب بها إلى مشاويرها ويعود بها إلى بيتها. وهكذا فتح لها «مصطفى أمين» أبواب الصحافة وفتح لها «محمد فتحي» أبواب الإذاعة «وفتح الله لها أبواب الزواج».

وتقول «أمينة السعيد» إنها ليست من صنف النساء المعقدات ضد الرجال دون أسباب معقولة.. فالرجل والدها رباها باستنارة وحرص على تعليمها مع حقه في الإشراف والرقابة، والرجل «مصطفى أمين» أوصلها إلى الصحافة مع الالتزام بحدود الزمالة، والرجل الآخر زميلها «محمد فتحي» قدمها إلى الإذاعة مع الاحترام والمعاملة الكريمة.

إلى العمـــل:

وتخرجت «أمينة» وجاء دور العمل الصحفي والارتباط به.. ووجدت فرصتها في «دار الهلال»، وهنا تشهد «أمينة» لصاحبي دار الهلال «إميل وجرجي زيدان» بالحرص على تولي أمورها ورعايتها وحراستها وتشجيعها وعلى حد قولها على حمايتها من الرجال الذين حسبوا أنها «لقمة سائغة لهم»، وفي مجلة المصور بدأت بباب «اسألوني» الذي لازمها وعرفت به.. ترد على أسئلة القراء وعرفت بسهولة العبارة وصفاء الأسلوب وعذوبة النفس والروح في كل ما تكتب. وأصبحت أول كاتبة بعد «باحثة البادية» تهتم بالشئون الاجتماعية اهتماماً شخصيا متصلا بالحياة العامة. وهكذا دخلت «أمينة السعيد» الصحافة من باب «اسألوني» وزادت الألفة

بينها وبين الصحافة وبين دار الهلال، ترأست تحرير مجلة «حواء»، ورأست تحرير مجلة «المصور» ورأست مجلس إدارة «دار الهلال»، وكانت أول مصرية تزور الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى بحكم عملها الصحفى. وأصبحت وكيلة نقابة الصحفيين وعضوا بالمجلس الأعلى للصحافة. وبعد الإحالة إلى المعاش أصبحت مستشارة لدار الهلال وعضوا بالمجالس القومية المتخصصة، وعضوا بمجلس الشورى لدورتين. وكان من الطبيعى أن تهتم «أمينة السعيد» بالنشاط النسائى، ووجدت عند قائدة النشاط النسائى فى مصر «هدى شعراوى» التقدير والتشجيع وعاونتها فى القيام برحلات مختلفة إلى الخارج كانت أهمها «الرحلة إلى الهند»، وكانت ثمرة تلك الرحلة كتابها المهم «مشاهداتى فى الهند». وقد هزتها الصراعات الدامية بين الهندوس والمسلمين والدماء تسيل من أجل بقرة. وأمينة بطبعها وطبيعتها تنفر من التعصب والخلافات الدينية والعرقية، وهذا السلوك انعكس فى سائر كتبها ومقالاتها وردودها على القراء من الشباب والشابات والرجال والنساء. ومن الكتب التى صدرت لها كتاب «وحى العزلة» و«أوراق الخريف».

وأصبحت أمينة السعيد رائدة ثورية فى مجال الفكر الاجتماعى بصفة عامة، وفى مجال التطور النسائى بصفة خاصة. وكانت ترى أن الزوجة بلا كرامة والزوجة المحرومة من السعادة هى امرأة عاجزة عن العطاء وعن المشاركة فى بناء الوطن. ولم تكن فى تحرير بابها الشهير «اسألونى» مجرد محررة تتلقى الرسائل وتقوم بالرد عليها، ولكنها كانت تشعر بمسئوليتها إزاء حل مشكلات القراء والقارئات. تقوم بالاتصالات الشخصية والتحقق من المشكلات. . ومن هذه الأمثلة حكاية أحد التجار تزوج فتاة تصغره بعشرين عاما شعر بتغير عاطفة زوجته نحوه. فاتصلت «الأستاذة» مباشرة بالزوجة، وتأكدت أنها بريئة من ظنون زوجها فيها . . واتصلت بالجيران وتأكدت من براءة الزوجة، فدعت الزوج وأقنعته بالعودة إلى زوجته، وعاد الزوج إلى زوجته وإلى السيدة «أمينة السعيد» بجوال من الأرز هدية على إصلاحها ذات البين بينه وبين زوجته. ويبدو أن التاجر كان من تجار الأرز. تروى الأستاذة هذه الحكاية وهى تضحك وتؤكد أن ما قامت به جزء من رسالتها الإصلاحية.

البصر والبصيرة:

يقول الذين عملوا معها فى دار الهلال إنها تميزت بالنظرة النافذة والرأى الثاقب. وكان لها من وعيها بالمجتمع وهمومه ما ليس للكثيرات والكثيرين، فإذا سئلت فجوابها عن دراية ورشاد، وإذا كتبت فعن دراسة وسداد صحيح أنها تعلمت وتخرجت فى الجامعة، ولكن دراستها للحياة الاجتماعية وخبراتها العميقة بالمجتمع وأحواله كانت أعظم وأعمق. وكانت لا تعجبها آراء وأقوال وأفكار متسرعة من بنات جنسها. اقترحت إحداهن مرة إحالة المرأة العاملة إلى المعاش وهى فى سن الأربعين. امتشقت «أمينة السعيد» قلمها ووقفت فى وجه تلك الدعوة ووصفتها بأنها تلتقى دون أن ندرى مع الندوة المنادية بعودة المرأة إلى البيت. وكان مما قالته إن الدعوة إلى المعاش للمرأة فى سن الأربعين هى مجرد تأجيل العودة إلى البيت بعد مدة محدودة من العمل. ولم أر قلما أكثر حدة من قلمها ولا صوتا أعلى من صوتها عندما أطلت فتنة بهذا الوطن العزيز. امتشقت قلمها وارتفع صوتها ضد الإرهاب والإرهابيين وضد التطرف والمتطرفين مؤكدة وحدة هذا الشعب العظيم. وقالت إن المتطرفين والمتعصبين يعملون على تقسيم الشعب وفى الوقت ذاته يعملون على تقسيم المصريين إلى رجال ونساء بدعوى التقوى المزعومة وينصبون أنفسهم لتحديد الحلال من الحرام، ويزعمون أنهم قوامون على الدين والدين الصحيح منهم براء. وأعادت إلى الذاكرة أصواتًا ارتفعت فى وجهها عندما كانت طالبة بالجامعة وشاركت فى ندوة عن مسرحية أمير الشعراء «أحمد شوقى» - مجنون ليلى - خرجت الأصوات تقول: «وداعا للحياء» لأن فتاة جامعية شاركت فى الحديث عن مجنون ليلى، وكأن الحديث عن مسرحية مجنون ليلى مقصور على الرجال والطلاب دون سواهم.

وتقول إن الجفوة التى يمكن أن تكون مصطنعة بين الرجال والسيدات أو بين الطلاب والطالبات قد تعود إلى ضيق الأفق. ذات مرة قالت لبعض زملائها فى الجامعة على سبيل رفع الكلفة: بس يا عيال . . فقاطعوها فترة ليست قصيرة. وعاد الصفاء بينهم عندما وافقوا على أن تقول لهم: «يا أولاد».

كانت «أمينة السعيد» من أكثر النساء طلبا لحقوق المرأة وكان لأسلوبها وجرأتها

فى اقتحام الموضوعات أثر هائل فى تشكيل الكيان الاجتماعى، وتحرير المرأة من العادات والتقاليد المتوارثة.

رحم الله أمينة السعيد ابنة وطالبة وأمًّا وأستاذة عظيمة.

الأســـانيد:

١ ـ أمينة صبرى: برنامج الذكريات «صوت العرب».

٢ ـ حازم فودة: نجوم شارع الصحافة.

٣ ـ طاهر الطناحى: حديقة الأدباء.

٤ ـ د. محمد رجائى الطحلاوى ود. يحيى عبد الحميد إبراهيم: من أعلام أسيوط.

٥ ـ الموسوعة القومية للشخصيات المصرية البارزة: «الاستعلامات».

تحيــة كـاريــوكـا ..



تتـفق الأسـانيـد المختلـفة حـول أن «بديعـة مصـابنى» التى وفـدت إلى مصـر من «لبنان» فى مطلع القرن العشرين ، وأقامت «الكازينو» الذى عرف باسـمها بالقرب من «كـوبرى الجـلاء» ، وقـام مـحله الآن «فندق شـيراتون» ، ثـم تزوجت من الـفنان الكبير «نجيب الريحانى» اتفقت هذه الأسـانيد على أن «بديعة مصـابنى» وضعت الكازينو وجميع العاملين والعاملات فيه تحت تصرف قوات بريطانيا والحلفاء طوال مدة الحرب العالمية الثانية «١٩٣٩ ـ ١٩٤٥» .

ومن الطريف أن كازينو بديعة أو «كباريه» بديعة قدم ثلاث راقصات أصبح لهن ارتباطات سياسية بشكل أو بآخر :

* **حكمت فهمى**.. ولدت فى مدينة المنيا عام ١٩١٨م، وكانت قد قامت ـ قبل نشـوب الحـرب ـ برحلة إلى إيطاليـا وألمانيـا والمجـر والنمـسـا ورقـصـت أمـام «موسولينى» زعيم إيطاليا ، وأمام «هتلر» زعيم ألمانيا ، وفى ألمانيا تعرفت بشاب ألمانى أمه مصرية واسمه «حسين جعفر» ، وعندما عادت إلى مصر كـان قد سبقـها «حسين جعفر» جاسوس ألمانيا الذى تعرف إلى «الفريق عزيز المصرى» و«أنور السادات» والطيار «حسن عزت» و«عبد المغنى سعيد» الذى أصبح فيما بعد وكيلا لوزارة العـمل ، وعرفـت عوامة الـراقصة «حكمت فـهمى» اجتـمـاعـات هؤلاء مجتـمـعين أو متـفرقين ، وهم من المواليـن لألمانيا النازية ، ويرغـبـون فى الاتصـال بالألمان فى الصحراء الغربية ثم وقعوا فى أيدى المخابرات البريطانية والبوليس

المصرى وطرد «السادات» و«حسن عزت» من الخدمة، وبقيت «حكمت» فى السجن عامين ونصف العام.

* **سامية جمال** .. ولدت فى مديرية بنى سويف عام ١٩٢٤ . واسمها الحقيقى «زينب خليل إبراهيم محفوظ» ووضع «أنطون بوللى» الإيطالى «سامية جمال» فى طريق «الملك فاروق»، وبدأت ترقص لفاروق إلى أن انتقلت لصداقة «فريد الأطرش» ونترك حكمت فهمى وسامية جمال وننتقل إلى بطلة هذه الحلقة «تحية كاريوكا».

«يحيا الوفد» عنوان ذكى يحمل فى طياته جاذبية كامنة لدى أغلبية الشعب المصرى. ولا ندرى تماما هل كان العنوان من اقتراح «تحية كاريوكا» والتى عرف عنها أنها «تحب الوفد لله فى لله ـ على حد تعبيرها»، أم كان من اقتراح «فايز حلاوة» الذى كان له فى فترة من حياته ارتباط بشباب الوفد؟ على أية حال فإن «تحية كاريوكا» بمسرحية «يحيا الوفد» قد نقلت المسرح من نقد الأوضاع الاجتماعية إلى نقد الأوضاع السياسية، وقد قدمت فرقة كاريوكا هذه المسرحية عام ١٩٧٢ فى أعقاب قرار «أنور السادات» بإبعاد الخبراء السوفييت من مصر. وتدور المسرحية حول «وفد» قادم من دولة «سكسكونيا» ـ المقصود بها الاتحاد السوفيتى ـ إلى مصر، ويستقبل الوفد فى كل مكان يذهب إليه بالولائم على اعتبار أن أعضاء الوفد خبراء فى المشروعات الاقتصادية الكبرى التى ستعود على البلاد بالخير، ولكن العكس هو ما يقع به، فوفد سكسكونيا يستولى على ما فى البلاد من خيرات، وكان لـ «رئيفة» وزوجها «عبد الودود» خروف يطعمانه ليذبحاه فى عيد الأضحى ولكن المسئولين بالقرية يطلبان منهما الخروف ليطعما به وفد سكسكونيا، وقد اعترضت السفارة السوفييتية بالقاهرة على المسرحية وما تخفيه وراءها . . هللت الصين الشعبية للمسرحية ودعت «كاريوكا» وفرقتها لعرض المسرحية على مسارح بكين، ويبدو أن «السادات» لم يتحمس لاعتراض السفارة السوفييتية وزاد الإقبال على مسرحية «يحيا الوفد» . . ويردد المتفرجون . . يحيا الوفد!

الفن والمجتمع:

اتفقت جهود «تحية كاريوكا» و«فايز حلاوة» على تقديم برنامج إذاعى تحت اسم «حكاية كل يوم» لنقد الأوضاع الاجتماعية والسياسية فى المجتمع المصرى «رئيفة وعبد الودود» - بطلا يحيا الوفد - زوجان ريفيان حضرا إلى القاهرة وتصادفهما مشكلات كثيرة . . ويتم عرض هذه المشكلات ، وهذا الأسلوب القريب إلى الناس عرفناه فى الإذاعة المصرية عن طريق الفنان الموهوب «فؤاد المهندس» وبرنامجيه الإذاعيين «كلمتين وبس . . ومش كده والا إيه» .

ويجمع الكثيرون على أن مسرحية «كدابين الزفة» التى قدمتها «فرقة تحية كاريوكا» من أهم مسرحياتها لأنها تمس مشكلات الانتخابات فى الدول النامية وكيف تسود البرامج التهريجية ودور الإدارة فى تغيير إرادة الناس الذين يبحثون عن المرشح الحقيقى الذى يقدم جهوده بإخلاص للقرية ، وحتى الأفلام التى قامت ببطولتها أو شاركت فيها . . الكثير منها كان له لمسات اجتماعية إصلاحية . . «زائر الفجر - إسكندرية كمان وكمان - شباب امرأة» ومسرحياتها أيضًا «البغل فى الإبريق - صاحبة العمارة» وبعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ قدمت مسرحية «التعلب فات» وإذا كانت «تحية كاريوكا» قدمت «كل يوم حكاية» فإننا هنا نقدم حكايتها من البداية .

الحكاية من البداية:

ولدت الطفلة «بدوية محمد أبو العلا النيدانى كريم» ، واختصر الاسم إلى «بدوية كريم» ، وتغير إلى «تحية كريم» واستقر عند «تحية كاريوكا» .

ولدت هذه الطفلة فى ٢٢ فبراير عام ١٩١٩ فى مدينة «الإسماعيلية» ومدينة الإسماعيلية أخذت اسمها عن «الخديو إسماعيل» منذ الاحتفالات الأسطورية بمناسبة افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ ، وأصبحت هذه المدينة الحديثة مقرًا لشركة قناة السويس ، وأصبحت الإسماعيلية مدينتين . . الأولى الحى الإفرنجى . . والثانية الحىّ العربى . .

الحى الإفرنجى . . الشواطئ الجميلة . . الفيلات بحدائقها البديعة . . الشوارع

النظيفة . . الهدوء الساحر تتخلله أصوات أمواج البحر وهى تتكسر على الشواطئ. حتى المبانى من الداخل تلمس فيها آثار الأيادى الأجنبية التى سكنت المدينة . . و«الحى العربى» سكانه من الفئات الشعبية . . محدودة الدخل . . ومظاهر التواضع فى كل شىء . . الدخل . . التعليم . . المستوى الاجتماعى .

فى هذا الحى العربى رأت الطفلة «بدوية» النور ، إذا كان فى هذا الحى المتواضع نور . . وكان والدها «محمد أبو العلا النيدانى كريم» ينحدر من أصول حجازية جاء إلى مصر واستقر فى «الإسماعيلية» ، وكان البحر مهنته . . دائم التنقل والسفر من بلد لآخر . . تزوج سبع مرات . . ولم تكد «بدوية» تحبو حتى غاب الأب ولم يعد . . وتكفلتها جدتها لأبيها . والإخوة الأشقاء لا حيلة لهم . . و«أحمد» أخ غير شقيق متزوج من سيدة «مالطية» وفى حاجة إلى خادمة . . وكانت هذه الخادمة هى «بدوية» وتفنن «أحمد والمالطية» فى تعذيب «بدوية» وأذاقوها الأمرين .

وكانت وهى صبية فى الإسماعيلية قد تعرفت براقصة سورية «سعاد محاسن» وإزاء العذاب الذى عاشته «بدوية» لم يكن أمامها سوى الهرب إلى القاهرة ، وذهبت إلى شارع «عماد الدين» تبحث عن الراقصة «سعاد محاسن» ، وعرفت أنها نقلت نشاطها إلى الإسكندرية فسافرت إليها وألحقتها بفرقتها ، وبعد فترة تدريب عرفت «بدوية» طريقها إلى «بديعة مصابنى» وفرقتها بالقاهرة .

مع بديعة مصابنى:

وانبهرت الفتاة «بدوية» بالأضواء والأسماء فى فرقة بديعة . . التى تضم «فريد الأطرش ومحمد عبد المطلب وعبد العزيز محمود ومحمد فوزى والموسيقار محمود الشريف» ، وقد سبقتاها فى مجال الرقص عند بديعة : «حكمت فهمى وسامية جمال» وكانت بديعة مصابنى قد اختارت لها اسم «تحية» بدلا من بدوية وأصبح اسمها «تحية كريم» نسبة إلى جدها الأكبر «كريم» ولكن الراقصة الجديدة كانت طموحة وتريد أن تصبح شيئًا مرموقًا بين زميلاتها فى الرقص ، وشاهدت فى أحد الأفلام الأمريكية رقصة شعبية برازيلية وطلبت «تحية» من مصمم الرقصات الإسبانى «ديكسون» فى فرقة بديعة أن يدربها على الرقصة التى شهدتها وكانت

معروفة باسم «رقصة الكاريوكا» ونجحت «تحية» فى أداء هذه الرقصة، وقابلها الجمهور بالإعجاب، وكان الجمهور يطلب منها هذه الرقصة وعرفت «تحية كريم» باسم «تحية كاريوكا»، وشعر الناس بأن هذه الرقصة قريبة إلى الحس الشعبى المصرى، وشعر بأن «تحية كاريوكا» أوجدت شخصية مصرية للرقص الشرقى، وشعرت «تحية كاريوكا» بأنها أصبحت رمزًا للرقص المصرى، وقال عنها «محمد عبد الوهاب»: «لقد نجحت تحية كاريوكا فى أن تجعل للرقص والراقصة احترامًا اجتماعيا لم يكن موجوداً قبلها» وقال «المفكر الكاتب الفلسطينى إدوارد سعيد» عبارة مهمة لتفسير: «إن تحية كاريوكا مثل أم كلثوم، تحتل موقع الرمز المرموق فى الثقافة الوطنية».

ويبدو أن نشأة «تحية كاريوكا» وصعودها من قاع المجتمع وما لقيته من قسوة، فى الحياة ورغبتها الجياشة فى أن تكون شيئًا وإعجابها الشديد بمحمد عبد الوهاب وأم كلثوم . . شكلت العناصر البارزة فى شخصيتها . . النزعة الإنسانية - الانحياز للفئات الشعبية - الحس الوطنى - الاعتزاز بالكرامة الفردية - السعى إلى التعرف برموز المجتمع السياسية والثقافية والفنية - والاعتداد بذاتها لدرجة كبيرة . . والإدراك الصحيح لقيمتها الفنية.

ليست مجرد راقصة:

كانت راقصة . . نعم، ولكنها شخصية معتزة بنفسها، منفردة فى تصرفاتها، عام ١٩٥٦ سافرت إلى مهرجان «كان» السينمائى الدولى، وشاركت مصر فى المؤتمر بفيلم «شباب امرأة» الذى أخرجه «صلاح أبو سيف» واشترك معها فى التمثيل: «عبد الوارث عسر، وشكرى سرحان، وشادية»، وكانت المفاجأة فى المهرجان أن ظهرت «تحية كاريوكا» بالملاية اللف ومشت بين الفنانات والفنانين معتزة بالملابس الشعبية للمرأة المصرية.

وحدث ذات ليلة، فى كازينو بديعة أن أشار إليها «النبيل عباس حليم»، وبينما هى تسير فى الطريق إليه - لأنها كانت تعتز بمجالسة كبار القوم - أن أمسك بيدها شاب قائلا لها: «تعالى يابت»، وفورا جذبت يدها من يد الشاب وعاجلته بصفعة

على وجهه وهى تقول: «البت دى أمك!»، واتضح أن هذا الشاب هو أمير ابن الأميرة «عين الحياة».

وحدث فى إحدى حفلات القصر . . أن رقصت أمام «الملكة فريدة»، ثم جاء من يبلغها أن الملكة الأم «نازلى» تطلبها للرقص أمامها . . فقالت «تحية»: «لقد رقصت أمام ملكة مصر . . ومش هارقص تانى!» واعتذرت متعللة بوعكة ألمت بها . . وانصرفت على الفور.

وسافرت إلى أمريكا عام ١٩٥٣ . . وبعد أن عادت دعت إلى إقامة «شهر الفنانين» يخصص كل عام لجمع الأموال لحساب «صندوق الفنانين»، وكانت قد سافرت إلى أمريكا مع زوجها الضابط بقوات الحلفاء إبان الحرب العالمية الثانية.

وعام ١٩٥٥ جرى انتخاب أعضاء مجلس نقابة الممثلين، وحصلت «تحية كاريوكا» على أعلى الأصوات، وعلق «سلامة موسى» على هذا الحدث فى «جريدة الأخبار»: «انتخبت نقابة الممثلين الراقصة تحية كاريوكا وأعطتها من الأصوات ما لم تعطه لأشهر الممثلين من الرجال . . وكان عجبًا أن تنال إحدى راقصاتنا كل هذه الثقة من طائفة تحوى أزكى العقول وأرقى الإحساسات».

١٠٠ يوم فى السجن:

فى أزمة مارس ١٩٥٤ امتلأ «سجن قره ميدان» أو سجن مصر كما يسمونه بالمسجونين السياسيين على توجهاتهم المختلفة . . إخوان مسلمين . . شيوعيين . . وفديين . . وتحرك البوليس لإلقاء القبض على الضابط «مصطفى كمال صدقى» وعلى زوجته الفنانة الراقصة «تحية كاريوكا»، وتم الاستيلاء فى منزلهما على أسلحة ومنشورات تهاجم الدكتاتورية وتدعو إلى الديمقراطية، وقيل إن الاتهام الموجه إلى صدقى وتحية هو «التآمر على قلب نظام الحكم»، وقرر «مصطفى كمال صدقى» أن زوجته «تحية كاريوكا» لا تعلم شيئًا عن المضبوطات، المهم أن «تحية كاريوكا» أودعت عنبر النساء فى سجن مصر وأودع «مصطفى صدقى» عنبر ج الخاص بالمسجونين السياسيين. وكان بدورة المياه فى سجن النساء نافذة، ومن هذه النافذة

ومن بين حواجزها الحديدية تطل «تحية كاريوكا» وأسفل النافذة يقف المسجونون السياسيون والعاديون للحديث مع تحية وعرض أية معونات فى حاجة إليها ولا يخف التجمهر أسفل نافذة سجن النساء إلا عندما يقبل زوجها «مصطفى صدقى» لتبادل الحديث مع زوجته .

وعرف عن «تحية كاريوكا» أنها كانت متماسكة وباسمة وضاحكة وشجاعة فى مواجهة فترة السجن ، وقد قامت فى سجن النساء بنشاط لمحو أمية المسجونات فى قضايا مختلفة ، وكانت محبوبة منهن ويعملن على راحتها وتخفيف قسوة السجن عليها ، وقد برأتها النيابة فى التحقيق وأفرج عنها بعد أن قضت حوالى ثلاثة أشهر ، وأما «مصطفى كمال صدقى» فقد بقى لقضاء الحكم عليه بالسجن خمس سنوات .

مصطفى كمال صدقى:

ضابط من القوات المسلحة المصرية ، ممشوق القوام ، رياضى الجسم ، يحرص على أناقته حتى فى بدلة السجن ، حاد الطباع ، عصبى المزاج ، نابليونى الخطى ، فى رأسه أحلام الزعامة . . وهذه كلها صفات يستغلها فى التقرب إلى النساء الشهيرات ، مغرور إلى حد أن يعلق عليه الآخرون نشاطهم السياسى وهو لا يعترض ، وهذا ما فعله «الضباط الأحرار» معه . . كانوا يصدرون المنشورات ويدسون اسمه على «الملك فاروق» على أنه هو صاحب هذه المنشورات ، وكان هذا يتم عن طريق «أنور السادات» صديق الطبيب «يوسف رشاد» المقرب إلى الملك ، وعن طريق الحسناء الجميلة «ناهد رشاد» المقربة أكثر إلى الملك ، نسجت حول «مصطفى صدقى» أقاويل كثيرة . . إنه يريد أن يسقط الملك من عرشه . . إنه اشتراكى التوجه! إنه ديمقراطى النزعة! إنه عضو فاعل فى أحد التنظيمات الشيوعية السرية . . هكذا قال بعض أعضاء التنظيم الشيوعى الذى ضبطت منشوراته فى منزل «صدقى وكاريوكا» ، ونحن هنا نكتب للتاريخ ولا حيلة لنا فيه . . لم يكن «مصطفى كمال صدقى» أكثر من «مغامر» يحتسى الخمر لايكاد أن يفيق ، يتعاطى الحشيش وتدور أحلامه مع الدخان الأزرق ، يقتنص النساء كما يقتنص الدبور الفراشات . . وفى النهاية كان عضوا فى «الحرس الحديدى» الذى يستخدمه الملك

فى اغتيال الزعامات الوطنية . . مريض بالشهرة الكاذبة . . لم يكن ديمقراطيا ، ولا اشتراكيا ، ولا يحزنون . . كان فقط «الزعيم مصطفى كمال صدقى» يطرب وينتفخ لكل من يبيع له الأوهام .

وفى يونية عام ١٩٥٧ تقرر تجميع المسجونين المعارضين للنظام من إخوان وشيوعيين ووفديين ومستقلين بمعتقل الواحات الخارجة ، ومررنا على ليمان طرة فى صباح المجزرة التى قتل فيها اثنان وعشرون من الإخوان ، ووصلنا معتقل الواحات الخارجة ليقيم فى كل خيمة عشرة أو أكثر من المسجونين ، وكان مكانى فى الركن الأول على اليمين من الخيمة ، وفى الركن المقابل آخر الخيمة على اليمين مكان العامل المناضل المثقف الصلب الناضج «أحمد طه» ، وفجأة وجدنا أمام باب الخيمة «مصطفى صدقى» ومعه إدارة المعتقل . . يسألون . . أين مكان «مصطفى بيه» ، وقد رفض المسجونون السياسيون جميعًا أن يكون معهم «مصطفى» ، وتذكرت مجزرة ليمان طرة ، التى لم تبرد الدماء فيها بعد . . ونظرت إلى «أحمد طه» . . وقلنا فى صوت واحد . . «مصطفى يختار فى خيمتنا المكان الذى يعجبه» ودخل «مصطفى» وفوتنا احتمال أى طارئ قد يصل إلى ما حدث فى ليمان طرة ، وفى منتصف عام ١٩٥٨ تركت السجن بعد خمس سنوات يوما ينطح يوما ، وبعدها خرج «مصطفى كمال صدقى» تنهش فى جسده الأمراض النفسية والبدنية إلى أن توفاه الله إلى رحمته .

وبقيت كلمة:

وفى مايو عام ١٩٥٤ خرجت «تحية كاريوكا» من السجن ، وحصلت على الطلاق من «مصطفى كمال صدقى» ، وإلى أن توفيت إلى رحمة الله فى سبتمبر عام ١٩٩٩ كانت قد قدمت عددا من المسرحيات ذات المضمون الاجتماعى والسياسى ، وشاركت فى «١١٦» فيلما على مستوى البطولة أو الأدوار الأخرى . . فى أعمال كتب قصصها وأعد حوارها نخبة من مشاهير الكتاب منهم : «بيرم التونسى ـ يوسف جوهر ـ يوسف وهبى ـ صالح جودت ـ محمد عبد الحليم عبد الله ـ إبراهيم الوردانى ـ بديع خيرى ـ كمال سليم» .

وأخرجها مشاهير المخرجين منهم : صلاح أبو سيف - يوسف شاهين - عاطف سالم - حسين كمال - حسن الإمام - على بدرخان - حسام الدين مصطفى» ، وشاركت فى التمثيل مع كبار الممثلين . . رحم الله من رحل وغفر له . . وأطال عمر من بقى على ظهرها ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

الأسانيد:

١ - أنور السادات . . البحث عن الذات .

٢ - سليمان الحكيم . . تحية كاريوكا بين الرقص والسياسة .

٣ - طارق الشناوى . . فنانة لا تعرف الماكياج .

٤ - عبد المنعم عبد الرءوف . . مذكرات .

٥ - محمد كريم «مذكرات» . . إعداد محمود على .

الدكتورة درية شفيق



هذه قصة امرأة مصرية تمتعت بوعى إنسانى شكلته القيم الإسلامية والإنسانية وصحوة الهوية القومية، كانت حياتها مثيرة. أبحرت بين أمواج متلاطمة ولكنها استطاعت أن تبحر وتسمع صوتها فى الداخل والخارج. اتصلت بالأميرة شويكار والأميرة فايزة و«الملكة نازلى» فى الوقت نفسه كانت أمها حفيدة الحسيب النسيب «حسين القصبى» من طنطا والذى تقدم صفوف ما عرف (بالطبقة الثالثة) من الوفد المصرى . . وأعلنت «درية شفيق» عن برنامج طموح للإصلاح الاجتماعى، وسارت فى خدمة النساء العاملات والمحتاجات وافتتاح كافيتريا تقدم وجبات ساخنة مدعومة للنساء العاملات، وافتتحت مكتبًا لتشغيل طلبة الجامعة وأنشأت مدرسة فى بولاق لمحو الأمية بين النساء.

وداخل (بنت النيل) المجلة والاتحاد وقفت بين طرفين متعارضين المحامى الشاب الماركسى «لطفى الخولى» الذى تولى سكرتارية تحرير المجلة، وكان يكتب لدرية مقالاتها . . وبين «الدكتور إبراهيم عبده» أستاذ الصحافة المعروف والذى اعترض على تعاونها مع «لطفى الخولى». وقابلت رؤساء الهند وسيلان والعراق وإيران وباكستان وهذا لم يمنعها أن تندد بالرئيس الباكستانى عندما اتخذ زوجة على زوجته «هاجمها الأصوليون» لأنها غربية التعليم والمظهر. ولكنها فى مذكراتها أكدت : (أن الإسلام الصحيح لا يضع العراقيل أمام حقوق المرأة . . وعندما كانت تحزم حقيبتها للسفر كان يرافقها فى سفرها . . القرآن). ولم ترحمها الصحافة فى مصر . . أطلقت عليها (الزعيمة المعطرة) و(زعيمة المارون جلاسيه) و(عارضة

الأزياء). فى فبراير عام ١٩٥٧ بدأت الإضراب عن الطعام فى السفارة الهندية بالقاهرة، وأعلنت لأجهزة الإعلام الدولية احتجاجها على (دكتاتورية جمال عبدالناصر)، وطالبت باستقالته. وأطلقت عليها (إذاعة مونت كارلو) لقب (الرجل الوحيد فى مصر!) ووقف إلى جانبها الرئيس الهندى «نهرو»، وظل على اتصال بجمال عبد الناصر والسفارة الهندية.

الزعيم البانديت جواهر لال نهرو، رئيس الهند اتصل بجمال عبد الناصر فى ٦ فبراير عام ١٩٥٧ م يطلب عدم السماح بالتعرض للدكتورة درية شفيق إذا ما رغبت فى الخروج من السفارة الهندية بالقاهرة. وأبلغ «نهرو» سفيره فى القاهرة أنه يعتبر «الدكتورة درية شفيق» ضيفة على السفارة وإذا مارغبت فى الانتقال إلى المستشفى أو إلى أى مكان آخر أن تنقل فى سيارة تابعة لسفارة الهند وفى ر عاية السفير.

هكذا كان موقف «نهرو» والقصة الكاملة كالتالى: فى عصر يوم الأربعاء ٦ فبراير عام ١٩٥٧ دخلت «الدكتورة درية» السفارة الهندية على بعد خطوات من مسكنها بالزمالك.. وأرسلت بيانًا لـ «جمال عبد الناصر» جاء فيه.. (نظراً للظروف العصيبة التى تمر بها مصر قررت بحزم أن أضرب عن الطعام حتى الموت. وأنا كمصرية وكعربية أطالب السلطات الدولية بإجبار القوات الإسرائيلية على الانسحاب فوراً من الأراضى المصرية. وأطالب السلطات المصرية بإعادة الحرية الكاملة للمصريين رجالاً ونساء وبوضع حد للحكم الدكتاتورى الذى يدفع ببلادنا إلى الإفلاس والفوضى، واخترت السفارة الهندية لأن الهند بلد محايد ولن (أتهم بأننى فضلت معسكراً ما).

واستشاط «جمال عبد الناصر» غضبًا لأن الشرطة المصرية لا تستطيع أن تدخل السفارة الهندية للقبض على «درية». وقد أفردت الصحافة الأجنبية مساحات واسعة لإضراب درية ومطالبتها بإنهاء الدكتاتورية فى مصر، وخرجت «لندن تايمز» بعنوان (المدافعة المصرية عن حقوق المرأة تضرب عن الطعام فى السفارة الهندية). أما الصحيفة الألمانية (دى فليت) خرجت بعنوان (امرأة من وادى النيل ترفع راية المقاومة ضد عبد الناصر).

وقالت «أمينة السعيد»: «دخلت درية شفيق السفارة فجأة ودون إنذار مسبق،

وأعلنت عزمها الإضراب عن الطعام حتى الموت إذا لم يتنح الرئيس عن الحكم . . ولحظة وصولها، كان بهو السفارة يعج بالصحفيين الأجانب الذين اتصلت بهم قبل وصولها» . وقال السفير الهندى : «جاءت إلى السفارة وكانت تحمل فى يدها مصحفًا كبيراً» . وبناء على نصيحة زوجها «الدكتور نور الدين رجائى» والتماسات ابنتيها «عزيزة وجيهان» واطمئنانها إلى تدخل «نهرو» نقلوها إلى مستشفى عبد الوهاب مورو فى سيارة تابعة للسفارة الهندية واستمرت فى الإضراب لمدة ١١ يومًا . وفى ١٧ فبراير حملوها إلى بيتها وتحت ضغط الأسرة أنهت إضرابها . وقيدوا خطواتها واختفت درية من الذاكرة العامة حتى مأساة موتها فى ٢٠ سبتمبر عام ١٩٧٥م .

مأساة الرحيل:

كان زوجها د . نور الدين رجائى معروفًا بتعاطفه مع الوفد، وفى فبراير ١٩٦٧م داهمت الشرطة منزل «درية شفيق» للقبض على زوجها «د . نور الدين رجائى» بتهمة اشتراكه فى مؤامرة ضد «عبد الناصر» ولم تعرف الأسرة مصيره لمدة ٤ شهور . وفى مايو عرفوا أنه نزيل ليمان طرة . . وتصدعت العلاقة الزوجية بين الدكتورة درية والدكتور نور الدين . وفى ٢١ أكتوبر عام ١٩٦٨ دخلا محكمة عابدين للأحوال الشخصية . وتم الطلاق وانتهى الزواج . والتقيا فى عرس ابنتيهما «عزيزة وجيهان» . ومنذ عام ١٩٦٩ عانت «درية» من وحدة حقيقية . . البنتان تزوجتا وتركتا البيت . والزوج ترك البيت بعد الطلاق . وأخذت «درية» تشغل وقتها بالترجمة لبعض موضوعات ترسلها إليها مراكز البحوث، ثم تتسلم هذه المراكز الترجمة لقاء المكافآت . وأخذت تنجز بعض الكتب وتجمع أشعارها فى دواوين . وخفت القيود عنها بعد وفاة «عبد الناصر»، فكان جيرانها يرونها تخرج لتمشى على ضفاف نيلها المحبوب ثم تعود . وبعد أن رفعت قيود السفر إلى الخارج سافرت فى يونيو عام ١٩٧١ إلى كاليفورنيا لتحضر مولد حفيدها الأول «شريف» من ابنتها «عزيزة» . وفى عام ١٩٧٥ سافرت ابنتها الثانية إلى إنجلترا . . وعانت «درية» عزلة حقيقية وأصيبت بالاكتئاب، وكان يعالجها «الدكتور أحمد عكاشة» .

وفى ٣٠ سبتمبر ١٩٧٥ عاد اسمها إلى الصفحات الأولى من الجرائد المصرية

تحمل خبر انتحار «الدكتورة درية شفيق». قال «مصطفى أمين»: عدت إلى دارى بعد أن تناولت الغداء فى واحد من الفنادق. وفى مدخل المبنى رأيت جمعًا من الناس يحيطون بملاءة بيضاء، وتحت الملاءة وجدت جثة جارتى «درية شفيق» تلك المرأة التى ملأت الدنيا ضجيجًا وبيانات.

فى ظلال السيد البدوى:

نعود إلى البداية . . ولدت فى ١٤ ديسمبر ١٩٠٨ وهى ثالثة أطفال «أحمد شفيق ورتيبة ناصف» وثانية بناتهما. ولدت فى طنطا فى بيت جدتها لأمها، الأب والأم من طنطا والجدة من بيت «حسين القصبى» الحسيب النسيب ومن أعيان طنطا. وكان والد درية مهندسًا بالسكة الحديد. وعام ١٩١٣ سبقتها أختها «ثريا» إلى طنطا. وعام ١٩١٥م أرسلها أبواها إلى طنطا. وعاشت درية مع جدتها والتحقت بمدرسة الإرسالية الفرنسية. وكانت الخادمة «زينب» تصحب «درية» إلى مولد «السيد البدوى»، وتحركت مشاعرها الدينية فى مولد المتصوف الإسلامى الذى يرجع تاريخه إلى القرن الثالث عشر الميلادى الذى ولد فى المغرب وسليل أسرة من مكة. واستقر به المقام فى مدينة طنطا واعتقد الناس فى قدراته الخارقة على الشفاء وتوافدوا ومازالوا يتوافدون بالآلاف كل عام فى شهر أكتوبر على مولده. وتقول فى مذكراتها: «اصطفت على جانبى الطريق تلال الحمص فى هيئة أهرامات صفراء، وعلى الأرصفة بائعو السمسمية والحلوى والفتيان يرتلون الآيات القرآنية. وأجلس أستمع إلى الإنشاد الدينى ولم أكن قد سمعت تلك التواشيح من قبل. بدت وكأنها تنبثق من أعماقى . . وشعرت برحمة الله التى لا حدود لها»، وعن شهر رمضان تقول: «كان للترتيل مذاق الحياة نفسها كثيرًا ما كنت أجلس على الأريكة. وما أن يرتفع الصوت بالكلمات المقدسة حتى يسود الصمت. كنت أحب أن أسمع سورة مريم وأنصت إليها بفيض من العواطف»، وعام ١٩٢٠م توفيت أمها وهى تلد وفسخت درية خطبتها من قريب لأمها واستقر الوالد فى القاهرة وثريا ودرية فى طنطا مع جدتهما. ونقل والدها عام ١٩٢٤م، فانتقلت «درية» إلى الإسكندرية مع والدها، والتحقت بمدرسة «القديس فنسان دى بول» التابعة للإرسالية الفرنسية.

نحــو النـــور:

حصلت على شهادة البكالوريا الفرنسية. وسعت إلى مقابلة «هدى شعراوى» بالقاهرة، وألقت كلمة فى الاحتفال بالذكرى العشرين لرحيل قاسم أمين (١٨٦٣ ـ ١٩٠٨)، ومنحتها الوزارة منحة للتعليم فى فرنسا، وفى شهر أغسطس عام ١٩٢٨م أبحرت مع إحدى عشرة فتاة مصرية من الإسكندرية إلى أوروبا. ورغبت فى دراسة الفلسفة وعارض المكتب المصرى فى باريس فكتبت للدكتور «طه حسين»، ووافقت الوزارة على رغبة «درية»، وأخذت تدرس (الفلسفة والاجتماع والأمراض العقلية!) وبدأت تكتب الشعر بالفرنسية. وقرر المكتب المصرى إنهاء المنحة وإعادتها إلى مصر «وتحدت قرار المكتب وقررت أن تواصل الدراسة على نفقتها. ونزلت فى (الدار الدولية ٩٣ شارع سان ميشيل)، وهى دار عرفت بالالتزام والدقة. وعاشت على وجبة واحدة فى اليوم، فتراجع المكتب وأعاد لها المنحة الدراسية مع موافقته على إقامتها (بالدار الدولية) لحسن سمعتها.

ثم حصلت على ليسانس الدولة بمرتبة الشرف والدرجات الكاملة وكتبت إلى «هدى شعراوى»، وعادت إلى مصر عام ١٩٣٢م، ونشرت عنها مجلة (الإجيبسيان ـ المصرية) حديثًا أجرته معها «سيزا نبراوى» التى كانت ترأس التحرير. ثم عادت إلى باريس لتستأنف دراستها وأقامت أيضًا فى (الدار الدولية). وكانت قد انفصلت عن «أحمد الصاوى محمد» بعد ثلاثة أشهر من زواج غير ناجح، وعام ١٩٣٧ كان ابن خالتها «نور الدين رجائى» فى باريس للحصول على الدكتوراه فتزوجا وهى تكبره بسبع سنوات، وتم كتب الكتاب فى القنصلية المصرية وسافرا إلى لندن لقضاء شهر العسل. وقالت عن هذا الزواج: «كان زواجى فى باريس وحدى وفى غياب الأسرة بلا مهر ولا شروط مادية هو فى نظرى التحرر من العادات البالية التى حولت المرأة المصرية إلى جارية». وعام ١٩٣٩ انتهى «نور» من رسالته وعاد إلى القاهرة ليشغل وظيفة مدرس بجامعة فؤاد الأول. وتقدمت هى فى باريس برسالتها عن (حقوق المرأة فى الإسلام)، وعادت إلى مصر فى أغسطس ١٩٣٩. وقال الأستاذ الفرنسى المناقش للرسالة: «لقد نجحت فى تصحيح أفكارنا عن الإسلام، ولك أن تعتبرى نفسك المدافعة عن المرأة المسلمة عامة وعن المرأة المصرية خاصة». وقام «د. نور» بالتدريس فى كلية الحقوق بالقاهرة. وعادت مرة

أخرى إلى باريس فى فبراير عام ١٩٤٠ ، للحصول على الدكتوراه فى مارس عام ١٩٤٠ م، ورفض «الشيخ أحمد أمين» وكان عميداً لكلية الاداب أن يعينها لتدريس الفلسفة فى الكلية بحجة أنه لا يستطيع أن يعين امرأة جميلة للتدريس بالكلية!

كفاح المرأة الجميلة:

ويسبب جمالها ودخولها فى صراعات مختلفة أطلقنا عليها هنا لقب (كيلوباترا الجديدة)، فهى جميلة مثل كليوباترا وخاضت غمار الصراعات مثل كليوباترا. لم تعمل مدرسة بكلية الآداب وتم تعيينها مفتشة للغة الفرنسية بوزارة المعارف. وفى الاتحاد النسائى الذى شكلته «هدى شعراوى» شعرت بالمؤامرات النسائية - على حد تعبيرها - تحاول أن تبعدها عن «هدى شعراوى» وبعناد شديد وعزيمة قوية اتجهت إلى تأسيس اتحاد نسائى وحزب سياسى ودخلت غمار الصحافة. وكانت طموحاتها قد تفجرت فى ثورة ١٩١٩ م فأسست (بنت النيل) اتحاداً نسائيا ومجلة بالعربية اشترك فيها «الدكتور إبراهيم عبده ولطفى الخولى» وكانا دائمًا فى صراع وخلاف. وأصدرت عدة كتب. . (المرأة الجديدة فى مصر بالفرنسية - والمرأة المصرية من الفراعنة إلى اليوم - ورحلتى حول العالم). وكتبت الشعر بالفرنسية الذى صدر فى عدة دواوين فى باريس. ولجأت إلى أسلوب الإضراب عن الطعام. وطالبت بالمساواة السياسية الكاملة بين الرجل والمرأة. ودعيت لإلقاء المحاضرات فى مصر وأمريكا. كما أصدرت مجلة (الكتكوت) للأطفال عام ١٩٤٦. وفى ١٢ مارس ١٩٥٤ أعلنت فى نقابة الصحفيين ومعها ٨ عضوات من اتحاد بنت النيل الإضراب عن الطعام احتجاجًا على استبعاد النساء من عضوية اللجنة الدستورية. وعام ١٩٤٥ م أصدرت (مجلة المرأة الجديدة) بالفرنسية بتمويل من «الأميرة شويكار»، وكانت هناك منافسة مكشوفة بين «شويكار وهدى شعراوى» فشن الاتحاد النسائى هجومًا على «درية» بتوجيه من هدى شعراوى وهاجمتها الناقدة الفنانة الماركسية «إنجى أفلاطون» لعلاقتها بالملكة نازلى. وتوفيت «هدى شعراوى» عام ١٩٤٧م فكثفت «درية» نشاطها النسائى والصحفى لتحتل مكانها. وضمت إلى صفها «سميحة ماهر» ابنة أحمد ماهر و«صفية شكرى» أخت «إبراهيم شكرى» والمحامية مفيدة عبد الرحمن. و«زينب لبيب» أول امرأة عينت فى وزارة الخارجية. وكان

«لطفى الخولى» يدافع عن توجهاتها ودورها وتحولها إلى القضايا الاجتماعية، وعملها لصالح العاملات المصريات. واستمر يعمل فى (مجلة بنت النيل) من أواخر الأربعينيات إلى أوائل الخمسينيات.

سنوات الازدهار:

تقول الباحثة «ثنينشيا نلسون» المحاضرة فى جامعة (كاليفورنيا).. لما عاد (الوفد) إلى السلطة بقيادة «مصطفى النحاس» فى يناير ١٩٥٠ بدت الظروف فى المجتمع المصرى مواتية لظهور نشاط سياسى حاسم، فقد رفع قانون الطوارئ وأتيحت الحرية للأحزاب المعارضة. واستأنفت الحركات الوطنية والمناهظة للاستعمار نشاطها، وبدأت الجامعات تنبض بالنشاط السياسى.. أعلنت درية شفيق عن برنامج طموح للإصلاح الاجتماعى، وبدأت «درية» وزميلاتها بعدد من الأنشطة الاجتماعية والاقتصادية لخدمة النساء العاملات والمحتاجات فى القاهرة.. افتتح اتحاد بنت النيل كافتيريا تقدم وجبات ساخنة مدعومة لنساء الطبقة العاملة، وأنشأت مكتبًا لتشغيل طلبة الجامعة، ونادى بنت النيل لحفلات ثقافية للشباب وندوات لرفع الوعى السياسى لدى المرأة والعمل على محو الأمية بين البائعات. ودعت لمحو الأمية فى حى بولاق الشعبى وفتح لها «الدكتور طه حسين» وزير المعارف أبواب المدرسة الحكومية الابتدائية فى بولاق بعد الظهر. وفى ظل حكومة الوفد بدأ اسم «درية شفيق» ينتشر فى مصر والشرق الأوسط وإن كان اسمها ظل مجهولا بين الفلاحين الفقراء.

عبرات إيزيس:

كتبت بالفرنسية ما يشبه قصيدة النثر (صلاة شكر أو عبرات إيزيس) ما ترجمته إلى العربية: «ألهج بالحمد لله لأننى ولدت.. فى أرض الأسرار.. فى ظلال النخيل.. لأننى عشت فى أحضان الرمال.. حارسة الأسرار.. لأننى شاهدت سطوع قرص الشمس ولأننى شربت من مياه النيل.. ذلك النهر المقدس»، وتحولت أجهزة الدولة منذ عام ١٩٥٧ تحاصر «إيزيس» ذات الحواجب على شكل

رقم (٨٨) كما كانت ترسمها الصحف . . تحدد إقامتها في بيتها وتقبض على زوجها بتهمة الاشتراك في مؤامرة ضد «عبد الناصر»، وتغلق اتحاد بنت النيل وكل المجلات التابعة للدكتورة درية شفيق وكذلك دار النشر . ويصدرون ضدها بيانات ليست عليها توقيعات وإنما عليها أسماء لا يعرف أحد إذا كان أصحاب هذه الأسماء يوافقون على ما جاء في هذه البيانات التي تهاجم «الدكتورة درية شفيق»، أم أنهم لا يعرفون شيئًا . لقد نجحت مجلة (بنت النيل) وعرضت (دار الهلال) أن تشترى المجلة ولكن «د. درية شفيق» رفضت العرض. وأغلق «عبد الناصر» المجلة . واضطرت أن تعلن (نحن لا نطالب بالعمل في السياسة من خلال اتحاد بنت النيل . . كل ما نطالب به هو المساواة في الحقوق السياسية)، ومع ذلك لا فائدة فقد صدرت التعليمات بإغلاق (اتحاد بنت النيل) . كانت معروفة في فرنسا عن طريق أسفارها التي نشرها لها الناشر الفرنسي «بيير سيجير»، أما هنا في مصر فقد حاصروها وأخفوا كل نشاط لها فلجأت إلى دموعها كامرأة تحت اسم (عبرات إيزيس) جدتها الفرعونية القديمة .

وأخيراً هذه واحدة في مسيرة (الحركة النسائية المصرية) التي تقف في طليعتها عائشة التيمورية (١٨٤٠ ـ ١٩٠٤) حسب تقدير «ليلى أبو لغد» بجامعة نيويورك . وحركة نساء مصر تفهم جيداً في ضوء حركة النساء في العالم النامي لـ«حسنة بيجوم» وهذه بدورها ترتبط بدراسة (الحركة النسائية في الغرب) التي بدأت بعام ١٧٩٢ في إنجلترا حسبما نشرته «ميرى واستن» بإنجلترا في كتابها (دفاع عن حقوق الإنسان) . . والحكاية طويلة .

الأسانيد:

١ ـ ثينشيا نلسون . . درية شفيق . ترجمة : نهاد أحمد سالم .

٢ ـ ليلى أبو لغد . . الحركة النسائية في الشرق الأوسط ترجمة : نخبة من المترجمين .

٣ ـ حسنة بيجوم «النساء في العالم النامي» ترجمة : منى قطان .

٤ ـ أرلين علوى ماكليود الاحتجاج الهادئ ترجمة : إكرام يوسف .

(الأسانيد الأربعة) صدرت عن المشروع القومي للترجمة ـ المجلس الأعلى للثقافة .

روزاليوسف



كان فى ذهنى أن أتوقف عن حلقات (هذا الرجل من مصر) فترة معينة من العام لنأخذ عددا من حلقات (هذه المرأة من مصر) . . ولكن الأيام تمضى، والحلقات عن (الرجل) تزحف بفعل القصور الذاتى . . وخطابات القراء والقارئات تنبه إلى أننا لم نكتب بعد عن (المرأة المصرية) . . وأستاذتنا الدكتورة «سهير القلماوى» ـ مد الله فى عمرها ـ تنبه فى رفق إلى الكتابة عن (هذه المرأة من مصر) . . ومرة أخرى تضع أمامى عدداً من الأسماء، ومرة ثالثة تكتفى بأن تبدى إعجابها بما أكتب وتصمت ولكن صمتها يكشف عن أكثر من علامة تأنيب . .

ويعلم الله أننى طوال الفترة الماضية كنت أدون عدداً من أسماء نساء مصر، وأسجل أسماء عدد من المصادر حتى تحين الفرصة إلى أن كانت جلسة لى مع الكاتب الزميل الصديق «جمال بدوى» مدير التحرير، فى الأسبوع الماضى، وعلى مكتبة كتاب لأستاذنا الدكتور «إبراهيم عبده» صدر عام ١٩٦١ عن (روزاليوسف ـ سيرة وصحيفة) . . وأخذت أقلب صفحات الكتاب وأستعيد فى ذاكرتى ما جاء به، والصديق بصوته الهادئ الودود يتحدث عن حلقات هذه المرأة من مصر، وذاكرتى تعود إلى عام ١٩٥٠، عام أن كان «الدكتور إبراهيم عبده» رئيسا لاتحاد كلية الآداب، وكنت «أنا سكرتيرا منتخبًا عن الطلاب لهذا الاتحاد . . وتوقفت عند إهداء بخط يد أستاذنا . . (لولدنا العزيز الأستاذ جمال بدوى مع أصدق التمنيات . . والتوقيع إبراهيم عبده).

ثم استقرت عيناى عند آخر سطور فى الكتاب . . لقد كانت سيدة قدّت من حديد . . لقد كانت سيدة صيغت من الرأفة والحنان . لقد كانت مخلوقًا صلبا وناعما ، لقد كانت سيرة جديرة بكتاب . . وانتهينا إلى عدم الانتظار ، وإلى أن تتواجد سيدة من مصر بين (الرجال) بإذن الله . .

ونختار البداية يوم غروبها رغم أنها كانت ترتاح للشروق ، ومولد اليوم الجديد وإشراقة الصبح المنير . . كانت لها أمنيات ثلاث . . أن تموت فى بيتها وعلى فراشها ، وأن تموت فى لحظة خاطفة دون أن تدركها علة . . وأن تموت دون أن ترى علم هيئة التحرير الأبيض والأحمر والأسود قد احتل مكان علم مصر الأخضر بالهلال والنجوم الثلاثة . . وقد حقق الله لها أمنياتها الثلاث بعد منتصف ليل ١٠ أبريل عام ١٩٥٨ .

ولكن من قال إن علة لم تدركها؟ لقد أصابتها تلك العلة عندما دخل ابنها وتلميذها «إحسان عبد القدوس» السجن الحربى من ٢٨ من أبريل عام ١٩٥٤ إلى ٣١ يوليو من العام نفسه قرابة ثلاثة أشهر ومعه زميله المرحوم «إسماعيل الحبروك» بتهمة العمل على قلب نظام الحكم ، ووجد نفسه سجينا بأمر الأصدقاء الذين ألقوا به للباشجاويش ياسين والأومباشى رزق والعسكرى حميد! وطوال تلك الفترة صدرت مجلة (روزاليوسف) وليس فيها كلمة واحدة عن الثورة أو الثوار ، وكان الضباط الأحرار لم يستولوا على السلطة فى ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ . وكان هذا الموقف بقرار من «روزاليوسف» الأم ، وطوال فترة سجن «إحسان» كانت مقالات (روزاليوسف) موحية وذات دلالة مثل . . الإسلام حرية وشورى ومساواة . . هتلر هل كان مجرما أم بطلا؟ . . المهدى يظهر فى مصر .

وأفرج! «السلطان» عن إحسان وما أن وصل منزله حتى دق جرس التليفون ، فرفع السماعة وهو يتوقع أن تكون المكالمة من أمه . . وبدأ محدثه كلامه قائلا وهو يضحك : هيه . . اتربيت والا لسه يا إحسان . . طيب تعال افطر معايا ماتتأخرش . . أنا منتظرك . لقد كان «جمال عبد الناصر» هو الذى يتحدث .

ومرة أخرى فى العام نفسه ينتزعونه من بيته عنوة إلى السجن الحربى . وأبلغه «أحمد أنور» قائد السجن الحربى : آنذاك أنه متهم بالتآمر على الثورة وشريكه فى

التآمر «ساع» بمجلة روزاليوسف! وليلة أخذوه إلى السجن فى المرة الثانية كانت والدته! «روزاليوسف» عنده فى البيت ولم تعد تحت ضغط كبر السن تحتمل المصائب، فما كادت تراهم يعودون للقبض على ابنها حتى سقطت على المقعد وأصابها تصلب الشرايين الذى توفيت به بعد أربع سنوات . . وعاش «إحسان» يتألم لما سببه لوالدته من صدمات، ويصف «إحسان» ليلة الغروب فى تقديمه للطبعة الثانية من (ذكريات فاطمة اليوسف): دخلت البيت وقد وضعت بين شفتى ابتسامة كبيرة، وفى رأسى بضع كلمات كأنها نكات، لعلها تضحك لها . . إن البيت هادئ . . هدوءا غريبًا . . هدوءا له رائحة، إنها أول مرة أشم فيها رائحة الهدوء . . وخطوات نحو غرفتها . . ثم تراجعت قبل أن أصل . . لا أدرى لماذا . . ولكننى لم أستطع الدخول . . وفى البيت طبيب صديق جاء عفوا، ونظرت إليه لعله يتكلم . . ولكنه لم يقل شيئا . . وسمعت صوتا لا أعرفه . . صوتا غريبا لم التق به من قبل . . صوتا يقول: البقية فى حياتك! وصرخت . . هل أنا الذى صرخت؟ لا أدرى . . إننى لا أرضى ببقية حياة! إما الحياة كاملة، وإلا فلا أريد حياة . . وليس لى حياة كاملة إلا مع أمى . . ويكتب «أحمد كامل مرسى» المخرج الراحل . . تلميذها وصديقها . . (ألقت بجسدها المتعب على الفراش، وإلى جوارها زوجها قاسم أمين وبعض الأطباء . . وظلت شجاعة إلى اللحظة الأخيرة، وهى تعرف أنها تموت، ومع ذلك لم ترتجف أو تجزع أو تحزن، بل ظلت هادئة النفس رابطة الجأش، باسمة الثغر، واسترد الله وديعته فى هدوء ورقة وأناة! دون حشرجة أو تعبًا أو عناء، وحضر الأهل والأحباب، وحضر إحسان وأمال! لكن بعد أن قضى الله أمره.

الأزواج والأبناء:

ونمضى مع الأسرة لنقف على تفاصيل حياتها . . فقاسم أمين زوجها الأخير ليس هو «قاسم أمين» صاحب كتاب (المرأة الجديدة)، فهذا قد توفى قبل وفاتها بخمسين عاما على وجه التقريب . . و«أمال» هى ابنتها من زوجها الفنان الكبير «زكى طليمات» و«إحسان» هو ابنها من زوجها الفنان «محمد عبد القدوس».

ويحدثنا «زكى طليمات» عن لقائه الأول بروزاليوسف لم يكن عجيبًا أن تكون أمنيتى على الأيام أن تتاح لى فرصة لقائها، وجها لوجه، فى أى مكان غير خشبة المسرح، وأخيرا سنحت هذه الفرصة . . إذ قبل أحد الكتاب المسرحيين أن أصحبه فى زيارة لها بمنزلها . . كانت هى الممثلة النابغة بنفسها تفتح لنا الباب، ولا أعرف كيف فتحته، فقد كانت تحمل فى إحدى اليدين سكينا وفى الأخرى فحلا من البطاطس . . ! وجلست أمامنا ترحب بمقدمنا وسكينتها لا تنتهى عن خرط البطاطس . . وانفتح فم السيدة بالكلام: اسمك إيه يا شاطر؟ ولكن الشاطر الذى هو أنا، لم يفتح فمه بالكلام لأن العجب عقد لسانه فى حلقه! ثم فتح الله على الشاطر فذكر اسمه ولقبه . . فإذا الابتسامة على فم الممثلة النابغة تتحول ضحكة صريحة، وأردفت تقول: طيب اسم «زكى» مفهوم . . ولكن سى «طليمات» ده يبقى إيه؟ فأخذت تنظر إلىّ وهى تضحك ثم قالت: تعرف تقشر بطاطس؟ فوجمت وأمسكت عن الكلام فمضت تقول: طيب تعرف تطبخ، فأجبت بالنفى . . فقالت: تعرف ترقص كويس؟ فسألتها عن علاقة المطبخ والرقص بالمسرح فأجابت: لما تعرف العلاقة دى حاتبقى ممثل صحيح . . ! وتركت ورائى الممثلة التى كانت تكلمنى بالألغاز وبسكين المطبخ، ولم أكن أدرى أننا سنلتقى بعد ذلك أمام المأذون لأصبح لها الزوج، والخصم الذى يتبادل معها الدفع بالأكتاف والأيدى فى سبيل إثبات ذاتيته وفرض شخصيته على الآخر .

انتهى كلام الفنان الكبير «زكى طليمات» الذى كان أحد أزواج «روزاليوسف» أما زوجها «محمد عبد القدوس» فهو محمد عبد القدوس أحمد رضوان، وكان «أحمد رضوان» من خريجى الأزهر وعمل رئيسا لكتاب المحكمة الشرعية، وأسرته من (كفر ممونة) قرية شبرا اليمن مركز زفتى محافظة الغربية، وتعرفت «روزاليوسف» عام ١٩١٧ على المهندس الفنان «محمد عبد القدوس» فى حفل أقامه النادى الأهلى وعندما أصر على زواجه من «روز» طرده والده فاستقال من العمل الحكومى وتفرغ للفن. وسرعان ما تم الطلاق وكانت «روز» حاملا فى الشهر السابع بابنها «إحسان» الذى ولد فى أول يناير عام ١٩٢٠ . وأصر «الشيخ أحمد رضوان» على أن ينشأ «إحسان» فى بيته بالعباسية حيث تولت تربيته عمته «نعمات هانم» إلى أن أصبح شابا فقرر أن يعيش مع أمه «روزاليوسف» .

ولكن من هي؟

نشأة غير معروفة على وجه الدقة، ولكنها قاسية مريرة على وجه اليقين. في العقد الأخير - على الأرجح - من القرن التاسع عشر كانت طفلة حلوة جميلة تعيش بين أسرة لبنانية في طرابلس بلبنان. . وذات يوم قرر أحد أصدقاء الأسرة أن يهاجر إلى البرازيل ورغب في أن يأخذ معه الطفلة «روز» وهكذا كانوا ينادونها. . وهنا أسرت إليها المربية «خديجة» أن اسمها «فاطمة» وليس «روز» وأن والدتها «جميلة» توفيت عقب ولادتها، وأن والدها هو «محمد محيي الدين يوسف» وقد سافر إلى «إستنبول» والأرجح أنه توفي هناك.

المهم أن «فاطمة» أو «روز» كانت مع الأسرة الجديدة المهاجرة من لبنان، وعندما رست السفينة في ميناء الإسكندرية لتتزود بالوقود صعد لتحية الأسرة «إسكندر فرج» صاحب الفرقة المسرحية المعروفة وقت ذاك. . وشاهد الطفلة الجميلة فأخذها لتعيش معه على أرض مصر، وتعطي لمصر فنا وصحافة إلى أن ترحل عام ١٩٥٨.

وعاشت الصبية في جو الفن، وفي الرابعة عشرة من عمرها كانت لها صلات بأصحاب تياترو شارع عبد العزيز، وأصبحت تذهب كل مساء إلى دور التمثيل تشاهد الفرق المختلفة وهي تمثل الروايات الشهيرة. وظهر الفنان الكبير «عزيز عيد» في حياتها وذكرياتها تزخر بالعرفان بفضل هذا الفنان عليها بدأت بأدوار الكومبارس، ثم قدمها «عزيز عيد» في دور (الجدة) في رواية (عواطف البنين). . وبزغ نجمها وضمها «عزيز عيد» إلى فرقته التي ضمت أعلام الكوميديا أمثال «نجيب الريحاني» وأمين عطا الله، وإستفان روستي، وحسن فايق، وأمين صدقي، وقدمت هذه الفرقة عملها المعروف (خللي بالك من إميلي) كان ذلك عام ١٩١١. . وعام ١٩١٢ أنشأ «يوسف وهبي» فرقة رمسيس وكانت «روز أو فاطمة اليوسف» بطلة الفرقة وممثلتها الأولى، وانضمت إلى فرقة «نجيب الريحاني» وعملت في رواية تراجيدي. وكان الجمهور قد عرفها بألوان الكوميدي وأطلق عليها لقب (سارة برنار الشرق) فلم يستجب لها في اللون الجديد، فتركت الفرقة واعتزلت التمثيل وهي تردد: (إن الفنان يجب أن يترك المسرح قبل أن يتركه

المسرح). واتجهت بكل إرادتها وعاطفتها وعقلها إلى فن آخر يتطلب ربما معاناة أكثر . . هو الصحافة.

مع سعد والنحاس:

عندما اندلعت ثورة ١٩١٩ كانت «روز» ممثلة مرموقة، وكان المسرح المصرى بعناصره وأسلوبه يتجه فى تلك الفترة لتأييد الثورة الشعبية، والسير وراء زعيمها «سعد زغلول» . . وهكذا كانت الفنون الأخرى . . «سيد درويش» وغيره من أعمدة البناء الثورى فى مصر.

انحازت «فاطمة اليوسف»، دون تردد إلى تأييد «سعد زغلول» . . وفى شهر أغسطس عام ١٩٢٥ كانت تجلس فى محل حلوانى (كساب) - مكان سينما ديانا حاليا - ومعها «محمود عزمى وزكى طليمات وإبراهيم خليل وأحمد حسن» وعرضت عليهم فكرة إصدار مجلة (فنية) واقترح «زكى طليمات» أن يكون اسمها (الأدب العالمى)، وحصلت على ترخيص لمجلة أدبية مصورة باسم (روز اليوسف) ودعت «محمد التابعى» الموظف بمجلس النواب والمحرر الفنى لجريدة الأهرام للتعاون معها . . وبإرادة حديدية صدر العدد الأول من (روزاليوسف) يوم الاثنين ٢٦ من أكتوبر عام ١٩٢٥، وكتب فى الأعداد الأولى «محمد التابعى وإبراهيم عبدالقادر المازنى، ومحمد صلاح الدين، وإبراهيم رمزى، ومحمد لطفى جمعة، وزكى طليمات، وعبد القادر حمزة، وحبيب جاماتى، ومحمود تيمور، وأحمد رامى» وبفعل الأحداث، وتفاعل «روزاليوسف» الست والمجلة مع هذه الأحداث قررت «فاطمة اليوسف» أن تصبح المجلة «سياسية» وبدأت المجلة عهدها الجديد فى أول أبريل عام ١٩٢٦ وأتخذت الكاريكاتير فى الهجوم على خصوم الوفد وخاصة ضد «حسن نشأت» رجل القصر، وخاضت معركة عنيفة ضد «محمد محمود» وسياسة (اليد القوية)، وعلى صفحات (روزاليوسف) ولدت شخصية (المصرى أفندى). وكأن سلاح المجلة المقال اللاذع والكاريكاتير.

واتخذت المجلة خطة الدفاع عن الدستور ومهاجمة الإنجليز والملك، وتعرضت المجلة للمصادرة مرات كثيرة، فاضطرت «روزاليوسف» أن تصدر أربع مجلات

بديلة فى عـام واحـد وهى (الرقـيب، وصـدى الحق، والشـرق الأدنى، ومـصـر الحرة).

وقبل أن أنتـقل بالقـارئ إلى (روزاليـوسف اليـومـيـة) أنقل له سطورا سـريعـة من ذكرياتها عن الذين عملوا معها: (كنت أفرح حين أرى الشباب يأتون إلى المجلة.. استلفت نظرى شاب طويل ضخم عيناه صغيرتان لامعتان تتحركان بسرعة.. يدخل المجلة متلفتا هنا وهناك وهو يسرع الخطى إلى حجرة الأستاذ التابعى، يقدم إليه بعض الأخبار ثم يمضى.. فسألته وهو خارج فى إحدى المرات: ما اسمه؟ فقال مصطفى أمين.. وعلى أمين هو النصف الثانى لمصطفى.. فلم يكد مصطفى يشق طريقـه فى المجلة حتى أشـرك معه عليا.. وجلال الحـمامـصى، كـان بدوره صـديقا لمصطفى وطالبا فى الجامعة.. كـان يحرر باب الرياضة.. واشتهر بتأنقه البالغ ومظهره وعبوسه المستمر وبتحمسه الشديد للوفد وظهر فى المجلة شابان صديقان أحدهما بدين مرح والثانى نحيل حـاد.. هما.. كامل الشناوى ويوسف حلمى.. كان هناك أيضا طالب الطب الذى يكتب المواويل.. هو «سعيد عبده». وفى أغسطس عـام ١٩٣٠ قرر «إسماعيل صدقى» إلغاء رخصة المجلة إلى أجل غير مسمى فأصدرت الصحفية الحديدية مجلة (الصرخة) فى حجم الجرائد اليومية لأول مرة فى مصر لمدة عددين عـادت بعدهمـا الصرخة إلى حجم وشكل «روزاليوسف» التى عادت إلى الصدور بعد ذلك.

ظلت روزاليوسف الأسبوعية موالية للوفد ومدافعة عنه، ودخلت، «الست» السـجن ودخـل «التـابعى» السـجن، وصـودرت المجلة عـدة مـرات، وتعـرضت للإفـلاس. وجـاءت وزارة «توفـيق نسـيم الثـالثـة» ١٤ نوفـمـبـر ١٩٣٤ - ٣٠ يناير ١٩٣٦، أيد الوفـد الوزارة لأنهـا وعـدت بإعـادة دسـتـور ١٩٢٣، وألغى «نسـيم» دستور صدقى وتلكأ فى إعادة دستور ٢٣.

وصـدرت (روزاليـوسف اليـومـيـة) فى ٢٥ مـارس عـام ١٩٣٥ وصـفتـهـا بأنهـا (جريدة مـيـولهـا وفدية ومسـتقلة إلى حـد كبيـر) وتولى «محـمـود عزمى» رئاسة التحرير، وكـان «عباس محـمـود العـقـاد» الكاتب الأول بعد أن كـان فى (الجهـاد) وصاحبها «توفيق دياب» وظن «مكرم عبيد» أن جناح «أحمد ماهر والنقراشى» يقف

خلف المجلة الجديدة لإضعاف توفيق دياب وجريدة الجهاد، وكانت (البلاغ) قد انفصلت عن الوفد. وتعرضت المجلة الجديدة لحرب شرسة من الصحف الأخرى. وحرب خفية من قطاع مهم فى الوفد. وتدهور الموقف إلى أن أصدر «الوفد» قرارا فى ٢٨ سبتمبر عام ١٩٣٥ بأن (هذه الجريدة لا تمثل الوفد فى شيء ولا صلة لها به). وفى أكتوبر عام ١٩٣٥ خرج «العقاد» من الوفد. وتخلى «محمود عزمى» عن رئاسة التحرير ليصدر مجلة (الشباب)، وفى ٢٠ ديسمبر عام ١٩٣٥ أعلن العقاد أنه تخلى عن التحرير فى الجريدة لأسباب شخصية بحتة. وتوقفت الجريدة اليومية. واستمرت روز الأسبوعية وجاءت شقيقتها الأسبوعية (صباح الخير) فى يناير ١٩٥٦ يرأسها «أحمد بهاء الدين»، وبقيت سيرة «الست» تستحق أن تروى.

الأسانيد:

١ - د. إبراهيم عبده . . روز اليوسف.

٢ - د. أميرة أبو الفتوح . . إحسان عبد القدوس يتذكر.

٣ - أنور الجندى . . الصحافة السياسية.

٤ - زكى طليمات . . ذكريات ووجوه.

٥ - فاطمة اليوسف . . ذكريات.

زينب هانم الوكيل



كتبنا عن : «هدى شعراوى وروزاليوسف وملك حفنى ناصف ود. عائشة عبد الرحمن وإستر فهمى ويصا ونبوية موسى وأم كلثوم وسلوى حجازى ود. سهير القلماوى وسيزا نبراوى وصفية زغلول وأمينة السعيد». ورأيت من المناسب أن نكتب الحلقة الحالية عن «السيدة زينب عبد الواحد الوكيل - حرم مصطفى النحاس باشا» والكتابة عنها تدفعنا بالضرورة إلى ذكر أسماء كثيرة سياسية وصحفية. «مكرم عبيد وأحمد حسنين ود. محمد حسين هيكل ومحمد التابعى ومحمد نجيب القرابلى وأحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى وحسن يوسف والملك فاروق وصبرى أبو المجد وإبراهيم فرج ومحمود سليمان عتام ومحمد أبوالفتح وحسين أبو الفتح وعبد اللطيف البغدادى وزكى عبد المتعال ومحمود بسيونى وغيرهم وغيرهم «وهم جميعًا الآن فى رحاب الله وهم جميعًا الآن لا تجوز عليهم سوى الرحمة». ويكفى «القلم الحالى» أنه يكتب تاريخنا الحديث دون تعظيم لا مبرر له ودون تأثيم لا سند له، وإنما يجرى وراء التاريخ الواحد بين المصادر المختلفة التى رحل أصحابها أو لم تزل على قيد الحياة ثم يسجل للقراء ثبتًا بالأسانيد ليعودوا إليها إذا ما رغبوا فى تأكيد أو مزيد.

والضباب كثيف والشوشرة زاعقة ولكن الموضوع كله يتلخص فى أمرين. . الأول : الزعم بأن «السيدة زينب الوكيل» هى المسئولة الأولى عن الخلاف الذى وقع بين «مصطفى النحاس» رئيس الوفد و«مكرم عبيد» سكرتير عام الوفد. .

والثانى الزعم بأن «السيدة زينب الوكيل» استغلت نفوذ زوجها وقامت باستثناءات كثيرة.

وبعد أكثر من ٥٥ عامًا على (الكتاب الأسود) تظهر الحقيقة من بين الأنقاض وتتلخص فى أن وراء ما حدث كله شخصين . . الأول هو «مكرم عبيد» والثانى هو «أحمد حسنين» الداهية رئيس الديوان الملكى.

(زينب عبد الواحد الوكيل .. هذه هى الحقيقة)

حسن يوسف - حامل أختام الملك فاروق ، وكاتم سر مجلس البلاط والذى ترجع صلته فى العمل مع الملك فاروق إلى سنة ١٩٣٥ عندما كان فاروق أميراً يطلب العلم فى إنجلترا حيث انتدب «حسن صبرى باشا» حسن يوسف ليكون ضابط اتصال بينه وبين مقر الأمير فاروق. واحد من رجال القصر والملك هو شاهدنا الأول على حقيقة (الكتاب الأسود) ومحتوياته. وحسن يوسف فى البداية والنهاية من رجال القصر، وليس من رجال الوفد. وشاهدنا الثانى هو «جلال الحمامصى» الذى كان له دور فى إعداد (الكتاب الأسود) وفى إصداره وفى الاتفاق مع رئيس الديوان «أحمد حسنين» وقد خرج «جلال الحمامصى» على الوفد وانضم إلى «مكرم عبيد» وهو بهذه الصفة يحدثنا عن الكتاب الأسود وكيف ولدت فكرته وكيف صدر وكيف تم توزيعه بما يكشف عن حقيقة هذا الكتاب. وجاءت أقوال «جلال الحمامصى» فى كتابيه (معركة نزاهة الحكم، وحوار وراء الأسوار)، وعندما نذكر ما سجله «جلال الدين الحمامصى» عن دور رئيس الديوان فى المؤامرة فإننا ندينهم من أفواههم. وشاهدنا الثالث عن حقيقة الاتهامات التى وردت فى الكتاب الأسود هو حكومة أحمد ماهر الأولى (أكتوبر ١٩٤٤ - يناير ١٩٤٥) ومجلس النواب الجديد المكون من ١٢٥ نائبًا من السعديين و٧٤ من الأحرار الدستوريين و٢٩ من الكتلة الوفدية و٧ من الحزب الوطنى و٢٩ من المستقلين ومجموعهم ٢٦٤ نائبًا من غير الوفديين. وشاهدنا الرابع فى الرد على الاتهامات الموجهة ضد مصطفى النحاس وحرمه «زينب هانم الوكيل» هو مصرى أصيل وفدى مخلص أمين هو «إبراهيم فرج باشا» وننادى الآن على الشهود.

الشـاهد الأول:

حسن يوسف، حامل أختام الملك. وفى كتابه (مذكرات) ص ١٤٢ يقول (الكتاب الأسود جاء ثمرة الجهد الذى بذله مكرم وأنصاره واستغرق عدة أشهر، ٣٢٠ صفحة ويضم سبعة أبواب). وص ١٥٤ يقول بالحرف الواحد: (اشتمل الكتاب على سبعة أبواب تضمنت نحو مائة مسألة أغلبها أصغر من أن يذكر، وفيما عدا خمسة اتهامات أو ستة تستحق التسجيل إلا أن مكرم باشا قصر جهده عن تأييدها بما يثبت صحتها). وعلى صفحة ١٥٤ و١٥٥ عرض «حسن يوسف» لسبعة اتهامات وردت فى الكتاب الأسود وسجل حقيقتها والردود القوية عليها بما يبين فساد الاتهامات. ويختتم «حسن يوسف» كلامه عما جاء بالكتاب الأسود وأورده فى الصفحات من ١٣٦ - ١٥٥ بقوله: (وقد جمع الناس النحاس باشا إجابات الحكومة فى كتاب أطلق عليه - الكتاب الأبيض - وقدمها إلى رئيس الديوان ردّا على عريضة مكرم باشا واعتبرت الأزمة منتهية). ونعتقد أنه ليس هناك أقوى من تقدير «رجل القصر - حسن يوسف» لحقيقة ما جاء بالكتاب الأسود. وهو الذى قال فى ص ١٤١ من مذكراته (فى حالة مكرم باشا فإن الملك كان راضيًا عنه تمام الرضا، بل إن القصر كان يساند مكرم فى تحديه للنحاس باشا).

الشاهد الثانى:

جلال الدين الحمامصى «رجل مكرم عبيد، خرج معه على الوفد وشارك فى (الكتاب الأسود) من بدايته إلى نهايته . . يقرر فى كتابيه (معركة نزاهة الحكم، وحوار وراء الأسوار) بأن «أحمد حسنين» رئيس الديوان لم يكن بعيداً عن العملية أثناء فترة جمع البيانات بل إن مكرم عبيد اعترف بأن الديوان قدم له بعض البيانات. وفى رأس البر أوعز أحمد حسنين إلى جلال الحمامصى بأن تصدر البيانات فى كتاب. ونقل الحمامصى الفكرة إلى مكرم عبيد فأعجبته الفكرة وشرع فى كتابة مقدمة أدبية بليغة للكتاب المزمع إصداره. وبعد عدة أشهر من جمع المادة، وكانت النسخة التى سيرفعها مكرم إلى الملك بخط اليد ومعها حافظة بالوثائق من رأى «حسنين» أن تودع العريضة ووثائقها فى إحدى خزائن قصر عابدين - وتسلم أحمد

حسنين العريضة وتولى نقلها إلى إحدى خزائن قصر عابدين) لم يكن القصر حكمًا بين الأحزاب وإنما كان ضالعًا فى جريمة الادعاء والبيانات الكاذبة وفى حماية العريضة وإيداعها خزينة القصر.

الشاهد الثالث:

أحمد ماهر باشا المناضل الوفدى القديم والذى دخل هو ومحمود فهمى النقراشى فى صراع مع «مكرم عبيد» وخرج ماهر والنقراشى على الوفد عام ١٩٣٧، شكل «ماهر» وزارته الأولى فى ٨ أكتوبر عام ١٩٤٤ - ١٥ يناير عام ١٩٤٥ وجد نفسه يواجه ضغوط الملك من أجل أن يشكل «أحمد ماهر» حكومة من السعديين والدستوريين والكتلة الوفدية، وأن يكون عدد الوزراء بالمساواة - فدخلت (الكتلة) الحكومة بأربعة وزراء. ونزل القصر بثقله لمساندة «مكرم» ومرشحى الكتله فى الانتخابات التى أسفرت عن مجلس نواب يتكون من ١٢٥ نائبًا من السعديين و٧٤ من الدستوريين و٢٩ من الكتلة الوفدية و٧ من الحزب الوطنى و٢٩ من المستقلين، والمجموع ٢٦٤ نائبًا بدون الوفديين. وكان أول ما تشبث به «مكرم عبيد» فى الوزارة المعادية للوفد هو أن يطلب تشكيل لجنة تحقيق لتقديم تقرير عن الاتهامات التى سبق أن وجهها ضد «النحاس باشا» والسيدة «زينب الوكيل» وضد وزراء الوفد وأقاربهم. وتم تشكيل اللجنة برئاسة «مكرم عبيد» وغالبية أعضائها من وزراء الكتلة الوفدية، وكان أحمد ماهر ذكيًا وذلك حتى لا يطعن «مكرم عبيد» فيما بعد فى أعمال اللجنة، وكان أحمد ماهر على دراية بأساليب خصمه القديم «مكرم عبيد» واستمرت اللجنة فى أعمالها وركزت على أخطر الاتهامات ولكنها لم تجد أدلة قوية تسند هذه الاتهامات، ومهما يكن من أمر فقد حولت اللجنة تقريرها إلى مجلس النواب المكون من السعديين والدستوريين والكتلة الوفدية، أى أنه مجلس نواب معاد للوفد. وشكل مجلس النواب لجنة للنظر فى تقرير اللجنة الحكومية، ويبدو أن لجنة المجلس بعد عدد من الاجتماعات لم تجد أدلة قوية تسند الاتهامات الواردة بتقرير لجنة مكرم عبيد متثاقلة خطاها، وتباعدت اجتماعاتها ثم وضع التقرير على الرف

وأغلقت حكومة «أحمد ماهر» ملف الكتاب الأسود، فصرح «مكرم عبيد» أنه سيصدر كتابًا أسود جديدًا!

الشاهد الرابع:

إبراهيم فرج مسيحة باشا . . المصرى الأصيل، الوفدى المخلص غير الانتهازى، أدلى بشهادات مهمة لزميلنا «حسنين كروم».

* حسنين كروم . . هل كان للسيدة زينب الوكيل دخل فى إثارة النحاس باشا على مكرم؟ (ص٤٩).

- إبراهيم فرج: غير صحيح على الإطلاق وعلى العكس كانت تتمنى ألا يحدث ذلك. . ولكن النحاس باشا كان يعرف أن القصر استخدم مكرم كأداة لضربه. . وكان مكرم إذا أحب يرفع من يحبه إلى السماء، وإذا كره هوى بمن يكره إلى الأرض . .

* حسنين كروم . . سؤال عما نسب إلى «زينب هانم» حول (مشروع البر).
إبراهيم فرج - ص ٢٥٦ . . فى عهد وزارة نجيب الهلالى قبيل ٢٣ يوليو استصدر وزير الشئون الاجتماعية «راضى أبو سيف راضى» قراراً بعزل زينب هانم من المشروع. وامتدت الإجراءات إلى ما بعد ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢، وتم إعلان «زينب هانم» بالقرار. رفعنا قضية بالطعن فى القرار وطلبنا إلغاءه أمام محكمة مصر استمرت ثلاثة أشهر وقدمنا الأدلة الجامعة المانعة الشاملة ببراءة هذه السيدة وبحسن تصرفها وبأن (أسبوع البر) زادت أمواله ولم تنقص. وقام بأعمال إنسانية كثيرة وكبيرة ولا يوجد مليم ليس محسوبًا أو مقيداً ومرصوداً فى البنك وديوان المحاسبه. واطلعت المحكمة على المستندات ودرستها بدقة بالغة وأصدرت حكمًا فى ٣٩ صفحة فولسكاب، وردت اعتبار «زينب هانم» وأنصفتها وعتبت على وزير الشئون الذى صدر عنه هذا التصرف وأثنت على «زينب هانم» وأشادت بحسن تصرفها وقضت بإلغاء القرار وكافة آثاره. واستأنفت الحكومة هذا الحكم وقضى برفض الاستئناف. ولجأت الحكومة إلى محكمة النقض وقضى برفضه أيضًا. . وبعد هذه

الأحكام التى صدرت لصالح «زينب هانم» استقالت من مشروع البر لتريح وتستريح.

* حسنين كروم . . بعض الكتاب يقولون إن فوزية النحاس تأثرت بسبب زواجه من السيدة «زينب الوكيل» فما صحة ذلك؟

- إبراهيم فرج: كل هذه أكاذيب لا صحة لها . . لأن تصرفات النحاس باشا ومواقفه لم تتغير بعد زواجه سنة ١٩٣٥م وإننى أدعو أى كاتب أو مؤرخ أن يذكر حادثة أو واقعة واحدة يدلل بها على صحة هذا الزعم.

إذا كانت ثورية النحاس باشا قد تأثرت بسبب زواجه، فلماذا أقالوه من الحكم فى أواخر سنة ١٩٣٧م وفى سنة ١٩٤٤م، وفى سنة ١٩٥٢م ولو كان النحاس باشا قد ضعف أو تغير لكان قد استمر فى الحكم.

المسئول الأول:

مكرم عبيد (١٨٨٩ - ١٩٦١) اختير سكرتيراً عامًا للوفد عام ١٩٢٧ فى المكان الذى كان يشغله «مصطفى النحاس» فى عهد رئاسة «سعد زغلول» وتميز مكرم عبيد بذكائه وبراعته فى الكتابة والخطابة وبطموحه الشديد، ولكن هذا الطموح أوقعه فى خطأ قاتل قضى به على نفسه ومكانته ومستقبله السياسى. دخل فى روعه عن طريق الخطأ أنه هو الذى صنع شعبية هذا الحزب الكبير (الوفد) وفاته أن وجوده فى صفوف هذا الحزب الشعبى الكبير هو الذى خلق منه شخصية مكرم عبيد الكبيرة، وقد ذكر «الدكتور محمد حسين هيكل» فى (مذكرات فى السياسة المصرية) ص٢٩٥ أنه سمع «مكرم عبيد» أكثر من مرة يردد (إنه أولى بمنصب رئاسة الوزارة من غيره) وهو يقصد أنه أولى من «مصطفى النحاس» - وهذا الغرور القاتل هو الذى جعل السياسى الداهية . . رئيس الديوان الملكى «أحمد حسنين» يتمكن منه ويدفع به إلى طريق الصدام مع «مصطفى النحاس» وكان «أحمد حسنين» فى أحاديثه مع مكرم عبيد يرمى له بعبارات أن «بطرس غالى» كان رئيسًا للوزارة، وأن «يوسف وهبة» كان رئيسًا للوزارة. وظن مكرم أن خروجه من الوفد سوف يقضى على الوفد

وسوف يؤدى به هذا الطريق إلى رئاسة الوزارة. واندفع فى طريق تصعيد الصدام مع النحاس باشا وكان هو المسئول الأول عن هذا الصدام وليس «مصطفى النحاس» ولا حرمه «السيدة زينب هانم الوكيل».

وتسجل المصادر الكثيرة أن «مصطفى النحاس» رئيس الوفد وقف يساند «مكرم عبيد» عندما وقع الانقسام الأول فى عهد رئاسة النحاس للوفد والذى عرف بانقسام (السبعة ونصف) وكان أحد أسبابه الرئيسية الخلافات بين مكرم عبيد ومحمد نجيب القرابلى. ووقف النحاس باشا إلى جانب مكرم. وعندما وقع الانقسام الثانى عام ١٩٣٧، وكان أحد أسبابه الرئيسية الخلافات بين مكرم من ناحية وأحمد ماهر والنقراشى من ناحية أخرى. ومن هنا كان واجبًا على «النحاس باشا» كرئيس للحزب أن ينصح الصحف الوفدية بالمساواة فى الكتابة عن مكرم وغيره من الوزراء وقادة الوفد حتى لا تتكرر الصراعات بين مكرم وغيره من العناصر الوفدية فهم جميعًا لهم تاريخ وجهاد فى الوفد، واعترف مكرم أن «النحاس» كسب المعركة فى مجلس النواب إذ إنه على الصعيد الحزبى لم يخرج مع مكرم سوى ١٤ من النواب و٣ من الشيوخ، وعلى الصعيد الشعبى تؤكد المصادر الوثيقة أن الوفد قد تمكن من امتصاص الصدمة.

وفى ١٢ مارس عام ١٩٤٢م كانت المقابلة الشهيرة التى دبر لها «أحمد حسنين» بين الملك ومكرم عبيد . . وأخفى مكرم خبر المقابلة على رئيس الوفد ورئيس الحكومة «مصطفى النحاس» وفى صباح اليوم التالى قرأ، «النحاس باشا» كلمة «مكرم» فى جريدة الأهرام والتى يشيد فيها بالمليك المحبوب إلى آخر التقعر الذى عرف به مكرم. وكان قد بدأ الشوط الذى رسمه له طموحه ولم يكن للنحاس باشا ولا لحرمه «زينب عبد الواحد الوكيل» يد فى ذلك.

المسئول الثانى:

أحمد حسنين. . رئيس الديوان الملكى والذى أفسد الملك منذ الصغر، بدأ يستغل طموح مكرم فرتب لقاء وزير المالية ووزير التموين وسكرتير الوفد مكرم عبيد مع الملك من وراء رئيس الوفد ورئيس الحكومة مصطفى النحاس، ورتب مع

مندوب جريدة الأهرام أن يأخذ حديثًا مع «مكرم عبيد» عقب خروجه من لقاء الملك واستمهله «مكرم» حتى يكتب كلمة يتقعر فيها وقال فيها ما لا يقوله إلا العبيد (على حد تعبير مصطفى النحاس) ولم يعرض مكرم البيان على النحاس باشا كما اعتاد من قبل ولم يخبره بأمر المقابلة وسافر إلى (الفشن ـ مديرية المنيا) دون أن يخطر النحاس باشا الذى فوجئ ببيان مكرم فى الأهرام فى صبيحة اليوم التالى . . وبعد ذلك يقول مكرم وأعداء الوفد إن «السيدة زينب الوكيل» هى التى أفسدت العلاقة بين النحاس ومكرم!

ويكتب «محمد التابعى» فى كتابه (أسرار الساسة والسياسة) ص ٢٢١ و٢٢٢ : (تصادف أننى ذهبت لزيارة النحاس باشا فى نفس اليوم الذى ظهرت فى صباحه كلمة الأستاذ مكرم عبيد بجريدة الأهرام . وبينما نحن نتحدث دق جرس التليفون الموضوع فوق مائدة صغيرة بجوار ـ رفعته ـ وكان المتكلم الأستاذ مكرم عبيد من مدينة المنيا . وكان مكرم يتحدث ولم أسمع حديثه طبعًا وقاطعه النحاس باشا :

ـ لكن سيبك من ده كله وقول إيه الكلام ده يا مكرم اللى أنت كاتبه فى أهرام النهارده؟! . . وتقوله ليه؟ ثم علشان إيه ماعرضتوش علىّ قبل نشره؟ دى غريبة! لأنك دايما بتاخد رأيى فى أحاديثك وتصريحاتك قبل نشرها . . اشمعنى المره دى لأ؟

مكرم . .

النحاس : يعنى إيه؟ عايز تقول إنك كتبت الكلام ده نص الليل! وقبل كده ماكنتش لسه كتبت حاجة؟

ثم يقول التابعى . . ولاحظت عندما أنهى النحاس باشا الحديث وأعاد سماعة التليفون إلى مكانها أن علامات الغضب كانت مرسومة واضحة على وجهه وفى عينيه وقال رفعته : ـ ده كلام ما يكتبوش إلا العبيد . . وعن الموضوع كله يقول «التابعى» ص ٢٢٤ : إننى حريص على تقرير حقيقة منصفة ، وهى أن الأستاذ مكرم عبيد سبق أن دافع دفاعًا بليغًا قويا عن الاستثناءات والترقيات فى عام ١٩٣٧ فما باله يحاربها فى عام ١٩٤٢م؟!

وعلى الرغم مما ذكرناه كله فقد استدعت محكمة الثورة (٥٣ ـ ١٩٥٤) مكرم عبيد وحرضته كى يعيد على الأذهان وقائع خلافه مع مصطفى النحاس وحرمه زينب الوكيل لأن مهمة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ومحكمة الثورة كانت موجهة ضد الوفد فقدموا للمحاكمة ستة من الوفديين «محمد فؤاد سراج الدين وإبراهيم فرج ومحمود سلمان غنام والسيدة زينب الوكيل ومحمد أبو الفتح وحسين أبو الفتح».

وقد اختار الله إلى جواره «مصطفى النحاس باشا عام ١٩٦٥» وحرمه «السيدة زينب عبد الواحد الوكيل عام ١٩٦٧» عليهما رحمة الله، ولم تثبت أية محاكمة ضدهما شيئًا، وعلى الرغم من ذلك استولى العسكر على بيتها فى المرج!

الأسانيد:

١ ـ إبراهيم فرج ذكرياتى السياسية (إعداد حسنين كروم).

٢ ـ أحمد حمروش قصة ثورة يوليو جـ١.

٣ ـ جلال الحمامصى (معركة نزاهة الحكم وحوار وراء الأسرار).

٤ ـ حسن يوسف مذكرات.

٥ ـ صبرى أبو المجد (مذكراتى فى السجن).

٦ ـ محمد التابعى أسرار الساسة والسياسة.

سلوى حجازى



يوم الأربعاء المشئوم ٢١ فبراير ١٩٧٣م كانت عصفورة مبنى ماسبيرو «سلوى حجازى» فى طائرة قادمة من ليبيا، وعبرت سماء مصر وهوت على رمال سيناء قصيدة شهيدة ـ وقيل إنها كانت قد قررت أن تعود يوم الاثنين الموافق ١٩ فبراير سنة ١٩٧٣، ولأسباب يعرفها القدر أجلت العودة إلى شجرة المشمش (وهى ترمز بها فى أشعارها لمصر) إلى يوم الأربعاء ٢١ فبراير عام ١٩٧٣. ومن بين ما قيل يومها تفسيراً للحادث إن بعض أجهزة الطائرة أصيبت بالعطب، وضلت الطائرة الطريق إلى سيناء، فتصدت لها قوات إسرائيل، وأحاطت بطائرة العصفورة غربان الفانتوم فسقطت الطائرة.

كانت فى ليبيا تشارك فى برامج التليفزيون الليبى تناغى الأطفال، وقيل إنها كانت عائدة من هناك بحكايات وحكايات لأطفال مصر. ولكن النيران اشتعلت فى الطائرة، وتفحم معها أكثر من مائة جسد. قصائدها التى كتبتها.. غالبيتها حزينة.. أكثرها حزنا تلك التى رأت فيها نهايتها بكارثة كبيرة قالت:

عندما أتخيل مستقبلى أراه حافلا بسوء الطالع فأبكى عليه مقدما.

إنى أرى الموت قريبا جدا

ومن ورائه كارثة كبيرة

كانت تحس أنها ستموت فى زهرة العمر، وستموت فى كارثة وأنها ستترك

صغارها يتامى . . وكتبت الشعر بالفرنسية، وترجمته بعد ذلك إلى العربية، بل إن عددا من الأدباء شاركوها الترجمة من الفرنسية إلى العربية . . صالح جودت، أحمد رامى، وإبراهيم أبو النجا، وكامل الشناوى . . وكان هؤلاء وغيرهم من المعجبين .

ولدت سلوى حجازى عام ١٩٣٧م، وتعلمت فى المدارس الفرنسية ونشأت على شاطئ البحر فى بورسعيد، وظلت بورسعيد فى وجدانها تشتاق إليها، وبعد أن تزوجت من أحد رجال القضاء وأنجبت عصفورتين وعصفورا. ذهبت إلى بورسعيد وسارت حافية على الشاطئ. ومن بعيد لمحت بائع البسكويت بالفانيليا بصورته التقليدية، فإذ به هو نفسه الذى كانت تراه وهى صبية صغيرة، ولكن عادت عليه عوادى الزمن . . وإن كان لم يزل يدفع أمامه الصندوق على عجلات . . وأنشدت :

أهكذا الدهر بنا يجرى

ويأكل العمر ولا ندرى

عشرة أعوام من العمر

وأنت فى مغربها لم تزل

كما وعتك العين فى الفجر

وهذه القصيدة من ترجمة الشاعر الرومانسى «صالح جودت»، وتزوجت «سلوى حجازى» من أحد رجال القضاء عام ١٩٥٧م، ودخلت التليفزيون عام ١٩٦٢م. وتسللت من عشها كالبلبل الصغير لتشقشق على الشاشة الصغيرة. واستقرت بسرعة فى قلوب المشاهدين. وعلى مدى ١٢ عاما كانت تقدم ثلاثة برامج فى الأسبوع كان أحبها إلى قلبها برنامج (عصافير الجنة)، وبرنامج تحقيقات مصورة من أرجاء الوطن العربى. وعندما ماتت تركت ابنتها فى السابعة عشرة من عمرها . . وتركت ثلاثة رجال صغار على حد تعبيرها دائما عن أولادها عندما كانت تتحدث عنهم. وكان يدرك الذين اقتربوا منها أنها عاشت سنواتها الأخيرة

تتعذب عذابا نفسيا مكبوتا رغم ابتسامتها الحلوة على الشاشة الصغيرة ولم تكن مستقرة أسريا . وإن كانت هذه الحالة لم تؤثر على مستوى عملها .

شجرة المشمش:

كان عندها فى حديقتها الصغيرة شجرة مشمش ، وقد اتخذت منها رمزا لمصر بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧م . وبعد الهزيمة أخذت تناجى شجرة المشمش وهى تقصد الحديث إلى مصر . . تقول ما معناه :

لقد رأيتك يا شجرة المشمش العجوزة متجردة من أوراقك وزهورك وثمارك وعطرك . حينما هب عليك الخريف بالعواصف الهوجاء . ولكنى رأيتك راسية راسخة فى غير يأس ، وأنت تعلمين أن الربيع لا بد أن يأتى .

وكان الألم النفسى قد استبد بها على إثر هزيمة ٥ يونيو فأنشدت وكأنها تعض بنان الندم :

ليتنى ما طهرت نفسى كوجه القمر .

ليتنى ما غسلتها من كل السحب السوداء

ليتنى ما انتزعت منها كل الأعشاب البرية

ليتنى ما زرعت فيها ألف طفل وطفل

وعام ١٩٦٩ استردت نفسها فى مؤتمر أقيم بالجزائر ، فأنشدت قصيدة بعنوان «أنا إفريقية» :

أنا إفريقية

أنا إفريقية

محاطة بعمالقة

ووجوه سوداء

كبرياؤها يرفعها حتى القمر

وأقنعة عجيبة

تحمل أسرار أجداد فوق البشر

ومرة ثانية ننبه القارئ إلى أن ما يقرؤه من قصائد منسوبة إلى «سلوى حجازى» هى ترجمة إلى العربية، شارك فيها كامل الشناوى وصالح جودت وأحمد رامي وإبراهيم أبو النجا، وقد ترك كل منهم بصماته على هذه الترجمة، وسوف تعرض نماذج من قصائد سلوى حجازى والمترجم قام بها.

كامل الشناوى:

شارك «كامل الشناوى» بأسلوبه المتميز وحسه الشعرى المعروف فى صياغة ما كتبته «سلوى حجازى» بالفرنسية ونقلته هي بأسلوبها المتواضع إلى العربية، ثم أخرجه نظما وكأنها صياغة جديدة لكامل الشناوي..

المقطوعة الأولى نجتزئ منها:

هذه الأضواء كم أكرهها

قيدت حريتى قيداً عنيفًا

ابعدوها.. ابعدوها.. إنها شبح يبدو لعينى مخيفًا

المقطوعة الثانية:

احذر يا قلبى.. واهدأ فى صدري

لا ترفع صوتًا.. يفضح لي سرى

فأنا بشعورى المبهم فى نشوة حلوة

صالح جودت:

واقتربت «سلوى حجازى» من الشاعر الرومانسى «صالح جودت». ونشر لها

ثلاث قصائد بمجلات دار الهلال . . وترجم لها عن الفرنسية ثلاث قصائد الأولى (بداية الضعف) والثانية (البائع العجوز)، والثالثة (بعد السينما).

قصيدة ـ بداية الضعف:

كان قلبى فى الهوى طوع يدى

أن تهامست إليه . . يهتدى

ماله اليوم عصى . . ماله

خان ميثاقى وجافى موعدى

قصيدة بعد السينما

لم أنس يوم التقينا

فى مسرح للخيال

ورح تنظم شعرا

منغما فى جمالى

أكنت حقا ترانى

وحيدة فى المثال؟

أحمـــد رامـــى:

والتقى شاعر الشباب «أحمد رامى» بسلوى حجازى وأطلق عليها لقب (البلبل)، وقام بترجمة ديوانها الثانى (ظلال وأضواء)، وكتب له مقدمة تفيض رقةوأسلوبا رفيعا. وقال النقاد إن الأصل الفرنسى للديوان أبدع من الصورة. وأن الصوت أشجى من الصدى. وكانت «سلوى حجازى» تفيض رقة وحنانا على الإنسان والحيوان والنبات. رفعت صوتها تحتج على قطع الأشجار فى شارع النيل بالجيزة، ولها قصيدة فى هذا المجال بعنوان (مذبحة فى الجيزة).

إبراهيم أبو النجـــا

وكان من حظ الشاعر «إبراهيم أبوالنجا» أن يترجم لها قصائدها: (أول ضعف) و(السأم) و(أول أمل) وأخيرا (غفران).

قصيدة أول ضعف:

جعلت مأواه صدرى

وكان صاحب سرى

والآن ينسى عهودى

ويستبد بأمرى

قصيدة ـ السأم

وصفتنى بجمال

يفوق حد الخيال

فهل كنت حقا

أبدو بهذا الجمال؟

قصيدة ـ أول أمل:

أحس بها بهجة طاغية

تهز كيانى وأعماقه

وتملأ قلبى بآماله

وبالنور تملأ أياميه

قصيدة ـ غفران:

لقد بكيت بدمع

من نبع قلبك آت

وأن تطلب صفحى

بأعذب الكلمات

الوجه والقصيدة:

كان وجهها على الشاشة الصغيرة وأسلوبها الرقيق وابتسامتها الجذابة تغطى على ما كتبت من الشعر بالفرنسي، وقامت بترجمته هى إلى العربية ترجمة حرفية بعيدا عن النظم، ولكنه تسلل إلى الصحف فكتب الكاتب الأديب الراحل «عميد الإمام» فى جريدة الجمهورية ٢٠ مارس ١٩٦٢م. جميع قصائدها العاطفية تنم عن تحفظ واتزان. وتكشف عن تمكن من العواطف الجامحة وإصرار عنيد على الابتعاد عن نار الانفعالات القوية:

إنى أود أن أبكى

دعنى فى حالى

إنى أود أن أصلى

لكى تكون لدى الشجاعة

حتى لا أعود أراك

لا فى هذا المساء..

ولا فى أى وقت

ويسود التشاؤم قصائدها العاطفية وغير العاطفية حتى فى تلك القصائد التى انبهرت فيها بجمال الطبيعة وآياتها:

افتحوا عيونكم وأنوفكم

افتحوا قلوبكم.. وفى صمت

تنشقوا هذا الهواء.. وهذا العبير

وانتشوا دون ما حاجة إلى خمرا أو حماقات

وفى كل خطوة تخطونها

سوف تحملون إلى عالم من الجمال

الشــــعريبــكى:

ماتت «سلوى حجازى» يوم الأربعاء ٢١ فبراير عام ١٩٧٣ على رمال سيناء، وأشارت أصابع الاتهام إلى إسرائيل. . وبكت الشاعرة «روحية القلينى» فى قصيدتها حرقة:

هول الفجيعة هد كل كيانى

والصبر فارقنى، وضل بيانى

والدمع سال مترجما عن لوعتى

وكان هول الخطب شل لسانى

تبًا لإسرائيل، بئس عصابة

قدت قلوبهمو م الصوان

لم يرحموا الطفل الرضيع ولا الفتى

وتآمروا فى قسوة العدوان

أما الشاعر «فرج مكسيم» فى أبياته (القصيدة الآدمية). . قال:

فوق تابوتك لن أرشق زهرة

أضرب الزهر عن الحزن

وقد كفن عطره

وفى خواطره قال الفنان فايز حلاوة:

عصفورة مبنى ماسبيرو. . طارت للجنة. . وأنا مازلت على نار أتساءل. . أطفال أيضا تتساءل. . تتجاذب أطراف الصمت. . لا أحد يجاوب.

الأســـانيد:

الشاعر إبراهيم أبو النجا . . ترجمة لقصائد (أول ضعف ـ السأم ـ غفران ـ أول أمل)

الشاعر أحمد رامى . . ترجمة وتقديم ديوان ظلال وأضواء .

الشاعر روحية القلينى . . قصيدة (حرقة) .

الشاعر صالح جودت . . ترجمة (بداية الضعف ـ البائع العجوز ـ بعد السينما) .

الكاتب عميد الإمام . . جريدة الجمهورية ٢٠/ ٣/ ١٩٦٢ .

فايز حلاوة . . خواطر .

الشاعر فرج مكسيم . . قصيدة الآدمية .

الكاتب الشاعر كامل الشناوى . . ترجمة الأضواء .

الدكتورة سهير القلماوى



كان الانطباع عنها للوهلة الأولى أنها سيدة أقرب إلى التحفظ والانعزال، ذلك لأنها كانت تتمتع بقدر كبير من الهيبة يحول دون التحدث معها إلا عند الضرورة.

ولم تكن هذه الصورة هى الوحيدة لها، كان لها جانب كبير من المودة والرقة يصل أحيانًا إلى حد الفكاهة الراقية. ومن ذلك ما حدث خلال اجتماع معها برؤساء تحرير المجلات الثقافية فى شهر «رمضان» لعام ١٩٧١م، وكتبت هذه الحكاية فى صفحة من صفحات رمضان بجريدة الأخبار بعد إحالتها إلى المعاش بعشر سنوات، فوجئت وأنا فى مكتبى مديرًا للمجلات الثقافية تطلب منى أن أدعو على عجل السادة رؤساء تحرير هذه المجلات لاجتماع بها لمراجعة شئون هذه المجلات يادكتورة الساعة الآن الثانية بعد الظهر، والجو حار، والدنيا رمضان، ولكنها كانت كعادتها حاسمة قاطعة فى قراراتها، واستدعتنى إلى مكتبها قبل بدء الاجتماع برؤساء تحرير المجلات الثقافية الثمانى، وذلك لترتيب الموضوعات التى يمكن أن تثار فى الاجتماع، وختمت كلامها بأنها مضطرة لتأخذ فنجانًا من القهوة أثناء الاجتماع، وفى حزم قالت وأنت طبعًا سوف تشرب قهوة. حاضر يا دكتورة، وبدأ الاجتماع واستدعت عامل البوفيه، وكانت المفاجأة أن الحضور جميعًا يطلبون القهوة زيادة ومضبوط وعلى الريحة وسادة، فقالت لعامل البوفيه الذى أخذته الدهشة، عشرة قهوة للأستاذ لمعى المطيعى، وانفجرنا جميعًا بالضحك، ومرت الأيام ونشرت هذه الطرفة بجريدة الأخبار فى

الصفحة الرمضانية، وحرصت على عدم ذكر أسماء السادة رؤساء التحرير فقط اسمها واسمى، وحوالى منتصف الليل جاء صوتها مبتسمًا إنت لسه فاكر؟ . . هكذا كانت الأستاذة الدكتورة سهير القلماوى «عظيمة فى الأمور الجادة» وراقية فى المواقف الطريفة.

يقول الدكتور شكرى محمد عياد الأستاذ والناقد المعروف. إن اسم «سهير» لم يكن معروفًا فى مصر قبل الثلاثينيات. وكل سهير عندنا سميت باسم «سهير القلماوى»، وهو اسم تركى أخذوه من العربية «سحر» كما أخذوا «تفيدة» من «توحيدة»، ويذكر كاتب هذه السطور الذى قدر له أن يعمل معها لسنوات أننا كنا ننطق الاسم بضم السين، وكانت هى تحرص على تصحيح النطق بالفتحة على السين، والدها «كردى» ولد فى قرية مصرية، وأمها «شركسية» ولدت فى القاهرة. والدها كان يعمل طبيبا فى مدينة طنطا. ووالدتها تعرف اللغة الإيطالية وتجيد الفرنسية. ولدت فى ٢٠ يوليو عام ١٩١١م، ويقال إنها ولدت فجراً فأسموها «سهير».

وفى صباها التحقت بالكلية الأمريكية، ولما كان تعليمها قبل الجامعة كله فى كلية البنات الأمريكية «رمسيس الآن»، فقد كانت لا تستطيع أن تنطق بكلمة عربية منذ دخولها المدرسة فى الصباح إلى الانصراف حوالى الرابعة بعد الظهر، لذلك أتقنت اللغة الإنجليزية واطلعت على كثير من كتبها بسهولة. وتقول د. سهير القلماوى: فى هذه الفترة وطوال أحد عشر عاما كان علينا فى السنوات الست الأخيرة فى المدرسة أن نقرأ كل عام فى إجازة الصيف رائعتين زادتا إلى خمس روائع من الأدب، ونمتحن فيها أول العام الدراسى، وكان النجاح شرطا للالتحاق بالفرق العليا، لذلك قرأت روائع فى الأدب الإنجليزى والأمريكى والفرنسى. أما اللغة العربية فقد كان يتولاها معى أبى «الدكتور محمد القلماوى»، ويقرأ معى ما تيسر من القرآن الكريم ويفسره لى.

أما بعـد:

فقد كتبت الأستاذة تقول كنت أتطلع إلى أن أكون طبيبة، فوالدى «محمد

القلماوى» كان جراَّحًا، وككل بنت كنت مفتونة به وكنت أساعده وأنا ما أزال فى المرحلة الثانوية، فى عيادته «اسم المريض والمرض، ونتيجة السكر والزلال» بالاختبارات البسيطة المعروفة. وحصلت «سهير محمد القلماوى» على البكالوريا من الكلية الأمريكية، وتوجهت بأوراقها إلى كلية الطب ولكن الكلية أوصدت أبوابها فى وجهها. . وكان الدكتور «طه حسين» على علاقة طيبة بأسرتها فتوجهت إليه مع والدها، وكان عميداً لكلية الآداب وقت ذاك عام ١٩٢٩ واستقبلها الأستاذ العميد استقبالا حسنا، واختار لها القسم الذى يرأسه «قسم اللغة العربية فدخلته إعجابا بطه حسين. ولكن لدخول الفتيات الجامعة قصة. كان على رأس الجامعة رائد الاستنارة الحديثة «أحمد لطفى السيد»، وكان على رأس كلية الآداب - كما ذكرنا - المثقف المستنير «د. طه حسين» والتقت الكلمة مع عدد من العمداء للاتفاق على السماح بدخول البنات إلى الجامعة، ولا سيما أن لائحة الجامعة لا تفرق بين الذكور والإناث فى دخول الجامعة، وقد تم الاتفاق على التنفيذ بهدوء دون أن تثار هذه المسألة فى الصحف، أو فى الخطب حتى يتقبل الرأى العام هذا الأمر دون ضجة.

ولم يكن للدكتور طه دور لدخول «سهير القلماوى» كلية الآداب فحسب، بل كان له دور فى تكوين هيئة التدريس بقسم اللغة العربية من خريجى مدرسة القضاء الشرعى: أحمد أمين، عبد الوهاب عزام، أمين الخولى، ومن دار العلوم: أحمد الشايب، إبراهيم مصطفى، عبد الوهاب حمودة، مصطفى السقا.

مع الصحافة والإذاعة:

كان عام ١٩٢٩ عاما فارقا فى تاريخ النهضة النسائية فى مصر، فى هذا العام دخلت «سهير القلماوى» وثلاث فتيات أخريات الجامعة، وقد تميزت بالسمو فى التعامل مع سائر من عرفها.

وبدأت تكتب فى مجلات «الرسالة والثقافة وأبولو» وهى فى السنة الثالثة من دراستها الجامعية، وحصلت على ليسانس قسم اللغة العربية واللغات الشرقية عام ١٩٣٣م، وكتبت تقول: «تخرجت فى قسم اللغة العربية» وآخر ما كنت أفكر فيه

هو التدريس، ونزلت إلى ميدان الصحافة وهذه عطفة أخرى فى حياتى. وكنت وأنا مازلت طالبة فى السنتين الأخيرتين قد نشرت بعض المقالات فى مجلتى «اللطائف المصورة. والعروسة» وأثناء عملى بالصحافة كتبت فى مجلة الهلال، أبوللو للشعر والرسالة، ثم أشرفت على صفحة كاملة نسائية فى جريدة «البلاغ»، وجريدة «كوكب الشرق». وأصبحت مسئولة عن صفحة «الجامعة المصرية» التى كان يرأس تحريرها طه حسين.

والتجربة الحقيقية كانت عند افتتاح محطة الإذاعة عام ١٩٣٤. واختارونى أن أذيع حديثًا، وكنت الآنسة الوحيدة، ولم يكن هناك صوت نسائى آخر إلا صوت مذيعة واحدة هى «عفاف الرشيدى».

أدب الخـوارج:

وعندما بدأت فى إعداد رسالتها للماجستير دفعتها شخصيتها المتميزة، إلى أن تبحث عن موضوع طريف لم يسبقها أحد إلى بحثه، واهتدت إلى موضوع «أدب الخوارج فى العصر الأموى» وهم فى الأصل فرقة من جيش «على» فى حربه لمعاوية. وخرجت هذه الفرقة على «على» عندما ارتضى وقف الحرب مع معاوية وقبل التحكيم الذى جاء خدعة له. وبعد ذلك تعددت حروب الخوارج، وتعدد شعراؤهم، وتميزت أشعارهم بحماسة متقدة لعقيدتهم، وجمعت «سهير القلماوى» هذه الأشعار وأخضعتها للدراسة العلمية، وتكونت لجنة لمناقشتها من طه حسين وأحمد أمين والمستشرق لبتمان. وأعجبت اللجنة بالرسالة إعجابا شديدا.

ألف ليلة وليلة:

وفى أطروحة الدكتوراه لم تجد أشد عسرا من كتاب ألف ليلة وليلة وقصصه فى بغداد والقاهرة، ورحلت إلى فرنسا وإنجلترا لتلتقى ببعض المستشرقين لتسترشد بهم فى بحثها، وقد اعتزمت الحصول على الدكتوراه من السوربون، ولكن الحرب

العالمية الثانية اشتعلت عام ١٩٣٩ فعادت إلى مصر للحصول على الدكتوراه من القاهرة ـ جامعة فؤاد الأول. وجعلت رسالتها فى ثلاثة كتب: الكتاب الأول من ألف ليلة وليلة فى الشرق والغرب، والكتاب الثانى عن تأليف ألف ليلة وليلة وتاريخ أصولها وأثرها فى آداب الغرب، والكتاب الثالث يحلل قصص ألف ليلة وليلة ويوزعها بين قصص خوارق وقصص دينية وقصص أخلاقية وقصص حيوانية وقصص تاريخية وقصص تعليمية.

هذا وقد ترجمت «ألف ليلة وليلة» إلى عدة لغات فى الغرب والشرق، وقرأت من قبل ترجمة إنجليزية لها تحت عنوان «ليال عربية» وفى زيارتى للصين ـ سبتمبر ١٩٨٤ كانت هديتهم لى كتاب ألف ليلة وليلة مترجمًا إلى اللغة الصينية فى ثلاثة أجزاء، واحتفظت بهذه الترجمة النادرة فى مكتبتى الخاصة، رغم أننى لا أعرف حرفا واحدا من اللغة الصينية، وحصلت الأستاذة على الدكتوراه بهذه الرسالة عام ١٩٤١، وكانت قد حصلت على الماجستير عام ١٩٣٧.

عالم الكتاب:

تتلخص فكرة «الأستاذة الدكتورة سهير القلماوى» عن الكتاب فى مقولتها: (إذا كان أهم ما يميز الإنسان هو التفكير، فإن عماد التفكير هو الكتاب)، وبدأت الأستاذة بأول كتاب لها وهو «أحاديث جدتى» عام ١٩٣٥، وكتب مقدمته أستاذها «د. طه حسين» وطبع الكتاب أكثر من مرة بعد ذلك، وفى مجال النقد الأدبى نشرت كتابين.. الأول: فن الأدب يعرض مقدمات النقد لدى اليونان ونظرية المحاكاة لدى أفلاطون وطرده للشعراء من جمهوريته لأنهم لا يمثلون «الفضيلة».. والكتاب الثانى: فى مجال النقد الأدبى كان بعنوان «محاضرات فى النقد الأدبى وأهدته إلى طلابها».

وإذا كانت قد بدأت بنشر كتابها أحاديث جدتى عن طريق «لجنة التأليف والنشر» التى كان يشرف عليها أحد أساتذتها «أحمد أمين» فقد قدر لها فى مقتبل الأيام أن تتولى الإشراف على دار نشر عامة هى «دار الكاتب العربى» ثم تولت الإشراف على مؤسسة التأليف والنشر واستمر هذا الوضع من «١٩٦٧ ـ ١٩٧١» حتى أحيلت

إلى المعاش فى يوليو ١٩٧١ . ولكنها كانت قد تركت بصماتها على الكتاب، وأهم هذه البصمات فى تقديرى إقامتها لأول معرض دولى بالقاهرة للكتاب عام ١٩٦٩، وعاونها فى ذلك العمل الكبير الذى أقيم على أرض المعارض بالجزيرة المرحومون. . «منير حسبو وصلاح عبد الصبور وإسلام شلبى» وكاتب هذه السطور، وعلى أيديها أيضًا ولدت سلسلتان شهيرتان «يرحمهما الله» . . الأولى المكتبة الثقافية . . والثانية أعلام العرب وتولى الناشر الكبير الراحل «محمد المعلم» إصدارهما عن «دار القلم» وذلك فى عهد ولاية «الدكتور ثروت عكاشة» لوزارة الثقافة.

وتضيف الذاكرة إلى جهودها فى المشاركة بأعمالها التى صدرت لها: ثم غربت الشمس «١٩٤٩» - والعالم بين دفتى كتاب «١٩٥٨» - وأهرام عربية «١٩٥٩» وشاركت فى العمل الموسوعى المهم «الموسوعة الميسرة» التى صدرت عن «مؤسسة فرانكلين» عام ١٩٦٥ - بإشراف عالم التاريخ الكبير «الدكتور محمد شفيق غربال» .

فى رحاب الجامعة:

تخرجت فى قسم اللغة العربية والدراسات الشرقية عام ١٩٣٣م، وبترتيب متميز وحصلت على الماجستير فى «أدب الخوارج» عام ١٩٣٧ بعد عام من تعيينها معيدة بقسم اللغة العربية بكلية الآداب «عام ١٩٣٦» وهى السنة التى تم فيها تعيين زميلها «د. شوقى ضيف» معيدًا أيضًا، وتولت منصب أستاذ الأدب العربى الحديث بكلية الآداب عام ١٩٥٦ فرئيسًا لقسم اللغة العربية «١٩٥٨ - ١٩٦٧» ولم يقتصر دورها على إلقاء المحاضرات والإشراف على الرسائل الجامعية (أشرفت على ٩٠ رسالة فى كلية الآداب، وعلى ٢٠ رسالة بمعهد البحوث والدراسات العربية) .

وجهودها فى رحاب الجامعة لم تكن مقصورة على المحاضرات والإشراف على الرسائل العلمية، وإنما فى إقامة صرح الثقافة المصرية والعربية على أيدى تلاميذها الذين لو لم يكن لسهير القلماوى من فضل إلا أنها أنجبتهم لكفاها ذلك فضلا . فقد كان لها دور كبير ومقدر فى تكوين جيل من الأساتذة الجامعيين المرموقين وفى

مقدمتهم: جابر عصفور، وعبد المنعم تليمة، ونبيلة إبراهيم، وسيزا قاسم، ومحمد فهمى حجازى. متعهم الله بالصحة والعطاء المتجدد والتوفيق الدائم، والراحلان: عبد المحسن طه بدر، وسيد النساج يرحمهما الله، من مصر، كذلك الطاهر محمد على من السودان، وعبد الله الركيبى من الجزائر، ومحمد حامد الحضيرى من ليبيا.

ثقافة الطفل

وإذا كانت «الدكتورة سهير» عرفت بين الناس بأنها من أولى الفتيات فى دخول الجامعة، فإنها عرفت بين المثقفين بأنها أول من اهتم بثقافة الطفل المصرى، «أحاديث جدتى» الذى قدم له «د. طه حسين» وصدر عام ١٩٣٥ يمكن أن يعد خطوة نحو تثقيف الطفل المصرى، تولت الدعوة لإنشاء لجنة ثقافة الطفل «ضمن لجان المجلس الأعلى للثقافة» وقد كان، وتولت رئاسة هذه اللجنة نحو عشرين عاما متصلة، ورئيسة للجنة الجوائز التشجيعية فى مجال ثقافة الطفل، وكان هذا النشاط امتداداً لنشاطها فى المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون الاجتماعية، حيث أقامت حلقة حول «كتاب الطفل ومجلته» فى فبراير عام ١٩٧٢. وحلقة بحث عن سينما ومسرح الطفل فى يونيو عام ١٩٧٣. وندوة حول المضمون الفنى والثقافى المقدم للطفل فى يونيو عام ١٩٧٤. وندوة حول التربية القومية للأطفال فى أكتوبر عام ١٩٧٦. وحلقة دراسية حول مسرح الطفل فى ديسمبر عام ١٩٧٧ وحلقة بحث حول ألف ليلة وليلة فى مايو عام ١٩٨٥. وندوة حول إصدار مجلة للأطفال على مستوى الوطن العربى فى أبريل عام ١٩٨٧. وندوة حول أطفالنا والتراث فى مايو عام ١٩٨٨.

وأعطت اهتمامًا خاصًا لإصدار «دائرة معارف الأطفال المصورة» التى أشرفت عليها وصدرت عن هيئة الكتاب، وفى سنواتها الأخيرة أصبحت عضو اللجنة الاستشارية الفنية للمجلس القومى للطفولة والأمومة التى ترأسها «السيدة سوزان مبارك» قرينة السيد رئيس الجمهورية.

خارج الأسوار:

ولم يكن نشاطها مقصورا على المحاضرات والرسائل والبحوث داخل أسوار الجامعة، ولكنها انطلقت خارج أسوار الجامعة تسهم فى بناء المجتمع بثقافتها ورؤيتها المستقلة، رأست مجلس إدارة دار الكاتب العربى، ثم رئاسة مجلس إدارة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، وكانت أول سيدة تحصل على جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٧٧م. أسست جمعية خريجات الجامعة، وظلت رئيسة لها مدة طويلة منذ عام ١٩٥٣. قامت بدور مهم فى النهضة النسائية ولكنها كانت ترفض دائمًا مسمى الأدب النسائى، ومن أول الأصوات النسائية فى الإذاعة المصرية، واختارتها «اليونسكو» رئيسًا للجنة الثقافية العربية عام ١٩٦٨م، وفى عام ١٩٧٩ أصبحت عضوا بمجلس الشعب عن دائرة حلوان، وشاركت فى عضوية مجلس إدارة اتحاد الكتاب، واختيرت عضواً بالمجالس القومية المتخصصة.

كيف عرفتها:

قضيت فى قسم الفلسفة - كلية الآداب - جامعة فؤاد الأول أربع سنوات ٤٦ - ١٩٥٠م، ولم يكن لنا بها صلة كأستاذة فى قسم اللغة العربية، ولكنها بمشيتها الوقورة ومظهرها المهيب واحترامها لنفسها كانت موضع تقدير الجميع، ومرت أيام وفى أواخر الخمسينيات كلفنى مشروع الألف كتاب الأول بأن أقوم بترجمة كتاب للمؤرخ الفيلسوف «أرنولد توينى» والكتاب بعنوان «الفكر التاريخى عند الإغريق» وبدأت أتردد على «الدكتور محمد صقر خفاجة» عميد كلية الآداب وقتذاك وكان مكلفًا بمراجعة الترجمة واستمرت المراجعة إلى فترة، وفجأة توفى «الدكتور خفاجة» فى أحد شوارع الزمالك وهو يقود سيارته على أثر انفجار فى المخ، وسألت عن موقف إدارة الألف كتاب من هذه المفاجأة، وقرر «فؤاد أندراوس» - المرحوم و«محمد قطب» شقيق سيد قطب أن يعهدا إلى «د. سهير القلماوى» بفحص مكتب الدكتور خفاجة فى منزله، وكان الدكتور خفاجة والدكتورة سهير من تلاميذ طه حسين وزملاء فى كلية الآداب، فضلا عن علاقة أسرية، وطلب منى

الزميلان الصديقان أندراوس وقطب أن اتصل بالدكتورة سهير، وبهرتني بوقارها وأستاذيتها وجديتها وحسمها للأمور، وكانت هذه هى المرة الأولى التى أجلس فيها إلى الأستاذة الدكتورة سهير القلماوى، وأنجزت مهمتها وكتبت تقريرها عن الترجمة بما يفيد أن الجزء الأكبر منها راجعه د. خفاجة، والجزء الباقى فى مستوى الترجمة الصالحة، وتفضلت بالاتصال بى وإبلاغى بهذه النتيجة.

ومع بداية الستينيات قدر لى أن يكون لى دور مسئول عن النشر فى الدار القومية للطباعة والنشر والتى ضموا إليها عدداً من المطابع ودار التأليف والترجمة ودار القلم، وفى أواسط الستينيات تحولت هذه المجموعة كلها إلى «دار الكاتب العربى»، وجاءت «الدكتورة سهير رئيسة لها لفترة وكنت فيها مسئولا عما يعرف بالسلاسل الدورية:

أعلام العرب - المكتبة الثقافية - الفكر الاشتراكى - المسرح - الروايات العالمية وغيرها، وكنت ألمس منها التوجيه الهادئ والنقد الرقيق والتشجيع والرضاء عن أعمالى، وعندما تولت رئاسة المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة للنشر، رأت أن تسند لى الإشراف على إدارة المجلات الثقافية «الكاتب - الفكر المعاصر - المجلة - عالم الكتب - المسرح - الفنون الشعبية - ثم مجلة الفنون التى رأست هى تحريرها».

وكانت مديرة قديرة مثابرة فى أعمالها، تؤمن بالتنظيم الإدارى الدقيق وأذكر لها الآن ما عرف بـ «اجتماع الثلاثاء» تعقده لنا فى مقر المطابع بالساحل والمبيضة ويحضره معها الراحلون: «منير حسبو وصلاح عبد الصبور وإسلام شلبى» ومجموعتنا المسئولة عن النشر والمعلومات: الراحلان العزيزان الشاعر «أحمد مخيمر» المسئول عن التصحيح، والشاعر «سعد درويش» المسئول عن المعاجم والموسوعات، وزميلنا المفكر الإسلامى حاليًا «د. عبد الصبور مرزوق»، وكاتب هذه السطور بالمسئوليات التى تكلمنا عنها آنفا، وأقرر الآن أننا جميعًا كنا نحسب لاجتماع الثلاثاء ألف حساب لأنها تحاسب فى مواعيد الإصدار، وفى شكاوى المؤلفين والكتاب وفى إيقاع الإصدار، وفى مستوى الإخراج إلى كل ما يلزم إصدار المطبوعات بشكل لائق.

وبعد . . هذه لمحات من سيرة الأستاذة الجليلة الدكتورة «سهير القلماوى» طيب الله ثراها، وجعل الفردوس مثواها، وإنا لله وإنا إليه راجعون .

الأسـانيد:

١ ـ المجلس الأعلى للثقافة . . سهير القلماوى تحية وفاء كلمات : «د. جابر عصفور ـ د. حسنين ربيع ـ د. حسين نصار ـ د. سمير سرحان ـ د. شكرى محمد عياد ـ د. عبد المنعم تليمة ـ د . فاطمة موسى ـ د. فرخندة حسن ـ د. محمود فهمى حجازى ـ د. مفيد شهاب ـ د. هدى بدران» .

٢ ـ سهير القلماوى التكوين، الريادة فى الأدب .

٣ ـ هيئة الاستعلامات . . الموسوعة القومية للشخصيات البارزة .

سيزا نبراوى .. «زينب محمد مراد»



هذه المرأة «زينب محمد مراد» التى عرفت فى تاريخ مصر الحديث باسم «سيزا نبراوى»، اشتركت فى تنظيم وقيادة أول مظاهرة نسائية عام ١٩١٩ ضد سلطات الاحتلال الإنجليزى، وهاتفة لثورة ١٩١٩م وبحياة «سعد زغلول» ومترحمة على أرواح الشهداء. هذه المرأة عرفتها الحركة الوطنية عام ١٩٥١ تطالب بتكوين «لجنة المقاومة» التى اندفعت تضرب جنود الاحتلال بحد السلاح حتى يخرجوا من بلادنا، فى الوقت نفسه عرفت «حركة السلام» التى نشطت فى تلك الفترة برياسة الصحفى المحامى المعروف «يوسف حلمى» ومعه الزميل الوطنى صاحب التاريخ الكفاحى «سعد كامل» والذى أشرف على مجلة «الكاتب» لسان حال حركة السلام. هذه المرأة المصرية «سيزا نبراوى»، كانت موضع تقدير مناضلى تلك السنوات وهم يرونها ويستمعون إليها، غالبية كلماتها بالفرنسية ممزوجة بكلمات عربية فى لكنة فرنسية. هذه السيدة عادت إليها الأضواء، وهى تعيد تكوين لجنة المقاومة داعية للوقوف فى وجه العدوان الإنجليزى الفرنسى الإسرائيلى على مصر عام ١٩٥٦م.

نابليون بونابرت:

فتى فرنسا البكر، أو سارى عسكر بونابرطه على حد تعبير «الجبرتى» . . زحف عام ١٧٩٨ إلى الرحمانية تجاه إمبابة، وهناك التحم جيش الحملة الفرنسية مسلحًا

بالمدافع والبارود وبأسلحة لم يعرفها المماليك بقيادة «مراد بك» وإبراهيم بك، ويعقد الجبرتى مقارنة طريفة بين الجنود الفرنسيين المسلحين بأسلحتهم الحديثة الفاتكة، وبين جنود المماليك بالعمائم ذات الألوان الزاهية وبالملابس الفضفاضة المزركشة. وبالخناجر المذهبة فى الأحزمة العريضة وبالسنج والسيوف المطهمة بالفضة، أو المعادن البراقة. وتمكن الفرنسيون من إلحاق الهزيمة النكراء بالمماليك. وعند إمبابة وقف نابليون يقول لجنوده وهو يشاهد أهرامات الجيزة.. إن أربعين قرنًا من الزمان تنظر إليكم. هزم مراد بك وهرب إبراهيم بك، ودخل جنود الاحتلال الفرنسى البيوت.

وسقطت القاهرة ونهب جنود الاحتلال الفرنسى ما فى البيوت، ووقعت زوجات الأمراء المماليك فى أسر الفرنسيين وفدين أنفسهن بمبالغ كبيرة.. ويقال إن زوجة مراد بك دفعت مبلغًا كبيرًا جدا من المال. والذى يهمنا هنا أن «مراد بك» هو جد «زينب مراد» أو «سيزا نبراوى» لأبيها، وزوجة مراد بك هى جدتها لأبيها أيضًا.

قصة مراد بك:

كانت «سيزا نبراوى» تذكر لروادها أنها إحدى المستحقات فى أوقاف جدها «مراد بك». وحتى نعرف تاريخ «مراد بك» نعود إلى عام ١٧٦٦م، حيث استقل «على بك الكبير» القادم من جورجيا بأمور مصر. وقام محمد بك أبو الدهب باغتيال على بك الكبير واستولى على السلطة. وكان عنده مملوكان «مراد بك» و«إبراهيم بك» وهما من جورجيا أيضًا وبموت «محمد أبو الدهب» انفرد مراد بك وإبراهيم بك بالنفوذ.. يتحالفان مرة. ويختلفان مرات. ولجأ كل منهما إلى المؤامرات والمناورات. تحالف إبراهيم بك مع أمراء الصعيد ووقعت حرب طاحنة بين مراد بك وإبراهيم بك إلى أن جاء الطاعون واجتاح البلاد فانكسرت شوكة الاثنين.

أصبح مراد بك «شيخ البلد» وسيطر على القاهرة وبنى قصرًا فاخرًا. ونزلت قوات الحملة الفرنسية على الساحل تجاه غرب الإسكندرية فى الدخيلة والعجمى

عام ١٧٩٨م. وحمل المصريون السلاح دفاعًا عن وطنهم بقيادة «محمد كريم»، وسارع «محمد كريم» بإبلاغ مراد بك وإبراهيم بك اللذين سارعا بمواجهة الفرنسيس عند الرحمانية. وأسرع الفرنسيون بإعدام «محمد كريم» وإلحاق الهزيمة بالمماليك، ودخلوا القاهرة وإذلالاً لمراد بك، احتل نابليون قصر مراد بك وانتهى به الأمر بمهادنة الفرنسيين، وانتهت حياته السياسية خاصة أن مصر عانت فى فترة حكمه من البؤس والشقاء، وفى عام ١٨٠٥ استولى «محمد على الكبير» على زمام الأمور فى مصر. وتولى أمور «المماليك المرادية» شاهين بك المرادى الذى توفى فى مايو ١٨٠٨م.

وعام ١٨١١م قضى محمد على باشا على المماليك فى مذبحة القلعة الشهيرة بعد أن أغلق أمامهم «باب العزب» الذى عادت إليه الشهرة فى الفترة الأخيرة عندما ثارت زوبعة باب العزب وترميم المنطقة.

قصة الزوج:

من المعروف أن عصر الجد الأكبر «مراد بك» كان يعرف بعصر الحريم الذى يخالف البيئة الفرنسية التى تربت فيها «زينب محمد مراد» فترة من حياتها، ويختلف مع عصر نهضة المرأة المصرية وليدة الثورة الشعبية الكبرى عام ١٩١٩م. وكان مما نادت به حركة تحرير المرأة المصرية أن تكون العصمة بيد الزوجة، وأن يكون المهر ٢٥ قرشًا. على أية حال فى صالون «هدى شعراوى» تعرفت إلىّ أو تعرف إليها مثّال ونحّات وعبقرى من مدرسة «مختار»، هو المثّال والنحّات «مصطفى نجيب» الذى ولد عام ١٩١٣م، وتوفى عام ١٩٩٠م.

أى أنه أصغر منها بـ ١٦ عامًا، «ولدت زينب المرادية عام ١٨٩٧م»، ورحلت عام ١٩٨٥ وعاش بعدها خمس سنوات، رحل عام ١٩٩٠»، وكان قد عمل فى فترة من حياته رئيسًا لقسم النحت بالتليفزيون منذ تأسيسه أى تأسيس التليفزيون.

عرفته سيزا شابًا يعتز بلحيته العربية التى لا تطول مثل لحى اليهود، ويعتز بعباءته العربية التى يرتديها فوق ثيابه الأوروبية. ظلت هى عازفة عن الزواج، وكانت

تقول إنها ستظل راهبة لقضايا المرأة المصرية إلى أن كان عام ١٩٣٧م وهى فى الأربعين من عمرها وهو فى الرابعة والعشرين من عمره حصل النصيب وعاشا معًا لمدة أربع سنوات فقط، وفى عام ١٩٤١م انفصلا. كان مثّالاً ونحّاتًا عبقريًا من مدرسة مختار كما قلنا إلا أن الظروف اضطرته إلى أن يدير ورشة نجارة عند المقاول الشهير «محمد حسن العبد باشا» قريب أستاذ الفلسفة الكبير المعتزل اختياريا فى فرنسا «الدكتور عبد الرحمن بدوى». وكان موقع هذه الورشة فى «المعصرة» إحدى ضواحى القاهرة. المهم أن المثّال النحّات «مصطفى نجيب» صنع تمثالاً للخديو إسماعيل. وصنع تمثالا للملك فؤاد فى بداية الخمسينيات.. ودخل فى روع حاشية الملك وراقت الفكرة للملك فاروق نفسه، ورأى الملك فاروق أن يوضع تمثال جده الخديو إسماعيل فى ميدان عابدين، وأن يوضع تمثال والده الملك فؤاد فى مكان ميدان التحرير حاليًا. وحتى ينظر الخديو إسماعيل أو بالأحرى تمثاله إلى تمثال ابنه الملك فؤاد ينبغى إزالة ما يقرب من نصف حى عابدين، ولكن الحلم تبدد لأن حكومة الوفد برئاسة «مصطفى النحاس» «١٩٥٠ ـ ١٩٥٢» لم تكن تسمح بتشريد أهالى حى عابدين.

وصنع «مصطفى نجيب» تمثالاً لأحمد عرابى. استقر هذا التمثال أمام محطة سكة حديد مدينة الزقازيق عاصمة مديرية الشرقية «محافظة حاليا»، وهى المديرية التى خرج منها «أحمد عرابى».

من زينب إلى سيزا:

فى ٢٤ مايو عام ١٨٩٧م أى بعد نهاية أمجاد جدها «مراد بك» على أيدى نابليون بحوالى مائة عام ولدت الطفلة «زينب محمد مراد» فى إحدى قرى مركز السنطة مديرية الغربية، وفى الشهر العاشر من عمرها انفصل والدها عن والدتها. كفلتها بنت خالة أمها «عديلة هانم نبراوى» وأسمتها «سيزا» وأعطتها لقب أسرتها، فتحولت الطفلة «زينب محمد مراد» إلى سيزا نبراوى، تلقت تعليمها فى مدرسة فرنسية بالإسكندرية، ثم سافرت أسرتها الجديدة، أسرة بنت خالة أمها «عديلة هانم

نبراوى» إلى باريس عام ١٩٠٥م، وكان عمر «سيزا» ثمانى سنوات. تعلمت فى مدرسة «دى فرساى» فأجادت الفرنسية منذ صغرها. وعام ١٩١٣م، وكانت «سيزا» فتاة فى السادسة عشرة من عمرها دخل الخلل إلى أسرتها الجديدة، فانفصلت بنت خالة أمها عديلة هانم نبراوى عن زوجها. وجدت الفتاة سيزا نفسها فى مفترق الطريق ولم تذهب إلى والدتها ولا إلى والدها ولا إلى قريبة أمها، وإنما عاشت مع جدها «أمين باشا عبد الله» وعزفت عن الزواج إلى أن تزوجت من النحّات «مصطفى نجيب» عام ١٩٣٧م وانفصلا عام ١٩٤١م. ووافاها الأجل المحتوم فى ٢٤ فبراير عام ١٩٨٥ عن عمر يناهز الثمانية والثمانين، وقد نسى الناس اسمها الأصلى «زينب محمد مراد»، ولم يبق سوى اسمها الجديد «سيزا نبراوى» وسيرتها الطيبة.

الوطـن والمـرأة:

اتصلت «سيزا نبراوى» برائدة العمل النسائى فى مصر «هدى شعراوى»، وشاركتها فى جهودها من أجل الحركة النسائية. عام ١٩١٩م، دعت «هدى شعراوى» بتوجيهات من «صفية زغلول» يوم ١٦ مارس بعد أسبوع واحد من الثورة الشعبية الكبرى عام ١٩١٩م إلى المظاهرة النسائية المعروفة والتى استقبلتها نساء وبنات مصر من الشرفات والنوافذ بالهتافات والزغاريد. والترحم على شهيدات وشهداء الثورة وتحية سعد باشا والمطالبة بالإفراج عنه وعودته من المنفى. ولم ترهب النساء قوات الاحتلال التى اصطفت لمحاصرة المظاهرة التاريخية.

وعام ١٩٢٣م اشتركت «سيزا نبراوى» مع «هدى شعراوى» فى تأسيس «الاتحاد النسائى».. وصدر القانون بتحديد سن زواج الفتيات ١٦ سنة حماية للفتيات الصغيرات اللاتى كن يزوجونهن فى أعمار صغيرة جريًا وراء تقاليد بالية، أو منافع مادية، أو رغبات شخصية، وعام ١٩٢٥ كان «سعد زغلول» قد أزاح البرقع عن وجه زوجته «صفية»، فظهرت دون حجاب وسارعت هدى شعراوى ونبوية موسى وسيزا نبراوى بتقليد صفية زغلول. ورأست «سيزا نبراوى» تحرير مجلة «المصرية» باللغة الفرنسية، ثم أصدرتها باللغة العربية.

ومن الطريف وأنا أكتب هذا الموضوع سمعت أن بيروت تعيد طبع هذه المجلة بالفرنسية والعربية. وتمنيت لو كانت مؤسسة مصرية . . من مؤسسات وزارة الثقافة المصرية المتخصصة فى النشر قد قامت بمثل هذا العمل المهم . . هيئة الكتاب أو المجلس الأعلى للثقافة أو هيئة قصور الثقافة.

وأسهمت «سيزا نبراوى» فى تأسيس «الاتحاد النسائى العربى» عام ١٩٤٤ . وأصبحت لها سمعة تشرف المرأة المصرية على المستوى العالمى، فشاركت فى عديد من المؤتمرات النسائية خارج مصر، واختيرت نائبة لرئيسة الاتحاد النسائى العالمى.

وفى العودة إلى مواقفها الوطنية نراها عام ١٩٥١م بعد أن ألغى «مصطفى النحاس باشا» معاهدة ١٩٣٦م. نرى سيزا نبراوى وقد دعت إلى الكفاح المسلح فى منطقة القناة، واشتركت على رأس مظاهرة طالبت بمصادرة أموال الإنجليز. ومقاطعة البضائع الإنجليزية، وذكرنا آنفًا أنها أثناء العدوان الثلاثى . . الفرنسى الإنجليزى، الإسرائيلى عام ١٩٥٦ على مصر، أعادت تكوين «لجنة المقاومة» التى كانت قد دعت إليها عام ١٩٥١م.

يا نساء مصر اتحدن:

مسيرة «سيزا نبراوى» إضافة ممتازة لرائدات الحركة النسائية فى مصر. تناولنا هنا فى مشروع «هذه المرأة من مصر» وهو جزء لا يتجزأ من المشروع العام «هذا الرجل من مصر»، تناولنا تحت عنوان «هذه المرأة من مصر» عشر شخصيات نسائية: صفية زغلول - أم كلثوم - ملك حفنى ناصف «باحثة البادية» - د. عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطئ - روزاليوسف - هدى شعراوى - سلوى حجازى - د. سهير القلماوى - أمينة السعيد - وأخيراً سيزا نبراوى».

كل شخصية منهن لها دورها المتميز وقيمتها المتفردة، مما يجعل ضرورة لتضافر جهودهن من أجل الوطن أولاً ومن أجل قضايا المرأة المصرية ثانيًا. صفية زغلول قرينة زعيم الأمة سعد زغلول قدمت لنساء مصر نموذجًا لحفز همة نساء مصر أثناء

اعتقال الزعيم ورفاقه من المناضلين. أم كلثوم بنت ريفية من قاع المجتمع المصرى تقدمت بشخصيتها وبفنها وبذكائها إلى الصفوف الأولى من المجتمع المصرى. وتحولت إلى داعية لوحدة العرب حول الفن المصرى رفيع المستوى. أما باحثة البادية «ملك حفنى ناصف» فقد ضربت مثلا ذكيًا فى دعوتها لحقوق المرأة وإصلاح حالها عن طريق الاسترشاد بالسلوك الدينى القويم، وفى غير معركة مع الرجل مثلما فعلت نساء أخريات. وعلى الدرب نفسه سارت بنت الشاطئ د. عائشة عبدالرحمن بأن قدمت التراث الدينى وعكفت على تفسيره وتقديمه فى صورة عصرية، فالتف حولها الرجال والتف حولها النساء أيضًا. فاطمة اليوسف أو روزاليوسف نموذج المرأة السياسية المناضلة فى سبيل وحدة نساء مصر وتشكيل التنظيمات النسائية. وتأثرت بها نساء كثيرات، أما سلوى حجازى فهى ابنة التليفزيون دخلت قلوب الناس وهم فى منازلهم أمام الشاشة الساحرة الصغيرة، شاشة التليفزيون. والسيدة أمينة السعيد امتشقت سلاح القلم دفاعًا عن وحدة هذا الشعب العظيم أيام أن تعرضت هذه الوحدة لترهات عدد من المتطرفين. وأستاذتنا الدكتورة سهير القلماوى نموذج الأستاذة الجامعية التى ربطت قيمتها الجامعية بحركة المجتمع وتطوره، وقدمت فى المجالين الكثير. وإذا وصلنا إلى شخصيتنا الحالية «سيزا نبراوى» فإننا نلمس فيها توجها مهما. اشتركت مع «هدى شعراوى» فى تأسيس «الاتحاد النسائى المصرى»، وهو تنظيم نسائى مهم استطاع أن يحقق بعض الخطوات إلى الأمام على طريق حقوق المرأة فى مصر. ثم أصبحت نائبة لرئيس الاتحاد النسائى العالمى. وشاركت فى المؤتمرات النسائية العالمية.

ماذا إذن لو اتحدت هذه القدرات والمهارات والعطاء الذى تميزت به كل واحدة من النماذج التى قدمناها حتى الآن، أحسبنى على صواب لو قلت إن وحدة النساء المصريات يمكن أن تكون قوة دافعة فى سبيل قضايا الوطن وقضايا المرأة . . إن مشاركة النساء فى الأحزاب السياسية والتنظيمات الفكرية والاجتماعية مسألة مهمة لا شك فى هذا. ونحن ندعو إلى استمرارها وتدعيمها . . ولكن هذا لا يمنع تجميع هذه القوى النسائية فى اتحاد يمكن أن يؤثر فى حقوق الإنسان المصرى، وفى دعم الديمقراطية والحريات السياسية. وهذه بعض خواطر ألقى بها إلينا حديثنا عن سيزا نبراوى التى دعت عام ١٩٥١ إلى الكفاح المسلح فى منطقة القناة ودعت إلى تكوين

لجان المقاومة عام ١٩٥٦ . رحم الله «زينب محمد مراد» التى عاشت بيننا طوال حياتها باسم «سيزا نبراوى» .

الأسانيد:

١ ـ د. أمال السبكى . . الحركة النسائية فى مصر ١٩ ـ ١٩٥٢ .

٢ ـ حسين كفافى . . محمد على .

٣ ـ عز الدين نجيب . . التوجه الاجتماعى للفنان المصرى الحديث .

٤ ـ عبد المنعم شميس . . شخصيات مصرية .

الدكتورة سـميرة موسى ..



صدق ثم صـدق أن مصر فقدت فى ١٥ أغسطس سنة ١٩٥٢ عبقرية نادرة اسمها «الدكتورة سميرة موسى» ابنة «الحاج موسى على أبو سويلم»، ابنة (قرية سنبو الكبرى) زفتى - غربية، بلديات الثائرين العظيمين «عوض ويوسف الجندى» اللذين أعلنا قيام إمبراطورية أو جمهورية زفتى فى مواجهة الإمبراطورية البريطانية عام ١٩٢٩م . كانت «سميرة موسى على أبو سويلم» عبقرية نادرة منذ حداثتها .

* فى ٢٣ أغسطس عام ١٩٢٧م رحل زعيم الأمة «سعد زغلول»، وفى اليوم التالى خرجت الصحف المصرية مجللة بالسواد تنعى الزعيم العظيم . كانت «سميرة موسى» فى العاشرة من عمرها أو العاشرة وخمسة أشهر على وجه الدقة (ولدت فى ٣ مارس سنة ١٩١٧م) وامتلأت دار «الحاج موسى على أبو سويلم» بالفلاحين يبكون زعيمهم الفلاح . وجلست التلميذة الصغيرة «سميرة» على الدكة تقرأ على الفلاحين (الجريدة) وبها نعى الزعيم فى عدة صفحات . ثم توالت الوفود، وكانت «سميرة» قد حفظت عن ظهر قلب ودون استعانة بالجريدة، فأعادت ما جاء بها وكانت قد قرأته سلفًا .

* عام ١٩٣٣ قامت بتأليف كتاب فى مادة (الجبر) وكانت فى السادسة عشرة من عمرها . وقبل أن نضرب كفًا بكف دهشة كما فعل الفلاحون عندما سمعوها تقول عن ظهر قلب النعى الكبير لسعد باشا دون أن تنظر فى (الجورنال) نعود إلى كتاب

زميلنا «عبد الله بلال ـ الدكتورة سميرة موسى، اغتيال العقل العربى، لنجده قد سجل البيانات الخاصة بهذا الكتاب ليعود إليها من يريد التأكد منها:

(الجبر الحديث . . لطلبة السنة الأولى الثانوية ـ حسب المنهج الذى أقرته وزارة المعارف العمومية . . تأليف سميرة موسى بمدرسة بنات الأشراف، الطبعة الأولى سنة ١٩٣٣ ـ مطبعة وادى النيل ومكتبها بالفجالة ـ مصر)، وسوف نسير معًا فى حكاية هذه العبقرية المصرية النادرة من البداية للنهاية .

جريدة «المصرى»:

العدد (٥٢٨٩) بتاريخ (الثلاثاء ـ ١٩ أغسطس) ١٩٥٢ تنشر الخبر التالى: واشنطن ـ قال المتحدث باسم السفارة المصرية فى واشنطن اليوم أن الآنسة سميرة موسى على الطالبة المصرية التى تتلقى العلم فى الولايات المتحدة قتلت فى حادث سيارة بعد أن أتمت دراستها فى جامعة أوكروج بولاية تنسى الأمريكية . هذا هو الخبر الذى نشرته جريدة (المصرى) ـ أما التعليقات فهى كثيرة ومختلفة وقد تأخرت كثيراً ، ونبدأ بثلاثة منها ثم نوالى نشر الشهادات:

* الدكتور عبد العظيم أنيس العالم والمفكر وزميل دراسة مع «الدكتورة سميرة موسى»، كتب فى جريدة (الجبل) يوم الأحد ٧ مارس ١٩٩٩ . . (سميرة موسى كانت معيدة فى قسم الفيزياء بالكلية عندما كنا طلبة فى الأربعينيات ثم أرسلت فى بعثة إلى أمريكا للتخصص فى البحوث الذرية . والذى حدث أنها بعد حصولها على الدكتوراه فى الولايات المتحدة، وقبل أن تعود إلى مصر انقلبت سيارة كانت تقودها وماتت فى هذا الحادث وهى ما تزال فى أمريكا . وكانت ظروف وفاتها قبل عودتها إلى مصر مباشرة باعثة على إثارة بعض الشكوك لدى البعض بأن الحادث مدبر وليس قضاء وقدراً . حدث هذا منذ سنين بعيدة، ولا يستطيع أحد تأكيد مثل هذه الشكوك التى قد تكون محض خيال، أو تأكيد نفيها . .) هذا هو ما كتبه «الدكتور عبد العظيم أنيس» وهو حافز على دراسة الموضوع بدقة .

* عادل حمودة . . الكاتب الصحفى بجريدة الأهرام فى ١٩ يونيو عام ١٩٩٩

نشر مقالاً ضافيًا في جريدة الأهرام بعنوان (سهرة في بيت سميرة موسى) يذكر فيه (أنه نجح لأول مرة في الحصول على ملفاتها في الإدارة الأمريكية طبقًا لقانون حرية إباحة المعلومات. وفي الولايات المتحدة طلبوا منها وألحوا عليها أن تبقى، وأن يمنحوها الجنسية الأمريكية.. ولكنها رفضت وأصرت على العودة إلى الوطن. وصدر قرار سرى بألا تعود، وإذا أصرت على العودة فلتعد جثة هامدة في تابوت. وكانت سميرة موسى أولى الضحايا في مسلسل دموى شرس.. راح ضحيته (١٤٦ عالم ذرة في دول العالم الثالث، في الفترة من عام ١٩٥٩ - ١٩٨٥) المسألة محسومة في ذهن «عادل حمودة» حسب المعطيات التى استطاع أن يحصل عليها.

* عبد الله بلال.. مؤلف كتاب (اغتيال العقل العربي.. سيرة ذاتية لأولى شهداء العلم.. د. سميرة موسى) من الغلاف الأول إلى الغلاف الأخير، ومن السطور الأولى في (مقدمة لابد منها) فإن «عبد الله بلال» يقول بوضوح: «سميرة موسى.. عالمة الذرة المصرية التى اغتالها عملاء الموساد الإسرائيلى يوم ١٥ أغسطس ١٩٥٢ في أمريكا». وهو يحشد عدداً من الشهود يقفون معه يؤيدون ما يذهب إليه، وكانت هذه الشهادات التى نشير إلى بعضها هنا دافعًا له ليصل إلى ما وصل إليه من النتيجة السابقة.. ونحن هنا ننادى على شهود الإثبات.

وكانت مأساة الرحيل:

* الكاتب الناقد رجاء النقاش في مجلة الشباب عدد ٢٤٩ (٢ أبريل عام ١٩٩٨) وتحت عنوان (قتلوها في أمريكا) يقول: في يوم ١٥ أغسطس ١٩٥٢ كانت سميرة موسى تركب سيارتها مع زميل لها قيل إنه هندى، وفجأة هوت السيارة من قمة جبل وماتت سميرة ونجا زميلها الهندى الذى قفز من السيارة وهرب واختفى إلى الأبد، ولم يعرف أحد عنه شيئًا حتى الآن.

.. وكانت قد أرسلت قبل وفاتها بأيام تقول إنها تستعد للقيام بدراسات غاية في الأهمية بعد أن سمحوا لها بزيارة المعامل السرية لأبحاث الذرة في أمريكا. كانت هذه النهاية المؤلمة لسميرة موسى، وكل ملابسات هذه النهاية تؤكد أنها ماتت مقتولة

مع سبق الإصرار والتعمد، فليس معقولا أن تهوى سيارة من فوق جبل، ويقفز زميلها الهندى من السيارة وينجو، أما هى فتموت.

* الكاتب الصحفى صالح مرسى «مجلة المصور»: كانت ثمة نوتة صغيرة سوداء اللون سلمها البوليس الأمريكى لرجال السفارة المصرية فى واشنطن ضمن مخلفات سميرة، وسلمتها الخارجية المصرية إلى والدها عم موسى على. . كانت النوتة عندما تم فتحها تبدو خاصة للغاية. . التفت إلى والدها عم موسى فى نظرة متسائلة. هز الرجل رأسه سامحًا بأن أقرأ ما فيها وليس مهمًا أن نعرف محتويات هذه النوتة. إنما المهم هى تلك الجملة التى كانت آخر ما خطت به سميرة موسى، وكانت خواطرها التى كانت تحرص على كتابتها. . آخر جملة كانت . . (ثم غربت الشمس)!!.

* الكاتبة الصحفية أمل شريف. . مجلة الشباب فبراير ١٩٩١م: فى أحد أيام شهر أغسطس ١٩٥٢ خرجت عالمة الذرة المصرية الدكتورة سميرة موسى من بيتها فى طريقها إلى معهد العلوم النووية بجامعة كاليفورنيا. . والطريق بين البيت والمعهد يخترق تلاً عاليًا تسير فيه السيارات على ارتفاع ٤٠ قدمًا. وقبل دقائق طرق بابها زميل لها كى يركب معها سيارتها. وقادت سميرة موسى السيارة ومعها الزميل الهندى، وفجأة ظهرت فى مرآة السيارة سيارة نقل ضخمة تسير خلف سيارتها وتقترب منها بشدة. فأفسحت لها د. سميرة الطريق لتعبره، وأصبحت سيارة العالمة المصرية على حافة الهاوية، وراحت السيارة الأخرى تضغط على سيارة سميرة وتقترب منها وتصدمها صدمات شديدة لتدفعها للسقوط فى الهاوية، وإذ بزميلها الهندى يقفز من السيارة وإذ بسيارة سميرة تهوى من ارتفاع ٤٠ قدمًا لتلقى أول عالمة ذرة مصرية مصرعها.

* الكاتب الصحفى عمر طاهر مجلة نصف الدنيا عدد ١٥/ ٦/ ١٩٩٧: صبيحة يوم ١٥ أغسطس ١٩٥٢ استقلت د. سميرة موسى سيارتها التى يقودها سائق هندى الجنسية، واتجهت إلى كاليفورنيا بدعوة خاصة لزيارة معامل الأبحاث النووية بها. . وفجأة صدمت سيارة د. سميرة سيارة أخرى، وقامت بدفعها للهاوية فسقطت السيارة من أعلي جبل لتموت د. سميرة موسى.

* الكاتب الصحفى جميل عارف . . جريدة (المصرى السياسى) ٢٠ ديسمبر ١٩٩٨ : كان بصحبتها فى السيارة مرشد من أصل هندى قيل إن إدارة المفاعل الذرى كلفته بإرشادها إلى طريق الوصول إلى مكان المفاعل . . وبينما كانت سميرة موسى تمر بسيارتها فى طريق جبلى ظهرت أمامها فجأة سيارة نقل كانت مختفية عند أحد منحنيات الطريق لتصطدم بسيارتها بقوة، وتلقى بها فى واد عميق من ارتفاع قدر بحوالى ٤٠ قدما وأذكر أن المرحوم «الدكتور محمد حسن الزيات» (وزير الخارجية المصرية فيما بعد) كان يعمل وقتها مستشاراً ثقافيًا لمصر فى واشنطن، وكان من رأيه أن قوة خفية وراء عملية اغتيال عالمة الذرة المصرية .

* الكاتب الصحفى أحمد زكى عبد الحليم فى كتابه (نساء فوق القمة) : تلقت الدكتورة سميرة موسى دعوة للسفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٥١ طبقًا لبرنامج فولبرايت . وبدأت تستعد للعودة حين دعيت إلى رحلة استجمام قبل العودة . وركبت الدكتورة سميرة موسى السيارة، وفى منطقة مرتفعة اندفعت السيارة لتسقط فى الهاوية ومعها الدكتورة سميرة موسى، بينما قفز منها قائدها واختفى إلى الأبد .

حكاية راقية إبراهيم:

ونستكمل الروايات بحكاية «راقية إبراهيم»، وهى الممثلة المصرية يهودية الديانة . كانت «راقية» فى لندن فى فترة كانت فيها هناك «سميرة موسى» للدراسة، وأهدت صورتها إلى «سميرة موسى» بعبارات كتبتها باللغة الإنجليزية . ويثير «عبدالله بلال» فى حديثه معى الشكوك حول دور لراقية إبراهيم فى مصرع «الدكتورة سميرة موسى» وسنده فى ذلك ما جاء فى كتاب «الكاتب سليمان الحكيم عن اليهود المصريين، وأصدر أخيراً كتابًا عن الفنانة تحية كاريوكا . يقول «سليمان الحكيم» إن الفنانة المصرية اليهودية «راقية إبراهيم» زارت إسرائيل وأشادت بها كما تم تعيينها عضواً للإعلام فى وفد إسرائيلى بالأمم المتحدة، وفى نفس توقيت مصرع سميرة موسى! ويضع عبدالله بلال فى حديثه معى أكثر من علامة استفهام حول دور «راقية إبراهيم» فى مصرع «د. سميرة موسى» و«عبدالله بلال» شأنه شأن

«عادل حمودة» فهما لا يترددان فى اتهام (الموساد) باغتيال «د. سميرة موسى» ود. يحيى المشد، ود. جمال حمدان، ود. أحمد الجمال، ود. سعيد سيد بدير، ويوسع «بلال» دائرة الاتهام فيضم إلى قائمة الذين اغتالتهم إسرائيل. . الدكتور نبيل البلقينى والدكتورة سلوى حبيب.

السؤال الحائر:

مضى على تاريخ مصرع «الدكتورة سميرة موسى» فى ١٥ أغسطس ١٩٥٢م ٤٨ «ثمانية وأربعون عامًا» لم يفتح فيها ملف مصرع «د. سميرة موسى». وطوال هذه المدة اقترب من الملف عدد من المثقفين والكتاب والباحثين بقدر ما أوتوا من رؤية وجميعهم بحمد الله على قيد الحياة أمد الله فى أعمارهم ومتعهم بالصحة والعافية. نحن نضع الآن مسئولية فتح ملف غروب الشمس د. سميرة موسى أمام الوزيرين «الدكتور محمد مفيد شهاب» وزير التعليم العالى ووزير الدولة للبحث العلمى، ويدخل فى نطاق ولايته موضوع عالمة الذرة «الدكتورة سميرة موسى». ونضعه أمام «عمرو موسى» وزير الخارجية، والموضوع يدخل أيضًا فى نطاق وزارته. والوزيران بما يتمتعان به من حس وطنى كفيلان بتشكيل لجنة مشتركة على مستوى مسئولية مثل هذا العمل لجمع كافة المعلومات والبيانات والوثائق الخاصة بهذا الموضوع المهم ومحاولة الوصول إلى الحقيقة، أو على الأقل الاحتفاظ بها لجيل قادم ربما يمكنه الوصول إلى الحقيقة. وأعتقد أن معلومات «عادل حمودة وعبدالله بلال» ستكون مفيدة لهذا الملف رغم أن «عادل حمودة» قد توقف وهو يلهث وراء أسرار اغتيال عالم الذرة المصرى الدكتور «يحيى المشد» بآلة حادة على رأسه فى فندق ميريديان باريس على يد الموساد فى مساء يوم الخميس ١٣ يونيو ١٩٨٠م، وقد نجح لأول مرة فى الحصول على نسخة من ملفاتها فى الإدارة الأمريكية طبقًا لقانون حرية إباحة المعلومات وبمساعدة صحفيين يؤمنون بحرية الكلمة.

الزمـان .. والمكـان:

فى ٢ مارس عام ١٩١٧ ولدت «سميرة موسى على» لتنضم إلى ست شقيقات أخريات «هانم وفتينة ووديعة وعواطف وفكرية ومسرات» وأصبح للحاج موسى على ولدان وسبع بنات. بدأت «سميرة» بمدرسة (سنبو) الأولية، وحفظت أجزاء من القرآن الكريم. والتحقت بمدرسة قصر الشرق الابتدائية بالقاهرة، ثم مدرسة بنات الأشراف الثانوية. وكان ترتيبها الأولى فى الابتدائية والثانوية. واختارت كلية العلوم بجامعة فؤاد الأول، وحصلت على بكالوريوس العلوم عام ١٩٤٢، وكانت الأولى على الدفعة. وساندها «د. على مصطفى مشرفة» لتكون أول معيدة بالكلية. وسافرت إلى إنجلترا ثم أمريكا للدراسة. وكتبت «سميرة» إلى والدها من لندن: (وجودى فى هذا المعهد لدراسة استخدام المواد المشعة فى العلاج مهم جداً. لو كان فيه معمل فى مصر يا بابا كنت قدرت أعمل حاجات كثيرة)، وفى رسالة أخرى إلى الحاج موسى من أمريكا: (الحياة فى إنجلترا لم تكن تعجبك، لست أدرى ما الذى يمكن أن تقوله لو رأيت الحياة هنا فى أمريكا، إن كل إنسان فى الولايات المتحدة يفعل ما يشاء، والحرية هنا إلى أبعد حدودها، وليست هناك عادات وتقاليد كتلك التى نعرفها فى مصر، ويعرفها الإنجليز فى إنجلترا).

أصحاب الفضـل:

صاحب الفضل فيما وصلت إليه «د. سميرة موسى» بعد الله سبحانه وتعالى هو:

* الحاج موسى على: بابا سميرة موسى الذى نشأ فى مناخ ثورة ١٩١٩ التى جاءت بمساواة المرأة بالرجل وبالمناخ الليبرالى، حيث البرلمان والدستور وحرية الصحافة والأحزاب. وكانت ثورة ١٩١٩ وسعد زغلول وجمهورية زفتى وعوض ويوسف الجندى فى ذهنها وفى ضميرها دائماً والحاج موسى على ترك الزراعة فى القرية وانتقل إلى القاهرة ليكون إلى جانب ابنته فى مدرسة قصر الشوق والجمالية وبنات الأشراف وكلية العلوم، وافتتح (لوكاندة) بسيدنا الحسين، ثم (فندق وادى النيل) بميدان العتبة الخضراء ونشر لها كتابها (الجبر الحديث) على نفقته، وأعطاها

كل الثقة فى نفسها لتسافر إلى بلاد الإنجليز والأمريكان لتعيش هناك وتتعلم متمسكة بتقاليد بلادها ودينها.

* نبوية موسى: المربية الفاضلة التى ترعى وجه الله وتعاليمه والتى ربت المدرسات والتلميذات على الخلق القويم.. فكرت «سميرة» أن تترك المدرسة إذ لم يكن فيها معمل فبادرت «نبوية موسى» بإنشاء المعمل فى المدرسة.. فربت ابنة قرية (سنبو الكبرى) ورعتها وشجعتها إلى أن أدخلتها كلية العلوم. وفى كلية العلوم كان هناك صاحب فضل آخر:

* الدكتور على مصطفى مشرفة: أستاذ «د. سميرة موسى، ود. عبد العظيم أنيس، ود. عبد المعبود الجبيلى، ود. أحمد حماد، ود. جمال الفندى» وغيرهم من علماء مصر العظام. اختاره «على زكى العرابى» وزير المعارف فى ٢٧ مايو ١٩٣٦ - فى عهد حكومة مصطفى النحاس (٩ مايو ٣٦ - ٣١ يوليو ١٩٣٧)، اختاره عميداً لكلية العلوم، وأصبح عميداً لأربعة عشر عامًا ولأربع مرات. هذا الرجل من مصر اختار (سميرة موسى على» - كأول معيدة فى كلية العلوم - جامعة فؤاد الأول. ثم سافرت (مس كورى المصرية) إلى إنجلترا وبعدها إلى أمريكا وجرى ما جرى.

الأسانيد:

١ - سليمان الحكيم.. يهود ولكن مصريون.

٢ - عادل حمودة.. جريدة الأهرام ١٩ يونيو ١٩٩٩.

٣ - د. عبد العظيم أنيس.. جريدة الجيل ٧ مارس ١٩٩٩.

٤ - عبد الله بلال.. اغتيال العقل العربى (د. سميرة موسى).

٥ - لمعى المطيعى.. موسوعة هذا الرجل من مصر (المجلد الأول).

صفية زغلول



يقال إن الباحث فى المجتمعات العربية عندما يتحدث عن المرأة فإنه يسير على أرض مليئة بالألغام. . ونحن هنا وفى جريدة أعرق حزب ليبرالى كتبنا من قبل عن: (هدى شعراوى، وروزاليوسف، وأم كلثوم، وملك حفنى ناصف، والدكتورة عائشة عبد الرحمن، وأمينة السعيد)، ولم ننس أن نكتب عن «سلوى حجازى» فى الوقت الذى نسيها فيه ذووها وزملاء دربها.

وقد وجدت قضية المساواة بين المرأة والرجل دعما من الثورة الوطنية الديمقراطية، الثورة الشعبية الكبرى، ثورة ١٩١٩م. ونحن الآن نعيش الاحتفال بذكرى مرور ٨٠ عاما على ثورة ١٩١٩م. وكان للنساء المصريات دور مشهود فى هذه الثورة. وكان ذلك متمثلا فى الدور التاريخى الذى قامت به.

عبدالعزيز فهمى بك أحد الثلاثة الذين ذهبوا إلى «ونجت» المعتمد البريطانى فى ١٣ نوفمبر عام ١٩٢٨م، ذهب إلى بيت الأمة ليشد من أزر «أم المصريين» بعد اعتقال سعد باشا وأمام حماستها ورباطة جأشها اختنقت عبراته وبكى. وكان إلى جواره عضو الوفد فى تشكيله الأول «محمد على علوبة بك» الذى هتف «لتحيا أم المصريين وليحيا الاتحاد» فردد الجميع هذا الهتاف من ورائه ومعهم عبدالعزيز فهمى بك. «باشا فيما بعد».

و«صفية زغلول» عاشت فى كنف زعيم يحرص على تحرير الشعب بفئاته المختلفة، برجاله ونسائه، بمسلميه وأقباطه، وبعماله وفلاحيه، وبرأسمالييه وكبار

فلاحيه، ثورة ١٩١٩م ثورة شاملة فى الصعيد والوجه البحرى. شارك فيها العمال والفلاحون مع الرأسماليين وكبار الملاك، وأيدها عدد من الأمراء والنبلاء.. الأمير محمد على توفيق بن الخديو توفيق، والنبيل عباس حليم، والأمير عزيز حسن ومن «صفية زغلول» إلى «إستر فهمى ويصا».

وللمرأة المصرية تاريخ.. فقد قامت الحضارة المصرية القديمة منذ البداية على المساواة بين المرأة والرجل، ولقد شاركت المرأة المصرية فى ثورة أحمد عرابى.. سجل «برودلى» الذى تولى الدفاع عن «أحمد عرابى» بتكليف من صديقه «بلنت».. (لقد وجد عرابى لدى سيدات مصر تأييدا للقضية الوطنية ومبادئ عرابى منذ اللحظة الأولى).

وفى اليوم الثانى لضرب الإسكندرية ١٢ يوليو عام ١٨٨٢، هبت كل فتيات مصر وبنات الأسر الكبيرة لجمع التبرعات ومؤازرة قوات عرابى.

ثم جاءت دعوة «قاسم أمين» على أشدها فى أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين، ثم وجدت هذه الدعوة مناخا ملائما فى الثورة القومية الكبرى ثورة ١٩١٩م، ووجدت تفهما مستنيرا من زعيم الأمة «سعد زغلول».

ويرى بعض الباحثين أن كتاب قاسم أمين الذى صدر عام ١٨٩٩م بعنوان (تحرير المرأة» يرى أن هذا الكتاب تم وضعه فى جنيف، وأن الأفكار لأحمد لطفى السيد والتأييد الدينى من «الشيخ محمد عبده» وأن الصياغة عليها بصمات «سعد زغلول»، حين كان هؤلاء جميعا فى جنيف فى تلك الفترة وحدد بعض الباحثين أن هؤلاء عندما كانوا يصطافون في جنيف عام (١٨٩٨م) كتب «الشيخ محمد عبده الفصول الخاصة برأى الشريعة الإسلامية فى الزواج والطلاق والحجاب وتعدد الزوجات. وكتب أحمد لطفى السيد الفقرات الخاصة بالحرية، وأن الأسلوب عليه بصمات «سعد زغلول». على أية حال عندما صدر الكتاب دافع عنه الزعيم «سعد زغلول»، وكان متزوجا من «صفية زغلول»، فهى لم تكن إذن بعيدة عن أفكار زوجها فى تحرير المرأة وفى حقوقها وفى المساواة بينها وبين الرجل. هذا فى حين أن مصطفى كامل ومحمد فريد ومحمد طلعت حرب هاجموا الكتاب وصاحبه ودعوته.

فى موكب الثـورة:

تشكل الوفد المصرى كما هومعروف من الرجال عام ١٩١٨ وعام ١٩١٩م تشكلت هيئة وفدية من النساء تأييدا للمطالب القومية . وكان لتلك الهيئة نفوذ أدبى ومجهودات شجاعة أكسبتها ثقة الشعب واحترام البلاد الخارجية . وقامت تلك الهيئة لتشجيع المشروعات الوطنية وإقامة الأسواق الخيرية والمعارض الفنية ، وقامت بحملات دعاية لدعم بنك مصر . ووقفت خلف هذه المجهودات «صفية زغلول» وقد وقعت هذه المجهودات موقع التقديرمن زعيم الأمة «سعد زغلول» . وفى المأدبة التى أقامها تجار العاصمة تكريما له قال «سعد باشا» : لقد شاركت المرأة المصرية بجهد خلاق فى نهضتنا الحاضرة ، وأثبتت شجاعتها أيام الثورة «فلتهتفوا جميعا . . تحيا المرأة المصرية» .

فى ٨ مارس من عام ١٩١٩م توجهت قوة عسكرية إنجليزية لاعتقال الزعماء الأربعة «سعد زغلول باشا» و«محمد محمود باشا» و«حمد الباسل باشا» و«إسماعيل صدقى باشا» وساقتهم إلى ثكنات قصر النيل ثم نقلتهم إلى مالطة فى اليوم التالى . وقال «إسماعيل صدقى» فى مذكراته (يوم ٨ مارس عام ١٩١٩ ـ اليوم السابق على الثورة ـ كنت أجلس فى مكتبى فى غرفة مجاورة لمكتب سعد زغلول بمنزله فجاءنى خادم الدار ينبئنى بحضور ضابط إنجليزى . وكان الضابط قد طلب من سعد باشا أن يركب عربة عسكرية ، ثم دعانى إلى ركوب عربة أخرى . وذهب بنا إلى ثكنة قصر النيل» .

وليلة القبض هذه على سعد باشا أرادت «أم المصريين» النزول معه ومصاحبته فى المعتقل ، وألحت فى ذلك إلحاحا كبيرا إلا أن سعدا هدأها وطلب منها البقاء فبقيت بالغة التأثر قوية الجنان ثابتة الإرادة ، ولم تكد تشرق شمس التاسع من مارس عام ١٩١٩ حتى كان نبأ القبض على «سعد» وثلاثة آخرين من أعضاء الوفد قد انتشر فى جميع البلاد ، وظلت «صفية زغلول» رابطة الجأش وعلى اتصال بالتحركات الثورية تشد من أزر المتظاهرين . وأضرب الطلبة وساروا فى مظاهرة تتسم بالتنظيم والترتيب . وفى اليوم نفسه أضرب عمال الترام . وقدم موظفو الحقانية احتجاجا علي اعتقال سعد ورفاقه . وخرج طلاب الأزهر إلى مقدمة الصفوف فى المظاهرات

وتوالت أحداث الثورة . . في ١١ مارس أضرب المحامون عن مزاولة أعمالهم . وفي ١٣ مارس قطعت خطوط السكك الحديدية وأسلاك البرق والتليفونات في كل أنحاء الوطن . وفي ١٥ مارس اعتصم عمال السكك الحديدية .

وفي ١٦ مارس عام ١٩١٩ شهدت شوارع القاهرة كثيرات من عقيلات العائلات هاتفات بحياة الحرية والاستقلال ومناديات بسقوط الحماية البريطانية . وضرب الجنود الإنجليز ، نطاقا حولهن وسددوا إليهن فوهات البنادق والحراب على أن السيدات لم يرهبن هذا التهديد وسارت المظاهرة حتى وصلت إلى بيت الأمة وهتفت بحياة سعد باشا وبالتحية لأم المصريين . وكتب «عبدالرحمن فهمي» في مذكراته . . (. . وقد مررن على القنصليات ومعتمدي الدول الأجنبية ، والناس من حولهن يصفقون ويهتفون ، والنساء من نوافذ بيوتهن يزغردن ويهتفن . فكان ذلك منظرا جميلا رهيبا يأخذ بمجامع القلوب ، ولكن لم يكن للسلطة أن تترك مثل هذا الموكب الرائع دون أن تشوه من جلاله ، فضرب الجنود الإنجليز نطاقا حولهن وسددوا إليهن فوهات بنادقهم وحرابهم) .

وفي ١٣ ديسمبر عام ١٩١٩ اجتمع عدد كبير من نساء مصر يتباحثن ، وعرف هذا الاجتماع باسم «اجتماع الكاتدرائية المرقسية» وقدمن احتجاجا شديد اللهجة على ما يجري لمصر من قبل الاحتلال .

وفي ١٦ يناير عام ١٩٢٠م قامت السيدات بمظاهرة في العاصمة تأييدا للوفد وقيادته ومنادية بالاستقلال ومعادية للجنة ملنر .

وفي ٩ مارس عام ١٩٢٠ في ذكرى مرور عام على الثورة اجتمعت السيدات في منزل سعد زغلول باشا . وألهبت السيدة «صفية» حماسة السيدات ، وأكدن جميعا المطالب القومية ووقوفهن خلف قيادة سعد .

شهادة صحفية أمريكية:

حدث في عام ١٩٢٠م أن حضرت إلى مصر صحفية أمريكية تدعى «جريس تومسون سيتوى» ، وأصدرت في ذلك الحين كتابا عن مصر فيه فصل عن

«الزغلوليات» ألقت فيه الأضواء على «صفية زغلول» والدور العظيم الذى قامت به بين الرجال والنساء أثناء نفى زوجها «سعد زغلول» من مصر، والدور الذى قامت به فى الحركة النسائية أثناء وجود «سعد باشا» فى البلاد. قالت الصحفية الأمريكية: وجدت «مدام زغلول»، وهى تبدو للناظر من الوهلة الأولى ذات شخصية قوية وذات كبرياء ووداعة. اعتقل زوجها «زغلول» للمرة الثانية، وكان النفى إلى جزيرة سيشل فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٢١ بعد أن رفض الاعتكاف فى عزبته بعيدا عن القاهرة. وشهدت «صفية» هانم اعتقاله وظلت متماسكة حتى غادر زوجها البيت وقالت لى: سعد سجين سيشل ولكننى روحه الثانية وزوجته التى تصون مكانه. وروت لى أيضا: أن المندوب السامى عرض عليها مصاحبة زوجها إلى سيشل ولكنها ردت على ممثل الاحتلال فى كبرياء: إننى سأظل فى القاهرة وسأعمل كل ما فى وسعى لأكمل عمل زوجى وأنتم تستطيعون أن تنفوه بجسده، ولكنكم لن تستطيعوا أن تبعدوا روحه عنا لأنها تعيش وسوف تظل تعيش بيننا، وفى بيته سأكون سعدا حتى يعود. وسوف يعود لأن الشعب لن يرضى بغيابه ولن يمكنكم من إبعاده طويلا. وحتى لو مات سعد فسيأتى كثيرون غيره ويتقدمون الصفوف. ومن جهتى سوف أفعل كل ما أستطيع لأشعل روح الثورة فى سبيل استقلال مصر.

نداء حرم الرئيس:

ولقد أعدت «صفية زغلول» ولجنة الوفد المركزية للنساء منشورا تم توزيعه فى كل أنحاء البلاد بعنوان (نداء حرم الرئيس) جاء فيه: لئن كان سعد فى المنفى، فإن هذا النفى لا يهد من عزيمته إلا شىء واحد هو أن يعلم يوما أن الضعف قد اعتراكم ولو لحظة واحدة. وبدأت عقيلة الزعيم وزوجها فى المنفى، وسيدات أعضاء الصف الثانى وهم فى السجون، بدأن صفحة كفاح مجيدة لسيدات مصر، وأخذ احتجاجهن شكلا عمليا تمثل فى تنظيم مقاطعة البضائع الإنجليزية.

ولم تكن صفية زغلول فى الحقيقة سوى أم لكل المصريين، كانت الأم الروحية للرجال والنساء. وقد شجعت أم المصريين سيدة أخرى هى «هدى شعراوى» فى أن تكون الرئيسة الفعلية للجنة السيدات. وإن كانت ترعى هذه الحركة النسائية

وتوجه السيدات فى كفاحهن. وقد قالت فى أحد الوفود بصدد بقائها فى مصر عند نفى «سعد باشا» لسيشل: «إننى لحرج مركز البلاد فضلت البقاء مع المجاهدين، وأنا من أجل هذا أدعوهم إلى الأخذ بيد البلاد متكاتفين».

ورد عليها «عبدالعزيز فهمى بك» بقوله: إننا فى هذه الأزمة الشديدة نتقدم مقتفين أثر المحبوب سعد باشا، ونستمد من قوته ما يكفل لنا نجاح مسعاه.

وظلت «أم المصريين» تتابع أحوال «سعد باشا» وهو فى المنفى وتبرق للسلطات البريطانية، وعلى أثر مرض سعد تم نقله من «سيشل» إلى «جبل طارق» فى ١٦ أغسطس عام ١٩٢٢م. وفى سبتمبر عام ١٩٢٢. سافرت «أم المصريين» إلى جبل طارق لتكون إلى جوار زوجها «سعد باشا» وبقيت معه حتى عادا إلى أرض الوطن.

مذكرات سعد زغلول:

اعتاد «سعد باشا» أن يكتب مذكراته فى كراسات مدرسية. يترك فى أولها صفحات بيضاء بدون كتابة، وأن يترك صفحات أخرى فى آخر الكراسة بدون كتابة أيضا. وبالمناسبة فإن خط سعد باشا من العسير قراءته بسهولة. وكان الله فى عون «الدكتور عبدالعظيم رمضان» الذى توفر على تحقيق مذكرات سعد زغلول ونشرها للقراء. وحدث أن عثر أحد العاملين فى بيت الأمة هذه الكراسات فألقى بها فى سلة المهملات. وتصادف أن رأى «مصطفى أمين». وكان عمره وقت ذاك اثنى عشر عاما هذه الكراسات فى سلة المهملات فأخذها لاستعمال الصفحات البيضاء فى شئونه المدرسية، ولكنه اكتشف أنها «مذكرات سعد زغلول» خال والدة «مصطفى أمين» السيدة رتيبة. وسلم مصطفى هذه المذكرات إلى السيدة «صفية زغلول»، وقامت السيدة «صفية زغلول» بتسليم هذه المذكرات إلى «الآنسة فريدا» لترقيمها. وقامت «الآنسة فريدا» وهى ألمانية بترقيمها. وهناك بعض الملاحظات على هذا الترقيم. وقد عاشت «الآنسة فريدا» فى منزل «سعد زغلول» كمترجمة ووصيفة لأم المصريين.

سعد وصفية:

كان الزعيم «سعد زغلول» يحرص على أن تكون حرمه «صفية» على مستوى المسئولية وأن تكون إلى جواره فى زياراته لأقرانه وفى بعض جولاته التفتيشية . ومن هذه الجولات يروى لنا «الوطنى الغيور فخرى بك عبدالنور» فى «مذكراته» يقول : «فيما أنا فى منزلى بجرجا فى ٢٠ ديسمبر عام ١٩١٠ جاءنى القاضى الشرعى فى المدينة ، وكان المرحوم الشيخ عبدالحكيم خطاب وأبلغنى نبأ قدوم سعد باشا بطريق النيل بإحدى بواخر وزارة الأشغال تصحبه صاحبة العصمة السيدة الجليلة حرمه «أم المصريين» والمرحوم سعيد زغلول . كان إذ ذاك طالبا بمدرسة الحقوق والآنسة رتيبة هانم «قرينة الأستاذ محمد أمين يوسف فيما بعد ووالدة الأديبين الأستاذ مصطفى أمين يوسف والأستاذ على أمين يوسف» ثم كان لى شرف زيارته إياى فى منزلى ومعه القاضى الشرعى ، والقاضى توفيق حفنى بك «المستشار وعضو مجلس النواب بعدئذ» ومدير الإدارة القضائية محمد علام باشا » وزير الزراعة فيما بعد» ثم سكرتيره الخاص فؤاد كمال بك «السكرتير العام لمجلس النواب ثم وكيل وزارة المالية بعد ذلك» . وكان هذا أول لقاء مع سعد . وأول حديث دار بينى وبينه ، وأذكر أنى دعوته حينئذ أن يجلس على كرسى كان صاحب السمو الخديو عباس حلمى باشا قد جلس عليه يوم تكرم بزيارتى فى منزلى بجرجا يوم الأربعاء ٩ فبراير عام ١٩٠٩ .

مصطفى فهمى باشا:

اقترن «سعد باشا» وهو مستشار فى سنة ١٨٩٦ بصاحبة العصمة «صفية هانم» كريمة مصطفى فهمى باشا ، رئيس النظار إذ ذاك . وكان «مصطفى فهمى» محافظا للإسكندرية ، قبل أن يتولى منصب ناظر الأشغال العمومية فى نظارة محمد شريف باشا الثانية التى تألفت فى ٥ يوليو عام ١٨٧٩ . ثم تولى نظارة الخارجية فى وزارة «محمد توفيق» الثانية «١٨ أغسطس عام ١٨٧٩م ـ ١ سبتمبر عام ١٨٧٩م)ـ واستمر ناظرا للخارجية فى وزارة مصطفى رياض باشا الأولى «٢١ سبتمبر عام ١٨٧٩ ـ ١٠ سبتمبر عام ١٨٨١ » ، ثم فى نظارة محمود سامى البارودى فى ٤ فبراير عام

١٨٨٢ . ثم عين ناظرا للداخلية فى نظارة شريف باشا فى ٢٨ أغسطس عام ١٨٨٢ . ثم ناظرا للمالية فى وزارة نوبار الثانية فى ١٠ يناير عام ١٨٨٤ . ثم ناظرا للحربية والبحرية فى نظارة رياض باشا فى يونيو عام ١٨٨٨ . وتولى رئاسة النظارة للمرة الأولى فى ١٤ مايو عام ١٨٩١ ـ ١٧ يناير عام ١٨٩٢ . وللمرة الثانية من ١٧ يناير عام ١٨٩٢ ـ ١٥ يناير عام ١٨٩٣ ـ وللمرة الثالثة من نوفمبر عام ١٨٩٥ ـ نوفمبر عام ١٩٠٨م .

هذه صفحة من تاريخ مصر وتاريخ المرأة المصرية ، وتاريخ أم المصريين «صفية زغلول» التى ولدت عام ١٨٧٨ ، وتوفيت (٢ يناير) عام ١٩٤٦ . عليها رحمة الله .

الأسـانيد:

١ ـ آمال السبكى . . الحركة النسائية فى مصر ١٩١٩ ـ ١٩٥٢ .

٢ ـ سعد فخرى عبدالنور . . محاضرة يوم ٨ مارس ١٩٩٩م .

٣ ـ سعد زغلول (مذكرات)، تحقيق د. عبدالعظيم رمضان جـ١ .

٤ ـ فخرى عبدالنور . . مذكرا .

٥ ـ لمعى المطيعى . . موسوعة هذا الرجل من مصر .

الدكتورة عائشة عبدالرحمن



اليوم الخميس «٣ ديسمبر ١٩٩٨» خامس أيام شهر رمضان المعظم يجيء وقد ترجلت فارسة (حديث رمضان) الدكتورة عائشة بنت محمد بن على بن عبدالرحمن التى لقيت وجه ربها يوم الثلاثاء الأول من شهر ديسمبر الجارى. وهى كأى أم مصرية لم تشأ أن ترحل إلا وقد تركت لأولادها بعض زاد ولو لمدة ستة أيام كانت قد أعدتها وتركتها لقرائها فى جريدة «الأهرام». وقد قدر لكاتب هذه السطور أن يجلس إليها وهو مسئول عن النشر فى الهيئة المصرية العامة للكتاب جلسة التلميذ ينهل من بعض علمها المتأصل فى التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية والمباحث المتصلة بالسيرة النبوية، وأهل البيت والدراسات الأدبية النقدية، ورأيها الرصين فى حرية المرأة وحقوقها، وأجد فيها موسوعة فى الأدب العربى قديمه وحديثه. وكان هذا زادا لى فى عملى كمسئول أنوب عن رئيس الهيئة، وكمسئول عن مراكز التراث والتاريخ والنشر والكتاب، وكانت هى قد اعتادت على هذا الدرس «الخصوصى المجانى»، كلما جاءت إلى هيئة الكتاب لمتابعة أعمالها المهمة.

فى أكتوبر من عام ١٩٨٩م تقرر أن تشارك مصر لأول مرة بعد قطيعة لعدة سنوات فى مؤتمر وزراء الثقافة العرب الذى تقرر أن يعقد فى الرباط عاصمة المملكة المغربية. وأصدر «الفنان فاروق حسنى» وزير الثقافة قرارا بأن أمثل مصر فى «اللجنة الدائمة»، وهى اللجنة المنوط بها أن تعد جدول أعمال المؤتمر. ثم قرر «الوزير» أيضا أن تمتد إقامتى فى الرباط عضوا فى وفد مصر فى مؤتمر وزراء الثقافة العرب. . وقد لقيت فى الرباط عضوا فى وفد مصر فى مؤتمر وزراء الثقافة العرب،

وقد لقيت فى الرباط سفارتين لمصر، الأولى: سفارة رسمية تتمثل فى السفير والمستشار الثقافى والمستشار الإعلامى والمستشار العسكرى، والسفارة الثانية: شعبية ثقافية تتمثل فى «الدكتورة عائشة عبدالرحمن»، وكان الترابط بين السفارتين لخير مصر. السفارة الأولى: تكونت من عناصر على مستوى رفيع من الحس الوطنى والإحساس بالمسئولية والنشاط. السفارة الثانية: تمثلت فى «الدكتورة عائشة»، وقد ذاع صيتها متجاوزة المجال المحلى إلى مجالات الشعوب العربية والإسلامية. وجه مشرف للحضارة المصرية والإسلامية وقمة شامخة من قمم الفكر. تربط بفكرها وثقافتها بين مصر والمملكة المغربية ما يسعد كل مصرى مخلص.

نبع ثقافة. وإيمان دينى عميق. وثقافة إسلامية موسوعية. وإلمام واسع بالتيارات المعاصرة فى الأدب والفكر، وتمسكت بها المملكة المغربية وجامعاتها ومثقفوها ينهلون من نبع المعرفة لسنوات وسنوات فطالت إقامتها هناك. وكان المصريون الذين يسافرون إلى المغرب يجدون منها كل ترحاب. هكذا كان لقاؤنا بها فى بيت سفير مصر، السفير والمستشاران الثقافى والإعلامى والدكتور سمير سرحان وكانت هذه السطور فى أمسية مصرية نسيجها المودة وهى تشع علينا بنور المعرفة إلى ساعة متأخرة من الليل. عظيمة تلك المرأة من مصر.

الدكتورة عائشة:

ولدت عام ١٩١٣م على بعد أمتار قليلة من شاطئ النيل (فرع دمياط) وعلى مقربة من ضريح (الشيخ شطا) هى بنت شاطئ إذن. وهى شاهدة عصر أو على العصر تكتب تحت عنوانه كل يوم خميس بالزميلة «الأهرام»، وعلى الجسر وهو عنوان واحد من كتبها الذى كتبته بلغة شاعرة لأنه قطعة من وجدانها يكاد يكون سيرة ذاتية لها تبث فيه شجونها على فقد أحب الناس إليها زوجها «الشيخ أمين الخولى». والدها.. العارف بالله «الشيخ، محمد بن على بن عبدالرحمن» من كبار علماء الأزهر بدمياط.. شريف ابن شريف ينتهى نسبه إلى «الحسين بن على ابن أبى طالب»، كانت تعتز بهذا النسب للترفع من الدنايا والذلة حتى لو كانت

لمطالب ملحة والوالد الشيخ من قرية «شبرا بخوم» مركز قويسنا - محافظة المنوفية، استقر به المقام في سوق الحسبة بدمياط بعد أن تزوج من دمياطية. وأسرة الوالدة تنتمي إلى «الشيخ الدمهوجي» من كبار علماء الأزهر ومشايخه.

كان «الوالد الشيخ» لا يقر خروج البنات للتعليم، فلم تتعلم ابنته «عائشة» مراعاة لموقف الوالد في مدرسة ابتدائية أو غيرها. وهي صغيرة تعلمت في الكتاب على أيدي «الشيخ مرسي» من أصدقاء والدها. وتعلمت على أيدي والدها وأصدقائه من المشايخ. وهي تقول: إنها بذلك تكون خريجة المدرسة الإسلامية وأخذت بيدها والدتها الدمياطية وجدها لوالدتها وأسرة والدتها وهي أسرة دمياطية عرفت قيمة تعليم البنات. واختزلت الفتاة بإرادة حديدية كل مراحل التعليم، وحصلت على أول شهادة كفاءة المعلمات من المنزل، وكانت أولى الناجحات في مصر عام ١٩٢٩م. وعندما ظهر اسمها في الصحف في مقدمة الناجحات وعلى حد تعبيرها في «ذكريات أدبية» على الشاشة الصغيرة التي قدمها الشاعر الدمياطي «فاروق شوشة» وشاركها فيها زميل الصبا الشاعر الدمياطي أيضا «طاهر أبو فاشا» قالت إنها بظهور اسمها في مقدمة الناجحات وقرأ والدها الاسم في الصحف حدث ما عبرت عنه.. «يا داهية دقي!».

ولكن الأم وأسرتها وقفت إلى جانب فتاتهم الواعدة ولقيت رغبتها في الدراسة هوى في نفوس عائلة أمها الدمياطية. وكانت هذه الأسرة في شد وجذب مع والد الفتاة. عندما تقدمت للالتحاق بمدرسة المعلمات بالمنصورة سحب والدها أوراقها وعندما قدم لها جدها لأمها أوراقها إلى مدرسة اللوزي بدمياط. رفض الوالد ونزلت «عائشة.. على رغبة الأب وتابعت تحصيلها ودراستها في المنزل. وحصلت على البكالوريا القسم الأدبي عام ١٩٣٤م. والتحقت بقسم اللغة العربية - كلية الآداب جامعة فؤاد الأول بالقاهرة. وحصلت على الماجستير عام ١٩٤١، والدكتوراه في الآداب عام ١٩٥٠م.

حديث عن الرجال:

أصبحت معيدة بقسم اللغة العربية فأستاذا للتفسير والدراسات العليا بدأت

مشوارها الصحفى مع جريدة الأهرام منذ عام ١٩٣٦م. وعرفت باسم «بنت الشاطئ»، وفرضت احترامها على أنشطة كثيرة. وسيأتى الحديث عن منهجها فى تناول مسألة حريات المرأة وحقوقها التى جلبت لها احترام الرجال والنساء. . وملخص موقفها هو تناول هذا الموضوع فى غير خصومة مع الرجال. وأصبحت موضع التقدير بين رموز الفكر العربى فى مصر والبلاد العربية. الشاعر «طاهر أبوفاشا» عرفها وهى صغيرة فى دمياط ويذكرها بكل التقدير والخير. والدكتور طه حسين. . أشرف على رسالتها للماجستير ورسالتها للدكتوراه. وكانت فى المناقشة تحاور الأستاذ حجة بحجة، وقد أعادت دراسة (رسالة الغفران للمعرى)، وكان «أبو العلاء المعرى» هو القاسم المشترك الأعظم بينها وبين الدكتور طه حسين. هو يرى أنه كان زاهدا رغما عنه، وهى ترى أن المعرى كان زاهدا بإرادته. وتقول إن صلتها بالدكتور «محمود فوزى» شيخ الدبلوماسية المصرية ورئيس وزراء مصر فى فترة من فتراتها، وكان والده من علماء الأزهر. . تقول إنه وسع مداركها على العالم الخارجى. . والشيخ «مصطفى عبدالرازق» شيخ الجامع الأزهر تعلمت على يديه الفلسفة الإسلامية وكانت تلقبه «الأستاذ النبيل». وأستاذ الجيل «أحمد لطفى السيد» فقد كان يدعوها للإفطار على مائدة الصباح كثيرا ويقرآ معا مؤلفات أرسطو التى ترجمها الأستاذ إلى اللغة العربية مثل «الكون والفساد» و«السياسة»، أما الذين عرفتهم منذ فترة باكرة منهم «الدكتور محمد كامل حسين» مؤلف «قرية ظالمة» والدكتور شوقى ضيف رئيس مجمع اللغة العربية حاليا، والشاعر الرقيق «طاهر أبو فاشا» فتتحدث عنهم الأستاذة بالود والاحترام.

بقى رجل آخر. . «الشيخ أمين الخولى» الزوج والأستاذ والذى قالت إنها أخذت عنه المنهج الذى أسس جماعة «الأمناء»، وأصدر مجلة «الأدب»، وكانت «الدكتورة عائشة عبدالرحمن» توقع كثيرا أعمالها بـ«بنت الشاطىء» من الأمناء.

الأستاذ والمنهج:

قالت «الدكتورة عائشة عبدالرحمن» عن أثر «الشيخ أمين الخولى» فى حياتها إنها أخذت عنه «منهج التفكير» و«الشيخ أمين الخولى» الذى عاصرناه عميدا لكلية

الآداب بالإنابة فى النصف الثانى من الأربعينيات تعتز الدكتورة بنت الشاطئ أنه حافظ على زيه الأزهرى طوال حياته. الشيخ الخولى (١٨٩٥-١٩٦١م) ربطت «مدرسة القضاء الشرعى» بينه وبين أصولنا الحضارية ومصادرنا الثقافية. وربطت ثقافته الإيطالية والألمانية بينه وبين الروافد الأوروبية والاهتمامات الاستشراقية. وكان يتميز بالقدرة على البحث ومهارة فى الحوار وملكة تبدع ما وسعها. أحب مصر فعاش حياته كلها، تاريخها، مشكلاتها، هموم فلاحيها، وأحب اللغة العربية فذاد عنها وكشف عن جمالها. وأحب دينه عن إدراك ووعى ناضج، ومن ثم كانت دعوته إلى التجديد الدينى، وتحرير الشريعة الإسلامية من كل ما ليس فيها.

وهكذا كانت «الدكتورة» فى كل ما سبق عند زوجها «الشيخ الخولى» وفيما أخذته عنه. تجديده فى الدين. ومنهج تجديده فى التفسير والتجديد فى اللغة والنحو، و التجديد الأدبى، والتجديد فى البلاغة والنقد.

وركز الأستاذ الخولى «وهكذا بنت الشاطئ فى شاهدة عصر» على الإسلام كدين عام للإنسانية كلها، وتوافرت لديهما القدرة على التجديد فى الدين والنحو والبلاغة والنقد. كل هذا دون شطط، فقد دخلت فى معركة مع «د. مصطفى محمود» عندما قدم تقسيما معاصرا للقرآن رأت فيه بعض الشطط.

النهضة النسائية:

أول مقال لها كتبته عام ١٩٣٥م عن «الريف المصرى»، وأحدث النشر مشكلات لها فى البيت. وشجعها جدها لأمها فكتبت مقالين لمجلة «النهضة النسائية»، وهى مجلة صدرت عام ١٩٢٠ لتعنى بشئون المرأة المصرية، واستمرت حتى عام ١٩٣٨م. وطالبت المجلة بألا تمنع النساء من بعض الأعمال بحجة أنها لا تصلح لها لأن المتتبع لتاريخ الأمم يجد أمثلة كثيرة لنساء نجحن وبرزن فى كل ميدان. وأعلنت المجلة أن الرجل والمرأة متساويان جسدا وعقلا، فلا وجه مطلقا لمنع المرأة من عمل بدعوى أنها أقل من الرجل. وطالبت المجلة وزارة المعارف بأن تزيد الحصة المخصصة لإنشاء مدارس للإناث بعد أن أثبتت الإحصائيات أن نسبة الإناث أكثر

من الذكور فى الوقت الذى تصرف الوزارة مبالغ مضاعفة على مدارس البنين. وحملت المجلة على ظاهرة التبرم والضيق عند استقبال النساء لولادة بنات على اعتبار أن هذا الموقف هو من مظاهر احتقار المرأة.

وكانت «جمعية نهضة السيدات المصريات» التى صدرت عنها مجلة «النهضة النسائية» عهدت برئاستها جمعية ومجلة للسيدة لبيبة أحمد التى اختارت شعار «الحرية والإخاء والمساواة»، وكانت الجمعية ذات طابع اجتماعى وأخلاقى. وتوثقت العلاقة بين رئيسة الجمعية رئيسة تحرير المجلة والآنسة «عائشة عبدالرحمن» وعلمتها اللغتين الإنجليزية والفرنسية، وعهدت إليها برئاسة تحرير المجلة مقابل ستة جنيهات «البعض يقول أربعة جنيهات.. ما تفرقش!» ونذكر للقراء أن السيدة «لبيبة أحمد» انضمت فيما بعد للأخوات المسلمات ونشطت فى الدعوة لجماعة «الإخوان المسلمين».

القرآن دائما:

وإذا كان والدها هو أول رجل تعلمت على يديه، وإذا كانت «لبيبة أحمد» علمتها الإنجليزية والفرنسية، وإذا كانت مقالاتها فى (النهضة النسائية) هى خطواتها الأولى إلى الصحافة. وإذا كان «الشيخ أمين الخولى» قد تعلمت عنه (المنهج) الانفتاح على الأفكار العصرية.. فإن (القرآن الكريم) كان هو معلمها الأول والذى لازمها طوال حياتها. روت أنها وهى صغيرة رأت فى منامها أنها جلست إلى نافذة ووجدت لفافة بداخلها (المصحف)، ثم صحت من نومها وجاء فى الصباح من يريد أن يختبرها وذلك فى كتاب الشيخ مرسى، قرأت سورة الكهف، ثم تلت سورة الأحزاب فسلمها هدية فى لفافة أنيقة بداخلها (المصحف).. تقول بنت الشاطئ.. إنها احتفظت بهذا المصحف طوال حياتها.. وفتح لها المصحف الطريق واسعًا لكل الدراسات الإسلامية التى أبلت فيها بلاء حسنًا. كتبت سيرة أمهات المؤمنين، وذادت عن الإسلام وقدمت دراسة فى فكر البهائية. وأصبحت عضوا فى مجمع البحوث الإسلامية. ودافعت عن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام، وعن زوجاته، واهتمت بالمشكلات المعاصرة التى تهدد

المسلمين. وكانت تقول دائمًا إن (القرآن) هو معلمها ومرشدها ولم تتخل عنه على الإطلاق. وتوجهت إلى السيرة النبوية والإسلام (كما فعل من قبل د. طه حسين وعباس محمود العقاد ومحمد حسين هيكل وأحمد أمين. وعندما اتجهت إلى القرآن اختارت الوجه البياني. وتصدت للغزو الوافد من الغرب وأذنابه العميلة. وأصبحت رائدة شجاعة من رواد الفكر الإسلامى. وحرصت على أن تقدم النموذج الإسلامى للمرأة فى مختلف أدوارها وتحولت إلى مؤمنة مقاتلة فى سبيل فكر أعطته عمرها وتفانت فيه. وفى نوفمبر عام ١٩٥٩ كانت أول سيدة تحاضر فى الأزهر وتقدم ندوة عامة للشباب.

النموذج الإسلامى للمرأة:

فى الفترة الأخيرة انشغلت (أنا بإعداد دراسة عن «ملك حفنى ناصف» التى كانت كنيتها «باحثة البادية»، وأدركت أن «الدكتورة عائشة عبد الرحمن» وكنيتها «بنت الشاطئ» هى امتداد لباحثة البادية التى حاولت إرساء قاعدة سليمة لحريات المرأة وحقوقها فى غير خصومة مع الرجل قالت «بنت الشاطئ» إنها تضيق بالنساء المتحذلقات اللاتى يرفعن شعارات حريات المرأة وحقوقها. . وذلك فى خصومة مع الرجل. وأكدت أن المرأة تكمل الرجل، وأن الرجل يكمل المرأة. وكانت تفخر وتعتز بأنها كامرأة فى بيتها تعد كل شىء لزوجها حتى (تلميع وتنظيف حذائه!!). كتبت رواية (سيد العزبة) تعالج فيها مشكلات اجتماعية ونسائية. وكانت حياتها الخاصة كأى امرأة ريفية تعتبرها منطقة محرمة. . زوجة وأم. وأصدرت كتاب (صور من حياتهن) وقصصها عن زوجات الرسول وأم الرسول وأمهات الأنبياء والمؤمنين. . والخنساء. . والسيدة زينب بطلة كربلاء وبأسلوب رقيق عف قدمت دراستها العذبة عن (الشاعر والملهمة)، عن ابن زيدون وولادة بنت المستكفى. . تصوير عف راق لمشاعر الحب والأنوثة عند المرأة. . وفى أكتوبر عام ١٩٤٨ كتبت مقالها (الفن فى القصة) فى مجلة العالم العربى، وشاء الله أن يجرب مشاعرها كزوجة. . تفقد زوجها الحبيب إلى قلبها وأستاذها الحبيب إلى عقلها فبكته بأسلوب شاعرى نابع من القلب واقرءوا معى أو أعيدوا قراءة كتابها (على الجسر). ثم

فقدت أمينة التى كانت تعدها لتخلفها فى مكانها فى مقتبل الأيام. ثم فقدت ابنها أكمل فقضت ما تبقى من عمرها فى مرارة الثكل.

وتبقى الكلمة:

ورغم أحزانها كانت تعود بها الذاكرة إلى أيام صباها التى ولّت مع الزمن.. تقول:

أمضيت صباى ألعب على شاطئ فرع دمياط. عشت على الشاطئ أحلى أيام عمرى. وتأثرت بالشاطئ.. بناسه وواقعه وأحلامه. هو قطعة منى وأثر من آثار خطاى وذكرى من ذكريات الماضى، ونشرت لها مكتبة الوفد عام ١٩٣٦ أول كتبها عن (الريف المصرى)، وفى الماضى استطاعت أن تحقق المعادلة الصعبة بأن واجهت بإرادة حديدية ظروف عصرها التى كانت قاسية على المرأة وحقوقها مع الحفاظ على القيم والأخلاق.

فرضت احترامها والاحترام لكلمتها، فبدأت مشوارها الصحفى مع جريدة الأهرام منذ عام ١٩٣٦، وظلت تكتب فى الأهرام أكثر من ستين عامًا وبقيت صامدة فى مكانها مثل جبل أشم ترتمى الأمواج على صخوره، وتلقى بشباكها فى بحر الأحداث الجارية. وشاهدة على عصر يموج بالتغيرات والتقلبات، وتتصارع فيه الأفكار والمذاهب وتتجدد فيه الحروب الفكرية بين المثقفين والمفكرين.

وعندما دخلت الأهرام فى بداياتها الأولى كانت تؤدى أعمالها فى مكتب رئيس التحرير «أنطون الجميل» لأنها كانت الوحيدة من بنات حواء التى تعمل فى الجريدة. أما فى السنوات الأخيرة كانت تنزل إلى المطابع وتتابع تصحيح مقالها إلى أن تطمئن إلى سلامة تجربة الطباعة الأخيرة.

ودعيت بصفتها شخصية فريدة إلى مؤتمرات دولية وإسلامية وعربية. وأعدت عنها رسائل دكتوراه متعددة وترجمت كتبها الدينية إلى أكثر من لغة ومنها اللغة اليابانية.

كتبت القصة التاريخية. وصدرت لها مجموعة روايات بدأت كتابتها وهى فى

الثلاثين من عمرها بتوقيع بنت الشاطئ . واقتحمت القضايا الاجتماعية فى أكثر من عمل أدبى لها . تناولت مشكلات فى محافظة المنوفية .

كتبت عن مسيرة الحضارة في مصر وهى عندها . . فرعونية ومسيحية وإسلامية . وفى وسط تقدمها وصعودها كانت تتوقف عن النقاط السوداء التى مرت بها . . كانت تحب الشاطئ كما قلنا ولكنها سرعان ما تنقبض لأنها تتذكر جدتها لأمها التى ماتت غريقة وابتلعها هذا الشاطئ الذى تحبه وتأنس إليه .

لقد ذهبت وبقيت كلماتها وأعمالها الخيرية التى كانت تؤديها دون أن يعرف أحد .

وداعًا بنت الشاطئ:

ويوم السبت ٢٨ نوفمبر عام ١٩٩٨ م دخلت العناية المركزة بمستشفى هليوبوليس بمصر الجديدة متأثرة بجلطة فى الشريان التاجى وقصور فى الدورة الدموية للقلب . وتوفيت فى الثالثة من عصر الثلاثاء أول ديسمبر . ويؤم الصلاة فضيلة الإمام الأكبر الشيخ الدكتور «محمد سيد طنطاوى» شيخ الجامع الأزهر الذى أجل سفره إلى الأقصر المقرر أن يتفقد فيه المعاهد الدينية هناك . لقد ذهبت من وهبت حياتها بكل السخاء للإسلام دينا وعقيدة وفكرا وتراثًا ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام .

الأسـانيد:

د . أحمد هيكل . . رثاء ـ جريدة الأهرام ٣ ديسمبر عام ١٩٩٨م .

د . أمال السبكى . . الحركة النسائية فى مصر ١٩ ـ ١٩٥٢م .

بنت الشاطئ . . على الجسر .

فاروق شوشة . . أمسية : في ذاكرة ا لأدب .

فاروق جويدة . . الأهرام ٦ ديسمبر عام ١٩٩٨ .

د . كامل سعفان . . أمين الخولى فى مناهج تجديده .

الدكتـورة لطيفـة الزيـات



«الدكتـورة لطيفـة الزيات» ظاهرة لا تتكرر كـثيراً بين نسـاء مصـر. أبـحرت بين التناقضـات وظلت تثق بنفسهـا وصـريحة إلى حد التطرف فى المصارحة ولا تقـولوا لنا: «على مبارك فى تاريخه لحياته أو لويس عوض فى أوراق عمـره»، فهذه فتاة شرقية ولدت فى مدينة دمياط ٨ أغسطس من عام ١٩٢٣. تعلقت بالماركسية وهى طالبة بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول وعلى حد قولـهـا: «كان تعلقى بالماركسية انفعاليا عاطفيا»، أى أنها اعتنقت الماركسية وجدانيا ومع هذا كان أول مشروع زواج لهـا مع «عبد الحميد عبد الغنى» الذى اشتهر باسم «عبد الحميد الكاتب. وسوف نعرض له تفصيلا فيما بعد». . ولـم يكن ماركسيًا تحت أى ظرف من الظروف، بل كان يمضى جزءاً كبيراً من نهاره وليله فى أحد المساجد، ويحفظ التاريخ الإسلامى بدرجة جيدة. وارتبط الاثنان بخاتم الخطوبة. ولم يقدر لهذا المشروع أن يتم ولكن «لطيفة» بثقافتها وشخصيتها وجمالها تركت آثارها على نفسية «عبد الحميد الكاتب»، وقد سجل هو بنفسه هذه الانفعالات فى مقال باكر له فى الصفحة الأخيرة من جريدة (أخبار اليوم) تحت عنوان (خاتم الخطوبة).

ثم دخلت تجربة ثانية أكثر ملاءمة لفكرها وطبيعتها، فارتبطت بالزواج بأحمد شكرى سالم. . الدكتور فى العلوم فيما بعد، وهو أول شيوعى يحكم عليه بالسجن سبع سنوات، وتم اعتقال أحمد ولطيفة عام ١٩٤٩ تحت ذمة القضية الشيوعية. وانفصلا بالطلاق بعد الحكم على «شكرى» وخروجها من القضية. وكان محاميهما مصطفى مرعى.

وتأتى قمة التناقض بين اليسار واليمين بزواجها من «الدكتور رشاد رشدى» يمينى المنشأ والفكر والسلوك. ولم تتردد لطيفة الزيات أن تقول لمعارضى هذا الزواج: «إنه أول رجل يوقظ الأنثى فىّ»، وعندما اشتدوا عليها باللوم قالت: «الجنس أسقط الإمبراطورية الرومانية». والتجارب الثلاث جزء مهم من تاريخ «لطيفة الزيات» وحياتها وشخصيتها، ونحن سنتناوله من هذه الزاوية.

«ثريا أدهم» الطالبة الماركسية و«حسين كاظم» العامل الماركسى نسيهما من يكتبون تاريخ الحركة الوطنية. وهما أول من أختير لسكرتارية اللجنة الوطنية العليا للطلبة والعمال. ثريا أدهم كانت وظلت ماركسية. ومن حقها هنا أن نسجل لها أنها كانت أول طالبة اختيرت لسكرتارية اللجنة الوطنية. أما «لطيفة الزيات» فقد دخلت اللجنة بتنحى الوطنى المناضل الماركسى «سعد زهران» عن موقعه فى اللجنة كممثل لأحد التنظيمات الماركسية، وذلك لإتاحة الفرصة للطيفة الزيات وتشجيعًا للطالبات فى الكفاح الوطنى. وعلى أية حال فإن «لطيفة الزيات» ظلت فى اللجنة لفترة محدودة لأن اللجنة نفسها عاشت مدة وجيزة. من (١٧ - ١٩ فبراير عام ١٩٤٦) تصاعدت محاولة للتنسيق بين حركة الطلاب وحركة الطبقة العاملة. ونشأت (اللجنة) بدعم أساسى من (اللجنة التنفيذية العليا للطلبة) التى كانت وفدية وبقيادة «مصطفى موسى»، وكانت قد أعلنت فى ديسمبر عام ١٩٤٥. وتوحدت جهود لجنة الطلبة الوفديين مع ممثلين لحلقات ماركسية ثلاث هى (الفجر الجديد) التى كانت تؤمن بقيادة الوفد للحركة الوطنية، وتنظيم (اسكرا - الشرارة) و«الحركة المصرية للتحرر الوطنى - حدتو»، وقد انتهت (اللجنة الوطنية العليا للطلبة والعمال) على يدى «إسماعيل صدقى» ضربته فى ١١ يوليو عام ١٩٤٦. وانتهت اللجنة بعد فترة وجيزة من تكوينها (ستة أشهر)، واختلف المحللون حول أسباب عدم استمرار اللجنة. قيل إن أحد أهم هذه الأسباب هم عزلتها الكاملة عن (الفلاحين)، فلم تأخذ شكل (الجبهة الوطنية)، وقيل.. الصراع بين المجموعات الماركسية الثلاث داخل اللجنة مما وضع العراقيل أمام حركة اللجنة، وانتهت عندما وجه إليها «إسماعيل صدقى» ضربته المشهورة، وهذا ما حدث بعد ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢، ونشأت فكرة تشكيل (لجان الجبهة)، وبدأت الاختلافات السوفسطائية بين الجماعات اليسارية.. هل هى جبهة وطنية أم ديمقراطية أم شعبية، وابتعدت عناصر

القوى الشعبية عن هذه المناقشات العقيمة وانتهى الأمر بضربات من نظام يوليو على المحاولات الوليدة لتكوين الجبهات المتصارعة.

السياسة والرجال:

فى مناخ (اللجنة الوطنية العليا للطلبة والعمال) ظهر النشاط السياسى للطيفة الزيات. وكانت قد اتضحت لهذه اللجنة بعد أن انضمت إليها «ثريا أدهم»، ويبدو أن انضمام «لطيفة» للجنة مكان «سعد زهران» كان بدافع الصراع بين الجماعات اليسارية المختلفة. وفى كل المراحل التى مرت بها «لطيفة الزيات» سياسيًا وفكريًا صاحبتها تجاربها العاطفية. وكان لكل تجربة وضع خاص:

* لطيفة الزيات.. الماركسية عضو اللجنة الوطنية العليا للطلبة والعمال والتى اقتحمت المظاهرات وظهرت مواهبها الخطابية. ونشأت العلاقة مع «عبد الحميد عبدالغنى»، والطريف أنه كان نموذجًا مختلفًا عن نموذج لطيفة. عبد الحميد عبدالغنى فى مرحلة التعليم الثانوى بمدرسة المنيا الثانوية كان زميلاً للويس عوض (الدكتور لويس عوض فيما بعد)، وكان «لويس عوض» و«عبد الحميد عبد الغنى» يكتبان فى جريدة محلية بالمنيا «لويس» يوقع مقالاته بـ«العقاد الصغير» إذ نشأ معجبًا بعباس محمود العقاد كاتب الوفد الجبار، وتأثر «لويس» بوالده «حنا خليف عوض» الوفدى والمحب لسعد زغلول باشا. وكان «عبد الحميد» يكتب بتوقيع «عبدالحميد الكاتب»، وهو الاسم الذى ظل يستخدمه فيما بعد. كان «عبد الحميد عبد الغنى» دبلوماسيا وعلى صلة بمنظمات الأمم المتحدة، وكان أمامه مستقبل مشرق. وارتبط «عبد الحميد» بالخطبة مع «لطيفة»، وكانت هى ماركسية متحمسة ولها جاذبية فى الحديث والشكل، ولكن «عبد الحميد» كانت له طبيعة مختلفة.. الدين فى وجدانه، والسلوك الدينى طابع له يصلى الفروض المختلفة. ملازم لمسجد السيدة زينب أو مسجد السيدة نفيسة، وقد كتب «مصطفى أمين» أن «عبدالحميد عبد الغنى» ضاعت منه فرصة اختياره وزيرًا للخارجية، إذ إنه كان وقت ذاك ملازمًا لأحد المساجد نهارًا وليلاً، فتم اختيار شخص آخر للوزارة لصعوبة الاتصال به.

وعندما كان «عبد الحميد الكاتب» رئيسًا لتحرير جريدة أخبار اليوم دعانى لمقابلته فى مساء أحد أيام مارس ١٩٧٧ ، وعرض علىَّ أن أشارك فى تحرير الصفحة الأخيرة من الجريدة . وأذكر أنه عرض علىّ أن أكتب عن بعض الشخصيات على فترات مختلفة . كما أذكر أنه اقترح أن أبدأ بالكتابة عن «سلامة موسى» ، وكان «سعيد سنبل» فى تلك الفترة مديراً للتحرير ويدخل إلى جلستنا بين الحين والآخر لمناقشة الإعداد (لسنوية المرحوم على أمين) . وفوجئ «عبد الحميد» عندما حدثته عن قصته التى نشرها فى فترة سابقة بعنوان (خاتم الخطوبة) ، ودهش أكثر عندما علم أننى أعرف اسم صاحبة بطلة القصة وهى «لطيفة الزيات» .

وسألته لماذا لم يتم مشروع الزواج؟ وقال : افترقنا . . لأنها لم تستجب لتخفيف ميولها الماركسية ، ولم يستجب هو لتخفيف سلوكه المخالف للماركسية . وقلت له : أرجح أن عاملاً آخر هو علاقتها مع زميلها «أحمد شكرى سالم» ، ووافق على ترجيح هذا السبب .

* أحمد شكرى سالم . . هو من جيل المثقفين الماركسيين الذين تركوا بصماتهم على الساحة الفكرية والثقافية المصرية . . شهدى عطية الشافعى . . د . عبد المعبود الجبيلى ـ د . أنور إسكندر عبد الملك ـ محمد سيد أحمد .

كان من أوائل الشيوعيين المصريين فى الفترة الحديثة . وصدر الحكم عليه بالسجن ٧ سنوات (١٩٤٩ ـ ١٩٥٦) تزوج من «لطيفة الزيات» قبل أن يقبض عليه ، وطلقها بعد أن حكم عليه . وداخل السجن خفف من ارتباطه التنظيمى مجموعته اليسارية ، ولكنه لم يخفف من تعلقه بلطيفة . . وكان يقول كلما جاء ذكرها . . (دى لطيفة!!) ثم يجىء الحديث عن الرجل الذى أسقط الإمبراطورية الرومانية : الدكتور رشاد رشدى .

زواجها من «الدكتور رشاد رشدى» الكاتب المسرحى والأستاذ الجامعى والذى أصبح مستشاراً ثقافيًا للرئيس أنور السادات . . هذا الزواج أصابها بالتمزق بين أنوثتها التى فجرها «الدكتور رشاد» ، وبين حرصها على أن تبقى ماركسية حتى ولو كانت (ماركسية مسخسخة) حسب وصف «الدكتور لويس عوض» لها فى كتابه (دليل الرجل الذكى . . .) .

وخاضت انتخابات اتحاد الكتاب وفازت بعضوية مجلس الاتحاد، ولكنها لم تكرر التجربة مرة أخرى، واختيرت عضوا بمجلس السلام العالى، وعضوا بلجنة القصة بالمجلس الأعلى للثقافة. وفى فترة سابقة أشرفت على الملحق الأدبى لمجلة الطليعة - مؤسسة الأهرام. وحصلت على درجة الأستاذية عام ١٩٧٢م، ورأست قسم النقد الأدبى والمسرحى بمعهد الفنون المسرحية - وهى لا تنكر ولا أحد ينكر أن زواجها من «الدكتور رشاد رشدى» كان خيراً وبركة وفترة ازدهار لها فى الدراسة وفى العمل وفى العلاقات الزوجية. والمؤكد أن هذا الزواج جر عليها النقد الحاد القاسى من رفاقها القدامى الذين كان يؤلمهم زواج اليسار باليمين. ولقد حرصت هى على أن تحتفظ بصورتها الماركسية ولو للذكرى والتاريخ.. وبصراحتها المعروفة عنها قالت بعد طلاقها من الدكتور رشاد:

ها أنا أبرأ.. أو على وشك أن أبرأ.. أخاف أن ترتد كينونتى الوليدة إلى الرحم.. هل كان هو مشروع عمرى الذى انقضى أم السعادة الفردية هى المشروع؟! كانت السعادة الفردية هى مشروعى الذى حفيت لتحقيقه. وجننت عندما لم يتحقق. أنا صنيعة المطلقات. وأسيرة سنوات أدور فى المدار الخطأ. لا أملك القدرة على فعل أتجاوز به المدار الخطأ لسنوات تسلمنى فيها إلى الشلل الهوة الرهيبة بين ما أعتقد وبين الواقع المعاش. بين الحلم والحقيقة أخاف أن ترتد كينونتى الوليدة - إلى الرحم.

هكذا قالت بعد أن برئت.. لم تزل تتمسك بما كانت تعتقد والحاكم يعرف هذا.. فاعتقلها فى سبتمبر ١٩٨١ وتم الإفراج عنها فى ١٣ يناير ١٩٨٢. وليس لأحد حاجة عندها. ومن كان منكم بلا خطيئة فليرمها بأول حجر.

من الباب إلى الشيخوخة:

تتسم أعمال «لطيفة الزيات» القصصية والروائية بمعرفة صحيحة بالحياة، وبالتكوين النفسى للنماذج الإنسانية وبالمتناقضات الاجتماعية التى تتحرك فى إطارها وتتفاعل معها.

أصدرت ستة مؤلفات إبداعية : الباب المفتوح - رواية عام ١٩٦٠ . . وظلت بلا إبداع ٢٦ سنة . . وعام ١٩٨٦ أصدرت (الشيخوخة وقصصا أخرى - مجموعة قصصية) . وعام ١٩٩٢ صدر لها (حملة تفتيش - أوراق شخصية) وهى سيرة ذاتية . وعام ١٩٩٤ صدرت لها (بيع وشراء) مسرحية . ثم صاحبة البيت - رواية عام ١٩٩٤ . والرجل الذى عرف تهمته (رواية قصيرة) عام ١٩٩٥ .

وامتدت خبرتها إلى مدن عديدة بحكم عمل والدها فى مجالس البلديات ، ولكنه توفى عام ١٩٣٥ ، وهى فى الثانية عشرة من عمرها . وتميزت بالقدرة الفائقة على مكاشفة النفس والتعبيرات عن الذات . واحتفظت برؤيتها كمناضلة مصرية وليس كمجرد أنثى حتى فى فترات خطبتها وزواجها . ومن هنا كان اهتمامنا برحلتها من الخطبة إلى الزواج الأول إلى الزواج الأخير .

ونستطيع أن نقول إنها ظلت تناضل حتى رحلت فى ١١ سبتمبر سنة ١٩٩٦ بعد أن أصابها (السرطان) فى رئتيها . وأصابتها الدنيا بحرمانها فى سنواتها الأخيرة من الزوج والولد أو البنت .

الفتاة المصرية المستقلة:

وتاريخ «لطيفة الزيات» زاخر بمواقفها الوطنية وبسلوكها الواثق المستقل . كان لها وجهة نظر مستقلة فى الزواج . رفضت أسلوب الزواج التقليدى عن طريق الخاطبة أو عن طريق صديقات الأسرة . كانت دائمًا تتحدث عن مظاهرات الطالبات ضد الاحتلال . وشاركت فى كثير من مظاهرات الطلبة والطالبات . وإذا نظرنا إلى مشروع خطبتها وزواجها من «أحمد شكرى سالم» اليسارى وزواجها من «د . رشاد رشدى اليمينى» جميعها كانت بإرادتها المستقلة ، وكذلك الطلاق كان حسب رغبتها الخالصة .

البعض حاول أن يتتبع «لطيفة الزيات» منذ شبابها ، فنظروا إلى ما كتبته فى عملها الأول (الباب المفتوح عام ١٩٦٠)، ورأوا فى وصفها إلى «ليلى» على أنه قريب إلى وصف نفسها :

«فى السابعة عشرة أصبحت ليلى ممتلئة الجسم، متوسطة القامة، مستديرة الوجه دقيقة الملامح فى استواء، عريضة الجبهة، عيناها عسليتان عميقتان شديدتا البريق وإذا ابتسمت ارتفعت وجنتاها الورديتان إلى أعلى، وضاقت عيناها حتى أصبحتا خطًا رفيعًا من نور يلمع. وإذا ما اطمأنت ضحكت بكل وجهها. كان وجهها يشع بالانطلاق والحيوية والإشراق». هذه صورة قريبة منها للذين لم يروها.

* ومن عملها (الشيخوخة) التى كتبتها بعد ٢٦ عاما من التوقف عن الكتابة (١٩٨٦). نتأمل فقرة بعنوان (ملاحظات نهائية تكتب لكى لا تنسى) وللقارئ أن يستخلص منها ما يحلو له:

- فى أعماق كل منا ترقد رغبة كامنة فى الموت، فى الانزلاق إلى حالة اللاشىء، والتخفف من عبء الوجود الإنسانى والمسئولية الإنسانية تجاه الذات والآخرين.

- تتضح هذه الرغبة فى السعى إلى التوصل إلى مطلق ما يلغى المكان والزمان، وإلغاء المكان والزمان لا يتحقق إلا فى حالة الموت. ولا ينبغى أن تخيفنا هذه الرغبة فالإنسان الذى يعيها قادر على تجاوزها.

- العلاقات الإنسانية الحميمة تساعدنا على الخلاص. تساعدنا على التوصل إلى معنى الحياة.

ملحوظة: كتبت «لطيفة الزيات» هذه الحكم أو ما يشبه الحكم وعمرها ٦٣ ثلاثة وستون عامًا.. عمر الحكمة والتأمل.. يرحمها الله.

الأسانيد

١- د. أحمد عبد الله.. الطلبة والسياسة فى مصر.
٢- أميرة خواسك.. رائدات الأدب النسائى فى مصر.
٣- كتاب فى جريدة عدد ٦ يونية ٢٠٠٠م (الشيخوخة وقصص أخرى).
٤- د. لطيفة الزيات (حملة تفتيش- أوراق شخصية ١٩٩٢).
٥- لمعى المطيعى.. جريدة الوفد (الدكتور رشاد رشدى) ٧ ديسمبر ١٩٩٩.

ملك حفنى ناصف



رأيت أن أدخر الحديث عن «هذه المرأة» ضمن الشخصيات التى يجمل أن نتحدث عنها فى شهر رمضان الكريم . منذ حوالى تسعين عامًا ، أو حول ذلك كانت أولى المناضلات من أجل قضية المرأة السيدة «ملك حفنى ناصف» التى عرفت باسم «باحثة البادية» قد قدمت فى أول محاضرة لها بالجامعة صورة برنامج لإصلاح أحوال النساء ، تناولت فيه تعليم البنات وبث الأخلاق الفاضلة ، ونظام الزواج ، ودعت إلى ضرورة الإبقاء على الحجاب . . وقالت : لو كان لى حق التشريع لأصدرت اللائحة الآتية :

* المادة الأولى : تعليم البنات الدين الصحيح تبعًا لتعاليم القرآن والسنة الصحيحة .
* المادة الثانية : جعل التعليم الابتدائى إجباريا للبنات .
* المادة الثالثة : تعليم البنات التدبير المنزلى وتربية الأطفال والإسعافات الأولية .
* المادة الرابعة : تخصيص عدد من البنات لتعليم الطب .
* المادة الخامسة : حرية البنات فى اختيار العلوم الراقية .
* المادة السادسة : تعويد البنات على الصدق والجد فى العمل .
* المادة السابعة : اتباع الطرق الشرعية فى اتباع الخطبة فلا يتزوج اثنان قبل أن يجتمعا فى حضور محرم .

* المادة الثامنة: ضرورة الحجاب على أن يكون على النمط التركى «الحجاب عند الأتراك كان متفقًا مع الشريعة فى عدم تغطية الوجه والكفين والقدمين».

* المادتان التاسعة والعاشرة.. واجب الرجال والنساء على السواء فى المحافظة على الوطن، والاستغناء عن الغرب بقدر الإمكان.

هذا هو صوت سيدة منذ تسعين عامًا، تدعو بنات جنسها إلى الحرص على السلوك الدينى والوطنى والتعليمى بنبرة هادئة يسودها المنطق والعقل والتقاليد. وأجدر بالحركة النسوية المعاصرة أن تحمى المنهج الذى أرسته.

قالت الدكتورة عائشة عبد الرحمن:

«بنت الشاطئ» بى خوف أن تكون الحركة النسوية المعاصرة قد أوقعتنا نحن النساء فى خصومة مع الرجل، مع أن الذى بيننا وبينهم ليس تنافسًا ولا سباقًا، إننا رفاق فى رحلة العمر لا نستغنى عنهم ولا يستغنون عنا.

وأحسبنى على صواب إذا ما قلت أن أوجه الشبه بين بنت الشاطئ وباحثة البادية كثيرة فى أسلوب التفكير والدعوة لحقوق المرأة والحرص على الأسانيد الدينية فى الدعوة لحرية المرأة بحيث تجىء هذه الدعوة فى غير خصومة مع الرجل. كلتاهما نشأت فى بيت علم وأدب. من تخوم البادية فى الفيوم أخذت «ملك حفنى ناصف» اسمها المستعار «باحثة البادية»، ومن شاطئ البحر فى دمياط أخذت «عائشة عبدالرحمن» اسمها «بنت الشاطئ».

وعائشة أخذت العلم عن أبيها الشيخ عبد الرحمن وزملائه شيوخ المعهد الدينى بدمياط. و«عائشة» قدر لها أن تتزوج «الشيخ أمين الخولى» فأخذت عنه «المنهج» فى التفكير وأسلوب الحياة. أما ملك فكان نصيبها أن تتزوج من أحد سراة البدو فى الفيوم وهى صبية. فعاشت فى مضارب القوم بالصحراء، وارتدت الكوفية والعقال. وقدر لها أن تواجه مأساة لا يد لها فيها، بل إنها كانت مظلومة كما سنرويها للقراء. ولكن نبدأ بالأب الذى مات بعد شهور من موتها حزنا عليها وعلى مأساتها.

حفـنى ناصــف:

هو محمد الحفنى بن إسماعيل خليلى ناصف، واشتهر باسم «حفنى ناصف»، ولد فى ١٦ سبتمبر عام ١٨٥٥م ببركة الحج «قليوبية». وتوفى والده وهو لم يزل جنينًا فى بطن أمه فكفله خاله ورعته جدته لأبيه. التحق بالأزهر وظل به من عام «١٨٦٩م - ١٨٧٩م». ثم التحق بدار العلوم عام ١٨٧٩م وتخرج عام ١٨٨٢م وترتيبه الأول. كان الشيخ «محمد عبده» قد ألحقه بتحرير «الوقائع المصرية» عام ١٨٨٠، وكان لم يزل طالبًا بدار العلوم. والتحق بتدريس «العميان والخرس».

عام ١٨٨٥م اختاره «شفيق منصور بك» الذى كان يشغل وظيفة ما يشبه «النائب العام»، اختاره سكرتيرًا له فاتصل «حفنى ناصف» بالشئون القانونية. وأشرف على الترجمة القانونية والقضائية، وسافر إلى أوروبا عدة مرات واختير عضوًا فى مؤتمر المستشرقين فى «فيينا» بالنمسا. وعاد «حفنى» إلى مصر واختير لتدريس مادة الإنشاء القضائى بمدرسة «الحقوق الخديوية» من عام ١٨٨٧ - ١٨٩٢م. وعقدت مسابقة فى «المواد القانونية» عام ١٨٩٢م فاجتازها بتفوق. وعين فى عام نجاحه فى المسابقة قاضيًا وأخذ يتنقل ما بين القاهرة وطنطا وقنا. ووصل إلى وظيفة وكيل محكمة طنطا الكلية. وسنة ١٩١٢ عمل مفتشًا للغة العربية بوزارة المعارف العمومية. وأحيل إلى المعاش سنة ١٩١٥م، وتوفى فى فبراير عام ١٩١٩م. وكانت ابنته «ملك» قد سبقته إلى الرحيل فى أكتوبر عام ١٩١٨م.

ومن مؤلفات وأعمال «حفنى ناصف»:

رسالة عن السيدة «مارية القبطية» - حياة اللغة العربية - الأمثال العامية - الأسماء العربية لمحدثات الحضارة والمدنية - مجموعة شعر حفنى ناصف.

وهكذا تأثرت «ملك» بأب من رجال القضاء والأدب.

هـذه المـــرأة:

ولدت ملك حفنى ناصف «باحثة البادية» فى حى الجمالية بالقاهرة عام ١٨٨٦م

كانت الأولى على الشهادة الابتدائية عام ١٩٠٠م، حصلت على دبلوم المعلمات من المدرسة السنية بالسيدة زينب عام ١٩٠٣م. أشهر فتاة فى العقد الأول من القرن العشرين. شجعها أحمد لطفى السيد أن تكتب تحت عنوان «نسائيات» فى جريدة «الجريدة»، كانت كبرى سبعة أبناء للأديب الشاعر «حفنى بك ناصف». اشتهرت فى كتاباتها وندواتها ومحاضراتها بالحس الدينى والتوجه الوطنى، حرصها على مراعاة الظروف القومية والوطنية والاقتباس بحرص من الحضارة الغربية. أصبحت شاعرة وأديبة وصحفية. لتكتب عنها الأديبة مىّ كتابا، ونشرت عنها «الدكتورة بنت الشاطئ» دراسة. وعندما توفيت فى أكتوبر من عام ١٩١٨م رثاها، أحمد شوقى وحافظ إبراهيم وخليل مطران.

بعد تخرجها من المدرسة السنية عملت بالتدريس فى المدرسة نفسها. وكما ذكرنا تزوجت من أحد سراة القوم بالفيوم، وهو «عبد الستار الباسل» شقيق «حمد الباسل». والمأساة هى أنها لم تنجب منذ زواجها إلى أن توفيت. وهى فترة وصلت إلى ١٥ عامًا. وكان زوجها قد أنجب من زوجة سابقة له. وأخذ الجميع يتحدثون عن عدم إنجابها بأسلوب آذى مشاعرها. وفوجئت أخيرًا بأن زوجها بعد أن أنجب من زوجته السابقة أصيب بما أفقده الإنجاب. وجاءت فحوص الأطباء أن «ملك» سليمة تمامًا وليس بها ما يعوقها على الإنجاب، وأن العيب فى زوجها وليس فيها. . فأصيبت بالاكتئاب إلى أن توفيت وهى فى الثانية والثلاثين من عمرها. وأصيب والدها بسبب ظلم المجتمع لكبرى بناته «ملك» أصيب بالشلل، وقضى عليه الحزن فرحل بعد رحيلها بأربعة أشهر. نطلب لها الرحمة ونعود لسيرتنا الأولى.

روح الوطنيـــة:

لقد ساعد الحس الدينى لدى «باحثة البادية» على أن تتجنب الانزلاق فى خصومة مع الرجل وهى تنادى بحرية المرأة. كذلك ساعدها التوجه الوطنى على الانحياز لقضايا الوطن وحرية الشعب. وقد ورثت هذا التوجه عن والدها «حفنى ناصف» الذى كان مؤيدًا لسعد زغلول، فعندما اتهم الاحتلال «سعد زغلول»

بتشكيل جمعية سرية تحت اسم «جمعية الانتقام» وقاموا بحبسه واضطهاده كان معه «حفنى بك ناصف» ، وأحمد أفندى سمير ، وأحمد أفندى على الذى كان يعمل بالأوقاف وداسه الوابور بالقرب من محطة قليوب . وظهرت النزعة الدينية والوطنية فى القصائد التى نظمتها . كما أنها عندما عملت بالتدريس فى مدرسة السنية كان العمل بالتدريس غالبًا للفقراء والمحتاجين ، فكسرت «باحثة البادية» هذا العرف السائد منحازة لغالبية الشعب من الفقراء والمحتاجين . وقالت إن الوعى السياسى عند المرأة لا يقل عما عند الرجل . وهاجمت قانون المطبوعات بقصيدة ملتهبة .

وكانت أولى المناضلات من أجل قضية المرأة . وتأثرت بالحركة الفكرية التى ظهرت فى مطلع هذا القرن والتى قادها الشيخ محمد عبده وأحمد لطفى السيد وقاسم أمين وسعد زغلول . وعندما اعتدت إيطاليا على طرابلس الغرب سنة ١٩١١ . وهبت مصر لنصرتها على الرغم من ضغط الحكومة والإنجليز . شكلت «باحثة البادية» جمعية قريبة الشبه «بجمعية الهلال الأحمر» التى قامت بإرسال المعونات من ملابس وأغطية وأدوية والإعانات المالية لضحايا العدوان الإيطالى . ومثلت مصر فى مؤتمر عام ١٩١١م . وقد تناولت سيرتها هذه كاتبة إنجليزية «شرلوت كمرون» فى كتاب بعنوان «شتاء امرأة فى إفريقيا» وركزت على اهتمام باحثة البادية بالقضية المصرية .

سلوك المرأة:

بعد أن قدمت «باحثة البادية» برنامجها بمواده العشر التى ذكرناها آنفًا كانت الأسئلة التى تناثرت . . هل لها من مطالب أخرى؟ وماذا تقول من جانبها للمرأة المصرية التى تنادى لها بالحقوق والحريات؟

نادت بتقييد تعدد الزوجات ، وفى نهاية حياتها رفضت تعدد الزوجات تمامًا وانتقدت سلبية النساء واستسلامهن للجهل والتخلف ، وقالت إن إصلاح المجتمع يتأتى بإصلاح عيوب الرجال والنساء معًا عن طريق التعليم .

وطالبت بالنظر لفترة الحمل والولادة عند النساء مثل النظر إلى فترة المرض عند الرجال.

أما وصاياها للمرأة فقد تمثلت فيما يلى :

* الاقتراح الأول . . ضرورة أن تذهب النساء فى المدن والقرى لحضور الصلاة وسماع الوعظ فى دور العبادة : وأن تتمسك المرأة بحرية التصرف فى مالها ، وحرية الإمساك بالمعروف أو التسريح بالإحسان . وحرية الرأى .

* الاقتراح الثانى : التمسك بأن يكون التعليم الأولى إجباريا ، وعلى الجمعيات الخيرية وأغنياء الأمة تعليم الفقيرات من بنات الأمة والفقراء من أبنائها .

* الاقتراح الثالث : التمسك بتعليم الدين لما يغرسه فى نفوسهن من الأخلاق .

* الاقتراح الرابع : تعيين سيدة مصرية رشيدة فى كل مدرسة للبنات لمراقبة الفتيات فى أخلاقهن وسلوكهن .

* الاقتراح الخامس : توسيع نطاق مدارس الممرضات وتعليم النساء مهنة الطب بدرجة تساوى درجة تعليم الرجل . كما يجب أن يكون فى كل قرية طبيبة وممرضة .

* الاقتراح السادس : الإكثار من المستشفيات الخيرية والصيدليات للمريضات من النساء والأطفال .

* الاقتراح السابع : تمسك النساء والبنات بضرورة محاسبة كل رجل يخرج عن الآداب مع المرأة والفتاة فى الشوارع .

* الاقتراح الثامن : ألا يتزوج الرجل على امرأته ولا يطلقها إلا بإذن المحكمة الشرعية .

* الاقتراح التاسع : على المرأة المصرية أن تتعلم التفصيل والتطريز وتربية الأطفال والخدمة حتى لا تحتاج الوطنيات إلى غيرهن من الأجنبيات .

* الاقتراح العاشر : منع النساء من المشى فى الجنازات نهائيًا ، ومن التجمع للندب واللطم والصراخ والتعديد . . هذه العادات لا وجود لها إلا فى مصر .

اتحاد النساء التهذيبي:

يبين من هذا العنوان اتجاه «باحثة البادية» إلى التهذيب والتربية والإصلاح والتقويم، فأطلقت هذا الاسم على الاتحاد الذى دعت إلى تكوينه، كانت تنظم الندوات للمقارنة بين المرأة فى مصر والمرأة فى الغرب، وألقت الأحاديث حول التقاليد البالية التى يجب على المرأة المصرية أن تقلع عنها. لتكتب المقالات وألفت الكتب ووضعت البرامج، وتقدمت بالاقتراحات.. ثم أنشأت «اتحاد النساء التهذيبى».

كتبت فى الصحف المصرية وفى الصحف الأجنبية. تناولت فى ثنايا كتابها «نسائيات» أحوال النساء المصريات. وكانت تلتقى بالنساء لبحث مشاكلهن. وقامت بدراسة نظام الزواج حتى تكون اقتراحاتها مبنية على الدراسة وليست مجرد نداءات عاطفية.

اهتمت بأفكار «الشيخ محمد عبده» وتعاليمه، وركزت على اهتمام «الشيخ» بتعليم المرأة فى جميع مراحل التعليم. كتبت قصيدة لرثاء «الشيخ» عندما رحل عام ١٩٠٥م، وكانت فى التاسعة عشرة من عمرها. كانت ترى أن يقوم الزواج على أساس فكرى، وعلى الرغم من أنها أيدت «الحجاب» بنظامه الدينى إلا أنها طالبت بتخفيفه قبل الزواج حتى يتسنى للشباب رؤية الفتيات بقدر يكفى لرؤية واضحة.

ومن خلال «اتحاد النساء التهذيبى» وعن بنات الطبقة العليا للنزول إلى بنات الشعب والتعرف على مشكلاتهن وتقديم الحلول لهن.

وبتأثير المأساة التى تعرضت لها والادعاء بأنها لا تنجب، ثم قرر طبيب فى الأستانة أنها قادرة على الإنجاب وأن زوجها الذى كان يقف وراء حملة القول بأنها لا تنجب هو الذى لا ينجب. وإزاء هذا الموقف الظالم ذابت كما تذوب الشمعة المحترقة، وقالت لماذا لا يسمح بالكشف الطبى على الرجال والنساء معًا قبل الزواج، فثارت عليها موجة من الاعتراض من جانب الرجال والنساء معًا لأن تقاليد المجتمع وقت ذاك لا تسمح بعرض البنات على الأطباء قبل الزواج.

عاشت وماتت مظلومة:

عاشت «ملك حفنى ناصف» اثنين وثلاثين ربيعًا من عام ١٨٨٦م وتوفيت فى عام ١٩١٨ . ونظلمها إذا قلنا حياتها امتدت اثنين وثلاثين ربيعًا . فى الحقيقة النصف الثانى من هذا الرقم كان حوالى ١٥ خريفًا ، وكانت الكاتبة الإنجليزية التى كتبت عنها كتاب «شتاء امرأة فى إفريقيا» على حق . . فالمدة الأخيرة من عمرها كانت أقرب إلى الشتاء أو الخريف . . وأشعارها التى نظمتها ومقالاتها التى كتبتها وندواتها التى عقدتها ومحاضراتها التى ألقتها لم تهتم الاتحادات النسائية التى جاءت بعد اتحادها ، والكتب التى صدرت بعد كتابها والأصوات التى ارتفعت بعد رحيلها لم تسجل شيئًا يذكر من تراثها . وحتى ما كتب عنها تاه بين أضابير وتراب الخزائن . وقصائد الرثاء فيها لم يهتم أحد بترديدها فى ذكرى من ذكراها . وللجميع نقول لمن يهمه أمر امرأة من مصر ارتفع صوتها بشكل متزن يرعى الله والأخلاق والتقاليد والوطن فيما يقول . نقول نحن للجميع لمن يهمه الاحتفال بها فى ذكراها . . إنها ولدت فى ديسمبر من عام ١٨٨٦م ، ورحلت عن دنيانا فى أكتوبر عام ١٩١٨م . الله يرحمها ويغفر لنا .

الأسانيد:

الدكتورة أمال السبكى : الحركة النسائية فى مصر ١٩١٩ ـ ١٩٥٤ .

الدكتورة بنت الشاطئ : جريدة الأهرام ٢٢/ ١١/ ١٩٩٨ .

جمال بدوى : نظرات فى تاريخ مصر .

سيد صديق : عظماء القرن العشرين .

محمد فريد : مذكراتى بعد الهجرة .

نبوية موسى



عندما كتبنا عن «الشاعر على الجارم» زينة المجالس - على حد تعبير عباس محمود العقاد - قلنا إن بعض النقاد اعتبر انحرافه فى مديح الملكين فؤاد وفاروق قلل من قيمته الأدبية، ومثل هذا الموقف حدث مع رائدة تعليم الفتيات فى مصر «نبوية موسى»، فقد تمادت فى الولاء للملكين فؤاد وفاروق. وكانت على علاقة وثيقة بحزب الأمة ثم حزب الأحرار الدستوريين، وعندما كان «محمد محمود باشا» رئيسا لحزب الأحرار الدستوريين وضعت مجلتها «الفتاة» فى خدمة حزب الأحرار الدستوريين.

وحين قامت ثورة ١٩١٩م، أعلنت مدارس القطر الإضراب عن الدراسة، أما نبوية موسى ناظرة مدرسة معلمات الورديان بالإسكندرية، فكانت ترى أن التعليم هو أعظم تعبير عن العمل الوطنى. واجتمعت بالمعلمين والمعلمات وأقنعتهم بوجهة نظرها فى عدم الإضراب عن الدراسة، واستغل البعض موقف نبوية موسى وشك فى وطنيتها، ونحن إذ نكتب هنا عن «نبوية موسى» التى أفنت حياتها فى تعليم الفتيات، دافعت عن حقوق المرأة وضربت مثلا طيبًا لسلوك المرأة فى العمل بعامة وفى التعليم بخاصة وأضربت عن الزواج.. لانشكك فى وطنيتها الصادقة وإنما نسترشد بموقف الزعيم العظيم «سعد زغلول»، عندما كانت تهاجم سياسة التعليم وهو ناظر للمعارف «وزير» فأخذ من القضية الموقف المضىء وساندها وشجعها كما سنرى.

الزعيم سعد زغلول باشا:

كان ناظرا للمعارف، وكانت «نبوية موسى» قد حصلت على دبلوم المعلمات من المدرسة السنية، ورفضت ناظرة المدرسة السنية بإصرار شديد ورأسها وألف سيف، وحالت دون تعيين نبوية موسى مدرسة بالسنية، فعينت معلمة بمدرسة عباس الأميرية للبنات، وزمن أن كان الرجال رجالا كانت قضايا سعد وهو ناظر للمعارف الاهتمام باللغة العربية وإحلال المصريين محل الإنجليز فى الوظائف الشاغرة ورعاية المدارس وزيارتها شخصيا، وتفقد أحوالها، المهم أن «نبوية موسى» كانت تكتب سلسلة مقالات عن التعليم وسياسته وسبل تطويره ووضع المرأة المصرية كمعلمة، ووضع الفتيات كطالبات وتلميذات، وذلك فى مجلة كانت تصدر وقت ذاك باسم «مصر الفتاة».

وذهبت إحدى المفتشات الحاقدات على نبوية موسى إلى «سعد باشا» ناظر المعارف، وقدمت شكوى وأرفقت بها مقالة من مقالات نبوية موسى، وأعجب سعد وسر سرورا كبيرا لرصانة اللغة واستقامة الأسلوب، وكانت سعادته بالغة بأن تكون لديه فى نظارة المعارف معلمة لديها هذا الاهتمام باللغة العربية، وذهب سعد باشا إلى «محمد سعيد باشا»، وكان رئيسًا للنظار وأطلعه على المقالات وأبدى إعجابه بالأسلوب واللغة. وكانت المصادفة أن «محمد سعيد باشا» كان يعتزم أن يطلب من «سعد» باعتباره ناظرًا للمعارف أن يقترح عليه أحد ليقوم بتدريس اللغة العربية لبناته الثلاث «زينب وناهد وبديعة»، واتفق «محمد سعيد باشا» و«سعد باشا» على أن تكون «نبوية موسى» هى المدرسة، وقامت «نبوية» بإعطاء البنات أربعة دروس فى الأسبوع، والمكافأة سبعة جنيهات فى الشهر، وفى مقتبل الأيام أصبحت «زينب» والدة للملكة فريدة، و«ناهد» حرما لحسين سرى باشا، أما «بديعة» فقد توفيت لرحمة الله، وزاد حقد مدرسى اللغة العربية على «نبوية»، وزاد الكيد لها فى كل وقت ولدى كل جهة.

سعد ومحمد محمود:

وكما قدمها «سعد باشا» إلى رئيس النظار «محمد سعيد باشا»، وقامت بدورها

فى التدريس لبناته الثلاث خير قيام، وقد أشادت فى سيرة حياتها التى أصدرتها بعنوان «تاريخى بقلمى» بجدية البنات الثلاث والمعاملة الطيبة التى لقيتها منهن. وكان «محمد محمود» مديرا للفيوم وفى مذكراته يروى لنا «سعد باشا» كيف تقابل مع محمد محمود الذى كان مديراً للفيوم عام ١٩٠٨م، وكان «محمد محمود» مهتما بالتعليم فى الأقاليم وأنشأ «المدرسة المحمدية للبنات بالفيوم» وعين لها ناظرة إنجليزية لم تستمر فى العمل بالمدرسة، واستأنس محمد محمود برأى «سعد باشا» فى أمر ناظرة للمدرسة، ورشح له سعد باشا «نبوية موسى» المصرية الجادة الصادقة فى سلوكها نزيهة القصد والبارعة فى اللغة العربية لتكون ناظرة للمدرسة فى مكان الناظرة الإنجليزية التى تركت العمل.

وطلب «محمد محمود» نبوية موسى لمقابلته فى منزلة بشارع الفلكى وذهبا سويا إلى الفيوم، حيث تم التعاقد بين نبوية موسى ناظرة للمدرسة المحمدية للبنات ومع رئيس مجلس المديرية. وتحكى فى مذكراتها ما دار بينها وبين محمد محمود، وكيف أنها أبلغته أنها لا تقبل التدخل فى أعمالها ولا تسمح لأحد أن يوجه لها أية عبارة قاسية فى المديرية لها فى المدرسة فى غير أوقات العمل الرسمية، وفى مكتبها فى المدرسة، إذ أن ردها سيكون قاسيًا وحازمًا وعنيفًا.

وأقرها «محمد محمود» على كل ما قالته وكل ما حددته، وسارت الأمور على خير ما يرام إلى أن ترك «محمد محمود» العمل فى الفيوم إلى منصب مدير بورسعيد، وخلفه غيره وعز على مدير الفيوم الجديد أن يكون لهذه الناظرة وهى مرؤسة له أوامر ونواه، فكان أول ما فعله أن أرسل إليها سكرتير مجلس المديرية الساعة السابعة مساء فرفضت المقابلة وأفهمته أنها لا تقابل الرجال إلا فى وقت العمل، وفى صباح اليوم التالى ذهبت إلى مدير الفيوم الجديد ووضعت أمامه أسلوبها فى العمل والسلوك الذى تحرص عليه بحزم، وعاود المدير سلوكه معها وأرسل إليها السكرتير فى الساعة التاسعة مساء وليس السابعة، وكان أن عنفته ورفضت دخوله إلى المدرسة.

أكثر من هذا، إمعانا فى مضايقتها، ذهب إليها ذلك المدير الجديد فى مكتبها بالمدرسة وفى عروة سترته وردة حمراء، وحسب مذكراتها جلس جلسة لا تليق،

وتراشقا بالألفاظ، وخرج وهو يهدد بالويل والثبور وعظائم الأمور وهو يفاخر بقوته وسلطانه، وشكت لأخيها «محمد موسى» وكان وكيل نيابة بالفيوم، وأحاطتها المكائد والتلفيقات من كل جانب، وعندما علم «حافظ بك إبراهيم» شاعر النيل بما أحاط بها، وكان يعرف قدرها ومعجبًا بسلوكها وشخصيتها قام بزيارتها فى مكتبها بالمدرسة، وحرص على أن تعرف مختلف الدوائر فى الفيوم بهذه الزيارة وبتأييده لنبوية موسى.

كعب داير:

يبدو أن شخصية لها أخلاقيات «نبوية موسى» من الوارد أن يكون جزاؤها من بعض ذوى النفوذ أن تذوق الأمرين، وأن تلقى المتاعب والمكائد والمصائد، تقول فى مذكراتها إنها لم تعرف الرقص ولا العزف على البيانو، وكانت عزيزة النفس وشديدة الثقة، رافضة للقهر والسيطرة والخنوع والتبعية، والانصياع لأوامر الآخرين بدون مساءلة. وكانت طوال عملها تتعامل مع المدرسات الإنجليزيات معاملة الند للند، يلقين منها مدرسة مصرية تعتز بمصريتها وقوة شخصيتها واستقلالها برأيها، وكانت ترى أن معاداة وزارة المعارف لها ترجع إلى اعتراض السلطات الإنجليزية على وجود ناظرة مصرية لها شخصيتها إلى جوار الناظرات الإنجليزيات، كانت تكره الغش فى الامتحانات، ولم تحاول ذلك أبدًا في حياتها الدراسية، ولم تساعد أية طالبة أخرى على الغش مهما كانت الظروف.

وقابلت ما جرى لها رابطة الجأش راضية عن سلوكها.. رفضت ناظرة المدرسة السنية أن تكون نبوية موسى معها، وهى على شخصيتها القوية المستقلة، فعينوها فى مدرسة عباس بالقاهرة كما ذكرنا من قبل، وبناء على رأى سعد زغلول أخذها «محمد محمود» مدير الفيوم ناظرة للمدرسة المحمدية للبنات بالفيوم، وبعد انتقال «محمد محمود» محافظًا لبورسعيد أذاقها المدير الجديد وتابعوه الأمرين، فانتقلت مدرسة للمعلمات بالمنصورة فوكيل لمعلمات بولاق، ثم أصبحت ناظرة لمدرسة المعلمات بالورديان بالإسكندرية، فمفتشة للتعليم الأولى، وبعد أن غلب حمارها أقاموها بإجازة مفتوحة مدفوعة الأجر.

وكتبت لدانلوب المستشار الإنجليزى للتعليم رسالة شديدة اللهجة فأعادوها كبيرة للمفتشات بالوزارة، ثم ناظرة لمعارف بولاق . . (وبرضه مفيش فايدة) فأوقفوها عن العمل.

مذهبها فى الزواج:

لها رأى قاس جدا فى الزواج بالنسبة للفتيات والنساء وكانت حازمة فى هذا الموقف. فى السابعة عشرة من عمرها كانت لها صديقة فتاة قروية تدعى «ناعسة» قدمت لها خطابا من أخيها يعرب فيه عن مشاعره الودية نحوها، مزقت «نبوية» الخطاب وأعادته إلى ناعسة، وكانت النتيجة أن تحدث هذا الشاب عن أخلاقها المتينة أمام شباب القرية، وما أن نجحت فى البكالوريا عام ١٩٠٧م، ونشرت الصحف بالبنط العريض خبر فوز أول مصرية بالبكالوريا. وقالت فى سيرتها الذاتية: لو أننى فتحت فرنسا لما كان لاسمى رنة أشد مما كان له على أثر نيل الشهادة العظيمة، أى شهادة البكالوريا، وأرسل لها مأمور فى السودان رسالة على مدرسة السنية فى حين أنها كانت فى مدرسة عباس، ويخاطبها ذلك المأمور فى أمر الزواج لأنه لا يعرف عنوان ولى أمرها، ورفضت الطلب على الفور لأنها حسب قولها فى سيرتها الذاتية: تكره الزواج وتعتبره «قذارة»! وعرضت الخطاب على شقيقها «محمد» وطلبت منه أن يكتب إليه بالرفض، ويقول لهذا الخطيب أن شكلها لا يشجع أحدًا على الزواج منها، إلا أن المأمور عاود الكتابة لأخيها ويوضح أنه لا يعبأ بالشكل . . يكفيه تعليمها وعملها وثقافتها وأسلوبها فى الكتابة، ووافق شقيقها إذ إن الرجل لا يعيبه شىء . . السن مناسبة والدخل مناسب والوظيفة مناسبة إلا أنها أوضحت أنها ترفض فكرة الزواج من أساسها، وتزوج المأمور ورزقه الله بالأولاد.

كان هذا عام ١٩٠٧ وعام ١٩١٣ طلبها رجل ثان للزواج ورفضت بكل إباء وشمم، وعام ١٩١٩ وعمرها أصبح ٣٣ عامًا أرسل لها كمسارى بالسكة الحديد رسالة من ٧ صفحات فيها غرامه وهيامه وإعجابه، إلا أنها ردت عليه بأنها تعتبر الزواج جريمة تلحق بها، وانتهى الموضوع وظلت على رفضها فكرة الزواج على الرغم من غضب أخيها من هذه الفكرة.

اليتيمــة:

ولدت فى ١٧ ديسمبر عام ١٨٨٦ بكفر الحكما بندر الزقازيق، وكان أخوها «محمد» يكبرها بعشر سنوات، ولا نعرف ظروف ولادتها بمديرية الشرقية فى حين أن والدها كان ضابطًا بالجيش المصرى برتبة يوزباشي وبلدته بمديرية القليوبية وله منزل ريفى كبير بها وعنده بضعة فدادين، المهم أن الوالد سافر إلى السودان قبل مولدها بشهرين ولم يعد من هناك، نشأت نبوية يتيمة، ثم عاشت فى القاهرة مع شقيقها «محمد موسى» الذى أصبح فيما بعد وكيلا للنيابة فى مدينة الفيوم. أما الأم كما تحدثنا عنها فهى أم مصرية بسيطة لجأت إلى «الزار» عندما مرضت نبوية، وباعت الأم بيتًا تملكه وأنفقت ثمنه على الزار الفخم الذى شفيت على أثره «نبوية» من مرضها!

قبل المدرسة كانت تحفظ القصائد العربية التى يرددها شقيقها «محمد»، وعلمت نفسها مبادئ الحساب، وعلمها أخوها ألف باء اللغة الإنجليزية، ثم أصرت على الالتحاق بالتعليم المدرسى وهو ما لم يكن مقبولا أو مستساغًا اجتماعيا فى بدايات القرن العشرين، ورأت والدتها أن التحاقها بالمدرسة خروج عن قواعد الأدب والحياء ومروق عن التربية والدين، وهذا يفسر تمسكها الدائم بالحشمة والكمال. واصطدمت بعقبة المصروفات، فباعت سوارها حتى تسدد المصروفات، وكان عليها أن تواجه الأسرة والمجتمع «التجربة ذاتها التى مرت بها د. عائشة عبد الرحمن».

والتحقت «نبوية موسى» بالقسم الخارجى للمدرسة السنية عام ١٩٠١، وهو العام الذى حصلت فيه «ملك حفنى ناصف وفيكتوريا عوض» على الشهادة الابتدائية.

وملك حفنى ناصف أصبحت فيما بعد زوجة لعبد الستار الباسل شقيق حمد الباسل، وفيكتوريا عوض أصبحت «مدام هنرى بك بدير مدير مخازن وزارة الصحة»، وعام ١٩٠٣م نجحت فى الشهادة الابتدائية، ونجحت فى البلاد المصرية كلها ٤ فتيات، ٢ من المدرسة السنية، و٢ من مدرسة عباس، ثم التحقت نبوية بالسنة الأولى من معلمات المدرسة السنية ومدة القسم ثلاث سنوات، كانت بالسنة الثالثة آسيا عبد الفتاح حرم محمد بك حمدى مرتضى وكيل مديرية المنوفية فيما

بعد، وتوحيدة صبحى حرم محمد بك شفيع وعائشة الشيمى، وبالسنة الثانية المرحومة فاطمة عمر شقيقة عبد العزيز فهمى باشا، و«حرم عبد المجيد باشا عمر»، والمرحومة السيدة نور الهدى عبد الله، والسيدة زينب بهجت، وزينب فؤاد، وهانم صالح، والسنة الأولى كانت بها نبوية موسى، وعائشة صبحى «حرم إسماعيل باشا رمزى» وبهية حسونة، ونور حسن، وإديل دياب.

وحصلت نبوية على دبلوم المعلمات عام ١٩٠٦، وعينت كما عرفنا معلمة بمدرسة عباس الأميرية للبنات، والتحقت عام ١٩١٢ بمدرسة الحقوق لتنال درجة علمية تمكنها من عمل أفضل، ولكن الإنجليز منعوها من دخول الامتحان، ثم واصلت العمل ونقلوها من مدرسة إلى مدرسة ومن بلد إلى بلد إلى الإيقاف عن العمل كما أوضحنا فى فقرة «كعب داير».

الصحافة هى السلاح:

نشأت نبوية موسى وعاشت فى فترة تاريخية كانت مصر خاضعة فيها للاحتلال الإنجليزى، كما أن المجتمع المصرى كان مجتمعا أبويا لم يألف المرأة فى مجال التعليم أو العمل، وقد ثابرت نبوية موسى وجاهدت حتى أصبحت أول فتاة مصرية تحصل على شهادة البكالوريا، وأول امرأة مصرية تعمل معلمة للغة العربية، وأول ناظرة مصرية، كانت تأخذ نصف مرتب الرجل فثارت ثائرتها تطلب بالمساواة بين الرجل والمرأة. كانت شديدة الانتقاد للسياسة التعليمية، وكثيرة الخروج عن مناهج وزارة المعارف، ووجدت طريقها إلى الصحافة، بدأت تنشر فى جريدة «مصر الفتاة»، وكتبت مقالات ساخنة تناقش فيها السياسة التعليمية، ووصلت إلى إعجاب سعد زغلول بأسلوبها ولغتها، ونشرت فى الأهرام والجريدة والبلاغ الأسبوعى بتوقيع «ضمير»، وكانت ضمن الاتحاد النسائى المصرى الذى ضم «هدى شعراوى وسيزا نبراوى وريجينا خياط، ومدام ويصا واصف» المشاركات فى المؤتمر الدولى للمرأة فى روما عام ١٩٢٣م.

كانت تحب الحرية والاستقلال فى العمل، وقرأت كتب «قاسم أمين» وأعجبت

بها، وعرفت بأنها أكثر النساء محافظة على الآداب الإسلامية، وفى سبيل نشر أفكارها أصدرت عام ١٩٣٧م مجلتها «الفتاة» للتعبير فيها عن أفكارها الخاصة بالتعليم والمجتمع.

التعليم قضيتها:

كان «التعليم» هو قضيتها تلميذة ومعلمة وناظرة وكاتبة وامرأة مصرية، كانت ترى فى التعليم طريقًا إلى تحقيق المساواة بين المرأة والرجل، وهو الطريق نحو نهضة المرأة المصرية، كان دورها واضحًا فى المدرسة المحمدية للبنات فى الفيوم، ثم مدرسة «ترقية الفتاة» التى أسستها فى الإسكندرية، وهى مدرسة أهلية تابعة لجمعية ترقية الفتاة، وقد تم تأسيسها بعيدًا عن سيطرة الحكومة، واشترت نبوية موسى مقر المدرسة من مالها الخاص.

وفى سبيل قضية التعليم أصدرت عددًا من الكتب، مثل «قضية التعليم» و«ثمرة الحياة فى تربية الفتاة» و«المطالعة العربية» وكتابها المهم «المرأة والعمل».

وشاركت أيضًا بمحاضرات فى الفرع النسائى التابع للجامعة المصرية، وكان لها دورها الفعال ضمن الحركة النسائية فى مصر الحديثة. وعلى الرغم من أنها شرقاوية المولد قليوبية الانتماء حسب الوالد فإنها اهتمت بما عرف بمشروع مدارس المجتمع بصعيد مصر، ويكفيها أنها شنت الحملات الشعواء ضد الاحتلال، وكشفت عن دوره فى عدم تكافؤ نسبة ما ينفق على تعليم البنات، مع ما ينفق على تعليم البنين. واهتمت بأهمية تثقيف المرأة وتحريرها لتؤدى دورها فى بناء المجتمع.

الأسانيد:

١ - رسائل الذاكرة - ملتقى المرأة والذاكرة.

٢ - د. محمد أبو الإسعاد - نبوية موسى ودورها فى الحياة المصرية.

٣ - نبوية موسى - تاريخى بقلمى.

٤ - ندوة فلنتذكر نبوية موسى «مكتبة القاهرة ٢١ - ٢٢/ ٩/ ١٩٩٩».

هـــدى شـــعراوى



ولدت بالمنيا عام ١٨٧٩، وتوفيت بالقاهرة عام ١٩٤٧.

١٩٠٧ جمعية رعاية الطفل.

و١٩٤٤ الاتحاد النسائى العربى.

١٩١٩ تزعمت أول مظاهرة نسائية، و١٩٢٠ مظاهرة ضد ملنر.

أبوها محمد سلطان قائمقام الخديو توفيق وخصم عرابى.

الاسم هدى، والأب محمد سلطان، والزوج على شعراوى، واسم الشهرة فى تاريخنا الحديث «هدى شعراوى» والمديرية والمركز (المنيا). . من الضرورى أن نتحدث عن الأب، وعن الزوج حتى يمكن أن يكون لحديثنا عن «هدى شعراوى» دلالة ومعنى.

ويصل إلينا بالتواتر أن «محمد سلطان» كان فى نشأته جمّالا بفتح الجيم وتشديد الميم - يحمل الأحجار فوق جمله أو فوق جماله من المحاجر لقاء أجر معين . . استطاع أن يكون شيخًا للبلد ثم عمدة لها. . واستطاع أن يتصل بأسرة «الشريعى باشا» المعروفة على امتداد مديرية المنيا، وأخذ «الشريعى باشا» بيده بسبب كفاءته ونشاطه، ومحمد سلطان فى النهاية هو «محمد سلطان باشا» رئيس المجلس النيابى فى عهد الخديو توفيق، وعدو الثورة العرابية، وقام مقام الخديو عندما احتجزته

أحداث الثورة فى الإسكندرية، ومات «محمد سلطان» عن اثنى عشر ألف فدان، وهى ثروة هائلة بمقياس الأمس واليوم معا.

هذه روايات بالتواتر، أما بحوث التاريخ فتسجل أن «محمد سلطان» من أسرة مغمورة غامضة المنشأ، وكان يخدم فى أملاك الخديو إسماعيل فى مديرية المنيا ولا نجد له اسما فى البرلمان الأول (١٨٦٦)، ولا البرلمان الثانى (١٨٧٠)، ولا البرلمان الثالث (١٨٧٦)، والذى شهد خلع «إسماعيل» والد «على شعراوى» وزوج شقيقه «محمد سلطان»، وسنة ١٨٨١ نرى فى مقدمة نواب المنيا أسماء «محمد سلطان باشا» وعلى أفندى شعراوى، وحسن باشا الشريعى، ويوسف أفندى عبد الشهيد، ومحمد أفندى جلال، ومحمد أفندى مصطفى عميرة، وذلك بعد خلع إسماعيل وتولى توفيق (٢٦ يونيو ١٨٧٩)، وحل برلمان إسماعيل البرلمان الثالث، وتأجيل النظر فى إصدار دستور ١٨٧٩ الذى كان قد أعده «شريف باشا»، وقد ألف «شريف» وزارته الثالثة فى ٣ يوليو ١٨٧٩، ثم جاء البرلمان الأول فى عهد توفيق (نوفمبر ١٨٨١)، وافتتح «توفيق» الدورة الأولى من برلمانه الأول فى ٢٦ ديسمبر ١٨٨١. وأصبح «محمد سلطان باشا» رئيسا لهذا المجلس والذى يطلق عليه البعض «برلمان توفيق - عرابى» نظرا لتداخل الأحداث بين توفيق والعرابيين، وتردد مواقف الكثيرين بين الخديو وعرابى.

وقد كان «الشيخ محمد عبده» شديد الهجوم على أمثال «سلطان باشا»، وكان يرى قتله لخروجه على الخط الوطنى وانضمامه إلى الخديو ضد الثورة. ويرى بعض الباحثين أن التحول ظهر فى الاجتماع الذى عقد بمنزل «سلطان باشا» مساء يوم ٢٧ مايو عام ١٨٨٢، وطالب فيه النواب والضباط بعزل الخديو، رفض البعض وعلى رأسهم سلطان باشا، وعلى الرغم من أن سلطان باشا قام بدور لتضامن الأعيان مع العسكريين، إلا أنه تزعم بعد ذلك المعارضين للثورة. وفى الفترة من ضرب الإسكندرية (١١ يوليو عام ١٨٨٢) حتى معركة التل الكبير (١٣ سبتمبر عام ١٨٨٢) نشط «سلطان» وبعض الأعيان فى طعن الثورة وخاصة بعد أن أعلن السلطان العثمانى عصيان عرابى ورفاقه، وعين «الخديو» سلطان باشا مندوبا خديويا لمقابلة الجنرال ولسن ولنشر الدعوة بين (العربان) لمساعدة الجيش

الإنجليزى. وحمل «سلطان» أعدادا كبيرة من قرار السلطان بعصيان عرابى، ومنشور الخديو الذى يدعو فيه إلى مساعدة الإنجليز. وكان لهذه الجولة تأثيرها.

هذا هو «محمد سلطان باشا» الذى تختلف المواقف حول دوره مع الخديو ومع عرابى وفى مجلس النواب، أنجب «هدى» وشقيقها «عمر» الذى مات فى عمر الزهور، وتولى «على شعراوى» الوصاية على «عمر» وهو صغير بعد وفاة «سلطان باشا»، وتولى الوصاية على أولاد عمر بعد وفاته. نشأت «هدى» وعاشت فى ظل ثروة أبيها وثروة زوجها «على شعراوى»، وحتى تكتمل الصورة نتحدث عن الزوج بعد أن تحدثنا عن الأب.

على شعراوى:

لم يختلف أحد حول صفحات على شعراوى الشخصية، فقد ظل طاهراً فى سلوكه، محافظًا على التقاليد، نظيف اليد، عف اللسان، مهيب الطلعة، جليل المشية، مستقيم السلوك من بدء حياته حتى نهايتها. وتروى عنه أقاصيص وحكايات تكاد تلحقه بركب العارفين بالله، وفى حديثه عنه قال «عبد العزيز فهمى»: أما على شعراوى فكان من خيرة الوطنيين المخلصين، بل من أخلص رجال مصر، وأكثرهم حبا لوطنه. كان جريئًا فى الحق يقول ما يعتقد، ويحافظ على كرامته، ولايمتهنها مهما كانت الظروف. وكان فى الجمعية التشريعية من العاملين لخدمة البلاد.

ووالده «حسن أفندى شعراوى» عمدة (المطاهرة) مركز المنيا، وتراه نائبا عن (المنيا) فى الانتخابات الأولى لمجلس شورى النواب فى ٢٥ نوفمبر عام ١٨٦٦م. أما «على شعراوى» الابن نجده فى برلمان (توفيق ـ عرابى) نوفمبر عام ١٨٨١م، على شعراوى ابن شقيقه «محمد سلطان باشا» تزوجها أبوه «حسن أغا شعراوى»، وكان فلاحا ذكيا ثريا وعمدة (المطاهرة)، نشأ «على شعراوى» بين ثروة أبيه ونفوذ خاله. وتزوج «على» فى فترة باكرة وأنجب ولده الأكبر «حسن» الذى أصبح «حسن باشا شعراوى» فيما بعد. وكان «الخديو توفيق» قد أهدى لصديقه المخلص «محمد سلطان» جارية بيضاء أنجب منها «عمر» الذى أصبح فيما بعد «عمر سلطان باشا»،

وأنجب منهـا أيضًا فتـاة جـميلة بيضـاء هى «هدى» التى أصبـحت فيمـا بعد «هدى شعراوى».

ولكنهـا لـم تكـن راغبـة فى الزواج من ابن عـمـتهـا «على» وتحت ضغط الأسـرة وإغراء ثـروة «على» التى بلغت تسعـة آلاف فدان، وافقت على شـرط أن تقـيم فى القـاهـرة. ووافق «على» ووضـع ثروته كلهـا تحت تصـرفـهـا. وأقـامت فى القـاهرة وانطلقت فى النشـاط السيـاسى والاجتمـاعى، وأرسلت «أحـمد الصـاوى محـمد» ليتعلم فى السوربون على نفقتهـا الخاصة، واتخذت لهـا سكرتيرة ذات ثقافة فرنسية هى «سـيزا نبـراوى» والتى أصبـح لهـا هى الأخرى نشـاط نسـائى ملحـوظ. وليس جديداً أن نقـول إن «على شعـراوى» هو ثالث ثلاثة ذهبوا فى السـاعـة الحادية عشـرة من يوم ١٣ نوفـمـبـر ١٩١٨ لمقابلة المعتـمد البـريطانى «سير رونالد وبخت» للسفـر وعرض قضية مصر على مؤتمر الصلح فى (فرساى).

وكمـا كان «على شعـراوى» عضـوا فى برلمان توفيق - عرابى ١٨٨١م، فإنه أصبح أيضًا عضـواً فى الجمعية التشريعيـة (ديسمبر ١٩١٣م) وعـرف بصـلابته فى مـواقفـه الوطنيـة. وتجمع الروايات على أن «هدى» كـانت وراء إقدام «على» فى مشـاركـتـه «سعد زغلـول» و«عبـد العزيز فـهمى» فى المشـوار التاريخى، ولكن هل كـانت حـركة «هدى» فى الحـركـة الوطنيـة من التـقـدم والتـراجع مماثلة لحركـة «على» إزاء اتفـاقـه واختلافه مع سعد والوفد؟ سوف نرى.

فكـرة عـامة:

نبـدأ بتـقـديم فكرة شـاملة عن مـشـوار «هـدى شعـراوى» منذ أن بدأت نشـاطهـا الاجتماعى سنة ١٩٠٧، حين دعت لجمع تبرعـات لإنشاء جمعية لرعاية الطفل، وتحمس الناس للدعوة، وتم جمع التبرعات لكن الحكومة أوقفت المشروع. وكانت النظارة فى ذلك الوقت تحت رئاسة (الحضرة الفخيمة الخديوية) عباس حلمى.

وسنة ١٩٠٨ بدأت الدعوة لمحاضرات ثقافية على السيدات فى قاعة من قـاعـات الجامعـة الأهلية، ووافق «الأمـير أحـمـد فؤاد» على تخـصـيص قاعة لمحـاضـرات

السيدات يوم الجمعة من كل أسبوع. وسنة ١٩١٠ اتفقت «هدى شعراوى» مع الأميرة «عين الحياة»، وعدد من الأميرات والسيدات على إنشاء (مبرة محمد على) لعلاج الأطفال، وعلى إنشاء مدرسة للبنات. وفى مايو عام ١٩١٤ أسست «هدى شعراوى» بمعاونة الأميرتين «عين الحياة وأمينة حليم» جمعيتى (الرقى الأدبى للسيدات والمرأة الجديدة)، وقد توقف نشاط هذه الجمعيات أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ـ١٩١٨).

وببداية الحركة الوطنية الجديدة تحت قيادة «سعد زغلول» ـ نوفمبر عام ١٩١٨ ظهر دور «هدى شعراوى» فى كافة المجالات السياسية والاجتماعية والثقافية مضحية فى هذا المجال بأموال كثيرة. رأست (لجنة الوفد المركزية للسيدات) وأصدرت البيانات والاحتجاجات. وبدأت عام ١٩٢٢ تبتعد خطاها عن طريق سعد زغلول، وهكذا كان موقف زوجها «على شعراوى» الذى كان أحد بناة حزب الأحرار الدستوريين. . وأعادت إحياء (جمعية المرأة الجديدة) فى أبريل عام ١٩٢٠، بعد أن أدمجت فيها كل الأنشطة الاجتماعية الأخرى. وفى مارس عام ١٩٢٣ كونت (الاتحاد النسائى المصرى) بعد أن تركت (لجنة الوفد المركزية للسيدات) التى تولت رئاستها «السيدة شريفة رياض». وقد كان للاتحاد النسائى برنامج سياسى واجتماعى وثقافى، واستطاع (الاتحاد النسائى) أن يجذب إليه أنشطة الجمعيات الأخرى، وخاصة بعد رحيل سعد الذى قدم السند الأدبى الكبير لحركة المرأة المصرية.

وبعد رحيل سعد ظهرت من صفوف نساء الوفد «السيدة منيرة ثابت» التى ألفت جمعية الأمل، ومجلة للجمعية باسم الأمل أيضًا وهى مجلة أسبوعية سياسية أدبية اجتماعية تدافع عن حقوق المرأة المصرية. وتقول «فاطمة اليوسف» فى مذكراتها إن المصور عام ١٩٢٥ نشر صورة «منيرة ثابت» على الغلاف وتحتها عبارة (أول صحفية مصرية)، فذهبت السيدة فاطمة اليوسف غاضبة لتؤكد أنها هى وليست «منيرة ثاتب» أول صحفية مصرية. وعرفت «منيرة ثابت» بجرأتها وثوريتها وبأفكارها الجديدة. وقد طالبت بأن تكون للمرأة المصرية شرفات خاصة بها كزائرات لمجلس النواب. وقد أيدها فى مطالبها «سعد زغلول» عندما كان رئيسا للوزارة سنة ١٩٢٤، وعندما كان رئيسًا لمجلس النواب بعد ذلك.

ومن الطريف أن «حسن شعراوى» ابن على شعراوى من زوجته الأولى ظل مرتبطًا بالوفد، ورشحه الوفد فى إحدى دوائر الشيوخ بالمنيا، وبعد أن حصل على الباشوية ترك السياسة وترك أى نشاط اجتماعى وعاش بقية حياته فى هدوء. أما «محمد شعراوى» ابن على شعراوى من هدى شعراوى تزوج فى شبابه بالمطربة «فاطمة سرى» وافترق عنها وغرق فى ملذات الدنيا.

هدى والثورة:

عرفنا من قبل أن «هدى شعراوى» كان لها نشاطها فى سنوات باكرة منذ عام ١٩٠٨، يساعدها فى ذلك ثراؤها العريض. وروايات كثيرة تؤكد أنها كانت خلف الدور الذى قام به زوجها «على شعراوى» فى الجهاد الوطنى يوم ١٣ نوفمبر ١٩١٨.

وفى ١٦ مارس ١٩١٩ عقدت نساء مصر اجتماعًا فى الكنيسة المرقصية، وتم انتخاب اللجنة التنفيذية للنساء الوفديات برئاسة «هدى شعراوى»، ونظمن مظاهرة ضد الاحتلال، وأعلنت «هدى شعراوى» أن شهيدات الثورة هى «شفيقة محمد، وفهيمة رياض، وعائشة عمر، وحميدة خليل عدا أخريات مجهولات».

وفى يوم الجهاد الوطنى سنة ١٩٤٧ وصفت هدى شعراوى دور المرأة المصرية فى الثورة الشعبية: تشكلت لجنة مركزية كان لى شرف رئاستها، وعملت تلك اللجنة على تنظيم صفوف المرأة فى هذا الجهاد العظيم. ولما قام الإنجليز يصبون نيرانهم على الثائرين.. قررنا القيام بمظاهرة تبدأ من منتزه قصر الدوبارة، وبينما كنت أتأهب لمغادرة منزلى فى ذلك اليوم للاشتراك فى المظاهرة بادرنى زوجى بالسؤال: إلى أين تذهبين والرصاص يدوى ويتساقط فى أنحاء المدينة، وأراد أن يمنعنى فقالت له: هل الوطنية مقصورة عليكم معشر الرجال فقط؟ وتركته وانصرفت.. وكانت المظاهرة تقابل من الجمهور بالتصفيق وتنثر عليها الأزهار من نوافذ المنازل.. ولما وصلنا بيت سعد وجدنا أنفسنا محاصرات بالجيش البريطانى.

ويسجل لنا «عبد الرحمن فهمى» فى مذكراته هذا الموكب: لم تنشأ المرأة المصرية

أن تحجم عن المساهمة فى الثورة . . ففى ١٦ مارس انطلق كثير من عقائل العائلات الراقية بين أنحاء القاهرة هاتفات بحياة الحرية والاستقلال مناديات بسقوط الحماية . . وضرب الإنجليز نطاقًا حولهن وسددوا إليهن فوهات بنادقهم وحرابهم. على أن السيدات لم يرهبن هذا التهديد ولم يفت فى عضدهن مشهد أولئك الجند المسلحين. كما وصف «عبد الرحمن الرافعى» تلك المظاهرة، وهى فى واقع الأمر بداية تاريخية لدور المرأة المصرية فى الحركة الوطنية.

وتوالت اجتماعات النساء المصريات. ومن هذه الاجتماعات ما عقد يوم ١٣ ديسمبر ١٩١٩ فى كنيسة الأقباط الكبرى، وقررن تأييد مقاطعة لجنة ملنر والإصرار على التمسك باستقلال مصر التام. وقد سجل «عبد الرحمن فهمى» أن ٧١ سيدة وقعن هذا البيان التاريخى فى مقدمتهن «هدى شعراوى»، وكتب «عبد الرحمن فهمى» أيضًا يصف مظاهرة النساء فى ١٦ يناير ١٩٢٠ : قامت بعض السيدات المصريات بمظاهرة لطيفة من ميدان المحطة إلى لوكاندة شبرد. وهناك هتفن لسينوت حنا بك المقيم هناك وللوفد المصرى ورئيسه وللاستقلال التام ولجريدة مصر. ولما وقع نظر السيدات على بعض الضباط الإنجليز أخرجت كل واحدة علمًا مصريا صغيرا وصحن بأعلى أصواتهن. . لتحيا مصر حرة مستقلة، ليحيا الاستقلال التام، ليحيا الوفد المصرى، ليحيا سعد باشا زغلول، ليسقط ملنر. . وكل هذا النداء كان باللغة الإنجليزية.

على أن أهم ما فى الموقف هو أن «عبد الرحمن فهمى» يسجل فى تقرير له للوفد مؤرخ فى ٢ مارس ١٩٢٠ أن لجنة السيدات التى ترأسها السيدة حرم شعراوى باشا تحتج على مشروعات رى السودان وغيرها، نراه هو ـ يقصد شعراوى باشا ـ لا يهتم بمثل ذلك. ولعل ذلك الموقف يفسر بداية تباعد «على شعراوى» عن زعيم الحركة الوطنية «سعد زغلول»، ذلك الموقف الذى تبلور عام ١٩٢٢ فى تأييد «شعراوى» للانشقاق الكبير الذى عرف بحزب الأحرار الدستوريين.

أما «هدى شعراوى» فقد كانت مواقفها مترددة إزاء «سعد زغلول»، وذلك لتأييد «سعد» لحركة المرأة المصرية، ولكنها أكثر وضوحا فى معارضة «مصطفى النحاس» وخاصة بعد معاهدة ١٩٣٦، ووجدت فى انقسام أحمد ماهر والنقراشى

عام ١٩٣٧ فرصة لتبرير معارضتها للنحاس باشا، وتأييدها للهيئة السعدية. ومع بداية الأربعينيات أخذت «هدى شعراوى» تقترب أكثر من داوئر القصر، وأصبح موقفها شبيها بموقف «نبوية موسى» المؤيد بصراحة للملك ولسياسة القصر.

كان اهتمامها بالصحافة واضحًا. أسست مجلة «المصرية» بالفرنسية عام ١٩٢٥، ورأست تحريرها «سيزا نبراوى»، ثم أصدرتها بالعربية عام ١٩٣٧، ويلاحظ أن اهتمام مجلة (المصرية) الصادرة بالعربية كان واضحًا بالمسألة الفلسطينية وحقوق الشعب الفلسطيني. وتعدت شهرة هدى شعراوى مصر إلى البلاد العربية وغير العربية إلى أن توفيت فى ١٣ ديسمبر عام ١٩٤٧.

أما بعـــد:

كان ينبغى أن يكون العنوان (أما قبل) وأن تجىء الفقرة فى بداية الموضوع لأنها تختص فيما تهتم به النساء. ولدت «هدى محمد سلطان» فى ٢٣ يونية ١٨٧٩. وتوفى والدها «محمد سلطان باشا» وهى فى الثامنة من عمرها، وتولى الوصاية عليها وعلى أخيها «عمر»، وتولى رعاية شئونهما ابن عمتهما «على شعراوى»، وكان يكبرها بحوالى ثلاثين عاما، وقد عرضنا الجانب السياسى لوالدها «محمد سلطان». وقد قالوا لها بعد رحيله أن والدها تميز بالشجاعة فى إبداء الرأى وبميله للأدب والعلم، وكان رحيما بالفقراء ومعاديا لنظام السخرة، وحاكمًا لأغلب مديريات الصعيد، ونشأت «هدى» وهى تعرف هذا كله، وقد وفرت لها الأسرة تعلم الفرنسية والعربية والموسيقى. وتزوجت ابن عمتها «على شعراوى» على غير رغبتها، وكانت فى الثالثة عشرة من عمرها.

وبعد أن وافق على كل طلباتها، وبعد شهور قليلة من الزواج ضيق عليها الخناق فى الخروج وزيارات الصديقات. وبعد حوالى سنة من الزواج انفصلا لمدة سبع سنوات. وقضت فترة فى الإسكندرية هى وأمها. ولظروف كثيرة عادت «هدى» إلى زوجها وهو أسلس قيادا وأسرع إلى تلبية مطالبها، وهى أكثر تعليما وخبرة واعتداداً واستقلالا. وبدأت نشاطها كما قلنا فى عامى ١٩٠٧، ١٩٠٨. وساعدتها أموالها فى السفر للخارج مرات عديدة لحضور المؤتمرات الخاصة بنشاط المرأة.

وكان لها دورها فى ثورة ١٩١٩ ، وفى تأسيس عدد من التنظيمات النسائية . والتقت بعدد من الشخصيات العالمية . وفى عام ١٩٤٤ أقامت (الاتحاد النسائى العربى) وانتهت حياتها العريضة المليئة بالنشاط النسائى فى ١٣ ديسمبر عام ١٩٤٧ .

الأسانيد:

١ - د . آمال السبكى . . الحركة النسائية فى مصر .

٢ - د . على شلبى . . بحث عن دور القوى الاجتماعية فى الثورة العرابية - مركز الدراسات بالأهرام .

٣ - عبد الرحمن فهمى . . المذكرات جـ١ ، تحقيق د . يونان لبيب رزق .

٤ - فاطمة اليوسف . . ذكريات .

٥ - محمد السوادى . . لكيلا تنسى .

٦ - د . نبيل راغب . . هدى شعراوى .

هذا الرجل من مصر

إبراهيم عبد القادر المازني



قال عنه «عباس محمود العقاد» :

«المازني شاعر عظيم . . وسخريته تدل على اليأس من الحياة ومن نفسه» .

قال عنه «أنيس منصور» :

«المازني هو الأديب الوجودي دون أن ينازعه أحد . . والفرق بين عباس محمود العقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم وبين المازني هو أن العقاد يحاضرك والدكتور طه يحدثك ، والحكيم يداعبك . . أما المازني فيسخر منك ومن نفسه» .

ويقول المازني عن نفسه :

«وجهت قلبي إلى المعرفة ، وبنيت لنفسي آمالا ، وغرست أوهاما وأحلاما من كل نوع ، وكان نصيبي من كل ما بقي . . قبض الريح» .

وشهدت له «د . نعمات أحمد فؤاد» :

«خلت سيرته كلها مما يلحق بالتهتك أو الشذوذ ، أو الإباحية . وكان ميله إلى مجاراة العرف ربيب نشأته في بيت دين» .

وكان الناس - عندما يرونه يمشي مع العقاد - يقولون : (رقم ١٠) لأن المازني قريب بعضه من بعض ، تملأ منه عينيك في لحظة (أي أنه صفر) ، أما العقاد فسامق الهامة ، باسق القامة (أي أنه واحد) .

يقول «إبراهيم عبدالقادر المازنى» : «ولدت فى ١٩ أغسطس عام ١٨٩٠م وأبى اسمه ـ أو كان اسمه ـ محمد عبدالقادر المازنى المحامى» . وتاريخ مولده هنا (١٨٩٠م) أخذ به أستاذنا الدكتور «محمد مهدى علام» فى كتابه (المجمعيون فى خمسين عاما) . أما «أنيس منصور» فقد أدرجه فى زمرة العظماء الذين ولدوا معا عام ١٨٨٩ . وقد ارتضت «د . نعمات أحمد فؤاد» بالتاريخين . . مرة تحت صورته التى نشرت فى كتابها ، وأخرى فى سياق الكلام عنه . وتوفى عام ١٩٤٩م . وأصل أسرته من (كوم مازن) مديرية المنوفية ، ومنه أخذ هو ووالده وعدد من أقاربه لقب (المازنى) .

واتفق الباحثون كافة ، واتفق هو معهم على أنه ولد لأب حضر العلم فى الأزهر ، وسافر إلى فرنسا وكان مزواجا ، له ولع خاص بالتركيات وتزوج أربع مرات . واتفقوا على أن المازنى كان ضئيل الجسم وبه عرج فى مشيته وقصير القامة ، بعضه قريب لبعض ، بينما إخوة له وأقارب أطول وأعرض وأجمل شكلا ، وأثرت هذه الصفات على شخصيته فأصابه الخجل ، وكان أحيانا يبدو سعيدا وأكثر الأحيان الأخرى يغلب عليه الصمت والحزن والسخط والتبرم ، وأكثر أعماله يبدو فيها اليأس والرومانسية . وحجمه الضئيل جعله يخاف من الزحام ، ويخشى الكلام .

وبعد موت الأب حمل على أكتافه الضعيفة مسئولية المنزل ، لأن أخاه الأكبر بدد المدخر من أموال الأسرة ، وأصبحت ضآلة جسمه وعرجه ، وإحساسه بالعجز الجسمى ، وحياته الأسرية تثير فى نفسه الشعور بالتناقض وخيبة الأمل .

ويعترف «المازنى» أنه فى طفولته كان (شيطانا صغيرا) يعاقب الجميع ويدبر لهم المقالب . ويروى لنا فى (صندوق الدنيا) : «كنا نضع قلل الماء على حوافى المشربيات لتبرد . وكنت أمد يدى إلى مشربية الجيران وأشرب ثم أفرغ قلل الجيران فى قللنا . وحسب الجيران أن قللهم بها عيوب فاشتروا غيرها . وفجأة عرف الجيران الحقيقة وأبصرونى أصب قللهم فى قللنا وباغتونى فارتبكت وسقطت القلة من بين المشربيتين على عمامة خالى . . ولا احتاج أن أقول إننى عدوت إلى سريرى وتناومت . ولست أذكر أننى هممت باللعب إلا زجرنى عنه واحد من الكبار» .

التشاؤم وسوء البخت:

دخل المازني المدرسة الابتدائية بالناصرية، وأتم دراسته الثانوية بالمدرسة الخديوية. كان يتطلع إلى أن يكون طبيبا مشهورا، ويكون له دخل مالي محترم، تقدم إلى مدرسة الطب ولكنه بعد فترة قصيرة اكتشف نفوره من جثث الموتى ومن تشريحها. وهجر دراسة الطب وفي نفسه صدمة، وأخذ يندب حظه العاثر. ورغب في الالتحاق بدراسة الحقوق. لا بأس فقد كان لخريجي الحقوق - في ذلك الزمان - أمل في الحكم والسياسة، وبعد أن اتخذ خطوات الالتحاق اكتشف أن حالتهم المالية لا تسمح. فالأب قد رحل والأخ الأكبر بدد أموال الأسرة. وانتهى به الأمر والتشاؤم يخيم عليه وسوء البخت ينكد عليه، والتحق على غير رغبته بمدرسة المعلمين وتخرج فيها عام ١٩٠٩م، وعين مدرسا للترجمة بالمدرسة السعيدية وكان عمره على مشارف العشرين. والتلاميذ كبار ومن عائلات لها وضعها الاجتماعي فماذا يفعل معهم وهو صغير السن ضئيل الجسم والحالة الاجتماعية متواضعة، وعرجه يدعو إلى سخرية التلاميذ منه. وبدأ الهجوم - وخير وسائل الدفاع الهجوم - استخدم الشدة والقسوة والسخرية مع الكبار من التلاميذ و(اضرب المربوط يهرب السايب) وصبر على بلواه - فهو يكره التعليم - خمس سنوات إلى أن استقال من العمل في مدارس وزارة المعارف عام ١٩١٤م. ولكن وراء هذه الاستقالة قصة سببها سخرية المازني من خلق الله. وخلق الله هذه المرة شاعر النيل «حافظ إبراهيم» أو هكذا قال «المازني».

لسانك حصانك:

كان «إبراهيم عبدالقادر المازني» قد بدأ الكتابة في الصحف عام ١٩٠٧م في (الدستور) وصاحبها «محمد فريد وجدي»، وهناك تعرف على «عباس محمود العقاد». المهم أنه انطلق في السخرية والهجوم على حافظ إبراهيم، وأحمد شوقي، ومصطفى لطفي المنفلوطي، وعبدالرحمن شكري «رغم صداقتهما» وعلى د. طه حسين. ويقول المازني: «إن حافظ إبراهيم كان أثيرا لدى «أحمد حشمت باشا» وزير المعارف (٢٣ فبراير ١٩١٠م - ٢٠ نوفمبر ١٩١٣م) ووزارة «محمد سعيد

باشا» وحشمت باشا ـ حسب رواية المازني ـ هو الذى عين «حافظ إبراهيم» فى دار الكتب عام ١٩١٢م . المهم أن «حشمت باشا» أصدر قرارا بنقل صاحبنا المازنى إلى دار العلوم . وكان المازنى رغم ظروفه كلها معتزا بنفسه فقدم استقالته من مدارس وزارة المعارف وانصرف يعمل فى المدارس الأهلية . وظل يقاسى هكذا لمدة أربعة أعوام إلى أن توسط له صديقه «عباس محمود العقاد» ليعمل مترجما بجريدة «وادى النيل» عام ١٩١٨ وأخذ «العقاد» و«المازنى» يعدان لعملهما الشهير «الديوان» والذى عرفا به فيما بعد مدرسة الديوان أو جماعة الديوان . ونسجل هنا أن «عبدالرحمن شكرى» لم يكتب حرفا واحدا فى «الديوان»، وعلى الرغم من ذلك فإن بعض الباحثين يكتبون عن «الديوان» ويسجلون أسماء العقاد والمازنى وشكرى على أنهم أصحابه . أو يهاجمون الثلاثة على ما كتبوه فى هذا «الديوان» ، ألمهم أن الديوان صدر فى جزأين . . الأول فى شهر يناير ١٩٢١م، والثانى صدر فى فبراير من السنة نفسها ، وهو يعبر عن مدرسة التجديد المتأثرة بالثقافة الإنجليزية التى انتمى إليها العقاد والمازنى .

وفى الديوان ـ كما هو معروف ـ شن العقاد حملة قاسية على أمير الشعراء «أحمد شوقى» وشن المازنى حملة شعواء على «عبدالرحمن شكرى» وعلى «مصطفى لطفى المنفلوطى» ، وهدانا البحث إلى أن حملة المازنى على شكرى كانت بسبب أن «شكرى» كان قد كشف عما تورط فيه «المازنى» من الإغارة على بعض الأعمال الأدبية التى أبدعها بعض شعراء الإنجليز . وإن كان الفارسان «العقاد والمازنى» قد حملا علم الثورة على القيم البالية فى الفكر والأدب ، فإن بعض النقاد الذين نطمئن إلى أحكامهم يقللون من القيمة الفنية للأحكام التى صدرت فى الديوان .

وانتهى الأمر مع مسيرة الأيام أن اعتذر المازنى عن هجومه على شكرى ولم يخفف العقاد من خصومته لأحمد شوقى .

لماذا السخرية؟

هذه السخرية التى عرفت عن «المازنى» لها بواعثها ولها إيجابياتها . . أما البواعث أو الأسباب فقد عرضنا لها فيما سبق من حديث . قبض الريح الذى وصل

إليه بعد أن وجه قلبه إلى المعرفة. وبنى لنفسه الآمال والأحلام من كل نوع، وكان نصيبه من كل ما بقى هو «قبض» الريح. وهذه العبارة وردت فى «العهد القديم» من (الكتاب المقدس) فى سفر «الجامعة»، وهو ما يمكن أن نسميه الاسم الحركى للنبى «سليمان» ابن النبى «داود». يقول «الجامعة»: باطل الأباطيل وقبض الريح. وهو ما وصل إليه «المازنى» فى قوله بعبارة أخرى: «لقد أسفت على عمرى الذى أضعته فى الاشتغال بالأدب». وواضح تأثر «المازنى» من الناحيتين الأدبية والفنية فى عبارات «الجامعة»، والتى انتهى هو أيضا إلى قوله: «لا جديد تحت الشمس».

وقد تأثر «المازنى» أيضا بابن الرومى، وقرأ له كثيرا وهو ما نعرف من التشاؤم والتطير، وما يدفع قارئه إلى السخرية الممزوجة بالتشاؤم.

و«المازنى» ابن «كوم مازن» بمديرية المنوفية هو ابن أيضا للشعب المصرى وهو شعب ساخر بطبعه. ومرح يحب النكتة، ويرسلها فى أحرج المواقف حتى ينفس عما بداخله حماية له من اليأس والضغوط. وهكذا انتهى المازنى إلى السخرية التى عرف بها حتى فى عناوين أعماله.. (خيوط العنكبوت، وقبض الريح، وحصاد الهشيم، وصندوق الدنيا).

وبيته كان يقع (قريبا من عين الصيرة)، وعلى بعد بضعة أمتار من الطريق الممهد المرصوف الذى يخترق الصحراء بين الإمام ومسجد عمرو، وكان لهذا الموقع أثر كبير فى نفس المازنى. فقد كان فى ذهابه وإيابه يمر على المقابر وهو مشهد أورث نفسه انقباضا. وروى لنا مرة أنه وجد أمامه شبحا أو رجلا لا يدرى يجرى خلفه فجرى المازنى ولكنه تعثر فى أحد القبور ووجد نفسه ملقى على جثمان أحد الموتى، وخيل له أنه يطوقه بذراعيه. وظل أياما يرعد من هول هذا المنظر. فإذا لم يلجأ المازنى للسخرية لضاعت حياته منذ زمن، وهذا هو الأثر الإيجابى الذى حققته السخرية فى نفس المازنى.

ولجأ المازنى إلى السخرية من العيوب الجسدية والعقلية والخلقية لنفسه وللآخرين. وسخر من العيوب الاجتماعية والسياسية للأفراد والأمم والجماعات. ويمكن أن نقول لولا السخرية عند المازنى لكان قد مات قبل وفاته بزمن طويل خوفا أو كمدا أو اكتئابا بفعل كل الظروف التى مر بها، جسدية وأسرية وحياتية.

لقد أفرغ طاقته الساخرة فى الاستخفاف والمرح ، ولا يبالى أن يجعل من الكتاب الذى ينقده أضحوكة مثيرة . وهذا نراه فى نقده للدكتور طه حسين ، ولمصطفى لطفى المنفلوطى ، ولأشعار عبدالرحمن شكرى ونقده لأحمد شوقى ، ويقال إن شوقى يقصد المازنى ببيت الشعر الذى قاله :

إذا ما نفقت ومات الحمار

أبينك فرق وبين الحمـــار !

ماذا بقى للتاريخ؟

لقد ساعدت السخرية المازنى فى النجاة من الوقوع فى براثن الأمراض العصبية والنفسية ، وكان مؤهلا لها بفعل ظروفه الشخصية والعامة . وأبقاه الله ليترك للثقافة العربية عديدا من كتب المقالة نذكرها أو نذكر منها : (بشار بن برد - حصاد الهشيم - خيوط العنكبوت - ديوان النقد بالاشتراك مع العقاد - رحلة الحجاز - رحلة إلى الشام - شعر حافظ - الشعر غايته ووسائله - صندوق الدنيا - فى سبيل الحياة - قبض الريح) . وترك لنا من الأعمال القصصية : (إبراهيم الكاتب - إبراهيم الثانى - أقاصيص - ثلاثة رجال وامرأة - ع الماشى - عود على بدء - فى الطريق - من النافذة - ميدو وشركاه - ابن الطبيعة . . ترجمة . .) وترك (ديوان المازنى) فى الشعر .

وسخرية المازنى من نوع الفكاهة الراقية التى تحتاج إلى قدر كبير من الذكاء والدهاء . وكان يحاول أن يسير فى هذا المجال على طريق ابن الرومى والمتنبى . وكان «العقاد» يرى أن السر وراء سخرية المازنى من نفسه ، ومن أعماله الأدبية هو أن المازنى يستصغر حياة الإنسان فى جانب مصائر الأقدار .

كان من الطبيعى أن يختاره المجمع العلمى (مجمع اللغة العربية بدمشق) عضوا مراسلا ، وأن يختاره مجمع اللغة العربية بالقاهرة عضوا عاملا عام ١٩٤٧م .

كان فنانا حتى أطراف أصابعه وعاش الموت فى كل لحظة ، كان يبتسم ولكنها ابتسامة مريرة شاحبة ، وبقى منه أنه كان منحازا لدعوة «قاسم أمين» حول حرية المرأة . وكان يتمنى أن تكون له بنت حتى يربيها كما أراد قاسم أمين فى تربية البنات

فتزوج من سيدة عاش معها ست سنوات، أنجب منها بنتا وماتت الزوجة ثم ماتت البنت. وتزوج مرة ثانية وأنجب ثلاثة أولاد وبنتا، ولكن البنت ماتت! وعاش حزينا لموتها.

المازنى فى الميزان:

وفى مجال (السخرية) بقى لفرنسا «فولتير» وبقى لإنجلترا «برنارد شو» وبقى لأمريكا «مارك توين». . وأما مصر فقد بقى لها «المازنى» الذى عاش فى فترة شديدة القلق والاضطراب. شهد أشد موجات من الغضب، فواجه كل يوم موجات من الكبت والقهر وتحطيم الإرادة.

وكانت الحياة الأدبية هى الأخرى حافلة بصور التناقض الذى شمل هذه الفترة. أنصار القديم لا يرغبون فى التجديد. ويقابل هذا المدرسة الحديثة التى انتمى إليها «المازنى»، وكان حظ هذه المدرسة من الاتصال بالثقافات الأجنبية عظيما. وهكذا سار المازنى وهو يجيد اللغة الإنجليزية التى عاونته فى الإطلال على الثقافة الإنجليزية. كما أنه تأثر بالأدب الروسى فى فترة الاستعداد لثورة أكتوبر ١٩١٧م.

تحول من التدريس للترجمة وتحول إلى الترجمة وهو يعمل بالصحافة. ومن خلال الصحافة كتب المقالات وكتب القصة وأنشد الشعر. ومن الطريف أنه أعلن أنه ترك الشعر منذ عام ١٩٣٠م. وبعد وفاته وجد أهل بيته قصائد كتبها بعد عام ١٩٣٠. لقد استمر فى صنع المقالب حتى لنفسه ولأهله.

عاش ومات فى شقة متواضعة بحى العباسية. وأما سيرة حياته فنجدها متفرقة فى روايته (إبراهيم الكاتب)، وفى (خيوط العنكبوت)، وفى (صندوق الدنيا). مثقف أتعب نفسه وأتعب معجبيه من بعده. وترك لنا تراثا خصبا وكانت له فلسفة. وأصبح الأدب عنده هو التعبير عن الحياة بوجهها الجاد أو بوجهها الساخر. وأمورها الجليلة، أو أمورها المتواضعة. وفى الوقت الذى أدخل فيه المازنى بعض الألفاظ العامية فى لغته الأدبية. فإنه استخدم أيضا بعض الكلمات باللغة

الفصاحة . ويقول فى ذلك : «اللغة أداة ليس إلا ، ووسيلة للعبارة بما فى النفس لا أكثر ولا أقل» .

وفى النهاية . . سيبقى المازنى رائدا للثقافة . سلطانا للسخرية ، مبتدعا القصة النفسية فى الأدب العربى . قال فى قصة حياته : «كنت أشتهى أن أكون آخر من فى الدنيا لأشهد مصرعها بعينى؟ . . » ، رحمك الله يا مازنى ولله الأمر من قبل ومن بعد . .

الأسانيد:

* أنيس منصور : هؤلاء العظماء ولدوا معا .
* د. حامد عبده : السخرية فى أدب المازنى .
* د. بدوى طبانة : مجلة (القاهرة) العدد ١٠٤ .
* محمد المهدى : مجلة (القاهرة) العدد ١٠٥ .
* صلاح عبدالصبور : روز اليوسف ١١/٩/ ١٩٦١ .
* د. مهدى علام : المجمعيون فى خمسين عاما .
* د. نعمات أحمد فؤاد : إبراهيم عبدالقادر المازنى .

إبراهيم فرج باشا



فى ملف الطالب «إبراهيم فرج مسيحة»، طلب التحاق بكلية الحقوق جامعة فؤاد الأول، به تاريخ ومحل الميلاد: ١٩٠٣م سمنود مديرية (محافظة) الغربية. وفى خانة ولى الأمر: مصطفى محمد النحاس. والمقصود به بلدياته من مدينة سمنود. الزعيم مصطفى النحاس.

تخرج إبراهيم فرج فى كلية الحقوق عام ١٩٢٥م. وعمل محاميا فى مكتب «مصطفى النحاس المحامى» من عام ١٩٢٥ـ١٩٢٨م. ثم عمل سكرتيرا برلمانيا لرئيس الوزراء مصطفى النحاس. واختير وكيلا للنائب العام عام ١٩٣٠، واشتغل بالقضاء عام ١٩٣٤م، ومديرا للإدارة التشريعية بوزارة الداخلية عام ١٩٣٦م. وكان أستاذًا للقانون بكلية الشرطة عام ١٩٣٨م. وعام ١٩٤٢ عين مديرا لإدارة المستخدمين بوزارة الداخلية. ومديرا للتفتيش عام ١٩٤٤. واختاره «مصطفى النحاس» وزيرًا للشئون البلدية والقروية (عام ١٩٥٠م)، وعين عضوا فى مجلس الشيوخ. وشارك فى وضع إجراءات إلغاء معاهدة ١٩٣٦م، وهو القرار الذى كان وراءه «محمد فؤاد سراج الدين»، وأعلنه الزعيم مصطفى النحاس فى ٨ أكتوبر عام ١٩٥١ ثم حكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة فى أكتوبر ١٩٥٣م أمام محكمة الثورة. وأفرج عنه عام ١٩٥٦م وأعيد اعتقاله مرة ثانية عام ١٩٥٧م، وتم الإفراج عنه. واعتقل عام ١٩٦١م، ووضعت أمواله تحت الحراسة وصدر قرار بعزله سياسيا. وظل «إبراهيم فرج» مخلصًا ومحبًا لولى أمره وزعيمه «مصطفى النحاس» حتى رحل الزعيم فى ٢٣ أغسطس عام ١٩٦٥م.

وقف «إبراهيم فرج» إلى جانب زعيمه ورفيق دربه «محمد فؤاد سراج الدين» الذى أعاد بتخطيط محكم حزب الوفد إلى الساحة السياسية ومعه كوكبة من أفضل المناضلين الوفديين الذين أبوا أن تسقط راية الوفد، فعادت تخفق وتؤكد أن الوفد هو الحزب السياسى العريق الذى تلتف حوله الأمة. وتقدم لعضوية الوفد مليونان من العناصر الوطنية الشريفة. وذكرنا فى موضوع سابق أن جريدة «الأهرام» نشرت على الصفحة الأولى الخبر مخففا بعد أن جعلت الرقم مليونا واحدا وليس مليونين. وعلى الرغم من هذا غضب «السادات» وعنف المرحوم «على حمدى الجمال» رئيس تحرير الأهرام وقت ذاك.

وكان «إبراهيم فرج باشا» وكيل المؤسسين للوفد، وأعلن فى فبراير من عام ١٩٧٨م أمام «الدكتور مصطفى خليل» أن «الوفد» لا يريد أى مساعدة مالية من «الاتحاد الاشتراكى»، ومعنى هذا استقلال إرادة الوفد فى مواجهة النظام ومواجهة الحكومة.

وبعد عودة الوفد اختار «فؤاد سراج الدين باشا» رئيس الوفد، «إبراهيم فرج» سكرتيرا عاما للوفد، ورئيسا للجنة الشئون الخارجية.

وهذا النضال ليس جديدا على «إبراهيم فرج»، لقد عاش فترة النضال الحقيقى ضد طغيان القصر الملكى وسيطرة الاحتلال والحكومات الأقلية .. وتحت زعامة مصطفى النحاس عاش أيضًا معركة الدستور ضد إسماعيل صدقى حتى سقط دستور ١٩٣٠م، وعاد دستور عام ١٩٢٣م. وكان قد عاش ثورة ١٩١٩ تحت قيادة «سعد زغلول».

إبراهيم فرج والقصر:

فى مذكرات حسن يوسف «القصر ودوره فى السياسة المصرية» - ص ٦٠ - ٦١: نشرت جريدة «المصرى» فى ٦ أكتوبر عام ١٩٤٣ نبأ تعيين «إبراهيم فرج» مدير المستخدمين بوزارة الداخلية وحسن أبو علم قاضيين بالمحاكم المختلطة، ضمن حركة واسعة، وكلفنى «حسنين باشا» بزيارة «صبرى باشا أبو علم» وزير العدل

للتحدث إليه فيما نشرته جريدة المصرى والتفاهم على ما تضمنته الحركة وبأننا ـ يقصد القصر ـ لا اعتراض لنا عليها إلا فيما يتعلق بالأستاذ إبراهيم فرج . وأخذ صبرى باشا يدافع عن ترشيح إبراهيم فرج . وأنهى صبرى باشا الحديث بأنه متمسك بوجهة نظره ، وبأنه ينتظر من الديوان إخطاره بالموافقة .

وعدت بعد يومين من هذا اللقاء ـ حسن يوسف هو الذى يتكلم ـ إلى زيارة وزير العدل وأبلغته أن رئيس الديوان أعاد عرض الحركة على جلالة الملك وأنه وافق على الحركة ولم يوافق على تعيين «إبراهيم فرج» . هكذا كان الملك (قارش ملحة إبراهيم فرج) منذ وقت مبكر .

حريق القاهرة:

تميز السكرتير العام السابق للوفد بقدرة على التحليل السياسى الواعى . وقد حفظ لنا زميلنا «جمال الشرقاوى» المحرر بجريدة الأخبار شهادة إبراهيم فرج باشا حول الجهات التى يتهمها بالقيام بحريق القاهرة الذى وقع فى ٢٦ يناير عام ١٩٥٢ وبعده حدثت إقالة حكومة الوفد برئاسة «مصطفى النحاس» ، وذلك فى عمله الكبير المهم ، أى فى عمل «الشرقاوى» (حريق القاهرة) .

وفيما يلى بعض الأسئلة وبعض الإجابات عنها صفحات (٨٢٦ ـ ٨٣٢) :

س : فى رأيك من الذى أحرق القاهرة؟

ج : الذى أحرق القاهرة المخابرات الأمريكية والمخابرات البريطانية ، لكن الأساس فى العملية هو المخابرات المركزية الأمريكية .

س : على أى أساس تقيم هذا الاتهام؟

ج : على أساس موقف الأمريكان فى ذلك الحين . . فأمريكا كانت هى القوة الرئيسية المحركة للأحداث فى تلك الفترة . . لم تكن راضية عن سياسة حكومة الوفد برئاسة النحاس باشا . . ولذلك قادت كل عمليات الضغط التى مورست على الحكومة . . فهم الذين قادوا عملية الحلف الرباعى ، وكانوا القوة الأساسية فيه

وحركوا بقية الدول . . كما بذلوا ضغوطا شديدة علينا لكى نحارب معهم فى كوريا . لكن النحاس باشا والحكومة رفضوا . . وقال النحاس باشا : احنا لا نحارب لصالح أمريكا .

س : إذا انتقلنا إلى أحداث يوم ٢٦ يناير . . هل هناك ما يشير إلى اشتراك الأمريكان أو تدبير الأمريكان فى الحرائق؟

ج : هذه الحرائق كانت مرتبة من المخابرات المركزية الأمريكية والإنجليزية فلقيت رضا الملك . . لكن أفلت الزمام . . كانوا لا يريدون ألا تصل إلى هذا الحد . . وإنما إلى حد يكفى لإقالة حكومة الوفد .

س : مرة أخرى . . هل توجد أى علامة تشير إلى دور المخابرات الأمريكية من وقائع أحداث اليوم؟

ج : المخابرات المركزية لا تكشف عن نفسها . . إنما أنا كرجل سياسى أستعرض الأحداث التى سبقت ٢٦ يناير وخلالها وبعدها . . أقول إن المصلحة الأولى لأمريكا . . وإن هذه المصلحة هى التى حدت بهم إلى التعاون مع المخابرات الأخرى (الإنجليزية) ليرتبوا هذا الحادث ويرتكبوا هذه الجريمة .

س : نعود مرة أخرى . . لماذا كان الأمريكان ملهوفين على وقف المد الشعبى فى ظل حكومة الوفد . . ؟

ج : بوصفى وزيرا فى تلك الحكومة . . ومعاصرا لكل الأحداث . . خاصة السياسية . . أقول إن السبب هو أن هذا المد الجماهيرى كان يحمل بين طياته اشتراكية شعبية تنتهى إلى غايات ترضى الشعب ، وتحقق له الاشتراكية التى يحلم بها . . وترفع من مستواه فى الحياة . . وتقترن بها كفالة الحريات . . لم يعجب هذا المد الجماهيرى بما حفل به من اتجاهات ديمقراطية واشتراكية الجماعة الأمريكان .

انتهى إلى هنا القدر الذى اقتبسناه من شهادة «إبراهيم فرج باشا» حول حريق القاهرة والذى يوضح موقفه الوطنى من الولايات المتحدة الأمريكية .

الوزارة الشعبية:

كان «إبراهيم فرج» فى السادسة عشرة من عمره عندما توهجت أحداث الثورة الشعبية الكبرى ثورة ١٩١٩م بقيادة الزعيم العظيم «سعد زغلول». وكانت الثورة بمثابة الشعلة التى أضاءت الطريق الوطنى القويم للشباب، ومنهم «إبراهيم فرج» من أجل وطن حر مستقل يتحرك فيه الشعب العظيم كتيبة واحدة رافعا شعار «الدين لله والوطن للجميع» ذلك الشعار الذى نعود إليه حتى الآن إذا ما عبثت فى صفوف الشعب قوى الفتنة والظلام.

وفى ١٢ يناير عام ١٩٢٤ (لاحظوا مصادفة هذا التاريخ مع ١٢ يناير عام ١٩٥٠ تاريخ وزارة الوفد السابعة) بدأت حملة من الدعاية القوية، شارك فيها جموع المرشحين فى أول انتخابات برلمانية حقيقية تمت عملية التصويت. وكان هناك اكتساح وفدى بلغ عدد المقاعد التى نالها الوفد ١٩٥ مقعدا من مجموع مجلس النواب البالغ ٢١٤، أى بنسبة تزيد على ٩٠٪ (انتخابات حرة سقط فيها رئيس الحكومة يحيى إبراهيم).

وأستطيع أن أتصور الشاب «إبراهيم فرج مسيحة» وهو فى الواحد والعشرين من عمره، والطالب وقتها فى السنة الثالثة بكلية الحقوق، وهو بين أهله وبين شباب مدينة سمنود يساند ولى أمره «مصطفى النحاس» للفوز بعضوية مجلس النواب، والشباب كله يهتف لسعد باشا زعيم الأمة وزعيم الحركة الوطنية، ثم يشكل وزارته الأولى فى (٢٨ يناير - ٢٤ نوفمبر ١٩٢٤). وقد أصبح فيها «مصطفى النحاس بك» وزيرا للمواصلات. لابد أن يكون الشاب الحقوقى «إبراهيم» قد عاش هذه الفترة بملء جوارحه وعواطفه وهو يخطو بثبات للتخرج فى كلية الحقوق.

وكان للاكتساح الوفدى فى الانتخابات أثره على شباب تلك الأيام الذى أدرك أن «القصر» قابل هذا الاكتساح الوفدى بالمخاوف والحذر والعمل على فشل الحكومة الشعبية برئاسة سعد زغلول.

وأحاول أن أتبين اليوم مشاعر الشاب القبطى «إبراهيم فرج»، وهو يرى زعيم

الحركة الوطنية يكسر فى جسارة شعبية القاعدة التى ألفها الناس فى مصر منذ عشرات السنين، وفى عهد الاحتلال الإنجليزى نفسه، تلك القاعدة التى كانت تقضى باختيار قبطى واحد فى الوزارة. أما سعد فقد أخذ فى وزارته اثنين من الأقباط (مرقص حنا بك وزيرا للأشغال العمومية، وواصف بطرس غالى أفندى وزيرا للخارجية). وقد أبدى الملك فؤاد تخوفه من عدم تقبل الرأى العام فى مصر موقف سعد زغلول.. قال له «سعد» العظيم: أنا زعيم هذه الأمة وأدرى بتوجهاتها ومواقفها.

وفى ١٢ يناير ١٩٥٠م (١٢ يناير أيضًا) تشكلت الوزارة الشعبية، وزارة «مصطفى النحاس باشا» السابعة (١٢ يناير ١٩٥٠-٢٧ يناير ١٩٥٢م)، وجاء فيها «الأستاذ إبراهيم فرج-وزيرا للشئون البلدية والقروية». لقد أصبح إذن ابن سمنود الذى عاش صباه فى أتون ثورة ١٩١٩م وأحاله محمد محمود إلى المعاش عام ١٩٣٨م. وها هو الآن أحد وزراء حكومة الوفد التى شهدت كثيرا من الأحداث.

وكان من قبل-كما ذكرنا-قد عاش فترة النضال الحقيقى ضد طغيان القصر، وجرب بنفسه إصرار القصر على عدم اختياره قاضيا، وعاش معركة الدستور ضد إسماعيل صدقى، وكانت مواقعه فى الوزارة على النحو التالى:

* وزيرا للشئون البلدية والقروية (١٢ يناير ١٩٥٠-٢٧ يناير ١٩٥٢).

-وزيرا للدولة-بالإنابة (١٧ مايو ١٩٥٠م) و(٢٧ أغسطس ١٩٥٠م).

-وزيرا للخارجية بالإنابة (٢٧ أغسطس ١٩٥٠م).

-وزيرا للخارجية بالإنابة (١٣ مايو ١٩٥١م).

مضى يوم الرحيل:

عاش «إبراهيم فرج باشا» مسيرة الوطن من خلال الوفد برؤسائه الثلاثة «سعد زغلول، ومصطفى النحاس، ومحمد فؤاد سراج الدين». وكان فى كل تلك العهود ابنا صلبا من أبناء الوطن، ومستقيما فى ولائه للوفد، ومحبا للزعماء الثلاثة

«سعد والنحاس وسراج الدين» ، لقد كان رمزا للأخوة الوطنية ، بعيدا عن الانتهازية والتطلعات السياسية والمصالح الشخصية التى تبعد المناضلين عن جادة الدرب .

كان من الطبيعى جدا أن يكون يوم رحيله فى أحد أيام شهر أغسطس من عام ١٩٩٤م يوما تعود فيه الأمجاد الوطنية . الكاتدرائية بالعباسية امتلأت عن آخرها ووقفت صفوف أخرى خارجها . فى الصف الأول داخل الكنيسة «محمد فؤاد سراج الدين» رئيس الوفد وإلى جواره الداعية الإسلامى الكبير «الشيخ محمد متولى الشعراوى» ، وأمام الهيكل جثمان الفقيد العظيم وحوله «قداسة البابا شنودة الثالث» والآباء والأساقفة والكهنة . وكان يوما مشهودا للوطن والوفد يعدد فيه «قداسة البابا» المسيرة العطرة للزعيم العظيم سعد زغلول والمواقف الوطنية لمصطفى النحاس وفؤاد سراج الدين . والتاريخ الوطنى للوفد ومواقف الوفد الخالدة من أجل دعم الوحدة الوطنية . وكان من الطبيعى جدا أن يحمل شباب الوفد تابوت الراحل الكبير «إبراهيم فرج» والتهبت الحناجر بهتافات «الدين لله والوطن للجميع» «وعاش الهلال مع الصليب» .

وبقى منه للتاريخ:

كنت أتأهب للكتابة عن «إبراهيم فرج باشا» وجمعتنى جلسة سمر تاريخية وعلمية مع صديقين عزيزين للراحل الكريم أعلم أنهما اقتربا منه فى ودٍّ ومحبة وتقدير ونزاهة . وهما . . أحد المصابيح المضيئة على طريقنا الوعرة «المستشار محمد سعيد العشماوى» والأخ الكريم «سعد فخرى عبد النور» السكرتير العام الحالى للوفد .

اعتاد «توفيق الحكيم ومحمد سعيد العشماوى» اللقاء مع «إبراهيم فرج» بقدر يسمح بتكوين فكرة صائبة عن «إبراهيم فرج» فى مقدمة هذه الصفات . . الثقافة العامة والفكر المنزه فى الأمور والرؤية السياسية الواعية . . ثم الثقافة الدينية وسلامة القصد ونزاهة الرأى مما جعله ينظر إلى «الإسلام» نظرة مستنيرة . وبهذا تكونت

شخصيته الوطنية المصرية الصميمة تكوينا سويا جعلته موضع احترام وتقدير كل من يتصل به .

وعرف «العشماوى وتوفيق الحكيم» من «إبراهيم فرج» موقف «النحاس باشا» فى مقابلة مع «محمد على جناح» أن النحاس باشا من دعاة الدولة الموحدة على أساس ديمقراطى ، ولم يكن من دعاة قيام دولة على أساس دينى . وعرف «العشماوى والحكيم» أن «إبراهيم فرج» لمس بنفسه مدى تقدير الزعيم الهندى «جواهر لال نهرو» للزعيم المصرى «مصطفى النحاس» فى المقابلة التى تمت بناء على حرص نهرو على المقابلة وهو يمر بمصر بعد ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ . وحصاد القول عند «المستشار العشماوى» عن «إبراهيم فرج» أنه سياسى مصرى وطنى مثقف مستنير .

ويذكر «سعد فخرى عبد النور» السكرتير العام الحالى للوفد أنه اقترب من «إبراهيم فرج» منذ أول يناير عام ١٩٣٨ ، وهو اليوم الذى جاء فيه «محمد محمود باشا» رئيسا للوزراء بعد إقالة وزارة «مصطفى النحاس» الرابعة (أول أغسطس ٢٧ ـ ٣٠ ديسمبر عام ١٩٣٧م) . بادر «محمد محمود» بإحالة «إبراهيم فرج» إلى المعاش . ويؤكد «سعد فخرى عبد النور» فى عبارة موجزة أن : قوة إبرهيم فرج كانت فى إخلاصه . . إخلاصه النقى لزعيمه مصطفى النحاس وللوطن ولقضايا الديمقراطية والحرية وللوفد . ومداخلة من «المستشار العشماوى» بأن «إبراهيم فرج» قد فوجئ بمصطفى النحاس يقول له أثناء تشكيل حكومة الوفد (يناير عام ١٩٥٠) . . هات الردنجوت وتعال يا إبراهيم . . وإذا بالنحاس باشا يختاره وزيرا للشئون البلدية والقروية فى حكومة النحاس باشا السابعة . . أعظم الحكومات التى مرت على مصر . وبهذا رد «النحاس باشا» موقف الملك القديم من إبراهيم فرج .

كيف كان يفكر:

اعتدت أن ألقاه كل يوم أربعاء فى مكتبه على يمين الداخل بالمبنى القديم بالمنيرة . واعتدت وقت ذاك أن أذهب إلى مقر الجريدة صباح كل أربعاء لمراجعة موضوعى

(هذا الرجل من مصر) قبل الطباعة . . ثم أجلس إليه قبل أن أنصرف . . وأحاول أن أتذكر الآن بعض ما دار بيننا:

** سألته: أين مذكراتك؟

- لم أعكف بعد لكتابة مذكرات، وأكتفى بأن أتحدث إلى «حسنين كروم»، وسوف ينشر فى كتاب ما يستوعبه (وبالفعل أصدر الزميل حسنين كروم كتابا بعنوان ذكريات إبراهيم فرج. وعلى فكرة نسختى من الكتاب خرجت من مكتبتى الخاصة ولم تعد . . ليت الزميل حسنين كروم يتكرم علينا بنسخة أخرى) واستطرد إبراهيم باشا فرج: وبالنسبة إليك «يقصدنى» فالأحاديث متصلة «أما أنا فلم أصنع بعد ما صنعه الزميل كروم».

** كنت قد قطعت شوطا فى سلسلة «هذا الرجل من مصر» . . وبادرنى بالسؤال:

- لماذا لم تكتب عن مكرم باشا «يقصد مكرم عبيد» حتى الآن؟

- الحقيقة أننى متردد . . هل أمدح أم أقدح؟

- اكتب حسب منهجك . . إيجابيات وسلبيات. لقد قصدت أن أنبهك للكتابة عن مكرم باشا لأن عدم الكتابة قد يساء تفسيره بأنه اتجاه لدى الوفد حزبا وجريدة . . وهذا ليس فى ذهن الحزب أو الجريدة.

- رأيك راجح يا باشا . . (وقد أخذت به، وكتبت الحلقة الخاصة بمكرم عبيد).

** ذهبت ذات يوم مع أسرة قريبة من مدينة المنصورة إلى مدينة سمنود لزيارة كنيسة «الشهيد أبانوب» (فرصة لأرى لأول مرة مدينة النحاس باشا وإبراهيم باشا والشهيد أبانوب) أحسست براحة نفسية . . الناس هناك فى نفوسهم نفحات من سلوك مصطفى النحاس فى الأخوة الوطنية والسماحة. ولكننى وجدت المدينة على غير ما توقعته، ليس فيها بصمات الاهتمام الخاص بها من أين لها رئيس وزراء عدة مرات، وابن آخر وزيرا . . وبادرت إبراهيم باشا بالسؤال . . لماذا هذا الموقف من سمنود؟

ـ كان النحاس باشا ينظر إلى سمنود كما ينظر إلى أى مدينة أخرى . . لا تفرقة فى المعاملة .

رحم الله النحاس العظيم ، وقدس روح إبراهيم فرج سكرتير عام الوفد السابق .

الأسانيد :

ـ جمال الشرقاوى : حريق القاهرة .

ـ حسن يوسف : مذكرات .

فؤاد كرم : (النظارات والوزارات المصرية) .

ـ قاموس التراجم القبطية : إعداد نخبة من الباحثين .

ـ محمد سعيد العشماوى (المستشار) : حديث معه .

الدكتور إبراهيم ناجى



كتب الكاتبون . . الشاعر أحمد فتحى شاعر الكرنك، والشاعر على محمود طه شاعر الجندول، والشاعر إبراهيم ناجى شاعر الأطلال، وعاش إبراهيم ناجى فراشة حائرة تنتقل من غصن إلى غصن .

وكتب صديقه «طاهر الطناحى» يصف «السنجاب»، وهو يقصد «الشاعر إبراهيم ناجى» . . (كذلك السنجاب، خفيف الروح، زكى النفس، سريع الحركة، لطيف المنظر، حسن الوبر، حاد المزاج، رقيق الإحساس، ألوف لمن يأنس إليه، شرود عمن لا يوائمه، يتعشق الحياة الحرة، ويعيش للحب، ويسكن رءوس الأشجار، ولا يهيم إلا مع الأطيار، والسنجاب يأنس بالأنثى، ولا يطيق العيش إلا فى جوارها وهو يتبعها أينما سارت) .

كان «الشاعر» «إبراهيم ناجى» متشائما قدريا، هو وفى للصديق، ومداعب فكه، عذب الروح، شاعر الغزل ملتهب الحس، عزيز النفس، شامخ الكبرياء ومحب رقيق، عميق العاطفة فى الحزن .

وفى رأى «الدكتور محمد مندور» . . إن طبع ناجى تحكم فى إنتاجه الشعرى، وجارى هذا الطبع على سجيته، متميز بالطابع الوجدانى وبالحب المثالى، وأشواق الروح، وانصهرت كل هذه الصفات فى وجدان «إبراهيم ناجى» فأنشد رائعته «الأطلال»، وفتحت هذه الرائعة مغاليق الحس والتذوق بشاعرية ناجى، فانفرد بين كافة معاصريه بالإعجاب .

والأطلال ليست مجرد قصيدة وإنما هى قصة حب عاثر، التقيا وتحابّا، ثم انتهت القصة بأن صارت هى «أطلال» جسد، وصار هو «أطلال» روح، ولكن من هى هذه الملهمة التى حاول هو أن يخفى حقيقتها، وحاول المفتونون بشاعرية ناجى أن يبحثوا عن السر والحقيقة للملهمة إبراهيم ناجى بن أحمد ناجى بن إبراهيم القصبجى؟

الشاعر الكبير محمد مصطفى الماحى كتب يقول: هيأ القدر لناجى إحدى قريباته تماثله فى العمر فتحرك بشىء لا يدرك كنهه، وبدأت ملكة الشعر تثمر فى وجدانه، وقد أطمعته هى فى استمرار هذا الحب، وفى أن ينتهى بالرباط الوثيق بينهما، وتعاهدا على أن يكون أحدهما للآخر فى حياة سعيدة، ولما وصل إلى مرحلة الدراسة فى مدرسة الطب تزوجت غيره، وظل هو على حبه العفيف.

هى ملهمته إذن، غير أن الشاعر الكبير «محمد مصطفى الماحى» لم يذكر اسمها صراحة، ولم يجز عليه تمويه «إبراهيم ناجى» فى محاولته أن يخفى اسمها، فى محاولاته الإشارة إليها «بالمذكر» على عادة شعراء العرب الأوائل الذين خاطبوا محبوباتهم بتعبير المذكر.

كتب «ناجى» فى جريدة «الجمهور المصرى»، وكان رئيس التحرير «أبو الخير نجيب» من المعجبين بشعر ناجى، ورمز «ناجى» إلى ملهمته المحروم منها بحرفى «ع. م»، ووقع البعض فى الفخ وقالوا إنه صديقه الحميم الشاعر «على محمود طه» وأهدى «ناجى» أحد دواوينه بعبارة «إلى صديقى ع. م. الذى أنبت فى روض الحاضر زهورا ندية.. إليه أقدم ما أوحى به إلى.. إبراهيم ناجى».

وكتب الشاعر «صالح جودت» فى مقدمة لديوان صديقه العزيز «إبراهيم ناجى» بعد أن رحل بثمانى سنوات، رحل ناجى فى «٢٤ مارس عام ١٩٥٣»، وكتب صالح جودت فى مقدمة لديوان ناجى الذى أصدرته وزارة الثقافة عام١٩٦١:

«حاول الكثيرون من أحباب ناجى أن يعرفوا اسم صديق ناجى «ع. م» الذى آثره الشاعر بشرف إهدائه أحد دواوينه.. والحقيقة التى كتمها ناجى حتى عن أقرب المقربين فهى أن ع. م ليس صديقا بل صديقة.. هى حبيبة العمر».

إذن فالملهمة هى حبيبة العمر التى تزوجت غيره عندما كان فى مرحلة دراسة الطب، وكان «ناجى» أيضًا إمعانا فى التمويه قد أهدى أحد كتبه النثرية «رسالة الحياة» إلى «الصديق الحبيب ع . م» .

وقام «إبراهيم ناجى» بحركة تمويه كبيرة فكتب عن «زوزوات عرفتهن»، وهن «زوزو حمدى الحكيم وزوزو ماضى وزوزو نبيل»، كما كتب عن «المطربة شهر زاد والراقصة سامية جمال» بل إنه كتب عن الشاعرات «منيرة توفيق وجليلة رضا وأمانى فريد»، فاتجهت الأنظار إلى واحدة من هؤلاء جميعا ولم تكن هى الحقيقة .

هذه هى الحقيقة:

الشاعر حسن توفيق زميلنا الأسبق بهيئة الكتاب، واستقر به المقام منذ سنوات بجريدة الراية القطرية، وقدم لقراء العروبة العمل الكبير المهم «إبراهيم ناجى . . الأعمال الشعرية الكاملة»، وأصدره «المجلس الأعلى للثقافة» فى السنوات القليلة الماضية، كتب مقالا فى جريدة «الراية القطرية» عدد ٢٨ يوليو سنة ١٩٨٤ بعنوان: (إبراهيم ناجى . . العاشق الذى مات حبّا)، وختم المقال: « . . والآن وقد رحلت عنا الملهمة الحقيقية إنها السيدة عنايات محمود الطوير . . ع . م المثال الذى عاش ناجى يناجيه طيلة حياته فى قصائد عديدة» .

ولكن كيف وصل «حسن توفيق» وثيق الصلة بالشاعر «صلاح عبد الصبور» إلى الحقيقة . . كتب يقول إنه كان وثيق الصلة بالشاعر صالح جودت، وفى جلسة حميمة سأل صالح جودت عن ملهمة «الأطلال» لناجى، فأكد له أن «ناجى» لم يكتب رائعته من وحى أى ممثلة من اللواتى ادعين هذا الادعاء . . إنها من وحى حبه الأول «ع . م» - عنايات محمود الطوير - «وبعد رحيل صالح جودت عن عالمنا حاولت - حسن توفيق هو الذى يتكلم - أن أتأكد مما قاله «صالح جودت» عن «ع . م» فسألت الأخ الأصغر لناجى، وهو المهندس الراحل «حسن ناجى» عما عرفته من صالح جودت فأكد لى أن الاسم صحيح» .

رائعــة الأطــلال:

هذه الرائعة تقع فى ١٣٦ بيتا، شدت «أم كلثوم» بعدد من الأبيات التى تتفق مع زمن الأغنية، ونحن هنا لا نرضى بأن نحـرم القـراء من بعض أبيـات تسـمح بهـا المساحة المتاحة:

يا فؤادى رحم الله الهوى

كان صرحًا من خيالى فهوى

اسقنى واشرب على أطلاله

وارو عنى طالما الدمع روى

كيف ذاك الحب أمسى خبرا

وحديثا من أحاديث الجوى

يا غرامى كان منى فى دمى

قدرا كالموت أو فى طعمه

انظرى ضحكى ورقصى فرحا

وأنا أحمل قلبا ذبحا

ويرانى الناس روحا طائرا

والجوى يطحننى طحن الرحى

أين من عينىّ حبيب ساحر

فيه نبل وجلال وحياء

واثق الخطوة يمشى ملكا

ظالم الحسن شهىّ الكبرياء

ومن الشوق رسول بيننا

ونديم قدم الكأس لنا

أين منى مجلس أنت به

فتنة تمت ثناء وسنا

يا حبيبا زرت يوما أيكه

طائر الشوق أغنى ألمى

وحنينى لك يكوى أعظمى

أعطنى حريتى أطلق يدىّ

إننى أعطيت ما استبقيت شيئا

آه من قيدك أدمى معصمى

لم أبقه وما أبقى علىّ

ما احتفاظى بعهود لم تصنها

وإلام الأسر والدنيا لدىّ

وأستسمح القارئ فى أن نحرم أنفسنا من هذه الرائعة لنمضى مع خطوات «إبراهيم ناجى» التى مشاها من ٣١ ديسمبر عام ١٨٩٨ حتى ٢٤ مارس عام ١٩٥٣ .

حياته قصيدة حب:

قصائده كانت انعكاسة لحياته، مقاطع متنوعة أغلبها شجن وحزن على الملهمة التى تركته وتزوجت وهو لم يزل طالبا بالطب، وأقلها مسكون بالفرح . . وفى النهاية حول الحب والغرام . . وانشغل بالنظم ولم يهتم بجمع قصائده فى دواوين، وسلوكه هذا على غير سلوك صديقه «على محمود طه» الذى عاش ٤٧ عاما «١٩٠٢ ـ ١٩٤٩»، والذى اهتم بإصدار دواوينه فى حياته وبرعايته .

وقد صدر له فى حياته ديوانان: الديوان الأول . . «وراء الغمام ـ ١٩٣٤» وقدمه

«أحمد الصاوى محمد» وقد نقده «الدكتور طه حسين» نقدا قاسيا . . وكان «العقاد» أكثر قسوة فى نقده للديوان .

ووقف إلى جانب «ناجى الدكتور أحمد زكى أبو شادى ومحمود حسن إسماعيل وصالح جودت ومصطفى عبد اللطيف السحرتى» ، وسائر أعضاء مدرسة «أبولو» ، والديوان الثانى - فى حياته «ليالى القاهرة» عام ١٩٥٠ . تقديم «إبراهيم الدسوقى أباظة باشا» ، والديوان الثالث «الطائر الجريح» صدر عام ١٩٥٧ وجمع قصائده «أحمد رامى» وقدم له «الشاعر محمد عبد الغنى حسن» ، والديوان الرابع صدر عن وزارة الثقافة عام ١٩٦١ وجمعه وحققه وقدم له : «أحمد رامى - صالح جودت - أحمد عبد المقصود هيكل - محمد ناجى» ، أما الديوان الخامس فهو يضم «قصائد مجهولة» صدر عام ١٩٧٨ ، وقام بجمع القصائد المجهولة وحققها «حسن توفيق» ، ورغم هذا الفيض من الشعر الرقيق قال «ناجى» :

مهما أقل بقيت لدى قصيدة

فى القلب لم تنطق بها الشفتان .

يبدو أن قلبه كان يخفق بحبها حتى يوم الرحيل

من شبرا إلى شبرا:

ولد «الدكتور إبراهيم ناجى» فى شبرا . وعلى حد تعبير - د . نعمات أحمد فؤاد - فقد زاد أهل شبرا واحد . . وزاد أهل مصر زيادة لا تحصى . وكان فى البيت حديقة ، وفى الحديقة ساقية تئن لأنها تروى هذا الجمال كله وتنميه ، وبها حاجة إلى إرواء ، وكان يطيب لناجى التريض فى حقول شبرا التى ترويها الترعة البولاقية . وإذا كانت شبرا قد شهدت مولده ، فقد شهدت وفاته أيضا - فى عيادته فى شارع ابن الفرات بشبرا - فاضت روحه بالسكته القلبية يوم ٢٤ مارس ١٩٥٣ .

عام ١٩٢٢ تخرج فى مدرسة الطب السلطانية ، وعين فى القسم الطبى لمصلحة السكك الحديدية بمدينة سوهاج بصعيد مصر ، وافتتح أيضا عيادة هناك ، واشتهر بأنه كان يعالج غالبية مرضاه الفقراء بالمجان . ونقل من سوهاج إلى المنيا وافتتن بهذه

المديرية التى عاش فيها «إخناتون» فترة من الزمن. ومنها صدرت دعوته إلى التوحيد قبل الأديان بزمان. ومن المنيا نقلوه إلى مدينة الصبا والجمال «المنصورة» فى دلتا مصر عام ١٩٢٧، وهناك التقى الشعراء الأربعة الذين انضموا فيما بعد إلى جماعة «أبولو» «على محمود طه وعبد المعطى الهمشرى وصالح جودت وإبراهيم ناجى»، كان الشعراء الأربعة يلتقون فى موقع بين النيل والجزيرة الرملية أطلقوا عليه «صخرة الملتقى» ومنها أرسل على محمود طه قصيدة إلى جريدة «السياسة الأسبوعية» التى كان يرأس تحريرها «د. محمد حسين هيكل»، ويشرف على التحرير «د. طه حسين»، ونشرت الجريدة قصيدة على محمود طه، ثم نشرت قصيدة لإبراهيم ناجى فى ٦ أغسطس عام ١٩٢٧ بعنوان «صخرة الملتقى». ونقل إلى القاهرة ليعمل بالمستشفى التابع لوزارة الأوقاف، وعين رئيسا للقسم الطبى بوزارة الصحة، ووضعوا على باب مكتبه أحد جنود الحراسة، وذات يوم ذهب لزيارته ناظر مدرسته القديمة فمنعه الجندى الواقف على الباب، وكتب الناظر بسرعة ورقة وافق الجندى أن يسلمها لحضرة الحكيمباشى «ناجى»، ولم يكن الجندى يعرف القراءة، وكان الناظر قد كتب فى الورقة البيت التالى:

صاد ببابك يا أهل الوفا وقفا

قد عاقه عنك «نطع»، واقف و«قفا»، فأغرق «ناجى» فى الضحك، وخرج يستقبل الناظر وأغرق الاثنان فى الضحك.

الجانب الوطنى:

على الرغم من المساحة العاطفية الواسعة التى احتلت غالبية قصائد ناجى، وعلى الرغم من أن ملهمته «ع. م» قد احتلت قسما كبيرا من شعره العاطفى، وقد بدأه معها وهو فى الخامسة عشرة من عمره.

كلانا عليل فلا تجزعى ودمعك تسبقه أدمعى

وإن كان بين ضلوعك نار فنار المحبة فى أضلعى

ودارت الأيام والتقى بملهمته فى كهولته، وكان كل منهما قد سار فى طريق فأنشد وكان ذا مقدرة فائقة فى ارتجال الشعر :

ذهب الشباب فجئت بعد ذهابه وتتركين ما أطفأته بيديك

ما تلتقى عينى بعينك لحظة لا رأيت صباى فى عينيك

وعلى الرغم مما قاله «نعمان عاشور»، وكان قد اتصل بإبراهيم ناجى فى أعقاب الحرب العالمية الثانية : «كان ناجى كلما رأى امرأة وقع فى حبها . . فالحب عنده كان كما يقول «كامل الشناوى» مثل قزقزة اللب، وكان الشناوى كذلك»، على الرغم من هذا كله فقد كان «إبراهيم ناجى» شاعرا وطنيا :

يا أمة نبتت فيها البطولات لا مصر هانت ولا الأبطال

وكتب «ناجى» قصيدة «بطل الأبطال» بمناسبة استشهاد «عبد الحكم الجراحى وعبد المجيد مرسى» فى مظاهرات ١٩٣٥، ووصف مظاهرات فبراير ١٩٤٦ ويوم ٢١ فبراير، وكتب قصيدتى «أعاصير مصرية» و«تحية لمصر».

وأخيراً مات الشاعر لاعب الشطرنج الماهر «الدكتور إبراهيم ناجى»، وقال عنه الكثيرون : «أبرز وألمع شعرائنا المحدثين وأستاذهم جميعا»، «وعلمنا أن الفنان العظيم ينبغى أن يكون إنسانا عظيما».

الأسانيد:

١ ـ حسن توفيق . . «إبراهيم ناجى» ـ الأعمال الشعرية الكاملة .
٢ ـ صلاح عبد الصبور . جريدة الأهرام ١٥/ ٤/ ١٩٦٦ .
٣ ـ طاهر الطناحى . . حديقة الأدباء .
٤ ـ د. نعمات أحمد فؤاد . . شعراء ثلاثة .
٥ ـ نعمان عاشور . . مع الرواد .

أحمد بهاء الدين



منذ يومين اثنين أتم الأستاذ «أحمد بهاء الدين» عامه الثالث فى الغربة عن الحياة الدنيا. وكان قبلها بخمس سنين أو تزيد قد ألقى سيفه، أقصد (قلمه) .. نزيف مفاجئ فى المخ، نقل بعدها إلى العناية المركزة وفقد جزءاً كبيراً من التحكم فى أعضائه وتركيزه الذهنى. وفسر «الدكتور محمد عطية» طبيبه المعالج ما جرى بأنه يعود إلى الانفعالات النفسية الحادة والمستمرة، وقال زملاؤه: هل رفض «بهاء» العيش فى هذا الواقع العربى والمصرى؟! لقد سقط من قبله «أنور المعداوى وحسن فؤاد» بانفجار فى المخ، وسقط «د. محمد مندور، ود. محمد الخفيف، وصلاح جاهين ومحمود دياب وصلاح عبد الصبور» باكتئاب ونوبات قلبية. كان «أحمد بهاء الدين» على حياته وهدوئه شديد الحساسية إزاء ما يصيب مصر والوطن العربى.. عام ١٩٦١م على إثر انفصام الوحدة بين سوريا ومصر أصيب «بهاء» بضغط مرتفع ولازمه سنوات طويلة بعدها أصيب بمرض (السكر) على إثر هزيمة (يونيو) ١٩٦٧م. وأشهد أنه عندما دعوته لندوة فى مقر هيئة الكتاب عام ١٩٨٧م أى بعد الإصابة بعشرين عامًا كان لم يزل يشكو من (السكر)، وقبل دخولنا إلى الندوة ظل يصف لى ما يجب أن أمتنع عنه من مأكولات ومشروبات إزاء المرض نفسه الذى بدأ يناوشنى. وكان من أثر مضاعفات السكر أن عاد ضغط الدم يرتفع والكبد يتضخم وأحد الشرايين يصاب بجلطة. وفى يناير وفبراير ١٩٩٠ حلت به كارثة (جريمة العصر) والإجهاد الذهنى والعصبى. وقرر أعضاء مكتبه وأهل بيته أن (جريمة العصر) هدت حيله وأربكت ذهنه ونالت من أعصابه وفقد الهدوء الذى

عرف عنه. وكان قد نشر بيان (جريمة العصر) بأخبار اليوم فى ٢٣ فبراير ١٩٩٠. والبيان عبارة عن احتجاج شديد اللهجة على سماح (الاتحاد السوفييتى) لأعداد كبيرة من اليهود السوفييت بالهجرة إلى إسرائيل.. واعتبر هذا الموقف جريمة كبرى فى حق عرب فلسطين وحق العرب جميعا. ودخل فى طريق الغيبوبة وعدم التركيز. وعندما حل الغزو العراقى للكويت (أغسطس) ١٩٩٠ لم يكن فى حالة تسمح له بإدراك شىء، وظل غائبًا عن الوعى حتى سكن الجسد ورحل فى ٢٤ أغسطس عام ١٩٩٦م.

إذا جاز لنا أن نعد «رفاعة رافع الطهطاوى» رائدا للجيل الأول لتنوير مصر الحديثة، و«الشيخ محمد عبده» رائدا للجيل الثانى، و«الدكتو طه حسين» رائدا للجيل الثالث، فإن «أحمد بهاء الدين» هو بكل المقاييس رائد الجيل الرابع لمدرسة الاستنارة فى مصر الحديثة. ولكن كان عليه أن يدفع الثمن من ذات نفسه. وقديما قال «المتنبى»: «إذا كانت النفوس كبارا.. تعبت فى مرادها الأجسام». وتعب جسم «بهاء» فى الوصول إلى مراده هذا. تمتع بذكاء فطرى حاد وقدرة فائقة على الربط بين النظرية والتطبيق، وتمتع بالثقافة الواسعة المتنوعة. ولكن طفولته وظروف النشأة فرضت عليه الحذر والحياء الشديدين. رأى ظروف الحياة من حوله سيئة، وعليه أن ينبت من صميم هذه الظروف السيئة، وجد نفسه ضحية ظروف مصر كلها من الفقر والمرض والجهل. ولد لأسرة خرج عائلها من إحدى قرى أسيوط بصعيد مصر.. من قرية «الدوير». وكان والده يعمل بوزارة الأوقاف.. حتى حط الرحال فى مدينة الإسكندرية فولد بهاء فى ١٧ فبراير ١٩٢٧م. لم يذهب فى صباه إلى أية رحلة مدرسية. ولم تتركه أمه يلعب مع بقية الأطفال، وهو الابن الوحيد على أربع شقيقات.. ثم فقد أمه وهو فى العاشرة من عمره.. وهى التى كانت تعد له طعامه وملابسه، وتشرف على مذاكرته، وإذا تأخر فى العودة من المدرسة ذهبت إلى المدرسة تبحث عنه شعر بأن الحياة بفقد أمه أصبحت بلا معنى.. بكى وحزن ومرض. لقد تشكلت نفسيته منذ الصغر على الحزن والمرض إزاء مواقف الحياة والسياسة.

المسيرة السياسية:

قرأنا له أن الإحساس السياسى نما لديه لأن أباه كان ينتمى للحزب الجماهيرى (الوفد)، وهو الحزب الذى عرف منذ فترة مبكرة باهتمامه الكبير بالقضايا العربية. وكان الوفد بحكم شعبيته سريع الاستجابة لمشاعر الجماهير التى تتعاطف مع قضية فلسطين. وعندما يتحدث عن سعد يطل من بين سطوره إعجابه بالزعيم الشعبى: سعد الفلاح بين الفلاحين، الذى نجد إخوته من يحملون أسماء شلبى وستهم وفرحانة، سعد عيونه مفتحة وطربوشه يلبسه إلى الوراء كما تلبس اللبدة أو الطاقية وشاربه منفوش. هيئته تصرخ بعناد بأنه رجل جاهد واقتحم. صورة طريفة لسعد باشا تنم عن حب وتقدير.

ونرى بهاء بعد تخرجه فى كلية الحقوق بالقاهرة (عام ١٩٤٦) بين مكاتب مجلة (رابطة الشباب) بميدان التحرير. . ويؤمها وقت ذاك الشباب الوطنى بمختلف توجهاته الحزبية، ولم تكن مقصورة على شباب الوفد. وعن طريق اهتمامه بالحركة الفنية التشكيلية تعرف إلى مجموعة التروتسكيين (الموالية لتروتسكى العدو التاريخى لستالين)، ثم تعرف إلى عدد من العناصر الماركسية من تنظيمات مختلفة. . وتوثقت علاقاته فى الفترة من حياته الصحفية بحزب البعث وخاصة بالزعيم البعثى المعروف «صلاح البيطار» زميل ميشيل عفلق فى تأسيس حزب البعث العربى الاشتراكى. ولم يعرف عن «أحمد بهاء الدين» ارتباطه عضويا بأى حزب من الأحزاب، أو بأى تنظيم سياسى من التنظيمات. كان كما قيل عنه (يناوش خارج مرمى القوانين)، وعلى الرغم من الحذر الذى عرف عنه والحيدة التى اتصف بها إلا أنه فى مسيرته الصحفية وقعت له مواقف مختلفة من المهم أن نشير إليها.

شهر فى روسيا:

على الرغم من علاقته بكثير من العناصر الماركسية وتقديره لهم فى أحيان كثيرة إلا أنه أثار حفيظتهم فى بعض المناسبات. فى منتصف الخمسينيات زار

الاتحاد السوفيتي وقضى فيه شهرا. وسجل انطباعاته على مدى شهر فى كتابه المعروف (شهر فى روسيا) وأبرز النقاط السالبة. وكان هذا موقفا غريبا على كاتب محسوب فى النهاية على اليسار. وهاجمه بعض اليساريين المؤيدين للاتحاد السوفيتي. ورأى «بهاء» فى هذا الموقف نوعا من (الإرهاب) والغرض منه إسكات أصوات الغير. وكتب مقاله المعروف فى صباح الخير (عام ١٩٥٧) بعنوان «جوزيف ستالين» كانت له نظرية تقول بأن مستقبل التناقضات بين الدول الرأسمالية سيقودها إلى حرب شرسة فيما بينها. ولكن المفكر الاقتصادى السوفييتى «أبو جين فارجا» رأى العكس.. وقال إن الدول الرأسمالية يمكنها أن تسوى خلافاتها فيما بينها والمستقبل يشير إلى أنها سوف تتحالف لضرب المعسكر الاشتراكى بقيادة الاتحاد السوفييتى. وكتب «بهاء» فى هذا الموضوع بما يوحى أنه يؤيد وجهة نظر «فارجا» ولا يقر رأى «ستالين».. وأخذت بعض العناصر الماركسية على خاطرهم من بهاء. وكانوا يغمزون ويلمزون فى همس بأن «أحمد بهاء الدين» لم يتعرض للاعتقال يوما واحدا. هو على أية حال يعد من كتاب اليسار الذين يستخدمون العقل والمنطق والدراسات الاقتصادية فى تفسير الظواهر السياسية. وكانت (يومياته. تستفز) العقل ليعمل، وتستدعى المنطق ليكون أداة فى يد العقل. ويمكن إدراجه فى زمرة الاشتراكيين الديمقراطيين الذين يؤمنون بالتطور التدريجى، ويرفضون مفهوم الطفرة الذى صاغته الماركسية فى مقولة: «التراكم الكمى يؤدى إلى التغير الكيفى على شكل طفرات». وهو بشكل عام أقرب إلى الإصلاحى الهادئ أكثر من الثورى العنيف. وقد تأثر بتفكير «جواهر لال نهرو» تلميذ غاندى، وفى مصر كان «الدكتور عبدالرزاق السنهورى» له عنده تقدير خاص. وإذا كان هذا هو موقفه من (الاتحاد السوفييتى مبكرا ومحايدا وموضوعيا كان موقفه الذى لم يهتز فيه من السيطرة الأمريكية. عام ١٩٥١ صدر له كتاب فى ٩٤ صفحة بعنوان (برنامج النقطة الرابعة.. استعمار جديد) يكشف فيه الزحف الأمريكى إلى الشرق الأوسط تحت ستار المساعدات الاقتصادية، ونستطيع أن نقول باطمئنان أن «أحمد بهاء الدين» منذ عام ١٩٥٠م حتى حرب الخليج عام ١٩٩٠م - مرورا بكتابه (النقطة الرابعة - كان أنبأ لتيار وطنى مناهض للاستعمار الأمريكى الجديد».

العروبة وفلسطين والمتاعب:

فى كتاباته المتفرقة يطل علينا «أحمد بهاء الدين» كواحد من أبرز الدعاة إلى (القومية العربية) على الأسس الموضوعية والتاريخية . . الأرض المشتركة ـ التكوين النفسى ـ اللغة ـ والتراث المشترك . . وهى الأسس التى أوضحتها الماركسية للقومية ـ أية قومية . وهنا يبرز دور المفكر عند بهاء الدين على دوره الصحفى . وكان تأييد «بهاء» لوحدة مصر وسوريا (١٩٥٨ ـ ١٩٦١) أول وحدة عربية فى التاريخ المعاصر . ولكنه أصيب بصدمة من جراء الممارسات غير الديمقراطية والتى انتهت بالانفصال وهاجمه ارتفاع فى الضغط وبعده أمراض السكر والكبد والجلطات الدماغية المتكررة . أما موقفه من القضية الفلسطينية فهو أكثر أبناء جيله اهتماما بها . . وكان واحدا من الذين تأنس لأفكارهم القيادات الفلسطينية . وعلى صفحات مجلة (المصور) بعد الهبوط إلى القاع بنكسة ٥ يونيو ١٩٦٧ طالب بضرورة إقامة (دولة فلسطينية) فى الأرض التى لم تحتل بعد لتجد الحكومة الفلسطينية أرضا تنطلق منها لتحرير باقى الأراضى الأخرى، وإذا وصلنا إلى (كامب ديفيد) فإننا نواجه بصمت «أحمد بهاء الدين» إلا أن زميلنا الراحل «عبدالستار الطويلة» فى احتفالنا ببهاء الدين فى أسيوط عام ١٩٩٥م، وحضر الاحتفال معا ابنه «زياد أحمد بهاء الدين» أكد «عبدالستار» فى كلمته تأييد أحمد بهاء الدين لاتفاقية كامب ديفيد شبيه بصمته إزاء أحداث مايو ١٩٧١ والصراع بين «السادات» ورجال «عبدالناصر» . صمت بهاء الدين على عكس موقف «عبدالرحمن الشرقاوى» و«موسى صبرى» اللذين انبريا لتأييد السادات .

بهاء.. والسادات:

وبين أحمد بهاء الدين وأنور السادات حكايات من الطريف أن تروى . من المعروف أن السادات كان يتصل ببهاء للاستماع إلى رأيه باحترام ملحوظ . ولاحظ القراء أن قلم بهاء انتحى جانبا إلى مجالات تبعده عن السياسة وعن محاذير الصدام مع النظام . وعندما تقدم عدد من الكتاب ببيان إلى السادات يشكون عدم تحرك

السادات لاسترداد حقوق الوطن من العدو الإسرائيلى ووقع البيان «توفيق الحكيم» وعدد آخر من الكتاب، اتهم السادات «أحمد بهاء الدين» بأنه وراء هذا البيان. وأمر السادات بمنع نشر مقال لأحمد بهاء الدين فى صحيفة الأهرام، واعتزم السادات نقله إلى مصلحة الاستعلامات ليبعده عن الكتابة الصحفية، وفوجئ بهاء بقرار نقله إلى دار الهلال ثم نقله إلى روز اليوسف.. وفصله من العمل مرتين وأوقفه عن الكتابة مرتين. وكان قد طلب للعمل رئيسا لتحرير (مجلة العربى) التى تصدر عن الكويت واعتذر عدة مرات.. ثم قبل هذا العمل ورأس تحرير مجلة العربى (١٩٧٦ ـ ١٩٨١)، وأضفى عليها فكره القومى العربى وبسط أجنحتها على البلاد العربية، وأتاح صفحاتها للكتاب العرب كافة. واستطاع أن يكون امتدادا ناجحا لفترة «الدكتور أحمد زكى» وظلت علاقة بهاء الدين بالسادات بين كر وفر، بين ما يشبه الخصومة وما بين العلاقات الوثيقة، وأهم ما فى هذه العلاقة الخطاب الذى أرسله أحمد بهاء الدين إلى السادات وحفظه لنا «د. مصطفى عبدالغنى» الذى عمل مع بهاء بجريدة «الأهرام»، وذلك فى كتابه (أحمد بهاء الدين ـ سيرة قومية) صفحات من ٣٩٥ ـ ٣٩٨.

خطاب بهاء للسادات:

بعد عزل «على صبرى» بقرار من السادات وتصاعد الأحداث نحو ١٥ مايو ١٩٧١، كتب «أحمد بهاء الدين» خطابه المشهور للسادات ليرد على الشكوك التى أثيرت حول بهاء فيما يتصل بالعريضة وبصلاته بعلى صبرى وسامى شرف. ونفى أحمد بهاء الدين أنه كان مستشارا لعلى صبرى، وأكد علاقاته السيئة باثنين على وجه التحديد هما: على صبرى وسامى شرف، وأكد قيامه بجهود كبيرة للدفاع عن مصر فى شخص الرئيس السادات، واستشهد على صدق كلامه هذا بالدكتور عبدالقادر حاتم وسيد مرعى والدكتور مراد غالب والسفير إسماعيل حافظ وسجل فى الخطاب واقعة مهمة تتصل بانتخابات اللجنة المركزية إذ طلب منه الأستاذ هيكل نقلا عن عبدالناصر أن يرشح نفسه بعد بيان ٣٠ مارس. ويوم الانتخابات فوجئ بالتنبيه على الناخبين بعدم انتخاب «أحمد بهاء الدين»، ووجد فى القوائم السرية

اسم «محمود أمين العالم»، واستشهد بهاء فى خطابه للسادات بالدكتور مراد غالب الذى شهد القوائم السرية بعينيه. وكان «أحمد بهاء الدين» يحمل مسئولية هذا التصرف لعلى صبرى وسامى شرف. المهم أن «أحمد بهاء الدين» ختم خطابه للسادات بما أخذه عليه أصدقاؤه الذين عرفوا بالخطاب، وكانوا لا يريدون لبهاء أن يكتب هذه الخاتمة فى خطابه للسادات. قال بهاء: إذا كانت هناك أسباب تقتضى إنهاء عملى الصحفى. فليس لى طلب أكثر من صيغة تحفظ لى كرامتى، تمكننى من أن أجد فى الوقت المناسب عملا مناسبا يجعلنى قادرا على تحمل مسئولية حياتى وحياة الذين يعتمدون علىَّ فى حياتهم! انتهى أهم ما جاء فى خطاب بهاء للسادات.

أحمد بهاء الدين .. نقيبا:

فى ٥ يونيو ١٩٦٧ وقعت مصر فى قاع الهزيمة، ووقع «أحمد بهاء الدين» فريسة لمرض (السكر). ورغم حيائه وخجله كانت كتاباته ومواقفه تنم عن جسارة وجرأة، وجمع «بهاء» مجلس نقابة الصحفيين باعتباره نقيبا وأعدوا احتجاجا مكتوبا إلى «جمال عبدالناصر» احتجاجا على فرض الرقابة على الصحف. ومذكرة أخرى احتجاجا على تفضيل جريدة على أخرى بالأخبار القومية. وفى ٢٨ فبراير عام ١٩٦٨ أعد مجلس نقابة الصحفيين - برئاسة بهاء - بيانا طالب فيه:

- الإسراع فى الحساب على كل المستويات الكبرى - إعادة التنظيم السياسى واستكماله - توسيع قاعدة الديمقراطية - الإسراع بإصدار القوانين المنظمة للحريات - رفع الرقابة عن الصحف.

وكن لهذا البيان أثره السيئ لدى «جمال عبدالناصر» شخصيا. فأخبر «عبدالناصر» سامى الدروبى الذى كان سفيرا لسوريا فى يوغسلافيا، ثم سفيرا فى مصر، وكان صديقا مشتركا لعبدالناصر وبهاء، أخبره عبدالناصر بشىء من العتاب ووصف بيان نقابة الصحفيين بطعنة خنجر من بهاء فى ليلة مظلمة. هذا موقف جرىء من نقيب جرىء. وقد سبقته مواقف أخرى تدل على الجرأة واستقلالية

الرأى. فى فترة إعداد الميثاق (أعلن فى مايو ١٩٦٢) دعاه «عبدالحكيم عامر» وعرض عليه فكرة الـ ٥٠٪ من المجالس الشعبية للفلاحين والعمال. استمع طويلا.. ثم عارض طويلا هذا الاقتراح وبشدة، ويقول: «تشككت فى دوافع رجال الثورة»، وقال له «عامر»: «هذا قرار نهائى». وعند تشكيل التنظيم الطليعى.. يقول بهاء: «كنا ثلاثة.. استدعونا إلى مجلس الوزراء! (أحمد بهاء الدين - الدكتور إبراهيم الشربينى - فتحى فودة).. وعارضنا نحن الثلاثة الفكرة.. وتم إبعادنا بعد ذلك عن الاجتماعات».

المدرسة الأولى:

وهذا المشوار كله بما فيه من صعود وتوقف ومن بريق ومعاناة كانت بداية مجلة (الفصول) التى أصدرها ورأس تحريرها «محمد زكى عبدالقادر» عام ١٩٤٤ (١٧ شارع شريف) وكانت تساندها (جماعة النهضة القومية) التى أسسها «إبراهيم بيومى مدكور - مريت غالى - محمد زكى عبدالقادر» ونادت هذه الجماعة مبكرا بالإصلاح الزراعى وبإصلاح النظام البرلمانى وبالتنمية الاقتصادية. وفى سنة ١٩٤٧ (الذكرى الخمسين لوفاة جمال الدين الأفغانى) توجه شاب فى العشرين من عمره قصير نحيل، إلى مقر المجلة وترك مظروفا فيه مقال عن (جمال الدين الأفغانى)، ونشر المقال فى (الفصول) التى عرف طريقها أيضا «بدر الدين أبوغازى، وأنور المشرى، وفتحى غانم، ونعمان عاشور، ويحيى أبوبكر، ويوسف الشارونى، وأحمد حمروش وعثمان العنتبلى». ووجدت مقالات وأشعار «أحمد بهاء الدين» طريقها إلى مجلة «الفصول». وبعد عامين عام ١٩٤٩ ترك «محمد زكى عبدالقادر مسئولية (الفصول) للشاب أحمد بهاء الدين، وكان فى الثانية والعشرين من عمره. وفى دراسة أعددتها عام ١٩٩٢م بمناسبة احتفال أسيوط بابنها «أحمد بهاء الدين» ابن قرية (الدوير) مركز (صدفا)، ونشرت الدراسة ضمن باقة حب لأحمد بهاء الدين أصدرتها (هيئة قصور الثقافة)، وكانت ضمن احتفالية كبيرة لبهاء الدين فى مؤتمر شعبى جماهيرى عقد فى المدرسة التى أقامها الأهالى باسم

(مدرسة أحمد بهاء الدين)، وضمن احتفال جامعة أسيوط برئاسة «الدكتور محمد رجائى الطحلاوى» والذى قدمت فيه الجامعة الدكتوراة الفخرية لأحمد بهاء الدين وتسلمها ابنه «زياد». فى دراستى المشار إليها زعمت أن مجلة (الفصول) بطابعها المصرى ومحمد زكى عبدالقادر بصفاته الشخصية هى البصمات الأولى على شخصية بهاء الدين. كان «محمد زكى عبدالقادر» متواضعا لم تتعثر خطاه على الرغم من اسمه تحت أسفل عموده اليومى (نحو النور) منذ عام ١٩٣٨ . وزكى عبدالقادر آثر ألا ينضم إلى حزب من الأحزاب. . ومجلة (الفصول) اختارت منهجا رصينا موضوعيا مصريا وعربيا تترفع به عن المهاترات. وهكذا كان «أحمد بهاء الدين» وكانت المطبوعات التى أصدرها، أو التى أشرف عليها. لقد رضع أحمد بهاء الدين ألبان الصحافة فى (الفصول)، وتشبه فى سلوكه بـ(محمد زكى عبدالقادر).

المدارس الأخرى:

وإذا كانت (الفصول) قد صقلته فى شبابه فإن (روز اليوسف) قد اختصرت عشر سنوات على الأقل من كفاحه الصحفى. . كتب أحمد بهاء الدين فى رثاء «إحسان عبدالقدوس»: ذهبت ذات صباح من عام ١٩٥١ إلى مبنى المجلة القديم فى شارع محمد سعيد المتفرع من شارع قصر العينى. وأعطيت بواب المجلة مقالا فى مظروف. . وفى يوم الاثنين التالى مباشرة اكتشفت أن (روز اليوسف) قد صدرت ونشر فيها المقال. . افتتاحية ملأت الصفحة الأولى كلها بعناوين كبيرة وفى آخرها توقيع شاب مجهول تماما هو أنا. . وهذا التصرف اختصر عشر سنوات على الأقل من كفاحى الصحفى لأشق طريقى فى مهنة الصحافة. وفى يناير ١٩٥٦ أصدرت السيدة «روز اليوسف» مجلة (صباح الخير) ليرأس تحريرها الشاب أحمد بهاء الدين وعمره ٢٩ عاما، وفى عام ١٩٥٨ رأس تحرير جريدة (الشعب) وعمره ٣١ عاما. ومن الشعب ذهب إلى دار (أخبار اليوم) رئيسا لتحرير أخبار اليوم والأخبار وآخر ساعة، ولم يغير شكل أية مطبوعة ولم يفقد

القراء القدامى. وإنما كسب للدار القراء الجدد للسياسة الخارجية التى اهتم بها بهاء. ودخل الأهرام ودار الهلال.. وعصفت به أنواع الأمراض حتى اعتزل الحياة فى ٢٤ أغسطس ١٩٩٦.

الأسانيد:

١ ـ الكتاب التذكارى... هيئة قصور الثقافة.

٢ ـ نجوم شارع الصحافة ... حازم فودة.

٣ ـ د. مصطفى عبدالغنى... أحمد بهاء الدين.

٤ يوميات هذا الزمان ... مصطفى نبيل (إعداد).

٥ ـ نرمين القويسنى ... إحسان عبدالقدوس.

أحمـد حافـظ عـوض



بعض الشخصيات التاريخية تكون مبعث حيرة أمام الباحث المدقق. وذلك لتعدد مجالات نشاطها، ولتعدد مواقفها على طول مسيرتها، بل ربما فى فترة واحدة. أو لثبات موقفها من شخصية واحدة متعددة المواقف. وأحمد حافظ عوض الكاتب الصحفى والمترجم والقاص وعضو مجمع اللغة العربية، واحد من الشخصيات التى أرهقتنا بالجرى وراءها.

سخّر «أحمد حافظ عوض» قلمه لخدمة «الخديو عباس حلمى الثانى»، وقلنا ربما كان هذا الموقف لأن الخديو نفسه تعددت مواقفه. بدأ الخديو عباس وطنيا متطرفا، ولما تم اتفاق فرنسا وانجلترا سنة ١٩٠٤ مال «عباس» إلى المهادنة والملاينة، ويعود إلى موقفه الوطنى المتشدد إلى آخر أيام وجوده فى السلطة، وانتهى وجوده فى مصر بإعلان الاحتلال البريطانى الحماية على مصر فى ديسمبر ١٩١٤م، ومنع «الخديو عباس» من الرجوع إلى مصر. ومن الطريف أن نروى للقارئ موقف «الخديو عباس حلمى الثانى» عام ١٨٩٦م، وكان بالاتفاق مع «مصطفى كامل» قد اعتزما تشكيل جمعية سرية تحت اسم (الحزب الوطنى السرى)، وكان وأحمد لطفى السيد وعبدالعزيز فهمى وكيلا نيابة بنى سويف بالاشتراك مع «أحمد طلعت» رئيس النيابة قد شكلوا فعلا جمعية سرية (لتحرير مصر). وطلب «الخديو عباس» أن يدعو «أحمد لطفى السيد» لمقابلته، وتم فى هذه المقابلة تشكيل (الحزب الوطنى السرى) برئاسة الخديو وعضوية أحمد لطفى السيد ومصطفى كامل ومحمد فريد ولبيب محرم - شقيق عثمان محرم - ومحمد عثمان - والد أمين عثمان - وإسماعيل الشيحى -

ياور الخديو ـ، واتخذ «عباس» اسما حركيا سريا «الشيخ» ومصطفى كامل «أبوالفدا»، وأحمد لطفى السيد «أبو مسلم». وهذا موقف وطنى يبرر أن يضع «أحمد حافظ عوض» قلمه وشخصه فى خدمة الخديو عباس الثانى. ولكن المسيرة طويلة وممتعة فى آن.

الزعيم الوطنى محمد فريد عندما اعتزم الهجرة فى مارس عام ١٩١٢م، زار الخديو عباس حلمى الثانى «ليخبره» باعتزامه السفر إلى الخارج. ونجد فى مذكراته بعد الهجرة كلاما مهما يتصل بأحمد حافظ عوض: «طلبت من أفندينا ألا يعاكسنى فى مسعاى، وألا يرسل خلفى من يسعى ضدى أو يعرقل نشاطى كما فعل فى عام ١٩٠٧، حين أرسل «حافظ عوض» وإسماعيل باشا أباظة والشيخ على يوسف إلى لوندره لمعاكسة مصطفى كامل».

والكلام الذى سجله «محمد فريد» فى (مذكراته) يوضح أن «أحمد حافظ عوض» كان مخلصا فى ولائه للخديو عباس. ويسجل «محمد فريد» أيضا: «كان عثمان غالب وحافظ عوض وغيرهما يسعون لدى الطلبة بباريس لإغرائهم للتقرب من الخديو»، وتخرج بأن العلاقة بين عباس والوطنيين كانت متقلبة حسب درجة خصومته أو تهادنه مع الاحتلال.

ونجد العلاقة الوثيقة بين الخديو وأحمد حافظ عوض لدى «أحمد شفيق باشا» فى (مذكراتى فى نصف قرن جـ٣): «فى ٤ مايو عام ١٩١٤م تحرك ركاب الخديو من إيتاى البارود فالدلنجات فدمنهور.. وتناول طعام الغداء فى المدرسة الصناعية ومعه إسماعيل سرى ووهبة باشا وصدقى باشا وإسماعيل أباظة باشا وأحمد حافظ عوض بك». ونعلم أن العلاقة بين الخديو وأحمد حافظ عوض ظلت وثيقة حتى العام الذى عزل فيه عباس. وبعد هذه المأدبة سافر «عباس» إلى الآستانة وجرت هناك محاولة لاغتياله، ثم اعتزم العودة إلى بلاده فى ديسمبر عام ١٩١٤م، منع الإنجليز دخوله وفرضوا الحماية على مصر. وقد عمل سكرتيرا خاصا للخديو، وأدى فريضة الحج معه واستفاد من الأسرار السياسية، وما كان يجرى من الدسائس بين الخديو واللورد كرومر، وأصبح مندوبا صحفيا للخديو إلى جانب عمله كمترجم فى قصر الخديو.

المؤيد والشيخ على يوسف:

عمل مترجما للغة الإنجليزية وكاتبا فى جريدة (المؤيد) من سنة ١٨٩٨م إلى سنة ١٩٠٦م وقال: عرض على «الشيخ على يوسف» أن أعمل عنده بجريدة المؤيد كمحرر ومترجم فقبلت ذلك، وأرسلت خطاب استقالتى إلى ناظر مدرسة المعلمين العليا فى مايو عام ١٨٩٨. وعام ١٩٠٥م أثار على صفحات (المؤيد) مناظرة فى موضوع.. أيهما أنفع للقطر المصرى فى حالته الراهنة.. الكتاتيب أم المدارس العليا؟ وقد استدرجت المناظرة عددا كبيرا من الكتاب للاشتراك فيها على صفحات الجرائد المختلفة، وانتهت المناقشات بغير طائل. والطريف أن بعض الأقلام فى الفترة الراهنة أثارت موضوع العودة إلى الكتاتيب.

وتوطدت صداقة أحمد حافظ عوض مع الشيخ على يوسف. وبعد أن تم اتفاق فرنسا وإنجلترا عام ١٩٠٤ تغيرت سياسة الشيخ على يوسف بتغير سياسة الخديو، وعدل الشيخ عن المطالبة بالجلاء صراحة، وأصبح يميل إلى الإنجليز وسافر إلى (لوندره)، وهناك التقى بأحمد حافظ عوض وإسماعيل أباظة باشا وغيرهما وأقاموا له وليمة خطب فيها «الشيخ» وقال مخاطبا المصريين ما معناه (يجب أن تكون لوندره كعبة المصريين من الآن). وعام ١٩١٠م شارك الشاعر «أحمد شوقى» مسئوليات العمل فى خدمة القصر، ثم أعفى من العمل فى المعية ليرأس تحرير جريدة المؤيد سنة ١٩١١م. وكانت فترة ارتباط وثيق بالشيخ على يوسف يصاحبه فى رحلاته إلى الأرياف ويشاركه حضور الاحتفالات التى تقام للترحيب بالشيخ. ولأحمد حافظ عوض عبارة لا أعرف إذا كانت صحيحة أم غير صحيحة، ولا أدرى إذا كانت لم تزل مقبولة لدى الزملاء الصحفيين. كان من رأيه: أن الصحافة تفتح أبواب الحياة لمن يخدمها، ولكن لا ينبغى للصحفى أن يبقى صحفيا طوال حياته، بل يجب عليه أن يتحين الفرصة للخروج منها وإلا قضت عليه. ويجب على الصحفى أن يعيش فى العالم كله! لقد كان فى كل الأحوال كاتبا متميزا وصحفيا ممتازا، وتولى تحرير (المؤيد) بعد وفاة «الشيخ على يوسف»، وكانت شخصيته طريفة وظريفة، وكان يوقع مقالاته باسم «محمدين»، وأحيانا باسم «محمد واحد»، ومع بداية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ وعزل «الخديو عباس حلمى الثانى» اعتكف «أحمد حافظ» عوض طوال الحرب (١٩١٤م-١٩١٨م).

في مدار الكوكب:

إذا ذكر اسم «أحمد حافظ عوض» تبادر إلى الأذهان اسم (كوكب الشرق). ولكن كان لحافظ عوض جهود أخرى غير (الكوكب) ذكرنا منها آنفا دوره في جريدة (المؤيد) مترجما ومحررا ورئيسا للتحرير. وأصدر مجلة (الآداب)، وعاد إلى تحرير (المؤيد) مرة ثانية. وإذا كان قد اعتكف طوال فترة الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨)، فقد اعتقلته سلطات الاحتلال أثناء هذه الفترة بسبب صلاته الوثيقة التي كانت قائمة مع «الخديو عباس الثاني» الذي عزل وأقام خارج مصر. وفي فترة اعتقاله هذه عكف على تأليف كتابه (فتح مصر الحديث-نابليون بونابرت في مصر) وبعد الحرب العالمية الأولى أصدر مجلة (خيال الظل)، وهي مجلة هزلية في السياسة بالصور والألوان. وبالاشتراك مع «محمد مسعود» أصدر جريدة (الأهالي) التي كانت تصدر من الإسكندرية. ثم اتفق مع «إلياس زادة» على أن يتوليا إصدار (المحروسة).

مقدمة لكوكب الشرق:

بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها عام ١٩١٨م. وبدأ «سعد زغلول» في تشكيل (الوفد الأول). وتطورت الأحداث إلى اعتقال «سعد باشا» وصحبه في ٨ مارس، ثم انطلاق شرارات الثورة الشعبية في ٩ مارس عام ١٩١٩، كان «أحمد حافظ عوض» مع الوفد ومخلصا لسعد زغلول قلبا وقالبا. وفي مذكرات «فخري عبد النور» نقرأ أن بعض أعضاء مجلس العموم البريطاني من حزبي العمال والأحرار اعترضوا على سياسة حزب المحافظين الاستعمارية في أغسطس عام ١٩٢١. وقرر «سعد باشا» دعوة هؤلاء النواب لزيارة مصر ليروا بأنفسهم قوة الحركة الوطنية والاتحاد المتين في صفوف المصريين. وبذلت وزارة «عدلي يكن» المحاولات العديدة لمنع هذه الزيارة تحت ستار المحافظة على الأمن العام. ووصل النواب إلى الإسكندرية يوم الثلاثاء في ٢٠ سبتمبر عام ١٩٢١. وأوفد «سعد باشا» نيابة عنه لاستقبالهم في الإسكندرية «عاطف بركات وصادق حنين وسينوت حنا» ومعهم الأستاذ «أحمد حافظ عوض بك» الصحفي المعروف

فى جريدة (الأهالى) استقبلوا الأعضاء وحضروا حفلة التكريم لهم. ووصل الأعضاء إلى القاهرة، وكان فى استقبالهم فى محطة القاهرة «سعد زغلول باشا» وأعضاء الوفد المصرى، وأعضاء اللجنة المركزية وجمهور غفير من الشعب. لقد كان «أحمد حافظ عوض» مقربا إلى سعد باشا منذ عام ١٩٢١ وبالضرورة من قبلها.

ويعد «أحمد حافظ عوض» واحدا من أقطاب الصحافة الوفدية الأربعة بعد ثورة ١٩١٩ وهم: عبد القادر حمزة، وعباس محمود العقاد، ومحمد توفيق دياب. وأحمد حافظ عوض الذى كان واحدا من رؤساء تحرير الصحف الوفدية الأربعة أيضا: عبد القادر حمزة ومحمود أبو الفتح، وتوفيق دياب وأحمد حافظ عوض.

مع الكوكب:

فى ٢١ سبتمبر عام ١٩٢٤ أصدر «أحمد حافظ عوض» مجلة (كوكب الشرق) وفدية، وانضم إلى هيئة تحريرها «الدكتور طه حسين» وأصبح مديرا لها.. وأرسل له «مصطفى النحاس باشا» رسالة تحية لانضمامه إلى (الكوكب) على مبادئ الوفد. واستمرت (كوكب الشرق) يومية وفدية زهاء عشرين عاما.

واشترك فى تحرير (الكوكب) المترجم المعروف «عباس حافظ» الذى صدر له كتاب مهم عن «مصطفى النحاس» واشترك أيضا «د. جورج طنوس»، «د. محمد أبو طايلة» و«محمد بيومى الجندى»، وحدد (الكوكب) أهدافه فى العمل لرفع مصر إلى مستوى الأمم المستقلة استقلالا صحيحا. مصر الكبرى من البحر المتوسط إلى بحيرة فكتوريا نيانزا. واهتمت (الكوكب) بالسياسة الإسلامية والعربية والشرقية. وجند لها «أحمد حافظ عوض» مجموعة تعنى بالآداب والعلوم والثقافة والترفيه. وواصلت جريدة الكوكب رسالتها فى صف الوفد حتى نهاية عمرها فلم يتحول أحمد حافظ عوض طوال عمره عن الوفد.

وقد لقى (الكوكب) المتاعب أثناء الحكم الدكتاتورى لمحمد محمود وإسماعيل صدقى. وتعطلت (كوكب الشرق) مرتين.. الأولى فى ١٦ مارس عام ١٩٢٩

فى عهد حكومة محمد محمود، والثانية فى يناير ١٩٣١م فى عهد إسماعيل صدقى.

وعند عودة (كوكب الشرق) إلى الصدور بعد استقالة وزارة «محمد محمود» (٣ نوفمبر عام ١٩٢٩) قال «أحمد حافظ عوض»: «هناك ذهب المعز يعطى من مال الأمة أجرا للسياسيين الشتامين النهاشين لأعراض الكرماء السخفاء الذين توصد أمامهم أبواب العمل لخير مصر».

وقال صديقه «عباس حافظ» يصف حرص «أحمد حافظ عوض» على وصول الجريدة إلى القراء.. تفاديا لوجود الجنود على أبواب المطبعة لمنع خروجها، يجعل العمال يقفزون بها أكداسا مكدسة فوق الأسطح، ويلقون بها إلى متعهد التوزيع فى الأزقة المجاورة.

١٨٧٤ـ١٩٥٠:

ذكر «د. مهدى علام» فى الترجمة لمسيرة أحمد حافظ عوض أنه ولد عام (١٢٩١هـ ـ ١٨٧٤م)، كما كتب هو بخط يده على قصته (اليتيم) التى أهداها إلى دار الكتب المصرية. وهو من مواليد (دمنهور) محافظة البحيرة. وتلقى تعليمه فى الكتاب وأكمله فى الأزهر، وفى يوم ٢٩ نوفمبر ١٩٢٦م التقى بشاعر الهند «رابندرانات طاغور» بالقاهرة. عين عضوا فى مجلس الشيوخ.. وانضم إلى عضوية (مجمع اللغة العربية) عام ١٩٤٢م، وعمل فى الصحافة ٤٧ عاما. وعمل لفترة مع «عبد القادر حمزة» فى البلاغ قبل أن يصدر (كوكب الشرق) ناطقة باسم الوفد. توفى بالقاهرة (١٣٧٠هـ ـ ١٩٥٠م).

مجمع اللغة العربية:

كان من الداعين إلى فكرة إنشاء مجمع اللغة العربية.. واختير عضوا بلجان: الأصول والأدب والكيمياء والطب. وقال عنه «عباس محمود العقاد»: «كان فى طليعة الرواد المصريين لفن القصة الاجتماعية، وزود اللغة العربية بذخيرة من

المفردات التى لا غنى عنها للألسنة والأقلام. والجانب الإنسانى فيه جدير بالتحية لأنه جانب الرجل الأريحى الذى انتزع من اليتم أبوة بارة يشمل بها كل من شاء أن ينتفع بعضها وهدايتها. وانتخب لعضوية المجمع فى عام ١٩٤٢».

وقال عنه د. مهدى علام زميله فى مجمع اللغة العربية: «كان له نشاط إبداعى خاصة فى فن القصة، وله مؤلفات تاريخية، وصدر له قصة (اليتيم) و(حياة شاب) - وآثار أقدام فى رمال الزمان - وكلمات فى سبيل الحياة - ومن والد إلى والدة». ووصفه صديقه «عباس حافظ» بالإبداع فى النكتة السياسية، وعندما اشترك الدكتور «طه حسين» فى تحرير كوكب الشرق استقبله أحمد حافظ عوض بصفة كاملة للتقدير والتحية. وتقديرا الحافظ عوض كتب «مصطفى صادق الرافعى» فى الكوكب. وظل حتى توفى عام ١٩٥٠م واحداً من ظرفاء العصر إلى جانب إنتاجه الإبداعى وبصماته فى الصحافة المصرية، وكانت صحافة الوفد تعتمد على الأغلبية الشعبية الساحقة. وأكبر معركة باشرتها الصحف فى هذه الفترة هى معركة (الدستور والاستقلال)، والاستقلال عبارة ظهرت على لسان زعيم الأمة «سعد زغلول»، ولم نظهر إلا بعد الحرب العالمية الأولى بعد أن كان «مصطفى كامل» والحزب الوطنى يستخدمان كلمة (الجلاء)، وقد أسهم أحمد حافظ عوض وجريدة الكوكب بسهم متميز فى معركة الاستقلال.

الأسانيد:

١ - أحمد شفيق باشا. . مذكراتى فى نصف قرن جـ٣.

٢ - أنور الجندى. . الصحافة السياسية.

٣ - سيد صديق عبد الفتاح. . ظرفاء العصر.

٤ - محمد فريد. . مذكراتى بعد الهجرة.

٥ - د. مهدى علام. . المجمعيون فى ٥٠ عاما.

أحمـــــد رامـــى



فى بداية الستينيات من القرن العشرين كان عمر الخيام المصرى الذى عرفناه باسم «الشاعر أحمد رامى» يقيم فى «شارع المتنبى ـ شاعر النفس العربية» . وبالمصادفة كنت أقيم فى «شارع البحترى» . . والشارعان الصغيران يتفرعان من شارع كبير هو شارع «مصر والسودان» الذى عرف لدى العامة بشارع الملك .

وبالمصادفة أيضا ولكنها مصادفة كانت تتكرر كثيرا كنا «أحمد رامى وأنا» نلتقى فى الصباح عند محطة الأتوبيس بشارع الملك فى انتظار «الحافلة» بلغة «المتنبى والبحترى» وهى اللغة الفصحى التى كتب بها «رامى» قصائده فى شبابه، فحبب القصيدة الفصحى إلى قلوب العامة، أو «الأتوبيس» باللغة الدارجة التى كتب بها «الأغانى» فحبب الأغنية الدارجة إلى قلوب الخاصة .

ومن حسن الحظ عرف كل منا أننا نقصد جهة واحدة . . هى مصلحة الاستعلامات بجوار «سينما راديو» بشارع «سليمان باشا»، بل إننا نأخذ مصعدا واحدا ينتهى بنا إلى طابق واحد هو «الثامن» فى تلك البناية وندخل «مربعا» واحدا هو «المربع» الذى يقع فيه مكتب دينامو المصلحة وباعث الحركة فى أوصالها . . المرحوم «حمدى حافظ» الذى حورب على الرغم من حاجتهم إليه وإلى نشاطه، فلم يأخذ درجة «المدير العام» إلا وهو يجمع أوراقه تمهيدا لإحالته إلى المعاش، كان ـ رحمه الله ـ رجلا شهما يتحمل مسئولية الأخطاء ولا يلقى بها ـ كما يفعل مسئولون كثيرون ـ على معاونيه . (وعلى فكرة . . المرحوم حمدى

حافظ هو شقيق الزميل الكبير حسن حافظ ـ رحمه الله ـ، كان مكتب «حمدى بيه» الملتقى اليومى للشاعرين المرموقين «أحمد رامى وصالح جودت»، وعلى أول مدخل «المربع» كان مكتبى عندما كان لى دور فى الدار القومية للطباعة والنشر ـ يضعون أمامى الأعمال المترجمة والمؤلفة التى تقوم بها إدارات مصلحة الاستعلامات لاختيار ما يصلح منها للنشر فى الشقيقات العشر وهو الاسم الذى أطلقناه على «السلاسل» التى تصدرها الدار القومية، ما علينا، الشاعر الكبير يتوجه إلى مكتب «حمدى بيه» فى مواجهة الداخل وأنا أعطف إلى مكتبى على يسار الداخل. على أية حال كنت أحسد نفسى على الفرصة التى تجمعنى بالشاعر الكبير «أحمد رامى» فى كثير من الأيام وأنا أنهل من ذكرياته وطرائفه وخفة ظله وأحاديثه عن «أم كلثوم». أما كيف التقى بأم كلثوم لأول مرة فى حياتهما.. فسوف نبدأ بها حديثنا عن «أحمد رامى».

أغلقت جريدة «الجريدة» أبوابها عام ١٩١٥ ثم أصدر «عبد الحميد حمدى» جريدة «السفور»، واحتلت مكانة بين المثقفين والأدباء ونشر فيها «أحمد رامى» قصيدته «الصب تفضحه عيونه» ومطلعها:

الصب تفضحه عيونه

وتنم عن وجد شئونه

إن تكتمنا الهـــوى

والـداء أقتـله دفينـه

وعام ١٩٢٢ أوفدته «دار الكتب» التى كان يعمل بها إلى باريس لدراسة اللغة الفارسية ونال الدبلوم، وعندما كان فى باريس قام «الشيخ أبو العلا» وهو وثيق الصلة بأم كلثوم، قام بتلحين قصيدة «الصب تفضحه عيونه» التى راقت لأم كلثوم دون أن يعرف «أحمد رامى» «شيئا» طوال وجوده فى باريس لمدة سنتين، وعاد من باريس يوم ٢١ يوليو عام ١٩٢٤، وكان فى انتظار أحد أصدقائه الذى أبلغه حكاية اللحن وأداء أم كلثوم للحن. وفى اليوم التالى ٢٢ يوليو عام ١٩٢٤ صحبه هذا الصديق إلى «مسرح البوسفور» ودخل «رامى» إلى أم كلثوم فى حجرتها، وكانت

«أم كلثوم» شديدة الذكاء فقالت له على الفور . . «أهلا سى رامى» ومن يومها توثقت العلاقة بين «ثومة» و«سى رامى»، لم يفترقا منذ ٢٢ يوليو عام ١٩٢٤ إلى أن توفيت فى ٣ فبراير عام ١٩٧٥ . وانكسر قلم «رامى» وابتعد عن الشعر بوفاة «أم كلثوم» إلى أن توفى هو فى ٤ يونيو عام ١٩٨١م .

كان «رامى» ابن نكتة ، وكانت «ثومة» تستملح الفكاهة ، زار أحمد رامى . . أم كلثوم فى ليلة من ليالى الشتاء القارسة . . وأبطأت أم كلثوم فى الدخول عنده ، وعندما حضرت وجدت «أحمد رامى» يرتجف وأسنانه تصطك ببعضها .

قالت أم كلثوم - البرد لهذه الدرجة؟

قال رامى . . لو تأخرت لحظة . . لكنت وضعت رجلى فى جيوبى .

كتب «أحمد رامى» أكثر من ٢٥٠ قصيدة أغنية قدمها لأم كلثوم التى اختارت ما راق لها منها وقامت بغنائها .

وكان لاتصال أحمد رامى بأم كلثوم دور فى النهضة بالأغنية المصرية . . يقول رامى : أخذت الأغانى المصرية بعد الحرب العالمية الأولى «١٩١٤ - ١٩١٨» سبيلا يتميز بالإباحية فى التعبير حتى وصلت فى بعض الأغانى إلى ما يسمى بالأدب المكشوف ، وبعد أن عدت من باريس يوم ٢١ يوليو عام ١٩٢٤ بعد قضاء سنتين فى بعثة دراسية رأيت من واجبى أن أسهم فى النهضة بالأغنية المصرية ، وكان أن وفقنى الله واتصلت بالسيدة «أم كلثوم» والزجل عند أحمد رامى أقرب ما يكون إلى اللغة الفصحى ، والزجل بطبيعته أسهل عند التلحين لعدم خضوعه لقواعد النحو . وكما قلنا فى مستهل الحديث فإن «رامى» حبب الأغنية الدارجة إلى قلوب الخاصة ، وحبب القصيدة الفصحى إلى قلوب العامة ، وعلى حد تعبير صديقه الكاتب الصحفى الأديب «طاهر الطناحى» : «أحمد رامى» من فراش الزهور يهوى ويرسل الشعر والغناء ، ويسبح يناجى طيف الحبيب السارى بصوت ثومة «كوكب الشرق» الذى يهيج الشوق فى مسمعه ، ويبعث المكنون من أدمعه ، ويتأرجح بجناحيه كلما غنى الربيع وابتسم الكون وضربت الحياة وحفلت الدنيا بالآمال السعيدة ، واجتمع

من غناء أم كلثوم وأغانى رامى ثروة فنية امتزج فيها جمال الصوت ببديع النظم وحلاوة العبارة.

أدب البكاء والأنين:

وبقدر ما تنقل «أحمد رامى» من زهرة إلى زهرة بقدر ما عرف فى شعره وأدبه بالبكاء والأنين، كان مغبونا فى حياته، استغله أهل الفن لنعيمهم وثرائهم، دون أن يكون له نصيب فى هذا النعيم والثراء، تخطته وزارة المعارف مرات ومرات، وكانت دار الكتب التى عمل بها تابعة فى زمانه لوزارة المعارف.

جده لأمه الذى كان «رامى» يفخر بالانتساب إليه «الأميرالاى حسن بك عثمان» كان قد اشترك فى حملة إلى السودان وقتل ودفن هناك عام ١٨٨٥ قبل ميلاد «أحمد رامى» بسبع سنوات ورامى نفسه عندما توفى فى يونيو عام ١٩٨١ لم تستغرق جنازته أكثر من ربع ساعة وسار خلف نعشه نفر قليل من الناس.

فى حياة والده الذى كان طبيبا موظفا - عاش «رامى» فى غير أحضان الأب والأم، عاش مع جده لوالده ومع عمه فى القاهرة، كان «الخديو عباس حلمى الثانى» قد اختار الطبيب «محمد رامى» والد «أحمد رامى» طبيبا فى إحدى الجزر اليونانية، وعاش والده مع زوجته والدة أحمد بعيدا فى اليونان، وقبل ذلك كان الوالد والوالدة يعيشان فى السودان.. ثم توفى الوالد عام ١٩١٩ فرثاه «أحمد» أو رثى الحال نفسه فقال:

نشأت فى اليتم ولى والد
فما اكتفى الدهر بهذا العذاب
وزادنى أن غاله ما نطوى
بموته الصفو وعم المصاب

وعندما كان فى باريس وصله نعى شقيقه الأكبر، فغرق فى فلسفة الخيام وآلامه.

عمر الخيام المصرى:

عمر الخيام الأصلى شاعر لغز، نهج بشعره المتصوفون والسكارى على حد سواء، ولعل الظروف التى مر بها «أحمد رامى» قد ألقت به فى أحضان «عمر الخيام» الأصلى، ووقعت له نسخة من «رباعيات الخيام» ترجمها عن اللغة الإنجليزية «الشاعر اللبنانى وديع البستانى» فأعجبه ما ورد فيها من معارف وأفكار، وعقب تخرجه فى مدرسة المعلمين العليا عام ١٩١٤ أتقن اللغة الإنجليزية فقرأ «الرباعيات» فى نسخة باللغة الإنجليزية. وأوفدته دار الكتب إلى باريس عام ١٩٢٢ - كما أسلفنا - ومكث هناك سنتين أتقن فيهما اللغة الفارسية، فأخذ فى ترجمة «الرباعيات» عن الفارسية كما نظمها «عمر الخيام» وتأثر «رامى» بعمر الخيام فى نظرته إلى الحياة، وفى أسلوب إيمانه أيضا حتى أطلق عليه بعض أصدقائه اسم «عمر الخيام المصرى»، ودرس فى باريس أيضا كتاب «ألف ليلة وليلة» وشاهنامه الفردوسى، وتاريخ سلاطين خوارزم وتاريخ جنكيز خان، وترجم رباعيات الخيام نظما عن اللغة الفارسية وأهدى الترجمة إلى روح شقيق «محمود رامى» الذى توفى ودفن فى «حلفا - بالسودان» فى أول أغسطس عام ١٩٢٣، وكان «رامى» لم يزل بباريس، وأصدر «رامى» أول طبعة لترجمة الرباعيات عن الشعر الفارسى عام ١٩٢٤، وصدرت بعد ذلك فى ١٤ طبعة آخرها الطبعة التى صدرت عن الدار القومية للطباعة والنشر فى ديسمبر ١٩٧٢.

أما «عمر الخيام الأول» إذا جاز هذا التعبير فهو «غيات الدين أبو الفتح عمر بن إبراهيم الخيام» الذى ولد عام «١٠٤٠ ميلادية» فى «نيسابور» عاصمة خراسان، فى عهد السلطان «أرطغرول» أول ملوك السلاجقة، وتوفى عام «١١٢٣ ميلادية» فى عهد السلطان سنجر.

وفى شعر «الخيام» نزعة تشاؤم «ما أسعد الرجل الذى لا يعرفه أحد» وبذات الوقت نزعة لا مبالاة .. «أن تصحو وأن تشرب ولا تهتم بأمس ولا بغد».

والحقيقة التاريخية فيما يتصل بالرباعيات أن الكثير منها ضاع لعدم حماس الناسخين لها بسبب الآراء الجريئة التى وردت بها، كما أن «نيسابور» تعرضت بعد

وفاة «عمر الخيام» للغزو والإحراق على أيدى المغول والتتار. ودخلت على «الرباعيات» تغييرات وتبديلات وأشعار دخيلة، وأقدم مخطوط للرباعيات فى «كمبردج» و«أكسفورد» لم تحتو على قدر كبير منها، ويمكن القول إن أصدق قائمة للرباعيات هى نسخة «بودليان».

ومهما يكن من أمر فقد ترجم «رامى» ما أتيح له من رباعيات وتغنت بها «كوكب الشرق» فى أواخر الأربعينيات وطرب لها المتصوفون والسكارى على حد سواء.

شاعر الشباب:

عام ١٩٥٧ كانت الصحافة المصرية قد أسرفت فى المديح لشاعر الشباب «أحمد رامى» فى حين كان عمره ٦٥ عاما «ولد يوم السبت ١٩ أغسطس ١٨٩٢ فى بيت عتيق بمنطقة الناصرية بحى السيدة زينب بالقاهرة» وكان أبوه لا يزال طالبا بمدرسة الطب وأصبح طبيبا، وعام ١٩٥٧ وفى ندوة أدبية حاولت إحدى الأديبات أو المتأدبات أن تسخر من الشاعر الكبير «أحمد رامى» فقالت له: يسمونك شاعر الشباب.. ورأسك ما فيها شعر!

فأحرج رامى ولكنه رد عليها:

- أحسن ما يبقى شعرى ما فيهش راس زيك.

وضحك الحاضرون لسرعة بديهة رامى وطأطأت المتأدية رأسها.

وتسمية «أحمد رامى» بشاعر الشباب تسمية قديمة تعود إلى فترة عودته من باريس «عاد فى ٢١ يوليو عام ١٩٢٤»، وكان «رامى» ينشر قصائده ومقطوعاته الشعرية فى مجلة اسمها «الشباب»، وكان صاحب المجلة ينشر اسم «أحمد رامى» مقرونا بعبارة «شاعر الشباب» يقصد «شاعر مجلة الشباب»، ونسى الناس مجلة الشباب وظلوا يذكرون «شاعر الشباب».

على أية حال فقد تخرج «شاعر الشباب» فى مدرسة المعلمين العليا عام ١٩١٤م، وعين مدرسا بمدرسة «القربية» الأميرية مدرسا للغة الإنجليزية والترجمة

والجغرافيا. وصدر له أول دواوينه عام ١٩١٨، والتحق بوظيفة فى قسم الفهارس الأجنبية بدار الكتب المصرية، وسافر فى بعثة باريس عام ١٩٢٢، وعاد إلى مصر عام ١٩٢٤، وعام ١٩٥٤ عين مستشارا فنيا للإذاعة، واختير عضوا باللجنة الدائمة لجمعية المؤلفين والملحنين فى باريس، واختير عضوا بلجنتى الشعر والفنون الشعبية بالمجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية.

رامى وآثاره:

أحمد محمد رامى وشهرته «أحمد رامى شاعر الشباب» ترجم عن الأدب الإنجليزى إلى اللغة العربية حوالى ١٥ مسرحية، وكتب ٣٥ قصة للسينما، وترجم عن الفارسية «رباعيات الخيام»، وصدرت له ٦ دواوين.. الديوان الأول عام ١٩١٧ «يقال والعهدة على الراوى إنه نظم أول قصيدة عام ١٩٠٧» وصدر له الديوان الأخير عام ١٩٦٥م.

أجاد فى الشعر الوطنى وفى الشعر العاطفى، الحس الوطنى عند «رامى» كان مبكرا.. القصيدة التى قيل إنها الأولى عنده «عام ١٩٠٧» كانت قصيدة وطنية، ووقف إلى جانب «سعد زغلول» ناظر المعارف فى مواجهة المستشار الإنجليزى «دانلوب»:

أيا دنلوب كف عن العناد

فقد هاجت وماجت بلادى

وقد سئمت لسيرك كل نفس

أتحسب أن مصر فى رقاد

وقال عن نفسه: أنا شاعر وصّافة أسهم فى كل المواقف الوطنية والاجتماعية، وأحسن بيت فى الغزل عنده هو قول «أبو نواس»:

يزيدك وجهه حسنا

إذا ما زدته نظرا

وقال عنه . . «الشاعر صلاح عبد الصبور» وكانت علاقتهما طيبة :

«أحمد رامى شاعر عريق فى صناعة القريض . . له فيها تجربة نصف قرن من الزمان . . ارتبط اسمه بتجديد الغناء المصرى فى لغته وأسلوبه وأفكاره وعواطفه منذ عودته من باريس . . وغنى له القطبان الكبيران . . أم كلثوم ومحمد عبدالوهاب» .

بدأ رامى حياته الشعرية أسيرا لمفهوم الجزالة العربى ، ثم نظم بالزجل . . وكانت مولد قصيدته الزجلية جددت حبك ليه :

وأحدثت مدرسة رامى ثورة فى الأغنية العربية المعاصرة ما كانت لتحدث إلا على أكتاف موهبة شاعر متميز مثل «أحمد رامى» ، وحصل على وسام الأرز اللبنانى ، وعلى وسام الكفاءة الفكرية المغربى .

وكانت أم كلثوم لها ذكاء خاص فى تقدير الناس . . كانت قد غنت قصيدة رامى «الصب تفضحه عيونه» ، عندما كان فى باريس «٢٢ ـ ١٩٢٤» ، وبعد أن التقيا بعد عودته «١٩٢٤» وفى حفلة أقيمت لها بحديقة الأزبكية ، وكان رامى حاضرا أرادت أن تحييه ، فغنت هذه القصيدة وفى الوصلة الثانية تحية لرامى .

بديهة الفكاهة:

ولا بأس أن نختم الحديث عن «أحمد رامى» ببعض الفكاهات التى تواترت عنه وتبين أحد الوجوه التى يتميز بها «رامى» :

* عرض أحد الشعراء الناشئين قصيدة من نظمه على «الشاعر أحمد رامى» ولاحظ «رامى» أن أحد أبيات القصيدة مكسور الوزن . ولكن الشاعر الناشئ احتج وعارض رأى رامى فقال له رامى بهدوء :

ـ إن ما كنتش مصدقنى . . روح اوزن بره .

* جاء أحد هواة الشعر يعرض عليه قصيدة من نظمه . . وبعد أن انتهى رامى من سماعها قال للشاب :

- القصيدة كويسه . . بس فيها غلطة واحدة .

- ما هى؟

- فيها بيت واحد موزون .

الأسـانيـد:

١ ـ سيد صديق عبد الفتاح . . ظرفاء وعظماء القرن العشرين .

٢ ـ صلاح عبد الصبور . . جريدة الأهرام ٢٧ ديسمبر ١٩٦٢ .

٣ ـ طاهر الطناحى . . حديقة الأدباء .

٤ ـ لمعى المطيعى . . (أم كلثوم . . جريدة «الوفد» ٣٠ يوليو ١٩٩٨) .

٥ ـ محمد شلبى . . مع رواد الفكر والفن .

إحسان عبد القدوس



فى سبتمبر من عام ١٩٨٤م كنت فى زيارة للصين الشعبية بدعوة من وزارة الثقافة الصينية وممثلا لمصر . . زرت المطبعة الرئيسية فى بكين والمكتبة القومية وغيرهما من المؤسسات الثقافية . وأوضح لى مدير المكتبة أن ترجمات باللغة الصينية قد صدرت فى الصين لمشاهير الأدباء والكتاب والشعراء المصريين . وسألته عن أكثر الأعمال الإبداعية توزيعا فى الصين من بين أدباء مصر الذين ترجموا لهم أعمالهم إلى اللغة الصينية . وفوجئت بالمدير يقول لى على الفور «إحسان عبدالقدوس» ، ودهشت وعدت أسأل المدير وأنا أعدد له بعض أسماء الأدباء الماركسيين . . والرجل يقول فى حسم وحزم «إحسان عبدالقدوس» وبعد عودتى إلى مصر وكنت وقت ذاك أكتب فى «جريدة الأخبار» كتبت خمس مقالات . . واحدة منها بعنوان «إحسان عبدالقدوس والثورة الثقافية فى الصين» .

وأعود اليوم لأكتب عن «إحسان عبدالقدوس» والمادة أمامى غزيرة ومتشعبة فى الأدب والفن والسياسة ، ومحبوه الذين كتبوا عنه كثيرون ، والكتب التى صدرت تؤرخ له متعددة . وليس أمامى سوى لقطات سريعة . وحتى لا تتوه بياناته فى الزحام أبدأ بالمسيرة الزمنية للصحفى الأديب :

فى شهر يناير من عام ١٩١٩م جاء إلى الحياة ، وفى يناير من عام ١٩٩٠م رحل . قبل أن يسافر والده «محمد عبدالقدوس» إلى إيطاليا عام ١٩٢٤م لدراسة فن التمثيل أدخل «إحسان» كتابا بالعباسية ، وبعد أن عاد أدخله مدرسة السلحدار

الابتدائية فى «باب الفتوح» ليكون فى رعاية «محمد عبدالوهاب» مدرس الموسيقى وصديق «محمد عبدالقدوس»، وبعدها التحق بمدرسة خليل أغا، ثم مدرسة فؤاد الأول حيث حصل على التوجيهية عام ١٩٣٨م، وكلية الحقوق جامعة فؤاد الأول، وحصل على الليسانس عام ١٩٤٢م. وفى نوفمبر عام ١٩٤٣ عقد قرانه على «لواحظ المهيلمى» فى منزل «محمد التابعى»، وكان يتمرن فى مكتب «إدوار قصيرى المحامى» ولم تحضر أمه السيدة «روز اليوسف» عقد القران، واستضاف الوالد العروسين فى شقته الصغيرة بعابدين. وفى عام ١٩٤٥م كتب مقالا ضد السفير البريطانى بعنوان «هذا الرجل يجب أن يذهب»، وكان «محمود فهمى النقراشى رئيسا للوزارة فصادر المجلة وقبض على إحسان وأودعه سجن الأجانب. وشهد مكتب وكيل النيابة مناقشة حامية بين الأم «روزاليوسف» والابن «إحسان» كل منهما يريد أن يتحمل مسئولية المقال. وتقول الأم «فاطمة اليوسف» فى مذكراتها إنها عينت «إحسان» بعد الإفراج عنه رئيسا لتحرير المجلة، وسمحت له بالتدخين لأول مرة أمامها، وظل إحسان رئيسا للتحرير من ١٩٤٥ ـ ١٩٦٤م. وكان قد تولى رئاسة مجلس إدارة مؤسسة روزاليوسف عام ١٩٦٠م عقب تأميم الصحافة. ثم عين رئيسا لتحرير أخبار اليوم من ١٩٦٦م ـ ١٩٧٤م، وعين عام ١٩٧١ رئيسا أيضا لمجلس إدارة المؤسسة. واختير كاتبا متفرغا بجريدة الأهرام من ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥م ورئيسا لمجلس إدارة مؤسسة الأهرام من مارس عام ١٩٧٥. حتى مارس عام ١٩٧٦م، وبعدها كاتبا متفرغا فى الأهرام حتى وفاته فى يناير عام ١٩٩٠.

دخل السجن الحربى مرتين:

ووقف «إحسان» إلى جانب الديمقراطية البرلمانية وثار بعنف على ضرب «د. عبدالرزاق السنهورى» فى مكتبه بمجلس الدولة وذهب لزيارته فى بيته. وكتب ٣ مقالات بمجلة روزاليوسف تحت عنوان «الجمعية السرية التى تحكم مصر». وشدوه إلى زنزانة انفرادية فى السجن الحربى من يوم ٢٩ أبريل عام ١٩٥٤م حتى ٣١ يوليو عام ١٩٥٤م. وكان قد طالب بضرورة خروج جمال عبدالناصر وزملائه

الضباط من الجيش وإعادة الحياة النيابية «كضمان لحياة سياسية مستقرة». وكان يوم دخوله السجن الحربى نهاية لصداقته للضباط الذين استولوا على السلطة يوم الأربعاء ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ ونهاية لتأييده لما قاموا به. وكانت «فاطمة اليوسف» تعتقد أن ابنها «إحسان» (حسن النية أكثر مما ينبغي ولم يدقق فى جوهر من وثق فيهم دون حذر أو روية)، وأصدرت تعليماتها بعدم ذكر أسماء هؤلاء الضباط على صفحات المجلة مادام ابنها مسجونا. ولم ترد كلمة واحدة فى المجلة عن «ثورة يوليو» وكأنها لم تحدث أبدا. ولم تذهب «فاطمة اليوسف» إلى لقاء «عبدالناصر» حين طلبوا منها ذلك.

وخرج «إحسان» من السجن الحربى صباح يوم ٣١ يوليو ١٩٥٤م، وما أن وصل إلى بيته ليجد التليفون يحمل إليه صوت جمال عبدالناصر يضحك ويقول له: هيه «اتربيت والا لسه يا إحسان» طيب تعال افطر معايا، ما تتأخرش أنا منتظرك» (هذه العبارة وردت بالحرف فى أحد الكتب التى نشرتها فى هيئة الكتاب عام ١٩٨٢، وكنت قد أرسلت له التجارب فى مكتبه بجريدة الأهرام. وما رضى عنه ووافق عليه قمت بنشره).

ومرة أخرى من عام ١٩٥٤م أخرجوه من بيته عنوة، ورغم نعومة الثعابين التى لقيها من زوار الفجر وجد نفسه فى السجن الحربى متهما بالتآمر على الثورة، وأن شريكه فى المؤامرة اعترف عليه، ويجب أن يعترف هو الآخر بالمؤامرة، وكانت هذه المرة للاستمرار فى الضغط على أعصاب الكاتب الكبير لأنه وهو أثناء جلسة التحقيق دق جرس التليفون، وإذ بصوت «جمال عبدالناصر» يقول له: «أعمل إيه بس يا إحسان.. اعذرنى». وأعادوه إلى بيته وهويحدث نفسه.. إننا فى العام الثانى للثورة.. ماذا يكون عليه الحال بعد عشرة أعوام؟! وجرت بعد ذلك أربع محاولات لاغتياله «حسب ما ذكره إحسان نفسه».

أسرة الكاتب:

لم يكن طريق «إحسان» مفروشا بالورد والزهور. كان مليئا بالعثرات والتناقضات.

نبدأ بجده «الشيخ أحمد رضوان» من خريجى الجامع الأزهر وعمل بالمحاكم الشرعية، وتولى تربية «إحسان»، وكان «الشيخ أحمد رضوان» يلتقى بزملائه علماء الأزهر فى ندوة دينية يعقدها فى منزله. والشيخ رضوان ريفى المولد والنشأة والسلوك من كفر «عمونة» التابع لقرية شبرا اليمن بمركز زفتى محافظة الغربية. وقد ورث «إحسان» عن جده ثلاثة أفدنة. وقرأ القرآن فى بيت جده مرات كثيرة وأخذ عن ضيوفه العلماء جرعات دينية. وكان الشيخ رضوان ريفيا محافظا، ولكنه سمح لإحسان بأن يقضى كل يوم جمعة مع والدته الفنانة والكاتبة «روزاليوسف»، واستمر هذا التقليد ساريا حتى بعد أن تزوجت السيدة «فاطمة اليوسف» من الفنان«زكى طليمات» فى أواخر عام ١٩٢٣، وقد أحاط زكى طليمات «إحسان» بالرعاية والعناية. وظل «إحسان» ينادى زكى طليمات بعبارة «بابا زكى» إلى أن توفى. وحدث مرة - يوم الجمعة - أن تطاول أبناء الجيران على الطفل «إحسان» فما كان من زكى طليمات إلا أن نزل إلى الشارع ماسكا «شومة» غليظة لتأديب الذين اعتدوا على «إحسان».

وإذا كان «إحسان» قد تأثر بجده «الشيخ رضوان»، فقد وجد الحنان فى صدر عمته «نعمات هانم رضوان». أغدقت عليه الحب والحنان. وفى بيت أمه وجد عطف الأم وتعرف على الفنانين والكتاب وحملة الأقلام. وإذا كان قد وجد الأمومة فى بيت أمه وجد الاستقرار فى بيت جده وعند عمته. وفى الثامنة عشرة من عمره ترك «حارة نصير» فى العباسية إلى بيت أمه فى «حارة جلال» بشارع عماد الدين. وبقى «إحسان» محبًا لقريته ولأهله من الفلاحين البسطاء، وظل يقضى العطلة الصيفية فى تلك القرية منبت جده ووالده «محمد عبدالقدوس».

ووالد إحسان «محمد عبدالقدوس» كان مهندسا بالطرق والكبارى وعاشقا للفن والتمثيل والمسرح. وسعى والده «الشيخ أحمد رضوان» لنقله إلى الصعيد حتى يبعده عن مناخ الفن فى ا لقاهرة. وتم نقل المهندس محمد عبدالقدوس ليعمل ناظرا لمدرسة الأقصر الصناعية، ولكنه استقال وعاد إلى القاهرة حيث النشاط الفنى. وكان محمد عبدالقدوس بارا بابنه «إحسان». وذكرنا فى الفقرات الأولى أن والد إحسان أخذ إحسان وعروسه إلى شقته بعابدين. ويقول إحسان إنه أحب والده حبا

بالغا وكان يعشقه لدرجة الامتنان. وكان يرى أباه كأنه أحد القديسين أو أحد المتصوفين.

إحسان وابناه:

وحتى نكمل الصورة فإن نموذج العلاقة بين «إحسان عبدالقدوس» ووالده «محمد عبدالقدوس» نراه يتكرر بين «إحسان» وولديه «محمد وأحمد». منح إحسان ولديه محمد وأحمد الحب والرعاية والعناية والثقة بالنفس وحرية التفكير والتصرف والسلوك. يقول عن ولده زميلنا وصديقنا «محمد عبدالقدوس» الذى تتجمع حوله فى انتخابات نقابة الصحفيين فيحصل على غالبية الأصوات.. قال إحسان عن ولده محمد إنه متدين جدا ويذكره بجده.. وحينما فكر أن يتزوج لم يتدخل إحسان مطلقا ويحمد الله أنه اختار فتاة فاضلة هى ابنة «الشيخ محمد الغزالى»، ويختلف محمد عن إحسان فى أن إحسان رفض الانضمام إلى أى حزب أو تنظيم ولكن محمدا انضم إلى «الإخوان المسلمين». ويتحدث إحسان بالحب أيضا عن ابنه الثانى «أحمد» الذى سافر إلى أمريكا وحصل على ماجستير فى إدارة الأعمال من جامعة كاليفورنيا، واشتغل بعدها فى شركة كبيرة وتزوج كريمة الخبير البترولى «توفيق شوقى».

لقد أطلنا الحديث حول أسرة الكاتب والبيئة المحيطة، لتقديرنا بأن هذا الحدث ينير الطريق أمام القارئ فى تفسير كثير من الأمور عند إحسان عبدالقدوس.

إلغاء المعاهدة:

لم ينضم إحسان عبدالقدوس إلى أى حزب من الأحزاب أو إلى أية جماعة سياسية من الجماعات. أتاح الفرصة للشيوعيين فى المجلة، وظن الكثيرون أنه ماركسى ولكنه قال: «أنا مسلم فحسب.. ولست شيوعيا ولن أكونه يوما ما». وتعرف على الإخوان المسلمين.. ولكنه لم يجد من يقتنع به سوى «الشيخ حسن البنا». وظنوا أنه ينتمى إلى «الحزب الوطنى - مصطفى كامل»، ولكنه وصف «أنه

جامد غير متحرك إلى حد البرود السياسى» . واقترب من الأستاذ أحمد حسين زعيم «مصر الفتاة» وانتهى إلى أن مصر الفتاة «ليست سوى الطبعة المصرية من الحزب النازى فى ألمانيا الهتلرية» ، وكان يحضر الندوة التى يعقدها «الأستاذ أحمد أبوالفتح» فى جريدة المصرى ، والتقى بالدكتور محمد مندور والدكتور عزيز فهمى وأعجب بالفرسان الثلاثة ولكن بقى قلمه فارسا حرا يؤيد مرة ويختلف مرات إلى أن اجتمع البرلمان فى جلسة تاريخية مساء الثامن من أكتوبر عام ١٩٥١م ليستمع إلى صوت «مصطفى النحاس» وهو يعلن بقوة : «من أجل مصر وقعت معاهدة ١٩٣٦م ، ومن أجل مصر أطالبكم اليوم بإلغائها» . وفى العدد التالى من مجلة «روزاليوسف» كانت الافتتاحية بقلم «إحسان عبدالقدوس» يقول فيها : «المراسيم بمشروعات القوانين الخاصة بإلغاء معاهدة ١٩٣٦م واتفاقتى سنة ١٨٩٩م إنما هى تعبير صادق عن الثورة التى أفرغنا العمر فى المناداة بها . . والحكومة التى تضع هذه المراسيم موضع التنفيذ العملى هى حكومة الثورة ونحن جميعا معها نهتف فى هتافها بسقوط الاستعمار الإنجليزى . . نحن جميعا معها يد واحدة فى التضحية والجهاد .

الأسلحة الفاسدة:

فى موضوع الأسلحة هذا القلم له رأى وللأستاذ إحسان رأى آخر بطبيعة الحال ، لأنه هو الذى بدأ إثارة الموضوع على صفحات «روزاليوسف» فى يوليو عام ١٩٤٩م وقدم له «الضباط الأحرار» عددا من الوثائق تشير إلى بعض الأمراء وبعض كبار الضباط وزوجة أحد كبار الضباط ، وبعض رجال الأعمال كلهم متورطون فى صفقات مشبوهة للأسلحة ، وهذا كله يمكن إدراكه سياسيا . ويجدد «إحسان» الحملة فى يونية عام ١٩٥٠ فى ظل مناخ الحريات الذى أطلقته حكومة الوفد برئاسة «مصطفى النحاس» ، وهنا أشير إلى مذكرات حسن يوسف رجل الملك ص ٢٨٦ - ٢٩٠ . . (اتصل بى مصطفى نصرت وزير الحربية والبحرية ، وقال : إنه سوف يبلغ النائب العام . واستدعت النيابة الأستاذ إحسان عبدالقدوس لسماع أقواله فيما نشرته المجلة . . وبعد ثلاثة أشهر من بدء التحقيق زارنى فى مكتبى عبدالفتاح

الطويل وزير العدل وفؤاد سراج الدين وزير الداخلية، وقالا إن النائب العام يطلب التصريح بتفتيش منازل خمسة أشخاص من موظفى الحاشية الملكية ومراقبة تليفوناتهم). المهم أن حكومة الوفد سمحت بنشر المقالات فى هذا الموضوع. وأبعدت القائد العام للقوات المسلحة عن منصبه «حيدر باشا»، وأقالت رئيس هيئة أركان الحرب من منصبه، وأحالت ١٢ ضابطا كبيرا إلى المعاش. وسهلت مهمة النائب العام إلى أقصى الحدود. وانتهى التحقيق الذى تم فى مناخ الحريات والنزاهة والحيدة التى وفرتها حكومة الوفد. وفى ٢٨ مارس عام ١٩٥١ صدر قرار بحفظ التحقيق. وبعد أن استولى «الضباط الأحرار» على السلطة فى ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ وأعادت التحقيق فى موضوع الأسلحة الفاسدة وانتهى التحقيق إلى الحفظ مرة أخرى. وفى يناير عام ١٩٨٨ دعوت الفريق السفير «حافظ إسماعيل» مستشار الأمن القومى السابق إلى ندوة «كاتب وكتاب» التى أعددتها وقدمتها فى المعرض الدولى للكتاب. ومعروف عن «حافظ إسماعيل» الصدق والاستقامة والنزاهة وقرر أنه كان ضابطا فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨م، ولم تكن هناك بندقية واحدة فاسدة فى أيدى الجيش المصرى، واستنادا إلى العمل المهم الذى أصدره الدكتور «ثروت عكاشة» فى جزءين تحت عنوان «مذكرات فى السياسة والثقافة»، والدكتور ثروت معروف بنزاهة القصد والجدية يقرر فى الجزء الأول من المذكرات صفحة ٥٤ أن ما قيل عن فساد الأسلحة والذخائر التى كانت فى أيدى الجيش المصرى، فهذا حديث يتجاوز الحقيقة. وكان الدكتور ثروت يعمل فى المخابرات الحربية وعلى علم بما يدور حوله من شئون حربية، ومنها تلك الذخائر والأسلحة: إننى هنا أتكلم عن الأسلحة والذخائر التى كانت فى أيدى الجيش المصرى.. فهذه لم تكن فاسدة حسب شهادة اثنين من الضباط الذين كانوا فى الحرب وحسب تحقيقين الأول فى عهد الوفد، والثانى فى عهد الضباط الأحرار، أما الوثائق التى قدمها بعض الضباط إلى الأستاذ إحسان والتى استند إليها فى مقالاته فهذه لم تكشف حقيقتها بعد، وكذلك الأهداف التى حركت ضباط يوليو لإثارة مثل هذه القضية مع تسليمنا الكامل بفساد القصر وبفساد بعض الضباط. أما هزيمة الجيوش العربية السبعة فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨م فتعود إلى أسباب كثيرة يقف خلفها الاستعمار

البريطانى والقصور فى تنظيم الجيوش وتدريبها وفى فساد الأنظمة العربية التى كانت قائمة وقت ذلك .

كلمـات إنصـــاف:

بعد أن رحل «إحسان عبدالقدوس» فى ١١ يناير عام ١٩٩٠ انطلقت أصوات وأقلام كثيرة بكلمات تنصف الرجل بعد أن ناوشته الأمراض وأثقلته متاعب المسيرة التى امتدت ٧١ عاما .

* حزب إحسان عبدالقدوس . . فؤاد سراج الدين .

لن تنسى الحياة السياسية المصرية نضال إحسان عبدالقدوس من أجل الديمقراطية والحياة الدستورية والحريات العامة حتى دفع الثمن كما ينبغى أن يدفعه المناضلون الأحرار دون أن يخفت له صوت أو يجف له قلم أو يساوم على مبادئه التى آمن بها إلى آخر يوم من حياته . لم يكن حزبيا فى يوم من الأيام إلا أنه كان عضوا غير منتسب إلى كل القوى الشريفة التى كانت تناضل من أجل حرية الشعب واحترام الدستور . وعندما صدرت صحيفة الوفد فى عام ١٩٨٤ كان قلم إحسان عبدالقدوس فى طليعة الأقلام الشريفة التى ازدانت بها الصحيفة .

* مدرسة الهواء الطلق . . كامل زهيرى .

بدأت مع إحسان عبدالقدوس فى روزاليوسف ، وكان إحسان اسما لامعا جدا ، وكان اسمى مجرد اسم ثلاثى فى بطاقتى الشخصية ، وأهم ما اكتشفته وأحببته أنه يؤمن بالحرية الفكرية والفنية . لم يفرض رأيا فمدرسة إحسان هى مدرسة الكتابة فى الهواء الطلق .

* جوانب لها تاريخ . . د . جابر عصفور .

هو الكاتب البارز الذى امتلك شجاعة اقتحام العوالم المغلقة التى تحرم العلاقات الاجتماعية فى الطبقات الوسطى خاصة فيما يتعلق بالمرأة والجنس . ومكانته المهمة فيما يتصل بالريادة الخاصة باقتحام المجالات السياسية الشائكة ، ولم يكن يكتفى بنقد مثالب الناصرية ، ولكنه نقد أيضا مثالب الساداتية .

* أحبه الناس وخاصمه النقاد . . رجاء النقاش .

لم يكن غريبا أن يكون إحسان محمد عبدالقدوس أحمد رضوان كاتبا فنانا له تأثيره الكبير فى عصره وجيله ، بل كان الغريب أن يخرج إحسان إلى الحياة بلا موهبة ولا تأثير . فالوراثة والتربية معا كانا لابد أن يخلقا منه فنانا كبيرا .

الأسانيد:

١ ـ د . أميرة أبو الفتوح : إحسان عبدالقدوس يتذكر .

٢ ـ حسن يوسف : مذكرات .

٣ ـ فاطمة اليوسف : مذكرات .

٤ ـ نرمين القويسنى : إحسان عبدالقدوس .

الدكتور إسماعيل أنيس سراج الدين



أمسكو الخشب فقد أنجبت مصر واحدا من أبنائها حصل على درجة الدكتوراه من جامعة هارفارد (الولايات المتحدة الأمريكية) عام ١٩٧٢ ثم منحت له الدكتوراه الشرفية عشر مرات أخرى وهو «الدكاترة» إسماعيل أنيس سراج الدين، وقد أمسكنا الخشب قبل ذلك بسنوات عديدة عندما كان بيننا «الدكاترة زكى مبارك» الذى حصل على الدكتوراه مرتين من الجامعة المصرية فى عامى ١٩٢٤، ١٩٣٧، وبين هذين التاريخين حصل على الدكتوراه من السوربون عام ١٩٣١م.

خلال السنوات الأربع الأخيرة حصل «إسماعيل أنيس سراج الدين» على الدكتوراه الشرفية من عام ١٩٩٦ - عام ١٩٩٩م على الوجه التالى:

- ١٩٩٦ دكتوراه فى علم الاجتماع - جامعة بوخارست، رومانيا.
- ١٩٩٦ دكتوراه فى العلوم الزراعية، جامعة ملبورن، أستراليا.
- ١٩٩٧ دكتوراه فى العلوم، معهد البحوث الزراعية الهندى، الهند.
- ١٩٩٨ دكتوراه فى الشئون الدولية، واشنطن، الولايات المتحدة الأمريكية.
- ١٩٩٨ دكتوراه فى العلوم، جامعة بنجاب الزراعية، الهند.
- ١٩٩٨ دكتوراه فى العلوم، جامعة تاميل نادو للعلوم البيطرية، الهند.

١٩٩٨ دكتوراه فى إدارة الموارد الطبيعية، جامعة أوهايو، الولايات المتحدة الأمريكية.

ـ ١٩٩٩ دكتوراه فى العلوم، جامعة تاميل نادو الزراعية، الهند.

ـ ١٩٩٩ دكتوراه فى العلوم جامعة انجراو، حيدر أباد، الهند.

ـ ١٩٩٩ دكتوراه فى الاقتصاد والإدارة، سينام، باريس، فرنسا.

ما شاء الله، ١١ درجة دكتوراه لواحد من أبناء مصر مرشح لمنصب مدير منظمة اليونسكو التى تجرى انتخاباتها فى أكتوبر قبل تقاعد فريدريكو مايور فى نوفمبر القادم.

وقد طالب لقاء المثقفين المصريين بالمرشح المصرى فى الأوبرا، الأربعاء ١٩ مايو بالوقوف بجانب المرشح المصرى ومساندته داخل وخارج مصر بشتى الطرق المختلفة، وها نحن هنا نحاول أن ندخل إلى عالم «إسماعيل أنيس سراج الدين».

خافيير بيريز دى كويلار الأمين العام الأسبق للأمم المتحدة الذى شارك فى إعداد العقد العالمى للتنمية الثقافية (١٩٨٨ ـ ١٩٩٧) مع فريدريكو مايور المدير العام لليونسكو، أشرف على إعداد (اللجنة العالمية للثقافة والتنمية) عام ١٩٩١م. وفى نوفمبر عام ١٩٩٢م قرر «د. بطرس غالى وفريديكو مايور» أن يرأس «خافيير بيريز دى كويلار» هذه اللجنة التى أصدرت تقريرها عام ١٩٩٥، وكتب «دى كويلار» مقدمة لهذا التقرير المهم. وعام ١٩٩٧ صدرت الطبعة العربية لهذا التقرير عن المجلس الأعلى للثقافة بعنوان (التنوع البشرى الخلاق) بمقدمة للدكتور جابر عصفور الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة، وقامت بالترجمة مجموعة مترجمين مرموقين، وبالمراجعة كانت هذه السطور، وبعد متابعة لما كتبه «د. إسماعيل سراج الدين» عن (بنوك الفقر) وعن (الرأى العام العالمى لمواجهة الفقر، وعن الثقافة والتنمية، وعن المدن التاريخية والتراث المعمارى) وعن (حقوق المرأة وحقوق الإنسان) والربط الواعى بين التعليم والثقافة والتنمية من جانب وبين الأخلاق العالمية من جانب آخر. وبعد متابعة المحاضرات التى ألقاها فى الأوبرا وجمعية المهندسين واللقاءات الأخرى، أحسست أن هذا المناخ الفكرى الذى يعيش فيه «الدكتور إسماعيل سراج الدين» فى موضعه الصحيح المناسب تماما لرسالة (اليونسكو)، ويتفق تماما مع رسالة اليونسكو النبيلة بدستورها الإنسانى الواسع

ودعوته إلى السلام والأمن والتعاون بين الدول فى إطار التربية والثقافة والعلوم من أجل سيادة القانون وكرامة الإنسان والعدالة والمساواة.

التنوع البشرى الخلاق:

الأفكار الرئيسية فى هذا التقرير كما جاء فى تقديم د. جابر عصفور للطبعة العربية أن إهمال التنمية البشرية كان من الأسباب الرئيسية لاندلاع الحروب. والتنمية منفصلة عن سياقها الإنسانى أو الثقافى هى بمثابة نماء بلا روح. والتنمية الاقتصادية هى جزء من ثقافة البشر.

والواقع أن التنوع البشرى الخلاق هو مبدأ الفعل الابتكارى فى الثقافة التى تشيع معانى التسامح وحق الاختلاف واحترام الغير. ولا ننفر من إعادة النظر فى تقاليدها. ولا تهدف هذه النزعة إلى تسلط أمة على أمة، أو سيادة ثقافة على أخرى. قد مضت أزمنة التسلط منذ أن تكلمت الشعوب لدفاع عن حقوقها فى الوجود المتكافئ الذى تؤكده معانى الحرية والعدالة والمساواة. ومستقبل البشرية مرهون بالاحترام المتبادل والتخلى عن رواسب التمييز العرقى أو التعصب المذهبى.

ويأتى بعد ذلك الإيمان بالحوار بين القوميات والمعتقدات والمذاهب والأنظمة والأفكار دون تمييز بين أغلبية وأقلية، أو شمال وجنوب أو عالم أول وعالم ثالث أو أغنياء وفقراء.

لقد ثبت عجز كل من الرأسمالية والاشتراكية عن رفع البؤس عن غالبية الشعوب، ولذلك فالسؤال الثقافى الذى يجب أن نسأله هو: هل هناك حل آخر؟ أليس لدينا فى تراثنا وخيالنا ورصيدنا الفكرى والتنظيمى ما يدفعنا إلى تطبيق نماذجنا الخاصة للتنمية بما يتفق وهويتنا وحسب آمالنا؟ ومن هذا المنطلق فإن النزعة الكوكبية فى ملامحها الإيجابية نزعة تبدأ من الإيمان بعلاقات متكافئة بين كل أمم الكوكب الأرضى الذى تحول إلى قرية كونية بالفعل.

ويواصل «د. جابر عصفور» تقديمه. . لأول مرة فى التاريخ، وبعد سنوات قلائل لن تعيش أغلبية سكان العالم على الزراعة فى الريف بل فى المدن. وهو أمر

له نتائج بالغة الأهمية فى العلاقة المتبادلة بين البيئة والثقافة. ويترتب عليه وعلى غيره من المتغيرات الجذرية المماثلة حتمية مشاركة كل الأقطار والأمم فى صياغة البدايات الحقيقية لحقبة جديدة من تاريخ البشرية. والإسهام فى تأصيل نوع جديد من الأخلاق العالمية، والبحث عن مواصفات جديدة لشروط مدنية سمحة، تهدف إلى تأصيل معانى التنوع البشرى الذى يقوم على التفاعل لا الصراع. والآن كيف يفكر د. إسماعيل.

مساعدة المستضعفين:

ولقد كان الاهتمام الأول للدكتور «إسماعيل» أثناء عمله نائبا لرئيس البنك الدولى هو (مساعدة المستضعفين)، وهو يرى أن (المدن التاريخية) قد تركها القادرون منذ زمن وأصبحت بالتالى بؤرا للفقر. وفى تقديره أن العولمة لها إيجابيات كثيرة، ولكنها تؤدى إلى عالم تزداد فيه الهوة بين الأغنياء والفقراء بين الدول وداخل الدول . . وعلينا مواجهة السلبيات والحفاظ على الإيجابيات من انفتاح ثقافى وثورات معلوماتية. والمدخل الرئيسى لمواجهة هذه الهوة بين الفقراء والميسورين هو التأكيد على التكافل الاجتماعى من جهة وإعانة الفقراء على التغلب على الفقر بإعطائهم المدخل للعمل الاقتصادى المناسب الذى سيمكنهم من تحسين أحوالهم بأنفسهم. كتب مقالين تحت عنوان (بنوك الفقراء) فى جريدة الأهرام فى ٢ مايو و٩ مايو عام ١٩٩٩م. ثم ينتقل إلى المنطلق الأخلاقى لهذا الموقف فى الدول الإسلامية. وقد أكد الإسلام ضرورة التكافل الاجتماعى وحق الفقراء للعيش الكريم وفرض الزكاة والصدقات ومحاربة الفقر. وما أجمل عبارة الإمام على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - إذ قال: لو كان الفقر رجلا لقتلته. ولكن ما هى الآليات المناسبة لمحاربة الفقر الذى نشاهده فى العديد من المجتمعات الإسلامية من موريتانيا إلى إندونيسيا؟ ذلك بالتركيز على التعليم والصحة والمناخ الاقتصادى المناسب للنمو الاقتصادى وتمكن الفقراء من تغيير أحوالهم بأيديهم، وهناك تجارب رائدة فى هذا المضمار تستحق التقدير والإعجاب. والمقصود ببنوك الفقراء . . المؤسسات التى تقدم القروض الصغيرة جدا والخدمات المصرفية. ومثل هذه

التجربة موجودة فى (بنجلاديش) بنك يقرض أكثر من مليونين من الفقراء فى ريف بنجلاديش، وعلينا أن نلاحظ أن نسبة النساء بين الفقراء أكبر بكثير من نسبة الرجال، ومن هنا فإن مساندة المرأة أفضل لتحسين حال الأطفال وهو مدخل أساسى لمحاربة الفقر اقتصاديا واجتماعيا. وهناك حركة النساء فى الهند التى أسستها الأستاذة «إيلابات» فى مدينة أحمد إباد بالهند. وتجربة بنكوسوك فى بوليفيا، وحركة التنمية الريفية فى كينيا.

عام ١٩٩٣ كان ضمن مساهمة البنك الدولى فى عقد مؤتمر عالمى كبير لمكافحة الفقر والجوع بالتعاون مع الجامعة الأمريكية فى واشنطن. وعام نشر البنك الدولى وثيقة تحتوى على برنامج عملى للتغلب على الفقر والجوع فى العالم. ورأس «د. إسماعيل» المجموعة الاستشارية التى كونها البنك الدولى لمساعدة (أفقر الفقراء) كمدخل جديد لتعميم تجربة بنك الفقراء فى مختلف أنحاء العالم، ومن جهود البنك الدولى فى هذا المجال انعقاد مؤتمرين حتى الآن فى الولايات المتحدة الأمريكية. وسيعقد المؤتمر الثالث فى شهر يونيو الحالى فى ساحل العاج بالقارة الإفريقية. والمستهدف هو أن يصل عام ٢٠٠٣م إلى أكثر من مليون أسرة تتسلم القروض الصغيرة. وتشير الإحصائيات إلى أن ٨٠٠ مليون فرد يعانون الجوع فى العالم، وقد حدث انفصام فى المجتمعات بين الفقراء والأغنياء. وتزداد الهوة بين الأغنياء والفقراء يوما بعد يوم، وهذا يؤدى بالضرورة إلى ضغط كبير جدا على مفاهيم المواطنة وحقوق الإنسان والمشاركة.

التراث العمرانى:

أعود بالذاكرة إلى شهر مايو من عام ١٩٨٦م، وكنت مندوبًا إلى مؤتمر حماية الملكية الفكرية فى جنيف، وشهدت فى تلك الأيام نشاطا فى المدينة وهرولة على غير العادة، وعرفت أنه يجرى استفتاء لسكان المدينة حول إعادة بناء مبنى قديم يطل على البحيرة. وطرحت الإدارة مسألة إعادة البناء على السكان حول الإبقاء على الطراز القديم للمبنى، أم يعاد البناء على الطراز الحديث الجديد؟ ولا أذكر الآن ماذا

كانت عليه نتيجة الاستفتاء، المهم أدركت أن منظمة اليونسكو تعطى أهمية كبرى للتراث العمرانى وتربط الاهتمام به بالثقافة والتنمية.

وفى محاضرة للدكتور إسماعيل بجمعية المهندسين المصرية مساء الأحد ٢٥ أبريل عام ١٩٩٩ تحدث فى ندوة بعنوان (المدن التاريخية والتراث المعمارى - مداخل إلى التجديد مع التأصيل)، دعا فيها إلى ضرورة الحفاظ على التراث المعمارى القديم مع التجديد . . بشرط أن يبرز التجديد جمال القديم. وعلى الحكومة أن تعلم كيفية المواءمة بين الأطراف المشاركة فى عملية التجديد أو الترميم أو الحفاظ على تلك المدن، ويبدأ الحفاظ على أى تراث من الأهالى أنفسهم الذين يقيمون فى نفس المكان بالإضافة إلى اتزان الحاضر المعتمد للتطوير بالمدن التاريخية. وطالب بإدخال القطاع الخاص فى عمليات التطوير للمدن التاريخية وإحداث تنوع لتصبح القاهرة مدينة متكاملة اقتصاديا واجتماعيا. والفائدة التى تعود من المدن التاريخية تكون للبلد وللعالم أجمع، ويجب التفكير فى قضية الترميم وكيفية إحيائها، على أن يلعب السكان دورا مهما فى التطوير. وضرب أمثلة لدور الحكومة ومعها القطاع الخاص بترميم وتطوير مسجد (سيدى العدوى والحفصة) فى تونس، ومسجد (أصيلة بالمغرب).

ثم أكد الاهتمام بالتراث الإسلامى لأنه يعطى شعوراً بالذاتية والانتماء للهوية العربية. والدكتور «إسماعيل» مهندس معمارى فى الأصل.

وأعلن «الدكتور إسماعيل» أن (المدن التاريخية والتراث المعمارى) سوف تكون مهمة خاصة لليونسكو فى حالة توليه مسئوليتها. سيما أن الحفاظ على الطابع العمرانى لهذه المدن يهم السياح والسكان المحليين ورجال الآثار.

التعليم والعلوم والثقافة:

منذ حصول الدكتور «إسماعيل سراج الدين» على درجة الدكتوراة من جامعة هارفارد ركز فى بحوثه على دور التعليم فى التنمية، وحرص على الربط بين التعليم والسياسة العامة. وخلال سنواته الأولى كاقتصادى فى قسم التعليم بالبنك

الدولى ركز على قضايا السياسة التعليمية والأنشطة العمالية . . ونظم حملة بحثية كبيرة فى مجال التعليم والموارد البشرية وعندما أسندت إليه وظيفة مدير لمنطقة غرب إفريقيا بالبنك الدولى عام ١٩٨٤ ، عمل على تنمية البرامج التعليمية فى إفريقيا ما تحت الصحراء الكبرى .

وبصفته رئيسا للمجموعة الاستشارية للبحوث الزراعية الدولية أشرف على أنشطة ستة عشر معهدا دوليا للبحوث الزراعية. وبمعاونة اليونسكو جمع حشدا من بعض العلماء لإجراء فحص دقيق لقضايا الأخلاقيات الحيوية والسلامة الحيوية . ويعد الدكتورسراج الدين القوة الدافعة وراء المؤتمر السنوى للبنك الدولى الذى عنى بقضايا العلوم البيئية والتنمية .

وهو ناقد معروف فى مجال العمارة والفنون ، ويحاضر فى تلك الموضوعات بثلاث لغات ، وله برنامج فكرى يتم بمقتضاه أفضل ما فى العمارة على قضايا البيئة والذوق الجمالى والاهتمامات الاجتماعية والتنمية والتراث الثقافى .

وشارك فى المؤتمر الدولى لليونسكو عام ١٩٩٢ عن الثقافة والتنمية . وعام ١٩٩٨م اختير نائبا لرئيس البنك الدولى ليكون مسئولا عن تدعيم دمج الثقافة فى إطار التنمية .

حقوق الإنسان وحقوق المرأة:

يناصر الدكتور سراج الدين بقوة حقوق الإنسان وحقوق المرأة ، ويرى أنهما موضوعان مترابطان. وعمل بنشاط لضمان الشفافية والاهتمام باحتياجات السكان الأصليين والمجتمعات الهامشية فى عملية التنمية .

وكان فى ندواته ومحاضراته وبحوثه يرفض حجج التقاليد الثقافية التى تؤدى إلى ظلم المرأة. ودفع بمشروعات البنك الدولى الخاصة بالمرأة فى إفريقيا. ودعا إلى إدخال قضايا حقوق الإنسان وحقوق المرأة والحكم الذاتى فى أعمال البنك الدولى. ومن جهة أخرى اهتم بتعليم الفتيات وحقوق الطفل وبثقافة الطفل .

وظائفه ومؤلفاته:

منذ أن انضم إلى البنك الدولى تولى مجموعة من الوظائف مثل:

- خبير اقتصادى فى التعليم والموارد البشرية (٧٢-١٩٧٦م).
- رئيس قسم الدراسات الخاصة (٧٧-١٩٨٠م).
- رئيس قسم المشروعات الحضرية فى أوروبا والشرق الأوسط وشمال إفريقيا (٨٠-١٩٨٣).
- مدير مشروعات غرب إفريقيا (٨٧-١٩٨٩م).
- نائب رئيس البنك الدولى للتنمية البيئية والاجتماعية (١٩٩٣-١٩٩٨م).
- قام بالتدريس فى جامعة القاهرة وجامعة هارفارد.

أما وظائفه الحالية فهى:

- رئيس المجموعة الاستشارية للبحوث الزراعية الدولية (منذ عام ١٩٩٤).
- رئيس المجموعة الاستشارية لمعاونة أفقر الفقراء (منذ عام ١٩٩٥).
- رئيس شركة المياه الدولية (منذ عام ١٩٩٦).
- رئيس مشترك للجنة بنك المنظمات غير الحكومية (منذ عام ١٩٩٧).
- رئيس المفوضية الدولية للمياه فى القرن العشرين (منذ عام ١٩٩٨).
- نائب رئيس البنك الدولى للبرامج الخاصة (منذ مارس عام ١٩٩٨).

وفى مجال التأليف فقد قدم بمفرده أو بالتعاون مع آخرين أكثر من أربعين كتابا ومائتى مقالة وفصول فى كتب. . ومن هذه المؤلفات: تطبيع التنمية (١٩٩٥)- ثروات الأمم (١٩٩٦) وهندسة تفويض السلطة (١٩٩٧) والإصلاح الريفى (١٩٩٧م) وحداثة فكر شكسبير (١٩٩٨)، والتكنولوجيا الحيوية والسلامة الحيوية (بالاشتراك- ١٩٩٩م)، وله كتاب بعنوان (بنك الفقراء).

مرشح الرأى العام:

وكان من الطبيعى جدا أن تهتم هيئات علمية كثيرة وشخصيات مرموقة لها وزنها الفكرى والثقافى فى مقدمتها الأمير طلال بن عبد العزيز أن تدعم ترشيح الدكتور إسماعيل أنيس سراج الدين كمنصب مدير منظمة اليونسكو. أكثر من ٢٠٠ شخصية عالمية مرموقة، منهم ٣٠ شخصية حاصلة على جائزة نوبل، وعدد من الشخصيات المصرية مثل د. شوقى ضيف، ود. إبراهيم بدران، ونجيب محفوظ، ود. على الدين هلال، ود. ميلاد حنا، ود. بطرس غالى، ومحمد حسنين هيكل، ود. فاروق الباز، وقال «نجيب محفوظ» . . إنها فرصة لمصر كى تخدم العالم بترشيح مثقف يتصف بالنزاهة الثقافية. إنه مرشح الرأى العام المثقف إلى جانب ترشيح (بوركينا فاسو) له مديرا لليونسكو - الجناح الثقافى للأمم المتحدة فى العلوم والثقافة والتربية. ويدخل «الدكتور سراج الدين» بهذا الترشيح فى منافسة لستة آخرين هم:

- الدكتور غازى القصبى مرشح المملكة العربية السعودية.
- روساريو مانولا مرشح الفلبين.
- كيوشيو مالسنورا مرشح الجابون.
- ماكا مينان ماكا جيارتسار مرشح إندونيسيا.
- سيناك دباس باندار نايك مرشح سيريلانكا.
- لون كارا ميتزا مرشح رومانيا.

ولقد قفل باب الترشيح فى ٦ أبريل الماضى ثم تأجل الموعد إلى سبتمبر عام ١٩٩٩م والمعركة ليست سهلة، وفى الانتخابات ٦ مجموعات انتخابية: فى المجموعة العربية - المجموعة الأوروبية - مجموعة دول أوروبا الشرقية - ومجموعة أمريكا اللاتينية.

مـن هـو؟

ولد عام ١٩٤٤م بمحافظة الجيزة، متزوج وله ابنة واحدة، يتحدث الإنجليزية والفرنسية والعربية (طبعا). حصل على بكالوريوس الهندسة من جامعة القاهرة عام ١٩٦٤. وحصل على الماجستير عام ١٩٦٨م، والدكتوراه عام ١٩٧٢ جامعة هارفارد. والده هو المهندس المعماري والمقاول «أنيس سراج الدين» ووالدته هى «ليلى على إبراهيم» المهتمة بالفن الإسلامى والعمارة الإسلامية، وهى ابنة الجراح المصرى المشهور «على باشا إبراهيم» والذى تولى رئاسة مشروع القرش فى بداية الثلاثينيات. وزوجته هى كريمة رئيس مجمع اللغة العربية الراحل «الدكتور إبراهيم بيومى مدكور».

والآن.. هل هو جدير بالمواصفات التى سجلنا بعضها وليس كلها بالمساندة لمنصب مدير منظمة اليونسكو؟ بضمير علمى وطنى مطمئن.. نقول نعم. وجدير بأن يأخذ مكانه فى اليونسكو فى نوفمبر القادم وينضم بذلك إلى أبناء مصر الذين تبوءوا مكانة يفخر بها المصريون، إلى جانب د. أحمد عصمت عبد المجيد الأمين العام لجامعة الدول العربية، ونجيب محفوظ الحاصل على جائزة نوبل، والدكتور بطرس غالى الأمين العام للأمم المتحدة.

الأسـانيد:

١ـد. إسماعيل سراج الدين.. محاضرة فى جمعية المهندسين المصرية ٢٥/ ٤/ ١٩٩٩.

٢ـأخبار الأدب.. ٢٨ مارس ١٩٩٩م.

٣ـالمجلس الأعلى للثقافة.. التنوع البشرى الخلاق.

٤ـسحر ضياء.. رسالة من باريس (الوفد ٢٣/ ٥/ ١٩٩٩).

٥ـعباس الطرابيلى.. الوفد ٢٤ فبراير ١٩٩٩م.

٦ـهدى سراج الدين.. بيانات متفرقة.

أحمد شوقى أمير الشعراء
وحافظ إبراهيم شاعر النيل





كان من حسن حظ الثقافة العربية بعامة والثقافة المصرية بخاصة، هذا التلازم الودود بين أمير الشعراء أحمد شوقى وشاعر النيل حافظ إبراهيم. بارك هذا التلازم الأستاذ العميد الدكتور طه حسين فى كتابه «حافظ وشوقى» وقال عنهما بأسلوبه المتميز: «لم يكن التلازم أو التقارب بين الشاعرين فى سنوات الميلاد والموت وحسب، وإنما كان التلازم والتقارب بينهما فى طبيعة النشاط الذهنى وفى الشعر وفى اختيار ظروف مصر ليكونا صورة الوجدان الوطنى، طبيعة حافظ يسيرة لا غموض فيها ولا عسر ولا التواء، طبيعة شوقى مركبة فيها أثر من العرب وأثر من الترك وأثر من الشركس.

قال «حافظ» عن هذا التلازم: «زفتى وميت غمر أو سميط وجبنة» وعلى أيامنا عندما احتفلنا عام ١٩٨٢م بمرور نصف قرن على وفاة الشاعرين الكبيرين. كان الاحتفال فى هيئة الكتاب تحت عنوان «شوقى وحافظ». وصدرت مجلة «فصول» فى جزءين بعنوان «شوقى وحافظ» حتى الدراسة الببليوجرافية التى أعدها الزميل والصديق د. سعد الهجرسى، كانت بعنوان «حافظ وشوقى فى خمسين عامًا». هما متلازمان ومتقاربان، وهذا التلازم والتقارب على العين والرأس.

قال أحمد أمين فى تقديمه لديوان حافظ: «كان إرهاصًا لطيفا أن يولد شاعر النيل على صفحة النيل». ويشير بذلك إلى أن حافظ هو ابن مهندس الرى إبراهيم فهمى أحد المشرفين على قناطر ديروط - محافظة أسيوط ورزق بابنه حافظ فى «ذهبية»

راسية على شاطئ النيل عام ١٨٧٢م. وهذا التاريخ غير معروف بالضبط من واقع شهادة الميلاد والأوراق الرسمية. والذى حدث فى شهر يناير من عام ١٩١١، عندما أريد تعيين «حافظ إبراهيم» فى دار الكتب قدر القومسيون الطبى عمره تسعة وثلاثين عامًا وتأسس على هذا أنه ولد فى فبراير ١٨٧٢م، وعلى هذا أحيل حافظ إلى المعاش فى «فبراير عام ١٩٣٢م» وهو العام الذى توفى فيه «يوليو عام ١٩٣٢م».

وأما «شوقى» فالأمر بالنسبة له كان أيسر من هذا «الناس حظوظ» جده كان أحد الأكراد وتجرى فى عروقه دماء عربية ودخل فى معية الوالى. وفى أكتوبر عام ١٨٧٠م ولد له طفل أسماه أبوه «أحمد شوقى». واختلف مؤرخو الأدب حول مولد «شوقى». الغالبية قالت إنه كان عام ١٨٦٨م، ولكن شهادة ميلاد الشاعر تسجل أنه ولد عام ١٨٧٠م. وهذا يحسم الأمر من الناحية الرسمية على الأقل.

وعاش «حافظ» فى كنف أبيه أربع سنوات مات بعدها الوالد فعادت به أمه من ديروط إلى بيت أسرتها فى القاهرة. وتولى خاله «محمد نيازى» الذى كان مهندسًا بمصلحة التنظيم أمره. وتوفيت والدته عام ١٩٠٨م. وعندما نقل خاله إلى عمل بطنطا ذهب معه حافظ والتحق بالجامع الأحمدى. شوقى كان يسكن حى الحنفى ودخل مدرسة الحقوق بدرب الجماميز. والتحق الفتى النحيل قصير القامة وسيم الطلعة بقسم الترجمة بمدرسة الحقوق بدرب الجماميز، واستدعاه «الخديو عباس حلمى» وهنأه ووعده بوظيفة فى السراى ثم ركب الباخرة إلى فرنسا. ورست السفينة فى مرسيليا، وأقام «أحمد شوقى» فى ضاحية مونبلييه حيث جامعتها وبها مدرسة الحقوق.

بؤس حافظ:

على الرغم من التلازم والتقارب بين الشاعرين الكبيرين إلا أن بعض الأقلام تحدثت أحيانا عما أسمته «بؤس حافظ» بالنسبة لأحمد شوقى. وتحدثت بعض الأصوات عما أسمته «بوطنية حافظ» بالمقارنة لأحمد شوقى، والمعطيات التى أمامنا تقدم لنا «شوقى» على أن اتصاله واتصال أسرته بالقصر مكناه من أن يدرس فى

جامعة مونبلييه فى مايو عام ١٨٩٢م. وسافر من فرنسا إلى إنجلترا وعاد إلى باريس واستقر بها وشارك فى إصدار مجلة «التقدم المصرى» مارس عام ١٨٩٣. وتعرف هناك إلى أدباء المسرح المعروفين. وبعد أن عاد إلى مصر أصبح بالنسبة للخديو كما كان المتنبى. لدى «سيف الدولة»، وكما كان «أبو نواس» لدى «الأمين». وأنه يقضى الصيف فى لبنان بين بيروت وزحلة. وأولا وأخيرا أنه من أسرة مترفة عاشت بباب «الخديو إسماعيل».

هذا كله صحيح ولكن صحيح أيضا أن «بؤس حافظ» ليس سوى فكرة شائعة لانصيب لها من الصحة.

ولد حافظ لمهندس رى، والمعروف أن مهندسى الرى كانوا من المرموقين بين الموظفين. وأم حافظ من أسرة كريمة وهى ابنة خالة أم مصطفى كامل. والتقى حافظ إبراهيم بمصطفى كامل فى المدرسة الخيرية بالقلعة. والتحق حافظ بالمدرسة الحربية ولم تكن مدرسة للبؤساء، وتخرج فيها عام ١٨٩١ برتبة ملازم ثان ثم ملازم أول ونقل إلى الشرطة التى كانت تستمد ضباطها من الجيش. ثم أعيد إلى الجيش وخدم هناك ما يقرب من سنتين وأحيل إلى التقاعد عام ١٩٠٣ وعام ١٩١١م، عين رئيسا للقسم الأدبى فى دار الكتب ووصل إلى منصب «وكيل دار الكتب» أى الرجل الثانى. وحصل على رتبة البكوية عام ١٩١٢. وأطلق عليه لقب «شاعر النيل» وعمل فترة بالمحاماة. وكان يلم بالفرنسية وترجم «البؤساء» لفيكتور هيجو، واشترك مع «خليل مطران» فى ترجمة كتاب «موجز الاقتصاد»، وعندما عمل بالشرطة كان ملاحظا لمركز بنى سويف ولمركز الإبراهيمية.

لم يكن حافظ فى ثراء شوقى، ولكنه لم يكن بائسًا بأى مقياس من المقاييس.

وطنية شوقى:

والأصوات التى تعالت بالحديث عن «بؤس حافظ» تعالت أيضًا بالغمز واللمز فى وطنية شوقى، وقد توفر الدكتور «أحمد محمد الحوفى» للرد على هذه النغمة وأصدر كتابه المهم عن «وطنية شوقى». ويرى «الدكتور الحوفى» أن بعض

مسرحيات شوقى الشعرية تنم عن الحس الوطنى مثل «مصرع كليوباترة وقمبيز وعلى بك الكبير» وأنه كتب مبكراً فى المدائح النبوية مهاجماً مزاعم المبشرين وكتب عن الوئام بين المسلمين والمسيحيين. وإذا كان «شوقى» أنشد يهاجم «أحمد عرابى» فإن هذا الموقف كان بتأثير «مصطفى كامل» الذى استمر هو والحزب الوطنى لسنوات طويلة يهاجم عرابى وحركته وليست مقصورة على أحمد شوقى.

وعبر شوقى عن حنينه إلى مصر عندما كان فى منفاه فى الأندلس بقوله:

يا ساكنى مصر إنا لانزال على — عهد الوفاء وإن غبنا مقيمينا

هلا بعثتم لنا من ماء نهركم — شيئا نبل به أحشاء صادينا

كل المناهل بعد النيل آسنة — ما أبعد النيل إلا عن أمانينا

ويوم الخميس ٢٤ يوليو عام ١٩٢٤ أقيم احتفال بكازينو سان ستيفانو لتكريم «سعد زغلول» بعد نجاته من حادث الاعتداء عليه.. تقدم حافظ إبراهيم يقول:

الشعب يدعو الله يا زغلول — أن يستقل على يديك النيل

إن الذى اندس الأثيم لقتله — قد كان يحرسه لنا جبريل

وتقدم «على الجارم» يلقى قصيدة شوقى، وبهذه المناسبة نقول.. كان شوقى يعهد بإلقاء قصائده إلى توفيق دياب أو على الجارم.. قال شوقى بصوت الجارم:

نجا وتماثل ربانها — ودق البشائر ركبانها

تحول عنها الأذى وانثنى — عباب الخطوب وطوفانها

فيا سعد جرحك ساء الرجال — فلا جرحت فيك أوطانها

كان الشاعران الكبيران يتنافسان فى حب مصر وحب زعيمها سعد زغلول. وأليس شوقى هو القائل:

وطنى لو شغلت بالخلد عنه — نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

ويمضى «الدكتور الحوفى» يشير إلى مواقف «شوقى» الوطنية والتى لا تقل وطنية

عن مواقف «حافظ»: عكف شوقى على دراسة تاريخ مصر ليتخذه درعًا يتحدى به الاحتلال.. أشاد بالفراعنة وما شيدوه عام ١٩١٥ تغنى بحضارة مصر وعام ١٩٢١ خاطب أبا الهول ومراكب التاريخ. وتغنى باكتشاف مقبرة توت عنخ أمون عام ١٩٢٣. وشبه برلمان سعد عام ١٩٢٤ باكتشاف مقبرة إخناتون. وعام ١٩٠٧م هاجم كرومر عندما تقرر رحيله. كان صديقا لمصطفى كامل مثلما كان حافظ أنشد قصيدة عندما أعاد «سعد» لشباب الوفد حريتهم. وبكى «شوقى» عندما مات «سعد» وأنشد:

شيعوا الشمس ومالوا بضحاها وانحنى الشرق عليها فبكاها

وكتب شوقى القصائد لاستقلال سوريا ولبنان.

لا مبرر إذن للمزايدة بوطنية حافظ وبؤسه ونذكر العلاقة الحميمة بين الشاعرين.

أمير القوافى:

فى أواخر شهر أكتوبر عام ١٩٢٦ تشكلت «اللجنة العامة لتكريم شوقى» من: «طه حسين وأحمد أمين ومحجوب ثابت ومىّ زيادة وفارس نمر وعبد العزيز البشرى وأحمد حافظ عوض وأنطون الجميل»، وتحدد يوم ٢٩ أبريل عام ١٩٢٧ لتكريم شوقى.

ووافق «أحمد لطفى السيد» مدير الجامعة على إقامة تمثال لشوقى يزاح عنه الستار فى المهرجان.

ودخل «حافظ إبراهيم» الحفل.. طويل، ضخم عظيم الأنف خفيف الشارب، يمشى كأنه فى انحناءة يسيرة، تخاله أميرا فى روما القديمة. اتسعت عليه ثيابه، بعيدة عن الأناقة يتوكأ على عصا غليظة من الخيزران.. وقف حافظ وقد شخصت إليه الأبصار يقول:

أميـر القـوافى قد أتيت مبايعًا وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

ودوت القاعة بالتصفيق وترقرقت عينا شوقى بالدموع وهو يستمع لحافظ،

ويرى زعيم الأمة «سعد العظيم» يدخل إلى الحفل ليؤكد رضاءه عن إمارة الشعر لأحمد شوقى على الرغم من معارضة «عباس محمود العقاد».

وفى ٢١ يوليو عام ١٩٣٢ بكى شوقى عندما قيل له إن «حافظ إبراهيم» قد انتقل إلى رحمة الله. ووقف على قبر حافظ يقول والدموع فى عينيه.

قد كنت أوثر أن تقول رثائي	**يا منصف الموتى من الاحياء**
لكن سبقت وكل طول سلامة	**قدر وكل منية بقضاء**

وكان قدر «أحمد شوقى» أن يلحق «بحافظ إبراهيم» فى ١٤ أكتوبر عام ١٩٣٢م.

الشاعران والديوانان:

كان من حظ «أحمد شوقى» أن تصدر الطبعة الأولى من «الشوقيات» عام ١٨٩٨م عن مكتبة الآداب. أى منذ مائة عام. ومنذ البداية كان اسم «الشوقيات» اسما معروفا لأشعار شوقى. ثم صدر الديوان مرة أخرى وكتب المقدمة له الدكتور «محمد حسنين هيكل».

أما «ديوان حافظ» لقد ظل حبيس الأدراج حتى جاء «على زكى العرابى» وزيرا للمعارف فى وزارة «مصطفى النحاس» الثالثة - ٩ مايو عام ١٩٣٦ - ٣١ يوليو عام ١٩٣٧ - وأصدر قرارا بتشكيل لجنة من «أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الإبيارى» ويرأسها «أحمد أمين عميد كلية الآداب جامعة فؤاد الأول وقتذاك. وعهد الوزير إلى اللجنة بجمع قصائد «حافظ إبراهيم» وشرحها وإعداد الديوان لتقوم وزارة المعارف بطباعته على نفقتها. وكتب مقدمة الطبعة الأولى «أحمد أمين»، ونشرت الديوان «دار الكتب» التى كانت تابعة وقتذاك لوزارة المعارف، وكان ذلك عام ١٩٣٧. وصدرت الطبعة الثانية عن الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٨٠م.

ولا بأس بشيء من المقارنة، فقد كان من ميزات حافظ أنه يحسن إلقاء الشعر، ويتولى إلقاء شعره بنفسه فى حين أن شوقى كان يوكل إلقاء شعره إلى على الجارم

فى الأغلب الأعم وإلى توفيق دياب أحيانا ، ووجد شوقى من يرتب له أمور حياته اليومية ، أما حافظ فلم يكن منظما فى عمله ولا فى تدوين شعره ويلقى ما كتبه حيثما اتفق .

وقد تزوج حافظ بعد عودته من السودان من إحدى قريبات زوج خاله . ولكن لم تطق طبيعة حافظ المنطلقة قيود الزوجية ، وانتهى الأمر بالفرقة بين الزوجين بعد بضعة أشهر ، ولم يعد بعد هذه التجربة إلى الزواج أو التفكير فيه . أما شوقى فقد تزوج من فتاة ذكية وسكن بها فى حلوان ، ثم سكن فى «كرمة ابن هانئ» على النيل بالجيزة وأنجب «أمينة وحسين وعلى» ، وحسين هذا هو الذى ترك لنا كتابا بعنوان «أبى شوقى» صدر عن «مطبعة مصر عام ١٩٤٧م» .

وقيل فى التمييز بين الشاعرين العظيمين إن شوقى هو «شاعر الجامعة العثمانية» وأن حافظ هو «شاعر القومية المصرية» .

ومن الطريف أن «الدكتور طه حسين» فى كتابه «شوقى وحافظ» قال : «ليت حافظ لم يوظف قط . وليت شوقى لم يعرف الأمير قط» ، ومهما يكن من أمر فقد بقى حافظ - رغم الوظيفة - شاعرا عربيا ينبض قلبه بحب مصر . وبقى شوقى - رغم الأمير - شاعرا عربيا قالت عنه الصحف البريطانية : «شاعر عربى كبير يقيم فى إسبانيا يحرض عرب مراكش على محاربة الحلفاء» .

ذكرى الشاعرين:

على الرغم من أن «الشوقيات» طبعت فى مكتبة «الآداب» لأول مرة عام ١٨٩٨م ، ثم قدر لها أن تطبع مرات أخرى بعد ذلك ، على الرغم من هذا أذكر حين كنا نعد للاحتفال بذكرى مرور خمسين عامًا على رحيل الشاعرين فى الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ونعيد طباعة ما صدر عنهما أن «المرحوم محمد قنديل البقلى» جاء ومعه ، إحدى مسرحيات شوقى الشعرية لم يكن الحديث يتردد عنها ، وقامت الهيئة بإصدار المسرحيات الشعرية وهى «عنترة ومجنون ليلى وقمبيز ومصرع كليوباترة وعلى بك الكبير والست هدى والبخيلة» ومعها فى مجلد واحد المسرحية النثرية الوحيدة «أميرة الأندلس» .

أما «حافظ» الذى قال عنه «أحمد أمين» وكان رئيسا للجنة التى أمر بتشكيلها وزير المعارف «على زكى العرابى» لجمع قصائد حافظ ونشرها قال عنه «أحمد أمين»:

«كان حافظ رحمه الله غير منظم فى عمله ولا حريصا على تدوين شعره فيكتبه فى ورقة حيثما اتفق ويلقيها أيضا حيثما اتفق فضاع كثير منه، ولولا فضل الصحف والمجلات فى نشره والاحتفاظ به لما بقى من شعره إلا القليل».

ولما توفى حافظ جمع الأديب الدمشقى السيد أحمد عبيد طائفة من شعره لم تنشر فى ديوانه ونشرها بدمشق، وكذلك فعل مع شوقى وجمع ما نشر فى رثائهما وبعض ما كتب عنهما وسمى كتابه «ذكرى الشاعرين». أما الطبعة الثانية التى صدرت عن «هيئة الكتاب» عام ١٩٨٠، فقد تولى أحد أقرباء حافظ متابعتها بحرص ومتابعة وهو «محمد إسماعيل كانى».

وفى خاتمة هذه الدراسة ليس أجمل وأدق من كلمات الدكتور طه حسين: «كلا الشاعرين قد رفع لمصر مجدا بعيدا فى السماء، وكلا الشاعرين قد غذى قلب الشرق نصف قرن أو ما يقرب من نصف قرن بأحسن الغذاء.. هما أشعر أهل الشرق منذ مات المتنبى وأبو العلاء».. رحم الله الشاعرين الكبيرين والتحية لأصحاب مكتبة الآداب، والدكتور محمد حسين هيكل، وعلى زكى العرابى وأحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الإبيارى ومحمد إسماعيل كانى، والدكتور عز الدين إسماعيل والشاعر سعد درويش ومحمد قنديل البقلى وكل من أسهم فى حفظ ونشر أشعار أهل الشرق بعد المتنبى وأبى العلاء.

الأسانيد:

١ـ د. أحمد أمين: مقدمة ديوان حافظ.

٢ـ د. أحمد الحوفى: وطنية شوقى.

٣ـ د. سعد الهجرسى: حافظ وشوقى فى خمسين عامًا.

٤ـ فصول «مجلة»: شوقى وحافظ «جزءان».

٥ـ د. ماهر حسن فهمى: أحمد شوقى.

أحمد عرابى



ملحمة مصرية وطنية عرفت الانتصار والانكسار، وعرفها المصريون بالتعظيم والتأثيم بطلها خرج من بين الفلاحين المصريين. . عاشتها مصر بين الرجاء والإحباط . . شريط طويل يبدأ من ١٥ يناير عام ١٨٨١م بعريضة قدمها أحمد عرابى إلى رئيس النظار (رئيس الوزراء) يطلب فيها عزل ناظر الجهادية عثمان رفقى وتشكيل مجلس نواب. وينتهى الشريط ـ فى تقديرنا ـ فى يوم ٣ أكتوبر ١٩٠١م اليوم الذى أدلى فيه أحمد عرابى بحديث إلى جريدة المقطم الاحتلالية يعتذر فيه عن الثورة، ويتحدث عن الإنجليزية بالمحاسنة والملاينة. مروراً بأحداث جسام من يوم عابدين المجيد ٩ سبتمبر عام ١٨٨١، وصيحة عرابى لقد خلقنا الله أحراراً ولم يخلقنا تراثا ولا عقارا، فوالله الذى لا إله إلا هو سوف لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم. ومرورا بيوم الثلاثاء الحزين ١١ يوليو عام ١٨٨٢ وضرب الإنجليز للإسكندرية، ويوم ١٥ سبتمبر عام ١٨٨٢م، ودخول الإنجليز القاهرة والقبض على عرابى والعرابيين. الأحداث مهمة وكثيرة، وسوف نعرض لها بالتصوير البطىء مع مسيرة أحمد عرابى.

فى ٣١ مارس عام ١٨٤١م ولد أحمد عرابى فى قرية (هرية رزنة) شرقى الزقازيق مديرية الشرقية. والده فلاح شيخ البلد. . ظفر بدروس فى مبادئ الحساب والقراءة على يد ميخائيل أفندى غطاس. . صراف البلدة. . فى الثامنة من عمره أرسله أبوه إلى الجامع الأزهر ليحصل على شىء من اللغة والفقه والتفسير. وفى عام ١٨٥٤م أصدر سعيد باشا قراراً بتجنيد أولاد المشايخ فى جيش الخديو، فتم

تجنيد أحمد عرابى وعين بدرجة بلوك أمين. ورقى إلى ملازم ثان فى ٢٥ نوفمبر عام ١٨٥٨ م، وإلى ملازم أول فى ٢٣ فبراير عام ١٨٥٩، وإلى يوزباشى فى ١٨ أبريل عام ١٨٥٩م، وإلى رتبة صاغ فى ١٧ ديسمبر عام ١٨٥٩م، وإلى رتبة المقدم عام ١٨٦٠م، والقائمقام (عقيد) عام ١٨٦١م، ثم رتبة أميرالاى (عميد) فى يونيو عام ١٨٧٩م. ثم رتبة اللواء عام ١٨٨٢م. ثم صدر الأمر بتعيينه وكيلا لوزارة الحربية فى ٤ يناير عام ١٨٨٢م. وفى فبراير عام ١٨٨٢م اختير أحمد عرابى ناظرا «وزيرا» للحربية فى وزارة محمود سامى البارودى باشا.

هل أصف لكم فلاح الشرقية الذى أصبح ناظرًا للجهادية.. يصفه لنا ويلفريد بلنت محامى أحمد عرابى والمتعاطف معه يقول: «نموذج للقائد الفلاحى، طويل، عريض المنكبين، بطىء الحركة نوعا ما، يشبه فى مشيته مشايخ البلد.. فلاح من طبقة الفلاحين هو جزء من الفلاحين»، ويقول بلنت أيضًا: «كان إيمان عرابى بالفلاح هو الشىء الأساسى الذى يميزه عن بقية المنادين بالإصلاح فى عمره..».

إيه زميللى هرف مر:

فى ١٥ يناير عام ١٨٨١م اجتمع عدد من الضباط فى منزل أحمد عرابى منهم عبد العال حلمى، وعلى فهمى، وألفى أفندى يوسف وأحمد عبد الغفار، واتفقوا على أن يتحدث أحمد عرابى باسمهم وأقسموا على فداء الوطن بأرواحهم. وكتبوا عريضة إلى رئيس النظار «رئيس الوزراء» يشكون ناظر الجهادية عثمان رفقى لانحيازه لبنى جنسه وإجحافه بحقوق الوطنيين. وطالبوا بعزل ناظر الجهادية وتأليف مجلس نواب وزيادة عدد الجيش إلى ١٨ ألف جندى، وتعديل القوانين العسكرية وإلغاء السخرة.. ووقع العريضة أحمد عرابى وعلى فهمى وعبد العال حلمى وقدموا العريضة لرياض باشا رئيس النظار.

وفى ٣١ يناير عام ١٨٨١ عقد بقصر عابدين اجتماع برياسة الخديو توفيق، وتقرر إيقاف أمراء الآلايات الثلاثة الذين وقعوا العريضة ومحاكمتهم أمام مجلس فوق العادة، وفى مساء اليوم نفسه حاول عثمان رفقى ناظر الجهادية أن يخدعهم فأرسل إليهم يدعوهم الحضور فى صباح اليوم التالى أول فبراير عام ١٨٨١م

للاحتفال بزفاف جميلة هانم شقيقة الخديو، وذلك فى مبانى قصر النيل، وبالمناسبة هذه المبانى تحولت إلى معسكرات كانت إلى أيامنا بالجامعة فى الأربعينيات هدفا لمظاهرات طلاب الجامعة للمطالبة بجلاء الإنجليز، وهذه المعسكرات مكانها الآن فندق هيلتون النيل ومقر الجامعة العربية، المهم أن الثلاثة أدركوا أن هذا فخ فكلفوا القوات الموالية لهم أنهم لو تأخروا داخل قصر النيل أكثر من ساعتين عليهم اقتحام المعسكر وإطلاق سراحهم. ومن الطريف أنهم بعد أن دخلوا ثكنات قصر النيل مر عليهم خسرو باشا كبير الجراكسة وتوقف أمام عرابى وزميليه وقال ساخرا: «إيه زميللى هرف مر»، وهى عبارة تركية ومعناها: فلاحين شغالين بالمقاطف. وأدركوا أنهم وقعوا فى الفخ، وتحركت قواتهم الموالية لهم وأخرجتهم من الاعتقال. وهنا تحددت الأمور والمواقف فتحركت هذه القوات وعلى رأسها أحمد عرابى وزملاؤه إلى قصر عابدين، وطالبوا بعزل عثمان رفقى ناظر الجهادية وأذعن الخديو توفيق للمطالب وعزل عثمان رفقى، وعين محمود سامى البارودى بدلا منه. كان هذا فى أول فبراير عام ١٨٨١م، وتحدد بذلك طريق عرابى والجيش وطريق الخديو توفيق أيضًا.

يوم عابدين:

أصبح أحمد عرابى والخديو توفيق كالقط والفأر لا يأمن أحدهما للآخر. وحدد أحمد عرابى موعد التحرك.. الساعة الرابعة بعد ظهر يوم الجمعة ٩ سبتمبر عام ١٨٨١.. وتوافدت قوات الجيش على ميدان عابدين والآلايات بقيادة أحمد عرابى، وأحمد عبد الغفار وإسماعيل صبرى وعلى فهمى وأحمد صادق وفودة حسن وعبد العال حلمى، وإبراهيم فوزى، وازدحم الميدان بجماهير الوطنيين والأجانب. ونزل الخديو توفيق إلى الميدان وطلب أحمد عرابى متوجها إليه وسيفه فى يده وخلفه ثلاثون ضابطا.. ودار الحوار التاريخى:

الخديو: ما أسباب حضورك بالجيش إلى هنا؟

عرابى: جئنا يا مولاى نعرض عليك طلبات الجيش والأمة وكلها طلبات عادلة.

ـ وما هذه الطلبات؟

ـ إسقاط الوزارة المستبدة وتأليف مجلس نواب على النسق الأوروبى وإبلاغ عدد الجيش على العدد المعين فى الفرمانات والتصديق على القوانين العسكرية التى أمرتم بوضعها.

ـ كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائى وأجدادى.. وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا.

ـ لقد خلقنا الله أحرارا ولم يخلقنا تراثا وعقارا.. فوالله الذى لا إله إلا هو سوف لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم.

وعاد الخديو توفيق لسراى عابدين، ولكن المطالب أجيبت وأسقطت الوزارة.. وفى ٤ أكتوبر عام ١٨٨١. صدر أمر الخديو بانتخاب مجلس النواب.. وتم افتتاح المجلس فى ٢٦ ديسمبر عام ١٨٨١م. وأقال الخديو وزارة رياض.. وتمت حركة توقيعات من الفلاحين تطالب بالدستور. وتأكدت زعامة عرابى للأمة.. وبين جموع الفلاحين فى الشرقية أعلن عرابى برنامج الثورة: إلغاء السخرة، وإلغاء احتكار الباشوات لمياه النيل، وحماية الفلاحين من المرابين الأجانب، إنها إذن ثورة الفلاحين. ويوم ٦ أكتوبر عام ١٨٨١م توقف القطار على محطة الزقازيق.. وقال عرابى للفلاحين الذين تجمعوا فى المحطة: أنا أخوكم فى الوطنية.. اسمى أحمد عرابى.. ولدت فى قرية رزنة من بلاد الشرقية هذه.

الحرب الباردة:

بعد يوم عابدين دخلت الأطراف المختلفة أحمد عرابى والخديو توفيق والإنجليز والقوى الموالية لعرابى والقوى المعادية لعرابى، دخلت فيما يمكن أن نسميه بمرحلة الحرب الباردة، كل طرف يحشد قواته ويهيئ نفسه للمعركة الفاصلة المكشوفة التى سالت فيها الدماء.. فى ١٩ مايو عام ١٨٨٢م بدأت إنجلترا تحشد أسطولها فى البحر الأبيض المتوسط، وبدأت السفن الحربية الإنجليزية تقترب من شواطئ الإسكندرية.

وفى ٢٥ مايو عام ١٨٨٢م تقدمت إنجلترا وفرنسا بإنذار لنظارة محمود سامى البارودى ونسخة من الإنذار للخديو توفيق (يعنى قال)! تطلبان استقالة الوزارة وخروج أحمد عرابى من القطر! وتحديد إقامة عبد العال حلمى وعلى فهمى فى الريف، وتخفيض عدد الجيش وبادر توفيق بقبول الإنذار، واجتمع مجلس النظار فى منزل محمود سامى البارودى ورفض الإنذار رفضا باتا. ويوم ٢٦ مايو قدم النظار استقالتهم احتجاجا على الإنذار وقبل الخديو الاستقالات. وأرسل ضباط الآلايات بالإسكندرية برقية إلى الخديو توفيق يتمسكون بعرابى ناظرا للجهادية وإن مضت ١٢ ساعة، ولم يعد عرابى إلى منصبه كناظر للجهادية كانوا غير مسئولين عما يحدث.. ووقعت البلاد فى اضطراب عظيم وحضر إلى العاصمة عدد كبير من أعيان البلاد ومستخدمى الحكومة. وقدموا العرائض لعرابى يطلبونه برفض الإنذار أو عزل الخديو، وفى ليلة السبت ٢٧ مايو ١٨٨٢ تم استدعاء أحمد عرابى لمنزل «محمد سلطان» الموالى للخديو والمعادى لعرابى.. وذهب عرابى وعلى فهمى وعبد العال حلمى ومحمد عبيد.. وكان المنزل غاصا بأعضاء مجلس النواب.. واتفقوا على أن يطلبوا من الخديو رفض الإنذار الثانى ورجوع أحمد عرابى إلى نظارة الجهادية أو يتم عزل الخديو.

وعند هذا الحد قدم الأدميرال سيمور قائد الأسطول الإنجليزى يوم ١٠ يوليو عام ١٨٨٢م وإنذار إلى طلبة باشا قومندان الإسكندرية بأنه فى اليوم التالى الثلاثاء ١١ يوليو عند شروق الشمس سوف يضرب الإسكندرية إذا لم يسلم للإنجليز البطاريات الموضوعة فى رأس التين.. ورفضت القوى الوطنية المصرية هذا الإنذار.

الثلاثاء الحزين:

وفى صباح يوم الثلاثاء الحزين ١١ يوليو عام ١٨٨٢م انطلقت القذائف من البحر تدك قلاع الإسكندرية ومبانيها.. وذكر الشيخ محمد عبده أن نحو مائة وخمسين ألفا من السكان وقعوا فريسة الموت والفزع، وانطلقوا إلى شط المحمودية وإلى دمنهور، ومن دمنهور إلى القاهرة.. كان هدف الإنجليز احتلال البلاد وهدف الخديو توفيق القضاء على أحمد عرابى وحركته.. ومنذ أن أطلقت البارجة

الكسندرة مدافعها فى الساعة السابعة والدقيقة الرابعة من صباح هذا الثلاثاء، وتتالى سقوط القنابل على الإسكندرية كان أحمد عرابى فى طابية «كوم الدكة» بوسط المدينة يقاوم ويصدر أوامره بالمقاومة . . وكانت خطة الإنجليز والخديو أن يقطعوا الطريق على عرابى ويأسروه فى الإسكندرية .

وقرر أحمد عرابى وأركان حربه أن يذهبوا إلى كفر الدوار ليقطعوا الطريق على قوات الإنجليز من احتلال البلاد. وكانت شهوة الإنجليز وتوفيق قد بلغت مداها وأرادوا دفن عرابى والموالين له فى الإسكندرية وتشويه سمعتهم أمام الناس فى مصر والخارج وفوجئ الجميع فى يوم الأربعاء ١٢ يوليو عام ١٨٨٢م التالى للثلاثاء الحزين باستمرار القنابل تتساقط على الإسكندرية فى كل اتجاه والحرائق قد اندلعت فى الإسكندرية وفوجئ الجميع بـ «سليمان سامى داود» قائد الآلاى السادس يزعم بأنه أمر بحرق الإسكندرية بتعليمات من أحمد عرابى وذلك للإجهاز على سمعة عرابى نهائيا، وفى التحقيقات التى جرت بعد هزيمة الثورة لم يستطع سليمان داود أن يقدم دليلا واحدا يثبت أن عرابى هو الذى كلفه بحرق الإسكندرية . . وكل الدلائل والأقوال الراجحة تشير إلى أن توفيق هو الذى أمر سليمان بهذا الحريق، وتشير أصابع الاتهام إلى الأجانب والبدو الموالين لتوفيق بإشعال نيران الحريق إلى أن تكشفت الحقيقة بعد الاحتلال بعام حين وقف اللورد تشرشل فى مجلس العموم عام ١٨٨٣م أنه قد تم شنق سليمان قبل أن يبوح بأسرار خطيرة تدين الخديو توفيق فى مسألة حرق الإسكندرية .

المقاومة والانتصار:

كانت خطة أحمد عرابى بعد ضرب الإسكندرية وإحراقها فى اتجاهين، الأول: التصدى لقوات الاحتلال الزاحفة . والثانى: تعرية توفيق وكشف خيانته أمام الأمة .

فى ١٦ يوليو عام١٨٨٢م بعد ضرب الإسكندرية وإحراقها بأربعة أيام أرسل أحمد عرابى خطابا خطيرا إلى يعقوب سامى باشا وكيل وزارة الحربية وهو من

أنصار عرابى وحركته يعلن فيه خيانة الخديو توفيق للبلاد، ويدعوه إلى عقد المجلس العرفى للنظر فى الأحوال.

فى اليوم نفسه اجتمع يعقوب سامى بعدد من وكلاء النظارات وكبار المواطنين والضباط.. وكان عدد الذين حضروا ٧٠ شخصا.. وقرر الحضور انعقاد اجتماع موسع من كبار العلماء والرؤساء الدينيين وأمراء العائلة الخديوية والأعيان.. وعقد هذا الاجتماع الموسع فى اليوم التالى الإثنين ١٧ يوليو، وحضره نحو ٤٠٠ شخص فى مقدمتهم الشيخ الإمبابى شيخ الإسلام والبطريرك كيرلس الخامس وقرروا ضرورة حضور الخديو توفيق إلى العاصمة القاهرة، وتشكيل لجنة برياسة على مبارك لإبلاغ هذا القرار للخديو، وذهب على مبارك ولم يعد للقاهرة، وكان رد الخديو هو أن اتخذ قرارا بعزل عرابى من نظارة الجهادية وأعلن هذا القرار فى ٢٢ يوليو.. وكان عرابى بين جنوده فى كفر الدوار ولم يعبأ بقرار الخديو، وطلب من يعقوب سامى عقد اجتماع آخر للمجلس العرفى فى ضوء رفض الخديو لقرار الاجتماع السابق.. وعقد الاجتماع الجديد وحضره نحو ٥٠٠ شخص.. وعرض فى الاجتماع فتوى شرعية من المشايخ حسن العدوى ومحمد عليش ومحمد الخلفاوى بأن الخديو توفيق بانحيازه إلى العدو يعد مارقا عن الدين.. ورفض الاجتماع قرار توفيق بعزل عرابى.

وعلى جبهة الخديو أصدر الأدميرال سيمور منشورا باسم الخديو يحث الناس على الهدوء - هكذا التحالف مع العدو على المكشوف - وصدر بيان فى ١٧ يوليو بأن تجهيزات الحرب مسئولية عرابى والخديو غير مسئول عن تصرفات عرابى.. وعرف الناس أن المراقبين الماليين الإنجليز أخذوا الأموال الموجودة فى صندوق الدين إلى المراكب الحربية.

الوضع الآن.. الأمة مع عرابى وانحياز الخديو إلى العدو على المكشوف.. وقد ثبت عرابى والجيش المصرى خمسة أسابيع كاملة فى كفر الدوار يصدون كل هجمات الإنجليز.. حامية أبى قير لم تمكن قوات الاحتلال من دخول المنطقة، وذلك فى ٥ أغسطس، وفى ١٧ أغسطس هزم المصريون الإنجليز فى موقعة عزبة خورشيد، وفى ١٩ أغسطس أجبر المصريون فى كفر الدوار الإنجليز على الارتداد

إلى الإسكندرية بعد معارك استمرت أربعة أيام . . ولم يبق أمام الإنجليز والخديو سوى الخديعة والخيانة!

الخيانة والانكسار:

كل أسلحة التضليل والخديعة والخيانة لجأ إليها الإنجليز وتوفيق لكسر شوكة أحمد عرابى ورجاله صدر منشور من السلطان عبد الحميد يعلن عصيان أحمد عرابى وأكد ديليسبس أن الإنجليز لن يهاجموه فى الجبهة الشرقية عن طريق قناة السويس لأن القناة محايدة! وانضم محمد سلطان باشا صراحة إلى الخديو توفيق ضد عرابى. يوسف خنفس وعدد من الضباط لا نذكر أسماءهم هنا مراعاة لأحفادهم الذين يحملون أسماءهم خانوا الوطن وخانوا قواتهم المسلحة وانضموا إلى جبهة الأعداء، والخديو توفيق تحول إلى غطاء لجيش الاحتلال الإنجليزى. واحتل الإنجليز بورسعيد. وفى ٢١ أغسطس وصلت القوات الهندية إلى السويس وفى ٢٥ أغسطس سقطت المسخوطة . . ودخل الإنجليز . . القصاصين فى ٢٦ أغسطس . . وكانت معركة القصاصين الثانية فى ٥ سبتمبر . . وفى مساء يوم ١٢ سبتمبر زحف الإنجليز وكل أسلحة الخديعة تحالفت ضد عرابى، وسقطت التل الكبير.

وعاد أحمد عرابى إلى القاهرة ليدافع عنها، وفى اليوم نفسه ١٥ سبتمبر عام١٨٨٢م دخل القائد الإنجليزى القاهرة منتصرا وعقد ما يسمى بالمجلس العرفى الذى قرر رفع عريضة الاستسلام إلى الخديو توفيق . . وطلب المجلس من عبد الله النديم كتابة هذه العريضة . . كتبها عبد الله النديم ولم يعتذر عن الثورة وألقى بالمسئولية كلها على الإنجليز وتوفيق . . اعتذر المجلس العرفى عن عدم رفع العريضة بصياغة النديم إلى الخديو . . وكلف بطرس غالى بصياغة عريضة جديدة وكتبها وفيها كثير من المحاسنة والملاينة . . وتلك هى العريضة التى رفعت للخديو توفيق.

***

بقى أن نقول للتاريخ إن اثنين رفضا الاعتذار عن الثورة، على الروبى الذى

قبض عليه وتقرر نفيه إلى السودان، حيث مات هناك وعبد الله النديم الذى ظل يكافح بما سمحت له ظروف الاختفاء لأكثر من تسع سنوات. . ولسنا فى حاجة إلى القول بأنه قبض على أحمد عرابى وعلى العرابيين وعلى ثلاثين ألفا من المصريين الوطنيين.

وفى الساعة الواحدة بعد ظهر يوم ٢٨ ديسمبر عام ١٨٨٢ غادرت الباخرة مريوط ميناء السويس تحمل أحمد عرابى إلى جزيرة سيلان، حيث قضى أكثر من ١٩ عاما فى المنفى. . وعاد أحمد عرابى إلى مصر فى ٣٠ سبتمبر عام ١٩٠١م ليقيم مع أولاده بعمارة البابلى بشارع الملك الناصر المتفرع من شارع خيرت حى السيدة. . وفى ٣ أكتوبر عام ١٩٠١ صدرت جريدة المقطم الاحتلالية، وبها حديث مع عرابى يلقى فيه سيفه ويعتذر عن الثورة. . ووافاه أجله فى ٢٢ سبتمبر عام ١٩١١م.

الأسانيد:

١ ـ أحمد عرابى. . مذكرات.

٢ ـ صلاح عبد الصبور. . قصة الضمير المصرى الحديث.

٣ ـ عادل أحمد سركيس. . الخيانة هزمت عرابى.

٤ ـ محمود الخفيف. . عرابى الزعيم المفترى عليه.

٥ ـ يحيى أحمد. . أسماء لها بريق أخضر.



الشيخ أمين الخولى

فى أكتوبر عام ١٩٤٦م حضرت من الصعيد والتحقت بقسم الفلسفة ـ كلية الآداب ـ جامعة فؤاد الأول، وكنت أراه عن قرب بزيه الأزهرى المميز، ووقاره المهيب، وبريق عينيه وملامحه المتفردة . . «الشيخ أمين الخولى» يحف به فى أغلب الأوقات عدد من تلاميذه شبه مبهورين يتجاذبون الحوار السريع معه . . وغالبا ما كانوا من أبناء دفعتنا أو ما بعدها . . عبد الرحمن فهمى وفاروق خورشيد وعز الدين إسماعيل وأحمد كمال زكى وصلاح عبد الصبور وآمال فهمى . . تلاميذه فى قسم اللغة العربية . .

كان يرى أن (الزى الأزهرى) ليس مظهرا خارجيا ولكنه جزء لا يتجزأ من شخصية الإنسان وسلوكه. وقضيت فترة دراستى بكلية الآداب من عام ١٩٤٦ حتى عام ١٩٥٠ أنتهز لقاءات سريعة ومحدودة بحكم أنه أستاذ مرب أكثر منه معلم، وبحكم رئاسته للقسم ووكالته للكلية والقيام بأعمال العميد لفترات قصيرة، يدفعنى إلى هذه اللقاءات ما كان لى من نشاط بالجامعة . . أشارك فى انتخابات اتحاد الكلية واختيارى سكرتيرا لاتحاد كلية الآداب وما يتطلبه هذا الوضع من مقابلات سريعة للعميد والوكيل ورؤساء الأقسام للرجاء فى حل مشكلات لبعض الطلاب. إلى جانب هذا نشاط سياسى وطنى فى مظاهرات تنادى بسقوط الملكية والمطالبة بالجمهورية وبالجلاء وبالعدل الاجتماعى والمشاركة فى وريقات نصدرها نحن الطلاب من حر مالنا مما جعلنى فى فترات كثيرة ممنوعا من دخول الجامعة من جانب الحصار أو الأمن ومبعدا رسميا بحكم من مجلس تأديب ونزيلا

على سجن مصر وسجن الأجانب مما قرب اسمى وشخصى إلى إدارة الكلية عميدا ووكيلا وأساتذة، مما وضعنى فى دائرة الضوء عنده بقدر ما . . طالبا وطنيا معاديا للاحتلال وديمقراطيا معاديا للقصر والأحزاب والجماعات المعادية للوفد ولمصطفى النحاس، وحريصا على وحدة الشعب وعلى حقه فى العدل الاجتماعى. وتكونت فكرتى عنه. . مصرى أصيل يرى وحدة التاريخ المصرى ووحدة الشعب العظيم وابن بار لثورة ١٩١٩ . يضعه بعض مريديه فى صف جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده.

أمين إبراهيم عبد الباقى عامر إسماعيل يوسف الخولى ابن المزارع المصرى «إبراهيم الخولى» وابن السيدة المصرية «فاطمة بنت الشيخ على عامر الخولى» من عائلة «الخولى» أبا وأما من «قرية شوشاى - مركز أشمون - محافظة المنوفية» - كان «أمين» طالبا بمدرسة القضاء الشرعى وقريبا من قلب وعقل ناظرها «عاطف بركات» ابن شقيقة زعيم الأمة «سعد زغلول».

اعتقل مع «سعد باشا» فى ٨ مارس عام ١٩١٩م فى سيشل واشتعلت الثورة بداية من يوم ٩ مارس عام ١٩١٩م، حمل «أمين الخولى» علم مدرسة القضاء الشرعى، وقاد المظاهرة إلى (الأزهر)، حيث تقرر أن يتجمع طلاب مدارس القاهرة. وحاصرهم حكمدار القاهرة بجنوده وهددهم بإطلاق الرصاص إذا لم يتفرقوا. وتقدم إليه «الخولى» قابضا على العلم وكاشفا صدره قائلا (ها أنا ذا) وتماسك الطلاب وتراجع الحكمدار وانسحب الجنود وسارت المظاهرة تهتف للاستقلال وبحياة سعد، وتطالب بالإفراج عن زعيم الأمة، وعندما وصلت المظاهرة إلى ميدان باب الحديد (رمسيس حاليا) قاد «الخولى» المظاهرة إلى حى (الفجالة)، وهو يهتف بصوته القوى بحياة الأقباط . . الإخوة فى الوطن . . وبحياة الهلال مع الصليب. كان «أمين الخولى» وظل يرى: (أن الشخصية المصرية عقيدة يخفق بها قلب المصرى، ويرى أن ما بين مسلمى مصر وأقباطها أقرب مما بينهم وبين المسلمين الأتراك). وقتل الإنجليز صبيا صغيرا لأب فقير يبيع القباقيب. . حملت المظاهرة جثمان الصبى واندفع «الخولى» يهتف (فلتسقط بريطانيا السفلى!)، وعندما ولد «فاروق» عام ١٩٢٠ ومنحت المدارس إجازة للاحتفال بهذه المناسبة

حرض «الخولى» طلاب المدرسة ألا يشاركوا فى الإجازة. وأن يحضروا إلى المدرسة مشاركة فى الهمس العام الذى كان يحيط بظروف مولد «فاروق».

كان «أمين الخولى» ابن قرية (شوشاى) وابن (مدرسة) القضاء الشرعى مصريا أصيلا معاديا للاحتلال الإنجليزى مطالبا باستقلال الوطن ومؤمنا بوحدة الشعب العظيم، وابنا بارا للثورة الشعبية الكبرى ١٩١٩. ووقف فى صف الديمقراطية فرأى عسكر ٢٣ يوليو أن يبعدوا «الخولى» عن الجامعة فصدر قرار فى ١٢ يونيو عام ١٩٥٣م بأن ينقل «أمين الخولى» إلى دار الكتب مستشارا ـ لا يستشار ـ ثم مديرا عاما لإدارة الثقافة التابعة لوزارة التربية والتعليم إلى أن أتم الخدمة الحكومية فى أول مايو عام ١٩٥٥م (ولد عام ١٨٩٥م).

ويبقى الأستاذ:

عاطف بركات ابن شقيقة زعيم الأمة «سعد زغلول» وناظر مدرسة (القضاء الشرعى)، والذى تخرج على يديه «أمين الخولى وأحمد أمين وعبد الوهاب عزام وأحمد فرج السنهورى وعبد الحميد العبادى» كان هذا الناظر الوطنى (نفى إلى سيشل عام ١٩٢١ مع سعد زغلول ومصطفى النحاس وسنيوت حنا وفتح الله بركات ومكرم عبيد) يغرس فى نفوس تلاميذه أن يبحثوا عن أنفسهم فى جذورهم العميقة بأرض مصر، ويثير فيهم روح الجدل والحوار ولا يهتم بأن يقولوا له نعم أو آمين، وكان ينمى فيهم الشخصية القويمة والرأى المستقل. ونشأ تلميذه «أمين الخولى» فيما بعد هذه الصفات حتى قيل عنه (الثائر الأول بين الأساتذة والتلاميذ على السواء). لم يكن مجرد محاضر أو مدرس وإنما كان «أستاذا» بكل ما تحمله الكلمة من معان. لم يكن يهتم بتدوين المحاضرات وتلقين المعلومات قدر ما يهتم بتربية النفوس والضمائر وبناء القيم. كتب عنه تلميذه الشاعر «صلاح عبدالصبور»: «كان أكثر ما يؤلمه أثناء الدرس أن يجد طلابه يسلمون برأيه، لا يجادله أحد فيهم، عندئذ تنقطع الدائرة وتخبو النار. أما إذا ارتقت العقول، واصطرع الرأى بالحجة، عندئذ ينفرج وجه الخولى المقطب، ويشتد لمعان عينيه، وتفيض الفتوة العقلية والذهنية من مكامنها وتتألق الحكمة».

وقال عنه «الدكتور لويس عوض» : (كل من جلس بين يديه يتلقى العلم عليه ارتبط به ارتباط المسحور بالساحر . . من عرفه لا يمكن أن ينساه) . كان أمين الخولى يؤمن إيمانا عميقا بالشباب ، ويؤمن أنهم أصحاب الغد ، فدعاهم إلى إيجاد القادة الصادقين . وعاش يفكر فى الغد لا فى الأمس . . يدفع أبناءه ومريديه إلى العيش فى المستقبل برأيهم لا برأى يملى عليهم أو يستوردونه من بلد آخر . . كان من أجهر الدعاة إلى الحرية الفكرية . . ويرى الحرية وسيلة الحياة الكريمة .

لقد أخذ منهاجه فى أستاذيته عن «عاطف بركات» من المحدثين وعن «الإمام الشافعى» من المجددين القدامى . وكان الأساس النظرى عنده فى الرأى والرأى الآخر : (أن الاختلاف فى الآراء والتقاتل على المبادئ من نواميس الحياة على الأرض ، وليس ظاهرة تحلل ولا إشارة فساد) ، وكان يؤمن بوحدة أصل البشرية ، وبوحدة المصير الإنسانى ، فلا يصح تداعى بعض الناس فى مختلف الأعصر بأفضلية وتميز ، وأجمل زميله وصديقه «أبو الفرج السنهورى» صفاته التى تميز بها هذا الأستاذ : (جبار العقل ، عميق الفكر ، حلو المنطق ، قوى الحجة ، رصين الكلام ، غزير العلم فى أدب عظيم) .

رسالة الأزهر:

كان الأزهر موجودا عنده فى ثقافته وزيه . وفى (بروكسل) انعقد (مؤتمر تاريخ الأديان الدولى) من ١٦ ـ ٢٠ سبتمبر عام ١٩٢٥ ، فبعث الأزهر مندوبين يمثلانه هما الشيخ مصطفى عبد الرازق والشيخ أمين الخولى . . وعام ١٩٣٤ أصدر محاضراته عن (الفلسفة وتاريخها) وأهداها إلى (روح الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده) ، وفى عام ١٩٣٥م قدم لطلابه بكلية أصول الدين (تاريخ الملل والنحل) وتوطدت صلته بالأزهر بهذه الدراسة ، وأعلنت الحكومة فى عام ١٩٣٦م عن مسابقة بين المفكرين والكتاب فى موضوعات منها (رسالة الأزهر فى القرن العشرين) واختير عضوا فى لجنة التحكيم وقال هو مداعبا . . (لماذا فى القرن العشرين الميلادى وليس الرابع عشر الهجرى ولا العاشر القمرى من حياة الأزهر!؟) وشدته أهمية الموضوع إلى أن يدلى بدلوه فيه . وأفسحت له (جريدة المصرى) صفحاتها على مدى ثلاثة

أشهر يشرح فيها رسالة الأزهر الاجتماعية، وبين العلاقة بين الدين والحياة وأوضح أن رسالة الأزهر من حيث هو مركز ديني هي. . حماية الدين ومحاوره الاجتماعية، وأن يمكن الإنسانية من أن تسعد بأثره في الحياة، ويكون ذلك بالتدبير المحكم في التعريف بالدين ونشر الإسلام على أيدي رجال لهم الصفة الدينية المتميزة. ورسالته من حيث هو بيئة اجتماعية. وهي أن يحمي الروح القومية لمصر والشرق الإسلامي حماية عاقلة متبصرة متدينة. وعن رسالته العلمية تحدث عن إعداد معلمي الإسلام الواعظين به الناشرين له، وأن تكون دراسته العلمية مرجعا للشرق كله والغرب كله. وحرص على ربط حاضر الأزهر بماضيه. ويشرح التدين الإسلامي المرجو بأنه تدين إنساني القلب نبيل العاطفة، يؤيد التعاون البشري، ولا يعوق الإخاء الإنساني.

المجددون في الإسلام:

في ٧ نوفمبر عام ١٩٢٣م عين إماما للسفارة المصرية في روما، وأبحر من الإسكندرية في ١٤ ديسمبر، وتعلم اللغة الإيطالية حتى أجادها. وفي يناير عام ١٩٢٦م نقل من روما إلى مفوضية مصر في برلين وأتقن اللغة الألمانية. وعاد إلى مصر عام ١٩٢٧ حيث تسلم وظيفته في القضاء الشرعي في ١٩ مارس عام ١٩٢٧م. وفي إيطاليا وألمانيا عكف على دراسة الفكر الديني الأوروبي، وتوصل إلى أن سر عالمية الإسلام تكمن في صلاحيته لكل زمان ومكان وأنه يحمل عناصر التجدد والتطور على أساس التطلع إلى مثالية سامية. ودعا إلى جعل الاجتهاد أساسا للحياة الإسلامية، وإلى التسامح الديني الرحب، وإلى حرية الاعتقاد وحق الفهم الصحيح للدين. وفهم الدين على أنه إصلاح للحياة لا مجرد طقوس وإجراءات. وإيمانا منه بالحديث الشريف: «إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة لهذه الأمة من يجدد لها دينها. . » - أو هذا ما معناه -، لجأ الخولي إلى فهم القدماء للتجديد واهتم بما قدموه للحياة الدينية من حقائق كالتطور الديني والتسامح الديني وحرية الاعتقاد وإصلاح الحياة والشعور بالوحدة الاجتماعية وسعة الأفق وإجلال العلم. وأصدر كتابه المهم (المجددون في الإسلام) أصدر منه الجزء الأول ووعد

بالجزء الثانى الذى يبدأ من (الإمام أبو حامد الغزالى)، ولكن الخولى ترك دنيانا عام ١٩٦٦م ولم يقدر للجزء الثانى أن يصدر. وقدم «الخولى» ترجمة لعدد من المجددين القدامى.. «عمر بن عبد العزيز» والإمام الشافعى وابن سيرج.. وأبو سهيل الصعلوكى والباقلانى وأبو الحسن الأشعرى وفى هذا العمل المهم أشاد بالإمام الشافعى ومنهاجه فى حفز إخلاص أبنائه الذين يشعرون بأبوته المعنوية.

وبعد أن عرض «الشيخ الخولى» لثبت المجددين الذين ترجم لهم بين دور مصر (المتجددة بجهاد شبابها) فى ذلك وأسهمت فيه بالنصيب الأكبر على سعة البلاد الإسلامية، وعندما اشترك مع نخبة متميزة من الكتاب والمفكرين فى تأليف (تاريخ الحضارة المصرية) الذى أصدرته فى أجزاء متفرقة (المؤسسة المصرية العامة للتأليف) أعد «أمين الخولى» البحث الخاص (الحياة الدينية فى مصر الإسلامية من ظهور الإسلام إلى مطلع العصر الحديث).. والمصريون - كما قال هيرودوت - أشد البشر تدينا، ولا يعرف شعب بلغ من التقوى درجتهم فيها وصورهم بجملتهم تمثل المصريين يصلون أمام الآلهة، وكتبهم على الجملة أسفار عبادة وتنسك.

إخوان الصفا:

عندما اشتعلت ثورة ١٩١٩م تولت (جمعية إخوان الصفا) التى تكونت فى مدرسة القضاء الشرعى، تولت تنظيم الطلاب وتحريكهم للاشتراك فى المظاهرات الوطنية، وتكونت الجمعية من «أمين الخولى» وعدد من زملائه وقد عرف «الخولى» أسلوب (الجمعيات) فى التعبير عن مشاعره الوطنية، أو دعواه إلى الإصلاح الاجتماعى. واشتغل أعضاء (جمعية إخوان الصفا) بالأدب والفن وتعلم اللغات الأجنبية - بمدرسة فرنسية بباب اللوق. واعتاد أعضاؤها أن يلتقوا فى بيت أحدهم مرة فى الأسبوع وتمتد أحاديثهم من الظهيرة إلى المساء. وفى بداية الثلاثينيات أعلن «سلامة موسى» عن تأسيس (جمعية المصرى للمصرى) تدعو إلى تشجيع البضائع المصرية ومقاطعة البضائع الأجنبية وانضم إليها «أمين الخولى»، ويقول «الأستاذ الخولى» إنه تعرف إلى «الشيخ حسن البنا» ولكنه لم يشترك فى (جماعة الإخوان

المسلمين) لأنه يريد الاستقلال الفكرى وإن كان قد اشترك فى (جمعية الشبان المسلمين)، وذلك لإحياء الرابطة بين الشعوب الإسلامية.

وعام ١٩٤٤ تأسست (جماعة الأمناء) والتى دعمها تلاميذه الذين تخرجوا من قسم اللغة العربية فى الخمسينيات. أصبحت تعنى بالفن والحياة عندما ثارت معركة (الفن للحياة) التى قال بها «الدكتور محمد مندور» أو (الفن للفن) التى قال بها «الدكتور رشاد رشدى» المهم أن جماعة الأمناء ظلت نشيطة حتى رحل «الأمين الأول - أمين الخولى» فى الساعة الثالثة بعد ظهر الأربعاء التاسع من مارس عام ١٩٦٦، وعاد جسده إلى قريته (شوشاى)، وتولى الإشراف على (الجماعة) تلميذه النجيب «د. شكرى محمد عياد». وكان «أمين الخولى» يؤمن أن الريف هو مصر، فسعى إلى الدعوة لمعالجة مشكلات الريف فأسس عام ١٩٤٥م (جماعة حياة القرية) فى قريته (شوشاى).

قلمه من شخصيته:

إذا كانت خطوات «الشيخ الخولى» شابة تحمل معنى القوة والعزم والثبات، وإذا كان صوته جهوريا يصدم صداه جدار الغرفة، وإذا كان منهجه مع تلاميذه تميز بالصرامة فإن قلمه فى الصحف التى كتب فيها تميز باستقامة المنطق وسلامة التفكير والتعبير. كتب فى مجلة (القضاء الشرعى) ورأس تحريرها وكتب فى مجلة (السفور) التى أصدرها «عبد الحميد حمدى» عام ١٩١٥م امتدادا لـ (الجريدة) التى توقفت فى ذلك العام، وظلت السفور تصدر حتى عام الثورة ١٩١٩م. وكتب فى مجلة (الرسالة) التى أصدرها ورأس تحريرها «أحمد حسن الزيات»، وكتب «الخولى» على صفحاتها مقاله الشهير فى أول فبراير عام ١٩٣٣م عن (التجديد فى الدين). وكتب فى السياسة الأسبوعية والبلاغ. قبل ثورة ١٩١٩ بأسبوعين كتب فى السفور يقول: إن الوجود الأجنبى أصاب بلادنا بتمزق نفسى واسع المدى، وأصيب الكثيرون بنزلات فكرية حادة.. وعلى أبناء هذه الأمة أن يتطلعوا إلى ماضيهم ليستروحوا ريح المجد ويستشرفوا شرف الكفاح، ويتخذوا من تاريخ

بطولاتهم سبيلا إلى غد أعز وأكرم. وسنة ١٩٥٦ أصدرت (جماعة الأمناء) مجلة (الأدب) التى ظلت تصدر لعشرة أعوام على نفقة «الشيخ أمين الخولى».

مجلة الأدب:

فى أبريل سنة ١٩٥٦ أصدر «الأستاذ أمين الخولى» مجلة (الأدب) مدرسة للفن والحياة على نفقته الخاصة ولتعيش عشر سنوات انتهت فى مارس عام ١٩٦٦ عام رحيل الأستاذ نفسه. وكان لى مع مجلة الأدب قصة يجمل أن تروى ظلت (جريدة الأهرام) تنشر تباعًا رواية (أولاد حارتنا) وأحاط بها لغط كثير ورأيت فيها تحديدا: (تحفة فنية خالدة ـ ليس فقط فى أدبنا العربى فحسب بل ستحتل مكانها عن جدارة فى آداب الشعوب كلها)، وكتبت مقالى بعنوان: (محفوظ.. ماذا صنعت بنا!) ولم تكن ظروفى السياسية تسمح لى وقت ذاك بحركة واسعة بين دور الصحف والمجلات. وأرسلت المقال إلى (أستاذنا الشيخ أمين الخولى) لعل اسمى لم يزل يعنى شيئا فى ذاكرته، ولعل مضمون المقال يجد من يجهر به وسط هذا الركام من اللغط حول الرواية وصاحبها. وفى شهر فبراير عام ١٩٦٠م كنت بعيدا عن القاهرة وفى إحدى مدن الصعيد وجدت المقال منشورا فى مجلة الأدب بكامل حروفه التى كتبته بها، وفى أكتوبر ١٩٨٨م حصل «الأديب المصرى الأصيل» على جائزة نوبل، وكانت رواية (أولاد حارتنا) فى صدارة المبررات لهذه الجائزة. وعام ١٩٨٩ صدر لصديقنا الدءوب الدكتور فاضل الأسود عمل كبير مهم فى ٧٥٠ صفحة عن نجيب محفوظ وأدبه بعنوان (الرجل والقمة). وتفضل «فاضل» ونشر فى صدارة المجلد (نبوءات) كانت أسبقها نبوءتى التى نشرتها لى مجلة الأدب (فى فبراير عام ١٩٦٠). وكلما رأيت هذا السفر (الرجل والقمة) ذكرت بالفخر «نجيب محفوظ» وبالتقدير «أمين الخولى» وبالامتنان «فاضل الأسود» الذى أشرف على جمع كل ما كتب عن أدب نجيب محفوظ وأولاد حارتنا.

الرحيـــل:

وبدأ «الشيخ أمين الخولى» مشوار حياته فى أول مايو عام ١٨٩٥ فى قرية

(شوشاى) مركز أشمون ـ محافظة المنوفية. فى القاهرة دخل مدرسة القيسونى ثم مدرسة المحروسة. حفظ القرآن وهو فى العاشرة من عمره. وتخرج من مدرسة القضاء الشرعى، وعين مدرسا بها فى ١٠ مايو عام ١٩٢٠. وعام ١٩٢٣ عين إماما للسفارة المصرية فى روما ونقل إلى مفوضية مصر فى برلين عام ١٩٢٦. وعاد عام ١٩٢٧ إلى وظيفته فى القضاء الشرعى. وانتقل إلى قسم اللغة العربية بكلية الآداب ١٩٢٨. وأصبح رئيسا لقسم اللغة العربية، ثم وكيلا لكلية الآداب ١٩٤٦م. وعام ١٩٥٣ مستشارا لدار الكتب، ثم مديرا عاما للثقافة حتى خرج إلى المعاش أول مايو ١٩٥٥. كتب فى عديد من الصحف والمجلات وأصدر العديد من الدراسات والأعمال الإبداعية وأسس جماعة الأمناء عام ١٩٤٤ ومجلة الأدب عام ١٩٥٦ عضو مجمع اللغة العربية عام ١٩٦٦. وفى الساعة الثالثة بعد ظهر الأربعاء التاسع من مارس عام ١٩٦٦ رحلت روحه عن دنيانا وعاد جسده إلى قريته شوشاى. وتقول الكاتبة الكبيرة تلميذته وزوجته الثالثة «د. بنت الشاطئ»: «على عينى اقتحم ناس غرباء مخدعه لتجهيز جسده للرحلة الأخيرة»، رحم الله الشيخ العظيم والكاتبة العظيمة.

الأسانيد:

أمين الخولى. . المجددون فى الإسلام.

د. بنت الشاطئ. . على الجسر.

د. حسين نصار. . أمين الخولى.

د. فاضل الأسود. . الرجل والقمة.

د. كامل سعفان. . أمين الخولى.

د. مهدى علام. . المجمعيون فى خمسين عاما.

أحمـــد كامـل مـرســى



منذ حوالى عشرة أيام كنت فى مقر جريدة الوفد لتسليم مقالى الأسبوعى من مشروع «هذا الرجل من مصر» ، وكان عن صاحب المنهج العلمى فى نهضة المسرح العربى «زكى طليمات» ، وكان اللقاء يضم الصديق المثقف «مختار السويفى» الغيور دائما على الحضارة المصرية القديمة ، والزميل الكبير الأستاذ عباس الطرابيلى رئيس التحرير ، وصاحب هذه السلسلة ، وبدأ التعليق بالصراع الرهيب الذى كان له تأثيره الخطير على المسرح المصرى والذى وقع بين «زكى طليمات» و«يوسف وهبى» ، وتذكرت أن المخرج الناقد المؤرخ «أحمد كامل مرسى» كثيرا ما تحدث فى ذكرياته وأوراقه عن ذلك الصراع ، وقلت : ليكن الموضوع القادم عن «أحمد كامل مرسى» سيما أننى كتبت من قبل عن «يوسف وهبى» وهأنذا أقدم اليوم الحلقة الخاصة بزكى طليمات .

وانسابت التعليقات حول أحمد كامل مرسى . «عباس الطرابيلى» يتذكر كيف ذهب مع زميلنا «حازم هاشم» إلى حيث تعرض مكتبة المخرج المؤرخ الناقد للبيع ، و«مختار السويفى» يتذكر اللقاء الشهرى فى بيت «أحمد كامل مرسى» ، ويحضره ومعه عبد القادر التلمسانى وفاروق شوشة وسمير فريد وفؤاد دوارة ، وعدد من الأصدقاء الفنانين والمثقفين ، وتذكر كاتب هذه السطور عندما كان يتأهب للسفر إلى باريس فى ١٦ مايو عام ١٩٨٦م لتمثيل مصر فى اجتماع لليونسكو خاص بحقوق الملكية الفكرية ، وكان فى زيارتى زميلنا وكيل وزارة الثقافة ، د. مجدى وهبة ومعه «أحمد كامل مرسى» ، وطلبا منى أن أقوم بجولة فى مكتبات باريس وأسجل أسماء

أحدث الإصدارات فى مجال السينما، وسوف يقوم بشرائها الدكتور «مجدى» عندما يذهب إلى باريس فى فترة تالية لرجوعى، وفهمت أنهما «أحمد كامل مرسى ود. مجدى وهبة» يعتزمان إصدار عمل مشترك عن الفن السينمائى، ووفقنى الله فى مهمتى، ولكن غالبية المكتبات الخاصة بالكتب السينمائية كانوا يسألوننى عن «شادى عبد السلام» الذى كان قد رحل قبل ذلك بفترة وجيزة، وحدثتهم فى باريس عن فيلمه الذى كان يزمع أن يخرجه عن «إخناتون» واختار له زميلنا الشاعر «أمل دنقل» شديد الشبه بإخناتون، ولكن أمل رحل عام ١٩٨٣، وشادى عبدالسلام، رحل عام ١٩٨٦م.

إبراهيم باشا فرج السكرتير العام للوفد الذى رحل عام ١٩٩٤ بادرت أسرته بالتبرع بمكتبته إلى إحدى المؤسسات العلمية، وهذا تصرف كريم إزاء الأزمة التى يعانى منها مثقفون كثيرون يخشون على مكتباتهم من البهدلة بعد وفاتهم، سمعت عن مكتبة الأديب الراحل «طاهر الطناحى» كيف بيعت وعرضت الكتب بما فيها الكتب المهداة من كبار الكتاب إلى المرحوم طاهر الطناحى، مأساة بما فى هذه الكلمة من معان، توفى المؤرخ المخرج والناقد «أحمد كامل مرسى» عام ١٩٨٧م. ولم يتزوج ولم يكن له ذرية وإنما كانت لديه مكتبة عامرة يحرص على تزويدها بكل ما هو جديد فى الثقافة بعامة وفى الفنون بخاصة، وشهد بذلك كل من اتصل به واقترب منه، وقد تعرضت مكتبة أحمد كامل مرسى بعد وفاته لمأساة حقيقية، كتب الناقد الصحفى «سمير فريد» يقول: عندما توفى المخرج والناقد أحمد كامل مرسى، نشرت أكثر من مرة أطالب وزارة الثقافة فى مصر بإنقاذ مكتبة الراحل الكبير من عبث العابثين.

وذات يوم بعد مرور عدة أشهر، قال صديقى المخرج رأفت الميهى إن مكتبة «أحمد كامل مرسى» تباع على «سور السيدة» فذهبت معه إلى هناك، وعند السور المقام فى قلب الميدان، وجدنا صفوف الكتب التى كنا نجتمع مع أحمد كامل مرسى وهى حولنا، وقال الشاب البائع «أنت فلان.. لقد وجدت أكثر من مائة كتاب مهداة منك. ومن الواضح أن صلة قوية كانت تربطك بالأستاذ الراحل، ولذلك أهديك هذه الأوراق».

وبعد وفاة «أحمد كامل مرسى» قال الناقد والباحث «أحمد الحضرى» فى ندوة جمعية نقاد السينما المصريين عن مكتبة وتراث أحمد كامل مرسى إن وكيل الورثة استدعاه إلى منزل الفقيد حيث وجد عشرات الصناديق الممتلئة بالأوراق والصور، وقام وكيل الورثة ببيع المكتبة وإخلاء الشقة.

وهكذا كانت مأساة مكتبة «المؤرخ السينمائى أحمد كامل مرسى» وقانا الله شر المآسى فى مكتباتنا.

أوراق الناقد المؤرخ:

ضاعت مكتبة أحمد كامل مرسى بين وكيل الورثة وبعض المشترين بأبخس الأثمان، وكانت مصادفة طريفة أن يقدم البائع أوراق أحمد كامل مرسى لناقد مثقف مثل «سمير فريد» الذى عكف على فحص مجموعة أوراق مختلفة الأحجام والأشكال عليها كتابات بخط الأستاذ الذى رحل.. أوراق صغيرة جدا وأخرى كبيرة جدا وأوراق من يوميات مكتب ويوميات سنوية، وأوراق مضطربة، وغير مؤرخة فى بعض الأحيان، والأرجح أن الاضطراب الذى لحق الأوراق كان نتيجة إخلاء الشقة التى كان يقيم فيها عند وفاته.. ولفائدة القارئ ومتعته نعرض فى إيجاز بعض هذه الأوراق التى اختلط فيها الحابل بالنابل.

● رحلة الجزائر:

على ورقة كبيرة كتب أحمد كامل مرسى عن رحلته إلى الجزائر السطور التالية: «يكتبون المؤساسة بدلا من المؤسسة، وممنوع الوقوف فى الطريق وجنوبه، بدلا من جوانبه، وعسكرى المرور يوقف سيارتنا لكى يركب الضابط معنا، ولكن أذان الصلاة كما هو بالعربية الفصحى».

● بورسعيد:

وبخط دقيق دون شطب أى كلمة على ورقة نتيجة يومية صغيرة مطبوع عليها

١٧ «أبريل» عام ١٩٧٩ كتب: «الفلوس تفسد حياة الإنسان، وتفسد حياة المدن أيضًا، فالمدن تبدو فى أحيان كثيرة كالإنسان، والإنسان عندما تكثر بين يديه الفلوس يتغير تماما كل شىء فيه.. سلوكه وتصرفاته وأخلاقه بل وحتى شكله».

وكذلك المدن.. وهذا ما حدث لبورسعيد.. امتلأت جيوبها وشوارعها ومحلاتها بالنقود، فتغيرت عاداتها وأخلاقياتها وتصرفاتها وشكلها وتحولت إلى سوق كبيرة لا ترى فيها سوى «البضاعة»، ولا تسمع فيها سوى لغة الفلوس.

الفـن والسياسة:

وبقلم الرصاص على نصف ورقة فلوسكاب كتب:

«وتسللت المذاهب السياسية والحزبية إلى مجالات الأدب والفن.. حلت فى البداية محل الضيف، ثم تمادت وسيطرت وتملكت الأصول والاتجاهات ففسد الأدب والخط والفن.. لا مانع من وجود السياسة بمقدار، لكن أن تغزو وتكون هى الأساس فهو أمر مرفوض».

ذكريات مع روزاليوسف:

عرف أحمد كامل مرسى «روزاليوسف» من عام ١٩٣٥ حتى وفاتها عام ١٩٥٨، وأثناء عمله بمجلة «روزاليوسف» تعرف إلى «إبراهيم خليل، محمد إبراهيم، إبراهيم موسى، عبد الرحمن خليل».

ويقول فى ذكرياته: عام ١٩٢٤ فى ليلة باردة من ليالى الشتاء.. اصطحبنى والدى لمشاهدة المسرح الجاد لأول مرة بمناسبة حصولى على الشهادة الابتدائية والتحاقى بالمدرسة التوفيقية. وعلى المسرح رأيت سارة برنار الشرق «روزاليوسف» ومنذ ذلك من عام ١٩٢٤.. بدأ اسمها يبرق فى فكرى وإحساسى وخيالى..وفى اليوم ذهبت إلى المدرسة التوفيقية وانسحبت من الفرقة الرياضية والتحقت بفرقة التمثيل والموسيقى.

وفى صباح يوم الاثنين الموافق ٢٦ أكتوبر عام ١٩٢٥ صدر العدد الأول من مجلة «روزاليوسف» الأسبوعية، وجدت فيها لونا جديدا من الصحافة الأسبوعية، واستطاعت هذه المجلة الشابة الجديدة أن تفتح أمام عينى الباب على مصراعيه لتذوق واستيعاب المجلات الأدبية.

وفى نهاية عام ١٩٣٤ وبداية عام ١٩٣٥ بدأت علاقته المباشرة بالسيدة «فاطمة اليوسف» وعرض عليه «زكى طليمات» الانضمام لجريدة «روزاليوسف» اليومية المزمع إصدارها ويرأس تحريرها «دكتور محمود عزمى»، ويعمل بها «زكى طليمات وتوفيق صليب ويوسف حلمى» وانضم إليهم «أحمد كامل مرسى» مشرفا على صفحة بعنوان «السينما وأنوار المدينة»، وكانت صفحة يومية تعنى بكل ماله علاقة بالسينما والفنون محلية أو عالمية. وتعرف فى هذه الفترة إلى فاطمة اليوسف وعباس محمود العقاد.

ويرى «أحمد كامل مرسى» أن أخبار اليوم عندما ظهرت عام ١٩٤٤ كانت متأثرة جدا سواء فى الشكل أو المحتويات بالنهج الذى ابتكرته «روزاليوسف اليومية» وكانت تطبع بجريدة البلاغ.

الفن والفنانون:

كان عشقه الجرى وراء تاريخ الفن والتأريخ للفنانين. . كتب عن فترة العشرينيات يقول: بدأت النهضة المسرحية مع طلائع القرن العشرين متمثلة فى فرق: سليم النقاش ويوسف خياط وسليمان القرداحى والقبانى وإسكندر فرح وجورج أبيض ونقولا مصابنى وسليم وأمين عطا الله، كان التنافس على القمة قائما بين أم كلثوم ومنيرة المهدية، وبين محمد عبد الوهاب وحامد مرسى.

وكان لواء النقد معقودا للأستاذ محمد أسعد لطفى وحلمى الحكيم وسعيد عبده ومحمد شكرى ومحمد التابعى وحبيب جاماتى، وجمال الدين حافظ عوض ومحمد عبد المجيد حلمى.

ويذكر القراء «محمد بيومى» رائد السينما التسجيلية الذى كتبنا عنه حلقة سابقة،

لقد تولى «أحمد كامل مرسى» البحث عن تاريخ هذا الرائد وظل يقتفى أثاره. وظل فى الإسكندرية ليبحث وينقب ويسأل حتى عرف عنوان منزل ابنته دولت محمد بيومى، والعنوان هو طريق الحرية فى الإسكندرية وذهب وقابل «دولت»، وعرف منها أن والدها «محمد بيومى» توفى عام ١٩٦٣. وأنه ولد عام ١٨٩٤، وتخرج فى الكلية الحربية عام ١٩١٥، وأحيل إلى التقاعد بعد اشتراكه فى أحداث ثورة ١٩١٩ وتأييده لسعد زغلول، وترجح بعض المصادر أن «أحمد كامل مرسى» قد كتب قصة حياة «محمد بيومى» وأن هذا العمل المهم ضاع ضمن ما بيع من مكتبته.

سيرته الذاتية:

ويبدو من بعض أوراقه أنه اعتزم كتابة سيرته الذاتية، وقرر أن يكتبها فى شكل مراحل، كل مرحلة فى كتاب قائم بذاته من الكتب صغيرة الحجم لسهولة طبعها وتوزيعها وقلة مصاريفها، وفى ورقة كشكول سجل عدة عناوين مختلفة تشكل فى مجموعها قصة حياته: (تجربتى فى الصحافة - تجربتى فى الإذاعة - تجربتى فى السينما - تجربتى فى المسرح - تجربتى فى الحياة - تجربتى فى الحب.. إلى آخره) ولا نعرف هل كتب وضاعت قصة حياته بقلمه ضمن الأوراق التى تبعثرت أم أخذته مشاغل الحياة ولم يكتب شيئا حتى توفاه الله؟

وفى حدود ما توافر لدينا من معلومات فقد ولد أحمد كامل مرسى عام ١٩٠٩م وعام ١٩٢٤ حصل على الشهادة الابتدائية ثم حصل على البكالوريا من المدرسة التوفيقية عام ١٩٢٩م. ثم تولى مهمة التدريب للفرق التمثيلية بالمدرسة والتقى بثلاثة ارتبط بهم حتى أنه سجل أسماءهم بعد ثلاثين عاما من هذا التاريخ وهم:

١ - أحمد أباظة.. فى مدرسة حلوان الثانوية، ٢ - عز الدين ذو الفقار.. فى مدرسة القبة الثانوية، ٣ - كمال حسين فى مدرسة فؤاد الأول بالعباسية.. وقد واظبوا جميعا على إشباع هواياتهم الفنية حتى تألق كل منهم فى الحقول الفنية المختلفة.. فى المسرح والإذاعة والتليفزيون والسينما.

وكما عرفنا فإنه ارتبط بمجلة روزاليوسف اليومية عام ١٩٣٥ عن طريق «زكى طليمات» وتعرف عن طريق «زكى طليمات»، تعرف على عباس محمود العقاد ومحمود عزمى، وتولى الإشراف على صفحة «السينما» يوميا، ومما يستلفت النظر أنه انصرف إلى تسجيل انطباعاته وذكرياته ويومياته ولم يهتم بإصدار كتب تحمل اسمه فيما عدا الفترة الأخيرة التى أصدر فيها عملا مشتركا مع الدكتور مجدى وهبة. وكان فى سبيل إصدار عمل مشترك آخر، وقد تحدثت عن ذلك فى التمهيد لهذا الموضوع. وكان آخر مقال نشره قبل وفاته «١٩٨٧» فى عدد ٢٥ ديسمبر عام ١٩٨٦ بمجلة «صباح الخير» عن تاريخ حياة رائد السينما التسجيلية «محمد بيومى».

وكان «أحمد كامل مرسى» يعشق سيرة «تاجور» وكثيرا ما كان يردد كلماته:

حضرت إليك أيتها الأرض كغريب

وعشت فيك كضيف.

ورحلت عنك كصديق

وفعلا رحل «أحمد كامل مرسى» كصديق يحبه الجميع ويحب الجميع ويسجل كل ما يمكن أن ينفعهم.

أفكار للسينما التسجيلية:

سجل عددا من الأفكار للسينما التسجيلية وتصلح أيضا موضوعات للصحف:

١ - عامل يعمل طوال الليل فى مطبعة جريدة يومية لتصدر فى الصباح.

٢ - حياة موظف فى يوم.

٣ - حياة طالب فى يوم.

٤ - حياة فلاح فى يوم.

٥ - جامع القمامة فى يوم.

٦ - راعى الأغنام فى يوم.

٧ـ موزع البريد .

٨ـ بائع الصحف .

٩ ـ صائد الأسماك .

١٠ ـ صانع الفخار .

١١ ـ حياة البدو .

١٢ ـ الطباخ فى مطعم .

١٣ ـ عامل التليفون .

١٤ ـ بائع اللبن .

١٥ ـ رجل الإسعاف .

اليوميــات:

لاتنفصل يوميات أحمد كامل مرسى عن جهوده فى التأريخ للفن والفنانين ولا عن تعليقاته وذكرياته، وسوف نورد هنا بعض هذه اليوميات كما سجلها بقلمه وكما أوردها الناقد الصحفى «سمير فريد» فى كتابه «صفحات مجهولة من تاريخ السينما المصرية»، ونسجلها هنا حسب الترتيب الزمنى التصاعدى :

● «ينـاير» عام ١٩٣٢م:

قال العقاد : إن الذى يتابع هتلر فى تقدمه فيقول إنه منتصر هو إنسان لا يرى . إنه يلمس الأشياء بعينيه فقط، إن الإنسان ينظر ولكن لا يرى . . إن البصر يقول إن هتلر سوف يهزم العالم كله، ولكن البصيرة تؤكد أن هذا مستحيل .

● «فبراير» عام ١٩٣٢م:

حضرت اليوم محاضرة الدكتور طه حسين عن الشعر التمثيلى فى الأدب العربى

الحديث، وقد ازدحمت المقاعد من قبل الميعاد بما يقرب الساعة، ومن الحداثة والتجديد أن حضرت الأوانس من طالبات الجامعة وبعض السيدات من المتأدبات وجميل هذا والله.

اختلاط الجنسين فى المجتمعات العامة وقاعات المحاضرات وكليات العلم والأدب. لا يقوم الوطن ويتقدم ويحصل على ما ينبغى من مجد وعز إلا على ساعدين لهما من القوة الشىء الكثير، فإذا أردنا نصرا للوطن وجب علينا الاهتمام والعناية بهذين الساعدين سويا، لا نفصل أحدهما عن الآخر وإلا بقينا على ما نحن فيه من المذلة والانحطاط الفكرى، وهذان الساعدان هما المرأة والرجل. . الفتاة والفتى . . ولا يكون اهتمام بهما إلا بالمجتمعات والمحاضرات والمناظرات وما شابه ذلك من ضروب الثقافة العامة: وإن الدكتور طه حسين ليعمل مجداً على إبداع هذه الفكرة وتركيزها فى عقول الناشئين وتثبيتها فى نفوس الطالبين للعلم والأدب لأنفسهم والفوز والمجد لأوطانهم، جزاك الله كل خير يا دكتور على ما تبديه كل يوم وآخر من إصلاحات وأفكار هادمة للقديم مشيدة للجديد: الجديد الراسخ الثابت بثبوت الإيمان الحق فى قلب المؤمن.

• السبت ١٤ «يناير» عام ١٩٥٦:

الساعة ١٠ صباحا من البيت إلى روزاليوسف، وفى الساعة ١١,٣٠ من روزاليوسف إلى الإذاعة، قابلت شعبان «بابا شارو» والسيد بدير وأنور المشرى.

تحدثت إلى أنور عن ممدوح أباظة ومهمة العمل فى معهد التمثيل، عدت فى الساعة الثالثة إلى روزاليوسف وتناولت طعام الغداء مع ا لسيدة روزاليوسف ومديحة، واسترحت قليلا، وفى الساعة الخامسة والنصف ذهبت إلى معهد الفن الحديث محاضرة عثمان العنتبلى، قابلت هناك نبيلة ومحمد فتحى وصلاح أبو سيف وعبدالقادر التلمسانى ولطفى نور الدين. . إلى آخره. . ذهبت إلى نادى خريجى قسم اللغة الإنجليزية، حيث تقابلت مع محمد أبو يوسف وتوفيق صالح وصلاح التهامى، وتناقشنا فى موضوع التعبيرات الفنية الخاصة بلجنة نشر الثقافة السينمائية.

• **الخميس ٢٠ «سبتمبر» عام ١٩٥٦م:**

اجتماع السيد بدير فى مكتبه بالإذاعة الساعة العاشرة والنصف بجماعة المثقفين من خريجى المعهد: الزرقانى - الطوخى - علوان، وتقديم شكواهم وطلباتهم، الحديث فى فكرة الفرقة الإذاعية للتمثيل وحضور المخرجين، ثم عرض العمل فى الدورة المقبلة، وضرورة مراعاة الميزانية، وضغط وعرض الأفكار الجديدة التى تبدأ فى «يناير» القادم، ثم تقابلت مع الزرقانى فى مطعم الفول، فى الأتوبيس تقابلت مع فوزية مهران، وعرجنا على مجلة الفجر، وفى المساء بعد الغروب ذهبت إلى «الفجر» لم أجد سوى سعد لبيب، لم يحضر أحد من المهتمين: حمروش - العالم - منير - القصاص.

كانت هذه بعض اليوميات المليئة بالأخبار والأفكار لأحمد كامل مرسى.

الأسانيد:

١ - أحمد كامل مرسى - ذكريات «روزاليوسف وأنا».

- أوراق ويوميات.

٢ - سمير فريد - صفحات مجهولة من تاريخ السينما.

٣ - مختار السويفى - حديث معه.

٤ - فاطمة اليوسف - ذكريات.

الدكتور أنــــور المفـــتى



الدكتور أنور المفتى أصغر عباقرة الطب المصريين، مات وعمره «٥١» عاما، كان أسطورة جيله فى عالم الطب داخل مصر وخارجها، أفل نجمه مبكرا فى يوم ١٦ يناير عام ١٩٦٤م فترك فى كل مقلة دمعة وفى كل قلب حسرة، وهاجت الخواطر والأقلام تنعيه وتبكيه.

قال «الدكتور مصطفى الديوانى» عن ساعة تشييع جثمان الدكتور «أنور المفتى»: «وقفت مع الألوف المؤلفة عند باب مسجد عمر مكرم أنتظر لحظة خروج النعش الغالى، ونزل به أحباؤه الذين حملوه درجات السلم فى هدوء وانكسار».

وهذه الألوف المؤلفة التى هرعت لتشييع جثمان الدكتور «المفتى»، وهذا الهدوء والانكسار اللذان اكتست بهما وجوه أحبائه الذين نزلوا بالجثمان درجات سلم مسجد عمر مكرم تفسر الشائعات التى انطلقت فور وفاة أصغر عباقرة الطب فى مصر، كان يشرف على علاج «جمال عبد الناصر» الذى كان مريضا بالسكر، وقالت الشائعات إن «الدكتور المفتى» أفلت لسانه بمرض جمال عبد الناصر فى إحدى جلساته فى أحد النوادى، وكان النظام يعد مرض جمال عبد الناصر سرا من الأسرار المهمة لا يجوز إفشاؤها، وتكمل الشائعات مسيرتها فتقول إن «الدكتور المفتى» بعد أن عاد إلى بيته نظر إلى عينيه فى المرآة وقال لمعاونه: «الدكتور أحمدعبدالعزيز» ابن أستاذه «الدكتور عبد العزيز إسماعيل»: البركة فيك، وأسلم الروح.

ويقول : «الدكتور منصور فايز» فى كتابه «مشوارى مع عبد الناصر» ص ٢٣ : «بعد ثلاثة شهور من وفاة المرحوم الدكتور «أنور المفتى» الذى كان يشرف على علاج الرئيس اتصل بى الدكتور «أحمد ثروت» الطبيب المرافق للرئيس جمال عبدالناصر وأبلغنى أن الرئيس طلب منه أن يعرض علىّ الإشراف على علاجه».

وعلى صفحتى ٣١ و٣٢ من الكتاب نفسه يتحدث «الدكتور منصور فايز» عن الشائعات : «وأولى هذه الشائعات هى أن المرحوم الدكتور أنور المفتى قد مات مسموما عقب تناول كوب من عصير الجوافة فى منزل جمال عبد الناصر وأن ذلك كان بتدبير «صلاح نصر» مدير المخابرات العامة فى ذلك الوقت».

الدكتور منصور عبد الرحمن فايز الذى أشرف على علاج «جمال عبد الناصر» بعد رحيل «الدكتور أنور المفتى» بثلاثة أشهر يرى «أن هذه الشائعات مغرضة ومقصودة حول أطباء الرئيس».

ويلاحظ القراء أن حكاية «عصير الجوافة» و«السم» و«صلاح نصر» ترددت بحذافيرها تفسيرا لرحيل «المشير عبد الحكيم عامر» سواء فى الشائعات بالقاهرة أو على صفحات المجلات فى بيروت ولماذا عصير الجوافة؟ يقال.. لأن طعم الجوافة المميز يغطى على مذاق السموم التى توضع فيه.

المهم أن مصر فقدت أصغر عباقرتها فى الطب والذى شهدت له جميع المحافل الطبية فى العالم ودعته كل من الولايات المتحدة الأمريكية، والاتحاد السوفيتى وإنجلترا وألمانيا والهند وبعض دول أوروبا الشرقية والبلاد العربية للإفادة من خبراته وعبقريته.

ارتبط اسمه بالعديد من البحوث التى أكسبته شهرة عالمية فى مقدمتها.. ديناميكية الدهنيات فى الجسم، كان المعتقد الشائع هو أن «السكريات» هى الوقود الرئيسى فى الجسم، جاء «المفتى» وأثبت أن «الدهنيات» هى المصدر الرئيسى فى الجسم وأن حركة الدهنيات فى الدم أسرع من حركة السكريات عشرين مرة.

ونجح فى علاج حوالى أربعين حالة من حالات الصداع النصفى باستعمال نفس الدواء الذى يستخدم فى علاج السل، وكان أول من نبه إلى استعمال الجلسرين فى

حالات الغيبوبة السكرية دون حقن المريض بالأنسولين وذلك فى الحالات البسيطة، أما فى الحالات المتقدمة فيمكن استخدام الجلسرين مع كمية محدودة من الأنسولين.

ونجح أيضا فى استخدام وصفة شعبية فى علاج العقم عند النساء عن طريق وضع طلع النخل فى شكل لبوس، واكتشف أن فى طلع النخيل هرمونات لها تأثيرها على السيدات.

الطبيب الإنسان:

وإلى جانب اكتشافاته «العبقرية» كان إنسانا لم يداخله الغرور، يؤمن أن الإنسان مليء بالخير وقادر وخلاق، حدث أن أحد مرضاه أصيب باضطراب نفسى، وطلب منه هذا المريض طلبا غريبا وهو أن ينتظر الدكتور أنور المفتى كل صباح أمام بيته - أى بيت المريض - وأن يمر عليه الدكتور المفتى بسيارته فيركب معه المريض المضطرب نفسيا، وأن يظل معه حتى يعود به آخر اليوم إلى بيته، ورغم ملاحظات الأهل والزملاء والأصدقاء على هذا التصرف الغريب من الدكتور المفتى، ظل الدكتور المفتى يؤدى هذا العمل الإنسانى لمدة شهر كامل، الغريب أن المريض شفى تماما واستقرت حالته وأصبح صديقًا مخلصًا للدكتور الإنسان أنور المفتى.

وحدث ذات مرة أن طرق باب منزله فى الرابعة صباحا مجموعة من الناس يحملون مصابا فى حادث سيارة والدماء تتساقط منه على الأرض، فقام الإنسان «أنور المفتى» من نومه وأدخل المصاب إلى شقته فتناثرت الدماء المتساقطة على أرضية الشقة، وأسرع «د. المفتى» بإجراء الإسعافات الأولية للمصاب ثم اصطحبه إلى المستشفى، وعاد إلى البيت متأخرًا بعد أن أجرى كل الإسعافات اللازمة للمصاب، وعندما عاد إلى بيته ليتناول طعام الإفطار قبل أن يعود لمواصلة عمله كانت الأسرة تنظر إليه فى عتاب وهى تزيل آثار الدماء من المسكن.. أما هو فكان يبتسم!

بحوثه الجديدة:

وبحوث «الدكتور أنور المفتى» عن مرض السكر وعن ضغط الدم وعن تصلب

الشرايين فريدة من نوعها فى العالم. وحقق فيها انتصارات علمية على المستوى العالمى، وأغرب هذه البحوث ما اكتشفه لعلاج البلهارسيا اكتشف أن مادة «الدبتركس» التى يستخدمها الفلاح المصرى للقضاء على آفات القطن لها نفس تركيب مادة «البلهارسيا سيد» فلجأ إلى استخدامها فى علاج البلهارسيا، وكانت دهشة كبرى من فلاحى قرية «سحالى» بمحافظة البحيرة التى عاش فيها بينهم لفترة غير قصيرة، وكانت دهشة كبرى لزملائه الأطباء المعالجين، وأقرت معامل التحاليل صدق نتائج «الدكتور أنور المفتى» التى ترسل إليها حول مادة «الدبتركس» المضادة لدود القطن.

قرية الدكتور المفتى:

اهتم بأحوال الفلاحين المصريين، واهتم بالقرية المصرية، وأجرى البحوث الكثيرة فى «قرية سحالى» بمديرية البحيرة، كان يقضى أيام الصيف فى هذه القرية، عاش ونام وأكل مع الفلاحين وصادقهم بإخلاص وحب وعطف، ترك زوجته وأولاده وابنته مايسة فى القاهرة وعاش بين الفلاحين فى قرية «سحالى»، واستقر أمر الفلاحين على أن غيروا اسم قريتهم من «سحالى» إلى «قرية الدكتور أنور المفتى».

عودة إلى الإنسان:

لم يكن له أى طموح مادى أو مالى.. كان ينزع دائما إلى المواقف الإنسانية مع زملائه وتلاميذه.. ذات مرة اشترى أحد الأطباء فى «أسيوط» جهازا لرسم القلب بالتقسيط بضمان «الدكتور أنور المفتى»، وعرف الطبيب الإنسان بأن طبيب أسيوط لا يقوم بتسديد الأقساط لظروفه المالية، وفى هدوء ودون أى غضب ظل «الدكتور أنور المفتى» يدفع الأقساط حتى سدد ثمن الجهاز كاملا.

كان يجلس بجوار سرير المريض ساعات طوالا يبحث وراء المجهول فيما غمض من حالات، وهب المريض وطالب الطب وقته وقلبه.. واهتم بالمعامل فقرأ كثيرا

جداً عن خفايا الكيمياء والفيزياء، وعرف عنه أنه كان يقرأ وهو يركب سيارته من وسط البلد بالقاهرة إلى مصر الجديدة وبالعكس ٤ مرات فى اليوم، مرتين صباحاً ومرتين بعد الظهر، وقال إنه اكتسب هذه العادة من أستاذه «الدكتور عبد العزيز باشا إسماعيل» والد تلميذه «الدكتور أحمد إسماعيل» الذى لازمه حتى اليوم الأخير من حياته.

وكان اهتمامه بطلاب الطب مدفوعاً بإخلاصه لوظيفته فى الحياة وهى وظيفة «المعلم».

انتصار الحياة:

كان يعترف دائماً بأن معركة الطب مع الموت معركة شرسة، ويرى أن الحياة تهتم بالنوع وليس بالفرد، هذا موقف من مواقف الفلسفة، كانت له اهتمامات أخرى غير الطب واكتشافاته فى مجاله، يهوى الحديث فى التصرف والهندسة، وهواية التصوير عنده مهمة للغاية، من هداياه لأصدقائه مجموعات الصور. وخاصة تلك التى يلتقطها بنفسه فى المناسبات، كما كان يهوى النحت وصنع التماثيل ويراها قريبة من اهتماماته بدراسة جسم الإنسان الذى هو اهتمامه الطبى أيضاً، وحاول الرسم ولكنه لم يتبحر فيه، زملاؤه وأصدقاؤه كانوا يلجئون دائما إلى مكتبته وخاصة تلك التى تتصل بعلم النفس والأمراض النفسية، وقد قام تلميذه وصديقه «الدكتور أحمد عبدالعزيز» بإعداد فهارس لهذه المكتبة التى أهداها «الدكتور المفتى» إلى كلية الطب، والطريف أنه كان يهوى أيضا ألعاب التسلية. . ونمت لديه هواية الفك والتركيب. أما المال فلم يكن هوايته أو قضيته، كان يرى أن الطب والاكتشافات الطبية والاهتمام بأحوال الفلاحين والتصوف والهندسة والرسم والتصوير والقراءة واقتناء الكتب النفيسة وغيرها هذه كلها من مقومات الحياة عنده.

شريط الحياة:

عرف بين أروقة الطب بأنه صاحب «مدرسة التمثيل الغذائى»، من مواليد مدينة القاهرة فى مارس ١٩١٣، وتوفى فى شهر يناير ١٩٦٤. حصل على الثانوية العامة

عام ١٩٣٥ . كان الأول على الدفعة طوال سنى دراسته، والتحق أيضًا بقسم الكيمياء الحيوية، وعمل فى قسم الأمراض الباطنة كطبيب امتياز، ثم سافر للدراسة بكلية «هاوسميث» للدراسات العليا فى لندن، وجامعة متخصصة فى نيويورك، وعاد إلى مصر بعد أن حصل على الدكتوراه فى الأمراض الباطنية عام ١٩٤٠ . عمل بقصر العينى مدرسًا فأستاذا للأمراض «الباطنة»، كان من حظه فى دراسته الطبية فى مصر أن يدرس على يد «الدكتور عبد العزيز باشا إسماعيل» والد تلميذه ومساعدة «الدكتور أحمد عبد العزيز إسماعيل» .

خارج الحدود:

لم نعرف أن «الدكتور أنور المفتى» كان يدون انطباعاته أو ذكرياته، وقد خسرنا ثروة كبيرة عن حياة «الدكتور المفتى» لم يدونها أو يتركها، واعتمدنا فى هذا المجال على ما كتبه صديقه الودود الحميم «الدكتور مصطفى الديوانى» فى كتابه قصة حياتى»، وقد عرفت منه أنه - أى الدكتور الديوانى - كان يعنى بتدوين كل خاطرة وكل رحلة وكل مقابلة وكل مشاهدة، وكان «الديوانى» يرى «أن تدوين الانطباعات على النفس خلال الرحلات وتصوير اللوحات التى تتوالى بسرعة خاطفة يجعل للسفر قيمة ولذة» .

كتب «الديوانى» يقول: لن أنسى رحلتنا سويا فى كوبنهاجن عام ١٩٦١ عندما حضرنا معا المؤتمر الدولى للغدد الصماء، وكانت معنا «فاطمة» زوجته الباسمة التى لم تفارق قسمات وجهها أمارات السعادة منذ أن تزوجت بأنور، كان يضرب بزواجهما أبرع الأمثال فى زوجة الطبيب الناجح التى تهيئ الجو العائلى لزوج مجهد تتلقفه الأيدى ليل نهار وهو عاجز عن أن يرد لأحد طلبا، كانت الأيام التى قضيتها معهما فى كوبنهاجن مليئة بالسعادة، تصوروا قمة الترف النفسى الذى تمرغت فيه وقد انفردت بأنور المفتى أياما، قضيت فترة كان اليوم فيها ببركة أعوام، وأصغيت إليه وهو يلقى أبحاثه بين العلماء ويتعرض للأسئلة ويرد عليها فى تمكن عجيب وكأنه يقرأ من كتاب مفتوح حفظ ما بين دفتيه عن ظهر قلب، وكنت أقول لنفسى دائما عندما أراه يناقش هذه المعضلات فى سلاسة وسهولة كيف تمكن هذا العقل الجبار من استيعاب تلك

المعميات المستحيلة على العقل العادى. ولن أنسى حالة العلامة أنور المفتى قبل إلقاء بحثه بيوم أو يومين، كان يبدو قلقًا حائرًا، وكان يخفى هذا الشعور عن كل الناس إلا أنا، فكنت أميل عليه مداعبا وأنا أقول متى تحين ساعة الولادة؟ فكان يقهقه ضاحكا تلك الضحكة المحبوبة التى فقدناها إلى الأبد.

الليلة الأخيرة:

خرج من عمارة اللواء حيث توجد عيادته، وفتح باب منزله بيده للمرة الأخيرة، وآوى إلى فراشه بعد أن أوصى زوجته «فاطمة» أن توقظه فيما بعد لتناول طعام السحور لأنه نوى أن يبدأ صيام رمضان مع فجر اليوم التالى، وغطى وجهه بغطاء الفراش استعدادا للنوم، وذهبت فاطمة التى لم تعرف إلا السعادة حتى هذه اللحظة، إلى غرفة مجاورة لتعود بعد لحظة فتسمع لزوجها شخيرا عجيبا، جزعت له نفسها المرهفة الحساسة، فجرت نحوه توقظه فوجدته قد انتهى، لقد سكت «أنور المفتى» إلى الأبد.

لقد مات «أنور المفتى» يوم ١٦ يناير عام ١٩٦٤، وفى أول أيام شهر «رمضان» ذهب بعد أن أشاع حوله التفاؤل والأمل ولم يكن المال من قضاياه التى يهتم بها، وأعجبوا معى لما كتبه صديقه الكاتب الصحفى بجريدة الأهرام «صلاح جلال» فى ص ١٤ من كتابه «أطباء مصر كما عرفتهم». . كتب بالحرف الواحد: «لم يترك أنور المفتى عند وفاته فى يناير عام ١٩٦٤ لأولاده الأربعة - ابنتين وابنين وأكبرهم فى السابعة عشرة وأصغرهم فى الثامنة ولزوجته - إلا بحوثه ودراساته واكتشافاته، ومعاشه من الدولة وقدره أربعون جنيها فى الشهر.

طبيب عبقرى أعطى عقله وعمره لعلمه وطلابه وللفلاحين ولمرضاه وبحوثه واكتشافاته وأشرف على علاج رئيس الدولة، وحضر المؤتمرات العلمية العالمية واستعانت به دول الغرب والشرق والشمال والجنوب، وعيادة فى عمارة اللواء بوسط البلد - يترك بنتين وابنين وزوجة بمعاش من الدولة قدره «أربعون جنيها» والعهدة على رواية زميلنا الراحل «صلاح جلال» الذى توفى هو الآخر على مدخل بيته فى شارع النيل بالعجوزة.

كان «أنور المفتى» نسيجا خاصا بين كل الأطباء العمالقة فى مصر، كان يؤمن بالعمل الجماعى، عمل معه فريق مكون من «الدكاترة حليم دوس، ومحمد خطاب ومحمد شفيق الريدى، أحمد عبد العزيز إسماعيل» وأصبح لكل واحد من هؤلاء اسمه وشهرته ومجاله . . ويكفى كل واحد من هؤلاء أنه عمل يوما مع «الدكتور أنور المفتى» .

لقد حزن كل شىء فى بيته على رحيله . . القطع الأثرية التى صفت بدقة وإتقان بالصالة الكبيرة، والصور الزيتية المعلقة على جدران قاعة الاستقبال الأنيقة . . لقد كان أيضا فنانا يتمتع بذوق فنى رفيع، ولم يجد البيت فرحا أو لمحة من الفرح إلا عندما تمت خطوبة إحدى كريمتيه إلى أحد شباب الأسرة .

أما أدبه الجم وتواضعه الرصين فقد كانا يزيدان كلما زاده الله من فضله ورضاه . ما دخل إلى حفل أو اجتماع أو جلسة إلا وهب الجميع مقبلين عليه فى حب خالص لا تشوبه شائبة رياء أو نفاق، هذا يحييه وذاك يريد أن يظفر معه بصورة تذكارية، وآخر يصمم على بقائه بجواره .

كان أمام الأجيال الصاعدة مثال «المعلم» الذى طال انتظاره، فرفعوه عاليا، فلمع اسمه لأنه عامل مريضه فى المستشفى المجانى معاملة مريضه فى عيادته الخاصة . . وكان شعاره يجب ألا ينسينا زهو النجاح فى الحياة، ما يجب علينا نحو جدران وطرقات المستشفى الذى نشأ وترعرع بين جنباته، رحم الله «أنور المفتى» . . وكفانا شر الحديث عن الجوافة وعصيرها .

الأسانيد:

١ ـ شكرى القاضى ـ مائة شخصية مصرية وشخصية .

٢ ـ صلاح جلال . . أطباء مصر كما عرفتهم .

٣ ـ د. مصطفى الديوانى . . قصة حياتى .

٤ ـ د. منصور فايز . . مشوارى مع عبدالناصر .

أقباط الوفد المصرى



الحق الحق أقول لكم . . ومن كانت له عيون للإبصار فليبصر، ومن كانت له آذان للسمع فليسمع، ومن كانت لديه بصيرة للإدراك فليدرك. تبارك يوم الأربعاء الثالث عشر من نوفمبر عام ١٩١٨م بين الأيام، واجتمع «الوفد المصرى» . . «سعد زغلول وعلى شعراوى وعبد العزيز فهمى وأحمد لطفى السيد وعبد اللطيف المكباتى ومحمد محمود» للمطالبة باستقلال البلاد لدى مؤتمر الصلح. والأحكام العرفية معلنة والصحف تحت المراقبة والاجتماعات محظورة. وتوجه «سعد باشا وشعراوى باشا وعبد العزيز فهمى بك» لمقابلة المعتمد البريطانى. ورغبة فى أن يكون الشعب على بينة من أمره، نشر الوفد المصرى محضراً بالحديث الذى دار فى تلك المقابلة. وكى يستكمل «الوفد» الصفة القانونية فى المطالبة بحقوق الأمة بدأ يستكتب مختلف أفراد الشعب بالتوقيع على «التوكيل» الذى كانت ديباجته: «نحن الموقعين على هذا أنبنا حضرات سعد زغلول باشا وعلى شعراوى باشا وعبدالعزيز فهمى بك وعبد اللطيف المكباتى بك وأحمد لطفى السيد بك ومحمد محمود باشا ولهم أن يضموا إليهم من يختارون»، وتم ضم «مصطفى النحاس بك» القاضى بالمحاكم الأهلية ومن كبار أنصار الحزب الوطنى، والدكتور «حافظ عفيفى» عضو اللجنة الإدارية للحزب الوطنى إلى الوفد. وسرت حركة توقيع التوكيلات مسرى النار فى الهشيم.

توجه ثلاثة من الأقباط لمقابلة «سعد باشا» وهم «ويصا واصف عضو الحزب الوطنى، وتوفيق أندراوس من أعيان الأقصر، وفخرى عبد النور بك من أعيان

جرجا». ورحب «سعد باشا» بأبنائه من الأقباط. وقال توفيق أندراوس فى حماسة: «إن الوطنية ليست حكراً على المسلمين وحدهم، إن المسلمين والأقباط يعملون بتفكير واحد ورأى واحد فيما يحقق الحصول على الاستقلال» وتقرر فى المقابلة ترشيح «واصف غالى» الذى كان فى باريس وأرسل له «ويصا واصف» برقية عطلت سلطات الاحتلال وصولها. وكان قد تقرر ضم «سينوت حنا وجورج خياط» فحلفا اليمين مع «حمد الباسل» فى جلسة واحدة فى ديسمبر عام ١٩١٨م. وسأل «جورج خياط» سعد باشا.. ما هو مركز الأقباط، وما هو مصيرهم بعد انضمام ممثليهم للوفد؟

قال «سعد» العظيم: ليطمئن الأقباط فلهم ما لنا من حقوق، وعليهم ما علينا من الواجبات على قدم المساواة.

وتوالى دخول الأقباط فى «الوفد المصرى» ووصل عددهم فى يناير عام ١٩٢٤م «تسعة» من «سبعة وعشرين» والمقصود هنا بـ«الوفد المصرى» هو القيادة العليا وليس مجرد العضوية التى اندفع إليها المصريون بالآلاف. وللتاريخ لم يكن أعضاء «الوفد المصرى» مجموعة من الهواة أو الحواة، وإنما كانوا مناضلين مخلصين لله والوطن.

عرفوا السجون والاعتقال والنفى فى المحاريق وطبرق ومالطة وسيشل وتحديد الإقامة. وعرف سبعة من أعضاء الوفد المصرى الحكم بالإعدام أصدرته المحكمة العسكرية الإنجليزية فى «١٤ أغسطس عام ١٩٢٢م»، وهؤلاء السبعة هم: «حمد الباسل، وجورج خياط ومراد الشريعى ومرقص حنا وواصف غالى وعلوى الجزار وويصا واصف».

الوفد المصرى:

فى ١٥ مايو عام ١٩٢٣م تم الإفراج عن زعماء الوفد السبعة الذين حكم عليهم بالإعدام وجاء ذكرهم فى آخر الفقرة السابقة. وفى ٣ يونية عام ١٩٢٣م تقرر الإفراج عن قادة الوفد المعتقلين فى «معتقل المحاريق».

وفى ٢٦ يونية عام ١٩٢٣م عاد المعتقلون فى سيشل. وفى يناير عام ١٩٢٤م كانت صفوف «الوفد المصرى» قد اكتملت، واكتملت الطبقات الأربع أو المجموعات الأربع، وهذه مسألة فى حاجة إلى إيضاح. كان زعيم الأمة «سعد زغلول» قد وضع نظامًا لمواجهة غارات الاحتلال على زعماء الوفد.. وهذه الطبقات أو المجموعات تعنى أن تحل طبقة أو مجموعة محل الطبقة أو المجموعة التى غابت عن الساحة.

وكان الوفد قد أعلن فى أغسطس عام ١٩٢٣ أن هيئته الكاملة بعد أن واجه رجاله من المحن والتضحيات قد أصبحت مؤلفة من كل من: حمد الباسل ومصطفى النحاس والمصرى السعدى وعلوى الجزار وجورج خياط وسينوت حنا وعلى الشمسى، وحسين القصبى، وواصف غالى وعطا عفيفى ومصطفى القاياتى وويصا واصف ومحمد نجيب الغرابلى وعاطف بركات ومرقص حنا ومصطفى بكير، ومكرم عبيد وحسن حسيب وفخرى عبد النور وعبد الحليم البيلى وسلامة ميخائيل وإبراهيم راتب وراغب إسكندر وحسين هلال وفتح الله بركات ومراد الشريعى والأميرالاى محمود حلمى إسماعيل.

سبعة وعشرون مناضلا ومن هؤلاء السبعة والعشرين «تسعة» من الأقباط، وهم حسب أسبقية الانضمام وحلف اليمين:

«جورج خياط - سينوت حنا - واصف غالى - ويصا واصف - مكرم عبيد - مرقص حنا - فخرى عبد النور - سلامة ميخائيل - راغب إسكندر» وكان جميع أعضاء «الوفد المصرى» فى انتظار الزعيم والقائد «سعد زغلول باشا» الذى وصل إلى ميناء الإسكندرية فى ١٨ سبتمبر عام ١٩٢٣ وبعدها عاد إلى القاهرة كما يعود الأسد إلى عرينه واستقبلته أمة بأسرها استقبال الغزاة الفاتحين. وأصبحت هناك هيئة موحدة تسمى «الوفد المصرى» اجتمعت لتعد فورا للمعركة الانتخابية لاختيار أعضاء مجلس النواب وثلاثة أخماس مجلس الشيوخ فى ظل الدستور الذى صدر فى ١٩ أبريل عام ١٩٢٣م.

والآن إلى الرجال التسعة الذين أخلصوا لوطنهم ولحزبهم وزعيمهم.

رجـال ومـواقـف:

•• جورج خياط «١٨٦٢م ـ ١٩٣٢»:

انضم للوفد في ديسمبر عام ١٩١٨م. التقى بسعد زغلول، وكان من دعاة دعم مساعي الوفد لاستقلال البلاد. . اشترك في المؤتمر القبطي الذي عقد في مارس عام ١٩١١ بأسيوط، وكان من العناصر المعتدلة ومن دعاة مقاطعة البضائع الإنجليزية وتدعيم بنك مصر. ونادى بسحب المدخرات المصرية في البنوك الإنجليزية فحكم عليه بالإعدام في ١٤ أغسطس عام ١٩٢٢م مع «حمد باسل» وعلوى الجزار ومراد الشريعي ومرقص حنا وواصف غالي وويصا واصف. خففت العقوبة إلى السجن مع غرامة مالية قدرها خمسة آلاف جنيه على كل منهم. وأفرج عنهم في يونية عام ١٩٢٣. وحضر اجتماع «الوفد المصري» الذي عقد في يناير عام ١٩٢٤م برئاسة زعيم الأمة «سعد زغلول».

•• سينوت حنا.. «١٨٧٤م ـ ١٩٣٠م»:

ولد بمحافظة أسيوط عام ١٨٧٤م، وتوفي بالقاهرة متأثرا بجراحه التي أصابته يوم ٨ يوليو بمدينة المنصورة، عندما كان يركب في سيارة مع «مصطفى النحاس باشا» وكان يشعر في قرارة نفسه بأن خطة دنيئة دبرتها حكومة إسماعيل صدقي لاغتيال «النحاس باشا». ولمح سينوت أحد الجنود يسدد الحربة إلى صدر النحاس باشا فتصدى سينوت ليتلقى الطعنة القاتلة، فانغرست في كتفه وانكسر النصل في لحمه وتدفقت دماؤه على ملابس النحاس باشا. وهاجت الجماهير العزلاء، فالتحمت بالجيش والبوليس. . وسقط أربعة من الأهالي وثلاثة من الجنود، وجرح حوالي ١٥٠ من الجانبين. وتوفي سينوت حنا في منزله بالجيزة.

كان في البداية صديقا شخصيا لمصطفى كامل زعيم الحزب الوطني، ووثيق الصلة بعضو اللجنة الإدارية للحزب الوطني «ويصا واصف». وفي الشهر الأخير من حياة «مصطفى كامل» عام ١٩٠٨، كان ناظر المعارف «سعد زغلول» في جولته الشهيرة بالوجه القبلي لتفقد المعاهد العلمية، وفي ١٨ يناير عام ١٩٠٨ تناول سعد

باشا طعام العشاء فى منزل مدير أسيوط، وحضر هذا العشاء «سينوت حنا». ووقف «سينوت حنا» ضد محاولة «إخنوخ فانوس» تشكيل حزب طائفى باسم «الحزب المصرى».

وفى المؤتمر القبطى الذى عقد بأسيوط فى ٦ مارس عام ١٩١١ نسق سينوت حنا جهوده مع أخيه بشرى حنا الذى اختير رئيسا للمؤتمر للحيلولة دون العناصر الجامحة، وساعدهم فى ذلك مطران أسيوط فرفعوا العلم المصرى على المؤتمر، وتصاعدت الدعوة للوحدة الوطنية. وكان سينوت حنا أمين صندوق المؤتمر.

وعام ١٩١٤ وقف سينوت حنا إلى جانب سعد زغلول فى مواجهة عدلى يكن فى الجمعية التشريعية. وفى ٨ أبريل عام ١٩١٩م سافر سينوت حنا مع أعضاء الوفد إلى باريس وبقى إلى آخر يوم قرر فيه «الرئيس سعد» أن يبقى.

●● واصف غالى «١٨٧٨م-١٩٥٨م»:

ولد فى حى الفجالة بالقاهرة عام ١٨٧٨م وهو ابن بطرس باشا غالى. وعلى أثر اغتيال بطرس غالى عام ١٩١٠م لجأ واصف غالى إلى صديق والده شيخ الشعراء «إسماعيل باشا صبرى» لتهدئة الخواطر. وكان واصف غالى مع سينوت حنا وويصا واصف من الذين حاصروا الفتنة التى يمكن أن تنبثق من مؤتمر أسيوط. وعام ١٩١١م ترك واصف غالى العمل فى الخاصة الملكية وانصرف إلى الأدب وترجمة الأشعار العربية إلى اللغة الفرنسية وصدرت فى كتاب بعنوان «روضة الأزهار» فأقيم له حفل تكريم فى فندق شبرد عام ١٩١٤م حياه فيه «إسماعيل صبرى» بقصيدة رائعة. وهو أول مرشح من الأقباط لعضوية الوفد المصرى وتأخر حلف اليمين بسبب وجوده فى باريس ومناورات سلطات الاحتلال التى عطلت وصول برقية ويصا واصف إليه.

وقف «واصف غالى» مع «سعد زغلول» ضد المهادنة ودعاة الاعتدال. وواصف بطرس غالى من الوزراء القلائل الذين انحصر نشاطهم فى وزارة معينة، بدأ نشاطه الوزارى وزيراً للخارجية فى الوزارة الشعبية برئاسة «سعد زغلول» ٢٨ يناير - ٢٤

نوفمبر عام ١٩٢٤ وفى الوزارة الائتلافية «١٦ مارس - ٢٥يونية عام ١٩٢٨م» وهى الوزارة الأولى لمصطفى النحاس حصل على لقب باشا وتولى وزارة الخارجية. والمرة الثالثة وزيرا للخارجية فى وزارة النحاس باشا الثانية «يناير عام ١٩٣٠ - يونية ١٩٣٠». والمرة الرابعة فى وزارة «النحاس» الثالثة «٩ مايو ٢٦ - ٣١ يوليو عام ١٩٣٧». والمرة الخامسة وزيراً للخارجية أيضًا فى وزارة «النحاس» الرابعة «أول أغسطس عام ١٩٣٧». وعام ١٩٣٥ أثار «واصف غالى قضية فلسطين أمام عصبة الأمم. وفى يناير عام ١٩٥٠ عينته حكومة الوفد عضوا بمجلس الشيوخ، وعضوا بمجلس إدارة شركة قناة السويس. وبعد إقالة حكومة الوفد فى ٢٧ يناير عام ١٩٥٠ قدم استقالته من عضوية مجلس الشيوخ ورفض عرض على ماهر عليه بأن يتولى وزارة الخارجية فى وزارته. وقال عبارته الشهيرة: «لقد أصبحت البلاد مريضة بدرجة كافية». وتوفى فى ١٠ يناير عام ١٩٥٨.

•• ويصا واصف «١٨٧٣م - ١٩٣١م»:

ولد فى طهطا عام ١٨٧٣م، وتوفى فى القاهرة عام ١٩٣١.. وكانت مظاهرات تشييع الجنازة تتصاعد: «لن ننساك يا محطم السلاسل» وهذه لها قصة.. فى حياة «سعد زغلول» كان «ويصا» وكيلا لمجلس النواب، وفى حياة مصطفى النحاس كان رئيسا لمجلس النواب.

ورفض ويصا بإصرار محاولات أحمد زيوار باشا لضمه إلى وزارته التى شكلها فى ٤ نوفمبر عام ١٩٢٤م على أثر استقالة وزارة سعد باشا عقب مقتل «السيرلى ستاك».

وفى عهد وزارة «النحاس باشا» الثانية «يناير - ٣٠ يونية عام ١٩٣٠» حدث خلاف دستورى بين الملك فؤاد والنحاس باشا، فأقال الملك فؤاد حكومة النحاس باشا، وحاول إسماعيل صدقى أن يضم إلى وزارته «ويصا واصف» دون جدوى. وأجل الملك انعقاد البرلمان لمدة شهر يبدأ من ٢١ يونية وأمر صدقى بإغلاق أبواب البرلمان بالسلاسل. وحاصر الشوارع المؤدية إلى البرلمان بقواته. وتقدم «مصطفى النحاس» واخترق الحصار بسيارته ومن خلفه النواب ليصلوا إلى مقر البرلمان

بالقوة. وقال «الزعيم» الحريص على التقاليد البرلمانية قال فى حزم: «إن رئيس مجلس النواب هو وحده صاحب الحق فى أن يأمر الحراس بفتح الأبواب.. وتقدم «ويصا واصف» رئيس المجلس وأمر الحرس بتحطيم السلاسل وفتح الأبواب.. وتقدم الصفوف إلى الداخل. وكانت مظاهرة تاريخية.. تحدث فيها «مصطفى النحاس» باعتباره نائبًا عن دائرة سمنود.

•• مكرم عبيد.. «١٨٨٩م-١٩٦١م»:

ضم «سعد زغلول» «مكرم عبيد» إلى الوفد فى ٦ مايو عام ١٩٢١م. بعد عودة سعد باشا إلى الإسكندرية عام ١٩٢١، استقل القطار إلى القاهرة. وفى القطار قدم له «ويصا واصف» الشاب «وليم مكرم عبيد» وكان وقتئذ مدرسا بمدرسة الحقوق فحياه «سعد باشا» وأثنى عليه وأعرب له عن إعجابه الكبير بمذكرته القيمة التى كتبها باللغة الإنجليزية ردًا على مشروع المستشار القضائى الإنجليزى.

استكمل تعليمه فى أكسفورد بين عام ١٩٠٥-١٩٠٨م، وعام ١٩١٢ حصل على الدكتوراه فى القانون وعاد إلى مصر عام ١٩١٣، التحق بوظيفة سكرتير الجريدة الرسمية بوزارة الحقانية. وعام ١٩١٩م عين أستاذًا بمدرسة الحقوق. فصل من هذه الوظيفة فى أغسطس عام ١٩٢١ بعد إحالته إلى مجلس تأديب لاشتراكه فى إقامة مأدبة تكريمًا لزغلول باشا.

أرسله «سعد زغلول» إلى لندن للدعاية للقضية الوطنية أثناء مفاوضات عدلى. وعند عودته استقبل استقبالا شعبيًا. وكان زغلول باشا نفسه على رأس مستقبليه لدى وصوله إلى محطة مصر. نفى مع سعد زغلول إلى جزيرة سيشل، وعاد إلى مصر فى يونية عام ١٩٢٣، وفاز فى انتخابات دائرة قنا بالتزكية. اصطحبه زغلول معه فى رحلته إلى لندن عام ١٩٢٤ أثناء المفاوضات مع ماكدونالد. تزوج فى نوفمبر عام ١٩٢٣، واختير سكرتيرا للوفد فى أكتوبر عام ١٩٢٧م. تولى وزارة المواصلات فى وزارة النحاس باشا فى مارس عام ١٩٢٨.

•• مرقس حنا ١٨٧٢م- ١٩٣٤م:

حصل على شهادة الحقوق من جامعة مونبليه بفرنسا وشهادة فى العلوم الاقتصادية من جامعة باريس . . بعد عودته إلى مصر عين فى عام ١٨٩١ وكيلا للنائب العام . وعام ١٩٠٤م استقال للعمل بالمحاماة . اهتم بالرد على الإنجليز عندما اتهموا مصطفى كامل بالتعصب الدينى . كان من دعاة إنشاء الجامعة المصرية . اختاره المحامون وكيلا لنقابتهم عام ١٩١٤م، ثم اختير نقيبا للمحامين لمدة أربع سنوات .

اختير فى أبريل عام ١٩١٩ عضواً بلجنة الوفد المركزية برئاسة محمود سليمان باشا . بعد فشل مفاوضات عدلى فى إنجلترا فى ديسمبر عام ١٩٢١ . تم اعتقال «سعد» ورفاقه إلى جزيرة سيشل . فى القاهرة اعتقل الإنجليز القيادة الجديدة للوفد حمد الباسل ومرقص حنا وخمسة آخرين، وحكمت عليهم المحكمة العسكرية بالإعدام . اختاره سعد زغلول وزيرا للأشغال عام ١٩٢٤م، واختاره «عبد الخالق ثروت» وزيراً للخارجية فى وزارته الثانية عام «١٩٢٧» .

•• فخرى عبد النوربك « ١٨٨١ - ١٩٤٢م»:

من أسرة وطنية أبا عن جد وأبناء وأحفاد قدمت للمساجد وتبرعت لها مثلما فعلت مع الكنائس أسرة الشيخ محمد حسنين العدوى وكيل الجامع الأزهر الأسبق ووالد الشيخ حسنين محمد مخلوف مفتى الديار المصرية فى بداية الخمسينيات .

كانت له غرفة فى دار آل عبد النور بجرجا عرفت بغرفة الشيخ . والبيت نفسه نزل فيه الخديو عباس حلمى الثانى، ثم نزل به «سعد باشا زغلول» .

وفى ٩ ديسمبر عام ١٩٤٢م كانت وفاة «فخرى بك عبد النور» فى مجلس النواب : وبعد أن قبضت سلطات الاحتلال على الطبقة الثانية من الوفد وصدر عليهم الحكم بالإعدام .

تألفت هيئة الوفد الجديدة التى عرفت بالطبقة الثانية من «المصرى السعدى

وحسين القصبى وفخرى عبد النور ومحمد نجيب الغرابلى ومصطفى القاياتى وسلامة ميخائيل».

انضم إلى حزب الأمة عام ١٩٠٥، واتصل بأحمد لطفى السيد. زاره «عباس حلمى» فى منزله بجرجا فى فبراير عام ١٩٠٩، وزارة سعد باشا فى أكتوبر عام ١٩٢١م. أحد ثلاثة توجهوا إلى مقابلة «سعد زغلول» بعد يوم الأربعاء ١٣ نوفمبر، وتم انضمام الأقباط إلى الوفد. شارك فى أحداث ثورة ١٩١٩. مثل جرجا فى جميع الانتخابات البرلمانية «١٩٢٤ ـ ١٩٤٢» صدرت فى السنوات الأخيرة مذكراته عن ثورة ١٩١٩.

•• سلامة بك ميخائيل:

أحد أعضاء الطبقة الثالثة من «الوفد المصرى». كان قاضى محكمة الجنح فى طهطا. حكم بحبس المأمور الذى صفع المعاون أمام الجمهور شهرين. وفى نوفمبر عام ١٩١٠ زار سعد باشا محكمة طهطا أثناء انعقاد الجلسة وبعد انتهاء الجلسة أعلن سعد باشا اغتباطه وتقديره لسلامة بك ميخائيل.

شارك فى اللجنة التى نظمت أحزاب الوطنيين لمدة ٢١ يوما عام ١٩١٩م. قدموه للمحاكمة التأديبية لأنه شارك فى تكريم رئيس الوفد سعد باشا فى أبريل عام ١٩٢١م ولكنه فاز بالبراءة. أوفده «سعد باشا» لحضور مؤتمر دول الحلفاء وتركيا عام ١٩٢٣ لشرح وجهة نظر مصر.

•• راغب إسكندر ١٨٨٨م-١٩٨٣م:

حصل على ليسانس الحقوق فى مايو عام ١٩١٠. تفرغ للعمل فى المحاماة، انضم للوفد المصرى فى وقت مبكر، كان عضوا بمجلس النواب عن دائرة النعناعية. كان المستشار القانونى لكثير من الجمعيات والهيئات والنقابات. لم يمالئ نظام يوليو عام ١٩٥٢. حرموه من حقوقه المدنية والسياسية. يعد من رواد العمل الاجتماعى

فى مصر. كان نائبا لرئيس جمعية التوفيق القبطية «١٩٤٣ - ١٩٦٦»، ثم رئيسا لمجلس إدارتها «١٩٦٧ - ١٩٨٣».

الأسانيد:

- حسن يوسف مذكرات.
- د. حسين مؤنس: مجلة آخر ساعة «مايو عام ١٩٧٣ - دور الأقباط فى ثورة ١٩١٩».
- طارق البشرى: المسلمون والأقباط. فخرى عبد النور: مذكرات «ثورة ١٩١٩».
- قاموس التراجم القبطية.
- لمعى المطيعى: موسوعة هذا الرجل من مصر.
- مجلس النواب، مضبطة جلسة يوم ٩ ديسمبر عام ١٩٤٢.

الدكتور السيد أبو النجا



أستاذنا فى الصحيفة والكتاب «الدكتور السيد أبو النجا» الرائد فى الدعاية والإعلان وتمصير الإدارة الصحفية، والأستاذ فى صناعة الكتاب ابن كفر عيسى أغا «كفر العلماء حاليا» بمحافظة الشرقية حفظ القرآن الكريم حتى سورة القصص فى كتاب «الشيخ أبو درويش» ثم اتصل بالشيخ «منصور أبو هيكل» أحد رجال الطرق الصوفية بمحافظة الشرقية. وكان عهده معه أن يكرر على مسبحته «لا إله إلا الله». . وقد حماه هذا العهد من الوقوع فى الزلل أيام المراهقة حتى قيل عنه إنه من القلائل الذين لم تكن لهم قط علاقات محرمة بالنساء قبل الزواج. كان كل أمله أن يصبح شيخ طريقة لتسليك «إعطاء» العهود، وهذا يتنافى تماما مع اتجاهات الشباب من التردد على دور اللهو والمجون والانشغال بالعلاقات الغرامية. ولعل هذه النشأة الدينية هى التى أمدته برصيد من الهدوء فى عمله على كافة مستوياته ومنحته السماحة فى العلاقات العامة والخاصة والتواضع العلمى والاعتراف بقدرات الآخرين، ولم يتردد فى أن يسجل أنه بعد أن غرس تلاميذه فى مواقع مختلفة عاد ليتعلم من هؤلاء التلاميذ: «عبدالله عبدالبارى، وطلعت الزهيرى وعبدالحميد حمروش والدكتور حسين الغمرى، والدكتور حسن خير الدين».

الأستاذ الكبير الدكتور شوقى ضيف رئيس مجمع اللغة العربية حاليا كان له وصف طريف للدكتور السيد أبو النجا. . عندما كتب مقدمة لكتاب «ذكريات عارية» للدكتور أبو النجا قال الدكتور شوقى ضيف: الدكتور السيد أبو النجا

بمقياس برناردشو إنسان فاضل لأنه أعطى مجتمعه أكثر مما أخذ منه، وهو بمقياس سلامة موسى إنسان خامل لأنه ليس رجل ثورة!

أما الدكتور سيد أبو النجا نفسه فيرى أن هذا الكون لغز محير وما نعرف منه قطرة فى بحر المجهول فعلينا ألا نيأس من الحياة إذا أخفقنا ولسنا هنا بالطبع فى مجال تطبيق مقاييس برناردشو على الدكتور أبو النجا ولسنا فى مجال تطبيق مقاييس سلامة موسى ونظرة إلى حياة سلامة موسى نجده قد بدأ عضوا فى الحزب الشيوعى المصرى القديم عام (١٩٢١)، ثم انقلب عليه وهاجم النظام السوفيتى. . ثم وهب ما تبقى له من العمر داعيا للثقافة وللعلم وإعلاء شأن العقل ومدافعا عن الحرية وحقوق الإنسان، ولم يكن السيد أبو النجا مطالبا بأن يكون شيخا حواريا زاعقا بشعارات ثورية حتى لا يصيبه الاتهام بالخمول. . ويكفيه أنه عاش حياته كلها يعطى لصناعة النشر ورسالته ولصناعة الصحافة ورسالتها وما يمكنها من الانتشار والنجاح.

الإدارى المنضبط:

حصل السيد أبو النجا على دبلوم التجارة العليا عام ١٩٢٩ من مصر. وعقب تخرجه عين مدرسا بمدرسة التجارة المتوسطة بالظاهر بالقاهرة، وهى المدرسة التى عمل فيها أحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى. وسافر عام ١٩٣٧ إلى إنجلترا، وكان أول الحاصلين على دبلوم مجمع التسويق والإعلان فى لندن وهى شهادة تعادل الدكتوراه. . ومن الطريف أن منافسات العمل جعلت بعض زملائه يشيعون أن المؤهل الذى حصل عليه الدكتور السيد أبوالنجا من إنجلترا لا يعادل شهادة الدكتوراه. . وقابل هو هذا الادعاء بهدوء نفس وصفاء ذهن وبمعاملة فيها مسحة من الصوفية القديمة. وانتهى هذا الخلاف عام ١٩٤٣ حين عين أستاذا للإدارة فى كلية التجارة جامعة الإسكندرية، ومن المعروف أن الجامعة قامت بفحص أوراق الدكتور السيد أبوالنجا، وصدر القرار من الجامعة بتعيين السيد أبوالنجا مسبوقا بلقب الدكتور أستاذا للإدارة.

المهم أن الدكتور أبو النجا عرف فى كل الأعمال التى زاولها بالحرص على الدقة

فى المواعيد. وله فى هذا المجال تفسير ذكى هو أن المواعيد عقود بين الناس لا يجوز الإخلال بها، سيما وأن الإخلال بالمواعيد يترتب عليه ضرر محقق للطرفين. ويعود بذاكرته إلى أنه عندما كان فى إنجلترا عام ١٩٣٧ كان له موعد مع «مجمع الدعاية التجارية» وحدث أن أخطأ الطريق إلى مقر الاجتماع فوصل متأخرا، وكانت النتيجة قاسية عليه فقد تأجل إلحاقه بالكلية ١٥ يوما بسبب تأخره عن الموعد ٥ دقائق ومن يومها حرص على الانضباط فى المواعيد.. إلى جانب هذه الصفات كان يتمتع بروح تواضع العلماء وتشجيع العاملين معه فى مجال النشر. وأذكر أن المركز القومى للتنظيم والإدارة كان قد درج على إعداد دورات تدريبية للمرشحين للترقية إلى الوظائف العليا. وفى مجال الثقافة كان البرنامج يشتمل على المحاضرات عن صناعة النشر والطباعة والتوزيع، وأسعدنى أن يكون اختيارى للمشاركة فى تقديم عدد من المحاضرات إلى جانب أستاذنا الدكتور السيد أبوالنجا. وذهبت إلى مقر هذه الندوات بشارع عدلى - على ما أذكر - ووجدته قد سبقنى إلى هناك.. يحافظ على المواعيد إلى هذا الحد.. وفوجئت من المسئولين بالجهاز المركزى للتنظيم والإدارة أن الدكتور السيد أبوالنجا هو الذى رشحنى لأشاركه المحاضرات عن النشر والطباعة والتوزيع.

مدرسة الإدارة الصحفية:

هو أول من وضع أسس الفصل بين الإدارة الصحفية والنشاط التحريرى، وعلى هذا الدرب وجدنا تلميذيه على عبدالبارى يطبق هذا المنهج فى مؤسسة الأهرام والدكتور حسين الغمرى يطبقه فى مؤسسة أخبار اليوم.. وأول ارتباطه بالصحافة المصرية كان مع جريدة «المصرى» أقرب الصحف المصرية إلى الجماهير المصرية والمثقفين الوطنيين. وعام ١٩٤٦ ترك عمله فى الجامعة واحترف الإدارة، حيث عمل مديرا لجريدة المصرى مستجيبا لدعوة محمود أبو الفتح صاحب الجريدة وصاحب الكلمة النافذة فيها.. وبعد أن استولى العسكر على جريدة المصرى ومبانيها وآلات الطباعة فيها اختير عضوا منتدبا لمجلس إدارة مؤسسة أخبار اليوم، ثم عين مديرا لدار أخبار اليوم عام ١٩٥٦. وفى ٢٩ يوليو عام ١٩٦٤ عين عضوا

بمجلس إدارة الأهرام، وفى ١٧ أكتوبر عام ١٩٦٥ عين عضوا بمجلس إدارة مؤسسة الصحافة العربية التى كانت تضم الأهرام ودار المعارف. وفى ٢٤ مايو عام ١٩٧٤ أصدر الرئيس «محمد أنور السادات» قرارا بتعيينه مشرفا عاما على إدارتى مؤسسة التحرير للطباعة والنشر ومؤسسة روز اليوسف بالإضافة إلى ما كان يقوم به من أعمال. وهكذا يكون الدكتور السيد أبو النجا قد وضع بصماته وقدم خبراته إلى المصرى وأخبار اليوم والأهرام وروز اليوسف وصحف دار التحرير.

صناعة الكتاب:

كان له تعبير أخذناه وأخذه الكثيرون عنه، وهو أن «الكتاب صناعة ورسالة»، وعام ١٩٦٦ عين مشرفا على دار المعارف بمصر ورئيسا لمجلس إدارة دار المعارف بلبنان، وشهدت صناعة الكتاب نهضة على أسس علمية فى مصر صاحبتها حركة واسعة نشطة لتوزيع الكتاب حتى أصبحت فروع دار المعارف بمصر نموذجا للتنظيم والإدارة والتوزيع على أسس جديدة.

وأنشأ إلى جانب دار المعارف فى يناير عام ١٩٦٧ «المركز العربى للبحوث والإدارة - آراك»، واختير رئيسا لمجلس إدارة المركز فى يناير عام ١٩٦٧. ونسجل هنا أن موسوعة المعارف البريطانية «بريتانيكا» دخلت إلى مصر فى عهد الدكتور السيد أبو النجا، واستخدم مهارته فى الإعلان عنها، وعلاقاته الواسعة واتصالاته حتى دخلت البريتانيكا مؤسسات علمية وثقافية واقتناها عدد لا بأس به من المثقفين. كان سعرها فيما أذكر ٢٠٠ «مائتى جنيه مصرى لا غير» وصلت الآن إلى عدة ألوف من الجنيهات. وفى ١٣ يوليو عام ١٩٦٧ انتخب رئيسا لاتحاد الناشرين العرب ورئيسا لاتحاد الناشرين المصريين. ولظروف كثيرة تخلى عن رئاسة اتحاد الناشرين المصريين لزميله الكاتب الصحفى والناشر المعروف محمود عبدالمنعم مراد صاحب «دار المعرفة» للنشر والطباعة والتوزيع.

وعام ١٩٨٠ تم الإعلان عن المجلس الأعلى للثقافة، وكان من بين لجانه «لجنة النشر»، واختير الدكتور السيد أبو النجا رئيسا لها واختير الدكتور «حسين الغمرى» رئيس مجلس إدارة الشركة القومية للتوزيع مقررا لهذه اللجنة. وكنت عضوا بهذه

اللجنة التى ضمت أيضا عميد النشر العربى «محمد المعلم» صاحب دار الشروق بالقاهرة وبيروت ولندن ومحمود عبدالمنعم مراد رئيس اتحاد الناشرين المصريين وقت ذاك، والزميل «أبو السعود إبراهيم» رئيس مركز المعلومات بالأهرام وعدداً آخر من المشتغلين بالنشر والطباعة والتوزيع.

دور لجنة النشر:

وقامت هذه اللجنة تحت رئاسة الدكتور السيد أبو النجا بدور مهم فى ترسيخ الأسس العلمية لصناعة الكتاب فى مصر. وكان من بين الموضوعات التى اهتمت بها هو إعداد دراسة علمية عن النشر وعن الناشر. ومراجعة قانون اتحاد الناشرين المصريين، واستمرت اللجنة فى هذه المهمة بعد أن تولى رئاستها «محمود عبدالمنعم مراد» رئيس اتحاد الناشرين المصريين خلفا للدكتور السيد أبو النجا. وظل الوضع هكذا بعد أن تغير اسم اللجنة فى أحد التشكيلات الجديدة للمجلس الأعلى للثقافة إلى اسم «لجنة الكتاب والنشر» وفى السنوات الماضية عقدت اللجنة ندوة بمقر المجلس الأعلى للثقافة لمناقشة مشكلات النشر فى مصر، وكان من بين هذه الموضوعات موضوع يتعلق بتعديل قانون اتحاد الناشرين المصريين. وتم اختيارى لإعداد هذا الموضوع، إذ إن القانون القديم لاتحاد الناشرين كان فى ظل الجمهورية العربية المتحدة. وفى ظل أوضاع اقتصادية واجتماعية طرأت عليها تغيرات كثيرة. وعقدت ندوة فى هذا الشأن حضرها وزير الثقافة «فاروق حسنى» الذى أصدر قرارا بتشكيل لجنة لإعداد مشروع قانون جديد لاتحاد الناشرين المصريين. وينص القرار على أن تكون اللجنة برئاسة أمين عام المجلس الأعلى للثقافة د. جابر عصفور وعضوية محمود عبدالمنعم مراد والمهندس إبراهيم المعلم والمستشار القانونى لوزير الثقافة وكاتب هذه السطور صاحب الدراسة التى أشرنا إليها، وتم إعداد المشروع وأقره مجلس الدولة. ونشرت الصحف أن وزير الثقافة أرسله إلى مجلس الوزراء ليأخذ طريقه إلى مجلس الشعب لمناقشته وإعداده ليصبح أحد قوانين الدولة. وليحل محل القانون القديم الذى لم يعد يصلح للعمل به. وتغيرت أمور كثيرة فى اتحاد الناشرين العرب واتحاد الناشرين المصريين فى لجنة النشر.

تمصير السياسة والإدارة:

نستطيع أن نقول إن مدرسة الدكتور السيد أبو النجا فى الإدارة الصحفية، وفى صناعة النشر قد نمت ووجدت فرصتها من داخل المدرسة الوطنية للصحافة فى جريدة المصرى وخاصة بعد أن آلت ملكيتها لآل أبو الفتح والوفد. وأصبحت «المصرى» قوة ضاربة ودافعة للصحافة والثقافة المصرية، وبفضل توجيهات «محمود أبو الفتح» عامة وجهود «أحمد أبو الفتح» خاصة ترعرعت على صفحات المصرى أقلام د. محمد مندور ومحمود عبدالمنعم مراد، ود. شكرى محمد عياد، وعبدالرحمن الخميسى وعبدالرحمن الشرقاوى ومحمود أمين العالم وعبدالعظيم أنيس وزكريا الحجاوى، وانتهى هذا كله فى مايو عام ١٩٥٤ باستيلاء العسكر على «المصرى» وأرضها ومبانيها وأدواتها وكل ما ملكت أيديها.

ورغم هذا بقيت لمصر هذه الأقلام على المستوى الفكرى وعلى المستوى التنظيمى والإدارى بقيت مدرسة الدكتور السيد أبو النجا، وكانت المؤسسات الصحفية فى حاجة إلى أفكاره وجهوده مثل «هيئة الصحافة العربية المتحدة» وارتباطه بالأعمال الصحفية طوال أربعين عاما على وجه التقريب من ١٩٤٣ - ١٩٨٣م.

وكان نشاطه البارز عميق الأثر فى تمصير الإدارة الصحفية فى عدد من المؤسسات المهمة وغرس عددا من العناصر المصرية الواعدة على العديد من أنشطتها. . وكان يسهر على دعم هذه العناصر لاكتساب الخبرة الصحيحة اللازمة للنجاح. وتولى وأشرف على العديد من الدراسات البحثية والتسويقية التى كان لها أهميتها الوطنية، وبهذا أصبح لدى مصر كتيبة من الخبراء فى الإدارة الصحفية واقتصادياتها. . الدكتور السيد أبو النجا والدكتور صليب بطرس وعلى عبدالبارى وطلعت الزهيرى والدكتور حسين الغمرى وعبدالحميد حمروش والدكتور حسن خير الدين رحم الله من رحل منهم وأمد فى عمر من بقى على قيد الحياة.

الأوانى المستطرقة:

إذا كان قد عرف بيننا فى عمله بجرائد المصرى والأهرام وأخبار اليوم

وروزاليوسف ثم بدار المعارف ومركز آراك، وبعمله بجامعة الإسكندرية كأستاذ للإدارة فإن مواهبه قد رشحته لعدد من الأعمال الأخرى ولكن أعماله جميعا أشبهها بالأوانى المستطرقة تختلف فى أشكالها، ولكنها تصب فيها جميعا فى مستوى واحد. وفى النهاية تشكل شخصية «الدكتور السيد أبو النجا» عمل أستاذا غير متفرغ بكلية المعاملات التابعة لجامعة الأزهر. . ونشط فى الإعلانات والأعمال الطباعية. . وأعد دراسات التنظيم والإدارة لهيئة البرق والبريد والهاتف وقطاع البترول بالجمهورية العربية المتحدة، وأعد دراسات لعادات المستهلكين للمشروعات الغازية. . وبهذا الصدد مازلت أذكر ما قرأته له حول «الذوق» فى مجال الإعلان قال: إن الإعلان ذوق قبل أن يكون فنا. . فمثلا لا يليق أن تدخل دورة مياه عامة وتجد أمامك إعلانا يقول: «اشرب كوكاكولا»، وفى ١٣ سبتمبر عام ١٩٦٩ عين عضوا بمجلس إدارة المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين، وتولى الإشراف على المشروع الثقافى الإسلامى للطباعة ونشر التراث الإسلامى. وهذا يتفق مع نشأته الأولى التى تحدثنا عنها واقترابه من المتصوفة وصقل نزعته الدينية.

معهد الإعلام:

فى عامى ١٩٧٠ و١٩٧١م أعيد العمل بمعهد الإعلام للدراسات العليا بعد أن كان معهد الصحافة القديم قد صرف النظر عنه. ومن حسن حظنا كان أساتذتنا فى المعهد الجديد جيلا عظيما من الأساتذة: الدكتور السيد أبو النجا والدكتور خليل صابات والدكتور جمال العطيفى والدكتور محمد صبحى عبدالحكيم والدكتور صليب بطرس وخبير الطباعة إسماعيل شوقى والدكتورة جيهان راشتى. وكانت مجموعة الطلبة الذين تم قبولهم حسب الشروط المطلوبة من العاملين بالصحافة وأجهزة الثقافة والإعلام. وقدر أن تكون أول دفعة من هذا المعهد الجديد محدودة العدد. . ثلاثة بدرجة الامتياز: رجب البنا وعبدالله بلال وكاتب هذه السطور. ومعهم عدد من العناصر المعروفة نذكر منهم: السيدة مها عبدالفتاح وصلاح قبضايا ومحمود بسيونى ومحمود عارف وفوزى عبدالحميد وأحمد مصيلحى. ويعود اهتمامى بهذا المعهد الذى نجحت فيه بالامتياز إلى قصة ثأر بينى وبين المشرفين على

المعهد القديم الذى تقدمت إليه بعد تخرجى فى قسم الفلسفة عام ١٩٥٠ . ونجحت فى الامتحان التحريرى، وبقى الامتحان الشفهى وهذا كان مسألة شكلية . . ولكن حظى العاثر أوقعنى فى اثنين من الأساتذة الدكتور فؤاد حسنين والدكتور إبراهيم رزقانة ، وكان معروفا عنهما أنهما يميلان للفكر النازى ومعجبان بهتلر وموسولينى ، وكنت واحدا من جيل غالبيته مبادئ الوفد فى وجدانه وأفكار اليسار فى عقله . . وعرفت نهاية مشوارى إلى هذا المعهد وأنا أمامهما فى اللقاء الشفهى . . وكنت أحد الطلبة الذين عقد لهم مجلس تأديب وسيق بنا إلى سجن الأجانب بسبب مواقفنا المعادية للقصر ومطالبتنا بالجمهورية وتأييدنا لمصطفى النحاس . . انتهى الموقف بعدم دخولى معهد الصحافة عام ١٩٥٠ ، وأرسلت خطابا ساخنا لبلدياتى من أسيوط د . فؤاد حسنين أبثه حزنى على مصير الأساتذة الذين ينتقمون من تلاميذهم لخلاف سياسى وفكرى . والحق أن المرحوم الدكتور فؤاد حسنين ظل يذكر بالأسف هذا الخطاب إلى أن توفى وحيدا أمام التليفزيون فى منزله بالمعادى . . رحمه الله وغفر له .

آراء خلافيـــة:

وأستاذنا الدكتور «السيد أبوالنجا» شأنه شأن أى أستاذ له أفكاره الخاصة به . قد نتفق أو نختلف معه فيها . . ولكن يبقى الاحترام والاحتفاظ لكل طرف بحق الاختلاف وحرية التعبير .

عام ١٩٧٠ م سافر د . أبو النجا إلى اليابان وعاد ليقول : إن اليابان هو البلد الذى لا ينتظر فيه العاملون بقشيشا عن خدماتهم . وكنا نود منه كأستاذ أن يحدثنا عن أمور أكثر أهمية من البقشيش . كان يؤثر المحاضر على الخطيب أى المباحث الذى يقدم الحجج ، فهذا أفضل عنده من الخطيب الزاعق الذى يثير مشاعر السامعين . كان يؤثر الخبير على الأستاذ ويفضل الندوة على الاجتماع العام . وكان يقول إنه يخاف من البريق إذا لم يكن للذهب . . باختصار كان يؤمن بالخبرة والعمل والتجربة أكثر من العلم النظرى . قال : كثيرون من الفلاحين يزرعون أحسن من

خريجي كليات الزراعة. وكثيرون من الآباء ينجحون فى تربية أولادهم دون أن يكونوا متخرجين فى معاهد التربية. بل إن كثيرين من أبناء علماء التربية فاشلون.

وله رأى طريف فى مجانية التعليم يرى بصراحة أن الدولة تبالغ فى رعاية الأغنياء، والنتيجة أن المدارس امتلأت بمن هم فوق طاقتها فتحول التعليم إلى معاهد لمنح جواز المرور إلى وظيفة حكومية لا عمل لها إلا صرف المرتب الصغير فى آخر الشهر.

هذه آراء خلافية كما قلت، وقد ترك لنا بعض أعماله التى قد نتفق حولها أو نختلف، وجل من لا يخطئ «ذكريات عارية - دراسة السوق - إصلاح الإدارة - مهمة سياسية - مبادئ الاقتصاد والتجارة - أعمال السكرتارية» وفى ١٢ أكتوبر عام ١٩٩٢ رحل خبير الإعلان والإعلام والنشر.. الأستاذ الدكتور السيد أبوالنجا.

الأسانيد:

١ - د. السيد أبو النجا.. ذكريات عارية.

٢ - سمير السيد أبو النجا.. الأهرام ٢٢/ ٣/ ١٩٩٩.

٣ - محاضر جلسات لجنة النشر بالمجلس الأعلى للثقافة عام (١٩٨٠).

٤ - محمد شلبى.. مع رواد الفكر والفن.

أمين الرافعي



فى ١٨ ديسمبر عام ١٨٨٦م قدر الله له أن يولد، وفى ٢٩ ديسمبر عام ١٩٢٧م رحل إلى رحاب الله، وبين الميلاد والرحيل واحد وأربعون عاما عاشها «رجل من الزمن الجميل» أشيب شاحب اللون خفيض الصوت، أفاض الله عليه بالوقار، يعتقد بأن «جميع كنوز الأرض لا تعادل شرف الإنسان، أصابه مرض السكر، رزئ فى وحيده - ولده - قرة عينه، وكان «أمين الرافعى» فى مكة المكرمة فركع ساجدا لله مفوضا له أمره وبلل سجادة الصلاة بدموعه، وماتت أمه وهى صغيرة، وعندما كان فى التاسعة من عمره رحل شقيقه «إبراهيم» أما عمه «الشيخ عبد القادر الرافعى» فقد تمت مراسيم توليه منصب الإفتاء خلفا للشيخ «محمد عبده» شيخ الحنفية فى مصر، ولما بلغ عمه الدار نزل الحوذى ليفتح له باب العربة، فإذا هو قد فارق الحياة، وعاش «أمين الرافعى» . . المرض ينحت فى جسمه والسقم يزيد يوما فيوم والأطباء ينصحون والأصدقاء يستحلفون والأهل يلومون وهو صامد نزيه القصد مستقل الرأى، من أنظف الصحفيين يدا وقلما وقلبا، نزل إلى دائرتى السيدة زينب وبولاق يؤيد مخلصا «سعد زغلول» فى انتخابات «الجمعية التشريعية» عام ١٩١٣م، عمل تحت لواء الوفد ومحبّا لـ «سعد» دون أن يخرج من الحزب الوطنى رغم اختلافه مع اللجنة الإدارية للحزب، وفى فترة أخرى احتدم الخلاف بينه وبين «سعد باشا»، وحاول أحد مريديه أن ينال من «سعد» أمامه فأوقعه على الفور وقال: إن سعد هو أقرب الناس إلى الشعب، وهو أكثر الزعماء كفاءة ومقدرة على

الاضطلاع بأعباء الزعامة»، وكان «أمين» يرى أن الوفد ليس حزبا وإنما وكيل للأمة.

عام ١٩٠٥م التحق «أمين الرافعى» بمدرسة الحقوق الخديوية، وتخرج فيها عام ١٩٠٩م، وطوال سنوات دراسته بالحقوق كان يكتب فى جريدة «اللواء». نشر قصة كفاح «جاريبا لدى» الوطنى الإيطالى وانضم إلى هيئة تحرير اللواء حتى تم تعطيلها نهائيا فى ٣١ أغسطس عام ١٩١٢م. وظل يكتب فى «العلم» حتى تم تعطيلها نهائيا فى ٧ نوفمبر عام ١٩١٣ . ورأس تحرير «الشعب» حتى أعلن هو نفسه توقفها عن الصدور فى ٢٧ نوفمبر عام ١٩١٤م حتى لا ينشر خبر إعلان الحماية على مصر الذى لاح وقت ذاك فى الأفق، وكان من أوائل المعتقلين لمعارضته فرض الحماية، ومعارضته لمنع عودة «الخديو عباس حلمى الثانى» إلى البلاد «١٩ ديسمبر عام ١٩١٤م»، وفى مذكراته يسجل «سعد زغلول» أنه تدخل لدى رئيس الوزراء «حسين رشدى» ولدى «السلطان حسين كامل» للإفراج عن «أمين الرافعى» وزملائه من الحزب الوطنى المعتقلين، ويضيف «سعد زغلول» أن «محمود أبوالنصر» نقيب المحاميين «وشى للسلطان بأنى أسعى ـ ليل نهار ـ لأحل محل شاويش وفريد»! ـ سعد باشا يقصد عبد العزيز جاويش ومحمد فريد ـ ويرد «سعد» على محاولة أبى النصر. «فرية كاذب حسود جاهل! لأنى لم أشفع فى هؤلاء بصفة كونهم رجال حزب، بل كونهم أشخاصا أعرف بعضهم بكرم الأخلاق» المذكرات جـ٥ .

المهم أن «السلطان حسين كامل» استدعى «أمين الرافعى» بعد الإفراج عنه وطلب منه إعادة إصدار جريدته «الشعب» وهو خارج وضع كبير الأمناء فى جيبه خمسة آلاف جنيه! فرفض «أمين» بإباء وشمم رغم قيمة هذا المبلغ بمقاييس ذلك الزمان، ولم يكن فى جيبه إلا عشرة قروش.

كانت وطنيته متأصلة فى نفسه، اختير سكرتيرا لـ «نادى المدارس العليا» الذى كان يضم غالبية زعامات الشباب الوطنى حتى ديسمبر عام ١٩١٤م عندما أغلقته سلطات الاحتلال بعد فرض الحماية، وفى ١٤ ديسمبر عام ١٩٠٩م دعا إلى إعلان الحداد بمناسبة ذكرى احتلال القاهرة فى ١٤ سبتمبر عام ١٨٨٢م، ومن نوفمبر عام ١٩٠٩م ـ يناير عام ١٩١٠م نشر سلسلة مقالات عن «قناة السويس»، ودعا عام

١٩١١م إلى تنشيط الحركة النقابية، ووقع فى خلاف شديد مع «الخديو عباس حلمى الثانى» واستقال من رئاسة تحرير «العلم» جريدة الحزب الوطنى، عندما أحس بتقارب بين أعضاء اللجنة الإدارية للحزب وبين الخديو.

تحت لواء الوفد:

كانت البداية التأييد لسعد زغلول فى انتخابات الجمعية التشريعية دائرتى السيدة زينب وبولاق تأييدا مخلصا على الرغم من لوم اللجنة الإدارية للحزب الوطنى لأمين الرافعى، وعندما بدأت حركة الوفد فى ١٣ نوفمبر عام ١٩١٨ رأى «أمين الرافعى» فى الوفد قوة فتية جديدة يحسن الربط بينها وبين الحزب الوطنى وأصبح من عناصر الحزب الوطنى القريبة إلى الوفد وإلى «سعد زغلول» واندفع «أمين» فى تشجيع حركة التوكيلات للوفد واعتبره وكيلا عن الأمة وليس مجرد حزب، وبذل «أمين» جهودا مخلصة للتوفيق بين أعضاء الحزب الوطنى والقيادة الوطنية الجديدة التى يرأسها «سعد زغلول» وقال أمين تحت عنوان «ثقتنا بالوفد»: «إن الوفد منذ أن عهدت إليه الأمة بأداء المهمة المقدسة قام بهاخير قيام ولم يترك فرصة دون أن ينتهزها، ولم يدع لحظة دون أن يرفع صوته مطالبا بحقوقها معلنا تمسكه بهذه الحقوق وبالتوكيل الذى بين يديه».

وظلت العلاقات بين «سعد» و«أمين الرافعى» تقوى بمرور الأيام دون أن تؤثر فيها انتقادات الرافعى لبعض المواقف، وعندما اعتقلت سلطات الاحتلال «سعد زغلول» وصحبه فى ٨ مارس عام ١٩١٩، هاجم «أمين» هذه الخطوة، ثم اندلعت الثورة فانصهر «أمين» فى بوتقتها مطالبا الحزب الوطنى بأن يكون وقودا لهذه الثورة، ومطالبا بعودة «الزعيم سعد زغلول» وقال صراحة إن الثورة أكبر من الأحزاب، ودعا إلى نبذ التعصب الحزبى، واختير «أمين الرافعى» سكرتيرا مساعدا للجنة الوفد المركزية «سوف نفرد لها فقرة خاصة»، وواصل «أمين الرافعى» مسيرته المؤيدة للوفد والمحبة لسعد زغلول وهاجم الاعتقال الثانى لسعد وصحبه من أعضاء الطبقة الأولى للوفد إلى سيشل فى ٢٣ ديسمبر عام ١٩٢١ وظل يطالب بالإفراج عنهم وعودتهم إلى الوطن، وعندما حاولت قوى الاحتلال والقصر أن تحول بين

سعد والحكم بعد أن حصل على الأغلبية الكاسحة فى انتخابات يناير عام ١٩٢٤ انطلق صوت «أمين الرافعى» يدافع عن حق الوفد أن يحكم مادام قد فاز بالأغلبية .

لجنة الوفد المركزية:

وتم الإفراج عن «سعد» وصحبه ، وسافر أعضاء الوفد من ميناء بورسعيد يوم الجمعة ١١ أبريل عام ١٩١٩ قاصدين إلى فرنسا ، وكان «سعد باشا» قد أوصى بأن تؤلف «لجنة مركزية للوفد» فى القاهرة من ذوى الرأى والمكانة فى البلاد لتكون همزة وصل بين الوفد والأمة ، وتعمل على تبليغ نشاط الوفد للشعب ، وتتولى تنظيم الجهاد داخل البلاد ضد الاحتلال ، وتشكلت اللجنة برئاسة «محمود سليمان باشا» رئيس حزب «الأمة» السابق ووالد «محمد محمود» الذى اعتقل مع «سعد باشا» ، يوم ٨ مارس عام ١٩١٩م و«إبراهيم سعيد باشا» وكيلا وأمينا للصندوق ، ومحمود أبو حسين وكيلا و«عبد الرحمن فهمى» سكرتيرا ، و«أمين الرافعى» سكرتيرا مساعدا .

وأصبح «عبد الرحمن فهمى» القوة التنفيذية الضاربة ، و«أمين الرافعى» قوة فكرية - إذا صح هذا التعبير - يكتب البيانات ويدبج المقالات برأى الوفد ومواقفه وتوجيهات الزعيم «سعد زغلول» ، وفيما سبق ، عن موضوعات كنا قد نشرنا أسماء أعضاء هذه اللجنة التاريخية ونعيد النشر اليوم استكمالا للفائدة . . وهم مع حفظ الألقاب : الدكتور فؤاد سلطان أمينا ثانيا للصندوق ، والأعضاء «عاطف بركات والقمص بولس غبريال ، على ماهر ، الدكتور محجوب ثابت وحسنين عبدالغفار ، فتح الله بركات ، فخرى عبد النور ، إبراهيم الطاهرى ، على محمود سليمان ، عبد الحميد إبراهيم صالح ، عبد الجليل أبو سمرة ، أمين إسماعيل ، محمد السيد أبو على ، إبراهيم الهلباوى ، مرقص حنا ، توفيق دوس ، محمد محمود خليل ، الشيخ محمد عز العرب ، عبد الرحمن الرافعى ، الدكتور حسن كامل ، الدكتور محمود عبد الرازق ، السيد خشبة ، على محمود عبد الخالق مدكور ، محمد كامل جلالى ، محمد محفوظ ، كامل بطرس ، أحمد السيد ، الدكتور حبيب خياط ، علوى الجزار ، راغب عطية ، على المنزلاوى ، السيد حسين

القصبى، أحمد الشيخ، عبد الواحد الوكيل، محمود عبد النبى، عثمان سليطا، سالم السيد، عبد الحميد العلايلى، عبد الرحمن محمود، محمد كمال أبو جازية، بسيونى الخطيب، حسين هلال، وعبد الستار الباسل».

والوفد يرد الجميل:

وثمة موضوعات رأينا أن نفرد لها فقرات خاصة اتفقت أو اختلفت فيها مواقف الوفد وأمين الرفاعى مثل تصريح ٢٨ فبراير ولجنة الدستور وجريدة الأخبار، ولكننا نمهد هنا بتقرير سعد باشا والوفد لأمين الرافعى».

عندما أصبح «سعد زغلول» وكيلا للجمعية التشريعية بالانتخاب عام ١٩١٣م وتقديرا منه لأمين الرافعى عرض عليه أن يتولى منصب سكرتارية الجمعية التشريعية، واعتذر أمين حتى يتفرغ لنشاطه الصحفى، وبعد أن أوقف «أمين الرفاعى» إصدار جريدة «الشعب» حتى لا ينشر خبر فرض الحماية على مصر «ديسمبر عام ١٩١٤» واعتقلته سلطات الاحتلال تكلم «سعد» فى شأن الإفراج عنه وعن زملائه المعتقلين أعضاء الحزب الوطنى. تكلم مع «حسين رشدى باشا» رئيس الوزراء ومع السلطان حسين كامل. ونال سعد رذاذ الوشاية من «محمود أبو النصر» نقيب المحامين لدى السلطان، أن سعد يرغب فى أن يحل محل «محمد فريد» فى رئاسة الحزب الوطنى.

وفى ٢٤ يناير عام١٩٢٠ كتب «سعد زغلول» من باريس إلى «أمين الرافعى»: «أشكر مع إخوانى حضرتكم على عبارات الثناء التى وجهتموها لنا، وما التفضل فى موجب هذا الثناء إلا للأمة عضدتنا باتحادها وتضامن أفرادها، وإننا نقدم لها أوفر تشكراتنا لاتحادها على توكيلنا وإجماعها على الامتناع عن المفاوضة إلا بواسطتنا».

وكتب «سعد زغلول» يناير ٧ مارس عام ١٩٢٠م: «سرنا أن أصدر أمين بك الرافعى جريدة الأخبار ـ صدرت فى ٢٢ فبراير عام ١٩٢٠م ـ التى نرجو لها التوفيق والنجاح».

وكتب فى ١٨ أبريل عام ١٩٢٠م: «لقد سرّنا ما قرأناه فى جريدة الأخبار الشارحة لمقاصد الوفد، وحرصا على مبدئه وإلزام حدود توكيله الذى أعطته الأمه له».

وفى ٧ مايو عام ١٩٢٠م كتب «سعد زغلول» لعبد الرحمن فهمى: قرأت فى جريدة الأخبار حملة يدافع فيها حضرة أمين بك الرافعى عن الوفد وأعماله ويخطئ الخارجين عليه والناقدين لخطته فارتحت لمفادها».

وكتب «سعد زغلول» من سيشل عام ١٩٢٢: «قرأت ملاحظات أمين بك الرافعى على الدستور ونحن فى سيشل فأعجبنا به كأنما كان يعبر عن أفكارنا وآرائنا».

وعندما انشق الأحرار الدستوريون عن الوفد لم تنضم جريدة «الأخبار» إلى أى فريق.. ولكنها ناصرت سعد زغلول فى كل مواقفه الكفاحية وطالبت بإعادته من المنفى وظاهرته وهو يفاوض.

وعرفنا كيف دافع «أمين الرافعى» عن حق سعد والوفد فى تولى الحكم بعد الغالبية الكاسحة التى حصل عليها فى انتخابات عام ١٩٢٤م.

وتعرضت «جريدة الأخبار» لأزمة مالية، وبادر «سعد باشا» إلى عرض مساعداته على أمين الرافعى الذى اعتذر شاكراً، ثم تعرضت لأزمة أعنف فى أواخر عام ١٩٢٣م فكرر «سعد» عرض المساعدة فرد «أمين» قائلا: «وقع من نفسى أحسن وأعظم وقع ما علمته من استعداد معاليكم لإقراضى مبلغ كبير من المال أعالج به الأزمة التى تجتازها الأخبار الآن على أن أرده عندما تتحسن أحوال الجريدة، وإنى لعاجز كل العجز عن أداء واجب الشكر لكم، وأكرر لمعاليكم شكرى واعترافى بجميل ما أظهرتموه من جميل العواطف التى لا أنساها ما حييت». واعتذر أمين الرافعى مرة ثانية عن قبول المساعدات.

وعندما وقع اعتداء على «سعد زغلول» فى ١٢ يوليو عام ١٩٢٤م. بادر أمين الرافعى باستنكار الجريمة وأكد على ضررها بالبلاد وسمعتها وعانقه «سعد» شاكرا نبل عواطفه وشريف مواقفه.

وكتب «الدكتور محمود عزمى» إلى «أمين الرافعى» من باريس : أنا سعيد جدا لعلمى بوجودك فى فيينا . . أكون سعيدا لو رأيتك هنا فى باريس . . أبلغت سلامك إلى «مصطفى بك النحاس» ، معى سعادة «عبد الرحمن فهمى بك وهو يهديك مزيد السلام» .

وكتب «عبد الرحمن فهمى» إلى «سعد زغلول» فى ٢٥ فبراير عام ١٩٢٥م : «نحمد الله الذى أتاح لزميلنا أمين بك الرافعى إصدار جريدة الأخبار» .

تصريح ٢٨ فبراير:

عرضنا لموقف «أمين الرافعى» من «سعد زغلول» ومن الوفد وعضويته فى لجنة الوفد المركزية ، وعرضنا لموقف الوفد وسعد من تشجيع أمين الرافعى وإحاطته بالود ، وحدث أن انتابت هذه العلاقة بعض الخلافات المتبادلة ، ونقول للتاريخ إن الوفد لم يكن البادئ أبدًا بما يوجب الخلاف ، وإن «سعد زغلول» كان يرحب دائما بمحاولات تصفية الجو ، وقد سعى إلى لقاء الطرفين «محمد سعيد باشا» و«فتح الله بركات باشا» ، وكان رد الوفد أنه يرحب بعودة «الأستاذ أمين الرافعى» إلى مكانه الأول منه ، ولكن «أمين الرافعى» كما جاء فى كتاب «صبرى أبو المجد عن أمين الرافعى» (إنه كان كالحصان الجامح يعض على اللجام فلا يستطيع أحد كبح جماحه ، وأن «سعد زغلول» قد حاول من جانبه أن يرأب الصدع الذى حدث فى العلاقات التى تربطه بأمين الرافعى ولكن التشبث فى الموقف كان من جانب «أمين الرافعى») .

إلا أن الخلاف لم يبعد «أمين الرافعى» عن الاتفاق مع الوفد فى القضايا الرئيسية التى تمس مستقبل البلاد ، ففى ٢٨ فبراير عام ١٩٢٢ أعلنت إنجلترا من جانب واحد التصريح الذى عرف «بتصريح ٢٨ فبراير» الذى أعلنت فيه إنجلترا «أن مصر دولة مستقلة» ولكنها ذيلت التصريح بما عرف بالتحفظات الأربعة ، وقد انخدع البعض فى هذا التصريح وللأسف لم يزل بعض دارسى التاريخ ينخدعون فى جوهر هذا التصريح ، وقد أعلن «سعد زغلول» بخبرته بأساليب الإنجليز وبدراسته الفاحصة

للتحفظات أعلن أن التصريح هو «أكبر نكبة حلت بالبلاد»، وبالمثل أدرك «أمين الرافعي» حقيقة هذا التصريح وكتب فى ٢ مارس عام ١٩٢٢ : «إننا لا نقتنع بكلمات مثل كلمات إنهاء الحماية أو الاعتراف بالاستقلال أو دولة ذات سيادة . . إن القواعد المعروضة ليست صالحة لأن تكون أساسا لحل المسألة المصرية حلاً نهائيا مرضيا ما دامت مصر محرومة من استقلالها التام الذى يجب أن تتمتع به البلاد بطريقة فعلية كاملة»، وإلى الذين انخدعوا فى تصريح إنجلترا وفى تزكية التصريح من جانب «عبد الخالق ثروت ومن تأييد «عدلى يكن» للتصريح نسجل التحفظات الأربعة وللقارئ أن يتمعن فيها :

١ ـ تأمين مواصلات الإمبراطورية فى مصر .

٢ ـ الدفاع عن مصر فى كل اعتداء أو تدخل أجنبى .

٣ ـ حماية المصالح الأجنبية فى مصر وحماية الأقليات!

٤ ـ السودان!

وكلها تسلب الاستقلال الحقيقى وتفرض الوصاية على البلاد .

جريدة الأخبار:

أصدرها فى البداية «الشيخ يوسف الخازن» اللبنانى عام ١٨٩٦م، وعاد إلى لبنان وتنازل عن رخصة الجريدة لـ «عبد الحميد حمدى» الذى أصدر جريدة السفور، فأصدر جريدة الأخبار فى أخريات عام ١٩١٨م، ثم آلت جريدة «الأخبار» إلى شركة الصحافة الوطنية، وكان «أمين الرافعى الشريك فيها، وأصدر «أمين الرافعى» جريدة الأخبار فى ٢٢ فبراير عام ١٩٢٠م، وتوقفت عام ١٩٢٧م، وخاضت «الأخبار» معركة الدستور ولجنة الدستور التى أطلق عليها «سعد زغلول» إنها «لجنة الأشقياء»، دعا «الرافعى» إلى جمعية وطنية منتخبة من الشعب لإعداد الدستور، ثم نشر سلسلة من المقالات يطالب بضرورة تقييد سلطة الملك بحيث «يملك ولا يحكم» وارتاح سعد وهو فى سيشل إلى هذا الموقف وصفحة أمين

الرافعى طويلة وعريضة ومشرفة، ولكنه سرعان ما غاب عن الساحة، إذ إنه رحل إلى رحاب الله فى ٢٩ ديسمبر عام ١٩٢٧م، رحمه الله.

الأسـانيد:

١ ـ أنور الجندى «الصحافة السياسية».

٢ ـ سعد زغلول «مذكرات جـ ٥» تحقيق د. عبد العظيم رمضان.

٣ ـ صبرى أبو المجد ـ أمين الرافعى.

٤ ـ د. عبد العزيز رفاعى ـ ثورة مصر ١٩١٩م.

٥ ـ د. محمد أنيس ـ وثائق ثورة ١٩١٩م.

بدر الدين أبو غازى



شرفت يوما بمعرفته، وسعدت أياما بصداقته، ولأنه كان متعدد التجارب الثقافية.. قانونية واقتصادية وفنية وأدبية كنا نعهد إليه بمراجعة وفحص الكتب المرشحة للنشر ترجمة وتأليفًا فى كافة المجالات السابقة، تولى أمور وزارة الثقافة فى نوفمبر عام ١٩٧٠م فى الوزارة الأولى للدكتور محمود فوزى ولم يجدد له فى وزارة الدكتور «محمود فهمى» الثانية فى مايو عام ١٩٧١م.. وذلك بقصة طريفة يمكن أن نرويها للقارئ.. وقعت أحداث مايو ١٩٧١ «١٣ و١٤ و١٥ مايو»، وكان السادات يشرف بنفسه على المجموعة التى تتولى الترشيحات، وكان من ضمن المرشحين الجدد «وجيه أباظة» ومن بين وزراء الوزارة السابقة «بدر الدين أبو غازى» وفجأة - لأجل النصيب - حضر وفد من الصعيد يقوده «أحمد عبد الآخر - محافظ الجيزة فيما بعد» لتأييد السادات وتحيته، وخرج «أنور السادات» يشكر الصعايدة و«أحمد عبد الآخر» وعاد ليقول لمجموعة التشكيل.. ارفعوا اسمى وجيه أباظة وبدر الدين أبو غازى.. واستنتجت المجموعة أن ثمة معلومة مفاجئة عرفها «السادات» بأن هذين الاثنين لهما علاقة بمجموعة مراكز القوى التى كانت قدمت استقالاتها حتى تحدث فراغا فى النظام، كان بدر الدين وزيرا فى الوزارة السابقة ولم يقدم استقالته مع الذين قدموا استقالاتهم! ووجيه أباظة لم يكن فى الوزارة السابقة وبالتالى لم يقدم استقالة، المهم أن قصة ترشيح وجيه أباظة وبدر الدين ثم إلغاء هذا الترشيح كانت معروفة لعدد من كبار الصحفيين: ولاحظ «بدر الدين» وهو عائد إلى بيته أن كشك الحراسة اختفى وأدرك الأمر!

المسح الاجتماعى الشامل للمجتمع المصرى «١٩٥٢ ـ ١٩٨٠» والذى أطلق عليه البعض «وصف مصر الثانى» كان آخر الأعمال المهمة التى شارك فيها «بدرالدين أبوغازى»، وقام «المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية» بإصدار هذا العمل الكبير تحت إشراف الدكتور «محمد صبحى عبد الحكيم» ثم «دكتور أحمد خليفة رئيسا للجنة المحركة للمسح»، وغطى هذا المسح ١٤ «أربعة عشر» محورا: «الفنون والآداب ـ الإعلام ـ العدالة ـ الأمن ـ الصحة ـ التعليم ـ الخدمات ـ الإسكان ـ النقل والمواصلات ـ البناء الاقتصادى ـ البناء السياسى ـ التدرج الاجتماعى ـ الأسرة ـ السكان». وصدرت كل دراسة من الدراسات الخاصة بكل محور فى كتاب مستقل، وإلى جانب هذه الكتب المستقلة صدر مجلد ضخم يضم ملخصات لهذه الدراسات كمؤشرات عامة من هذه المحاور المختلفة، واختير لرئاسة اللجان المتخصصة التى أعدت هذه الدراسات أساتذة علماء. . كل فى المجال الذى اشتهر فيه، فاختير «بدر الدين أبو غازى ـ وزير الثقافة سابقا» رئيسا للجنة «الفنون والآداب» واختار رحمه الله وأحسن مثواه لمعاونته وتغطية الفروع المختلفة فى «الفنون والآداب» تسعة من الزملاء لتغطية المجلات المختلفة فى «الفنون والآداب» وهم حسب الترتيب الأبجدى: «أحمد حمدى محمود ـ سمير فريد ـ د. سعد البحراوى ـ د. صبرى حافظ ـ د. ضياء أبوغازى ـ على أبو شادى ـ فرج العنترى ـ فؤاد دوارة ـ لمعى المطيعى» وتفضل بما عرف عنه من دماثة الخلق والتواضع بالاتصال بى ليبلغنى المهمة التى رآها مناسبة لى أو مناسبا لها وهى «مسح حركة النشر فى مصر». وانتهت البحوث كلها على خير وعاود الاتصال بكل ما عرف عنه بالجدية والإحساس بالمسئولية ليخبرنى أنه مسافر للخارج فى رحلة علاج وكلمات شكر رقيقة على تعاوننا معه وتوصية أخوية بمتابعة البحث إلى حين إصداره . . ولا بأس أن نتذكر المرور على «المركز» وعند «فلان» أو «فلانة» لتسليم قيمة المكافأة! إياه! بإحساس الأخ الأكبر الودود يوصى ـ عند سفره ـ الإخوة الأعزاء عليه بما يهمهم من أمور، ودعاء منه أن يرى وجوهنا على خير، ودعاء منا بالشفاء والعودة إلينا بالسلامة، وسافر فى هدوء دون ضجة إعلامية أو غير إعلامية إلى «بوسطن» بالولايات المتحدة الأمريكية، وفى ١١ سبتمبر عام ١٩٨٣ جاء الخبر الحزين برحيل «بدر الدين أبو غازى»، ويكون قد عاش على هذه الأرض «ثلاثة وستين عاما»، «ولد بالقاهرة فى ١٤ مايو عام ١٩٢٠».

وأضيفت كلمة كان:

وجاء حفل الرثاء فى قاعة الجمعية الجغرافية مساء الثلاثاء ٢٧ ديسمبر عام ١٩٨٣ . بعد ثلاثة أشهر من رحيله ، ونطق الفن والشعر والبيان بكلمات الرثاء الباكية ، نطق الشعر بقصائد ألقاها «د . عز الدين إسماعيل» و«محمد عبد الغنى حسن» و«محمد إسماعيل كافى» ولأنه كان محبوبا من الجميع فى كل مجال عمل به فقد نطقت أسرة التشريع المالى بوزارة الخزانة بقصيدة ألقاها مدير التشريع المالى بمكتب وزير الخزانة «محمد سيد إسماعيل» ، وقدم «د . صبرى منصور» لوحة زيتية مرثية للفقيد الكريم ، وتوالت كلمات وزير الدولة للثقافة وكلمات الفنون من الفنان «صلاح طاهر» والفنان «حسين بيكار» .

وكلمة نائب رئيس جمعية محبى الفنون الجميلة - «على كامل الديب» ، وكلمة أصدقاء الفن والحياة - «حامد سعيد» . وتأتى كلمات الثقافة والمثقفين . . الدكتور إبراهيم بيومى مدكور - رئيس مجمع اللغة العربية - وجامعة حلوان «الدكتور صلاح نايل» نائب رئيس الجامعة ، ومن الأردن جاءت كلمة المجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلامية . . «الدكتور ناصر الدين الأسد» رئيس المجمع ، ثم كلمة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية . . «الدكتور إبراهيم نصحى» رئيس الجمعية وهيئة الآثار . . «الدكتور أحمد قدرى» رئيس الهيئة ورائد القصة القصيرة . . «الدكتور يوسف إدريس» و«الفلسفة» الدكتور محمد توفيق الطويل» أستاذ الفلسفة ، ولأن آثاره الحميدة قد بقيت لدى كل من عمل معهم وعملوا معه ، فقد شاركت فى تأبينه المجالس القومية المتخصصة ، ووزارة الخزانة . . «حسين أمين إبراهيم» وكيل أول الوزارة ، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التى أصدرت بيانا بإسهاماته فى الثقافة العربية .

شجرة وارفة الأغصان:

وهؤلاء الأحباب الذين التفوا حول روحه بعد رحيله يعبرون عن خطواته المتعددة فى اتجاهات كثيرة ، عمل بمصلحة الضرائب حتى عام ١٩٥٥ . انتقل بعدها

مديرا لمكتب وكيل وزارة المالية، ثم أصبح مديرا لمكتب وزير المالية فمديرا لإدارة التشريع المالى بوزارة الخزانة، وفى الفترة من عام ١٩٦٤ إلى عام ١٩٧٠ تولى منصب وكيل وزارة الخزانة للتشريع المالى والضريبى، واختير فى نوفمبر من عام ١٩٧٠ وزيرا للثقافة إلى مايو عام ١٩٧٠م. واختير عام ١٩٧٣ إلى عام ١٩٧٧ مستشارا للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وتولى فى الفترة ذاتها تحرير «مجلة الثقافة العربية» التى كانت تصدر عن المنظمة ومنذ عام ١٩٧٧ عمل أمينا عاما مساعدا لمجلس الوحدة العربية ثم أمينا عاما بالإنابة من عام ١٩٧٩ حتى عام ١٩٨١.

وخلال تلك الفترات السابقة اختير عضوا فى مجالس إدارات عدد من الهيئات باعتباره ممثلا لوزارة الخزانة.. مجلس إدارة الأزهر ومجلس إدارة دار الكتب. وكان عضوا بالمجلس الأعلى للثقافة وعضوا بهيئة الكتاب مع أ. د. إبراهيم بيومى مدكور وأ. د. سليمان حزين، وأ. د. مهدى علام، وأ. د توفيق الحكيم، وأ. عبدالرحمن الشرقاوى. واختير عضوا فى عدد من الهيئات والمجالس الثقافية والعلمية.. لجنة الفنون التشكيلية بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية وعضوا بمجمع اللغة العربية وعضوا بالمجلس القومى للثقافة وعضوا بالشعبة القومية المصرية فى المركز القومى للمسرح، ومنذ أوائل السبعينيات تولى رئاسة مجلس إدارة جمعية محبى الفنون، ومنذ عام ١٩٧٨ أصبح نائبا لرئيس مجلس إدارة الجمعية العلمية للآثار حتى عام ١٩٨٣. وأصبح أيضا عضوا بمجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية منذ عام ١٩٧٩ حتى رحيله عام ١٩٨٣. وكان كذلك عضوا بالجمعية المصرية للاقتصاد السياسى والتشريع والإحصاء، وفى مجال التدريس.. قام بالتدريس فى جامعة حلوان واختير عضوا بمجلس إدارتها، وعضوا بمجلس كلية الآداب فى جامعة المنيا، واشترك بالتدريس فى كلية الإعلام وكلية الحقوق بجامعة القاهرة.

خاله مختار وكفى:

وفى ١٤ مايو عام ١٩٢٠ كان المثال العظيم «محمود مختار» فى باريس يضع

تمثالا له فى صالون باريس، وكانت شقيقته فى القاهرة تضع طفلا أسموه «بدرالدين» وكان مختار خال بدر الدين قد ورث عن أجداده الفراعنة العظام فن النحت . . وخرجت من بين يديه المصريتين . . تمثال سعد زغلول بالقاهرة وتمثال سعد زغلول بالإسكندرية وتمثال نهضة مصر، ورحل مختار عام ١٩٣٤ بعد أن عاش حوالى ٤٣ عاما «ولد مختار عام ١٨٩١م»، وكان اهتمام مصر بفنانها «مختار» عظيما . . تكونت جمعية لأصدقاء مختار من شخصيات مصرية لها وزنها: «عثمان محرم - على ماهر - حافظ عفيفى - د. طه حسين - هدى شعراوى».

وكان وفاء «بدر الدين أبو غازى» لمختار العظيم جديرا بالتنويه والاهتمام به، أصدر بالفرنسية عام ١٩٥٠ كتابه «مختار ونهضة مصر»، فحصل به على جائزة «مصر فرنسا». وفى ذكرى مرور خمسين عاما على رحيل «محمود مختار» «عام ١٩٨٤م» أعد «بدر الدين أبو غازى» سيناريو فيلم «المثال محمود مختار» وترجم التعليق على هذا الفيلم «أ. د. مجدى وهبة» وقام بإخراجه «أحمد كامل مرسى» وقدم «بدر الدين أبو غازى» إلى المجلس الأعلى مجلدا ضخما عن «محمود مختار» «لينشر فى مارس عام ١٩٨٤فى ذكرى مرور ٥٠ عاما على رحيل «مختار»، ويحتوى ذلك المجلد على خمسين لوحة فنية تركها «محمــود مختار» واقترح «بدر الدين أبو غازى» أن ينشر عشرة آلاف نسخة من هذا المجلد المهم.

وسافر «بدر الدين» إلى بوسطن وتوفى هناك فى ١١ سبتمبر عام ١٩٨٣ . وترك مشروع المجلد المهم فى لجنة الفنون التشكيلية بالمجلس الأعلى للثقافة، وتوجه الكلمة الآن إلى «د. جابر عصفور» الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة. و«د. عماد بدر الدين أبو غازى» رئيس الشعب واللجان بالمجلس الأعلى للثقافة، وفى إمكانهما الاحتفال بذكرى رحيل «بدر الدين أبو غازى» فى «١١ سبتمبر» أو «١٤مايو» القادم واحياء مشروع المجلد المهم فى ذكرى رحيل مختار «شهر مارس الحالى».

ومن بين الكتب التى أصدرها «بدر الدين أبو غازى» عن الفنانين المصريين أصدر كتابا عن مختار بعنوان «مختار . . حياته وفنه عام ١٩٤٩».

أعمال ومواقف:

كان إخلاصه للفن والثقافة نابعا من العقل والقلب . . صدرت له :

ـ محمود سعيد ١٩٦٠ .

ـ المثال مختار ١٩٦٤ .

ـ جيل من الرواد ١٩٧٥ .

ـ يوسف كامل ١٩٧٨ .

ـ رمسيس يونان ١٩٨٠ .

ـ راغب عياد ١٩٨٤ .

ـ فصول فى الفنون التشكيلية ١٩٨٥ «صدر بعد وفاته» .

ـ الفنون والآداب «المسح الاجتماعى ١٩٥٢ ـ ١٩٨٠» .

وعندما كان وزيرا للثقافة «نوفمبر ١٩٧٠ ـ مايو ١٩٧١» رفض بحزم الموافقة على إخلاء «متحف محمد محمود خليل» من اللوحات الفنية .

فى كلمة «الدكتور إبراهيم بيومى مدكور» فى حفل تأبين «بدر الدين أبو غازى» قال : بدأ عمله كوزير للثقافة بزيارة مجمع اللغة العربية . . وعند الوداع لم يفته أن يوجه السؤال التالى : هل تستطيع وزارة الثقافة أن تقدم خدمة لمجمع اللغة العربية؟ فأجبنا : إن مجمع اللغة العربية قضى نحو أربعين عاما عاشها عيشة البدو الرحل يتنقل من نجع إلى نجع ومن مكان إلى مكان، وقد حاول أن تكون له دار يستقر فيها وتحمل اسمه ولكنه لم يوفق ونتساءل هل من سبيل إلى تحقيق هذه الغاية؟ فكان رد بدر الدين فى بسمته الرضية ولغته الهادئة . . هل تسمحون بأن تدعوا لى وقتا يمكننى من النظر فى هذه المشكلة؟ ولم يمض إلا يومان واتصل بنا بدر الدين معلنا أنه يضع تحت تصرف المجمع المنزل رقم ١٥ من شارع المعهد السويسرى سابقًا «عزيز أباظة الآن»، وكان مقرا لقسم كبير من أقسام وزارة الثقافة وتلك بادرة لم يسبق إليها أحد بدر الدين لأن المسئولين عادة يحرصون على أن يكسبوا وضع يد جديدة بدلا من أن يتنازلوا عن ملك قديم .

ومن الثابت أنه وهو وزير الثقافة تقدم ببرنامج إلى مجلس الوزراء يختص بالبحث العلمي والحفاظ على الآثار القديمة وعن دور تعليمي وثقافي للمتاحف . . وناقش مجلس الوزراء هذا البرنامج في جلستين ، واعتمد أول موازنة كبيرة لتنفيذ هذا البرنامج .

ومنذ عام ١٩٧٤ أصبح عضوا بمجمع اللغة العربية ، وشارك في أعمال لجنة التاريخ ولجنة الاقتصاد ولجنة ألفاظ الحضارة . . وظهر تعدد نواحي ثقافته القانونية والأدبية والفنية .

الإسهام فى المجال العربى:

إذا كان «محمود مختار» قد احتل مكانة بين رواد النهضة المصرية ، في السياسة «سعد زغلول» وفي الاقتصاد «طلعت حرب» وفي الفكر «أحمد لطفي السيد» وفي الفن «محمود مختار» فإن «بدر الدين أبو غازي» تميز بالحس الوطني والتوجه العربي وقد ظهر هذا التوجه عندما اختير خبيرا للشئون الثقافية بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، وعام ١٩٧٧ انتقل إلى مهمة أخرى في مجال التعاون القومي العربي كأمين مساعد لمجلس الوحدة الاقتصادية ، وعقدت المنظمة العربية مؤتمرات تدعم التوجه العربي :

- القاهرة ١٩٧٠ مؤتمر الأصالة والتجديد في الثقافة العربية .
- القاهرة ١٩٧١ المأثورات الشعبية في الوطن العربي .
- طرابلس «ليبيا» ١٩٧٢ . . الإذاعة المرئية وآثارها الاجتماعية والثقافية في الوطن العربي .
- الدوحة ١٩٧٣ وسائل تيسير تداول الكتاب العربي ونشره .
- دمشق ١٩٧٣ المسرح في الوطن العربي .
- بغداد ١٩٧٢ الثقافة الجماهيرية في الوطن العربي .
- الكويت ١٩٧٣ الترجمة في الوطن العربي .

- طرابلس «ليبيا» . . السينما فى الوطن العربى .
- بغداد ١٩٧٥ . . حماية المخطوطات العربية وتيسير الانتفاع بها .
- طرابلس ١٩٧٦ التكامل بين أجهزة الثقافة والتعليم .
- القاهرة ١٩٧٦ حق المؤلف والملكية الأدبية والفنية .
- بترا - الأردن ١٩٧٦ شئون الآثار والمتاحف .
- تونس ١٩٧٧ العمارة فى البلاد العربية .
- القاهرة ١٩٧٧ إنشاء المركز العربى لإحياء التراث الفنى .

وبهذا الجهد المخلص . . عاش هادئا دون مزاحمة لأحد . . وفارقنا هادئا فى غير جلبة ولا أضواء . . رحمه الله وأحسن مثواه .

الأسـانيد :

١ - المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية . . «المسح الاجتماعى الشامل لمصر ١٩٥٢ - ١٩٨٠» .

٢ - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم «بيان حول الإسهام الثقافى فى المجال العربى» .

٣ - على كامل الديب وأبو صالح الألفى «إعداد» . . بدر الدين أبو غازى .

٤ - د . مهدى علام . . المجمعيون فى خمسين عاما .

جـــــورج أبيـــــض



«جورج أبيض» لبنانى الأصل والمولد . . ولد فى بيروت عام ١٨٨٠م وتلقى دراسته فيها. وفد إلى القاهرة عام ١٨٩٩م، وعمل فى وظيفة بمحطة سيدى جابر وظل مصريا حتى توفى مسلما عام ١٩٥٩م ودفن فى مقابر المسلمين. وكان «جورج أبيض» من أكثر الممثلين حرصا على النطق العربى الفصيح ومن أكثرهم مراعاة لقواعد النحو والصرف، تمتع على المسرح بصوت رخيم وانطلاق عذب مع دقة فى مقاطع الكلام. . وكانت وفاة جورج أبيض تعنى على حد تعبير «عثمان عاشور» انهيار أكبر صرح فى بناء مسرحنا المعاصر، لقد كان يتمتع بموهبة تفتح الأذن لحسن السماع، وتفتح القلب للتأثر المفعم بالمودة، انبهرت الجماهير بقامته الطويلة وقسمات وجهه الصارمة ونظراته الحادة المتوقدة، ونبرات صوته القوية وأدائه الفخم.

كتبت روزاليوسف فى مذكراتها تقول: تقرر أن يقدم «جورج أبيض» وممثلوه رواية «سيرانودى برجراك»، وهى رواية من تعريب «مصطفى لطفى المنفلوطى» عن الفرنسية وتحتوى على ستة عشر منظرا. واستمر تمثيل الرواية حتى الساعة الرابعة فى الفجر، ونام الكثيرون فى الصالة منكمشين من البرد فلما خرجوا وجدوا الصباح قد أشرق، والمدينة بدأت تستيقظ. وفى اليوم التالى اجتاحت القاهرة موجة من الطلاق بسبب هذا الحادث الفنى الفريد. فكم من زوجة لم تصدق زوجها حين عاد إليها مع الفجر وأقسم لها أنه كان فى المسرح، وكم من زوج لم يصدق أسرته التى أرسلها إلى المسرح فى التاسعة مساء، فعادت إليه مع الصباح.

ويرى «زكى طليمات» أن «جورج أبيض» ربيب مدرسة أوروبية كانت تعنى غالبا بالقالب أكثر من المضمون، ويرى أيضا أن مدرسة جورج أبيض تعديل لتلك الرومانسية الهوجاء التى صاحبت قيام المسرح العربى، وفرضت طابعا من الضوضاء على أدوار أكثر الممثلين.

الأسلوب الفنى:

كان عمره ١٩ عاما حين كان يعمل فى محطة سيدى جابر فى وظيفة صغيرة، وعرفه الناس بقامته الطويلة وملامحه الجادة، وعام ١٩٠٤م التحق بإحدى فرق الهواة، ولكن اسمه وتمثيله وصلا إلى «الخديو عباس حلمى الثانى» أكبر أبناء الخديو توفيق فأرسله فى بعثة إلى فرنسا بقى فيها «جورج أبيض» ست سنوات من عام ١٩٠٤ حتى عام ١٩١٠م، وعندما عاد إلى مصر سانده «الخديو عباس الثانى» بالتشجيع والأموال مما حدا بـ «سيد درويش» أن يكتب إلى الخديو ليرسله هو الآخر فى بعثة، ولكن الخديو اكتفى بأن يرسل له مبلغا قليلا من المال.

وتتلمذ «جورج أبيض» فى فرنسا على الممثل الكبير «سيلفان» من بقايا المدرسة الرومانسية فى الأداء، ووضح هذا التأثر وهو يقوم بأدوار «أوديب» و«لويس الحادى عشر» و«عطيل»، وقد أعجب الجمهور إعجابا كبيرا بهذه الأدوار.

وكان «جورج أبيض» فى قيامه بهذه الأدوار يمثل ظاهرة جديرة بالإعجاب، كان يلقى النصوص المسرحية باللغة العربية الفصحى وإن كان يجنح إلى شىء من الغرابة التى تسترعى الآذان المرهفة حين يجىء هذا الإلقاء فى إيقاع موسيقى قريب من موسيقى اللغة الفرنسية أى أنه كلام عربى بإلقاء فرنسى، والسبب هو أن جورج أبيض أمضى ست سنوات متوالية فى باريس يتلقى أصول فن الأداء التمثيلى باللغة الفرنسية، ولم يستطع جورج أبيض - فى رأى زكى طليمات - أن يتحرر من تأثير هذه الرومانسية، أو أن يتطور بها إلى لهجة تتفق وروح العصر.

أميــرة المســرح:

عـام ١٩١٢ بادر «جـورج أبيض» بتكوين فرقـة خـاصـة . وأثناء الحرب العـالمية الثانيـة كـان نجم «الشيخ سـلامة حجازى» زاهرا فى سمـاء الفن ، وكـان نجم «سيد درويش» يأخذ فى الصعـود . وكان واحد من هؤلاء الثلاثة متميزا فى مجاله ، إلا أن «الشيخ سـلامة حـجـازى» توفى عـام ١٩١٧م ، وكـان له شمـوخه وشخصيته وفكر «عزيز عيد» فى أن يضم لفرقته ممثلة نـاشئة هى «دولت القصبجى» التى سوف يكون لهـا دور فى حياة فناننا العـملاق «جورج أبيض» وانتهز «عزيز عيد» فرصة الخلاف العـائلى بين «دولت» وأسرتها وضـمـها إلى الفرقة ، وكانت هناك معرفة عائلية بين «عزيز عيد» و«دولت أبيض» ، وقامت «دولت أبيض» بتمثيل دور سيدة أجنبية ، ثم دور بنت بلد تلبس البرقع والملاءة ، ورآهـا «جـورج أبيض» شبـاب غض . . قـوام ممشوق . . بشرة مرمرية . . عيـون سوداء . . موهبة دفينة تنتظر الفرصة المناسبة ، وكمـا يقال أحبهـا جورج أبيض من أول نظرة فتزوجـهـا وشـاركته أمجاده فى المسرح والسينما والإذاعة .

وأسـست «دولـت أبيض» و«جـورج أبيض» سينمـا ومسـرحـا فى حى حـدائق القبة . . سينما هونولولو ومسرح دولت أبيض .

وكان أشـهر أدوار «دولت أبيض» البطولية فى «شـمشون ودليلة» وفى «عطيل» ، وكانت تقوم فى السينما بدور الأم الأرستقراطية ، من أدوارها الشهيرة دور «الأميرة شهرزاد» مع فرقة عكاشة فى الموسم الذى بدأ عام ١٩٢٦ ، وأوبريت «شهرزاد» هى نفسها أوبريت «شهرزاد» التى لحنها الشيخ «سيد درويش» وقدمها فى مسرحه «فرقة السيد درويش وعمر وصفى» عام ١٩٢٢ .

و«عـمـر وصـفى» الذى لـم يأخذ حظه إعلاميـا ، وتوفى عـام ١٩٤٥ ظهـر على المسـرح لأول مـرة عـام ١٨٨٥م ، ويعـد الأب الروحى لرواد المسـرح ، وتعلـم فى الأزهر واشـتـرك فى أعـمـال «فـرقـة القـرداحى» بالإسكندرية عـام ١٩٠٤ ، أى أنه معاصر لبداية «جورج أبيض» المسرحية قبل أن يسافر إلى باريس على نفقة الخديو «عباس حلمى الثانى» وانضـم لفرقة الشيخ سلامة حجـازى . . عـام ١٩٠٥ ، ثم انضم لفرقة «جورج أبيض» التى أسسها عام ١٩١٢ بعد عودته من باريس ، وعمل

«عمر وصفى» مع فرقة «عبدالرحمن رشدى» عام ١٩١٧، واشترك عام ١٩٢٢ مع «سيد درويش» فى تكوين فرقة خاصة بهما وعام ١٩٣٥ . . انضم للفرقة القومية. . الناس حظوظ رغم هذا التاريخ الطويل. ونواصل الحديث عن «دولت أبيض» التى قاسمت «جورج» أمجاده.

ومن طريف ما يروى فى حياتها أن الجنود الإنجليز خلال الحرب العالمية الأولى «١٩١٤م-١٩١٨م» كانوا يشكلون قطاعا مهما من رواد المسارح المصرية، كانوا يدخلون المسارح مخمورين ومعهم كميات هائلة من البيض والطماطم والبرسيم، وفى إحدى التمثيليات - لأسباب غير معروفة - ألقوا بالبرسيم على «دولت أبيض» أما الممثلون من الرجال فألقوا عليهم البيض. والبرسيم أهون من البيض على أية حال!

وقد ولدت «دولت أبيض» لأسرة محافظة عام ١٩٠٨، وتوفيت عام ١٩٧٨م «جورج أبيض كان قد رحل عام ١٩٥٩م».

صعود وهبوط:

ليس من المحتم أن تكون حياة الفنان خطأ صاعدا من النجاح، فلربما تقابله بعض خطوات التراجع ويتخذ منها توثبا إلى الأمام، تحدثنا من قبل عن ظروف المسرح المصرى أثناء فترة الحرب العالمية الأولى، وكيف أن جنود الإنجليز وغيرهم من جنود الحلفاء كانوا روادا للمسارح وليس من الضرورى أن يكون الهدف الأساسى عندهم هو «الفن». ومن المعروف أن الإنجليز أيام تلك الحرب كانوا ينفقون ببذخ على الدعاية لقضية الحلفاء ضد النازية والفاشية، ويتردد فى هذا المجال أنهم قاموا ببناء الدار الخاصة بصحافة إميل وجورجى زيدان المعروفة بـ«دار الهلال». . وفى بعض المصادر أن «جورج أبيض» اتفق مع الإنجليز على أن ينفقوا على فرقته حتى تطوف الأقاليم للترويح عن الناس من ناحية وللترويح عن القوات المحاربة من ناحية أخرى وذلك نظير ٣٠٪ من الدخل، واتفق «جورج أبيض» مع الفنان الكبير «عزيز عيد» على إخراج أعمال الفرقة نظير ٢٠٪ من صافى أرباح الفرقة، وحدث أن كانت الفرقة تقدم رواية «دخول الحمام مش زى خروجه» من تأليف «إبراهيم رمزى»

وحدث أن الرواية سقطت سقوطا شنيعا، وقابل «جورج أبيض» هذا الموقف بهدوء أعصاب كان معروفا عنه، وأعلن حل الفرقة والتريث قليلا قبل أن يكون فرقة جديدة، ولعل هذا كان درسا له لالتزام الجدية والاهتمام أكثر بأعماله.

وعام ١٩١٨ كانت فرقة «جورج أبيض» المسرحية تعانى من الركود، وارتحل «جورج أبيض» إلى الإسكندرية واصطحب معه «حامد مرسى»، وكان «حامد مرسى» يغنى أدوار «عبده الحامولى» وفوجئ بتصفيق حاد من المتفرجين. و«عبده الحامولى» ١٨٣٦م-١٩٠١م لمعلومات القراء ولد فى طنطا وعمل فى تجارة البن، وكان صاحب صوت رخيم عذب النبرات عريض المساحة، أعجب به الخديو إسماعيل وألحقه بحاشيته، وكتب له أغانيه شيخ الشعراء «إسماعيل صبرى» والشيخ «عبدالرحمن قراعة» مفتى الديار المصرية، ومحمود سامى البارودى، والشيخ نجيب الحداد، وأديب إسحق، ومصطفى بك نجيب «والد سليمان نجيب»، وعائشة التيمورية.. باختصار كتب له الصف الأول فى الشعر والأدب، وتزوج من المطربة سكينة الشهيرة باسم «ألمظ» والتى توفيت فى حياته عام ١٨٩١م.

فى تلك الليلة غنى «حامد مرسى» لعبده الحامولى. وذهب حامد مرسى وجورج أبيض إلى مقهى على ترعة المحمودية جنوب الإسكندرية، وكان هناك فنان الشعب «سيد درويش» الذى قام بتحفيظ «حامد» دور فيروز «زورونى كل سنة مرة» وأعجب جورج أبيض بألحان «سيد درويش» واتفق معه على أن يتولى تلحين أعمال فرقته. وأسفر لقاء جورج أبيض وسيد درويش على أن يقوم «الشيخ سيد» بتلحين أول أوبريت مصرى «فيروز شاه»، واشترك الشيخ سيد أيضا فى تمثيل هذا الأوبريت، وهنا طلب نجيب الريحانى وبديع خيرى من جورج أبيض أن يتيح لهما فرصة لسيد درويش أن يعمل معهما، وظل الريحانى وخيرى يذكران هذا الموقف الكريم من جورج أبيض، ونأتى بعد ذلك لعلاقة «جورج أبيض» بالشيخ سلامة حجازى.

مع الشيخ سلامة حجازى:

وسلامة حجازى مطرب المسرح بلا منازع على مدى ربع قرن من الزمان، ولد

عام ١٨٥٢م ـ وتوفى عام ١٩١٧م، وهو الذى قدم «الشيخ سيد درويش» للجمهور كان يقف على مئذنة جامع البوصيرى ويستنشق نسيم الفجر وهو يؤذن للصلاة. أحب الناس صوته، وكان صوته يهدر وفيه تمرد ودعوة للعصيان. وهو منشد لاهب ملتهب. خلع العمامة وزى الشيوخ ولكنه احتفظ بلقب الشيخ. أنشأ مسرح «دار التمثيل العربى» عام ١٩٠٥م، وكان يحمل اسم «مسرح فردى» أنشأ فيه «سلامة حجازى» أول فرقة تحمل اسما مصريا، وبعد أن عاد «جورج أبيض» من باريس عام ١٩١٠ شكل جورج أبيض وسلامة حجازى ثنائيا متميزا، وكان جورج أبيض يقدر الشيخ سلامة حجازى تقديرا خاصا جعله يفيد من فن سلامة حجازى فى مراحل مختلفة، وتكون «جوق أبيض وحجازى» فى الفترة ما بين ١٩١٤ ـ حتى رحيل سلامة حجازى عام ١٩١٧م، وقد ازدادت أواصر الصداقة والود بينهما بارتباطهما بالعمل معا، وكان الاتفاق بين جورج وسلامة حجازى ينص على أن تقوم كل فرقة منهما بأداء ليلة تمثيلية ثم تجتمع الفرقتان معا فى الليلة الثالثة.

وبعد نجاح جورج أبيض فى مسرحه الفرنسى ثم العربى وإشراكه لسلامة حجازى فى تلحين بعض المقطوعات الغنائية الجماعية فى مسرحية «لويس الحادى عشر» أدى به الأمر إلى أن يقترح على «سلامة حجازى» أن يشتركا معا فى عمل كبير يقدمان فيه فنا مشتركا، ورضيت الجماهير المتعطشة للفن الراقى عن هذا التعاون بين العملاقين.

ولما كان «جورج أبيض» فى مطلع حياته التمثيلية قد استخدم أوركسترا كبيرا يقوم بعزف المقدمات الموسيقية للفصول وبعض الجمل الموسيقية للفصول وبعض الجمل الموسيقية المصاحبة لأهم الأحداث الدرامية، طلب من صديقه «عبدالحليم المصرى» بطل مصر الدولى فى المصارعة أن يؤلف له أوبريت عن عصر هارون الرشيد ببغداد.

وبعد أن انفصل جورج أبيض بفرقته عن «الثنائى أبيض وحجازى» استمر يقدم مسرحيات يغلب عليها الطابع الدرامى البحت.

الوحدة والانقسام:

بعد عودة جورج أبيض من فرنسا وتكوين فرقته الخاصة انضم «عمر وصفى» - وقد سبق حديثنا عنه - للفرقة الجديدة وكان دوره فى مسرحية «الشيخ متلوف» التى قدمتها الفرقة لقطة التحول فى رحلة عمر وصفى الفنية، وكان نجاحه الكبير فى هذا الدور سببا فى تحول عمر وصفى إلى الكوميديا، وتجمع كل النجاح فى هذا اللون من الفن. واستمر عمر وصفى مع فرقة جورج أبيض فى فترة انضمامها إلى فرقة عكاشة وتكوين فرقة أبيض وعكاشة. كذلك استمر فى العمل عندما تكونت الفرقة التى ضمت الشيخ سلامة حجازي وجورج أبيض وعبدالله عكاشة، والتى سافرت إلى الشام والتى انتهت بانتهاء الموسم التمثيلى بالشام، حيث كون الشركاء الثلاثة كل منهم فرقته الخاصة التى تحمل اسمه، حيث انضم إلى فرقة جورج أبيض ثم انتقل منها إلى فرقة عكاشة.

وانضم إلى فرقة جورج أبيض «عبدالرحمن رشدى المحامى»، ثم انفصل عن جورج أبيض وكون فرقته المسرحية الجديدة فى يوليو عام ١٩١٧م بالاشتراك مع عمر وصفى، وأصبح اسم الفرقة «فرقة عبدالرحمن رشدى وعمر وصفى».

وفى فترة الكساد التى ظهرت فى أوائل الثلاثينيات فكر عدد من الفنانين فى تكوين فرقة مسرحية ينضم إليها العاملون فى المسرح، وعرفت هذه الفرقة باسم «اتحاد الممثلين»، وافتتحت أعمالها فى مارس عام ١٩٣٤على مسرح «الهمبرا» بعماد الدين. . وتكون هذا الاتحاد من «جورج أبيض - عمر وصفى - بشارة واكيم - حسين رياض - عباس فارس - عبدالوارث عسر - محمود المليجى - دولت أبيض» وآخرين وأخريات. . وكان لجورج أبيض أكبر عدد من الأسهم، ثم انتهت هذه الفرقة بالفشل وأعلنوا حلها.

الفرقة القومية:

قررت وزارة المعارف إنشاء فرقة مسرحية حكومية تنهض بالنشاط المسرحى فى مصر وكونت «الفرقة القومية» التى أشرف على إدارتها شاعر القطرين «خليل

مطران» وانضم إليها : «جورج أبيض ـ حسين رياض ـ عباس فارس ـ زكى رستم ـ دولت أبيض ـ محمود المليجى» وآخرون وأخريات، وفى يناير عام ١٩٣٩ تم فصل عزيز عيد وعمر وصفى وفؤاد سليم .

وحاول جورج أبيض أن يربى ممثلين يحلون مكانه . . ففى فرقته التى كونها عام ١٩١٢ ، كان «عبدالعزيز خليل» أشد المعجبين بجورج أبيض وأصبح مثله الأعلى وأطلق عليه «محمد تيمور» لقب «جورج أبيض الثانى» .

ونعود إلى سطورنا الأولى من الموضوع لنقول إن «جورج أبيض» رحل عام ١٩٥٩ .

الأسانيد:

ـ زكى طليمات . . فن الممثل العربى .

ـ عبدالحميد توفيق زكى . . رواد الموسيقى العربية .

ـ فاطمة اليوسف . . ذكريات .

ـ منير محمد إبراهيم . . من رواد المسرح المصرى .

ـ نعمان عاشور . . مع الرواد .

الشيخ حسنين مخلوف



الكاتب عندما يسعد يأتى له رجلان فى حلقة واحدة من حلقات «هذا الرجل من مصر» الشيخ الأب : محمد حسنين مخلوف وكيل الأزهر الشريف، والشيخ الابن حسنين محمد مخلوف مفتى الديار المصرية . ومن الطبيعى جدًّا أن يكون مدخل حديثنا عن «الشيخ حسنين مخلوف» هو الحديث عن الشيخ «محمد حسنين مخلوف» .

يقول الشيخ «حسنين مخلوف» فى مذكراته : «كان والدى يصحبنى معه إلى المسجد أتابع دروسه، أرقب طريقته فى الإلقاء، أرى سماحة صدره وهو يناقش ويصل بالمفاهيم الدينية إلى قريتنا» . وبهذه المناسبة فإن القرية هى (بنى عديات) وشهرتها (بنى عدى) مركز منفلوط - محافظة أسيوط . وعلى فكرة فإن «الشيخ حسنين مخلوف» هو خال الكاتب والمفكر الإسلامى والوزير الأسبق «الدكتور أحمد كمال أبو المجد» .

وسيرة الشيخ الأب «محمد حسنين مخلوف عدى» وكيل الجامع الأزهر كما وردت فى مجلد (الأزهر الشريف فى عيده الألفى) هى بإيجاز : ولد ببنى عدى، مركز منفلوط، محافظة أسيوط عام ١٨٦٠م . حصل على العالمية بامتياز سنة ١٨٨٧م . واختير أمينًا لمكتبة الأزهر عند تأسيسها . وعضواً بمجلس إدارة الأزهر مع الشيخ محمد عبده . ثم شيخًا للجامع الأحمدى بطنطا ومديراً عامًا للأزهر والمعاهد الدينية، ثم عضواً بهيئة كبار العلماء .

عين وكيلاً للأزهر فى عهد المرحوم الشيخ الإمام سليم البشرى حتى عام ١٩١٥. فى تلك السنة اختلف مع السلطان حسين كامل، فنحى من وظائفه الإدارية.

وانتقل إلى رحمة الله عام ١٩٣٦م. ومن آثاره العلمية (القول المبين فى حكم المعاملة بين الأجانب والمسلمين).

وأذكر بهذه المناسبة حديثًا جرى بينى وبين الدكتور «عبد الهادى مخلوف» السفير ومساعد وزير الخارجية (سابقًا)، وهو الابن السادس فى الترتيب للشيخ «حسنين مخلوف» مفتى الديار المصرية وحفيد الشيخ «محمد حسنين مخلوف» وكيل الجامع الأزهر، وكنا بصداد السفر إلى أسيوط للاحتفاء بذكرى الشيخ مخلوف المفتى. طلبت السفير وكان فى الإسكندرية وأفضى إلىّ بمعلومة طيبة أسعدتنى وأسعدت الذين شرفت بمشاركتهم فى الاحتفاء بذكرى الشيخ مخلوف المفتى، وفى مقدمتهم فضيلة الإمام الأكبر الشيخ الدكتور محمد سيد طنطاوى وفضيلة الشيخ الدكتور «محمد نايل» والدكتور محمد رجائى الطحلاوى محافظ أسيوط والأستاذ «حسين مهران» رئيس هيئة الثقافة الجماهيرية وقت ذاك.. هذه المعلومة التى أفضى بها إلينا الدكتور «عبد الهادى» هى أن جده «وكيل الأزهر» كان على علاقة حميمة مع الوطنى المعروف «فخرى عبد النور»، وكان ينزل فى قصر آل عبد النور بجرجا وهو القصر الذى نزل فيه من قبل «الخديو عباس حلمى» والزعيم «سعد زغلول»، ونزل فيه من بعدهما رئيس الوفد «فؤاد سراج الدين باشا»، الخلاصة أن الشيخ مخلوف وكيل الأزهر كانت له حجرة خاصة به فى قصر آل عبد النور ويطلقون عليها «أودة الشيخ».

الشيخ المفتى:

تأثر الشيخ «حسنين مخلوف» بأفكار «الشيخ محمد عبده» نظراً للصداقة الوطيدة بين والده «الشيخ محمد حسنين مخلوف والشيخ محمد عبده». على أية حال تولى شيخنا منصب مفتى الديار المصرية مرتين: أولاهما: من ٥ يناير عام ١٩٤٦ ـ ٧ مايو عام ١٩٥٠م. وثانيتهما: بدأت فى مارس عام ١٩٥٢م وانتهت فى ١٩ ديسمبر عام ١٩٥٤م. ويعد هذا عمل رئيسًا للجنة (الفتوى بالأزهر الشريف). وقد ظل حوالى خمسة وأربعين عاما (١٩٤٦ ـ ١٩٩٠م) هو المقصود بالفتوى. وطوال هذه السنوات

كما يقول: «عشت حياتى كلها مرفوع الرأس، لأننى لم أحن هامتى إلا لله سبحانه وتعالى» وكما قال عنه زميلنا وصديقنا ـ شفاه الله ـ «رجب البنا»: «كان شيخنا نموذجًا لاستقامة الفكر والجرأة فى الحق، لا ترهبه سطوة الحكم ولا غوغائية الجهلاء، ولا إرهاب المتطرفين». ويقول عنه «الشيخ محمد حسام الدين» وكيل الأزهر الشريف السابق: (والسمت العام لفقيهنا الشيخ سمت بارز، فقد جمعت فتاواه سعة الفقه والإحاطة بوجوه الرأى مع دقة استخراج الحكم وحسن الاستدلال». وقد أصدر «الشيخ حسنين» خلال توليه منصب الإفتاء (٨٦٣٩ فتوى). ولم يقتصر جهده فى إصدار الفتاوى على مدة توليه منصب الإفتاء (٤٦ ـ ١٩٥٠) و(٥٢ ـ ١٩٥٤) وإنما امتد إلى مدة رئاسته للجنة الفتوى بالأزهر الشريف وفى باب الإفتاء بجريدة «منبر الشرق» لصديقه المجاهد الوطنى السيد على الغاياتى:

الشيخ الوفدى:

من المعروف أن «الشيخ حسنين مخلوف»، شارك فى ثورة الأزهر التى قادها عام ١٩٣٥ «الشيخ أحمد حسن الباقورى»، وانتهت بعودة الشيخ «محمد مصطفى المراغى» إلى الأزهر. كان والد الشيخ حسنين يعد «الشيخ المراغى» كواحد من أبنائه. وقد كان منزلا الشيخ المراغى والشيخ حسنين متقاربين فى حلوان. . يقول الشيخ حسنين: «كان الشيخ المراغى صديقا لأحمد حسنين رئيس الديوان الملكى، وكان على صلة بالأحرار الدستوريين. وكنت أنا أميل إلى الوفد وترددت على منزل سعد زغلول مع فتح الله باشا بركات. وجلست معه وتناقشنا. وأقول بصراحة إن ميولى كانت مع الوفد وعواطفى كانت معه. . كما كانت عواطف غالبية الشعب المصرى فى ذلك الوقت مع الوفد. ولعل من أكثر السياسيين الذين ارتبطت بهم بعد ذلك كان على ماهر باشا. تعرفت عليه وأنا أعمل فى وزارة الحقانية (العدل). كان هو وزيراً للحقانية واستعان بى فى وضع لائحة أكثر تطوراً لمحاكم الأحوال الشخصية. وامتدت بيننا صداقة عمر إلى أن توفاه الله. كان يجلس معى فى حديقة المنزل جلسة علم وأدب ثم يخرج معى إلى سيارتى فى الشارع. ولم يدر بيننا حديث فى السياسة. أنا أحترم استقلاله السياسى وهو يحترم ميولى الوفدية».

قصته مع عبد الناصر:

إذا كان الوالد فضيلة الشيخ محمد حسنين مخلوف ـ وكيل الأزهر ومدير المعاهد الدينية وقت ذاك ـ قد اختلف مع السلطان «حسين كامل» عام ١٩١٥م في بعض الشئون الأزهرية وأصر الشيخ الوالد على رأيه، فأوغر صدر السلطان وأقصى الشيخ عن وظائفه، فترك العمل مرفوع الرأس موفور الكرامة. إذا كان الشيخ الوالد قد حدث معه هذا فإن فضيلة الشيخ حسنين الابن قد حدث معه شبيه ذلك مع «جمال عبد الناصر» أثناء التوجهات نحو تطبيق مبادئ الاشتراكية وقوانين تحديد الملكية رفض الشيخ هذا كله، وأصر على مبدئه من حرية الملكية في الإسلام مع اشتراط حل المصدر وإخراج الزكاة. وكان هذا الاختلاف سببًا في عدم ترشيح الشيخ لمنصب شيخ الأزهر بعد انتهاء الفترة الثانية لشغله منصب الإفتاء سنة ١٩٥٤م. وعندما سئل الشيخ عن هذا الموقف أجاب: ما حدث أن خفت من شخص ولا يمكنني في يوم من الأيام أن أوافق أحدًا في رأي مخالف للدين مجاملة له، وإلا كان ذلك كفرًا وضلالاً.

المهم أن الشيخ سمع أن «عبد الناصر» يكن له كراهية شديدة فلم يحاول التقرب منه ولا من أي حاكم، وكان المسئولون يسعون إليه في منزله ويسجل الشيخ في مذكراته: «حدث أن دخلت سرادقًا للعزاء في بداية سنوات الثورة لأعزي في وفاة (أحمد خشبة) وزير العدل ولمحت في مكان ما في السرادق جمال عبد الناصر وعرفته وظل في مكانه لم يتحرك عندما دخلت عليه.. فلم أسلم عليه وانتحيت جانبًا. وجلست في السرادق دون أن أعيره أي اهتمام، ونحن نسير خلف نعش الفقيد كان يسير على مقربة شديدة مني، ولم أحاول أن أسلم عليه أو أبادله بكلمة. وظلت الخصومة بيننا حتى توفاه الله».

وكتب «أكرم زعيتر» في جريدة الشرق الأوسط بتاريخ ٢٦ مايو عام ١٩٩٠م يقول: «اختلف شيخنا مع قادة الثورة المصرية في بعض الأمور، فما وهن وما تراجع واتجه إلى المملكة العربية السعودية، وظل يتردد بين مصر والحجاز، ويشترك في المؤتمرات الفقهية مرجعًا ثقة ينشر البحوث ويرد على أسئلة المستفتين في أجوبة تتسم بالعلم والصراحة والنصيحة».

بطاقة عائلية:

وحديثنا عن الشيخ الأب جعلنا نؤجل البطاقة العائلية للشيخ الابن الذى ولد بالقاهرة عام ١٨٩٠م والتحق بمدرسة القضاء الشرعى التى أسسها «سعد زغلول» وأشرف عليها «عاطف بركات»، وقام بالتدريس فى الأزهر من عام ١٩١٤م- ١٩١٦م. وتدرج إلى أن أصبح رئيسًا للتفتيش الشرعى عام ١٩٤٣م. وعمل نائبًا لرئيس المحكمة الشرعية العليا عام ١٩٤٥م. تولى منصب الإفتاء مرتين عام ١٩٤٥م- ١٩٥٠م، ثم من ١٩٥٢م- ١٩٥٤م. وتزوج وهو طالب وكانت هذه هى رغبة الوالد الشيخ «محمد حسنين مخلوف» والزوجة الفاضلة هى ابنة الشيخ «محمود سالم» من أعيان بندر ملوى التابع لمحافظة أسيوط وهى من بيت علم ودين. وسافر والده إلى ملوى وعقد الزواج بالوكالة عنه. وتزوج فى منزل بجهة أم الغلام فى منطقة المشهد الحسينى. وتكفل الوالد بكل النفقات وبمصروفات المنزل لأن شيخنا كان لم يزل طالبًا وليس عنده دخل مستقل.

كان أول أولاده «محمد» الذى توفى عام ١٩٦٨. ثم ابنة توفيت إلى رحمة الله وثالثهم «محمود» الذى توفى أيضا. والرابع «المهندس أبو الوفا»- حفظه الله - رئيس مجلس إدارة شركة مصر لأعمال الأسمنت المسلح سابقًا. ثم الدكتور «على مرعى» وقد صاحبناه فى الاحتفاء بوالده بأسيوط، والدكتور عبد الرحمن خبير الأمم المتحدة فى تخطيط المدن، وصديقنا الدكتور «عبد الهادى» السفير ومساعد وزرير الخارجية سابقًا. والمرحوم عبد الحميد الذى توفى وهو طالب بالجامعة وكريمتان حفظهما الله.

وانتقلت الزوجة الفاضلة إلى رحمة الله بعد حياة زوجية استمرت ٤٠ عامًا ولم يتزوج الشيخ بعد رحيل زوجته إلى أن انتقل إلى رحاب الله فى أبريل عام ١٩٩٠.

هذه هى الشجرة المباركة التى أثمرت وأعطت للدين والعلم والوطن.

قرية الوحدة الوطنية:

وقرية بنى عديات التى عرفت باسم (بنى عدى) نسبة التعليم فيها مرتفعة،

ونسبة تعليم البنات مرتفعة أيضًا. وتسود فى القرية روح الإخوة بين المواطنين. وفى الاحتفال الذى أقيم فى القرية بعد الاحتفاء الذى أقيم فى أسيوط شاركنا كاهن الكنيسة الأرثوذكسية وأشاد بدور أسرة «الشيخ حسنين مخلوف» فى إشاعة هذه الروح. وأقامت الأسرة فى القرية مكتبة عامرة بالكتب الدينية وكتب التراث والكتب الثقافية لخدمة أبناء وبنات القرية وأهل المنطقة. وافتتح الدكتور «محمد رجائى الطحلاوى» محافظ أسيوط هذه المكتبة ووجدت بها مجموعة (لسان العرب) وهى غير موجودة فى مكتبات كبرى بمدن أخرى. ومكتبة الشيخ حسنين مخلوف فى بنى عدى فكرة ذكية ومفيدة، وسيبقى اسم «الشيخ حسنين مخلوف» واسم أسرة مخلوف رمزًا للروح الدينية السمحة وروح العلم والاستنارة.

التراث الطيب:

لقد ترك «الشيخ حسنين محمد حسنين مخلوف» تراثًا طيبًا فى التدريس والفتاوى والتفسير والشروح. أكثر من ثلاثين عملاً نذكر منها: (كلمات القرآن تفسير وبيان - صفوة البيان لمعانى القرآن - آداب تلاوة القرآن وسماعه - الرفق بالحيوان فى الشريعة الإسلامية - مجموعة الفتاوى - الأخلاق الإسلامية - شرح أسماء الله الحسنى).

وأحسبنى على صواب عندما قلت فى بداية الدراسة أن الكاتب عندما يسعد يرزقه الله برجلين يتكلم عنهما فى حلقة عنوانها (هذا الرجل من مصر).

الأسانيد:

١ - الأزهر الشريف فى عيده الألفى. . إشراف الشيخ الدكتور السعدى فرهود.

٢ - الشيخ حسنين مخلوف. . مذكرات داعية.

٣ - رجب البنا . . جريدة الأهرام ٢٢/ ٤/ ١٩٩٠م.

٤ - سعد فخرى عبد النور. . حديث معه.

٥ - د. عبد الهادى مخلوف. . أحاديث معه.

الدكتور رشــــاد رشــــدى



فى الذكرى الرابعة لرحيل «الدكتور رشاد رشدى» أصدر سبعة من تلاميذه وأصدقائه كتابا يرثونه فيه ويعددون مناقبه فى ضوء رؤيتهم له ولأعماله، وسوف نبدأ للتعريف به بسطور من الخمسة الأوائل حسب الترتيب الذى وردت به كلماتهم ونبقى كلمتين تعدان بمثابة الدراسة القريبة منه:

* أحمد بهجت.. كان يقرأ قصيدة «الأرض الخراب» لـ: ت. س. أليوت فإذا صفا مزاجه بعد هذه القراءة فقد تمت تهيئة المجال لحضور أنطون تشيكوف، فإذا صفا مزاجه فإنه يتحدث عن «السيد أحمد البدوى».

* د. عبد العزيز حمودة: كان من لا يعرف رشاد رشدى عن قرب يظنه قاسى القلب لأنه كان يبدو من بعيد مثالا للعبوس والجدية الزائدة، فإذا اقتربت من الإنسان داخله وجدته طفلا فى احتياله على الحياة وحبه للناس دون تحفظ.. كانت عيناه تمتلئان بالدموع كلما جاء ذكر «عم على» ساعى قسم اللغة الإنجليزية والذى توفى بعد خدمة القسم أكثر من أربعين عاما.

* د. سمير سرحان: الرؤية عند رشاد رشدى لا تنفصل عن الصورة لأنها تبنى على الخاص لتتعداه فى النهاية إلى العام وتتطور من خلال الصراع حتى تصل إلى معنى.

* أنيس منصور: كان رشاد رشدى آخر دراويش العشق فى الأدب المصرى الحديث.. فهو لم يتوقف لحظة عن أن يكون عاشقًا.. فلاحًا أو طالبًا أو أستاذًا أو

أحد رجال الدين . . كان رشاد رشدى بلبلا منعزلا له حياة من نوع خاص . . كان مخلصًا فى دعوته عاش بقلبه وحبه للناس جميعًا .

* محمود فوزى : عام ١٩٦٤ كنت أجلس فى مسرح محمد فريد لأشاهد مسرحية «خيال الظل» حين اقترب منى رجل متأنق فى يده غليون وجلس بجوارى وتجاذبت معه الحديث عن المسرحية وتحول حواره إلى دفاع فسألته . . لماذا تدافع عن المسرحية بهذه الحرارة . . ؟ فقال لأننى مؤلفها «رشاد رشدى» ومن يومها أتابع مسرحياته .

ثريا رشدى الزوجة أو «العاشقة» كما اختارت لنفسها هذا اللقب طوال ١٢ عاما من عام ١٩٦٢ ـ ١٩٨٣ هو عمر الزواج . . والدكتور رشاد رشدى . . المعلم وهى التى اختارت له أيضًا هذا اللقب . الربيع والخريف كيف اقترنا وكيف تعايشا سويا . . نترك الربيع أو «ثريا» تتحدث :

أيها العاشق المتصوف بعد مرور هذه السنوات . . أدركت أنك ليس لى وحدى فأنت ملاك الإنسانية والتراث ، ولكن من أحبوك برهنوا بالدليل القاطع خاصة بعد رحيلك على حبهم ووفائهم لك ، لقد عرف كل هؤلاء رشاد رشدى أستاذ الجامعة والكاتب المسرحى والمفكر والناقد ورئيس تحرير العديد من المجلات المصرية ما بين عربية وأجنبية ، وأحد المسئوليين الكبار عن الثقافة والفكر والفن ، وبعضهم عرف رشاد رشدى الإنسان ولكن هل عرفوه حقيقة ، ومن أجدر بمعرفة رشاد رشدى الإنسان بكل حقيقته . . بقوته وضعفه . . بصموده وحزنه . . بعبقريته وطفولته . . سوى الزوجة .

جاء ربيعك بعبيره وظلاله وشمسه ودفئه وهدوئك يصب ماء الحياة فى هذه الحديقة الجرداء لتتفتح وتهتز برعشة الحياة ، كنت وقتها قد تركت عملى بالشركة الألمانية التى كنت أعمل بها ، وانتقلت إلى عملى الجديد فى إحدى المجلات التى تصدر فى مصر باللغتين الإنجليزية والفرنسية . . وكان أول يوم لى أذهب إلى المجلة . . وأذكر تلك الحجرة الفسيحة التى أجلس فيها مع بعض الزميلات الجدد ، وكنا قد بدأنا التعارف حينما دخلت أنت . . ورأيتك . . والتقيت عينانا . . وتقدمت نحوى مباشرة لتحيينى وتتعرف علىّ . . والتقت عينانا . . كم من الوقت . . ؟ !

لا أدرى . . من المحتمل أنها لحظة، وكانت بالنسبة لنا هى عمرنا الذى فات والذى هو آت . . إلى أن جاء مساء يوم وكنت أغادر مبنى المجلة مع صديقة لى، وكانت زوجة لأحد كبار الكتاب، وفى نفس الوقت على معرفة وثيقة بالدكتور رشدى، وعند باب المجلة مددت يدى لأسلم عليه مودعة . . وإذا به يطلب من صديقتى هذه إن كان لدينا مانع أن نصحبه على فنجان شاى فى أحد الفنادق . . ومن منطلق صداقته لها ولزوجها فقد وافقت ووجدت نفسى لأول مرة أوافق بدون أى تردد، ولمحته ينظر إلى وجهى متأملا من عالم بعيد . . قال: أين كنت طوال هذه السنين؟ قلت: أى سنين؟ ليس فى عمرى كثير من السنين (ملحوظة من عندنا . . حدث هذا عام ١٩٦٢ . . كان عمر ثريا ١٩ سنة وكان عمر الدكتور رشاد ٥٠ سنة . . نقفل القوس ونترك ثريا تكمل الحديث) مرت بنا ثلاث سنوات على هذه الحال . . وكان يجب أن أذهب إلى لندن للحصول على الدكتوراه على حسابى الخاص . . وقالت عيناى ولم تنطق بها شفتاى . . أحبك . . ومددت يدى إليه مودعة وخرجت .

وسارت الأيام:

ودارت الأيام دورتها تلفنا معها وتحمل بين طياتها سرنا الذى لم يعرفه أحد غيرنا . . الدكتور رشدى حينما تسلم رئاسة تحرير مجلة «الأوبزرفر» إلى جانب رئاسته من قبل لتحرير مجلة «الآراب ريفيو» كانت كل منهما تصدر بالإنجليزية مخاطبة القارئ الأوروبى لتعريفه بالحياة داخل مصر فى جميع جوانبها الاجتماعية والفنية والسياسية، وقام بطبيعته الخلاقة بإصدار «الأوبزرفر» بالفرنسية أيضًا، وأصبح مسئولا عن إصدار ست مجلات.

وكبر حبه كمارد جبار انشق عنه فجأة الغبار . . حدث هذا فى صيف سنة ١٩٦٢ حينما ذهب رشاد إلى مينا هاوس ليخلو إلى نفسه بعيدا عن كل الناس ليكتب مسرحيته الثالثة «رحلة خارج السور» وقد تعودت أن أذهب إليه يوميا فى الساعة السادسة مساء ونظل سويا إلى العاشرة أو الحادية عشرة مساء . . يقرأ ما فرغ منه من المسرحية ونناقشه سويا ونتجول ونتسامر فى حديقة الورد، وذهبت إليه . . قال: عندى مفاجأتان . . الأولى . . انتهيت من كتابة المسرحية، الثانية . . فلنتزوج . .

قلت . . لماذا؟ قال : أريد أن أحتويك . . أحتوى سنوات عمرى التى مضت وسنواته الآتية . . تكونى لى وحدى ، قال : مهرك يا عروسة . . قلت : أغلى مهر . . مسرحية كل عام . . وتزوجنا .

نكسة ١٩٦٧ :

وجاءت سنة ١٩٦٧ - ثريا هى التى تتكلم - وعايشنا النكسة . . يالها من أيام ثقيلة كئيبة ، لم تكن على مصر فقط بل كانت فى بيتى . . احتوت بسوادها وحزنها كل حياتى .

لقد ذهبت أنا وزوجى لنعيش مع شقيقته الكبرى والدة الكاتب «أحمد بهجت» فى منزلها وطلب منى أن أرتدى الألوان الغامقة ولا أتزين . . كانت تقلقنا جميعا هذه الصرخات الملتاعة المكتومة التى كان يصدرها بمجرد أن يخلد إلى نومه فى الليل . . وحاول الأطباء أن يعطوه بعض المهدئات ولكنها لم تأت بأية نتيجة ، وسافرنا إلى مرسى مطروح وكتب هناك مسرحية «بلدى يا بلدى» وحضر «الشاعر نزار قبانى» لمشاهدتها على المسرح . ولكن النور انطفأ فى المسرح وفى شارع عماد الدين ، وصرخ الجمهور فى الممثلين - استمروا . وصعد الكثيرون على جانبى خشبة المسرح وبيد كل منهم عود كبريت أو ولاعة أو شمعة واستمروا هكذا حتى انتهت المسرحية ، وقال له «الشاعر نزار قبانى» : اليوم اكتملت حياتك ورسالتك ولو حدث لى هذا ما طلبت أكثر منه ، ولو مت فى هذه الليلة لاعتبرت أن حياتى اكتملت .

أغار عليك من أى إنسان يشغلنى عنك حتى لو كان ابننا ، حقك الوحيد أن أعيش فقط لأرعاك ، من كان زوجى بينهم . . رشاد رشدى أستاذ الجامعة . . أم الكاتب المسرحى . . أم الناقد . . أم الرائد لأجيال كاملة من الشباب . . لقد كان كل هؤلاء .

أستاذ وتلميذه :

قدم لنا «محمد سلماوى» عرضا يكاد يكون وافيا من تلميذ عن أستاذه :

عرفت الدكتور رشاد رشدى لفترة امتدت لأكثر من عشرين عاما بدأت فى خريف عام ١٩٦٢، وتوقفت حين رحل فى شتاء عام ١٩٨٣. أكثر من عشرين عاما شهدت فترات وفاق واتفاق، كما شهدت فترات اختلاف وفراق، ولكنها تميزت طوال هذه الفترة وتلك بمحبة واحترام متبادلين وبعطاء متدفق من الأستاذ لتلميذه.

رجل أسمر ملامح وجهه قوية ومميزة، قامته تميل إلى القصر، شديد التأنق فى ملبسه، يضع منديله فى أحد أكمام بدلته، يقول إن الفن بالنسبة للفنان هو هروب من الذات، وإن الإبداع الفنى هو عملية خلق كامل، ومهما استخدم فيها الفنان من مواد مستقاة من حياته الذاتية فهى فى النهاية تتحول إلى مخلوق جديد لا يشبه مواده الأولية فى شيء، الفن يختلف كليا عن الحياة لأن العمل الفنى كائن عضوى متكامل ومستقل عما عداه، فى العمل الفنى ليس هناك تمييز ولا تفريق ما بين شكل ومضمون، الشكل هو المضمون والمضمون هو الشكل، وأى تغيير فى أحدهما يؤثر على الآخر فلا يعود العمل كما كان، والنقد عليه أن يحلل العمل من داخله لا الذى لا يضفى عليه معانى من خارجه فقد لا تكون موجودة، إلا فى ذهن الناقد نفسه، وفهمنا للأدب قد ساء فى القرن العشرين أكثر من أى وقت مضى، فنحن نتطلب من الأعمال الأدبية أن يحقق لنا أشياء ليس من وظيفة الأدب تحقيقها، والكثير من الكتب التى يكتبها أصحابها على أنها أدب ليست أدبا على الإطلاق.

وكان الدكتور رشاد رشدى نموذجا فريداً لعلاقة الأستاذ الجامعى بتلاميذه ويقرأ أعماله على تلاميذه فى منزله بشارع الجيزة قبل أن ينشرها، ويرى أن الجامعة ما لم تصب فى المجتمع فهى لم تؤد رسالتها.

وقد تولد لدى «الدكتور رشاد رشدى» الاتجاه إلى «التصوف الدينى».

كان صديقًا للرئيس أنور السادات، يؤمن بصواب توجهاته السياسية فى أساسها وإن اختلف معه فى التطبيقات والتفاصيل، وأدرك رشاد رشدى أنه لا توجد ديمقراطية، فى عهد السادات، أيده فى البداية لوجود شبهة ديموقراطية، ثم بدأ يفيق على عدم وجود ديموقراطية.

وختم «محمد سلماوى» دراسته بقوله: الأستاذ الحق هو الذى ينير الطريق أمام

تلميذه ولا يعرض عليه الطريق الذى يسلكه . . وهكذا كان الدكتور رشاد رشدى .
والآن ندع «الدكتور رشاد رشدى» يحدثنا مباشرة عن :

رحلته مع الحياة:

كان بيتنا فى أقصى شمال المدينة «الزقازيق»، ولم تكن تفصله عن شريط السكة الحديد سوى حديقة صغيرة تمتد بطول السكة الحديد، فى هذه الحديقة كنت أقضى معظم وقتى أقرأ القرآن الكريم أو أتأمل الأشجار من حولى وأراقب العصافير بين الأغصان، كان عمرى سبع سنوات «ولد عام ١٩١٢» وأنا أجرى مهرولا فى الحقول المحيطة بالمدرسة، أهتف بحياة سعد والثورة «١٩١٩» وبالاستقلال التام أو الموت الزؤام.

ومنذ أن تفتحت عيناى على الحياة كانت القطط ومازالت رفقاء العمر وزملاء رحلة الحياة، فأنا أجد فى صحبتها متعة لا أجد مثلها فى صحبة غيرها من الحيوانات أو حتى فى صحبة البشر، فلما كبرت قرأت وتعلمت أن أجدادى الفراعنة كانوا يحترمون القط ويحبونه بشكل يفوق الوصف، ويقول الكاتب الرومانى «شيشرون» إنه لم يسمع بمصرى واحد قتل قطا فى حياته.

فى القاهرة عشنا فى بيت من بيوت جدى فى الحلمية القديمة قرب قلعة صلاح الدين، وكانت مدرستى فى شبرا تبعد عن بيتنا فى الحلمية بما لا يقل عن الساعة والنصف ذهابا ومثلها فى العودة بالترام الذى لم يكن بالقاهرة غيره من وسائل المواصلات.

وكان أخى الأكبر «عبد الرازق» يقود جمعية سرية «جمعية اليد السوداء» وكان أبى يشجعه بطرق غير مباشرة، وانتقلنا من بيت جدى فى الحلمية إلى شقة فسيحة قرب مدرسة التوفيقية تطل على ترعة كبيرة اسمها «الترعة البولاقية»، حصلت على شهادة التوجيهية والتحقت بالجامعة عام ١٩٣١ - كلية الآداب - قسم اللغة الإنجليزية، وتخرجت فى يونيو عام ١٩٣٥ بتقدير امتياز.

وراء الأســـــوار:

ويقدم لنا «الدكتور رشاد رشدى» صورة طريفة عن الجامعة فى النصف الأول من الثلاثينيات . كان عدد الزميلات فى ذلك الوقت قليلا للغاية ، واختلاط الجنسين لم يكن مسموحا به إلا داخل قاعات الدرس فقط ، وأذكر بهذه المناسبة أن زميلة لنا وكانت مسيحية تسلمت من أحد الزملاء خطابين يبثها فيهما حبه الطاهر البرىء ويرجوها أن تذهب يوم الأحد إلى الكنيسة لمجرد أن يراها أطول وقت ممكن ، فماذا حدث؟ سلمت الزميلة الخطابين للعميد فأصدر أوامره على الفور بفصل الطالب من الكلية «خسارة . . لم يذكر لنا د . رشاد رشدى اسم العميد والطالبة والطالب» .

ساحر اسمه الحب:

هذه واحدة من مسرحياته باللغة العربية ، الساحر هو نفسه لاشك فى هذا ، وأما الحب فيحدثنا هو نفسه عنه ، وقد حدثتنا من قبل ثريا زوجته وكيف التقيا وكيف تزوجا هذا الزواج الذى استمر واحدا وعشرين عاما منذ عام ١٩٦٢ حتى رحيله فى ٢٢ فبراير عام ١٩٨٣ . أما ما قبل هذا الزواج فهو حكاية طويلة ، فى عشة أخيه «عبد المنعم» ضابط بوليس نقطة رأس البر . . طويلة سمراء شعرها ينساب على كتفيها فاحم السواد كل ما بها دقيق رقيق . (التقيت أنا و«بهية» بعد ذلك مرتين فى عشة أخى فقد كانت صديقة لزوجته الشابة . . وفجأة عادت بهية مع أبيها وعائلتها إلى القاهرة) ، وعاد هو إلى القاهرة ووافقت الإذاعة على أن يذيع كل أسبوع قصة من تأليفه أو قصة مترجمة نظير جنيه واحد لكل قصة ، وظل يتقاضى أربعة جنيهات فى الشهر ، وتقدم للعمل الدائم فى الإذاعة ، ويوم الاختبار كان فى صحبة «بهية» ونودى على اسمه للاختبار ولما لم يجدوه شطبوا اسمه ، وأخذ يكتب فى الصحف والمجلات دون مقابل . وتقرر سفره فى البعثة إلى إنجلترا فى ٢٠ سبتمبر عام ١٩٣٧ . وتقرر أيضا زواجه من «سميرة» شقيقة زوجة أخيه فى أغسطس عام ١٩٣٧ . (فى أكتوبر عام ١٩٣٧ استقر بى المقام أنا وزوجتى فى لندن . وكانت سميرة تغار من الكتب غيرتها من النساء) ، وفى سبتمبر ١٩٣٩ عاد إلى مصر

وتسلم عمله كمدرس للغة الإنجليزية بمدرسة مصر الجديدة الثانوية، وتزوج «سونيا» على زوجته «سميرة» وعاش حتى عام ١٩٤٦ حياة مزدوجة وزع فيها وقته بين زوجته «سميرة» فى بيت بالزيتون، وبين «سونيا» فى شقة صغيرة فوق سطح إحدى العمارات بمصر الجديدة، سونيا كانت تعرف بزواجه من «سميرة» ولكن سميرة لم تكن تعرف بزواجه من «سونيا»، وذات صيف ذهبت «سميرة» إلى الإسكندرية. وسافرت أيضًا «سونيا» حيث نزلت ضيفة على صديقة لها اسمها «شهيرة» لا أطيل على القارئ. . المهم أن «شهيرة» حكت حكاية «سونيا» لأخيه. وأصرت الأسرة وأصرت «سميرة» على طلاقها منه، واقتطعت منه جزءا كبيرا من مرتبه كنفقة.

ولا نستطيع بالطبع أن نغفل قصة زواجه من «الدكتورة لطيفة الزيات» فقد نشرت من قبل فى مجلات وكتب لأنها قصة طريفة. . إذ كان زواجه من «ثريا» زواج الربيع بالخريف، فإن زواجه من «لطيفة» هو زواج اليسار باليمين. وظل هذا الزواج سبع سنوات، خلالها حصلت على الدكتوراه ورأست قسم اللغة الإنجليزية وآدابها بكلية بنات عين شمس، ورأست قسم النقد الأدبى والمسرحى بمعهد الفنون المسرحية وأصدرت روايتها الشهيرة «الباب المفتوح» وردًا على النقد الذى وجه إليها كمناضلة ماركسية سابقًا بيمينى يتناقض مع اليسار كان ردها الصريح: كان أول رجل يوقظ الأنثى فىّ، وأن الجنس كان سبب سقوط الإمبراطورية الرومانية. «أميرة خواسك: رائدات الأدب النسائى فى مصر ص ٢٦٧».

البطاقة الثقافية:

رأس تحرير ٦ مجلات باللغتين الإنجليزية والفرنسية، ومجلتى المسرح والجديد، ومسرح الحكيم وأكاديمية الفنون ومستشاراً للرئيس السادات للشئون الثقافية، وأصدر من الدراسات (الاتجاهات الأدبية المعاصرة فى النقد الأدبى، ودراسات فى الشعر الإنجليزى وفن القصة القصيرة، ونظرية الدراما من أرسطو إلى الآن)، صدرت له ١٥ مسرحية، و٤ مجموعات قصصية، ورأس قسم اللغة

الإنجـليزية ، لقد كـان يعـشـق الحـيـاة ويكـره المـوت ويشـقيـه المرض ، وأصـابه المرض الذى كـان يخشـاه . . أصـيب فى القـلب وتوفـاه الله إلى رحـمـتـه فى ٢٢ فبراير عام ١٩٨٣ .

الأسـانيد:

١ ـ أميرة خواسك . . رائدات الأدب النسائى فى مصر .

٢ ـ أنيس منصور وأحمد بهجت و د . سمير سرحان و د . عبد العزيز حمودة ومحمد سلماوى ومحمود فوزى وثريا رشدى . . «رشاد رشدى» .

٣ ـ ثريا رشدى . . المعلم والعاشقة «كتاب رشاد رشدى» .

٤ ـ د . رشاد رشدى . . رحلتى مع الحياة .

٥ ـ محمد سلماوى . . أستاذ وتلميذه «كتاب رشاد رشدى» .

زكــى طليمـــات



العام ١٩٨١ وخطة النشر بهيئة الكتاب أمامى، وقد أدرجت بها كتابا بعنوان «ذكريات ووجوه» لمؤلفه «زكى طليمات». . الاسم كبير يحفز على الاهتمام بالكتاب وسرعة إصداره. وكلما ورد اسمه أمام المثقفين جاءت شهاداتهم له بريادة الحركة العلمية فى المسرح المصرى وبأسلوبه العلمى فى نهضة المسرح فى مصر وتونس والكويت والإمارات.

كان قد صدرت له كتب أخرى قبل ذلك العام. . «فن الممثل غير فن الملقى والخطيب - القاهرة ١٩٤٥» و«فن التمثيل العربى - الكويت ١٩٦٥» ووضعها أمامى متفضلا بإهداء رقيق بعباراته الرشيقة، وكأنه كان يريد أن يطمئننى على اختيار كتابه الجديد ضمن خطة النشر.

وكنت فى تلك الفترة أشرف على النشر وعلى مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر بالهيئة على إثر ترك «دكتور محمد أنيس»، موقعه فى المركز. وقال «زكى طليمات»: إن كتابه المزمع نشره يروى قصصا عن مسرحنا المصرى وعن عديد من الشخصيات تبعًا لما دارت به الحياة فى النصف الأول من هذا القرن وفيما تجاوزه بقليل. . تحدث فيه عن شخصيات عديدة. . روزاليوسف، وعزيزة أمير، وأم كلثوم، وفاتن حمامة، ومحمد طلعت حرب، وجورج أبيض، وعزيز عيد، وسلامة حجازى، وسيد درويش، ومحمد حلمى عيسى، وعلى أيوب، ونجيب الريحانى، ومحمد عبدالوهاب، ود. محمد حسين هيكل، وخليل مطران ومنسى فهمى.

واستطرد «زكى طليمات» قائلا: هذا تاريخ غير مقصود عن عديد من الشخصيات، وكنت قد قرأت المخطوط واستمتعت به فقلت له مستدركا:

- ولكنه تاريخ مقصود عن فناننا الكبير زكى طليمات من خلال حديث الذكريات، وهذا فى تقديرى القيمة الحقيقية للكتاب. وشد على يدى وهو يقول ما يقوله فى نهاية كل لقاء:

المهم أن يرى الكتاب النور قبل أن يرحل زكى طليمات. ياالله حسن الختام.

وحمدت الله أن كتاب «ذكريات ووجوه» صدر قبل أكثر من عام من رحيل الأستاذ.

الفنان الكبير سعد أردش والتلميذ المخلص لزكى طليمات كتب يصف أستاذه بأنه وضع المنهج العلمى للحركة المسرحية فى مصر والعالم العربى خلال مؤسستين من ابتكار «زكى طليمات» وهما: المسرح المدرسى والمعهد العالى لفن التمثيل العربى. وقد بدأ طليمات تأسيس الثقافة المسرحية بين الجماهير المصرية، كما بدأ زراعة المسرح بكل فنونه على اتساع التربة المصرية، وفى الأرض العربية على السواء. ويقول «أردش»: إن الأستاذ الرائد يحرص على زيارة الفرق المسرحية المدرسية بنفسه للإشراف والتوجيه. لقد زارنا فى مدرسة دمياط الثانوية وأنا طالب بالسنة الأولى بالمدرسة وعضو مستجد بفرقة المدرسة. واختار لنا مسرحية «نهر الجنون» لتوفيق الحكيم لنقدمها فى نهاية ذلك العام. وإذا كان هذا ما كتبه أحد تلاميذه «سعد أردش» فهيا بنا لنقرأ ما كتبه «زكى طليمات» بنفسه عن مواقف كانت له مع عدد من الشخصيات تركت بصماتها على مسيرة زكى طليمات.

مع هؤلاء:

فى لقائه مع عدد من الشخصيات الفنية والسياسية لم يأخذ «زكى طليمات» بالأسلوب التقريرى، وإنما لجأ إلى الأسلوب القصصى التصويرى ويؤلف للشخصية حضوراً فى كل لوحة رسمها، وإلى بعض هذه اللوحات:

روزاليوسف:

كنت أرقص قبل أن تمثل، لأن تمثيلها يدخل على نفسى شيئًا من التسلية، وسنحت فرصة لى إذ قبل أحد الكتاب المسرحيين المعروفين أن أصحبه فى زيارة لها بمنزلها، لم يفتح لنا باب المنزل خادم أو خادمة. . بل كانت هى الممثلة النابغة بنفسها، كانت تحمل فى إحدى اليدين سكينًا، وفى الأخرى فحلاً من البطاطس. . وسألتنى:

ـ اسمك إيه يا شاطر؟

وكررت السيدة السؤال ترقص على فمها ابتسامة خفيفة. . وفتح الله على الشاطر، فذكر اسمه ولقبه وأردفت تقول:

ـ طيب اسم زكى «مفهوم» . . ولكن سى «طليمات» ده يبقى إيه؟

وأحسست السيدة الحيرة التى ركبتنى فتلطفت تقول:

ـ إنت بتحب التمثيل وعاوز تشتغل ممثل؟

وحاولت أن أثبت طلاقة لسانى وقدرتى على التعبير والتمثيل، فنظرت إلىَّ وهى تضحك ثم قالت:

ـ تعرف تقشر بطاطس؟!

وتركت ورائى الممثلة التى كانت تكلمنى بالألغاز وبسكين المطبخ.

ولم أكن أدرى أننا سنلتقى بعد ذلك بسنوات قليلة أمام «المأذون» لأصبح لها الزوج وأنجب منها ابنتى الوحيدة «أمال».

واضطر «زكى طليمات» أن يعمل بشهادة البكالوريا فى إحدى الوظائف بحديقة الحيوان. واشترك مع روزاليوسف ومحمد التابعى فى إصدار مجلة «روزاليوسف» عام ١٩٢٥ ـ ودخل زكى وروزا فى مسابقة لوزارة المعارف وفاز بالجائزة الأولى. وأرسلته الوزارة على إثرها فى بعثة للتمثيل والإخراج لمدة خمس سنوات إلى باريس «٢٥ ـ ١٩٢٩»، وفى ٣ نوفمبر عام ١٩٢٥ سافر «زكى» إلى فرنسا وتركت زوجته التمثيل، واستقالت من فرقة رمسيس، وتفرغت لمجلة «روزا اليوسف» مع

«التابعى». وفى باريس نهل «زكى» من ينابيع المعرفة وعيون الفن والأدب. وتتلمذ على أيدى الفنان الكبير «دتى دينيس»، والتحق بمسرح الأوديون، وتتلمذ على أيدى «فيرمان جيميه»، وفى تلك الفترة زار ألمانيا وإنجلترا وإيطاليا عام ١٩٢٨، وعاد إلى مصر عام ١٩٢٩ حاملاً معه الشهادات التى عينته فى وظيفة مدير الفنون الجميلة فى الدرجة السادسة.

عزيزة أمير:

كانوا ثلاثة وكنت معهم.. ما عدا الكلب.. عزيزة أمير تلمع فى حلى من أحجار كريمة غالية.. وإلى جانبها زوجها الشاب من أسرة كريمة.. وأمامهم رجل ضخم الجسم يرضع «الويسكى» ثم يتلمظ ويتحلب ربته. وأخذت فى قراءة القصة. وأعارتنى السيدة أذنا صاغية. أما من يرضع الويسكى فبقيت نظراته تنتقل بين الكأس وطلعة السيدة البهية.. أما الزوج فكان له شأن آخر.. يخرج من البهو ويعود إليه مرة أخرى، شارد البصر.

وظن «زكى» أن السيدة عزيزة أمير قد أعجبتها القصة، وسوف تنتجها له فى السينما. ولكنه يقول: بعد أسبوعين على هذه المقابلة قرأت فى أكثر من صحيفة أن «عزيزة أمير» باعت حليها ومنزلها فى ضاحية مصر الجديدة لتنتج فيلما جديداً.. كانت قصة الفيلم الجديد غير القصة التى قرأتها لها فى تلك المقابلة.

محمد طلعت حرب:

كانت المقابلة الأولى فى أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات من هذا القرن، كان طلعت حرب قانعا بأن يبقى المسرح على ما تركه «سلامة حجازى» يقدم مسرحيات ساذجة لا تستهدف إلا مجرد التسلية. وكنت أرى غير هذا وأناهضه بالكتابة فى الصحف رغم حداثة سنى. ودعانى طلعت حرب لمقابلته. وقذف فى وجهى بصوت عال.. أنت مغرور فنزوح وتتعجل الزمن.. ومرت أيام وكانت فرقة «الكوميدى فرانسيز» كبرى فرق التمثيل بباريس على وشك الحضور إلى

القاهرة لإحياء موسم مسرحى بدار الأوبرا. وعلى رأس الفرقة «دتى دينيس» عميد المسرح الفرنسى وأستاذى. وقررت أن أحسن استقباله. وانتهيت إلى أنه لابد من إجراء «سلفة» من بنك مصر.. وأنهيت مع المسئولين بالبنك الإجراءات اللازمة لصرف هذه السلفية ولم يبق إلا أن يعتمدها المدير العام «سعادة» محمد طلعت حرب! وأخذ يسلقنى بتلميحات مؤلمة وامتدت يده إلى الطلب المقدم منى بطلب السلفة وأخذ يمزقه على مهل، شعرت بذل وألم وتأهبت للانصراف وفوجئت به يقدم لى المبلغ الذى أردت استدانته وهو يقول:

ـ هدية منى لأستاذك.. جدع ياواد.. هدية من أب لولده ووجدتنى أجهش بالبكاء.

محمد حلمى عيسى:

وزير التقاليد.. وزير المعارف وزير العدل الأسبق. كان قد تأسس أول معهد حكومى للتمثيل العربى عام ١٩٣٠. وفى نهاية العام الدراسى أوفدتنى الوزارة إلى أوروبا فى زيارة قصيرة لإنجاز مهام فنية تعمل على تقدم هذا المعهد. ولم يكد يمضى على سفرى أيام معدودات حتى جاء «محمد حلمى عيسى» وزيرا للمعارف وأغلق المعهد بالضبة والمفتاح. وعدت إلى مصر ونقلنى الوزير الجديد سكرتيرا لدار الأوبرا لأتولى جرد أحذية وفساتين وكراسى المسرح. شرعت قلمى فى مختلف الصحف أهاجم «وزير التقاليد» وخاصة على صفحات «روز اليوسف». واستدعانى الوزير للتحقيق معى بمعرفته. وبعد اللقاء أصدر الوزير قراراً بأن يحل مكان المعهد الملغى دراسة حرة للتمثيل أطلق عليها اسم «قاعة المحاضرات التمثيلية» على ألا تلحق بها فتيات.

الدكتور محمد حسين هيكل:

وقعت عليه عينى ـ أول ما وقعت ـ ولم أكن أعرف من يكون. وكان ذلك بمقهى بشارع عماد الدين فى عام ١٩٢١م، ومرت الأيام وأصبح الدكتور هيكل رئيسًا

لتحرير جريدة «السياسة» التى ظهرت عام ١٩٢٢ . وكنت أرسل إلى الجريدة تعليقاتى والأستاذ لا ينشر منها شيئًا . ودخلت مكتبه وأعطانى كتابًا عن «جان جاك روسو»، وهو من تأليف الدكتور هيكل عن هذا الفيلسوف الفرنسى . . وكانت هذه بداية علاقة وثيقة .

علـى أيـوب:

جلس الموظف الذى هو أنا، أمام الوزير صاحب المعالى على أيوب بمكتبه بوزارة المعارف . . وقطع الوزير الصمت وقال :

- بأه حضرتك عاوز ترقص؟

- لا . . أبدًا . .

- طيب عاوزنى أنا اللى أرقص؟

- أستغفر الله أنا ما قلتش كده المذكرة التى أمامى عنك تقول كده!

- كلا، أنا قلت إن الوزارة هى التى تنشئ معهدًا لفن الرقص .

- الناس حاتقول بيعملوا . . رقص .

- إحنا فى عام ١٩٤٩ .

- ولـو . .

وخرجت وكتبت تقريرًا أشرح وجهة نظرى .

محمد عبد الوهاب:

عرفته وكنت فى أول شبابى، وكان هو فتى مراهقًا غض الإهاب، أيام كنت محترفًا التمثيل المسرحى، فى فرقة عبد الرحمن رشدى المحامى أستاذى فى المسرح، وكان عبد الوهاب إذ ذاك يطرب الجمهور بين فترات الاستراحة بالسهل

البسيط من أغانى سلامة حجازى وسيد درويش. وكان فتى نحيل الجسم، فى وجهه شحوب وهزال وفى عينيه قوة وبريق، وفى نظراته حلم وصفاء.

وأظن أن «زكى طليمات» برسمه لهذه اللوحات قد رسم صورة لنفسه فيها الكثير من الملامح.. وعلينا نحن أن نستكملها بالتاريخ المباشر عن «زكى عبد الله طليمات».

زكى عبد الله طليمات:

فى حى عابدين بقلب مدينة القاهرة - حى القصر الملكى - ولد «زكى عبد الله طليمات» فى ٢٩ أبريل من عام ١٨٩٧ ومصدر آخر يرجح أنه ولد فى ٢٩ أبريل من عام ١٨٩٥.. وهو فى هذا شأنه شأن كثير من الفنانين.. تاريخ الميلاد مختلف عليه دائمًا. أم كلثوم وعبد الوهاب حتى فكرى أباظة اختلف الناس حول يوم ميلاده وعندما سألوه.. قال.. ولا الجن الأزرق يعرف تاريخ ميلادى!

والد «زكى» أى السيد «عبد الله» من أصل عربى من الجزيرة العربية.. رحل إلى الأناضول ثم جاء إلى مصر وعمل بالنجارة. أما أمه - أى أم زكى - فهى من أصل شركسى اسمها «ملك بار» حضرت إلى مصر مع الجوارى البيض. وبعد مولد «زكى» بعام ونصف انفصل الأب عن الأم وتزوج من زوجة ثانية مصرية هذه المرة. وأقام «زكى» مع أمه الشركسية. وتعلم فى كتاب «الشيخ محمد المتينى» فى حى السيدة زينب.

ثم التحق بمدرسة محمد على الابتدائية. وانتقل إلى مدرسة الحسينية الابتدائية، حيث حصل على الشهادة الابتدائية منها عام ١٩٠٩م، والتحق بمدرسة الخديوية الثانوية ثم مدرسة الإلهامية الثانوية، وحصل منها على البكالوريا والحرب العالمية الأولى على الأبواب. والتحق بمدرسة المعلمين العليا ليصبح مدرسًا ولكن هوايته للمسرح وانشغاله به جعلاه يهجر الدراسة وهو فى السنة الثالثة حوالى عام ١٩١٧ عام وفاة الشيخ «سلامة حجازى»، ويذكر أنه سار فى جنازة «الشيخ» من مسكنه بمصر الجديدة حتى مدافن الإمام الشافعى.

شباب المسرح :

درج على تقليد «الشيخ سلامة حجازى» فى التمثيل والغناء. وفى المرحلة الثانوية توطدت صداقته بأبناء أسرة تيمور «محمد ومحمود وإسماعيل»، وفى قصر أحمد تيمور باشا ظهرت مواهبه فى تقديم مشاهد من مسرحيات «الشيخ سلامة حجازى»، وفيما بين عامى «١٩٠٥-١٩٠٦» والحرب العالمية الأولى مشتعلة أصبح عضوا فى «جمعية رقى الآداب والتمثيل»، وظهر فى يناير عام ١٩١٥ على المسرح لأول مرة فى مسرحية من تأليف «محمد عبد الرحيم»، ثم شارك فى تقديم «قصة مدينتين» لشارلز ديكنز. وكان يحتفظ برشاقته ويمارس الرياضة ولم يشرب الخمر ولم يقترب من المخدرات. وقد استلفت نظر «جورج أبيض» الذى كان قد عاد من فرنسا وكون فرقته بمعاونة «الخديو عباس حلمى الثانى» عام ١٩١٢. واشترك زكى أيضًا فى فرقة «عبد الرحمن رشدى» المحامى مع «أحمد علام وحسين رياض وفؤاد شفيق وبشارة واكيم ويوسف وهبى وزكى رستم»، وكان زكى رستم وبشارة واكيم وزكى طليمات ينظر إليهم على أنهم المثقفون فى الوسط الفنى، إذ إن الثلاثة كانوا حاصلين على البكالوريا.

واعتزل زكى الدراسة وهو فى السنة الثالثة من مدرسة المعلمين العليا وارتبط بـ«جمعية أنصار التمثيل» واتصل بـ «عبد الرحمن رشدى ومحمد عبد القدوس» ومحمود خيرت وسليمان نجيب، وإبراهيم رمزى. . وبدأ اسمه يشتهر بعد أن كان قد بدأ بتمثيل الأدوار الأولى فى مسرحيتى «الرداء الأحمر والشمس المشرقة».

فترة الصراع:

يسجل «زكى طليمات» فى أكثر من موضع أن «جورج أبيض» كان أستاذه. وانضم «زكى» إلى فرقة «جورج أبيض» . . وقرر جورج أبيض أن تكون رسالة مسرحه هى مواجهة مسرح الريحانى ومسرح على الكسار وهم يقدمون المسرحيات الفكاهية وهو يعنى بمسرح الفصحى ولكن جورج أبيض هزم فى هذه المعركة. وعام ١٩٢١ قرر عبد الرحمن رشدى حل فرقته والعودة إلى المحاماة. ثم افتتح «جورج أبيض» فرقة جديدة تحمل اسمه فى شارع فؤاد الأول «٢٦ يوليو حاليا» إلى جوار

محل شملا . وعاونه «زكى طليمات» و«سيد درويش» إلا أن مدرسة جورج أبيض بدأت تتراجع . واصطدم «زكى» بأخلاقيات الوسط الفنى المنتشرة وقتذاك، فتحول إلى «ناقد فنى» بجريدة «المقطم» وبعد ستة أشهر استغنى عنه «خليل نايب» صاحب «المقطم» وأدرك زكى أن المسرحيين الذين ينقدهم يكممون أفواه الصحافة بالإعلانات التى ينشرونها، وعاد إلى «جمعية رقى الآداب والتمثيل»، وفى هذه الجمعية التقى بـ «محمد صلاح الدين» الذى أصبح فيما بعد «د. محمد صلاح الدين وزير الخارجية» فى حكومة الوفد ١٩٥٠ - ١٩٥٢، فى هذه الفترة تزوج من روزاليوسف واختلف مع جورج أبيض وانصرف هو وروزاليوسف لإنشاء المجلة، ثم جاءت بعثته إلى فرنسا وسافر إليها فى نوفمبر عام ١٩٢٥ .

العلم ونهضة المسرح:

فى فرنسا وفى زياراته لإنجلترا وألمانيا وإيطاليا وقف على الفنون المسرحية بمستوى رفيع وتقوم على أسس علمية . وبعد عودته عمل على إنشاء معهد لتخريج الممثلين، وكان له دور فى إنشاء الفرقة القومية عام ١٩٣٥م وأنشأ المسرح المدرسى عام ١٩٣٧ ، وقد قام بإخراج مسرحية الافتتاح للفرقة القومية وهى مسرحية «أهل الكهف» لتوفيق الحكيم فى ١٥ يناير عام ١٩٣٥ . وكان يشرف على تلك الفرقة لجنة برياسة «حافظ عفيفى» وعضوية «د. طه حسين ومحمد العشماوى ود. محمد حسين هيكل وأحمد ماهر»، واستقال «زكى» من الفرقة القومية فى موسم ١٩٣٦ - ١٩٣٧ ثم سافر فى بعثته الثانية عام ١٩٣٧ لدراسة المسرح الشعبى بألمانيا وفرنسا. وبعد أن عاد أسس وحدتين لهذا المسرح الشعبى بألمانيا وفرنسا. وبعد أن عاد أسس وحدتين لهذا المسرح الشعبى. وعام ١٩٤٤ تم إنشاء مركز لتخريج الممثلين، وكان من أساتذة هذا المركز . . «د. طه حسين، ود. أحمد ضيف، ود. محمد مندور»، وتحول هذا المركز فيما بعد إلى «المعهد العالى للفنون المسرحية»، وعام ١٩٤٥ تم حل الفرقة القومية بعد أن قدمت سبعة مواسم مسرحية .

ومنذ عام ١٩٤٧م بدأت الفرقة المصرية تستقبل الطلائع الأولى من خريجى المعهد العالى للفنون المسرحية. وكان زكى عميداً للمعهد ومديراً للفرقة الجديدة

وعام ١٩٥٠ أنشأ «زكى» فرقة المسرح المصرى الحديث، وضمت ١٤ ممثلا وممثلة من خريجى المعهد. وكانت مسرحيات موليير على رأس الأعمال المترجمة. وفى تلك الفترة تزوج «زكى طليمات» زوجته الثانية الفنانة «إحسان شريف».

التطهير والهجرة:

وفى صيف عام ١٩٥٢ وبعد استيلاء الضباط على السلطة وظهر ما سمى بـ«حركة التطهير» فى الجامعات والمؤسسات الفنية والإطاحة بخيرة المثقفين أخرجوا «زكى طليمات» بحجة ميوله الوفدية وعلاقاته الوثيقة بالدكتور طه حسين والدكتور محمد صلاح الدين والدكتور محمد مندور، وعام ١٩٥٤ سافر إلى تونس لتطوير مسرحها بناء على دعوة من دولة تونس. وعام ١٩٥٧ دعته دولة الكويت لإنشاء حركة مسرحية.. وبقى هناك حتى أوائل السبعينيات، ثم انتقل إلى الإمارات ليبذر بذوراً جديدة للمسرح فى أرض عربية أخرى.. ورحل إلى رحمة الله فى ٢٢/ ٢/ ١٩٨٢.

الأسانيد:

١ - روز اليوسف.. ذكريات.

٢ - زكى طليمات.. ذكريات ووجوه.

٣ - عبد الغنى داود.. زكى طليمات.

٤ - محمد السيد شوشة.. رواد ورائدات السينما المصرية.

الدكتور زكى نجيب محمود



منذ ثمانية قرون غادر الحياة آخر فلاسفة العرب والمسلمين «ابن رشد»، ومنذ خمسة أعوام غادر الحياة تلميذ مخلص لابن رشد - أخذ عنه إعلاء شأن العقل فى التفكير والسلوك. . مفكر رصين التفكير، نزيه العقل، متزن القلم، عف اللسان، مخلص لوطنه وعروبته ودينه. . الرائد والمعلم والأستاذ «الدكتور زكى نجيب محمود»، ولد فى فبراير من عام ١٩٠٥م فى قرية «ميت الخولى عبد الله» محافظة دمياط مع كسر العين من فضلك، كما كان ينطقها ويحرص على أن ننطقها هكذا مثله، وكان يعشقها لأنها اعتقلت الملك لويس التاسع ثم نقلوه إلى المنصورة، وتوفى فى ٨ سبتمبر من عام ١٩٩٣ بالقاهرة، وكان من حظى أن أجلس إليه جلسة التلميذ حقيقة لا مجازا منذ عام ١٩٤٦ وأن اقترب منه وأتأثر به. رحل المعلم وبقيت أقواله مصباحا منيرا على الطرق الوعرة:

** العلم والإيمان جانبان ضروريان معا لكل إنسان يريد لنفسه حياة تحقق فطرته السليمة.

** إن ما تقدم به الغرب يمكن أن نتقدم به نحن على ألا تضيع هويتنا التى ميزتنا على امتداد عصور التاريخ.

** بين رجة التأميم فى أوائل الستينيات ورجة الهزيمة فى أواخرها. . مالت الحياة الثقافية نحو السياسة بالمعنى المباشر وغير المباشر معا.

** وقعت الواقعة فى اليوم الخامس من شهر يونية عام ١٩٦٧ فأصابنا الذهول ولم نكد نصدق ما وقع .

** الإسلام مجموعة من القيم التى لا أحسب عاقلا يرفض شيئًا منها وها هو الدكتور زكى نجيب محمود .

فى تقديمه لكتابه الواحد والخمسين «حصاد السنين» قال : «عرف من البجعة أنها وهى تلفظ أواخر أنفاسها تخرج نغمة أجمل ما تكون النغمات . . إنها على أرجح الظن تئن أنين الحى وهى على حافة النهاية» . وأحس الكاتب - يشير إلى نفسه - أن سيرته الثقافية اقتربت من ختامها مما أوحى له بأن يكتب هذا الكتاب - يقصد حصاد السنين - ليقدم به إلى قارئه صورة للحياة الثقافية كما عاشها أخذا وعطاء ، وهى حياة طال أمدها وحرص الكاتب أشد الحرص على أن يصور حياته العلمية والأدبية خلال هذه الفترة الطويلة فى نزاهة بقدر ما كان ذلك فى مستطاع البشر .

وتغريد البجعة أو كتاب «حصاد السنين» يقع فى ٤٢٥ صفحة لا يسعنا إلا أن نقدم للقارئ الكريم بعض المواقف من هذه التغريدة الجميلة .

أيام الحرب العالمية الثانية كان فى إنجلترا وقالت له ربة البيت الذى كان يسكن فيه : إن الموت يتربص بنا جميعا فبماذا توصى إذا جاءتك إصابة الموت؟ فقال ابن قرية ميت الخولى عبد الله التى تنازعتها محافظة الدقهلية ومحافظة دمياط وصارت بتبعيتها الإدارية إلى مركز فارسكور محافظة دمياط . . قال للسيدة :

- وصيتى الوحيدة هى أن يدفن جثمانى فى أرض مصر ، قالت متعجبة «أليست الأرض كلها سواء بالنسبة إلى الموتى؟ . قال . . لا تدركين علاقة المصرى بأرضه ولو قلت هذا الكلام لمصرى لفهم ما أريد . . ليتكم تعلمون أن المصرى تملكه أرضه أكثر مما يملك هو الأرض ، هذا هو حب الأستاذ للتراب الذي خرج منه .

وفى الأعوام الأولى من ثلاثينيات هذا القرن رغب فى السفر إلى القدس الشريف فى فلسطين ووصل محطة اللد عند الفجر ووجد رجلا واحدا فأراد أن يحييه فقال «زكى» للرجل بالإنجليزية . . «صباح الخير» ورد الرجل بحروف غير واضحة من الكلام فسأل «زكى» ما جنسيتك؟ قال الرجل . . أنا يهودى . . قال

زكى بحسم: أسألك عن جنسيتك لا عن ديانتك . . فقال الرجل: جنسيتى هى أننى يهودى، وقد شغلته أقوال الرجل الذى يخلط بين ديانته وجنسيته . . وظلت هذه الصورة فى مخيلة «الدكتور زكى نجيب محمود» طوال سنى عمره.

وسافر الكاتب فى بعثة والحرب الثانية ملتهبة السعير . . رأى هناك المساحة البعيدة بين كرامة الإنسان وكيف تصان هناك وبين كرامة الإنسان فى بلاده وكيف يمكن أن تهان، وعندما تحققت له دعوة من جامعة الكويت تفرغ لمراجعة متأنية لعيون التراث العربى. ثم جاءته دعوة من جريدة الأهرام ليكون عضوا فى أسرتها الأدبية وأخذ يلقى الأضواء على جوانب الصيغة الثقافية المرجوة للمواطن العربى، وكانت تؤرقه فكرة بسيطة . . كيف جاز أن يلتئم ذلك التاريخ الطويل المجيد مع هذا الحاضر الذليل العقيم؟

هكذا علمنا:

فى أبريل من عام ١٩٨٦م عقدت كلية تربية دمياط - جامعة المنصورة مؤتمرا حافلا لتكريم الدكتور زكى نجيب محمود، وأسعدنى أن أشارك فى هذا المؤتمر وألقى دراسة بعنوان: «هكذا علمنا زكى نجيب محمود - تجربة ذاتية مع فكره الفلسفى والسياسى»، وراقت هذه الدراسة لأستاذنا لأنها عادت به لأربعين عاما خلت واختار زميلنا «سامى خشبة» هذه الكلمة ونشرها فى جريدة «الأهرام الدولى» بتاريخ ٤/ ٨/ ١٩٨٦، وكانت هى الكلمة الوحيدة من كلمات المؤتمر التى نشرتها الأهرام. وقدم «أ. سامى خشبة» لكلمتى بقوله: «ليست كل الفلسفة مصطلحات لا يفهمها سوى أصحابها وليس كل تفلسف، أو تفكير فلسفى صياغات مجردة تنزع اللحم الخام من فوق الهياكل لكى تتغذى خطوط النظام، إن صياغة علاقة الإنسان بالفلسفة وبالتفلسف لكشف البعد الشخصى فى تلك العلاقة الخاصة بما يجعلها عامة، وفى الوقت نفسه غير مجردة، هى أيضًا - هذه الصياغة - عمل من أعمال التفلسف، بل قد تكون مادة أولية أوسع فيما يسمى الآن ما وراء الفلسفة وسواء كان ما يكتبه - لمعى المطيعى - وألقاه فى مؤتمر أكاديمى للاحتفال بالدكتور زكى نجيب محمود، هو من قبيل سرد التجربة الشخصية لما تعلمه منه، أو كان محاولة

لتخليق المادة الخام الأولى لعملية تفلسف لاحقة، أو للتحليق فيما وراء فلسفة «الأستاذ» فإن كلامه يحمل قدرا كبيرا من الصدق على الأقل فيما يختص بعلاقة جيل لمعى المطيعى بالأستاذ.

وكان جيلى الذى جرفته السياسة يعيش سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية بداية الصراع بين الولايات المتحدة الأمريكية، وهى تسعى إلى زعامة المعسكر الغربى، وبين الاتحاد السوفيتى وهو يسعى إلى زعامة معسكر المنظومة الاشتراكية بعد أن ظلت الدولة الاشتراكية الوحيدة فى العالم، وكان شبابنا السياسى موزعا بين أبناء الوفد الذين تربوا على تراث سعد العظيم والدفاع عن الدستور والحريات ووحدة الشعب بين الماركسيين الذى يرفعون شعارات الديمقراطية الاجتماعية وبين شباب الإخوان المسلمين الذين يكنون المودة لتراث السلف الصالح.

ويدخل «الأستاذ» بنبرة هادئة يهز عقولنا بعنف وبمنطق مرتب وبروح العالم يحدثنا عن أهمية الإدراك العقلى وعدم الإغراق فى الغيبيات واحترام التفكير العلمى، العلم قد يخطئ ولكنه سبيل أيضًا لتصحيح هذا الخطأ، ونتلقى على «الأستاذ» «المنطق» وهو سبيل يدعونا إلى التفكير المرتقب، أن المقدمات السليمة غالبا ما تؤدى إلى نتائج سليمة، وعرفنا عنه كراهيته الشديدة لحكم الفرد المطلق، وإيمانه بالديمقراطية.. ويكرر وصيته المحببة إليه.. «نعتقد دون تعصب.. نفكر دون جحود.. نفتح عقولنا أمام الحجة المعارضة».

غالبيتنا فى قسم الفلسفة ارتاحت إلى «الأستاذ»، رضيت عما يقول ولم تدخل معه فى مناورات فكرية.. فيما عدا اثنين: الأول: من منطق الرفض المطلق لما يقول وهو زميلنا «حسن آدم» والثانى: يقبله فى عمومياته مع الحوار فى بعض التفاصيل وهو كاتب هذه السطور، زميلنا «حسن آدم» يغض الطرف عن الزميلات، يجلس آخر الصفوف صامتا أغلب الوقت.. يرد التحية بأحسن منها.. يستمع للأستاذ ولكنه يرفض كل ما يقول جملة وتفصيلا فى عنف وبنبرة حادة غالبًا. والأستاذ يرد وأن الحضارة الغربية ليست شرا كلها وإلا فلترفض وسائلها من علوم وتكنولوجيا ووسائل اتصال إلى آخر ما ييسر الحياة ويعين على التقدم.

ويؤكد أنه مسلم صحيح إسلامه.. يفهم الإسلام باستنارة عقل وسماحة

سلوك . . وانفتاح على حضارة العصر ، أما الثانى وهو كاتب هذه السطور فيقبل من «الأستاذ» قبولا حسنًا كل ما يقول عن الديمقراطية والحريات وكرامة الإنسان والأخوة الوطنية ، ولكنه يتحفظ على موقف «الأستاذ من الاتحاد السوفيتى تحت مقولة استنكاره للدكتاتورية ، وكانت غالبية جيلى فى ذلك الزمان تعادى أمريكا وتماشى الاتحاد السوفيتى الذى يؤيد قضايا دول العالم الثالث . . والحوار لين هين بين الأستاذ والتلميذ إلى أن جاء موضوع كتاب أثرت الحرية للمنشق السوفيتى «كرافشنكو» .

آثـرت الحـرية:

فى النصف الثانى من الأربعينيات كانت الحركة الوطنية المصرية توحد صفوفها تحت قيادة الوفد فى مواجهة القصر وأحزاب القصر ومواجهة الاستعمار الأنجلو أمريكى ، وكانت سمعة الاتحاد السوفيتى لدى جماهير البلاد النامية طيبة لمواجهتها للنفوذ الاستعمارى التقليدى . . وكان «الأستاذ» بالاشتراك مع زميله وصديقه المترجم المعروف «محمد بدران» قد أصدرا كتابا للمنشق السوفيتى «كرافشنكو» والكتاب يدين التجربة السوفييتية وأنها تحمل فى طياتها عوامل تدهورها وانهيارها ويدين فى حزم دكتاتورية «جوزيف ستالين» ، وفترة حكمه الإرهابى الدموى «لاحظ» أن هذا الكتاب سابق على تقرير نيكيتا خروشوف الذى قدمه للمؤتمر العشرين للحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفيتى بعشر سنوات كاملة» ، ولم تكن الحركة الوطنية المصرية على درجة تؤهلها لعداء الاتحاد السوفيتى أو التهجم على «الرفيق ستالين» ، وكنت فى الإجازة الصيفية قد أخذت معى إلى قريتى كتابين للأستاذ . . الأول : «جنة العبيط» وهو حلو فى الأسلوب والفكرة . . الثانى : «آثرت الحرية» مقرعة للذهن ودعوة إلى التفكير . وعدت واليسار المصرى قد أثار بين طلاب الجامعة زوبعة من الشكوك حول الكتاب وأهدافه والجهات التى تقف خلفه ، وجلست إلى «الأستاذ» وأنا رافض لأمرين ، الأول : التهجم الأحمق على الأستاذ ونزاهته ، والثانى : التهجم على ستالين والاتحاد السوفيتى ، وكان «الأستاذ» حاسما حازما والنبرة حادة هذه المرة . . التجربة السوفييتية خارجة على التطور

الإنسانى . . وستالين دكتاتور مثل كل دكتاتور فى تاريخ البشرية . . والكتاب تجربة ذاتية لمفكر سوفيتى ولا ضرورة لتلويث سمعته أو سمعة الذين ترجموا الكتاب .

وفى دمياط ، أبريل عام ١٩٨٦ وعلى المنصة وإلى جوار «الأستاذ» وعميد كلية التربية ووكيل الكلية وبحضور الدكتور «أحمد جويلى» محافظ دمياط وقت ذاك وبحضور عدد من تلاميذ الأستاذ ، وفى الكلمة التى ألقيتها ونشرتها الأهرام الدولى فى ١٩٨٦/٨/٤ قلت فيما يشبه الاعتذار باسمى واسم جيلى للأستاذ . . فقد سبق هذا التكريم بثلاثين عاما عام ١٩٥٦ ، وكنا فى سجن القناطر وتسربت إلينا أنباء عن تقرير قيل إنه «للرفيق خروشوف» يدين انتهاك الشرعية الاشتراكية فى عهد الزعيم الراحل «ستالين» ويكشف عن المذابح التى راح ضحيتها الآلاف من الشعب والحزب ، وكذبنا فى البداية ما وصل إلينا من أخبار ثم وصل لأيدينا نص موثوق للتقرير وإذا بعاصفة تهز العقول . . ووقتها تذكرت كلمات «الأستاذ» وهى أثمن ما تعلمته منه . . بل أثمن ما تعلمته فى الحياة . . علمنى (أن أعتقد دون تعصب . . وأن أفكر دون جحود . . وألا أغلق عقلى أمام رأى معارض) .

وصافحنى وأنا أختم الكلمات بعبارات . . وسلاما لك وعليك أيها الأستاذ العظيم .

تجديد الفكر العربى :

ترك «الدكتور زكى نجيب محمود» للمثقفين العرب واحدا وخمسين كتابا تأليفًا وترجمة أهمها على الإطلاق - فى تقديرى - كتابه «تجديد الفكر العربى» الذى صدرت الطبعة التاسعة منه عام الرحيل ١٩٩٣م ، وهذا السفر المهم ثمرة إطلاعه على التراث العربى فى الفترة التى قضاها أستاذا فى جامعة الكويت .

وفكر الأستاذ واضح والعبارات سهلة . . يقول : الفردية العاقلة المسئولة هى ما أؤمن به : وهى فيما أعتقد ما جاء الإسلام ليدعو إليه . وقد أقام الأستاذ إنجازه على أساس التفكير العلمى ، ومن معالم الرؤية الواضحة عنده أن ما تقدم به الغرب يمكن أن نتقدم به نحن على مستوى الوطن المصرى ، وعلى مستوى الأمة العربية فى آن واحد ألا تضيع منا الهوية ، هويتنا التى لازمتنا فميزتنا على امتداد عصور

التاريخ، وعقدة «السلطة» هى داؤنا التاريخى الذى لم نجد له حتى هذه الساعة دواء، فمن كان ذا منصب أعلى بمقياس الدواوين الحكومية كان عندهم أعلى مرتبة فى جماعة المثقفين كذلك.

ولابد لنا من تركيبة عضوية يمتزج فيها تراثنا مع عناصر العصر الراهن الذى نعيش فيه لتكون بهذه التركيبة عربا ومعاصرين فى آن، ولكن ما الذى نأخذه وما الذى نتركه من تراث الأقدمين، ومن الثقافة الجديدة التى تهب علينا ريحها من أوروبا وأمريكا كأنها الأعاصير العاتية؟ الجواب عندى نأخذ من تراث الأقدمين، ما نستطيع تطبيقه اليوم تطبيقا عمليا، على أنه ليس كل ما يأخذه ابن اليوم من إنسان بالأمس جائز القبول، فالفلاح المصرى قد ورث عن جده القديم طريقته فى حرث الأرض وريها. ولكن ظهر اليوم من آلات البخار والكهرباء ما ينسخه، فلا يجوز لهذا الفلاح أن يحتج على أدوات عصره.

ولا بناء إلا بعد أن نزيل العوامل المعوقة، وفى مقدمتها أن يكون صاحب السلطان السياسى هو فى الوقت نفسه صاحب «الرأى» يجب أن نتخلص من احتكار الحاكم «لحرية الرأى»، وتراثنا ملىء بثقافات يجب أن نعيشها الآن.. فالإسلام مجموعة من القيم التى لا أحسب عاقلا على وجه الأرض يرفض شيئًا منها، وأبو حامد الغزالى فى كتابه «ميزان العقل» يضع الأساس الذى يريد أن يقيم عليه البناء.. وهو أن السعادة لا تنال إلا بالعلم والعمل.

أفكاره من أعماله:

ولا نستطيع أن نعرض أعمال هذا الرائد العظيم ومقالاته وندواته وأقواله، ويكفى هذا أن نذكر الأعمال التى ألفها أو ترجمها وتكون موحية بأفكاره: «قصة الفلسفة الحديثة - قصة الأدب فى العالم - جنة العبيط - الشرق الفنان - آثرت الحرية - شروق من الغرب - خرافة الميتافيزيقا - نحو فلسفة علمية - فلسفة وفن - قصة نفس - قصة الفلسفة اليونانية - حصاد السنين - محاورات أفلاطون - المنطق الوضعى - أيام فى أمريكا - موقف من الميتافيزيقا - مجتمع جديد أو الكارثة - فى تحديث الثقافة العربية - عربى بين ثقافتين - تجديد الفكر العربى».

خطواته على الطريق:

- ولد فى فبراير عام ١٩٠٥م فى «ميت الخولى عبد الله» مركز فارسكور محافظة دمياط القرية التى اعتقلت الملك لويس التاسع .

- توفى فى ٨ سبتمبر عام ١٩٩٣ بالقاهرة .

- تلقى تعليمه الابتدائى والثانوى بكلية غوردون بالخرطوم .

- عام ١٩٣٠ حصل على ليسانس الآداب والتربية من مدرسة المعلمين العليا بالقاهرة .

- اشتغل بالتدريس حتى عام ١٩٤٤ .

- سافر فى بعثة إلى إنجلترا عام ١٩٤٤ .

- عام ١٩٤٥ حصل على البكالوريوس فى الفلسفة من جامعة لندن .

- عام ١٩٤٧ حصل على الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة لندن .

- عام ٥٤ ـ ١٩٥٥ مستشار ثقافى فى السفارة المصرية بأمريكا .

- أعوام ٦٥ ـ ١٩٦٧م رأس تحرير مجلة الفكر المعاصر .

- عام ١٩٧٣ انضم لأسرة كتاب الأهرام .

- عام ١٩٧٥ حصل على جائزة الدولة التقديرية .

الأسانيد:

١ ـ د . زكى نجيب محمود : حصاد السنين ـ تجديد الفكر العربى .

٢ ـ د . عاطف العراقى : الأهرام ٦/ ٩/ ١٩٩٨ .

٣ ـ لمعى المطيعى : الأهرام الدولى ٤/ ٨/ ١٩٨٦ .

٤ ـ محمد شلبى : رواد الفكر والفن .

٥ ـ د . مصطفى عبد الغنى : زكى نجيب محمود .

الدكتور سيد عويس ..



صباح يوم ١٦ يونيو من عام ١٩٨٩م رنين التليفون الحزين يحمل لى صوت الصديق «د. مسعد عويس» وخبراً مفاجئًا بأن «الدكتور سيد عويس» رحل إلى رحاب الله، توفى فى مصيف جمصة حيث اعتاد أن يقضى الصيف، وحيث كتب أروع وأثمن ما كتبه (التاريخ الذى أحمله على ظهرى-٣ أجزاء)، لقد انتهت على الأرض حياة الأستاذ والمعلم والصديق ابن التاريخ المصرى كله منذ «الملك مينا» ٤٠٠٠ق.م. وصاحب «الخلود فى التراث الثقافى» الذى أهداه إلى أستاذه «يعقوب فام». عاش «الدكتور سيد عويس» مصريا صميما مثقفا واعيا، فى عروقه نبض الشعب المصرى على امتداد ٥٠٠٠ سنة، لقد عاش الدكتور سيد عويس شاهدا أمينا لمصر.

أعظم المؤتمرات الوطنية شأنا ونظاما-على حد تعبير د. سيد عويس-عقده «الوفد» يومى ٩ و١٠ من شهر يناير عام ١٩٣٥ للنظر فى شئون البلاد السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتشريعية: «لن أنسى ما حييت يومى ٩ و١٠ يناير عام ١٩٣٥، فقد استمعت لمشكلات المجتمع المصرى فى ذلك الحين لأول مرة بطريقة منظمة ومباشرة من بعض زعماء مصر والمتخصصين وخرجت من هذا المؤتمر والإحساس بالمسئولية الضخمة نحو مصر الخالدة ونحو الإسهام فى مواجهة المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية يملأ نفوسنا وكياننا، وزادت رغبتى فى مواصلة مسيرة التعليم». وكان قد توقف عن التعليم منذ خمس سنوات لوفاة والده فى ١٨ يناير عام ١٩٣٠.

والشهادة الثانية من «د. سيد عويس» هى عن:

حمزة البسيونى:

عاد د. سيد عويس من لندن يوم ٢٦ يوليو عام ١٩٥٢م بالباخرة إلى الإسكندرية، وكان الملك فاروق يمضى فى الخروج من ميناء الإسكندرية بعد عزله، واسم «سيد عويس»، بدأ يرتبط بالدراسات الاجتماعية فتم استدعاؤه إلى مجلس الوزراء فى نوفمبر عام ١٩٥٢، حيث تقرر انتدابه ووجد نفسه مدعوا لمقابلة «الصاغ مجدى حسنين» الذى طلب منه اقتراحاته فى مجال الأنشطة الاجتماعية.. فاقترح الدكتور عويس «مشروع معونة الشتاء» وامتد الحديث إلى «مشروع مديرية التحرير»، ويسجل د. عويس: كنت مع الصاغ مجدى حسنين فى رئاسة مجلس الوزراء حين رأيت الصاغ حمزة البسيونى» ومعه ضابطان ورتبة كل واحد منهما «ملازم أول» رأيتهم يدخلون من الباب العمومى وفوجئ الجميع عندما سلم على «الصاغ حمزة» بحرارة، وأكد ذلك بأنه كان يعرفنى، وأنا كنت أعرفه منذ عام ١٩٤٢ عندما كنت خبيرا اجتماعيا «لمؤسسة الزفاف الملكى» - سيأتى ذكرها فيما بعد - وكان هو برتبة «الملازم الثانى» فى «الجيش المرابط» الذى كان موقعه بجوار مبنى المؤسسة، وعلى الرغم من وجود تليفون فى معسكر الجيش المرابط لاحظت أنه لا يحلو له أن يتحدث من تليفون المؤسسة يوميا مرة أو مرتين أو أكثر، وكان يحدثنى عن أحواله الشخصية، وعرفت أنه لم يتزوج بعد ولكنه يحب سيدة متزوجة، وفى يوم من الأيام جاءنى ليتحدث عن نقص فى العهدة التى هو مسئول عنها، وكانت العهدة كلها «بطاطين»، فما كان منه إلا أن مزق كل بطانية إلى نصفين وحسب كل نصف وكأنه بطانية.

ومرت الأيام - الحديث مازال للدكتور سيد عويس - ولم أره بعد ذلك إلا وأنا فى مجلس الوزراء - كان الدكتور منتدبا للعمل فى مجلس الوزراء بعد رجوعه من لندن - وأصبح «الصاغ حمزة» المسئول عن توزيع تبرعات معونة الشتاء العينية، وكان يفعل ما يشاء ولا يبالى، وحدث بعد ذلك أن قام «الصاغ حمزة البسيونى» بإدارة السجن الحربى واستقبال المعتقلين من ذوى الرأى ومعاملتهم معاملة لا تليق بآدمى ولم أكن أدهش فأنا أعرف الرجل، أى أننى أعرف شذوذه العقلى والنفسى».

يوليـو والهزيمـة:

ويواصل الدكتـور حديثـه: عـدت من لندن يوم ٢٦ يوليـو عـام ١٩٥٢م، وفى الأسبوع الثانى من أغسطس وقعت أحداث كفر الدوار التى انتهت بإعدام العاملين «خميس والبقرى» وأصابتنى الغصة بسبب هذا الحكم الجائر، وجاء يوم ٢٥ من شهر يونيو عام ١٩٥٦ يوم الاستفتاء على «جمال عبد الناصر» رئيسا للجمهورية ولم أرغب فى الذهاب للاستفتاء ولكن تحت إلحاح البعض ذهبت وتعمدت إلغاء صوتى.

ويرى عالم الاجتماع الكبير فى هزيمة يونيو عام ١٩٦٧م: كان ما حدث لى مثل الشعور الرهيب بالذنب، فكنت وكأننى السبب فى الهزيمة، لم أنم جلست أفكر فى ضياع عمرى الذى ذهب هباء، وعاد بعض الذين كانوا مبعوثين من الخارج بعد هزيمة عام ١٩٦٧م، روايات الزميل على حسن فهمى والزميل السيد ياسين عن آثار الهزيمة عليهما وعلى من كان معهما من المصريين وهم فى بلاد الغربة، وقالا الكثير مما لم نكن نعرف، وأذكر عندما جلست على مقهى ريش وكان معنا الأستاذ الكبير نجيب محفوظ وبعض مريديه.. كان نجيب محفوظ حريصًا على الإنصات لكل ما قيل عن الواقعة التى ألمت بالبلاد، ومن ثم وصل إلى النتيجة التى وصل إليها وذكرها فى عبارته المشهورة والتى كانت وستظل عبارة بالغة الحكمة: تلقى الجيش أمرا بالهزيمة فانهزم!

الثورة الشعبية وأبناؤها:

كان فى السادسة من عمره عندما اشتعلت أحداث ثورة ١٩١٩م «ولد فى ٣ فبراير عام ١٩١٧» وسجل ذكرياته: كان الجميع يتحدثون عنها فى البيت، وفى الشارع وفى المقهى، كان الإنجليز يجوبون شوارع القاهرة وهم يحملون البنادق لينشروا الخوف والفزع فى قلوب المصريين أطفالا وشبابا ونساء ورجالا، وقام التلاميذ الكبار بالمظاهرات، وعندما حضرت «لجنة ملنر» كنت أهتف مع الهاتفين دون ما وعى أو إدراك الهتاف السائد.. فلتسقط لجنة ملنر، وعام ١٩٤٣ اختير مديرا لمكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة أحداث القاهرة، وكان الدكتور «محمد

صلاح الدين - وزير الخارجية فى حكومة الوفد ٥٠ - ١٩٥٢ على صلة بالنشاط الاجتماعى. وعام ١٩٤٩م عقد فى بيروت فى مبنى اليونسكو «مؤتمر الخدمة الاجتماعية العربية»، وكان مقرر المؤتمر «الدكتور عباس عمار»، وعهد «الدكتور محمد صلاح الدين» إلى الدكتور «سيد عويس» بإعداد البيان، وقرأ «محمد صلاح الدين» البيان وشكر الذين أعدوه، وفى مقدمتهم «الدكتور سيد عويس» ولقى البيان استحسان المؤتمر، وبعد انتهاء المؤتمر اصطحب «د. محمد صلاح الدين» الدكتور عويس ليأكلا «بسبوسة» فى محل مشهور ببيروت.

النشأة والتكوين:

من تراب مصر خرج «الدكتور سيد عويس» وهو يعتقد بأن جنس المصريين لم يتغير فى جملته خلال ستة آلاف سنة إلا تغيرات طفيفة طرأت عليه، وديانة المصريين لم تتغير فى هذا المجتمع على طول عمره إلا مرتين، واللغة لم تتغير فيه إلا مرتين أيضا، ونتيجة ذلك أن طبيعة الحياة فى مصر لم تتغير كثيرا.

ولد وعاش فى حى شعبى حتى بلغ سن السابعة والعشرين، ثم انتقل إلى حى شعبى آخر حتى بلغ سن السابعة والأربعين، ولد فى حى الخليفة وعاش بين جنباته يعرف كل شوارعه وحاراته وأزقته، شهادة الميلاد تقول إنه ولد يوم ١٧ من شهر فبراير عام ١٩١٣. وواجه منذ ولد حربين عالميتين، وأربع حروب مع إسرائيل «أعوام ٤٨ و٥٦ و٦٧ و١٩٧٣» أمة «زنوبة أحمد صبيح» عاشت يتيمة من الأم تزوجت «عويس محمد بن الشيخ محمد أحمد عويس» كانت نحيلة قصيرة، أما الأب فكان رأسه ترتطم بباب الحجرة العالى، فارعا طويلا عريض الكتفين ذا شارب أسود وحاجبين كثيفين. لم يتزوج والد «الدكتور عويس» غير أمه أسوة بجده، والده صاحب دكان «العطارة» فى «السيدة عائشة - حى الخليفة». كانوا يطلقون على دكان العطارة «الوكالة».

وتسمية صاحبنا «بالسيد» لم تكن مصادفة، وإنما نسبة إلى «السيد البدوى» ليكون فى كنفه وتحت رعايته، تماما كما كان أجدادنا الفراعنة، فقد كانوا يسمون

أطفالهم بأسماء الآلهة ليعيشوا، لأنهم فى كنفهم وتحت رعايتهم، وكانت الأسرة تطلق على صاحبنا وهو صغير «شيخ العرب».

المسلم النقى:

قال عن نفسه إنه «المسلم النقى» وبالسماحة عمل مع مديرة يهودية أمريكية، ومع مشرفة أجنبية مسيحية، وظل يعترف بالفضل لأستاذه «يعقوب فام» وعام ١٩٣٥م كان المؤتمر العام الذى عقده الوفد نقطة فارقة فى مسيرته، وفى النصف الثانى من الأربعينيات كان على علاقة وثيقة بالقطب الوفدى «د. محمد صلاح الدين» ولخص هو موقفه الدينى بأنه «المسلم النقى» وموقفه الاجتماعى بأنه «ليبرالى على صلة متواضعة مع الماركسيين».

فى صباه اتصل بـ «الجمعية الشرعية» وشيخها «الشيخ محمود خطاب السبكى» وكان من زملائه «الشيخ سيد سابق والكاتب الإسلامى خالد محمد خالد»، وبذل جهودا مخلصة فى نشاط هذه الجمعية إلى أن توفى «الشيخ السبكى» فى ٧ يوليو ١٩٣٣م، وعندما كان «الدكتور سيد عويس» يعمل فى مصلحة الحدود - وزارة الحربية والبحرية قام بحف شاربه وأرسل لحيته فاتهمه رئيسه «محمود بهنسي» بالدروشة الدينية وبالإهمال، وتم نقله إلى قلم «التوريدات»، وفى أواخر الثلاثينيات كان مقر «جماعة الإخوان المسلمين» فى العتبة الخضراء: كنت أذهب إلى مقر الإخوان المسلمين فى ميدان العتبة حبا للاستطلاع، ثم انتقل مقر الإخوان عام ١٩٣٩ من العتبة إلى الحلمية الجديدة بالقرب من مقر «الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية»، فكان يذهب إلى مقر جماعة الإخوان المسلمين: استمعت إلى «الشيخ حسن البنا» وأعجبت بحديثه وبهرنى فيض علمه وغزارته، فضلا عن أسلوب القائد العذب وشخصيته الجذابة».

غرق فى التدين عندما تنقطع الصلة بينه وبين التعلم، وظل مصريا وطنيا ليبراليا يحترم حقوق المواطنة للجميع.. كان مسلما نقيا وهو يحف شاربه ويرسل لحيته ومسلما نقيا بعد أن أعاد وجهه إلى صورته الأولى، وبعد أن احتفظ بصورة فوتوغرافية لذكرى حف الشارب وإرسال اللحية.

إحنا التلامذة:

مشوار طويل من المشقة والعناء والدراسة والتحصيل، والتعليم والانقطاع عن الدراسة، ثم بدأ يكتب عمله الشهير «التاريخ الذى أحمله على ظهرى» يوم السبت ٢١ يونيو عام ١٩٨٢م . . «عشت طفولتى وحيدا حزينا . . لا أخ ولا أخت» دخل الكتّاب الملحق بمسجد السيدة عائشة ـ الخليفة : «حدث عندى نفور من الكتاب، فكانوا يحملوننى قسرا إلى الكتاب كنت فى الرابعة من عمرى، وبعد فترة قصيرة التحقت بالمدرسة الابتدائية» وعام ١٩٢٦ حصلت على الشهادة الابتدائية، وفى أكتوبر عام ١٩٢٦ دخلت مدرسة الخديوية الثانوية حصلت على شهادة الكفاءة عام ١٩٢٩م وفى مساء ١٨ من يناير عام ١٩٣٠م : «ليلة وفاة أبى وكنت قد انتهيت يوم الخميس السابق من امتحانات نصف السنة للسنة الرابعة الثانوية» ـ توفى والده فى يناير عام ١٩٣٠ وتوفيت والدته فى يناير عام ١٩٥٠ وتوفى جده عام ١٩٣١م. أجبره جده أن يترك المدرسة الثانوية، وبعد أيام من وفاة أبيه وفى يوم الأربعاء ٢٢ يناير عام ١٩٣٠ أخذ مفاتيح الوكالة يصحبه خاله إلى شارع الزرايب لبدء العمل، وانغمس فى قراءة الكتب الدينية والأدبية ومجلات السياسة الأسبوعية والرسالة.

وفى شهر أكتوبر عام ١٩٣٤ ـ بعد انقطاع ٤ سنوات عن الدراسة . . التحق بمدرسة «راغب مرجان» الثانوية الليلية، وكان مدرس الجغرافيا الرحالة المعروف «محمد ثابت»، وكان يركب البسكليت «الدراجة» من الخليفة إلى الفجالة فى المساء وفى النهار يدير «الوكالة» فى شارع الزرايب بالخليفة، وحصل على البكالوريا عام ١٩٣٥ . وزادت عنده شحنة الرغبة فى مواصلة الدراسة والحصول على مؤهل عال، ثم السفر إلى أوروبا وأمريكا والرجوع بالماجستير والدكتوراه.

وتأتى الرياح:

انقطع عن الدراسة فى يناير عام ١٩٣٠م لوفاة والده وعام ١٩٣٢م وعمره ١٩ سنة قامت الأسرة بتزويجه وأصبح عنده «أحمد» وحصل على البكالوريا عام ١٩٣٥ وأخذ فى تحقيق أحلامه فى الدراسة العليا، ولكن حدث فى نوفمبر عام ١٩٣٥ أن أصدر «اللواء محمد توفيق عبد الله باشا» قرارا بتعيين «سيد عويس ـ

الحاصل على البكالوريا» موظفا على الدرجة الثانية الكتابية بمصلحة الحدود - التابعة لوزارة الحربية والبحرية. واللواء «محمد توفيق عبدالله» هو ابن الحتة وابن «الحاج عبد الله» تاجر البقالة فى حى السيدة عائشة، وكان والده الحاج عبد الله الصديق لـ«عويس محمد أحمد عويس» والد سيد عويس. ولم يكن هناك مفر من الانقطاع عن الدراسة مرة أخرى، ولضيق ذات اليد: «فشلت فى الالتحاق بمدرسة الحقوق المسائية، أو بقسم الصحافة بالجامعة الأمريكية» ما باليد حيلة، ولكن فى يوليو عام ١٩٣٧ نشر إعلان عن تأسيس «الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية» وإعلان عن إنشاء «مدرسة الخدمة الاجتماعية» وكان أول الملتحقين فى هذه المدرسة المسائية، وبدأت الدراسة فى ١٦ من شهر أكتوبر عام ١٩٣٧م. وفى ١٣ مارس عام ١٩٤٠ اختير عضوا بمجلس إدارة «الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية» وكان «الدكتور محمد صلاح الدين» على صلة بهذه الجمعية وبالأنشطة الاجتماعية فتوثقت الصلة بين الدكتور صلاح الدين والدكتور سيد عويس على نحو ما أسلفنا سابقا، وفى ١٥ أبريل عام ١٩٤٠ تكونت أول هيئة تنفيذية لـ «مكتب الخدمة الاجتماعية بالقاهرة» و«سيد عويس» سكرتيرا لها. وفى يونيو عام ١٩٤٠م حصل «سيد عويس محمد ابن الشيخ محمد أحمد عويس» على بكالوريوس الخدمة الاجتماعية فى أول دفعة لهذه المدرسة، وكان من أساتذته الأجلاء «د. محمد عوض محمد - د. عبد العزيز القوصى - يعقوب فام - إسماعيل القبانى - د. محمد خليل عبد الخالق».

العصامى المصرى:

جمع بين العمل فى «الوكالة» والدراسة فى مدرسة «راغب مرجان» الثانوية الليلية بالفجالة عام ١٩٣٤، وحصل على «البكالوريا» عام ١٩٣٥. وعمل مدرسا للغة الإنجليزية فى مدرسة أهلية، وفى أبريل عام ١٩٣٩ فاتحته «السيدة إلزا ثابت» للعمل معها فى «مؤسسة الزفاف الملكى» وطالبته السيدة «برتا فهمى» عميدة «مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة» بأن يستقيل من عمله الحكومى فلم يتردد، وعمل فى «مؤسسة الزفاف الملكى» تحت إشراف السيدة «برتا فهمى» - وهى يهودية أمريكية، و«السيدة إلزا ثابت» وهى أجنبية مسيحية، وعملوا جميعا بإخلاص

ومودة، ونقل فى ديسمبر عام ١٩٣٩م إلى «معسكر كوم أمبو»، وعاد إلى القاهرة عام ١٩٤٠م عام حصوله على بكالوريوس الخدمة الاجتماعية، وعام ١٩٤٣م اختير مديرا لمكتب «الخدمة الاجتماعية لمحكمة الأحداث بالقاهرة» وظل فى هذا العمل حتى آخر مارس عام ١٩٥١م.

خارج الحدود:

واشتدت رغبته فى السفر إلى الخارج ليحصل على الماجستير والدكتوراه ويعود لخدمة الوطن، سافر إلى المملكة المتحدة ليدرس ويحصل على المؤهلين العاليين، ولكنه اضطر إلى العودة فى يوليو عام ١٩٥٢ . وذكرنا هذه القصة حيث عاد يوم ٢٦ يوليو بالباخرة إلى ميناء الإسكندرية فى وقت رحيل الملك فاروق إلى خارج البلاد بعد عزله، وصدر قرار بانتدابه للعمل فى مجلس الوزراء وظل منتدبا حتى ١٥ أغسطس عام ١٩٥٣، وقد أشرنا إلى هذه المسألة والتى عمل فيها مع «الصاغ مجدى حسنين» وفى ١٥ أغسطس عام ١٩٥٣ سافر فى بعثة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وحصل على الماجستير والدكتوراه فى علم الاجتماع، وقام بعدة بحوث اجتماعية بين زنوج أمريكا، وعام ١٩٥٩م انضم إلى المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية فى وظيفة مستشار «درجة أستاذ» وبعد إحالته إلى التقاعد استمر فى وظيفة «أستاذ متفرغ» حتى وفاته. . قدم خلالها ١٥٠ بحثا ودراسة، زار الاتحاد السوفيتى ويوغوسلافيا وسويسرا فى مجال بحوثه الاجتماعية، واشترك فى «مؤتمر الأمم المتحدة عن الوقاية من الجريمة» فى أستوكهولم ـ أغسطس عام ١٩٦٥ . وأصبح عضوا لمجلس إدارة المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية.

تواضع العلماء:

وفى ١٦ يونيو عام ١٩٨٩م رحل «الدكتور سيد عويس» ابن مصر البار منذ عهد موحد الوجهين «الملك مينا» المسلم النقى الليبرالى صاحب التسامح الثقافى وذو الصداقات المتواضعة مع بعض الماركسيين وحسبه أن يقول:

«إن التاريخ الذى أحمله على ظهرى يتضمن الجوانب المشرقة، ألا يكفينى أننى عشت فى العصر الذى كان فيه كل من سيد درويش ومصطفى لطفى المنفلوطى وأحمد شوقى وحافظ إبراهيم ومصطفى صادق الرافعى وأحمد حسن الزيات وإبراهيم عبد القادر المازنى وطه حسين ومحمد حسين هيكل وعباس محمود العقاد ومحمود بيرم التونسى وتوفيق الحكيم وزكى مبارك وسلامة موسى وأحمد أمين وفكرى أباظة . . ألا يكفينى أننى تتلمذت على فضيلة الشيخ محمود السبكى، ثم السيدة إلزا ثابت والسيدة برتا فهمى، ثم الأستاذ يعقوب فام فى مصر والبروفيسور جون لويس «لندن» والبروفيسور البرت موريس «بوسطون»» .

ونحن أيضًا أيها المصرى الأصيل يكفينا أننا عشنا فى العصر الذى كان فيه «الدكتور سيد عويس» .

الأسـانيد:

* دكتور سيد عويس . . التاريخ الذى أحمله على ظهرى جـ ١ «دراسة حالة وجـ ٢ «ماء الحياة» وجـ ٣ «الثمار» .



سيف وأدهم وانلى

نشأت حركة الفنون التشكيلية فى مدينة الإسكندرية على أيدى فنانين من الأجانب. ومع بداية القرن الحالى الذى تؤذن شمسه بالمغيب اتخذ هؤلاء الفنانون الأجانب مراسمهم الخاصة مدارس لتعليم هواة الفنون وإشباع ميول الموهوبين من المصريين. فى مرسم المصور الإيطالى «أرنور وزانييرى» بدأ الفنان المصرى الكبير «محمود سعيد» الذى ولد فى الإسكندرية فى ٨ أبريل عام ١٨٩٧م فى منزل بالقرب من مسجد «سيدى المرسى أبو العباس» وتوفى بالإسكندرية فى ٨ أبريل «غريبة» عام ١٩٦٤م. ومحمود سعيد ـ مثله مثل أى سكندرى ـ يعشق الإسكندرية وأهلها ومعالمها ولا يجد لها بديلا، فأعطاها الكثير من نشاطه الفنى وجاء بعده الأخوان: سيف وأدهم وانلى.. سيف (١٩٠٦م ـ ١٩٧٩م) وأدهم (١٩٠٨ ـ ١٩٥٩م) والأعمار بيد الله. وفى مرسم فنان أجنبى أيضا من عام ١٩٣٠م ـ ١٩٣٤م شرب «محمد سيف الدين وانلى» وشقيقه «إبراهيم أدهم وانلى» الصناعة الفنية فى مرسم هذا الإيطالى «اتيورى بيكى» كسكندريين عشقا الإسكندرية وأعطياها عمرهما الفنى.

فى عام ١٩٣٤ استقل الفنانان «محمد سيف الدين وإبراهيم أدهم» واللذان عرفا فيما بعد باسمى «سيف وأدهم وانلى» استقلا فى مرسم خاص بمنزل «الأمير يوسف كمال» بشارع توفيق رقم ١٢ بإيجار صورى تشجيعا لهما على الاستمرار. وظل الأمير يتردد عليهما ويوصى معارفه وأقاربه من الأميرات والأمراء بزيارة مرسم سيف وأدهم وشراء ما يروق لهما من أعمالهما. وكان لسيف وأدهم شريك ثالث

لم ينل مثل حظهما من الشهرة هو «محمد فهمى» الذى كان عونا لهما على معرفة مدارس الفنون الحديثة، وكان يقرأ ويترجم لهما ما يفيدهما من الكتب الإنجليزية لأنه كان مدرسا للغة الإنجليزية.

وبزيادة معرفة سيف وأدهم للأنشطة الفنية المعاصرة استطاعا أن يصعدا سلم التطور الفنى درجة بعد أخرى وأصبحا أكثر شهرة من أستاذهما القديم «اتيورى بيكى». وتسابق سيف وأدهم يضيئان معا شعلة الفن فى الإسكندرية إلى أن توفى الشقيق الأصغر «إبراهيم أدهم» عام ١٩٥٩م، وترك أخاه «محمد سيف الدين» يشقى بمفرده ليتم الرسالة الفنية من بعده إلى أن رحل هو الآخر عام ١٩٧٩م.

الفن المصرى المعاصر:

ووقف «سيف وأدهم» من المصور الإيطالى «بيكى» ومن مختلف الفنانين الأجانب فى الإسكندرية على المدارس الأكاديمية فى الفنون، وعرفا مختلف المدارس الفنية بداية من التأثيرية والتعبيرية والتكعيبية والسيرالية. ومن الطبيعى أن يتأثرا ببلدياتهما «محمود سعيد» الذى سبق سيف فى مولده بتسع سنوات وسبق أدهم بإحدى عشرة سنة، وسبقهما أيضا بشخصيته الفنية. ومن الطريف أن «سيف وأدهم» أقاما أول معرض لهما عام ١٩٤٥م عن طريق جمعية الصداقة المصرية الفرنسية. فى حين أن «محمود سعيد» أقام معرضه فى سراى الجزيرة عام ١٩٥١م.

والمعروف أن لمصر ماضيا عريقا من الحضارة الفنية ولها موقع جغرافى مميز يجمع بين منابع النيل فى إفريقيا وبين المصب على مشارق البحر الأبيض المتوسط. ويرى «بدر الدين أبو غازى» أن نشأة النهضة الحديثة بمصر فى مطلع العشرينيات جاءت منقطعة الصلات بالماضى وبفكره الفنى. واعتمدت الحركة الفنية المصرية الحديثة على تجارب الغرب الأكاديمية لجيل الرواد سواء فى مدرسة الفنون الجميلة أو فى مراسم الأجانب الذين أسهموا فى تعليم الفنون للموهوبين من المصريين وفى مقدمتهم «محمود سعيد وسيف وانلى وأدهم وانلى». هذا ولقد أصبح للفنانين الثلاثة شخصياتهم المتميزة التى تستمد عناصرها من البيئة المصرية ومن الشخصيات المصرية أيضا. وجاء فكرهم الفنى موصولا بروح مصر وبأعماق الشرق. وما لبثوا

من خلال دراساتهم للفنون الأوروبية وتأمل واقعهم المصرى والشرقى أن اهتدوا إلى طريقهم وأنفسهم وصاغوا فنونهم التى نلمس فيها روح الشرق وفيها الإبداع المميز، واستحقوا أن يكونوا روادا للفن المصرى المعاصر.

شعلة الحيوية الفنية:

ويرى «عز الدين نجيب» أن الأخوين وانلى اللذين ولدا فى الإسكندرية وعاشا فيها كانا يمثلان شعلة الحيوية الفنية فى أواسط الثلاثينيات وذلك باحتكاكهما المستمر بالفن الأوروبى «المدارس الفنية الأجنبية فى الإسكندرية» وفرق الباليه والسيرك الأجنبية التى كانت تزور الإسكندرية وتقيم عروضها فيها. وأفادهما هذا الاحتكاك فى التعرف على مدارس الفن الحديث فى أوروبا ومحاكاتها محاولين بما صنعاه من خبرات فى هذه المحاكاة، أفادهما فى التعبير عن ملامح البيئة المحلية بمذاق ثقافة حوض البحر الأبيض المتوسط. وقد بدأت ثمار هذا الجهد المتواصل فى الليل والنهار بعد أن يعود «سيف» من عمله بالجمرك. وبعد أن يعود «أدهم» من عمله فى مخازن وزارة المعارف.

سيف على الطريق:

كان أول فنان تشكيلى ينال جائزة الدولة التقديرية للفنون هو «محمود سعيد» وتوقع الناس - أو تمنوا - أن ينالها «سيف وأدهم وانلى» معا فى قرار واحد ولكن أدهم وانلى رحل عام ١٩٥٩م ونال «سيف وانلى» منفردا هذه المرة جائزة الدولة التقديرية للفنون عام ١٩٧٣م. وكان «سيف» سعيدا نصف سعادة لأن نصفه الآخر قد فارقه.

فى ٣١ مارس عام ١٩٠٦م ولد «محمد سيف الدين» بالإسكندرية وهو اسم مركب. والده هو «إسماعيل بك محمد وانلى» وأمه هى «عصمت هانم الداغستانى» والقابلة التى ولد على يديها هى التركية «صالحة أفندى» أما جده فهو «محمد وانلى باشا».

كـان «سـيف» أول ذكـر تسـتـقـبله الأسـرة بعـد أربع بنات. ويسـجل «الملاخ والشـاروني» أن عائلة وانلي تنحدر من منطقة بحر قزوين و«وانلي» اسم جزيرة في القـوقـاز، أمـا «الـداغـسـتـاني» أسـرة الأم فـهي تنتـمي إلى المغـول حكـام دولة «داغستان». . فوانلي هو لقب الأب وهو اسم جزيرة، ولقب الأم «داغستاني» فهو اسم دولة.

عـاشت أسرة «وانلي» في قـصر كبير هو «سراي عرفان باشا» بحي «محرم بك» المعروف في الإسكندرية، والقصر تحيط به حديقة مليئة بأشجار الفاكهة وبالورود والزهور. وبـالقـصـر مكتـبـة عـامـرة بأمـهـات الكتب «تراث» و«تاريخ» و«فنون» واللوحات والرسوم الفنية الإيرانية والتركية تزين الجدران. . وفي هذا المناخ الفني عاش سيف وشقيقه إبراهيم أدهم الذي ولد بعده بعامين.

والتحق سـيف بالمدارس العـادية المعـروفة بالإسكندرية. وتعلم اللغة الفـرنسية على يدي مدام «إبدول» التي تحكي للتلاميذ عن باريس بلد الفنون والجمال والنور. وتحدثهم عن متحف اللوفر. وبدأ سيف يتعلم الرسم وهكذا كان أخوه إبراهيم. ولم تكن الأسـرة ترضى عن ميـول الأخوين إلى الرسم فكانا يرسـمـان في السـر. وتعلما استخدام الألوان الزيتية تقليدا لفنان أسترالي بالإسكندرية. وانضم سيف إلى فريق الكشافة، ولكن إبراهيم أدهم كان يهوى الملاكمة.

وذكـر «سيف» في مـذكـراته أن أول تجاربه العـاطفـيـة كـانت مع مطلقة اسـمـهـا «عـفـاف» وعـرف بعـدهـا ـ حـسـب مـذكـراتـه ـ ليليـان ثم شـيـرين ثم مـايا مـن بنات الخواجات، وأخيرا المصرية «إحسان»، وعمل «سيف» موظفا بجمرك الإسكندرية وكان العمل فيه شيء من العناء.

و«سيف» طويل القامة، ممتلئ الجسم، أشعث الشعر، يتدلى دائما من بين شفتيه نصف سيجارة. وعرف أنه قارئ نهم، عشق الموسيقى والمسرح. وفي سن السبعين أي عـام ١٩٧٦ تذكر أنه لـم يتزوج فتزوج المصرية الفنانة «إحسان مـختار» ومنحته أكاديمية الفنون بالهرم الدكتوراه الفخرية والفنانة «إحسان مختار» أخلصت لذكرى «سـيف وأدهـم» وأمينة على ذكـرى زوجـهـا «سـيـف» الذي تمتع بطيـبـة مـلائكيـة،

وتواضع جم، وذكاء فطرى . . وصفات تدعو إلى الثقة به، وعاش لينجذب له عارفوه إلى أن توفى عام ١٩٧٩م.

.. أما أدهــم:

وأظن الآن من اليسير علينا أن نتحدث عن سيرة «إبراهيم أدهم» شقيق سيف بعد أن سردنا خطواته على الطريق. ولد «إبراهيم أدهم» بالإسكندرية عام ١٩٠٨م فى ٢٥ فبراير بعد مولد «سيف» بأقل من عامين. والولد واحد والأم واحدة وأصول العائلة واحدة والقصر الكبير بحى محرم بك واحد وأشجاره وفاكهته وزهوره واحدة، والمكتبة واللوحات الفنية على الجدران واحدة، والمدارس التى التحقا بها واحدة والرسم فى الخفاء مشترك.

هناك بعض الفروق. . سيف انضم إلى فريق الكشافة وانضم «إبراهيم أدهم» إلى حلقة الملاكمة. وفى التجارب العاطفية عرف «سيف» عفاف وليليان وشيرين ومايا، ثم تزوج الفنانة «إحسان مختار»، أما «أدهم» فقد تعرف على صديقته الروسية الأصل «فانى» واستمرت علاقتهما زمنا طويلا، حيث كانت ترعى شئونه وتظهر معه فى الحفلات.

وكتب «سيف» فى مذكراته: (منذ نشأنا أنا وأدهم كانت ميولنا واحدة، لا نختلف فى أى هواية. . حتى الرسم، فأطفالا كنا متساويين فى حبنا له. . ويتمثل الاختلاف فى الأحاسيس. . كانت أحاسيس أدهم تراجيدية خالصة، أما أنا فلم تكن انفعالاتى مأساوية مثله).

وكانت حياة الاثنين شاقة، فقد عمل «سيف» كما ذكرنا موظفا فى أرشيف جمرك الإسكندرية، وعمل أدهم موظفا فى مخزن الكتب بالمنطقة التعليمية بالإسكندرية. وبفعل المنغصات راح أدهم يتهكم على كل ما حوله ولجأ إلى الكاريكاتير، وقد نشرت له مجلة «روزاليوسف» الكثير من رسومه.

رفـاق الفـن:

فى عـام ١٩٢٤م وصـل إلى الإسكندرية الفنان الإيطالى «اتيـورى بيكى» وأقـام معـرضـا لأعـماله بالنادى الإيطالى فى الإسكندرية . وكـان سيف وأدهم وانلى أول تلميذين ينتظمان فى مرسمه وأعجب بمهارتهما . وبقيا فى مرسمه أربع سنوات كما ذكرنا قبل أن يستقلا بأعمالهما . وكان معهما زميل ثالث هو الفنان «أحمد فهمى» الذى توفى عام ١٩٦١م. ولم ينل ما ناله الأخوان من شهرة .

وفى عام ١٩٢٦م أقام الفنان الكبير «محمود مختار» معرضه فى القاهرة وحضر «الأخوان» معرض «مختار» العظيم، وجاء عام ١٩٣٠م وعاد الإيطالى «بيكى» إلى بلاده . وظلا أربع سنوات يمارسان هوايتهما فى الهواء الطلق إلى أن التقيا بالأمير يوسف كمـال وخصص لهمـا مرسمـا فى بيته بمحرم بك . ثم انضم رائد السينما التصويرية «محمد بيومى» إلى سيف وأدهم وفهمى . هل تذكرون «محمد بيومى الذى كتبنا عنه هنا فى حلقة سابقة، والذى أصدر جريدة آمون التسجيلية عام ١٩٢٣م . وقد تعرف إليهم أيضا «الدكتور زكى أبو شادى» مؤسس جماعة ومجلة ومدرسة «أبوللو» للشعر .

وعام ١٩٣٦م فاز «سيف» بالجائزة الأولى لفن التصوير التى نظمتها «هدى شعـراوى» . وعام ١٩٤٥م أقـاما معـرضهـما الذى أشرنا إليه عن طريق جمـاعة الصداقة المصرية الفرنسية التى كان يرأسها «د. حسين فوزى»، وكان من المعارض الناجحة . ثم شاركا فى مجموعة المعارض الفنية التى كانت تقيمها «جماعة مصر أوروبا» منذ عام ١٩٤٩م . وعام ١٩٥٠م قـام أساتذة كلية الفنون الجميلة بالقاهرة بزيارة مرسمهـا بالإسكندرية . وكانت هذه الزيارة اعترافا من كلية الفنون الجميلة بهذين الفنانين الكبيرين . ونشرت جريدة «لوموند» الفرنسية فى عدد ٢٢ يونيو عام ١٩٥٦ موضوعـا عن فن سيف وأدهم . وسـافر الفنانان إلى إيطاليا عـام ١٩٥٦م لحضور افتتاح معرض بينالى فينيسيا الدولى وشاركا بلوحاتهما فى الجناح المصرى بالمعرض .

وبلغ عدد المعارض التى أقاماها ١٧ معرضـا . وأقام سيف بعد أن فارقه «أدهم» أربعة معارض . واختير الفنانان لتدريس فن التصوير الزيتى بكلية الفنون الجميلة

بالإسكندرية والتى كان قد أسسها المثال «أحمد عثمان» عام ١٩٥٧م، والذى أشرنا إلى سيرته فى «قاموس التراجم المصرية» على صفحات هذه الجريدة. وعام ١٩٥٩م منحت وزارة الثقافة الفنانين «منحة التفرغ للإنتاج الفنى مدى الحياة» وذلك فى عهد د. ثروت عكاشة وزير الثقافة والفنان حامد سعيد رئيس لجنة التفرغ. وعام ١٩٥٩م سافر الفنانان ـ على حساب وزارة الثقافة ـ إلى النوبة لتسجيل معالم هذه المنطقة قبل أن تغمرها مياه السد العالى. وعام ١٩٦٧م أقام «سيف» معرضه السادس عشر. وعام ١٩٧١م أصدر زميلنا الكاتب بروزاليوسف «منير عامر» روايته «عناق الأزرق والأخضر» عن حياة «سيف وانلى».

وانطفأ المصباحان:

** المصباح الأول.. «إبراهيم أدهم وانلى» وشهرته «أدهم وانلى» توفى يوم ٢٠ ديسمبر عام ١٩٥٩م.. رحمه الله وطيب ثراه، كتب «أدهم وانلى» فى مذكراته يقول: (كنت وأخى نعمل ١٥ ساعة كل يوم.. وأحسست فجأة بمغص شديد. وانفتح فمى واندفع منه قيء حاد حسبته من إجهاد الشغل ولكن القيء والمغص لازمانى بعد ذلك ليل نهار. ذهبت إلى طبيب كشف علىّ بالأشعة وقال: مرارتك ملتهبة وتعبانة. واكتشفوا أن مرارتى مريضة والكبد أيضا، وكشف د. عبدالرازق بالأشعة على رئتى.. عثر على ظلال فى رئتى اليمنى فاشتبه أن تكون سلا، واشتبه طبيب آخر فى أن تكون سرطانا. كانوا كل يوم يخرمون عروق جسدى ويحللون دمى.. زهقت من كثرة التحاليل ومن الحبس فى المستشفى.. لبست هدومى وغادرت المستشفى.. وعدت إلى المرسم لأرسم.

ونشر «كمال الملاخ» خبر مرض الفنان الكبير.. فأرسل د. ثروت عكاشة تعليمات إلى سفارتنا فى موسكو لعلاجى على نفقة الوزارة.. وعدت إلى المستشفى: مستشفى المواساة وكشفوا بالأشعة على المعدة والمصارين.. وقالوا سوف نرسل تعزيزا إلى وزارة الثقافة.

ورقد الفنان أدهم وانلى بالحجرة رقم ٣٠٥ فى مستشفى المواساة بالإسكندرية.. وتأكد الأطباء أن أدهم مصاب بسرطان الرئة. وكان يوم ١٧

ديسمبر عام ١٩٥٩م هو موعد افتتاح معرض بينالى الإسكندرية الثالث. . وقام وزير الثقافة د. ثروت عكاشة مع مدير البلدية حسين صبحى بزيارة أدهم فى المستشفى. وصدرت الأوامر بعلاج أدهم على نفقة الدولة فى الولايات المتحدة الأمريكية. ولكن الشريان المتضخم أسفل الرقبة انفجر ومات أدهم يوم ٢٠ ديسمبر عام ١٩٥٩م. . وانطفأ المصباح الأول.

** المصباح الثانى «محمد سيف الدين وانلى» وشهرته «سيف وانلى» توفى يوم ١٥ فبراير ١٩٧٩م رحمه الله وطيب ثراه.

كان قد طار إلى السويد يوم ٢ فبراير عام ١٩٧٩م بصحبة زوجته «إحسان مختار» وكان يعانى من حالة شلل نصفى. . وكان شتاء عام ١٩٧٩م شديد البرودة فى أوروبا. كانت أعماله ستعرض باستوكهولم فى السويد ثم أوسلو عاصمة النرويج ثم كوبنهاجن عاصمة الدانمرك، ولكنه توفى قبل افتتاح أول معارضه. مات فجر يوم ١٥ فبراير عام ١٩٧٩م إثر نوبة قلبية حادة، ودفن فى الإسكندرية يوم ٢٠ فبراير عام ١٩٧٩م.

الأسانيد:

١ ـ بدر الدين أبو غازى: محمود سعيد.

٢ ـ د. ثروت عكاشة: مذكراتى فى السياسة والثقافة جـ١.

٣ ـ عز الدين نجيب: التوجه الاجتماعى للفنان المصرى المعاصر.

٤ ـ كمال الملاخ وصبحى الشارونى: الأخوان سيف وأدهم وانلى.

٥ ـ محمد صدقى الجباخنجى: تاريخ الحركة الفنية فى مصر.

٦ ـ منير عامر: عناق الأزرق والأخضر «رواية».

سيد درويش



فى اليوم الخامس عشر من سبتمبر عام ١٩٢٣م، وبعد منتصف الليل كان «سيد درويش البحر» يطرق باب بيت شقيقته فى حى «محرم بك نمرة ١١ شارع الأمير»، وبعد السلامات والطيبات، اعتذر لها عن عدم تناول العشاء لأن معدته امتلأت طوال اليوم بالأكل والشاى والقهوة عند الأهل والجيران والحبايب فى «كوم الدكة» كان يوما حلوا وحافلا تفرغ فيه «فنان الشعب» لتحية الأهل والجيران والمعارف، جاء إلى شقيقته لينام حتى الصباح. ولكن عند الفجر وشقيقته تقوم على شئون بيتها مبكرة كعادتها وجدت أن «الشيخ سيد» قد بدأ الرحيل الأبدى وقد ناهز عمره الواحد والثلاثين ربيعا، وندت عنها صرخة عرف منها الناس أن «فنان الشعب سيد درويش» قد لقى وجه ربه وسيدفن فى مقابر «المنار» بالإسكندرية، البلد التى ولد بها فى «الساعة التاسعة من صباح ١٧ مارس عام ١٨٩٢م» فى بيت والده «المعلم درويش البحر».

كان سيد درويش يتصف بالطيبة والرقة وبالأسلوب الإنسانى فى معاملة الناس، واعتزم أن يتفرغ فى ذلك اليوم ليعود الأهل والجيران الطيبين وكل الذين يحبهم ويحبونه فى شارع «علوة الحكيم»، حيث «محل النجارة» الذى يملكه والده المعلم «درويش البحر»، وحيث الطابية التى تحولت إلى قلعة تعسكر فيها قوات الاحتلال البريطانى، وفى حديقة صغيرة بجوار خزان المياه فى حى كوم الدكة تجول «الشيخ سيد» مع صديقه الحميم «نقولا الملا» وتجاذبا أطراف الحديث المرح. وانصرف «نقولا» وواصل «الشيخ سيد» تجواله للسؤال عن عم فلان وعن خالة فلانة . . وعن

البنات والبنين وأحوال الدنيا، وضرب الكثيرون كفا على كف وتحدثوا عن حكمة الله ويوم الوداع، وقال صديقه «نقولا الملا» وهو يستعيد ذكرياته مع الشيخ سيد: «أذكر أننا سرنا معا ذات ليلة . . أنا والدكتور على حسن والمهندس أحمد عرفى والسيدان إبراهيم دسوقى وعبدالمجيد حسين فى الحديقة بجوار خزان المياه، وما لبث الشيخ سيد أن بدأ يرتل القرآن ترتيلا لم أسمع مثله من قبل، وظل يرتل القرآن ما يقرب من عشر ساعات بلا توقف، ولو قلت إننى كدت أعتنق الإسلام ليلتها لما عبرت تماما عن الإعجاب الشديد الذى استولى علينا جميعا». ويستطرد نقولا فى أسف: «ولكنه الآن قد كف عن قراءة القرآن وكف عن الغناء والتلحين. . عليه رحمة الله» وقال «زكى طليمات»: «سيد درويش علمنى أن اللحن الجماعى أفضل فى التأثير على الجمهور من اللحن الانفرادى. . فبالجماعة وليس بالفرد قامت ثورة ١٩١٩. إن سيد درويش يحطم النزعة الانفرادية فى التلحين وفى التطريب، وانتصبت قامة سيد درويش. . رائدا من رواد الموسيقى المصرية الحديثة، إن «سيد درويش» من أبناء الحرمان وأشقاء الألم. . الألم العبقرى الذى يبنى ويهدم، يعطى ويسلب. . فى وقت واحد. . ولكنه فى العطاء أجود. . وأدركت سر نبوغ هذا الموسيقار».

ويرى د. محمود الحفنى الذى توافر على دراسة سيرة «سيد درويش»: أغانى «سيد درويش شعبيتها أصيلة، وانتشارها قوى، والجماهير تتقبلها بسرعة فائقة، وفى رأى «محمد تيمور» أن: «الأستاذ الموسيقى الشهير الشيخ سيد درويش خرج لهم على المسرح ألحانا لم تسمع بها آذان المصريين من قبل، ولا أغالى فى القول بأن الشيخ سيد هو أكبر موسيقى مصرى جمع بين العبقرية والذوق المسرحى»، وجاء دور «محمد عبد الوهاب» ليشهد بأن «الأغنية قبل سيد درويش لم تكن تعترف بمعانى الكلمات، كان الكلام فى ناحية واللحن فى ناحية أخرى، وجاء سيد درويش فأخضع الموسيقى للمعنى واستخرج من المعنى كلاما منظما ففوجئ الناس بشىء جديد فى الغناء».

أما الأستاذ «العقاد» فقد كشف عن عنصر آخر: «يخطئ من يفهم أن وظيفة سيد درويش كانت هى فرنجة الموسيقى العربية والنقل من أوروبا إلى مصر والأقطار العربية. . إن وظيفة سيد درويش كانت شيئًا آخر». لقد كان هذا الشىء الذى

كشف عنه «العقاد» هو ما يسميه النقاد «العبقرية الفنية»، ولكن كيف ولدت عبقرية هذا الفنان العظيم من بين ركام الألم العظيم الذى عاناه وقاساه.

العبقـرية والألـم:

ولد «سيد درويش البحر» يوم ١٧ مارس عام ١٨٩٢م فى عهد الخديو عباس حلمى الثانى فى حى كوم الدكة المعروف بشعبيته، والذى يرى سكانه قوات الاحتلال فى قلعة تحولت إلى معسكر. وشب «سيد» ليجد نفسه صورة من الشعب فى ذلك الحى الذى تتمثل فيه الشعبية بمعانيها، ونشأ يشاطر عماله وصناعه المكافحين، ووالده «المعلم درويش البحر» رقيق الحال فأرسله إلى الكتاب ليلتقى بسامى أفندى الذى يميل إلى الأناشيد والمقطوعات الغنائية، وينتقل إلى المدرسة ليجد المعلم نفسه ويعهد به والده إلى معهد دينى ليكون مقرئًا وفقيها، وبعد أن توفى والده ترك الدراسة الدينية وانطلق يكسب عيشه، يغنى للعمال والبنائين نظير أجر يتقاضاه ويعينه على الحياة، وهكذا فى كتاب «حسن حلاوة» وفى مدرسة «شمس المدارس» فى حى رأس التين وعلى أيدى «سامى» أفندى «أفندى فهمى» يتلقى الأناشيد وبين عمال البناء يغنى لهم ما يهون عليهم مشاق الحياة ويردون عليه بالمقاطع الجماعية، وعندما التحق بالمعهد الدينى عام ١٩٠٥، وكان لم يزل يتابع تجويد القرآن إلا أنه انحرف إلى إلقاء «السلامات والأناشيد» فى الأفراح فقام المعهد الدينى بفصله نهائيا.

انصرف تحت ضغط مطالب الحياة إلى العمل فى المقاهى ومع عمال البناء يردد أغانى العمل وسمعه «الممثل أمين عطاالله» وأعجب بصوته وضمه إلى فرقته وأخذه مع الفرقة فى مطلع عام ١٩٠٩ فى رحلة إلى الشام سمع فيها موسيقى الأقطار العربية، وعاد إلى الإسكندرية بعد عشرة أشهر وفى ١٠ أبريل عام ١٩١٠ وصل إلى ميناء الإسكندرية الأستاذ «جورج أبيض» عائدا من بعثته فى فرنسا على نفقة الخديو عباس، وكان اسم سيد درويش بدأ يظهر ووجد اهتماما بجورج أبيض لصلته بالخديو عباس، ظن «سيد درويش» أنه يمكنه أن يحظى من الخديو عباس برعاية مماثلة للرعاية التى يلقاها «جورج أبيض» فكتب رسالة للخديو عباس ليرسله

فى بعثة موسيقية يستكمل فيها تعليمه الفنى وأرفق بالرسالة دوراً غنائيًا يمتدح «عباس حلمى خديو مصر» ، وكانت المفاجأة أن «عباس» اكتفى بأن أرسل «للشيخ سيد» مكافأة وقدرها عشرون جنيها ، ولم تأت سيرة البعثة لا من قريب ولا من بعيد ، وهذه الصدمة أحدثت تحولا سياسيا فى نفسية سيد درويش وتولدت فى أعماقه مشاعر الرفض للخديو عباس حلمى الثانى .

وحتى يخرج من الحالة النفسية الجديدة ذهب فى رحلته الثانية إلى الشام عام ١٩١٢ ، وكانت مرحلة للتحصيل الحقيقى للدراسة العلمية والفنية السليمة وأثناء وجوده بالشام زار الأديرة المسيحية واستمع إلى الموسيقى الكنسية التى تأثر بها وقال عنها إنها ألحان تعبر عن الأشواق إلى الذات الإلهية ، واستيقظ انتباه سيد درويش إلى أهمية أغنية الشارع التى صور بها حياة طوائف الشعب «السقايين والعمال والفلاحين» ولفت نظره أن أغانيه الشعبية امتدت إلى الشعب فى بلاد الشام ونالت شعبية ساحقة ، ونجحت جماهيريا بسبب بساطة ألحانها وسهولة أدائها .

وعاد سيد درويش من الشام إلى الإسكندرية عام ١٩١٤ ، وقامت الحرب العالمية الأولى وفرض الاحتلال الأحكام العرفية وخلعوا الخديو عباس وأتوا بالسلطان» حسين كامل ودخل سيد درويش مرحلة المواقف السياسية .

منـاخ التكـوين:

بقى سيد درويش بعد عودته من بلاد الشام فى الإسكندرية من عام ١٩١٤ حتى عام ١٩١٧ ، وشد الرحال إلى القاهرة وقد بدأ اسمه يحتل مكانة عالية ، وفى القاهرة اتصل بجورج أبيض وسلامة حجازى ونجيب الريحانى وعزيز عيد وأمين صدقى وبديع خيرى وكامل الخلعى وداود حسنى وإبراهيم فوزى ، وكانت قامة «سيد درويش» قد أصبحت فى مستوى كل واحد من أولئك ، وبدأ يتبلور منهجه الفنى وتوجهه الاجتماعى وموقفه السياسى ، ولكن هذا كله لم يأت من فراغ ، ولد عام ١٨٩٢ فى عهد الخديو عباس حلمى كما ذكرنا . . ووقعت مأساة دنشواى فى ١٣ يونيو عام ١٩٠٦ ، وكان فى الرابعة عشرة من عمره ووصل إلى سمعه مظالم قوات الاحتلال وشنق زهران وجلد الفلاحين المصريين بالجملة ، وكتب «محمود

عزمى» فى جريدة «الأفكار» فى ٢٤ نوفمبر عام ١٩٠٨ ـ وكان سيد درويش فى السادسة عشرة من عمره ـ يدعو إلى نشيد قومى غير نشيد الدولة الرسمى ، نشيد قومى يردده الشعب ووضع سيد درويش هذه الفكرة «حلقة فى ودنه» كما يقول العامة ، وبالمناسبة كان أول زواج لسيد درويش فى هذا العام ورفض المأذون لأنه لم يعترف بكلمة «موسيقى» التى وضعها «الشيخ سيد» أمام اسمه ، وتم عقد القرآن بعد كتابة كلمة «مدرس» أمام خانة عمل الزوج ، وزاد هذا الموقف الشيخ سيد على التمسك باسمه وعمله «الشيخ سيد درويش الموسيقى» .

وفى يوليو عام ١٩١٠ أصدر «على الغاياتى» ديوان «وطنيتى» وكتب مقدمته «محمد فريد» وصدر الحكم على «محمد فريد» فى ٢٣ يناير عام ١٩١١ بالحبس ستة أشهر ، وكما هو معروف ما حدث فى عام ١٩١٤ وخلع عباس وتولى «حسين كامل» .

المهم أن الغناء الوطنى طوال هذه السنوات لم يكن واضح المعالم فيما عدا ما كان يسمى «السلامات والأناشيد» فى بدء ونهاية الحفلات والأناشيد شبه مدرسية ولم تكن تخلو بالطبع من الدعاء للسلطان والخديو ، هذا وإن كان سيد درويش كان همه الأكبر التلحين للمطربين فى المسرحيات الغنائية ، وحدث فى عام ١٩١٧ أن توفى «سلامة حجازى» فطرح «سيد درويش» بكل ثقة نفسه كرائد للحركة الفنية ودعا إلى توجه الأغنية إلى إيقاظ الوعى الوطنى ، وبدأت الصحافة تنوه بألحان سيد درويش التى تحمل بيت خصائصها الوطنية والتوجه الاجتماعى ، ويرى بعض الباحثين أن سنوات المجد بدأت عند الشيخ سيد منذ عام ١٩١٧ ، وكان طوال هذه السنوات يتمتع بأسلوب إنسانى فى تعامله مع الناس .

سنوات المجد والثورة:

فى ٨ مارس عام ١٩١٩ ألقت سلطات الاحتلال القبض على الزعيم سعد زغلول باشا ، وفى اليوم التالى ٩ مارس اندلعت الثورة الشعبية الكبرى . ألقى «سيد درويش» بنفسه فى أتون الثورة مستخدما مواهبه جميعًا . . ملحنا ومنشدا ومغنيًا وشاعراً ، وكانت الثورة هى الوقود الذى فجر الإمكانيات الكامنة فى نفس الشيخ

سيد اتجه إلى الأسلوب المدعم بالصبغة الجماهيرية والمعبأ بروح المقاومة ضد الاحتلال، ونزل المعركة بنوعية جديدة من المنشورات الوطنية فى شكل غنائيات سهلة مطعمة بالاتجاهات الوطنية، وانتشرت الأغنية الصغيرة لدى باعة البلح ولدى العامة، تتردد فيها كلمات «السعد وزغلول» تعبيرات عن الصدى المكبوت فى صدور الملايين:

يا بلح زغلول   يا حليوة يا بلح

يا بلح زغلول

يا بلح سعدى   زغلول يا بلح

سعد وقال لى   ربى نصرنى

وراجع لوطنى   زغلول يا بلح

هذه الأغنية كتبها «سيد درويش» ووضع موسيقاها ولقنها للشعب، كان سيد درويش شاعرا كما ذكرنا، فكان يضيف ويحذف ويختصر ويوجز، فمثلا كلمات «بديع خيرى» التى كتبها لفرقة الريحانى والتى كانت النواة الأولى للأناشيد المصرية فى ثورة ١٩١٩ «كلمات بديع بدأت هكذا:

فوق يا مصـــرى   مصر دايما بتناديك

خـــــد بنصرى   نصرى دين واجب عليك

أضاف الشيخ سيد من كلماته فقرة تعبر عن الأخوة الوطنية:

إيه نصـــارى   ومسلمين قال إيه يهود

دى العبـــارة   نسل واحد م الجدود

كما كتب الشيخ سيد ولحن:

مصـر يا أم العجايب   سعدك أصيل والخصم غايب

خللى بالك م الحبايب   دولا أنصار القضية

وهكذا أصبحت «المنشورات الغنائية» من أهم عناصر الكفاح الوطنى، وقام الشيخ سيد بتلحين نشيد مصر الذى وضعه أحمد شوقى.

وكتب ولحن «أنشودة سعد زغلول».

مصــــرنا وطننا ســـعدنا أملنـــا	كلنا جميعـــا للوطـن ضحيــــه
أجمعـــت قلـــوبنـــا هـــلالنـــا	وصليينا أن تعيش مصر عيشة هنيه

الفنان المعتز بنفسه:

ست سنوات من عام ١٩١٧م حتى عام ١٩٢٣ والتى يطلق عليها سنوات المجد، حدث أن طلبت منه فرقة أولاد عكاشة أن يلحن لها مسرحية «شمشون ودليلة» فطلب أجرا ألف جنيه، ووافق «داود حسنى» على تلحينها نظير مائة جنيه، وفى الغناء المسرحى لحن «الشيخ سيد» لفرقة الريحانى والكسار ومنيرة المهدية ولفرقته الخاصة به «التى أسسها عام ١٩٢١».

وكتب الشيخ سيد العديد من المقالات فى اللواء المصرى والروايات المصورة والنيل، وكان يرى أن الشعر والموسيقى صنوان متلازمان، وكتب فى جريدة المنبر ١٢ يوليو عام ١٩٢٠: «ليست الموسيقى صناعة من الصناعات المنحطة التى يتخذها محترفوها وسيلة للكسب فحسب، بل هى فن جميل راق تستخدمه الأمم الراقية لتقويم الأخلاق وترقية النفوس».

لقد قام بثورة فنية، وكان من آثار هذه الثورة الفنية أن تكونت لجنة لترقية الأغانى القومية عام ١٩٢٠، وفى العام نفسه صدرت أول مجلة موسيقية عربية «روضة البلابل الموسيقية» وعام ١٩٢٢ تأسست جمعية «مارش سعد زغلول»، وعام ١٩٢٣ تأسست جمعية ترقية الموسيقى.

هل كثير على فنان الشعب «سيد درويش» أن يقول فى ذكراه الكاتب العملاق «عباس محمود العقاد»، يقول قصيدة نشرها فى ديوانه «عابر سبيل» جاء فيها:

اذكـــروا اليــــــوم ســـــيدا   واحفظــوا الذكر ســــــــرمدا
وتغنـــــــوا بحمـــد مـــــن   قـــد تغنــــــى فأســــــعدا
كان للصـــــــوت مالكـــــا   كيــف لا يمـــلك الصـــدى؟

الأســـانيد:

١ ـ حسن درويش: من أجل أبى سيد درويش.

٢ ـ د. حسين فوزى.. سيد درويش العبقرى والزعيم الوطنى.

٣ ـ زكى طليمات: ذكريات ووجوه.

٤ ـ محمد على حماد: سيد درويش حياة ونغم.

٥ ـ محمود أحمد الحفنى «د»: سيد درويش حياته وآثاره وعبقريته.

صــلاح عبد الصـبور



دخلنا إلى شهر أغسطس الذى رحل فيه الشاعر الكاتب «صلاح عبد الصبور» . فى فجر يوم ١٣ أغسطس من عام ١٩٨١ ، كان التليفون يرن فى منزلى لفترة غير قصيرة ، ولم أشأ أن أرد عليه ظنًا أنه أحد الذين يستهويهم إزعاجى ، ثم يسأل تمويها عن بائع طرشى أو طابونة أو أى شيء من هذا القبيل . ثم عاود الرنين وخشية أن يكون أمراً مهمّا رفعت السماع لأجد على الطرف الآخر صوت زميلى وصديقى الشاعر «سعد درويش» يبلغنى أن زميلنا وصديقنا الشاعر «أمل دنقل» حاول من قبل الاتصال بى ليبلغنى خبر رحيل «الشاعر صلاح عبد الصبور» فى أحد مستشفيات مصر الجديدة إثر أزمة قلبية حادة .

(رحل أمل دنقل عام ١٩٨٣م ، ورحل سعد درويش عام ١٩٨٨م) . . صلاح مات؟ وازاى؟ لقد مكثت معه فى مكتبه يوم الرحيل حتى الساعة الخامسة عصراً ، ومعنا زميلتنا «سميرة عرابى» حفيدة أحمد عرابى . صلاح باعتباره رئيسًا لمجلس إدارة هيئة الكتاب ، وسميرة مديرة للمطابع ، وكاتب هذه السطور مديراً عامّا للنشر وأمامنا بيانات كاملة عن الكتب التى تصلح للنشر ولم تطبع بعد .

وحوار حاد حول فكرة أن نستعين بمطابع خارجية لسد احتياجات النشر . صلاح يطرح هذه الفكرة إنقاذاً للموقف ، وأنا من جانبى أعارض بشدة هذه الفكرة لأن إمكانيات مطابع الهيئة تسمح إذا ما مارست الهيئة درجة من التنظيم والمتابعة والالتزام بخطة دقيقة .

وكتبت مقالين فى رثاء «صلاح»، الأول فى جريدة (الأخبار) بعنوان (وتبقى الكلمة)، والثانى فى جريدة (الأهرام) وبه تفاصيل اللقاء الأخير، ولم أكن أدرى أن زميلتنا مديرة المطابع سوف تحتاج إلى هذا المقال لتضعه أمام مفتش الجهاز المركزى والإدارة لتبرئ ساحتها من طباعة عدد من الكتب فى مطابع غير مطابع الهيئة، وأن الفكرة أصلاً هى فكرة رئيس مجلس الإدارة.

الرئيس الراحل «محمد أنور السادات» قرر أن يزور هيئة الكتاب عام ١٩٨٠م بمناسبة مرور مائة عام وعشرة على إنشائها فى مصر. ويوم الزيارة كان معه نائب الرئيس «محمد حسنى مبارك رئيسنا حاليا» ومعه السيدة «جيهان السادات» و«منصور حسن» وزير الثقافة. وكان قد تقرر أن يصدر قرار لصلاح عبد الصبور رئيسًا لهيئة الكتاب إلا أن صدور القرار تأخر على غير المعتاد لأمور سياسية تمت تسويتها وإيضاحها، وأصبحت الكرة فى ملعب وزارة الثقافة، وبقى فى ملعب الوزارة بشهور غير قصيرة إلى أن كان يوم جاءنى فيه زميلى مدير عام الشئون المالية والإدارية «جلال حمدى» قادمًا لتوه من مجلس الوزراء، وكان فى زيارة لقريب له. . الذى أبلغه أن «الدكتور مصطفى خليل» رئيس مجلس الوزراء يسأل عن مشروع قرار صلاح عبد الصبور ليوقعه لأن السيدة «جيهان السادات»، سألت الدكتور «مصطفى خليل» عن الموضوع. . وعرفنا أن الأستاذة الدكتورة «سهير القلماوى» تدخلت لدى «السيدة جيهان السادات» لإنهاء تأخير صدور القرار.

المهم أننى سألت صلاح عبد الصبور عن خط سير مشروع القرار، وكان مطمئنا إلى أن مشروع القرار فى مكتب الوزير «منصور حسن» تمهيداً لإرساله لمكتب الدكتور مصطفى خليل لاعتماده وإصداره، وفى ضوء الموقف الجديد الذى أبلغنى به زميلى «جلال» سأل صلاح مكتب وزير الثقافة وفوجئ بأن المشروع لا حس ولا خبر وأنه لم يأت بعد من مكتب المسئول الكبير المنوط به رفع مشروعات القوانين للوزير. وغضب صلاح واحتقن لهذا الموقف المتعمد وتدخل الوزير وجاء مشروع القرار، وأرسل إلى مكتب رئيس الوزراء الذى اعتمده على الفور وصدر. وبقى فى الأذهان والصدور هذا التصرف الصغير من المسئول الكبير بوزارة الثقافة الذى تعمد تعطيل قرار صلاح حقداً وغيرة منه. لقد رحل صلاح وهذا المسئول إلى رحاب الله. . وهى فرصة لندخل إلى الأوراق السياسية لصلاح عبد الصبور.

الأوراق السياسية:

في المرحلة الأولى من حياة صلاح عبد الصبور في مدينة الزقازيق التي تعلم فيها حتى حصل على شهادة التوجيهية (الثانوية العامة) تأثر صلاح بفكر جماعة الإخوان المسلمين. وفي تطوره مع الزمن لم يعد الدين عنده مقصوراً على طقوس العبادة، بل أصبح يرى أن الدين الحقيقي أيضًا هو (الحرية) والجهاد في سبيل الحرية.

ولا نترك الزقازيق قبل أن نقول إنه. كما قال لي. تعلم الشعر عن الشاعر المعروف «أحمد مخيمر» كان صلاح صغيراً يذهب إلى خارج السرادق الذي يلقي فيه «أحمد مخيمر» شعره ويفسح لرأسه مكانا في قماش السرادق ويستمع إلى الشعر. وفي الزقازيق أيضًا تعرف إلى شاعر العامية ـ وأصبح صديقا له فيما بعد ـ مرسي جميل عزيز، بل إن صلاح هو الذي قدم المطرب «عبد الحليم حافظ» إلى الشاعر «مرسي جميل عزيز».

ثم جاء صلاح إلى القاهرة والتحق بقسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول عام ١٩٤٧م، وإلى أن تخرج من القسم عام ١٩٥١م اتصل صلاح بعناصر ماركسية مختلفة وتأثر بالفكر الماركسي إلا أنه في مسيرته بعد ذلك أصبح يميل إلى نوع من الاشتراكية الديمقراطية، وكان يوجه النقد لبعض عناصر الماركسية وتورطهم السياسي الخاطئ، ولكنه يرى في بعضهم صلابة وطنية. وأثناء فترة حكم عبدالكريم قاسم والمهداوي وحلفائهما الشيوعيين هاجم أخطاء الشيوعيين في العراق. ووصف موقف عبد الكريم قاسم والمهداوي بأنه انحراف بالثورة العراقية، وفي زمانه الأخير حصر نفسه في دائرة محددة وهي أن المثقف العربي يجب أن يدرك أنه سليل ابن خلدون والجاحظ وأبي العلاء والمتنبي. وعليه ـ أي المثقف العربي ـ أن يفتح عيونه على ما يدور حوله ويفيد من آداب الأمم الأخرى وثقافتها على ألا تزلزل هذه الاستفادة أقدامنا من أرضنا. وهو يرى أيضًا أن (العروبة) تعبر عن تقاليد أمة العرب وآمالها وأفكارها، وواجبنا أن نعرف تراثنا حق المعرفة.

مواقف متفرقة:

الذين اقتربوا من صلاح عبد الصبور وقرءوا له على صفحات روزاليوسف وصباح الخير يمكنهم أن يتعرفوا على مواقف متفرقة تسهم فى تكوين الصورة العامة لسلوكه السياسى. مصريته واضحة الملامح تبرز من كتابته عن دور الشعب المصرى ضد التتار وضد المغول وضد الصليبيين وضد الحملة الفرنسية. وكان يضع دائمًا اسمى سعد زغلول ومصطفى النحاس موضع التقدير والإعجاب. واهتم (بقصة الضمير المصرى الحديث) من خلال كتاباته عن: محمد على وحسن العطار وجمال الدين الأفغانى وعبد الله النديم وأحمد لطفى السيد والشيخ محمد عبده وأحمد عرابى ومصطفى كامل وغيرهم.

ويشكل عام كان «صلاح عبد الصبور» ضعيف الثقة بالعسكر، شأنه فى ذلك شأن الشيخ محمد عبده ولم يدخل فى زفة الاتحاد القومى والاتحاد الاشتراكى ولا زفة السادات. وكانت له ملاحظات مختلفة على عبد الناصر والفترة الناصرية.

وبعض الناس ظن أنه منحاز لحزب البعث.. وهذا الرأى ليس دقيقًا. التقى صلاح بـ «ميشيل عفلق» فى القاهرة عام ١٩٥٧، وعلى الرغم من إعجابه بميشيل عفلق كزعيم عربى - على حد تعبير صلاح - وإعجابه ببعض مواقف البعثيين إلا أنه وجه ملاحظات كثيرة على سياسات حزب البعث وحرص صلاح على أهمية الحفاظ للأقليات غير العربية على تراثها وثقافاتها. إلا أننا نراه ينقل عن «ميشيل عفلق» بما يوحى موافقته على ملاحظات عفلق إزاء الشيوعية.

كان ميشيل عفلق يؤمن منذ زمن باكر أن الشيوعية العالمية أخفقت حين أخطأ ماركس فى تنبؤاته. وأخفقت حين قامت الاضطرابات فى شرق أوروبا.. وأخفقت فى عدم إيجاد الإنسان الجديد.. وأخفقت حين لم تبدع فنًا عظيمًا ولا أدبًا عظيمًا على مدى أربعين سنة من الشيوعية (كان حديث عفلق مع صلاح عام ١٩٥٧).

ويبقى من صلاح عبد الصبور أنه وقف إلى جانب ثورات التحرر الإفريقية وأيد الدعوة إلى (القومية العربية) والتنديد بإسرائيل وتاريخها ومواقفها.

لقد حاول النظام أيام السادات أن يقترب من صلاح وليس العكس وسرت إشاعة بأنه مرشح لوزارة الثقافة. وضايقه البعض بأنه باع رخيصًا وواقع الأمر كما عرفته منه أنه فى الوقت الذى راحت فيه شائعة أنه مرشح لمنصب وزير الثقافة وبدأ البعض يطمع فى منصبه كرئيس لهيئة الكتاب. . كان صلاح يعتزم السفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية لمدة سنة كاملة تلبية لدعوة من مؤسسة علمية ليلقى فيها محاضراته عن الثقافة العربية. . ولكن القدر لم يمهله ومات فجأة على أثر أزمة قلبية. فى فجر ١٣ أغسطس من عام ١٩٨١م. . رحم الله صلاح عبد الصبور وغفر لكل الذين ظلموه.

مع الأدباء الكبار:

كان موقع صلاح عبد الصبور كواحد من رواد الشعر الحديث أو شعر التفعيلة كما يسميه هو باعثًا على خصومه مع الأدباء الكبار الآخرين الذين يقفون فى صف الشعر التقليدى ويدافعون عنه. كان للأستاذ العقاد عداء صريح للشعر الحر إلى حد أنه عندما كان رئيسًا للجنة الشعر فى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب يرفض أن يقوم المجلس بنشر هذا الشعر وله تأشيرة تقليدية جارحة (يحال إلى لجنة النثر). وكان العقاد وصحبه من دعاة الشعر التقليدى يأخذون على الشعر الحر افتقاره للموسيقى والوزن. ونزل صلاح عبد الصبور يذود عن الشعر الحديث فكتب مقاله الشهير (والله العظيم موزون).

وبعد أن أصدر صلاح ديوانه (الناس فى بلادى- ١٩٥٧) كتب «الدكتور زكى نجيب محمود» مقالاً بعنوان (ما هكذا الناس فى بلادى) وسخر من البيت الذى أورده صلاح ويقول فيه (وشربت شايًا فى الطريق ورتقت نعلى) ورد عليه «صلاح» بمقال عنوانه (ما هكذا النقد).

وعندما جاء «صلاح» فى مؤسسة التأليف والنشر مديرًا عامًا للنشر. . كنا خمسة نتعاون معه. . الشاعر أحمد مخيمر مشرفًا على التصحيح والمراجعة، والشاعر سعد درويش مشرفًا على المعاجم والموسوعات، ود. عبد الصبور مرزوق مشرفا

على التراث والإسلاميات، وعبد الحميد سليم مشرفا على الكتب العامة. وكاتب هذه السطور مشرفا على السلاسل الدورية وغير الدورية.

وكنا نعقد اجتماعًا دوريًا لمراجعة أمور النشر كلها. . وأشهد له الآن أنه عندما تجيء ذكرى «العقاد»، ويهمهم أحدنا بموقف العقاد من الشعر الحديث أي من صلاح نفسه كان صلاح يبادر حازمًا (ولكنه العقاد). . وعندما تجيء سيرة «د. زكي نجيب محمود» يشهد له صلاح بأنه (مثقف عنده ذمة) وهذه هي عباراته بذاتها.

أكثر من هذا عندما توفى عباس محمود العقاد كتب صلاح مقالا في الأهرام بدأه بقوله: شرفت يومًا بخصومة العقاد. وظهر على شاشة التليفزيون يرثي العقاد بإنصاف. كان صلاح كبيراً في خصومته مع الكبار.

صلاح وطه حسين:

على صفحات مجلة (روزاليوسف) كتب صلاح سلسلة مقالات تحت عنوان (ماذا يبقى منهم للتاريخ)، وكان صلاح محبًا لطه حسين ومقدّراً للدور التنويري الذي يقوم به وكتب عنه كلامًا موضوعيا لا شطط فيه. ولكن (بخته وحش) رزقه الله بواحد من الحاقدين، فدس له عند الدكتور طه حسين فأوغر صدره. ومن المعروف أن الدكتور «طه حسين» لم يكن ينسى الإساءة حتى ولو كانت على أساس غير صحيح. هذه الواقعة لم أكن أدري بها شيئًا حتى كان يوم دعانا فيه «يوسف السباعي» مع عدد من الكتاب والأدباء لاستقبال الدكتور طه حسين في زيارة له لمقر دار الأدباء بشارع قصر العيني (وعلى فكرة هذه الدار كانت بيتًا لأسرة عبد الرحمن فهمي أحد رجال سعد زغلول الأوفياء) المهم. . وقفنا في مدخل القاعة العليا صفا طويلا. . ودخل الدكتور طه حسين مادا يده اليمنى وكل واحد منا يصافحه وهو يقدم نفسه باسمه للدكتور طه، وكان دوري إلى جوار صلاح، وعندما جاء دور صلاح قدم بالطبع نفسه. . صلاح عبد الصبور ودهشت لأن الدكتور طه سأل صلاح. . أنت شامي؟ وبعد أن ابتعد الدكتور طه عنا سألت «صلاح». . هل الدكتور طه حسين لا يعرف اسم صلاح عبد الصبور. . فابتسم صلاح وقال

انتظرنى بعد اللقاء فى حديقة دار الأدباء، ولم أكن أعرف الحدوتة من أولها كما ذكرت «وقال صلاح» الدكتور طه أراد أن يشعرنى أننى مجهول بالنسبة له . . هو بالطبع يعرف اسمى جيّداً . . وسمعت من صلاح الحدوتة من أولها . وسألته . . وماذا ستفعل؟ هل تترك نفسك مظلوماً هكذا عند الدكتور طه؟ وعرفت من صلاح أنه شرح الموضوع كله للدكتور «لويس عوض» وهو له مكانة عند الدكتور طه، واتفق الدكتور لويس مع صلاح أن يذهب معه لزيارة الدكتور طه ويهديه نسخة من ديوان جديد له . وبعد فترة عرفت من صلاح أنه والدكتور لويس قاما بزيارة الدكتور طه فى بيته وقدم له صلاح نسخة مهداة من الديوان . فماذا كان موقف الدكتور طه؟ قال . . لدينا بانيو مهجوراً امتلأ بالكتب . . وسأل صلاح : وهل هذا الديوان سيذهب إلى البانيو المهجور؟ فقال د. طه . . لا . . سوف أقرأ هذا الديوان . . ولكن صلاح أدرك أن الدكتور طه لن يقرأ الديوان وسوف يكون مصيره . . البانيو المهجور . كل هذا بسبب حاقد كاذب . . وبسبب أن الدكتور طه لم يكلف نفسه أن يطلب من أحد معاونيه مراجعة ما كتبه صلاح فى روزاليوسف لمعرفة الحقيقة .

جريمة فى بغداد:

ترك «صلاح عبد الصبور» تراثًا طيّبًا لقراء العربية . . أصدر عددًا من الدواوين منها : (الناس فى بلادى ـ ١٩٥٧) و(أقول لكم ـ ١٩٦١) و(أحلام الفارس القديم ـ ١٩٦٤) و(تأملات فى زمن جريح ـ ١٩٧٠م) و(سخر الليل ـ ١٩٧٠) و(الإبحار فى الذاكرة ـ ١٩٧٩)، أما إسهامه فى الشعر المسرحى فمنه : (مأساة الحلاج ـ ١٩٦٥) و(مسافر ليل ـ ١٩٦٧م) و(الأميرة تنتظر ـ ١٩٦٩م) و(ليلى والمجنون ـ ١٩٧٠م) و(بعد أن يموت الملك ـ ١٩٧٣)، وكتب مئات من المقالات فى صباح الخير وروزاليوسف والأهرام . . وصدر له عديد من الكتب منها . . (قصة الضمير المصرى الحديث) و(على مشارف الخمسين) . وأعترف هنا أن أمتع الشعر عندى من القديم . . أشعار أبو الطيب المتنبى، ومن الوسيط . . أشعار أحمد شوقى، ومن الحديث صلاح عبد الصبور .

وكان لنا صديق مشترك يقيم خارج البلاد ويزور مصر لمامًا . . هو الأديب

الباحث «ناجى نجيب» كان يعكف على ترجمة (مأساة الحلاج) . . ورحل صلاح وجاءنى «ناجى نجيب» مهمومًا يقدم لى ترجمة ألمانية لمأساة الحلاج أعطاها عنوان (جريمة فى بغداد) لم يرها صلاح . . لم يقرأها . . وكان يتحرق شوقًا لرؤيتها، ولكنه رحل وبقيت هذه الترجمة فى أيدينا تذكرنا بصلاح كلما عدت أرتب مكتبتى الخاصة .

مسالك الحزين:

ولد صلاح عبد الصبور فى مدينة الزقازيق فى مايو من عام ١٩٣١م . والزقازيق بلد أمه ، أما أبوه فمن (الحواتكة) مركز منفلوط مديرية أسيوط . كانت محافظة أسيوط ومحافظة الشرقية تتنازعانه . استقر المقام بالزقازيق ، وعاشت فيها الأسرة وتوفى والده فيها وتعلم هو فيها حتى عام ١٩٤٧م وبعدها جاء إلى القاهرة .

وكانت رغبته الأولى عندما جاء إلى القاهرة أن يرى الشاعر «محمود حسن إسماعيل» ورغبته الثانية أن يلتقى بعلى محمود طه . وكان اهتمامه الكبير بالتراث العربى وبالتراث القديم وتأثر أيضًا بـ (العهد القديم) ، وهكذا كان «الشاعر أمل دنقل» أيضًا . وبصفة عامة فإن دواوين صلاح عبد الصبور نابضة بالهموم الاجتماعية المعاصرة المرتبطة بالواقع العريض فى الريف والمدينة . وقدم رؤية حزينة متشائمة تكاد تفقد إيمانها بالحياة وكان الصدق والحرية هما عصب أشعاره .

كان يبدو حزينًا مهمومًا فى أغلب الأحيان . . وقال هو : كلما تقدمت فى السن أصبحت أكثر حزنا وأشد حكمة . . كان مهموما بمشكلات عصره . . لقد سقطت قيادة المثقفين فى عصرنا الحديث ، وكان المظنون أن تقوم مقامها قيادة المثقفين التكنوقراط ولكن هذه القيادة الجديدة لا تقوم إلا فى مجتمع صناعى متقدم ، هنا سقط مجتمعنا فى فراغ .

وعندما وقعت الواقعة فى ٥ يونيو (حزيران) عام ١٩٦٧ قال : انفطر قلبى وهذا هو سر حزنى وكآبتى . كانت أزمة يونيو عام ١٩٦٧م اختبارا لكل أجهزة مجتمعنا العربى السياسية والفكرية والاجتماعية ، وقد كشف بلاشك عن ملامح كثيرة من

التشوه فى فكرنا العربى، ولكنها كانت أوضح فى الفكر السياسى والاجتماعى. أما فى الأدب الجيد فقد كان نذيراً مسئولا قبل النكسة. وإلا فما ظنك ببعض كتابات توفيق الحكيم ونجيب محفوظ قبل النكسة. ألم تشجب هذه الكتابات مظاهر التخلخل فى مجتمعنا العربى والهروب من معاناة الواقع، ألم تتحدث عن العدل والحرية؟ ألم تحاول أن تعيد بناء إنساننا العربى على أسس معاصرة وأصيلة معًا؟

الغـراب الأبيض:

يقول ليوضح موقعه ويجيب السائلين فى سنواته الأخيرة.. من أنت: أنا إنسان منفرد بمعنى أننى لا أنتمى إلى جماعة أو تنظيم أو تيار. وكنت أحس دائمًا بين الجماعات أو التنظيمات أو القيادات إننى مثل الغراب الأبيض وسط الغربان السود.. هم يتحدثون لغة لا أجيدها. الذين يدعون الاشتراكية يتحدثون عن الجماهير وعن الدفع الثورى وغير تلك الكلمات التى لا أجد لها مدلولا فى الواقع حتى لتصبح فى سمعى مثل الرطانة، وأسمع آخرين يتحدثون عن التراث والمحافظة عليه وعن الأصالة العربية وهم لم يقرءوا إلا قليلا من هذا التراث، ولا يكادون يعرفون عنه شيئًا. وقال:

هذه الهستريا من اليمين ومن الشمال، فأين يكون ملاذ العقل؟ وأذكر أننى أغلقت على نفسى كثيراً من الحلقات حتى أوشكت أن أصبح من (المعتزلة).

كان العالم من حولى مليئًا بالكذب والقسوة والتفاهة.. وكنت أسأل: أهذا هو العالم الذى كنت أحلم به وأنا صبى؟ والذى خرجت من أجله فى التظاهرات السياسية وأنا فى الرابعة عشرة من عمرى؟ والذى اعتقلت من أجله وأنا فى الثامنة عشرة عام ١٩٤٩م؟ أهذا هو العالم الذى أعددنا له المسرح بدموعنا وكلماتنا وشهدائنا؟ ومن هنا كان ارتدادى إلى نفسى لسؤالها.. ألا يستطيع الإنسان أن يعيش بلا خوف أو قسوة أو تعذيب؟

تحيــة العـلم:

عاش صلاح عبد الصبور سنواته الأخيرة من (المعتزلة) وسهام الأصدقاء وغير الأصدقاء تنغمس فى جسده من اليسار ومن اليمين. ومات فى العمر الذى مات فيه شكسبير والمتنبى . . حول الخمسين، ولكن بعد أن زار سيناء بعد حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ وكتب تحية لأول جندى رفع العلم:

تمليناك حين أهل فوق الشاشة البيضاء.

وجهك يلثم العلما.

وترفعه يداك لكى يحلق فى مدار الشمس.

حرا لوجه مقتحمًا

هذا هو صلاح عبد الصبور الذى هوجم بمناسبة مسرحيته (بعد أن يموت الملك) التى دعا فيها إلى استبشاع الحكم المطلق والسلطة المطلقة والقضاء على مبادرة الأمة وفاعليتها.

الأسـانيد:

١ ـ جليلة رضا. . وقفة مع الشعر والشعراء.

٢ ـ صلاح عبد الصبور. . الأوراق السياسية ـ على مشارف الخمسين ـ مسرحياته الشعرية.

٣ ـ د. محمد رجائى الطحلاوى، د. يحيى عبد الحميد إبراهيم. . من أعلام أسيوط.

٤ ـ نعمان عاشور. . مع الرواد.

عبد الله النديم



في شهر أكتوبر ١٨٩١م، فوجئ رئيس نيابة طنطا «قاسم أمين» الذى عرف فى تاريخنا الحديث بأنه رائد النهضة لتحرير المرأة المصرية (١٨٦٥م-١٩٠٨م) ومعروف عنه أيضًا أنه من أصفياء «سعد زغلول والشيخ محمد عبده وأحمد لطفى السيد» فوجئ «بالثائر العظيم عبدالله النديم» وقد جيء به للتحقيق معه بعد اختفاء استمر تسع سنوات وسبعة عشر يوما، وقد أملى الضمير الوطنى على «قاسم أمين» أن يطمئن «عبد الله النديم» بأن يقول فى التحقيق ما هو فى صالحه دون ضغط عليه. وقدم له القهوة والدخان والنقدية. وأوصى عليه مدير سجن طنطا. أكثر من هذا شارك «قاسم أمين» فى حملة وطنية للعفو عن «عبد الله النديم» وعن غيره من ثوار الوطن.

تقول المصادر المختلفة إن الأوساط الوطنية فى مصر والبلاد العربية قد اهتزت لخبر القبض عليه بعد أن ظن الكثيرون أن «عبد الله النديم» قد مات. وخاصة أن جريدة الأهرام نشرت فى سنة ١٨٨٣ «بعد اختفاء النديم بعام» أن «النديم» هرب إلى مدينة «ليفورنو» من أعمال إيطاليا. وعنفت «الأهرام» رجال الضبط والربط على إهمالهم فى البحث عن «النديم» تعنيفًا شديداً. وتحولت الأنظار عن البحث عنه فى مصر لفترة غير قصيرة، وقال الكثيرون إنه ربما قد مات. وكانت المفاجأة التى كشف عنها «أحمد سمير» صديق عبد الله النديم والذى كتب سيرته وترجم لحياته وأخذ عنه الباحثون فيما بعد. كتب «أحمد سمير» من بين ما كتب: «ولما جدت الحكومة فى طلبه ولم تصنع شيئًا: حكمت عليه بالنفى المؤبد غيابيا فقرأ - يقصد النديم - ذلك

فى الجرائد وهو غير هيّاب. ولكن الطلب لم ينقطع فاستعان برجل من الأجانب شهم فأشاع هذا أن النديم هرب إلى «ليفورنو» من أعمال إيطاليا. وقد نقلت هذا الخبر جريدة الأهرام فى عام ١٨٨٣م، وعنف رجال الضبط والربط! . وبلغ الحنق ببعض الحكام أن بعث مندوبا خاصًا إلى ليفورنو ليقتله فذهب وعاد، بخفى حنين، وهذا يبين أن «النديم» كان رابط الجأش أثناء اختفائه ولم يعدم أن يجد الشرفاء الذين يحفظون سره.

المأمور الشريف:

وعن سيرة عبد الله النديم التى نشرتها «دار الكتب والوثائق القومية» كتب صديق عمره أحمد سمير: «وغاية الغايات المأثورة فى مكارم الأخلاق أنه - يقصد النديم - كان يتحرك من ميت الغرقا - فى رواية أخرى الغرقى - قاصدا العتوة وصادفه فى طريقه أحد مأمورى المراكز ومعه قوة صغيرة من الجند فأمرها المأمور أن تسبقه قليلا ثم لوى عنان فرسه إلى «النديم» وقال له . . لا ضرورة للتنكر فقد عرفتك . . أنت النديم . . واعترف النديم بجليه أمره فقال له المأمور لا بأس عليك . . اذهب فى حفظ الله، ولا تخف فقد تنزلت عن الجعل الذى جعلته الحكومة لمن يدل عليك مع احتياجى للقليل. كما تنازلت عن كل ما عسى أن أناله بواسطة القبض عليك من الرتب والمناصب لتعلم أن فى الوجود بقية للكرام. ولكن إياك وهذه الطريق المسلوكة فربما صادفك من يقبض عليك، وعرج إلى جهة اليمين ثم مد المأمور يده فى جيبه وأخرج ثلاثة جنيهات دفعها إلى النديم وقال له . . والله هذا هو كل ما أملك الساعة فخذه واستعن به على أمرك».

هذا هو المأمور الشريف حرصنا على تسجيل موقفه من النديم الثائر. ونأسف لأننا لم نجد فى المصادر المختلفة التى رجعنا إليها اسم هذا المأمور الشريف حتى نكتب عنه حلقة خاصة من حلقات «هذا الرجل من مصر». المأمور رجل الضبطية لا يأبه بألف جنيه رصدتها سلطات الاحتلال وحكومة الخديو توفيق لمن يقبض على «النديم»، ثم يعطى النديم كل ما فى جيبه «ثلاثة جنيهات» ولاحظوا أن هذا حدث منذ أكثر من مائة عام فكم تساوى ألف جنيه الآن؟ أكثر من هذا فإن المأمور يبعد عند

الحديث مع النديم القوة المرافقة له من الجنود خشية أن يبلغ أحدهم السلطات . ثم يحذر النديم من الطريق الذى اعتزم السير فيه ، فالمأمور بحكم عمله يعرف أن رجال الحكومة رابضون فيه تعقبا للنديم . ويشير عليه أن يسير فى طريق أكثر أمنا . والذى حدث أن النديم كان قد أقام فى «ميت الغرقى» لدى رجل من ذوى الكلمة لمدة ثلاثة أشهر واعتزم أن ينتقل بعدها إلى بلدة «العتوة» ، والقريتان من أعمال مديرية الغربية . وما أن ترك «ميت الغرقى» حتى داهمت قوات الحكومة المنزل الذى كان يقيم فيه النديم فلم تجده بطبيعة الحال .

وليس المأمور رجل الشرطة وحده هو الشريف الذى حفظ سر النديم . وإنما هناك سيدة مصرية شريفة ونبيلة تقيم مع زوجها وأولادها فى قرية «العتوة» تابعة لمديرية الغربية . وما مضى على إقالته بتلك البلدة أكثر من سنة حتى قضى رب البيت «الشيخ محمد الهمشرى» نحبه ، ولم يكن النديم قد رتب أمره . أحضرت الزوجة أكبر أولادها وقالت له هذا «عبد الله النديم» الذى جعلت الحكومة لمن هداها إليه ألف جنيه . هل تئويه كما فعل أبوك أم تسلمه وتقبض الألف جنيه . قال الفتى . . أحافظ عليه محافظتى على عرضى ولن يصل إليه أحد بسوء . ومكث فى هذا البيت المصرى الشريف نحو أربع سنوات إلى أن أحس بشكوك فى بعض أقارب الأسرة فشد رحاله إلى قرية أخرى .

ليلة القبض على النديم:

فى أيام الاختفاء الأخيرة تنقل «النديم» من «برية المندرة» إلى «البكاتوش» ومنها إلى «الجميزة» وكلها تابعة لمديرية طنطا . وبقى فى «الجميزة» نحو شهرين متخفيًا تحت اسم «الشيخ إبراهيم الشهاوى» وعرفه عمدة القرية وكان رجلا شريفا مثلما كان المأمور ، وكانت السيدة المصرية زوجة الشيخ الهمشرى . كتم العمدة أمر «النديم» وأعجب به وبأحاديثه . وعاونه على الإقامة فى بلدة «الجميزة» .

وفى بلدة «الجميزة» كان بها رجل اسمه حسن الفرارجى محال إلى المعاش بعد خدمته فى البوليس السرى . ذهب إلى حقله مرة فرأى شيخًا يقرأ من كتاب لبعض أهالى القرية . فاشتبه الفرارجى فى الشيخ . وضع الفرارجى هذا الشيخ تحت

المراقبة. وظن أنه على الأقل أحد العرابيين الهاربين من الحكومة. وأبلغ السلطات التى عرضت عليه صورة للنديم فتأكدوا أنه هو الهارب ببلدة الجميزة تحت اسم «الشيخ إبراهيم الشهاوى». وصدرت الأوامر بالتحرك للقبض على «النديم»، وفى ٢ أكتوبر توجه وكيل حكمدار الغربية على رأس قوة إلى بلدة الجميزة يصحبهم الفرارجى ليدلهم على المنزل. ويخبرنا النديم عن القبض عليه فيقول: «تلطف بى وكيل حكمدارية الغربية وتساهل معى ومكننى من أن ألبس ثيابى وأوصى أهل البيت بما يفعلون بعد توجهى، وفرح وكيل الحكمدار بهذا الصيد الثمين فلم يفتش عن الكتب أو يصادرها، وقد كانت هذه الكتب تحتوى على هجوم حاد ضد الإنجليز وضد الخديو توفيق.

وفى صباح اليوم التالى نقلوا النديم إلى طنطا لتجرى النيابة تحقيقاتها. وكان رئيس النيابة كما عرفنا من قبل هو «قاسم أمين». ويروى النديم ما قاله «قاسم أمين» له فى مستهل التحقيق: (أنت حر فى كلامك فقل ما شئت. لم يسمع منى أن أحداً من الناس أوانى على أنى عبد الله النديم المطلوب للحكومة). لقد حفظ النديم بأخلاقيات الثوار النبيلة أسرار كل الذين قدموا له المعونة واستضافوه فى بيوتهم.

طرائف الاختفاء:

ذكرنا من قبل أن النديم اختفى فى ريف مصر وبين الفلاحين المصريين تسع سنوات و١٧ يوما. وساعده على ذلك الشرفاء الذين قدمنا نماذج لهم فيما سبق كالمأمور والعمدة والهمشرى وزوجته وأولاده.

يضاف إلى ذلك ما تمتع به «النديم» من هدوء أمام المشكلات العارضة، ومن ذكاء وسرعة بديهة، ومن استعارته لعديد من الأسماء، وتغيير الأسماء حسب الأدوار، وتغيير اللهجة حسب الشخصية التى يتقمصها. والأمثلة عديدة..

حدث أن اجتمع مرة «بمصطفى باشا صبحى» مدير الغربية وتحدث فى الاجتماع كثيرا فقال مدير الغربية:

لولا أن النديم قد مات فقلت إنه هو هذا الرجل لكن جل من لا شبيه له.

وجلس مرة على إفريز «رصيف» محطة طنطا ينتظر القطار القائم إلى كفر الزيات فلقيه عدد من جواسيس الحكومة واشتبهوا فى أمره. فأخذ يحدثهم حتى اقتنعوا أنه رجل من الصالحين. ولما جاء القطار أوصلوه إليه. وعندما أوشك القطار أن يتحرك قبلوا يديه وسألوه الدعاء.

غير أزياءه مرارا وانتحل تسعة أسماء منها «الشيخ يوسف المدنى والشيخ إبراهيم الشهاوى والشيخ محمد البيومى، وسى الحاج على المغربى».

واجتمع بكثير ممن كانوا يعرفونه حق المعرفة، وهم لا يظنون إلا أنه رجل غريب نظراً لتغيير الشكل والصوت واللهجة.

وفى الخطوات الأولى لهروبه واعتزامه الاختفاء بدأ بأن مضى إلى صديق مخلص من أهل بولاق ومكث لديه عشرة أيام ولبس الزعبوط وتعمم بعمامة حمراء ووضع على عينيه غطاء وأمسك بيده عكازه وكانت لحيته قد طالت وتوجه إلى الساحل حيث توجد سفينة مسافرة إلى بنها، وتظاهر بأنه من مشايخ الطرق الريفيين. وعند بنها كان رجال الاحتلال والخديو توفيق يفتشون عن «النديم» ولم يعرفوه.

انتقل إلى سفينة أخرى وقصد بلدة صغيرة هى «ميت الغرقى» وقد ورد ذكرها من قبل. وبدأت رحلة الاختفاء.

ثائر لم يستسلم:

منذ أن قاد «أحمد عرابى» آليات الجيش إلى ساحة عابدين يوم ٩ سبتمبر عام ١٨٨١ ووقف يواجه الخديو توفيق والثائر «عبد الله النديم» وضع نفسه خطيبا ووضع قلمه كاتبًا تحت تصرف الثورة العرابية. وأصدر «التنكيت والتبكيت» العدد الأول ٦ يونيو عام ١٨٨١م والعدد الأخير ٢٣ أكتوبر عام ١٨٨١م، وانتقل إلى القاهرة وأصدر «الطائف» لسانا لحال الثورة. وتصاعدت أحداث الثورة. وجاء يوم الثلاثاء الحزين ١١ يوليو عام ١٨٨٢م حيث بدأت المدافع تدك الإسكندرية وتشرد سكانها إلى خارجها ولحق عبد الله النديم بمحمود سامى البارودى وانتقل أحمد

عرابى وعبد الله النديم إلى التل الكبير وكسر «الولس» عرابى، وعاد عرابى وعلى الروبى وعبد الله النديم إلى القاهرة.

وفى ١٥ سبتمبر عام ١٨٨٢م دخل القائد الإنجليزى القاهرة ومعه نائب الخديو توفيق. وهو «محمد سلطان باشا» الذى انحاز للخديو والاحتلال ضد الثورة. ورفع «النديم» شعار عدم الاعتذار عن الثورة وعدم الاستسلام. وأيده فى ذلك «على الروبى» الذى نفى فيما بعد إلى السودان وتوفى هناك. واجتمع ما عرف باسم «المجلس العرفى» واستقر الرأى على كتابة عريضة الاستسلام لترفع إلى الخديو توفيق فى الإسكندرية. وكلف المجلس العرفى «عبد الله النديم» بكتابة هذه العريضة فألقى بالمسئولية على الاحتلال والخديو وأبرأ ساحة عرابى والعرابيين، ورفض المجلس العرفى هذا المشروع الذى أعده «النديم»، وكلف بطرس غالى بكتابة مشروع آخر فكتبه بأسلوب أكثر ملاينة ومحاسنة. ورفع المجلس العريضة إلى الخديو وانتهى الموقف بالقبض على عرابى وجميع العرابيين واعتقال ٣٠,٠٠٠ من المصريين المؤيدين لعرابى.

وهنا قرر الثائر «عبد الله النديم» الهرب من قبضة الاحتلال والخديو واللجوء إلى الفلاحين يختفى بينهم ويناضل أثناء فترة اختفائه. وقرر ألا يسلم نفسه وقرر ألا يترك الاحتلال أو الخديو يقبض عليه. واختمرت الفكرة فى رأسه. ومضى إلى منزل صديق فى بولاق واصطحب والده وخادمه وتوجه إلى سفينة فى الساحل متجهة إلى بنها. وبدأت رحلة الاختفاء كما سجلناها آنفا.

النديم والمنفى:

تم القبض على النديم فى ٢ أكتوبر عام ١٨٩١م وأمر «الخديو توفيق» بإبعاده عن البلاد فاختار يافا لأنها مدخل بيت المقدس ووصل إليها فى ١٥ أكتوبر عام ١٨٩١م واستقبله على الميناء عدد كبير من العلماء والأدباء. واستضافه السيد على أبو المواهب مفتى يافا. وأقام النديم عنده شهرا ثم اتخذ لنفسه دارا منفردة أصبحت صالونًا اجتماعيًا وأدبيا. وأقام فى هذه الدار سبعة أشهر. وبعد وفاة «الخديو توفيق» تولى «الخديو عباس حلمى الثانى» وأصدر عفوا عن النديم فى ٣ فبراير عام

١٨٩٢م. ولكن النديم لم يستطع العودة إلى مصر إلا فى ٩ مايو عام ١٨٩٢م لأنه قام بسياحة بفلسطين وطور سيناء.

وعاد النديم إلى الحياة المصرية وقد انعزل عنها أكثر من عشر سنوات «اختفى فى ١٥ سبتمبر عام ١٨٨٢، وغادر مصر إلى يافا فى ١٥ أكتوبر عام ١٨٩١م، وعاد إلى مصر فى ٩ مايو عام ١٨٩٢م» لقد تغير وجه مصر طوال هذه السنوات العشر. وبعد أن عاد انطلق يوقظ الشعور الوطنى بالخطابة والكتابة وينبه إلى خطر روح الاستسلام الذى خيم على الأمة. وأخذ يدعو إلى الوحدة الإسلامية والشرقية فى مواجهة الاستعمار الغربى. ويعد النديم أول من رفع شعار «مصر للمصريين» وترك بذوره الثورية فى جيل «مصطفى كامل» وأصبح النديم كالمصباح المضىء فى ليل الاحتلال الإنجليزى.

ودعا إلى إنشاء مجمع علمى يبحث فى اللغة وهى الدعوة التى تحققت بعد نصف قرن بإنشاء مجمع اللغة العربية عام ١٩٣٢م. وأصبحت مجلاته أكبر المجلات انتشارا. المهم أنه بعد أن عاد فى ٩ مايو عام ١٨٩٢م اضطر إلى مغادرة مصر مرة ثانية إلى يافا فى منتصف يونيو عام ١٨٩٣م حسب أمر السلطان بإبعاده عن مصر. رجع من القاهرة إلى الإسكندرية وسافر إلى القسطنطينية وعينوه مفتشا للمطبوعات بإدارات الباب العالى.

الرحيل فى المنفى:

نحو ثلاث سنوات من ١٥ يونيو عام ١٨٩٣م- ١٠ أكتوبر عام ١٨٩٦م قضاها النديم فى المنفى الثانى. وكانت السلطات عندما قررت إبعاده ثانية من مصر اشترطت عليه ألا يكتب شيئًا عن الشئون المصرية.

وهناك التقى بجمال الدين الأفغانى ودامت بينهما صحبة ومودة. إلى أن تمكن منه مرض السل وتوفى فى العاشر من أكتوبر عام ١٨٩٦م، وشيعت جنازته رسميا يتقدمها جمال الدين الأفغانى. ووصلت والدته وأخوه ليرياه قبل وفاته، وكان قد أرسل إليهما للحضور ولكنهما وصلا وقد وورى جثمانه التراب.

هذا الثائر من هو؟

ولد «عبد الله النديم» يوم عيد الأضحى عام ١٢٦١هـ ـ ١٨٤٥م. وهذا هو التاريخ الراجح، بعض المصادر تسجل أنه ولد عام ١٨٤٣م، وقد سجلنا التاريخ الهجرى لمن يريد البحث والتدقيق. الأب من أسرة فقيرة من قرية «الطيبة» مديرية الشرقية.

استقر الوالد فى سوق المنشية وافتتح مخبزا. وأرسله أبوه إلى كتاب الحى: وأنشأ النديم متجرا فى المنصورة ولم ينجح فعاد إلى الإسكندرية عام ١٨٧٩م، واتصل بجمعية مصر الفتاة وتعرف على «أديب إسحق وسليم النقاش» صاحبى جريدة «مصر والتجارة».

كان له دور ملحوظ فى تكوين «الجمعية الخيرية الإسلامية» عام ١٨٩٢، واشتغل بالتحرير السياسى بجريدة «المحروسة» و«العصر الجديد» وجاء إلى القاهرة وانضم إلى «الحزب الوطنى الأول» الذى أسسه شريف باشا وصحبه. وتعرف على الشاعر «محمود سامى البارودى» وتوثقت العلاقة بينهما لتأييد الاثنين للثورة العرابية. أصدر «التنكيت والتبكيت» و«الأستاذ» و«الطائف» التى عرفت بأنها جريدة الثورة العرابية. وعاش يتنفس سياسة إلى أن أجهز السل على أنفاسه ففاضت روحه إلى بارئها فى ١٠ أكتوبر عام ١٨٩٦م. وحزن لوفاته جميع المواطنين.

الأسانيد:

١ ـ أبو المعاطى أبو النجا: العودة إلى المنفى.

٢ ـ توفيق نجيب: الثائر العظيم عبد الله النديم.

٣ ـ دار الكتب: سيرة النديم.

٤ ـ صلاح عبد الصبور: قصة الضمير المصرى الحديث.

٥ ـ على الحديدى (د.): عبد الله النديم خطيب الوطنية.

٦ ـ المجلس الأعلى للثقافة: (مائة عام على وفاة النديم).

عبـاس محمـود العقـاد



«موت هرقل . . وسيرة عقل» تحت هذا العنوان شديد الإثارة بالغ الدلالة كتب الدكتور «لويس عوض» مقاله فى جريدة الأهرام بعد أيام من وفاة الكاتب العملاق «عباس محمود العقاد» مارس عام ١٩٦٤، ولم يكن لويس عوض من مريدى «الأستاذ»، على الرغم من أن لويس عوض فى باكورة أعماله المنشورة كان يوقع بـ «العقاد الصغير».

وبعدها بأيام فى ٢٠ مارس عام ١٩٦٤، وفى جريدة الأهرام أيضًا شدنا إليه «صلاح عبد الصبور» بمقاله الذى قال فيه: «لقد شرفت يوما بخصومة العقاد العظيم وإنى لأنظر الآن خلفى تاركًا تراث العقاد الفكرة للتاريخ لأناة الزمن وإنصافه» انتهت الرحلة المجيدة إلى غايتها المرجوة، وعاشت نفحة من شمس أسوان لترقد حيث بدأت رحلتها بعد أن استوت فكرا أنار البصائر وكشف الظلمات وملأ الدنيا ومشى فى نوره الناس.

كان العقاد سيرة حياة وسيرة عقل معا لسنا ندرى أيهما أكثر أصالة من الآخر، ولكن كلا منهما يكمل الآخر وينيره ويلقى عليه رداء الوضوح.

كان بين سعد زغلول والعقاد كثير من أوجه الشبه. . كلاهما كان حريصا على حق الكرامة والتكريم، وانعقدت بين مكافح السياسة ومكافح الفكر صداقة قوامها الإعجاب والتقدير، كان سعد زغلول يطلق على العقاد «الكاتب الجبار»، وكان العقاد يجد الأمر والفهم فى ظل السياسى العظيم.

وعلينا نحن هنا أن نسرع الخطى لأن الرقعة فسيحة والمساحة المتاحة لها شاطئان وصاحبنا الذى نشرف بتقديمه للقراء صارع النازية وهتلر وصارع الفاشية وموسولينى، وصارع الصهيونية ودعاتها، وصارع الشيوعية وستالين. . والآن إلى عباس محمود العقاد.

حتى يوم مولده بحث فيه ودقق. . شهادة الميلاد التى استخرجها من دار المحفوظات تقول إنه ولد فى اليوم الأول من شهر يولية عام ١٨٨٩، ولكنه كان يحتفل بعيد ميلاده فى ٢٨ يونيو وليس أول يوليو، وعندما سأله نجيه وصديقه «محمد طاهر الجبلاوى» أجابه بأنه يثق فى صدق أمه وفى ذاكرتها التى قررت له أنها وضعته قبل أول الشهر بيومين وتذكر أن والده لم يكن قد صرف مرتبه بعد، وفى أول الشهر صرف والده المرتب وأنفقت والدته ما كانت فى حاجة إليه، وهكذا يقرر العقاد أنه ولد يوم الجمعة ٢٨ يونيو عام ١٨٨٩م، وهذا العام كما يقرر «أنيس منصور» فى كتابه «هؤلاء العظماء ولدوا معا» عام العظماء وهم: «عباس محمود العقاد، وطه حسين، وإبراهيم عبدالقادر المازنى وعبد الرحمن الرافعى، وهتلر، ونهرو، وتوينبى، وشارلى شابلن، وكوكتو وغيرهم».

ولد فى أسوان. . والده من أسرة متواضعة أصلها من دمياط، وأمه من أصل كردى، وكان العقاد محبًا ومقدرا لأمه ويقول إنه قريب الشبه بها تعلم فى المدرسة الابتدائية بأسوان، وأنهى دراسته الابتدائية عام ١٩٠٣م، وزاول عددا من الأعمال المتواضعة بالسكة الحديد والأوقاف ومدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية، وعام ١٩٠٥م عمل موظفا فى القسم المالى بقنا ونقل بعدها إلى الزقازيق، وعام ١٩٠٦ استقال من الوظيفة والتحق بمدرسة الفنون والصنايع بالقاهرة، وكان حريصا على أن يتعلم اللغة الإنجليزية والفرنسية والألمانية، وأن يقرأ بنهم فى التراث العربى.

العقاد فى القاهرة:

وعام ١٩٠٧ تمكن العقاد من أن يعمل بجريدة «الدستور»، وتوسم فيه «محمد فريد وجدى» خيرا بسبب ثقافته العربية وأسلوبه الرصين فقربه إليه ورسخت أقدامه فى الجريدة، وفى عام ١٩٠٨ التقى بالزعيم «سعد زغلول»، وكان ناظرا للمعارف

وأجرى معه حديثًا صحفيًا، فاستحوذ على إعجاب سعد زغلول ووضع سعد عينيه على هذا الشاب الصعيدى، وكان للحديث الصحفى أثره فى إلقاء الأضواء على اسم «عباس محمود العقاد» ولكنه فى عام ١٩٠٩ تعرض لأزمة مالية فباع ما لديه من كتب وعاد إلى أسوان، وبهذه المناسبة فإن مكتبة العقاد تعرضت للبيع عدة مرات بعد هذه المرة، وكانت إحداها تلك المرة التى اشتراها صديقه وتلميذه «على أدهم»، وقد سمع كاتب هذه السطور هذا الأمر من «على أدهم» نفسه - رحمه الله.

المهم أن العقاد عاد مرة أخرى من أسوان إلى القاهرة عام ١٩١١، واشترك فى تحرير مجلة «البيان»، وفى عامى ١٩١٣ - ١٩١٤ كان يكتب هو والمازنى وعبد الرحمن شكرى فصولا نقدية فى مجلة عكاظ، وهى الفترة التى توطدت فيها العلاقة بين الثلاثة وتقاربت وجهات نظرهم فى النقد الأدبى، وظهر هذا التقارب عام ١٩٢١ عندما أصدر العقاد والمازنى كتاب «الديوان» والذى تفرغ فيه العقاد للهجوم على «أحمد شوقى» وشعره وانصرف فيه المازنى للهجوم على «مصطفى لطفى المنفلوطى» وأعماله النثرية، وكان العقاد قد أصدر أول ديوان له عام ١٩١٦، وقد أصدر العقاد «١١» ديوانا شعريا منها «عابر سبيل، بعد الأعاصير، وحى الأربعين، أشباح الأصيل، أشجان الليل».

ذراع من جريد:

قال «سعد زغلول باشا» عبارته الشهيرة على «عباس محمود العقاد» إنه «كاتب جبار المنطق» وقال عنه «إبراهيم عبد القادر المازنى، إنه «بحر بلا انتهاء»، وقال هو عن نفسه: «لقد حاربت ضد الأقوياء، وهذه أوعر مسالك الحروب. . الشعراء فى جميع الميادين، الشيوعية والصهيونية والاستعمار والتبشير والمتجرين بالدين، والمستغلين لدعوى الإسلام، كما حاربت طغيان أصحاب المال وطغيان السياسة من جانب القصر، ومن كل جانب فى بلادنا والبلاد الخارجية».

دخل فى خصومة مع أحمد شوقى وتوفيق دياب وأمين الرافعى ومكرم عبيد وآخرين، وأبرز معارك العقاد كانت معركته مع حكومة «محمد محمود» عام ١٩٢٨، وكان قد أطلق رئيس الوزراء على حكومته «وزارة اليد الحديدية» فكتب

العقاد مقاله الشهير «يد من الحديد فى ذراع من جريد»، وكان العقاد أبرز كتاب الصحافة السياسية وأقدرهم على الجدل والسجال، وذكر «الجزيرى» سكرتير سعد باشا أن العقاد هو «معول الهدم الذى يسلطه الوفد ضد خصومه»، كان قويا فى حجته ونقاشه، جبارا فى صراعه وهجومه.

كانت له مكانة الصدارة فى حياتنا الثقافية، وبعد أن رحل «هرقل» لم يظهر من يمكنه من أن يسد الفراغ الذى أحدثه رحيله.

عام ١٩٠٤ هاجم أحد أعضاء الكونجرس الأمريكيين الذى صرح بموافقته على الاحتلال البريطانى رغم احتفاء بعض المصريين به، ولم يرض عن موقف «ولسون» الذى اعترف بالحماية البريطانية لمصر على الرغم من إعلان مبادئه حول تقرير المصير للشعوب بعد الحرب الأولى، وكانت أدواته فى مواقفه شعره ومقالاته الصحفية فى البلاغ» وكوكب الشرق والجهاد والأهالى وروزاليوسف، ومقالاته فى «المؤيد» كانت موضع التحقيق، ثم أصدر جريدة «الضياء»، وحرر فى جريدة مصر عام ١٩٣١ كتب العقاد مئات المقالات ويمكن القول بأنه كتب أكثر من ٥٠٠٠ مقال «خمسة آلاف» كان يوقع مقالاته بـ «ع. م. العقاد»، ثم أخذ يوقع باسمه كاملا «عباس محمود العقاد».

وقف «عباس محمود العقاد» خطيبا وصاح: «إن الأمة على استعداد لأن تسحق أكبر رأس يخون الدستور أو يعتدى عليه» وقدم إلى المحاكمة بتهمة العيب فى الذات الملكية فى ٢٢ ديسمبر عام ١٩٣٠، وحكم عليه بالحبس تسعة أشهر، وعندما خرج من السجن توجه إلى ضريح سعد وعاهده على أنه سيظل كما كان سعد يعهده فيه.

الرائدان العظيمان:

من حسن حظ الثقافة العربية بعامة والمصرية بخاصة أن الرائدين العظيمين «طه حسين وعباس العقاد» كانا يتنافسان ولكنهما لم يتخاصما، وكانا يختلفان ولكنهما لم يتراشقا بالسهام، اختلف الرائدان العظيمان فى مسألة التجديد فى الفكر المصرى

الحديث. . أى الثقافتين أجدر بأن تعيش فيها الثقافة المصرية . . أهى الثقافة السكسونية التى يأخذ بها الناطقون باللغة الإنجليزية؟ أم هى الثقافة اللاتينية التى يأخذ بها الناطقون باللغة الفرنسية؟ تحمس الدكتور طه حسين للثقافة اللاتينية، وتحمس عباس محمود العقاد للثقافة السكسونية؟ وعاش القراء فى مصر والبلاد العربية هذه القضية مع الرائدين العظيمين، ولكن الاختلاف فى الرأى لم يفسد للود قضية.

فى موضوع كتاب «الشعر الجاهلى» عام ١٩٢٦ دافع العقاد عن حرية الرأى والتفكير والتعبير، وظل الدكتور طه يحفظ هذا الجميل للعقاد، وأقيم للعقاد يوم الجمعة ٢٧ من أبريل عام ١٩٣٤ حفل تكريم بمسرح الأزبكية حضره عدد كبير من رجال الفكر والأدب وأعضاء البرلمان، وألقى الدكتور طه كلمة بليغة حيا فيها العقاد وتحدث عن شعره وأبان مقدار إيمانه به ووضع فى يده لواء الشعر، أى أن الدكتور طه نادى بالعقاد أميرا للشعر، وكان هذا بعد رحيل «أحمد شوقى» بعامين تقريبا. . «توفى شوقى فى أكتوبر من عام ١٩٣٢».

العقاد وشوقى:

كانت الخصومة بين العقاد وشوقى مكشوفة وحادة وطويلة الأمد، تكونت «مدرسة الديوان» من عباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازنى وعبدالرحمن شكرى، رفضت هذه المدرسة شوقى وشعره، وصدر «الديوان» بقلم العقاد والمازنى، تفرغ فيه العقاد بعبارته الحادة واللاذعة للهجوم على شوقى وتفرغ المازنى بالسخرية والتهكم على «المنفلوطى» ونثره، وعلى الرغم من هذا ففى يوم ٢٩ أبريل من عام ١٩٢٧ عقد المهرجان لتكريم شوقى ومبايعته بإمارة الشعر، والتهبت الأكف بالتصفيق وهى ترى زعيم الأمة «سعد زغلول» بوقاره وهيبته وحكمته وتقديره الهادئ السليم يدلف إلى داخل المهرجان، لقد حسم «سعد» الموقف، وشخصت الأبصار إلى «حافظ إبراهيم» بقامته الممشوقة وصوته المميز وهو يقول مخاطبا شوقى:

أميـر القـوافى قد أتيت مبايعـا وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

المهم لم تقع خصومة بين العقاد وحافظ، كان كلاهما يحفظ الود والتقدير للآخر.

ويقولون إن دموع شوقى ترقرقت وهو يسمع قصيدة حافظ فى مبايعته وحافظ يقول أمام شعراء العرب مخاطبا شوقى «أمير القوافى»، ثم بكى شوقى على قبر «حافظ» يوم وفاته فى ٢١ يوليو عام ١٩٣٢، وهو يرثيه بقوله:

قد كنت أوثر أن تقول رثائى   يا منصف الموتى من الأحياء

والكلمة الأخيرة من البيت فيها غمز للعقاد ورحل «شوقى» فى ١٤ أكتوبر ١٩٣٢، وحسب «أنيس منصور»، ففى ذكرى مرور عشرين عاما على وفاة شوقى حضر «العقاد» وجدد الهجوم على «شوقى» وشعره، وكانت «جماعة أبوللو» قد تكونت برئاسة «الدكتور أحمد زكى أبو شادى.. فى عام رحيل شوقى وهى تنحاز إلى شوقى وشعره وترفض اتهامات العقاد وأنصاره لشوقى وشعره ومهما يكن من أمر فإن عددا من النقاد يرى أن وجهة نظر «الديوان» فى شوقى وشعره ضعيفة من الناحية الفنية ولم تؤثر فى مكانة «أحمد شوقى» فى الأدب العربى الحديث.

.. ويبقى العقاد:

وإذا كان من حسن حظ الثقافة العربية أن بقى لها «أحمد شوقى وحافظ إبراهيم وإبراهيم عبد القادر المازنى» فمن حسن حظها أيضا أن بقى لها «عباس محمود العقاد» شامخا كان له تلاميذ فى قامة «زكى نجيب محمود وعلى أدهم وإبراهيم زكى خورشيد ومحمد مصطفى حمام وأنيس منصور وصلاح طاهر وطاهر الطناحى والعوضى الوكيل ومحمد خليفة التونسى» وغيرهم كثيرون حرصوا على حضور صالونه الأدبى فى بيته رقم ١٣ شارع السلطان سليم بمصر الجديدة. انحاز «العقاد» إلى صفوف الغالبية الكادحة من أبناء الشعب إلى درجة أن قال عنه «الدكتور لويس عوض»: «لولا أننى أحب الاحتياط فى القول لقلت إن العقاد هو أبو الاشتراكية المصرية» وقال عنه المنبهر به «أنيس منصور»: «لقد شغلنا بالفلسفة عن الأدب، وبفلسفته هو عن دواوينه وعن شعره نحن نحب شوقى ومطران..

والعقاد لا يحبهما ولا يرى لهما أية مواهب» . العقاد شاعر وكاتب سياسة وتاريخ وناقد ومفكر كبير ، وصفه المازنى بأنه «بحر بلا انتهاء» ووصفه «عبد الرحمن بدوى» بأنه «فيلسوف» .

كان العقاد رغم سلوكه الصارم ومعاملاته الجادة رقيق الحاشية بارا بأهله وأصدقائه . . قال «محمد طاهر الجبلاوى» فى ذكرياته عنه وقد أقام فترة معه فى بيته ، وكانت له غرف فى شقة العقاد : «كانت صلة العقاد بحافظ صلة مودة لا تنقطع ، يزوره فى بيته ويرى متعة فى مجالسته ، وبكى العقاد عندما وصله نبأ وفاة حافظ ومشى فى جنازته وألقى قصيدة على قبره» .

ترك العقاد للثقافة العربية ١١ «أحد عشر ديوانا شعريا» و«أحد عشر كتابا» فى الإسلاميات منها «أثر العرب فى الحضارة الأوروبية ـ ١٩٤٦» و«الحضارة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين ـ ١٩٥٩» ، وترك «خمسة عشر عملا» فى مقدمتها «سعد زغلول ـ سيرة وتحية» عام ١٩٣٦ .

ومن أعماله فى مواجهة الأنظمة الشمولية : «الحكم المطلق فى القرن العشرين ـ ١٩٢٨ ، وهتلر فى الميزان ـ ١٩٤٠ ، الشيوعية والإسلام ـ ١٩٥٦ ، والصهيونية العالمية ـ ١٩٥٦ ، مقدمة لتقرير خروشوف أمام المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفيتى عام ١٩٥٦» ترك ٩٣ «ثلاثة وتسعين كتابا» فى الفكر والسياسة والأدب والشخصيات التاريخية والإسلامية» .

فى سطور:

ـ ولد عباس محمود العقاد فى مدينة أسوان فى ٢٨ يونيو عام ١٨٨٩م «رغم أنف شهادة الميلاد» .

ـ عام ١٩٠٣ أنهى دراسته الابتدائية بأسوان .

ـ عام ١٩٠٧ بدأت علاقاته بالصحافة بأن كتب فى جريدة الدستور .

ـ انتخب لمجلس النواب مرتين وعين فى مجلس الشيوخ مرتين .

ـ عام ١٩٣٤ بعد رحيل شوقى وحافظ بايعه «طه حسين» أميرا للشعر .

ـ عام ١٩٥٦ اختير عضوا بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ورئيسا للجنة الشعر .

ـ عام ١٩٦٠ حصل على جائزة الدولة التقديرية .

ـ كان يطرب وهو يستمع إلى أم كلثوم وهى تغنى .

ـ ١٢ فبراير عام ١٩٦٤ حرص على أن يستمع لأغنية «انت عمرى» من غناء أم كلثوم وتلحين محمد عبد الوهاب وكتب انطباعاته عنها فى أخبار اليوم التى ظل يعمل بها حتى وفاته .

ـ فى مارس عام ١٩٦٤ توفى العقاد وانتهت الرحلة المجيدة إلى غايتها المرصودة ودفن بأسوان وأصبحت مقبرته مزارا للأدباء المريدين وغير المريدين وقبل وفاته كتب :

لتحملونى صامتين إلى الذى ... فإنى أخاف اللحد أن يتهيبا

أنت شامخ حتى فى وفاتك يا هرقل . . يرحمك الله ويرحمنا .

الأسانيد :

١ ـ أنيس منصور : هؤلاء العظماء ولدوا معا .

٢ ـ أنور الجندى : الصحافة السياسية .

٣ ـ صلاح عبد الصبور : مقال بجريدة الأهرام ٢٠/ ٣/ ١٩٦٤ .

٤ ـ محمد طاهر الجبلاوى : ذكرياتى مع العقاد .

٥ ـ د . مهدى علام : المجمعيون فى خمسين عاما .

٦ ـ مجلة الثقافة : عدد مارس عام ١٩٧٥ .

عبد الخالق ثروت



بعض المصادر أدخلت «عبد الخالق ثروت باشا» في زمرة الساسة المعتدلين . . وأكثر المصادر ترددت في وصفه بالاعتدال . كان منحازاً للإنجليز منذ فجر حياته الوظيفية . ولأنه كان يهتم بالمظهر دون الجوهر فقد طلب من الإنجليز تعديل لقب (المندوب السامى) لأنه لقب أصبح مكروها لدى الشعب المصرى . ورفض الإنجليز وأدركوا أن «ثروت» ضعيف أمام الأغلبية الشعبية الكاسحة للوفد، وأن «عدلى يكن» والأحرار الدستوريين الذين يعتمد «ثروت» عليهم قواعدهم ضعيفة . وكان القصر يضع «ثروت» فى الجبهة الموالية له والمعادية لسعد والوفد، وفى الوقت نفسه كان يراسل «اللنبى - المندوب السامى» سرا ودون علم الملك . كان مديرا لأسيوط (٢٦ نوفمبر عام ١٩٠٧م - ١٥ نوفمبر عام ١٩٠٨)، واستقبل «سعد زغلول» عندما كان ناظرا للمعارف ومر معه فى زيارة المدارس . ورشحه «سعد باشا» نائبا عاما (نوفمبر ١٩٠٨ - أبريل ١٩١٤) . وظل يعمل نائبا عاما لمدة ستة أعوام، وعام ١٩١٠ وقع حادث اغتيال «بطرس باشا غالى» فرفع الدعوى الجنائية على مرتكب الحادث «إبراهيم ناصف الوردانى» واتهم الكثيرين بالاشتراك معه بتهمة تنظيم جمعية سرية ولم يأبه بالتهديدات التى وصلته وبضيق العناصر الوطنية منه . كان وزيرا للحقانية فى وزارة «حسين رشدى باشا» - ١٠/ ١٠/ ١٩١٧ حتى ٩/ ٤/ ١٩١٩)، وتردد أنه هو الذى أوعز للإنجليز باعتقال «سعد باشا» (الاعتقال الذى تم فى ٨ مارس عام ١٩١٩م) . كان وزيرا للداخلية فى وزارة «عدلى يكن» - ١٦ مارس عام ١٩٢١ - حتى ٢٤ ديسمبر عام ١٩٢١ - وكان «ثروت» فى تلك الفترة يحارب «سعد والوفد»

بضراوة وشراسة، ويحرص على علاقات الود مع الإنجليز والقصر وعدلى يكن، مما يلقى الظلال الكثيفة على وصفه (بالاعتدال).

الأستاذ عباس محمود العقاد كان له رأى ثاقب ثابت فى أسلوب «عبد الخالق ثروت» وهو (الكيد مع اصطناع الطيبة والبراءة). وعندما عاد «سعد باشا» من منفاه الأول كتب «عبد الخالق ثروت» خطابا إلى سعد باشا لإنهاء الخصومة بينهما من خلال تحكيم الأمراء فيما هو قائم من خلاف. ورأى «العقاد» أن «ثروت» يريد بذلك الإيقاع بين سعد باشا والأمراء وأن هذه المحاولة تؤكد أسلوب ثروت (الكيد مع اصطناع الطيبة). ولهذا كما سنرى فيما بعد ظل «ثروت» يكره العقاد ويقرب إليه «الدكتور طه حسين».

ويقول «إسماعيل صدقى» فى مذكراته: (لم أتردد فى قبول الاشتراك فى وزارة زيوار باشا التى خلفت وزارة سعد باشا.. وأقدمنا على تعديل قانون الانتخابات، ومع ذلك فاز الوفد فى الانتخابات، ولما انعقد مجلس النواب فاز سعد زغلول بـ١٢٣ صوتا ضد عبد الخالق ثروت الذى فاز بخمسة وثمانين صوتا، فأقدمنا على حل المجلس!) أى أن «ثروت» وضع نفسه فى مواجهة «سعد زغلول» منذ البداية، ويقول «مصطفى أمين»: إن ثروت أدرك أنه راهن على الحصان الخاسر.

وعندما شكل «ثروت» وزارته فى اليوم التالى لتصريح ٢٨ فبراير عام ١٩٢٢ (شكل الوزارة فى أول مارس - ٢٩ نوفمبر عام ١٩٢٢) صنع مع سعد والوفد ما صنعه الحداد. وفي عهد وزارته ألقى القبض على «حمد الباسل ومرقص حنا وواصف غالى وعلوى الجزار وويصا واصف ومراد الشريعى وجورجى خياط فى يوليو عام ١٩٢٢» وصدرت عليهم الأحكام بالإعدام فى ١٤ أغسطس عام ١٩٢٢. ووقف وراء تكوين حزب الاحرار الدستوريين فى أكتوبر عام ١٩٢٢م. وكان الإنجليز بعد تصريح ٢٨ فبراير قد استشاروا «عدلى يكن» فيمن يشكل الوزارة فقال قوله المشهور «عدلى هو ثروت وثروت هو عدلى» وشكل ثروت الوزارة.

وفى أبريل عام ١٩٢٧ تعرضت البلاد لموجة من اضطهاد الوفديين والوطنيين وظهر فى الأفق احتمال حل مجلس النواب وإلغاء الحياة البرلمانية فرأى «سعد» ترشيح «ثروت» لرئاسة الوزارة. وأعلن ثروت أنه يقبل تشكيل الوزارة بعد أن

رشحه لها زعيم الأمة (غريبة!) وأخذ «ثروت» يتقرب من الوفد وشكل الوزارة وضم إليها عددا من الأحرار الدستوريين، وعددا من المنتمين للوفد»، عثمان محرم ومرقص حنا وفتح الله بركات ومحمد نجيب الغرابلى. . وشكل الوزارة فى ٢٥ أبريل عام ١٩٢٧ حتى ١٦ مارس عام ١٩٢٨، وكان البرلمان ذا أغلبية وفدية وفى يوليو عام ١٩٢٧ بدأت محادثات ثروت ـ تشمبرلين. وبلغ من ذكاء الرجل «أى ثروت» أنه كان يعرض وقائع المفاوضات على «سعد زغلول» باعتباره زعيم الأمة. ربما من أجل هذا قال البعض عنه إنه (معتدل) على أية حال توفى زعيم الأمة سعد زغلول فى ٢٣ أغسطس عام ١٩٢٧. واستقال ثروت فى مارس عام ١٩٣٨، وشكل الوزارة خليفة سعد «مصطفى النحاس باشا» (١٦ مارس ـ ٢٥ يونيو عام ١٩٢٨)، ورفضت وزارة النحاس المشروع الذى توصل إليه ثروت وتشمبرلين.

مع الإنجليز:

منذ بداية حياته الوظيفية عمل سكريترا للمستشار القضائى الإنجليزى وانحاز للإنجليز وانحاز الإنجليز إليه. وكانوا وراء اختياره وزيرا للحقانية فى ٥ أبريل عام ١٩١٤ ـ ١٩ ديسمبر عام ١٩١٤ فى وزارة حسين رشدى باشا الأولى.

ولعل أكثر فترات حياته موالاه للإنجليز تلك التى كان فيها وزيرا للداخلية من (١٦ مارس عام ١٩٢١ ـ ٢٤ ديسمبر عام ١٩٢١) فى وزارة صديقه الحميم «عدلى يكن باشا» وصلت رغبته فى إرضاء الإنجليز على حساب سعد والوفد أن أمر بمصادرة صور «سعد باشا» فى أى مكان توجد به ومنع أية فضيات عليها صور سعد. وعندما أخرج «محمد بيومى» رائد السينما التسجيلية فيلما لاستقبال سعد باشا حذف «ثروت» عددا من المناظر. ومنع وكلاء الأمة من الاجتماع فى بيت الأمة. واستغل سلطة الأحكام العرفية فى اعتقال الكثيرين من أعضاء الوفد. وسجل المؤرخ «أحمد شفيق» أن «عبد الخالق ثروت» كان له دور فى نفى الوطنيين.

وكان يضطر فى بعض الفترات إلى بعض المواقف التى تحفظ له مظهر التوازن والاعتدال. ففى عهد وزارته الثانية وكانت فى ظل أغلبية برلمانية وفدية، وكان يعرض مباحثاته مع تشمبرلين على «سعد باشا» فى ظل تلك الوزارة (٢٥ أبريل عام

١٩٢٧م - ١٦ مارس عام ١٩٢٨م) قام خلاف شديد بين إنجلترا ومصر حول إعادة تنظيم الجيش المصرى وحول تزويده بالسلاح وحول اختصاص المفتش العام الإنجليزى تقدم ثروت بمشروع متواضع لمد الجيش بعشرين مدفعا وسربين من الطائرات الحربية. ولكن المندوب السامى «اللنبى» اقترح أن يتم التعزيز على أربع سنوات وألا تزيد قوة الجيش على ١٢,٥٠٠ جندى. واستقالت الحكومة فى (١٦ مارس عام ١٩٢٨). . ولم يعد الإنجليز يتمسكون بوزارة «ثروت» وأدركوا أن عدلى والأحرار الدستوريين مؤيدين لثروت، كان «ثروت» ينتمى إلى فئة الأعيان التى أسست عام ١٩٠٧م حزب الأمة وجريدة (الجريدة). ومن المعروف أنه كان ينظر بتعال وعدم احترام للجماهير الثائرة عام ١٩١٩م. جده «عبد الخالق أفندى» كان من كبار الحكام فى أوائل عهد «محمد على» وقيل إنه يمت لأسرة محمد على بصلة القربى. ووالده «إسماعيل عبد الخالق» كان من كبار المسئولين عن الشئون المالية فى عهده. وأمه تنتمى إلى أصول تركية. وتزوج «عبد الخالق ثروت» من السيدة «فاطمة هانم»، وكان الاثنان يمتلكان أكثر من ١٥٠٠ فدان فى (منيا القمح - شرقية) وفى (دسوق البحيرة) وفى بنى سويف. كان ثروت على علاقة قوية بعدلى يكن باشا الذى اختاره وزيرا للداخلية فى وزارته الأولى (١٦ مارس ٢١ - ٢٤ ديسمبر عام ١٩٢١م)، واختاره رئيسا للوزارة بالنيابة فى (٢٧ يونيو عام ١٩٢١م)، ثم اختاره «عدلى يكن» فى وزارته الثانية (٧ يونيو عام ١٩٢٦ - ٢١ أبريل عام ١٩٢٧م) وزيرا للخارجية. وعندما كان «ثروت» وزيرا للداخلية فى وزارة «عدلى» الأولى حارب جولة سعد زغلول مع نواب حزب العمال البريطانى الذين زاروا مصر فى تلك الفترة. ومن المعروف أن «ثروت» كان وراء قيام حزب الأحرار الدستوريين. وعلى الرغم من علاقة «ثروت» الحميمة بعدلى والأحرار الدستوريين، فإن «الأستاذ مصطفى عدلى» عندما كان الأخير فى باريس وكان يبرق له بأن «سعدا» قوبل فى بورسعيد مقابلة فاترة، وأن زيارته للمنصورة كانت فاشلة، ويقرر «مصطفى أمين» أن هذه الأخبار كانت كاذبة. الملاحظ أيضًا أن «ثروت» رغم صداقته لعدلى ورغم دوره فى تشكيل الأحرار الدستوريين ليقف فى وجه الوفد رفض أن يقبل رئاسة حزب الأحرار، بل رفض أن يكون عضواً رسميا به.

ثـروت والقصـــر:

كـان القصـر يحرص على العلاقـة الودية مع «عدلى يكن وإسـماعيل صـدقى وعبدالخالق ثروت وحافظ رمضان «لمواجهة الوفد»، وعقب تصريح ٢٨ فبراير عام ١٩٢٢م رشح «عـدلى» للورد اللنبى «عـبد الخـالق ثروت» ليشكل وزارة جـديدة، ووافق القصر باعتبار «ثروت» (أحسن من غيره). وشكل «ثروت» الوزارة (فى أول مارس عـام ١٩٢٢) وبعد تأليف الوزارة بشهر تشكلت لجنة لوضع الدستور من ٣٠ عضوا (عدا الوفد) ورسخت أخبار مختلفة عن (سلطات الأمة) وعن موضوع لقب الملك (ملك مـصـر والسـودان) وأحس الناس بتبـاطؤ العـمل فى لجنة الـدسـتـور. وصدرت الأهرام فى ١٨ أغسطس بافـتتـاحية تستحث الإسـراع فى عـمل اللجنة لتـسـتـريح الأمـة، وبدأت الشكوك تسـاور القـصـر فى دور «ثروت» الخـفى وراء المناقشـات التى تسـربت ووراء مـقـال الأهرام فطلبت من «ثروت» إغـلاق جـريدة الأهرام. وكان مطلبا صعبا أمام «ثروت» فلا يجرؤ هو ولا غيره على إغلاق جريدة الأهرام واكتـفى بتعطيل الجريدة لمدة ثلاثة أيام. وتحدثت دوائر القـصـر عن تراخى ثروت فى تمرير لقب ملك مصر والسودان فى لجنة الدستور وفى المراسلات السرية بين «ثروت» والمندوب السامى دون علم القصر وعن قيام ثروت باعتقـال عـدد من أعضـاء الوفـد دون أن يخطر القـصـر بهـا، وأنه أغلق جـريدة (الليبـرتيـة) دون علم القصر أيضا. ويبدو أن القصر أراد أن يحرج «ثروت» أمام أغلبية الوفد الشعبية التى كانت تتمسك بوحدة مصر والسودان وبلقب (ملك مصر والسودان) والتى تحرص أيضا على عدم اعتقال العناصر الوطنية والوفدية. ويبدو أن «ثروت» عجز عن تمرير (لقب ملك مصر والسودان) تحت ضغط الإنجليز واحتجاجات اللنبى، كـما عجز عن إغـلاق (الأهرام) أى أن المواقف لم تكن من منطلق شـعبى عند «ثروت» الذى يقال عنه إنه يمت بصلة القربى للقصر. والذى يريد أن يمسك العصا من المنتصف فى مسألة إغلاق الأهرام بين القصر وبين الغالبية الشعبية التى تطالب بحرية الصحافة، المهم أن القصر لم يعد يتمسك بوزارة «ثروت» التى وافقت على حذف نصف لقب الملك. ولم يعد الإنجليز أيضا حريصيين على وزارة ضعيفـة فى مواجهة التيـار الشعبى الذى يقوده الوفد، فاستقالت الوزارة فى ٢٩ نوفمبر عام ١٩٢٢. وتولى

«محمد توفيق نسيم» وزارته الثانية فى (٣٠ نوفمبر عام ١٩٢٢ - ٩ فبراير عام ١٩٢٣).

٢٨ فبراير والدستور:

وبالاتفاق بين «عبد الخالق ثروت» والإنجليز صدر تصريح ٢٨ فبراير عام ١٩٢٢ وتحفظاته الأربعة. وأتمت لجنة الدستور أعمالها في ١٥ أكتوبر عام ١٩٢٢. وتشكل حزب الأحرار الدستوريين فى ٣٠ أكتوبر: ١٩٢٢م، ووصف «عدلى» والأحرار الدستوريون تصريح ٢٨ فبراير بأنه أساس طيب للاستقلال وأنه لأول مرة فى التاريخ المصرى الحديث يتم الاعتراف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة وقال إسماعيل صدقى: (إن وزارة عبد الخالق ثروت التى كنت أحد أعضائها أعلنت استقلال مصر وشكلت لجنة الدستور) وفى الجانب الشعبى وصف «سعد زغلول» تصريح ٢٨ فبراير بأنه (أكبر نكبة على البلاد)، ووصف لجنة الدستور بـ (لجنة الأشقياء)، وكان (الحزب الوطنى) يؤيد سعد والوفد فى هذه المواقف.

وفى ١٥ مارس عام ١٩٢٣ شكل «يحيى إبراهيم باشا» وزارته الأولى وهى وزارة إدارية. وصدرت قرارات الإفراج عن المعتقلين، وفى ٥ يوليو ألغيت الأحكام العرفية. وكان الدستور قد صدر فى ١٩ أبريل بما عليه من ملاحظات. وجرت أول انتخابات برلمانية حقيقية فى ١٢ يناير عام ١٩٢٤ سقط فيها «يحيى إبراهيم باشا»، وسقط «إسماعيل صدقى باشا» فى دائرته (الغريب) أمام مرشح سعد باشا لـ«محمد نجيب الغرابلى). . ولم يجرؤ «عبد الخالق ثروت» على أن يرشح نفسه فى أية دائرة انتخابية لأنه لا ينسى ما فعله مع سعد ومع الوفديين ومع سائر العناصر الوطنية. وبعد تأليف الوزارة الشعبية عام ١٩٢٤ اقترح «محمد نجيب الغرابلى» على «سعد باشا» تأليف محكمة لمحاكمة «ثروت» على جرائمه فى حق الشعب. ولكن «سعد العظيم» قال: إن الحكم الذى أصدره الشعب فى الانتخابات أقسى على خصومه من أحكام الإعدام، وعبر إسماعيل صدقى «عن ذلك المناخ بقوله: كان الاعتقاد من الأمة فى سعد باشا يشبه الاعتقاد بالأنبياء ولم أشترك فى

أي نشاط سياسي طوال مدة قيام وزارة المغفور له سعد زغلول باشا فى الحكم حتى وقعت كارثة اغتيال السردار السير لي ستاك .

ولكن تبقى حقيقة مهمة يجب أن نوردها هنا . . وهى أن زعيم الأمة «سعد زغلول» ووكيل الأمة «الوفد» رغم ملاحظاتهم على تصريح ٢٨ فبراير وعلى لجنة الأشقياء ظلوا مخلصين لدستور ١٩٢٣ بقدر ما فيه من إيجابيات متاحة . وأن العناصر الأخرى التى رأت فى تصريح ٢٨ فبراير أساسًا طيبًا للاستقلال ، وكانت تشكل لجنة الدستور عند أول منعطف سلمت للقصر بما يريد من التلاعب بالدستور بل إن الصراع الداخلي دار كله بين الوفد من جانب وبين الأحزاب الأخرى من جانب آخر صراعًا حول التمسك بالدستور أم تمزيقه وإلغائه وحل البرلمانات الوفدية بل إلغاء الحياة النيابية بأسرها كما حدث فى عهدى «محمد محمود باشا» و«إسماعيل صدقى باشا» .

خطوات مشاها ثروت:

التاريخ هو التاريخ لا حيلة لنا فيه وعلينا أن نقدمه بأمانة للقراء . . ولد «عبدالخالق ثروت» فى درب الجماميز عام ١٨٨٣م سليل أسرة أناضولية استوطنت مصر بعد الغزو العثمانى بقليل . بدأ دراسته فى مدرسة عابدين ، ثم مدرسة المعلمين ، والتحق بالحقوق عام ١٨٨٨ ، وحصل على الليسانس عام ١٨٩٣م ، وكان الأول دائمًا فى دراسته . تم تسجيل اسمه فى بعثة إلى الخارج ولكن مرض والده حال دون ذلك . عمل بعد تخرجه بقلم قضايا الدائرة السنية ، وكيلا لنيابة الحقانية «يونيو ١٨٩٤ ـ مايو ١٨٩٨» وقاضيا بمحكمة مصر الأهلية «يونيو ١٨٩٩ ـ فبراير ١٩٠٢» وكيل محكمة قنا الأهلية «يناير ١٩٠٥ ـ أكتوبر ١٩٠٦م» مديراً لأسيوط «نوفمبر ١٩٠٧ ـ نوفمبر ١٩٠٨» ، النائب العام بعد استقالة النائب العام الإنجليزى «كروبت» اختاره سعد زغلول «نوفمبر ١٩٠٨م» . وظل نائبًا عامًا حتى اختاره «حسين رشدى باشا» وزيراً للحقانية فى وزارته الأولى التى بدأت فى «٥ أبريل ١٩١٤» ثم وزارته الثانية «١٩ ديسمبر ١٩١٤» والثالثة «١٠ أكتوبر ١٩١٧»

فالرابعة فى «٩ أبريل ١٩١٩ حتى ٢٢ أبريل ١٩١٩» محظوظ لاشك فى وزارة واحدة هى الحقانية من «٥ أبريل ١٩١٤ حتى ١٩٢٢م»، ثم اختاره «عدلى يكن باشا» وزيراً للداخلية من «١٦ مارس ١٩٢١ ـ ٢٤ ديسمبر ١٩٢١»، وفيها أخذ «ثروت» راحته وهات مطاردة للوفد والوفديين. جاءت رئاسة الوزارة فى «أول مارس ١٩٢٢ ـ ٢٩ نوفمبر ١٩٢٢» ومعها وزارة الداخلية والخارجية. واحتفظ بوزارة الخارجية فى وزارة «عدلى يكن باشا» من «٧ يونيو ١٩٢٦ ـ ٢١ أبريل ١٩٢٧». ثم جاءت رئاسة الوزارة الثانية ومعها الداخلية والخارجية من «٢٥ أبريل ١٩٢٧ حتى ١٦ مارس ١٩٢٨». وفى كل خطواته كان يتمتع بالذكاء العملى والدهاء فى السلوك. وبعد استقالته سافر إلى باريس وانتهى أجله هناك فى سبتمبر عام ١٩٢٨ نفسه رحمه الله وغفر له ما تقدم وما تأخر.

كلمات من حقه:

أظن أننا قلنا ما عليه بقى أن نقول بعض ماله. «سعد» العظيم، كان خطيبًا يحرك الجماهير ويناشد فى خطبه وجدان الشعب. لم يتردد أن ينصف خطيبًا آخر مثل «محمد توفيق دياب»، وأشاد بقدراته الخطابية على الرغم من أن «عبد الخالق ثروت» كان خطيبًا لمجموعات معينة كالمحامين والموظفين والمهنيين. وعندما سمعه «سعد زغلول» يتحدث فى افتتاح الجامعة قال «سعد» دون تردد: «كان خطابه أحسن الخطب تلاوة وإلقاء ومعنى وعبارة» ولقد طرب «ثروت» عندما سمع كلام «سعد باشا» عنه.

وكان «ثروت» صديقًا حميمًا للدكتور «طه حسين» قال عنه «طه حسين»: «إن صوته العذب مرآة لنفسه العذبة.. وأشهد.. لقد كانت الخصومة السياسية تشتد بينه وبين البعض حتى تنتهى إلى أقصاها». ولكنه يحفظ لهؤلاء الناس فى ناحية من قلبه مودة كريمة خالصة. ويكفى أن ترجع إلى أحاديثه وخطبه ورسائله التى عرض فيها لهؤلاء الخصوم، وسترى أنه يذكرهم دائمًا برفق يؤثر فى نفسك أشد التأثير». لقد كان ثروت على صلة بطه حسين منذ أن كان «ثروت» وزيرا للحقانية

حيث قدمه له «أحمد لطفى السيد» فى أعقاب اجتماع لمجلس إدارة الجامعة المصرية.

والآن هل كان «عبد الخالق ثروت» معتدلاً أم أن اعتداله تحيط به شبهات كثيرة؟.

الأسانيد:

١ ـ حسن يوسف . . مذكرات.

٢ ـ د. سعيد اللاوندى . . جريدة الأهرام ٢٢/٩/١٩٩٩.

٣ ـ صبرى أبو المجد . . سنوات ما قبل الثورة.

٤ ـ عبد الفتاح عنايت . . قصة كفاح.

٥ ـ مشرف المليجى . . عبد الخالق ثروت «رسالة ماجستير».

عبد الفتـاح عنـايت



فى ١٩ ديسمبر من عام ١٩٨٦م توفى «عبد الفتاح عنايت» أحد المتهمين الثمانية فى اغتيال سردار الجيش المصرى والحاكم العام للسودان «السير لى ستاك» فى ١٩ نوفمبر عام ١٩٢٤م، وقد نفذ حكم الإعدام فى سبعة منهم، أما هو فقد حكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة، قضى ١٩ عاما فى الليمان من عام ١٩٢٥ حتى عام ١٩٤٤م، وقد قرأت وقرأ غيرى أخبار هذه القضية وما أحاط بها، ولكننى قدر لى عام ١٩٨٥م قبل وفاته بأكثر من عام أن أراه فى مكتبى يقدم لى نسخة من كتابه «قصة كفاح» ومخطوط كتاب آخر اعتذرت عن عدم نشره لأسباب مختلفة.

ولاحظت عليه فى المرات التى زارنى فيها أن تسعة عشر عاما فى الليمان تركت آثارها على الرجل ذهنيًا وصحيًا وفكريًا، وأعترف الآن أننى لم أعكف على قراءة «قصة كفاح» لعبد الفتاح عنايت قراءة متأنية وإنما تصفحته وهالنى عدد أحداث الاغتيالات لقيادات الاحتلال الإنجليزية، وما ذكره عن دوره فى جمعية الاغتيالات السرية، ولاحظت عند ذكر أسماء أعضاء الجمعية السرية يضع نفسه رقم واحد فى الجمعية على الأعضاء قرار الاتهام سابقًا على الأعضاء الذين أطلقوا الرصاص وغذوا الجمعية بالأسلحة وتساءلت بينى وبين نفسى.. هل صحيح أن صبيا فى السابعة عشره من عمره أو فى التاسعة عشره من عمره يكون رقم واحد فى الجمعية وأمام المحكمة؟ رغم هذا احتفظت بالكتاب فى مكتبتى الخاصة للإهداء الذى قدم به الكتاب لى، واحترامًا لتسعة عشر عاما قضاها فى الليمان وماعاناه هناك، وعدت فى الأيام الأخيرة للكتاب وقرأته لأخرج منه بموضوع يفيد القراء عن ذكريات هذا

الزجل وعن قضية اغتيال السردار «السير لى ستاك» وعن أسرة عنايت . . ابنها البكر مات بالتعذيب والثانى أعدم ونفى الثالث ليكتب مذكراته بتشجيع من الدكتور محمد أنيس أستاذ التاريخ، وشدتنى أولا مفاجأة لم أكن أتوقعها وسأقدمها فيما يلى . .

حسن عبد الرازق شقيق الشيخ «مصطفى عبد الرازق» وابن «حسن عبد الرازق» الذى أعلن فى ٢٠ سبتمبر عام ١٩٠٧م تسمية الجمعية العمومية لشركة «الجريدة» باسم «حزب الأمة» و«إسماعيل زهدى» المحامى، لعل القراء يذكرون أننى فى الحلقة الخاصة بالشيخ مصطفى عبد الرازق ذكرت أن هذين الشخصين المرموقين قد اغتيلا أمام مقر جريدة «السياسة». وفوجئت بعبد الفتاح عنايت يسجل فى «قصة كفاح» رواية غريبة . . فى ٦ نوفمبر عام ١٩٢٢م «قصدنا أن نقتل عدلى ورشدى» يقصد «عدلى يكن باشا» و«حسين رشدى باشا» عرفت الجمعية السرية أن هناك اجتماعًا يحضره «عدلى ورشدى»، وفى الساعة الخامسة (كنا نعاين دار جريدة السياسة فى شارع المبتديان، وتفرقنا فى المكان، وقفت أنا على الرصيف المواجه للدار، بينما وقف إبراهيم موسى ومحمد فهمى ومحمود عثمان وعبد الحميد عنايت على ناصية صغيرة بجوار دار الجريدة، وفي نهاية العطفة كان «محمود رشدى» ينظر ليتولى عملية الهرب «ص ٧٠ وص ٧١».

وفى منتصف الساعة التاسعة انفض الاجتماع وكان «حسن عبد الرازق باشا وإسماعيل زهدى بك» أول من غادر الاجتماع وكان أولهما طويل القامة يشبه إلى حد كبير «عدلى باشا»، وثانيهما يشبه فى قصر قامته «حسين رشدى باشا» وكان الضوء غير كاف، وأعطيت إشارة التنفيذ المتفق عليها - عند الحديث عن الجمعية السرية سنعرف دور عبد الفتاح عنايت كان إعطاء إشارة التنفيذ - وانطلقت مسدسات إبراهيم موسى ومحمد فهمى ومحمود عثمان وعبد الحميد عنايت، فأردت المرحومين حسن عبد الرازق وإسماعيل زهدى وتم الهروب، هذه هى الرواية التى يكشف بها «عبد الفتاح عنايت» سر اغتيال شخصيتين مرموقتين من حزب الأحرار الدستوريين ووقعت عام ١٩٢٢، وكان عمر «عبد الفتاح عنايت» ١٧ عاما، ومهمته فى الجمعية إعطاء إشارة التنفيذ، وبسبب الضوء الخافت ضاع الرجلان، وتسببت هذه الحادثة فى صراعات حزبية حادة، وأضع هذه الرواية أمام

الباحثين المجتهدين لبيان مدى دقتها، وقبل أن أصل إلى حادث اغتيال السردار نعرض لجمعية «آل عنايت» السرية.

ورثة التطرف:

يعد «عبد الفتاح عنايت» مجموعتهم السرية التى اغتالت السردار وارثة لـ «إبراهيم ناصف الوردانى» الذى اغتال «بطرس باشا غالى» عام ١٩١٠، ويلمح إلى أن «الوردانى» كان من أنصار الحزب الوطنى، ثم ينتقل إلى «محمود مظهر» الذى حاول اغتيال «الخديو عباس حلمى الثانى» عام ١٩١٤م فى الآستانة، ويقول صراحة أن «محمود مظهر» هذا هو أحد أفراد الجهاز السرى الذى كان يقوده «محمد فريد»، وهنا نقدم ملاحظتين . . الأولى: أن «الخديو عباس حلمى الثانى» كان وقتذاك فى الجانب الوطنى المعادى للاحتلال وانتهى الأمر بمنعه من دخول مصر وبعزله عن السلطة فى ديسمبر عام ١٩١٤، والملاحظة الثانية . . أن «محمد فريد» فى تلك الفترة كان خارج البلاد والاتصال بينه وبين أعوانه تحول دونه عقبات.

وننتقل مع «عبد الفتاح عنايت» إلى ٩ يوليو عام ١٩١٥م وإلى محاولة اغتيال «السلطان حسين كامل» والذى عرفت بـ «حادث القنبلة» وموجز الموقف أن «السلطان حسين كامل» ذهب يؤدى فريضة صلاة الجمعة يوم ٩ يوليو عام ١٩١٥م بمسجد «سيدى عبد الرحمن بن هرمز» بالإسكندرية، ومن نافذة منزل مهجور يطل على شارع رأس التين ألقيت قنبلة فسقطت على ظهر أحد جياد المركبة السلطانية وتدحرجت على الأرض ولم تنفجر، وكان المتهمون التسعة فى هذا الحادث: «محمود عنايت - الشقيق الأكبر لعبد الفتاح عنايت - ومحمد فريد - ود. شفيق منصور «أحد أعضاء المجموعة السرية التى اغتالت السردار ومحمد شمس الدين، وأحمد ثابت، وعبد الفتاح يوسف، وعلى صادق، وعبد الله حسن، ثم محمد نجيب الهلباوى - وهذا سيكون له دور فى الإيقاع بالمجموعة التى اغتالت السردار»، ومحمود عنايت - الشقيق الأكبر لعبد الفتاح - بقى فى السجن حتى نفى إلى جزيرة مالطة وتعرض للتعذيب وعاد إلى مصر حيث أفرج عنه صحيًا، وبعد شهرين من الإفراج توفي متأثرًا بالتعذيب عام ١٩١٧، وكان عبد الفتاح عمره ١٢ عامًا «مواليد

١٩٠٥»، وهذه الوفاة أثرت فى نفسية شقيقه «عبد الحميد عنايت» وفى نفسية «عبدالفتاح عنايت» مما دفعهما للانتقام.

جمعية آل عنايت:

نستطيع أن نسمى هذه الجمعية السرية بجمعية «آل عنايت» لأن الابن البكرى هو «محمود عنايت» الذى اشترك فى حادث القنبلة ثم انتهى بالوفاة متأثراً بالتعذيب، وكان هذا من دوافع اشتراك الابن الثانى الطالب بكلية المعلمين «عبد الحميد عنايت» والابن الأصغر «عبد الفتاح عنايت» وأعدم «عبد الحميد» وقضى «عبد الفتاح ١٩ عاما فى الليمان، وبقى حتى يكتب لنا هذه المذكرات، ويضيف «عبد الفتاح عنايت» إلى هذه العوامل تأثرهم بالقراءة عن حادث مقتل «كليبر» وانتهاك الفرنسيين لحرمة الجامع الأزهر، وكذلك ما فعلته قوات الاحتلال فى حادث دنشواى.

وعلى ربوة فى جبل المقطم اجتمع خمسة من الشباب: عبد الحميد عنايت وعبدالفتاح عنايت، ومحمود عثمان وإبراهيم موسى ومحمد فهمى، ثم حل «محمود راشد» موظف بمصلحة التنظيم محل «محمود عثمان»، وهكذا أصبحت الجمعية السرية على الوجه التالى: عبد الحميد عنايت الطالب بكلية المعلمين - عبدالفتاح عنايت الطالب بكلية الحقوق - محمد فهمى وإبراهيم موسى العاملان بالعنابر، ومحمود راشد الموظف بالتنظيم، ووزعوا عمليات إعطاء إشارة التنفيذ أو عدم التنفيذ، وضرب النار، وتجهيز الأسلحة واستحضار السيارة والهروب بعد تنفيذ العملية، ثم انضم إليهم «محمود إسماعيل» وجاء ذكره على أنه ضابط بالبحرية وفى مكان آخر باعتباره موظفًا فى الأوقاف، وبعد الحرب العالمية الأولى أفرج عن «شفيق منصور» وعاد إلى مصر من مالطة، وتولى «شفيق منصور» إمداد المجموعة بالأسلحة وعرفهم بمحمود إسماعيل، وفى حديقة النزهة بقصر النيل كان أول اجتماع للمجموعة التى ستتولى العمليات المختلفة، وتحدث «عبد الفتاح» عن عمليات كثيرة قاموا بها قبل تنفيذ عملية اغتيال السردار، وسوف نرجع الحديث عنها بعد أن نعرض لعملية اغتيال السردار.

المنـاخ السياسى:

كانت قضية السودان، ومنصب السردارية أهم ميادين الاختلاف بين البريطانيين والوزارة الشعبية برئاسة «سعد زغلول»، وفى ١٧ مايو عام ١٩٢٤ أدلى «سعد زغلول» فى مجلس النواب ببيان قال: «لا يتفق مع كرامة الدولة المصرية أن يكون الرئيس الأعلى لقواتها أجنبيًا والرئيس الأدنى أيضًا، هكذا كان من قبل ويجب علينا أن نمحوه، كما أن إقامة السردار بالسودان لا تتفق مع مصلحة العمل وهذا واقع، ويجب أن تتخذ الوسائل لإزالة ذلك».

أدركت إنجلترا توجهات الوزارة الشعبية من المسألة السودانية ومن وضع سردار الجيش المصرى الحاكم العام للسودان، وكانت هناك مفاوضات «سعد ماكدونالد» فماطلت إنجلترا ووضعت العراقيل أمام المفاوضات مع سعد، ووضع «سعد» الأمور أمام الأمة وقدم استقالته فى ١٥ نوفمبر عام ١٩٢٤، وخرجت الجماهير فى شوارع القاهرة تهتف «سعد أو الثورة»، واضطر القصر إلى رفض استقالة سعد وتقديم بعض التنازلات، واتضح الموقف أمام الجماهير أن إنجلترا والقصر لا يهدأ لهما بال إلا بإبعاد سعد. ولم يكن ممكنًا أمام إنجلترا والقصر قبول الاستقالة.

الجمعية والاغتيال:

واجتمعت الجمعية ودرست الموقف وقررت اغتيال سردار الجيش المصرى وحاكم عام السودان «السير لى ستاك» يوم الأربعاء الموافق ١٩ نوفمبر عام ١٩٢٤م فى منتصف الساعة الثانية بعد الظهر عند خروجه من مكتبه، وكان السردار قد عاد من إنجلترا مارا بمصر فى طريقه إلى السودان، وله مكتب فى وزارة الحربية وبقى أيامًا يتردد على مكتبه ساعة أو ساعتين ثم يعود إلى منزله بالزمالك «حاليًا نادى الضباط» مخترقًا شارع إسماعيل باشا أباظة، فشارع قصر العينى ثم يعبر كوبرى قصر النيل فأرض الجزيرة حتى يبلغ منزله الفخم بالزمالك.

وتم الاتفاق على أن يتولى العملية: «إبراهيم موسى، ومحمود راشد، وراغب حسين، والدكتور شفيق منصور المحامى، وعلى إبراهيم وعبد الحميد عنايت،

وعبد الفتاح عنايت ومحمود إسماعيل ـ والد المذيع كمال إسماعيل»، وكان على اتصال بالجمعية «محمد نجيب الهلباوى» الذى كان أحد المتهمين فى قضية القنبلة، وفى قضية السردار على النحو الذى سنفصله فيما بعد.

ووقف الأعضاء المنوط بهم التنفيذ على ملتقى شارع قصر العينى وإسماعيل أباظة حيث تهدئ سيارة السردار سرعتها . . وخرج السردار فى الساعة الثانية وانقض «إبراهيم موسى» بمسدسه على السردار ومن معه وأفرغ فيهم عدة طلقات نارية، وأسرع السائق إلى دار المندوب السامى بقصر الدوبارة . . وقضت الرصاصات على حياة السردار.

زغلول ودروس الوطنية:

ركب الفيلد مارشال اللنبى المندوب السامى البريطانى فى القاهرة فى موكب من الجند المدجج بالسلاح قاصدا دار رئاسة مجلس الوزراء ليقدم إلى «سعد زغلول» رئيس الحكومة المصرية بلاغًا وإنذاراً، وقال المندوب السامى لسعد زغلول: «إن حكومة جلالة ملك بريطانيا تقدم إلى دولتكم البلاغ والإنذار التالى . .

١ ـ أن تقدم الحكومة المصرية اعتذارات كافية عن الجناية.

٢ ـ أن تتابع بأعظم نشاط البحث عن الفاعلين وتنزل بهم أشد العقاب.

٣ ـ أن تمنع من الآن فصاعدا وتقمع بشدة كل مظاهرة سياسية.

٤ ـ أن تدفع فى الحال إلى حكومة جلالة الملك غرامة قدرها نصف مليون جنيه.

٥ ـ أن تصدر خلال أربع وعشرين ساعة الأوامر بإرجاع جميع الضباط المصريين ووحدات الجيش المصرى من السودان.

وكما ذكرنا من قبل أن مسألة السودان كانت من المسائل الخلافية الساخنة بين بريطانيا وسعد زغلول فقد بادر «سعد» بتقديم استقالته وجاء بعده «أحمد زيور باشا» رئيسا للوزارة ومعه «إسماعيل صدقى باشا» وزيراً للداخلية اللذان أعطيا الإنجليز والقصر الجمل بما حمل.

زيور وصدقى

وبدأ بوليس زيور وصدقى يجد فى البحث عن الفاعلين، ولم تمض أيام حتى قبض البوليس على «عبد الحميد عنايت وعبد الفتاح عنايت ومحمود إسماعيل وإبراهيم موسى، وعرفت الجمعية أن «محمد نجيب الهلباوى» الذى كان على علاقة بأعضائها، وكان من قبل على صلة بقضية القنبلة قد أفضى بكل معلوماته عن الأعضاء لوزير الداخلية «إسماعيل صدقى»، وكان «محمود إسماعيل» بسجن الأجانب فأعد «إسماعيل صدقى خدعة فأحضره فى صحبة مدير الأمن لاستجوابه، وشهد الصحفيون هذا المشهد وفى المقابلة لم يتفوه «محمود إسماعيل» بكلمة واحدة ضد زملائه ولكن مسئولاً كبيراً من الوزارة صرح بعد انتهاء مقابلة محمود إسماعيل لإسماعيل صدقى بأن «محمود» قد أدلى بكل التفاصيل للحكومة . وقد تأثرت نفسيات ومعنويات أعضاء الجمعية بهذا الخبر الكاذب.

وصدر قرار الاتهام ضد:

١ - عبد الفتاح عنايت.

٢ - عبد الحميد عنايت.

٣ - إبراهيم موسى.

٤ - محمود راشد.

٥ - راغب حسن.

٦ - على إبراهيم.

٧ - د . شفيق منصور.

٨ - محمود إسماعيل.

وفى التحقيق كان «عبد الفتاح عنايت» وعبد الحميد عنايت ومحمود راشد و د . شفيق منصور قد اعترفوا بارتكاب الحادث، واعترف «محمود إسماعيل» ولكنه سحب اعترافه بعد ذلك، وأما عمال العنابر «إبراهيم موسى، وراغب حسن وعلى إبراهيم» فقد ظلوا على إنكارهم للنهاية، وصدر الحكم فى ١٨ يونيو عام

١٩٢٥ فى الساعة العاشرة صباحًا بإعدام الجميع فيما عدا «عبد الفتاح عنايت» الذى صدر عليه الحكم بالأشغال الشاقة المؤبدة . . وذلك لصغر سنه ولأنه لم يطلق الرصاص وكان دوره مقصوراً على إعطاء الإشارة بوصول السردار إلى موقع الحادث ، وراحت مجموعة من شباب مصر أعطت دون أن تأخذ شيئًا وضحت فى مقاومتها للاحتلال فى ضوء رؤيتها ومفهومها .

الدكتور محجوب ثابت:

كان «الدكتور محجوب ثابت» طبيب أول جامعة فؤاد الأول ، واعتاد أن يقوم بزيارات لليمان ويصطحب عدداً من طلاب الدراسات العليا بكلية الحقوق ، وتوثقت علاقاته مع «عبد الفتاح عنايت» الذى كان قد هجر دراسة الحقوق بعد الحكم عليه ، وأقنعه «الدكتور محجوب ثابت» بمواصلة الدراسة ، وأوصى عليه «محفوظ بك ندا» مدير الليمان الذى سهل كل الأمور لعبد الفتاح وساعده فى دخول الكتب والمراجع إليه وسمح له بأن يذاكر دروسه فى مكان هادئ ظليل بفناء الليمان ، وتدخل «الدكتور محجوب ثابت» لدى إدارة الجامعة التى سمحت لعبد الفتاح عنايت بمواصلة الدراسة وأداء الامتحانات ، وفى فترة الامتحانات تقرر نقله من الليمان إلى سجن مصر «قره ميدان» ليذهب منه إلى الجامعة ، وحسب رواية «عبد الفتاح عنايت» فقد أدى امتحان الليسانس ونجح وكان ترتيبه الثانى .

وبعــــد:

فهذا موجز سريع لعبد الفتاح عنايت ورفاقه وقضية اغتيال السردار «السير لى استاك» ، والكتاب مليء بأحداث اغتيالات كثيرة يقرر «عبد الفتاح» أن الجمعية السرية قد قامت بها وهى فى حاجة إلى تحقيق وتدقيق والرجوع إلى مصادرها المختلفة للتأكد منها واقترح أن يقوم أحد طلاب الحقوق بالدراسات العليا بإعداد «أطروحة» يتناول فيها هذه الشخصيات كلها التى وردت فى «قصة كفاح» ويجلو لنا الحقيقة .

وعبد الفتاح عنايت - كأى ابن حواء - توفى فى ١٩ ديسمبر عام ١٩٨٦م بعد ٨١ عامًا قضى منها ١٩ عامًا فى الليمان «١٩٢٥ - ١٩٤٤»، رحمه الله وأجزل له الثواب.

الأسانيد:

١ - سعد زغلول . . المذكرات ج ٥ «تحقيق د. عبد العظيم رمضان».

٢ - عبد الفتاح عنايت . . قصة كفاح.

٣ - لمعى المطيعى . . موسوعة هذا الرجل من مصر.

٤ - محمد فريد . . مذكراتى بعد الهجرة.

الخديو عباس حلمي باشا الثاني



فى الفترة الأخيرة رغبت فى أن أستمتع بقراءة مذكرات ثالث خديو لمصر وآخرهم «عباس حلمى الثانى»، ومذكرات رجل المبادئ والتضحية «محمد فريد»، ومذكرات زعيم الأمة «سعد زغلول» وأوراق مصطفى كامل رئيس الحزب الوطنى، وخرجت من هذه السياحة التاريخية الممتعة بأنه لا توجد سياسة بدون أخطاء وبأن «عباس الثانى» أحب مصر وأخلص لها، ولكن لأنه كما سجل فى مذكراته «كان شابًا بدون تجارب . . ووصل إلى السلطة محرومًا من كل توجيه ينبهه إلى الصعوبات وخبايا السياسة ودهاليز الإدارة». وقع فى اللعب بالبيضة والحجر، وانتهت اللعبة فى ١٩ ديسمبر عام ١٩١٤ بأن كسر الحجر البيضة، ونشرت جريدة الوقائع المصرية إعلان خلع الخديو وعرض هذا المنصب على «سمو الأمير حسين كامل باشا» أكبر الأمراء الموجودين من سلالة محمد على.

ومنذ اللقاء الأول بين «اللورد كرومر» و«الخديو عباس الثانى» فهم كل واحد منهما الآخر فى ٢١ فبراير عام ١٨٩٢م، وكتب كرومر: «أرى أن الخديو الشاب سوف يكون مصريا للغاية، وإنى أرى فى هذا ما ينبئ بما سوف يحدث بعد ذلك» وكتب «عباس حلمى الثانى» - فيما بعد - عن هذه المقابلة . . «جاء ممثل إنجلترا لمقابلتى . . له وجه يدل على الحيوية ونظرة نافذة . . وقالوا لى . . إنه يشغل أوقات فراغه بترجمة «أوديسة» هوميروس إلى الإنجليزية . . وجعلنى كرومر أفهم أننى إذا ما تمسكت بكرامتى ورفضت دور «الكومبارس» الذى ترغب إنجلترا فى أن تتركه لى

فإنه سوف يدفع الشعب المصرى للوقوف ضدى» كان كرومر يوجه كل أفعاله لمصالح بريطانيا، تدعمه دبلوماسية لها تاريخ. . وفى داخل مصر كان لبريطانيا جيش قوى، وكان لكرومر مخابرات وصلت إلى استخدام ـ على حد قول عباس ـ بعض رجال القصر، ولم يكن وراء عباس ـ على حد قوله ـ سوى الفراغ، ولعب الشاب ـ بدون تجارب ـ لعبة البيضة والحجر مع الدولة العثمانية ومع مصطفى كامل ومحمد فريد والشيخ محمد عبده وسعد زغلول والشيخ عبد العزيز جاويش، وقع فى سلسلة متصلة من التناقضات المكشوفة، كما سنعرف فى مسيرتنا مع آخر خديو مصر.

قبل أن نعرض للتناقضات التى مارسها «الخديو عباس الثانى» نفرغ من المواقف التى كان واضحًا فيها وثابتًا عليها، وهى فى الوقت نفسه تفسر لنا عددًا من أوجه سياسته التى سار عليها.

* أولاً. . الوفاء والتقدير لأسرة محمد على. . «الأسرة الكريمة. . وإسماعيل العظيم. . وتوفيق الوالد الطيب». وفى مذكراته دافع «عباس الثانى» عن «إسماعيل العظيم» وهو التعبير الذى استخدمه أيضًا «د. لويس عوض» فى كتاباته التاريخية. وحاول «عباس» أن يدافع ويبرر تصرفات جده «إسماعيل» ومواقف والده «الرجل الطيب الكريم توفيق!» وألقى باللوم كله على «أحمد عرابى» وحركته وأن «عرابى» هو الذى جلب بتصرفاته الاحتلال البريطانى لمصر، وهذا الموقف ـ الخاطئ فى تقديرنا ـ هو الذى تبناه «مصطفى كامل» وسائر أعضاء «الحزب الوطنى» «محمد فريد» وعبد الرحمن الرافعى. . وفتحى رضوان.

* ثانيًا. . الكراهية لعرابى والعرابيين. . كانت كراهيته للثورة العرابية والعرابيين موقفًا ثابتًا لديه. . يرى أن عرابى أخطأ فى مواقفه، مما أدى إلى احتلال بريطانيا لمصر، وانصرفت كراهيته لعرابى والعرابيين إلى كراهيته للشيخ محمد عبده ولسعد زغلول لصداقته بالشيخ محمد عبده، وهذا لم يمنعه من مدح الشيخ وزغلول فى فترة وإظهار العداء لهما فى فترة أخرى مما سيجيء توضيحه فى حديثنا عن موقف الخديو من «سعد زغلول». وعندما تولى «الخديو عباس» حظى «الشيخ محمد عبده» بمكانته عند «الخديو»، وسعى «الشيخ» لإصلاح الأزهر والمحاكم الشرعية

والأوقاف، ورغم هذا صرح «الخديو» لأحمد فتحى زغلول شقيق سعد زغلول يقول . . (إنى أكره الشيخ محمد عبده كراهية شديدة) بل إن الخديو أوعز لـ «محمد أبو شادى» عام ١٩٠٣ بإصدار جريدة «الظاهر» بغرض مهاجمة «الشيخ محمد عبده» وإسقاط نفوذه الدينى وإضعاف العلماء الذين حوله، وقد شنت الجريدة حملة شديدة على «الإمام» إلى درجة استفزت الصحف الوطنية ـ فيما عدا اللواء الموالية للخديو ـ للرد على جريدة «الظاهر» وقال «الخديو» فى تفسير موقفه الحاد من «الإمام»: (أخذت عليه عناده وإصراره على الخطأ، وكانت مشاركته فى الحركة العرابية قد تركت عنده بصمات لا تمحى من الأخطاء الضخمة».

* ثالثًا . . الصداقة للشيخ على يوسف . . وكانت هذه أيضًا من المواقف الثابتة عند «الخديو» الذى أعجبته المهارات الخاصة للشيخ على يوسف فأوعز إليه أن يصدر «جريدة المؤيد» التى انتشرت فى مصر وخارج مصر . . ونجحت «المؤيد» فى أن تجمع على صفحاتها «زهور الفكر المصرى».

وازداد تقرب «الشيخ على يوسف» من «الخديو»، وظهر فى الناس على أنه أقرب المقربين، وأيد «الخديو» الشيخ وقيل إنه تدخل لصالحه فى انتخابات مجلس شورى القوانين عن مدينة القاهرة، وطعن فى انتخابه أو حكمت محكمة الاستئناف بإلغاء انتخابه، ويحدثنا «محمد فريد» فى ذكرياته بعد الهجره عن قاض اسمه «موزلى» كان مشهورا بعدم طهارة الذمة، ومشهورا بالنصب وما مشكلات ذلك ويتداخل فى مسائل الرتب والنياشين، وكان من شركاء الشيخ «على يوسف» فى الأمور السياسية وفى أمور النصب وتوصل «موزلى» إلى أن أصبح رسول الخديو لدى بعض الكبار الإنجليز بلوندرة، وكان يأخذ من «الخديو» مبالغ كبيرة لهذا الغرض، ووقف «الخديو» إلى جانب «الشيخ على يوسف» فى مسألة زواجه من السيدة «صفية السادات»، وفى هذا يقول «محمد فريد» فى ذكرياته: «فى أغسطس عام ١٩٠٤ كنت سافرت إلى بلاد النرويج للسياحة، وعدت إلى ديفون الحمامات، وكان «مصطفى» بانتظارى فتوجّهنا فوراً إلى الأوتيل الكبير . . وكان الخديو بانتظارنا وقابلنى أحسن استقبال، وتحدثنا فى قضية زواج الشيخ على يوسف بصفية بنت السيد عبد الخالق السادات، وكان الخديو يساند الشيخ على مساندة كبيرة، وقلنا له إن الرأى العام ساخط على الشيخ فقال الخديو «رأى عام إيه هو فيه حاجة

اسمها رأى عام أو أمة!» واحتد الخديو وقال لمصطفى «أنا ما أحبش حد ينصحنى أنا عارف الواجب علىّ» وعاد «مصطفى» إلى مصر وحرر الجواب بقطع علاقته بالخديو، وأرسل الجواب من الإسكندرية وأرسل صورته إلى جريدة الأهرام ونشره فى جريدة اللواء وقطع علاقته بالخديو مدة سنتين تقريبًا.

المواقف المتغيرة:

إذا كانت الثوابت لدى الخديو عباس حلمى الثانى كانت تتمثل فى الوفاء لأسرة محمد على والدفاع عن أعمال جده «إسماعيل العظيم» ووالده «الطيب الكريم توفيق!» والتأييد والمساندة للشيخ «على يوسف» ثم الكراهية والتنديد بأحمد عرابى والعرابيين ونضيف إليها.. أنه حاول الاحتماء بالدولة العثمانية صاحبة السيادة الاسمية على مصر، وعول على مساندة السلطان العثمانى فى وقت كان المعين فى حاجة إلى من يعينه!، وحاول أيضًا أن يطلب مساندة فرنسا التى لم تكن راضية بانفراد بريطانيا بمصر ولكن فرنسا هى التى رفعت يدها بعد الاتفاق الودى عام ١٩٠٤، والذى اتفقت فيه مع بريطانيا على أن تنفرد فرنسا بمراكش، وأن تنفرد بريطانيا بمصر..

وقد صاحب تلك الثوابت وهذه الآمال مواقف متغيرة هى من الأخطاء السياسية للخديو عباس حلمى الثانى والتى أضعفت من مواقفه الوطنية فى مواجهة الاحتلال، وسوف نشير فيما يلى إلى بعض هذه الأخطاء.

• الموقف من مصطفى كامل:

بدأت علاقات «عباس الثانى» مع مصطفى كامل بداية وطنية خالصة إلى درجة اتفاقهما على إنشاء «الحزب الوطنى السرى»، ودعا إليه «أحمد لطفى السيد» وكيل النيابة بمدينة بنى سويف عندما سمع بخبر «الجمعية السرية» لتحرير مصر والتى شكلها «لطفى السيد وعبد العزيز فهمى» وأخذ الثلاثة «الخديو ومصطفى كامل ولطفى السيد» أسماء حركية.. الخديو اتخذ اسم «الشيخ»

ومصطفى كامل اسم «أبو الفدا» ولطفى السيد اسم «أبو مسلم» وانضم إلى هذه الحزب السرى «محمد عثمان» والد «أمين عثمان» و«لبيب محرم» شقيق «عثمان محرم» وآخرون، وكانوا يجتمعون سرًا فى أحد المساجد بكوبرى القبة للتعمية والتمويه، وكان «عبد الرحيم أحمد» وكيل الإدارة العربية بالمعية السنية هو حلقة الاتصال بين «الخديو» و«مصطفى كامل» ولكن «محمد فريد» كشف فى مذكراته أن «الخديو» كان يرسل صديقه الحميم «الشيخ على يوسف» إلى أوروبا لمراقبة «مصطفى كامل» و«إبلاغ أخباره للخديو، وكان «الخديو» يغدق الأموال على «مصطفى» لمعاونته فى نشاطه الوطنى وإن كان «محمد فريد» قد اكتشف أن «مصطفى» كان يخفى أخبار هذه الأموال عنه، وكان «الخديو» يحاول أن «يلعب على الوجهين» - على حد تعبيره هو - بين مصطفى والشيخ على يوسف «كان أمامى أن أعمل على «وجهين» . . بالتناوب على الواحد والآخر لعدم إمكانية توحيد هذين العنصرين. الحزب المحافظ لأعيان البلاد بقيادة الشيخ على يوسف، والحزب المتطرف بزعامة مصطفى كامل».

وكان «مصطفى كامل» قد اختلف مع «الخديو» بسبب مساندة الخديو للشيخ على يوسف فى قضية زواجه من «صفية السادات» ورفض «الخديو» نصائح «مصطفى» بلهجة عنيفة مما دفع «مصطفى» إلى أن يقطع علاقته - كما أشرنا من قبل - مع الخديو لمدة سنتين، وفى المسيرة أيضًا خسر الخديو «مصطفى كامل» و«محمد فريد» و«الحزب الوطنى».

• الموقف من محمد فريد..

اكتشف «محمد فريد» مبكرًا أن «الخديو» «يوم وفاة مصطفى كامل - فبراير ١٩٠٨» - ابتدأ يدس دسائسه لانتخاب رئيس يكون طوع أمره ليستعمله فى أموره الشخصية وليحارب الإنجليز» ويتحدث «محمد فريد»: أن «الخديو» فى تلك السنة عام ١٩٠٨ ابتدأ فى سياسة الوفاق مع الإنجليز وسانده فى ذلك «بطرس باشا» وكان «فريد» قد انتقد تلك المواقف فى أبريل عام ١٩٠٨، ويقول أكثر «من

هذا اليوم أيقنت أن الرجل اتفق مع الإنجليز بواسطة بطرس باشا والسير الدون جورست» بل إن «فريد» يعترف أنه بعد أن سافر فى مارس عام ١٩١٢ إلى الأستانة وقرر الخديو أن يسافر إلى الأستانة رتب «فريد» مظاهرة ضد الخديو، وحاول «الشيخ على يوسف» إحباطها. ثم أراد «الخديو» شطب اسم «فريد» من بين أعضاء «نادى المدارس العليا» وكان «فريد» قد تبرع للنادى بجميع كتبه فيما عدا الكتب المهداة له، واستعان «الخديو» برجله «عبد الخالق ثروت» النائب العمومى وسجل فى مذكراته ص ٩٦ «طلبوا شطب اسمى - لأنى مجرم - وهذه الكلمة أطلقها عبد الخالق ثروت باشا النائب العمومى، ورفض الأعضاء بالإجماع قائلين أنهم يفضلون غلق النادى على إتيان هذا العمل»، وكان «الخديو» يرى أن «محمد فريد تم اختياره لتشدده. كان يعرف كيف يحارب ويقاوم.. ولكنه كان غير قادر على قيادة جيش».

● الموقف من سعد زغلول:

بدأ «سعد زغلول» بالمشاعر الودية تجاه الخديو الشاب، وعندما قرر الخديو زيارة الأستانة فى يوليو عام ١٨٩٣ محاولة منه فى أن يسانده السلطان العثمانى سافر «سعد زغلول» مع الخديو فى هذه الزيارة واشترك فى التوقيع على بيان يدعم «الخديو عباس الثانى» ووقع هذا البيان «أحمد لطفى السيد والشيخ على يوسف وقاسم أمين وحفنى ناصف» وفيما يلى من أيام تأكد «سعد زغلول» أن «الخديو» يكره «الشيخ محمد عبده» ومدرسته، وسعد زغلول كان من أصدقاء الشيخ محمد عبده، وتردد أن «الخديو» يعتزم حل الجمعية العمومية، وكان سعد زغلول هو الوكيل المنتخب لهذه الجمعية، وحاول «الخديو» أن يقدم فكرة حسنة من جانبه إزاء «سعد زغلول»، فقال له فى إحدى المقابلات.. «إننى كنت أسمع عنك - وأنت فى القضاء - أموراً أوجبتنى الإعجاب بك، غير أنها كانت شفاها، ثم صارت نوراً بعد معرفتى بك)، وعلى الرغم من هذا تأكد «سعد زغلول» من مصادر مختلفة بعضها قريب من الخديو.. تأكد أن «الخديو» يضمر له الكراهية، وتعرض «سعد زغلول» فى الفترة السابقة على الحرب العالمية الأولى لهجوم من

الخديو والحزب الوطنى . . وحارب الخديو «مدرسة القضاء الشرعى» التى ساندها «سعد زغلول».

عباس الثانى والاحتلال:

فى مثل المناخ السابق من ثوابت ومتغيرات كانت مسيرة الخديو مع الاحتلال، جاء هذا الشاب إلى السلطة وعمره ١٨ عامًا بحساب عمره بالسنوات الهجرية الميلادية، وكان بشبابه أمل الشباب المصرى. وحين حاول «الباب العالى» سلخ شبه جزيرة سيناء من مصر تصدت إنجلترا للعثمانيين - لمصالح إنجلترا الخاصة وليس لمصلحة الخديو - واضطر السلطان إلى التراجع فى أبريل عام ١٨٩٢م. وهذا جعل الخديو يبعد الأتراك من حرسه الخاص ولا يجد غضاضة فى الاعتماد على الوجود البريطانى ولم يكن هذا حقيقة مشاعره الخاطئة «بجلوسى على العرش - أقسمت على أن أدافع بأى ثمن عن حريات بلادى - وسمعت زئير عداوة إنجلترا»، وفى يناير عام ١٨٩٣ أصدر قرارًا بإقالة «مصطفى فهمى باشا» وتولى «حسين فخرى» رئاسة النظارة لمدة ثلاثة أيام «١٥ - ١٨ يناير عام ١٨٩٣» إذ إن «كرومر» اعتبر هذا القرار أمرًا خطيرًا للغاية، وأرسلت بريطانيا مذكرة بهذا المعنى، وأرسل «كرومر» قوات بريطانية حاصرت المطبعة لمنع نشر مراسيم تشكيل الوزارة وقدم إنذارًا إلى «عباس»: «أن الحكومة البريطانية تنتظر أن يؤخذ رأيها فى المسائل الخطيرة مثل مسألة تغيير النظارة، لذلك لا تستطيع الحكومة البريطانية أن توافق على تعيين حسين فخرى باشا» وأرسل الخديو رسالة إلى كرومر «أنه يرغب رغبة شديدة فى أن يوجه عنايته لإيجاد أصدق العلاقات الودية مع إنجلترا . . وصدر تشكيل نظارة جديدة فى ١٩ يناير عام ١٨٩٣ برئاسة «رياض باشا» وعام ١٩٠٦ حدث الخلاف الإنجليزى التركى حول «طابا»، ووقفت إنجلترا إلى جانب حق مصر فى طابا نكاية فى تركيا، وكان «كرومر» يهدد «الخديو عباس الثانى» بقوله: «إذا ما رفعت أصبعى الصغير يمكننى أن أجعل الأسطول البريطانى يأتى من مالطة إلى الإسكندرية»، وغادر كرومر مصر عام ١٩٠٧م. وجاء «السير الدون جورست» وكان أكثر دبلوماسية وتعلم فى وزارة الخارجية وكان «عباس» يحاول أن يأخذ منه ما يمكن

أخذه إلى أن سافر «جورست» عام ١٩١١ إلى إنجلترا ليتوفى هناك، أما «اللورد كتشنر» فقد زاد الانشقاق بينه وبين الخديو وتوفى كتشنر فى البحر فى ٥ يونيو عام ١٩١٦.. بعد خلع عباس من العرش.

وقائع الحياة:

نشأ على الحب العميق لمصر، والإيمان الدينى الصادق، ولد يوم ١٤ يوليو عام ١٨٧٣ فى سراى نمرة ٣ بالإسكندرية والذى شغلته فيما بعد كلية الآداب جامعة الإسكندرية بعدة سنوات و«كان والدى توفيق والدا حقيقيا بالنسبة لأبنائه، وكانت والدتى الخير الأكثر قدرة للجميع» مرت طفولته من ١٨٧٤ ـ ١٨٨٠ فى حريم البيت تعلم اللغتين التركية والإنجليزية، وتعلم فى مدرسة بجوار قصر عابدين، والتحق بمدارس سويسرا ١٨٨٣ ـ ١٨٨٧ ثم التحق بالأكاديمية فى فيينا، وفى يوم ٧ يناير عام ١٨٩٢ توفى والده فى قصره بحلوان، ووضع الإمبراطور جوزيف إحدى سفن النمسا تحت تصرفه، ووصل إلى مصر، وحدث كل ما عرضنا له آنفا، ومن حقه علينا أن نسجل توجهه إلى الجيش بعد الإحباط الأول فى تشكيل نظارة «حسين فخرى» «وفى خلال ستة أشهر تمكنت من أن أنظم عملى بطريقة جعلتنى أشرف فعليًا على نظارة الحربية»، وكان له دور مهم فى إنشاء الجامعة المصرية وفى ديسمبر عام ١٩٠٨ أعلن «باسم الله مصدر كل العلوم أعلن افتتاح الجامعة متمنيًا أن تكون قادرة على إفادة كل الطلاب دون تمييز بالنسبة لجنسيتهم أو دينهم»، وصدرت فى عهده صحف «اللواء والعلم والشعب والأهالى والجريدة» وافتتح نادى المدارس العليا تجمعًا للطلاب الوطنيين، وبالاتفاق مع «جورست» أصدر قرارًا بالعفو عن المسجونين فى حادث دنشواى، ويؤكد هو أنه صاحب فكرة بناء سد أسوان عام ١٩٠٢، وأنه هو الذى وقع المرسوم الخاص بإلغاء السخرة، وفى حدود خبراته وظروفه سارت خطاه على درب الحكم يتقدم ويتأخر وكتب سطور فترة حكمه بيده يقول: (فى شهر مايو عام ١٩١٤ تركت مصر لأقضى عطلتى الصيفية المعتادة وأنا أجهل ما يخبئه لى المستقبل، وذهبت إلى أراض إسلامية لكى أحظى بصيام شهر رمضان، وحين خرجت من زيارة الباب العالى تعرضت لمحاولة اغتيال، قام بها

«محمود مظهر»، ويقال إن «عبد العزيز جاويش هو الذى حرض مظهر! وفى ١٩ ديسمبر عام ١٩١٤ فرضت الحماية على مصر، وتقرر منعى من دخول البلاد»، وتوفى إلى رحمة الله فى چنيف عام ١٩٤٤.

الأسانيد:

١ - سعد زغلول . . «مذكرات» تحقيق د. عبد العظيم رمضان.

٢ - عباس حلمى الثانى «مذكرات» ترجمة د. جلال يحيى.

٣ - محمد فريد «ذكرياتى بعد الهجرة».

٤ - مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر: «أوراق مصطفى كامل».

شــــكرى عيـــــاد



تبارى الأدباء والباحثون فى مصر وخارج مصر فى الكشف عن الصفات التى تميز بها المثقف المصرى الأصيل «الدكتور شكرى عياد» طوال الأيام الأربعين منذ رحيله صباح الجمعة ٢٣ يوليو إلى يوم نشر مقالنا هذا . . وتوقفت عند ما كتبه عنه الشاعر الكبير أحمد عبد المعطى حجازى ووصفه بأنه «لم يكن إلا شاعراً» وأكتب هنا بعد تعديل يسير لهذا العنوان وأقول إنه . . «لم يكن إلا مصريًا» فمصريته كانت فى سلوكه وصفاته وأخلاقياته وتفكيره ومواقفه وأعماله .

أطل علينا من جريدة «المصرى» جريدة المثقفين الوطنيين على اختلاف توجهاتهم الفكرية واهتماماتهم الثقافية . . «شكرى عياد ود . محمد مندور وعبد الرحمن الخميسى وزكريا الحجاوى وعبد الرحمن الشرقاوى وعبد العظيم أنيس ومحمود عبد المنعم مراد ومحمود أمين العالم وسعد مكاوى وفتحى غانم ، وكان «شكرى عياد» لم يزل فى ذاكرة جيلنا عندما أعلن العسكر اكتشاف مؤامرة لقلب نظام الحكم يقودها صف ضابط أو صول أو شىء من هذا القبيل يدعى «رأفت شلبى» ، وإذ بهذا الصول غير متماسك الذهن ولا طلع ولا نزل ، وقيل إنه خال «الدكتور شكرى عياد» وإذا بشكرى عياد يقابل الموضوع كله بهدوء ورصانة وبابتسامات ساخرة . واتضح فى مقتبل الأيام أن حكايات المؤامرات لقلب نظام الحكم هى من ابتداع العسكر يخيفون بها الفئات المختلفة من الشعب . . هكذا كان إعدام «خميس والبقرى» من العمال والحكم بالسجن على واحد من الملاك أو كبار الملاك فى صعيد مصر «عدلى صالح الملوم» بحجة أنه ركب حصانه وجرى به فى شوارع مغاغة!

وعندما أرادوا إلغاء نظام القضاء الشرعى . . أعلنوا عن قضية «الشيخ سيف» و«الشيخ الفيل» . وعندما أرادوا توجيه ضربة للإخوان المسلمين، مهدوا لذلك بالحكم ظلمًا على «محمد فؤاد سراج الدين باشا» بخمس عشرة سنة .

وقد شرفت وسعدت بالعمل مع «الدكتور شكرى عياد» على مدى ثلاثة أعوام تقريبًا عندما كنت مديرًا لإدارة السلاسل الدورية وغير الدورية بمؤسسة التأليف والنشر، واتفقت كلمة الدكتورة سهير القلماوى وصلاح عبد الصبور «على اختيار الدكتور شكرى مشرفًا على سلسلة «المكتبة الثقافية»، واستلزم هذا اجتماعًا مشتركًا بينه وبينى مرة كل أسبوع . ووجدت فيه مثقفًا مصريًا وطنيًا واعيًا ناضجًا يسعد كل من اقترب منه وتعرف إليه .

كان اسمه الكامل «الدكتور عبد الفتاح شكرى محمد عياد» اختصره ببساطة إلى الاسم الذى عرف به على امتداد ستين عامًا وهو «شكرى عياد» قال لى خاله الثانى «الشيخ عبد الفتاح شلبى» والذى كان يطلق على نفسه «شيخ الزجالين» قال لى . . إن الدكتور شكرى عياد لم يكن يهتم بالشكليات . . المهم دائمًا عنده الأمور فى جوهرها . . وأنه أى «الشيخ عبد الفتاح» حاول معه أن يبقى على اسمه مسبوقًا باسم «عبد الفتاح» أو أن يختصر الاسم إلى «شكرى محمد عياد» وكان «د. شكرى» يبتسم ويقول . . لا أهتم بشكليات ترضى بعض الناس ولكننى أهتم بالجوهر الذى ينفع الناس . وأنه سوف يستخدم الاسم كيفما اتفق دون عقد أو تعقيد .

وكان فى فترة من حياته قد ارتبط بجماعة الخبز والحرية وجماعة أصدقاء الأدب الروسى حسب اقتناعه الأدبى والثقافى . . وفوجئ وهو يحاول السفر للعربية السعودية بسبب هذه الجزئية فى حياته . . وقد وافقت السعودية على عمله عندها بعد تدخل عدد من الأساتذة الأفاضل الذين تثق فيهم دوائر السعودية . وقد وجدت الأوساط الثقافية السعودية فى «الدكتور شكرى عياد» عربيا مخلصًا لعروبته ومسلمًا حسن إسلامه وانتهى بهم الأمر أن منحوه عام ١٩٩١ «جائزة الملك فيصل للأدب العربى» .

بين الشك واليقين:

عرف «الدكتور شكرى عياد» بين زملائه وتلاميذه بصفاء الطبع وكرم الخلق والوفاء النادر والتواضع الجم، وفى صباه وشبابه وقع فى عنكبوت الشك شأنه فى ذلك شأن كثير من الناشئين الذين يمرون بأطوار المراهقة وبتطور العمر وتزايد قدر المعرفة الذى تم تحصيله مر بمرحلة وسط . . وأدرك حسبما سجله أننا نعيش مثل أساتذتنا فى التاريخ ولا نملك إلا منظور عصرنا وبيئتنا، وقد كان جيل أساتذتنا قد بدأ يشعر باغترابه شعوراً جاداً قبل الحرب العالمية الثانية. ثم دهمتنا الماركسية والوجودية ورأينا من البلاهة أن نتحدث عن الثقافة الأوروبية كما لو كانت واحداً متجانساً. وأصبح لدينا يقين واحد هو اليقين بنسبة كل شىء. وقبل أن نعرف شيئًا عن الأساس المنهجى للوجودية الذى يضع على عاتق الفكر عبئًا كبيراً فى صياغة واقعه. كان البحث عن ذاتيتنا المفتقدة يملؤنا إحساساً بالمأزق الحضارى الذى نعيش فيه ويدفعنا إلى البحث فى تراثنا بروح جديدة.

وجاءت أفكاره التى تعبر عن «اليقين» فى مقالات مختلفة وفى كتب صغيرة: «الدين والعلم والمجتمع - وتطبيق الشريعة وصياغة الحاضر - ونحن والغرب».

على أية حال لقد بدأ «شاكا»، وانتهى مؤمنا راسخ الإيمان على طريقة آبائه وأجداده الفلاحين الذين يعودون إلى تراث السلف يجدون فيه الطمأنينة ويلقون بأحمالهم على الرحمن الرحيم. باختصار آمن كما قال «الغزالى» آمنت كما يؤمن العوام!

الأساتذة والزملاء:

والصفات العلمية والخلقية التى تميز بها «شكرى عياد» ليست نبتا شيطانيًا، ولكن لها أصول وفروع، تلقى دروسه على الرعيل الأول من البنائين العظام. . طه حسين وأحمد أمين وأحمد الشايب وعبد الوهاب عزام. وأمين الخولى، وعلى أيدى أستاذه «الخولى» أعد مشروع الماجستير، ولكن «الشيخ أمين الخولى» تم نقله للعمل خارج الجامعة عام ١٩٥٤م فى سياق قرارات ما أسموه بـ«التطهير»، وقد

أرسى الشيخ «الخولى» أسس الجماعة التى عرفت بـ «الأمناء»، وتولى «د. شكرى عياد» شئون «جماعة الأمناء» بعد شيخهم «أمين الخولى» عام ١٩٦٦م.

وتخرج «شكرى عياد» عام ١٩٤٠م فى دفعة أعضاؤها «السيد محمود الشنيطى وعبد الحميد يونس ومحمود عبد المنعم مراد ومحمود سامى أحمد»، وهى دفعة أعطى أعضاؤها الكثير لمصر والثقافة المصرية، ولا تستطيع أن تميز أحدهم على الآخرين، وهم جميعًا خريجو «قسم اللغة العربية» من جامعة فؤاد الأول - كلية الآداب. ويبدو أن هذا القسم سيئ الحظ ففقد عدداً من أبنائه المتميزين، رحل «د. عبد العزيز الأهوانى» فى مطلع الثمانينيات، ورحل «د. عبد المحسن طه بدر» فى أوائل التسعينيات وها هو «د. شكرى عياد» يرحل فى التسعينيات.

العيش على الحافة:

هو من مواليد عام ١٩٢١ بكفر شنوان - محافظة المنوفية، ولد لأسرة تعيش عيشة الكفاف، أو على تعبيره فى سيرته الذاتية «العيش على الحافة» كان والده مدرس اللغة العربية والدين فى مدرسة المساعى المشكورة الابتدائية بأشمون، وكان الوالد «قاسيًا» والأم «معذورة»، وبعد أن مات والده باعت الأسرة البيت الذى تملكه للصرف على نفقات تعليم «شكرى وانتقلت الأسرة إلى القاهرة حيث التحق «شكرى» بقسم اللغة العربية - جامعة فؤاد الأول. وأقام الطالب «شكرى محمد عياد» فى الحى الشعبى القريب من الجامعة - بين السرايات.

كانت النشأة الأولى بين أب وأم «لم يشعر بالانتماء إليهما» بين أم وضرة الأم «الزوجة الأولى للأب»، وكما يقول «لم يعرف فيها الطفل الأبوة أو الأمومة، الأم عناد وسيطرة وغرور».

وكان الأب أزهريًا وقوراً يحب الأدب ويكتب الشعر. . حزن «شكرى» لموته وظل حزينًا لسنوات طويلة لأنه سبقه بالموت قبل أن يعيد إليه ابنه «شكرى» كبرياءه.

وهذه الظروف خلقت منه رجلا شجاعًا، صاحب تكوين أخلاقى بالغ الصلابة، والأمان والنزاهة والاستقامة الفكرية والشخصية ميالا للعزلة والاعتكاف

حريصًا على الابتعاد عن المناصب الرسمية، وتشبه بالفلاح المصرى الأصيل. . يريد أن يحرث الأرض ويزرعها فى هدوء وصبر ولا يطيق العمل فى الزحام والضجيج، ولم يحاول أن يخوض غمار السياسة العملية لأن السياسة مليئة بالعواصف والتقلبات والمناورات والقوى الخفية، وهو حريص دائمًا على كرامته واحترام نفسه واحترام الآخرين، وأصبح رجلا من أطهر الناس وأكثرهم صفاء وإنسانية ومثلاً أعلى فى الاجتهاد والأخلاق، وامتلأت حياته مثل ملايين المصريين بالمخاوف والمكاره، ووقف كثيراً على حافة العوز والمرض والجنون أحيانًا، ولكنه تعلم أن الاعتدال حتى فى العاطفة الدينية يجعله أقرب إلى الله والصبر إلى درجة عالية والتصرف فى كثير من الأحوال، ولكنه تمتع بذكاء حاد وثقافة واسعة.

وكان من الطبيعى أن يسيطر عليه شعور بأنه مطارد فى هذه الحياة مطارد من الفقر ومن الجنون ومن الناس. . كتب فى قصته «المطارد» يصف نفسه وهو جالس فى الترام. . وسيلة المواصلات لعامة الناس ومنهم «شكرى عياد» . . وأمامه اثنان فى العربة الثانية. . (هذان الجالسان فى العربة الثانية - الترام - أشبه بصورتين لشخص واحد. . المعطف الأسود نفسه. . السمرة المعتمة نفسها. . السحنة الصارمة نفسها . . الشارب الهتلرى القصير نفسه . . والعجيب أن الطابع واحد. . وأعجب من هذا أن عيونهما الأربعة. . تنظر إليه). صورة طريفة كتبها «شكرى عياد» لمخبرى ذلك الزمان.

القفز على الأشواك:

إذا كانت قصته «المطارد» يعبر عنوانها عما كان يشعر به «شكرى عياد» أو أمثال شكرى عياد الذين يتعرضون للرصد والمتابعة لمواقفهم الشريفة، فإن سيرته الذاتية أعطاها عنوان «العيش على الحافة» الذى استعرناه للفقرة السابقة، فإنه بدأ يكتب فى مجلة «الهلال» مقاله الشهرى بعنوان «القفز على الأشواك» . . ولقد مشى شكرى عياد على الأشواك أو اضطره زمانه للمشى على الأشواك. ورغم هذا كله فقد قفز على الأشواك خطوة خطوة شكلت فى النهاية عناصر الحياة العلمية والعملية للدكتور شكرى محمد عياد.

ولد عام ١٩٢١م بعد ثورة ١٩١٩ بعامين، وقبل ثورة طه حسين فى الشعر الجاهلى بأربع سنوات، وتخرج ـ كما أسلفنا ـ فى قسم اللغة العربية عام ١٩٤٠م. وحصل على دبلوم معهد التربية عام ١٩٤٢م، وحصل على الماجستير عام ١٩٤٨م وموضوعها «وصف يوم الدين والحساب فى القرآن الكريم» وحصل على الدكتوراه عام ١٩٥٣م وهى عن: «تحقيق ترجمة حنين بن إسحق لكتاب أرسطو فى فن الشعر» مع ترجمة عربية جديدة. واشتغل بالتدريس فى مدارس وزارة المعارف ثم جامعات القاهرة والجزائر والمملكة العربية السعودية. انضم لهيئة التدريس بقسم اللغة العربية كلية الآداب جامعة فؤاد الأول عام ١٩٥٤. وتدرج حتى أصبح أستاذاً بقسم اللغة العربية عام ١٩٦٨. واختير عميداً لمعهد الفنون المسرحية عام ١٩٦٩م. وأصبح وكيلاً لكلية آداب القاهرة عام ١٩٧١م.

اشتغل بالتعليم الابتدائى فى مدرسة المساعى المشكورة بعد حصوله على دبلوم معهد التربية عام ١٩٤٢ وبعدها عمل محرراً بمجمع اللغة العربية عام ١٩٤٥، وأصبح مستشاراً ثقافيًا لمصر فى سفارة مصر بريودى جانيرو «سبتمبر عام ١٩٦٢ ـ ديسمبر عام ١٩٦٤». وسافر إلى بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية والسودان والعربية السعودية. وكان من أكبر الوجوه النقدية فى العالم العربى وأكثرها احتراماً.

المصابيح المضيئة:

بعد رحلة طويلة قرر عام ١٩٧٧م أن يتفرغ للكتابة، فاستقال من كل الأعمال التى يتولاها. وفتح الله عليه بشىء من اليسر وحصل على جائزة الكويت للتقدم العلمى، وجائزة الملك فيصل عام ١٩٩١م، وكان قد أصدر أكثر من ٤٠ كتاباً آخرها كتابه «مصر.. نظرات نحو المستقبل». كون داراً أو بالأحرى مكتبًا للنشر بعنوان «أصدقاء الكتاب» ولم يكن مشروعًا تجاريًا يسعى للربح، فقام بنشر كتبه هو نفسه. وكون جماعة «أصدقاء النداء» الغرض منها إصدار مجلة باسم «النداء» لا ترتبط بأية جهة رسمية. قام بإصدار ثلاثة أعداد تمهيدية والتى تعرف فى الصحافة باسم «أعداد الصفر». ولم يصرح له بإصدار المجلة.. هو لا يعرف لذلك سببًا

وزملاؤه وأصدقاؤه لا يعرفون سببًا لعدم التصريح بمجلة ثقافية يصدرها مثقف لا يرتبط بأية جهة رسمية وواحد من المخلصين لثقافة هذه الأمة الزاهدين فى المناصب والمنصرفين عن التقرب من ذوى السلطان. وكتب يوضح نفسه والمؤيدين له . . المثقفون الحقيقيون مصابيح فى وجه الظلام. . ونحن جميعًا لا نمسك سلاحًا وأكثرنا لا يعرفون كيف يمسكون سلاحًا، ولا قوة لنا، ولا شجاعة أيضًا إلا أن نقول الحقيقة، ونحرص على تراث أهلنا ونخاف على مستقبل أبنائنا وأحفادنا.

ومع هذا كله لم يصرحوا له بإصدار المجلة . . لماذا؟ لا أحد يدرى سوى أنه انتقل بالمثقف من «بلاط السلطان» إلى شارع المجتمع. ورحل فى ٢٣ يوليو ١٩٩٩ متمتعًا بالنزاهة الخلقية والأمانة الفكرية وعزة النفس المصرية والالتزام الاجتماعى فى الفكر والأدب. وفتح بيته لتلاميذه وأصدقائه للقاء فى «صالون الثلاثاء».

التلميذ النجيب:

قلنا إنه كان تلميذًا لجيل عظيم من الأساتذة «طه حسين وأمين الخولى وأحمد الشايب وعبد الوهاب عزام» ولكنه تفرد بقدرات. . كان عاشقًا للنحو وأستاذًا فى كل صوره، كما يصنع النحات الملهم بالصلصال الذى يكون بين أصابعه. وإلى جانب، إتقانه للغة العربية أتقن اللغة الإنجليزية حتى صار قادرًا على أن يترجم منها بيسر وأمانة وجمال، كما فعل فيما ترجمه من قصص الشاعر الهندى «رابندرانات طاغور» وروايات تورجنيف ومقالات «تى. سى. أليون». وأصبح قادرًا على القراءة بالفرنسية. وتوافر على تعلم اللغة اليونانية القديمة حتى استطاع أن يترجم منها إلى العربية كتاب أرسطو «فن الشعر».

وقدم للمثقفين العرب عددًا من «الدراسات النقدية». . البطل فى الأدب والأساطير ١٩٥٩، وطاغور شاعر الحب والسلام ١٩٦١، وموسيقى الشعر العربى ١٩٦٨، ومدخل إلى علم الأسلوب ١٩٨٥، كان تلميذًا مخلصًا للشيخ أمين الخولى مؤسس جماعة الأمناء، وانضم «شكرى عياد» إلى الأمناء، ثم اختير للإشراف على الجماعة عام ١٩٦٦.

كان حريصًا على «الليبرالية المصرية» مناهضًا للأشكال الدكتاتورية فى الحكم. كتب عن فترة مهمة من تاريخ السياسة فى مصر من ٣٣-١٩٤٢: كان العقد عقد الدكتاتورية. . محمد محمود وإسماعيل صدقى، وكان عقد التضييق على الصحافة الوطنية. وتراجع الليبراليون الكبار وانصرفوا إلى الكتابة فى الإسلاميات، وازدهرت جماعة الإخوان المسلمين وغيرها من الفرق الدينية وتشكيلاتهم العسكرية.

وقد أصبح «التلميذ النجيب» أحد رواد ثلاثة فى تطوير حركة التفسير الدينى من الناحية الأدبية على وجه غير مسبوق وهم: الدكتورة عائشة عبد الرحمن والدكتور محمد أحمد خلف الله والدكتور شكرى محمد عياد.

وقال ليحدد موقفه من التيارات الفكرية المختلفة: لقد انتهى «عصر النظريات الكلية» التى تحاول أن تفسر كل شىء من السياسة إلى الفن. وصدق عليه قول «محمد مستجاب»: كان هذا «المصرى» شعبًا يمور ويدور ويتفاعل داخل كيان فرد قوى طيب.

الأمن الحقيقى:

كان له تعريف لا أعتقد أن أحدًا من جيله قد سبقه إليه. . كان يقول «إن المعرفة هى الأمن الحقيقى» تشبهًا بما قاله «سقراط». . المعرفة هى الفضيلة. ومن أجل هذه «المعرفة» التى تؤدى إلى «الأمن الحقيقى» صدر له «تجارب فى الأدب والنقد» و«الأدب فى عالم متغير» و«دائرة الإبداع» ٣ أجزاء، و«اللغة والإبداع» وصدر له ٦ مجموعات قصصية ورواية واحدة «طائر الفردوس». . ومجموعة عن القصائد نظمها فى صدر شبابه و«تجارب فى الأدب والنقد» و«الحضارة العربية» و«الأدب فى عالم متغير» و«بين الفلسفة والنقد» و«أزمة الشعر المعاصر». أما فى مجال الترجمة فقد أشرنا فى بداية السياق إلى بعضها ونضيف إليها: «اعتراف منتصف الليل» لجورج ديهاميل، و«المقامر لديستويفسكى» و«البيت والعالم» لطاغور، و«نصوص مختارة لتولستوى» و«الكاتب وعالمه» لتشارلز مورجان و«نحو تعريف الثقافة» لتولستوى.

لقد عمل «شكرى عياد» على توظيف علمه وثقافته ومعارفه لخدمة شعبه ووطنه وظل بعيداً عن شهوة السلطة وباراً بأهله الفلاحين الذين دعا من أجلهم إلى إغلاق الجامعات والنزول إلى القرى لمحو الأمية .

الأسانيد:

١ ـ أحمد عبد المعطى حجازى . . جريدة الأهرام ٤/٨/١٩٩٩ .

٢ ـ رجاء النقاش . . جريدة الأهرام ٢٥/٧/١٩٩٩ .

٣ ـ د. شكرى عياد . . العيش على الحافة ـ نحن والغرب ـ الدين والعلم والمجتمع .

٤ ـ وائل عبد الفتاح . . أخبار الأدب ١/٨/١٩٩٩ .

الدكتور جمال حمدان



فى معرض القاهرة الدولى للكتاب، الفترة من «٢٦ يناير - ٧ فبراير ١٩٩٣» كان موعدى مع ندوات «كاتب وكتاب» الأثيرة إلى نفسى والتى كنت أشرف عليها وأعد لها وأقوم بإدارتها بل وأغار عليها أيضًا، وكانت ندوات ذلك العام هى آخر ندوات لى إذ إننى قدمت استقالتى من عملى بهيئة الكتاب فى ديسمبر من عام ١٩٩٣م.

واخترت لندوة يوم الخميس ٢٨ يناير عام ١٩٩٣، السفر العلمى الجغرافى الجيولوجى الاقتصادى بل والسياسى أيضًا.. «شخصية مصر» للعالم العبقرى «الدكتور جمال حمدان» ودعوت للحوار معه العالمين الجليلين الصديقين لى ولجمال حمدان.. الدكتور رشدى سعيد والدكتور محمد عبد الفتاح القصاص.

وكانت المهمة الصعبة أمامى هى خروج «د. حمدان» من صومعته، المنفى الاختيارى له منذ أواسط الستينيات، وطمأننى «د. رشدى سعيد» إلى صداقته الحميمة للدكتور حمدان وأنه - أى الدكتور حمدان - يسعده طبعًا مشاركة الدكتور القصاص والدكتور رشدى فى هذه الندوة، وقامت دار «عالم الكتب» وهى الدار الناشرة «لشخصية مصر» وأعمال أخرى للدكتور حمدان، قامت بإرسال العمل موضوع الندوة للمحاورين وتكفلت بابلاغ وإقناع «الدكتور حمدان».

ووجدت أمامى الناشر الواعد «أشرف يوسف عبد الرحمن» ابن زميلنا الناشر «يوسف عبد الرحمن» - رحمه الله - وكنت قد عرفت أنه الوحيد المسموح له بدخول صومعة «د. جمال حمدان» لتبادل أصول الكتب وتجاربها، وأيضًا بشأن المعاملات

المادية، وأعطيت «أشرف» خطابا مناسبًا منى للدكتور جمال حمدان وقام بتسليمه له، ولم يحضر المترهب للعلم د. حمدان وتفهم جمهور «الندوة الظروف وأعطيناه حقه فى الحديث عنه وعن عمله الكبير، وفي ١٧ أبريل من عام ١٩٩٣ جاء خبر وفاته فى حادث مأساوى وغامض، وعندما عملت بعدها مستشاراً للنشر بالمجلس الأعلى للثقافة فوجئت بزميله بإدارة النشر «ليلى الزينى» تخبرنى بأن «د. حمدان» خالها، وقدمت لى الخطاب الذى كنت قد أرسلته إليه مع «أشرف عبد الرحمن». . ياه! تبقى الورقة ويذهب العبقرى «الدكتور جمال حمدان»، وعند فحص مكتبه وأوراقه يجد أقاربه خطابى فيعيدونه لى.

هيرودوت المؤرخ اليونانى الذى زار مصر واختصر تاريخنا وجغرافيتها بعبارته الشهيرة «مصر هبة النيل»، والعالم «أينشتين» حاول أن يختزل الكون كله فى معادلة رياضية واحدة، والمؤرخ الحافظ «جلال الدين السيوطى» أدلى بدلوه فى جغرافية مصر فى عمله «من المحاضرة»: (النيل إذا تناهى مدة وغشى الأرض أحدق بالقرى فأصبح كأنه سماوات كواكبها الضياع) وأجمل «المسعودى» ما رآه: (صارت القرى كالنجوم فوق الروابى والتلال)، ولا أظن أن «هيرودوت» ومن جاء بعده حين كتبوا عن جغرافية مصر، وعن نهر النيل، كانوا فى بلاغة «د. محمد عوض محمد» حين حبب إلينا تضاريس مصر ونيلها بأسلوبه الأدبى الرفيع، ولا فى تمكن «د. محمد صبحى عبد الحكيم» من اللغة العربية وقواعدها حين يتحدث فى الجغرافيا ومشكلات السكان، وجاء «الدكتور جمال حمدان» يختصر جغرافية مصر وتاريخها البشرى والسكانى والحضارى والاقتصادى بل والسياسى أيضًا فى عبارة عبقرية تحت عنوان «عبقرية الزمان والمكان»، ويحرص على جمال اللغة العربية وما فيها من تشبيه واستعارة وكناية وجناس وطباق فى السرد العام أو حتى فى الجمل الاعتراضية.

بحر من المعلومات:

وأنت إذ تطالع إحدى مجموعات (شخصية مصر) والتى صدرت فى أربعة مجلدات ضخمة، وتضم حوالى (٤٠٠٠ صفحة) ليبهرك هذا العدد الوفير من

المصادر العربية والأجنبية التى استند إليها غير البحوث والدراسات والمقالات التى أفاد منها مما تجده فى حواشى الصفحات المختلفة وليس مجرد سرد لمراجع لم يرجع إليها، ولكنه يذكر اسم المؤلف واسم المصدر ويشير إلى أرقام الصفحات، والطبعة التى أمامى صدر الجزء الأول منها عام ١٩٨٠، والجزء الثانى عام ١٩٨١، والجزء الثالث يناير عام ١٩٨٤، والجزء الرابع فى يوليو عام ١٩٨٤، وإذا أخذنا الجزء الرابع كنموذج لفيض المصادر التى لجأ إليها هذا «الزاهد المترهب» للعلم لوجدنا مصادره ٢٤٥ مصدراً باللغة العربية و٧٩١ مصدراً باللغات الأجنبية وعشرات من المقالات وهذه كلها سجلها بدقة وأمانة فى الحاشيات وفى آخر الكتاب، وكان له حق إذن أن يدخل صومعته ويغلق على نفسه ولا يرد على أحد ولم يتزوج إذ نذر نفسه وعبقريته للبحث والدرس والكتابة لإصدار هذه الأعمال التى تبقى للناس، ظل فترة قصيرة يقابل «أحمد بهاء الدين» وبعدها عاد إلى انفراده لنفسه لا يفتح الباب إلا للبواب لأمور الإعاشة اليومية، وإلا لصاحب دار «عالم الكتب» «يوسف عبد الرحمن» وإلا لابنه «أشرف عبد الرحمن» لأمور تتعلق بالنشر وما يستلزمه.

الجرأة والتجرد:

حصل «جمال حمدان» على الليسانس من كلية الآداب - بجامعة فؤاد الأول عام ١٩٤٨ وعنده من العمر عشرون عاما (ولد فى ٤ فبراير عام ١٩٢٨ - محافظة القليوبية) ثم حصل على دكتوراه الفلسفة فى الجغرافيا - جامعة ريدنج عام ١٩٥٣. وأصبح معيداً بقسم الجغرافيا فى العام نفسه، وبدأ يترقى فى سلك التدريس الجامعى، وفى شتاء عام ١٩٥٨م أعلنت الوحدة بين مصر وسوريا، وتم إعلان قيام الجمهورية العربية المتحدة، وفى خريف عام ١٩٦١ وقع الانفصال، ولم يكن «جمال حمدان» مثلما كان غيره من أعضاء هيئة التدريس الذين يدورون فى فلك «النظام»، ويعملون لحسابه ويتدرجون فى تنظيماته، احتفظ باستقلالية رأيه ووقف «النظام» فى وجه حقه العلمى والأدبى والوظيفى، وقرب «النظام» عناصره إليه وأغدق عليهم فى المراتب التنفيذية.

على أية حال فإنه كان يرى أن اسم «الجمهورية العربية المتحدة» هو مجرد اسم

سياسى لا يستطيع أن يستمر أمام اسم «مصر» الذى هو اسم جغرافى منذ «مصرايم» وكذلك الأمر فى اسم «سوريا» اسم جغرافى منذ عصر «الأشوريين»، وهى كاسم كوكبنا «الأرض» واسم نهرنا «النيل».

ولهذا لم يكن غريبًا أن يعود اسم «مصر» إلى مصر، ويعود اسم «سوريا» إلى سوريا، وكان ينتقد إصرار بعض المثقفين الوحدويين على محو كل مظاهر الاختلاف الطبيعى بين إقليمى الوحدة، حتى الحقائق الجيولوجية والأسماء الجغرافية، ويرى أن هذه محاولات فجة لإثبات الوحدة بين الإقليمين من خلال إبراز التشابه مثلا بين الصخور والطبقات الجيولوجية! وابتعد عن الجدل الفكرى حول التسميات الطبيعية التى وجدت منذ فجر التاريخ «سوريا ومصر» وأسموها «الجمهورية العربية المتحدة»، وبهذه المناسبة كان «د. حسين فوزى» عندما يسافر إلى الخارج وأمام خانة البلد القادم منها كان يكتب «القاهرة»، ولم يكن يكتب «الجمهورية العربية المتحدة»، على أية حال كانت هناك مواجهة بين «النظام» وبين أمس أستاذ عبقرى لم يأخذ ما يستحق هو «الدكتور جمال حمدان».

الوطنية والقومية:

ووجه النقد إلى أكبر غلطة ارتكبها من أسماهم «صليبيو» القومية من المثقفين التقدميين ومبالغتهم فى تسويد «القومية» وتغليبها على «الوطنية» إلى حد محو الأخيرة، ورأى الفصل فى ترجيح «القومية» على «الوطنية»، أو فى ترجيح «الوطنية» على «القومية»، وعنده . . لا تناقض بين الوطنية والقومية وليست هناك ازدواجية بينهما وإنما هناك ثنائية متكاملة.

والواقع أن على القومية أن تخدم الوطنية وتقرها بمثل ما إن على الوطنية أن تعترف بالقومية وتقر بها، والطريق الصحيح إلى القومية إنما يبدأ من الوطنية . . يغذيها ولا يغزوها.

فى البدء كانت الوطنية ثم اتسعت وامتدت إلى القومية، والإنسان لا يمكن أن يكون وحدويا طيبًا دون أن يكون وطنيًا بارًا جيدًا، وكما أن أكثر الأعمال عالمية فى

الفن هى أكثرها محلية، فلعل أشد الناس وطنية هو وحده الذى يمكن أن يكون أشدهم قومية.

العالم الوطنى البار:

ولكن العالم الوطنى البار وجد نفسه يسير فى طريق مسدود، أو وجد الطريق مسدودا أمامه مع سبق الإصرار والترصد، ولم يجد أمامه سوى أن يقدم استقالته من الجامعة عام ١٩٦٣، وكان عمره وقت ذاك «٣٥ عامًا»، وعزف عن الزواج وعن الزملاء والصحاب وانفرد بآلاف الكتب الأجنبية والعربية وأخذ ينهل منها ويفرز ما تجود به عبقريته على الورق ويصدر للقراء روائعه العبقرية، لم يكن يريد من أحد شيئًا، لم يكن يريد من النظام شيئًا، لم يكن المال أو الجاه قضاياه، كان يريد أن يقدم تفسيرا جديدا لما يحدث فى بلده مصر.

اهتز كما اهتز غيره من المثقفين على إثر هزيمة ٥ يونيو عام ١٩٦٧، وبدأ ينظر تاريخيا وجغرافيا واقتصاديا وبشريا وسياسيا فى «شخصية مصر» مشروع العمر، كتب الجزء الأول فى عهد جمال عبد الناصر ونشره فى عهد أنور السادات، كتب عن «الحاكم المصرى»، وربما كان يرد على ما جرى له حتى عام استقالته ١٩٦٣، وما جرى فى داخله كمثقف فى يونية عام ١٩٦٧ على أية حال كتب - رحمه الله - يقول فى «الجزء الأول طبعة ١٩٠ ص ٢٩». . الغريب المؤسف أن الشعب المخدوع نصف الجاهل قد يستأسد ويبطش بابنه الناقد الوطنى الذى يحب له الخير والسيادة، فيسلمه لسوط الجلاد وذلك بالقدر نفسه الذى يخضع فيه ويستكين، «واضح أنه كان يتكلم عن نفسه».

وفى النهاية يجد الناقد المثقف المفكر الوطنى نفسه محاصرا بين قوسين من الإرهاب والترويع الفكرى والجسدى. . بين الطاغية من جهة وبين الشعب المكبل المتهور المغلوب على أمره من جهة أخرى.

القاعدة تقريبا - منذ الفراعنة - أن الحاكم يزعم أننا نعيش فى عصر أروع وأمجد فترة فى تاريخنا وحياتنا بلا استفتاء، كل عصر عند صاحبه هو وحده عصره

الذهبى، وتلك نغمة أزلية وبضاعة مزجاة يكررها الحاكم منذ الفراعنة فى نقوشهم وسجلاتهم الهيروغليفية وعلى جدران الآثار.

وبالنظرية والتطبيق، بالوراثة والممارسة، يتوهم «الفرعون» أن مصر ملك له. . ضيعته أو قريته الكبرى، هو الدولة وهو الوطن، والولاء للوطن هو الولاء للنظام وحده، ويعتبر أن كل نقد يوجه لمصر إنما هو موجه إليه شخصيا، وبالتالى فهو خيانة عظمى.

الإنتاج العلمى الغزير:

بكل المقاييس كان رحيل «الدكتور جمال حمدان» عن دنيانا خسارة للثقافة العربية بعامة وللثقافة المصرية بخاصة. وفيما يلى ثبت بغالبية ما تركه للمكتبة: دراسات فى العالم العربى عام ١٩٥٨ - نمو توزيع السكان فى مصر ٥٩ - أنماط من البيئات ٥٩ - جغرافية المدن ٦١ - تخطيطنا الإدارى فى ضوء الحكم المحلى ٦١ - المدن العربية ٦٣ - الاستعمار والتحرير فى العالم العربى ٦٣ - بترول العرب ٦٤ - إفريقيا الجديدة ٦٦ - اليهود أنثروبولوجيا ٦٧ - بين أوروبا وآسيا ٧٢ - نحو مدرسة عربية فى الجغرافيا ٦٦ - الجمهورية العربية الليبية ٧٣ - قناة السويس ٧٥ - إعادة بناء القرية ٧٦ - شخصية مصر جـ «طبعة أولى» ٧٧ - شخصية مصر طبع جديدة جـ ٨٠ - جـ ٢ ٨١، من خريطة الزراعة المصرية ٨٣ - شخصية مصر جـ٢ ٨١ - جـ٣ يناير ٨٤ - جـ ٤ يوليو ٨٤، ثم عديد من المقالات والدراسات، وكتب مقدمة باللغة الإنجليزية لكتاب «القاهرة» الذى أصدره «ويزموند ستيوارت» الإعلامى الأجنبى الذى نشط فى مصر بعد ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢.

ولم تكن كتبه مجرد حشو للبيانات والمعلومات، ولكنها تزخر بالكلمات واللقطات الذكية، مثلا فى كتابه «المدن العربية» وصدر عام ١٩٦٣ لاحظ أن «الرياض» هى «فرساى» السعودية وتعد العاصمة الدينية، فى حين أن «مكة» مهد الإسلام تعد «العاصمة السياسية»، وفى كتابه «جغرافية المدن» عام ١٩٦١ لاحظ أن الدين عامل أساسى فى نشأة كثير من المدن، كما كان الحال فى مصر القديمة حين

كان كثير من المدن بأسماء الآلهة، وهو الحال أيضا فى بعض مدن إنجلترا حيث لكل من هذه المدن «قديسها» الذى يحميها، وإذا كان النيل يصب فى مصر فإن مصر برمتها تصب فى القاهرة، التى يعدها باريس الشرق وله دراسة طريفة بعنوان «لا تنقلوا العاصمة من القاهرة» وهكذا كانت أعماله جميعا أفكارا ولمحات ذكية طريفة فتتخلل المادة العلمية الغزيرة، وتتحول أبحاثه إلى معزوفة موسيقية.

ألحان من المعزوفة:

وتناثرت ألحانه فى المعزوفة العلمية العظيمة ونجمع هنا بعض هذه الألحان:

* صراع الماء واليابسة أدى إلى الغزو من الشواطئ ويعد البحر المتوسط ميدانها فى عصر الإمبراطوريات اليونانية والرومانية وعصر الكشوفات الجغرافية وعصر الانقلاب الصناعى.

* الصراع الاستعمارى والتحرر الوطنى العربى انتهى إلى وجود إسرائيل كممثلة للقوى الاستعمارية، وبرز فى المنطقة موقف أقدم دولة فى التاريخ وهى «مصر»، وأحدث دولة وهى «الولايات المتحدة الأمريكية».

* عام ١٥٥٠ق. م بدأت الدولة الحديثة فى مصر القديمة باعتلاء «أحمس العظيم» عرشها، وانتصر على الهكسوس وأخرجهم من مصر ومن التاريخ.

* مصر هى واسطة كتاب الجغرافيا وتحولت إلى فاتحة كتاب التاريخ، وتحولت من أول أمة فى التاريخ إلى أول دولة إلى أول إمبراطورية، ثم إلى أطول مستعمرة فى التاريخ!

* النيل - سيد الأنهار.. يرسم خريطة الحياة فى مصر.. السكان والقرى والمدن - إنه «جغرافى» مصر الأول.. ويحكم تشكيل مظاهر العمران كلها تقريبا فى مصر.. حتى اللغة ترق كلما قربت من النيل، وتجف ألفاظها كلما بعدت عن النيل.

شخصية مصر:

يحرص دائما على استخدام تعبير «شخصية مصر» ولا يقول الشخصية المصرية. وأهم ملامح شخصية مصر «التجانس» الطبيعي والمادي والعمراني والحضاري والبشري، والنيل يمنح أرض مصر من تجانسه بقدر ما يسيطر على حياته، ومناخ مصر هو نموذج التجانس النادر.. والإنسان المصري يعد بالتأكيد من أقدم سلالات الأرض، ومنذ العصر الفرعوني لم تتعرض مصر للهجرات وإن تكن تعرضت لغزوات لم تؤثر في تركيبها البشري، و«التوسط» و«الاعتدال» من أبرز السمات في شخصية مصر، ويقرر أن مصر لم تعرف كراهية الأجانب بحكم موقفها وسط الدنيا وبين تيارات البشر، ولم تعرف العنصرية أو التعصب العرقي.

كان التسامح الديني مع التدين من أقدم خصائص المصري القديم.. هذه النزعة جعلت مصر تقبل اليهودية فالمسيحية فالإسلام، ومصر أضافت الرهبنة إلى المسيحية ومن بعدها أضافت التصوف إلى الإسلام، ومصر كما قال «كعب الأحبار» «بلدة معافاة من الفتن».

الأسانيد:

١ - أحمد صدقي الدجاني.. جريدة الأهرام ٩ مايو عام ١٩٩٣.

٢ - د. جمال حمدان.. شخصية مصر جـ١، جـ٢، جـ٣، جـ٤.

٣ - د. رشدي سعيد.. نهر النيل.. نشأته واستخدامه في الماضي والحاضر.

٤ - سهام بيومي.. «عدد الجمهورية الأسبوعي - ٢ سبتمبر عام ١٩٩٩».

٥ - د. نعمات أحمد فؤاد.. جريدة الأهرام ٣ فبراير عام ١٩٩٩.

عبداللطيف البغدادى



عبداللطيف محمود البغدادى . . نائب رئيس الجمهورية الأسبق، وعضو مجلس قيادة الثورة، ابن قرية «شاوه» مركز المنصورة - مديرية الدقهلية . . الضابط المؤرخ الذى احترم عقول القراء، فجاءت مذكراته «جـ١، وجـ٢» قريبة جدا من الحقيقة، عبداللطيف البغدادى هذا لم أجلس إليه ولم أتعرف عليه شخصيا، لم يكن ما بيننا أكثر من كلمات شكر طيبة، أتلقاها منه كلما استندت إلى مذكراته وأنا أكتب مشروعى موسوعة «هذا الرجل من مصر».

وفى يناير عام ١٩٩٢ موعد المعرض الدولى للكتاب بالقاهرة واعتدت أن أعد ندوات «كاتب وكتاب» وأتولى إدارتها، واخترت كتاب «الآن أتكلم» للأستاذ «خالد محيى الدين» ووضعته فى الندوة الأولى. واخترت للحوار حول هذا الكتاب «السيد عبداللطيف البغدادى» والسيد «حسين الشافعى» من زملاء «خالد محيى الدين» فى أحداث يوليو عام ١٩٥٢، واخترت معهما مؤرخين عرفا بنزاهة القصد وجدية البحث هما «د. يونان لبيب رزق» و«د. رءوف عباس حامد» وبعد موافقة الجميع وموافقة «خالد محيى الدين» نشرنا فى الصحف أخبار هذه الندوة، وفى مساء اليوم السابق على الندوة اتصل بى «عبداللطيف البغدادى» و«حسين الشافعى» يعتذران عن عدم حضور الندوة لأسباب خاصة بهما، ولم يكن هذا الاعتذار مفاجأة لـ«خالد محيى الدين» ولا مفاجأة لى فكان كلانا يتوقعه، وبدأت الندوة - التى كانت أنجح ندوات ذلك العام - وعرضت الأمر كاملا لجمهور

الحاضرين الطاغى، وتركت الحوار لخالد محيى الدين والدكتور رءوف والدكتور يونان ولى وللجمهور.

وفى ٨ يناير عام ١٩٩٩ رحل «عبداللطيف محمود البغدادى» وترك للباحثين أمورا كثيرة يختلفون عليها وفى مقدمتها موقف الرجل من محاكمة «محمد فؤاد سراج الدين» «٥٣ ـ ١٩٥٤» أمام محكمة برئاسة قائد الجناح عبداللطيف البغدادى، وعضوية البكباشى أنور السادات، وقائد الأسراب حسن إبراهيم، والموضوع الثانى حقيقة تنظيم «الضباط الأحرار» التى اختلف حولها أعضاء التنظيم وقادته اختلافا كبيرا دعانا إلى استجلاء الحقيقة.

محمد فؤاد سراج الدين باشا قال فى «ذكرياته» لجريدة «الوفد» ١٤ ديسمبر ١٩٩٨: كان البغدادى يؤمن ببراءتى وأعطانى كل فرصة للدفاع عن نفسى فى خمس جلسات، لكن عبدالناصر أجبره على النطق بالحكم ـ خمسة عشر عاما ـ وعلمنا فيما بعد أن الذى كتب نص الحكم هو «سليمان حافظ» بتكليف من عبدالناصر، وفى جلسة مجلس قيادة الثورة غاب البغدادى، ولم يحضر الجلسة، ورفض «كمال الدين حسين» الموافقة على التصديق على الحكم، وقال «محمد نجيب» كيف تدينون رجلا كان يحارب الإنجليز، وينظم أعمال المقاومة ضدهم بعد إلغاء معاهد عام ١٩٣٦، ولكن عبدالناصر رفض عدم التصديق على الحكم وقال لوفد من أسرتى.. أريد تخويف الأحزاب بحكم قاس ضد فؤاد سراج الدين، وأنه يريد توجيه ضربة قاصمة للإخوان، وهذا الحكم يمهد الأذهان.

وما قاله «فؤاد باشا» فى ذكرياته أكثر من مره تؤيده أقوال وكتابات كثيرة عن محمد نجيب وعبداللطيف البغدادى وكمال الدين حسين وأنور السادات الذى كان يرى ـ استنادا إلى كتاب د. محمود جامع. أن كل من كان يعارض عبدالناصر نهايته معروفة ولهذا وافق السادات على الحكم الذى أملاه عبدالناصر.

حقيقة التنظيم:

لم يحدث فى تاريخنا الحديث أن اختلفت الأقوال التاريخية حول حقيقته أكثر مما حدث للتنظيم الذى عرف باسم «تنظيم الضباط الأحرار» حدث خلط شديد بين

التنظيمات السرية التى قامت داخل القوات المسلحة بأسماء مختلفة سوف نأتى على ذكرها، وبين اسم «الضباط الأحرار»، وأصبح كله عند الكثيرين «ضباط أحرار».

* قال «كمال الدين رفعت» وكان مقربا من «جمال عبدالناصر . . إن فكرة تنظيم الضباط الأحرار قد نبعت عام ١٩٣٨م برئاسة جمال عبدالناصر فى منطقة منقباد، وهنا كلام مرسل لا يقوم على سند تاريخى ولم يقل به حتى «جمال عبدالناصر» نفسه.

* أنور السادات تحدث عن التنظيمات العسكرية مرتين لا تتفق الأولى مع الثانية ـ كتابه «قصة الثورة كاملة» وأصدره فى حياة عبدالناصر وكتابه «أسرار الثورة المصرية» وكتب مقدمته «جمال عبدالناصر، وصدر الكتابان عن دار نشر رسمية هى الدار القومية وكنت فيها فى موقع مهم فى النشر. . وذكر أنور السادات ما يفهم منه أن تنظيم الضباط الأحرار نشأ عام ١٩٤٨، وقد لحقته خسائر شديدة أثناء المعركة فى فلسطين، وبدأ الضباط الأحرار بعد العودة من فلسطين يعيدون الاتصالات من جديد، ماشى!

ـ كتابه «البحث عن الذات»، وقد صدر بعد رحيل عبدالناصر وأصبح السادات فى السلطة، أخذ السادات راحته وتحدث عن دوره فى تشكيل التنظيم عامى ١٩٣٨ و١٩٣٩، ويذكر أنه رأى عبدالناصر الذى جاء إلى منقباد بعد وصول السادات واجتماعاته بالضباط بستة شهور، وتحدث عن أول تنظيم سرى للضباط وكان معه «عبدالمنعم عبدالرءوف» ولم يذكر اسم جمال عبدالناصر. ما علينا، فى حياة عبدالناصر قال السادات إن التنظيم بدأ عام ٤٨، وبعد وفاته قال إنه هو الذى بدأ التنظيم عام ٣٨.

* عبداللطيف البغدادى قال كلاما يدعو إلى الثقة وذكر أن أول تنظيم سرى فى الجيش كان تحت اسم «مجموعة الطيران» وليس الضباط الأحرار والأعضاء وهم «الطيارون أحمد سعودى أبو على وحسين عزت ومحمد وجيه أباظة وعبداللطيف البغدادى. . وكان ذلك مع بداية عام ١٩٤٠م، الحرب العالمية مشتعلة، وقامت هذه المجموعة بالاتصال بالأحزاب والضباط وانضم إليهم «أنور السادات»، ولم يشترك جمال عبدالناصر لوجوده فى السودان.

* تنظيم مهم آخر قام بدور مهم فى حركة الجيش عرف بتنظيم «ضباط الجيش» أو «سلاح الفرسان»، دفعة «٣٠ يونيو عام ١٩٤٤» كان منهم أربعة تلاقت أفكارهم ومشاعرهم لإنقاذ البلاد: سعد عبدالحفيظ، مصطفى نصير، عبدالحميد كفافى، جمال الدين منصور عرفت أولهم «سعد عبدالحفيظ» معنا فى الثقافة وكيلا للوزارة عرف بالموضوعية والجدية والحيدة، بدأت المجموعة عام ١٩٤٥ بكتابة المنشورات على الآلة الكاتبة، وهذه المجموعة هى التى ابتكرت اسم «الضباط الأحرار» فى أكتوبر عام ١٩٥٠، وهى التى وضعت «المبادئ الستة» التى وزعت بالبريد على شباب السياسيين وأذكر أن أحدها وصلنى فى ذلك العام.

* مجموعة الإخوان أو كما أسمتها مجموعة «ضباط الجيش» بمجموعة «جمال عبدالناصر - وخالد محيى الدين»، وقد بدأت نشاطها فى نهاية عام ١٩٤٩، وكان «خالد محيى الدين» هو ضابط الاتصال بين الجماعتين إلى أن تم الاندماج فى مجموعة واحدة، وذلك عام ١٩٥٠م. وذكر أحد الضباط الإخوان «حسين حمودة» ذكر مجموعة الإخوان هذه أول مجموعة «جمال- خالد» وهم «جمال عبدالناصر ، خالد محيى الدين، عبدالمنعم عبدالرءوف، كمال الدين حسين، سعد حسن توفيق، صلاح خليفة، وحسين حمودة».

هذا تاريخ دون تأثيم ودون تعظيم، ونبدأ الآن فى التصوير البطىء ليعرف القارئ رأسه من رجليه، ونقف على حقيقة «تنظيم الضباط الأحرار» وما سبقه من تحركات أخرى طمستها الأيام عن قصد أو بدون قصد.

ونعرف فى المسيرة كيف نسب بعض القادة جهود الغير إلى أنفسهم، وكيف وصل الحال إلى ما وصل إليه وجر البلاد إلى ما وصلت إليه.

تنظيم الطيران:

ولد عبداللطيف محمود البغدادى فى ٢٠ سبتمبر عام ١٩١٧ بقرية شاوه- مركز المنصورة- مديرية الدقهلية، وتخرج فى الكلية الحربية ومدرسة الطيران الحربى عام ١٩٣٩م، وعمل ضابطا طيارا بالقوات الجوية عام ١٩٣٩، وتدرج من رتبة طيار

ثان حتى رتبة قائد جناح «عقيد». ونقلا عن مذكراته «مع بداية عام ١٩٤٠م والحرب العالمية مشتعلة . . ولم يكن للجيش المصرى قرب الحدود الليبية المشتركة مع حدودنا إلا بعض قوات رمزية من الجيش والطيران تعسكر فى منطقة مرسى مطروح، كانت هناك مجموعة من أربعة ضباط برتبة ملازم طيار تقيم معا فى شقة مفروشة بمصر الجديدة، وهى قريبة من المطار الحربى مطار ألماظة، وكانت هذه المجموعة مكونة من الطيارين «أحمد سعودى أبو على وحسين عزت ومحمد وجيه أباظة وعبداللطيف البغدادى» ولم نجد أمامنا من وسيلة إلا عمل تنظيم سرى بين ضباط الجيش والطيران لمقاومة الاحتلال البريطانى، وكان ذلك فى بداية عام ١٩٤٠، وقد تم الاتصال مع جماعة الإخوان المسلمين للتعرف على مدى استعدادها للمشاركة فى تحقيق هذا الهدف، واقترحوا علينا إدماج التنظيمين أى التنظيم الخاص بنا مع التنظيم الخاص بالإخوان المسلمين. وعن طريق حسين عزت تم ضم «أنور السادات» إلى المجموعة، وهذا التنظيم هو الذى كلف «أنور السادات وحسين عزت بالاتصال بالجواسيس الألمان، وانكشف الأمر وقبض على أنور السادات وحسين عزت، وفى يوم الاثنين ٢٩ يونيو عام ١٩٤٢ استقل أحد أفراد المجموعة وهو «أحمد سعودى أبو على» طائرة مقاتلة من النوع البريطانى ومعه حقيبة بها كل ما أمكن جمعه من معلومات واتجه بها نحو منطقة مرسى مطروح غرب الإسكندرية وكانت تقع تحت سيطرة القوات الألمانية فى ذلك الحين، ولم يعلم أحد مصير «أحمد سعودى» حتى تاريخ كتابة المذكرات «ملحوظة مهمة . . بدأ البغدادى كتابة مذكراته عام ١٩٦٤، وصدرت عام ١٩٧٧، أى فى عهد سلطة السادات الذى كثيرا ما تحدث عن مجموعة البغدادى على أنها مجموعته الخاصة به وتحدث عن أحمد سعودى ومغامرته وعن صديقه حسين عزت وعن وجيه أباظة على أنهم أفراد مجموعته التى رأسها عام ١٩٤٠ . . وذلك كله دون سند تاريخى صحيح»، المهم أن «البغدادى» انتقل مدرسا بكلية الطيران، مما ساعد على تماسك التنظيم وزيادة عدد المنضمين إليه حتى يوليو عام ١٩٥٢ .

وتنظيم البغدادى لم يشترك فيه «جمال عبدالناصر» لوجوده فى السودان، وتعرف البغدادى على «خالد محيى الدين» عام ١٩٤٢ وكان يعرف «عبدالمنعم عبدالرءوف» المخلص للإخوان قبل ذلك التاريخ.

مجموعة الإخوان:

بدراسة ما كتبه «مصطفى نصير» وعبدالحميد كفافى، وسعد عبدالحفيظ، والسفير جمال منصور، وخالد محيى الدين، وحسين حمودة، ود. محمود جامع، وعبدالمنعم عبدالرءوف» وجميعهم كانوا موالين لجماعة الإخوان المسلمين بدرجات متفاوتة. من هذا كله نخرج بأن جماعة الإخوان المسلمين لم تكن بعيدة عن النشاط السرى للضباط داخل القوات المسلحة منذ زمن باكر. اتصل البغدادى ومجموعة الطيران بجماعة الإخوان المسلمين منذ عام ١٩٤٠ دون أن يؤدى الاتصال إلى اندماج بين الجماعة والمجموعة، واتصل «السادات» بالشيخ «حسن البنا» دون نتيجة محددة، وتؤكد المصادر أن أكثر الضباط إخلاصا للإخوان المسلمين كان هو «عبدالمنعم عبدالرءوف» والذى رفض فيما بعد فى اجتماع «الهيئة التأسيسية برئاسة عبدالناصر» أن يتخلى عن ولائه للإخوان فلم يتم ضمه للجنة التأسيسية وإن كان قد ظل على ارتباط حتى قاد القوات للاستيلاء على قصر رأس التين وإخراج الملك فاروق يوم ٢٦ يوليو عام ١٩٥٢، والثابت أيضا أنه قبل نهاية عام ١٩٤٩م بدأ «جمال عبدالناصر» بالاتصال ببعض الضباط الوطنيين بغرض لم شملهم، وكان منهم «عبدالمنعم عبدالرءوف» الذى قدم لجمال عبدالناصر «كمال الدين حسين وخالد محيى الدين» وأصبح الجميع أعضاء بالإخوان المسلمين، وكانت الخلية العسكرية بالإخوان يرأسها «الصاغ محمود لبيب»، وتم ضم عناصر جديدة التقوا جمعيا فى منزل بالسيدة زينب وفى غرفة مظلمة أقسموا اليمين على المصحف والمسدس أمام «صالح عشماوى» ممثلا لمرشد الإخوان المسلمين وبحضور «عبدالرحمن السندى» قائد الجهاز السرى.. وكانت المجموعة تتكون من «عبدالمنعم عبدالرءوف وجمال عبدالناصر وخالد محيى الدين وكمال الدين حسين وحسين حمودة وسعد توفيق» وأقسموا جميعا على المصحف والمسدس أمام «الشيخ حسن البنا»، وبذلك تكونت أول خلية عسكرية داخل الجهاز السرى للإخوان، وكان المسئول الأول عن خلية الضباط هو عبدالمنعم عبدالرءوف والثانى هو أنور السادات - الذى كان على اتصال سابق بالشيخ حسن البنا - والثالث جمال عبدالناصر، وبعد دخول السادات السجن أصبح عبدالناصر هو الرجل الثانى ونشب صراع بينه وبين عبدالمنعم وتشكلت خليتان.. الأولى: لعبدالرءوف،

والثانية : لعبدالناصر وتخضعان لقيادة «عبدالرحمن السندى» ويروى «محمود جامع» فى كتابه «عرفت السادات» أن محمود لبيب كان مريضا وذهب عبدالناصر لزيارته وسلمه محمود لبيب كشوفا بأسماء الجهاز السرى والخلايا العسكرية ، وقد استخدم عبدالناصر هذه الثروة الكبيرة عندما شن الحملات ضد الإخوان فيما بعد ، والطريف أن عبدالناصر فى الوقت الذى كان يشرف فيه على خلية سرية لضباط الإخوان كان عضوا فى تنظيم «حدتو» الماركسى باسم حركى «موريس» .

تنظيم «ضباط الجيش»:

وفى وقت مقارب للخلايا السرية العسكرية للإخوان المسلمين كان هناك تنظيم مهم فى سلاح الفرسان اختار فى مطبوعاته اسم «ضباط الجيش» . . وتؤكد مطبوعات هذا التنظيم أنه هو الذى اختار اسم «الضباط الأحرار» وهو التنظيم الذى وضع المبادئ الستة» ، فى دفعة ٣٠ يونيو عام ١٩٤٤ كان نصيب سلاح الفرسان ١٢ ضابطا من أوائل الدفعة منهم أربعة تلاقت أفكارهم ومشاعرهم لإنقاذ البلاد وهم ـ فيما بعد ـ اللواءات : سعد عبدالحفيظ ، مصطفى نصير ، عبدالحميد كفافى ، السفير جمال منصور ، بدأت اجتماعاتهم فى منزل مصطفى نصير بشارع الكومى حى السيدة زينب ، كانت الاجتماعات أسبوعية ، والفكرة الرئيسية هى القيام بثورة . وانضم إليهم «عبدالفتاح أبو الفضل» وطيارثان طلعت ناجى ، وطيار ثان عبدالمحسن الوسيمى ، بدأت المجموعة كتابة المنشورات على الآلة الكاتبة ، وأقنعوا موظفا فى السكة الحديد «محمد شوقى عزيز» أن يكتب المنشورات على الإستنسل فى مكتب محاسبة يعمل به بعد الظهر ، ثم يقوم بالطبع علي الرونيو فى عمله بالسكة الحديد . . وانضم إليهم «محسن عبدالخالق» من ضباط المدفعية ، وقدم للتنظيم «فتح الله رفعت» و«أبو الفضل الجيزاوى» ، و«أمين مظهر» و«أبو اليسر الأنصارى» من ضباط المدفعية ومن ضباط المشاه «عباس رضوان وعبدالرحمن مخيون» ، وعهدى خيرت ، وعبدالكريم محرم .

وفى أحد الاجتماعات حضر دون دعوة «رشاد مهنا ، ومصطفى كمال صدقى ، وكمال عبدالحميد» . . ورفض رشاد مهنا أن يقسم على المصحف بحماية سر هذه

الجماعة، وقدم لهم «مصطفى كمال صدقى» الصول «جمال جلال» الذى توجه إلى النقراشى باشا رئيس الوزراء وقدم له المعلومات الكاملة عن هذا التنظيم، وقبض عليهم البوليس الحربى وتم تشتيتهم إلى أسلحة مختلفة، وكمال صدقى كان أساسا عضوا فى «الحرس الحديدى» والذى قام بمحاولة لاغتيال «مصطفى النحاس باشا» وتزوج من الفنانة «تحية كاريوكا» وقبض عليه فى إحدى قضايا التنظيم الشيوعى «حدتو»، وحفظ النائب العام «حافظ سابق» قضية تنظيم ضباط الجيش عام ١٩٤٧، المهم فى هذا المجال أن «خالد محيى الدين» كان عضوا فى مجموعة الإخوان التى يرأسها «جمال عبدالناصر»، وقد دعى لأحد اجتماعات مجموعة «ضباط الجيش» ووجد أن الأهداف واحدة وعرض على مجموعة «ضباط الجيش التنسيق بين جماعتهم وجماعة أخرى، وهى المجموعة التى نشأت داخل الإخوان المسلمين، ومن الطريف أن جماعة «ضباط الجيش» أطلقت على مجموعة «جمال عبدالناصر الإخوانية» اسم «مجموعة جمال ـ خالد».

مجموعة جمال ـ خالد:

كانت مجموعة جمال ـ خالد تضم «جمال عبدالناصر ـ وخالد محيى الدين، وعبدالمنعم عبدالرءوف، وكمال الدين حسين، وحسين حمودة، وسعد توفيق، وانضم إليهم بناء على اقتراحات جمال عبدالناصر «عبداللطيف البغدادى وصلاح سالم، وفى اجتماع ٢٦ يناير عام ١٩٥٢ انضم إليهم جمال سالم وأنور السادات، وهنا ملاحظة مهمة أن مجموعة «جمال ـ خالد» هى النواة الأساسية للضباط الذين استولوا على السلطة فى ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢. وغالبية هذه المجموعة تربت داخل الجهاز السرى للإخوان.

والأرجح أن أول اجتماع لمجموعة «جمال ـ خالد» كان فى نهاية صيف عام ١٩٤٩، فى حين أن مجموعة البغدادى بدأت عام ١٩٤٠م، ومجموعة سلاح الفرسان بدأت عام ١٩٤٥، وتم اندماج مجموعة الإخوان أو مجموعة «جمال ـ خالد» مع مجموعة سلاح الفرسان أو مجموعة ضباط الجيش.. وأخذ التشكيل الجديد اسم الضباط الأحرار الذى كان من اقتراح «السفير جمال منصور» عضو

مجموعة «ضباط الجيش»، وأخذ التشكيل الجديد أيضا «المبادئ الستة» الذى روجت له مجموعة «ضباط الجيش»، وبدأ التنظيم الجديد تحت اسم «الضباط الأحرار»، وتم إطلاق اسم «اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار»، والتى أطلق عليها بعد يوليو عام ١٩٥٢ اسم «مجلس قيادة الثورة»، وقد اقترح «جمال عبدالناصر» ضم زكريا محيى الدين وحسين الشافعى في ١٥ أغسطس عام ١٩٥٢، وفى الوقت نفسه تم ضم البكباشى «عبدالمنعم أمين ويوسف صديق» لدورهما فى ليلة الثورة.

ولكن ماذا بعد:

وعلى الرغم من الاندماج بين مجموعة «جمال - خالد» الإخوان المسلمين سابقا.. ومجموعة ضباط الجيش «سلاح الفرسان سابقا» فإن تشكيل الضباط الأحرار الجديد نشبت فيه صراعات بين عناصر المجموعتين، واجتمعت اللجنة التأسيسية لسلاح الفرسان فى أغسطس عام ١٩٥٢ لتسجيل الأحداث التى سبقت قبل ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ أى تسجيل تاريخ تنظيمها خوفا من الضياع أو نسبته إلى آخرين، ومنع مجلس قيادة الثورة نشر هذه المعلومات وتأجيل النشر إلى أجل غير معلوم، وبعد ٢٣ يوليو وبتوجيهات من «جمال عبدالناصر» بدأت حركة لتصفية قيادات الفرسان ونقلهم إلى الشركات والوظائف المدنية وأحالتهم إلى الاستيداع، وبدأت حركة واسعة لنقل ضباط سلاح الفرسان إلى الواحات والصحراء.. وبعد المواجهة التاريخية من سلاح الفرسان لجمال عبدالناصر أصدر «مجلس قيادة الثورة» قرارا بإلغاء تنظيم «الضباط الأحرار» بحجة أنه استنفد أغراضه، وهذا الموقف من جمال عبدالناصر إزاء سلاح الفرسان يعود إلى ما قبل التحرك فى ٢٣ يوليو، تقول أوراق سلاح الفرسان إن مجموعة «عبدالناصر» أخفت عن قيادة مجموعة الفرسان موعد التحرك فى ٢٣ يوليو حتى لا يكون لهم دور تاريخى، ويقول «خالد محيى الدين» فى كتابه «الآن أتكلم» ص ١٧٦ وص ٢٢١ ما معناه أنه عند وضع اللمسات الأخيرة للتحرك ليلة ٢٣ يوليو، طلب خالد الاستعانة بكفافى ونصير إلا أن عبدالناصر رفض.

وحياة «عبداللطيف البغدادى» نفسه داخل الحركة بين شد وجذب، عام ١٩٦٠

تولى منصب وزير الاقتصاد، ثم وزيرا للخزانة والتخطيط عام ١٩٦١م، واستقال من جميع مناصبه عام ١٩٦٤ وهو نائب لرئيس الجمهورية، ويكفيه أنه ترك لنا مذكراته فى جزأين يمكن الاعتماد عليهما عند الحديث عن الحركات السرية داخل الجيش.

الأسانيد:

١ - أنور السادات - البحث عن الذات قصة الثورة كاملة.

٢ - جمال منصور - فى الثورة والدبلوماسية.

٣ - خالد محيى الدين - الآن أتكلم.

٤ - عبداللطيف البغدادى - مذكرات جـ ١ ، جـ ٢.

٥ - فؤاد سراج الدين باشا ذكريات «الوفد ١٤/ ١٢/ ١٩٩٩».

٦ - كمال رفعت حرب التحرير الوطنية.

٧ - لواءات «سعد عبدالحفيظ» مصطفى نصير، عبدالحميد كفافى - السفير جمال منصور» - ثورة يوليو والحقيقة الغائبة.

٨ - محمد نجيب - كلمتى للتاريخ.

٩ - د. محمود جامع - عرفت السادات.

علــى الجـــــارم



مضى على رحيله نصف قرن، توفى عام ١٩٤٩م، ولد ونشأ فى رشيد مديرية البحيرة، وبمناسبة مرور نصف قرن على رحيل الشاعر العالم الأديب «على الجارم» احتفلت بذكره دمنهور عاصمة البحيرة واختلفت رؤى المحتفلين. . ومن الطبيعى أن يختلف النقاد حول كل رائد كبير. الدكتور صلاح فضل. . تحدث عن تفرده فى القصائد التى دعت إلى القومية العربية وإن كان قد أخذ عليه مبالغته فى قصائد المدائح الموجهة للملكين فؤاد وفاروق والتى أفقدته كثيراً من قيمته، وابنه «د. أحمد على الجارم» أبرز دوره فى تجديد الأفكار والمعانى، وأوضح أن شعره احتفى بتاريخ مصر الرائع الفرعونى والعربى، وأشار «د. الطاهر أحمد مكى» إلى إبداعاته الوطنية والشعرية، وإلى سجله الحافل بصور البطولة للدفاع عن الإسلام والعروبة واللغة العربية.

كان خطيبًا فصيح اللسان، أجاد فن الإلقاء باللغة الإنجليزية واللغة العربية، اختاره أمير الشعراء لتبادل إلقاء قصائده - أى قصائد أحمد شوقى - مع خطيب زمانه «محمد توفيق دياب».

كتب عباس محمود العقاد مقدمة لكتاب «قصائد على الجارم» يقول فيها: كان «على الجارم» زينة المجالس، كما كان يقال فى وصف الظرفاء من أدباء الحضارتين العباسية والأندلسية، تجلس إليه فتسمع ما شئت عن نادرة أدبية أو ملحة اجتماعية أو شاهد من شواهد اللغة ونكتة من نكت الفكاهة، هو أديب وافر المحصول من زاد

الأدب أو زاد الرواية الأدبية قديمها وحديثها، ومن مبتكرها إلى منقولها، وهو عالم باللغة، وهو الشاعر الذى زوده الأدب والعلم بأسباب الإجادة والصحة . . نقول عليه . . الأديب الشاعر العالم، وكان شعره زادا لطالب البيان .

الأسـرة والبيئـة:

ولد ونشأ بمدينة رشيد عام ١٨٨١ م، اسمه الكامل «السيد على صالح الجارم»، وتقع رشيد على الناحية القصوى من الشاطئ الغربى للنيل، على فرع رشيد، تستمد منه ألوانا متعددة من الجمال والجلال وتمزجها بحقائق التاريخ القريب أثناء الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ م، والحملة الإنجليزية على مصر ١٨٠٧ ميلادية .

ورشيد مدينة محافظة فى جملتها، ويعتقد أهلها اعتقادًا جازمًا أنهم ينحدرون من قبيلة قريش بالجزيرة العربية، والبيت الذى ولد فيه «السيد على صالح الجارم» بيت مبنى على الطراز القديم ذى مشربيات عالية تحجب أنظار المارة، وتنتسب الأسرة إلى «الشيخ إبراهيم الجارم» أحد العلماء يذهب إليه الناس للشكوى من ظلم الوالى التركى، ووالد على الجارم هو «الشيخ محمد صالح الجارم» أحد علماء الأزهر والقاضى الشرعى بمدينة دمنهور ـ عاصمةالبحيرة ـ وتوفى عام ١٩١٠م، نشأ «على الجارم» فى ظلال نخيل وعذارى رشيد وفى كنف أسرة، متدينة وأهل علم ودين، ذهب إلى الكتاب حتى سن الحادية عشرة تلقى ما تيسر من القرآن وشيئًا من قراءة وحساب، وبعد الحادية عشرة انتقل إلى القاهرة والتحق بالأزهر وتلقى علوم الدين على يدى «الشيخ محمد عبده»، وعام ١٩٠٢م التحق بدار العلوم، وسافر فى بعثة إلى إنجلترا، وفى «توتنجهام» درس أصول التربية وعاد إلى تدريسها فى مصر بدار العلوم عام ١٩١٢ م بعد أن مكث فى إنجلترا أربعة أعوام، وقبل أن يعمل بدار العلوم كان قد عين مدرسًا بمدرسة التجارة المتوسطة وتعرف إلى «محمود فهمى النقراشى» الذى بقى وفيًا على صداقته إلى أن اغتيل محمود فهمى النقراشى، وكانت آخر القصائد التى نظمها «على الجارم» قصيدته فى رثاء النقراشى باشا وقام بإلقاء القصيدة ابنه نيابة عنه .

تخرج فى دار العلوم عام ١٩٠٨م وعاد من البعثة إلى مصر فى أغسطس عام ١٩١٢، وبعد عمله بدار العلوم نقل عام ١٩١٧م مفتشًا بوزارة المعارف ورقى إلى وظيفة كبير مفتشى اللغة العربية حتى عام ١٩٤٠، وظل وكيلا لدار العلوم إلى أن أحيل إلى المعاش عام ١٩٤١م.

هو والأحداث:

منذ أن ولد إلى أن مات عاش على الجارم فترة عارمة بالأحداث أثرت فى حسه القومى والوطنى وانعكست على شعره وتوجهاته الفكرية والثقافية دون أن يشتغل بالسياسة، أو ينتمى إلى حزب من الأحزاب، عاصر دخول الاحتلال عام ١٨٨٢م وتم إلغاء الجيش الوطنى عام ١٨٨٣ وأجبر الاحتلال مصر على إخلاء السودان عام ١٨٨٤م. وبموت الخديو توفيق ظهر على الساحة الوطنية شابان . . الخديو عباس حلمى الثانى ومصطفى كامل، وتم الاتفاق الودى بين إنجلترا وفرنسا عام ١٩٠٤ ثم دخلت إلى مشاعر المصريين وأحاسيسهم الوطنية مأساة دنشواى عام ١٩٠٦، كان عمر «على الجارم» وقتها ٢٦ سنة . . ويتأهب للتخرج من دار العلوم عام «١٩٠٨م» واستوعب من أهله ومن حياته كل هذه الأحداث السياسية، وترسبت فى وجدانه ولكنه كان قد قرر أن يحتفظ بالوطنية بعيدًا عن الحزبية وبالقومية بعيدًا عن أى جماعات سياسية، وأن يحتفظ فى أعماله بالولاء للعروبة والإسلام.

وعام ١٩١٩م كانت الثورة الشعبية الكبرى بقيادة «سعد زغلول»، وكان هو مفتشًا للغة العربية بوزارة المعارف ولكنه أفصح للمدرسين وللتلاميذ عن أن الثورة الشعبية «وليدة إرادة أمة عانت من الكبت ومن الاحتلال قرابة أربعين عامًا».

عرف عنه أنه كان يكره السياسة ولا يقترب منها، ولكن «مصطفى صادق الرافعى» اعتبره «الشاعر الرسمى للملك فؤاد» مثلما كان «أحمد شوقى» شاعر القصر، وزادت هذه الفكرة عن «على الجارم» عندما صرح الملك فاروق، وقال بعض المقربين منه أنه كان يرغب فى أن ينعم عليه القصر بلقب «البكوية» مثلما أنعم على «أحمد شوقى» بهذا اللقب، وعلى الرغم من علاقاته الحميمة بمحمود فهمى

النقراشى إلا أنه لم يدخل فى أى نشاط لحزب الهيئة السعدية التى شكلها أحمد ماهر والنقراشى وعبد الهادى بعد انفصالهم عن الوفد.

العربية والعروبة:

كان الاهتمام باللغة العربية وبالعروبة محوراً رئيسيًا عند «على الجارم»، وعندما أنشئ مجمع اللغة العربية كان من أعضائه المؤسسين، وأخضع إمكانياته الثقافية فى إنجاز عدد من الروايات الأدبية التاريخية، تقوم على التاريخ العربى مثل: فارس بنى حمدان وهاتف من الأندلس ومرح الوليد «فى سيرة يزيد الأموى» والشاعر الطموح «المتنبى»، وخاتمة المطاف «نهاية المتنبى».

واشترك فى إصدار.. المجمل فى الأدب العربى والمفصل فى الأدب العربى والنحو الواضح فى ٦ أجزاء، والبلاغة الواضحة فى جزأين، واشترك الأستاذ الجارم فى كثير من لجان المجمع مثل:

١ - لجنة العلوم الاجتماعية والفلسفية.

٢ - لجنة اللهجات ونشر النصوص.

٣ - لجنة معجم ألفاظ القرآن الكريم.

٤ - لجنة الأدب.

٥ - لجنة المعجم الوسيط.

ونشر عددا من المقالات فى مجلة المجمع مثل:

١ - المجلة الفعلية أساس التعبير فى اللغة العربية.

٢ - المصادر التى لا أفعال لها.

٣ - مصطلحات الشئون العامة.

وقدم للمجمع مشروعًا بشأن تيسير الكتابة العربية، وكان من المعارضين البارزين لمقترح الأستاذ عبد العزيز فهمى بإحلال الحروف اللاتينية، وقال عنه

أستاذه «أحمد العوامرى» في تأبينه: «انعقد إجماع المثقفين فى الشرق العربى على شاعريته الفذة وتناقلوا شعره فى أنديتهم وسوامرهم، وتدارسوه فى مجامعهم ومحافلهم، وعنيت المجلات وكتب الأدب الحديث به وأفردت الفصول لنقده، والفحص عن خصائصه، والاستشهاد بنوادره».

وهو شاعر له باع فى القصة الأدبية التاريخية، ونضيف إلى ما ذكرناه آنفًا قصصه حول المعتمد بن عباد وابن زيدون وشاعر ملك وهاتف من الأندلس والفارس الملثم. وأسهم فى تحقيق التراث فنشر «البخلاء» للجاحظ، وترجم عملا مهما عن الإنجليز بعنوان «العرب فى الأندلس»، ويقع ديوان الجارم فى أربعة أجزاء، واهتم الجارم بإصلاح الأخطاء الشائعة فى اللغة العربية.

النشاط والتقدير:

كان «على الجارم» على صلة قوية بأمير الشعراء «أحمد شوقى» وشاعر النيل «حافظ إبراهيم» وبعد رحيل الاثنين احتل الجارم الساحة الشعرية مع «عزيز أباظة» وعرف عنه اهتمامه بالتاريخ القومى وعدم ميله للثقافة الغربية رغم بعثته إلى إنجلترا وترجمته للكتاب «العرب فى الأندلس» من اللغة الإنجليزية إلى العربية.

وكان صديقه الأثير لديه الشاعر «أنطون الجميل» رئيس تحرير جريدة الأهرام وعندما مات «الجميل» قال «الجارم فى رثائه»:

يا أخى هل يليق أن تدخل الباب أمامى وأنت أصغر سنّا؟

وقد حزن «على الجارم» حزنًا شديدًا لوفاة نجله - أى نجل الجارم - وهو طالب جامعى فى ريعان الشباب، وسرعان ما استرد نفسه بعزيمته القوية التى لم تكن تعرف الخور . . وكان محاضراً ومحدثًا من الطراز الأول وانتدب لتمثيل مصر إلى مؤتمرات خارجية كثيرة، إلى بغداد لتأبين الشاعر الزهاوى، وإلى لبنان لافتتاح المؤتمر الطبى ومؤتمر الثقافة ببيروت عامى ١٩٤٣، و١٩٤٤، وإلى السودان للإشراف على امتحانات المدارس المصرية، وكان على علاقة وطيدة بالمحامى «محمود خيرت» الذى عرف عنه أنه كان يقوم بترجمة الروايات لمصطفى لطفى

المنفلوطى من الفرنسية إلى العربية ، ثم يصوغها المنفلوطى بأسلوبه الذى عرف عنه فى النظرات والعبرات .

وقد حصل «على الجارم» على عدة أوسمة . . منحته مصر وسام النيل عام ١٩١٩م، ومنحته العراق وسام الرافدين عام ١٩٣٦م ومنحته لبنان وسام الأرز عام ١٩٤٧م، وفى بيروت عام ١٩٤٧ ألقى قصيدته الشهيرة «العروبة» .

الجارم شاعرا:

كان الجارم شاعراً من المدرسة التقليدية بعيدا عما يعرف بشعر التفعيلة ، وهذا هو سبب انصراف عدد من النقاد عن تقويم شعره وإلقاء الأضواء عليه .

ومن الطريف أنه نظم أول قصيدة له عام ١٨٩٥م، وهو فى الرابعة عشرة من عمره وآخر قصائده كانت فى رثاء صديقه الحميم محمود فهمى النقراشى عام ١٩٤٩ والتى ألقاها ابنه «الدكتور أحمد الجارم» نيابة عنه .

ولقد كان للبيت الذى ولد فيه الشاعر تاريخ ، فقبيل الحملة الفرنسية كانت تتجه إليه الأنظار فتذهب الوفود إلى الشيخ «إبراهيم الجارم» لتشكو إليه ظلم الوالى التركى «عثمان خجا» وتعسفه فى جمع الضرائب ، ويذكر الجارم ذلك فى شعره بفخر واعتزاز ، حيث يقول لصديقه وصهره «محمد بدر الدين الرشيدى» :

عصر بجدى ثم جدك　　　كان بالعلماء زاهر
سهرا فنام البائسون　　　محصنين من المخاطر

وظل على الجارم يفاخر بأن جده «الشيخ إبراهيم الجارم» حرص على ألا يزوج إحدى ابنتيه «رقية وآمنة» للجنرال مينو عندما تطلع إلى الزواج من إحداهما . . وسارع الشيخ بالعقد على ابنته للشيخ «عثمان سنابك» و«الشيخ حسين أبو السعود» رغم أنهما كانا طالبين فقيرين . وانصرف الجنرال «مينو» للزواج من «زبيدة» والتى أخذها معه إلى فرنسا بعد خروج الحملة الفرنسية من مصر .

ونشأ الشاعر فى ظل نخيل رشيد ، وعلى ضفاف النيل وبين الخمائل وغرد الشاعر قائلا :

أرشيد يا بلدى ويا ملهى الصبا ... بينى وبين مدى الصبا أعوام

أيام لى فى كل سرح نغمة ... وبكل ركن وقفة ولمام

ألهو كما تلهو الطيور حديثها ... شدو ورف جناحها أنغام

والشاعر هنا فى حديثه عن مسقط رأسه ومرتع صباه يذكرنا بالشاعر محمود حسن إسماعيل بهيامه بقريته «النخيلة»، ويذكرنا بالشاعر فوزى العنتيل بعشقه لقريته «علوان».

دار العلوم:

وقد انتقل عشق الشاعر وهيامه بمسقط رأسه ونشأته وصباه إلى المعهد العلمى الذى صقله وعلمه، وانتقل بعد الحادية عشرة من عمره إلى القاهرة مع شقيقه الشيخ محمد نعمان الجارم والتحق بالأزهر، وسكنا فى درب السلحدار بحى الأزهر غرفة بسطح أحد البيوت. وكان من زملائه الدكتور طه حسين والأستاذ أحمد أمين، ومن الأزهر التحق بدار العلوم فى عام ١٩٠٢م، واعتبرها الشاعر موئل العربية ففيها تحيا وفى غيرها تموت، ووجد فى دار العلوم خير طلاب الأزهر الذين يتذوقون الأدب، وهام «على الجارم» حبا بمعهده الجديد وبأساتذته:

هى فى مصر كعبة بعث الشر ... ق إليها طوائف الركبان

قد أعادت عهد الأعاريب فى مصر ... إلى ناعم من العيش هانى

وأطلت من الخباء عليهم ... فسبتهم بسحرها الفتان

وكان «على الجارم» وهو طالب بدار العلوم يقوم أحيانًا بالقاء بعض الدروس التى يعهد بها إليه أساتذته . . يقول فى ذلك أستاذه أحمد العوامرى:

كان على الجارم زعيم الفصل علما وذكاء وحاضر البديهة، قوى المنطق حتى لقد كنت أعهد إليه أحيانًا وأنا مطمئن النفس فى أن يلقى بعض دروسى وأنا حاضر بعد أن أكون قد دفعتها إليه من قبل، فكان يعدها إعداد الفطن ويلقيها إلقاء من درب بالتدريس.

صفات شخصية:

من الغريب أن يعرف عن «على الجارم» أنه يكثر من التحسر على شبابه الذى ولّى، وأنه يخاف من الطبيب، ويقول إنه يتحسر على شبابه لأنه فوجئ بتقدم السن، وأنه قتل فترة الشباب بالوقار والسلوك الجاد، وكان يتمنى أن يعود الشباب يومًا ليخبره بما فعل المشيب، ويخاف أن يتعرف الطبيب على مرض جديد لم يكن يعرف عنه شيئًا.

وكان من الأطباء الذين يأنس إليهم «الدكتور سيد عفت»، وإذا كان يتحسر على شبابه ويخاف من الطبيب فإنه كان يفزع لفكرة الموت:

آه لو يشترى الزمــان قريضى	بسـنين تعــد لى فى حســابه
ما الذى تبتغى يد الدهـر عنى	ودمى لا يــزال مــلء لعــابه

ومازال الشاعر فى صراع بين ذكريات الشباب، وقسوة المشيب، ولا يجد من يشترى قريضه بالسنين التى يتمناها حتى يرسل أنفاسه الأخيرة وابنه «بدر الدين» يلقى قصيدة الجارم فى رثاء صديقه محمود فهمى النقراشى فى مساء ٨ فبراير من عام ١٩٤٩ عن ثمان وستين سنة.

الأسانيد:

١ - د. أحمد على الجارم - جارميات.
٢ - أحمد مصطفى حافظ - شعراء معاصرون.
٣ - عباس محمود العقاد - مقدمة قصائد من الجارم.
٤ - د. محمد عبد المنعم خاطر - على الجارم «أعلام العرب».
٥ - د. مهدى علام - المجمعيون فى ٥٠ عامًا.
٦ - محمد الغزالى حرب - على الجارم باحثًا وأديبًا.

التوأم: على ومصطفى أمين



فى الأسبوع الثانى من شهر أبريل عام ١٩٩٧ - ١٣ أبريل - رحل الكاتب الصحفى الكبير «مصطفى أمين» وبذلك لحق بنصفه الآخر «على أمين» الذى رحل فى ٢٨ مارس عام ١٩٧٦، وكتبت هنا فى هذه الجريدة فى زاويتى «قلم رصاص» كلمة قصيرة قلت فيها: خاصمته ثم أحببته إذ إننى واحد من جيل كانت له ملاحظات على «التوأم . . على ومصطفى أمين، وأحببناهما بعد أن وقفا إلى جانب الديمقراطية والحريات والحقوق الدستورية للشعب، وكان فى ذهنى ما سمعته من «أحمد بهاء الدين» فى مكتبه بأخبار اليوم عندما ذهبت إليه فى السنوات الأولى من الستينيات أهدى إليه كتابى الذى صدر بعنوان «الحياد الثقافى»، وكنا على معرفة سابقة وقد نقل لى بعض الزملاء رأيا له فى موضوع الكتاب «الحياد الثقافى»، فى ذلك اللقاء عرفت أن «الأستاذ بهاء» يعمل حسابا لمصطفى أمين ولكنه يطمئن لعلى أمين . . وأنه - أى بهاء - يرى أن مصطفى أمين يرسم ويحسب الأمور وأن على أمين ما فى قلبه على لسانه .

وعندما أخذت أكتب هذه الحلقة وجدت مثل هذا الرأى لدى «إحسان عبدالقدوس» عبر عنه بأسلوبه الرشيق وبذكاء وهو يكتب عن التوأم على ومصطفى أمين .

قال إحسان عبد القدوس كنت مازلت طالبا فى المدرسة الثانوية فى الرابعة عشرة من عمرى وعدت إلى البيت لأجد شاباً طويلا عريضاً تخفف من ضخامة رأسه

ابتسامة ساذجة. وكان في انتظار «روزاليوسف» وجلست معه ليقول لي إنه طالب في جامعة شيفيلد بإنجلترا وأنه بطل ملاكمة هناك، ومن يومها وأنا لا أرى على أمين إلا في صورة ملاكم فوق حلقة ملاكمة، كل حياته قضاها في حلقة ملاكمة، في نشاط وحيوية الملاكم، وبروح الملاكم الذي يقبل خصمه سواء كان منتصراً أو مهزومًا. وكان هذا هو الفرق بينه وبين نصفه الآخر مصطفى أمين، كان على يلعب على المكشوف، وكان مصطفى يلعب وهو في مكتبه فلا يراه أحد، لذلك كنت دائمًا أقول إن «مصطفى» هو العقل وأن «على» هو القلب.

ثم اضطر «على ومصطفى» أن يعيشا خارج مصر.. كلاهما خارج مصر. أحدهما يفصل بينه وبين مصر البحر الأبيض المتوسط والآخر يفصل بينه وبين مصر سور عال، وذهبت إلى «على» في المستشفى وكنت أعلم أنه يجتاز أيامه الأخيرة ولكنه لا يزال مصرا على الملاكمة.. إنه يناقشني في الأحداث الصحفية ويرفع سماعة التليفون ويتصل ليجمع أخبارا للجريدة.. كان يموت وهو يعمل «انتهى كلام الأستاذ إحسان بأفكاره الرشيقة».

أوراق العمـــر:

التوأم.. على ومصطفى أمين من مواليد ٢١ فبراير عام ١٩١٤، وكتب مصطفى أمين بأسلوبه الطريف يقول إن «على» رأى النور وخرج من بطن أمه قبل «مصطفى» بدقائق خمس.. لذا فإن «على» أكبر من «مصطفى» بخمس دقائق.

ووالدة التوأم وهي ابنة شقيقة زعيم الأمة «سعد زغلول»، وقضى التوأم طفولتهما وصباهما في بيت الأمة في كنف الزعيم سعد زغلول.

عاشا فترة من صباهما في مدينة «دمياط» لظروف عمل والدهما، وهناك تعرفا على «جلال الدين الحمامصي» وامتدت صداقتهم إلى آخر العمر.

مارسا الصحافة منذ الصغر.. عام ١٩٢٢م، وكان عمر مصطفى ثماني سنوات وعمر على ثماني سنوات وخمس دقائق.. أصدرا مجلة اسمها «الحقوق» مكتوبة بالقلم الرصاص وتحتوي على أخبار البيت.. الضيوف والزوار والأم والبيت

والطباخ والشغالة، وعام ١٩٢٤م أصدرا مجلة «سنة ثالثة ثالث» ثم أصدرا مجلة «عمارة البابلى» لأولاد الحى الذى يقيمان فيه.

وعام ١٩٢٨م فصل «على أمين» من المدرسة لأنه صفع حكمدار الغربية الذى حاول الاعتداء على «مصطفى النحاس باشا» فى مدينة طنطا . . وكان عمر على وقت ذاك أربعة عشر عاما فاكتفوا بفصله من المدرسة، وعام ١٩٣٠ صدر عفو عنه ودخل المدرسة الخديوية، ثم شارك فى إضراب احتجاجًا على تعطيل دستور ١٩٢٣ ثم التحق بالجامعة الأمريكية وحصل على البكالوريا وسافر عام ١٩٣١ إلى إنجلترا وحصل على بكالوريوس الهندسة عام ١٩٣٦. وانضم هناك إلى فريق الملاكمة وأصبح من لاعبيها المشهورين، وعاد إلى مصر وعين مهندسًا باليومية فى مصلحة الميكانيكا والكهرباء، واختير عام ١٩٤١ مديرا لمكتب وزير التموين، ثم مديرا لمكتب وزير المواصلات ومديرا لمكتب وزير المالية عام ١٩٤٢. وعام ١٩٤٣ مديرا عامًا للمستخدمين والمعاشات، وعام ١٩٤٤ فى نوفمبر تفرغ مع «مصطفى أمين» لإصدار جريدة أخبار اليوم.

وعام ١٩٤٥ باع «محمد التابعى» مجلة «آخر ساعة» للتوأم. . وفى مؤسسة أخبار اليوم أصدرا مجلة «آخر لحظة» عام ١٩٤٨ ومجلة «الجيل الجديد» عام ١٩٥١ وفى ١٨ يونية عين نائبًا لرئيس مجلس إدارة مؤسسة أخبار اليوم. وفى ٧ أغسطس عام ١٩٦١ تولى رئاسة تحرير صحف دار الهلال، و٣٠ مارس عام ١٩٦٢ رئيسًا لمجلس إدارة «دار الهلال»، وفى ١٨ أبريل عام ١٩٦٤ تولى رئاسة تحرير أخبار اليوم وأصدر مجلة «هى» وفى ٢ مايو عام ١٩٦٥ أصبح رئيس تحرير.

مصطفى والقضية:

أما «مصطفى أمين» فتختلف حياته بعض الشىء عن حياة «على أمين» التحق بروزاليوسف وهو طالب ثم هاجر من روزاليوسف إلى آخر ساعة عندما أسسها «محمد التابعى» عام ١٩٣٤، وكان قد بدأ مصطفى أمين العمل فى روزاليوسف بعد أن صدرت عام ١٩٢٥، وهو الذى قدم «إحسان عبد القدوس» لمحمد التابعى بعد أن اختلف إحسان مع والدته السيدة فاطمة اليوسف وترك مصطفى أمين آخر ساعة إلى

دار الهلال، ومن الطريف فى حياة مصطفى أمين أنه حكم عليه عام ١٩٣٩ بالسجن لمدة ستة أشهر مع إيقاف التنفيذ بتهمة العيب في ذات «الأمير محمد على» ولى العهد وقد ألغى الحكم عام ١٩٤٢ فى عهد وزارة مصطفى النحاس باشا.

وقد بدأت العلاقة بين سلطة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ وبين صاحبى أخبار اليوم بداية درامية فقد اعتقلا يوم الأربعاء ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ وخرجت العناصر المعادية للتوأم وأخبار اليوم بدعاية ضدهما ولكن مساء يوم ٢٦ يوليو عام ١٩٥٢ ولم توجه لهما السلطة الجديدة أى اتهام وخرجا يمارسان العمل فى أخبار اليوم.

ويذكر القراء ما قام به الصحفى الوطنى الجسور «مصطفى شردى» رئيس تحرير الوفد فيما بعد، وما قام به الصحفى الكبير «مصطفى أمين» إزاء العدوان الثلاثى - أكتوبر عام ١٩٥٦ . . ظل «شردى» داخل بورسعيد وحمل آلة تصوير وجمع الأفلام التى تفضح بشاعة العدوان وتسلل فى ليل دامس فى ملابس صياد وغاص فى بحيرة المنزلة . . ووصل إلى دار أخبار اليوم فى الفجر وسلم أفلام الدمار إلى الأستاذين «مصطفى وعلى أمين» وبأمر من القيادة حمل «مصطفى أمين» هذه الصور النادرة وطار بها ووزع الصور على كبرى صحف العالم لتنشر على صدر صفحاتها الأولى بفضح العدوان الثلاثى . . إنجلترا وفرنسا وإسرائيل.

فهل من قام بهذا العمل الوطنى الغيور يمكن أن توجه إليه تهمة التجسس لحساب الولايات المتحدة الأمريكية؟ كان ذلك فى ٢١ يوليو عام ١٩٦٥، وحدث أن دعانى القائمون على التنظيم السياسى وقت ذاك إلى لقاء مع طلاب وطالبات الجامعة فى أحد المؤتمرات التى يقيمونها فى الإسكندرية وذلك لمناقشة - بالأحرى الرد على - كتابى الذى صدر قبل هذا الميعاد بشهر بعنوان «لماذا الاشتراكية العربية» عن دار المعارف وأعلن «جمال عبد الناصر فى إحدى خطبه» أنها اشتراكية علمية وليست اشتراكية عربية، وصرح «على صبرى» وكتب «كمال رفعت» فى هذا الاتجاه أيضًا، ودخلت هذا المؤتمر لأجد الجميع يتحدثون عن قضية التجسس التى قبض فيها على «مصطفى أمين» ولكنهم ترددوا فى قبول دعوى «الاشتراكية العلمية» وكانت غايتهم تميل إلى تعبير «الاشتراكية العربية».

نعود إلى القضية التى اتهم فيها «مصطفى أمين» ولم تلق قبولا لدى غالبية

الشعب أو الشعوب العربية وقيل فى تفسيرها إن «مصطفى أمين» كان مكلفًا من «جمال عبد الناصر» باستمرار الاتصال بالولايات المتحدة، وكانت القيادة تمده بما ينبغى أن يقوله لمندوبى أمريكا، وأن ينقل إلى «جمال عبد الناصر» ما يقوله الأمريكيون، وعندما ساءت العلاقات بين «مصطفى أمين» وعبد الناصر وغيره من القيادات قبضوا عليه وحاكموه بالمعلومات التى كانوا قد أعطوها له سلفا ليسلمها إلى المندوبين الأمريكيين، وصدر عليه الحكم بالسجن ٩ سنوات قضاها مصطفى أمين فى السجن وقضاها على أمين خارج مصر.

السادات والتوأم:

وبعد وفاة «جمال عبد الناصر» فى ٢٩ سبتمبر عام ١٩٧٠ قام المدعى الاشتراكى «الدكتور مصطفى أبو زيد» بدراسة قضية «مصطفى أمين» وانتهى إلى: «أن الحكم ضد مصطفى أمين بنى على أدلة باطلة، وأن مصطفى أمين تعرض لإكراه بدنى ومعنوى لا طاقة للبشر باحتماله»، وصدر قرار جمهورى نشر فى الوقائع المصرية يقضى بإسقاط الحكم الذى صدر ضد مصطفى أمين، وتم الإفراج عنه وأصدر عدة كتب منها «سنة أولى سجن» سجل فيها الإكراه البدنى والمعنوى الذى تعرض له ولا طاقة للبشر باحتماله، وأصدر «السادات» قرار بتعيين «على أمين» رئيسًا لمجلس إدارة مؤسسة أخبار اليوم، وقرارًا بتعيين مصطفى أمين رئيسًا لتحرير أخبار اليوم.

وكان «على أمين» خلال ٩ سنوات بعيدًا عن القاهرة يعمل خبيرًا لصحف ومجلات «دار النهار» و«دار الصياد» فى بيروت، وبعد حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ طلب منه «السادات» أن يعود فورًا إلى القاهرة فعاد، وأصدر «السادات» قرارًا بتعيين «على أمين» رئيسًا لتحرير الأهرام.

وبعد الإفراج عن «مصطفى أمين» سافر «مصطفى» إلى لندن للعلاج وعاد إلى مصر فى ١٤ مايو عام ١٩٧٤م، وكان «مصطفى أمين» قد قرر بينه وبين نفسه أن يبدأ مرحلة جديدة فى حياته، فكنا نرى طابورًا طويلا ينتظره من الجماهير فى الصباح وهو يدخل إلى أخبار اليوم ويحيى كل واحد ويتسلم منه شكواه . . يعرض بعضها فى عموده المتميز «فكرة»، ويرسل الشكاوى الأخرى إلى المختصين الذين يستمعون

للكاتب الكبير، وانحاز للديمقراطية والحريات وحرية تكوين الأحزاب وحرية العمل السياسى وكتب مقاله الشهير عن هرولة أعضاء حزب مصر إلى الحزب الوطنى الديمقراطى الذى أسسه السادات، فوقعت فجوة فى العلاقات بين رئيس الدولة وبين الكاتب الصحفى الكبير.

تجربة أخبار اليوم:

عندما صدرت جريدة «أخبار اليوم» فى نوفمبر عام ١٩٤٤ فى شكلها الجديد وفى تبويبها بهرت عيون القارئ المصرى وظن الكثيرون أن هذا شيء جديد، وقد كتب المؤرخ والمخرج السينمائى «أحمد كامل مرسى» فى «ذكريات عن صاحبة الذكريات»، وهو يشير إلى ذكريات فاطمة اليوسف ـ الطبعة الثالثة يناير عام ١٩٧٦ صفحة ٢٦١ كتب يقول: «لا جدال فى أن ـ أخبار اليوم ـ عندما ظهرت فى الأربعينيات ١٩٤٤ كانت متأثرة إلى حد بعيد سواء فى الشكل أو المحتويات بالنهج الذى ابتكرته روزاليوسف اليومية وسارت عليه فى الثلاثينيات».

وأعتقد أن هذه الملاحظة التى سجلها «أحمد كامل مرسى» كانت تجول فى خاطر السيدة «روزاليوسف» لأنها فى «ذكرياتها» أفاضت فى الحديث عن الشكل الجديد الذى ظهرت به «روزاليوسف اليومية» بداية من ٢٥ مارس عام ١٩٣٥. قالت فى ذكرياتها: «لم تكن الصحافة اليومية قد عرفت قبل ذلك جريدة تحمل هذا السخاء فى الأبواب.. وأبواب جديدة تمامًا كأبواب الأطفال والتسلية. ولم تكن قد حملت رسمًا كاريكاتوريا قط. حتى الأزهر كان له باب.. وعرفت الصحافة فيها أيضًا التعقيبات الصغيرة الخاطفة التى شاعت الآن.. كان يكتبها كامل الشناوى ويوسف حلمى».

حتى شخصية «المصرى أفندى» وكانت شخصية أساسية فى «أخبار اليوم» بالمسبحة فى يده وطربوشه المتراجع إلى الخلف ونظارته التقليدية.. قالت «فاطمة اليوسف» ص ١٤٨: (شخصية المصرى أفندى ولدت على صفحات روزاليوسف.. كانت «الكشكول» ترسم شخصية جحا، وأردنا أن تكون لنا شخصية أخري «وكانت لدينا مجموعة كاريكاتير من الصحف الأجنبية، وجدنا

فيها أنا والأستاذ التابعي شخصية رجل يشبه «المصرى أفندى» يلبس قبعة ويحمل فى يده مظلة . . واقتبسنا شخصيته بعد أن ألبسناه الطربوش ووضعنا فى يده المسبحة . . وبدأ «صاروخان» يرسم «المصرى أفندى» . . .)

وتبقى «أخبار اليوم» مدرسة لها بصماتها على الصحافة المصرية والعربية صحافة الخبر والجرى وراءه وتوثيقه وتوسيعه . . مدرسة صحافة الخدمات . . السوق واحتياجات ربة البيت . . وصحافة الموضوعات الإنسانية والوصول إلى أطراف هذا الحادث أو ذاك . . والمهارة فى استخدام الكاريكاتور . . واستخدام عنصر الإثارة فى الشكل والموضوع وأذكر أن عدداً من الصحفيين أثار موضوع المانشيت الأحمر على صدر الجريدة وطالبوا بمحاربته والاستغناء عنه، وحاولت بعض الجرائد التجربة الجديدة، ولكنها تراجعت وعادت سيرتها الأولى، وإذا تأملنا الصحفيين فى مختلف الصحف القومية والحزبية لوجدنا الغالبية منهم قد تربوا فى مدرسة أخبار اليوم.

لماذا الصحافة؟:

وعشق التوأم للصحافة والحساسية لحرية الصحفى تعود إلى أفكار تؤمن بدور الصحافة، والدور الذى يقوم به الصحفى يجعله مستهدفًا من السلطة ومن أعداء المبادئ التى يكافح من أجلها الصحفى .

فى أحاديثه وكتاباته كان «مصطفى أمين» يقول : الثورة العرابية وقف معها «عبدالله النديم» والصحف التى كان يصدرها، والصحف الوطنية المصرية وقفت ضد الاحتلال البريطانى ومصطفى كامل كان صاحب «اللواء» قبل أن يكون زعيم حزب، وثورة ١٩١٩ اعتمدت على المنشورات ثم على الصحف . وحول ما لقيته من الحكم عليه بالسجن والإيذاء البدنى والمعنوى كان يردد :

فى السنوات الأخيرة نفى محمود أبو الفتح صاحب جريدة المصرى وعطلوا جريدته واستولوا على متعلقاتها، ومات محمود أبو الفتح فى المنفى، ونفى حسين أبو الفتح نقيب الصحفيين لمدة عشرين عامًا، ونفى أحمد أبو الفتح رئيس تحرير

المصرى لمدة عشرين عامًا، ونفى أحمد فهمى سكرتير تحرير المصرى لمدة عشرين عامًا، وطرد فكرى أباظة من رئاسة مجلس إدارة دار الهلال ومن رئاسة تحرير المصور، وفصل محمد صبيح من رئاسة مجلة التعاون.

من الطرائف:

وكان الشبه الكبير بين على ومصطفى مادة لطرائف كثيرة . . روى «مصطفى» إحداها :

كان حسين سرى رئيس الوزراء قد أصدر أمرًا بأن لا يستخدم صغار الموظفين الأسانسير فى مواعيد معينة. وحدث أن شاهد «سرى باشا» على أمين يكسر هذه القاعدة فعنفه سرى باشا. فقال «على» . . معاليك فاكرنى من؟ أنا لست بعلى أنا مصطفى رئيس تحرير آخر ساعة. . فقال حسين سرى: ياسى مصطفى أنا باهزر . . أنت متصور مش هاعرف على أمين المهندس الصغير بالدرجة السادسة من مصطفى، تعال اشرب فنجان قهوة فى مكتبى وندردش شوية . . يا مصطفى. رحم الله على أمين ومصطفى أمين.

الأسانيد:

١ ـ إحسان عبد القدوس ـ إعداد نرمين القويسى .

٢ ـ أحمد كامل مرسى ـ ذكريات على صاحبة الذكريات .

٣ ـ مصطفى أمين ـ سنة أولى سجن .

٤ ـ محمد شلبى ـ رواد الفكر والفن .

٥ ـ فاطمة اليوسف ـ ذكريات .

عثمان أحمد عثمان ..



يذكرنى دائمًا بالضابط الطيار عبد المنعم عبد الرءوف الذى كان أقرب الضباط على الإطلاق إلى قلب الفريق «عزيز على المصرى» وهذه معلومة أخذتها من «عزيز المصرى» وكتبتها عندما كتبت عن عزيز المصرى فى موسوعتى «هذا الرجل من مصر» ، أما وجه الشبه بين «عثمان أحمد عثمان» و«عبد المنعم عبد الرءوف» فكلاهما كان مخلصًا حتى وفاته إلى دعوة «الإخوان المسلمين» وواجه من الصعوبات ما واجه ولم يفتر إيمانه بهذه الدعوة .

توارى اسمه فى السنوات الأخيرة من أجهزة الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية ، ولكن اسمه كان يقفز إلى ذاكرتى كلما مررت فى شارع «ميشيل باخوم» بالدقى ، لقد كان «عثمان أحمد عثمان» عبقريًا فى اختيار معاونيه ، وكانت نظرته إلى الرجل كثيراً ما تصيب ، لقد وضع قاعدة لطريق النجاح هو أن يختار معاونيه حسب الكفاية وقدرتهم على الإدارة والصدق فى القول والإخلاص فى العمل ، واختار «المهندس دكتور ميشيل باخوم» ليكون فى مقدمة معاونيه الكبار ، ومن أطرف ما رواه فى كتابه «صفحات من تجربتى» أنه كان يحيل المهندسين المهرة الذين يطلبون العمل معه فى «المقاولون العرب» إلى «ميشيل باخوم» لاختيارهم وإصدار القرار بتعيينهم ، وذلك حسب قوله فى مذكراته «أنه كان يدرك أن طالبى العمل هؤلاء من الإخوان المسلمين» ، وحتى يبعد الشبهة فى اختيارهم كان يترك أمر تعيينهم لميشيل باخوم الذى كانت عنده نفس صفات «عثمان أحمد عثمان» وهو أن يكون الاختيار حسب الكفاية بغض النظر عن الانتماء الحزبى أو العقيدى .

ولد عثمان أحمد عثمان فى مدينة الإسماعيلية عام ١٩١٧م، وتوفى والده عام ١٩٢٠م والطفل «عثمان» فى الثالثة من عمره، وترك الأب الراحل أسرة. . زوجته وثلاثة من الأولاد وبنتين، الولد الأكبر كان عمره ١٢ عامًا والأصغر «حسين» كان رضيعًا، كانت الأسرة بلا عائل وبلا موارد مالية أيضًا، واحتضنت الأم أولادها ورفضت من تقدم إليها للزواج. وعندما أصر أشقاؤها على فكرة زواجها. . قالت الأم المصرية الأصيلة . . «لن أسعد نفسي . . وأشقى أولادنا».

وكان الوالد الراحل يمتلك محلا للبقالة . . فترك الابن الأكبر «محمد أحمد عثمان» دراسته الابتدائية وتحمل ما فرضته عليه الأيام. كانت أسرة من سبعة أفراد يعولهم صبى فى الثانية عشرة من عمره، ولكن البقالة أفلست فانصرفت الأم العظيمة إلى تربية الطيور وبيع ما يمكن بيعه من الطيور والبيض. ولم يبخل أحد من أخواله عليهم بشىء، وفتح الله على الابن الأكبر «محمد» ليعمل فى بنك التسليف الزراعى بالإسماعيلية، وهنا نقطة مهمة أن هذه الأسرة المحتاجة رفضت كل مغريات العمل بالجيش البريطانى ورضيت بالقليل الذى عندها، أسرة متحابة مضحية ووطنية.

ودخل «الدين» إلى نفوس الأولاد منذ الصغر، كانت الأم لا تقرأ ولا تكتب، ولكنها كانت تؤدى فرائض الصلاة فى أوقاتها . . وترتل آيات من القرآن الكريم . . وثبتت فى أولادها قيم الدين ومكارم الأخلاق.

عثمان إيده خضرة:

ولد عثمان أحمد عثمان فى ٦ أبريل من عام ١٩١٧، ونشأ فى مناخ الترابط الأسرى. وتشكلت حياته بالصلابة والعناد والمرونة والتصميم . . وهى صفاته فى إدارة «المقاولون العرب» كان يحيط بالمنزل «حوش صغير»، وفكر فى زراعة هذا الحوش ببعض أنواع المزروعات فاكهة وخضراوات. وجمع المعلومات من الفلاحين، وقام بتسوية الحوش. وبذر الحبوب وتعهدها بالرعاية حتى أعطت ثمارها. وقالت والدته قولا أثر فيه طوال حياته: «عثمان . . إيده خضرة» وظل وهو يقيم المبانى الشاهقة يذكر بيتهم فى حارة عبدالعزيز المتفرعة من شارع مكة،

بحي العرب بالإسماعيلية، كان يتكون من طابق واحد، مبنى بالدبش والطين، وسقفه عبارة عن «تعريشة» من الخشب والعروق والجريد، وعشة الطيور.

ويعود بذاكرته إلى . . طبق الفول المدمس ويلتفون حوله جميعًا كل صباح فى أحد أركان البيت.

وقرر الصبى «عثمان» أن يعمل «صبى ميكانيكى» عند على إسماعيل «الميكانيكى» لبضع ساعات بعد انتهاء يومه المدرسى، والأجر فى الأسبوع ٢٥ قرشًا.

البداية .. الإخوان:

فى المدرسة الابتدائية التقى «عثمان» بمدرسه «المرحوم الشيخ حسن البنا» تفتحت عيناه إذن على الرجل الذى قدر له أن يؤسس جماعة الإخوان المسلمين، ويكون له شأن يذكر فى تاريخ مصر الحديث «الشيخ حسن البنا» تتلمذ عليه صبيًا فى المدرسة الابتدائية، ولعل هذه الصلة بين مدرس وتلميذه ترسبت فى نفس الصبى وأتت ثمارها فيما بعد ليرتبط بجماعة الإخوان المسلمين، كان «المرحوم حسن البنا» مدرسًا للغة العربية والدين فى مدرسة الإسماعيلية الابتدائية، وكان شابًا فى العشرينيات من عمره، وكان خال «عثمان» هو الشيخ محمود حسين من علماء الدين فى الإسماعيلية، وقدم شقيقه «الشيخ محمد حسين» رحمه الله إلى «الشيخ حسن البنا» وتأكدت أواصر الصداقة بين «الشيخ حسن البنا» وبين الشيخ «محمد حسين» خال عثمان.

وكان «الشيخ حسن البنا» يذهب كل يوم بعد صلاة العشاء إلى «مندرة» الشيخ محمد حسين ليتفقها فى أمور الدين، وأصبحت الجلسة دائرة المنتدى الدينى و«الشيخ البنا» يتصدر ذلك المنتدى، وتطورت جلسات المنتدى من «المندرة» لتصبح الإسماعيلية كلها منتدى دينيا، وكانت المسيرة تطوف بشوارع حى العرب راحت تمتد إلى الحى الأفرنجى، وصدر قرار بنقل الشيخ البنا من الإسماعيلية إلى القاهرة وقد تم إلغاء النقل بشرط ألا تمتد المسيرة إلى الحى الأفرنجى، وتزوج «الشيخ حسن

البنا» من الإسماعيلية كريمة «الحاج حسين الصولى»، وبدأت جماعة الإخوان المسلمين فى الإسماعيلية عام ١٩٢٨، والصبى «عثمان» فى الحادية عشرة من عمره، وانضم «عثمان» فيما بعد إلى الجماعة.

الوحدة الوطنية:

فى البيئة الدينية التى نشأ فيها «عثمان أحمد عثمان» يرضع الدين والأخلاق من أمه، وفى بيئة المنتدى الدينى فى «مندرة» خاله يقول «عثمان» فى «صفحات من تجربتى»: يبدو أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يجعل من تجربته معى تأكيداً للوحدة الوطنية بين المسلمين والمسيحيين عملا بقوله تعالى ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾ (المائدة: ٨٢).

ويعرف الكثيرون أن شركات عثمان أحمد عثمان يحتل فيها المهندسون والعاملون المسيحيون مكانة مرموقة ووضعًا ممتازًا. وعرفنا أن أحدهم «دكتور مهندس ميشيل باخوم» كانت له يد طولى فى «المقاولون العرب»، ولم يكن هذا الأمر طارئًا على «عثمان أحمد عثمان» ولا طارئًا على «المقاولون العرب» وإنما كان موقفًا من «عثمان أحمد عثمان» منذ بداية أعماله.. يقول فى كتابه «ص ٦٩»:
مرت الأيام لتتسع دائرة أعمالى بحيث أصبحت فى حاجة إلى من يعاوننى خاصة فى الأمور الإدارية فى المكتب، واتصل بى فى التليفون «الحاج إبراهيم أيوب» زوج شقيقتى الصغرى، وقال لى: وجدت لك من يعاونك يا باشمهندس، وهو موجود عندى الآن بالمحل، وذهبت إلى محل زوج شقيقتى، هناك التقيت مع «رياض يوسف أسعد» أول موظف انضم إلى فريق الشركة بعد عثمان أحمد عثمان كان الرجل يعمل موظفًا لدى الجيش البريطانى، وكانت وظيفته ذات دخل مضمون، لذلك تردد فى بداية الأمر أن يقبل العمل فى القطاع الخاص، وخاصة مع شاب ناشئ مثلى.. ووافق وأعددت له مكتبًا يجلس عليه معى فى نفس الحجرة التى بها مكتبى والتى هى مقر الشركة فى ذلك الوقت، وكان أول يوم يتسلم فيه العمل معى هو يوم أحد.

انتظرت يومها فى المكتب حتى الساعة الحادية عشرة دون أن يحضر فتصورت أنه رجل ليس على المستوى الذى أريده . . وكان أن سألته عندما حضر .

أين كنت؟ ولماذا تأخرت؟

وأجابنى الرجل بسرعة : كنت فى الكنيسة :

ويواصل عثمان أحمد عثمان حديثه : واطمأن قلبى من أول لحظة ، فقد عرفت أنه رجل يعـرف الله ، ويرعى أمـور دينه فـلابد من أن يرعى أمـور الآخـرين ومصالحهم ، ولابد أن يكون أمينًا فى علاقاته معهم ، وكم كنت سعيداً بنشاطه الذى ظل يلازمه طوال فترة عمله معى حتى أحيل إلى المعاش وهو يشغل وظيفة «مدير خزائن شركة المقاولون العرب» ، وبقيت الصلات الطيبة بينى وبينه لا تنقطع كما أن ولديه ألبير ولطيف وابنته مارسيل قد انضموا إلى فريق العاملين بالشركة .

الخط الوطنى للمقاولين العرب:

فإذا كان هذا هو الخط الدينى المتسامح للمقاولين العرب فإلى جانبه أيضًا الخط الوطنى ، للمقاولين العرب ، واتخذت الوطنية عنده مفهومًا خاصا يختلف عن المفهوم السائد فى ذلك الوقت ، كانت رؤيته الوطنية أنها عمل يقتضى من كل مواطن أن يعطى وطنه بقدر ما يستطيع فى مجال عمله ، والسياسة عنده نضال فى أى مجال كان سياسيًا أو اقتصاديًا أو علميًا أو ثقافيًا ، أو اجتماعيًا أو عسكريًا حيثما اتضح السبيل أمام المواطن ، ليقدم ما يقدر عليه من مال أو جهد أو تضحية لوطنه .

كان عثمان أحمد عثمان متعاطفًا مع الفدائيين فى منطقة قنال السويس ، وبدأ فى إعادة بناء «كفر أحمد عبده» الذى كانت قوات الاحتلال قد خربته . وعاد من السعودية خصيصًا إلى القاهرة ليسهم فى إعادة تعمير بورسعيد بعد عدوان ١٩٥٦م ، وتقدم بعد ذلك لتنفيذ مشروع «السد العالى» . وشركة المقاولون العرب هى التى قادت معركة إنشاء قواعد الصواريخ ، وهى التى أسهمت فى توسيع قناة السويس ، وأنجزت كوبرى ٦ أكتوبر ، ونفق الشهيد أحمد حمدى ، وإعادة تعمير منطقة القنال بعد حرب أكتوبر عام ١٩٧٣م .

هذا المواطن الذى أسهم فى بناء مشروعات وطنية كثيرة نشأ كما عرفنا نشأة متواضعة، وحصل على الشهادة الابتدائية من مدرسة الإسماعيلية الابتدائية، ورحل إلى القاهرة بعد حصوله على الشهادة الابتدائية، وكان صبيًا فى الثالثة عشرة من عمره، لم يكن فى الإسماعيلية مدرسة ثانوية. وبفضل تفوقه فى الشهادة الابتدائية التحق بالقسم الداخلى بالمدرسة السعيدية، والتقى فى هذه المدرسة بزميله الصعيدى «أنور عبد الفتاح أبو سحلى» الذى أصبح فيما بعد وزيراً للعدل.

وحصل عثمان على شهادة البكالوريا من السعيدية عام ١٩٣٥. وكتب فى الاستمارة رغبته فى كلية الطب، ولكنه التحق بكلية الهندسة وسحب أوراقه من كلية الطب. وطلبوا منه شهادة فقر لأن المصروفات ٤٠ جنيها، وكانت درجاته فى المجموع ٦٨٪ وأعد شهادة الفقر واعتمدها موظفان وقبلت كلية الهندسة أوراقه، ويؤكد فى مذكراته أنه أخذ على نفسه عهدا بما ييسر الله له من فضل ينعم به عليه ألاّ يرد تلميذاً أو طالبًا يقصده. وأقام فى شقة شقيقته المتزوجة من فضيلة الشيخ على حسب الله الأستاذ بجامعة الأزهر الشريف . . والشقة تقع تحت الربع بباب الخلق وكان شقيقه المرحوم الدكتور «إبراهيم عثمان» الطالب أيضًا بكلية الهندسة يقيم فى هذه الشقة، وشقيقته هذه هى والدة الطبيب المعروف «الدكتور عبد المنعم حسب الله» المدير التخصصى لشركة المقاولون العرب.

وكان عثمان يقطع المسافة يوميًا من باب الخلق إلى مبنى كلية الهندسة بالجيزة سيراً على الأقدام مرتين كل يوم.

وفى منتصف الأربعينيات ماتت أمه، وفى سنة ١٩٤٩ توفى شقيقه إبراهيم. وكان عثمان قد تخرج فى كلية الهندسة عام ١٩٤٠م، وبدأ قصة كفاحه فى مدينة الإسماعيلية فى حجرة بعيادة الدكتور «سليمان عبيد» أحد أقارب والدته ودخل مجال الإنشاء والتشييد لأول مرة فى حياته.

وأما بنعمة ربك فحدث:

بدأ حياته العملية بتنفيذ عمليات محدودة للأهالى لا يزيد حجم أكبر عملية منها

على إنشاء منزل، وبحث عن العمليات التى تسندها الشركات إلى المقاولين وكان أول تعامل له مع شركة عبود باشا عام ١٩٤٧. وأدرج «عبد القوى باشا» اسم عثمان أحمد عثمان ضمن أسماء المقاولين المقيدين فى مكتبه، وعام ١٩٥٠ تولى عملية إنشاء مدرسة البنات الابتدائية بالإسماعيلية، وعندما أصبحت المدرسة جاهزة للتسليم قامت قوات الاحتلال البريطانى بالإسماعيلية بالسيطرة عليها عام ١٩٥١ بعد أن أعلنت حكومة مصطفى النحاس باشا إلغاء المعاهدة.

ثم سافر إلى السعودية ليشارك فى عملية أعلنت عنها وزارة الدفاع السعودية، وهناك التقى فى الرياض بجلالة الملك عبد العزيز آل سعود عام ١٩٥٣م.

واستقرت الشركة على عرشها فى دنيا المقاولات فراح بعدها يمتد من السعودية إلى المنطقة العربية كلها، ذهب إلى الكويت.. وامتد نشاطه إلى العراق. وتقدمت شركة «المقاولون العرب» لشراء عملية تحويل مياه نهر الأردن. وعام ١٩٦٨ وصلته برقية من «الشيخ زايد» يدعوه لزيارة أبو ظبى لتنفيذ عدد من المشروعات، وانتقل نشاط الشركة إلى ليبيا وإلى لبنان أيضًا، وقامت الشركة بتنفيذ العديد من المشروعات فى قطر.

وتوطدت علاقات «عثمان أحمد عثمان» بمن التقى بهم من الملوك والرؤساء بالدول العربية مشرقها ومغربها، وأسس شركة فى السعودية باسم «المقاولون السعوديون ـ عثمان أحمد عثمان وشركاه»، وأسس فى أبو ظبى شركة باسم «عثمان أحمد عثمان وشركاه»، وكذلك الأمر فى ليبيا باسم «الليبية للمقاولات والتعمير ـ عثمان أحمد عثمان وشركاه».

معركة السد العالى:

واجه أكثر من خصم، وخاض أكثر من معركة. وكان المتنافسون على كسب العطاء طرفين، جميع مقاولى مصر فى طرف وشركة عثمان أحمد عثمان فى طرف آخر.

وفى ١٢ يناير عام ١٩٦١ أشرف «المهندس موسى عرفة» وزير الرى والسد

العالى على فتح مظاريف العطاء . . كان مظروف المقاولين الآخرين . . سبعة وعشرين مليون جنيه . . وكان مظروف عثمان أحمد عثمان خمسة عشر مليون جنيه، وحدثت أمامه مناورات كثيرة وعاد إلى السعودية حيث كانت توجد أعمال شركته، وتراجع نظام الحكم السابق وعرض عليه «المشير عبد الحكيم عامر» منصب وزارة السد العالى .

ويقول «عثمان أحمد عثمان»، ثم بدأت مؤامرات الروس ضده لأنهم لم يكونوا راضين عن دخول «عثمان أحمد عثمان» فى مشروع السد العالى، ويقول: إن الروس أقنعوا نظام الحكم بتأجيل المرحلة الأولى سنتين رغبة منهم فى البقاء فى مصر، ورفض عثمان وتعهد بإتمام العمل قبل ذلك الموعد. وقد وقف إلى جانبه - حسبما يروى عثمان - المشير عامر وصلاح نصر .

وانتهى العمل فى المرحلة الأولى فى أول مارس عام ١٩٦٤ قبل الموعد المقرر فى ١٥ مايو عام ١٩٦٤ . وجاء خروشوف لزيارة مصر، وعندما تقدم عثمان أحمد عثمان للسلام على خروشوف، شد خروشوف يده بطريقة لافتة للأنظار .

كيف عرفت السادات:

عندما أعلنت أسماء وأعضاء مجلس قيادة الثورة لم أجد فى الأسماء من أعرفه إلا اسم «محمد أنور السادات» الذى عاش خلال مراحله الأولى فترة فى الإسماعيلية، ثم رأيته فى بورسعيد عقب العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ ، وكنت قد حضرت من السعودية خصيصاً لكى تشارك شركتى فى تعمير بورسعيد، وذهبت أزوره فى بيته وفتح لى باب منزله بنفسه وهو يرتدى «الجلباب» . . وكلفنى ذات يوم، بإدخال بعض التعديلات على منزله، طلب أن نبنى ڤيللا لابنته، ثم طلب بناء ڤيللا لكريمته الثانية .

وتكررت الزيارات العائلية بيننا، وسافرت مع السادات عام ١٩٧٦ فى رحلة إلى السعودية والكويت والإمارات، ووافق السادات على افتتاح إنشاءات مصنع الكوك بحلوان فى أول مايو عام ١٩٧١ . وتحدث فيه السادات عن سيادة القانون .

ووصل السادات إلى الإسماعيلية وتحدد موعد زيارته لإسرائيل فى نوفمبر عام ١٩٧٧ . وقلت له بتلقائية شديدة سأذهب معك يا سيادة الرئيس .

وأصبحت فى عهد السادات نائبًا لرئيس الوزراء ووزيراً فى ثلاث وزارات أولها فى ٢٨ أكتوبر عام ١٩٧٣ ، واعتذرت فى نوفمبر عام ١٩٧٦ عن الاستمرار فى العمل الوزارى ، وعام ١٩٧٩ اختارنى المهندسون نقيبًا لهم ، والمرة الثانية عام ١٩٨٣م .

عثمان فى سطور:

ولد عثمان أحمد عثمان فى مدينة الإسماعيلية فى ٦ أبريل من عام ١٩١٧ ، حصل على شهادة الدراسة الابتدائية من مدرسة الإسماعيلية الابتدائية عام ١٩٣٠ ، وحصل على البكالوريا من المدرسة السعيدية عام ١٩٣٥ ، وعلى بكالوريوس الهندسة من كلية الهندسة . جامعة فؤاد الأول بالقاهرة عام ١٩٤٠م ، أسس شركة «المقاولون العرب» فى منتصف الأربعينيات وظل رئيسًا لها ، اختير وزيراً ثلاث مرات ، منحته جامعة «ريكر» بالولايات المتحدة الأمريكية الدكتوراه الفخرية عام ١٩٧٦ . واختاره المهندسون نقيبًا لهم عام ١٩٧٩ ، وعام ١٩٨٣ ، كان له دور مصرى بارز فى بناء السد العالى وتعمير بورسعيد ومنطقة القناة . توفى يوم الجمعة ٣٠ أبريل فى مستشفى المقاولون العرب وشيعت جنازته الأحد ٢ مايو ١٩٩٩ ، يرحمه الله .

الأسانيد:

١ ـ الأهرام «جريدة» أول مايو ١٩٩٩ .

٢ ـ عباس الطرابيلى ـ الوفد ٣ مايو .

٣ ـ عثمان أحمد عثمان ـ صفحات من تجربتى .

٤ ـ لمعى المطيعى موسوعة هذا الرجل من مصر .

عبد الحميد جودة السحار



على امتداد خمس سنوات كاملة من أكتوبر عام ١٩٦٥ حتى ديسمبر عام ١٩٧٠ عكف «عبد الحميد جودة السحار» على تأليف ونشر العمل الكبير «محمد رسول الله والذين معه» فى عشرين جزءاً، وثمن الجزء الواحد «٤٥٠ مليماً» على النحو التالى: ١ - إبراهيم أبو الأنبياء أكتوبر ١٩٦٥ . . ٢ - هاجر المصرية أم العرب مارس ١٩٦٦ . . ٣ - بنو إسماعيل سبتمبر ١٩٦٦ . . ٤ - العدنانيون فبراير ١٩٦٧ . . ٥ - قريش مايو ١٩٦٧ . . ٦ - مولد الرسول يوليو ١٩٦٧ . . ٧ - اليتيم أكتوبر ١٩٦٧ . . ٨ - خديجة بنت خويلد يناير ١٩٦٨ . . ٩ - دعوة إبراهيم مارس ١٩٦٨ . . ١٠ - عام الحزن يونية . . ١١ - الهجرة سبتمبر ١٩٦٨ . . ١٢ - غزوة بدر نوفمبر ١٩٦٨ . . ١٣ - غزوة أحد يناير ١٩٦٩ . . ١٤ - غزوة الخندق مايو ١٩٦٩ . . ١٥ - صلح الحديبية يونيو ١٩٦٩ . . ١٦ - فتح مكة نوفمبر ١٩٦٩ . . ١٧ - غزوة تبوك فبراير ١٩٧٠ . . ١٨ - عام الوفود مايو ١٩٧٠ . . ١٩ - حجة الوداع نوفمبر ١٩٧٠ . . ٢٠ - وفاة الرسول ديسمبر ١٩٧٠.

هل هذا هو كل ما قدمه «عبد الحميدجودة السحار» للعروبة والإسلام؟ نجده قدم للناشئة والأطفال ٨٢ جزءاً موزعة على الموضوعات التالية: قصص الأنبياء فى ١٨ جزءاً، وقصص السيرة فى ٢٠ جزءاً، وقصص الخلفاء الراشدين فى ٢٠ جزءاً، وقصص العربى فى أوروبا فى ٢٤ جزءاً . . ثم قدم فى كتب متفرقة ثمانية كتب مستقلة: «أبو ذر الغفارى - بلال مؤذن الرسول - سعد بن أبى وقاص - أبناء أبى بكر - الرسول «ترجمة محمد فرج» - أهل بيت النبى - حياة الحسين - عمر بن عبد العزيز».

والآن بعد هذا الجهد المخلص أعتقد أن «عبد الحميد جودة السحار» يستحق أن نسير معه فى سيرته الذاتية «هذه حياتى» التى صدرت عام رحيله «١٩٧٤» بعد ٦١ عامًا قضاها فى هذه الحياة الدنيا قارئا وكاتبًا.

وأعترف أننى فضلت أن أتركه هو يعرض لنا حياته بأسلوبه البسيط الحلو ووقائعه الصادقة الأمينة وصراحته التى سبق فيها كثيرين من كتاب سير حياتهم. ولم أتدخل سوى فى العناوين البينية وبعض كلمات وتواريخ بين أقواس محدودة. ولهذا لا يجد القارئ ما اعتاد عليه من أسانيد.

لم تكن هذه أول مرة تضع فيها أمى - فقد وضعت من قبل أنثى ماتت صغيرة - ثم وضعت بعدها أربعة ذكور سقط آخرهم من الشباك، بينما كانت ابنة عمه تحمله وتلاعبه فمات. كنت ذكراً ولم أكن أنثى كما كانت تتمنى أمى. كان أبى ابن خالة أمى. وقد سمى إخوتى بأسماء أخوالى ما عدا «أمين» الذى سقط من الشباك. وسميت «عبد الحميد» تيمنًا باسم خالى الرابع.

مرج دابق:

ذات يوم رأيت الباب مفتوحًا على مصراعيه، فغافلت كل من فى الدار وانسللت أحبو إلى الحارة.. وجاء حصان يعدو.. وانقض علىّ كالقدر.. وإذ بيدين تنتشلانى من بين حوافر الحصان قبل أن أصاب بسوء.. وإلا لمت مثلما مات قنصوة الغورى تحت سنابك الخيل فى معركة مرج دابق.

أهلى كلهم تجار.. كانوا يغلقون محالهم إذا أذن المؤذن بالمغرب، ثم يعودون إلى بيوتهم لا يغادرونها إلا فى صباح اليوم التالى لينطلقوا إلى عملهم، فما كانوا يزورون أو يزارون وما كانت لهم صداقات.

الحارة:

كانت حارتنا أشبه بثعبان يصل ما بين شارعى الصوابى وشارع الحسينية.. وكان

شارع الحسينية فى ذلك الوقت هو الشارع الرئيس فى القاهرة. واحتفال المحمل ينساب فيه. وكان شارع الحسينية هو الطريق الذى يتبختر فيه جنود الحلفاء على ظهور جيادهم «ذلك أثناء الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٨». وحدث أن دنا أخى أحمد من جندى هندى وسأله: أنت مسلمان؟ فقال الرجل واللحية السوداء التى تزين وجهه تتحرك لانفراج فمه بابتسامة مطمئنة: الحمد لله. ودنا أخى سعيد «شقيق عبد الحميد وله بعض المؤلفات» من جندى آخر وقال له: أنت مسلمان؟ - الحمد لله. وأعجبتنى اللعبة فدنوت من جندى ثالث وقلت له: أنت أم سليمان؟ «عبد الحميد ولد عام ١٩١٣ فقد كان صغير السن فى فترة الحرب العالمية الأولى. وأم سليمان هذه هى خالة والدة عبد الحميد». فرد الجندى الثالث - الحمد لله. وقال «أحمد وسعيد» فى فرح: دول مسلمين.

شىء من السياسة:

كنت لا أفقه من أمر السياسة شيئًا، ولكننى كنت أغنى مع الأطفال: الله حى، عباس جى. وسمعت من أبى أن الخديو عباس حلمى سافر إلى تركيا وفى أثناء وجوده هناك قامت الحرب بين ألمانيا وتركيا من جهة، وبين الإنجليز وحلفائهم من جهة أخرى. وأن الإنجليز عزلوا «عباس الثانى» وعينوا «السلطان حسين كامل». وكان أبى ولا ريب يتمنى انتصار تركيا، وكان أبى متشيعًا ولا ريب للخلافة.

ثورة ١٩١٩:

قامت فى طول البلاد وعرضها ثورة ١٩١٩ تطالب باستقلال مصر. وقام الشعب بحفر الخنادق فى الطرقات ليمنع عربات الإنجليز من الانطلاق فى شوارع القاهرة لقمع المظاهرات التى انتشرت فى كل مكان. كانت المظاهرات مستمرة، فى ذات يوم خرج الأزهر فى مظاهرة ضخمة يهتف.. الاستقلال التام أو الموت الزؤام. وخرجنا من فصولنا نهتف فى حماسة.. الاستقلال التام أو الموت الزؤام، وإن كنت لا أدرى ما هو الموت الزؤام.

السردار

وذات يوم كنا نلعب إذ بصوت بائع الجرائد يصيح : قتل الشيوعى سفاك ، قتل السردار «نوفمبر ١٩٢٤ ، وكان عبد الحميد عمره ١١ سنة» ، واشترينا الصحيفة «بخمسة مليمات» ، وأخذنا نقرأ قصة اغتيال سردار الجيش المصرى فى السودان . وحكم بالإعدام علي شفيق منصور وعدد من زملائه ، وخرج ماهر والنقراشى براءة وغني الشبان :

ماهر والنقراشي . . والشيخ أحمد جاد والشيشينى معاهم . . والناس الأمجاد .

الشقيقتان:

وأنجبت أمى بعد ولادتى التى لم يرض أحد بها . أختى فلة وزينب ، وقد قرت عين أمى بالبنتين فقد كانت أمنيتها أن تكون لها ابنة تقف على غسلها يوم موتها . كان أبوها من الخليل فى فلسطين إلا أنها كانت تقدس الموت تقديس الفراعنة .

رحيل سعد باشا:

وبينما كنا سعداء جاء نبأ وفاة الزعيم سعد زغلول فأحسسنا حزنًا يعتصر أفئدتنا ، كنا نحب سعد باشا فرحنا نردد فى أسى بعض أقواله فى مناسبات وطنية : تقطع يدى ولا يقطع السودان من مصر ، الحق فوق القوة والأمة فوق الحكومة .

التعليم وكرة القدم:

ظهرت نتيجة الابتدائية وكنت من الناجحين «عام ١٩٢٧» وحصلت على شهادة الابتدائية بعد أن يئست من الموت الذى كنت أنتظره فى كل ليلة . وقررت أنا وصلاح «يقصد زميله وصديقه فيما بعد صلاح قنصوة» أن نقدم أوراقنا لمدرسة فؤاد الأول الثانوية ، وكان أخى سعيد قد التحق بها . وكنت فى ذلك الوقت من أحسن لاعبى الكرة فى المدارس الابتدائية .

وظهر بعد ذلك «رودلف فالنتينو» ساحر النساء فأصبح من أحب النجوم إلى قلوبنا واستولى على كل مشاعرنا بروايتى الشيخ وابن الشيخ، ودماء ورمال، ورحت أحلق ذقنى قبل الأوان لتطول سوالفى، وقد استطالت فعلاً وسعدت بأن أصبحت كسوالف رودلف فالنتينو، وقد سجلت ذلك فى أكثر من صورة. وأحيانًا كنت أصغى إلى من يقرأ فى السيرة النبوية لابن هشام «يعبر السحار هنا عن التناقضات، التى يمر بها فى فترة الشباب» وأقرأ للحاضرين بعض فصولها. وابن هشام قد أخذ عن «ابن إسحاق» ولم يهتم أحد منهما بأن يسرد أحداث السيرة حسب زمان وقوعها، ترى هل بذرت فكرة كتابة السيرة فى نفسى منذ ذلك الوقت؟ «السحار كتب السيرة بالتسلسل الزمنى».

وزارة النحاس باشا:

واجتاحت البلاد موجة من الفرح، فالنحاس باشا رئيس الوفد وزعيم الأمة قد ألف وزارة ائتلافية. وقامت مظاهرات الابتهاج فى المدارس. وصار هذا الحدث حديث كل الصحف، وفى البيوت «يشير هنا إلى وزارة مصطفى النحاس باشا الأولى ١٦ مارس - ٢٥ يونيو ١٩٢٨».

وانتهيت من امتحان آخر السنة وعمرى فى الخامسة عشرة «ولد عام ١٩١٣» ونجح صلاح، وعدت إلى البيت مسرورًا أتوقع أن يطغى حديث نجاحى على كل حديث فى البيت. وفى السلاملك كان الجميع مشغولين بحديث آخر، أقال الملك فؤاد مصطفى النحاس باشا وكلف محمد محمود بتأليف الوزارة الجديدة «يونيو ١٩٢٨».

إلغاء الامتيازات الأجنبية:

كان يهود حينا يفخرون بمناسبة وبلا مناسبة أنهم «حماية» وأنهم رعايا إنجلترا أو فرنسا أو إيطاليا أو أية دولة أجنبية، وأنهم يتمتعون بالامتيازات الأجنبية. وأن لهم محاكمهم الخاصة لا يحاكمون إلا أمام المحاكم المختلطة. وكانوا يقولون فى زهو

إنهم ليسوا أولاد عرب. «ألغيت الامتيازات الأجنبية فى وزارة مصطفى النحاس باشا الرابعة ـ أغسطس ١٩٣٧ حتى ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧ بعد مؤتمر مونترو». وكان أغلب رواد السلاملك من الوفديين، حتى الذين كانوا من أنصار الحزب الوطنى كانت ميولهم مع الوفد.

حكومة إسماعيل صدقى:

راحت صحف الوفد تشن حملة مريرة على صدقى باشا وتطالب بإعادة دستور «١٩٢٣» . . وكانت الانتخابات مباشرة وجعلها صدقى ذات درجتين، وبدأت الدراسة فى المدارس، فإذ بالمظاهرات تخرج إلى الشوارع بقيادة الطلبة الوفديين تهتف بسقوط صدقى وبحياة دستور ٢٣.

وحان امتحان الكفاءة ودخلنا إلى سرادق عظيم. . وسرى همس بين الطلبة أنهم كانوا على علم بالأسئلة قبل أن توزع عليهم. «عام ١٩٣٠»، وفى الليل جاء إلى صديق وأخبرنى بالنظرية الهندسية التى سأسأل فى الغد عن إثباتها. وثم كانت دهشتى عندما قرأت ورقة امتحان الهندسة فكانت تحتوى على ما حصلت عليه فى الليلة الماضية. وشنت الصحافة الوفدية هجومًا قاسيًا على الوزارة فتأجل الامتحان. وكنا ننتظر فى لهفة فيلم «أولاد الذوات» فهو أول فيلم ناطق وأصبح من المألوف أن نسمع سباكًا يقول: «يا مرات الكل يا مزبلة . . شرف، البنت زى عود الكبريت ما يولعش إلا مرة واحدة» ـ فيلم أولاد الذوات قدمه يوسف وهبى فى موسم ٣١ ـ ٣٢ وأخرجه «محمد كريم»، وهو أول فيلم ناطق فى السينما المصرية.

بين المساجد والعيد:

كنا نزور الحسين والسيدة زينب، وفى يوم الجمعة أصاحب أبى من العصر إلى العشاء إلى المقرأة بمسجد الإمام الشافعى أصغى إلى تلاوة كبار المقرئين، وأذكر أن شيخًا قرأ ذات مساء: ﴿ووسوس لهما الشيطان﴾ وإذ بجميع المقرئين الآخرين يقولون فى صوت واحد: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ (الأعراف: ٢٠) وركبنا سيارة

أجرة انطلقنا إلى مسجد السيد البدوى وما أن هبطنا منها حتى راح تجار حب العزيز يجذبوننا من ملابسنا لنشترى من البركة.

كان عيد الأضحى على الأبواب فكان حديث السلاملك .. الحج ومراسمه. وكانت أصوات الخراف التى وضعت فى البدروم ترتفع بين آن وآن. وانقضت ساعات السمر ودخلت إلى فراشى فإذا بى أحس أن حرارتى قد ارتفعت .. وكان مرض «الدنجى» منتشراً فى تلك الأيام. إنه حمى قاسية تصيب الرأس وترتفع درجة الحرارة، وتحدث انفجاراً بالأذنين قبل أن تسوق الفريسة إلى الموت. توجهت فى نومى إلى القبلة وصليت وأنا نائم. كانت صلاتى فى مناجاة حارة لربى وانتهيت من صلاتى وأنا أستشعر راحة لم أحسها من قبل. وفى الصباح الباكر استيقظت على رائحة شواء. وأسرعت إلى السطح وأخذت أخطف كالصقر كل ما يسلت من الأسياخ. وبعد أن أكلت حتى امتلأت أحسست الحمى تنقشع. ومنذ ذلك اليوم وأنا أعالج الحمى بالكباب وبدأت رحلتى إلى الله بالصلاة فى المساجد.

المقالات الأولى:

كان الاقتصاد السياسى والمذاهب الاقتصادية تستهوينى، وقد كتبت مقالاً وبعثت به إلى الأهرام فإذا بالمقال ينشر وكان هذا أول صلة بينى وبين النشر. وترجمت بعض مقالات لكتاب إنجلترا وبعثت بها إلى الأهرام، فإذ بها تنشر جميعًا عام ١٩٣٧م، وترجمت مقالاً وبعثت به إلى جريدة «المقطم» فإذ بالمقال ينشر فى الصفحة الأولى مع مقالات كريم ثابت وفارس نمر.

الزواج:

كانت جدتى لا تفتأ تتحدث عن زواج أحفادها الذكور من حفيداتها الإناث. وما كانت تهتم بفارق السن أو الثقافة. ورأت أن تزوجنى من صغرى بنات عمى محمد. وراحت أمى تحبذ الفكرة. وكانت ابنة عمى فى الخامسة عشرة. وكانت لا تجرؤ فى تلك الأيام على أن تخرج سافرة الوجه «كان عبد الحميد فى الثالثة

والعشرين من عمره، وأن الزواج تم عام ١٩٣٦». ورأى أبى أن خير البر عاجله. وما كان أبى ليشغل باله برزقنا، إنه يؤمن إيمانًا لا يتزعزع بأن فى السماء رزقكم وما توعدون. كانت الحياة سهلة ميسورة فما كنا نستشعر خوفًا من المستقبل وما كنا نلمس حقد طبقة على طبقة. كنا نشترى عشر بيضات بقرش صاغ. وكنا نشترى بنصف القرش ما نحتاج إليه من خضر، وأما مكونات السلاطة فقد كنا نحصل عليها بلا مقابل من الخضرى لأننا من زبائنه. وفى أول مايو ١٩٣٧ كان يوم شم النسيم وكنت أستعد لامتحان البكالوريا الذى لم يبق عليه إلا بضعة أيام. وما أن وضعت رأسى على الوسادة حتى رن جرس الباب رنينًا مفزعًا. هرولت وما إن فتحت الباب حتى سمعت من يصرخ فى وجهى بأن أبى قد مات. وظهرت النتيجة فإذ بى من الراسبين، رسبت فى المحاسبة وذهبت إلى قبر أبى وأفضيت إليه بنبأ رسوبى ووعدته بأننى سأطوى حزنى وسأستعد للدور الثانى. إن هى إلا شهور وأنال البكالوريوس. ونجحت وأتممت مسوغات تعيينى وتسلمت كتابًا إلى السلاح الجوى الملكى بألماظة ذكر به أننى عينت كاتبًا بالدرجة الثامنة بمرتب قدره ثمانية جنيهات ونصف الجنيه.

استكمال السيرة الذاتية:

صدرت «هذه حياتى» لعبد الحميد جودة السحار عام ١٩٧٤ وهو العام الذى رحل فيه إلى رحاب الله. وكانت سيرة فيها النجاح وفيها الفشل، فيها الراحة وفيها التعب، وفيها التقدم وفيها التعب ولكن لصدقها وجرعة الدقة فى الوصف التفصيلى لشريحة من المجتمع المصرى فى فترات مهمة من تطوره. آثرنا هنا أن نجعله يتكلم بلسانه إلى القراء حديثًا مباشراً ولم نتدخل إلا فى عبارات شارحة بين قوسين. ونعود الآن لنشير إلى بعض خطوات من خطواته استكمالاً للصورة ولعلنا لم نزل نذكر العمل التليفزيونى فى رمضان سابق الذى قام على عمله الروائى «الشارع الجديد» الذى أعادنا إلى فترة سابقة كانت فيها الأسرة المصرية متماسكة، وكانت فيها الحركة الوطنية تحت قيادة الزعيم العظيم «سعد زغلول» . . كانوا ثلاثة تقدموا لجائزة مجمع اللغة العربية «نجيب محفوظ» بروايته «خان الخليلى» وسعيد

العريان بروايته «على باب زويلة» وعبد الحميد جودة السحار بروايته «فى قافلة الزمان» ونجح الأول والثانى ولم يقدر للثالث أن يفوز . . ولم ييأس وانطلق يثرى المكتبة الإسلامية والعربية والمصرية بأدوار كثيرة وفقه الله إليها. أسهم فى تأسيس «لجنة النشر للجامعيين» فى منتصف الأربعينيات واهتم بنشر أعمال صديقه «نجيب محفوظ»، وأسهم فى إنشاء «مكتبة مصر» مع شقيقه «سعيد» لنشر أعمال: «محمود البدوى وعادل كامل ومحمد عفيفى وإبراهيم المصرى ووديع فلسطين ووداد سكاكينى والشيخ كامل عجلان».

ولد فى أبريل عام ١٩١٣ ورحل فى يناير عام ١٩٧٤، ورغم شغفه بالتاريخ والأدب انصرف إلى الدراسات الاقتصادية والعلمية وحصل على البكالوريوس عام ١٩٣٧م وتزوج عام ١٩٣٦ قبل تخرجه بعام. وخلال مسيرته قدمت له السينما عشرة أعمال رائعة. وعشرات الأعمال المهمة فى الدراسات العربية والإسلامية. ورأس مجلس إدارة السينما والمسرح. وعمل بمخازن الطيران عقب تخرجه عام ١٩٣٧. ومديراً عاماً لمؤسسة البناء والحراريات. كانت أعماله فى اتجاه ونبضه الأدبى والاجتماعى، والدينى فى جانب آخر. . ووفقه الله فى الجانبين

المهندس الزراعى سيد مرعى



كان يفاخر دائما بأن جده الأكبر كان من نجد، هذا الجد هو «نصر إبراهيم نصر» وجاءت الأسرة إلى مصر . . وشقيق الجد الأكبر هو «مرعى إبراهيم نصر» ولد أثناء غزو نابليون لمصر ومات فى ثورة عرابى عام ١٨٨١ ، وكان «مرعى» يمتلك ٣٥٠ فدانا واختير عمدة للعزيزية ـ مديرية الشرقية خلفا لشقيقه الأكبر.

و«أحمد مرعى» والد «سيد مرعى» هو الابن الأصغر «لمرعى إبراهيم نصر» وولد عام ١٨٧١ م قبل رحيل والده بعشر سنوات، وانتقل «أحمد مرعى» بالأسرة إلى القاهرة عام ١٩١٩ ، واستقر بالعباسية واحتفظ بأطيانه فى العزيزية وأنجب الوالد أحمد مرعى سبعة هم: «أمينة، وحسن، وسيد، ومرعى، وعزيزة، وعمر، وعائشة».

وانفرد «سيد» بالانغماس فى السياسة وبالتفكير المرتب وبصداقاته لعدد من الصحفيين والاقتراب من الفلاحين، من الطريف أن سلوكه فى بيته كان بعيدا، عن الترتيب والسياسة وصفته زوجته ابنة عمه السيدة «سعاد» فقالت . . (كان محبا للفوضى فى دولاب ملابسه . . يرفض التعامل مع باب أى حجرة بيده . . كان يركله بقدمه . . فى الصباح يخرج نصف ملابسه من الدولاب إلى السرير لكى يخرج منه قميصا وبدلة. ويترك لى أن أعيد ترتيب الملابس بالدولاب مرة أخرى . . لو استطاع أن يأخذ دشا عشر مرات فى الساعة لفعل مصطحبا معه فى كل مرة «البشاكير» المبتلة إلى غرفة النوم، ويلقى بها على السرير . . وعندما يجلس مع أصدقائه وأسرته داخل المنزل، لا يحب الحديث عن السياسة).

فى البدء كان الوفدى . . أحمد مرعى إبراهيم نصر من جنود «سعد زغلول» المخلصين. ومن أبناء الوفد الأوفياء، وجاءت انتخابات عام ١٩٢٤ ورشح الوفد «حسن بك مرعى» وهو ابن شقيق «أحمد مرعى» ووالد «سعاد» التى تزوجها «سيد مرعى» فيما بعد، ورشح الوفد «أحمد مرعى» والد «سيد» عن دائرة «الصنافين» وهى دائرة «يحيى إبراهيم باشا» رئيس الحكومة الذى يقوم بإجراء الانتخابات والتف الفلاحون حول مرشح الوفد وتحدوا الحكومة ونجح مرشح الوفد وسقط رئيس الوزراء.

كان «أحمد مرعى» يرى فى «سعد زغلول» النموذج الأصيل للسياسى الوطنى الشريف، وفى «أوراقه السياسية» سجل «سيد مرعى» أنه تمنى أن يرى «سعد زغلول» ويقترب منه. . (وخرجت المظاهرات الشعبية من الحى الذى يسكنه ـ العباسية ـ ومن كل أحياء القاهرة فى طريقها إلى بيت الأمة. . اتفقت مع أخى «مرعى» على السير فى تلك المظاهرة حتى نرى بعيوننا زعيم الأمة. وسرنا فى المظاهرة حتى باب الحديد ـ محطة مصر ـ وتدخل البوليس وفرق المظاهرة وتجمعوا مرة أخرى واتجهنا إلى بيت الأمة. . كانت أول مرة أخطو داخله. . ومازالت الصورة ماثلة فى ذهنى بكل تفاصيلها كما لو كانت قد حدثت بالأمس. . واحتشد الشعب يهتف له. . وظهر سعد زغلول فى الشرفة واشتد الحماس وتعالت الهتافات. . ومازلت أذكر طلعته المهيبة ووجهه الوقور وشعره الأبيض. . ووجدت نفسى أصفق مع الناس وأهتف لسعد ووقف الزعيم يحيى الشعب بيده، وانفضت المظاهرات وبحثنا فى جيوبنا عن أى ملاليم لكى نركب الترام إلى العباسية ولكننا لم نجد مليما. . واضطررنا إلى العودة سيرا على الأقدام. ولم نشعر بأى تعب فقد كانت السعادة تملأ قلوبنا بعد أن رأينا سعد زغلول).

محبة خاصة للنحاس باشا:

فى فترة طفولته من «١٣ ـ ١٩١٨» ـ ولد سيد مرعى فى العزيزية ٢٦ أغسطس عام ١٩١٣ ـ كانت توجد فى مصر ثلاثة أحزاب سياسية هى حزب الأمة والحزب الوطنى وحزب الإصلاح على المبادئ الدستورية، ويقرر فى «أوراقه السياسية» أن

بداية الحياة الحزبية الحقيقية كانت مع الوفد «١٣ نوفمبر عام ١٩١٨» ومع «سعد زغلول» ومع حركة التوكيلات من الأمة - من أقصاها إلى أقصاها.

ويسجل فى «جـ١ ص ١٥٣» أنه كان يكن محبة خاصة لمصطفى النحاس باشا وأن انتماءه إلى الهيئة السعدية جاء بناء على ترشيح «محمود فهمى النقراشى باشا» له فى انتخابات عام ١٩٤٤ وهى الانتخابات التى قاطعها الوفد ولم يكن انتماؤه للسعديين «عن رغبة فى الممارسة الحزبية ص ١٥٥».

وبدافع من محبته الخاصة للنحاس باشا وثقته فى وطنيته نراه يحرص على أن يقتطف من «د. محمد حسين هيكل - مذكرات فى السياسة المصرية - دار المعارف ١٩٩٠ ص ٢٠٨» بمناسبة كلامه عن حادث ٤ فبراير عام ١٩٤٢ المعروف. وكان «مصطفى النحاس باشا» قد رفض تشكيل الوزارة ولم يقبل ذلك إلا بعد أن قال له «الملك فاروق» أمام الزعماء الآخرين «إننى أكلفك بتشكيل الوزارة» وفى ٥ فبراير عام ١٩٤٢ أرسل النحاس باشا الرسالة التالية إلى «السير مايلز لامبسون اللورد كيلرن فيما بعد. . والتى نشرها «د. محمد حسين هيكل» فى مذكراته، وأعاد نشرها «سيد مرعى» فى«أوراق سياسية» :

«يا صاحب السعادة. . لقد كلفت بمهمة تأليف الوزارة وقبلت هذا التكليف الذى صدر من «جلالة الملك» بما له من الحقوق الدستورية وليكن مفهوما أن الأساس الذى قبلت عليه هذه المهمة أنه لا المعاهدة البريطانية ولا مركز مصر كدولة مستقلة ذات سيادة يسمحان للحليفة بالتدخل فى شئون مصر الداخلية وبخاصة فى تأليف الوزارة أو تغييرها».

وقراءة متأنية لهذه الرسالة التاريخية تكشف عن الوجه الوطنى للزعيم مصطفى النحاس، وترد على كل ما أثير بالمخالفة عن هذا الحادث.

بين ماهر والنقراشى:

فى أكتوبر عام١٩٤٤ شكل «أحمد ماهر» الوزارة، وشرعت تلك الحكومة فى الإعداد للانتخابات التى قاطعها الوفد، وقام «محمود فهمى النقراشى» بترشيح

«سيد مرعى» فى دائرة العزيزية، وكان «فكرى أباظة» قد رشح نفسه فى دائرة منيا القمح، وفوجئ «سيد مرعى» باقتطاع قرية «كفر فرج جرجس» من دائرة العزيزية المرشح فيها «سيد مرعى» وضمها إلى دائرة منيا القمح المرشح فيها «فكرى أباظة» وغضب «سيد مرعى» وفكر فى الانسحاب من الانتخابات. وحضر إلى القاهرة غاضبا وقابل «النقراشى باشا» و«بدوى خليفة» وكيل وزارة الداخلية الذى أدخله لمقابلة رئيس الوزراء «أحمد ماهر» ونترك «سيد مرعى» يحدثنا عن هذا اللقاء: دخلنا إلى مكتب الدكتور أحمد ماهر.. لم يرحب بى على عكس النقراشى باشا.. وأخذ ينصت لكلامى وظهرت علامات الضيق على وجه أحمد ماهر وقال لى:

ـ من أنت؟ أنا لا أعرفك؟

ـ أنا سيد مرعى.

ـ كيف تقارن نفسك برجل مثل فكرى أباظة؟ صاحب القلم الصحفى، والتجارب البرلمانية! والخبرة العريضة فى السياسة؟ إنك مازلت صغيرا «٣١ عاما» وإذا كنت تفكر بهذا الأسلوب من أول الطريق فالأفضل أن تبتعد عن العمل السياسى.

ـ قلت: ما حدث يؤثر على موقفى فى الدائرة..

ـ قال: انسحب من الانتخابات ما دمت غير قادر على خوضها.. وانتهت المقابلة العاصفة.

بقى أن يعرف القراء أن «سيد مرعى» نجح فى الانتخابات، وفكرى أباظة نجح أيضا.. وفى حديثه «ص ١٢٧» عن الحملات التى تعرض لها «مصطفى النحاس باشا» والوفد بعد خروجه من الوزارة فى ٨ أكتوبر عام ١٩٤٤ يقول:

«.. عندما ينظر الإنسان إلى تلك الحملات بعد مرور فترة كافية عليها فإنه يدرك بغير شك أن الجزء الأكبر منها كان ظالما وكان موعزا به من الملك فاروق نفسه، بل إن القصر الملكى لم يتورع عن تزوير بعض النتائج انتقاما من مصطفى النحاس والوفد».

وراحت أيام وجاءت أيام وفى أغسطس عام ١٩٤٩ تم حل البرلمان وكان «إبراهيم عبدالهادى» رئيسا للوزارة بعد اغتيال النقراشى . وأجرت حكومة «حسين سرى» الانتخابات ، ورشح «سيد مرعى» نفسه فى دائرة العزيزية ونجح مرشح الوفد وسقط «سيد مرعى» «وكان سقوطى فى الانتخابات صدمة ضخمة بالنسبة لى . . وقررت أن أعتزل السياسة ص ٣٦٠» .

الزراعة والإصلاح الزراعى:

لا ينكر أحد أن «سيد مرعى» كان فلاحا ابن فلاح ونشأ مع الفلاحين فى مديرية الشرقية بدلتا مصر ، وارتبط اسمه بالزراعة والإصلاح الزراعى واستصلاح الأراضى ، اهتم وهو نائب بتحديد القيمة الإيجارية وتحدث عن تحديد الملكية ، اشترك فى الوزارة عام ١٩٥٦ كوزير دولة للإصلاح الزراعى ، ثم وزيرا للزراعة عام ١٩٥٧ بالإضافة إلى الإصلاح الزراعى ، ووزيرا للزراعة عام ١٩٥٨ «الإقليم الجنوبى» بعد تجربة الوحدة مع سوريا التى فشلت ، ثم وزيرا مركزيا للزراعة والإصلاح الزراعى حتى أكتوبر عام ١٩٦١ «موعد الانفصال» ، وعاد وزيرا للزراعة بعد هزيمة ٥ يونيو عام ١٩٦٧ ، وفى سبتمبر عام ١٩٧٠ وأصبح فى نوفمبر ١٩٧٠ نائبا لرئيس الوزراء لشئون الزراعة ، والرى ووزيرا للزراعة والإصلاح الزراعى .

وللتاريخ نقول إن «سيد مرعى» لم يكن الأول أو الوحيد الذى دعا إلى الإصلاح الزراعى أو الإصلاح عن طريق تحديد الملكية . . كان هناك «محمد خطاب» عضو مجلس الشيوخ ، و«إبراهيم شكرى» فى مجلس النواب ومن قبلهما الجمعية التى كونها «د . إبراهيم بيومى مدكور» مع «مريت غالى» .

ويذكر فى أوراقه السياسية أنه عندما وقف فى مجلس النواب وكان «حامد جودة» رئيسا للمجلس ، وعندما تحدث «سيد مرعى» فى شئون الزراعة وتحديد الملكية فوجئ ببعض النواب يصيحون . . شيوعى . . شيوعى . . فارتبك وعرق ولم يستطع أن يتكلم أو ينظر فى الأوراق التى بين يديه واستدعاه حامد جودة إلى حجرته الجانبية ، ولقنه أول درس فى الحياة النيابية «أنت بهذا الأسلوب لن تكون

أبدا سياسيا لأنك لم تدرس موضوعك جيدا ولم تدافع عنه بما فيه الكفاية . . » ولم يتمالك «سيد مرعى» فبكى فى حجرة رئيس المجلس «حامد جودة» .

عارض «سيد مرعى» مشروع مديرية التحرير «مجدى حسنين» وتحدث عن الأخطاء التى جرت فيها وعدم دراية الذين قاموا بها وعدم كفاءة الذين عملوا فيها . . وانتهى الأمر بضم مديرية التحرير إلى وزارة الزراعة .

وشهد «سيد مرعى» للوفد بتأييد الإصلاح الزراعى على غير ما يزعمه أعداء الوفد بأنه عارض أو لم يوافق على المشروع ، فى أوراقه السياسية «الجزء الثانى ص ٢٩٠» : «جريدة المصرى - ٢٥ مارس عام ١٩٥٤ . . أعلن المتحدث باسم الوفد على لسان مصطفى النحاس باشا تأييده لقانون الإصلاح الزراعى» . . ثم يقول «مرعى» «كان ذلك التصريح بمثابة إقرار من الوفد بمشروع الإصلاح الزراعى . . على صفحات الجريدة الناطقة بلسانه» .

آخر خدمة الغز:

فى فبراير ١٩٦٨ نشبت أول مظاهرات ضخمة ضد النظام السياسى فى مصر ، وترتب على هذه المظاهرة صدور بيان ٣٠ مارس ، وتقرر أن يقوم أعضاء اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى العربى بانتخاب أعضاء اللجنة التنفيذية وعددهم عشرة ، وقرر الأصدقاءالثلاثة «سيد مرعى وعزيز صدقى وحسن عباس زكى» دخول الانتخابات ، وكان «محمد حسنين هيكل» بحكم صداقة سيد مرعى له نصحه بألا يدخل الانتخابات لأن واحدا من هؤلاء الثلاثة لن ينجح فيها .

وكان «سيد مرعى» يحتفظ بأسلوبه الريفى . . عقد صداقات مع الفعاليات الصحفية أمثال . . محمد حسنين هيكل ومصطفى أمين وإحسان عبدالقدوس وأحمد بهاء الدين وموسى صبرى ، وفى جانب آخر يدعم علاقاته بالأسر ذات القرابة والمصاهرة من أسرته «أسرة محيى الدين» و«الأباظية» ، و«مشهور» و«علوبة» و«كمال الدين حسين ، و«البغدادى» ، و«عثمان أحمد عثمان» ، و«أبو نصير) . . وغيرهم ربما ينفعون فى الأزمات .

وأكد له «شعراوى جمعة» أن الانتخابات ستكون حرة ١٠٠٪ المهم، إن انتخابات اللجنة التنفيذية العليا أجريت، وحصل على صبرى «١٤٣ صوتا» وحسين الشافعى «١٣٠» صوتا، والدكتور محمود فوزى «١٢٩» صوتا، وأنور السادات «١١٩» صوتا، وكمال رمزى استيف «١١٢» صوتا ـ وعبدالمحسن أبو النور «١٠٤» أصوات وضياء الدين داود (١٠٤) أصوات ومحمد لبيب شقير «٨٠ صوتا». وسقط الفرسان الثلاثة بالثلث. . «سيد مرعى ـ ٣٧ صوتا» و«عزيز صدقى ـ ٣٢ صوتا» و«حسن عباس زكى ـ ٣٨ صوتا».

وأكد «أحمد عبدالآخر ـ محافظ الجيزة فيما بعد» أنه فى تلك الانتخابات حدثت مؤامرة من جانب «على صبرى وعبدالمحسن أبو النور» لإنجاح مجموعتهم وإسقاط الآخرين، ولأن «سيد مرعى» فلاح لا ينسى مثل هذه الإساءة أسرها فى نفسه وردها لهم فى مايو عام ١٩٧١، ووقف بثقله إلى جانب «أنور السادات» فى مواجهة «على صبرى» ومجموعته من مراكز القوى.

سنوات الجحيم السياسى:

تحت هذا العنوان كتب «سيد مرعى» عديدا من الأوراق السياسية، صدرت تحت ما سمى بالقوانين الاشتراكية عام ١٩٦١. ولم تكن حركة التأميم شاملة فى سوريا بنفس درجة شمولها فى مصر، وبدأت المعارضة للوحدة فى سوريا، ووقفت المنافسة بين عبدالحكيم عامر وعبدالحميد السراج، وفى ٢٨ سبتمبر عام ١٩٦١ فشلت أول وحدة سياسية عربية فى التاريخ الحديث (لاحظ أن عبدالناصر رحل يوم ٢٨ سبتمبر) وتم اتخاذ إجراءات تأمينية لحماية النظام من رد فعل الانفصال. وتم تشكيل مجلس للرئاسة، أعيد تشكيل الحكومة برئاسة «على صبرى». . وتشكل تنظيم سرى داخل البرلمان وداخل صفوف القضاء والصحافة، ووقع فى أول مايو عام ١٩٦٦ حادث كمشيش، واتهمت عائلة الفقى باغتيال عضو لجنة الاتحاد الاشتراكى بقرية كمشيش ـ محافظة المنوفية. . وتشكلت لجنة عليا لتصفية الإقطاع وصدرت قرارات كثيرة بالفصل والإبعاد والحراسة والاعتقال والتعذيب المهين، ويعتبر «سيد مرعى» أن الإجراءات التعسفية التى اتخذت فى كمشيش

وغيرها كانت الطريق إلى هزيمة عام ١٩٦٧ . . وذهب مجلس الأمة إلى «جمال عبدالناصر» يناشده عدم التخلى . . وكتب «سيد مرعى» يصف «جمال عبدالناصر» كما رآه فى ذلك اليوم . . «كان شعره أكثر بياضا فجأة . . والبريق اختفى من عينيه فجأة والمرارة كلها . . والهزيمة كلها والجراح كلها ، موجودة فى داخله يكتمها ويدارى عليها . . ولكن بلا فائدة» .

لقد كانت حياة «المهندس سيد مرعى» طويلة وعريضة وعميقة . . لا تكفى المساحة الحالية لعرض أطرافها جميعا . . وحسبنا أن نسجل ما قاله فى مقدمة «أوراق سياسية» : إننى فى روايتى لهذه الشهادة أمام التاريخ كنت نادرا صانعا لبعض الأحداث ، ولكننى كنت غالبا مشاركا فيها . . وأحيانا متفرجا عليها ولم أكن أبدا . . البطل) ونختم بما أورده ص ٤٤٥ ، ويصلح نهاية لمشواره الطويل الشاق : «إننى نادم تماما على اللحظة التى دخلت فيها ميدان السياسة . . إننى أكثر ندما على ذلك اليوم الذى خطوت فيه بقدمى إلى الإصلاح الزراعى . . نادم على الكلمات التى ألقيتها ومضغها الناس . . من أننا الآن فى عهد جديد يسوده الإصلاح والعدالة» !

رحم الله «سيد مرعى» الذى توفى فى ٢٢ أكتوبر عام ١٩٩٣ .

الأسانيد:

١ ـ المصرى «جريدة» ٢٥ مارس ١٩٥٤ .

٢ ـ د . محمد الجوادى . . سيد مرعى .

٣ ـ محمد حسين هيكل . . مذكرات فى السياسة المصرية جـ١ ، جـ٢ ، جـ٣ .

٤ ـ مصطفى مرعى . . أوراق سياسية جـ١ ، جـ٢ ، جـ٣ .

الشيخ على يوسف
والسيدة صفية السادات





فى تاريخنا الحديث ليست هناك شخصية مثيرة للجدل لما حملته من تناقضات: أكثر من شخصية «الشيخ على يوسف». جاء إلى القاهرة من (بلصفورة) مديرية (سوهاج) على مركب شراعى يحمل البلاليص والقلل القناوى.. وفى القاهرة تدفقت عليه الأموال وأصبح يجالس «الخديو عباس حلمى الثانى». أصدر (المؤيد) عام ١٨٨٩م فى مواجهة المقطم الاحتلالية، هاجم الاحتلال والإنجليز ثم بلغ غايته فى السير فى ركاب الإنجليز وقصد (لندن) وأعلن تصريحه الغريب: «أن لوندرة كعبة السياسيين المصريين!» هاجم الاستعمار البريطانى بعنف، وعندما تم الوفاق بين «عباس وغورست» تحول الشيخ عن عدائه للإنجليز. الشيخ على يوسف كان من أسرة متواضعة ثم تزوج ابنة «الشيخ السادات» شيخ (الطريقة الساداتية) الذى تمتد صلته إلى «الحسين» - رضى الله عنه - ثم كانت لهما قضية اهتزت لها الأوساط الاجتماعية فى مصر. كتب «مصطفى كامل» فى (المؤيد) وهو طالب بالحقوق. ولكن الخصومة وقعت بين (اللواء) و(المؤيد)، وشنت اللواء هجوما قاسيا على (حزب الإصلاح) على (المبادئ الدستورية) لأن اسم الحزب فيه معنى الهوادة! وخرجت مظاهرات الحزب الوطنى تهتف بسقوط سياسة النفاق.

عباس حلمى الثانى ثالث خديو فى مصر وآخرهم، والحاكم السابع من سلالة «محمد على» كتب فى مذكراته التى صدرت تحت عنوان (عهدى) يقول: كنت أرغب أن تكون هناك جريدة قادرة على تنوير الأمة وقيادتها والسير بها شيئًا فشيئًا إلى فكرة أكثر وضوحًا عن الوطن والمواطن. ولذلك فإننى استدعيت كاتبًا عربيًا.

وكان البعض قد أشاروا على بحسن استعداداته ومميزاته وهو «الشيخ على يوسف» وكان قد تخرج من الأزهر ويشتهر بقوته على المناقشة. وكان الشيخ «على يوسف» من الصعيد ويعرف عقلية وأماني أبناء شعبه. وكانت سياسته تستند في بعض الأحيان على هيبة الخليفة، ولكن لا يمكننا القول أبدًا إنها كانت تركية أو إسلامية بشكل خاص.. ويواصل الخديو حديثه: وأخذ الشيخ على يوسف في بعض الأحيان مظهر المدافع عن الإسلام أكثر من كونه مشططا لاتجاه وطنى قومى وسرعان ما أصبحت (المؤيد) إحدى الصحف الرئيسية باللغة العربية، وكان لها قراؤها من طنجة حتى الهند ومن تركيا حتى زنجبار. ولم يكن تعليمه الدينى ليؤثر إلا قليلا للغاية على اتجاهاته التى كانت ليبرالية بنوع خاص ولم يخضع لإغراء الاتجاه العربى وبريقه. والواقع أن الشيخ على يوسف لم يكن أبدا رجل تركيا فمع أنه في بعض الأحيان قد أيد الخلافة إلا أنه لم يكن يعنى بها سلطان إستانبول، وإنما يعنى بها خليفة المسلمين. وإن هذا الشيخ كان مصريا قبل كل شيء.. والحق أن الاتجاه الوطنى لعلى يوسف قد سحر الشباب بالفعل. تلك كات شهادة «الخديو عباس حلمى الثانى» عن الشيخ «على يوسف» وهى شهادة لها أهميتها.

المـــؤيد:

صدرت جريدة (المؤيد) - أول ديسمبر عام ١٨٨٩م صحيفة وطنية خديوية، وكانت أول صوت ارتفع بإثارة مسألة الجلاء، وأدخل ماكينات الروتاتيف وبعده الأهرام واللواء والمقطم التى كانت تطبع على ماكينات مسطحة. وترك الشيخ المؤيد ٦ مارس عام ١٩١٣م وتوفى ٢٥ أكتوبر عام ١٩١٣م، وحملت لواء الدعوة إلى الجامعة الإسلامية. ومنذ البداية وقفت (المؤيد) فى مواجهة جريدة المقطم الاحتلالية.. وأصبحت أهداف المؤيد: الوطنية المصرية، والدعوة الخديوية، والعثمانية الإسلامية. وكان الاتجاه الواضح المؤيد هو دعم الخديو فى مواجهة الاحتلال. ولكن بظهور سياسة الوفاق بين عباس والإنجليز. تحولت المؤيد إلى مهادنة الإنجليز، وقصد الشيخ إلى لندن وقال عبارته الشهيرة: أن لوندرة كعبة السياسيين المصريين. وعاد من لندن مؤمنا بصداقتهم عام ١٩٠٤، وأكرم الإنجليز

وفادته وأقاموا له الاجتماعات والولائم وقال صراحة: يجب على المصريين أن يتركوا طلب الجلاء وأن يكتفوا بإدخال الإصلاحات فى البلاد.. وقد بدأت (المؤيد) بتمويل من «أحمد ماضى» صديق الشيخ.. ثم وقع خلاف بين الشيخ وصديقه هدد (المؤيد) بالتوقف وأنقذ الموقف «سعد زغلول» وكان محاميا: وتمكن الشيخ بمعونة سعد زغلول من مواصلة الإصدار. وكانت المؤيد مدرسة كبيرة للصحافة نشرت لسعد زغلول ومصطفى كامل ومصطفى لطفى المنفلوطى وأحمد حافظ عوض وفتحى زغلول وعباس محمود العقاد وإبراهيم الهلباوى وإسماعيل أباظة وقاسم أمين. وعلى مدى ستين يوما نشرت (المؤيد) عام ١٨٩٩م كتاب (تحرير المرأة) لقاسم أمين مما يوضح استنارة الشيخ فى مواقفه من المرأة المصرية، واتخذ الشيخ سياسة ذكية فأفسحت (المؤيد) صفحاتها للمعارضين والمؤيدين. وأعلنت فى عددها الأول الذى صدر فى أول ديسمبر عام ١٨٩٩ إنها صحيفة تهدف إلى: (بث الأفكار المعتمدة والأخبار الصادقة والمبادرة) إلى نشر الحوادث الداخلية غير تاركة شأن التجارة الداخلية والخارجية. وقال «الشيخ رشيد رضا»: الشيخ على يوسف كان أخلص للخديو من مصطفى كامل، وكان مواليا وفيّا للشيخ محمد عبده ودامت دولة المؤيد من عام ١٨٨٩ - إلى عام ١٩١٣م. وكانت (المقطم) قد صدرت فى ١٨ أبريل عام ١٨٨٨ (فارس نمر - خليل ثابت) وأحس الوطنيون أنهم فى حاجة إلى صحيفة تقف فى مواجهة الصحيفة الاحتلالية فصدرت المؤيد (أول ديسمبر عام ١٨٨٩م)، واتهمت المقطم جريدة المؤيد بالتعصب، واتهمت الشيخ على يوسف بالجهل. وانضمت الصحف الأجنبية إلى (المقطم) فى اتهام المؤيد بالتعصب الذى يعرض حياة الأوروبيين للخطر.

قضية التلغراف:

كان اللورد كتشنر يقود حملة فى شهر يوليو عام (١٨٦٦م) من دنقلة إلى السودان، وأرسل برقية إلى اللورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر مفادها أن الكوليرا قد تفشت بين رجال الجيش المصرى ووصلت شمالا حتى جنوب مصر. وتلقف البرقية موظف وطنى مصرى اسمه «توفيق أفندى كيرلس» الموظف بمكتب

تلغراف الأزبكية، وأسرع بها إلى «الشيخ على يوسف» الذى نشرها فى صدر جريدة (المؤيد). وجن جنون كرومر وزعم أن النشر أفشى أسرار الجيش وأثار الذعر عند أهالى الجنود، وأمر بإجراء تحقيق لمعرفة من الذى سرب البرقية إلى جريدة المؤيد. وصدر الحكم ببراءة الشيخ على يوسف وحبس «توفيق كيرلس» ثلاثة أشهر، وفى الاستئناف صدر الحكم ببراءة الاثنين.

حزب الإصلاح:

وإذا كانت (المؤيد) قد صدرت عام ١٨٨٩م، ومن أهدافها الولاء للخديو فإن «الشيخ على يوسف» قد أعلن عام (١٩٠٧م) عن تشكيل (حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية وأهدافه الرئيسية الولاء للخديو. وصدرت اللواء (مصطفى كامل - عبدالعزيز جاويش) ٢ يناير عام ١٩٠٠، وشنت حملة ضد حزب على يوسف واتجاهاته المهادنة وخاصة أنه جاء فى أعقاب موقف الشيخ المهادن للوندرة وعودته من رحلته تلك عام (١٩٠٤م). وعلى الرغم من ذلك فإن الشيخ والمؤيد والحزب كان لهم موالون ومؤيدون إعجابا بشدة فطنة الشيخ - على حد تعبير محمد لطفى جمعة من معاصريه - والإشادة بذكائه الخارق وقدرته علي رسم خطط لنفسه والعمل بعد ذلك على تنفيذها بكل الوسائل والأجيال التالية له أشادت ببعض إيجابياته فقال «د. محمد حسين هيكل» عنه: (على يوسف دعا إلى أن يكون التعليم فى مراحله المختلفة باللغة العربية). وقالت (البلاغ) عنه فى أكتوبر عام ١٩٣٤: (إن قلم على يوسف كان على الدوام نبض الجمهور ويعرف اتجاهاته كما تدل على ذلك مواقف كثيرة). ويذكر معاصرو «الشيخ على يوسف» أنه كان على قدر ملحوظ من المكر والدهاء واللمز فى الرد على معارضيه والذين يهاجمونه. ومن ذلك الموقف الذى حدث مع «محمد المويلحى» ذات يوم من أيام عام ١٩٠٢ عندما كان المويلحى جالسا فى المقهى ودخل عليه «محمد بك نشأت» فاستقبله «المويلحى» مرحبا. . أهلا بالفنان فظن «محمد نشأت» أن المويلحى يعرض به فرد عليه بصفعة على وجهه. وكان «المويلحى» قد هاجم (المؤيد) بمقال يتهمها فيه بالجهل وانتقد الشيخ انتقادا مرا. فما كان من الشيخ إلا أن فتح المعركة

مع المويلحى فى باب بعنوان (عام الكف)، وشارك فيه أدباء وشعراء أمثال أحمد شوقى وحافظ إبراهيم وإسماعيل صبرى، بمناسبة (الكف) على وجه المويلحى .

عام الكفء

وإذا كان الشيخ على يوسف قد استمر أعام ١٩٠٢ السخرية من «محمد المويلحى» فى عدد من المقالات تحت عنوان (عام الكف)، وذلك بمناسبة الصفعة التى تلقاها المويلحى على وجهه من «محمد بك نشأت» بل إن «الشيخ» استكتب تحت هذا العنوان عددا من الشعراء والأدباء. إذا كان الأمر كذلك فقد جاء الدور على الشيخ عام ١٩٠٤م ليدفع الثمن عندما أخذ «المويلحى» ينشر عددا من المقالات تحت عنوان «عام الكفء» فى مجلة (مصباح الشرق) مشيرا بذلك إلى قضية زواج الشيخ من «صفية» ابنة «الشيخ السادات» وإلى تداول القضية أمام «الشيخ أبو خطوة» والمساجلات الحادة فى المحكمة . . هل الشيخ على يوسف كفء للزواج من ابنة «الشيخ السادات» ولم يفعل المويلحى أكثر من نشر ما يدور فى المحكمة حول هذا الموضوع وهو هنا لا يخرج على قانون ولا يتهمه أحد بالعيب أو القذف فى شخصية الشيخ على يوسف. لقد صال وجال محامى الشيخ السادات فى الحديث عن مكانة الشيخ السادات ونسبه الذى يصل به إلى «الحسين بن على» - رضى الله عنهما - وبهذا تكون «صفية» من أسرة تصل إلى «النبى - صلى الله عليه وسلم -» ولكن على يوسف من يكون؟ من أسرة فقيرة معدمة فى بلصفورة، والشيخ السادات شيخ الطرق الساداتية وعلى يوسف يحترف الصحافة ولم تكن فى ذلك الزمان مرموقة أو مرهوبة الجانب. . ومن هنا فليس الشيخ (كفئا) لصفية بنت السادات. ومن هنا فإن الشيخ السادات رفع دعوى أمام المحكمة الشرعية يطالب فيها بإبطال الزواج بين الزوجين لعدم التكافؤ. فى النسب والمال والحرفة. وليس لعلى يوسف نسب وأما السادات فله نسب يصل به إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - وليست لعلى يوسف حرفة: وحرفة الصحافة كما قال دفاع الشيخ السادات - وقتذاك - أحقر الحرف. والشيخ السادات ميسور وعلى يوسف ليس عنده مال. وهكذا يكون المويلحى قد أخذ بثأره من الشيخ على يوسف دون أن يلومه أحد .

الشيخ والقضية:

حوالى عام ١٩٠٠م كان الشيخ على يوسف فى السابعة والثلاثين من عمره (الشيخ من مواليد عام ١٨٦٣م) راقت له ابنة «الشيخ السادات» وكانت فى الرابعة عشرة من عمرها وتتمتع بجمال ذلك الزمان أى أنها كانت تزن حوالى مائة كيلو أو تزيد قليلا. وذهب الشيخ على يوسف إلى الشيخ السادات يطلب يد ابنته صفية ووافق «الشيخ السادات» على الخطبة مع تأجيل الزواج لأن البنت لم تزل صغيرة. وكان الشيخ على يوسف قد تزوج فى شبابه إحدى قريباته. وتركها وفى بطنها ابنته. ولأسباب غيرمعروفة ظل «الشيخ السادات» يماطل فى إتمام الزواج لمدة ٤ سنوات. وفى عام ١٩٠٤م كانت صفية فى الثامنة عشرة من عمرها والشيخ فى الواحدة والأربعين من عمره (وليس فى الخمسين كما ورد فى إحدى المقالات عن الشيخ وصفية). وما كان من الشيخ على يوسف وبموافقة «صفية» صديقة بنات «الشيخ البكرى» إلا أن عقد قرانه على صفية فى بيت «الشيخ البكرى ونشرت الصحف الخبر وجن جنون الشيخ السادات ورفع دعوى أمام المحكمة الشرعية يطالب فيها بإبطال الزواج والتفريق بين الزوجين. وظلت القضية مطروحة أمام المحكمة واهتز الرأى العام لها. وقضى «الشيخ أبو خطوة» بتسليم السيدة «صفية» إلى أبيها الشيخ السادات لحين الفصل فى الدعوى بحكم نهائى. ورفضت السيدة صفية الانتقال إلى بيت أبيها لخشيتها من وقوع أذى عليها. وخيّرها القاضى «الشيخ أبو خطوة» أن تقبل الإقامة فى بيته أو فى بيت مفتى الديار المصرية أو بيت «الشيخ الرافعى» وكلها بيوت ذاتِ سمعة طيبة وتأمن فيها صفية على نفسها. ووافقت صفية - على الإقامة فى بيت الشيخ الرافعى. ونشر على يوسف قصة زواجه فى الصفحة الأولى من (المؤيد)، ويوم النطق بالحكم أصدر القاضى «الشيخ أبو خطوة» قرارا بإحالة الدعوى للتحقيق لإثبات أن «الشيخ السادات» من نسل «الحسين» - رضى الله عنه. ولإثبات أن حرفة على يوسف (الصحافة) حرفة وضيعة. وكان الأمر سجالا بين الطرفين جاء أناس من (بلصفورة) ليشهدوا بأن أسرة على يوسف على حافة العيش. وزعمت الصحف المعارضة للشيخ أن الشيخ يذهب متخفيا حيث يلتقى بصفية فى بيت الشيخ الرافعى ولم يكن هذا صحيحا. وجاء شهود

آخرون يزعمون أن الجد الرابع لعلى يوسف كان يدعى «عبدالنور» وأنه كان كتابيا ثم اعتنق الإسلام وهم يشيرون فى ذلك إلى أسرة «عبدالنور» المعروفة فى جرجا. وحدثنى «الأستاذ فخرى عبدالنور» عن أن هذا الزعم غير صحيح، وأن الشهود كانوا يقصدون أن أسرة على يوسف حديثة فى الإسلام ولا يمكن مقارنتها بأسرة «صفية» التى تمتد بجذورها إلى النبى (صلى الله عليه وسلم). وبعد هذه الشهادات وكانت كلها فى غير صالح الشيخ على يوسف قرر القاضى «الشيخ أبو خطوة» حجز القضية للحكم. وفى أغسطس عام ١٩٠٤م قضت المحكمة بفسخ عقد الزواج بين الشيخ على يوسف وصفية السادات وبالتفريق بينهما. ونشر «الشيخ على يوسف» الحكم فى الصفحة الأولى من جريدته (المؤيد).

الرأى العام:

انقسم الرأى العام حول هذه القضية ولكن الأغلبية كانت تؤيد موقف الشيخ السادات وتؤيد موقف القاضى الشيخ أبو خطوة، بالإضافة إلى المعادين للشيخ على يوسف فى الحياة العامة وفى الصحافة لم تكن إلى جانبه.. حتى إننا نجد شاعرا مثل «حافظ إبراهيم» يقول فى هذا الشأن.

فما أنت يا مصر دار الأديب	**ولا أنت بالبلد الطيب**
دعاة الغرام بسن الكهول	**فجن جنونا ببنت النبى**
فيا أمة ضاق عن وصفها	**جنان القوة والأخطب**
تضيع الحقيقة ما بيننا	**ويصلى البرئ مع المذنب**
ويهضم فينا الإمام الحكيم	**ويكرم فينا الجهول الغبى**

لا يأس مع الحياة:

ولم ييأس الشيخ على يوسف واستأنف الحكم وجاء الاستئناف مخيبا لآماله.

وصبر قليلا وأخذ يرسل المعارف والأصدقاء للشيخ السادات. وكانت صفية لم تزل على إعجابها بالشيخ على يوسف اللبق الفصيح فى زيه الأزهرى الأنيق وصاحب ورئيس تحرير جريدة توزع فى مصر وخارج مصر ويجالس الخديو عباس حلمى الثانى. وكان له تاريخه فى الصحافة. . أصدر مجلة «الآداب» عام ١٨٨٥. وتولى مشيخة الطريقة الوفائية ومن رواد الأدب السياسى فى الصحافة المصرية. وأسس حزبا مثل باقى الزعماء. وبعد أن هدأت الأمور وافق «الشيخ السادات» على زواج ابنته «السيدة صفية» من الشيخ «على يوسف». وعقد عليها من جديد وأنجبا ثلاث بنات. والطريف فى الأمر كله أن الشيخ «على يوسف» رحل وهو غير سعيد مع «صفية السادات» التى نكدت عليه حياته فى سنواته الأخيرة. . ياخسارة.

ويبقى التاريخ:

انتهى الموقف المتأزم فى قضية الزوجية بتحقيق أمنية الشيخ على يوسف وذلك بموافقة الشيخ السادات على أن يعقد الشيخ على يوسف على السيدة صفية السادات، وبذلك انتهت العاصفة التى أخذت شكل الصراع بين الفئة العليا والفئة المتواضعة، وبذلك يكون الشيخ على يوسف قد نجح بالتمسك بموقفه على انتصار المساواة بين المسلمين على اختلاف مستوياتهم. وهو بذلك جعل للصحافة مكانة معترفا بها فى المجتمع المصرى وأكد دورها فى تنوير الشعب، وفى الدفاع عن حقوقه الوطنية ونفى عنها أية صفات لا تتفق وهذه الحرفة العظيمة فى المجتمع.

الأسانيد:

١ ـ أحمد بهاء الدين . . أيام لها تاريخ.

٢ ـ أنور الجندى . . الصحافة السياسية.

٣ ـ صلاح الأسوانى . . محاكمات مصرية.

٤ ـ عزت السعدنى . . جريدة الأهرام ٢٠/ ٢/ ١٩٩٩.

٥ ـ عباس حلمى الثانى . . مذكرات (عهدى).

٦ ـ محمد لطفى جمعة . . هؤلاء الأعلام.

عثمــان محــرم باشــا



معذرة شيخ المهندسين فى مصر والبلاد العربية «عثمان محرم باشا» لعدم الكتابة عنك فى فترة باكرة. وشكرا للمهندس الغيور على قادة المهندسين «دكتور مهندس محسن بدراوى» الذى وضع أمامى فى الأيام الماضية الأخيرة مذكرة للدفاع عن «المهندس عثمان محرم» فى قضية الغدر رقم ٣ سنة أولى قضائية ـ الخاصة بطريق المرج التى قدمها المحامى الضليع «الدكتور وحيد رأفت» الذى كان (مصريا عظيما فى ولائه وانتمائه وعطائه فى خلقه الرفيع وتمسكه بالقيم السامية والمثل العليا طوال حياته الحافلة. والذى وهب نفسه لخدمة بلاده والدفاع عن قضاياها فلم يتوان يوما عن أداء واجبه الوطنى بموضوعية نادرة والتزام تام بالأمانة العلمية وتمسك شجاع بالحق والمبدأ ومنزه عن الهوى والغرض وحرصه على وضع المصالح العليا للوطن فوق كل اعتبار. هذا بعض ما جاء فى البيان الذى أذاعه «مصدر رسمى» فى أعقاب نبأ وفاة «الدكتور وحيد رأفت» الذى وافاه الأجل المحتوم فى الصباح الباكر من يوم الثلاثاء ١٢ مايو عام ١٩٨٧م. والذى كان رئيسا لهيئة الدفاع المصرية فى قضية (طابا)، وكان أيضا نائبا لرئيس الوفد بعد عودته إلى الحياة السياسية عام ١٩٧٨م. هذا القانونى الكبير بالمواصفات التى عرفها عنه الجميع تولى الدفاع عن «المهندس عثمان محرم» ليس باعتباره «رجلا من مصر» بل باعتباره، على حد تعبير «الدكتور وحيد رأفت». . رجلا لمصر وللجميع. . أى لجميع المصريين.

واجه الدكتور وحيد رأفت المحامى هيئة محكمة الغدر بشهادة رسمية نصها كالتالى: (بعد الاطلاع على ملف التحقيق رقم ٤١ مصر عام ١٩٥٢ الخاص

بفحص إقرار الذمة المالية رقم ٤٦٤/ ١ المقدم من حضرة المهندس عثمان محرم والسيدة حرمه. قررت اللجنة بتاريخ ٣١/ ١٢/ ١٩٥٣ حفظ التحقيق وإعادة الإقرارين لحفظهما بملف خدمة حضرته) تحريرا فى ٥ يناير عام ١٩٥٣ .

والذى حدث هو أن سلطة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ بدأت حركة واسعة فى السنوات الأولى منها لتشغيل زعماء الأحزاب وفعالياتها. وتربك خطوات غير الموالين لها، وتغير وتبدل فى صفوف المسئولين والسابقين علي يوم الأربعاء ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢م. شكلت محكمة باسم «محكمة الثورة» ومحكمة باسم «محكمة الشعب» والذى لا يقدم للمحاكمة إلى هاتين المحكمتين يقدمونه إلى ما أسموه «محكمة الغدر» والباقين الذين لا تنطبق عليهم مواصفات الاتهام أمام محكمة الثورة ومحكمة الشعب ومحكمة الغدر سلطوا عليهم ما عرف بـ «حركة التطهير» ونعطى مثالا لسوء القصد فى حركة التطهير هذه أن وزير المعارف الأسبق «إسماعيل القبانى» قرر إحالة الكاتب الكبير «توفيق الحكيم» مدير دار الكتب إلى المعاش بناء على مذكرة كيدية من بعض العاملين بدار الكتب. وطبعا أوقفت السلطة الجديدة تنفيذ هذا القرار لأن «توفيق الحكيم» اسمه له وزنه فى مصر وخارج مصر وفصله يضير بسمعة النظام الجديد. وعلى غرار هذا تم تقديم «المهندس عثمان محرم» إلى محكمة الغدر. وتعزيزاً لهذا الموقف طلبوا شهادة بعد فحص إقرارات الذمة المالية فجاءت الشهادة التى أشرنا التى تبرئ ساحة «عثمان محرم وحرمه»، فضلا عما عرف عنه من نزاهة وجدية ووطنية. وإنسانية وعدم التفرقة بين الناس على أساس الحزبية أو على أساس آخر.

عثمان محرم للجميع:

لم يكن «المهندس عثمان محرم» فى عمله العام يميز بين فرد وآخر من مواطنيه. ولم يكن يفرق بين أرض وأرض. أو إقليم وإقليم، إذ كان يعتبر الأراضى الزراعية كلها لخدمة الناس جميعًا مع اختلاف ملاكها، وكان ينظر إلى الإنتاج على أنه هو مجموع الثروة القومية . . وأمثلة بارزة على تأصل هذه الفكرة فى تصرفاته وأعماله فى الخدمة العامة:

ـ كان «عبد المجيد إبراهيم صالح» وأخوه «عبد الحميد إبراهيم صالح» هما أول من رخص لهما «عثمان محرم» فى الرى الصيفى من ترعة النوبارية. ولا تربطه بهما من علاقة قرابة أو نسب أو حزبية. فهما من الصعيد ـ محافظة أسيوط ويمتان بصلة القرابة لأسرة «محمود سليمان باشا» والد «محمد محمود باشا» زعيم «الأحرار الدستوريين».

ـ فى الوقت نفسه «رفض عثمان محرم» الترخيص لـ «يس سراج الدين» فى الرى بنفس المنطقة ومعروف أنه شقيق «فؤاد سراج الدين باشا» ومن الرجال البارزين فى الوفد.

ـ تقدم «مصطفى مرعى» إلى «عثمان محرم» فى ٢٤ يناير عام ١٩٥٠م بطلب خاص بكوبرى أمام بلده. فنظر إلى الطلب نظرة الوزير الذى يعتبر نفسه خادمًا لجميع مواطنيه لا يعرف منهم نصيراً أو معارضًا، فأعطى التعليمات بإقامة الكوبرى أمام بلد «مصطفى مرعى».

ـ تقدم «يوسف الريدى» من أهالى المعصرة بطلب خاص بإنشاء كوبرى على الترعة الإبراهيمية حتى يتيسر للأهالى الوصول إلى أراضيهم بالبر الغربى، فوافق على إدراج الميزانية اللازمة لإقامة الكوبرى بميزانية العام المقبل.

كان «عثمان محرم» يعد نفسه خادمًا للجميع لا يرفض لأحد طلبًا متى اقتنع بأحقيته ووجده متمشيًا مع السياسة العامة والمشروعات المدروسة.

الإنسان والنقابة:

فى عام ١٩٢٧م توفى أحد مفتشى الرى وعلم بعض المهندسين بأن ليس فى داره ثمن الكفن. ولم يكن المهندس مثبتًا فليس له معاش. ولم يكن لدى زوجته وأولاده السبعة ما يسد رمقهم لآخر الشهر. وعلم المهندس عثمان محرم بالأمر وكان وزيراً للأشغال فى وزارة عبد الخالق ثروت باشا الثانية (٢٦ أبريل عام ١٩٢٧ ـ ١٦ مارس عام ١٩٢٨م). ولم تكد جنازة المهندس المتوفى تصل إلى المدافن حتى كان «المهندس عثمان محرم» قد أصدر منشوراً اكتتب له المهندسون مبلغ ٤٥٠٠ جنيه

اشترت به أسرة المهندس المتوفى عقاراً تعيش عليه . وكان لهذا الموقف أثران على تفكير المهندس عثمان محرم :

الأول : الاهتمام بمشروع للإسكان الشعبى .

الثانى : إيجاد حل دائم كريم يواجه به المهندسون وأسرهم مآسى الزمن .

وقد شهد «المهندس أحمد عبده الشرباصى» وزير الأشغال الأسبق بدور «شيخ المهندسين عثمان محرم» فى الإسكان الشعبى قبل ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ . كان «أحمد عبد الشرباصى» فى شبابه يختلف فى الميول الحزبية عن «عثمان محرم» . وعندما توفى «عثمان محرم» كان «أحمد عبده الشرباصى» وزيراً للأشغال ، فلم يتردد فى رثاء «عثمان محرم» والإشادة به . وذهب إليه البعض وسألوه كيف وهو وزير فى ثورة حاكمت عثمان محرم أن يرثيه . . وكيف وهو من أعضاء الأحرار الدستوريين أن يشيد ويرثى واحداً من قادة الوفد . . فسجل «الشرباصى» أن «عثمان محرم» هو الذى بدأ مشروعات «الإسكان الشعبى» قبل أن تعرفه وزارات ٢٣ يوليو !

وعام ١٩٤٣م تكررت مسألة وفاة أحد المهندسين وكان رصيده فى البنك ١٦ مليمًا ، فصرف «عثمان محرم» لأسرته مبلغًا كافيا . وكلف بعض المهندسين بوضع مشروع لنقابة المهندسين . واحتضنت وزارة الوفد هذا المشروع . وصدرت مجلة المهندسين لتكون صوتًا لهذه النقابة .

ويبدو أن «المهندس عثمان محرم» وهو الذى أنشأ نقابة للمهندسين وكان من الأوائل الذين انضموا إليها وأخذ رقم عضوية (٦) وأصبح نقيبًا للمهندسين ، يبدو أنه لم يتقدم عند بلوغه سن المعاش للنقابة لتصرف له المعاش المستحق من النقابة . ولد عام ١٨٨١م أى أنه بلغ سن المعاش عام ١٩٤١م . ولم يتقدم أيضًا أحد من ذويه للتمتع بهذا المعاش حتى لا يزاحم أو يزاحموا المستحقين من ذوى الدخل المحدود . وهذه صفة تكشف عن شعور إنسانى مكتفيًا بالوزارات الكثيرة التى شغلها وبرتبة الباشوية التى حصل عليها عام ١٩٢٧م . على أية حال فقد ترك للمهندسين نقابة نشطة قوية وضع قواعدها عام ١٩٤٣م ، ووافقت عليها حكومة الوفد وعقدت جمعيتها العمومية لأول مرة عام ١٩٤٦م .

كرامة المهندس:

كان «عثمان محرم» نقيبًا للمهندسين فى سنوات ما قبل ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢م، وكان من الذين يعتزون بالمهنة والمحافظة على كرامة المهندس. حدث أن تقدم سكرتير النقابة بشكوى ضد «أحمد عبود باشا» على اعتبار أن «عبود باشا» انتحل لقب «مهندس» حيث لا يحق له لأنه ليس عضواً بالنقابة ولم يتقدم بمستنداته للنقابة لدراستها وإعطائه حق العضوية إذا استوفت مستنداته شروط حصوله على هذه العضوية.

انظروا كيف كان سلوك النقباء «أيام زمان» . . طلبت النيابة «عبود باشا» للتحقيق معه فاتصل بعثمان محرم باشا وكان وقتها نقيبًا للمهندسين. ماذا كان موقف النقيب؟ لم يسحب طلب التحقيق مع عبود باشا ولم يوجه اللوم لسكرتير النقابة الحريص على قواعد المهنة وقال لعبود باشا. . أحد أمرين:

الأول: أن يتبرع للنقابة بمبلغ عشرة آلاف جنيه لدعم صندوق المعاشات.

الثانى: أن يتقدم للنقابة بمؤهلاته ومستنداته للتحقق من إمكانية منحه عضوية النقابة من عدمه. سارع عبود باشا بالتبرع لنقابة المهندسين بمبلغ عشرة آلاف جنيه وقامت النقابة بسحب البلاغ المقدم ضد عبود باشا.

وكان «عثمان محرم» دائمًا فى صف المهندسين . . حدث أن طالب مهندسو الرى بما يسمى بدل تفتيش وساندت النقابة مطالب المهندسين. وكان عثمان محرم وزيراً للأشغال ونقيبًا للمهندسين فى نفس الوقت. فطلب عثمان محرم من مهندسى الرى الإضراب عن العمل حتى يستجاب لمطالبهم. هكذا كان اعتزازه بمنصبه كنقيب وانتصاره للمهندسين قبل انتمائه الحزبى ومركزه السياسى كوزير فى الحكومة. ودعا وهو نقيب للمهندسين لتكريم المهندسين الذين بذلوا جهداً ملحوظًا فى الحقل الهندسى، ودعا إلى إقامة تماثيل لكل من «محمد شفيق باشا» و«محمود باشا سامى» و«إبراهيم عثمان» وفاء لذاكرهم وتقديراً لجهدهم.

ماذا ترك لمصر؟

بارتياح كبير يمكن القول إن «عثمان محرم» كان مؤسسة هندسية كبرى أنجز

العديد من الأعمال والمشروعات لا يسعنا فى هذه المساحة المتاحة سوى أن نقدم أمثلة منها :

* التعلية الثانية لخزان أسوان التى أسهمت فى توسيع الرقعة الزراعية منذ عام ١٩٣٣م . ووضع مشروع «خزان وادى الريان» الكائن بالجنوب الغربى لمديرية الفيوم . وكلما كان يتولى وزارة الأشغال يتخذ خطوات إلى الأمام فى هذا المشروع وينام العمل فى الوزارات التالية له . وفى وزارة الوفد عام ١٩٥٠ وصل بالمشروع إلى صورته النهائية . وبعدها لا يعلم المصير إلا الله . واهتم بإنشاء خزان تانا على بحيرة تانا بالحبشة . المهم كانت له فكرة رئيسية وهى أن تكون خزاناتنا بقدر الإمكان داخل حدود بلادنا لمنع التحكم فى رقابنا وفى مصادر حياتنا .

* وكما اهتم بالخزانات اهتم بالقناطر وهى التى تتحكم فى المناسيب وترفع المياه أمامها لتغذية الرياحات والترع الرئيسية التى تأخذ من أمام تلك القناطر للتوزيع على الأراضى التى تتوسع فى زراعتها . والأمثلة كثيرة . . قناطر نجع حمادى ومحمد على وأسيوط وإسنا وفارسكور وذلك طوال ولايته لوزارة الأشغال .

* سياسة الصرف . . كان له فى سياسة الصرف برنامج كامل واضح . وهو أول من وضع أساسًا متينًا لمحطات الصرف الكهربائية ، وأول من فكر ونفذ فكرة المصارف المغطاة والصرف العميق من محطات طلمبات الصرف . وفى عهد حكومة الوفد ٥٠ و١٩٥١ أقام خمس محطات كهربائية للصرف بمديريتى الشرقية والدقهلية .

* واهتم بتوليد الكهرباء فى مصر . . الكهرباء من مساقط بحر النزلة بالفيوم . محطة توليد القوى فى منطقة السلطانى بالفيوم . وتوليد الكهرباء من مساقط مياه أسوان لاستخراج الحديد والأسمنت . وإنجازه العمل بمحطة كهرباء شمال القاهرة وتقويتها .

* الكبارى . . أخذوا عليه إكثاره فى الكبارى! وهل كانت الكبارى سوى عنصر مهم فى المواصلات؟ . لقد أقام منها عددًا لا يحصى على المجارى المائية . . أقام كوبريين على النيل . . أحدهما عند شربين والثانى عند المنصورة . وأقام كبارى عديدة على الترع والمصارف الرئيسية ، فضلا عن الترع والمصارف الفرعية .

* أسهم في تعمير مدينة القاهرة. عام ١٩٢٦م، اعتمد توسيع أطول وأقدم شارع في القاهرة وهو شارع الخليج المصرى. وسع شارع الهرم الموصل لأقدم أثر فرعوني. إخلاء الأراضي حول مسجد أحمد بن طولون لإظهاره وإبرازه. كان وراء إقامة تمثال نهضة مصر وتمثالي سعد زغلول في القاهرة والإسكندرية وضريح مصطفى كامل وضريح سعد زغلول. وأتم العمل في نفق السبتية عام ١٩٤٢م.

الـوزارات:

* وزيراً للأشغال لمدة ثمانية أيام لا غير في وزارة «أحمد زيوار» من ٢٤ نوفمبر - ٢ ديسمبر ١٩٢٤م.
* وزارة الائتلاف الوفدى الأولى برئاسة عدلى يكن من ٧ يونيو ٢٦ - ٢١ أبريل ١٩٢٧م.
* وزارة الائتلاف الوفدى الثانية برئاسة عبد الخالق ثروت من ٢٦ أبريل عام ١٩٢٧م - ١٦ مارس عام ١٩٢٨م.

كان وزيراً للأشغال في الوزارات السابقة وكذلك في الوزارات التالية:

* وزارة النحاس باشا الثانية (أول يناير ٣٠ - ١٩ يونية عام ١٩٣٠م).
* وزارة النحاس باشا الثالثة (١٠ مايو ٣٦ - ٣١ يولية عام ١٩٣٧).
* وزارة النحاس باشا الرابعة (٣ أغسطس ٣٧ - ٣٠ ديسمبر عام ١٩٣٧م).
* وزارة النحاس باشا الخامسة (٦ فبراير ٤٢ - ٢٦ مايو عام ١٩٤٢م).

- الوقاية المدنية بالنيابة (من أول أبريل عام ١٩٤٢م).

* وزارة النحاس باشا السادسة (٢٦ يوليو ٤٢ - ٨ أكتوبر عام ١٩٤٤).
* وزارة حسين سرى باشا الثالثة (٢٦ يوليو عام ١٩٤٩ - ٣ نوفمبر عام ١٩٤٩م).
* وزارة النحاس باشا السابعة (١٢ يناير ٥٠ - ٢٧ يناير عام ١٩٥٢م).

- الرئاسة بالنيابة (٩ يوليو عام ١٩٥٠م).

ـ الأوقاف بالنيابة (١٢ يولية عام ١٩٥١م).

ـ الأوقاف بالنيابة (١٨ يوليو ٥١ ـ ٢٤ سبتمبر عام ١٩٥١م).

ونوضح للقارئ أن الوفد بعد الوزارات الائتلاف الأولى درج على رفض قبول الاشتراك فى أية وزارة ائتلافية، أو حتى قومية مهما كانت الضغوط.

ما قبل الوزارات:

ولد «عثمان محرم» بالقاهرة فى ٢٢ يناير عام ١٨٨١م. حصل على دبلوم المهندسخانه فى عام ١٩٠٢م وكان الثانى فى ترتيب الدبلوم. التحق بوزارة الأشغال فى ٥ أغسطس عام ١٩٠٢م بوظيفة معاون تفتيش رى. ثم نقل مهندسًا لمركز المحلة من أول نوفمبر عام ١٩٠٢م، مهندسًا لمركز السنبلاوين من أول مارس عام ١٩٠٤. نقل رئيسًا لقسم هندسة الرى بوزارة الأوقاف فى ٦ أغسطس عام ١٩٠٩م. عاد إلى وزارة الأشغال فى ١٦ يناير عام ١٩١٤م. كان واحداً من ثلاثة فقط من المهندسين المصريين الذين وقفوا فى صف واحد مع مساعدى مديرى الأعمال الإنجليز. رقى إلى مدير عام فى ١٠ يونيو، وإلى مفتش رى الفيوم فى أول أبريل عام ١٩٢٢. انتدب مديراً لمكتب وزير الأشغال فى المدة من ٥ فبراير إلى ٢٣ مايو عام ١٩٢٤. عين وكيلا لوزارة الأشغال فى ٢٤ مايو عام ١٩٢٤. فى ٢٥ نوفمبر عام ١٩٢٤ وزيراً للأشغال فى وزارة «أحمد زيوار» لمدة ٨ أيام فقط، واستقال من الوزارة كما قلنا فى بداية الدراسة وبدأت مرحلة الوزارات. ومرت الأيام فى نوفمبر عام ١٩٥٨م دخل مستشفى مورو لإجراء عملية جراحية.. وبعد شفائه رحل إلى رحاب الله.

الأسانيد:

لمعى المطيعى: موسوعة هذا الرجل من مصر.

مجلة المهندسين: عدد أكتوبر ١٩٧٩.

د. وحيد رأفت المحامى: مذكرة الدفاع أمام محكمة الغدر.

عزيز أباظة



يوم وفاة الزعيم العظيم «مصطفى النحاس» فى ٢٣ أغسطس عام ١٩٦٥ كان «عزيز أباظة» المدير الأسبق لعدة أقاليم . . القليوبية والمنيا وبورسعيد وأسيوط والشاعر الكبير المرشح لإمارة الشعر بعد أحمد شوقى، كان فى الإسكندرية ولم يكن فى وسعه أن يلحق بجنازة «النحاس باشا» فى القاهرة إلا إذا ركب «قطار الصحافة» الذى يقوم فى الرابعة صباحا وليس به سوى الدرجة الثالثة، ولحق بالقطار وركب الدرجة الثالثة، وتعرف عليه بعض الركاب وأحاطوا به للتحية وللاستفسار عن ظروف ركوبه معهم فى الدرجة الثالثة، وعندما أعلمهم أنه يريد اللحاق بجنازة «مصطفى النحاس» أبدى بعضهم تعجبهم وإعجابهم لأنه لم يسر وراء «النحاس باشا» فى حياته، وحرص على أن يمشى وراءه فى جنازته يوم رحيله! وقال الرجل فى هدوء: إنه «مصطفى النحاس».

وضعه «الأديب طاهر الطناحى» فى روضة «حديقة الأدباء» ذلك هو عزيز أباظة: بلبل من بلابل الأشعار، وكنارى من نوابغ الكنارى وبحترى اللسان، مبدع الغناء والألحان، تتبارى فى شعره الأنغام والأناشيد، فلست تعرف أيها النشيد، وأيها القصيد؟ . . وهل تغريده بكاء أم بكاؤه تغريد؟

هو ساجع صداح، يؤثر الليل كما يؤثره هذا الطائر الجميل، فلا تسمعه بين الناس داعيا لنفسه بغنائه وموسيقاه، بل يدع الناس يستمعون إليه ويتزاحمون عليه، ويرتدون الليل ساهرين، يمتعون أنفسهم وأرواحهم بما يبدع من شعر رائع وفن رفيع.

قال الشعر منذ العاشرة من عمره، وفى كهولته تبوأ مكانه فى الطبقة الأولى من شعراء العربية يقول الشعر ويتغنى به بعيدا عن الأنظار، وانبعثت ملكته الشاعرة بأناته الحائرة فدوت بين القلوب والأسماع، وعرفت ما طبع منها فى جميع البقاع.

وعبر عن هذه الفكرة بأسلوبه المتميز «الأستاذ العقاد» فى تقديمه له فى حفل الاستقبال الذى أقامه مجمع اللغة العربية عام ١٩٥٩ : «اهتم بالقدرة ولم يهتم بالتقدير، فلم يعرف الراصدون هذا الكوكب إلا وهو فى برجه الأسمى قد جاوز جانبى الأفق وأصعد فى سمت السماء».

آثر الانزواء والانطواء زمنا طويلا، تلفت الناس فإذا هم يرون عزيز أباظة شاعرا كبيرا، ولم يك لهم عهد أن يروا مديرا لإحدى مديريات القطر المصرى وقتئذ شاعرا كبيرا، كأنما الشعر حرام على الإدارة والمديرين، وما بالهم وقد كان مديرا للقليوبية فمديرا للمنيا فحاكما عسكريا لمنطقة القناة، ومديرا لعاصمة الصعيد أسيوط!

إلى أسيوط:

وأسيوط بلد محافظ ينصرف أهلها إلى شئونهم وتنمية أنفسهم وبيوتهم وأولادهم وأموالهم، يجعلون بينهم وبين حكام إقليمهم أو المشهورين من الوافدين عليهم مسافة فى العلاقة معهم، ويقبلون بالمحبة على كل من يأنسون إليه ويأنس إليهم ويرون فيه البذل والعطاء دون نفع شخصى، هكذا كانوا مع «الدكتور السعيد» والد «أمينة السعيد» الطبيب الوطنى المشهور، عندما اعتقل أثناء ثورة ١٩١٩ كانوا يحرسون أسرته ويرعون شئونها حتى الصباح، وهكذا فعلوا مع «عزيز أباظة» مدير الإقليم أحسنوا وفادته لأنه أحسن التعامل معهم، ذهب إلى أسيوط فى أواخر عام ١٩٤٢ وبقى هناك ثلاثة أعوام، أحب أهل أسيوط وأحبوه، الكلمة الحلوة تسبق لسانه.. وهذه سمة تأسر قلوب أهل الصعيد، كان مهيب الطلعة فارع الطول أنيق الملبس وعلى وجهه جمال وجلال، وهذه صفات لها قدرها للحاكم مع المحكومين، يذهب إلى مكتبه مبكرا فى الصباح يباشر أعماله دون تفرقة بين الوافدين عليه، وبعد العصر يذهب إلى نادى البلدية يجلس بين رواده ولا بأس من الاستماع إلى أحوال البلد من الفئة التى تتردد على النادى. وفى التاسعة مساء يعود

إلى بيته، والناس لا يريدون من الحاكم إلا الدقة فى أعماله والاهتمام بما يعن لهم من مطلب، وقال الآباء إن أسعد أيام أسيوط كانت فى عهد عزيز أباظة.

وظل يرتدى البدلة السوداء طوال عامين كاملين بعد وفاة السيدة زوجته وهى ابنة عمه فى ١٩ يونية عام ١٩٤٢م، إلى أن خلعها تحت إلحاح أصدقائه الأسايطة «وهيب دوس وحبيب دوس وكمال نخلة»، وكانت له علاقات طيبة مع عمدة أسيوط «صموئيل شنودة» واختلطت بناته مع بنات الأسر الصديقة فى أسيوط.

وإذا كانت له فى أسيوط هذه المكانة الطيبة كان له فى نفوسنا نحن طلاب المرحلة الثانوية فى أسيوط والتى بدأت من عام٤٢ حتى عام ١٩٤٥ الذى حصل فيه معظمنا على التوجيهية «الثانوية العامة» وبعدها شد أكثرنا الرحال إلى الجامعة بالقاهرة، كان له فى نفوسنا وقع خاص وتقدير مهم. فى تلك الأعوام كانت الحركة الوطنية العربية تتصاعد ضد فرنسا وإنجلترا، وكان الصراع الداخلى فى مصر على أشده بين الوفد بزعامة النحاس باشا من جانب وبين القصر وأحزاب الأقلية من جانب آخر، وكان من حظ غالبيتنا من الشباب أن يقينا على الوفاء للوفد وعلى الحب للزعيم مصطفى النحاس على الرغم من الأنواء العاصفة التى كانت تهب على الوفد من الملك ومن أحزاب الأقلية ومن جريدة «أخبار اليوم»، كان يقود مجموعتنا فى تلك الأيام طالب أطول من غالبيتنا قامة، أخضر العينين يلتهب حماسة فى الهتاف للوفد وللنحاس باشا ونحن نحمله على أكتافنا وترتفع حناجرنا بإصرار على الهتاف للوفد وللنحاس، لم يزل اسمه فى ذاكرتى «شمس» فرقت بيننا الأيام بعد أن تركنا أسيوط إلى القاهرة.. لعل الأيام تكون قد صنعت به خيرا.

كانت مسيرة طلاب أسيوط تبدأ من المدرسة الثانوية ثم مدرسة الأمريكان ثم مدارس وسط البلد وعند ميدان المحطة نتوقف أمام مكتب جريدة المصرى ومديره «صادق حبشى» المخلص للوفد ونحييه ونحيى الوفد والنحاس باشا.. والهتاف أيضا بحرية سوريا ولبنان ونسير فى شارع الهلالى إلى أن تتوقف المسيرة أمام المديرية على النيل.. ويهل علينا المدير الشاعر الأنيق والصمت يخيم علينا دون أية كلمة تجرح قدسية هذه اللحظات التى يخطب فيها «المدير الشاعر عزيز أباظة» ونحاول أن نحفظ عباراته البليغة وأبيات الشعر التى يقتبسها من أمير الشعراء أحمد شوقى، لقد كان ـ وهو على حق ـ منحازا لأمير الشعراء «شوقى بك».

كانت أيـــام:

فى أسيوط أتم «المدير الشاعر» رواية «العباسة» التى مثلت فى دار الأوبرا وكانت رواية «قيس ولبنى» صدى لوعته وأحزانه لفقد زوجته، وتم إخراج «قيس ولبنى» قصة مسرحية وشعرا تمثيليا كأحسن ما توضع القصص المسرحية، وينظم الشعر التمثيلى، فبلغ الذروة أو كاد.. وجال مع أحمد شوقى فى هذا المجال.. وكان شوقى أستاذا له ورائدا، عرفه وهو طالب وتأثر به تأثرا شديدا، و«قيس ولبنى» هى أول مسرحية لعزيز أباظة «كانت أسيوط وشها حلو عليه» وإن كان قد بدأ فى «قيس ولبنى فى المنيا» إلا أن الأسايطة كانوا يعتزون بأنه نال الباشوية وهو مدير لمديريتهم.

وفى فترة ولايته على أسيوط والحرب العالمية الثانية فى شبابها طفت على صدر الأحداث بمدينة أسيوط حكاية «الخط».. كان من قرية «درنكة» فى حضن الجبل الغربى لأسيوط تطارده الحكومة، ويختفى هو وزملاؤه فى الجبل الغربى وبين حقول الذرة، وكثرت الأحاديث والشائعات عنه وعن طغيانه وعن الإتاوات التى يطلبها من أثرياء المدن والقرى على اتساع المديرية، وكانت بيوت مدينة أسيوط لا حديث لديها أكثر من القصص التى تروى عن «الخط».. فمن قائل إنه شوهد بسينما أسيوط يشاهد أحد أفلام يوسف بك وهبى.. هكذا يدخل السينما ويخرج «ولا تستطيع الشرطة أن تفعل له شيئا» شائعات.. ربما.. وحكايات عن الثروات التى حصلها هو وأفراد شلته، وحكايات عن الطائرات التى كانت تمسح المنطقة التى يختفى فيها «الخط» إلى أن راحت حكاية حكمدار البوليس الذى قام بالقبض على والدة الخط وعلى زوجته من قريته درنكة، وذلك للضغط عليه لتسليم نفسه بعد أن عجزت الشرطة عن مواجهته وسرعان ما راجت حكاية أخرى.. هى أن مدير المديرية الشاعر عزيز أباظة رفض هذا الأسلوب من الحكمدار وأمر بالإفراج عن والدة الخط وزوجته، وقال عزيز أباظة فى اجتماع خاص بمواجهة «الخط» ورجاله يجب أن يتمثل فى مواجهة «الخط» بالأساليب الفعالة دون اللجوء إلى الأساليب اللاإنسانية، وكان أن حدث بعدها شقاق داخل مجموعة الخط وانقسام فريق تحت امرة الرجل الثانى فى مجموعة «الخط» يدعى «عواد»، وتمكنت الشرطة من القضاء على «عواد» فى قرية «موشا» القريبة من مدينة أسيوط والقضاء على «الخط» نفسه. وهنا كان يلزم تهدئة النفوس الفزعة من جرائم الخط وأفعاله فتقرر عرض جثمان

الخط على عربة مكشوفة تمر بشوارع مدينة أسيوط ليراها السكان وتهدأ نفوسهم، وذهبت بين الشبان الذين ذهبوا وعلى رأس شارع بيتنا فى أسيوط قدر لى أن أرى جثمان «الخط» وفوجئت بأنه رجل يميل إلى القصر وإلى النحافة وبعيد عن الصورة التى رسمتها له فى ذهنى. . عملاق طويل عريض ممتلئ. . أهذا هو الخط الذى دوخ الأمن فى جميع أرجاء مديرية أسيوط.

خطوات كتبت عليه:

ولد «عزيز أباظة» بالربعماية مركز منيا القمح مديرية «محافظة» الشرقية عام ١٨٩٨ تلقى تعليمه الابتدائى بالمدرسة الناصرية الابتدائية، وأكمل دراسته فى المرحلة الثانوية بالمدرسة التوفيقية بشبرا والمدرسة السعيدية، والتحق بمدرسة الحقوق ونال الليسانس عام ١٩٢٣ فى الخامسة والعشرين من عمره، تمرن على المحاماة فى مكتب «وهيب دوس بك» المحامى لمدة عامين، ثم عمل مساعدا للنيابة فوكيلا للنيابة فى مديرية الغربية. وفاز بعضوية مجلس النواب، عمل بوزارة الداخلية مدير التحقيق الشخصية، ووكيلا لمديرية البحيرة عام ١٩٣٥. وعين مديرا للقليوبية عام ١٩٣٨ ثم مديرا للفيوم ومديرا للبحيرة، ومحافظا لبورسعيد وحاكما عسكريا عام١٩٤٢، ومنها مديرا لأسيوط لمدة ثلاث سنوات ونال رتبة «الباشوية» أثناء خدمته فى أسيوط، واختير عضوا بمجلس الشيوخ عام ١٩٤٧. واستقر المقام بالأسرة فى القاهرة واختير عضوا فى مجلس إدارات شركات مختلفة، وكان سكنهم بالقاهرة فى حى الدقى، وفاز بالجائزة التقديرية فى الأدب «الشعر» عام ١٩٦٥. ورحل عن دنيانا فى ١٠ يوليو عام ١٩٧٣م.

المدير شاعرا:

قرض الشعر وهو فى العاشرة من عمره، وطوال عمله بالإدارة استطاع ألا تكون هناك خصومة بين الإدارة والإبداع، أحيانا كان يعطى للإدارة ما للإدارة، ويعطى للشعر ما للشعر، حتى كانت القارعة بوفاة زوجته الحبيبة إلى قلبه وروحه، فانبعثت

ملكته الشاعرة بتلك «الأنات الحائرة» وإذا الناس يلتفتون إلى هذا الزوج الثاكل المكلوم، وإذا هو أعظم من زوج، وأعظم من أخ ورفيق، ولم يكن من المألوف عندهم أن يسمعوا أو يقرءوا الشاعر يرثى زوجته هذا الرثاء الحار البليغ. . إذا استثنينا فى القدماء جريرا وابن الرومى، وفى المحدثين محمود سامى البارودى، وفى عصرنا الحديث نزار قبانى فى رثاء بلقيس، وكان رحيل زوجته، ابنة عمه، فى ٢٩ يونيو عام ١٩٤٢.

وأتم فى أسيوط بعد فاجعة الرحيل رواية «العباسة» التى قدمت فى دار الأوبرا، وجاء ديوان كامل لرثاء زوجته وهو «أنات حائرة».

وقد وضع تقرير حصوله على جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٦٥ هذا الديوان فى طليعة أعماله: إلى جانب ما أنتجه من الشعر الغنائى الرفيع وفى طليعته «أنات حائرة» الذى يضم نخبة من القصائد الرائعة أوحت بها مناسبة فاجعة، وكان لصدوره فى نفوس القراء وعند الشعراء والنقاد صدى بعيد».

حتى عندما كان مديرا لبورسعيد والحرب العالمية فى عنفوانها وقنابل المحور تتساقط على المدينة من كل جانب كان يخلو لنفسه مع ربة الشعر.

فى بيتــه:

وتذكر ابنته «عفاف عزيزأباظة» زوجة الكاتب الكبير «ثروت أباظة» أن الشعر كان أول ما سمعوا فى البيت: «كنت أرى أبى جالسا بين أخواله وأعمامه يقرأ عليهم بصوته الحنون مختاراته من الشعر القديم، وكان أبى يردد شعر شوقى ويطلب منا أن نردده وراءه وأن نحفظه، فقد كان شديد الإعجاب بشوقى، شديد التعصب له وكان حبه لشوقى يجمعه بصديقه «وهيب دوس المحامى».

كان يعلم ذويه السلوك الإنسانى ومراعاة مشاعر الآخرين. . مرة دعيت ابنته لحضور أحد الأفراح المتواضعة بأسيوط فأوصى ابنته «عفاف» ألا تلبس شيئا من حليها فإن العروس الداعية لا تملك حليا بالمرة.

وكانت عقيلته - رحمها الله - تأتى بمقرئ يشبه صوته إلى حد بعيد صوت الشيخ

محمد رفعت يسمى الشيخ «السيد الجمل»، وكان عزيز أباظة يطرب للسيدة «أم كلثوم» وكان يدعوها للقاء الناس فى كل مديرية كان مديرا لها، واعتادت أسرته الصغيرة أن تحتفل بزواج «عزيز أباظة» احتفالا عائليا.

التاريخ والأصدقاء:

وكما كان تاريخ إنجلترا عند «شكسبير» وحيه وإلهامه، كان تاريخ مصر وحى شوقى وعزيز أباظة، وهما يستوحيان التاريخ الإسلامى والعربى فى مسرحياتهما الشعرية، يكتب شوقى «مجنون ليلى وعنترة وعلى بك الكبير وقمبيز». . يكتب عزيز أباظة «قيس ولبنى وشجرة الدر وغروب الأندلس» ونراه وقد أشاد بشجرة الدر وهى تشد عزيمة زوجها الملك الصالح نجم الدين أيوب، وأول مرثاة لعزيز أباظة كانت رثاءه «إقبال» شاعر الباكستان الذى توفى عام ١٩٣٨، وكان مديرا للقليوبية وكان رثاؤه للشيخ «على عبدالرازق» إشادة بما لأسرة عبدالرازق من فضل ومآثر على العروبة والإسلام والأزهر، عام ١٩٧١ عندما رحل «الدكتور عبدالرزاق السنهورى» كتب «عزيز أباظة» قصيدة فى رثائه.

شهادات منصفة:

قال «د. محمد مهدى علام»: محمد عزيز أباظة مدرسة الشعر العربى الأصيل. حافظ على عمود الشعر ليس بمقالاته ومحاضراته فحسب بل كذلك بأعماله الفنية المتعددة سواء فى الشعر الغنائى أو الشعر المسرحى، وكانت له دراية واسعة باللغة العربية.

وكتب «فتوح نشاطى» فى كتابه «خمسون عاما فى خدمة المسرح»: أراد الجمهور أن يرى «عزيز أباظة» ليحييه وهو رجل متواضع حيى خجول فاعتذر عن عدم الظهور على المسرح، ولكن «شكرى راغب» مدير مسرح الأوبرا أقنعه بأن يذهب بعد الفصل الثالث مباشرة إلى المسرح ليهنئ الممثلين، وهنا استجاب عزيز أباظة

لتهنئة الممثلين، ولم يكد يصل إلى منتصف المسرح حتى ارتفعت الستار وصفق له الجمهور طويلا.

وفى الكتاب نفسه ذكر فتوح نشاطى: لأول مرة فى تاريخ المسرح الشعرى تضرب «قيس ولبنى» كل الأرقام القياسية فى النجاح الأدبى والمادى.

ولا بأس قبل الختام أن نسجل مسرحياته الشعرية: قيس ولبنى، والناصر، وغروب الأندلس، وأوراق الخريف، وقيصر، والعباسة، وشجرة الدر، وشهريار، وقافلة النور.

ثم أسدل الستار:

لم يكن يكتب فى حجرة خاصة أو على مكتب وإنما كان يكتب على ركبتيه وهو بملابس البيت، وعكف فى أيامه الأخيرة مع صديقه الوفى «أنور أحمد» على جمع ما تفرق من قصائده وجمعا «ديوان» صدر بعد رحيله، وآخر بيت من الشعر وهو مريض بالذبحة الصدرية:

يامنى النفس لا أقول من القلب.. فقلبى فديتك نفسى ذبيح.

وأسدل الستار.

الأسانيد:

١ - طاهر الطناحى: حديقة الأدباء.

٢ - عفاف عزيز أباظة: أبى عزيز أباظة.

٣ - فتوح نشاطى: خمسون عاما فى خدمة المسرح.

٤ - محمد البرعى: شعر وشعراء.

٥ - د. مهدى علام: المجمعيون فى خمسين عاما.

٦ - نوران النجار: شاعر العروبة والإسلام.

الإمام الأكبر الشيخ الدكتور:
عبدالرحمــن تــاج



أربعة من المصريين الأوفياء، دفعت بهم القرية المصرية إلى الأزهر الشريف ليصقلهم ويهذبهم ويملأ أذهانهم بالكلام الطيب، ثم يدفع بهم إلى الحياة العامة روادا للنهضة المصرية الحديثة، وأوفياء إلى معهدهم العريق يردون له الجميل بالإصلاح والتطوير ورفعة شأنه بين المصريين والعرب والمسلمين. .

رفاعة رافع الطهطاوى، والشيخ محمد عبده، والشيخ محمد مصطفى المراغى، والشيخ الدكتور عبدالرحمن تاج، وقد استجاب الأزهر الشريف لدعوة هؤلاء البررة حتى لا يتخلف عن ركب الحضارة.

رفاعة الطهطاوى (١٨٠١م - ١٨٧٣م). كان «الباشا» محمد على قد رسم فى ذهنه منذ عام ١٨١٧م أن تنصرف قيادات الأزهر إلى علوم الدين وحسب حتى يبعدها عن أحوال الدنيا (أى عن أحوال مصر). وجاء عام ١٨٢٢م وتخرج فى الأزهر «رفاعة الطهطاوى» ابن طهطا الذى لوحته شمس الصعيد وعمل مدرسا بالأزهر لعامين ثم عين عام ١٨٢٤ واعظا وإماما بالجيش حتى عام ١٨٢٦م، وأصبح بذلك فى قلب قطاع مهم من قطاعات الشعب وهو (الجيش). وبتوصية من الشيخ «حسن العطار» اختير ابن الأزهر «رفاعة الطهطاوى» ليصحب إحدى بعثات محمد على إلى باريس. وعاد ابن الأزهر من باريس عام ١٨٣١م ينشر النور فى ربوع البلاد ليترجم ويشجع على ترجمة العلوم الهندسية والعسكرية، وينشئ مدارس التاريخ والجغرافيا والترجمة، والألسن ويعطى البنات حقهن فى التعليم.

ويفخر الأزهر بهذه النهضة التى يقودها واحد من أبنائه . . وبعد وفاة إبراهيم باشا فى (١٠ نوفمبر عام ١٨٤٨م) جاء «عباس الأول» فى (٤ ديسمبر عام ١٨٤٨م) ليطفئ المصباح المضيء ويرسل «الطهطاوى» إلى السودان ولكنه يعود فى عهد «سعيد» ليواصل فى ظل الأزهر مسيرة التنوير .

فى مدينة السويس وفى عام ١٨٧٩م كان «السيد جمال الدين الأفغانى» يدخل إلى سفينة الرحيل عن مصر فيقول لمودعيه : «لقد تركت لكم الشيخ محمد عبده» وكفى به لمصر عالما . ويبعث الشيخ محمد عبده (١٨٤٩م - ١٩٠٥م) برسالة إلى الخديو عباس حلمى الثانى بعد أن تولى شئون البلاد : «إن إصلاح الأزهر أعظم خدمة للإسلام، وإصلاحه إصلاح لجميع المسلمين» . ورفع الشيخ محمد عبده راية إصلاح الأزهر ليخدم الإسلام وليصلح جميع المسلمين ويسلم الراية للشيخ محمد مصطفى المراغى .

وعندما كان «مصطفى النحاس» رئيسا للوزراء (١٦ مارس - ٢٥ يونية عام ١٩٢٨م) فرض على الملك فؤاد «المراغى» شيخا للأزهر فى (٢٣ مايو عام ١٩٢٨) ووضع المراغى برنامجا كاملا لإصلاح الأزهر . وأخذ ينفذه عندما عاد للمشيخة عام ١٩٣٥ إلى أن توفاه الله عام ١٩٤٥م . (الشيخ المراغى من مواليد ١٨٨١م) .

ونصل إلى الشيخ الدكتور عبدالرحمن تاج الذى تولى منصب شيخ الأزهر فى (٧ يناير عام ١٩٥٤م) وبادر بأن قرر تدريس اللغات الأجنبية والتدريب العسكرى فى الأزهر .

قال «عبدالرازق» وهو من هو عنه : «إن فضيلة الأستاذ قد حصل من الرتب العلمية والدرجات ما رفعه إلى مستوى لا مطمع لكثير من الناس أن يصلوا إليه ، ولكن هو نفسه استطاع أن يبلغه ، وأن يبلغ من الفضل مقاما فوق ذلك مظهرا أو أرفع قدرا ، وأكبر مقاما ، مقام تتهاوى دونه درجات العلماء ومقامات الخبراء ، وتتخاذل دونه الألقاب . وترتد المطامع عنده وهى كليلة حسرى ، كان ذلك يوم انتخاب «الشيخ تاج» عضوا فى مجمع اللغة العربية عام ١٩٦٣ .

وقال «الشيخ على الخفيف» فى يوم رحيل «الشيخ تاج» عام ١٩٧٥م : «كان فقيدنا الدكتور الأستاذ الإمام - رضى الله عنه - من أولئك الذين حبوا بعلمهم، وسموا بأخلاقهم، وعملوا بعلمهم فكتبوا لأنفسهم الخلود بما تركوا من علم يتوارث. وأفكار تهدى، فكان فيه الأسوة الحسنة لمن أراد لنفسه سموا لمنزلة عليا، ولذكره بقاء، ولحيادته خلودا. لقد فقدنا بفقده - رضى الله عنه - الشيخ الجليل، والإمام العظيم والمعلم الكبير، والنابغة فى الفقه والتفسير، والضليع فى العربية وعلومها، فكان الخطب فيه جللا، والخسارة فادحة لا للأزهر وحده ولا لمجمع اللغة العربية فحسب. بل للأمة الإسلامية جمعاء».

الإمـــام الأكبـــر:

منذ يوم ٧ يناير من عام ١٩٥٤م الذى صدر فيه القرار الجمهورى بتعيين «الشيخ الدكتور عبدالرحمن تاج» شيخا للجامع الأزهر، وهويضع كرامة الأزهر من كرامة الإمام الأكبر شيخ الأزهر.

حدث عام ١٩٥٥م أن تلقى «الإمام الأكبر» دعوة رسمية من «سوكارنو» رئيس جمهورية إندونيسيا لزيارتها والمشاركة فى احتفالها القومى بوصفه شيخا للأزهر. وفى الوقت نفسه سافر وفد الحكومة برئاسة قائد الجناح «جمال سالم» ووضعه معروف بين الضباط الذين استولوا على السلطة فى مصر فى يوليو عام ١٩٥٢. وسافر وفد الأزهر برئاسة الإمام الأكبر ووفد الحكومة برئاسة «جمال سالم» فى طائرة واحدة. ومرت الطائرة بباكستان أولا وعندما هبطت الطائرة فى كراتشى بالوفدين وفى غيرها من البلاد فى الطريق إلى إندونيسيا كان الاستقبال بالغ الحفاوة بوفد الأزهر وبشيخه الجليل، وانصرف الناس - إلى حد الإهمال - لوفد الحكومة ولجمال سالم. وهاج «جمال سالم» وطلب أن يعود شيخ الأزهر ورجال الأزهر الذين معه ورفض «الإمام الأكبر» بشكل قاطع وحاسم واستمر فى الرحلة يرد التحية بأحسن منها لمستقبليه الرسميين والشعبيين وأهمل «جمال سالم» وصحبه فى وفد الحكومة.

وكان «على صبرى» وزير دولة لشئون الرئاسة . . وكانت له سلطات واسعة . . وطالما اتصل بالشيخ «تاج» طالبا منه مطالب معينة ولكن «الشيخ» كان يرفض هذه المطالب ، وفى أوائل عام ١٩٥٧م فوجىء «الإمام الأكبر» وهو فى مكتبه بقرار جمهورى بتفويض «على صبرى» فى جميع صلاحيات رئيس الجمهورية فى كل ما يختص بالأزهر . ورأى «الإمام الأكبر» فى هذا القرار مخالفة دستورية وقانونية للقانون ٢٦/ ١٩٣٦ ، ومحاولة لفرض وصاية وزير على (المشروعية الإسلامية) التى يحمل الأزهر أمانتها . وقرر «الشيخ» ألا ينفذ هذا القرار الجمهورى . وفعلا بعد صدور هذا القرار بأيام ، أصدر «على صبرى» باعتباره مشرفا على الأزهر بإسناد منصب مدير إدارة الثقافة بالأزهر إلى «الدكتور محمد البهى» .

وكان «الشيخ» نفسه يعتزم إسناد هذه الوظيفة للدكتور البهى ، ولكن ذودا عن كرامة الأزهر وكرامة شيخه رفض تنفيذ قرار على صبرى . وأصدر «الدكتور تاج» قرارا بإلغاء إدارة الثقافة وإعادة الدكتور «البهى» إلى منصبه أستاذا بكلية اللغة العربية . ولم ينجح «على صبرى» فى فرض وصايته على الأزهر . وكان لابد من حيلة لإبعاد «الشيخ تاج» عن مشيخة الأزهر .

وتكون أول اتحاد بين مصر وسوريا واليمن . وفى أول سبتمبر عام ١٩٥٨ صدر قرار بتعيين «الشيخ الدكتور عبدالرحمن تاج» وزيرا فى الوزارة الاتحادية على اعتبار أنه شخصية دينيةكبيرة . وأن «الإمام أحمد حميد الدين» إمام اليمن يسعده أن يكون لجواره فى الاتحاد شخصية دينية كبيرة . وبهذا أبعد شيخ الأزهر العنيد على كرامة الأزهر وكرامته .

بحر العلوم:

الذين اقتربوا منه . والذين كتبوا عنه أشاروا إلى علمه الغزير مما أدى إلى اختياره عضوا بمجمع اللغة العربية عام ١٩٦٣ ، وشارك «الدكتور الشيخ عبدالرحمن تاج» فى أعمال المجلس مشاركة مثمرة فى مؤتمراته ولجانه خاصة لجان القانون والاقتصاد والأصول والمعجم الكبير . وقدم عدة بحوث وكلمات لها وقعها العلمى .

وقدم للمكتبة العربية كتبا ودراسات وبحوثا فى مجالات كثيرة نذكر منها- مذكرات فى الفقه المقارن - مذكرات فى تاريخ التشريع - أحكام الشريعة الإسلامية فى الأحوال الشخصية - السياسية الشرعية والفقه الإسلامى - التأمين على الحياة من وجهة نظر الشريعة الإسلامية - شركات التأمين من وجهة نظر إسلامية - حكم الربا فى الشريعة الإسلامية - تاريخ التشريع الإسلامى - وله كتاب ضخم باللغة الفرنسية عن (البابية والإسلام) يعد من المراجع المهمة فى مواجهة المذاهب الغربية عن الإسلام والمناوئة له .

ومع علمه الغزير كان تقيا ورعا وكان يرى (أنه لا فقه بدون ورع) وبجانب ذلك كان يتمتع بخلق كريم صقلته التجارب التى خاض غمارها كما سمت به عقيدته الدينية إلى آفاق عالمية. ويعد أحد فقهاء الشريعة الإسلامية المعاصرين .

حياته العلمية:

حفظ القرآن ودرس مبادئ العلوم الدينية والعربية والتحق بالكتاب فى أسيوط بعد أن تجاوز الخامسة من عمره، ويبدو أن ألمعيته قد أضاءت مبكرا. تقول بعض المصادر إن «سعد زغلول باشا» وهو فى جولة تفقدية للمؤسسات التعليمية بأسيوط لمح ذكاء الطفل «عبدالرحمن تاج» وسرعة خاطره وإجاباته السديدة، ما يشير إلى عمر عقلى يتفوق على العمر الزمنى دون أقرانه فى الكتاب، ورأى الباشا أن يكافئه ويشجعه فقرر إلحاقه بالمدارس الأميرية على نفقة الدولة إلا أن أسرة الطفل حرصت على أن يكون مجال تعليمه - بعد الكتاب - هو الأزهر الشريف ، وكانت مسيرته فى الأزهر كما هو معروف.

هذه الرواية تشابه إلى حد كبير ما حدث للتلميذ إسماعيل القبانى الذى أمر سعد باشا بتعليمه على نفقه الدولة فى المدارس الأميرية وأصبح فيما بعد وزيرا للتربية والتعليم. وانتقلت الأسرة إلى الإسكندرية، فالتحق بالسنة الثانية بمعهد الإسكندرية الدينى سنة ١٩١٠م. وكان أول الناجحين فى (العالمية) عام ١٩٢٣م ونال جائزة أول الناجحين ونال شهادة التخصص عام ١٩٢٦ . وعين مدرسا بمعهد أسيوط الدينى ونقل عام ١٩٣١ مدرسا بمعهد القاهرة. وعام ١٩٣٣ أصبح مدرسا

بكلية الشريعة وعضوا فممثلا للمذهب الحنفى بلجنة الفتوى بالأزهر. وعام ١٩٣٦ سافر فى بعثة تعليمية إلى باريس ليحصل من (السوربون) على درجة الدكتوراه فى الفلسفة وتاريخ الأديان عام ١٩٤٢، وقد سافر إلى باريس فى صحبة زوجته وأطفاله الثلاثة. ولظروف الحرب العالمية الثانية طالت إقامته فى فرنسا فتعلم اللغة الفرنسية وأجادها وكان يكتب بها. وقد أشرنا من قبل إلى كتابه باللغة الفرنسية (البابية والإسلام).

عاد إلى أرض الوطن واختير للتدريس فى قسم تخصص القضاء الشرعى وأصبح سكرتيرا فنيا للجنة الفتوى. وعهد إليه بإدارة كلية الشريعة، وإدارة معهد الزقازيق الدينى. وعين شيخا للقسم العام والبعوث الإسلامية فوضع للبعوث الإسلامية أسس النظام الإدارى والدراسى. وفى عهده سعى لبناء (مدينة البعوث الإسلامية) لسكنى طلاب العالم الإسلامى بدلا من السكن فى الأروقة. وعام ١٩٥١ تقدم برسالة عن «السياسة الشرعية» نال بها عضوية (جماعة كبار العلماء).

عمل أستاذا للشريعة الإسلامية بكلية الحقوق جامعة عين شمس بالقاهرة. ثم عضوا بلجنة الدستور.

بداية ونهاية:

فى أواخر القرن التاسع عشر (عام ١٨٩٦م) قدر للشيخ عبدالرحمن تاج أن يولد فى مدينة أسيوط ليصبح فيما بعد أحد فقهاء الشريعة الإسلامية المعاصرين. وتنحدر أسرته من بلدة (منية الحيط) إحدى قرى مركز إطسا فى محافظة (الفيوم)، وقد أطلق عليها العامة هذا الاسم تحريفا لاسمها الأصلى (ميناء الحائط) حيث أقام «محمد على باشا» حول هذه البلدة حائطا مرتفعا سميكا لتخزين مياه بحر يوسف أثناء فترات الفيضان. ولم تزل بقايا هذا الحائط بادية للعيان حتى الآن.

ورحل جده وأسرته إلى أسيوط للعمل فى البناء خاصة القناطر التى بدأ العمل فيها لصالح الزراعة فى تلك الفترة. كما قدر لهم الهجرة إلى الإسكندرية بعد ذلك. ولضرورات العلم والعمل انتقلت الأسرة أيضا إلى القاهرة. وصدر القرار

الجمهورى فى يناير عام ١٩٥٤ باختياره شيخا للأزهر وأول ما فكر فيه هو النهوض بالأزهر - كما أشرنا من قبل - وأول من فكر فى إدخال نظم التربية العسكرية بالأزهر، وتشجيع الأنشطة الرياضية بشتى أنواعها وأدخل تعليم اللغات الأجنبية وظل شيخا للأزهر حتى عام ١٩٥٨م حين عين وزيرا فى أوائل سبتمبر عام ١٩٥٨ فى الوزارة الاتحادية وظل هذا الحل الشكلى قائما حتى عام ١٩٦١ عقب انفصال سوريا عن مصر. وكانت علاقاته وثيقة باللواء «محمد نجيب» الذى واجه صعوبات كثيرة من رفاق ٢٣ يوليو. وحرص أيضا فى مراحله المختلفة على العلاقات الودية مع رجال الدين المسيحى.

اختير عضوا فى مجمع البحوث الإسلامية، وعضوا فى مجمع اللغة العربية، وواصل الكتابة فى الصحف - فيما يهم الناس - حتى توفاه الله بالقاهرة عام ١٩٧٥م.

عود على بدء:

وبحديثنا هنا عن «فضيلة الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر الدكتور عبدالرحمن تاج» ودوره فى نهضة الأزهر ومواقفه للذود عن كرامته نكون قد أضفنا مصباحا مضيئا من المصابيح التى أنبتها الأزهر لتضىء الطريق الوعرة، رفاعة الطهطاوى، والشيخ محمد عبده، والشيخ محمد مصطفى المراغى الذين جعلوا قضيتهم نهضة الأزهر وإصلاحه.

وقد قدمنا هؤلاء الأربعة إلى القراء فيما سبق أن قدمناهم من الذين قدمتهم القرية المصرية إلى الأزهر الشريف وقدمهم بدوره إلى مصر ليكونوا روادا ومصلحين وقادة فى السياسة والإبداع وفى علوم العقيدة وهم كثيرون. وقد قدم هذا القلم عددا منهم إلى القراء الكرام ونذكر من هؤلاء الأبناء البررة للأزهر والذين قدمناهم (رجالا من مصر): الدكتور أحمد أمين والشيخ أحمد حسن الباقورى وأحمد حسن الزيات، والشيخ حسن البنا، وزكى مبارك، وسعد زغلول، والدكتور طه حسين، والشيخ محمد أبو زهرة، والشيخ محمد عبداللطيف دراز والشيخ مصطفى عبدالرازق. رحمهم الله جميعا وأجزل لهم الثواب لقاء ما قدموه

لتراب القرية الذى خرجوا منه، وللأزهر الذى صقلهم وثقفهم، ولمصر الولود التى أنبتتهم.

الأسانيد:

١ ـ الأزهر الشريف فى عيده الألفى. . الشيخ سعد فرهود وآخرون.

٢ ـ أبو بكر عبدالرازق. . الشيخ عبدالرحمن تاج.

٣ ـ الاعتصام (مجلة). . عدد ديسمبر عام ١٩٧٤م.

٤ ـ د. محمد رجائى الطحلاوى ود. يحيى عبدالحميد إبراهيم. . من أعلام أسيوط.

٥ ـ محمد مصطفى البسيونى. . الأخبار (جريدة ٢١/ ١٢/ ١٩٩٠م).

٦ ـ عصام العيسوى (مهندس). . حديث معه.

عوض ويوسف أحمد الجندى





أحسبنى على صواب إذا ما قلت أن أحب المسلسلات التى عرضت على الشاشة الصغيرة إلى قلوب المشاهدين كان مسلسل «جمهورية زفتى» التى ألفها «يسرى الجندى» وأخرجها «إسماعيل عبدالحافظ» وراجع مادتها التاريخية «د. يونان لبيب رزق». وهذه «الجمهورية» حسب تعبير بعض الكتاب أو «الإمبراطورية» عند بعض أهالى زفتى فى مقابل الإمبراطورية البريطانية، كانت قطعة من تاريخ مصر الحديث المجيد، وإفرازا للثورة الشعبية الكبرى عام ١٩١٩ وزعامة سعد زغلول العظيم.

ولهذا حرصت على مشاهدة هذا العمل التليفزيونى المهم، وبقيت عندى ملاحظتان رأيت من واجبى أن أبحث عنهما ونجلى حقيقتهما وإن أعرض لسيرة البطلين الوطنيين المصريين «عوض ويوسف أحمد الجندى».

* الملاحظة الأولى.. ما جاء فى العمل التليفزيونى حول اعتزام «يوسف الجندى» أن يسلم نفسه للقوة الأسترالية التى قامت بحصار مدينة زفتى للقضاء على الثورة فيها، والحقيقة التاريخية تؤكد أن «يوسف الجندى» لم ترد على خاطره لحظة أن يسلم نفسه إلى قوات الاحتلال التى حكمت عليه بالإعدام، وحقيقة الأمر أن «عوض الجندى» وهو يكبر «يوسف» بخمس سنوات كان فى ذلك الوقت بالقاهرة يجتمع بزعماء الثورة وعرفوا بالحكم على يوسف بالإعدام، وتحرك الفرقة الأسترالية لوأد الثورة المستقلة فى زفتى، فأسرع وركب عربة كارو إلى قليوب ثم

مركبا نيليا إلى بنها، وأخذ عربة حنطور إلى زفتى «المواصلات المعروفة كانت مقطوعة»، واجتمعت لجنة الثورة بزفتى، وقررت ضرورة إفلات يوسف من حكم الإعدام.

وخرج «يوسف» متخفيا إلى قرية «حنون» المجاورة لزفتى واستضافته أسرة «زمزم» المعروفة بوطنيتها، وأعاد يوسف بذلك ذكرى «عبدالله النديم» الذى أفلت من قوات الاحتلال ولجأ إلى الفلاحين المصريين الوطنيين وقاموا بحمايته، ودخلت الفرقة إلى زفتى وقبضت على «عوض» الذى أنكر تماما معرفته بمكان اختفاء شقيقه «يوسف».

* الملاحظة الثانية . . ما جاء فى العمل التليفزيونى حول شخصية الباشا التركى «حشمت باشا» وموقف العداء لثورة زفتى وخدمته للاحتلال البريطانى ليس له وجود فى الواقع التاريخى ولم يرد ذكره فى أى مصدر من المصادر، فضلا عن أن الأتراك كانوا طوال الحرب العالمية الأولى «١٩١٤ـ١٩١٨م» على عداء وخصومة مع الإنجليز والحلفاء، ولم يكن هناك مبرر لهذا الجانب الذى اقتضته الضرورة الدرامية فى الحلقات، وهناك عائلات غنية فى زفتى لم تؤيد الاحتلال ضد ثورة الشعب فى بلدتهم التى قادها «عوض ويوسف أحمد الجندى».

البطلان المصريان الوفديان الشقيقان «عوض ويوسف الجندى» تميزا بصفات توضح الكثير من مواقفهما فى مسيرتهما التاريخية:

** قدر لهما أن يرتبطا بالوفد وبسعد زغلول ومصطفى النحاس وفؤاد سراج الدين دون أن يمرا على قوى سياسية أخرى.

** لم يخرج أى منهما على الوفد فى أية انقسامات أو تكتلات.

** لم يترك أى منهما الوفد إلى أن رحلا إلى رحاب الله . . «يوسف» توفى عام ١٩٤١م و«عوض» توفى عام ١٩٦٤.

** ظلا شقيقين متحابين يضحى كل منهما للآخر ولم يفرقهما سوى الموت.

** كتبت جريدة التايمز البريطانية عن أحداث زفتى الفريدة من نوعها.

** كان ولاؤهما للوفد بلا حدود . . كتب محمد التابعى فى ١٥ أغسطس ١٩٣٧ فى مجلة آخر ساعة . . كانا أكثر الناس خصومًا وحسادًا وكانا دائمًا حربًا على خصوم الوفد .

** كان اتجاههما المبكر . . «مصر للمصريين . . لا للعثمانيين ولا للإنجليز» .

** عملا قلبا واحدًا للثورة فى زفتى . . شكلا لجنة للثورة . . وكانت مطبعة «عجينة» تصدر مطبوعات لجنة الثورة فى زفتى ، وأصدرت لجنة الثورة جريدة باسم «الجمهور» تعبر عن أخبار الثورة .

** كانت علاقتهما قوية بسعد باشا الذى كانت له عزبة فى مسجد وصيف المجاورة لزفتى .

** فى انتخابات ١٩٣٤م رشح «عوض» نفسه فى دائرة «الغريب» القريبة من زفتى ولكن «سعد باشا» رأى أن يرشح «نجيب الغرابلى أفندى» فى هذه الدائرة أمام «إسماعيل صدقى باشا» ، وكان «الغرابلى» غريبًا عن الدائرة . . فوراً اتفق عوض ويوسف على إخلاء الدائرة للغرابلى وقاما بالدعاية له حتى فاز على صدقى باشا .

شخصيتان كانتا جديرتين بالبحث الدقيق عن تاريخهما الوطنى المشرف فعكفت على قراءة ما كتبه «د . حسين مؤنس» فى «دراسات فى ثورة ١٩١٩» و«عبدالرحمن الرافعى» عن ثورة ١٩١٩ . وفتحى رضوان فى «عصر ورجال» و«أحمد بهاء الدين» . . فى «أيام لها تاريخ» . . وأثرى الجرعة عن عوض ويوسف الجندى وإمبراطورية زفتى «الدكتور سيد الجندى» ابن «عوض الجندى» وهو طنى مخلص عمل طبيبًا فى القوات المسلحة وتدرج إلى رتبة «لواء» ، وكان على أرض «سيناء» أثناء العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦م ، وكان شقيقه «أحمد» متطوعًا فى المقاومة ضد الاحتلال أثناء ذلك العدوان . جلسنا سويًا «الدكتور عوض» وكاتب هذه الحلقة نقلب صفحات الماضى فى جرائد المصرى والأهرام والمصور ، ونشرنا كلمات «مصطفى النحاس ومحمد صبرى أبو علم ود . محمد حسين هيكل ، وفكرى أباظة ، وكامل يوسف صالح ، وقصيدة خليل مطران ، ويوسف حلمى . . ونتأمل صورة جنازة «يوسف

الجندى» تملأ غلاف المصور وفى مقدمة الجنازة «مصطفى النحاس والشيخ محمد مصطفى المراغى، وبهى الدين بركات، ومحمد حسين هيكل، ومحمد صبرى أبو علم» جنازة قومية فى توديع بطل وطنى نقلب هذه الصفحات كلها ونقول. . كان لنا تاريخ.

وبعد أن تحدثنا نحن الاثنين معًا نسير مع كل واحد منهما حسب الأقدمية.

عوض أحمد الجندى:

ولد فى مدينة زفتى يوم ٥ مايو عام ١٨٨٨م مديرية الغربية. والده الشيخ «أحمد الجندى» كان من كبار تجار القطن، وتعلم «عوض» فى مدارس العزيز بزفتى، ثم حصل على الابتدائية من مدرسة الناصرية بالقاهرة، وكان أول تلميذ يحصل على الابتدائية فى زفتى. ودخل مدرسة رأس التين الثانوية بالإسكندرية، وحصل على البكالوريا. وسافر إلى فرنسا وحصل على ليسانس الحقوق فى «مونبلييه». وعاد إلى مصر قبل الحرب العالمية الأولى - وخبط لزق - افتتح القادم من باريس مكتبًا للمحاماة فى زفتى، وأصبح عضوًا فى الجمعية التشريعية عام ١٩١٣، وانضم إلى جانب «سعد زغلول» الوكيل المنتخب للجمعية فى مواجهة العضو المعين «عدلى يكن»، وقبض عليه بعد ذلك لمعارضته لقانون يحد من حرية الصحافة وعلق منشورًا يقول فيه: «أيهما أشد جرما. . قاتل النفس أم قاتل الكلمة».

فى زفتى كان عضوا فى المجلس البلدى وأقام ناديًا به مكتبة وحديقة، ومما يذكر أن عام ١٩٤٢م كان أول من خلع الطربوش لأنه رمز السيادة العثمانية.

وكان عوض منحازًا للشباب وقضاياهم ودورهم فى الحركة الوطنية، وعام ١٩٥٤ والصراع على السلطة بين الضباط، قام بعض الضباط بزيارة المدن كسبًا للتأييد، وعندما ذهب وفد العسكر إلى زفتى لم يجدوا فى استقباله عوض الجندى ولا أحد من أسرة الجندى، وبعدها تقرر إدراج اسم «عوض الجندى» فى

قائمة المعزولين سياسيًا، وعام ١٩٤٢، وكان «يوسف الجندى» قد توفى إلى رحمة الله، حاول «مكرم عبيد» أن يستقطب «عوض الجندى» إلى جانبه ولكنه رفض ذلك بإصرار واستمر مخلصًا للوفد وللنحاس باشا. وقد أجرى الكاتب «أحمد بهاء الدين» حديثًا مطولا مع عوض الجندى حول «قصة إمبراطورية زفتى». ورحل عوض الجندى إلى رحاب الله فى ديسمبر عام ١٩٦٤.

المأمـور الوطنى:

لعلكم تتذكرون الحلقة التى كتبنا فيها عن الثائر الوطنى «عبد الله النديم» عندما اختفى حوالى تسع سنوات من قبضة الاحتلال وزبانيته، لعلكم تتذكرون المأمور الوطنى الذى التقى بعبد الله النديم وهو يتنقل من قرية إلى قرية أخرى وأوقفته دورية على الجسر وعرفه المأمور الذى أمر رجال الدورية بالانصراف إلى الأمام. وقال للنديم الذى كان متخفيًا فى هيئة غير معروفة عنه.. قال له إنه يعرفه.. وهو عبد الله النديم الذى تبحث السلطات عنه ورصدت مبلغًا كبيرًا من المال لمن يقبض عليه، وحذره المأمور الوطنى من الطريق الذى يسلكه لأنه فيه كمينًا يبحث عنه، وأعطاه كل ما لديه من مال وهو ثلاثة جنيهات كانت فى جيب المأمور ودعا له بستر الله. حكاية هذا المأمور تكررت فى زفتى أثناء ثورتها التى دامت عشرة أيام، مأمور زفتى كان من الوطنيين المخلصين، وكان من رجال سعد الأوفياء، وانحاز المأمور إلى ثورة زفتى وقدم لها المساعدات المهمة وكان على علاقة وثيقة بعوض الجندى، وربما يكون هذا المأمور هو الذى سهل مأمورية يوسف الجندى فى الخروج من زفتى إلى قرية «حنون» حتى لا يقع فى أيدى الفرقة الأسترالية.

وعندما احتلت الفرقة الأسترالية زفتى طلبت من هذا المأمور الوطنى أن يقدم قائمة بالعناصر الثورية فى زفتى، وهنا أملت وطنية المأمور أن يقدم للفرقة الأسترالية أسماء العناصر المعادية للثورة والموالية للسلطات، وقد ظهر هذا الموقف فى المسلسل على الشاشة ونسبت إلى المأمور أنه وضع اسم «حشمت باشا» على رأس القائمة التى اعتقلت وجلدت.. على أية حال فإن الفرقة الأسترالية قامت بجلد العناصر

العملية دون أن تدرى بالطبع أن المأمور من رجال سعد زغلول . وأن عوض الجندى يقف خلف المأمور .

يوسف أحمد الجندى:

ولد فى مدينة زفتى - مديرية الغربية - فى فبراير عام ١٨٩٣م أى أنه أصغر من شقيقه «عوض» بخمس سنوات ، أتم دراسته الابتدائية بزفتى والتحق بمدرسة رأس التين الثانوية بالإسكندرية . وفى القاهرة التحق بالحقوق وقاد مظاهرة ضد إعلان الحماية البريطانية على مصر عام ١٩١٤ ، ومنع الخديو عباس حلمى الثانى من العودة إلى مصر وتقرر فصله من الحقوق لمدة سنتين ، وعاد للدراسة وتخرج فى الحقوق وعمل بعد تخرجه فى مكتب «محمد عفيفى المحامى» فى ميت غمر ، ثم استقل بمكتب خاص به للمحاماة .

وعندما اشتعلت ثورة ١٩١٩ تكونت لجنة الثورة فى زفتى وميت غمر بقيادته وكانت مطبعة «عجينة» كما ذكرنا من قبل تعمل تحت إشراف لجنة الثورة ، وأصدرت اللجنة جريدة «الجمهور» تطبع فيها توجيهاتها . وقادت اللجنة ثوار زفتى الذين بادروا باحتلال مقر المركز واستولوا على ما فيه من سلاح ، واحتلوا مكتب البريد وأعلنوا استقلال زفتى عن السلطات البريطانية وذلك لمدة عشرة أيام .

وعمل «يوسف» فيما بعد فى قلم قضايا وزارة الأوقاف ، وقدم مشروعًا عام ١٩٢٨ لمجلس النواب بإلغاء الأوقاف الأهلية ، وكان «يوسف» قد فاز بالتزكية عن «زفتى» فى انتخابات عام ١٩٢٤ . وكانت دوائر زفتى وميت غمر والغريب تكاد تكون دوائر مغلقة على أسرة «الجندى» . وفى القاهرة اشترك «يوسف» مع «محمد صبرى أبو علم» و«عبد الحميد عبد الحق» فى مكتب للمحاماة ، وعام ١٩٣١ ، وفى وزارة مصطفى النحاس باشا الثانية «أول يناير عام ١٩٣٠ - ١٩ يونية عام ١٩٣٠» ، اختاره «النحاس باشا» وكيلا برلمانيا لوزارة الداخلية ، ونجح «يوسف» فى عمله نجاحًا باهرًا واختير عام ١٩٣٦ عضوا فى الوفد المصرى «القيادة العليا للوفد» ، وفى

مجلس الشيوخ كان «محمود بسيونى» زعيمًا للمعارضة و«يوسف» نائبًا له، وانتخب عضواً فى مجلس نقابة المحامين، وعضوا فى مجلس إدارة بنك مصر، وتوفى إلى رحمة الله فى ١٢ ديسمبر عام ١٩٤١ .

فى ساعاته الأخيرة:

فى سنواته الأخيرة كان «يوسف الجندى» علما من أعلام الجهاد الوطنى، وخطيبًا مفوّها، ومبارزا سياسيًا لا يشق له غبار فاهتمت الصحف بوفاته وكتب عن ساعاته الأخيرة قبل الوفاة، وكان قد تولى زعامة المعارضة فى مجلس الشيوخ من ٣٨ ـ ١٩٤١ .

كان الدكتور «عبد العزيز الجندى» شقيقه معه فى مكتبه ليلة وفاته، وتواعدا على اللقاء فى الغد ولكنه استأذن الدنيا فى الساعة السادسة من صباح يوم الجمعة ١٢ ديسمبر عام ١٩٤١ . كان أكمل ما يكون صحة وعافية لا يشكو ضعفًا ولا تعبًا .

وذهب فى المساء إلى نادى محمد على حيث كان مدعواً للعشاء على مائدة إسماعيل صدقى باشا هو وسائر أعضاء مجلس إدارة بنك مصر وعاد إلى المنزل وأحس بالإرهاق فكتب بطاقة، تركها إلى صديقه «أحمد حمزة» : أخى أحمد حمزة . . أوصيك خيراً بأولادى . . يوسف، وفى الصباح انفجر خبر الوفاة وانفجرت معه الصحف تحمل سيلا من الرثاء والبكاء والكلمات والقصائد والصور، لقد عاش الثائر ٤٨ عامًا كلها فى خدمة الوطن. كان يصغر أخاه عوض بخمس سنوات وسبقه فى الرحيل بثلاثة وعشرين عامًا . . وقالت عنه الأهرام فى اليوم التالى لوفاته : «لم يصعد المنبر أحد بعده» .

وبكى النحاس باشا:

وقبيل الساعة الثامنة من صباح يوم الجمعة ١٢ ديسمبر عام ١٩٤١ أبلغ أشقاء المرحوم النبأ المشئوم إلى «محمد صبرى أبو علم»، فرأى أن يبلغه بدوره للنحاس باشا على الفور . . وكانت مهمة شاقة وثقيلة ولكن لابد من أدائها، «وطبقا لمجلة

المصور فى ١٩ ديسمبر عام ١٩٤١» أمسك صبرى أبو علم التليفون وطلب النحاس باشا ليقول له: «لكم الحياة الباقية يا باشا» قالها بصوت تخنقه العبرات . . فسأله النحاس باشا «فى مين يا صبرى» ولم يحر صبرى جوابًا ومكث النحاس باشا على التليفون فترة ينتظر رد صبرى الذى احتبس صوته . . وأخيرًا تبين رفعته كلمة «يوسف» يتهدج بها صوت «صبرى»، وهنا يجهش رفعته بالبكاء وتخونه قواه ويكرر: لا حول ولا قوة إلا بالله، ويظل على هذه الحال ساعة كاملة يقوم بعدها مسرعًا إلى دار الفقيد يحنو على أولاده ويقدم العزاء إلى قرينته ويؤكد أنه سيكون لهم بعد يوسف أبا.

وانهالت المراثى شعرا ونثرا وكلمات من مختلف الرموز الوطنية، وهى تعبر فى جوهرها عن المواقف العظيمة ليوسف الجندى والتى تنعكس معانيها على مواقف شقيقه عوض وعن الذكرى العظيمة لإمبراطورية زفتى، واختيرت هذه التسمية نكاية فى الإمبراطورية البريطانية ونطق الشعر فقال أنطوان الجميل عن كوكب مجلس الشيوخ المشراق وقلبه الخفاق:

يعـز علـى حـين أدير عينى ... أفتـش فى مكانـك لا أراكا

وقال خليل مطران:

كفى سلوى أن شيعت مصر كلها ... فتاها بما لم يشهد الناس من قبل

مثالك ملء الدهر واسمك خالد ... وفضلك باق الذكر ما ذكر الفضل

إذا نحـن عـزينا الرئيس ولم نزد ... فقد عـزيت فيه الكنانة والأهـل

وحملت الصحف الكلمات الباكية لمصطفى النحاس باشا وعبد السلام فهمى باشا ومحمد صبرى أبو علم باشا والأستاذ كامل يوسف صالح وفيها يعددون مناقب الفقيد ومأثره ومواقفه الشجاعة ووطنيته وإخلاصه، وجاءت كلمة الأسرة على لسان شقيقه «عوض الجندى»: إن هذه الروائع التى أسبغها الخطباء والمؤبنون، من جوامع الكلم التى تفضل بها الراثون والمتكلمون فى عظمة يحبذ الموت فى سبيل الله والوطن، وترفع أقدار العاملين حتى تشرئب إليهم الأعناق، وتزدان لهم نوائب الزمن.

الآخرون يتكلمون:

وحتى يعرف قراء اليوم كم كان رجال الأمس كباراً نعرج إلى ما كتبه الدكتور «محمد حسين هيكل» فى مجلة المصور بتاريخ ٢٦ ديسمبر عام ١٩٤١ بعد أسبوعين من رحيل «يوسف الجندى» تحت عنوان «يوسف الجندى الخصم السياسى» للدكتور محمد حسين هيكل باشا - نائب رئيس حزب الأحرار الدستوريين:

كنت أعرف المرحوم يوسف الجندى عام ١٩١٧، وكان وقتئذ محامياً فى ميت غمر وكنت أنا محامياً فى المنصورة. وعام ١٩٣٦ اختير وكيلا برلمانيا لوزارة الداخلية - للمرة الثانية - مع عضويته فى مجلس الشيوخ، يجيب عن الأسئلة ويشترك فى المناقشات ويدافع عن وجهة نظر الحكومة الوفدية، ومنذ عام ١٩٣٧ أخذ يبرز فى مجلس الشيوخ بروزاً قوياً يلفت الأنظار، وقد ساعدته فى ذلك قدرته الخطابية وفصاحته البيانية، وكان فى المجلس أقوى خصم سياسى للأحزاب الأخرى.

ومع هذه الخصومة القوية فقد كان يمتاز بصفتين جعلتاه محل إعجاب خصومه وأنصاره وهما: تقديره للحقائق وعفة لسانه فى المعارضة. وقد خسرت فيه البلاد وطنياً صميماً وبرلمانياً من أكفأ البرلمانيين.

ونعاه «فكرى أباظة»:

«ذهب يوسف الجندى إلى جوار ربه وفوجئنا بالنبأ فوجعنا ومرت بنا فترة ذهول استعرضنا فيها زمالتنا عن الأمة، فلم نملك إلا البكاء، والبكاء ضعف ولكن مصيبتنا فى أعز زميل طالب، وأعز زميل محام، وأعز زميل يمثل الأمة.. كانت مصيبة فادحة لا يقوى عليها إلا الإيمان بالله وبإرادة الله».

هكذا كان الرجال الكبار يجدون المودة عند زعمائهم ورفاق حزبهم، وعند خصومهم السياسيين بل وعند مأمورى المراكز رجال الحكومات المعارضة.

الأســانيد:

١ـالأهرام . . جريدة، ١٣/١٢/١٩٤١ و٢٥/١٢/١٩٤٢ .

٢ـالمصرى . . جريدة، ٢٤/١٢/١٩٤١ و٢٥/١٢/١٩٤٢ .

٣ـالمصور . . «مجلة» ١٩ ديسمبر ١٩٤١ و٢٦/١٢/١٩٤١

٤ـآخر ساعة . . «مجلة» العدد ٣٧٨ .

٥ـأحمد بهاء الدين . . أيام لها تاريخ .

٦ـحسين مؤنس «د» . . دراسات فى ثورة ١٩١٩ .

٧ـد. سيد الجندى . . لقاء وحديث معه .

٨ـعبد الرحمن الرافعى . . فى أعقاب الثورة .

٩ـمحمد التابعى . . آخر ساعة ١٥/٨/١٩٣٧ .

حسن زاهر.. أو الدكتور على الراعى



بكل رواسب مصر القديمة فى الوجدان المصرى جال بخاطرى أن اليوم ٢٥ فبراير يصادف أسبوع الأربعين لرحيل الكاتب والأستاذ الدكتور «على الراعى» الذى رحل فى ١٨ يناير عام ١٩٩٩م. ولا أعرف ماذا كان يرى هو فى احتفال غالبية المصريين بذكرى الأربعين لرحيل موتاهم. أعرف فقط أن أسلافنا من المصريين القدماء كانوا يضعون أجساد موتاهم فى أحواض التحنيط لمدة أربعين يومًا وبعدها تتم مراسم تشييع الجنازة، ومن هنا أخذنا عنهم الاحتفال بذكرى رحيل موتانا فى الأربعين.

ذهبت إلى مسجد عمر مكرم يوم تشييع جنازته، وكان عدد المشيعين متواضعًا لا يتفق وتاريخ الرجل فى الثقافة المصرية. ولم تكن هذه الظاهرة غريبة فقد كان «الأستاذ» مستقيم الرأى والسلوك لا يعجبه الحال المائل، مستقل الشخصية لا يحاول أن يكسب الآخرين إلى صفه ولا يقترب من الناس اقترابًا شديدًا يفقده ما رسمه لنفسه من استقلال. وعلى الرغم مما عرف عنه من ميل إلى اليسار فى فكره فإن شخصيته المستقلة والجادة وتفكيره الموضوعى المتزن جعلت أستاذ التاريخ الإسلامى «الدكتور حسن إبراهيم حسن» الذى كان معروفًا لدينا نحن تلاميذه فى كلية الآداب جامعة فؤاد الأول بإخلاصه الصادق للوفد. وقد عهدت حكومة «مصطفى النحاس باشا» (١٢ يناير ١٩٥٠ - ٢٧ يناير ١٩٥٢) عهدت إلى «الدكتور حسن إبراهيم حسن» برئاسة جامعة أسيوط، وعهدت إليه باتخاذ الإجراءات اللازمة لإنشاء هذه الجامعة. ورأى الدكتور «حسن إبراهيم حسن» أن يشكل أمانة

لهذه الجامعة ووضع نظره على المثقف الشاب «على الراعى» وبعث به إلى إنجلترا عام ١٩٥١، حيث حصل على الدكتوراه فى جامعة برمنجهام فى (أدب برنارد شو وفنه المسرحى)، وعاد الدكتور الراعى إلى مصر عام ١٩٥٥، وعمل بقسم اللغة الإنجليزية بكلية آداب جامعة عين شمس. وعلينا أن نعود مع المثقف «على الراعى» عشرة أعوام إلى الخلف.. إلى عام ١٩٤٥ لنسير مع بداية واحد من الحرس الثقافى القديم.

فى البدء كانت مجلة «الفجر الجديد» مجلة الثقافة الحرة أو مجلة التحرر القومى والفكرى والتى صدر العدد الأول منها فى ١٦ مايو عام ١٩٤٥م، وصدر العدد الأخير منها فى يوليو عام ١٩٤٦ بقرار من مجلس وزراء إسماعيل صدقى باشا الذى أغلق صحف اليسار والوفد وكل ورقة معارضة. وتحلق حول هذه المجلة من أسميناهم بالحرس الثقافى القديم.. عبد الرحمن الشرقاوى ونعمان عاشور وأحمد رشدى صالح وسعد مكاوى ومحمد إسماعيل محمد وعلى الراعى وأبو سيف يوسف وكمال عبد الحليم ومحمد خليل قاسم ومحمود توفيق وغيرهم من الذين أصبحوا رموزاً للثقافة المصرية.

واستخدمت المجلة أسماء مستعارة لكتابها.. على الراعى كتب باسم (حسن زاهر وعلى الكاتب) وأحمد رشدى صالح رئيس التحرير كتب باسم (جهاد) وأبوسيف يوسف كتب باسم (رأفت). ومحمد إسماعيل محمد كتب باسم (إسماعيل يحيى) وهكذا.. وأسلوب الأسماء الرمزية كان مألوفًا من قبل فمثلا «لويس عوض» كان يكتب فى بداية حياته الثقافية باسم (العقاد الصغير) مسألة طريفة لأنه أصبح فيما بعد من أصدقاء «الدكتور طه حسين». والكاتب «عبد الحميد عبد الغنى» كتب باسم (عبد الحميد الكاتب).. على أية حال أصدرت المجموعة الأولى مجلة (الفجر الجديد) برئاسة تحرير «أحمد رشدى صالح»، وصدر الترخيص باسمه لأن والد زوجته «اعتدال ممتاز» الرقيبة السينمائية فيما بعد، كان من كبار موظفى وزارة الداخلية. واستمرت المجلة أسبوعية كل يوم أربعاء. وبهذه المناسبة لماذا لا تعيد الهيئة المصرية العامة للكتاب طباعة إعداد هذه المجلة التى تربى على صفحاتها عدد من رموز الفكر والثقافة الذين رفعوا راية الفكر التقدمى

بشجاعة، وقدموا العديد من الدراسات الجادة وذلك لتعرف أجيالنا الجديدة كيف كان يفكر أبناء جيل سابق فى فترة من أخصب فترات الثقافة المصرية.

يسارى مستقل:

هواة تصنيف الناس لا يهدأ لهم بال إلا إذا قلنا لهم من هو «على الراعى». الحقيقة التاريخية إنه أحد عناصر الحرس القديم فى الثقافة المصرية. بدأ خطواته الأولى على صفحات مجلة (الفجر الجديد)، وهذه المجلة وقفت خلفها ما عرفت باسم (جماعة نشر الثقافة الجديدة) وثيقة الصلة بإحدى المنظمات الماركسية السرية. والحقيقة، أيضًا أن جميع عناصر مجلة الفجر الجديد التى ذكرنا أسماءها آنفًا كانت فى تحليلها الفكرى على المستوى الخارجى معادية لنازية هتلر وفاشية موسولينى ومؤيدة للديمقراطية. وعلى المستوى الداخلى فهى عناصر وطنية مخلصة للتراب المصرى معادية للاحتلال البريطانى ومعادية للقصر وفساده ومعادية للقوى السياسية التى تحتمى بالقصر لمناوأة الوفد. ومن هنا كانت هذه المجموعة كلها محبة للوفد ومؤيدة لتاريخه الوطنى وتراثه الديمقراطى وزعاماته التاريخية. ولأن (الوفد) فى مسيرته التاريخية كان جبهة وطنية ديمقراطية تحتمى بمظلته كل القوى الشريفة. ولم يكن غريبًا على الوفد أن يفتح صفحات منابره الصحفية لعدد من أقلام هذه المجموعة. . هكذا كان الحال فى جريدة الوفد المصرى وصوت الأمة ورابطة الشباب وآخرها جريدة النداء دون أن يكون لهذه المجموعة ارتباط تنظيمى أو عضوى بالوفد، وفيما يتصل بعلى الراعى فقد كان يعتز باستقلاله الفكرى وبشخصيته المستقلة. كتب فى (الفجر الجديد) دون ما ارتباط عضوى بمجموعة الفجر الجديد، بل إنه لم يعرف عنه أى انتماء لأية منظمة ماركسية وابتعد تماما عن المعارك التى عرفها تاريخنا السياسى الحديث بين المنظمات الماركسية المتصارعة. بل إنه لم يدخل فى معارك كبيرة فى حياته. ولهذا لم يكن ضيفًا على السجون أو المعتقلات فى المراحل المتعددة من تاريخنا المعاصر. تستطيع أن تقول عنه إنه كان (يساريًا مستقلاً). . كانت اليسارية عنده طريقًا من طرق التفكير. وبذلك لم يقع فى فخ المقولات الأيديولوجية الساذجة أو الخنادق السياسية ذات الشعارات الرنانة

التى أفسدت على المبدعين إبداعهم وعلى المناضلين حياتهم. وفى ظنى أن أقرب الكتاب إليه فى مثل أسلوبه وسلوكه واتزانه وحكمته اثنان. . أحمد بهاء الدين ورجاء النقاش. . وبهذا نجح هؤلاء الثلاثة واحتل كل منهم مكانه عن جدارة واستحقاق. امتلك كل واحد منهم القدرة على السلوك والبعد عن مصائد المتربصين.

الصحافة الأدبية:

فى أعماله الأدبية الصحفية بل فى أعماله جميعها كان على حد تعبير الإعلامى الكبير «على خليل» عنه. . أنه كان كالواحد الصحيح مستقيمًا كالألف. . قارئًا نهما لا يكف عن التحصيل. . شديد الإيمان بوطنه. . يؤمن بالمساواة بين أبناء آدم وحواء ـ عمل رئيسًا للقسم الأدبى بجريدة المساء التى أسسها «خالد محيى الدين» وعاونه أديبان من الشبان هما القاص الفلاح الأصيل الراحل «فاروق منيب» والشاعر السودانى الراحل «جبلى عبد الرحمن»، وكانت الصفحة الأدبية بجريدة المساء فى عهده منتدى لكل المواهب الشابة الجديدة.

وعمل رئيسًا لتحرير مجلة المجلة التى كانت تصدرها وزارة الثقافة وعمل معه سكرتيرا للتحرير الشاعر «حسن الصيرفى» من شعراء جماعة أبوللو التى أسسها الدكتور أحمد زكى أبو شادى عام ١٩٣٢، وكان التعاون بين رئيس التحرير «الراعى» . . وسكرتير التحرير «الصيرفى» نموذجًا للتعاون بين المفكر الجاد والشاعر المبدع. ولذلك نجحت مجلة المجلة فى عهد على الراعى.

وعمل رئيسًا لتحرير (مجلة الهلال) وسار بها الملاح الماهر بين الأنواء والأمواج المتلاطمة إلى أن تركها بعد أحداث ١٥ مايو عام ١٩٧١م رحل محله الشاعر «صالح جودت».

وقدر له فى أعوامه الأخيرة أن يتلقى عام ١٩٩٥م عرضًا من «إبراهيم نافع» رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير مؤسسة الأهرام ككاتب متفرغ بجريدة الأهرام. وعلى صفحته الأسبوعية بالأهرام وجد المبدعون الشبان فرصة من قلم واع جاد

ومخلص يدرك أهمية دور الشباب فى مستقبل الوطن. وهو هنا شبيه بالدور الذى قام به «يحيى حقى» فى مجلة المجلة. وكان «الدكتور الراعى» فى صفحة الأهرام النقدية يتناول كل ألوان الإبداع وكل اتجاهات المبدعين من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين. كان متزنًا وجادًا وحكيمًا.

مـع المســرح:

فى مذكراته (هموم المسرح وهمومى) تحدث عن المناخ المفسد الذى أحاط بالمسرح المصرى والهموم التى أحاطت به هو نفسه من عواصف وأنواء ودسائس ومؤامرات. وكان على الراعى - كما أسلفنا - قد سافر إلى إنجلترا عام ١٩٥١ ودرس الأدب المسرحي في جامعة (برمنجهام) ونال الدكتوراه فى أدب برنارد شو وفنه المسرحى، وكان موضوع الرسالة (المصادر الفكرية والفنية لمسرح جورج برنارد شو). وعاد إلى مصر عام ١٩٥٥، وعمل بقسم اللغة الإنجليزية فى جامعة عين شمس . . وعندما أصبح «أحمد حمروش» مديرًا للمسرح القومى شكل لجنة للقراءة تتكون من: (د. محمد مندور، ود. عبد القادر القط، ود. على الراعى، ود. محمد القصاص، والمخرج فتوح نشاطى، والمخرج نبيل الألفى». وعمل رئيسًا للهيئة العامة للمسرح والموسيقى والفنون الشعبية أعوام (١٩٥٩ - ١٩٦٨) وأنشأ فيها (الإدارة الثقافية) عام ١٩٦١. وهى عبارة عن أرشيف المسرح المصرى منذ نشأته وتحول هذه الأيام إلى (المركز المصرى للمسرح والموسيقى). وكانت قيادته للمسرح برؤية علمية وفنية وقومية. وفى عهده قدمت أعمال «نعمان عاشور». وعبد الرحمن الشرقاوى، وسعد الدين وهبة، وألفريد فرج، ويوسف إدريس، وصلاح عبد الصبور. وفى عهده تم إنشاء الفرقة القومية للفنون الشعبية ومركز تسجيل الفولكلور والفنون الشعبية، والسيرك القومى، والمسرح التجريبى.

وسافر إلى الكويت وبقى هناك تسع سنوات استمرت من عام ١٩٧٣م حتى عام ١٩٨٢م أسس فيها معهدًا للفنون المسرحية وعمل أيضًا كأستاذ للأدب الإنجليزى فى جامعة الكويت.

كبيراً للمذيعين:

ولد «على الراعى» عام ١٩٢١، وعام ١٩٣٩ التحق بقسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب ـ جامعة فؤاد الأول ـ القاهرة وتخرج عام ١٩٤٣م. وفى العام نفسه التحق بالإذاعة المصرية. وليس أقدر من الإعلامى الكبير «على خليل» فى الحديث عن على الراعى فترة عمله بالإذاعة والإشادة بثقافته وإيمانه بوطنه ومبادئه القويمة. كان إنسانًا متحضراً، ورجلا لطيف المعشر، يؤثر الإيجاز والاختصار فى كلماته وحيدته أمام الميكروفون والتى أهلته ليكون كبيراً للمذيعين حتى سافر إلى إنجلترا عام ١٩٥١م.

الراعى ناقداً:

كان أكثر النقاد صفاء وزهداً وتجرّداً، وفقد النقد أكثر فرسانه مصداقية ونبلا. تميز بأنه يتعامل مع النص الأدبى بعيداً تمامًا عن شخص كاتبه.. هل هو يسارى أم يمينى، هل هو يحبه أم يكرهه. لقد عاش «الأستاذ» حياته وهو يحمل قلبًا صامتًا رقيقًا رحيمًا بكل الأمور حوله. عاش بالنبل والجسارة. اهتم بإلقاء الأضواء على أعمال الشباب.. يوجه وينير الطريق أمامهم ويرشدهم دون أن يتعالى عليهم. كان يعرف قدره كأستاذ يربى أبناءه من الجيل الجديد «كان الأدباء الشبان يرون منه رجلا جادًا صارمًا شديد التجهم، ولكن عندما يقتربون منه يجدون أن جديته تكمن فى الحرص على أن يقول كلمة صادقة فى أعمالهم حتى لا يداخلهم الغرور وحتى يتقدموا إلى الأمام فى ثقة بالنفس. لقد فقدت الرواية العربية الناقد الفارس. وكتابه عن (الرواية العربية) فى مقدمة كتب النقد للأعمال الروائية والقصصية. وعندما كان الأدباء الشبان يذهبون للقائه فى مقهى (سان سوس) بالجيزة كان ينتزع نفسه برفق من مجلسه مع زميليه وصديقيه القديمين «نعمان عاشور وأحمد رشدى صالح» وينصرف إلى هنا الأديب الناشئ، أو ذلك فى رفق وتواضع جم دون افتعال للأستاذية.

أعمال قليلة وحسنات كثيرة:

يخطئ من يقيم هذا الكاتب أو ذاك بعدد الأعمال التى أصدرها. المهم هو ما فى هذه الأعمال من قيمة فكرية وثقافية. وقد تعرض على الراعى فى أعماله المختلفة التى أوكلت إليه لمناورات ودسائس ومتاعب، فضلا عن الجهد الشاق الذى كان يبذله لإنجاح تلك الأعمال. ولهذا كانت أعماله التى تركها للحركة الفكرية والثقافية قليلة العدد ولكنها رفيعة القيمة، ترك لنا الكوميديا المرتجلة والميلودراما و(توفيق الحكيم فنان الفرجة وفنان (هموم المسرح وهمومى)، كل عمل فيه فكرة وفيه إضافة. حاول الكثيرون حصاره والتضييق على نشاطه ولكنه تميز بتعدد المواهب والإمكانيات، وكان له ذكاء حاد فى السلوك. كان يعرف كيف يستخدم قدراته ومهاراته. وكالطائر الرشيق يطير من شجرة بعيداً عن النبال التى تصوب إليه، ويطير إلى شجرة أخرى ويغرد من جديد. عاش حياته كلها فى خفة ورشاقة بعيداً عن مصائد الحاقدين والمناوئين. معتزاً بنفسه ولا يساوم على رأيه ومواقفه من الآخرين، واجه المتاعب وهو يعمل فى مجلة المجلة وهو يعمل فى دار الهلال وهو يعمل فى مؤسسة المسرح حتى تكونت عنده فكرة عن متاعب الحفل الثقافى والوسط الصحفى. وعندما دعوته ليشارك فى إحدى ندوات (كاتب وكتاب) التى كنت أعدها وأقدمها فى المعرض الدولى للكتاب بالقاهرة تردد كثيراً من جراء (العقيدة) التى تكونت لديه من هذه المجالات الثقافية والصحفية. وحرصت على أن يحضر الندوة وحرصت أيضًا على أن أقدمه فى ندوة مستقلة عن أحد كتبه فى قاعة الندوات بمقر هيئة الكتاب. ورأيت منظراً لم أنسه.. صحبه ابنه وهو يحمل درجة الدكتوراه، ويحمل أيضًا معطف الدكتور الراعى وحقيبته ويجلس مع الجالسين فى انتظار انتهاء الندوة فى تقدير كبير لوالده وفى احترام يعيد إلينا منظر العلاقة بين الآباء والأبناء التى كنا قد بدأنا نتخلى عنها وننساها فى العلاقة بين الآباء والأبناء.

حصل الدكتور «على الراعى» على جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٩٢م، وفى كلمته التى ألقاها فى دار الأوبرا باسم الفائزين حرص على أن يحفظ للمثقفين المصريين قدرهم واعتزازهم بكرامتهم وتولى فى سنواته الأخيرة رئاسة لجنة القصة بالمجلس الأعلى للثقافة.

الرحيل فى وقار:

وكأنه قد خطط ليوم رحيله فى هدوء وصمت ورزانة استأذن الحياة يوم ١٨ يناير عام ١٩٩٩م. فى ساعات العيد الأولى اختار أن يجمع أيامه فى وقار. ولأنه لم يكن من حملة المباخر ولم يكن من الدعاة لأنفسهم بالأكاذيب، ولم يكن من رواد سرادقات الدعاية الجوفاء، ولم يكن من الزاعقين فى الصالونات فقد كان مودعوه فى يومه الأخير بمسجد عمر مكرم نفرا قليلا ولكنه جليل. ورحل الواحد الصحيح المستقيم كحرف الألف. شديد الإيمان بالوطن والمساواة بين أبناء آدم وحواء والذى ابتعد عن المعارك مع الآخرين، رحل الإنسان المتحضر. رحل الذى بدأ الكتابة باسم «حسن زاهر» .. وانتهى باسمه المرموق «دكتور على الراعى».

الأسانيد:

١ـ أحمد حمروش.. الأهرام ٢ فبراير عام ١٩٩٩.

٢ـ ألفريد فرج.. الأهرام ٣١ يناير عام ١٩٩٩.

٣ـ رجاء النقاش.. الأهرام أول فبراير عام ١٩٩٩.

٤ـ رفعت السعيد (د).. تاريخ المنظمات اليسارية.

٥ـ على خليل.. الأهرام ١٠ فبراير عام ١٩٩٩.

٦ـ فاروق جويدة.. الأهرام ٣١ يناير عام ١٩٩٩.



على الكسار عثمان عبد الباسط..

هذا توضيح رأيت أن أبدأ به . . لقد طالعت صباح الجمعة فى جريدة «الوفد» ٩ أبريل عام ١٩٩٩م زاوية «قال أقطاب الوفد» من خطاب معالى «فؤاد سراج الدين باشا» فى الاحتفال بعيد الجهاد الوطنى ١٣ نوفمبر عام ١٩٩٨ : «فى عام ١٩٢٤ جرت أول انتخابات لمجلس النواب فى مصر . . وكان رئيس الوزراء ووزير الداخلية فى نفس الوقت المرحوم يحيى إبراهيم باشا وهو من الشرقية ورشح نفسه فى دائرة ههيا مسقط رأسه ضد مرشح الوفد أحمد أفندى مرعى، وسقط رئيس الوزراء ووزير الداخلية الذى أجرى الانتخابات، شوفوا النزاهة وحرية الانتخابات، والكلام ده إمتى؟ من ٧٤ سنة كان عندنا انتخابات حرة . . وبعد ٧٠ سنة تحدث هذه المهازل عندنا»، وهذه الواقعة تماثل واقعة أخرى جرت فى الانتخابات نفسها التى أجراها «يحيى إبراهيم باشا» وهى سقوط «إسماعيل صدقى باشا» أمام أفندى آخر رشحه الوفد وهو «محمد نجيب الغرابلى أفندى» والواقعتان فى أذهاننا دائمًا .

المهم أننى فى موضوعى «الخميس ٨ أبريل» نشرت بطريق السهو وجل من لا يسهو اسم «الغرابلى أفندى» محل اسم «أحمد مرعى أفندى» .

وكان للدكتور «محمد عبده» عضو الهيئة الوفدية معى حديث صباح يوم الجمعة ٩ أبريل حول هذا «السهو»، والدكتور طبيب «محمد عبده» من الذى يتفضلون بعبارات طيبة نحو ما أكتبه شأنه شأن كاتبنا الكبير الأستاذ «أحمد أبو الفتح» الذى

تفضل بكلمات طيبات حول ما نكتب، لقد وقع خطأ فى النشر ووجب الاعتذار للقراء الكرام، ويسعدنى متابعتهم لما نكتب، ويسعدنى أكثر أن أتلقى ملاحظاتهم النقدية حتى تظل موضوعاتى طيبة أمامهم. والآن أستطيع أن أتحدث فى موضوع اليوم عن على الكسار.

الكاتب الفرنسى هنرى بيرو فى كتابه «العودة إلى الاحترام» الذى صدر فى فرنسا عام ١٩٢١ قال عن على الكسار: «إنه على خشبة المسرح يصنع المعجزات»، وشاهد الممثل الفرنسى الكبير «دنى دنيس» رئيس فرقة «الكوميدى فرانسيز» عام ١٩٣٧ مسرح الكسار وقال عنه لتلميذه ـ أى تلميذ الممثل الفرنسى زكى طليمات: «على الرغم من جهلى التام للغة التى يمثل بها على الكسار، أرانى منجذبًا إليه فلا أرى سواه على المسرح، فى نبرات صوته وحركاته تعبير صادق واضح عن المعانى التى يحسها كل الناس، ولا يحتاج التأثر بها إلى أن تفهم اللغة التى يعبر بها».

وكانت فرقة «الكوميدى فرانسيز» قد زارت مصر وشاهدت الفرق التمثيلية المختلفة. . فرق «يوسف وهبى وجورج أبيض وفاطمة رشدى ونجيب الريحانى وعلى الكسار» لم تلفت نظرها سوى «فرقة على الكسار، وفرقة نجيب الريحانى» وقالت الفرقة الفرنسية عن الكسار: «لقد أودعت فيه موهبة الحضور المسرحى».

كان هذا رأى الكتاب والفنانين الفرنسيين، فماذا قال كتاب ونقاد مصر؟

تحرير المسرح المصرى:

يرى «الأستاذ زكى طليمات» والذى عرف بثقافته المسرحية، أن «على الكسار» لعب دورًا فى تحرير المسرح المصرى من المسرح الأوروبى، بعبارة أخرى تمصير المسرح بدلا من الاعتماد الواضح على أعمال وفنون الغرب. رضع الكسار ألبان ثورة الشعب المصرى عام ١٩١٩م، وانحاز بمسرحه إلى الشعب بعد أن كانت روايات الفرانكو آراب تطغى على المسرح المصرى طوال سنوات الحرب العالمية الأولى «١٩١٤ـ١٩١٨».

وقال «محمود تيمور»: وجد على الكسار فى نفسه بارقة الاستعداد لتمثيل

الهزليات، فظهر فى الأفراح والليالى الملاح، وفى الحفلات الخاصة، وسرعان ما راعى أصحاب المسارح نجاحه».

وكتب فؤاد دوارة: إنك تستطيع أن تكون فكرة عن على الكسار وعن فنه التمثيلى من الأفلام القديمة التى يعرضها التليفزيون أحيانًا مثل: نور الدين والبحارة الثلاثة، وعلى بابا، وسلفنى تلاتة جنيه.

وروى «زكى طليمات» أن «الكسار» كان يمشى على المسرح كما تمشى الدجاجة وهى تلتقط الحب من الأرض. وحدث ذات مرة أن صاح أحد المتفرجين معلقًا على هذه المشية بصوت عال «الراجل ده فرخة.. والا ديك؟» وكان جواب الكسار أن مد رقبته وهو يصيح.. كوكو.. كوكو.. وضجت القاعة بالضحك.

ويمضى «زكى طليمات» فى حديثه عن «الكسار» فيقول: كان الكسار يبعث فى الجمهور أول ما يبعث الضحكة القصيرة، تتبعها الضحكة غير القصيرة، فالضحكة الطويلة، وتندفع الفكاهة بين يديه فى خط صاعد فإذا الضحك ينقلب فى النهاية إلى قهقهة. كان يضحك جمهوره بالتقسيط.

الفن من الشعب:

ولد «على خليل سالم» عام ١٨٨٨م، وذكر بعض الباحثين أنه من مواليد عام ١٨٨٧م والتاريخ الأول هو الأرجح، ولد فى حى السيدة زينب فدخلت الحياة الشعبية فى دم الطفل. والتصق الطفل «على» بأمه «زينب على الكسار»، ألحقه أبوه بالكتاب وسرعان ما ترك الكتاب دون أن يتعلم شيئًا. واستهوته الحياة الشعبية فى حى السيدة زينب، واستهواه البقاء فى البيت إلى جوار أمه يستمع إلى حكاياتها.. فأطلقوا عليه اسم «على الكسار» وهو اسم جده لأمه بدلا من اسمه «على خليل سالم»، نشأ رقيق الحال عمل صبيًا فى مطعم صغير، تعلم صناعة الطبخ، وأصبح ماهرًا فى إعداد الطعام وكانوا ينادونه بالأسطى «على الكسار»، ولما كان الفن بمستواه الشعبى قد دخل إلى دم الصبى «الكسار» فقد كون فرقة من «صبيان» المحل تقدم لونا من الكوميديا أقرب إلى التهريج.

لم يتح له أى قسط من التعليم الجاد، ظل أميّا لا يقرأ ولا يكتب حتى نهاية حياته فى «١٥ يناير من عام ١٩٥٧م»، ويؤكد الكثيرون أن أمية القراءة والكتابة عند الكسار، لم تقف حاجزاً دون النبوغ فى فن التمثيل.

تبلور مسرح الكسار فى بوتقة ثورة ١٩١٩ فانحاز مسرح الكسار إلى الشعب: طفولته كانت فى الحى الشعبى حى السيدة زينب وصباه فى باب الخلق وهو بيئة شعبية أيضًا، ثم استقر المقام به فى حى شبرا، وحاول أن يرفع المستوى الفنى ولكنه حافظ على شعبيته، لقد نشأ الكسار من طينة الشعب، وأمضى طوال حياته يمثل للشعب، وتوفى فى مستشفى للشعب، مستشفى قصر العينى.

المسرح الشعبى الكوميدى:

ابتكر «على الكسار» شخصية «البربرى المصرى» عثمان عبد الباسط، النوبى الطيب لينافس «نجيب الريحانى» فى شخصيته «كشكش بك» عمدة كفر البلاص، وشخصية عثمان عبد الباسط المكنى «بربرى مصر الوحيد» تعد استجابة صادقة للنموذج المصرى العميق فى مصريته، ولقى «عثمان عبد الباسط» رواجًا كبيراً عند رواد المسرح، إذ وجدوا فيه تمثيلا بارعًا لرجل الشارع الصميم فى حياتنا اليومية، فيه بساطته الطيبة الخبرة وفيه روحه المرحة الصافية وفيه استمساك بالأخلاق التقليدية الفاضلة، وفيه دقة إحساسه بالأحداث من حوله، وفيه تعبيره عن هذه الأحداث فى دعابة وسخرية، وفيه رضاه عن الحياة وإقباله عليها، على الرغم مما يعانيه فيها من قسوة وشظف، وقد صور على الكسار تلك الشخصية فى مسرحياته الهزلية خير تصوير، وأداها أجمل أداء، فكان هو عماد تلك المسرحيات، بل كل شيء فيها، وكان حاضر البديهة فى النكتة والفكاهة، وألف لنفسه فرقة هزلية بطلها عثمان عبد الباسط. وعندما اضطر على الكسار إلى تسريح فرقته التحق بدار «المسرح الشعبى» وكان يعمل ولا يحس أنه يعمل.. شأن السباح الماهر طويل النفس الذى يقضى عليه الزمن.

وكان من الطبيعى أن يدخل الكسار فى منافسة مع الفنان الكوميدى «نجيب الريحانى» الريحانى بشخصية «كشكش بك» والكسار بشخصية «عثمان

عبدالباسط» . . الريحانى يقدم عملا بعنوان «الدنيا جرى فيها إيه» فيرد الكسار بعمل عنوانه «الدنيا بخير»، الكسار يقدم مسرحية «أحلاهم» فيرد الريحانى بمسرحية «ولو» . . يبدأ الكسار بـ «احنا اللى فيهم» فيرد الريحانى «فشر» . . ويرسل الكسار ضحكة ساخرة من ضحكاته «راحت عليك» . . فيرد الريحانى «حمار وحلاوة» . . ثنائى عظيم أسعد الجمهور المصرى وهو يتابع هذه المنافسة بين العملاقين . . على الكسار ونجيب الريحانى .

عثمان عبد الباسط:

ابتكر «على الكسار» شخصية «بربرى» من أهل الجنوب أطلق عليه أو على نفسه اسم «عثمان عبد الباسط» . . وكان الكسار ذكيا فى اختيار مثل هذه الشخصية التى قربته من الفئات الشعبية وبعامة الناس، ورحبت به الجماهير فى القاهرة وطنطا والزقازيق وبور سعيد، وقام برحلة إلى فلسطين وكان بارعًا فى تقليد لهجة الجنوب، وقد بدأ طفولته فى الكتاب بتقليد بعض الأصوات، وكان يقدم منه «خيال الظل» لأطفال الحارة فى حوش البيت فى حى السيدة وباب الخلق، وعلى الرغم من الأرباح التى تدفقت عليه من المشاهدين الذين أحبوه الا أن مسرح الكسار بشارع عماد الدين من ناحية ميدان باب الحديد قال عنه النقاد إنه مسرح ولا مسرح . . قطعة من أرض فضاء مسقوفة بالقماش مفروشة بالرمل وقد رصت عليها الكراسى وفى آخرها «مرسح» يستخزى من نفسه ومن الناس، وكان الجمهور يملأ «هذا المسرح المزعوم» كل مساء بعد أن يشترى تذاكر الدخول من السوق السوداء بأضعاف ثمنها الأصلى ليشاهد عثمان عبد الباسط، وقد خرج فجأة إلى النور يمثل شخصية «البربرى» الذى يضحك ويسخر من سلوك الناس ومن تفاهاتهم فيضحك المشاهدون ويسخرون من أنفسهم، وأطلق على هذا المسرح اسم «مسرح ماجستيك» واسم الفرقة «جوقة أمين صدقى وعلى الكسار» . وذكر الكسار لصديقه «زكى طليمات» أن ربحه فى العام الواحد كان يصل إلى ١٦ ألف جنيه، ومثل هذا المبلغ لشريكه «أمين صدقى» مبالغ كبيرة جداً بمقياس ذلك الزمان .

ولكن من أين جاءت هذه الشخصية «عثمان عبد الباسط» التى كانت كالدجاجة

تبيض ذهبًا لعلى الكسار وأمين صدقى . وكان الكسار يتقمص هذه الشخصية فى كل رواياته، وكل موضوعاتها مهما اختلفت، وكان يحيا فيها الكسار حياة عميقة .

يرى بعض مؤرخى الفن المسرحى والسينمائى فى مصر أن «على الكسار» كان عصاميًا وكان مجداً من أمجاد المسرح، وقد عمل فى مراهقته وشبابه فى المطاعم مساعداً فى المطبخ حتى أتقن هذا الفن، أو سفرجيًا يقدم الطعام لرواد المطعم حيث تقوم ألفة بينه وبين الزبائن، وكان السفرجى، فى الغالب، فى ذلك الزمان من الملونين أبناء الجنوب، فاتجه إلى تقليدهم فى الحديث وفى ملابسهم، وعندما كان يعتلى المسرح فى الفرق الصغيرة التى تعمل فى الأحياء الشعبية والتى راق لها هذا اللون من الفن كان دائمًا فى شخصية عثمان عبد الباسط .

حياته فى المسرح:

كان مسرح الكسار بشهادة الخواجات وأولاد البلد على مستوى متميز جذب إليه كبار الملحنين والمؤلفين، سيد درويش لحن لمسرح الكسار، وقدم الكسار زكريا أحمد كخليفة لسيد درويش، وكتب له بديع خيرى وأمين صدقى، وعمل على الكسار بفرقته فى «دارالتمثيل الزينبى» وبمسرح دارالسلام بالحسين، وعمل بفرقته على مسرح ماجستيك بعماد الدين أيام الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٧م. وكان أداء الكسار على المسرح متميزا . وعلى قدر ما يكون صوته عاليا نشيط النبرة فوق المسرح فإنه يكون خافتا مستخزيا فى حديثه مع الناس حتى أن المرء يتساءل من أين يستعير الكسار ذلك الصوت الصداح فوق المسرح .

كان «أمين صدقى» يكتب لفرقة الكسار، أو بالأحرى يستورد لها من باريس أحدث المسرحيات الغنائية «الأوبريت»، وذلك بعد أن يغير فى مواقعها ويخلع عليها صبغة المحلية ويحشوها بالأغانى ويقدمها كما يقدم الحاوى الكتكوت من جيب أحد المتفرجين، كان يقدمها مسرحيات مصرية تحمل أسماء مصرية، وتبنى الكاتب المسرحى «أمين صدقى» شخصية «عثمان عبدالباسط» وأنماها وجعلها تدور فى نواحى الحياة ـ وعلى حد تعبير الكسار «كما تدور المغرفة فى الحلة» تعبير طباخين .

السينما والكسار:

كان «على الكسار» على علاقة وثيقة بمحمد بيومى رائد السينما التسجيلية الذى تلقى علوم السينما فى ألمانيا وقدم الأفلام التسجيلية عن عودة «سعد زغلول باشا» من أوروبا فى بداية العشرينيات، وسجل خطب سعد أمام الجماهير من بيت الأمة، ولم يذهب على الكسار إلى السينما وإنما ذهبت إليه السينما بعد أن ذاع صيته فى المسرح ونجح نجاحا ملحوظا، وأنتج له «توجو مزراحى» كل أفلامه، ونجح «على الكسار» فى السينما مثلما نجح فى المسرح، وكان من أهم اكتشافاته «الشيخ حامد مرسى» الذى كان مغنيا أيضا، وظل حامد مرسى وفيا لعلى الكسار كما أن زوجة «حامد مرسى» الممثلة المطربة «عقيلة راتب» المسرحية والسينمائية ظلت على الاحتفاظ بالتقدير لعلى الكسار حتى رحيله عن دنيانا عام ١٩٥٧م.

الفرسان الثلاثة:

من الطريف أننى عندما كنت أكتب هذه الحلقة عن «على الكسار» كانت أمامى حركاته وكلامه وأسلوبه فى الحديث فى فيلم «جزيرة الأحلام» على الشاشة الصغيرة ومعه كارم محمود وسعاد مكاوى. . ولم أستطع أن أمنع ذاكرتى من استدعاء «نجيب الريحانى» وأسلوبه و«يوسف وهبى» وخصائص تمثيله، على الكسار ونجيب الريحانى ويوسف وهبى كانوا الفرسان الثلاثة فى فترة متقاربة فى المسرح المصرى والسينما المصرية، وإذا كان قد قدر لنجيب الريحانى أن يولد عام ١٨٨٧ من والد عراقى الأصل فى إحدى حوارى باب الشعرية ـ الحى الشعبى ـ وتعلم فى مدارس «الفرير» و«الخرنفش» إلا أن الفقر كان يطارده، فاضطر للعمل دون أن يكمل تعليمه موظفا صغيرا فى شركة السكر بنجع حمادى، وجاءت أفلامه تعالج الفقر والعوز والحاجة التى يتعرض لها صغار الموظفين، يماثله فى ذلك على الكسار الذى ولد أيضا عام ١٨٨٧، أو على الأرجح عام ١٨٨٨م فى حى شعبى أيضا هو حى «السيدة زينب»، وترك الكتاب ولم يكمل تعليمه وعاش أميا لا يقرأ ولا يكتب حتى وفاته. وعمل صبيا وجرسونا فى مطعم صغير وأصبح طاهيا ماهرا فى الطعام وفى المسرح والسينما أيضا. وقدر للاثنين «كشكش بك» و«عثمان

عبدالباسط» أن يعملا متنافسين فى الفن والمستفيد هو الجمهور الذى كان يسعد بأعمال هذين الفارسين، أما الفارس الثالث «يوسف وهبى» فقد جاء إلى الحياة متأخرا عن الفارسين السابقين بحوالى ١٣ عاما. ولكنه دخل مع سابقيه فى منافسة عنيدة، وعرف كيف يستثير جمهوره ويجعل الأكف تلتهب بالتصفيق، ولد لوالد مهندس كبير يحمل رتبة الباشوية «عبدالله باشا وهبى» وعاصر الثلاثة عملاقا سابقا عليهم هو «جورج أبيض» كان قد وصل إلى القمة فى فترة سابقة عليهم، عاد يوسف وهبى إلى مصر فى أواخر عام ١٩٢٢، وجمع حول فرقته أفضل الطاقات الفنية: «روز اليوسف، وأحمد علام، وزينب صدقى، وفاطمة رشدى، وحسين رياض، وعزيز عيد».

رحم الله الفرسان الأربعة وأجزل لهم الثواب لقاء ما قدموه من فن وإبداع وبسمات على شفاه جيل الآباء.

الأسانيد:

١ - جريدة الوفد - ٩ أبريل عام ١٩٩٩م.

٢ - زكى طليمات - ذكريات ووجوه.

٣ - عبدالحميد توفيق زكى - رواد الموسيقى العربية.

٤ - فؤاد دوارة.. المسرح المصرى.

٥ - كمال رمزى.. نجوم السينما المصرية.

فـــوزى العنتيـــل



احتفلت أسيوط بعيدها القومى «١٨ ـ ٢٠ أبريل عام ١٩٩٩م» ويوم الثامن عشر من أبريل من أيام أسيوط المشهودة. وفى هذا اليوم من أبريل عام ١٧٩٩م تجمع ثلاثة آلاف من قرية «بنى عديات ـ مركز منفلوط ـ مديرية أسيوط» وانضم إليهم ٤٥٠ من الأعراب المصريين و٣٠٠ من المماليك لمواجهة القوات الفرنسية، بقيادة «الجنرال دافو» الذى فوجئ بالفلاحين المصريين بزعامة الشيخ أحمد الخطيب والشيخ محمد المغربى والشيخ أبو أيوب العدوى، وعجز الفرنسيين عن الاستيلاء على القرية الباسلة. ومن هنا كان احتفال أسيوط بهذا اليوم «١٨ من أبريل» عيدا قوميا.

وقد صدر فى احتفال العام الحالى سجل عن «أعلام أسيوط» ضم الكثيرين من أعلامها اخترت منه لحلقة اليوم «شاعر الريف والمستضعفين.. فوزى العنتيل» تزكيه عندى صداقة طويلة أيام عمله بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، وفترة زمالة حميمة فى الهيئة المصرية العامة للكتاب.. مكتبة فى مواجهة مكتبى ولم نفترق سوى يوم الثلاثاء ١٢ مايو عام ١٩٨١، ولم أزل أذكر ذلك اليوم الحزين. وقد فجعنا النبأ الأسود فى شقته بمنزل السيدة فايدة كامل حرم وزير الداخلية الأسبق «النبوى إسماعيل» إذ كانت شقته مجاورة لشقة زميلنا العنتيل. ولما كانت هذه الحلقات تلتزم بالدقة والأمانة فإننا نسجل الموقف الإنسانى لوزير الداخلية وزوجته عضو البرلمان إزاء جارهما الشاعر والكاتب. هرولنا.. ثلاثة من زملائنا. الشاعر صلاح عبدالصبور وصلاح عبدالمتجلى وكاتب هذه

السطور، وانضم إلينا هناك شقيقه المهندس الزراعى لنقف إلى جانب زوجته، وكانت زميلة لنا فى المجلس. . وغمرتنا التصرفات الإنسانية من «النبوى» و«فايدة كامل» واستجاب لرغبتنا فى نقل جثمان صديقنا «علوان» بجوار «منقباد» وعلى حد تعبير شقيقته وتعبيرى إننا صعايدة ونفضل دفن موتانا فى بلادنا. وبكل شهامة وضع وزير الداخلية «النبوى إسماعيل» كل التسهيلات والمساعدات نحو جاره.

أسند فوزى العنتيل رأسه على تراب مصر فى قريته الصغيرة «علوان ـ منقباد ـ أسيوط». ولم أعرف طوال حياتى من أحب قريته أكثر مما أحب «فوزى العنتيل» القرية «علوان». وهى قرية صغيرة من قرى صعيد مصر. . ترقد وادعة فى حضن الروابى الجبلية من ناحية، ومن الناحية الأخرى انتشرت أشجار النخيل السامقة. . البيوت المتواضعة المبنية من الطوب النيئ متلاصقة متراصة كأنما تساند بعضها بعضا تذكرنى بفقراء بلادى وهم يجلسون متراصين وكأنهم يشكون همومهم لبعضهم، ثم مساحات من الحقول الخضراء حتى تبلغ حافة الترعة التى تحدها عن القرية المجاورة. تلك هى قرية علوان بمديرية أسيوط. ولد بها الشاعر والكاتب فوزى العنتيل فى الثالث من نوفمبر عام ١٩٢٤. وعاش فى قريته سنوات طفولته وحتى صباه اليافع وتنفس عبير أرضها وترابها. . وليس غريبا أن يكون ديوانه الذى عرف به هو «ديوان عبير الأرض». وتلقى تعليمه الابتدائى بالقرية، ثم التحق بمعهد أسيوط الدينى، حيث حصل منه على شهادة إتمام الدراسة الثانوية.

وكان «العنتيل» فى عشقه لقريته «علوان» يكرر حب الشاعر محمود حسن إسماعيل لقريته «النخيلة ـ أسيوط». ويكرر ارتباط الشاعر العراقى المبدع «بدر شاكر السياب» لقريته «جيكور». . على أية حال ولد «العنتيل» فى علوان فى ٣ نوفمبر عام ١٩٢٤ وعاد إلى ترابها فى ١٢ مايو عام ١٩٨١ م.

شاعر الريف:

قال عنه صديقه «الشاعر صلاح عبدالصبور». . لن تجد شاعرا معاصرا يمثل الريف بهذا الوضوح. فالنخيل والأغصان والطيور عناصر شعرية واضحة، والشاعر منفعل بالريف، يستمد صوره منه حتى وهو فى المدينة. . وفى ديوانه

«عبير الأرض» تحس أن بأعماق قلبه رجفة إلى الريف وخفوقا دائما إليه، وصورة خلابة لطبيعته، حتى لكأنه واحة المتعبين الطيبة.

وبعد أن هاجر «العنتيل» إلى القاهرة واستقر فيها بقية حياته، لا تبارح مخيلته سنابل القمح المتماوجة. ووشوشات النخيل وأنين السواقى والليالى المقمرة.. أهلها المكدودون بأذرعهم المعروفة مستسلمون لا يكادون يستفيقون من مشقة الحياة.

انعكست كل هذه الصور والتجارب في شعره ونضح بها ديوانه عبير الأرض.. تلك القصائد التى قال عنها شيخ نقاد الأدب «الدكتور محمد مندور»: «هذا شعر ينم عن تجربة صادقة، ذلك لأنه يتضمن حقائق نفسية خارقة.. وقد سميت يوما مثل هذا الشعر الذى يبلغ من الصدق حد التهامس بالأسرار بأنه الشعر المهموس لا شعر الخطابة والطنطنة، ووجدان الشعر لا يقتصر على ما يستمده من ذاته وخصائص إنسانيته التى يشارك فيها جميع البشر. بل يتسع هذا الوجدان حتى تنعكس فيه آلام عشيرته وشعبه».

العنتيل وعشيقته علوان

يشيع حبه لقريته «علوان» فى شعره.. يقول:

قد كان لى فى قريتى

حب أظل مشاعرى

حب شربت بكوبه

متع الصباح العاطر

هى ذكريات لم تزل

تسقى خريف الشاعر

ياواحة العمر الجديب

على الطريق الساحر

أنا عائد يوما إليك

مع الربيع الزاهر

وقد عاد العنتيل إلى علوان ليدفن فى ترابها فى ١٢ مايو عام ١٩٨١م وقال:

أنا لست أنسى قريتى

وهوى الربيع يزورها

ينساب فى أعماقها فجرا

سقاه سرورها

فتموج منها حقولها

ونخيلها . . وطيورها

وعلى صياح دجاجها الوثاب

تصحو دورها

تستقبل الفجر الجميل

وقد أطل ينيرها

وقال فى قريته أيام الحصاد:

أنا لست أنسى قريتى

السمراء فى عيد الحصاد

والسنبل المتجعد

الذهبى يحلم بالرقاد

وخطى الحيارى المتعبين

تروح تضرب فى اتئاد

ورؤى المساء تلفهم
والصمت يبتلع الوهاد
والظلمة العمياء تزحف
فى توابيت السواد
فتطوف أشباح مؤرقة
. . معذبة السهاد
أنا قد عشقت الليل
والأحلام فى الريف الحنون
فهاك فوق الرابيات
يتم ميلاد السكون
وهناك عيل المتعبين . .
الكادحين المجهدين
الجائعين الظامئين .
القانعين . . التائهين

ما بعد القرية:

وكما قلنا فإن «محمد فوزى العنتيل» الذى عرف بين قرائه باسم «فوزى العنتيل» قد ولد فى قرية «علوان» فى الثالث من نوفمبر عام ١٩٢٤ . وتلقى تعليمه الابتدائى فى القرية ثم التحق بمعهد أسيوط الدينى عام ١٩٣٦م . . وكان بعد انتهاء اليوم المدرسى بالمعهد يتوجه إلى مكتبة البلدية بأسيوط إلى أن تغلق أبوابها يطالع فى نهم كتب الشعر والأدب والتراث ونصوص الملاحم . وظلت عادة القراءة الجادة ملازمة له طوال حياته . وكانت لها أكثر الأثر فى تكوين فكره وثقافته . وجاء إلى القاهرة

لأول مرة عام ١٩٤٦ ليلتحق بكلية دار العلوم، وحصل منها على الليسانس فى آداب اللغة العربية والدراسات الإسلامية عام ١٩٥١ . ثم حصل على دبلوم التربية وعلم النفس عام ١٩٥٢ . وبعد تخرجه اشتغل بالتدريس . . وكان قد بدأ ينشر إنتاجه من الشعر ومقالاته الأدبية . ودراساته الفولكلورية فى المجلات المصرية والعربية وتعرف إلى «يوسف السباعى» الذى أتاح له فرصة العمل بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، وتولى سكرتارية لجنة الشعر ثم سكرتارية لجنة الفنون الشعبية . . وأصبح مديرا للشئون الفنية بالمجلس . وبعد أن تولى «صلاح عبدالصبور» رئاسة هيئة الكتاب انتدبه مديرا للتراث .

رابطة النهر الخالد :

كانوا مجموعة من شعراء ثلاثة «فوزى العنتيل وكمال نشأت ومحمد الفيتورى»، محمد الفيتورى انتهى به المطاف إلى أن يصبح شخصية دبلوماسية مرموقة فى ليبيا، وكمال نشأت سار فى دروب الدراسات الأكاديمية . وصاحبنا «فوزى العنتيل» عرف بهدوء الصوت وطيبة القلب وطول القامة وسمرة أنضجتها حرارة علوان بالصعيد . بدأ النشر فى مجلة «الآداب البيروتية - سهيل إدريس» واتخذ الشعراء الثلاثة لمجموعتهم اسم «رابطة النهر الخالد» . واختير العنتيل عضوا بلجنة الشعر، ثم عضوا بلجنة الفنون الشعبية، وأصبح له إسهام واضح فى مجال الفنون الشعبية وشارك الدكتور «عبدالحميد يونس» و«أحمد رشدى صالح» فى الدراسات الخاصة بالفنون الشعبية، وشارك فى تحرير مجلة «الفنون الشعبية» التى صدرت عن وزارة الثقافة فى بداية التسعينيات . وحصل على الجائزة التشجيعية فى الشعر .

الضمير الوطنى :

عشق قريته . . نعم . . وعشق الريف . . نعم ولكنه لم يتوقف بشعره عند حدود القرية، تجاوز ذلك إلى هموم وطنه، وإلى الإنسانية بأسرها . اهتم بهموم الوطن

وعاش بنزعة إنسانية. وشاع الحزن فى شعره وعبر عن أشواق الوطن إلى الحرية السياسية والعدالة الاجتماعية. وامتد بشعره فى التاريخ العربى والإسلامى. ولجأ إلى الملاحم الشعبية يتخذ منها رموزا يعبر بها عن نزعته الوطنية والعربية والإنسانية، وكان يرى أن رسالة الشاعر هى أن يحبب الحياة إلى الذين يحبونها، وأن يكشف لهم عما فيها من جمال. وأن الحياة جديرة بأن يصنع الإنسان من أجلها الكثير ونادى المستضعفين بقوله:

يا أيها المستضعفون

ستولدون فى الصباح

وكان العنتيل فى شعره وسلوكه يبشر بفجر جديد

مسيرته الشعرية:

كانت للشاعر فوزى العنتيل تجربته القديمة فى الشعر الملتزم بالنمط القديم. وله فيه مجاله الواسع وطريقته فى الأداء.. وجاءت أغلب قصائد ديوانه «عبير الأرض» تلتزم ذلك الشكل. وصدر ديوان «عبير الأرض» عام ١٩٥٦ عن دار الفكر العربى وكتب المقدمة «د. محمد مندور». وكان لنمو القومية المصرية من خلال معاركها وانتصاراتها قد أوحى للشعراء بأن يلونوا شعرهم بألوان البيئة المحلية عن طريق الصدق الفنى والوفاء للإقليمية عرفانا منهم بأن فى الوفاء للأقلية وفاء للنزعة العالمية. وهكذا اقترن الشعر الحديث بتغييرات فى الشكل أهمها عفوية القافية ووحدة التفعيلة.

كما أن هذا الشعر تخلص من النزعة الخطابية التقريرية واتجه إلى الأداء الفنى الشعرى الذى يحاول أن يعمق التجربة البشرية بالصورة وليس بالموضوع النثرى. وكان «فوزى العنتيل» من أبرز الوجوه الشاعرة من هذا الجيل. وتميز العنتيل فى شعره الحر بالرومانسية وتأثر بجماعة أبوللو.. وخاصة شعر «الشابى» ١٩٠٩ - ١٩٣٤م. ونشر قصيدة «عودة زهران» فى ١٨ يوليو عام ١٩٥٨ بجريدة الشعب التى رأس تحريرها وقت ذلك «أحمد بهاء الدين».

وضم ديوانه «عبير الأرض» قصائد ـ نشيد الليل ـ الربيع فى القرية ـ حاملة الجرة ـ نشيد الأبدية ـ أغنية الربيع ـ فى الليل ـ صلاة المساء.

ومن أبيات هذا الديوان :

هذه الأرض . . أرضى

بأفقها المترامى

حقلها من أديمى

وفأسها . . عن عظامى

وكان الديوان الثانى . . «رحلة فى أعماق الكلمات» ، وهو يعبر عن التوجهات الإنسانية للشاعر وانعطافه نحو التاريخ الإسلامى والعربى والمصرى .

ويرى الدكتور «محمد مندور» أن العنتيل تأثر أيضا بإبراهيم ناجى وشعراء المهجر ومدرسة أبوللو . ويرى آخرون أنه امتداد للشاعر الكبير «محمود حسن إسماعيل» . . ويرون أن ديوان «عبير الأرض» للعنتيل قد أحدث رعشة فنية فى حياتنا الأدبية كتلك الارتعاشة التى أحدثها ديوان «أغانى الكوخ» الذى أصدره محمود حسن إسماعيل ابن قرية «النخيلة ـ أسيوط أيضا» وحقق العنتيل «رحلة بن جبير» ومقامات الحريرى ، وعام ١٩٦٨ قام بترجمة ديوان ضخم «مختارات من الشعر المجرى» وترجمه نظما وصدر عن «دار الكاتب العربى» وهو شعر مجرى من القرن السادس عشر إلى القرن العشرين ، ثم نشرت له دار روزاليوسف «قصائد مختارة» عام ١٩٧٦ . وأصدرت له «دار المعارف» عام ١٩٧٩ ديوانه الثانى «رحلة فى أعماق الكلمات» .

إسهامات ثقافية:

فضلا عن دوره فى اللجان التى انضم إليها فى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، فقد استدعته المجر عام ١٩٥٦ ليعمل أستاذا زائرا بقسم الدراسات العربية بجامعة بودابست بالمجر . . وقد عرضنا مجهوده فى ترجمة

الأشعار المجرية نظما إلى العربية. وسافر إلى أيرلندا عامى ١٩٦٠ و١٩٦٢ لدراسة الفولكلور وتحت إشراف أستاذ الفولكلور «جيمس ديلارجى» ووفرت له الجامعة الانتقال إلى أى من بلاد العالم لمواصلة دراساته العلمية فى مجال الفولكلور. وعاد إلى مصر وأصدرت لكتابه «الفولكلور ماهو» الذى صدر عن دار المعارف عام ١٩٦٥م.

وفى أيرلندا عروس الأساطير سقط فى غيبوبة الجمال الوحشى بين الغابات المعلقة على قمم الجبال وتحت البحيرات فى الوديان المعشوشبة.

واتخذ البحار رفيقا ويغترف صياح طيور النورس على زبد أمواج بحر الشمال. ومضى بمخر عباب الثقافة فأصدر كتابه «التربية عند العرب» عن هيئة الكتاب عام ١٩٦٦، وترجم مجموعة «الحرية والحب» لشعراء المجر عام ١٩٦٨، ثم سافر أعوام ١٩٧١/ ١٩٧٤ ليعمل أستاذا زائرا بجامعة أبيادان بنيجيريا وعامى ١٩٧٧/١٩٧٨ ليعمل أستاذا زائرا بجامعة بودابست بالمجر. وقام بزيارات إلى اليونان وفرنسا والدانمارك والسويد وألمانيا وهولندا والمملكة المتحدة ويوغسلافيا وروسيا وتشيكوسلوفاكيا. وتمخض عن هذه الرحلات كتابه «بين الفولكلور والثقافة الشعبية» عام ١٩٧٨ وكتابه «الغصن الذهبى» لجيمس فريزر ودراسته «السيف في المعتقدات الشعبية» وكتابه «عالم الحكايات الشعبية» عن دار المريخ بالسعودية والذى صدر بعد رحيله عام ١٩٨٣م.

وإذا كانت النفوس كبارا:

قال شاعر النفس العربية العظيم «أبوالطيب المتنبى»

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأجسام

وقد تعب جسم «محمد فوزى العنتيل»، وعلى الرغم من أنه نأى بنفسه عن مواطن الصراع وهرب من الطرق التى يتدافع فيها الناس بالمناكب فقد أصيب فى سنواته الأخيرة بأزمة ربو حادة. هذا الربو أصابه فى رحلاته إلى صقيع بعض البلاد التى سافر إليها.

وفارق «محمد فوزى العنتيل» زملاءه وأحباءه وأصدقاءه إثر واحدة من هذه الأزمات يوم الثلاثاء الحزين ١٢ مايو عام ١٩٨١ قبل ثلاثة أشهر عن رحيل زميله وصديقه «الشاعر صلاح عبدالصبور» .

الأسانيد:

١ ـ أنسية أبو النصر . . أخبار الكتاب ديسمبر عام ١٩٩٨ .

٢ ـ صلاح عبدالصبور . . روز اليوسف ١٩٥٦/٦/١١ .

٣ ـ د. عبدالعزيز الدسوقى . . مجلة الثقافة يونيو عام١٩٨١ .

٤ ـ عبدالغنى داود . . مجلة الشعر خريف ١٩٩٨ .

٥ ـ كمال نشأت . . فى نقد الشعر .

٦ ـ د. محمد رجائى الطحلاوى ود. يحيى عبدالحميد إبراهيم «من أعلام أسيوط» .

كامل الشناوى



يوم مولده ٧ ديسمبر ١٩٠٨ وعندما كانت الورقة رقم ٣٠ من شهر نوفمبر عام ١٩٦٥م تتأهب للسقوط، كانت روح «كامل الشناوى» تتأهب للصعود إلى بارئها فى منتصف نهار ذلك اليوم. وبعد مرور «ثلاثة وثلاثين عاما» جلست أمام الشاشة الصغيرة من الثانية إلى حوالى الثالثة بعد منتصف الليل لأشاهد برنامج «فرسان الكلمة» فى ذكرى رحيل فارس الكلمة «كامل الشناوى». شيخ الصحفيين المصريين «مصطفى أمين» عرف «كامل الشناوى» وهو يرتدى الزى الأزهرى وعرفه وهو أفندى مطربش. وعرف أيضًا أن قلب كامل الشناوى كان مثل «سينما مترو» كل أسبوع رواية. وحدثنا الشاعر الكبير «أحمد عبدالمعطى حجازى» أن «كامل الشناوى» كان يخشى الموت وكتب قصيدة يرثى فيها نفسه. وكشف لنا نجيه ورفيق سهراته الكاتب الساخر محمود السعدنى أن فكرة قد سيطرت على كامل الشناوى بأن «الموت» يأتى ليلا والناس نيام ولا يأتى بالنهار. وهكذا تعب «محمود السعدنى» فى سهراته مع كامل الشناوى الذى يأخذ الليل قاطعًا الرحلة من الهرم إلى مصر الجديدة حتى لا ينام ويهرب من الموت! وتكون حكمة الله سبحانه وتعالى أن يرى «السعدنى» كامل الشناوى يحتضر فى «عز الضهر» ويموت فى النهار وليس فى أية ساعة من ساعات الليل. والشاعر الكبير «محمد إبراهيم أبو سنة» يطوف بنا بين أزهار كامل الشناوى من الشعر الرومانسى. ويشير «د. ماهر قنديل» إلى فنانة بذاتها - دون أن يسميها - التى يقصدها «الشناوى» فى قصائده. والكاتب الشاعر «كمال نشأت» يوقفنا على علاقته الحميمة بالشناوى. ولا أدرى إذا كانت الإعلامية

مقدمة البرنامج كانت ترى أن أجمل الشعر أكذبه أم أصدقه عندما قالت إن أجمل قصيدة لكامل الشناوى هى قصيدة (حبيبها . . لست وحدك حبيبها . . كنت قبلك . . وربما جئت بعدك) المهم أن المشاركين فى البرنامج جميعًا اتفقوا على أن كامل الشناوى أشهر ظرفاء العصر .

تقول فاطمة اليوسف فى ذكرياتها : كان زوار الجريدة كل ليلة لا يملكون أنفسهم من العجب فالجو مرح صاخب ، والضحكات والمقالب والنوادر تتوالى بلا انقطاع . وكان صديقى «الأستاذ كامل الشناوى» هو محور هذا المرح بغير منازع . وله كل يوم قصة أو تشنيعة أو نادرة تنشر الضحكات على الشفاه ، وتمحو كل متاعب النهار . وكانت براعته الغريبة فى تقليد الأصوات والنبرات تتيح له فرصة القيام بأكبر عدد من المقالب .

* ذات يوم - تقول فاطمة اليوسف - كتب العقاد مقالا عنيفًا ضد أحمد نجيب الهلالى وزير المعارف وأعطاه لتوفيق صليب بوصفه سكرتيرا للتحرير (توفيق صليب هو والد زميلنا المحرر بالأخبار سمير توفيق) وقال له إنه مسافر إلى الإسكندرية وطلب منه ألا ينشر المقال إلا إذا اتصل به من الإسكندرية .

وفى الليل دق التليفون على مكتب توفيق صليب . وسمع صوت العقاد يحدثه من الإسكندرية ويطلب منه أن ينشر المقال غداً . . وانتهت المكالمة بعد تعليمات كثيرة من العقاد . وبعد دقائق دخل كامل الشناوى على توفيق صليب ضاحكًا . فقد كان هو الذى قلد صوت العقاد .

وبعد ساعة أو تزيد دق التليفون مرة ثانية . ورفع توفيق صليب السماعة وكان المتحدث هو «العقاد» فعلا يطلب منه ألا ينشر المقال . . وظن توفيق صليب أن المتكلم هو كامل الشناوى مرة أخرى فانفجر فيه :

يا أخى ما بلاش دوشة ! أنت مش لاقى حاجة تعملها «يا أخى أنا مش فاضى للعب ده» ورد عليه الصوت ردا عنيفًا ، واستمر يشتم محدثه فترة طويلة وهو يحسب أنه يشتم كامل الشناوى وذلك قبل أن يكتشف أن محدثه هذه المرة هو العقاد حقًا .

وكان هذا الحادث حكاية الأسبوع فى المجلة . فقد عاد العقاد من الإسكندرية فى

أشد حالات الغضب للشتائم التى جرؤ توفيق صليب على توجيهها إليه. وعبثًا حاولنا أن نقنعه باللبس الذى وقع فيه توفيق صليب. ورفض أن يصدق كامل نفسه حين اعترف له بالقصة.

صورة عن قرب:

بدأ «كامل الشناوى» حياته الصحفية مصححا فى «كوكب الشرق» وكان «د. طه حسين» مديراً سياسيّا للكوكب فأمر طه حسين بنقله محرراً بمكتبه. وانتقل كامل من الكوكب إلى روزاليوسف اليومية (١٩٣٥م) وعهد إليه «العقاد» أن يكتب المقال القصير. وكان من عادة «العقاد» أن يكتب مقاله اليومى فى البيت، ويتركه فى جريدة روزاليوسف صباحا. ويترك لكامل الشناوى مهمة مراجعته. ثم يعود ليلا ليلقى عليه نظرة أخيرة.

وتقدم لنا «روزاليوسف» صورة لكامل الشناوى عن قرب: ظهر فى أفق المجلة فى هذا الوقت شابان.. أحدهما بدين مرح، والثانى نحيل جاد.. هما كامل الشناوى ويوسف حلمى.

وقد اشتهر عن كامل أنه أكول من الدرجة الأولى. وكنت إذا دعوته إلى الغداء فى منزلى غيرت كل المقادير المعتادة من الطعام خصوصًا صنف الأرز لكى تسد حاجته. وهو لا يعفينى من اللوم على قلة الطعام مؤكدًا أنهم فى بيتهم إذا أرادوا أن يأكلوا دجاجًا أو أوزًا أو حمامًا قدموا لكل فرد من أفراد العائلة دجاجة أو أوزة أو زوجى حمام!! وعدد أفراد العائلة ١٢ فردًا (!!).

وتستطرد روزاليوسف قائلة: وكامل الشناوى ذكى ولكنه معروف بالكسل.. وكان مدللا فى أسرته مما يجعله فى غير حاجة إلى العمل.

وروى «صالح جودت» فيما روى عن «كامل الشناوى» أنه ـ رأى الشناوى ـ أحب فتاة فى كافيتريا والسبب أنها رفضت أن تأخذ البقشيش منه اعتزازًا بكرامتها وهو ـ أى الشناوى ـ يعشق الكبرياء.. ومبدأه (اشترى الحب بالعذاب).

المقالب والنوادر:

وكمان كان يمارس هواياته فى «المقالب» و«النوادر» كان هكذا فى كل عمل :

* فى الستينيات أيام كان مسئولا فى جريدة «الجمهورية» تصادف عرض فيلم «السلام» عن الرواية المعروفة للكاتب الروسى الشهير «ليوتولستوى» وحيكت فكرة مقلب يقوم به «كامل الشناوى» فى أحد المحررين الذى يتميز ببسطة فى الجسم مع انكماش ملحوظ فى المهارة الصحفية. طويل عريض وعضلات مفتولة نعم ـ ولكن رصيده فى المعرفة والثقافة ماعطلكش! وقال «كامل الشناوى» لزملائه الحميمين . . اشهدوا على هذا المقلب فى «فلان». واستدعى هذا المحرر وبجدية كاملة وزملاء كامل شهود . . قال له . . اذهب إلى المطار فوراً وانتظر مجىء الكاتب الروسى الشهير تولستوى وهات أول حديث منه للصحافة المصرية. ولم يذهب هذا المحرر للمطار لأنه لا يعرف كيف يتكلم مع الأديب الروسى بأى لغة. المهم، وضع علبة السجاير وفنجال القهوة أمامه، فبرك حديثًا بينه وبين تولستوى الذى كان فى ذلك الوقت قد توفى منذ حوالى قرن من الزمان. وكانت فضيحة ضحكت لها أرجاء دار التحرير.

* فى جريدة الأخبار . . اعتاد أن يزوره يوميًا أحد المحررين . . يدخن وعلى خصومة مع بائع السجاير على تعبير ـ كامل الشناوى. صاحبنا يأخذ السجاير المتتالية من علبة سجاير الشناوى ومعه قهوة وراء قهوة. وذات يوم لم يضع كامل الشناوى علبة السجاير أمامه على المكتب. وحرص ألا يدخن طالما هذا الضيف الثقيل موجود وانصرف إلى الكتابة ويحتسى القهوة دون أن يدخن فسأله الضيف :

ـ لماذا لا تدخن يا أستاذنا؟

ـ بطلت التدخين.

ـ لماذا . . إزاى؟

ـ حرصا على صحتك . . يا صديقى؟

وضج الجالسون فى الغرفة بالضحك.

مـــن هـــو؟

هو : مصطفى كامل الشناوى بن سيد سيد أحمد الشناوى .

ولد فى يوم الاثنين الموافق ٧ ديسمبر عام ١٩٠٨م فى «نوسة البحر» مركز «أجا» مديرية الدقهلية . ولد عقب رحيل الزعيم «مصطفى كامل» فأسماه والده «مصطفى كامل» . والبعض يذكر أنه ولد عام ١٩١٠ والأرجح أنه عام ١٩٠٨ .

كان بدينا ولم تكن بدانته مصدر تعاسة له وإنما استطاع أن يجعلها مصدرا للمرح .

ولما كان والده قاضيا شرعيا لمحكمة مركز «أجا» فأدخل ابنه «كامل» الأزهر ولكنه لم يستمر فيه أكثر من خمس سنوات واتجه إلى دار الكتب يجعل منها جامعة له يطالع فيها مختلف فروع المعرفة والآداب العربية والأجنبية . وواظب على قراءة الكتب المترجمة وأذكر له تعبيرا مهما فى رثاء المترجم الراحل «محمد بدران» الذى ترجم «قصة الحضارة و٦٤ كتابا مهما آخر» قال . . كامل الشناوى عن «بدران» إنه كان الجامعة الحقيقية له . ولما كان يجيد اللغة العربية عمل مصححا فى جريدة «الوادى» سنة ١٩٣٠م ثم مصححًا فى «كوكب الشرق» وأخذه «د. طه حسين» محرراً فى مكتبه عندما كان الدكتور طه مديراً سياسيًا للجريدة . وانتقل من الكوكب إلى مجلة «روزاليوسف» وعام ١٩٣٥ عمل محرراً بجريدة «الأهرام» وكتب فى «آخر ساعة والاثنين والمصور» .

رأس تحرير «آخر ساعة» عام ١٩٤٣ . وانتخب عضواً فى مجلس النواب عام ١٩٤٥م . وانتقل إلى أخبار اليوم عام ١٩٤٥م . وترك أخبار اليوم ليرأس تحرير «الجريدة المسائية» التى صدرت عام ١٩٤٩ . وعاد إلى الأهرام رئيسًا لقسم الأخبار عام ١٩٥٠م وعام ١٩٥٥ عمل رئيسًا لتحرير جريدة «الجمهورية»، ثم عاد بعد ذلك لرئاسة تحرير «الأخبار»، وتوفى يوم الثلاثاء ٣٠ نوفمبر عام ١٩٦٥م .

ورغم النوادر والمقالب:

وعلى الرغم من المرح والسهر، وعلى الرغم من أن قلبه مثل سينما مترو . . كل

أسبوع فيلم - على حد تعبير مصطفى أمين - وعلى الرغم من المقالب التى عرضنا لبعضها، وعلى الرغم من السهر حتى يطلع النهار وحتى يهرب من الموت الذى يجىء فى الظلام! فإن ذهنه متوقد وعواطفه الجياشة أبدعت من الشعر ما طرب له الكثيرون وتغنى به «محمد عبد الوهاب، وفريد الأطرش، وعبد الحليم حافظ، ونجاة الصغيرة».

وبقى منه للمكتبة العربية :

١ - اعترافات أبى نواس .

٢ - أوبريت جميلة .

٣ - الليل والحب والموت .

٤ - ساعات .

٥ - لقاء معهم .

٦ - لا تكذبى .

٧ - زعماء وفنانون وأدباء .

٨ - رسائل حب .

٩ - ديوان كامل الشناوى .

١٠ - حبيبتى .

١١ - بين الحياة والموت .

١٢ - شعر كامل الشناوى .

١٣ - أوبريت أبى نواس .

مع الحياة:

كان كامل الشناوى مصالحا وصديقا للحياة فى إطار ما يفكر فيه وما يشعر به،

عاش يومه كاملا ليلا ونهاراً سواء كان يخشى الموت أو لا يخشاه. وعاش حياته دون أن يقيد خطواته ارتباط بزوجة أو غير زوجة. أطلق العنان لقلبه كل أسبوع رواية. وكان شاعراً بكل ما نفهمه من الإبداع الشعرى. كتب شعر التفعيلة وانطلق به يعبر عن آمال أمته ويعبر به عن عواطفه الخاصة. كان أديبًا وصحفيا وشاعراً. وأقر الكثيرون أنه كان صحفيّا مرموقًا.

وعلى الرغم من بدانته فإن الذين شاهدوه فى أول شبابه طالبًا بالأزهر شهدوا أنه كان «أشيك» من ارتدى الجبة والقفطان والعمامة. وكذلك كان عندما أصبح أفنديا مطربشا. فترات كثيرة كانت تبدو وسامته وشياكته.

كان يتصور أن الموت لا يجيء للناس إلا وهم نائمون، ولكن هكذا كان أمير الشعراء «أحمد شوقى» نعم سهر الليالى ولكنه أبدع فى هذا السهر أجمل أغنيات عاطفية وأروع أناشيد وطنية.

لم يمنعه إغراقه فى حياته الخاصة أو انغلاقه على نفسه عن الاهتمام بقضايا أمته ومهنته. لقد دافع عن حرية الصحافة. وكان فى مهمته موضع ترقب من الصحف. بعد أن توقفت روزاليوسف اليومية ألح عليه «أنطون الجميل» رئيس تحرير الأهرام أن يعمل فى الأهرام. وهكذا كان موقف الأهرام والأخبار والجمهورية منه مدركة أن قلمه الرشيق له بريقه وقيمته. كما أن مرحه كان يبعث على النشاط فى دور النشر التى عمل بها وهذا ما أقرته «فاطمة اليوسف».

:

اللحن الناقص:

ظهرت موهبة الشعر عند كامل الشناوى وهو لم يزل طالبًا فى الأزهر. والذى اكتشف هذه الموهبة هو «الشاعر الأبيض محمد الأسمر» ابن دمياط والذى كان صديقًا لأمير الشعراء «أحمد شوقى» وشاعر النيل «حافظ إبراهيم. قدم «الأسمر» الموهبة الجديدة «كامل الشناوى» إلى أحمد شوقى الذى وجد فيه أن يعهد إليه بإلقاء قصائده فى الندوات الأدبية مع «على الجارم ومحمد توفيق دياب» اللذين كانا يقومان أيضًا بإلقاء قصائد شوقى فى المحافل الأدبية. وكتب عدداً كبيراً من الأغنيات التى كتبها «مأمون الشناوى».

أجمل ما فيه خفة الدم ويقول فى تواضع : «تعلمت فى جامعة دار الكتب «أنتظر حتى تفتح الدار أبوابها ، ويطردوننى ساعة إغلاقها» وقال عن نفسه : «أنا لحن ناقص . . » . لم يتطرق الغرور إلى نفسه رغم أن اسمه كان على كل لسان فى محافل كثيرة .

يقول «يوسف الشريف» : فى الفترات المتقطعة التى كانت تمر بعلاقة «كامل الشناوى» بالمطربة الرقيقة خصامًا ، وهجراً وصداً . . كان يستوحش الحب ، ويطير حبه ، ويبحث عن بديل يشغل قلبه ويحرك شاعريته ـ وكان الشناوى يقول : «إن قلبى لا يطيق أن يتسكع فى ضلوعه بلا عمل . . لذلك فهو حريص على ألا يعتزل الحب حتى لا يتعرض للبطالة ! » .

ولا بأس أن نختم هذه الحلقة بنادرة من نوادره . . من نوادر «كامل الشناوى» مع عبد الحميد الديب ـ شعر البؤس أنه كان يخرج من جيبه عملة فئة العشرة قروش ، ويقربها من «عبد الحميد الديب» مشيراً إلى العملة قائلا : حضرتها عشرة صاغ . . ثم يلتفت إلى العملة ويشير إلى «الديب» ويقول لها : حضرته الشاعر الكبير «عبدالحميد الديب» . . رحم الله آخر ظرفاء ذلك الزمان كامل الشناوى ، ورحم شاعر البؤس عبد الحميد الديب .

الأسانيد :

حازم فودة : نجوم شارع الصحافة .

سيد صديق عبد الفتاح : ظرفاء القرن العشرين .

فاطمة اليوسف : ذكريات .

فرسان الكلمة : برنامج تليفزيونى .

يوسف الشريف . . كامل الشناوى آخر ظرفاء ذلك الزمان .

الدكتور لويس عوض ..



الزمان عام ١٩٤٦ والمكان كلية الآداب جامعة فؤاد الأول والمناخ السياسى كفاح الكتلة الرئيسية من الطلاب ضد الاحتلال وضد القصر وضد الفقر، والموقع التنظيمى عضو بلجنة الوفد بكلية الآداب مع «المرحومين» سيد بكار وعبد الله عبدالبارى وجلال معوض وأمين إدريس وزملاء آخرين على قيد الحياة متعهم الله بالصحة والعمر الطويل، والنشاط مظاهرات وإضرابات ومجلات نصدرها بقروشنا ونوزعها بأنفسنا، طالب الطب «فؤاد محيى الدين» يصدر مجلة «صوت الطالب» ووضعه الاجتماعى والاقتصادى يساعد على استمرارها وعدد كبير من الطلاب يشارك فى توزيعها والطالب الصعيدى القادم من أسيوط «والذى هو كاتب هذه السطور» يجرى إلى إصدار مجلة صغيرة ليضع اسمه عليها كرئيس تحرير أسماها «اللسان»، صدر منها عدد واحد يتيم ونشرت أحاديث ساخنة مع بعض أساتذة الجامعة ـ كان من بينهم «الدكتور لويس عوض» وفوجئت به فى مدرج ٧٨، وفى محاضرة عامة لطلاب السنة الأولى يتحدث عن هذه «النشرة» ويشير لى كصاحب هذه التجربة، ومن يومها أصبحت تلميذا للدكتور لويس عوض، وأصبح هو كأستاذ لا يتردد إذا ما جاء اسمى فى جلسة له أن يقول: «تلميذى».

ومرت الأيام وعرفت من «الشاعر الكبير صلاح عبد الصبور» وهو وثيق الصلة بالدكتور لويس عوض ونعمل سويًا فى هيئة التأليف والنشر، وكان عائدًا من زيارة لموسكو . . عرفت من أن «البرافدا» جريدة الحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفيتى هاجمت «الدكتور لويس» واتهمته بمحاولة التخريب فى الحركة الماركسية المصرية.

وكان «د. لويس» قد نشر روايته «العنقاء أو تاريخ حسن مفتاح» ندد فيها بدكتاتورية البروليتاريا وبالجماعات الشيوعية فى مصر. وعرفت من «صلاح» أيضًا أن الاتحاد السوفيتى رفض إعطاء «د. لويس» فيزا لدخول الاتحاد السوفيتى وهو الموقف نفسه الذى اتخذته أمريكا، وعلى صفحات «البرافدا» أيضًا هجوم على كاتب هذه السطور واتهمتنا بتهمة طريفة وهى «تهريب الفكر الرأسمالى إلى الحركة الثقافية المصرية»، ومن الغريب أن «مجلة الطليعة» نشرت الاتهام نفسه فى معرض التعليق على كتابنا «لماذا الاشتراكية العربية» الذى نشرته لنا «دار المعارف» فى سلسلة اقرأ وطبع مرتين، ومرة أخرى تناول «د. لويس» المسيحية بالطعن على صفحات جريدة الأهرام واحتجت الكنيسة واعتذرت جريدة الأهرام عما نشره «د. لويس».

وأصبحت صورة د. لويس فى ذهنى محددة على سبيل القطع. . (لا يمكن أن نحسب لويس عوض على الشيوعية المحلية أو الدولية، ولا يمكن أن نحسبه على المسيحية كعقيدة دينية) ومقالنا هنا سيوضح أمورًا كثيرة.

الدكتور مجدى وهبة بن مراد باشا وهبة بن يوسف باشا وهبة، والصديق الصدوق للدكتور لويس أطلق عليه تعبير «الشريك المخالف» . . وبتعبير «الحاضر دائمًا» اختارته مجلة «إبداع» عنوانًا لدراسة عن «د. لويس» فى عددها الصادر فى أكتوبر عام ١٩٩٩.

ويرى الدكتور «شكرى محمد عياد»: «من المفيد إنصاف مفكر كبير نعتز بإسهاماته وتبرئته من تهمة التعصب الطائفى التى رماه بها بعض الكتاب، وإن كانت أحكامه التاريخية قد تصيب وقد تخطئ، وهذا أمر يتفق لكل كاتب ولا ينبغى أن يعزى إلى سوء نية».

وكان خطأ «الدكتور لويس عوض» عندما كتب دراسته عن «جمال الدين الأفغانى» التى نشرها فى مجلة «تضامن» كان الخطأ فى تقدير الباحث المعتدل المدقق والذى فقدناه مبكرًا «د. على شلش» هو: «الاعتماد على مصدر واحد رئيسى من تأليف أحد المستشرقين والنقل عنه - بغير حساب أو تنويه - إلى حد مزعج لإقصار الأمانة فى البحث العلمى».

وانبرت للرد عليه أقلام يحملها أساتذة كبار أقدر بعضهم وأحبه فى آن،

واتهمت «د. لويس عوض» بأنه «عميل للشيوعية المحلية والدولية» وأنه يهاجم الرموز الإسلامية لصالح المسيحية، وكنت أفهم مواقف «د. لويس عوض» على غير هذا النحو فكتبت مقالى فى جريدة الأخبار بتاريخ ٢١ سبتمبر عام ١٩٨٢، وركزت على ما نشره تعريضًا بالمسيحية على صفحات جريدة الأهرام، وركزت على هجوم جريدة البرافدا عليه، وعلى رفض الاتحاد السوفيتى دخوله إليه، تمامًا كما فعلت أمريكا بل وأشرت إلى موقف قادة الشيوعية المحلية منه ووصفهم له بأنه «نهلست وهى كلمة أجنبية تعنى فيما تعنى الفوضوية والتخريب» وأصبح لمقالى فى الأخبار قصة كان «الدكتور لويس عوض» عند «الدكتور عز الدين إسماعيل» رئيس مجلس إدارة هيئة الكتاب ورأيته وأنا أدخل «أى الدكتور لويس - يقف متأهبًا للسلام وقلت له: ظننت أنك مخاصمنى.. فابتسم وقال.. قرأت المقال صباح نشره واتصل بى «النبوى إسماعيل» وزير الداخلية يسأل عن حقيقة البيانات التى أوردتها فيه، وأن «د. لويس» قال له البيانات كلها صحيحة والكاتب تلميذى، وسأله وزير الداخلية إن كان يريد حراسة فرفض د. لويس ذلك وقال الوزير للدكتور لويس إنه - أى الوزير - اتفق مع «ممدوح سالم» رئيس الوزراء على الترخيص للدكتور لويس بحمل السلاح، وبطبيعة الحال لم يستخدم «الدكتور لويس» هذا الترخيص بحمل السلاح.

وسوف نتناول هنا القضايا الخلافية التى أثيرت حول «د. لويس عوض» معه أو عليه إعمالا لمقدمة رئيس تحرير «إبداع» الشاعر الكبير «أحمد عبد المعطى حجازى» للدراسات التى نشرتها المجلة فى أكتوبر عام ١٩٩٩:

«أنا واثق من أننا سنراجع موقفنا من لويس عوض وسنعرف الآن من علمه وعمله، وكفاحه ونضاله، وعذاباته وتضحياته، لأنى واثق من أننا سنراجع موقفنا من أنفسنا، سنعرف الآن ما نجهله من تاريخنا البعيد والقريب».

الاشتراكية الديمقراطية:

فى نقاش جرى بينى وبين الشاعرة «ملك عبد العزيز» بتاريخ ٨/ ٥/ ١٩٨٧ عندما اعتزمت الكتابة عن «الدكتور محمد مندور» بموسوعتى «هذا الرجل من

مصر» وباعتبارها زوجة «الدكتور مندور» قالت: إن الدكتور «لويس عوض» فى المقالين اللذين نشرهما فى جريدة الأهرام عن صديق مسيرته الفكرية «د. محمد مندور» لم يكتب ما هو أكثر أهمية مما كتب لأن «جمال عبد الناصر» لا يرغب - حسب رواية الأستاذ محمد حسنين هيكل للدكتور لويس - فى إلقاء الأضواء على جهود اشتراكية وسياسية قبل ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ . على أية حال فإن الدكتور لويس حدد اتجاه مندور بالديمقراطية الاجتماعية، أما هو - أى د. لويس - فإنه يعتنق «الاشتراكية الديمقراطية» وهى تختلف تاريخيا وفى واقع الأمر عن «الماركسية» أو «الاشتراكية العلمية»، وحين اقترب من الماركسية كان يرفض «ستالين» و«تروتسكى» على السواء، وكان القادة الماركسيون فى مصر يحذرون منه ويطلقون عليه «النهلست» وفى كتابه «العنقاء أو تاريخ حسن مفتاح» هاجم الجماعات الشيوعية فى مصر وهاجم دكتاتورية البروليتاريا وسجل اعتراضاته على الماركسية، وفى كتابه «الاشتراكية والأدب» هاجم الفكر الماركسى - وقبض عليه فى ٢٨ مارس ١٩٥٩ بتهمة الشيوعية وأفرج عنه فى منتصف عام ١٩٦٠ ، ودعاه «صلاح سالم» وكان قد أصبح نقيبًا للصحفيين ودعاه إلى جريدة الجمهورية وأحسن استقباله ورفع صلاح التليفون وتحدث إلى كمال الدين حسين قائلا له: «وكتاب الله لويس عوض ليس شيوعيّا» وكان المثقف الماركسى اللبنانى «حسين مروه» يطلق على «د. لويس» عبارة «قائد الفكر اليمينى فى العالم العربى»، لقد كان «لويس عوض» شأنه شأن «العقاد» يعادى كل نظم الحكم المطلق الشمولى «الفاشية والنازية والشيوعية والشمولية الدينية»، وفى تحليل للدكتور جابر عصفور فى «الهلال - أكتوبر عام ١٩٩٠» قال عن لويس ومندور: «كلاهما لم يكن ماركسيا بالمعنى الدقيق أو العلمى، كلاهما كان راديكاليا بالمعنى الذى لا يتطابق مع الماركسية بالضرورة».

ليبرالية سعد والوفد:

فى ٥ يناير عام ١٩١٥ و«لويس حنا خليل عوض» وكان الأب وفديّا وعدوّا لدودًا للإنجليز والسراى وأحزاب الأقلية الحزبية، وبكى والده يوم وفاة «سعد زغلول» وورث لويس عن أبيه حبه للوفد ولسعد زغلول ولعباس محمود العقاد.

وكان وهو فى مدرسة المنيا الثانوية ينشر مقالاته فى إحدى الصحف المحلية بتوقيع «العقاد الصغير»، وكان صبيا فى الثانية عشرة من عمره وشهد أسرته وقد أقامت فى البيت مأتمًا على مدى أربعين يومًا حزنًا على وفاة سعد زغلول.

وترسخ إيمانه بمقولات سعد زغلول «الدين لله والوطن للجميع ـ الحق فوق القوة والأمة فوق الحكومة» لقد ورث الهوية الوطنية المصرية والديمقراطية الليبرالية، وهو أقرب إلى تيار المثقفين الذين يمثلهم نجيب محفوظ ومحمد مندور ود. عزيز فهمى، وورث عن البيئة العائلية كراهية للأقلية المنشقة على سعد زغلول والمضادة له.

وكانت فكرة الديمقراطية أول فكرة أساسية عند «د. لويس عوض» وتأصلت فى وجدانه منذ نعومة أظفاره ويؤمن بالمبادئ السياسية التى بلورها «الوفد» على مدى أجيال ثلاثة منذ عام ١٩١٩ والتى تكرس التعددية الفكرية والسياسية بما يضمن وحدة الأمة المصرية واستقلال إرادتها.

٢٣ يوليو ١٩٥٢:

عام ١٩٥١ سافر «لويس عوض» إلى أمريكا بدعوة من جامعة «برنستون» كزميل، وفى ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ قفز الضباط على السلطة فى مصر، ويذكر «لويس عوض» فى أوراق عمره أنه لم يحس بالارتياح لبعض ممارسات العسكر، وخاصة على أثر إعدام «خميس والبقرى» علنا أمام زملائهما: «وقد شعرت لهذا الأسلوب باشمئزاز شديد يذكرنى بشنق الفلاحين العزل فى دنشواى أمام أهل القرية فى عهد كرومر» و«عدت إلى مصر فى صيف عام ١٩٥٣ وفوجئت بأحد أصدقائى ـ أبو بكر حمدى سيف النصر ـ قدم للمحاكمة بتهمة الشيوعية وحكم عليه بالسجن ومورست ضده ألوان شتى من التعذيب وعلقوه على العروسة لتعذيبه، وهذا يعود إلى اختلافه معهم». ونفتح هنا من عندنا قوسًا لنقول: «إن أبا بكر حمدى سيف النصر هو ابن القطب الوفدى الكبير حمدى سيف النصر الوزير فى وزارات مصطفى النحاس باشا، وقد عاصرناه فى سجن القناطر وكان صلبا فى مواجهة غطرسة إدارة السجن، وكان ودودًا مع المساجين السياسيين من أبناء الشعب».

المهم أن «لويس عوض» عقب حضوره إلى مصر فوجئ بدعوة من «سليمان حافظ» نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية لمقابلته، ونترك «لويس عوض» يعرض علينا الحوار الذى دار بينهما :

ـ صاح سليمان حافظ . . ألا تلاحظ أن البلد تغير يا دكتور . .

ـ لويس . . لم يتغير فى نظرى أى شىء . . الإعلام تغير إلى النقيض وعلى ماهر ليس هو الرجل المناسب . . كان موقفه فى الرجعية المصرية . . وهو نفسه رجل السراى الأول».

واستمر الحديث على هذا المنوال بين سليمان حافظ ولويس عوض طوال شهر يوليو عام ١٩٥٣ .

و(فوجئت بحسين فهمى يتصل بى دون أن أعرفه وراح يتحدث دون انقطاع : هناك مشروع لإصدار جريدة للثورة باسم الجمهورية وأن البنمباشى ـ كان ينطقها هكذا ـ أنور السادات رئيس التحرير يريد تسليمك القسم الأدبى بالجريدة . . وذكر الموعد المحدد من السادات) .

والتقيت بالسادات وطلب منى الإشراف على القسم الأدبى بالجمهورية . . وأن أتسلم العمل بعد غد تحديداً . ويروى «لويس عوض» أنه حاول التذرع بعدم موافقة الكلية والجامعة وذلك فى محاولة للاعتذار عن عدم العمل بالجمهورية، ولكنه فوجئ فى اليوم التالى أن السادات أرسل للجامعة والكلية ووافقتا على إخلاء طرف الدكتور لويس .

آخر خدمة الغز:

ووقعت مذبحة أساتذة الجامعة عام ١٩٥٤ وأبعدته سلطة الضباط عن الجامعة مع حوالى ٥٠ أستاذاً من خيرة أساتذة الجامعة، وذهب إليه «الدكتور يحيى الخشاب» عميد بكلية الآداب ليخفف عنه خبر فصله من الجامعة . ولم يؤثر هذا فى موقفه من التجاوزات، وظل يرفض تصفية الديمقراطية خلال المرحلة الناصرية كما ظل يرفض تصفية العدل الاجتماعى فى ظل انفتاح أنور السادات، وسافر ليعمل

مترجمًا فى الأمم المتحدة عام ١٩٥٥ ودعته سوريا ليعمل أستاذًا للغة الإنجليزية بجامعة دمشق، وفى ٢٨ مارس عام ١٩٥٩ اعتقل «د. لويس عوض» وكان معاشه من الجامعة قليلا «عشرون جنيها» فذهب إلى بيته صديقه الحميم «د. محمد مندور» يعرض معاونته على زوجته الفرنسية «فرانس» وعلى والده وشقيقته اللذين كانا عنده فى البيت أثناء القبض عليه، وتطوع صاحب البيت الذى يقيم فيه «الدكتور لويس» بالتبرع بإيجار الشقة طوال مدة «د. لويس» فى المعتقل. وباقى الالتزامات تحملها شقيقه «الدكتور رمسيس عوض» وصديق «الدكتور مجدى وهبة» الذى كان يسلم أول كل شهر مبلغ ١٥ جنيها للدكتور رمسيس ليرسلها إلى «د. لويس» فى المعتقل لوازم السجاير وشئونه الأخرى، وقد سجل «إلهامى سيف النصر» فى كتابه «فى معتقل أبى زعبل» ألوان التعذيب التى نالها «الدكتور لويس». وكان أول ما فعله «د. لويس» بعد أن أفرج عنه فى ٢٤ يوليو عام ١٩٦٠ ودخل بيته وبعد أن خلع ملابسه ليشاهد أهله آثار التعذيب على ظهره ومؤخرته ويؤكد أن عبد الناصر كان يعلم بالتعذيب، وأقام فى هذا البيت رقم ٤٤ شارع قصر العينى إلى أن رحل فى ٩ سبتمبر عام ١٩٩٠، وكان عام ١٩٧٢ قد وقع على البيان المشهود «الحرب واللا سلم» وفصل مع الآخرين من الصحافة، كان جريئًا وشجاعًا قال فى كتابه: «لمصر والحرية»: «نحاول دائمًا أن نخفف وقع الأحداث بتخفيف أسمائها . . نسمى هزيمة ١٩٦٧ النكراء ـ النكسة ـ ونسمى تحرير الوطن من الاحتلال الإسرائيلى ـ إزالة آثار العدوان ـ حتى ينسى الناس أن مصر محتلة منذ عام ١٩٦٧». وقال: «عودوا إلى دستور ١٩٢٣ إن كان هذا كل ما تستطيعون»!

معـــاركه:

منذ عام ١٩٤٧ إلى عام ١٩٨٩ أصدر «٤٩» تسعة وأربعين كتابًا فى تاريخ الفكر والمذاهب السياسية والحضارة والنقد والأدب المقارن والسيرة الذاتية والمسرحيات المترجمة عن اليونانية القديمة واللاتينية والإنجليزية، ونصف هذه الكتب على الأقل آثار غبار المعارك حوله.

بدأت المعارك بكتابه الصغير عام ١٩٤٧ «بلوتولاند وقصائد أخرى» والذى بدأه

بدعوة جريئة استفزازية «اكسروا عمود الشعر العربى»، واستقبل الديوان بطريقة هادئة . . د. حسين مؤنس وفاروق خورشيد وصلاح عبد الصبور وهاجمه بعنف «الشيخ محمود محمد شاكر» فى كتابه «أباطيل وأسمار» ومحمد جلال كشك فى كتابه «الغزو الفكرى».

الأسـانيد:

١ ـ إبداع «مجلة». عدد أكتوبر عام ١٩٩٩ .

٢ ـ القاهرة «مجلة» . . عدد ١٥ فبراير عام ١٩٩١ .

٣ ـ عبد الرحمن أبو عوف . . حوار مع هؤلاء.

٤ ـ لمعى المطيعى . . جريدة الأخبار ٢١ سبتمبر عام ١٩٨٢ .

٥ ـ د. لويس عوض . . أوراق العمر «ومؤلفات أخرى».

٦ ـ نسيم مجلى . . لويس عوض ومعاركه الأدبية.

محمد بدران



يوم الأربعاء ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ استولى العسكر على السلطة وشكلوا ما أسموه (مجلس قيادة الثورة) واتخذوا مقرًا له على النيل بالجزيرة أمام فندق شيراتون الجزيرة الحالى. وكانوا فى حاجة ملحة لترجمة الوثائق والمعلومات التى ترد إلى مجلس القيادة، وفى حاجة إلى ترجمة البيانات والمراسلات إلى الخارج. واستقر الرأى على إنشاء ما يسمى (ديوان الترجمة) يكون مقره بمجلس القيادة. وسألوا عن أكثر الناس معرفة بشئون الترجمة بفروعها المختلفة. وقيل لهم ليس هناك أفضل من العمدة! أى «محمد بدران» فهو عمدة المترجمين وهذا لقب أطلقه عليه المؤرخ الكبير المعروف «محمد شفيق غربال».

كلف جمال عبد الناصر مدير مكتبه الضابط «أمين شاكر» ليطلب من عمدة المترجمين أن يختار معاونيه وأن يكون رئيسًا له. وذهب «أمين شاكر» إلى العمدة وكان فى الثامنة والخمسين من عمره، إذ إنه من مواليد عام ١٨٩٤م فى إحدى قرى الشرقية. وكان العمدة أو «محمد بدران» مستغرقًا فى ترجمة موسوعة (قصة الحضارة) لويل ديورانت فى عشرين جزءًا، وعرض «أمين شاكر» فكرة رئاسة ديوان الترجمة بمجلس قيادة الثورة على العمدة المتواضع المنصرف إلى العلم، وأن يكون مكتبه بمجلس القيادة المطل على النيل. وإذ بأمين شاكر يسمع من راهب العلم ما لم يتوقعه ولم يخطر على بال «جمال عبد الناصر» حين أرسله ليكلفه بتشكيل الديوان ورئاسته، وأن يبدأ أعمال الترجمة على الفور.

اعتذر «محمد بدران» عن عدم تلبية طلب «جمال عبد الناصر» وعن عدم تشكيل ديوان الترجمة وعن عدم رئاسته للديوان حتى ولو كان يطل على النيل. وتذرع بانشغاله فى استكمال ترجمة موسوعة (قصة الحضارة) وانشغاله مع أحبار اليهود وكهنة الأقباط وعلماء المسلمين لتحقيق ترجمة الأجزاء الخاصة بالإسلام والمسيحية واليهودية فى هذه الموسوعة التى ستبقى لأجيال وأجيال. وعاد «أمين شاكر». كما جاء إلى «عبد الناصر» وكان «محمد بدران» أول مدنى يرفض طلبًا للعسكر على الرغم من الإغراءات التى قدموها له للإشراف على هذا الديوان.

وزارات محمد محمود باشا:

محمد محمود باشا أحد رؤساء الوزارات فى مصر جده «سليمان أفندى عبدالعال» وجدت اسمه فى قائمة أعضاء (مجلس شورى النواب)-يناير عام ١٨٦٧. ووالد محمد محمود هو «محمود سليمان باشا». وجدت اسمه ضمن قائمة برلمان توفيق عام ١٨٨١م عن أسيوط، وهو الذى كان فيما بعد (٩مارس عام ١٩٠٧م) وراء تأسيس (الجريدة) ووراء تأسيس حزب الأمة. وظل لفترة عمدة لمدينة (أبوتيج)-مديرية أسيوط. وكنا ونحن صغار نتلقى التعليم الابتدائى فى هذه المدينة نسمع الكبار يرددون أن الإنجليز بعد أن فرضوا الحماية على مصر عام ١٩١٤ ومنعوا الخديو عباس حلمى من العودة إلى مصر عرضوا على «محمود سليمان باشا» أن يكون ملكا على البلاد ولكنه أبى. وهذه الرواية التى راجت على الألسنة وانتقلت إلى أسنة الأقلام لم أجد لها أى سند فى الكتابات التاريخية. ما علينا! هذه مسألة متروكة للدارسين والباحثين يحققونها. نعود إلى «محمد محمود» الذى ولد عام ١٨٧٥م وتعلم فى أكسفورد (انجلترا). وحضر الاجتماع الموسع الذى عقد فى بيت سعد زغلول (١١ نوفمبر عام ١٩١٨م) بعزبته فى مسجد وصيف، وتقرر فيه أن ينوب «سعد زغلول وعلى شعراوى وعبد العزيز فهمى» فى لقاء المعتمد البريطانى. ودارت الأيام واستقال «محمد محمود» من الوفد فى ٢٨ أبريل عام ١٩٢١م وشارك فى تأسيس حزب الأحرار الدستوريين فى أكتوبر عام ١٩٢٢م وجاء «محمد محمود» رئيسًا للوزارة فى ٢٧ يونية عام ١٩٢٨ ليحكم البلاد بيد من

حديد على حد تعبيره وفى ذراع من حديد على حد تعبير «عباس محمود العقاد» . وأمام المقاومة الشعبية استقالت الوزارة فى ٢ أكتوبر عام ١٩٢٩م. ووزارة محمد محمود الثانية كانت (٣٠ ديسمبر عام ١٩٣٧م - ٢٧ أبريل عام ١٩٣٨م) ووزارته الثالثة (٢٧ أبريل عام ١٩٣٨م - ٤ يونية عام ١٩٣٨م) ووزارته الرابعة (٢٤ يونية عام ١٩٣٨م - ١٨ أغسطس عام ١٩٣٩م) .

وخلال عهود وزارات «محمد محمود باشا» كان المثقف الوطنى المستنير «محمد بدران» ينحاز إلى الإرادة الشعبية التى يعبر عنها (الوفد) والتى تحرص على الدستور والحريات والديمقراطية والعدالة . وكان معاديًا لحكومات الأقلية الحزبية . وأشهر سلاح الترجمة ليسهم مع التيار الشعبى فى إعلاء كلمة الديمقراطية والحرية والعدالة . وأصدرت له (لجنة التأليف والترجمة والنشر) - وسيأتى الحديث عن عناصرها الوطنية المستنيرة - أصدرت له كتابًا مترجمًا عن (الديمقراطية) والثانى عن (العدالة والحرية) . وأمامى كتاب (الديمقراطية) تأليف «بيرنز» والذى صدرت طبعته الأولى عن لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨م، وصدرت الطبعة الثانية أخيرًا عن (الهيئة العامة لقصور الثقافة) ويقدم «محمد بدران» الكتاب بقوله . . (هذا كتاب فى الديمقراطية رأيت ورأت معى لجنة التأليف أن أنشره فى هذا الوقت الذى بدأت فيه معاول الدكتاتورية تعمل فى قواعدها لتدكها دكًا . وأرجو أن يكون فى الآراء التى يعرضها المؤلف ما يعيد إلى المبادىء الديمقراطية ثقة الناس بها، ويقوى آمال أنصارها والمستمسكين بسنتها . ولعلنا فى مصر نستطيع أن ننتفع بهذه الآراء فنقيم نظمنا السياسية والصناعية والتعليمية على أساس ديموقراطى صحيح) .

لقد كان «محمود أفندى بدران» مقاتلاً بالسلاح الذى يملكه وهو (الترجمة) فى صفوف الأغلبية التى تهفو إلى الديموقراطية والحرية والعدالة وضد حكومات الأقلية التى أرادت أن تحكم شعب مصر بيد من حديد .

خراب مصر:

تخرج «محمد بدران» عام ١٩١٤م فى مدرسة المعلمين العليا، وكان الأول على (القسم الأدبى)، وينتمى إلى مجموعة من المثقفين المصريين الذين أسهموا فى

الحركة الوطنية والثقافية كل حسب قدراته وحسب السلاح الذى يملكه فى يديه. وعام ١٩٢٣م كانت هذه المجموعة تتصدى للاحتلال البريطانى بدرجات متفاوتة. . وكان الاحتلال فى أوج سطوته. واتفق «محمد بدران» وصديقه «عبدالحميد العبادى» الذى أصبح فيما بعد عميداً لكلية الآداب - جامعة الإسكندرية على ترجمة كتاب (خراب مصر) تأليف «روزنشتين» والكتاب يكشف ما حل بمصر على أيدى الاحتلال البريطانى والكتاب ممنوع من دخوله وتداوله فى مصر. ولكن المثقفين المصريين الوطنيين حصلا على الأصل الأجنبى لهذا الكتاب وعكفا على ترجمته، ولابد من التحايل على طباعة الكتاب وترويجه سراً. صدر الكتاب بغلاف عليه عنوان (تاريخ المسألة المصرية). وانطلق أنصار هذه المجموعة فى توزيع الكتاب.

ومن حق هذه المجموعة أن نسجلها هنا، رحم الله الذين رحلوا ومتع الله بالصحة الذين على قيد الحياة. والذين أسسوا منهم (لجنة التأليف والترجمة والنشر) والذين انطلقوا كفرسان أحرار. الجميع أعطى لمصر فى حدود ما أتيح من رؤية لهم. هذه المجموعة هى: (طه حسين، أحمد أمين، محمد بدران، عبد الحميد العبادى، أحمد حسن الزيات، زكى نجيب محمود، محمد عبدالله عنان، محمد عوض محمد، صبرى أبو علم، عزيز ميرهم، الشيخ مصطفى عبد الرازق، محمد حسين هيكل، محمد حسن الزيات، عبد الحميد يونس - إبراهيم زكى خورشيد، محمد فريد أبو حديد، أحمد زكى، على مصطفى مشرفة، أحمد عبد السلام الكردانى، محمد شفيق غربال، سليمان حزين، درينى خشبة، على أدهم، سعيد العريان، مفيد الشوباشى، محمد مندور، غنيمى هلال، محمد كامل سليم - سكرتير سعد باشا - محمد محمود، عبد الوهاب عزام، أحمد خاكى، عبد العزيز توفيق جاويد، حسين مؤنس، محمد ثابت الفندى).

هذه الكوكبة المثقفة الوطنية أعطت لمصر فى توجهات مختلفة وبدرجات متفاوتة ولكنها كانت مصابيح مضيئة على الطريق الوعرة. ونحن الآن بصدد الحديث عما قدمه «محمد بدران» فى اتجاه الوطن.

مصابيح محمد بدران:

قام «محمد بدران» بترجمة ٦٤ عملاً من الأعمال المهمة والجادة والمفيدة ونذكر من هذه الثمار الطيبة (تاريخ المسألة المصرية - فصول من تاريخ المسألة المصرية - النتائج السياسية للحرب العظمى - الديموقراطية - العدالة والحرية - إبراهيم باشا - نهرو بقلمه - التربية فى روسيا السوفييتية - قصة الحضارة فى عشرين جزءاً).

وهذه كلها وغيرها لعبت دورها فى تشكيل الأجيال التالية. كانت الترجمة عنده تسير بمنهج الاستنارة الوطنية. كذلك كانت مراجعة الترجمة للكتب ذات المعنى والمغزى ولم تكن مجرد احتراف للترجمة أو المراجعة. قام «محمد بدران» بمراجعة ٣٥ كتابًا مترجمًا. . لنتأمل بعضها: (فتح العرب لمصر - معالم فى تاريخ الإنسانية - الحرية والتربية - الدستور البريطانى - موسوعة تاريخ العالم).

ويبقى كتاب اشترك فيه «محمد بدران» مع زميله وصديقه «زكى نجيب محمود» وهو كتاب (أثرت الحرية) الذى أصدرته (لجنة التأليف والنشر) عام ١٩٤٨م ولنا معه قصة، الفصل الأول فيها كان مع أستاذى د. زكى نجيب محمود، والفصل الثانى جاء أوانه فى ١٤ يونيو الماضى، وأعلنت اعتذارى واعتذار جيلى أمام الاحتفاء بذكرى «محمد بدران».

آثرت الحرية:

العام ١٩٤٨م وهو سابق بالطبع على المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى السوفيتى الذى قدم فيه «نيكيتا خروشوف» تقريره الشهير وأظهر فيه أزمة الديموقراطية فى الاتحاد السوفيتى وكشف عن دكتاتورية «جوزيف ستالين» وعن المذابح التى لحقت بالمفكرين والمعارضين والمطالبين بالحريات وحقوق الإنسان. وعام ١٩٤٨م سابق بطبيعة الحال على العقد التاسع من القرن الحالى، والذى انهارت فيه التجربة السوفييتية ودول شرق أوروبا. كان كتاب (آثرت الحرية) لمنشق سوفيتى وشارك فى ترجمته ومراجعته والتقديم له «محمد بدران وزكى نجيب محمود».

كان الكتاب سابقًا على المؤتمر العشرين وعلى ما جرى فى الاتحاد السوفيتى. وكان على غير التوجه العام لغالبية المواطنين والمثقفين الذين كانوا يحفظون للاتحاد السوفيتى وبالتالى لزعيمه «ستالين» الدور فى إلحاق الهزيمة بالنازية والفاشية ويأملون فى أن يقف الاتحاد السوفيتى إلى جانب قضايا الدول النامية وحديثة الاستقلال. ويقف فى مواجهة الاستعمار الأنجلو أمريكى. وكنا طلبة فى ذلك الحين بالجامعة وتوجهنا العام معاد لأمريكا والدول الاستعمارية فلم نستقبل الكتاب استقبالاً مشجعًا.

لم أكن أعرف شخصيًا «محمد بدران» ولكننى كنت قريبًا من أستاذى «زكى نجيب محمود» فسارعت إليه بالعتاب على المشاركة فى هذا الكتاب وأفضيت إليه بمكنون نفسى. وبنبرة حاسمة قال «د. زكى نجيب محمود» أنه يرفض النظام الدكتاتورى فى الاتحاد السوفيتى. وأن ذلك النظام معاد للديموقراطية وسيأتى اليوم الذى تتكشف فيه الحقائق. على أية حال كانت جمهرة الطلاب والمثقفين عاتبين على محمد بدران وزكى نجيب محمود.

وجاء المؤتمر العشرون وتقرير خروشوف عام ١٩٥٦م مليئًا بكشف السلبيات للنظام السوفيتى مما أحدث هزة عنيفة فى الأحزاب الشيوعية المختلفة، وأخذت غالبيتها فى تغير أسمائها وبرامجها، وقدر لى أن أعتذر شخصيًا لأستاذى زكى نجيب محمود على ما أسأت الظن فيه لترجمة كتاب (آثرت الحرية) وجاء يوم فى أبريل عام ١٩٨٥ وعقدت كليةالتربية بدمياط مؤتمرًا للاحتفاء بالدكتور زكى نجيب محمود ابن قرية (ميت الخولى عبد الله) وينطق الدكتور كلمة (عبد الله) بكسر العين وهكذا ينطقها الأهالى هناك. وتوجهت إلى المؤتمر لأنوب عن الدكتور «أحمد هيكل» وزير الثقافة وقت ذلك وعن «الدكتور سمير سرحان» رئيس هيئة الكتاب. وكان علىّ أن ألقى كلمة نيابة عن الوزير ورئيس الهيئة. وأن أشارك ببحث عن الدكتور زكى نجيب محمود. ولم أكن أعددت الكلمة الأولى ولا البحث وفى المساء رأيت أن أخرج من هذا المطب بأن كتبت ورقة بعنوان (هكذا علمنا زكى نجيب محمود - تجربة ذاتية) وسردت فيها العلاقة مع الأستاذ وتوجهاته

لنا وإرشاداته فى التفكير وألا نستقبل أية أفكار جديدة بحساسية وعلينا بالتفكير المستقل .

ولقيت الكلمة استحسانًا لدى الأستاذ والحضور ونشرتها جريدة (الأهرام الدولى بعنوانها ونصها) فى ٤ أغسطس عام ١٩٨٦م .

هكذا أكون قد اعتذرت للدكتور زكى نجيب محمود على الخلاف فى الرأى، ولكننى لم أتعرف شخصيًا إلى «محمد بدران» وانتهزت فرصة الاحتفاء بالذكرى المئوية أو شبه المئوية لمولده عام (١٨٩٤م) التى أقيمت فى ١٤ يونية عام ١٩٩٨م ودعيت للمشاركة والحديث فيها بدراسة تحت عنوان (محمد بدران وتطور المجتمع المصرى)، وأعلنت أمام الحضور تقديم الاعتذار الذى تأخر نصف قرن بالتمام والكمال، وكانت الورقة التى تقدمت بها فى أيدى الحاضرين .

عبقرية الترجمة:

هذا هو الجانب الوطنى السياسى لعمدة المترجمين «محمد بدران» أرجو أن أكون قد أوفيته حقه. بقيت كلمات تعطيه حقه كمترجم. . قال عنه «كامل الشناوى»: (قرأت له جميع الكتب التى تحمل اسمه، وإنى أعده أحد أساتذة جامعتى الخاصة التى درست فيها تاريخ الإنسانية). وقال «عباس محمد العقاد»: (إننى أفضل أن أقرأ ترجمة لمحمد بدران على أن أقرأ الأصل الذى نقلت عنه هذه الترجمة. . إنها عبقرية الترجمة).

هذا رجل من مصر ولد فى إحدى قرى الشرقية عام ١٨٩٤م وكان والده ناظرًا لتفتيش «الدكتور يوسف نحاس». دخل مدرسة العقادين الابتدائية بالقاهرة، ومدرسة السعيدية الثانوية، وحصل على ليسانسيه مدرسة المعلمين العليا عام ١٩١٤م، وانضم إلى لجنة التأليف والترجمة كما قلنا ٦٤ عملا مهمًا، وراجع ترجمة ٣٥ كتابًا. وعام ١٩٣٨م عمل مديرًا لمتحف التعليم، وعمل مع «د. طه حسين» فى المراقبة العامة للثقافة. بذل جهدًا كبيرًا فى ترجمة (قصة الحضارة) ٢٠

جزءاً وموسوعة تاريخ العالم ٦ أجزاء. وفى أخريات سنواته انطفأ نور عينيه بعد أن أضاء طريق الكثيرين. وتوفى فى مايو من عام ١٩٦٠. رحمه الله.

الأسـانيد:

١ ـ د. أحمد بدران . . كلمة الأسرة فى الاحتفال المئوى.

٢ ـ د. جابر عصفور . . كلمة الافتتاح.

٣ ـ د. صلاح قبضايا . . جريدة «الأحرار» ٢٩ مايو عام ١٩٩٨م.

٤ ـ لمعى المطيعى . . دراسة (بدران مترجماً وتطور المجتمع المصرى).

٥ ـ د. نعمات أحمد فؤاد . . جريدة الأهرام ١٦ مايو عام ١٩٨٣.

الشيخ محمد متولى الشعراوى



إلى الذين يريدون شرًا بهذا البلد الآمن، وإلى الذين يجددون المحاولات لبث الفتنة الطائفية فى مصر، إلى الذين يستمرون فى فرض الوصاية الأمريكية على مصر وهو ما يرفضه المسيحيون والمسلمون ويدينونه. إلى الذين قرروا تعيين مستشار لوزيرة الخارجية الأمريكية لشئون ما أسموه الحرية الدينية، إلى هؤلاء وأولئك نسوق اليوم صفحات مضيئة لوحدة هذا الشعب العظيم نقتبسها من سيرة إمام الدعاة.

فى أحد أيام شهر أغسطس من صيف عام ١٩٩٤ ازدحمت كاتدرائية الأقباط الأرثوذكس بشارع العباسية «التاريخ والعنوان ليتأكد الكونجرس الأمريكى من صدق بياناتنا» بالآلاف من المسلمين والمسيحيين لوداع ابن مصر والوفد «إبراهيم فرج باشا» فى يوم رحيله. فى الصف الأول كان هناك «محمد فؤاد سراج الدين» رئيس الوفد وإلى جواره «فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى» إمام الدعاة وعلى مقربة من النعش المسجى كان قداسة البابا شنودة الثالث بطريرك الأقباط يعدد مناقب الفقيد ويشيد بمواقف سعد زغلول العظيم وخليفته مصطفى النحاس والوفد وكل الذين رفعوا شعار «الدين لله والوطن للجميع».

كان يومًا مشهودًا وشاهدا على العروة الوثقى بين الإمام والبابا من أجل وحدة الشعب العظيم وعلى العلاقة المحترمة بين الإمام والبابا.

الإمــام والبــابـا:

قالت «مؤسسة الحوار الدولى الإسلامى - المسيحى بباريس» فى مشاركتها للمسلمين مشاعرهم بوفاة الشيخ محمد متولى الشعراوى أن الشيخ وضع يده فى يد قداسة البابا شنودة الثالث فى لقاء الرموز فى ١٣ يناير عام ١٩٩٤م. ونقلت الكلمات والمشاعر إلى ملايين من المؤمنين مسلمين ومسيحيين لتكون بردا وسلامًا على شعب مصر ونارًا تلهب ظهور من يريدون شرًا بهذا البلد الآمن. وظلت العلاقة بين الشيخ والبابا طيِّبة ولم تكن الكاتدرائية غريبة على الشيخ. يذهب إليها لتهنئة البابا فى مناسبة دينية، وعندما مرض الشيخ وسافر إلى لندن للعلاج كان الكهنة الأقباط والأطباء الأقباط فى لندن يعودون الشيخ ويقدمون له المحبة والأخوة بتوصيات من قداسة البابا، وقد أثلجت هذه العلاقة الأخوية صدور المصريين المحبين لمصر.

ويوم الرحيل قدم قداسة البابا شنودة التعزية، وأعرب عن تأثره البالغ لوفاة الشيخ الشعراوى ووصفه: «بأنه عالم متبحر فى علمه ومحبوب من الله وموضع ثقة من الكثيرين».

رمز الوحدة الوطنية:

وشارك جميع أساقفة الكنائس القبطية فى محافظة الدقهلية فى تشييع جثمان الشيخ الشعراوى ووصف القس بنيامين «كاهن كنيسة مار جرجس بميت غمر» الشيخ بأنه «كان رجلا عظيمًا ترك رحيله أثرًا كبيرًا فى نفوس المصريين مسلمين ومسيحيين»، كما نعت الطائفة الإنجيلية الفقيد إلى العالمين العربى والإسلامى ووصفته بأنه كان رمزًا أصيلا من رموز الوحدة الوطنية.

ويقول الشيخ فى مذكراته «زارنا فى قريتنا مطران المنصورة فى كنيسة العذراء وتوافقت زيارة المطران للقرية العيد الكبير، فرحب به الشيخ الشعراوى وقال فى ذلك بيتا من الشعر:

اليوم حل بأرضنا عيدان   عيد لنا وزيارة المطران

ويقول أيضًا: «على هذا النحو كانت تتأصل فى القرية المصرية روابط المحبة والأخوة بين المسلمين والمسيحيين وتربينا على هذا الحب وتلك الأخوة منذ صغرنا، وكان الكبار من آبائنا وأعمامنا وأخوالنا يغرسون فينا هذه الروح السمحة التى اقترنت بالوطنية التى اجتاحت الجميع مسلمين ومسيحيين بغير تفرقة. وقد شارك إخواننا المسيحيون بكل الإخلاص للوطن فى جميع الأحداث الغالية فى تاريخنا الوطنى، ولعل الذين يسعون لإحداث الفرقة وإيقاع الفتنة يعون ذلك.

ويذكر مريده وصديقه الذى نشرته له جريدة «الوفد» فى ٢٥ يونيو عام ١٩٩٨م: «أذكر أنه قبض علينا فى إحدى المظاهرات.. وأفرج عنا.. وذهبنا إلى مسرح البلدية.. وقف الشيخ الشعراوى خطيبًا وشاعرًا يشيد بموقف الوفد الرائع والوحدة الوطنية ضد الإنجليز».

وهكذا دقادوس أيضًا:

لم تشهد قرية دقادوس مركز ميت غمر محافظة الدقهلية مسقط رأس الشيخ الشعراوى ومثواه الأخير ظاهرة التطرف الدينى، ويعيش المسلمون والمسيحيون فى محبة وسلام، ويتحدث الشيخ عن مولد السيدة العذراء فى قرية دقادوس فيقول: أذكر أن من أهم الاحتفالات الدينية التى كانت تجمع آباء وأبناء قريتنا دقادوس «مولد السيدة العذراء» الذى كان يقام فى الأسبوع الثالث من أغسطس، ويقال أن العذراء والمسيح مرّا فى قريتنا، وأقيمت كنيسة للعذراء عندنا. وكنا نعتاد فى الاحتفالات بهذا المولد أن تأتى كل الطوائف لأنه كان من الموالد الكبيرة جدًا.

وما يحدث فى مولد العذراء بقرية دقادوس يحدث فى مولد آخر فى محافظة الدقهلية، وهو «مولد الست جميانة» أو «دميانة» كما ينطقه الأهالى هناك. المولد تعنى به المحافظة ويحضر يومه الأول محافظ الإقليم، ويحضره المسلمون أكثر من المسيحيين.. وهكذا أيضًا «مولد العذراء» بدير درنكة أعلى الجبل غرب أسيوط، فإنه مولد عام للمسلمين والمسيحيين ومطبوعات محافظة أسيوط تشير إلى هذا الدير على أنه أحد الآثار المسيحية المهمة التى تروج لها السياحة فى أسيوط.

وكتابات أستاذنا الدكتور سيد عويس تعلمنا أن الموالد فى مصر مسيحية وإسلامية هى موالد عامة للمصريين مسلمين ومسيحيين ومناسبة للناس يتبركون بأصحابها ويمرحون ويخرجون فيها من رتابة الحياة. ولقد نشأ صاحب هذه السطور فى مدينة أبوتيج بأسيوط، وشهد الأهالى مسيحيين ومسلمين يشاركون فى مولد سيدى «الفرغل - شى لله يا أبا أحمد». كما شهد احتفال الأهالى من أسيوط وغيرها بمولد السيدة العذراء فى ديرها بجبل درنكة.

تربية سعد والنحاس والوفد:

نشأ الشيخ محمد متولى الشعراى فى أسرة متدينة محبة لسعد زغلول ومصطفى النحاس ومخلصة لمبادىء الوفد. فشب الشيخ فى ظل شعار ثورة ١٩١٩م «الدين لله والوطن للجميع» ونشأ بين أعمام وأخوال يوصون الأبناء بالمحبة بين المسلمين والمسيحيين. وعاش فى بيئة تحرص على إحياء شعائر موالد الرموز المسيحية.

يقول رئيس الوفد «محمد فؤاد سراج الدين باشا» ينعى إلى الأمة إمام الدعاة إلى الله الداعية المجدد الشيخ محمد متولى الشعراوى الذى رحل وقلوب الأمة كلها تودعه وتبكيه من القلوب وتدمع عليه العيون. فقد كان الراحل الكريم وفديا مخلصًا لمبادىء الوفد منذ كان طالبًا فى الأزهر الشريف وهو عالم أخلص لله فى علمه وعمله. لم يكن رجل سلطان أو دنيا، ولهذا فضل عرش القلوب فكان فى أفئدة الأمة.

ومن ذكرياته التى يعتز بها الشيخ محمد متولى الشعراوى كل الاعتزاز أيام أن كان يحرص على صحبة والده فى زياراته المتكررة لزعيم الأمة سعد زغلول باشا فى قرية «مسجد وصيف». فى صباه رأى سعد باشا واستمع إليه وسرت فى دمائه مبادىء سعد فى الوطنية والأخوة الوطنية، وكان من الطبيعى أن يظل على الولاء لمبادىء الوفد وهو طالب بالأزهر الشريف يختاره زملاؤه الوفديون وكيلا للجنة الوفد بالأزهر. ويؤكد صديقه الدكتور محمود جامع أنه عرف الشيخ الشعراوى عام ١٩٤٤ مدرسًا بمعهد طنطا الثانوى: «كنت طالبًا بالتعليم الثانوى بطنطا..

وكان الشعراوى وفديا ومحبّا للزعيم مصطفى النحاس، وكنا نحمل الشعراوى على الأعناق فى مظاهراتنا الوطنية ضد الإنجليز ونهتف خلفه».

قرية منصفة:

دورة تكاد تكون معروفة فى تاريخ مصر الحديث، القرية المصرية الطيبة تدفع بأبنائها إلى الأزهر الشريف، ويقوم الأزهر بتعليمهم وتثقيفهم وصقلهم ثم يدفع بهم إلى حضن مصر ليكونوا أبناء بررة يردون إليها الجميل. هكذا فعلت قرية «دقادوس» دفعت بخير ابن لها إلى الأزهر فعلمه وثقفه وصقله ودفع به إلى مصر ليكون إمامًا للدعاة ويطير صيته إلى ربوع العالم الإسلامى والعالم العربى وأرض الكنانة، ويكون مخلصًا لدينه ومحبًا لوطنه وودودًا مع قريته. ويقيم فيها مجمع الشعراوى الإسلامى ويحول القرية الصغيرة إلى منارة للعلم ويبنى مسجد الأربعين ومعهدًا أزهريًا ابتدائيًا ومكتبة إسلامية ومركزًا للحاسب الآلى ويقيم ثلاث مدارس ابتدائية أزهرية، ويتولى علاج فقراء القرية مجانًا. ويقوم برعاية أبناء قريته ويوفر لهم ظروف العمل والمعونة المالية.

حرص الشيخ على أن تكون عودته الأخيرة إلى تراب قريته. أوصى بأن يكون مثواه الأخير هناك وأقام مدفنه فى قرية دقادوس لتأنس روحه بدعوات الأهل بالرحمة. مليون مواطن خرجوا من دقادوس وغيرها من القرى المجاورة تودع ابنها البار، وقد عاد إليها بعد أن جعل اسم دقادوس لامعًا بين قرى مصر تفاخر بابنها البار بين العالمين. تقدم الجنازة فضيلة الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر والدكتور حمدى زقزوق وزير الأوقاف ومحافظ الدقهلية وكاهن كنيسة ميت غمر نائبًا عن قداسة البابا شنودة الثالث.

ونعى الأزهر الشريف إلى الأمة الإسلامية والإنسانية عامة الداعية الجليل وواحدًا من خيرة أبنائه «الشيخ محمد متولى الشعراوى» علما من أعلام الإسلام الأفذاذ، وعالما من علماء الأزهر الشريف وشارحًا للإسلام بمفاهيمه الصحيحة. وقامت برئاسة الجمهورية بنعى الشيخ الشعراوى وسيل من المقالات الباكية تعدد مناقب الفقيد المختلفة.

من هنا نبدأ:

فى عبارات متواضعة حلوة يحدثنا الشيخ المتواضع عن البداية المتواضعة فى كتاب «الشيخ عبد المجيد» بقرية دقادوس. كان شيخ الكتاب يتقاضى أجرا أسبوعيًا خمسة مليمات كل يوم خميس أو رغيف عيش بدلا من النقود. من هذه البداية المتواضعة أقبل عليه الخير من كل حدب وصوب. وقدر له الله سبحانه وتعالى أن يضع هذا الخير ليسد احتياجات الفقراء فلا يصد طالبًا أو سائلاً ولا يحجب معونة عن أحد يريدها . . كريما مع الذين يعرفهم ومن لا يعرفهم.

سبحان الله . . لم يكن راغبًا فى التعليم الدينى فوضع فى عينيه الشطة يوم الكشف الطبى حتى تلتهب عيناه ولا يقبلونه بالمعهد الدينى، ولكنه اكتشف أن المعهد يقبل المكفوفين. حكمة الله سبحانه وتعالى الذى ادخره وليجلس فى مقعد التفسير ويقبل عليه الناس فى كل مكان يذهب إليه فى مصر والبلاد العربية والبلاد الإسلامية ينهلون من علمه الذى فتح الله عليه به.

رحم الله الشيخ عبد المجيد بقرية دقادوس إذا كان قد رحل ومتعه الله بالصحة إذا كان الله قد شاء له أن يكون على قيد الحياة، وهو بالتأكيد قد رأى تلميذه الصبى الصغير نحيل الجسم وقد فتح الله عليه بدراسة القرآن وحفظ الأحاديث، وتفتحت بصيرته لينهل من جميع فروع المعرفة. قال الذين عرفوه أنه كان يقرأ وهو يأكل ويقرأ وهو يسير فى الطريق. قرأ فى كل شىء وقد ساعده هذا على قوة الإقناع لمحدثيه. المستمعون كانوا يحضرونه وموسوعيته تتدفق . . نماذج مختلفة من المعرفة العلمية المتاحة واقتباسات من المفكرين والشعراء . . كل اقتباس فى موضعه المناسب.

خطوات على الطريق:

ولد الشيخ محمد متولى الشعراوى عام ١٩١١م. وعندما اشتد عوده سلمه والده المستنير والمدرك لأهمية العلم للشيخ عبد المجيد ليحفظ القرآن والأحاديث أو ما تيسر منهما وقدر من الحساب وقدر من القراءة. نشأ فى أسرة متواضعة متدينة

تؤيد سعد زغلول والوفد. زوجه والده وهو فى مرحلة التعليم الابتدائى بالمعهد الدينى كما هى عادة أهل الريف فى مصر يزوجون أولادهم فى مرحلة باكرة من العمر لصيانتهم وحتى يتمكنوا من تربية الأولاد. حكم عليه بالحبس لمدة شهر عام ١٩٣٤م لأنه قاد مظاهرة تهتف لمصر والوفد والوحدة الوطنية. وعمل مدرسًا بمعهد طنطا الثانوى فى بداية الأربعينيات وعام ١٩٥٠م.

أعير للعمل فى المملكة العربية السعودية فى «معهد الأنجال» والتدريس بكلية الشريعة فى مكة المكرمة عام ١٩٥١م. ثم أعير للعمل فى الجزائر من عام ١٩٦١م حتى عام ١٩٦٦م. وعاد للعمل بالمملكة العربية السعودية للعمل عام ١٩٧٠م أستاذًا زائرًا بجامعة «الملك عبد العزيز» فى جدة. وفى السعودية والجزائر كان يقدم علمه ومعارفه لجماهير الناس وكان مريدوه يسجلون علمه الغزير فى كتب تنفع الناس، وعلى الرغم من قربه من السلطان كانت أفضل أوقاته تلك التى يجلس فيها إلى عامة الناس يفقههم فى دينهم ويجد فيها نفسه على حد تعبيره. كان الناس فى مقدمة اهتماماته، وأما السلطان فهو عنده بعد عامة الناس بمسافة كبيرة. حكى فى ذكرياته فى أيام مشيخة الشيخ عبد الرحمن حسن للأزهر جاءوا له بصورة لجمال عبد الناصر وهو يصلى ووضعوها فى مكتبه. وطلب شيخ الأزهر من الشيخ الشعراوى أن يكتب كلمتين يضعونهما تحت الصورة، فكتب الشعراوى أن يكتب كلمتين يضعونهما تحت الصورة، فكتب الشعراوى العبارة التالية «غدا تتوارى فى سراديب من مضى ويمضى الذى يأتى لسردابكم حتمًا ولن يقف الدولاب.. والله هو الدائم» ويقول الشعراوى: «وفوجئت بالشيخ حسن يقول لى: لا أقدر على كتابة هذا أبدًا».

واستدعاه الرئيس السادات عام ١٩٧٦م ليتولى منصب وزير الأوقاف وشئون الأزهر وتردد كثيرًا ولم يبق فى وزارة ممدوح سالم طويلا لأنه اصطدم بعناصر فاسدة، وعام ١٩٨٠م اختير عضوا بمجلس الشورى وحصل على جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٨٨م. وللشيخ خمسة أبناء هم سامى وعبد الرحمن وأحمد وصالحة وفاطمة. وفى الساعة السادسة والنصف من صباح يوم الأربعاء الموافق ١٧ يونيو عام ١٩٩٨ توفى إلى رحمة الله الشيخ محمد متولى الشعراوى.

قــالــوا:

ونود هنا أن نسجل للقراء بعضًا من آلاف الأقوال فى إمام الدعاة الشيخ الشعراوى . .

** فضيلة الإمام الأكبر الشيخ الدكتور محمد سيد طنطاوى : كان إمام الدعاة وجها مشرقًا للإسلام الصحيح . . يتنقل من بلد إلى بلد ومن دولة إلى دولة ومن قارة إلى قارة أخرى . يشرح ويفسر للناس صحيح الإسلام .

** فؤاد سراج الدين باشا رئيس الوفد : عالم أخلص لله فى علمه وعمله ، لم يكن رجل سلطان أو دنيا ، وفضل عرش القلوب فكان فى أفئدة الأمة .

** قداسة البابا شنودة الثالث : عالم متبحر فى علمه ومحبوب من الله وموضع ثقة من الكثيرين .

** القس بنيامين سليمان كاهن كنيسة مار جرجس بميت غمر : كان رجلا عظيمًا ترك رحيله أثرًا كبيرًا فى نفوس المصريين مسلمين ومسيحيين .

الأسـانيد:

١ - الأهرام «جريدة» : ١٩ يونيو ١٩٩٨ .

٢ - الراوى هو الشعراوى : مذكرات كتبها محمد زيد .

٣ - فؤاد سراج الدين : نعى إلى الأمة .

٤ - الشيخ محمد متولى الشعراوى : ذكريات - جريدة الأهرام ٢٠ يونيو عام ١٩٩٨م .

٥ - د. محمود جامع : جريدة الوفد ٢٥ يونيو عام ١٩٩٨م .

٦ - مؤسسة الحوار الدولى الإسلامى المسيحى : نعى إمام الدعاة .

محمد الأسمر



كان أبيض الوجه والقلب . . والاسم «محمد الأسمر» . . كل من يلقاه يسأله عن هذا التناقض . كتب القائمقام «عبد الحميد فهمي مرسى» صديقه وبلدياته وكاتب مقدمة «ديوان الأسمر» . . كتب فى المقدمة أنه سأل الشاعر محمد الأسمر . . (إنك أبيض اللون فما لقب الأسمر هذا؟) فأجابه على الفور وكأنه أعد الرد على السؤال من قبل : فيما مضى قدم من مراكش إلى دمياط رجل من كرام الرجال هو «فاتح بن عثمان الأسمر» وكان من المتصوفة واعتقد أن أسرة الأسمر بدمياط والتى نزح فرع منها إلى بور سعيد تنتمى إلى هذا الرجل المتصوف ، وكان الشاعر «محمد الأسمر» يبتسم وهو يرد على هذا السؤال الذى يوجه إليه كثيراً بقوله : إن من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ من كان يلقب بالأسمر . ما علينا . . من هو هذا الأبيض الأسمر ؟ .

الشاعر المطبوع محمد الأسمر يذكرنى بأمير النثر محمد مصطفى المنفلوطى . كلاهما أزهرى وطنى مستنير ، وكلاهما احتفظ بزيه الأزهرى حتى الرحيل . وكلاهما اختار يوم الهول يوم وداع ونعاه فى عصف الرياح الناعى . توفى المنفلوطى عام ١٩٢٤م يوم محاولة الاعتداء على حياة زعيم الأمة سعد زغلول باشا ، وتوفى الأسمر فى ٦ نوفمبر عام ١٩٥٦م والأمة مشغولة بالعدوان الثلاثى من انجلترا وفرنسا وإسرائيل على مصر منذ ٢٩ أكتوبر عام ١٩٥٦م . وكلاهما أديب وطنى عاش ثورة ١٩١٩ بكل عزتها وكبريائها الوطنى . وكلاهما عانى من قسوة

الحياة رغم أن اسم كل واحد منهما كان كالطبل المدوى. وكلاهما أصابه الشيب المبكر وعلى حد تعبير الأسمر فى ديوانه ص ٥٨١ :

شيبتنى حوادث لو أصابت جنح ليل لشاب فى ريعانه

وكلاهما رحل مبكرا ولم يشبع من الأيام. . المنفلوطى (١٨٧٦م - ١٩٢٤م) عاش ٤٨ عامًا والأسمر (١٩٠٠ - ١٩٥٦) عاش ٥٦ عامًا. الطريف أن الأسمر ولد فى ٦ نوفمبر ورحل فى ٦ نوفمبر، رحم الله الأديبين الكبيرين.

والشاعر محمد الأسمر دمياطى الأصل والمشرب. . له قصيدة بعنوان «دمياط» :

لى بين جنبى قلب خافق أبدًا لمن بدمياط فى حل وترحـــال

ودمياط بها طابع متميز تلمسه فى عديد من أبنائها : «زكى نجيب محمود وعلى مصطفى مشرفة وجلال الدين الحمامصى وعلى حمدى الجمال وحمدى عاشور ثم زميلنا عباس الطرابيلى وفاروق شوشة وطاهر أبو فاشا».

والده الحاج محمد الأسمر. . كان تاجرًا ثريًا من أعيان دمياط، وأمه سيدة طيبة العنصر وله ثلاث أخوات شقيقات وأخوان شقيقان. . الحاج أحمد محمد الأسمر، وعبد الرازق محمد الأسمر، ولشقيقه أحمد الأسمر ابنان هما: الدكتور محمد أحمد الأسمر، ومحمد فريد الأسمر. أما شاعرنا فلم يرزقه الله بذرية ولكنه عاش يتعهد بالرعاية أبناء السيدة زوجته وأبناء أبنائها. وتميز عامة بعطفه على البائسين والمحرومين وسريع الاستجابة لكل عمل إنسانى.

التحق بكتاب من كتاتيب تحفيظ القرآن الكريم بدمياط، ثم التحق وهو فى الثامنة من عمره عام ١٩٠٨م بمدرسة أهلية، هى مدرسة الحزاوى، وظل بها ست سنوات من عام ١٩٠٨ حتى عام ١٩١٤، وعمل بالتدريس فى المدرسة فترة قصيرة، وبعدها عمل فى أحد المحلات التجارية برأس البر ثلاثة أشهر هى مدة المصيف. والتحق بالمعهد الدينى عام ١٩١٥ لمدة خمس سنوات.

القاهـرة والأزهـر:

وشد الأسمر الترحال إلى القاهرة عام ١٩٢٠م، حيث التحق بمدرسة القضاء الشرعى والتحق بالأزهر الذى تخرج فيه عام ١٩٣٠م. وكان الأسمر خلال فترة دراسته بالأزهر قد تعرف إلى الشيخ مصطفى عبد الرازق الذى أعجب به وبأسلوبه وبقصائده الباكرة وعاونه فى أن يعمل مصححًا بجريدة «السياسة» جريدة الأحرار الدستوريين. وبعد أن تخرج الأسمر فى الأزهر عين بوظيفة كتابية فى الأزهر، ثم فى مكتبة الأزهر وبعدها أمينًا لمكتبة المعهد الدينى بالاسكندرية، وعاد إلى القاهرة ليشغل وظيفة أمين لمكتبة الأزهر. وعلى ذكر الأزهر ومكتبة الأزهر واعتزازه بالزى الأزهرى فقد كان قريبًا لقلب الشيخ مصطفى عبد الرازق، والشيخ محمد مصطفى المراغى، والشيخ عبد المجيد سليم. . وقال الإمام الأكبر الشيخ مصطفى عبدالرازق شيخ الجامع الأزهر فى شعر الأسمر: «قد يكون سحراً ذلك الذى ترسله نغمًا موسيقيًا، أسلوب سهل يفجر العواطف خلالها تفجيرا». وقال الإمام الأكبر الشيخ «محمد مصطفى المراغى» شيخ الجامع الأزهر عن وفاء الأسمر للأزهر: «أن الأستاذ الأسمر رفع من شأن الأزهر فى مناسبات مختلفة» وقال الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر عبد المجيد سليم: «أسأل الله أن يكثر من أمثالكم الذين يرفعون من شأن الأزهر وأن يديم توفيقكم».

عيـد النيـروز:

وهذا الأزهرى الوطنى المستنير «محمد الأسمر» وجدت له قصيدة عصماء ألقاها فى جمعية التوفيق القبطية الخيرية بالقاهرة بمناسبة الاحتفال بعيد النيروز لعام ١٩٤٧م أهديها لشباب اليوم ليرى كيف كان أدباء الأمس. يقول «الأسمر» من بين ما قال فى قصيدة من ٧٠ بيتا:

أين «كارا»[1] بل أيـن «دقلديانو	س» يسود الجيوش برا وبحـــرا
ويسوق الحمـــام فالضبط قتــلى	ويسوق الهوان فالضبط أسـرى

(١) كارا كان أحد ملوك الروم ومن جنونياته أنه أمر بقتل جميع أهل الإسكندرية.

بين قتـل وبين حـرق وجـلد لبث الضبـط فى المقـالم عشـرا
ثم لاح «الإسـلام» نور الصبـاح نـور «عيسى» من قبـل لاح فجـرا
وهو سـوى بين الجميـع فكل يعبـد الله كيفمـا شـاء حـرا
هم سواء لديه بيضـا وسـودا هـم سـواء لديه حمـرا وصفـرا
ليت شعـرى ما للوصـايا أراها وهى عشر صارت لدى الغراب صقرا
أين «عيـسى» يرونـه ليثـوبوا كان «عيسى» روحـا من الله طهـرا
يا بنى القبعا من بنى مصر ما نحن وأنتـم إلا يمـين ويسـرا
نحن أنتم، وأنـتم نحـن كـالعينين لا فـراق بـين عـين وأخـرى
شـهـر ذى الحجـة الكريم علينا مثـله عنـدنا أبيب ومسـرى
النبى الكـريم كـرم مثـواكم فأوصـى بالقبط فى مصـر خيرًا
أن تكـونوا إخـواننـا فلقـد كنتم قـديمًا مـن قبـل ذلك صهـرا
لست أنسى وقـد دعا «عمـر الفاروق» عمـرا لكى يحاسـب عمـرا
يا بنى مصـر مسـلمين وقبطـا لا تنـامـوا، والله يحفـظ مصـرا

هل هناك أحلى من هذا الشعر؟ هل هناك شعر يفيض بالأخوة الوطنية مثل هذا الشعر؟ القصيدة من ٧٠ بيتا تفيض بالمعانى والسلاسة والقصيدة ضمن «تقرير عن أعمال الجمعية من سنة ٣٥-١٩٤٩م». وهذا مجرد نموذج من شعره الذى قال عنه شاعر القطرين «خليل مطران»: (شعر الأسمر أشبه بقوس قزح فى جماله وتعدد ألوانه). وقال عنه الشاعر ورئيس تحرير جريدة الأهرام «أنطوان الجميل»: «شعر الأسمر معظمه من الحقيقة والخيال». وقالت عنه «الدكتورة عائشة عبد الرحمن- بنت الشاطىء»: «قل أن يظفر شاعر فى أيامنا هذه بمثل ما ظفر به الأستاذ محمد الأسمر، على الإعجاب بشعره».

تأثر الأسمر فى نشأته الأولى بشعراء «الربابة» وهم ينشدون قصة أبى زيد الهلالى سلامة بمقاهى دمياط. وقرض الشعر واختير عضوا فى لجنة النصوص

بالإذاعة، كما اختير عضوا فى لجنة الشعر بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية التى كانت برئاسة العقاد وكان من زملائه فى اللجنة صالح جودت ومحمود حسن إسماعيل وعامر بحيرى. وعندما صدرت «جريدة الزمان» التى أصدرها «إدجار جلاد» ورأس تحريرها «جلال الدين الحمامصى» تولى الإشراف على «ركن الأدب» فجعل منه نافذة للشعراء الشباب، وفى هذا الركن نشر كثيرون ممن لمعت أسماؤهم كشعراء فيما بعد. . وعقد «الركن» عدداً من المسابقات. . واختار الأسمر لهذه المسابقات لجنة تحكيم من الشاعرين «محمد مصطفى الماحى» والقائمقام عبد الحميد فهمى مرسى. ولم يكن «محمد الأسمر» من الذين يتعصبون للشعر القديم أو للشعر الحديث، ولكنه يشجع الشعر الجيد من هذا الشكل أو ذاك.

وكان على علاقة طيبة مع الجميع ولم يدخل فى معارك مع أحد. وجدنا تقريظا له ولشعره فى كتابات الشعراء: «محمود غنيم وعلى الجندى ومحمد عبد الغنى حسن وخليل مطران وأنطون الجميل وعزيز أباظة وعادل الغضبان».

وتميز الأسمر بالميل إلى الهدوء والاعتدال فى أكثر أحواله وكأنه النيل فى وقاره واتزانه وكالبحر فى هياجه وصخبه ومن أبرز صفات الأسمر الوفاء وحبه العظيم لأصدقائه. يحدثنا «د. عبد المنعم خفاجى» فى كتابه «مع الشعراء المعاصرين» نقلا عن صديقه «عبد الحميد فهمى مرسى» أن الأسمر نشأ فى رحاب دمياط ورأس البر حيث النيل الصامت المتزن، وحيث البحر الأبيض المتوسط الصاخب.

شاعر كبير وفقير:

أمير النثر «المنفلوطى» عرك الحياة ولم تعطه حظا من المال. والشاعر المطبوع «محمد الأسمر» غرق فى الديون وواجهته أزمة المساكن، فكتب قصيدة فيها الشكوى وروح الفكاهة:

من راح يبنى بيوت الشعر من ذهب   أعياه بيت من الآجر والخشب

وقال عن ديونه التى غرق فيها:

شاعر من يومه صفر اليد — غارق في دينه للأبد

كان من الطبيعى جدا أن يعانى «الأسمر» شعورا بالاضطهاد فى حياته لأنه لم ينل جزاء ما قدم من أعمال فى ميدان الأدب والشعر. وأمانة فإن «الشاعر محمد الأسمر» يعد من جيل الشعراء الكبار. لقد مر الشعر العربى بفترة من التراجع بعد «المتنبى» وجاء «محمود سامى البارودى» ليبعث الشعر العربى من جديد. وبعد البارودى دخل الشعر العربى فى درجة من السبات حتى جاء أحمد شوقى وحافظ إبراهيم وأحييا الشعر العربى وللإنصاف فقد شاركهما هذا الجهد فى هذا المضمار شعراء كبار لهم جهودهم المعترف بها أمثال: «محمد الأسمر وعزيز أباظة وعلى الجارم ومحمد مصطفى الماحى وعلى الجندى».

والشاعر الكبير «محمد الأسمر» بدأ حياته الشعرية عام ١٩١٧ وعمره سبعة عشر عامًا. ونظم فى جميع ألوان الشعر.. الإسلاميات، والاجتماعات، والإنسانيات، والوطنيات، والشكوى، والسخرية والنقد.

ومن الألوان المهمة التى نظم فيها «الديمقراطية» حيث قال:

إنما نحن من تراب وماء — ليس فيهم من أصله من ضياء
«آدم» والد الجميع فحمق — وضلال تقاضى الأبناء
أنجبتنا «حواء» أشبه بالدهر — ولونيه صبحه والمساء

ومع هذا كان الزمان يعانده. وهو لم يعاند الشعر والأدب وترك لنا ثلاثة دواوين رائعة:

١ - تغريدات الصباح «كتب المقدمة» أنطون الجميل رئيس تحرير جريدة الأهرام ونشرته دار المعارف عام١٩٤٦م.

٢ - ديوان الأسمر وكتب مقدمته صديقه الشاعر القائمقام عبد الحميد فهمى مرسى ونشرته دار إحياء الكتب العربية عام ١٩٥١.

٣ - بين الأعاصير نشرته دار الفكر العربى بعد وفاة الشاعر عام ١٩٥٧ ومن المؤلفات صدر له:

١ ـ مع المجتمع أصدرته دار إحياء الكتب العربية عام ١٩٥٥ .

٢ ـ على هامش الأدب ويقول صديقه ودارسه د. عبد المنعم خفاجي أن الشاعر ترك هذا العمل مخطوطًا . . ولعل الأسرة تبحث عنه وتنشره .

الأدب الشعبي والبوليسيات:

ومن الطريف أن الشاعر الكبير الذى نهل من التراث الشعرى العربى القديم واهتم بإبداع زملائه الشعراء الكبار فى زمانه، بل وحرص على مطالعة أشعار الشباب الذين كان يشجعهم عندما أشرف على «ركن الأدب» فى جريدة الزمان . . من الطريف أن نجد للشاعر الكبير اهتمامات أخرى . لقد استهوى الشاعر الكبير الأدب الشعبى مثل «قصة أبو زيد الهلالى سلامة» التى كان يسمعها على «الربابة» بمقاهى دمياط و«سيف بن ذى يزن» و«رأس الغول» و«على الزيبق المصرى» و«الأميرة ذات الهمة» و«ألف ليلة وليلة» .

ويقول من عرفوه أن القصص البوليسية قد استهوته أيضًا مثل «شرلوك هولمز» و«روايات أرسين لوبين» . . أمزجة!!

الأسـانيد:

١ ـ أحمد مصطفى حافظ : شعراء معاصرون .

٢ ـ أنور الجندى : الشعر العربى المعاصر .

٣ ـ جمعية التوفيق القبطية : تقرير أعوام (٣٥ ـ ١٩٤٩) .

٤ ـ د. محمد عبد المنعم خفاجي : خمسة من شعراء الوطنية .

٥ ـ مع الشعراء المعاصرين .

البكباشى محمد كامل



فى بيت «المقدس ملطى» فى شارع «رياض» بأسيوط وأنت ذاهب إلى منطقة «الحمراء» التى يوجد بها المعهد الدينى، فى هذا البيت أقامت أسرة مصرية وطنية عائلها شهيد الثورة الشعبية الكبرى عام ١٩١٩م «البكباشى محمد كامل» الذى انضم إلى الثورة والثوار يومى ٢٣ و٢٤ مارس عام ١٩١٩. وفتح غرفة «السلاحليك» ليستولى الثوار على جميع الأسلحة والبنادق ويوجهوا الرصاص إلى صدور قوات الاحتلال.

فى بيت عم ملطى فى الدور الأول «الحاجة أم يحيى»، وفى الدور الثانى «البكباشى محمد كامل» مأمور بندر أسيوط، وزوجته السيدة الفاضلة شقيقة «على فهمى كاظم» مأمور ضبط مديرية المنوفية. وأبناء «المأمور الشهيد» محمد محمد كامل، الذى أصبح فيما بعد ضابطًا بالقوات المسلحة المصرية، والذى بقى على قيد الحياة شاهدًا على وطنية والده العظيم. والابن الثانى هو «محمود» والبنت اسمها «عايدة» فى شهر يونيو عام ١٩١٩ الذى أعدم فيه «المأمور محمد كامل» توفيت «عايدة» وتوفى «محمود» . . يا للمأساة.

والقارىء إذا سافر إلى مدينة أسيوط وأعطى ظهره لمحطة أسيوط وشريط السكة الحديد، ونظر إلى الجانب الشرقى من المدينة وجد شارعين متوازيين . . إلى يساره شارع «الهلالى» نسبة إلى عائلة «الهلالية» التى تنتمى إلى قبيلة «بنى هلال»، ويطلق على كبيرها لقب «صار تجار» أى «رئيس تجار». وإلى اليمين شارع مواز لشارع

الهلالى هو شارع «رياض» يمتد من شريط السكة الحديد إلى الشرق حتى نهر النيل ومنطقة الحمراء . . وهناك بيت «عم ملطى» الذى أقام فيه المأمور الشهيد وأسرته الكريمة.

الكولونيل «مكنوتن» السفاح الإنجليزى فى أسيوط وضع الثوار فى أسيوط خطة لاغتياله فى مقر إقامته ولكن «الثعلب» هرب فى الوقت المناسب واختفى فى شارع النيل وعلى مقربة من المنزل الذى يقيم فيه «المأمور الوطنى - البكباشى محمد كامل» ومكنوتن هذا كان اسمه على ألسنة الآباء والأجداد. كان سجن أسيوط خارج المدينة قد امتلأ بمئات المواطنين الذين شاركوا فى الثورة. ووضع «مكنوتن» خدعة انطلت على الثائر الشريف «المأمور محمد كامل» ودون أن يظهر مكنوتن فى الصورة أرسلوا إليه يطلبون منه الحضور إلى سجن أسيوط لعرض عدد من الثوار عليه. وذهب الرجل رغم تحذير السيدة زوجته وعدم اطمئنانها. وهناك فى سجن أسيوط احتجزوه وأقاموا محكمة عسكرية عاجلة حكمت عليه بالإعدام وتم تنفيذ الحكم فى ١٠ يونيو عام ١٩١٩م. وقابل البطل الحكم وتنفيذ الإعدام بشجاعة نادرة.

مدافن خشبة:

وتقدمت أسرته لسلطات الاحتلال تطلب أن يدفن جثمانه بمدافن أسرته بالقاهرة. ولكن سلطات الاحتلال إمعانًا فى إرهاق أسرته رفضت التصريح - وقت ذاك - بدفنه فى القاهرة. وتقدمت «أسرة خشبة» المعروفة فى مديرية أسيوط توافق على أن يدفن جثمان «الشهيد محمد كامل» فى مدافنها. وأسرة خشبة عربية الأصل وشريفة النسب، أصلها يمتد إلى «الحسين بن على» - رضى الله عنه - والأسرة الحالية وبيتها غرب محطة أسيوط، وكنا نرى ونحن ذهابًا وجيئة أمام البيت الكبير عددًا من العاملين السود، ويقال إنهم سلالة العبيد الذين استقدمهم الجدود من السودان. وأسرة خشبة الحالية من نسل السيد أحمد نصر الدين خشبة مؤسس الأسرة منذ ستمائة عام بأسيوط. والمعروف عن هذه الأسرة أنها كانت تسيطر على تجارة

السودان. وكانت تقوم بتصدير البضائع السودانية إلى القاهرة وإلى الخارج وخاصة لندن، وتتعامل فى ريش النعام والعاج والصمغ، وظلت أسرة خشبة قريبة من الأسرة المالكة، وقد أنعم على كثير من أفرادها بالرتب والنياشين. الآباء يحدثوننا عن أحمد باشا خشبة وسيد باشا خشبة وتوفيق بك خشبة. أما جيلنا فقد عاصر «محمد توفيق خشبة» الذى يجمع عليه المسلمون والأقباط فى أسيوط نائبًا عنهم فى البرلمان. وابن جيلنا «صلاح خشبة» الذى شاهدناه لاعبًا مشهوراً للكرة فى فريق مدرسة أسيوط الثانوية.

المهم أن هذه الأسرة العريقة استضافت فى مقابرها جثمان «البكباشى محمد كامل» بعد إعدامه وظل الجثمان بأسيوط على مدى ثمانى سنوات كاملة. لم تهدأ الأسرة فى مواصلة الطلب بنقله من أسيوط إلى مدافن الأسرة بالقاهرة. وفى شهر مايو عام ١٩٢٧م ذو القعدة عام ١٣٤٥هـ وافقت وزارة الداخلية على نقل جثمان «محمد كامل» من مقابر أسرة خشبة بأسيوط إلى مقابر أسرة «كامل» بالقاهرة. وفيما يلى نص خطاب الموافقة:

وزارة الداخلية

إدارة عموم الأمن العام

بشأن نقل جثة المرحوم محمد كامل أفندى المدفون بأسيوط إلى مدافن عائلته بمصر.

حضرة صاحب العزة مدير المنوفية ردًا على كتاب المديرية المؤرخ فى ٢٢ مايو الحاضر نمرة ٣ سرى، نفيد أنه لا يوجد لدينا مانع من التصريح لحضرة على فهمى كاظم أفندى مأمور ضبط المديرية بنقل جثة صهره المرحوم محمد أفندى كامل الذى كان مأموراً لبندر أسيوط وأعدم فى عام ١٩١٩ بسبب حوادث الاضطرابات، ودفن بأسيوط إلى مدافن العائلة بمصر.

مايو عام ١٩٢٧م . . ذو القعدة عام ١٣٤٥هـ.

ليس وحده:

في يوم ١٠ يونيو عام ١٩١٩م سيق البكباشي محمد كامل إلى ساحة الإعدام ودخل أحد المعسكرات الإنجليزية في أسيوط بعد أن أحضروه من السجن ونفذوا فيه حكم الإعدام. ولم يكن «محمد كامل» هو وحده الذى أعدم بسبب اشتراكه فى الثورة ضد الاحتلال. ففى ١٧ مايو عام ١٩١٩ عقدت محكمة عسكرية إنجليزية وأصدرت محكمة أسيوط العسكرية أحكام الإعدام على «اثنين وتسعين». وفى ٢١ مايو عام ١٩١٩ تولى «محمد سعيد باشا» رئاسة الوزارة وفزع لهذا الرقم المهول الذى سيتم فيه تنفيذ أحكام الإعدام. وتدخل لدى القائد العام البريطانى وتمت تصفية الرقم إلى «أربعة وثلاثين» تم إعدامهم وها هى أسماؤهم للتاريخ:

عبد العليم متولى - عبد المجيد متولى - محمد مرسى شحاتة - محمد مرسى محجوب - عبد الحليم عبد الباقى - فرغلى محمد مبارك - عبد اللطيف على عبد الله - تغيان حسام سليمان - عبد الجابر حمدان موسى - عبد الباقى على حامد - عبد الله محروس - عبد الملك فرحات - راغب سويفى على - أبو المجد محمد عبد الله - عبدالملاك سليم إبراهيم - راغب هلال - عبد السلام أبو العلا - خليل أبو زيد على - عبد الدايم عبد الرحيم - محمد على مكاوى - ابراهيم عيد - عبد الرحمن حسن - عبدالعزيز شرابى - أحمد موسى - عباس عبد العال البحيرى - عباس الفلاح - أحمد عثمان - أحمد إبراهيم - عبد الجابر أبو العلا - إسماعيل الرياح - قاسم محمد فايد - محمد أبو العلا - سيف أحمد العرابى - هلال جندى.

وغير هؤلاء كان هناك «سبعة عشر» ثائرًا آخرين صدرت ضدهم أحكام إعدام بدلت إلى الأشغال الشاقة المؤبدة وهم:

رزق مراد عبد الله «٧٠ عاما» - حافظ سعد إبراهيم - عبد الراضى حمدان موسى - عبد العظيم عوض الله حسن - أحمد مفتاح أحمد - محمود مفتاح أحمد - محمد هلال إسماعيل - محمد أبو زيد على - عبد الملك أبو زيد على - محمد حسن محمود - محمد على محمود - عمر أبو زيد فايد - عبد الوهاب محمد فايد - على جنيدى محمد - عبد المنعم عبد الجليل - أسعد مشرقى - محمد جاد.

الحكاية من البداية:

قامت سلطات الاحتلال في القاهرة في ٨ مارس عام ١٩١٩ باعتقال زعيم الأمة «سعد زغلول باشا» ومعه «إسماعيل صدقي» و«محمد محمود» و«حمد الباسل»، ووصلت الأخبار إلى أسيوط. وبدأ التحرك في يوم ١٠ مارس عام ١٩١٩م على شكل تلغرافات للحكومة ومسيرات سلمية. أرسل أهالي أسيوط تلغرافًا إلى السلطان جاء فيه: «يتشرف في الموقعون على هذا أعضاء الهيئات النيابية بأسيوط وتجارها وأطباؤها ومحاموها وأهلها بأن يرفعوا إلى عظمتكم أسفهم الشديد على ما قامت به السلطات العسكرية من القبض على حضرة صاحب المعالي «سعد زغلول باشا» وبعض أعضاء الوفد المصري دون أن يخرجوا عن حدود القانون، بل اقتصروا على المطالبة بحق الأمة المصرية في التمتع بحريتها السياسية واستقلالها التام طبقًا لمبادىء الصلح العام التي أعلنتها الدول».

وهكذا نرى أن البداية كانت هادئة وفي حدود التقاليد المرعية، وقد ساندت حركة التلغرافات مظاهرات سلمية أيضًا - خرج طلاب المعهد الديني «في الحمراء أقصى الشرق على النيل» وطلاب المدرسة الثانوية ومدرسة الأمريكان خارج المدينة قرب خزان أسيوط» ثم مدارس إخوان ويصا «أقصى الغرب أمام الكنيسة المرقصية» وهذا التجمع الهائل لابد له، أن يخترق شوارع المدينة الرئيسة. وكانت المظاهرات سلمية تهتف بحياة زعيم الأمة «سعد زغلول» وتهتف بحياة الثورة.

وصنعت سلطات الاحتلال التوتر بأيديها.. إذ تصدى جنود الاحتلال المتمركزون في أسيوط للمظاهرات وأطلقت الرصاص على المتظاهرين، وأقدمت على اعتقال بعض القادة المحليين في أسيوط.. «أحمد علوان المحامي ومحمود بسيوني المحامي ونقيب المحامين فيما بعد، و«محمد محفوظ باشا من أعيان الحواتكة والذي أساءوا إليه في السجن وقاموا بتعذيبه وهو شخصية مرموقة في أسيوط ومدنها.

الثورة تنظم نفسها:

أيقن الثوار أنه لا فائدة من مهادنة سلطات الاحتلال.. وأن الصدام قادم

لا محالة ولابد من الاستعداد الجدى: شكل الثوار من بينهم لجنة لتنظيم شئون الحماية والدفاع عن المدينة . . وتوالت المظاهرات فى المدينة تردد هتاف الثورة المجيد «الاستقلال التام أو الموت الزؤام»، وتصدت قوات الاحتلال للمتظاهرين فى وحشية . . وسقط مئات الجرحى والشهداء. سالت الدماء فى الشوارع كأفواه القرب مما دفع الثوار إلى مزيد من العناد والصلابة . ووضع الثوار خطة بالهجوم على معسكرات الإنجليز فى شرق المدينة . وأن تقوم قواتهم المرابطة فى غرب المدينة عند سفح الجبل الغربى بالزحف على «البندر» مقر البوليس والمأمور. وانطلقت الجموع نحو معسكرات الإنجليز فى شرق المدينة فصادفت أكوامًا من التبن كدستها سلطات الاحتلال لغذاء الخيول فأشعلوا فيها النيران وتصاعدت ألعام اللهب إلى عنان السماء . وأدرك الإنجليز مدى صلابة الثوار وعنادهم وأسرعوا بجمع عائلاتهم ووضعوها فى «المدرسة الثانوية»، وهى خارج المدينة، وفى الطريق إلى خزان أسيوط . . وأصبحت فيما بعد مقرّا لجامعة أسيوط قبل إنشاء المبانى الجديدة للجامعة . وتجمعت عائلات الإنجليز فى المدرسة الثانوية تحيط بهم قوات كثيرة لحراستهم . وتحرك الثوار الرابضون فى الجبل الغربى وزحفوا على «البندر» مقر رجال البوليس والخفر . وكان الظلام قد هبط على المدينة تضيئه النيران المشتعلة فى مخازن التبن . واقتحم الثوار مركز البوليس فى غرب البلد وتقدم «المأمور الوطنى» وأمر عساكره وخفراءه بفتح غرفة السلاحليك للثوار وتسليمهم الأسلحة والذخيرة والانضمام إليهم وهتف الثوار للمأمور البطل وحملوه على أكتافهم وساروا به إلى وسط المدينة حيث الجماهير الغاضبة على سلطات الاحتلال . كان اليوم ٢٣ مارس واختفى «مكنوتن» وأفلت الزمام من أيدى قوات الاحتلال فما كان منهم فى اليوم التالى ٢٤ مارس إلا أن يتدخل سلاح الجو الملكى البريطانى، وأرسل طائرتين حربيتين لدك المدينة، وخرج «مكنوتن» من المخبأ وأدار معركة الانتقام من الثوار وشعب أسيوط .

الثورة تزداد اشتعالا:

وأعلنت السلطات البريطانية أنها ستقوم بتفتيش جميع البيوت ليلاً . وطلبت من

الرجال مغادرة البيوت وترك النساء والأطفال. إلا أن الأسايطة الصعايدة رفضوا ترك نسائهم حفاظًا على أعراضهم. وقامت الأسر جميعها بحركة هجرة كبيرة إلى المقابر والكهوف والأديرة والحقول. وتمكن الثوار من إعادة تنظيم صفوفهم وخاصة أن مأمور البندر الجسور انضم إلى صفوفهم وأخذ ينسق معهم كواحد منهم.

وعرف المأمور أن الإنجليز استخدموا باخرة وحملوها بالجنود لترسو على شاطىء النيل شرق المدينة وتضرب الثوار من الخلف. وباغت الثوار الباخرة فور وصولها إلى الشاطىء وقتلوا «الكولونيل هيزل» قائد الباخرة ومفتش الداخلية وبالطبع سقط عدد من الثوار.

وعلم أهل أسيوط بقدوم قطار من الأقصر يقل بعض كبار الضباط الإنجليز فى طريقهم إلى القاهرة. وأرسلت مديرية أمن أسيوط إشارة إلى جميع مراكز الشرطة لتشديد الحراسة على المحطات. ووصل الخبر بطبيعة الحال إلى الثوار. وعندما وصل القطار اندفع الثوار وهاجموا الضباط الإنجليز وقتلوا ضابطين وخمسة جنود وشدد الإنجليز الحصار على المدينة استعداداً للانتقام منها وأخذوا فى حفر الخنادق وإقامة المدافع الثقيلة. وأرسل القائد البريطانى رسالة إلى البكباشى محمد كامل يطلب إليه فيها التسليم. ورد عليه المأمور. . لن تدخلوا المدينة إلا فوق أشلائنا. وبدأت القذائف تمطر المدينة. بوابل من النيران. ولكن المأمور لم يستسلم والثوار لم يستسلموا.

المحاكمة المهزلة:

وكان أول ما فعلته القوات البريطانية والثعلب «مكنوتن» أن استدرجوا المأمور إلى سجن أسيوط وقدموه إلى محكمة عسكرية واتهموه بالتفريط فى «السلاح الميرى» وتحريض الأهالى على الثورة.

وحاول الدفاع عن نفسه بإنكار التهمة وبرر مسألة استيلاء الثوار على الأسلحة والذخيرة بأن مدير المديرية «محمد علام باشا» نصحه بعدم مقاومة الثوار. ولكن المدير كان رجلاً ضعيفًا أنكر أقوال المأمور أثناء المحاكمة! وجاء الإنجليز بماسح

أحـذية شـهـد بأنه رأى المأمـور وهـو يسلم سـلاح العـسـاكـر إلى الثـوار المصـريين ويشجعهم على الثورة. وبناء على شهـادة «بوهيجى» دفع المأمور الوطنى حياته ثمنًا لوطنيته. وبعد صـدور الحكم بالإعدام قـام أهالى أسيوط بمطالبة المسئولين بتخفيف حكم الإعدام وأرسلوا الـوفـود إلى رئيس الـوزراء «محـمـد سعيـد باشا»، ولكن لم تفلح هذه الوسـاطات. وتم تنفيـذ حكم الإعـدام فى ضـابط الشـرطة الوطنى «مأمور أسيوط» البكباشى محمد كامل يوم ١٠ يونيو عام ١٩١٩ وعمره ٣٧ عـامًا «ولد عام ١٨٨٢م».

الأسـانيد:

١ ـ السيد ذكرى «جريدة الوفد ٢٥/ ٥/ ١٩٨٩.

٢ ـ فكرى أباظة.. الضاحك الباكى.

٣ ـ د. محمد رجائى الطحلاوى ـ د. يحيى عبد الحميد إبراهيم.. من أعلام أسيوط.

٤ ـ د. نبيل عبد الحميد.. شهداء ثورة ١٩١٩.

مصطفى لطفى المنفلوطى



مولانا القارىء . . أربعة من المثقفين والكتاب والأدباء والصحفيين وضعوا أقلامهم فى خدمة الوطن والدفاع عن (الوفد) والإخلاص للزعيم العظيم «سعد زغلول» زعيم المصريين المحبوب ومعقد آمالهم. اختلفت جهودهم تقدمًا وتراجعًا حسبما أتيح لكل واحد من رؤية. وهم بترتيب وقت الذهاب حسبما قدرها الله سبحانه وتعالى: مصطفى لطفى المنفلوطى - أغسطس عام ١٩٢٤م وعبد القادر حمزة يونية عام ١٩٤١م وأحمد حافظ عوض ديسمبر عام ١٩٥٠ وآخرهم عباس محمود العقاد مارس عام ١٩٦٤. رحمهم الله وأجزل لهم الثواب بقدر ما أعطوا لبلدهم. والآن إلى من بكر فيهم بالرحيل:

فى أغسطس من عام ١٩٢٤م أطلق أحد الشبان الموتورين رصاصة على سعد العظيم. وسعد هو من هو وتولى المصريين الهلع والجزع وهرعوا إلى سعد يحيطونه بالولاء والحب الخالص. وفى تلك اللحظات شاءت إرادة الله أن يموت «مصطفى لطفى المنفلوطى» ونسى الناس كاتبهم العظيم وقدر له أن يمضى إلى مثواه الأخير وحيدًا أو خلفه عدد قليل من الناس. وكان أمير الشعراء «أحمد شوقى» من المحبين للمنفلوطى والمقدرين له جهوده فى الأدب فخاطب المنفلوطى وهو محمول إلى مثواه الأخير قائلاً:

اختـرت يوم الهــول يــوم وداع	ونعاك فى عصف الرياح الناعى
من مــات فى فـزع القيــامة لم	يجد قدمًا تشيع أو حفاوة ساعى

رحل «المنفلوطى» إلى رحمة الله وبدأ الناس يستعيدون الغمز واللمز فيما قدم المنفلوطى من أعمال أدبية. عادوا إلى سخرية المازنى ونقده المر للمنفلوطى فى كتاب (الديوان) الذى أصدره المازنى والعقاد (وسوف نفرد له هنا فقرة مستقلة) وعادوا إلى الهمس بأن الأعمال التى صدرت عن أصول أجنبية لم تكن ترجمة المنفلوطى لأنه لا يجيد الفرنسية التى صدرت بها هذه الأعمال من قبل. والحكاية من أولها إلى آخرها نسجلها هنا لإنصاف المنفلوطى فيما زعمه الناس عنه..
صدرت للمنفلوطى أربعة أعمال على وجه التحديد عن أصول فرنسية (سيرانو دى برجراك) لأدمون روستان وأعطاها المنفلوطى عنوان (الشاعر) ورواية ماجدولين لألفونس كار، وأعاد صياغتها بأسلوب بديع وأصدرها بعنوان (تحت ظلال الزيزفون)، ورواية أخرى (بول وفرجينى) لبرنارد سان بيير وأعطاها عنوان (الفضيلة) و(فى سبيل التاج) لفرانسوا توبيه وقبل المفاجأة التى تبرئ «المنفلوطى» من ساحة الاتهام نقرر بعد بحث منزه عن الغرض أن المنفلوطى لم يزعم أبدًا أنه ترجم هذه الأعمال عن الفرنسية، بل لم يزعم أبدًا أنه يعرف الفرنسية.. بقيت المفاجأة:

المفاجأة.. براءة:

مع بداية الستينيات قدر لى أن يكون لى موقع فى النشر بالدار القومية للطباعة والنشر. وتقرر أن نعيد طباعة بعض أعمال المنفلوطى المعربة عن الفرنسية، وقد أعدنا طباعة بعضها فعلا فى سلسلة (من الشرق والغرب). وقد سجل المنفلوطى فى الطبعة الأولى لرواية (الشاعر) التى صدرت فى أول مايو عام ١٩٢١م: ما نصه..

أطلعنى حضرة الصديق الكريم الدكتور محمد عبد السلام الجندى، على هذه الرواية - يقصد رواية الشاعر - التى عربها عن اللغة الفرنسية تعريبًا حرفيًا، حافظ فيه على الأصل محافظة دقيقة، وطلب إلى أن أهذب عباراتها ليقدمها إلى فرق تمثيلية تقوم بتمثيلها. واستطعت فى أثناء ذلك أن أقرأ الرواية قراءة دقيقة وأن أستشف أغراضها ومغازيها، التى أراد المؤلف أن يضمنها إياها، فأعجبنى منها الشىء

الكثير، وأفضل ما أعجبنى أنها صورت الفضائل الإنسانية تصويراً بديعًا. فرأيت أن أحولها من القالب التمثيلى إلى القالب القصصى، ليستطيع القارىء أن يراها على صفحات القرطاس، كما يستطيع المشاهد أن يراها على مسرح التمثيل. وقد حافظت على الأصل بتمامه، وقيدت نفسى تقييداً شديداً فلم أتجاوز إلا فى حذف بعض جمل لا أهمية لها، بدون إخلال بالأصل أو خروج عن دائرته. فمن قرأ التعريب قرأ الأصل، إلا ما كان من الفرق بين بلاغة القلمين، ومقدرة الكاتبين، وما لابد من عروضه على كل منقول من لغة إلى أخرى.

المنفلوطى لم يزعم أنه ترجم هذه الأعمال من الفرنسية، ولم يزعم أنه يجيد أية لغة أجنبية، وإنما قدم الحقيقة للقارىء فى أول طبعة، وأكد أن الذى قام بالترجمة الحرفية هو الدكتور «محمد عبد السلام الجندى» وأنه - أى المنفلوطى - دوره كان مقصوراً على إعادة الصياغة بأسلوبه البديع المتميز.

ويبقى أن نعرف من غير «الدكتور محمد عبد السلام الجندى» أنه كان يقدم الترجمة الحرفية إلى المنفلوطى، ثم يقوم المنفلوطى بإعادة صياغتها بأسلوبه؟ «فتحى رضوان» يرجح أن يكون صديق آخر للمنفلوطى هو «حسن الشريف» الكاتب الذى كان يتقن اللغتين الفرنسية والعربية، والدكتور «على شلش» يخمن أن يكون «الدكتور أحمد ضيف» الذى كتب روايات باللغة الفرنبسية، وربما قام بالترجمة الحرفية وقدمها للمنفلوطى.

المهم أن المنفلوطى لم يخدع القراء وأنه قدم صياغة عربية خالصة أمتعت القراء وحرصوا على اقتنائها، وتعلموا منها كيف تكون العربية الفصحى السلسة، وكيف يكون البناء الفنى للعمل الروائى.

العبرات والنظرات:

تكلمنا عن تجربة المنفلوطى فى (التعريب) عن (التأليف). بدأ يكتب فى (المؤيد) تحت عنوان (نظرات)، وارتفعت شمس المنفلوطى فى سماء النثر البديع. وبعد عامين أصدر (النظرات) فى ٣ أجزاء وهى جماع ما نشره فى (المؤيد) منذ عام

١٩٠٨م. وصدرت (النظرات) عن (دار المعارف) التى أسسها «نجيب مترى»، وكانت مقالات المنفلوطى قد استوقفت أنظار القراء والكتاب والناشرين.

ومنذ ذلك الحين لفت «المنفلوطى» نظر سعد إليه، وحدث أن دارت مناقشة بين «سعد زغلول» و«عباس العقاد» الذى كان قد أجرى حوارا صحفيًا مع سعد عام ١٩٠٨م، وكان للعقاد ملاحظات على المنفلوطى ولكنها لم تؤثر فى تقدير سعد للمنفلوطى. وفى مقتبل الأيام كان ينظر إلى المنفلوطى على أنه سيد مدرسة النثر الرفيع، كما كان ينظر إلى شوقى على أنه أمير الشعراء. وأصبح المنفلوطى رائدًا لتحرير النثر العربى من قيود السجع والجناس والزخارف اللفظية.

أما (العبرات) فهى مجموعات القصص القصيرة المليئة بالعبر والمفاجآت. وقدم المنفلوطى كتاب (العبرات) بقوله: (الأشقياء فى الدنيا كثيرون وليس فى استطاعة بائس مثلى أن يمحو شيئًا من بؤسهم وشقائهم فلا أقل من أن أسكب بين أيديهم هذه العبرات علهم يجدون فى بكائى عليهم تعزية وسلوى. وقال أيضًا: (لا أدرى ما الذى كان يعجبنى فى مطالعتى من شعر الهموم والأحزان، ومواقف البؤس والشقاء وقصص المحزونين والمنكوبين).

وقال «فتحى رضوان»: (أصبح اسم المنفلوطى على كل لسان، وأصبح القراء يتناولون الجريدة ويبدءون وعلى بالنظرات ويعودون إليها ثانية وثالثة، ومنهم من كان يحفظها، ومنهم من كان يحرص على الإبقاء على النسخة ليعود إليها).

وقال «أحمد حافظ عوض»: (لا أظن أن الأمة المصرية لهجت ببيان وجمال أسلوبه، ودقة مسلكه فى هذا العصر الأخير شغفها برسائل المنفلوطى، ولا أظن أن السبب فى ذلك إلا أنه فاجأهم من ذلك الأسلوب العربى الفصيح بما لا عهد لهم بمثله إلا فى رسائل بلغاء الكتابة الأدبية).

وقال «أحمد حسن الزيات»: (كان المنفلوطى قطعة موسيقية فى ظاهره وباطنه فهو مؤتلف الخلق متلائم الذوق، متناسق الفكر، ومنسق الأسلوب) هذا ما قاله أحمد حسن الزيات وأحمد حافظ عوض وفتحى رضوان.. ولكن سوء حظ المنفلوطى أن إبراهيم عبد القادر المازنى كان له رأى آخر، نرى أن نلخصه هنا ونشرح ملابساته.

الهـراء القـديم:

كـان «إبراهيم عبـد القـادر المازنى» قـد هاجم «حـافظ إبراهيم» وشعـره ثم عـاد وأبدى الندم على ما قاله فى حق «حافظ» وشعره. وتمنى على الله أن ينسى الناس ما كتبه فى حق حافظ. وعندما سئل المازنى عما قاله فى حافظ قال لمحدثه (دعك من هذا الهراء القديم) ويعرف القراء بطبيعة الحال أن العقاد والمازنى قد أصدرا الكتاب المثير المعروف باسم (البيان) تفرغ العقاد لافتراس «أحمد شوقى» وشعره وسلط عليه قلمه الحاد اللاذع، وتفرغ المازنى لافتراس «المنفلوطى» ونثره وسلط عليه لسانه الساخر. وهكذا صدر (البيان) ضد أمير الشعراء وأمير النثر. ولم يترك المازنى - تعسفًا - شاردة أو واردة إلا أحصاها على أدب المنفلوطى. أحصى له عدد (المفعول المطلق) الذى ورد فى مقالاته. وأخذ عليه مدح المنفلوطى لنفسه فى نظراته وعبراته. وأخذ عليه تخاذل أبطال قصص المنفلوطى ووفاتهم فى شرخ الشباب بل إنه عاب على المنفلوطى أنه أبدى أحزانه لموت أبطاله! ركز المازنى هجومه على قصة (اليتيم) التى أوردها المنفلوطى فى (العبرات) وذكر أن بها ٥٧٢ مفعولا مطلقًا لا لزوم لها. ولاحظ المازنى على المنفلوطى كثرة استخدامه للنعوت والأحوال. وأخذ عليه دموعه من أجل أشخاص قصصه البؤساء. وقال «المازنى» هذا فى حين أن المنفلوطى حين ماتت زوجته كان متماسكًا جلس إلى الناس يحدثهم وكأن المرزوء سواه. لم يكن هذا (نقدًا) لأدب المنفلوطى ولكنه كان (تربصًا) ومحاولة اغتيال أدبية مع سبق الإصرار. ومن حسن حظ «المنفلوطى» كانت رصاصات «المازنى» فشنك لم تؤثر فى تقدير الناس لأعمال «المنفلوطى»، ويكفى أن نذكر الآن ونحن فى عام ١٩٩٨م أن الطبعة الأولى من (النظرات) التى صدرت عن (دار المعارف) عام ١٩١٠م كانت عشرة آلاف نسخة. أكرر (عشرة آلاف) وإخراج متميز ونفدت بعد أسابيع قليلة. كان المنفلوطى بلغة الناشرين فى أيامنا هذه (كاتب مقروء) وحسبه هذا.

كاتـب البـؤس:

كتابات المنفلوطى تطل منها أحزان المنفلوطى نفسه، وتفيض سطوره بالدعوة

للتراحم بين الناس حتى لا يكون بينهم جائع أو محروم. وأحبه القراء وأقبلوا على ما يكتب. قال «أحمد حافظ عوض» الذى أصدر كما هو معروف جريدة (كوكب الشرق) اليومية والتى كتب فيها «طه حسين» وكان هواها مع (الوفد) وحبها لسعد زغلول. قال صاحب الكوكب:

ولد المنفلوطى فى مدينة منفلوط عام ١٨٧٦م التى توافق عام ١٢٩٣ هجرية فيكون قد أوفى الرابعة والثلاثين عام ١٩١٠ بعد أن أضاء اسمه الآفاق. وكانت منفلوط فى تلك الأيام موطنا لعدد من علماء الشريعة وأهل الأدب. ووالده محمد المنفلوطى كان قاضى الشرع فى المدينة وعين أعيانها).

هذه هى السطور التى تفضل بها الكاتب الكبير «أحمد حافظ عوض» للتعريف الموجز بالمنفلوطى. والمعروف أن مدينة منفلوط تقع على الضفة الغربية لنهر النيل وهى من أعمال محافظة أسيوط. وانتهى «مصطفى» من حفظ القرآن الكريم وهو فى الحادية عشرة من عمره فى كتاب «الشيخ رضوان» وأرسله والده إلى الأزهر ولكن عقله انصرف إلى الأدب ودواوين الشعر. واتصل بالشيخ «محمد عبده» وتتلمذ على أحاديثه وندواته حتى توفى الشيخ عام ١٩٠٥م واستقام لسان «المنفلوطى» وحسن عبارته وقرأ عشرات دواوين الشعر. وبدأ شاعراً.

هموم الوطن:

وإذا كان المنفلوطى فى شعره ونثره قد انصرف إلى هموم المحزونين والمطحونين، فقد انصرف أيضًا إلى هموم الوطن. وكما كان مرتبطًا بالشيخ محمد عبده ارتبط أيضًا بالسيد «جمال الدين الأفغانى» وانفعل بكل ما يجرى للراغبين فى صالح الوطن. وكان أن نظم قصيدة عام ١٨٩٧ بعنوان (تحرير مصر) ووقعها باسم (عدو الاحتلال). وندد فى القصيدة بالاحتلال، وفى القصيدة تعريض بالخديو عباس حلمى الثانى. وعرف الناس أن ناظم القصيدة هو «مصطفى لطفى المنفلوطى» وكتب قصيدة ثانية صريحة الهجوم على الخديو. كتب القصيدة وطبعت القصيدة فى ٤ نوفمبر عام ١٨٩٧ على نفقة «أحمد فؤاد» صاحب (جريدة الصاعقة) ونشرت القصيدة بعنوان (الصاعقة) وكان من أبياتها:

قدوم ولكن لا أقول سعيد — وملك وإن طال المدى سيبيد

بعدت وثغر الناس بالبشر باسم — وعدت وحزن فى الفؤاد شديد

وترجم عملاء الاحتلال القصيدة إلى اللغة الإنجليزية وصدرت التعليمات باتخاذ الإجراءات. واتجهت أنظار سلطات الاحتلال إلى «السيد توفيق البكرى» على أنه وراء نظم القصيدة وطباعتها ونشرها. ولم يكن هذا صحيحًا، وتم التحقيق مع السيد البكرى وأحمد فؤاد ومصطفى لطفى المنفلوطى. ولم تكن هناك صلة للسيد البكرى بالقصيدة أو بطباعتها ولا بنشرها، وفى ٤ ديسمبر عام ١٨٩٧ صدر الحكم بالحبس عشرين شهرا على «أحمد فؤاد» وغرامة قدرها ثلاثون جنيها. والحبس اثنا عشر شهراً وغرامة قدرها عشرون جنيها ضد «الشاعر مصطفى لطفى المنفلوطى»، وقضى استئناف الحكم بتعديل العقوبة إلى سجن المنفلوطى وأحمد فؤاد ستة أشهر وتأييد الحكم الابتدائى بالغرامة وبراءة السيد توفيق البكرى.

وبعد أن خرج المنفلوطى من السجن تعقبوه وضيقوا عليه. ونجحت مساعى الشيخ محمد عبده وصدر العفو عن المنفلوطى وإلغاء الحكم. وكان المنفلوطى قد عاد إلى بلده (منفلوط). وأصابه الحزن بعد وفاة الشيخ محمد عبده ١٩٠٥م، ولكنه عاد إلى القاهرة واتصل بجريدة (المؤيد). وكان قد اتصل بسعد زغلول عن طريق الشيخ محمد عبده وعندما أصبح «سعد» ناظراً للمعارف ألحقه معه محرراً عربيًا. ثم اصطحبه معه إلى نظارة الحقانية. وعينه بعد ذلك فى سكرتارية مجلس النواب. وتوفاه الله فى أغسطس من عام ١٩٢٤م يوم الاعتداء على «سعد زغلول» وقال أمير الشعراء أحمد شوقى.. وتفضل بقراءة الدراسة من جديد، ورحم الله أمير الشعر أحمد شوقى وأمير النثر مصطفى لطفى المنفلوطى.

الأسانيد:

أحمد عبد الهادى (المنفلوطى .. حياته ومؤلفاته).

أحمد حسن الزيات (تاريخ الأدب العربى).

فتحى رضوان (دور العمائم فى تاريخ مصر الحديث).

د. نعمات أحمد فؤاد (إبراهيم عبد القادر المازنى).

محمـــد بيـــومى



* أول مصرى أنشأ «جريدة آمون» السينمائية ١٩٢٣م.
* الجريدة صورت عودة زعيم الأمة سعد زغلول إلى مصر.
* أول مصرى أنشأ معملا للسينما ١٩٢٣م.
* أول مصرى أنشأ ستوديو سينمائيًا ١٩٢٤م.
* أول مصرى أخرج فيلمًا تسجيليًا ١٩٢٥م.
* أول مصرى أنشأ معهدًا للسينما ١٩٤٢م.
* تطوع فى حرب السويس عام ١٩٥٦م وقبض عليه لحيازة السلاح.
* انضم لجماعة أنصار السلام بالإسكندرية حرصنا على تقديمه بهذه النقاط السابقة لأنه ظل غير معروف لسنوات كثيرة وبدرجة كافية عند الكثيرين، وعندما بدأت الأضواء تسلط عليه فى السنوات الأخيرة كانت أغلبها خافتة ومتناثرة هنا وهناك ومغايرة لبعضها، ومن حق الناقد السينمائى «سمير فريد» أن نشير هنا إلى الجهد الذى بذل فى المقارنة بين المعطيات المختلفة ومحاولة تقديم صورة أكثر وضوحًا.

ولد محمد بيومى الفطاطرى وهذا هو اسمه الثلاثى والذى اشتهر فى تاريخ السينما المصرية باسم «محمد بيومى» فى مدينة طنطا، وحصل على الشهادة

الابتدائية عام ١٩٠٧م، والتحق بالمدرسة الحربية عام ١٩١٢م، وتخرج فيها برتبة ملازم ثان عام ١٩١٥م ثم أحيل إلى التقاعد عام ١٩١٩م والروايات مختلفة حول سبب إحالته للتقاعد البعض يقول إنه قدم استقالته ليتفرغ للفن والكثيرون يرجحون إنه أحيل للتقاعد بسبب نشاطه فى ثورة ١٩١٩م. ويستدلون على ذلك بميوله الوطنية والسياسية التى ظهرت فيما بعد بمشاركته متطوعًا فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨م. وتطوعه بعد ذلك فى الدفاع عن الوطن أثناء العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦م وبقى سلاحه معه إلى أن قبض عليه عام ١٩٥٩م بتهمة حيازة سلاح بدون ترخيص. كما أنه كان فى الخمسينيات ضمن جماعة أنصار السلام بالإسكندرية والتى أصدرت مجلة «الكاتب». وأقوى الأدلة على أنه أحيل إلى التقاعد بسبب اشتراكه فى ثورة ١٩١٩ أنه عندما أصدر أول جريدة سينمائية باسم «جريدة آمون» كان الفيلم الأول منها يصور عودة زعيم الأمة سعد زغلول من المنفى فى خريف عام ١٩٢٣م، وتختلف المصادر حول عرض هذا الفيلم فى شهر سبتمبر أم فى شهر نوفمبر؟ والمحاولة الأخرى من «محمد بيومى» فى «جريدة آمون» كانت لتصوير رجل سعد المخلص «عبد الرحمن فهمى» وهو خارج من السجن بعد أن أفرج عنه الزعيم سعد زغلول رئيس الوزارة الشعبية فى بداية عام ١٩٢٤م.

خارج الحدود:

المهم أن «محمد بيومى» سافر إلى ألمانيا مع بداية عام ١٩٢٠م تاركًا وراءه فى مصر كتابًا من تأليفه عن «الجيش المصرى فى عهد الاحتلال البريطانى» وليس فى جيبه سوى الشهادة الابتدائية التى حصل عليها عام ١٩١١م. وأوراق تفيد أنه التحق بالمدرسة الحربية عام ١٩١٢م، وشهادة بأنه تخرج فى هذه المدرسة الحربية برتبة ملازم ثان عام ١٩١٥م، وأما إحالته للتقاعد عام ١٩١٩م فهو يقول إنها بسبب حماسته لثورة ١٩١٩م وبعض الباحثين يسجل أنه استقال للعمل فى الفن وأنه يسافر إلى ألمانيا لدراسة الفنون السينمائية. وقد درس التصوير السينمائى فى ألمانيا وسافر إلى النمسا وفى فيينا حصل على شيئين. . الأول: دبلوم فى صناعة السينما والثانى: هو عقد قرانه على زوجته الألمانية فى ٢ أكتوبر عام ١٩٢٠م وتوفيت

زوجته الألمانية «شارلت» فى ٣١ أغسطس عام ١٩٨٩م فى «ملجأ سان فرانسيسكو» وأنجب منها ابنة عاشت معه فى الإسكندرية وبعد وفاته عام ١٩٦٣م حرصت على أن تجمع تراثه وأوراقه.

وعاد «محمد بيومى» إلى مصر فى أكتوبر من عام ١٩٢١، ويقول محمد كريم فى مذكراته التى صدرت فى السنوات الماضية إنه تقابل مع «محمد بيومى» فى ألمانيا وكان كريم هناك أيضًا ليدرس فنون السينما. وقد لاحظنا فى عدد من المصادر جدلا حول من هو رائد السينما فى مصر هل هو محمد بيومى أم محمد كريم وحقيقة الأمر أن محمد بيومى هو أول مصرى عمل فى السينما كمخرج، وبدأ الاثنان كل فى تخصصه قبل السفر إلى ألمانيا. ولم يكن سفر محمد بيومى ومحمد كريم إلا لتعميق عمل كل منهما بالدراسة واكتساب الخبرات فى أوروبا.

ونؤجل فض اشتباك الريادة فى السينما المصرية بين محمد بيومى ومحمد كريم ونتناول جانبًا كان فيه محمد بيومى هو الرائد بإقرار الجميع ونعنى «الجريدة السينمائية». عاد «محمد بيومى» إلى مصر ومعه «آلات سينمائية مختلفة» ولنا مع هذه الآلات عودة لأنها ستكون بداية لقصة جديدة فى حياة بيومى السينمائية، وقرر محمد بيومى أن يصدر أول جريدة سينمائية فى مصر ليسجل فيها أهم الأحداث. ولا خلاف هنا بين الباحثين على أن محمد بيومى هو أول مصرى فى إنتاج الجريدة السينمائية التى أصدرها عام ١٩٢٣م باسم «جريدة آمون» وذكر زميلنا الراحل محمد السيد شوشة فى كتابه «رواد السينما المصرية» أن أول جريدة سينمائية كانت باسم «جريدة آمون» وأن الرائد الأول فى هذا المجال «ضابط سابق اسمه محمد بيومى.. والفيلم التسجيلى ثلاثة أنواع.. الجرايد - المجلات المصورة - الأفلام القصيرة والطويلة».

خرج العدد الأول من «جريدة آمون» - حسب أرجح المصادر - فى سبتمبر عام ١٩٢٣م، ويظهر فيها زعيم الأمة سعد زغلول يطل من بيت الأمة على الجماهير التى احتشدت لتهنئته بالعودة من المنفى لم تكن السينما المصرية فى ذلك الوقت ناطقة كانت لم تزل صامتة وفى شكل لقطات متفرقة. وخرج العدد الثانى فى أول فبراير عام ١٩٢٤ والزعيم سعد زغلول يشكر المهنئين له بتأليف الوزارة الشعبية. أما

العدد الثالث فقد صدر فى أبريل عام ١٩٢٤م . . وتوالت أعداد الجريدة تسجل أهم الأحداث مثل خروج المناضل الوطنى عبد الرحمن فهمى من السجن وحمد الباسل يصافح نواب الفيوم وصورة المرحوم على فهمى «الذى قتلته زوجته الإنجليزية وبرأتها محاكم لندن»، وكانت الحادثة مثيرة وحديث الناس أيامها . وصور عملية بناء بنك مصر . ثم تأسست «شركة مصر للتمثيل والسينما» كإحدى شركات بنك مصر ذلك الصرح الوطنى العظيم على أيدى الاقتصادى الوطنى «طلعت حرب»، وتم اختيار محمد بيومى كأول مدير لهذه الشركة فى ١٣ يونيو عام ١٩٢٥م، وقام محمد بيومى بعمل بعض الأفلام القصيرة التسجيلية والدعائية لبنك مصر وأنشطته .

وكان من الطبيعى أن تصدر الشركة الجديدة ما عرف باسم «جريدة مصر» لتحتل مكان «جريدة آمون»، ويقول الفنان التسجيلى «سعد نديم» أن الجريدة بدأت تصدر فى المناسبات الرسمية بصفة غير منتظمة لمدة عشر سنوات بداية من عام ١٩٢٥م إلى عام ١٩٣٥م وكانت «جريدة مصر» تمارس عملها من فوق سطح بناية «مطبعة مصر» بشارع نوبار بالقاهرة إلى أن انتقلت إلى «ستديو مصر» .

ودخلت الجريدة بعد ذلك مرحلة جديدة هى مرحلة «جريدة مصر الناطقة» ولذلك فإن «حسن مراد» الذى يعد الرائد الثانى للفيلم التسجيلى الإخبارى بعد محمد بيومى ظل يعتبر عام ١٩٧٥م هو البداية الحقيقية للجريدة السينمائية . وأصدرت «جريدة مصر الناطقة» فيلما عن زواج «الأميرة فوزية» من شاه إيران . وتوقفت الجريدة من عام ١٩٣٩م حتى عام ١٩٤٥م، وهى فترة الحرب العالمية الثانية وكانت تصدر بدلا منها «جريدة الحرب المصورة»، ثم عادت جريدة مصر الناطقة بعد توقف الحرب العالمية الثانية .

ما قبل البنك:

وإذا كانت السينما المصرية قد قفزت طفرة كبيرة بدخول طلعت حرب وبنك مصر فى أنشطتها، فإن هذا التطور لم ينشأ من فراغ ومن حق الرائد «محمد بيومى» أن نشير إليه وإلى جهوده المخلصة فى هذا المجال .

أقام بيومى ستوديو فى شبرا وبدأ فى إخراج فيلم بعنوان «برسوم يبحث عن وظيفة»، واشترك فى التمثيل بشارة واكيم وفردوس حسن وفيكتوريا كوهين، واشترك مع هؤلاء الفنانين الرواد ابن بيومى نفسه الذى أعطاه والده دوراً فى هذا الفيلم، وشاءت إرادة الله أن يتوفى «الابن» أثناء تصوير الفيلم فتوقف العمل فيه ولم يتم الفيلم.

وعقب عودة بيومى من الخارج أخرج فيلما بعنوان «الباش كاتب» لفرقة أمين عطالله المسرحية. وقام بتصوير فيلم «فى بلاد توت عنخ آمون» والذى يعده بعض النقاد أول فيلم روائى مصرى.

ومن أنشطته الباكرة قبل سفره إلى الخارج أنه اشترك فى تأسيس فرقة مسرحية مع بشارة واكيم فى يونيو عام ١٩١٩م، وذلك فى مدينة الإسكندرية التى أحبها بيومى وباشر فيها غالبية جهوده الفنية، ومن هذه الأنشطة فى فترات مختلفة من حياته:

أنشأ المعهد المصرى للسينما وأنتج فيلما صور فيه وصول الأعمدة الرخامية لمسجد سيدى المرسى أبو العباس، وكان لبيومى دور فى حركة الفنون التشكيلية بالإسكندرية، وشارك فى تأسيس قاعة الفنون الجميلة فى أول أغسطس عام ١٩٣٥م مع الأخوين سيف وأدهم وانلى.. ليت الزملاء فى قصر الثقافة بالإسكندرية يتذكرون هذا الرائد العظيم والاحتفاء بذكراه فى يوم مولده أو يوم رحيله أو فى أى مناسبة من مناسبات السينما.

مع طلعت حرب:

والكاتب هنا عند حديثه عن «رجال مصر» لا يشبع من الحديث عن «محمد طلعت حرب» ذلك الرجل بطل الاستقلال الاقتصادى والذى نادى بإنشاء بنك وطنى يديره مصريون وبأموال مصرية، وذلك على إثر حادثة دنشواى «يونيو عام ١٩٠٦» ويجمع المؤرخون على اختلاف اتجاهاتهم ومن بينهم عبد الرحمن الرافعى أن من بين النتائج المهمة التى حققتها الثورة القومية ثورة ١٩١٩ بقيادة «سعد

زغلول» قيام بنك وطنى بنك الأمة تحت اسم بنك مصر وتحت راية سعد استمر محمد طلعت حرب يدعو لإنشاء البنك وعرفت الجماهير أن زعيم الأمة يؤيد مشروع البنك فاحتضنه وتحقق الحلم وتم إعلان قيام البنك فى ٧ مايو عام ١٩٢٠م. وقبل اعتقال سعد فى ٢٣ ديسمبر عام ١٩٢١م كان توجيه سعد العظيم هو بالتحديد: «عدم التضامن مع الإنجليز - مقاطعة البنوك والشركات الإنجليزية - تشجيع بنك مصر» ومن أجل حماية بنك مصر الوليد كاد عدد من قادة «الوفد» أن تطير رقابهم، فبعد اعتقال سعد أصدر الوفد بيانًا تاريخيًا فى ١٣ يناير عام ١٩٢٢م يناشد المصريين بالحرف الواحد «أن يسحبوا ودائعهم من المصارف الإنجليزية، وأن يقبلوا على شراء أسهم بنك مصر وأن يقاطعوا شركات التأمين الإنجليزية، وأن يفضلوا المصنوعات الوطنية» وتم القبض على أعضاء الوفد الذين وقعوا النداء وشكلت محكمة عسكرية إنجليزية أصدرت حكمها بإعدامهم جميعًا وهم: «محمد الباسل - ويصا واصف - جورج خياط - علوى الجزار - مرقص حنا - مراد الشريعى - واصف غالى».

المهم أن أول شركة يؤسسها بنك مصر هى «مطبعة مصر» فى مايو عام ١٩٢٢م فى شارع نوبار بالقاهرة. لاحظوا إدراك الزعيم الاقتصادى طلعت حرب لأهمية الكلمة ودورها وأهمية المطبعة ودورها.

وفى عام ١٩٢٥ أسس البنك «شركة مصر للتمثيل والسينما» إدراكًا لأهمية الفن ودوره فى المسيرة الشعبية. كانت هذه مقدمة ضرورية تفسر لنا قصة بيومى مع طلعت حرب واتفاق الرجلين فى الحس الوطنى.

بيومى من جديد:

قلنا من قبل إن بيومى عاد من الخارج فى أكتوبر عام ١٩٢١م، وفى يده اليمنى زوجته الألمانية، وفى يده اليسرى آلات سينمائية كثيرة استعان بها على إصدار «جريدة آمون» وإقامة ستديو بيومى بشبرا والإعداد لفيلم «برسوم يبحث عن وظيفة» وفيلم «الخطيب نمرة ١٣» وفيلم «فى بلاد توت عنخ آمون» وفيلم «الباش كاتب». . وغيرها وغيرها. وفى ظل المد الوطنى الجارف أسس بنك مصر «شركة

مصر للتمثيل والسينما» ، وفى مناخ الاتجاه العام لدعم البنك الوليد وشركاته لم يتردد بيومى وحصر آلاته ومعداته وأفلامه وأعماله وخبراته وجهوده وتوجه إلى محمد طلعت حرب ليضعها تحت تصرفه من أجل صناعة وطنية للسينما المصرية ، وباحثون يقولون إن المبادرة جاءت من طلعت حرب نفسه ودعا بيومى لمقابلته ، ما علينا ، اتفقت الكلمة وتقرر أن يكون محمد بيومى الفطاطرى أول مدير لشركة مصر للتمثيل والسينما وأصبحت الآلات والمعدات التى أحضرها معه من الخارج هى النواة الأولى لهذه الشركة المصرية ودفع بنك مصر لمحمد بيومى ثمن هذه الآلات والمعدات «كانوا كده زمان يدفعون ثمن ما يأخذونه» .

ودارت الأيـام:

وفى عام ١٩٣٧م استدعى محمد بيومى الضابط السابق للخدمة فى الجيش ، ثم شارك فى حرب الصحراء أثناء الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥م) وتطوع فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨م ، وعمل فترة فى مديرية التحرير ورحل عن دنيانا فى ١٥ يوليو ١٩٦٣م تاركًا تاريخه وثماره بين أيدى الباحثين ونأمل أن نكون قد أسهمنا فى تقديم هذا التاريخ فى حدود ما أتيح لنا من رؤية .

الأسـانيد:

١ ـ أحمد الحضرى . . تاريخ السينما فى مصر .

٢ ـ محمد السيد شوشة . . رواد السينما التسجيلية .

٣ ـ إلهامى حسن . . طلعت حرب رائد صناعة السينما .

٤ ـ سمير فريد . . صفحات مجهولة من تاريخ السينما المصرية .

٥ ـ محمد كريم «مذكرات» . . إعداد محمود على .

مصطفى النحاس محمد شردى



فى مثل هذا اليوم «٢٩ أكتوبر» من عام ١٩٥٦م تلبدت غيوم مدينة بور سعيد بالشياطين الطائرة من إنجلترا وفرنسا وإسرائيل تساندها الأساطيل المدرعة والمسلحة من البحر وفيالق إسرائيل من البر ونعيق البوم من كل وسائل الاتصال تعلن أن العدوان الثلاثى الإنجليزى الفرنسى الإسرائيلى قد وقع على مصر وفحيح الأفاعى الرقطاء كلها مركزة على مدينة بور سعيد.

وكان هناك «رجل من مصر» تسرى فى عروقه دماء مصر العريقة خرج من أسرة وفدية عاشت مخلصة لمبادئ الوفد فى الحرية والدستور ووحدة الشعب العظيم. وصور سعد زغلول ومصطفى النحاس على جدران البيت المتواضع. والرجل يحمل منذ أن خرج إلى هذه الدنيا اسم «مصطفى النحاس محمد شردى»، وهذا الاسم ومبادئ الوفد والانتماء للوطن تجمعت كلها فى ذلك اليوم فى عقل ووجدان وعزيمة الشاب «مصطفى النحاس شردى»، وضرب الأرض بقدمه اليمنى وأقسم ألا يغادر بور سعيد وأن يسجل هذا الغدر الثلاثى، وفى يوم ٣١ أكتوبر أسرع إلى آلة التصوير الباقية حتى الآن فى بيته ويصور آثار الدمار التى لحقت بالمساجد والكنائس والموت الذى سلب الحياة من الأطفال والنساء والعواجيز. وينطلق إلى بحيرة المنزلة وهو خبير بها وسليل الصيادين المتواضعين من بلدة «المطرية». وتصل المياه المخلوطة بالطين والأعشاب إلى ما يقرب من صدره وهو قابض على الصور التى التقطها، ويسرع بها إلى الصحفيين الكبيرين «مصطفى وعلى أمين» لتجد طريقها إلى كبريات الصحف العالمية لتفضح غدر وهمجية جحافل إنجلترا وفرنسا

وإسرائيل. هذا الشاب الذى كان وقت ذاك فى الواحدة والعشرين من عمره هو بنفسه الذى أصبح بعد ٢٨ عامًا من هذا التاريخ رئيسًا لتحرير جريدة الوفد ولكن كيف حدث ذلك؟

فى ١٥ أكتوبر وفى الزاوية التى ينشرها «الوفد الأسبوعى» تحت عنوان «من ذكريات فؤاد سراج الدين» بتوقيع «مؤرخ» ولأن القراء يرغبون عادة فى معرفة من وراء التوقيعات غير المسماة نقول إن «مؤرخ» هو التوقيع المستعار لزميلنا «محمد عبد القدوس» الابن الأكبر للكاتب الكبير الراحل «إحسان عبد القدوس»، وبهذه المناسبة فقد سبق لجريدة «الوفد» نشر بعض الوقائع التاريخية بتوقيع «جبرتى الوفد» للزميل الراحل «عبد الله أحمد عبد الله».

نعود إلى الذكريات الأخيرة التى تتصل باختيار «مصطفى شردى» رئيسًا لتحرير «الوفد»: فوجئ رئيس الوفد بأن المرشح لرئاسة تحرير الجريدة الجديدة اسمه «مصطفى النحاس» وشقيقه يدعى «سعد زغلول». وتعود هذه القصة إلى أكتوبر عام ١٩٨٣م. كان أهم ما يشغل بال فؤاد سراج الدين فى ذلك الوقت البحث عن رئيس تحرير الجريدة التى قرر الوفد إصدارها بعد عودته إلى ساحة العمل السياسى مرة أخرى. وفى البداية فاتح رئيس الحزب الكاتب والصحفى الكبير أحمد أبو الفتح لتولى هذه المسئولية لكنه اعتذر. وبرر ذلك بأن ظروفه لا تسمح حيث إنه يقضى أكثر من ستة أشهر من السنة خارج مصر.

وذهب «سراج الدين» إلى منزل الأستاذ سعد عبد النور سكرتير الوفد الحالى لتناول الغداء بدعوة منه، وكان مشغولاً بهذا الموضوع إلى أقصى حد. وهناك وجد عددًا من الأصدقاء من بينهم الكاتب الكبير مصطفى أمين. وطلب رئيس الوفد من صاحب أخبار اليوم أن يرشح له صحفيًا مرموقًا من تلاميذه ليرأس تحرير الجريدة الجديدة فقال مصطفى أمين دون تردد: «مصطفى شردى» واستفسر عنه سراج الدين «مين ده .. أنا معرفوش».. رد أستاذ الصحافة: «مصطفى شردى» هيعجبك قوى.. عمل أنجح صحيفة فى أبو ظبى.. اسمها «الاتحاد».

وبعد أيام قليلة التقى رئيس الوفد برئيس التحرير المرشح وذلك فى صالون منزله الكبير بجاردن سيتى.. ويقول سراج الدين: كانت هناك مفاجأتان فى هذا اللقاء

أولها أن اسمه «مصطفى النحاس شردى» وله شقيق يدعى سعد زغلول شردى، من عائلة وفدية صميمة، وهذا ما أسعدنى. والأمر الثانى أننى وجدت مصطفى شردى عبقريًا فى الصحافة، فهو يفهم فى التحرير وكنز لا يفنى من الأفكار والأخبار، بالإضافة إلى فهم كامل للإخراج الصحفى وفن الطباعة، وهكذا انتهى فى لقاء واحد عبء ثقيل كنت أحمله على كتفى لشهور طويلة. وتركت الأمر كله لمصطفى شردى.

ويقول فؤاد سراج الدين: بذلت جهدى فى الوقوف إلى جانب مصطفى شردى عليه ألف رحمة . . وأتذكر فى إحدى المرات التى كتبت مقالا وكان لرئيس التحرير بعض الملاحظات وقلت له فى بساطة وهدوء: «اشطب المقال كله» وفوجئ شردى وأصابه الذهول . . فقال بسرعة: أشطب مقالك ازاى يا باشا . . ده انت صاحب الجرنال! وأصررت على موقفى. بحذف المقال كله، وكنت أريد إعطاء درس لزملائى من أعضاء الوفد بأن لرئيس التحرير اليد العليا فى الجريدة، وله أن يرفض نشر أى مقال ولو لرئيس الحزب ذاته.

الباشا وصحافة الحزب:

كان هذا هو الدرس المهم من رئيس الحزب لأعضاء الحزب والمحررين بجريدة الحزب. ويمضى «فؤاد سراج الدين» فى ذكرياته الخاصة بجريدة الحزب فيقول: فى مرة أخرى كنت أتناقش مع شردى وزملائه فى أوضاع الجريدة وسألتهم عن المساحة المخصصة للأخبار الصحفية والتحقيقات. وتلك المطلوبة لأخبار الحزب . . فرد أحدهم: ٩٥٪ للصحافة و٥٪ فقط لأخبار الحزب. وافتعلت الغضب، وظن الجميع أن المساحة المقترحة للصحافة أكثر من اللزوم . . وتلك المقررة لأخبار الحزب أقل من المطلوب لكننى فاجأتهم بالقول: ٩٩٪ صحافة و١٪ لأخبار الوفد . . كنت لا أريد أن تكون الجريدة حزبية بل شعبية تدخل كل بيت. وفى ذات الوقت تقوم بالتعبير عن الحزب. (ملحوظة هنا لكاتب - هذا الرجل من مصر - . . وهى أننى سمعت عن هذا الموقف لرئيس حزب الوفد ورده على الاقتراح الذى أبداه أحد زملاء شردى عن نسبة الصحافة إلى أخبار الحزب فى الجريدة وإن لم تكن ذاكرتى

قد شاخت فإن صاحب هذا الاقتراح هو الزميل «عباس الطرابيلى» رئيس تحرير الوفد» حاليا. كنت وقتها ضمن كتاب جريدة الأخبار وعلى فترات متباعدة أكتب فى جريدة الوفد بعض الدراسات . . وفى ذكرى مرور عام على إصدار الوفد كتبت فى جريدة الأخبار مقالا بعنوان . . «قرأت ٥٥ عدداً من الوفد» أبدى بعض الملاحظات الودودة، ومنها أن جريدة الوفد جريدة قومية التوجه وإن كانت حزبية الانتماء».

ونعود إلى ذكريات رئيس الوفد . . وعن مميزات مصطفى شردى رحمه الله يقول فؤاد سراج الدين . . كانت لشردى صفات ثلاث:

١ - عبقرى فى الصحافة.

٢ - كاتب وطنى من الطراز الأول وله حس سياسى.

٣ - كان حازماً جداً فى عمله والتف حوله العاملون معه.

وإذا كان لكاتب السطور الحالية فى مجال الحديث عن نجاح مصطفى شردى كرئيس لتحرير جريدة الوفد بفعل العناصر الثلاثة التى تميز بها والتى حددها رئيس الحزب فإننا نضيف إليها عنصراً مهماً هو ديمقراطية رئيس الحزب فى التعامل مع العاملين بالجريدة وبعد نظر رئيس الحزب فى الدور الصحفى للجريدة وضرورة اهتمامها بالجانب الصحفى لصالح الشعب ثم يجيء دورها الحزبى. وكان الصحفى الكبير «مصطفى أمين» يذكر بالارتياح إلى توفيقه فى ترشيح «مصطفى شردى لرئاسة تحرير جريدة الوفد . . وقد كتب فى عموده «فكرة» وهو يرثى مصطفى شردى: (ذات يوم كانت جريدة الوفد تستعد للصدور ودعيت إلى الغداء عند الأستاذ سعد فخرى عبد النور المحامى والتقيت بفؤاد سراج الدين رئيس الوفد وإبراهيم فرج سكرتير الوفد وسألنى رئيس الوفد من أرشح رئيساً لتحرير الجريدة الجديدة فرشحت على الفور مصطفى شردى).

شردى الثانى:

هذه التسمية ليست من عندنا ولكنها للأستاذ الكاتب الكبير «أحمد أبو الفتح»

وهو يستعيد ذكرياته مع «شردى الأول ويعنى به» محمد شردى الأب وكان أزهريا وصفته هذه توفر له أخلاقيات المتدين وتوفر له إجادة اللغة العربية وقد أورث هاتين الصفتين لأولاده. وعرف «محمد شردى» بوفديته الأصيلة وإخلاصه لسعد زغلول ومصطفى النحاس حتى أنه أطلق اسم «سعد زغلول» على ابنه «سعد زغلول محمد شردى» وأطلق اسم «مصطفى النحاس» على ابنه «مصطفى النحاس محمد شردى». وعرف «محمد شردى» الأب بوطنيته الجارفة، وقد شارك فى ثورة ١٩١٩ وسجن بسبب هذا النشاط.

وكان «شردى الأول» محمد شردى الأب محرراً بجريدة المصرى ومراسلا للجريدة ورئيسًا لمكتب المصرى ببورسعيد. وكتب «الدكتور السيد أبو النجا» أستاذ الإعلان والإدارة الصحفية يقول: دق التليفون يومًا فى مكتبى بجريدة المصرى وصاح عامل التليفون-بورسعيد على الخط.. وكان المتحدث محمد شردى مراسل المصرى، وأصغيت فإذا حشرجة مستعصية تكاد تسد الحلقوم، وصوت خفيض كأنه ينعى نفسه من خلالها ويقول: أنا بموت يا أبو النجا.. وصيتك مصطفى، ثم لا يقوى على مزيد فيسكت عن الحديث. وفى اليوم التالى جاء نعيه وخلفه ابنه «مصطفى» فى إدارة مكتب جريدة المصرى ببور سعيد.

ومن المعروف أن شردى الأول ونعنى به «محمد شردى» الأب، وشردى الثانى ونعنى به «مصطفى شردى» رئيس التحرير، وشردى الثالث ونعنى به «محمد مصطفى شردى» حفيد الأول وابن الثانى وهو زميلنا الذى يعرفنا كل أسبوع بالعالم المجنون وبالأتومبيل وتكنولوجيته. المعروف عندنا وعند الكثيرين أن «آل شردى» من بورسعيد ويعتزون بها ويفخرون بالانتماء إليها. وقد لمست بنفسى مدى اعتزاز «مصطفى شردى» والذى أصبح نائبًا بمجلس الشعب عن بورسعيد مدى اعتزازه ببورسعيد. كنا فى هيئة الكتاب قد أصدرنا كتابًا عن «بورسعيد» تاريخها وأهلها وجغرافيتها فقدمت له نسخة من هذا الكتاب وقابله متهللا مبتسمًا لأن بورسعيد أحب المدن إليه. ولكن «الدكتور محمد عصفور» يعتز بمصطفى شردى ابن بلده «المطرية-دقهلية» المطلة على بحيرة المنزلة. ويؤكد أنهم من «المطرية» وأن شعب المطرية شعب طيب ووديع ورزقه على الله لأنهم من الصيادين الذين يعيشون على خير بحيرة المنزلة.

عبقرية المكان:

ومهما يكن من أمر فالمطرية تقع على بحيرة المنزلة، وبورسعيد قريبة من البحيرة والمطرية وكلها منطقة واحدة يعرف «مصطفى شردى» دهاليزها ومدنها وشوارعها وحاراتها والمناطق الحديثة والعتيقة، الأفرنجية والشعبية والتجار والصيادين. ومن هنا أجاد «مصطفى شردى» الاختفاء سواء فى حرب ٥٦ أو حرب ٦٧. وأثناء الحربين لم يغادر بورسعيد. ووقفنا عند جسارته الوطنية فى حرب ٥٦، واستطاع أن يسجل بالصور مخازى المعتدين وتخفى فى هيئة الصيادين وخاض بالصور فى بحيرة المنزلة التى يعرفها كما يعرف شوارع بورسعيد. وعرفنا كيف استطاع أن يصل بالصور ذات الأهمية إلى الأستاذين مصطفى وعلى أمين. وكانت مهمته فى خوض بحيرة المنزلة بطينها والغاب المنتشر فيها مهمة مضنية شاقة. ولكن «شردى» تحملها فى ذهابه وإيابه من بورسعيد إلى القاهرة. وقام بمعاونة زملائه الصحفيين من الدخول إلى بورسعيد والخروج منها فى قوارب الصيادين ويخفيهم فى بيته ويزودهم بالأخبار وأهم من ذلك يزودهم بالوجبات الساخنة.

وعلى الرغم من أن «شردى» أصبح نائبًا عن بورسعيد إلا أن أهالى المطرية كانوا يمتدحون أصالة ابن بلدهم واستخدام وضعه النيابى والصحفى فى خدمتهم. ويبدو أن الانتماء للمطرية له سحر خاص، فنجد الفنان الراحل «زكريا الحجاوى» يعتز بمطريته ويدخل ابطالها فى أدبنا الشعبى.

المشوار الصحفى:

يبدو أن العبقرية الصحفية تولد مع صاحبها وتظهر عليه فى عمر مبكر.. هكذا وجدنا مصطفى أمين وعلى أمين وإحسان عبد القدوس.. ونلمسها هنا بوضوح عند «مصطفى شردى» فى المدرسة الابتدائية ببورسعيد كان زميلاه «إبراهيم سعدة» رئيس تحرير أخبار اليوم حاليًا و«جلال عارف» الكاتب الصحفى المعروف بأخبار اليوم حاليًا. وفى بداية الأربعينيات كان وزير المستعمرات البريطانى يمر بميناء بورسعيد فى طريقه إلى أستراليا. وتقدم إليه التلميذ «مصطفى» على أنه يحرر جريدة حائط للمدرسة وأخذ منه حديثًا مصورًا نشره وكانت أول خبطة صحفية

يحققها «مصطفى». وبعد أن توفى والده فى أواخر الأربعينيات حل محل والده فى مكتب جريدة المصرى ببورسعيد وقام بإمداد الجريدة بالأحداث والأخبار والصور. وبعد إغلاق جريدة المصرى عام ١٩٥٤، انتقل للعمل بدار أخبار اليوم. وتخرج فى قسم الصحافة - بكلية الآداب - جامعة القاهرة عام ١٩٦١م وعام ١٩٧١م سافر إلى «أبو ظبى» واستطاع هو وزملاؤه أن يصدروا جريدة «الاتحاد»، وكان هو رئيسًا للتحرير. وعلى أيديهم تحولت «الاتحاد» من نشرة أسبوعية إلى جريدة يومية كبرى. وبعد عشر سنوات عاد «مصطفى» ورفاقه إلى أحضان الوطن من جديد وتولى العمل كمدير لتحرير «آخر ساعة» وأخذ يكتب تحت عنوان «كلمة حق».

وكان نشاط «مصطفى» الصحفى متميزاً بالحس الوطنى. بعد أن أعلن «مصطفى النحاس» إلغاء معاهدة ١٩٣٦ - فى ٨ أكتوبر عام ١٩٥١ - واندلعت أعمال الفدائيين ضد جيش الاحتلال البريطانى، قام «مصطفى» بتغطية أحداث القناة الوطنية وتغطية معارك الفدائيين. وعام ١٩٦٧م بقى فى بورسعيد ليشهد حربها وعاش هناك تحت القصف الإسرائيلى. حتى زيارته الصحفية كانت للمناطق الساخنة. زار الباكستان أثناء الحرب مع الهند. وعام ١٩٥٨ سافر إلى لبنان لتغطية أحداث الحرب الأهلية.

أما دوره فى إصدار جريدة الوفد عام ١٩٨٤م أسبوعية ثم إصدارها يومية فى مارس ١٩٨٧م فقد أحدث - بشهادة الخبراء - انقلاباً فى الصحافة المصرية. ويكفى أن نقول إن العدد الأول من جريدة الوفد صدر ومصطفى شردى فى غرفة الانعاش. كان يكتب - بالأحرى يقاتل - والمرض يناوشه بشكل دائم. وكان منحازاً للفئات الكادحة. شهد النائب العمالى «أحمد طه» بأن «مصطفى شردى» بعث بالمحررين إلى جميع أنحاء البلاد من أسوان إلى الإسكندرية يدرسون مشكلات العمال وآلامهم وآمالهم.

وترجل الفارس:

عاش «مصطفى شردى» ٥٤ عامًا وثمانية شهور و٢٥ يومًا. ولد فى ٥ أكتوبر عام ١٩٣٥م. ويوم الخميس ٢٩ يونيو عام ١٩٨٩م دخل مستشفى السلام الدولى

على قدميه ثم دخل غرفة الإنعاش . ومساء يوم الجمعة أسلم الروح . وصباح السبت أول يوليو خرجت وسائل الإعلام بالنبأ الحزين، لقد ترجل فارس الكلمة الصحفية .

أعظم الكتاب الليبراليين:

تميز تراث الوفد العريق فى الديمقراطية والليبرالية ووحدة الشعب بتقديم أعظم الكتاب استنارة وشجاعة ودفاعًا عن حقوق الغالبية الكادحة على صفحات جرائده . الدكتور عزيز فهمى والدكتور محمد مندور رحمهما الله . والأستاذ أحمد أبو الفتح بارك الله فى عمره . . ثم «مصطفى شردى» الذى دافع عن تراث الوفد بدأب وإصرار وهو الذى لم يخش انتقاد السلطة التنفيذية وممثلها التنفيذى الأول «وزير الداخلية». لم يتخلف عن القيام بواجبه الصحفى والوطنى، وهو يعلم أن المرض يتهدده بالموت . له قلب رقيق . . هو فى الحقيقة قلب أسد مقدام . عليه ألف رحمة كما قال رئيس الوفد «فؤاد سراج الدين باشا» فى ذكرياته عنه .

الأسانيد:

١ - فؤاد سراج الدين : «ذكريات» جريدة الوفد ١٥/ ١٠/ ١٩٩٨م .

٢ - محمد مصطفى شردى : مصطفى شردى من المهد إلى المجد «الكتاب بعامة» والكلمات التالية بخاصة لـ: إبراهيم سعدة - أحمد أبو الفتح - أحمد طه - د . السيد أبو النجا - جلال عارف - سعيد عبد الخالق - عباس الطرابيلى - عبد الستار الطويلة - د . عبد العظيم رمضان - مصطفى أمين - د . محمد عصفور - لمعى المطيعى وجمال بدوى .

محمد فؤاد سراج الدين



بعون الله وتوفيقه جلس على الكرسى الذى جلس عليه من قبل «سعد زغلول باشا» و«مصطفى النحاس باشا» رئيسًا للوفد. وقدر له أن يحمل فى عقله وقلبه ونفسه تراث الوفد العريق كفاحًا من أجل الاستقلال الوطنى والحريات الدستورية ووحدة الشعب العظيم. وعام ١٩٧٨م عاد الوفد كما أراده «سعد» ورعاه «النحاس» جبهة عريضة متماسكة تعبر عن الشعب من أقصاه إلى أقصاه، وأقبل مليونان من المواطنين الأوفياء يوقعون لعضوية (الوفد) برئاسة «محمد فؤاد سراج الدين باشا» ونشرت جريدة (الأهرام) على صفحتها الأولى خبرًا يقول أن (مليون عضو انضموا للوفد) وفزع من هذا الخبر «السلطان» الذى استدعى «على حمدى الجمال» رئيس تحرير الأهرام يعنفه ويلومه لنشر هذا الخبر دون أن يتدخل لهز الرقم إلى الربع أو النصف على أكثر تقدير. وقدر لكاتب هذه السطور أن يسمع مباشرة من الزميل الصحفى بالأهرام الذى جلب هذا الخبر وهو الصديق المرحوم «حسن سلومة» الذى تربى فى أحضان (مصر الفتاة)، وفوجئت وهو يقول لى أن رقم الأعضاء الذين انضموا للوفد كان مليونين وليس مليونًا واحدًا وهو ما فاجأ به «على حمدى الجمال» الذى كان قد استدعاه ليبلغه غضب السلطان «أنور السادات» لنشر هذا الخبر بهذا الرقم وكان رد «حسن سلومة» ماذا لو عرف أن الرقم الذى حصل عليه كان ضعف الرقم الذى كتبه عند نشر الخبر، رحم الله حسن سلومة وعلى حمدى الجمال وغفر للرئيس الراحل «أنور السادات».

المهم أن وفد سراج الدين قد عاد ليمثل الأمة كما كان عليه (وفد سعد

والنحاس). وبتراث الوفد العريق قاد «فؤاد سراج الدين» جريدة (الوفد) عام ١٩٨٤م. وقد رسم لها رئيس الوفد أن تكون جريدة قومية تعبر عن آمال الشعب والأمة وليست جريدة حزبية. وساند رئيس الحزب رئيس تحرير الجريدة ليباشر حريته حتى ولو شطب مقالا لرئيس الحزب وكان الدرس موجهًا أيضًا لأعضاء الحزب.

الفلاح الصلب:

عندما التقى الكاتب المبدع «صلاح عيسى» بفؤاد باشا فى زنزانة معتقل سبتمبر عام ١٩٨١، المشهور وجد «صلاح» فى «فؤاد باشا» (فلاحًا صلبًا من كفر الجرايدة) لديه قدرة هائلة على إيجاد قاسم مشترك مع أعدائه والمخالفين فى الرأى. واستطاع الباشا بسرعة اكتساب قلوب التيار الإسلامى واليساريين والناصريين. وهذه سمة من سمات القائد الماهر والتى لاحظها «مصطفى أمين» وعبر عنها فى عموده (فكرة) عندما قال فى تعقيب له عن قدرات «سراج الدين» فى إعادة (الوفد) للساحة السياسية. . (لقد استطاع فؤاد سراج الدين أن يجمع الشامى على اليمنى. .).

لقد طاف الفلاح الصلب «فؤاد سراج الدين» بالعديد من السجون. . السجن الحربى، القلعة، سجن الأجانب، سجن مصر، سجن القناطر ولكن أسوأ السجون كلها كان سجن طرة عام ١٩٨١م لم يشاهد أسرته إلا بعد الإفراج عنه. . الزنازين لا تفتح أبدًا، مغلة ليلاً ونهاراً. النوم على الأسفلت والحذاء هو المخدة. . لقد شهد رفاقه فى السجون أن «فؤاد سراج الدين» كان نموذجًا للصلابة والقوة واحتمال الشدائد. . كان فلاحًا صلبًا من كفر الجرايدة.

وهذه المحنة التى عاناها زعيم الوفد كانت التاسعة فى حياته:

- عام ١٩٤٤م عقب إقالة حكومة الوفد تم تحديد إقامته فى كفر الجرايدة.

- عام ١٩٥٢م فى وزارة «أحمد نجيب الهلالى» حددت إقامته فى بلبيس، وهذه المرة لها قصة لا بأس من سردها، بعد حريق القاهرة ٢٦ يناير عام ١٩٥٢م وإقالة حكومة الوفد.

جاءت وزارة على ماهر (٢٧ يناير ـ أول مارس عام ١٩٥٢م). وأبدت السفارة البريطانية رغبتها في اعتقال «فؤاد سراج الدين وعبد الفتاح حسن» واستقال على ماهر دون أن يحقق هذه الرغبة. وجاءت وزارة «أحمد نجيب الهلالى» أول مارس ـ ٢ يوليو عام ١٩٥٢م. وفى ١٨ مارس تم تحديد إقامة «فؤاد سراج الدين وعبد الفتاح حسن» فى بلبيس تنفيذًا لرغبة السفارة البريطانية.

ـ فى سبتمبر عام ١٩٥٢ دخل فؤاد باشا السجن الحربى.

ـ اعتقل من جديد بعد حل الأحزاب عام ١٩٥٣م.

ـ حكم عليه عام ١٩٥٤ بالسجن ١٥ عامًا.

ـ عقب فشل الوحدة بين مصر وسوريا «أعيد» اعتقاله عام ١٩٦١م.

ـ بعد نكسة عام ١٩٦٧م اعتقل كذلك.

ـ عام ١٩٨١ كان تفسير السادات لاعتقال سراج الدين.. إنه رجل قوى. حقًا كان الفلاح الصلب من كفر الجرايدة رجلاً قويًا.

الفلاح الصلب وزيرًا:

هذا الفلاح الصلب الذى أدخلوه السجن تسع مرات ونام على الأسفلت وعاش فى ظلام الزنازين ولم يكن يرى أسرته لفترات طويلة، كان وزيراً لمرات عديدة ننقلها للقراء من مجلد (النظارات والوزارات المصرية) الذى صدر بإشراف ومراجعة (مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر):

ـ الزراعة ٣١ مارس عام ١٩٤٢ ـ ٢٦ مايو عام ١٩٤٢.

ـ الزراعة ٢٦ مايو عام ١٩٤٢ ـ ٢ يونية عام ١٩٤٣.

ـ الداخلية ٢ يونية عام ١٩٤٣ ـ ٨ أكتوبر عام ١٩٤٤.

ـ الشئون الاجتماعية (مؤقتًا) ٢ يونية عام ١٩٤٣ ـ ٨ أكتوبر عام ١٩٤٤.

ـ المواصلات ٢٦ يوليو عام ١٩٤٩ ـ نوفمبر عام ١٩٤٩.

- الداخلية ١٢ يناير عام ١٩٥٠ - نوفمبر عام ١٩٥٠ .

- الزراعة بالنيابة ٢٢ مارس عام ١٩٥٠ .

- الصحة العمومية (بالنيابة) ٢٧ أغسطس عام ١٩٥٠م .

- المعارف العمومية (بالنيابة) ١٥ أكتوبر عام ١٩٥٠م .

- الداخلية ١١ نوفمبر عام ١٩٥٠ - ٢٧ يناير عام ١٩٥٢ .

- المالية ١٦ نوفمبر عام ١٩٥٠ - ٢٧ يناير عام ١٩٥٢ .

- المعارف العمومية (بالنيابة) ١١ مارس عام ١٩٥١ .

وبهذه المناسبة نذكر للقراء أن «فؤاد سراج الدين» لم يكن فى القاهرة أثناء أحداث يوم ٤ فبراير عام ١٩٤٢م وكان فى مدينة جرجا بصعيد مصر .

وخلال هذه الوزارات المختلفة قام بعدد من الإنجازات المهمة نذكر منها :

- أعلن الكفاح المسلح ضد قوات الاحتلال التى يبلغ عددها ٨٠,٠٠٠ جندى حسب اعتراف محمد عودة فى كتابه «الباشا والثورة» .

- فى ١١ مايو عام ١٩٤٨ أى قبل إعلان دولة إسرائيل بأربعة أيام حذر من أطماع الصهيونية فى العالم العربى وقال عبارته المشهورة (الدفاع عن فلسطين هو دفاع عن مصر)، وكان فؤاد باشا فى تلك الفترة زعيمًا للمعارضة فى مجلس الشيوخ .

- فى وزارة ٥٠ - ١٩٥٢ كان صاحب اقتراح مجانية التعليم الثانوى والمتوسط والفنى . وقد شهد بذلك الدكتور طه حسين والدكتور محمد أنيس .

- أصدر قانون الاعتراف بنقابات العمال فى عام ١٩٤٣ .

- أصدر قانون هيئات البوليس وتم تحسين مرتبات صف ضباط وجنود البوليس .

- تأميم البنك الأهلى وهو وزير المالية عام ١٩٥١ .

- مضاعفة الضريبة العقارية على الأراضى الزراعية عام ١٩٥١ - وطرح الثقة بشخصه عند التصويت على هذا القانون أمام مجلس النواب .

- أصدر قانون محو الأمية.

- أصدر قانون عقد العمل الفردى الذى ينظم العلاقة بين العامل وصاحب العمل.

- فؤاد سراج الدين باشا صاحب اقتراح إلغاء معاهدة ١٩٣٦ فى اجتماع ضم محمد صلاح الدين باشا وإبراهيم فرج باشا وبحضور مصطفى النحاس باشا.

- دعم معركة الفدائيين ضد القوات البريطانية فى القتال بالسلاح والمال وضباط الشرطة.

الباشا والملك:

على صفحة ١٢ من ذكرياته السياسية يروى «عبد الفتاح حسن» مقابلة له مع الملك فاروق، وكان قد أصبح وزيراً للدولة وأن ينوب عن وزير الداخلية فى حالة غيابه، وسجل ما قاله الملك له: (صاحبك فؤاد سراج الدين أنا مش مبسوط منه، ومش مطمئن له) هذا هو شعور الملك فاروق إزاء فؤاد سراج الدين باشا. وفى يوم الجمعة الأخيرة (١٥ سبتمبر عام ١٩٤٤) كان الملك يصحبه «أحمد حسنين» ذاهباً إلى مسجد عمرو بن العاص لأداء صلاة الجمعة. وشاهد الملك لافتات كتبها أفراد من الشعب مكتوب عليها (يحيا الملك مع النحاس) فأمر فور وصوله إلى المسجد «محمود غزالى» مدير الأمن العام بنزع تلك اللافتات بحيث لا يراها عند عودته. ولم يجد غزالى بدّاً من تنفيذ أمر الملك. وعلى الفور أصدر «فؤاد باشا سراج الدين» أمرا من الإسكندرية بوقف «محمود غزالى» عن عمله وأذاع النبأ فى الصحف، ورفض «سراج الدين» تعيين القائمقام «إسماعيل شيرين» زوج الأميرة فوزية شقيقة الملك فاروق محافظًا للقاهرة. ورفض تعيين كريم ثابت المستشار الصحفى للملك وزيراً بطلب مباشر من القصر. أظن تكفى هذه الفقرة لبيان حقيقة العلاقة بين الملك فاروق وفؤاد سراج الدين باشا الذى كان ينفذ سياسة حكومة شعبية لها موقف واضح من الملك.

حقيقة معركة الإسماعيلية:

يقول المثل الدارج أن الكذب ليس له أرجل، وقد حدث كذب وتضليل حول معركة الإسماعيلية يوم ٢٥ يناير عام ١٩٥٢ بين الشرطة المصرية وقوات الاحتلال الإنجليزية، والذى حدث - على وجه اليقين - أنه فى منتصف الليل أكرر منتصف الليل قامت قوات ضخمة . . آلاف الجنود والسيارات المصفحة الإنجليزية، وحاصرت بلوكات االنظام المصرية وكانت حوالى ألف عسكرى وكانوا بهدف القيام بأعمال فدائية، وطلبت القوات الإنجليزية من القائد المصرى ضرورة خروج قواته رافعة الأيدى بعد ترك أسلحتها، وإذا لم يتم هذا خلال ٣٠ دقيقة سينسفون الثكنات المصرية بمن فيها، وسلوك التليفونات مقطوعة ومن المستحيل الاتصال بوزير الداخلية، وقام اليوزباشى «مصطفى رفعت» بالتسلل خارج الثكنات واتصل بفؤاد باشا وزير الداخلية وأحاطه علمًا بالموقف ويطلب التعليمات. كان هذا بعد منتصف الليل، ماذا لو أمرهم فؤاد باشا بالتسليم وإلقاء السلاح والخروج من الثكنات رافعى الأيدى؟ ماذا كان يمكن موقف الأشاوس والفرسان الذين يلقون باللائمة على وزير الداخلية؟

وكانت مصر كلها فى فترة حماسة وطنية ضد قوات الاحتلال ولا يتفق التسليم وإلقاء السلاح ورفع الأيدى فوق الرءوس مع هذا المناخ الوطنى . . وكان أن سأل وزير الداخلية اليوزباشى «مصطفى رفعت» . . اسمع يابنى . . لو أمرتكم تقاوموا . . هل تنفذون هذا الأمر رغم عدم تكافؤ الفرص بينكم وبينهم . . ورد الضابط الشاب بحماسة وشجاعة . . يافندم سنقاتل إلى آخر رجل . ماذا كان يمكن موقف وزير الداخلية الذى يقف خلف الكفاح المسلح فى القناة غير أن يقول لمصطفى رفعت:

توكلوا على الله والله معكم وبعد معركة عنيفة سقط فيها شهداء من الطرفين . اقتحمت القوات الإنجليزية بقيادة الجنرال «أرسكين» الثكنات وذهل القائد الإنجليزى من روح القوات المصرية وقال للقائد المصرى: أهنئك لبسالة جنودك ولهذا لن أعاملهم كأسرى حرب بل اخرجوا بأسلحتكم واذهبوا إلى حيث شئتم . ومن أجل هذه البسالة والمقاومة أصبح يوم ٢٥ يناير عيداً للشرطة تحتفل به مصر

كلها. ويقرر المفكر المستشار «طارق البشرى» : (كان موقف وزير الداخلية المصرى برفض التسليم والمقاومة رغم التفوق البريطانى فى العدد والعدة، كان موقفًا ليس له بديل).

الوفد والعسكر:

كانت حكومة الوفد الأخيرة (يناير ـ ٥٠ يناير ١٩٥٢) برئاسة «مصطفى النحاس» وبقوتها الفاعلة «فؤاد سراج الدين» تمثل النموذج الوطنى للحكومات الشعبية المعادية للنفوذ الاستعمارى وموقفها فى تبنى الحياد الإيجابى والتوجه الاشتراكى وإطلاق الحرية للتنظيمات والصحف مما أصبح يهدد النفوذ الأمريكى الزاحف إلى الشرق الأوسط، ويهدد النفوذ البريطانى التقليدى فى المنطقة. مما جعل الولايات المتحدة الأمريكية (التى أصبحت الدولة السائدة فى العالم وفى الشرق الأوسط ترفض الوفد وتريد تصفيته تمامًا لأنها كانت تعد لانقلاب عسكرى على غرار الانقلاب الذى قامت به في سوريا عام ١٩٤٩) ـ محمد عودة . . الباشا والثورة ص ١٥ . وجاء أيضًا فى كتاب «محمد عودة» الذى صدر خصيصًا للهجوم على «فؤاد سراج الدين» :

(وكانت بريطانيا لا تريد الوفد لأن بريطانيا أصبحت شبه تابعة لأمريكا. ولم تكن الرجعية المصرية تريد الوفد وقد نمت فى داخله قوى راديكالية).

وقد كشف المفكران «أحمد بهاء الدين وطارق البشرى، من دور الملك وحافظ عفيفى وأحمد نجيب الهلالى فى التنسيق مع أمريكا بهدف إزاحة الوفد عن الحكم وعن الساحة السياسية. وكانت مؤامرة حريق القاهرة فى ٢٦ يناير عام ١٩٥٢.

وقد أوضحت ذكريات «نجيب محفوظ» الأخيرة التى قدمها «رجاء النقاش» أن «مصطفى النحاس» وقيادة الوفد رأت بخبرتها العميقة أن العسكر لو دخلوا السياسة لن يخرجوا منها أبدًا. وسجلت هذه الذكريات أن «الضباط الأحرار» أرسلوا إلى وزير خارجية الوفد «محمد صلاح الدين» يبدون استعدادهم لاغتيال «محمد فؤاد سراج الدين» هذا ما وصل إلى موقف قيادة الضباط الأحرار ولم ينكر «أحمد

حمروش» مؤرخ (ثورة يوليو) أن محكمة الثورة كانت موجهة أساسًا ضد الوفد، وهذا يفسر الهجوم الرهيب على الوفد وعلى «سراج الدين» وهو صراع قال عنه «الكاتب صلاح عيسى» أنه (صراع تميز بدرجة عالية من اللا أخلاقية أهين بها التاريخ وزورت بعض صفحاته، واستخدمت أكثر أساليب الصراع السياسى دناءة وأقلها احترامًا.

الكذبة الكبرى:

يقول داعية النازى «جوبلز» . . كلما كانت الكذبة كبيرة سهل تصديقها. وقد روج بعض قادة ٢٣ يوليو، وبعض الكتبة الكذبة أن «فؤاد سراج الدين» رفض الإصلاح الزراعى . . وأمام التاريخ بعض الوثائق التى توضح الموقف نذكر منها:

١ـ حديث «إبراهيم طلعت» لمجلة روزاليوسف ١٣/ ٩/ ١٩٧٦، وكان «إبراهيم طلعت» وثيق الصلة بجمال عبد الناصر قبل أن يغدروا به وهو من العناصر الوفدية البارزة. . رحمه الله: أعلن فؤاد سراج الدين أنه بصفته الشخصية وبصفته سكرتيرا للوفد يوافق على قانون الإصلاح الزراعى من حيث المبدأ. وأن القانون لا يضيره هو أو أسرته، كما أن ٩٠٪ الأقل من أعضاء الوفد لا يضارون به.

٢ـ تصريح لفؤاد سراج الدين نشرته جريدة الأهرام فى ٥ سبتمبر عام ١٩٥٢، أى قبل صدور قانون الإصلاح الزراعى بأربعة أيام، قال إنه يوافق على تحديد الملكية الزراعية من حيث المبدأ ولكن له بعض الملاحظات والتعديلات على المشروع سبق أن أبلغها إلى المسئولين.

٣ـ الثابت تاريخيًا أن «مصطفى النحاس» قبل المشروع دون تحفظات ومعه معظم أعضاء الوفد. وأعلن الوفد موافقته على المشروع من حيث المبدأ مع إبداء بعض الملاحظات.

والعجيب أن الثورة أخذت بالكثير من هذه الملاحظات. وقد سأل رئيس المحكمة الدكتور هيكل باشا عن رأيه فى فؤاد سراج الدين كبرلمانى، وكان هيكل

رئيسًا لمجلس الشيوخ فأجاب: «إن اثنين في مصر تفخر بهما الحياة النيابية - المرحوم أحمد يوسف الجندي وفؤاد سراج الدين وأنا كنت أحب أسمعه لما يتكلم».

محكمة الثورة:

بلغت ذروة الصراع بين الوفد والعسكر في محكمة الثورة. تم الإعلان عن تشكيل هذه المحكمة في مؤتمر حاشد عقد بميدان الجمهورية في ١٦ سبتمبر عام ١٩٥٣، وتشكلت المحكمة برئاسة قائد الجناح «عبد اللطيف البغدادي» - عافاه الله وشفاه - وعضوية البكباشي أنور السادات وقائد الأسراب حسن إبراهيم.. رحمهما الله وغفر لهما.

كانت المحكمة موجهة أساسًا ضد الوفد فحوكم من الوفد ستة هم:

فؤاد سراج الدين وإبراهيم فرج ومحمود سليمان غنام والسيدة زينب الوكيل ومحمود أبو الفتح وحسين أبو الفتح».

وقد كتبنا من قبل أكثر من مرة نسجل موقف «محمد حسين هيكل» الشجاع والموضوعي وغير الانتهازي على غير ما فعل بعض الشهود الآخرين ولا داعي لذكر أسمائهم. المهم عندنا شهادة المحكمة في حق «محمد فؤاد سراج الدين» وفي نزاهته. قال رئيس المحكمة قائد الجناح «عبد اللطيف البغدادي» موجهًا كلامه لفؤاد سراج الدين: أن المحكمة لا تشك في نزاهتك. ورد فؤاد سراج الدين - بذكاء الفلاح المصري - مع شكري للمحكمة قد يكون للادعاء رأي آخر، وقف المدعي وقال: إن الادعاء يشارك المحكمة هذا الرأي ويعلم أنك كنت تنفق على السياسة من مالك الخاص.

الأوراق كثيرة والمساحة المتاحة محدودة، وهذا (رجل من مصر).. فلاح صلب من كفر الجرايدة.

الأسـانيد:

- إبراهيم طلعت - روزاليوسف ١٣ سبتمبر عام ١٩٧٦ .
- أنور السادات - أسرار الثورة المصرية وقصة الثورة كاملة .
- حسن يوسف - القصر ودوره فى السياسة المصرية .
- صلاح عيسى - محاكمة فؤاد سراج الدين باشا .
- طارق البشرى - الحركة السياسية فى مصر ٤٥ - ١٩٥٢ .
- عبد الفتاح حسن - ذكريات سياسية .
- محمد عودة باشا والثورة .
- محمد فؤاد سراج الدين - لماذا الحزب الجديد .
- مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر - النظارات والوزارات المصرية .

الشيخ محمد الغزالى



ظلت صورته غير محددة الإطار فى ذهنى منذ مايو عام ١٩٦٢ وما أثاره «الرجل» داخل ما أسموه (مؤتمر القوى الشعبية) والأخذ والجذب على صفحات الصحف والمجلات بينه وبين عدد من الكتاب. وفى عام ١٩٨٧م أهدانى زميلى - الراحل رحمه الله - محمد شلبى نسخة من الطبعة الأولى لكتابه (الشيخ الغزالى ومعركة المصحف فى العالم الإسلامى)، وكان زميلى هذا شديد الحماسة لأرائه بعبارة صريحة ساخنة، وكان سلوكه معنا فى العمل ودودا وخدوما. ووجدت فى الكتاب عرضا صريحا لما أسماه الكاتب المعارك بين«الغزالى» وبين عدد من المثقفين. وفى عام ١٩٩٢م أصدر الزميل والصديق «د. محمد عمارة» كتابه (الشيخ محمد الغزالى - الموقع الفكرى، والمعارك الفكرية) والمفكر الإسلامى «محمد عمارة» يتميز بمادته الغزيرة والتى يسوقها فى ترتيب مقنع. ووجدت فى الكتاب طرحا للمشروع الفكرى عند الغزالى من خلال أكثر من خمسين كتابا صدرت له أى للشيخ الغزالى. واستمعت باهتمام لعبارة من المفكر المستشار - طارق البشرى - وهو له عندى تقدير خاص. . وكنا بصدد الدخول إلى ندوة من ندوات (كاتب وكتاب) التى كنت أعدها وأقدمها فى معرض القاهرة الدولى للكتاب. . قال لى البشرى عندما ورد اسم «الشيخ الغزالى»: إنه يميل الآن إلى الاعتدال. وسمعت مثل هذا الكلام من «أحمد بهاء الدين» الذى أشار علىّ أن أقرأ كتاب (السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث) للغزالى.

أخذت كتب الشيخ الغزالى تأخذ مكانها فى مكتبتى الخاصة ومما قرأته له

وتوقفت عنده كتابان . . الأول : سر تأخر العرب والمسلمين . . ووجدت فيه جسارة علمية لمواجهة الواقع العربى والإسلامى ومحاولة جادة لتشخيص الأمراض التى تكاد تحيق بالعرب والمسلمين . والثانى : أزمة الشورى فى المجتمعات العربية والإسلامية ووجدت فيه فصيلة صدام ضد الحكم الفردى والاستبداد السياسى ودفاع عن دستور ١٩٢٣ وتوجيها واعيا بالأخذ من أساليب الديمقراطية الغربية . ودعوت «الشيخ الإمام» لندوة فى معرض الكتاب وكان جمهوره طاغيا ولكن صوتا لشاب صغير السن ارتفع من بين الحضور يتهم الشيخ بأنه من «أصوات السلطة» واستشاط «الشيخ» غضبا وهو يقول بأعلى الصوت : (لقد قضيت بعيدا أو مبعدا عن بلدى لعشر سنوات كاملة)، ثم تأتى أيها الابن الصغير وتتهمنى بأننى من أتباع السلطة . . يكفينى يا بنى أننى كنت تلميذا للإمام الشهيد . . الشيخ حسن البنا . والآن نقلب الصفحات مع الشيخ الإمام محمد الغزالى .

المتدينون والدستور:

قال «الدكتور رمضان عبدالتواب» عميد كلية آداب عين شمس الأسبق فى تقديمه لكتاب زميلنا الراحل «محمد شلبى» الذى أشرنا إليه فى بداية هذا الحديث : (يتميز شيخنا الغزالى بطلاوة الحديث ، وحسن العرض ، وسلامة العبارة ، وقوة المقدمات التى تسلمك إلى نتائج تحل منك فى صميم الفؤاد) وللأمانة فإننا ننبه القارئ أننا لا نحرمه من هذه المميزات وفى مسيرتنا مع «الشيخ» نتركه هو يتحدث إلى القارئ كلما كان إلى ذلك سبيل .

كان «الشيخ الغزالى» من الدعاة إلى أهمية (دستور ١٩٢٣م) ، وكان يأخذ على بعض المتدينين قلة الاكتراث بالدفاع عن هذا الدستور . كتب يقول : فى الربع الأول من القرن العشرين حصلت مصر على دستور من أحدث الدساتير وأقواها على حماية الأفراد والجماعات ، وأمكنت بنوده النواب من اعتراض على نفقات الملك كلما أراد أن يصلح بآخرته الخاصة من الموازنة العامة . وبقى هذا الدستور ثلاثين عاما . ومع كل الأزمات التى أصابته فإن الحريات العامة تغلبت على العلل المصنوعة . لكن الأمر الذى يقبض الصدر ويحدث الأسى أن موقف المتدينين من

هذا الدستور كان قلة الاكتراث. وأذكر أننى من ثلث قرن - الغزالى هو الذى يتكلم - قابلت أستاذى الكبير الإمام حسن البنا لأشكو إليه موقف المتدينين عامة من قضية الحريات الدستورية، وكان يصحبنى الأستاذ خالد محمد خالد، وكان حوارا عاصفا قلت فيه أن المركز العام لا يدافع عن الدستور. وكان الإمام الشهيد أحكم منى وأرزن، فرد اتهامى بلطف، وأصدر أمره إلى مجلة الإخوان أن تنشر لى ما أكتب ولو كان ضد سياسة الجماعة.

كان الشيخ الغزالى إذن من دعاة الحريات الدستورية ومن المدافعين عن الدستور، بل إننا نجده ليتحدث عن الديموقراطيات الغربية حديثا لا نجده إلا عند غلاة المدافعين عنها.. إن الديموقراطيات الغربية إجمالا وضعت ضوابط محترمة للحياة السياسية الصحيحة. وينبغى أن ننقل الكثير من هذه الأفكار، لنسد النقص الناشىء عن جمودنا الفقهى قرونا طويلة.

وقد قلت ومازلت أقول - شيخنا هو الذى يتكلم - إننا أغلقنا باب الاجتهاد قرابة ألف عام. إذ حصنت الشورى هناك بضمانات شتى لمنع الطغيان، وأقدار المعارضين فى أمان، فلحساب من نرفض هذه الضمانات؟ إذا حصنت الأموال العامة والخاصة بضمانات مضاعفة لتنمية المكاسب ومنع السلب والنهب، فما الذى يصدنا عن نقل هذه الحصانات لحراسة مجتمعنا؟!

مأساة الحكم الفردى:

كان «شيخنا» يعتقد أن ثروتنا من المواهب الثمينة والكفاءات المثمرة كبيرة، وأن حظوظنا من تلك المعادن الثمينة النفيسة لا تقل عن مثيلاتها لدى الدول العظمى. كل ما هنالك من فروق - فى رأى الشيخ - أن غيرنا انتفع بما يملك وأتاح الفرص لبقائه ونمائه. وعملت الحريات الموفورة عمل الأشعة فى إنضاج الزرع، وعمل المياه فى إمداده بالنضارة والحياة.

أما فى أرجاء العالم الإسلامى فإن الحكم الفردى - من قديم - أهلك الحرث والنسل، وفرض ألوانا من الجدب العقلى والشلل الأدبى أزوت الآمال..

والغريب أن هذا التخريب يناقض مناقضة ظاهرة توجيهات الإسلام فى كل ناحية .

صاحب الصواب لا يهاب النقاش ، وصاحب الحق يقرع به الآذان . المأساة تحدث من مبطل يريد بالعصا أن يخرس الآخرين ، ومع تفاهة ما عنده يقول ما قاله فرعون قديما .

﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ وإلى أين قادهم؟ إلى الغرق فى الدنيا والحرق فى الآخرة . إن الاستبداد السياسى يبيد كل أسباب الارتقاء والتقدم ، ولا تصلح الحياة برجل يزعم العلم بكل شيء ، ويتهم الناس كلهم بأنهم دونه وعيا وفهما . . والدول الكبرى الآن ليس فيها مكان للتفرعن والادعاءالأعمى ، إن هذه الآفات تكثر للأسف فى الدويلات التى تعيش فى غيبوبة التخلف والاستسلام لجلاديها .

من البلاء أن يكون الرأى لمن يملكه لا لمن يبصره ، والمستبدون يضعون أنفسهم فوق المسئولية . إن الاستبداد السياسى ليس عصيانا جزئيا لتعاليم الإسلام ، وليس إماتة لشرائع فرعية فيه ، بل هو إفلات من ربقته ودمار على عقيدته .

ويرى «الغزالى» أن من ميزات الشورى أنها ترد الحاكم إلى حجمه الطبيعى كلما حاول الانتفاخ والتطاول . وشهدت الإنسانية عصرا من الشورى على عهد الخلافة الراشدة ، كان الحاكم فيه نموذجا رفيعا للإنسان الطيب المتواضع ، اللين الجانب ، الرحيم بالناس ، السليم من علل التطلع والكبر ، الذى يرى الكبير أبا والصغير ابنا والباقين إخوة .

ويذكر حوارا دار بين «عمر بن الخطاب» و«سلمان الفارسى» . قال سلمان لعمر ابن الخطاب : نرى ثوبك طويلا ، وما حصل أحدنا إلا على ملبس قصير فمن أين لك هذا؟ وأحس عمر كأنه متهم باستغلال الحكم فقال لابنه عبدالله . . قم فحدث الناس . . وقام عبدالله ليقول : إن نصيب أبى من الثياب لم يكن يغنيه لأنه رجل طوال ، فأعطيته نصيبى ليكمل حلته . . ! وهكذا اتضح الموقف . . فقال سلمان لعمر بن الخطاب . . الآن قل ونحن نسمع ياابن الخطاب .

هـــــزيمـة ٦٧:

وبعد أن عدد «الشيخ الغزالى» واقع العرب والمسلمين قال بصراحة: أن كل المصائب التى تحيق بالعرب الآن سببها هزيمتهم عام ١٩٦٧م. والغريب أن صانع هذه الهزيمة أو بطلها الفذ لم يوجه إليه لوم، أو ينسب إليه عيب. إن الفرق بين العالم الأول والعالم الثالث لا يرجع إلى أن المتفوقين قادرون على غزو الفضاء وصنع الطائرات العملاقة، إن هذا مظهر التفوق لا سببه. الواقع أن الفرق هو النشاط الذهنى عند هؤلاء والكسل الذهنى عند أولئك، هو غزارة العلم عندهم وضآلة العلم عندنا.

ويعود «الشيخ محمد الغزالى» إلى حرب اليمن.. خاضت مصر حربا فى اليمن أفلست فيها خزائنها وتعطلت مرافقها، ولا تزال دائخة من مغارمها إلى اليوم فوق عشرات الألوف من القتلى والمصابين.. وقد فعل ذلك حاكم زعم لنفسه أو زعم له المنافقون حوله أنه فلتة الدهر بعد مينا وعمر.. أفلو كانت هناك مؤسسة محترمة للشورى كان يقع هذا الخراب؟!

انتهى كلام الشيخ عن هزيمة عام ١٩٦٧م وعن حرب اليمن وما جرته على مصر ولا شك أن الهزيمة والحرب هما من مآسى الحكم الفردى ومن أزمة الشورى.

فى مواجهة السلطان:

ظل الشيخ الإمام «محمد الغزالى» حريصا على أن يبسط وجهة النظر الإسلامية بأمانة وإخلاص، وأن يعرض آمال الجماهير فى العيش تحت لواء الإسلام. وكان من وراء ذلك أن تأزمت أموره مع «جمال عبدالناصر» عندما شارك الشيخ فى مايو عام ١٩٦٢م فى (مؤتمر القوى الشعبية)، وتحدث بما يمليه عليه ضميره الوطنى وكتب «محمد التابعى» يقول: تسعة أعشار المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية كانوا مع «الشيخ محمد الغزالى» عندما تحدث عن الفتنة التى تمشى فى الشوارع عارية السيقان والصدر والظهر. وخرجت أقلام ورسوم كاريكاتورية تنال من الشيخ. وتأزمت الأمور بين الشيخ و«أنور السادات» بسبب قانون الأحوال الشخصية والذى

تم تعديله فيما بعد. وأبعده السادات عن منصبه كمدير عام للدعوة، وعن إلقاء الخطبة فى مسجد عمرو بن العاص واتهمه - دون وجه حق - بصلته فى قضية الكلية الفنية العسكرية. ومما يلفت النظر أن جماهيرية الشيخ الغزالى ظهرت إزاء تلك الأزمـــات فى مظاهرات ثلاث تؤازر الشـــيخ الذى لم يكن له أدنى صلة بتلك المظاهرات وحرص فى بياناته وخطبه وأحاديثه ألا يمس أى شخصية مسئولة، وألا يثير حماسة الجماهير، كما أنه قضى مدة عشر سنوات بين المملكة العربية السعودية وقطر والجزائر.

الواقع العربى والإسلامى:

حين أراد أن يتعرض لأزمة الشورى ومأساة الحكم الفردى رأى من الأفضل أن يعرض أولا للواقع العربى والإسلامى وما يشوب هذا الواقع من هوان وضياع، وهو النتيجة الحتمية لغياب الشورى الحقيقية، ولشيوع الاستبداد السياسى فى هذا الواقع المؤسف. يقول الشيخ:

لقد مضت القرون والإسلام بما له وما عليه ينطلق هنا وهناك، ويشتبك مع القوى المناوئة له فى حرب سجال، ثم تكاثرت الفتن والخيانات فى الجانب الإسلامى وطلع القرن الرابع عشر على أمة أنهكتها العلل، ودين ليس له رجال فانفرط العقد كله، وتفرق المسلمون واستأثر بأرضهم البغاة. ما الوضع فى نهاية القرن الرابع عشر؟ استمكن أعداء الإسلام من خناقه فتم لهم تمزيق جماعته الكبرى أشلاء منثورة على صعيد القارات الخمس، وقامت كيانات مستقلة للمسلمين افتقدت روح الإسلام الحقيقية واجهت تركة ثقيلة من التخلف ومضاعفات النزف الإستعمارى لثرواتها، ولم تستطع هذه الكيانات أن تحفظ كرامة الإنسان المسلم فى داخلها، ولا أن تعترف له بأيسر حقوقه فى الشورى والمشاركة فى الحكم.

وإنه ليحز فى النفس أن يكون لدينا أغنياء يبذلون الألوف المؤلفة فى إشباع الشهوات، وتجف أصابعهم عن بذل شىء من حماية الأرض والعرض والإيمان والشرف. فى ذلك الجو النكد وقعت مذابح رهيبة بين جماهير المسلمين المبعثرة فى

المشارق والمغارب. وقد ضرب «الشيخ» أمثلة لما حدث للمسلمين فى كمبوديا وفى أفغانستان وفى تشاد وفى الهند والكاميرون.

الوصـايا العشـر:

وهذه هى الإضافات التى رأى أن المجتمع الإسلامى فى حاجة إليها، وهى تتضمن مؤشرات معتدلة مستنيرة فى الشئون المختلفة:

١ـ النساء شقائق الرجال.. وللنساء فى حدود الآداب الإسلامية ـ حق المشاركة فى بناء المجتمع.

٢ـ الحكام ـ ملوكا كانوا أم رؤساء ـ إجراء لدى شعوبهم يرعون مصالحها الدينية والدنيوية.

٣ـ الشورى أساس الحكم ولكل شعب أن يختار أسلوب تحقيقها.

٤ـ للإنسان حقوق مادية وأدبية تناسب تكريم الله له.

٥ـ الملكية الخاصة مصونة بشروطها وحقوقها التى قررها الإسلام.

٦ـ اختلاف الدين ليس مصدر خصومة واستعداء.

٧ـ علاقة المسلمين بالأسرة الدولية تحكمها مواثيق الإخاء الإنسانى المجردة.

٨ـ يسهم المسلمون مع الأمم الأخرى ـ على اختلاف دينها ومذاهبها فى كل ما يرقى ماديًا ومعنويا بالجنس البشرى.

٩ـ أسرة الدول الإسلامية مسئولة عن الدعوة الإسلامية.

١٠ـ الأسرة أساس الكيان الخلقى والاجتماعى للأمة.

والآن سؤال من عند كاتب هذه الحلقة.. هل يرى القارئ فيها تشددا أو تعصبا أو أى مساس بالأخوة الوطنية لا أظن.

خطواته على الطريق:

- هو الداعية المجدد «الشيخ محمد الغزالى السقا».

- ولد يوم ٢٢ سبتمبر عام ١٩١٧م لأسرة متدينة فى قرية (نكلا العنب) مركز إيتاى البارود، محافظة البحيرة.

- سماه والده «محمد الغزالى» تيمنا بحجة الإسلام «أبو حامد الغزالى».

- والد زوجته كان رجلا صالحا يميل إلى التصوف.

- تزوج «الغزالى» وكان لا يزال طالبا فى كلية أصول الدين بالأزهر.

- كان «الغزالى» أكبر إخوته السبعة.

- أنجب أربعة أبناء احتسب عند الله اثنين، وخمس بنات إحداهن متزوجة من الصحفى المعروف «محمد عبدالقدوس».

- حفظ القرآن الكريم وعمره عشر سنوات.

- حصل على الابتدائية والثانوية من معهد الإسكندرية الدينى.

- كان والده تاجرا بسيطا باع أرضه الصغيرة، وفتح مكتبة فى الإسكندرية أفاد منها «الشيخ الغزالى» فائدة عظيمة.

- التحق بكلية أصول الدين عام ١٩٣٧، وحصل منها على العالمية عام ١٩٤١.

- عين عام ١٩٤٢م إماما وخطيبا بمسجد «العتبة الخضراء» بالقاهرة.

- تتلمذ على يد الشيخ محمود شلتوت الذى أصبح فيما بعد شيخا للأزهر.

- تتلمذ على يد «الشيخ حسن البنا» لمدة طويلة.

- قضى فى معتقل الطور عام ١٩٤٩م، وقضى حوالى عام ١٩٦٥ فى سجن طرة.

- عام ١٩٧٧ أعير أستاذا بجامعة أم القرى بالمملكة العربية السعودية.

- مارس عام ١٩٨١م عين وكيلا لوزارة الأوقاف لشئون الدعوة الإسلامية.

ـ ألف أكثر من خمسين كتابا ـ أول كتاب له عام ١٩٤٨م (الإسلام والأوضاع الاقتصادية).

ـ توفى إلى رحمة الله عام ١٩٩٦م.

الأسانيد:

محمد شلبى: الشيخ الغزالى ومعركة المصحف فى العالم الإسلامى.

د. محمد عمارة: الشيخ محمد الغزالى.. الموقع الفكرى والمعارك الفكرية.

الشيخ محمد الغزالى: سر تأخر العرب والمسلمين ـ أزمة الشورى فى المجتمعات العربية والإسلامية.

محمود تيمور.. والشيخ جمعة



الفنان الذكى «زكى طليمات» فى تقديمه للجزء الثانى من «وميض الروح» الذى أعده «محمود تيمور» عن أعمال شقيقه الراحل «محمد تيمور» كانت هوايته - أى هواية الأستاذ طليمات - أن يبحث فى «الوراثة العائلية» لهذه الشجرة التيمورية وارفة الظلال فى اللغة والحضارة والشعر والأدب وفنون المسرح والسينما. والوراثة العائلية - فى تقدير طليمات - هى أبين مظاهر الوراثة العامة وبها تتأثر نزعات المرء وميوله. الجد «إسماعيل تيمور باشا» صاحب المكتبة الكبيرة والاطلاع الواسع فليس هذا الميل إلا قبسا من تلك الشعلة التى كمنت فى نفس الأسرة التيمورية فأبرزت أفرادا عديدين ذوى غيرة على الأدب فى مهدها ببلاد الأكراد. وهنا يؤكد «زكى طليمات» أن الجد الأكبر لهذه الشجرة من أصل كردى، وأما نزعة الشعر والفن والجمال فهى إحدى مخلفات الدم الإغريقى الذى كان يجرى فى عروق الجد للأم.. فهو إغريقى صميم.. ثم يتداخل هذان العنصران فى بوتقة مصر بحضارتها ونيلها ودينها.. وهكذا فكل واحد من هذه الشجرة يحمل فى ذراته مزاجا خاصا من الدم المصرى والدم الإغريقى والدم الكردى.

ونحن هنا شئنا أم أبينا عندما نتحدث عن «محمود تيمور» الذى قدم نفسه بقوله: «حياتى كلها للأدب وحده.. تأثرت بالتاريخ العربى والإسلامى إلى أبعد حد، فإننا بالضرورة يجب أن نمهد للحديث عنه بالحديث عن والده.. أحمد تيمور باشا.. وعن عمته عائشة التيمورية وعن شقيقه «محمد تيمور».

أحمد تيمور باشا «١٨٧١م ـ ١٩٣٠»، ومحمد تيمور بك «١٨٩٢ـ١٩٢١م» وعائشة التيمورية «١٨٤٠م ـ ١٩٠٢م»، ثم يأتي الوريث في الأصول المعرفية وفي النزعة الأدبية والفنية . . محمود تيمور «١٨٩٤ م ـ ١٩٧٣م»

أول قصة كتبها في حياته كانت بعنوان «الشيخ جمعة» عام ١٩٢٥م، وعندما أحس بنهايته تقترب نشر مقالا عنوانه «عود إلى الشيخ جمعة» قال في نهايته : «عدت إليك يا صديقي الشيخ جمعة بعدما يقرب من خمسين عاما لأجلس على عتبة كوخك، وأسند رأسي إلى بابك، ثم أسيل جفني لأنعم في جوك بأحلام السكينة والطمأنينة والأمان»، ونترك محمود تيمور عند كوخ الشيخ جمعة ونبدأ المسيرة كما اتفقنا بأحمد تيمور وعائشة التيمورية ومحمد تيمور على وعد بأن نعود إلى محمود تيمور .

أحمد تيمور باشا . . شقيق عائشة التيمورية ووالد محمد تيمور ومحمود تيمور . . ورث مكتبة عامرة من أبيه «إسماعيل تيمور باشا» وأضاف إليها الكثير من التراث القصصي «ألف ليلة وليلة» وغيرها ولحديث عيسى بن هشام ـ للمويلحي» وكتب في تاريخ العرب والإسلام، وكان على درجة كبيرة من الإدراك والوعي . . وترك لنا : الخزانة التيمورية» والأمثال العامية .

عائشة التيمورية . . «١٨٤٠م ـ ١٩٠٢م» شقيقة «أحمد تيمور باشا» والد «محمد ومحمود تيمور»، وهي تقف في طليعة الحركة النسائية المصرية حسب تقدير «ليلى أبو لغد» الأستاذة بجامعة نيويورك في كتابها «الحركة النسائية في الشرق الأوسط» . ولدت في أحد قصور «درب سعادة» أحد أحياء الدرب الأحمر . وهي ابنة «إسماعيل تيمور باشا» رئيس القلم الأفرنجي للديوان الخديوي، عهد بها والدها إلى من علموها القرآن الكريم واللغات العربية والفارسية والشعر . وكتبت في جريدة «المؤيد ـ للشيخ علي يوسف» وأصدرت ديوانا باللغة العربية «حلية الطراز» وديوانا باللغة الفارسية، ورواية بعنوان «اللقاء بعد الشتات» وفي عام ١٨٩٨م فوجئت بمرض في المخ أرقدها أربع سنوات إلى أن توفيت عام ١٩٠٢م . وتولى ابنها «محمود زادة» جمع وطبع إنتاجها شعرا ونثرا باللغات العربية والتركية والفارسية .

محمد تيمور بك . ولد عام ١٨٩٢م وهو يكبر شقيقه «محمود» بعامين . وتوفي

«محمد تيمور» عام ١٩٣١م، أى أنه عاش حوالى ٢٩ عاما. وتفرغ «محمود تيمور» لجمع تراث شقيقه الراحل «الشعرى والنثرى» وقدم شقيقه الفيا وكأنه يقدم نفسه. . متشابهان فى الصفات والطباع والإبداع. . كان «محمد» بمثابة الأستاذ والرائد لشقيقه «محمود» أصدر الشقيقان جريدة خاصة كان توزيعها مقصورا على الأسرة أول الأمر ثم أصابت حظا من الرواج والانتشار بين أهل الحى الذى يسكنان فيه. . وكانا مع الرباط الأدبى الفنى على هوى واحد فى رياضة كرة القدم، وكونا فرقة من رفاق الحى يدعوان بها الفرق المجاورة إلى تبادل المباريات. . سافر «محمد» إلى فرنسا وعمره دون العشرين، وأمضى هناك ثلاث سنوات فى باريس وعاد إلى مصر قبل الحرب العالمية الأولى. وحالت الحرب دون أن يعود ثانية إلى فرنسا.

وعاد «محمد» من فرنسا ينادى بالديمقراطية» الحقة، وبدأ يجمع حوله الشباب المستنير، وقال إن الترجمة فيها تنوير للأمة جمعاء. حبذا القديم فى الشعر وحبذا الجديد أيضا. قال فى مقدمة ديوانه الأول: الشاعر طائر لا يعرف دارا ولا موطنا. . فإن راقت له جنة القديم غرد بها، وإن أعجب بجنة الجديد سجع فى دوحها. اشترك فى جمعية «أنصار التمثيل» وفى «جمعية رقى الآداب»، انضم إلى «الحزب الديمقراطى» الذى تأسس فى بيت آل عبدالرازق خلف سراى عابدين، واشترك فيه «عزيز ميرهم ومنصور فهمى ومحمد حسين هيكل والشيخ مصطفى عبدالرازق» وتفرق هذا الحزب بعد تكون الوفد وفيما بعد «الأحرار الدستوريون». .

وأعجله الموت وقضى دون الثلاثين. توفى عام ١٩٢١ م، وقال الشيخ مصطفى عبدالرازق فى حفل تأبين «محمد تيمور»: نريد أن نسجل فى تاريخ نهضتنا صحيفة لشاب ديمقراطى حر نبيل، جدير بشباب مصر الناهض إلى الحرية والديمقراطية أن يتخذه مثلا. . لقد خرج من دار الملك ليشتغل فى دار التمثيل يؤلف الروايات ويمثل أحيانا. وكان «محمد تيمور» قد عمل فى السراى السلطانية أمينا للسلطان «حسين كامل»، ثم ترك القصر فى عهد «السلطان أحمد فؤاد. وكتب روايته «الهاوية» وقامت فرقة التمثيل العربى بتمثيلها بعد وفاته بشهرين. وكتب قصيدة بعنوان «شاب يحتضر» وكأنه ينعى نفسه:

فوق سرير الموت نام الذى زال ابتسـام العيش عن ثغره
قـد وقـع الآمـال لا يرتجى منها سـوى الراحـة فى قبـره

محمـود تيمـور:

تأثر بتاريخ العرب والإسلام فى أعماله :

- مسرحية «اليوم خمر» بطلها شاعر العصر الجاهلى امرؤ القيس
- مسرحية «ابن جلا» بطلها الحجاج بن يوسف الثقفى أمير العراق فى دولة بنى أمية .
- مسرحية «طارق الأندلس» بطلها طارق بن زياد .
- مسرحية «صقر قريش» بطلها عبدالرحمن الداخل .

بدأ كتابة القصة منذ عام ١٩٢٥م . بدأ فى فجر حياته الأدبية واقعيا مسرفا فى واقعيته ، وانتهى إلى تحليل النفس الإنسانية والكشف عن الدوافع الخفية للسلوك البشرى . اهتم بتصوير البيئة المصرية والنماذج المحلية من طبقات الشعب . . العمال والفلاحين . . تدرج بعد ذلك إلى أفق أرحب فقدم النماذج الإنسانية .

بدأ قارئا فى مكتبة والده «أحمد تيمور باشا» ، وطالع فيها التراث القصصى ثم أصبح تلميذا للثقافة الفرنسية والإنجليزية والروسية . . لموباسان وديكنز وتشيكوف . كان أمله أن يكون للأدب المصرى صدى عالمى .

قال عنه «د. طه حسين» يوم استقباله عضوا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٥٠م : «أنك لتوفى حقك إذا قيل إنك أديب عالمى بأدق معانى هذه الكلمة وأوسعها» .

وقال عنه المستشرق المجرى «د. عبدالكريم جرمانوس» : «يرسم شخصيات أبطاله فى وضوح وصدق وإخلاص ، ويسير بهذه الشخصيات من أجواء التعاسة والهوان لتجد هدفها الحقيقى فى الحب والجمال» . وقال عنه «محمد فريد أبوحديد» : «إن فن تيمور هو القصص الواقعى الإنسانى الملىء محبة للإنسان» .

كانت حياته كلها للأدب، لم يقبل الاستمرار فى الوظيفة. صدرت له ٢٤ مجموعة قصصية و١١ رواية، و١١ مسرحية، و٤ أعمال فى أدب الرحلات، و٤ أعمال صور وخواطر و١١ دراسة لغوية وأدبية.

المسـيرة:

ولد عام ١٨٩٤م. وفى الثامنة من عمره حفظ معلقة امرؤ القيس كتب فى المؤيد والسفور والمنبر والأخبار. التحق بمدرسة الزراعة العليا ولكنه مرض فلم يتم دراسته الزراعية فسافر إلى سويسرا للاستشفاء.. وهناك أتيحت له دراسة عالية فى الآداب الأوروبية. درس الأدب الفرنسى والأدب الروسى. حاضر فى الجامعات المصرية ومعاهد الدراسات المصرية والعربية والجامعة الأمريكية والندوات الأدبية فى نادى القصة ونقابة الصحفيين وجمعية الشبان المسلمين. وحصل على جائزة «واصف غالى» بباريس عام ١٩٥٠ عن أحد كتبه المترجمة إلى الفرنسية وهو «عزرائيل القرية».

خدم اللغة العربية بأن جمع ألف كلمة وطبعها فى «معجم ألفاظ الحضارة» اختير عضوا بمجمع اللغة العربية، وعضوا بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، وعضوا بالمجمع اللغوى بالعراق. ثم عكف على عمله الأثير لديه وهو «معجم ألفاظ الحضارة»، وبدأ يضع الكلمات المناسبة بدلا من الكلمات المستعملة. مثلا: اختار المتكأ بدلا من الكنبة.. والأريكة بدلا من الشيزلونج.. والطبقة السفلى بدلا من البدروم.. والردهة أو البهو بدلا من الصالة.. والشرفة بدلا من التراسينة. وهكذا وربما لا يميل القارئ إلى هذه الكلمات الجديدة، ولكنه كان شغوفا بمثل هذه المحاولة المضنية.

دعته الأقطار الشرقية والغربية.. دعى إلى مؤتمر الأدباء فى بيروت عام ١٩٥٤، ومؤتمر العلم فى بيروت فى العام نفسه، ومثل مصر فى مؤتمر الدراسات الإسلامية بباشاور ـ الباكستان ـ ثم مؤتمر دمشق. ترجمت بعض أعماله إلى اللغات الفرنسية والإنجليزية والألمانية والإيطالية والروسية والصينية والإسبانية.

أما رحلته إلى السويد فقد سجلها فى كتابه «شمس وليل».

حبيب زحلاوى:

حبيب زحلاوى هذا لبنانى الأصل كان يتردد على القاهرة ويتعاطى الأدب وإنتاجه قليل منه كتاب بعنوان «شيوخ الأدب الحديث». وعرف بيننا بالطعن فى قمم الثقافة والأدب المصريين. حدث أن لقيته فى إحدى ندوات «رابطة الأدب الحديث» التى كان يرأسها الناقد الوفدى الصميم عبداللطيف السحرتى، وفى جنازة «مصطفى النحاس باشا» سار «السحرتى» مع الألوف التى خرجت تودع «الزعيم مصطفى النحاس»، وحاولت الشرطة اعتقال السحرتى لكنه ـ رغم كبر سنه ـ استطاع أن يفلت من الشرطة واختفى إلى أن هدأت الأمور. المهم أننى سمعت بأذنى من «حبيب زحلاوى» هذا فى رابطة الأدب الحديث ـ عندما جاء ذكر ـ الكاتب الكبير «سلامة موسى». . أن سلامة موسى: «كان يعمل لحساب وزارة الداخلية المصرية! وأنه رآه بنفسه خارجا من وزارة الداخلية». . وفورا أفضيت بهذا الهراء إلى الأخ الكبير «السحرتى» الذى ابتسم قائلا: «ده راجل مهووس ـ يقصد الزحلاوى ـ سيبك منه» وسألت وعرفت حقيقة سلامة موسى وحقيقة حبيب زحلاوى. . سلامة موسى كان مصريا وطنيا شريفا باع ما ورثه عن أبيه فى مديرية الشرقية لينفق ما يصدره من كتب ومطبوعات لتنوير المصريين. كان معاديا صلبا للاحتلال والقصر والأحزاب الأقلية. . وحقيقة الموقف أنه عام ١٩٢٩ اعتزم إصدار مطبوعته «المجلة الجديدة»، وكانت وزارة محمد محمود قد ألغت حوالى مائة مطبوعة. وذهب مرات عديدة إلى وزارة الداخلية مطالبا بحقه فى إصدار «المجلة» الجديدة. . وربما رآه فى إحدى هذه المرات المدعو «حبيب زحلاوى» فروج الرواية الظالمة المكذوبة على «سلامة موسى»، وكانت هذه الرواية وحقيقتها فى ذهنى عندما قدم لى «محمد شلبى ـ المرحوم» مخطوط كتابه «مع رواد الفكر والفن» لأنشره له عندما كنت مسئولا عن النشر بهيئة الكتاب، وكان «شلبى» من زملائى العاملين معى فى النشر بالهيئة وكانت له صلات قديمة مع جماعة الإخوان المسلمين وكان يشعر بالقلق الدائم. وقدم لى مشروع هذا الكتاب وهو عبارة عن مقابلات له مع رواد الفكر والفن وليس من بينهم «محمود تيمور» وسألته. . وقال لى إنه قرأ فى كتاب «شيوخ الأدب الحديث». . للزحلاوى أن الباحث المدقق «محمد شوقى أمين» بمجمع اللغة العربية هو الذى يكتب القصص التى ينشرها «محمود تيمور»

حكيت له حقيقة هذا الزحلاوى وما ردده عن عملاق مثل «سلامة موسى» وقلت له في حزم «محمد شوقى أمين صديقنا وهو على قيد الحياة، ومحمود تيمور رائد كبير وهو على قيد الحياة. وواجبك أن تتقصى الحقيقة بنفسك ولا تدع الاتهام الزحلاوى الكاذب معلقا. . ولم يتردد «محمد شلبى» رحمه الله وسأل «محمد شوقى أمين عن الحقيقة. . فقال له «محمد شوقى أمين»: قرأت ما كتبه حبيب الزحلاوى واتصلت به معاتبا. . ثم هممت بالرد عليه ولم يمنعنى من ذلك إلا «محمود تيمور» نفسه. . وتيمور يكبرنى فى العمر بـ١٦ عاما. . نشأت أقرأ له وأتتبعه فى مجلة الهلال. . وذهبت وأنا ألبس القبقاب واشتريت أول ما كتبه «محمود تيمور» وهى «قصة الشيخ جمعة». . وكان لتيمور من الكتب قبل أن أعرفه أو أراه ما يجعل من شخصه عملاقا للأدب. . وأكد «محمد شوقى أمين» أنه لم يكتب فى حياته إلا أقصوصة واحدة نشرت فى جريدة الأهرام عام ١٩٣٨ بعنوان «محاكمة المأمون». وحمل «محمد شلبى» رواية «محمد شوقى أمين» إلى «محمود تيمور»، وأجرى معه اللقاء الذى ظهر فى كتاب «مع رواد» الفكر والفن عام ١٩٨٢ ورحم الله محمود تيمور ومحمد شوقى أمين ومحمد شلبى.

الرحيل والميراث:

فى ٢٥ من شهر أغسطس عام ١٩٧٣م توفى «محمود تيمور» فى لوزان بسويسرا «ولد فى ١٦ يونيو عام ١٨٩٤م». كتب مسرحياته بالعامية والفصحى، ثم عاد وكتب بالفصحى ما كان قد نشره بالعامية. وعام ١٩٦٢م احتفل الاتحاد السوفيتى والمجر بأدبه فى مدرسة الدراسات الشرقية بموسكو وفى بودابست بالمجر. . رحل وترك لنا من آثاره: «كل عام وأنتم بخير - مكتوب على الجبين - إحسان لله - قال الراوى - دنيا جديدة - سلوى فى مهب الريح - نداء المجهول - أبو الهول يطير - صقر قريش - أبو شوشة والموكب - حواء الخالدة - اليوم خمر - أشطر من أبليس - النبى الإنسان - شفاء الروح - مشكلات اللغة العربية - دراسات فى القصة والمسرح . . وميض الروح جـ١ ووميض الروح جـ٢ . . يحتويان على مؤلفات شقيقه محمد تيمور.

وفى مجمع اللغة العربية اشترك فى لجنة الأدب ولجنة تيسير الكتابة ولجنة ألفاظ الحضارة ولجنة علوم الأحياء والزراعة .

ونشر فى صباه فى صحيفة «المؤيد» وغيرها من صحف تلك الأيام، كما أنه نظم الشعر لفترة من فترات حياته . رحل - رحمه الله - وقد ترك من آثاره ما يذكره به محبوه ومريدوه وهم كثيرون .

الأسانيد:

١ - أميرة خواسك . . رائدات الأدب النسائى فى مصر .

٢ - رستم كيلانى . . جريدة الأهرام ٢٨/٨/١٩٩٨م

٣ - زكى طليمات . . حياتنا التمثيلية «مقدمة جـ٢ مؤلفات محمد تيمور» .

٤ - ليلى أبو لغد . . الحركة النسائية فى الشرق الأوسط .

٥ - محمد شلبى . . مع رواد الفكر والفن .

٦ - محمود تيمور . . مؤلفات محمد تيمور .

٧ - د. مهدى علام . . المجمعيون فى خمسين عاما .

عبد الحميد الديب



واحد من ظرفاء وعظماء القرن العشرين، شاعر البؤس والفاقة والحرمان «عبدالحميد الديب»، إذا ذكرنا اسمه تداعت المعانى إلى نومه ليال كثيرة على الطوى لرقة حاله وضيق ذات يده، ونومه ليالى أكثر على دكك المقاهى وحصر المساجد وليس هذا كل «عبد الحميد الديب»، فهو كما سنرى شاعر التمعت شاعريته إبان التحول الشعرى الكبير فى أربعينيات هذا القرن، جاء صوته مع جيل محمد مصطفى حمام وطاهر أبو فاشا وأحمد مخيمر، وإذا كان شعره ينبض ببؤسه وحزنه فإن مذكراته النثرية تفيض بمواقف النحس الذى لازمه أيام حياته فى «الحى اللاتينى» ويقصد به «حى الحسين»، ورغم هذا كله كان من ظرفاء العصر أسوة بمحمد إمام العبد ومصطفى حمام والشيخ حسنى الآلاتى والشيخ عبد العزيز البشرى وبيرم التونسى وفكرى أباظة وحسين الترزى وأم كلثوم وصالح جودت وكامل الشناوى هؤلاء جميعًا كانوا خليطًا من الشعر والفن والفكاهة والسخرية، وقبل أن نبحر معه فى شعره وبؤسه وسخريته نقدمه إلى القارىء «عبد الحميد السيد الديب»، ولد فى شهر يوليو عام ١٨٩٨م بقرية «كمشيش» فى محافظة المنوفية والتى أصابها نحس «الديب» أيام عهد الدكتاتورية ولد لأسرة فقيرة بائسة فشب وترعرع بين البؤس والفاقة والحرمان كأن والده «السيد الديب» فلاحًا فقيراً متواضعًا. كان يعمل - فى مواسم القرية وأعيادها - جزار ليعول أسرته الكبيرة القانعة. التحق «عبد الحميد» بكتاب القرية، فحفظ القرآن وجوده، فى فترة وجيزة وفى تلك الفترة كان ينظم شعراً يهجو به أقرانه، التحق بمعهد أزهرى فى الإسكندرية، ونال منه شهادة

متوسطة، جاء إلى القاهرة عام ١٩٢٢ التحق بالأزهر الشريف، وفى حى الحسين أقام فى حجرة متواضعة بدرب قصر الشوق. سقط فى بئر المخدرات والخمر وأودعوه مستشفى المجاذيب لفترة، وكان يمضى وقته فى القراءة المتصلة وتسجيل مشاعره فى شعر رقيق حزين. أصيب بانفجار فى المخ، وتوفى فى مستشفى قصر العينى يوم الجمعة ٣٠ أبريل عام ١٩٤٣م.

الشاعر فاروق شوشة. يرى أن «الديب» يشبه الشعراء الصعاليك الذين عاشوا فى العصر الجاهلى يقطعون طريق القوافل ويغيرون على القبائل ويأخذون من الأغنياء ما يعتبرونه حقًا للفقراء بعد أن والتمرد على أعراف قبائلهم وتقاليدهم، والصعلكة عند «الديب» تعنى التمرد على الواقع الذى ينبغى تغييره، وكان ينزع إلى الثورة والتمرد وعلى الخلل فى السلم الاجتماعى وعلى وجود من لا يستحقون منصبًا ولا جاهًا فى المواقع التى يستحقها غيرهم.

كان «عبد الحميد الديب» يؤمن بتفوقه الذى لا يتفق مع دونية وضعه الاجتماعى.

كان يرى أن ما يتفضل به الآخرون عليه من فتات هو مجرد استرداد لبعض ماله من حقوق على الحياة، كان يعتز بنفسه إلى حد الغرور، وأنه أعظم من شعراء كثيرين الذين يسلكون سبل المسايرة التى تحقق المنفعة والغنيمة.

يا أمـــة جهـــلتنى وهى عـــالمة أن الكواكب من نورى وإشراقى

لم أدر ماذا أطعمتـم فى موائدكم لحم الذبيحة أو لحـمى وأخـلاقى

وهو يرى فى نفسه وشعره عونًا للملهوف ونصيرًا للمحتاج، وهذا يذكرنا باعتداد المتنبى بنفسه وبتفوقه على كل شعراء زمانه. المعانى التى ذهب إليها «الديب» هى المعانى ذاتها التى أودعها المتنبى قصيدته التى جاء فيها:

دع كل قـول غيـر قـولى فـإننى أنا الطائر المحكى والآخر الصـدى

وما الدهر إلا من رواة قصـائدى إذا قلت شعرًا أصبح الدهر منشدًا

وقد سجل «الديب» هجوم الآخرين عليه:

أمـر عـلى المقهـى فأسـمع شامتًا يمـزق عرضى وآخـر يشـفع

وقد سـاء ظنى بالعبـاد جميعهـم فأجمعت أمرى فى العداء وأجمعوا

ولسوء حظ الثقافة العربية أن الكثير من شعر الديب مات بموت من كانوا يحفظونه من أصدقائه . . محمد مصطفى حمام وشوقى أمين وطاهر أبو فاشا.

المصائب تجمع المصابينا:

ومحمد مصطفى حمام كان من رفاق الديب الحميمين، وكان هو نفسه يعانى الصعلكة بدرجة ما، وإن كان ييسر عليه ما يكتبه في الجرائد والمجلات، وكان أيضًا صاحب فكاهة وطرفة يهوى المشاغبات والمقالب وتقلبت به الأيام وسافر فى سنوات عمره الأخيرة إلى البلاد العربية وتوفى هناك، وكان «محمد مصطفى حمام» راوية لشعر «عبد الحميد الديب» وكان الاثنان من رواد مقهى «بار اللواء» التى كان يرتادها الباشوات وكبار الأدباء والكتاب والصحفيين، وكان حمام والديب يدمنان الجلوس إلى مائدة «إبراهيم الدسوقى أباظة باشا» الوزير لعدة مرات، ويرعى الشعراء والأدباء وخاصة من كان منهم فى مثل الأوضاع الاجتماعية لحمام والديب وأصبح من أصدقاء «الديب وحمام» جرسون يونانى نسب نفسه لأسرة الأباظية على حساب «الدسوقى أباظة» وأطلق على نفسه اسم «ينى أباظة» على سبيل التفكه، وكان «إبراهيم الدسوقى أباظة باشا» ينفح حمام والديب وينى ما تجود به مكرمته وهو دائم وكثير، وترامى إليه تشرد «الديب» بين المقاهى والمساجد فطلب من «حمام» إيجاد سكن لصديقه الديب على نفقة «أباظة باشا» ووجد «حمام» غرفة خالية من منزل امرأة بحارة من حوارى شارع محمد على بالقرب من دار الكتب القديمة فى بيت قديم متهالك، بإيجار مقداره ثلاثون قرشًا شهريًا، واشترى «حمام» سريراً صغيراً ومرتبة ولحافًا ومنضدة وكرسيين وحصيرة وقلة ولمبة جاز نمرة «١٠» وأصبحت الغرفة جاهزة وتسلم الديب المفتاح.

وبعد أيام ظهر «الديب» فى مقهى «بار اللواء» وعلامات البؤس والقرف على وجهه، وسأله الدسوقى باشا: لعل الغرفة أعجبتك يا عبد الحميد؟ فرد عبد الحميد الديب بعد أن أخرج مفتاحًا حديديا طويلاً من جيبه . . أى غرفة يا معالى الباشا؟ هذا هو المفتاح وأنا بعد أن خرجت منها لا أستطيع العودة مرة ثانية لأننى لا أعرف

العنوان . . العنوان يعرفه حمام فليسكن هو فيها ، وعاد عبد الحميد الديب ينام على دكك المقاهى وحصر المساجد!

تمرد أم استهتار؟

وكما فعل «عبد الحميد الديب» مع «الدسوقى باشا» ومع «محمد مصطفى حمام» فى موضوع الغرفة التى تركها وعاد إلى النوم على دكك المقاهى وحصر المساجد فعل ما يشبه ذلك مع «عباس محمود العقاد» كان «العقاد» فى تلك الفترة اعتاد أن يجلس فى المكتبة التجارية فى أول شارع محمد على ، وفى يوم صدر للعقاد كتاب جديد وذهب إليه «الديب» مستأنسًا فأجلسه العقاد معه وأطعمه وكتب إهداءات على عدد من نسخ كتابه الجديد وطلب من «الديب» أن يوصلها إلى أصحاب الإهداءات وأعطاه أجر المواصلات ومبلغًا خاصا للديب، وحمل «عبدالحميد» الكتب وذهب وبعد ذلك فوجىء «العقاد» بأحد تجار الكتب على سور الأزبكية ومعه لفافة الكتب التى أعطاها العقاد للديب كما هى . . وقال البائع للعقاد: لقد باعنى أحد الأفندية هذه الكتب ووجدت عليها إهداءات إلى كبار أدباء وعظماء البلد فلم تطاوعنى نفسى على تمزيق الإهداء عليها وبيعها على السور . . ودفع العقاد الثمن الذى تقاضاه «عبد الحميد الديب» من البائع ، وقد قاطع العقاد «عبد الحميد الديب» إلى تاريخ وفاته ـ أى وفاة الديب ـ عام ١٩٤٣م .

هذه واحدة ، ثم جاءت بعدها ثانية عام ١٩٤٢ كان «عبد الحميد عبد الحق» وزيرًا للشئون الاجتماعية فعين «عبد الحميد الديب» موظفًا بمكافأة جيدة ، وذهب «عبدالحميد الديب» إلى وزارة الشئون الاجتماعية وتسلم العمل ، ولكنه خرج من ديوان الوزارة ولم يعد إليها مرة أخرى . . لأنه يكره قيود الوظيفة واعتاد حياة التشرد .

الديب .. والكلب:

وإذا كانت حياة الديب فى حاجة إلى تسجيل دقيق ، وإذا كان شعره فى حاجة

إلى من يجمعه بطريقة متأنية فإن تصرفاته فى حاجة إلى تحليل ولا يكفى أن نقول إنه كان يعد ما يأخذه من الآخرين هو حقه فى الحياة وحقه لتفوقه .

فى فترة باكرة من حياته سكن فى غرفة من بيت تستأجره امرأة جزار من وزارة الأوقاف فى حارة «عمر شاه» بالسيدة زينب . وكان متقدمًا لأحد امتحانات «دار العلوم» واستعد عبد الحميد وهو يتأهب للذهاب إلى «دار العلوم» ويبحث عن حذائه فى الغرفة فلم يعثر عليه ولا أحد يعرف أين ذهب الحذاء . . هل سرق منه، هل باعه بملاليم لأحد تجار الروبابيكيا؟ المهم أن امرأة الجزار صاحبة البيت نصحته بأن يضع القبقاب فى قدميه حتى لا يضيع الامتحان منه، وسمع كلامها وخرج، وكان فى بيت الجزار كلب أليف يأنس إلى «الديب»، وفى هذا الصباح تبع عبدالحميد الديب إلى ميدان السيدة زينب فشارع المبتديان ثم دار العلوم ودخل عبدالحميد مع الطلبة لجنة الامتحان والقبقاب فى قدميه والكلب خلف رجليه وربض الكلب عند منضدة الجلوس فى هدوء، وتم توزيع أوراق الأسئلة وبدأ كل شىء هادئًا . . وفجأة نبح الكلب وهاج وبدأ يجرى بين صفوف الطلاب وحدث هرج ومرج وفتح المراقب باب اللجنة ليخرج منه الكلب وليخرج معه عبد الحميد الديب الذى أوصله الناظر حتى باب دار العلوم بلا رجعة .

مذكراته النثرية:

سجل «محمد محمود رضوان» المحرر بدار الهلال فى كتاب الهلال عام ١٩٧٦ «مأساة شاعر البؤس» بعض خواطر وذكريات «عبد الحميد الديب» ، وقد رسم «الديب» فيها صوراً طريفة لحياته كما صور مشاعره وأفكاره وأحلامه، وأفصح عن ذاته المعذبة ومدى ما كان يعانيه من بؤس وحرمان، وقدم «الديب» صوراً ممتعة عن حياته الخاصة وتأملاته فى الأدب والفن والحياة بلا مواربة ولا نفاق .

ومن حق القارىء أن يقف على بعض هذه الصور الطريفة كما كتبها شاعر البؤس «عبد الحميد الديب» .

من أيـام المحنـة:

طلع الصباح فهب الناس من مراقدهم، ورقدت أنا إذ طويت الليل سائرًا فى طرقات القاهرة لعجزى عن اللجوء إلى أحد الفنادق، فلجأت إلى فندق الله «الجامع الأزهر» فى أول تكبيرة أهل بها المؤذن فاشى الصوت على المئذنة التاريخية، وما كدت أسلم عينى للنوم حتى شعرت بيد تهزنى هزًا عنيفًا، فاستيقظت ورأيتنى وجهًا لوجه أمام من يدعونه «مخبر»، ورأيت إلى جانبه شتيتا من الناس كلهم يرتسم على وجوههم ما يرتسم على وجهى وساقنا جميع إلى قسم الشرطة «أوه . . أين حذائى» تفقدته فلم أجده، فاضطررت أن أسير مع إخوان الشقاء حافيًا . . ولك أن تتصور أفنديًا كامل البدلة يسير حافيًا، وانتظرنا حتى يحضر الضابط المنوب . . وما هى إلا فترة حتى وضح النهار، وإذ ذاك لمحت حذائى الضائع فى قدمى أحد المقبوض عليهم، فاقتربت منه وقلت فى همس: «حذائى يا صديقى» فتجهم لى وجاهر بأنه حذاؤه، وسمع الضابط الحوار الذى التهب بينى وبين اللص المستبجح وظاهر اللص على ووبخ «قفاى»، فثرت عليه وبعد فترة رأيتنى مجردًا من كل ملابسى إلا قميصًا هو قميص من يرسلونه إلى المرستان «مستشفى الأمراض العقلية الخانكة»، وهناك رأيت العدالة فى ربيع صباها أو نضرة شبابها . . وأثبت الطبيب المتخصص سلامتى وكمال عقلى وردنى ردًا جميلاً . . وقدر لى بسبب هذا، أن أسعد بعمل صحفى عابر.

بينى وبين طالب:

بدأ اليوم ـ الجمعة ـ المولد الأحمدى فى أول أيام المولد . . والناس فى ضراعتهم إلى الله وزيارتهم لضريح «صاحب الفرح»، إذ استرعى أسماعهم صوت جهير يردد أبيات قصيدة، فهرعوا إلى مبعث الصوت فأنشدهم:

الحرب بالأبواب . . أين بنوك؟

يا مصر ناديهم . . لكى يحموك

يا مصر ما الطليان . . كفؤك فاهجمى

إن لم تكونى . . مرة . . أكلوك

والظاهر أن أحد طلاب المعهد الدينى . . لم يصادف هذا الشعر هوى فى نفسه فجرى واختطف القرطاس الذى كتبت فيه القصيدة من يدى ومزقه . . وهنا فارقت المنصة فى غضبة ملتهبة واختطفت غطاء رأس الطالب ومزقت شاله الأبيض الناصع البياض وقلت للطالب :

ـ أنا لم أخسر شيئًا لأنى أحفظ القصيدة . . وأما أنت فقد خسرت لأنك لم تحفظ غطاء رأسك . . فتدخل الجمهور للصلح فرفضت الصلح مع الطالب إلا إذا كتب القصيدة بالخط النسخ الجميل . . فأذعن الطالب وكتب القصيدة فانتهت المشكلة وصفق الجمهور .

الشعر والنظم:

هأنذا جالس بمقهى الحى اللاتينى ـ الديب يقصد حى الحسين ـ وقد هبت نفحات العصر فى ذلك الحى المملوء بالسحر تحمل بين خطوات النسيم روائح المباخر والمسك وليس يصاحبنى فى جلستى إلا إبريق الشاى وأكوابه . . أوه . . لقد أقبل هذا الشاب الأزهرى يحمل فى يده ورقة يلوح بها كما يلوح لى الدائن بصك مكتوب على فيه بعض الدين . . وجلس بعد أن حيانى تحية أكثرها ألفاظ وأوصاف ضخمة لشخصى المنكوب . . وقال : «لقد أصبحت شاعراً . . اسمع يا مستر . . يا مستر ! . . كذا يلقبنى شيخنا ساسان !» وأظهرت له استعدادى لسماع الهامة البليد . . قال : إن فلانا شتمنى ولكنى فى صدرى ـ أى وربى ـ لم أجد بدّاً من هجائه . . وتلا علىّ مطلع القصيدة وهو :

بغل يريد الحرب كى يحظى بما

صنع الحمار مع الأسود الضاربة

فلم أجد بدًا من استئذانه بضع دقائق أعود إليه بعدها . . ومثل هذا كثيرون ممن أغراهم الجهل بالشعر فنظموه وحطوا وزلوا وهم يظنون أنهم شعراء والعياذ بالله .

الخديو عباس حلمى:

كانت فترة مفردة حلوة، تلك الفترة التى باركت فيها الشباب تلميذاً بمدرسة «دار الدعوة والإرشاد» التى أنشأها التلميذ الأول للمرحوم الأستاذ الإمام وهو المرحوم «السيد رشيد رضا» صاحب مجلة «المنار».

لقد حال صغر سنى يومئذ دون إلحاقى بالقسم الداخلى حتى إذا زار المدرسة «الخديو عباس حلمى» قمت فى حركة جنونية وارتجلت فى صوت جهير مسموع:

«مولاى . . إن المسلمين كما ترى . . ما بين مظلوم وبين مهان . .»

فابتسم . . ثم أمر بإلحاقى بالقسم الداخلى، ومنحنى ساعة قيمة بقيت معى حتى فرق الجوع بينى وبينها . . وكم فرقت الحاجة بين العزيزين المتحابين.

لقطات باسمة:

وكما أنه شاعر البؤس فهو شاعر الفكاهة يداوى بها جراحه وينتقم بها من الزمن الغادر . . وها هى بعض فكاهاته.

* كان عبد الحميد الديب عنده طربوش . . قلبه الطرابيشى على كل وجه فلم يعد صالحًا للاستعمال، ولا يتحمل أن يقلبه الطرابيشى مرة أخرى، وذهب إليه «الديب» وقال للطرابيشى . . هذه المرة اعدله لا أن تقلبه . . ابتسم الطرابيشى فى أسى وأهداه طربوشًا جديدًا.

* كان «عبد الحميد الديب» يسكن غرفة متواضعة بمنزل متواضع جدًا . . وحدث أن زاره فيها أحد أصدقائه فشاهد فأرًا يجرى فى أحد أركانها فقال:

- عجبًا . . هل يوجد هنا شىء يقرضه هذا الفأر؟

فأجاب - عندما لا يجد شيئًا . . فإنه يقرض الشعر معى.

* اشترى يومًا ساعة قديمة بمبلغ ١٥ قرشًا . . وسقطت منه الساعة على الأرض . . وأعطاها لساعاتى لإصلاحها . . طلب منه الساعاتى ٢٠ قرشًا . . فقال له الديب:

ـ طيب خدها علشانك . . ويبقى لك عندى خمسة قروش .

* ضاقت صاحبة البيت الذى ينزل عبد الحميد الديب فى حجرة منه ذرعًا بعبدالحميد الديب لتأخره عن سداد الأجرة عدة أشهر . . وسألته :

ـ أنت ناوى تدفع الأجرة المتأخرة بالتى هى أحسن . . والا لأ . . ؟

ـ بمجرد ما أخذ الشيك من الناشر . . لما يقبل القصة اللى ناوى أبدأ فى تأليفها لما أجد الموضوع المناسب . . والإلهام الكافى .

رحم الله الديب:

وقضى «عبد الحميد الديب» ٤٥ عامًا «١٨٩٨م ـ ١٩٤٣» فى هذا الشقاء والسخرية المرة وانفجر مخه ومات فى قصر العينى وهو على يقين أنه التعويض الملتهب للشعر العربى بعد رحيل شوقى وحافظ . . وضاع شعره فى شوارع القاهرة وزحام الحياة ، وعندما كان «الشيخ أحمد حسن الباقورى» وزيراً للاوقاف أمر بجمع أشعار الديب لنشرها على نفقة وزارة الأوقاف . . وضاع هذا المشروع أيضًا فى زحام الحياة .

الأسـانيد:

١ ـ سيد صديق عبد الفتاح . . ظرفاء وعظماء القرن العشرين «أخبار اليوم عام ١٩٨٨» .

٢ ـ عبد المنعم شميس . . شخصيات مصرية «هيئة الكتاب عام ١٩٨٧» .

٣ ـ فاروق شوشة . . جريدة الأهرام ٨/ ٨/ ١٩٩٩ .

٤ ـ محمد محمود رضوان . . مأساة شاعر البؤس «كتاب الهلال عام ١٩٧٦م» .

علی عبد الرازق باشا



«علی عبد الرازق باشا» صفحة فريدة فی تاريخ مصر الحديثة الإسلامی والأدبی والسياسی والوطنی. ويذكر المصريون دائمًا «علی عبد الرازق» بأسرته العريقة فی الوطنية والتی كان لها موقف العداء للملك أحمد فؤاد . . وقدمت . . «حسن عبدالرازق» ودوره معروف فی تأسيس «حزب الأمة» وفی إصدار «الجريدة». وقدمت «الشيخ مصطفی عبد الرازق» المفكر الإسلامی . . شيخ الجامع الأزهر وأستاذ الفلسفة الإسلامية. ويذكره الناس ببيت «آل عبد الرازق» خلف قصر عابدين والدعوة إليه مفتوحة للمحافظين والمجددين، وأهالی قرية «أبو جرج» بكسر الجيم وتسكين الراء، وشباب الأزهر مع شباب الجامعة الأهلية، وتثار فيه القضايا علی اختلاف ألوانها دينية وفلسفية وسياسية واجتماعية. ومن هذا البيت أعلن عن قيام «الحزب الديمقراطی» والذی تفرق مؤسسوه فيما بعد بين «الوفد» و«الأحرار الدستوريين» و«الحزب الاشتراكی - الشيوعی فيما بعد». ورواد هذا البيت ساندوا جريدة «السفور» التی أصدرها «عبد الحميدحمدی» بعد أن أقفلت «الجريدة» أبوابها فی ٣٠ يوليو عام ١٩١٥. ويذكر الناس «علی عبد الرازق» عندما يذكرون كتابه «الإسلام وأصول الحكم» والذی أخذه «الملك فؤاد» علی أنه كتاب سياسی قصد به سد الطريق عليه إلی «الخلافة». ويذكر أنه عندما يذكرون موقف «عبد العزيز فهمی» عندما رفض وهو وزير للحقانية أمر الملك فؤاد بفصل «علی عبد الرازق» مؤلف الكتاب المشهور. ورفض أيضًا تنفيذ رغبة الملك فی أن يستقيل فأقاله الملك. ويذكره الناس كذلك عندما طبع الكتاب مرات عديدة وحصل صاحبه علی لقب

الباشوية وأصبح وزيراً للأوقاف يعنى بالشئون الإسلامية مرتين. وحتى نقدم هنا للقراء «على عبد الرازق» تقديمًا وافيًا ندخل إليه من الأبواب السابقة.

الشيخ عبد الوهاب خلاف أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق- جامعة فؤاد الأول قال يوم استقبال «عبد الرازق باشا» عضواً بمجمع اللغة العربية فى عام ١٩٤٨: «أقدم عالمًا دقيق البحث، سليم الذوق، شغوفًا باللغة وآدابها، وسطا بين المحافظين والمجددين».

ونعود نحن إلى الجذور، ولد فى عام ١٨٨٨م فى قرية «أبو جرج» من أعمال مديرية المنيا. درس فى الأزهر.. درس العلوم الشرعية والعقلية واللسانية على علماء من أفضل علماء الأزهر مثل «الشيخ أبو خطوة، والشيخ أبو عليان». وكان مقبلاً على دروسه، شديد الحب للأزهر. من أسرة عريقة فى الوطنية. وأصل الأسرة فى «البهنا» وهى بلدة على بحر يوسف تبعد عن قرية «أبو جرج» بنحو خمسة عشر كيلو متراً. كان الجد الأكبر «عبد الرازق» يتولى قضاء البهنا حوالى عام ١٧٩٧. وانتقل حفيده «أحمد عبد الرازق»، وهو الجد الأول لعلى عبد الرازق إلى «أبو جرج» لتولى كرسى القضاء، واستقرت الأسرة بها وعرفت بأسرة القضاة.

وقرية «أبو جرج» من أكبر قرى مركز بنى مزار محافظة المنيا وهى قرية وادعة مسالمة يعيش أهلها غنيها وفقيرها لا يعرفون البغضاء.. ويقع فيها قصر «حسن باشا عبد الرازق»، والد «على عبد الرازق والشيخ مصطفى عبد الرازق» وخمسة آخرين من البنين وبنتين. ويقوم هذا القصر شامخًا على مشارف القرية من ناحية الشرق. ويأتى أبناؤه إلى القرية فى الصيف وإذ بهم فى تواضع العلماء وسخاء أهل الريف يخالطون الكبير والصغير ويعرفون أهل القرية شيوخًا وشبابًا وأطفالاً. ورب القصر «حسن عبد الرازق باشا» كان على علاقة طيبة بالشيخ «محمد عبده»، وكان ذا ثقافة دينية أزهرية، فضلاً عن مكانته الاجتماعية والسياسية. ودخل «حسن عبدالرازق» والد «على عبد الرازق» الحياة السياسية مع «محمود سليمان باشا» رئيس اللجنة المركزية للوفد ووالد «محمد محمود باشا» الذى كان عمدة لمدينة «أبوتيج» محافظة أسيوط. وعندما تأسست شركة لإصدار «الجريدة» عام ١٩٠٦اختير «حسن عبد الرازق» نائبًا لرئيسها «محمود سليمان باشا». وفى ٢١

سبتمبر عام ١٩٠٧ عقدت الجمعية العمومية للجريدة برئاسة «حسن عبد الرازق» لمرض «محمود سليمان» وتم إعلان تحويل الجمعية العمومية إلى حزب سياسى باسم «حزب الأمة» محمود سليمان رئيسًا وحسن عبد الرازق وكيلاً وأحمد لطفى السيد سكرتيراً عامًا للحزب. وتوفى «حسن عبد الرازق» فى ٢٥ ديسمبر عام ١٩٠٧ بعد أن قدم للحياة الدينية والثقافية فى مصر ابنيه «على عبد الرازق» و«الشيخ مصطفى عبد الرازق». وقال «محمد زكى عبد القادر» عن هذه الأسرة: «إنها كانت على خصومة وعداء مع الملك فؤاد، كما كانت على خصومة مع الخديو عباس الثانى».

بيت القاهـرة:

وإذا انتقلنا من قصر «آل عبد الرازق» فى مديرية المنيا إلى بيت «آل عبد الرازق» بالقاهرة خلف قصر عابدين وجدنا بيتًا وطنيًا دينيًا يلتقى فيه علماء الأزهر برجال الأدب، وشباب الثقافة الفرنسية بشباب الثقافة الإنجليزية وأبناء قرية «أبو جرج». وكان الطلاب الصعايدة يكتبون فى خانة العنوان وولى الأمر «بيت عبد الرازق- عابدين»، ويقدم «أحمد أمين» صورة لهذا البيت . . «كان بيتًا يحتفظ بالتقاليد القديمة لبيوت الأسر الكبيرة، يكثر زوارها وتمد موائدها غداء وعشاء». وفى هذا البيت تعرف «على عبد الرازق» إلى «محمد كامل البندارى، وعزيز ميرهم، ومحمد حسين هيكل ومحمود عزمى، ومنصور فهمى، ومحمد أحمد الغمراوى، ومحمد فريد أبو حديد، ومحمد كامل سليم، وأحمد أمين، ومحمد عبد الواحد خلاف، وأحمد زكى». مجموعة من عناصر الاستنارة فى مصر الحديثة ألقت بأفكارها وثقافاتها فى ذهن «على عبد الرازق» الذى كان قد سافر إلى إنجلترا عام ١٩١٢، بعد أن أتم دراسته فى الجامع الأزهر وحصل على شهادة العالمية. وعاد إلى مصر عام ١٩١٥ بعد أن درس فى إنجلترا اللغة الإنجليزية والتحق بجامعة أكسفورد وشرع فى دراسة الاقتصاد السياسى وعلم الاجتماع.

نشأته ومسيرته الدينية:

وقبل أن نقترب من كتاب «الإسلام وأصول الحكم» نحاول أن نلخص الحس

الدينى السليم والقوى عند «على عبد الرازق». لقد أقبل على دروسه فى الأزهر. بحب شديد. وكان المناخ الدينى فى بيت «آل عبد الرازق» مناخًا نقيا. وتولى «على عبد الرازق» إلقاء محاضرات فى قسم الدكتوراه فى الشريعة الإسلامية بجامعة فؤاد الأول.. وكانت محاضراته عن «مصادر الفقه الإسلامى»، وقد طبعت هذه المحاضرات وصدرت فى كتاب عام ١٩٤٧م، فلقيت قبولاً حسنًا من جمهرة العلماء والقراء.. وعندما انتدب لإلقاء محاضرات فى معهد الدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية، كانت المحاضرات عن «الشيخ محمد عبده» وذلك فى عام ١٩٦١م. واختير عضواً بمجمع اللغة العربية عام ١٩٤٨ فى المكان الذى خلا بوفاة الدكتور «على إبراهيم باشا»، اشترك فى لجان: ألفاظ القرآن الكريم، ولجنة الأصول، ولجنة المعجم الكبير، ولجنة ألفاظ الحضارة ولجنة الأدب.. وكلها لجان دينية وحضارية ولغوية وأدبية لها دورها فى تقويم نفوس الناشئين. أما مؤلفاته التى تركها للمكتبة العربية والإسلامية.. فكانت على النحو التالى.. الإجماع فى الشريعة الإسلامية.. عن آثار الشيخ مصطفى عبد الرازق وهى مقالات لشقيقه الشيخ مصطفى عبد الرازق - وتاريخ البيان وهى بحوث تدل على تفاعل الثقافة العربية بالثقافة الحديثة.. بالإضافة إلى كتابه «الإسلام وأصول الحكم»، أى أن «على عبد الرازق» وضع علمه وقلمه فى خدمة العروبة والإسلام. ولقد صدق فى تقويم الرجل ما قاله عنه «الدكتور إبراهيم بيومى مدكور» يوم تأبينه بعد رحيله عام ١٩٦٦م: «نودع رجلاً استطاع أن يقول كلمة الحق برغم بطش الملكية واستبدادها. بالأمس أنكروه، وها هو ذا الأزهر جميعه يودعه اليوم الوداع الأخير فى تكريم وتبجيل.. والتاريخ يصحح ما أفسد أحيانًا». ونجده يحترم الإسلام والمسلمين عندما تولى أمر وزارة الأوقاف المرة الأولى «٣ مارس ١٩٤٧ - ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨»، ثم فى وزارة «إبراهيم عبد الهادى باشا من «٢٨ ديسمبر ١٩٤٨م - ٢٥ يوليو ١٩٤٩م».

الخلافة وما بعدها:

فى العقد الأول من القرن العشرين أخذت الدعوة الإصلاحية تتصاعد فى

مواجهة سلاطين الدولة العثمانية . . ونشأت جمعيات سرية تركية وعربية تحمل لواء الإصلاح. وأخذت الدعوة إلى العروبة يشتد عودها، وتأسست جمعيات سرية عربية على أساس سياسى، ثم كانت الحرب التركية ـ الإيطالية . . ووجهت إيطاليا إنذاراً للدولة العثمانية فى ٢٧ سبتمبر عام ١٩١١، وأخذ النفوذ الإيطالى يتزايد فى طرابلس الغرب. وبقدر ما تراخت السلطات العثمانية بقدر ما نهضت القوى العربية الشعبية لمعاونة المجاهدين العرب فى ليبيا. وتم توقيع صلح فى مدينة «أوشر» بسويسرا فى ١٥ أكتوبر عام ١٩١٢، وتعهدت الحكومة العثمانية بموجب هذه المعاهدة بسحب كل ضباطها وجيوشها من طرابلس الغرب وبرقة. وتزايد السخط بين العرب ضد الدولة العثمانية لموقفها المتخاذل من الإيطاليين «راجع الحديث عن عزيز المصرى فى موسوعتنا هذا الرجل من مصر ص ٣٤١ ـ ص ٣٤٨».

وأخذ التذمر يزداد داخل تركيا ضد السلاطين. وفى ٣ مارس عام ١٩٢٤م أعلن «مصطفى كمال أتاتورك» إلغاء الخلافة العثمانية وإعلان الجمهورية التركية. وترتب على هذا الإلغاء أن نشط الإنجليز فى مجالين . . الأول: فى الهند مع العناصر الموالية لهم والذين يتطلعون إلى أن تكون الخلافة عندهم . . والاتجاه الثانى: فى مصر لدى الملك فؤاد الذى وجدها فرصة سانحة له. وقام «حسن نشأت» رجل القصر بإنشاء لجان خاصة بإسناد الخلافة للملك فؤاد وقام بعدة اتصالات خاصة داخل الأزهر . . وكثر الحديث حول الأحقية فى الخلافة . . فى العراق «فيصل» يتطلع إليها على الزعيم الشائع بأنه سليل بنى هاشم. وفى الحجاز قيل بأحقية «عبد العزيز آل سعود» لأنه أصبح سيد الجزيرة العربية وفيها الأماكن المقدسة.

إلا الملك فؤاد:

أما فى مصر فقد اتخذ الموقف شكلاً مختلفًا. كان شبه الإجماع ألا يصبح الملك فؤاد بكل ما عرف عنه من صفات وسلوكيات خليفة للمسلمين، سواء كانت الخلافة واجبة شرعًا أو غير واجبة. وكان «الشيخ محمد مصطفى المراغى» من القائلين بأن الخلافة واجبة شرعًا ولكنه لم يقل بتولى الملك فؤاد الخلافة وفهم الناس

والملك أن «الشيخ المراغى» لا يوافق على أن يكون «فؤاد» هو الخليفة . وأسرّها «الملك فؤاد» فى نفسه ولم يوافق فيما بعد على أن يصبح «الشيخ المراغى» شيخًا للجامع الأزهر وإنما فرضه فى المرة الأولى عام ١٩٢٨م «مصطفى النحاس باشا» على الملك فؤاد، وكانت الوزارة ائتلافية بين الوفد والأحرار الدستوريين . وفى المرة الثانية عام ١٩٣٥م عارض الملك فؤاد أن يكون المراغى شيخًا للأزهر ولكن «ثورة الأزهر» بقيادة «الشيخ أحمد حسن الباقورى» فرضت «الشيخ المراغى» شيخًا للأزهر رغم أنف الملك فؤاد .

ويكون الموقف فى مصر على الصورة قد فصل الموقف من «الخلافة» عن الموقف من «الخليفة» . . الخلافة تدور حولها بحوث تسترشد بالكتاب والسنة ويجتهد الكثيرون فيها، أما الخليفة فقد كان هناك ما يشبه الإجماع ألا يكون هو الملك فؤاد .

على عبد الرازق:

تولى «على عبد الرازق» القضاء الشرعى بمحكمة الإسكندرية الشرعية . وانتدب لتدريس الأدب بالمعهد الدينى بالإسكندرية . وله تعليقات أدبية لغوية مهمة على بعض أجزاء من «العقد الفريد»، وكان القاضى الشرعى بمحكمة المنصورة، وعام ١٩٢٥م ألف كتابه الشهير «الإسلام وأصول الحكم» على أن يصدر فى عدة أقسام، القسم الأول منه يشتمل على بحث فى تاريخ الخلافة الإسلامية وتطورها. وطبع هذا القسم ونشر وبقية الأقسام لم تطبع ولم تنشر . القسم الأول طبع عدة مرات، والجدير بالذكر أنه لم يصادر رغم الضجة الكبرى التى أحدثها نشره . وقد صدرت منه طبعة أخيراً حديثة قامت بها دار رسمية للدولة .

واجتهاد القاضى الشرعى بمحكمة المنصورة ينصرف إلى أن «الخلافة» ليست أصلاً من أصول الحكم فى الإسلام، ولا يوجد لها سند فى القرآن الكريم أو السنة المشرفة .

ورأى «الملك فؤاد» أن الكتاب له هدف سياسى وهو أن يسد الطريق عليه إلى «الخلافة» . وكان «عبد العزيز فهمى» رئيس حزب الأحرار الدستوريين وزيراً

للحقانية فى وزارة «زيور باشا» التى شكلها فى «١٣ مارس عام ١٩٢٥ - يونية عام ١٩٢٦» وطلب «الملك فؤاد» أن يقوم «عبد العزيز فهمى» باعتباره وزيراً للحقانية بفصل القاضى الشرعى بمحكمة المنصورة من منصبه بحكم أنه تابع لوزير الحقانية. ورد «عبد العزيز فهمى» بقوله: «بأى حق فى الكتاب أو السنة أو فى الدستور أو فى القانون أصادر حرية الرأى وأعتدى على حرية العلم وكرامة العلماء». لقد استحضرت هذا الكتاب وقرأته فلم أجد فيه أدنى فكرة يؤاخذ عليها مؤلفه». ورفض «عبد العزيز فهمى» أن يصدر قراراً بفصل «على عبد الرازق» وأعد استقالته، وجاء أمر الملك فؤاد بأن يقدم الوزير استقالته. وهنا تغير موقف ابن كفر المصيلحة ومزق الاستقالة وصاح: «أنا لن أستقيل وعلى الملك أن يقيلنى بمرسوم ملكى، أو أن يقدم رئيس الوزراء استقالة الوزارة ولا يدخلنى فى الوزارة الجديدة».

واتسعت الجبهة المعارضة فى أن يتولى «الملك فؤاد» الخلافة ووقف «الوفد» و«الأحرار الدستوريين» وعناصر مستقلة كثيرة فى هذا الجانب وفشل الإنجليز والقصر فى مسعاهم.

مسيرة الشيخ الجليل:

إلى جانب دراسة «الشيخ على عبد الرازق» فى الأزهر فقد درس أيضًا فى الجامعة الأهلية، وكانت محاضراتها بمقر الجامعة الأمريكية الآن بالقاهرة يحاضر فيها أمثال «نللينو» فى الأدب العربى وتاريخه و«ليتمان» فى المقارنة بين اللغات السامية. وكما أشرنا من قبل سافر إلى إنجلترا ودرس فيها الاقتصاد السياسى والاجتماع.

وقد أفسحت له جريدة «السياسة» صفحاتها للرد على السهام التى وجهت إلى أفكاره. ونجح بعد ذلك فى أن ينتخب عضواً فى مجلس النواب المصرى ثم عضواً فى مجلس الشيوخ المصرى. وكان له فى كلا المجلسين مواقف رسخته ليكون وزيراً للأوقاف مرتين ووزيراً للمعارف بالنيابة فى فترة من هاتين الفترتين: وأن يحصل

على «الباشوية»، وأن يدخل مجمع اللغة العربية عضواً له نشاطه المعروف حتى رحل إلى رحاب الله عام ١٩٦٦ .

الأسانيد:

١ - حسن يوسف . . مذكرات .

٢ - على عبد الرازق . . الإسلام وأصول الحكم «طبعة حديثة» تقديم د. جابر عصفور .

٣ - فتحى رضوان . . مشهورون منسيون .

٤ - د. مهدى علام . . المجمعيون فى خمسين عاماً .

٥ - عبد العزيز فهمى ومحمد حسين هيكل والشيخ محمد مصطفى المراغى والشيخ مصطفى عبد الرازق . . «الحلقات الخاصة بهم فى موسوعة هذا الرجل من مصر» .

محمود فهمى النقراشى



كان من المفروض أن يكون الحديث عن «محمود فهمى النقراشى» جزءًا من حديث سبق عن «الدكتور أحمد ماهر» الذى جرى به هذا القلم فى الجولة السابقة من حلقات «هذا الرجل من مصر» «ماهر والنقراشى» ترافقًا تمامًا كما ترافق «شوقى وحافظ»، وكما ترافق الشقيقان «أدهم وسيف وانلى»، الحديث عن أحدهما يؤدى بالضرورة إلى الحديث عن الآخر، أحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى ولدا فى عام واحد هو فى المصادر الراجحة عام «١٨٨٨م»، «أحمد» سافر إلى فرنسا عام ١٩١٠، وعاد إلى مصر عام ١٩١٣ ليعمل فى مدرسة التجارة، و«محمود» سافر فى بعثة دراسية إلى إنجلترا فى تاريخ مماثل، وعاد ليعمل بالتدريس فى مدرسة التجارة، ويلتقى الصديقان ويقدر لهما أن يسيرا فى اتجاه سياسى واحد، تحت راية «سعد زغلول» والوفد. كان الاثنان من شباب ثورة ١٩١٩م، وشاركا فى إضراب موظفى الحكومة عام ١٩١٩م واتهم ماهر والنقراشى بتكوين «جمعية سرية» قامت باغتيال «السردار» وغيره من الإنجليز ورأس «مصطفى النحاس» فريق المحامين عنهما. وكان معروفًا أن «سعد زغلول» يشترك فى تحضير الدفاع. وعند النطق بالبراءة حملت الجماهير على أكتافها «مصطفى النحاس وأحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى».

كان هؤلاء الثلاثة رجالا كبارًا من مصر، أحمد ماهر ظل طوال حياته لا يسمح لأحد من جلسائه، أن يتناول مصطفى النحاس بكلمة سوء، ومصطفى النحاس فى حكومة الأخير أصدر قرارًا برفع معاش النقراشى الذى مات نزيها رقيق الحال،

وكانت نهاية ماهر والنقراشى متشابهة «ماهر» اغتاله محمود العيسوى فى البهو الفرعونى بين مجلس النواب ومجلس الشيوخ فى ٢٤ فبراير عام ١٩٤٥. والنقراشى اغتاله «عبد الحميد أحمد حسن» أمام مصعد وزارة الداخلية فى ٢٨ ديسمبر عام ١٩٤٨ ولكل منهما تاريخ عرضنا لتاريخ الأول فى «موسوعة هذا الرجل من مصر» والآن أتحدث عن محمود فهمى النقراشى.

نبدأ من الآخر من حادث الاغتيال الذى مر عليه فى ٢٨ ديسمبر الماضى خمسون عامًا، كان محمود فهمى النقراشى رئيس وزراء مصر وقت ذلك ووزير الداخلية، وخرج من سيارته واتجه إلى المصعد فى وزارة الداخلية ليذهب إلى مكتبه بالدور الأول وحوله ضباطه وجنوده من رجال الحرس، وتقدم شاب يرتدى ملابس ضابط شرطة برتبة ملازم أول، ولم تتنبه قوة الحراسة أن هذا الضابط غريب عن فريقهم، وصوب من فى ملابس الملازم الأول مسدسه وأطلق الرصاص على النقراشى باشا فسقط أمام المصعد مضرجًا بدمائه وفاضت روحه إلى بارئها فى الحال، وقبض على القاتل «عبد المجيد أحمد حسن» وتبين أنه من أعضاء «جامعة الإخوان المسلمين»، وتردد أن «الشيخ سيد سابق» كان وراء فتوى اغتيال النقراشى، وعام ١٩٥٠ عقب تخرجى تزاملت مع «الشيخ سيد سابق» فى إحدى المدارس الخاصة بالدرب الأحمر، وفى حجرة المدرسين استفسرت من الشيخ عن هذه المسألة، فنفى أن يكون لقيادة الإخوان يد فى الموضوع، وذكر «صلاح منتصر» فى عموده اليومى بجريدة الأهرام ٢٨ ديسمبر عام ١٩٨٨ أن ضابط المباحث بقسم السيدة زينب «رشدى لبيب» توصل وقتذاك عن طريق أحد الترزية الذين يقومون بتفصيل البدل لضباط البوليس إلى ١٣ شخصًا جميعهم من الإخوان المسلمين ومتهمون فى القضية.

ليسوا إخوانًا:

يذكر «محمد زكى عبد القادر» فى كتابه «ذكريات ومذكرات» أن آخر حديث له مع الشيخ حسن البنا كان اتصالا تليفونيا، وكان الشيخ قد أعد بيانًا لنشره فى «الأهرام» باستنكار قتل المرحوم «النقراشى» ولعل هذا البيان هو الذى صدر بعنوان

«ليسو إخوانا وليسوا مسلمين» . . وهو البيان الذى كشف عن حقيقة الوضع داخل «جماعة الإخوان المسلمين» وقتذاك، كانت المسافة تباعدت بين «المرشد العام الشيخ حسن البنا» وبين رئيس الجهاز السرى «عبد الرحمن السندى»، وترى بعض المصادر أن اغتيال «محمود فهمى النقراشى» تم حسب فتوى من الجهاز السرى - دون علم المرشد العام وبين «عبد الرحمن السندى» الذى كان ينفذ عمليات ويعطى تعليمات بدون الرجوع للمرشد العام. وكانت فتوى قتل النقراشى تستند إلى أنه كان يحارب الإسلام، وأنه اتخذ إجراءات قاسية ضد الجماعة وأعضائها، وأنه - أى النقراشى - أصدر أمراً عسكرياً بحل الجماعة بناء على اتهامات باطلة. وكان «النقراشى باشا» قد أصدر قراراً بحل «جماعة الإخوان المسلمين» يوم ٨ ديسمبر، وبعد ثلاثة أسابيع أغتيل النقراشى باشا وأعقبه فى رئاسة الوزارة «إبراهيم عبد الهادى باشا» الذى نسب إليه أمر تدبير حادث اغتيال «الشيخ حسن البنا» فى فبراير عام ١٩٤٩ .

حرب فلسطين:

وهذه الحرب فى حاجة إلى دراسة متأنية، فى يناير عام ١٩٤٧ عقد مؤتمر فى لندن اقترح تقسيم فلسطين بين العرب واليهود، وقامت إنجلترا بعرض المشكلة على هيئة الأمم المتحدة، وصدر قرار التقسيم فى ٢٩ نوفمبر عام ١٩٤٧ يقضى بقيام دولة لليهود ودولة للفسلطينيين ووضع مدينة القدس تحت الإشراف الدولى، وكانت الدول العربية قد تقدمت فى اللحظات الأخيرة باقتراح حكومة فيدرالية بين العرب واليهود ورفضت الجمعية العمومية بتأثير بريطانيا وأمريكا هذا الاقتراح ورفضت الدول العربية قرار التقسيم «٢٩ نوفمبر عام ١٩٤٧» ووافقت عليه الجماعات اليهودية التى مضت إلى تكوين دولة إسرائيل.

فى داخل مصر رفض السياسى اليمينى «إسماعيل صدقى» اتجاه دخول الجيوش العربية إلى فلسطين، وحذرت المنظمات الماركسية من هذه الحرب لأنها مؤامرة يقف خلفها الاستعمار البريطانى، ويقول «حسن يوسف» فى مذكراته وهو الرجل القريب من الملك: كانت المعلومات التى تجمعت لدى الملك من وزير الدفاع «حيدر باشا» و«عبد الرحمن عزام» أمين الجامعة العربية تشجع على اشتراك الجيش المصرى

فى الحرب لتحرير فلسطين، وغضب الملك فاروق على «إسماعيل صدقى وعلى الشيوعيين، (انتهى كلام حسن يوسف)، وتعليق منا لتفسير موقف الملك بأنه محاولة للسير فى ركاب الرؤساء العرب أصدقاء بريطانيا فى المنطقة والداعين إلى دخول الحرب».

على أية حال كان «محمود فهمى النقراشى» يرى فى البداية اشتراك مصر بقوات من المتطوعين تمدهم الحكومة بالسلاح والتدريب لأنه كان يخشى من القوات البريطانية المرابطة فى منطقة القناة وخلف ظهر الجيش المصرى وواقع الأمر أن شعار دخول الجيش المصرى الحرب قد تحول إلى مطلب شعبى، وموقف الملك كان إلى جانب دخول الجيش المصرى الحرب، فانتهى الأمر بموافقة «النقراشى» على هذا الاتجاه، ووافق البرلمان فى ١١ مايو على دخول الجيش وعلى إعلان الأحكام العرفية.

النقراشى والإخوان والحرب:

وافق البرلمان فى ١١ مايو عام ١٩٤٨ على دخول الجيش المصرى الحرب، ووافق على إعلان الأحكام العرفية، ووافق النقراشى على هذا الاتجاه، وكانت «حيفا» قد سقطت فى أيدى اليهود يوم ٢٣ أبريل عام ١٩٤٨م، وعقد مؤتمر عسكرى خطير فى «عمان» عاصمة الأردن، وبعد ثلاثة أيام تحركت القوات العربية لإنقاذ فلسطين، وفى ١٥ مايو عام ١٩٤٨ احتلت القوات المصرية غزة وواصلت زحفها إلى المجدل ثم إلى بئر سبع، وتجاوز الجيش الأردنى القدس زاحفًا إلى تل أبيب، ولكن فوجئت مصر بانسحاب القوات الأردنية من اللد والرملة، فاستولى عليها اليهود وبعدها أصبح الجيش المصرى وحده فى المعركة.

أما الإخوان المسلمون فقد كان لهم شأن آخر، فقد اشترك شباب التنظيم السرى فى حرب فلسطين كمتطوعين وهو الاتجاه الأصلى لدى النقراشى باشا - وفى ديسمبر عام ١٩٤٨م أبلى متطوعو الإخوان بلاء حسنًا وسقط منهم شهداء، وفوجىء المتطوعون الإخوان باللواء «فؤاد صادق» قائد القوات المصرية يقوم باعتقال جميع متطوعى الإخوان المسلمين ووضعهم فى معسكر فى رفح، ثم قام

بترحيلهم إلى المعتقلات فى مصر، وأصدر «النقراشى باشا» يوم ٨ ديسمبر عام ١٩٤٨ قراراً بحل «جماعة الإخوان المسلمين».

وحسب المصادر المختلفة أصدر «الجهاز السرى» فتوى بأن «النقراشى» عدو للإسلام وأهدروا دمه فى ٢٨ ديسمبر عام ١٩٤٨م.

الوزارة والرئاسة:

قبل أن نتوقف عند بعض الأحداث فى تاريخ النقراشى لا بأس أن نورد سجلا للوزارات التى تولاها ورئاسات الوزارة وتواريخها:

- وزارة مصطفى النحاس باشا الثانية أول يناير ١٩٣٠ - ١٩ يونيو ١٩٣٠.

محمود فهمى النقراشى أفندى وزيراً للمواصلات، والمالية «بالنيابة» ١٨ مارس ١٩٣٠.

- وزارة مصطفى النحاس باشا الثالثة ٩ مايو ١٩٣٦ - ٣١ يوليو ١٩٣٧.

محمود فهمى النقراشى . . وزيرا للمواصلات.

- وزارة محمد محمود الرابعة ٢٤ يونية ١٩٣٨ - ١٨ أغسطس ١٩٣٩.

محمود فهمى النقراشى باشا لوزارة الداخلية.

- وزارة على ماهر الثانية ١٨ أغسطس ١٩٣٩ - ٢٧ يونية ١٩٤٠.

محمود فهمى النقراشى باشا وزيراً للمعارف العمومية.

- وزارة حسن صبرى الأولى ٢٧ يونية ١٩٤٠ - ١٤ نوفمبر ١٩٤٠.

محمود فهمى النقراشى باشا وزيراً للداخلية.

- وزارة أحمد ماهر باشا الأولى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ - ١٥ يناير ١٩٤٥.

محمود فهمى النقراشى وزيراً للخارجية.

- وزارة أحمد ماهر باشا الثانية ١٥ يناير - ٢٤ فبراير ١٩٤٥.

محمود فهمى النقراشى وزيراً للخارجية .

ـ وزارة محمود فهمى النقراشى الأولى ٢٤ فبراير ١٩٤٥ ـ ١٥ فبراير ١٩٤٦ .

رئيسًا للوزراء ووزيراً للداخلية والخارجية .

ـ وزارة محمود فهمى النقراشى الثانية ٩ ديسمبر ٤٦ ـ ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨ رئيسًا للوزراء ووزيرا للداخلية والخارجية .

وزارة كوبرى عباس:

وهكذا بدأ محمود فهمى النقراشى حياته الوزارية وزيراً للمواصلات فى حكومة الوفد برئاسة «مصطفى النحاس» مرتين ، ثم بدأ مرحلة جديدة فى حياته وزيراً فى وزارات محمد محمود وعلى ماهر وحسن صبرى وأحمد ماهر ، وبعد اغتيال أحمد ماهر فى فبراير عام ١٩٤٥ تولى محمود فهمى النقراشى رئاسة الوزارة من فبراير عام ١٩٤٥ ـ فبراير عام ١٩٤٦ . وقد تحدثنا من قبل عما يمكن أن نسميه بوزارة حرب فلسطين وهى وزارة النقراشى الثانية من ٩ ديسمبر عام ١٩٤٦ ـ ٢٨ ديسمبر عام ١٩٤٨م ، وفى تلك الوزارة حدثت بعض التناقضات «غير الرئيسة» بين الملك ومحمود فهمى النقراشى ونقول أنها «غير رئيسة» لأنها لم تؤثر فى موقف النقراشى الاستراتيجى مع القصر ، أى أنها كانت تنتهى دائمًا بالتجاوز عنها من جانب النقراشى ، والمثال الواضح هو موقف النقراشى من دخول الجيش المصرى حرب فلسطين ، كان الملك لأسباب خاصة به ـ يشجع اتجاه دخول الجيش للحرب وكان النقراشى فى البداية لا يطمئن لدخول الحرب وجيش الاحتلال الإنجليزى فى منطقة القناة فى ظهر الجيش المصرى ، غير أن النقراشى تراجع عن رأيه فى المشاركة التطوعية فى الحرب ووافق على اشتراك الجيش المصرى النظامى ، وكان الملك قد تخطى النقراشى بتعيين «إبراهيم عبد الهادى» وكيل الهيئة السعدية رئيسًا للديوان دون استشارة رئيس الحكومة ، وتم تعيين «كريم ثابت» مستشاراً للإذاعة رغم معارضة النقراشى باشا ، ولجأ «الأمير عبد الكريم الخطابى» إلى مصر فى «حمى الفاروق» دون استشارة النقراشى ودون موافقته ، وتميزت حكومة حرب فلسطين

بالصدام الذى أشرنا إليه فيما سبق بين النقراشى والإخوان المسلمين والذى انتهى بحل الإخوان فى ٨ ديسمبر واغتيال النقراشى فى ٢٨ ديسمبر من عام ١٩٤٨ .

ونعود إلى وزارة النقراشى الأولى من فبراير عام ١٩٤٥ - فبراير عام ١٩٤٦ والتى يمكن أن نسميها بـ «وزارة كوبرى عباس» الحادثة التى وقعت فى «٩ فبراير عام ١٩٤٦» وأدت إلى استقالة النقراشى فى ١٥ فبراير عام ١٩٤٦ على أثر تلك الحادثة التى ثارت حولها أقاويل كثيرة والصدام بين الشرطة والمتظاهرين، وفى عهد تلك الوزارة كشفت عن الخلافات الدفينة بين محمود فهمى النقراشى ومكرم عبيد وعن الخلافات بين النقراشى وحافظ رمضان، وانتهى الموقف باستقالة «حافظ رمضان» واستقال «مكرم عبيد وزملاؤه فى حزب الكتلة»، وكانت هذه الاستقالة هى آخر عهد «مكرم عبيد» بالاشتراك فى الوزارات المصرية .

وعلى العموم فإن وزارة النقراشى الأولى «وزارة كوبرى عباس» سادت فيها «البطالة» على نطاق واسع وزاد فيها نشاط جماعة الإخوان المسلمين ومصر الفتاة والمنظمات الشيوعية، وانتشرت المظاهرات الشعبية والطلابية وارتفع المد الوطنى ضد الاحتلال وضد القصر وضد النقراشى نفسه، وانطفأ بريق الوزارة فى حادثة «كوبرى عباس» فى ٩ فبراير عام ١٩٤٦ ، وتحت ضغط الصحف المعارضة وخاصة الصحف الوفدية قدمت «وزارة كوبرى عباس» استقالتها فى ١٥ فبراير عام ١٩٤٦ .

ماهر والنقراشى أيضًا:

فى الحلقة الخاصة بأحمد ماهر كان رأينا واضحًا وهو أن موقف «أحمد ماهر» فى الإعلان الشكلى للحرب على دول المحور لم يكن خيانة لمصر ولم يكن ماهر خائنًا على أى وجه من الوجوه، عندما ذهب رئيس الوزراء «أحمد ماهر» إلى مجلس النواب فى ٢٤ فبراير عام ١٩٤٥ يعرض عليه أن تعلن مصر الحرب على ألمانيا النازية، كانت الحرب بين الحلفاء والمحور قد انتهت فعلا، كانت قوات الحلفاء والاتحاد السوفيتى تزحف نحو برلين، وقرر قادة الحلفاء والاتحاد السوفيتى أن يعقد مؤتمر سان فرانسيسكو فى ٢٥ أبريل عام ١٩٤٥ لإنشاء هيئة الأمم المتحدة، والشرط الأساسى للمشاركة فى مؤتمر سان فرانسيسكو، وبالتالى فى الأمم المتحدة هو للدول

التى أعلنت فعلا الحرب على المحور، ومن الطريف أنه فى أبريل عام ١٩٤٥ قبض رجال المقاومة الإيطالية على «موسولينى» و«صديقته كلارا بيتانشى» وهما يحاولان الهرب من إيطاليا، وفى ٢٨ أبريل عام ٤٥ تم إعدام موسولينى وصديقته. وبعد ظهر يوم ٢٩ أبريل عام ١٩٤٥ قرر «هتلر» وصديقته «إيفا براون» الموت طوعًا، وتم انتحار الاثنين يوم ٣٠ أبريل عام ١٩٤٥م، أى أنه فى ٢٤ فبراير عام ١٩٤٥ كانت الصورة واضحة وهى أن الحرب انتهت فعلا وإعلان مصر الحرب على المحور مسألة شكلية تمامًا ولن تكلف مصر مليمًا ولا رصاصة وإنما هو الطريق للتواجد المصرى فى المنظمة الدولية المرتقبة.

نحن نكتب للتاريخ الحديث وعلينا أن نكتبه بنزاهة وتجرد، فإذا قلنا أن «أحمد ماهر» يوم ٢٤ فبراير عام ١٩٤٥ لم يكن خائنًا فإننا نقول أن «محمود فهمى النقراشى» يوم ٢٨ ديسمبر عام ١٩٤٨ لم يكن كافراً ولم يكن عدواً للإسلام، وسندنا فى ذلك هو بيان «الشيخ حسن البنا» المرشد العام لجماعة الإخوان فى استنكاره لاغتيال النقراشى باشا، وأن الاغتيال تم بفتوى من أحد علماء «الجهاز السرى» وبعيداً عن علم المرشد العام، وتقول المصادر الموثوق بها أن الجهاز السرى كان يقوم بعمليات دون علم المرشد العام، وما حدث أيام «الشيخ حسن البنا» حدث فى عهد «المستشار حسن الهضيبى» المرشد العام، وقام «الهضيبى» بفصل رئيس الجهاز السرى «عبد الرحمن السندى» وثلاثة من أعضاء الجهاز.

وهكذا كما ترافق ماهر والنقراشى فى الميلاد والعمل بعد البعثات لفرنسا وإنجلترا، وترافقا فى الكفاح السرى، تشابهًا فى نهاية رحلة الحياة بالاغتيال بناء على اتهام غير صحيح، لم يكن ماهر خائنًا ولم يكن النقراشى معاديًا للإسلام، كلها اجتهادات سياسية ورؤية نختلف حولها أو نتفق، ولكن لا سبيل للرد عليها بالرصاص.

عود على بدء:

لم يكن خائنًا من قدم حياته فى سبيل الوطن ولم يكن كافراً من سار مناضلا تحت راية سعد زغلول، واختتم بمشهد المحاكمة الذى طالبت فيه النيابة بإعدام ماهر

والنقراشى، هذا المشهد سجلته «فاطمة اليوسف» فى مذكراتها، قالت روزاليوسف.

فى مبنى المحاكمة القائم فى ميدان باب الخلق كانت تجرى محاكمة المرحومين أحمد ماهر والنقراشى بتهمة تكوين عصابة قامت باغتيال السردار وغيره من الإنجليز، وكانت النيابة تطلب الحكم عليهما بالإعدام . . أما الدفاع فكان يتربص به عدد كبير من المحامين الوفديين على رأسهم «مصطفى النحاس»، وكان معروفًا أن «سعد زغلول» يشترك فى تحضير الدفاع، ولم يكن الإنجليز يريدون من هذه المحاكمة رقبتى ماهر والنقراشى فحسب بل ودمغ الوفد كله بالتآمر والجريمة، وكانت هذه المحاكمة تسير فى خط واحد مع الجهود التى تبذلها السراى ووزارة زيوار لإبعاد الوفد عن الحكم.

وقررت - روزاليوسف هى التى تتكلم - أن أحضر جلسات المحاكمة وأكتب عنها فى «روزاليوسف» . . وفعلا حضرت سبع جلسات متواليات، وحين صدر الحكم بالبراءة اقتربت من قفص الاتهام وصافحت ماهر والنقراشى مهنئة، وحملتهما الجماهير على الأعناق كما حملت مصطفى النحاس، ووقف سعد يخطب وبدأ ميل مجلة روزاليوسف إلى سعد زغلول.

الأسانيد:

حسن يوسف . . مذكرات صلاح منتصر . . جريدة الأهرام ٢٨/ ١٢/ ١٩٩٨.

فاطمة اليوسف . . مذكرات.

لمعى المطيعى . . موسوعة هذا الرجل من مصر.

د. محمود جامع . . عرفت السادات.

مركز تاريخ مصر . . الوزارات والنظارات المصرية.

محمود حسن إسماعيل



الطابع الريفى الصعيدى يغلب على طريقته فى الكلام ولهجته فى النطق مع أنه أمضى طوال عمره فى المدينة، إذا رأيت فارسًا فارع الطول مشعث الشعر، قد لوحت وجهه شمس الصعيد يلتزم جانب الطريق يمرق بسرعة ولكن فى حذر ولا يكاد يتوقف أو يحاول ـ كما يفعل كثيرون غيره . . أن يتابع شيئًا مما يجرى حوله . . فإنه عاشق النيل والطبيعة الشاعر الكبير . . محمود حسن إسماعيل، وإذا تأملته فله وجه صعيدى حاد الملامح، وسيم، وصوت قوى ولكن فيه نبرة عن ضيق، وإذا جلست إليه أحسست بـ «الشموخ الروحى» الذى يتمتع به، وإذا تحدثت إليه وجدته يفخر دائمًا بأنه فلاح صعيدى يهيم بحب الأرض ويعشق أهل قريته ويتدله فى إعزازه لهم، شديد التدين وكثير الفخر بإسلامه وعروبته، ولم يكن متعصبًا لا فى تدينه ولا فى عروبته، جوهر الدين عنده يتمثل فى العلاقة المباشرة بين العبد وخالقه، ومن هنا كان يرفض الانحياز للجماعات الدينية التى تتجه نحو السياسة، لم يكن يعارض تحرير المرأة، وكان ارتباطه الدائم بالديمقراطية وحرية الفكر.

عام ١٩٤٦م صدر له ديوان باسم ديوان «الملك»، وقبل أن نوغل فى المسيرة مع «محمود حسن إسماعيل» نفرغ من الحديث عن جوهر ديوان الملك ولنتوقف عند الشكل، وأترك الحديث لشاعر كبير هو «صلاح عبد الصبور» يحدثنا عنه :

قال الشاعر صلاح عبد الصبور ضمن سلسلة مقالات نشرت فى مجلة الدوحة

«من أبريل عام ١٩٨٠م» بعنوان «على مشارف الخمسين» كان لات الشعر وعزاه فى زمننا الأول هما «محمود حسن إسماعيل» و«على محمود طه»، ولو كنت سئلت وأنا أترك الزقازيق إلى القاهرة طلبًا للعلم فى الجامعة عام ١٩٤٧ عن أول ما أريد أن أراه فى القاهرة لقلت دون تردد: محمود حسن إسماعيل كأمنية أولى، ثم على محمود طه كأمنية رابعة أو خامسة، وعلى قهوة «عبد الله» بالجيزة، سألت أنور المعداوى . . هل لى أن أرى محمود حسن إسماعيل، فلقد ذكرت لى أنه صديق لك. . وضحك أنور ضحكته المجلجلة وأشار إلى ركن فى المقهى قائلا: هذا هو «قم بنا أعرفك به». وفى مكتبة البلدية بالزقازيق وجدت أول ما وجدت لمحمود حسن إسماعيل ديوانه «الملك»، ولم يكن الديوان يمثل لى شيئًا عندئذ إلا جماله الموسيقى والفنى، وكانت قراءة شعر هذا الديوان تلقى أمام عينى غلالة رقيقة تحجب هذه التفاصيل العابرة، ولا يتألق من خلالها إلا الشعر وحده، والواقع أن شعر محمود حسن إسماعيل فى الملك فاروق نمط من أروع الشعر، فهو ليس شعر مناسبة استجداء فلم ينل محمود من الملك شيئًا يذكر. ولكن هذا الشعر شعر محبة، فقد خيل لمحمود ذات يوم أنه يقف من الملك موقف المتنبى من سيف الدولة، وكان أقرب الشعراء إلى محمود، المتنبى وأبو تمام، وكلاهما من كبار الشعراء وكبار المداحين، ويستطرد صلاح عبد الصبور قائلا: ولم يكن مدح «محمود حسن إسماعيل» مما جرت به العادة عند أوساط الشعراء، ولكنه مدح عالى القدر من الفن ملىء بالصور البيانية الرائعة، جليل بالإيقاعات والوشى الموسيقى، وحين قرأنا هذا الديوان أنا وصحابى من شداة الشعر أو شكلنا أن نحفظه ثم غادرنا هذا الديوان إلى ديوانيه السابقين. . أغانى الكوخ . . وهكذا أغنى.

أغانى الكوخ:

لم يكن فى «ديوان الملك» ملك إلا الشعر ذاته، ولا ملهم إلا الريف المصرى بنخيله وزهره، وقالت الفنانة التشكيلية والتليفزيونية والإذاعية «سلوان محمود» واسمها الكامل «سلوان محمود حسن إسماعيل» ـ ولاحظوا ما قالته العرب . . كل فتاة بأبيها معجبة ـ قالت إن ديوان الملك بمثابة هتاف الفن للملك يحمله تراب القرية، يستنهض طرقاته باب الكوخ ليطمئن على حياة شعبه.

ولقد بدأت رحلة «محمود حسن إسماعيل» الشعرية، وهو طالب بدار العلوم وأصدر ديوانه الأول «أغانى الكوخ» فى يناير عام ١٩٣٥م يحمل حياة الريف وشقاء الفلاح.

ولد عام ١٩١٠م فى يوم قائظ من أيام شهر يولية وبالتحديد ثانى أيامه فى قرية «النخيلة» مركز أبو تيج مديرية أسيوط، وقرية النخيلة حباها الله من جمال الطبيعة وسحرها الشىء الكثير، النيل ينساب متماوجًا تحت أغصان شجر الخروع ودقن الباشا وكثير من نخيل سامق يتراقص يحكى أسراراً ويخفى أسراراً . . وظل ظليل يفىء إليه الشاعر فى صباه متأملا هائمًا فى جزيرة فى عرض النيل . . يصل إليها فى زورق صغير إلى كوخ بسيط صغير مهبط وحيه الذى جاء إليه بـ «أغانى الكوخ»، وقد شجعه على إصدار «أغانى الكوخ» الدكتور مهدى علام الذى عرفه فى دار العلوم، كان محمود عائداً من رحلة فى أقاصى الصعيد ومعه صديقه «عباس خضر»، وعندما اقترب القطار من قرية النخيل أخذ «محمود حسن إسماعيل» صديقه عباس خضر ولم يهدأ له بال إلا بعد أن أشار لعباس إلى كوخ . . وهو يقول. . الكوخ . . الكوخ يا عباس.

وأصدر «أغانى الكوخ» عام ١٩٣٥ وهو لم يزل طالبًا فى دار العلوم. وحين صدر «أغانى الكوخ» باكورة دواوينه لم تكن الكتابة عن الفلاح كمنهج إلا عند محمود حسن إسماعيل والدكتورة «بنت الشاطىء».

وفى ٢٦ فبراير عام ١٩٣٥ أقاموا له حفل تكريم وألقى قصيدة فى الحفل بعنوان «وطن الفأس» واتخذ هذا المنهج طوال حياته، ظل مخلصًا للكوخ والخص والفأس.

أربعة عشر ديوانًا:

أثرى الشاعر «محمود حسن إسماعيل» الشعر العربى بأربعة عشر ديوانًا تمجد عبير حياته وعمق تجربته التى عايش فيها تجربة الأمة العربية وآلامها: «أغانى الكوخ - هكذا أغنى - أين المفر - نار وأصفاد - قاب قوسين - لابد - التائهون - هدير الرزخ -

صلاة ورفض - السلام الذى أعرف - نهر الحقيقة - صوت من الله - موسيقى من الشرق - رياح المغيب». نشرت له الأهرام أشعاره بدعوة من «أنطوان الجميل» رئيس التحرير والشاعر أيضًا، ونشرت له مجلة الثقافة أيام أحمد أمين ومجلة الرسالة على أيدى «أحمد حسن الزيات»، وعندما تولى موقفًا مرموقًا فى الإذاعة أصر على ألا تقدم له الإذاعة شيئًا من شعره، ألم نقل أنه كان يتمتع بشموخ روحى ويميل إلى حياة العزلة حتى فى المقهى كان ينتحى ركنا قصيا. جمع بين الشعر التقليدى وشعر التفعيلة، ويعد شعره طفرة بارزة فى عصرنا الحديث، وكان من أكثر الشعراء تجديداً فى الشكل ومن أقدرهم على تركيب الصورة، وكان من أكثر الشعراء حفظًا لأشعاره يرويها على الفور فى حفل أو فى جلسة مع الأصدقاء، وعبر عن هذه الصفات كلها «د. مدحت الجيار» . . «أسهم فى تطوير الشعر العربى الحديث، كانت فطرته السليمة وعاطفته الجياشة وسط نيل ونخيل وجبال وصحراء الصعيد نبعًا لروح شعرى جديد تواكب مع روح التجديد الشعرى فى مصر منذ مدرسة أبوللو أوائل الثلاثينيات»، ويعده البعض . . أول المجددين فى حركة الشعر الحديث . . والعباءة التى خرج منها كبار الشعراء المحدثين.

وشهد له «صلاح عبد الصبور» بقوله: «لقد قال لى محمود أكثر من مرة أنه أول من شق للشعر الحديث طريقه وأسمعنى بعض شعره التفعيلى الذى نظمه فى أواسط الثلاثينيات».

وهو الشاعر العربى المعاصر الوحيد - فى تقدير د. عبد العزيز الدسوقى - «الذى ظل يغرد فى حيوية وشباب طوال أربعين عامًا دون أن يتوقف وظل راهبًا فى محراب الفن طوال حياته».

السنوات الأولى:

يقول عن سنواته الأولى: عشت فى قريتى . . فى الغيط على مشارف نهر النيل جنوب أبو تيج، أشارك الفلاحين فى العمل فى الحقل، أعزق الأرض، أبذر الحب، أتابع البذرة منذ غرسها حتى الحصاد، تعلمت فى «الخص» ودرست فيه، ومنه تقدمت إلى امتحان شهادة البكالوريا من المنزل وحصلت عليها، ثم رحلت إلى القاهرة لألتحق بدار العلوم.

كنت أقرأ فى «الخص» الصحف خاصة «البلاغ الأسبوعى» وهو الملحق الأدبى الذى كان يصدر أسبوعيًا، لم يكن لدى فى «الخص» غير الكتب المدرسية ولم أقرأ شعراً غير المحفوظات المقررة، ومن هذه المحفوظات بدأت أرفض كل قول مكرر وتعبير زائف.

تخرج فى دار العلوم عام ١٩٣٦م، ويقول زميله وصديقه «عباس خضر»: من حسن حظه أنه جاء إلى القاهرة متأخراً كثيراً بعد أن تكون إدراكه الفطرى للأدب بين الأكواخ والحقول.. لقد كانت نشأته الأدبية أحسن من نشأتنا، لقد أصبح «محمود حسن إسماعيل» واحداً من جيل أبوللو الذى يبدأ مع «د. أحمد زكى أبو شادى» و«عبد اللطيف السمرة» وتميز بأنه كان رائداً من أكبر رواد الشعر الوجدانى فى شعرنا الحديث.

فى دروب الحياة:

من «الخص» فى حقول النخيلة تقدم إلى امتحان شهادة البكالوريا وحصل عليها، ثم رحل إلى القاهرة ودخل دار العلوم وتخرج فيها عام ١٩٣٦م. وعمل محرراً بمجمع اللغة العربية وكان موضع تقدير وحفاوة من أعضاء المجمع الذين تعرف إليهم وسعدوا بوجوده فى جهاز المجمع، والتحق بالإذاعة المصرية عام ١٩٤٤م، وتدرج فى العمل الثقافى بها وقدم خدمات كثيرة للمثقفين الذين تعاملوا مع الإذاعة، وعين مستشاراً للإذاعة، وحرص على التوازن بين العمل الإذاعى والجانب الإبداعى، ونال جائزة الدولة فى الشعر عام١٩٦٤ عن ديوانه «قاب قوسين»، وقد ابتعدت عنه جائزة الدولة التقديرية فى الأدب بسبب موقف المؤسسات العلمية وانغلاقها على ترشيح المنتمين إليها وهو الموقف الذى نلحظه فى عدم ترشيح «الدكتور عبد الرحمن بدوى» للتقديرية من أية جامعة فى مصر حتى الآن، وحمل «محمود حسن إسماعيل» شموخه الروحى وسافر إلى الكويت ليعمل خبيراً فى مراكز بحوث المناهج محافظًا على كرامته ومعتزاً بشاعريته حتى انتقل إلى رحاب الله فى ٢٧ أبريل عام ١٩٧٧م فى الكويت.

صلاة ورفض:

وجاءت نكسة ٥ يونيو عام ١٩٦٧ لتزلزل كيان المثقفين فى مصر وفى غيرها من البلاد العربية . . هزيمة وانكسار للنفوس والوجدان . . وحل الاكتئاب على عدد من الكتاب والمثقفين . . محمد توفيق دياب اعتكف فى بيته وأغلق على نفسه حزنًا وكآبة إلى أن رحل بعد النكسة بشهور قليلة، وصلاح جاهين الذى كان يبشر بالمواقف التى ينادى بها النظام يرى كل شيء وقد انهار على حين غرة واكتأب ورحل . . وكثيرون غيرهما مما نعرف أو لا نعرف.

وكانت عجينة محمود حسن إسماعيل متماسكة بالوطنية وتفيض بحب تراب مصر ومنحازًا للفقراء والمقهورين . . عمل معهم فى الحقول . . عزق الأرض وبذر الحبوب وتابع الزرع منذ غرسه . ولكن كل شيء ذهبت به العاصفة، وفاضت قريحته بالديوان التاسع «صلاة ورفض» يحمل الرفض لمعنى الهزيمة والانكسار، ويرفع شعار سلام القوة لا سلام الضعفاء، وغنى الشاعر لمصر والأمة العربية بلحن السلام.

السلام الذى أعرف:

وفى مهرجان الشعر الدولى عام ١٩٦٩ بمدينة «ستروجا» بمقدونيا ـ يوغسلافيا ـ وقف الشاعر المصرى بقامته السامقة «محمود حسن إسماعيل» يلقى قصيدة طويلة باللغة العربية، تلتها الترجمة باليوغوسلافية، ألقيت ثلاث مرات بناء على دعوة إدارة المهرجان فى مدن مختلفة، وقام بترجمتها من العربية إلى الإنجليزية أستاذه وصديقه الدكتور محمد مهدى علام، والقصيدة الطويلة بعنوان تطرب له الشعوب «السلام الذى أعرف» . . وقف محمود حسن إسماعيل بين تصفيق ملتهب . . وقف بقامته السامقة وصوته القوى يقول:

من الشرق جئت

ومن كل أرض أتيت

ومن دروب الحياة انطلقت

ومن كل جرح سريت

ومن كل طفل

مع الموت يرضع ثدى البنادق

ويحتضن عن أمه فى رفات الضحايا

«واستعيدت الفقرة السابقة مرات من الذين استمعوا إلى الترجمة» .

وواصل محمود حسن إسماعيل الإلقاء :

وفى نظرات المشانق

فيا أمى الأرض

ماذا جنيت

ومنك . . ومثلى جميع البرايا

ولدت

بياضًا . . وجدت

سواداً . . وجدت

إلى كل لون لديك انتميت

وكان وجود «محمود حسن إسماعيل» فى هذا المؤتمر الدولى تواجدا مصريا مشرفًا لشعب مصر وللشعوب العربية التى تنادى بالسلام والإخاء بين شعوب الأرض دون تفرقة بين العنصر أو اللون أو العقيدة .

السلام والديموقراطية:

ولم يكن انحيازه للسلام والمساواة بين الناس بأقل حماسة من انحيازه للديموقراطية والأخوة فى المواطنة وحرية المرأة ، كان شاعرنا «محمود حسن إسماعيل» قد تخرج فى دار العلوم عام ١٩٣٦ ، واندلعت الحرب العالمية الثانية عام

١٩٣٩ . ولجأت السراى والاحتلال إلى تشكيل أحزاب وجماعات لمواجهة «الوفد» حزب ثورة ١٩١٩م، وتميزت تلك الفترة بصراع سياسى داخلى عنيف . وبرز محمود حسن إسماعيل أول ما برز كشاعر وطنى ، وكان صوته أقوى صوت معبر عن ثورة الطلاب وشهدائها وقدرته الفائقة على إلقاء الشعر . وعلى الرغم من الصراع الحزبى حرص الشاعر على ارتباطه الدائم بالديموقراطية وحرية الفكر ولم يعارض تحرير المرأة ورفض الانحياز للجماعات الدينية التى تعمل لأهداف سياسية ، وانتهى به الأمر إلى أن يفضل الشعر على السياسة . . وهرب من الأضواء السياسية إلى حيث الأرض والطين وقريته النخيلة بالصعيد ، وانتصر للضعفاء والمقهورين الذين ولد بينهم لأسرة متواضعة فى الريف المصرى ليخرج لنا قصائده المنحازة لهؤلاء المتواضعين وليجلس عضوا بلجنة الشعر فى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية التى يجلس على رئاستها «عباس محمود العقاد» وليحظى محمود حسن إسماعيل باحترام الشعراء التقليديين والمحدثين معًا مغردًا صدّاحًا بالشعر التقليدى والحديث ، وليغنى له «محمد عبد الوهاب» و«أم كلثوم» ويتردد اسمه مقترنًا بالكلمات التى يغنيها كبير المطربين وكبيرة المطربات .

سفنى أقلعت:

وكأن الشاعر قد أحس بقرب النهاية فأنشد قصيدته «سفنى أقلعت» الذى عرفها عن انشغاله بالرحيل . .

فلا تسألونى ، فى دروب العباب ، أيان تمضى .

مثلما تشهق الدموع . . دعونى

لا فراق ولا وداع

ولكن رحلة من ضفاف يفضى ليمضى

لا شراع ولا سفن

ولكن زورق من سماء روحى لأرضى زائراً ليوقظ اللهب ويقضى
كافر بالوقوف يصلب دربى فى مسيرى .
وسجدة فوق رفضها
أنا ملاحه وحادى خطاه
وأنا موجته وعاتى دجاه
فاتركونى

وجزعت ابنته الإعلامية المرموقة «سلوان محمود» وأرسل إليها من الكويت يقول . .

لا تجزعى يا ابنتى . . إذا حدث ولا قدر الله فلابد أن ترخى الشمس جفونها، وأن تلبس الأرض القتام والسواد . . ».

وفى الكويت وفى غربته، وفى ٢٧ أبريل عام ١٩٧٧م تحققت نبوءة الشاعر العظيم وحجبت الشمس أضواءها . . ولفظ أنفاسه الأخيرة. وعادت به ابنته إلى الوطن فى طائرة واحدة بعد تكريم مشكور من دولة الكويت، ويشيع الشعراء فقيدهم الكبير.

الأسانيد:

سلوان محمود . . المختار من شعر محمود حسن إسماعيل .
صلاح عبد الصبور . . على مشارف الخمسين .
عبدالعزيز الدسوقى «دكتور» . . محمود حسن إسماعيل .
مدحت الجيار «دكتور» . . أخبار الكتاب يونية ٩٨ .
محمد رجائى الطحلاوى «دكتور» . . من أعلام أسيوط .
يحيى عبد الحميد إبراهيم «دكتور» من أعلام أسيوط .
نعمان عاشور . . مع الرواد .

محمــد عبـد الوهــاب



محمد أبو عيسى حجر . . وشهرته : محمد عبد الوهاب .

من مواليد ١٣ شهر مارس «أذار» برج «الحوت» ولكن مارس فى أى سنة؟ . هنا اختلف الباحثون عن الحقيقة وهو قادر على إخفاء حقيقة العام الذى ولد فيه . . صديقنا الباحث المدقق «عبدالحميد توفيق زكى» ذكر أن تاريخ ميلاد «محمد عبدالوهاب» هو «١٣ مارس عام ١٨٩٧» .

وزميلنا الصحفى الفنى «محمد السيد شوشة» ذكر أن عمر «محمد عبدالوهاب» لغز غامض . . من مواليد عام ١٩٠١ أو عام ١٩٠٣ وليس بعد ذلك . وعبدالوهاب هادئ أمام الغموض فى عام ميلاده ، ويكتفى بأن يشهد أمام الذين يلحون فى معرفة عام مولده فى «جواز السفر» ومدون به أنه من مواليد «١٣ مارس عام ١٩١٠م» ويسكت السائلون ولكن على مضض وعدم اقتناع . . لماذا»

ومن الثابت أن «محمد عبدالوهاب» عمل مدرسا للموسيقى والأناشيد فى الفترة من «٢٥ - ١٩٢٨» ، ويشهد على ذلك تلاميذه الذين جلسوا إليه وهم صبية «إحسان عبدالقدوس ، وصالح جودت ، ومصطفى أمين ، وعلى أمين . . » فهل كان مدرسا للموسيقى وعمره ١٥ عاما إذا أخذنا بتاريخ الميلاد المسجل فى جواز السفر؟ ذكر «فؤاد الجزايرلى» فى مذكراته أن والده اكتشف الصبى «محمد عبدالوهاب» عام ١٩١٧ ، ولم يكن عمره يقل عن ١٢ عاما . وذكرت «منيرة المهدية» أن «عبدالوهاب» ظهر معها على المسرح فى أوبرا كليوباترة عام ١٩٢٧عام وأن عمره لم يكن يقل عن ٢٥ عاما . وقام بدور البطولة فى أوبريت «شهر زاد» عام ١٩٢١ . .

فهل كان يمثل هذا الدور وعمره ١١ عاما؟ كانت لديه قدرة فائقة على الكتمان والتمويه . كان الغموض أحد صفات هذا الموسيقار العبقرى العظيم .

لأنه موسيقار عبقرى عظيم فإن الباحثين ينبشون فى حياته وفى سيرته وهو كالطود الشامخ تتكسر الأمواج عند قدميه . وكما اختلفت الأقوال حول تاريخ ميلاده اختلفت أيضا حول عدد مرات زواجه ، ظل الجميع يعرفون أن فنانهم العملاق تزوج فى حياته مرتين . . الأولى : من السيدة «إقبال نصار» عام ١٩٤٣ وهى ابنة عمة الموسيقار المهندس «رءوف أحمد ذهنى» الذى عمل مع «عبدالوهاب» فترة طويلة وسوف نعود إليه فى هذه الحلقة لأن له مع عبدالوهاب حكاية من الطريف أن تروى للقراء . . والزواج الثانى - كما هو شائع - من السيدة «نهلة القدسى» عام ١٩٥٨م ، وكانت زوجة للسيد «عبدالمنعم الرفاعى» مستشار الملك حسين ملك الأردن ، وكان وقت ذلك سفيرا للأردن فى لندن . هذا هو الشائع وهو خلاف ما رواه الصحفى الصعيدى «محمد على غريب» الذى قال إن أمير الشعراء «أحمد شوقى» قدم «عبدالوهاب» عام ١٩٣١ إلى أرملة لباشا مليونير وأم لثلاثة أبناء وتكبره فى العمر وتم الزواج بينهما وعاش معها فى قصرها ذى الأسوار العالية فى الزمالك . واستطاع أن يكتم هذا السر ١٢ عاما ، وتم الطلاق بعد ١٢ عاما من الزواج عام ١٩٤٣ وهو العام الذى تزوج فيه السيدة «إقبال نصار» قريبة الموسيقار «رءوف ذهنى» وكل ما صرح به «محمد على غريب» هو أن أول حرف من اسم هذه المليونيرة التى كانت تمتلك ثلاثة ملايين جنيه وألف فدان بمقاييس ذلك الزمان هو حرف «الزاى ز» وشمر أولاد الحلال عن سواعدهم وبحثوا فى الأضابير وقالوا إن هذه السيدة «زبيدة الحكيم» ونذهب الآن إلى الفنان «رءوف ذهنى» وحكايته مع الموسيقار العبقرى العظيم .

رءوف ذهــنى:

وراء كل عبقرى عظيم يظهر له صحفى أو زميل ينبش له . . وقد تعرض «محمد عبدالوهاب» لحملة صحفية بطلها الكاتب الصحفى الموهوب بأفكاره وعباراته

الرشيقة على صفحات «مجلة روز اليوسف» الراحل «صلاح حافظ» . . قال صلاح حافظ إن عددا من روائع عبدالوهاب مستمدة أو مقتبسة أو مأخوذة من خارج الحدود لفنانين كبار فى أوروبا وغيرها . ولم يهتز «محمد عبدالوهاب» وكل ما قاله ردّا على هذه الحملة «أنا أرتدى البدلة الأنيقة وهى من أوروبا، فهل بهذا أصبحت خواجة ولم أعد مصريا» .

وبدأ الوسط الفنى يرغى ويزبد وطفت على السطح حكاية «رءوف ذهنى» ومجمل الحكاية أن «محمد عبدالوهاب» احتضن المطرب والملحن المهندس «رءوف أحمد ذهنى» وسمح له بحضور ألحانه . وتوطدت العلاقة بين عبدالوهاب وأسرة رءوف ذهنى وأحب عبدالوهاب ابنة عمة رءوف ذهنى وتزوجها وهى الراحلة «إقبال نصار» والدة أبناء عبدالوهاب الخمسة . ويقال إن «رءوف ذهنى» اكتشف أن عبدالوهاب يفيد من ألحان تلميذه «محمد أمين» ثم أشيع فى الوسط الفنى أن «رءوف ذهنى» هو الذى لحن لعبدالوهاب ألحان فيلم «غزل البنات» التى غنتها «ليلى مراد» وقيل إن «عبدالوهاب» كان يهدى لرءوف أحدث أنواع السيارات وبهذا أقبلت المطربات على رءوف ذهنى بتلحين أغانيهن . . «نجاة الصغيرة، وليلى مراد وفايزة أحمد وصباح ومها صبرى وشريفة فاضل وفتحية أحمد وهدى سلطان وملك . . ومن المطربين إبراهيم حمودة وعباس البليدى ومحمد العزبى . . وقيل إن «رءوف ذهنى» بحكم تواجده الدائم فى مكتب عبدالوهاب عرف أن المطرب «محمد أمين» اشترك مع عبدالوهاب فى تلحين «الجندول» و«الكرنك» . وقال آخرون «رءوف ذهنى» نفسه قد نقل أغنية «القمح» التى نسبت إلى عبدالوهاب ونقلها عن أغنية عالمية راقصة كانت ذائعة أثناء الحرب العالمية الثانية . وأن «رءوف ذهنى» لحن قصيدة «يا ضفاف النيل أقبلت إليك» التى غناها المطرب الجامعى «جلال حرب» ونسب التلحين لعبدالوهاب . وقال الراحل كاتب النوتة الموسيقية «نصر عبدالمنصف» أن رءوف ذهنى هو كاتب لحن أغنية «فكرونى» التى شدت بها أم كلثوم ونسب اللحن إلى «عبدالوهاب» ، وشهد الوسط الفنى مشادة بين «عبدالوهاب» و«حسين جنيد» لأن الثانى نسب إلى الأول أنه نقل جزءا كبيرا من موسيقاه فى القطعة الموسيقية «أنا وحبيبى» .

الواد ده حيشقلب الدنيا:

بقى عبدالوهاب بفنه وعبقريته فى عقول ونفوس عشاق فنه على امتداد البلاد العربية، وذهبت إلى طى النسيان كل الأقاويل حول اقتباساته من هنا وهناك. وصدقت فراسة «سيد درويش» عندما تتلمذ «عبدالوهاب» على يديه.. نظر إلى عبدالوهاب وقال: «الواد ده حيشقلب الدنيا» وقد كان.. صعد عبدالوهاب على السلم الموسيقى وشقلب الدنيا.

كانت الموسيقى قدره. ولد فى حى «باب الشعرية» بالقرب من ميدان العتبة الخضراء.. وكان هذا الحى - على اتساعه - يحتوى فى قسم منه المسارح والكازينوهات. دار الأوبرا ودار التمثيل العربى ومسرح حديقة الأزبكية، وألف ليلة وليلة وكازينو دى لارى ومسرح برنتاريا القديم. ومن جانب آخر يتصل حى باب الشعرية بالحى الحسينى، وأضرحة الأولياء، وفيه ما يزيد على خمسين ضريحا ومسجدا، ومسجد الإمام الشعرانى صاحب كتاب «الطبقات الكبرى للشعرانى»، أى أنه عاش فى بيئة دينية من ناحية ودور اللهو البرئ وغير البرئ من ناحية أخرى.

تلقى تعليمه بين كتاب «الشيخ محمد السنباطى» وبين مدرسة «سليمان شاويش» الابتدائية، ثم عاد إلى الكتاب حتى حفظ ثلث القرآن. ولكنه كان كثير الزوغان ليلعب الكرة فى الحارة أو يتردد على دور الغناء والتمثيل.

اضطر أن يعمل سفرجيا فى أحد الأفراح يغنى فيه المطرب «صالح عبدالحى».

ألحقه والده بالعمل لدى ترزى هو «محمد يوسف»، ومن سوء حظ الأسرة أن هذا الترزى كان مضروبا بداء الفن.. يعمل صباحا وفى المساء يأخذ الولد «عبدالوهاب» معه إلى دور الطرب، حيث عمل الترزى «كورس» فى فرقة فوزى الجزايرلى. واكتشف فوزى الجزايرلى جمال صوت محمد عبدالوهاب وأتاح له فرصة الظهور بين فصول الروايات ليلقى بصوته الجميل قصائد «الشيخ سلامة حجازى».

مولد نجم:

كانت البداية فرقة «الجزايرلى» . . والتحق بفرقة «عبدالرحمن رشدى» المحامى، وأخذ عبدالرحمن الصبى محمد عبدالوهاب مع الفرقة فى رحلاتها إلى الصعيد. وكان «عبدالوهاب» ضعيف البنية نحيلا وصغيرا وكان «عبدالرحمن رشدى» يشفق عليه ويخلع معطفه الكبير ليدثره به إذا اشتد البرد، ويشرف على نومه وطعامه.

وتقول «فاطمة اليوسف» فى مذكراتها إن أول لقاء لها بمحمد عبدالوهاب كان فى مناسبة طريفة. كانت الفرقة تمثل رواية «الموت المدنى»، وكانت الممثلة الناشئة تمثل دور بنت صغيرة. وحدث أن مرضت هذه الممثلة الجميلةفقرر عبدالرحمن رشدى أن يقوم محمد عبدالوهاب بدور البنت الصغيرة، وفعلا ألبسوه فستانا رشيقا ووضعوا على رأسه شعرا طويلا مستعارا وتنسدل على كتفيه ضفيرتان طويلتان بشرائط لامعة.

المهم إن أخاه الأكبر «الشيخ حسن» - والد المطرب سعد عبدالوهاب - ضبطه وأعطاه الطريحة اللازمة وهرب عبدالوهاب من المنزل وذهب إلى المسرح ليمثل دور «بايع المانجو» ويغنى: أنا عندى منجه . . وصوتى كمنجه . . والتحق بسيرك فى حى باب الشعرية ورحل معه إلى دمنهور ينام فى الزريبة مع بغلة السيرك . . كل هذا من أجل حبه للفن. ووقف على مسرح «دار السلام» واستقبل الجمهور الصبى الصغير بالتصفيق والاستحسان. كان ذلك عام ١٩١٧م وهو العام الذى رحل فيه «الشيخ سلامة حجازى» وعام ١٩١٩م التقى بسيد درويش وضمه الشيخ سيد إلى فرقته الغنائية، وفوجئ الشيخ سيد بعبدالوهاب يبكى عندما غنى سيد درويش:

أنا المصرى كريم العنصرين   بنيت المجد فوق الأهرمين

لقد ولد النجم «محمد عبدالوهاب» على أيدى فنان الشعب «سيد درويش».

صعود النجم:

ولكن فنان الشعب «سيد درويش» رحل عام ١٩٢٣م، وكان طموح «محمد عبدالوهاب» يدفعه إلى أن يحتل مكانة أستاذه سيد درويش، وطلب من يوسف

القاضى الذى كان يؤلف لسيد درويش أن يكتب له بعض الأغانى التى قام بتلحينها وأدائها ولقيت نجاحا ملحوظا . وحتى يبنى مستقبله الفنى على أساس من الدراسة والعلم . التحق عام ١٩٢٥ بنادى الموسيقى الشرقى ، وكان مقره فى العمارة رقم ٧ شارع البوسطة المجاور لحديقة الأزبكية .

وبدأت الدوائر الصحفية والثقافية تهتم بمحمد عبدالوهاب . كتبت «روزاليوسف» فى مذكراتها : أقمنا ذات ليلة حفلة كبيرة كلفتنا ثمنا ناءت به ميزانية المجلة فى ذلك الوقت «عام ١٩٢٦» وهو خمسة جنيهات ! وقررنا أن ندعو إلى السهرة أحمد شوقى وحافظ إبراهيم وعباس العقاد وإبراهيم عبدالقادر المازنى ومحمد توفيق دياب . وكان يبدو اجتماع أحمد شوقى وعباس العقاد أمرا مستحيلا . ودعونا «محمد عبدالوهاب» الذى غنى فى تلك الليلة الدور القديم «قده المياسى زود وجدى» وفى جو السهرة الجميل وتحت تأثير إنشاء عبدالوهاب الساحر . تصافى الأدباء الكبار . . وخرج العقاد وقد استبد به الطرب لينشر فى «البلاغ» فى اليوم التالى أبياتا من الشعر يحيى بها عبدالوهاب منها :

إيه عبدالوهاب أنك شاد	**يطرب السمع والحجا والفؤادا**
قد سمعناك ليلة فعلمنا	**كيف يهوى المعذبون السهادا**

لقد أصبح النجم الساطع فى اجتماعات الكتاب والمثقفين والصحفيين واقترب عبدالوهاب من رموز المجتمع الفنى والثقافى ، وكان الشاعر «أحمد شوقى» أوثقهم فى العلاقة مع عبدالوهاب .

أحمد شوقى:

رأى «أحمد شوقى» محمد عبدالوهاب يغنى عام ١٩٢١ وأشفق عليه لضعف صحته وطلب منه أن يخفف من مجهوده وأن يعتنى بصحته . وكانت المرة الثانية عام ١٩٢٥م فى احتفال لمعهد الموسيقى الشرقى بسان استفانو بالإسكندرية وأعجب إعجابا كبيرا . وهذه المرة شجعه على المضى قدما فى الغناء . . وأخذ بيده واهتم بأن يقدمه للشخصيات العامة فى المحافل المختلفة . . واصطحبه شوقى فى زياراته

للزعيم «سعد زغلول»، وفى تلك الزيارات تعرف على مصطفى النحاس باشا ومكرم عبيد باشا وأحمد ماهر باشا ومحمود فهمى النقراشي . . وكان «سعد باشا» يحب أن يسمع من عبدالوهاب أغنية «جددى يا نفس حظك» . . واصطحبه شوقى فى كل رحلاته من عام ٢٦ ـ ١٩٣١ فزار معه لبنان وتركيا وفرنسا . وفى إحدى الرحلات إلى «عاليه» بلبنان وصل لعبدالوهاب خبر وفاة والده . . وشجعه أحمد شوقى والدكتور طه حسين أن يغنى . ونظم له شوقى أغنية : الليل بدموعى جانى . . ياحمام نوح ويَّايا

وقام بدور «أنطونيو» أمام منيرة المهدية . . واشترك مع فاطمة رشدى فى مسرحية شوقى «مصرع كليوباترة» وغنى «بلبل حيران» من كلمات أحمد شوقى . وقال محمد عبدالوهاب عن علاقته بشوقى بك يقصد أحمد شوقى :

لقد أخذت منه الإحساس بالشعر الجميل وألا أكون جامدا فى الفن أتطور وأعايش عصرى . . وحدث أن أعطانى أغنية «فى الليل لما خلى» اقترحت عليه أن أغنيهابأسلوب عبده الحامولى نهرنى بعنف وقال يامحمد نحن آذان المستقبل» .

المسرح والسينما والست:

عشق محمد عبدالوهاب الشيخ سلامة حجازى مؤسس المسرح الغنائى وقدمه أحمد رامى إلى فرقة عبدالرحمن رشدى المحامى ، وعمل فى فرقة الريحانى وأمين صدقى وعلى الكسار وسيد درويش ومنيرة المهدية .

أما فى مجال السينما فقد بدأ بفيلم الوردة البيضاء ديسمبر عام ١٩٣٣ ، ودموع الحب ديسمبر عام ١٩٣٥ ، ويحيا الحب يناير عام ١٩٣٩ ، ويوم سعيد يناير عام ١٩٤٠ ، وممنوع الحب مارس عام ١٩٤٢ ، ولست ملاكا ٤٦ ، ورصاصة فى القلب مارس عام ١٩٤٧ .

وإذا كانت مساهمته فى السينما عن طريق ما يعرف بالسينما الغنائية فإنه قد أسهم فى اكتشاف فاتن حمامة ومديحة يسرى وليلى فوزى وإلهام حسين وسامية جمال ثم المطرب محمد أمين .

وإذا تحدثنا عن إسهامه فى المسرح والسينما الغنائية لا نستطيع أن نغفل لقاءاته مع سيدة الغناء العربى «أم كلثوم» علي امتداد عشر مرات : انت عمرى - نشيد وطنى - على باب مصر - أنت الحب لأحمد رامى - أمل حياتى - لأحمد شفيق كامل - فكرونى لعبدالوهاب محمد - فى يدى بندقية لنزار قبانى - هذه ليلتى لجورج جرداق - مرت الأيام لمأمون الشناوى - أغدا ألقاك للهادى آدم - ليلة حب لأحمد شفيق كامل .

وفى نهاية عام ١٩٣٤ تعاقدت معه الإذاعة المصرية على إحياء عدد من الحفلات . كانت الأولى على مسرح «دار الأوبرا الملكية» فى ١٧ مارس عام ١٩٣٥م .

بداية ونهاية:

ولد محمد عبدالوهاب فى المنزل رقم ٢٤ شارع الشعرانى الجوانى فى العام الذى اختلف حوله الباحثون . وعمل والده ، إماما وخطيبا للمسجد ، ومن هنا جاء نسبه إلى الإمام الشعرانى . ويقودنا البحث الدقيق إلى أن نسبه إلى الإمام الشعرانى «صاحب الطبقات الكبرى للشعرانى» هو نسب من ناحية الأم وليس الأب لأن «الإمام الشعرانى» من «محافظة القليوبية» والشيخ عبدالوهاب والد محمد من محافظة «الشرقية» من قرية «بنى عياض» التابعة لمركز «أبو كبير» ، وقد بكى محمد عبدالوهاب بحرقة عندما توفيت والدته وكان «عبدالحليم حافظ» إلى جواره .

ورحل «محمد عبدالوهاب» وهو يحمل جائزة الدولة التقديرية فى الفنون لعام ١٩٦٦ ، وأدى فريضة الحج بدعوة من الأمير بدر بن عبدالعزيز ، ويحمل درجة الدكتوراه الفخرية من أكاديمية الفنون . . وأطلقوا عليه فى حياته ألقاب موسيقار العرب الأول ومنح رتبة اللواء فى الجيش المصرى ، ومطرب الملوك فيما عدا الملك فاروق الذى كان يغار منه لأناقته ولا يرتاح إليه لتقديره المخلص للزعيم مصطفى النحاس . . ويتردد أن القصر منح الفنان يوسف وهبى والفنان سليمان نجيب لقب البكوية وحرص الملك فاروق ألا يمنحها لمطرب العرب الأول «محمد عبدالوهاب» .

واختاره المؤلفون والملحنون رئيسا لاتحادهم منذ عام ١٩٤٥م.

ويكفيه ما قاله عنه «زكى طليمات».. هو الصوت «الرجل» الذى يقف بين الخشونة والنعومة. كان يسير على خطى «سيد درويش» من حيث تطويع النغم الأجنبى للموسيقى العربية، ومن حيث جريان الروح الشعبى فى تلحينه.

وقال عنه الشاعر «أحمد رامى» فى قصيدة بعنوان «إلى عبدالوهاب»

هذه روحى أنا تصغى إليك　　وفؤادى خافق بين يديك

واستمع تطريب نفسى واتخذ　　خفق قلبى ريشة فى أصبعيك

وفى ٣ مايو من عام ١٩٩١م رحل مطرب العرب الأول ابن باب الشعرية وشيع جثمانه فى جنازة مهيبة.

الأسانيد:

١ـ روز اليوسف.. مذكرات.

٢ـ زكى طليمات.. ذكريات ووجوه.

٣ـ محمد السيد شوشة.. موسيقار العرب.

٤ـ عبدالحميد توفيق زكى.. رواد الموسيقى العربية.

٥ـ محمد شلبى.. مع رواد الفكر والفن.

٦ـ محمود سلطان «مهندس».. معجزة الفن والموسيقى.

محمـود بيرم التونسى



من هذا شاعر العامية الجسور الذى تغنت الجماهير بقصائده ضد الملك فؤاد وضد نفوذ الأجانب وسلطانهم على رقاب العباد؟ من هذا «المصرى» الذى خشى أمير الشعراء «أحمد شوقى» منه على اللغة العربية الفصحى؟ وقيل إن «الدكتور طه حسين» حرص على أن يتحدث فى محاوراته اليومية باللغة العربية الفصحى حتى لاتهتز أمام الأزجال والقصائد التى حفظها الناس وأخذوا يرددونها فى مجالسهم الخاصة.

هو الذى قال مخاطبا الملك فؤاد:

ولما عدمنا بمصر الملوك
جابوك الإنجليز يا فؤاد قعدوك
تمثل على العرش دور الملوك
وفين يلقوا مجرم نظيرك ودون
وتنسى زمان وقفتك يا فؤاد
على البنك تشحت شوية زتون

وهو صاحب «البامية السلطانى والقرع الملوكى»

البامية فى البستان تهز القرون

وجنبها القرع الملوكى اللطيف

والديدبان داير يلم الزتون

صهين وقدم وامتثل يا خفيف

وهو قائل ما كان سببا مباشرا لنفيه من مصر عام ١٩٢٠م.

الوزة من قبل الفرح مدبوحة

والعطفة من قبل النظام مفتوحة

ولما جه الأمر الكريم بالدخلة

قلنا اسكتوا خلو البنات تتستر

وهو أمير شعر العامية المصرية وفتى مصر بالتبنى

أمير الشعراء أحمد شوقى خشى على نفسه وعلى اللغة العربية الفصحى من أمير شعر العامية محمود بيرم التونسى الذى حرصت الجماهير على حفظ أعماله التى رفضت الاحتلال والسيطرة الأجنبية ومفاسد القصر.

كان مولد «محمود بيرم التونسى» بالإسكندرية فى حى بجوار الطابية التى شهدت الثورة العرابية. وقريبا من «قصر رأس التين» مقر الخديو توفيق. وذلك يوم السبت ٤ مارس عام ١٨٩٣م حسب بعض المصادر ولكن «الدكتور يسرى العزب» أكثر الذين اهتموا بدراسة بيرم وأعماله، وقد ذكر فى دراسته أن «بيرم» من مواليد شهر مايو عام ١٨٩٣م، ولقد أخذنا بالتاريخ الشائع وهو «يوم ٤ مارس».

جده «مصطفى بيرم» جاء مطرودا من تونس. ووالده «محمد» مولود فى الإسكندرية. وفى الإسكندرية ولد أيضا محمود محمد مصطفى بيرم التونسى» وعندما صدرت جريدة الجمهورية كانت فى حاجة إلى قلم «محمود بيرم التونسى» فصدر قرار بمنحه الجنسية المصرية، وتمكن «محمود» من العمل بالقسم الأدبى مع نعمان عاشور وزملائه.

ونحن هنا لا نحسبه مصريا لمجرد حصوله على الجنسية، ولا لمجرد أنه ولد على أرض مصرية، أو لأن أباه أيضا ولد فى الإسكندرية، ولكننا نعتز بمصريته التى

شاعت فى غالبية أعماله الوطنية ضد سلطات الاحتلال وضد هيمنة الخواجات على الحياة المصرية وضد الملك فؤاد وفساد القصر، وعانت أسرته المتواضعة كما كانت تعانى الأسر المصرية «والده كان صانع وبائع حرير. وعمل وهو صبى فى محل عطارة عام ١٩١٦. واعتاد أن يكتب وهو فى محل العطارة ويظن الزبائن أنه يعد حسابات المحل. ولم يكمل تعليمه فى المعهد الدينى. أرسله والده «محمد مصطفى بيرم التونسى» إلى أحد الكتاتيب بزاوية الشيخ خطاب بالسيالة لتعلم القرآن ومبادئ الكتابة والحساب، ولكن «الشيخ جاد الله» شيخ الكتاب كان قاسيا على الطفل ذى الرابعة من عمره، فانقطع الطفل عن الكتاب وأخذ يعاون والده فى دكانه. وعندما بلغ الرابعة عشرة من عمره ألحقه أبوه بمسجد «سيدى المرسى أبو العباس» وعرف مبادئ اللغة والبلاغة والنحو. ثم مات أبوه فاضطر إلى الانقطاع عن التعليم وعمل فى أحد محلات البقالة. وأخذ فى سماع المواويل والمدائح والحكايات الشعبية. وحفظ الشعر والزجل. وتركته أمه وتزوجت من صانع للبرادع وهوادج الحمير فعمل الصبى مع زوج أمه. ولكن أمه ماتت أيضا وهو فى السابعة عشرة من عمره، فاقترض من خاله واشترك مع آخرين فى محل للبقالة. وباع حصته فى البيت الذى تركته أمه واشترى بيتا صغيرا فى الأنفوشى وتاجر فى بيع السمن بالقطاعى.

المجلس البلدى:

حياته أقرب إلى الضنك والتقشف شأنه شأن غالبية الفئات الكادحة من المصريين. وأدرك «محمود» أن هذا كله لا ينفصل عن استغلال الأجانب بأجناسهم المختلفة لشعب مصر. وتمثل له هذا الاستقلال الخوجاتى فى«المجلس البلدى»، فكتب قصيدته الأولى باللغة الفصحى عن «المجلس البلدى» ونشرتها جريدة «الأهالى» فى ٢٥ مارس عام ١٩١٧م، وارتفع توزيع «الأهالى» بسبب هذه القصيدة ضد المجلس البلدى الذى كان يمثل سطوة الأجانب فى الإسكندرية. وتعبر عن موقف أهل البلد وأصحابها ضد الأجانب المستغلين.

إذا الرغيف أتى فالنصف آكله

والنصف أتركه للمجلس البلدى

كأن أمى بلّ الله تربتها

أوصت فقالت أخوك المجلس البلدى

يا بائع الفجل بالمليم واحدة

كم للعيال؟ وكم للمجلس البلدى

الإنجليز وغيرهم:

كان «بيرم» يتمتع بحس وطنى مصرى واع. يدرك أن التدهور الاقتصادى والاجتماعى يعود إلى سطوة الأجانب المحتلين وغير المحتلين:

فى النوم رأيت عزرائيل

مركيز أوروباوى

ضوفره إنجليزى طويل

معووج وسبعاوى

وناب يشيل ألف فيل

أزرق فرنساوى

والفم يبلع قتيل

فى حجره نمساوى

وعندما بدأت النازية فى ألمانيا الفاشية فى إيطاليا، عبر «بيرم» عن مخاوفه من هذا الخطر الجديد..

عليه قميص من سواد

فاشست طليانى

وجنبه منجم حصاد

من صلب جرمانى

وبعد النظر هذا لم يتوافر لدى بعض الساسة والجماعات السياسية فى مصر .

ولم يكن «بيرم» يفرق فى عدائه بين الأجانب والقصر :

سلطان بلدنا حرمته جابت

ولد وقال سموه فاروق

يافاروق فارقنا بلا نيله

دى مصر مش عايزه لها رذيله

قولوا لعين الشمس:

وإذا كان «بيرم» . . قد عاش فترة المد الحضارى فى مصر والتى اشتعلت فيها الأحداث الكبرى فى النصف الأول من القرن العشرين ، وفى مقدمتها الثورة الشعبية الكبرى عام ١٩١٩ بقيادة الزعيم العظيم «سعد زغلول» ، فإنه أدرك بحسه الوطنى وانتمائه للشعب المصرى مصداقية الزعيم سعد كقائد ورئيس لهذا الشعب المصرى العظيم :

اطلع نهار الجمعة فوق المنبر

وقول يعيش «سعد» الرئيس الأكبر

وقال فى مجال آخر :

قولو لعين الشمس ما تحماشى

إلا رئيس الوفد صابح ماشى

وقول لموج البحر يا موج هدى

واصبر لما السفينة تعدى

يا يوم مبارك يوم ما شفت بلادك
والأمة حولك كلها أولادك
الزهر من شوقه لرؤياك فتح
والشمس بتقول لك يا سعد صبح
وكل شيء ينظر إليك ويسبح
للى أمر وجه الزمن يتدور
أهلا وسهلا قلتها من قلبى
لله فى لله واللى عالم ربى
الدنيا تعرف وانت تعرف حبى
واللى جرى لى والمنافق يظهر

الفن للجميع:

وظف «محمود بيرم التونسى» الفن فى خدمة المجتمع، وعاش الواقع المصرى وأخضع أدواته الفنية للحديث عن أبناء الشعب وأولاد البلد . .

يابن البلد دى البلد
مكتوب عليها اسمك
وزى ما تكون شوارعها
يكون رسمك
حافظ عليها كما تحافظ
على جسمك لا تشمت الناس
ولا تفرج عليك خصمك

غني الحرب:

الحاج جابر على عيسى اللى كان حطاب
فى الحروب ورد لجيش الاحتلال أخشاب
فى ظرف شهرين صبح يملك ثلاث أعتاب
وفرن واصطبل جنبه سبحان الوهاب

تاجر دقيق:

تاجر دقيق أنعم المولى عليه وعطاه
ودخله فى الطريق الأحمدى وهداه
وخش فى الدنيا واتجوز فى عز صباه
وبعد شوف البكارى حج بيت الله
التاجر اسمه حسن من يوم ما أهله جابوه
لا فى مدرسه ودوه وع الطبيخ ربوه.

المزين:

حامد عاشور المزين بالقرون والكاس
فى كل ليلة أحد تكتر عليه الناس
يصبح يجيب للوليه رطل لحمة راس
وفوقها وقة بطاطس أو راسين قلقاس

موظفو الحكومة:

جينا بقى للمساعى من ديوان لديوان
قال فهمى أفندى : الرفوف تبعد عن الجيران
وحسن أفندى يقول : الحيطة ناقصة دهان
وبكرى أفندى حكم بالغلق ع الدكان
وقال حسين بيه حسين : الفتح فى الإمكان!

العساكر والبائعة الغلبانة:

أربع عساكر جبابرة يفتحوا برلين
ساحبين بتاعة حلاوة جايه من شربين
شايله على كتفها عيل عينيه وارمين
والصاج على مخها يرقص شمال ويمين
إيه الحكاية يا بيه؟ جال . . خالفت الجوانين
اشمعنى مليون حرامى فى البلد سارحين؟

بيرم والمنفى:

طلب السلطان «أحمد فؤاد» من الإنجليز أن يتدخلوا لدى الفرنسيين لتسهيل ترحيل الابن الشرعى للجماهير الشعبية «محمود بيرم التونسى» من مصر إلى تونس. وتم الترحيل فى ٢٥ أغسطس عام ١٩٢٠م الموافق أول أيام عيد الأضحى. وفى تونس منعته الإدارة التونسية من مزاولة العمل بالصحافة. وبعد أربعة أشهر أجبره البوليس التونسى على الرحيل إلى فرنسا، حيث عمل حمّالا فى مينا «مارسيليا» وبائعا فى أحد مصانع الخمور. ثم انتقل إلى مدينة ليون فى ديسمبر عام

١٩٢٠، حيث عانى من الفقر والجوع والمرض. وفى ٢٠ مارس عام ١٩٢٢ سافر إلى الإسكندرية بجواز سفر مزور. وفى الإسكندرية وجد زوجته قد حصلت على الطلاق. ونصحه «سيد درويش» بأن يحيا حياة عادية حتى لا يلفت إليه الأنظار، وظل ينشر أزجاله فى مجلة صغيرة بالقاهرة بتوقيع مستعار. واكتشف «حسين شفيق المصرى» «١٨٨٢ - ١٩٤٦» وجود «بيرم» فى الإسكندرية وأبلغ عنه البوليس الذى قبض عليه وأبعدوه عن مصر مرة أخرى فى ٢٥ مايو عام١٩٢٣ . وفى فرنسا أصابه المرض وانتقل إلى الريف الفرنسى ونجح فى مقابلة «سعد باشا» عند مروره بباريس فى طريقه إلى لندن للتفاوض مع الإنجليز. ووصله نبأ وفاة صديقه «سيد درويش» عام ١٩٢٣م. وظل يراسل بعض المجلات والفرق المصرية بأعماله.

ولكن السلطات الفرنسية قامت بترحيله إلى تونس عام ١٩٣٢.

ولأن مصر كانت فى دمه فكان وهو فى فرنسا يراسل أصدقاءه إبراهيم عبدالقادر المازنى وعباس محمود العقاد والدكتور محمود عزمى ويسميهم «فرقة الزمر».

يا إبراهيم يا مازنى ليه ما اعرفش مالى.

كل ما أكتب التقى طيفك قبالى

خد قفايا وهات قفاك وامسك معايا

طار صفيح والبس ياواد طرطور برايه

وإن لبس «عباس».. كمان زعبوط

فوقه عمه وتروح «العزمى» الاحتياطى

بالغطاء والسجاير تحت باطى

يا «إبراهيم» كار البلا الزفت الصحافة

تمشى فيه بس اللطايف واللطافة

و«اللطائف» يقصد بها «بيرم» مجلة اللطائف المصورة. لم ينس بيرم وهو فى المنفى مصر وصحافة مصر وأصدقاءه فى مصر. وكان يسخر من الدنيا وهو فى المنفى رغم تعطله عن العمل والأمراض التى أصابته والفقر والجوع وحاجته إلى المال.

مسلسل النفى:

تم نفيه من مصر إلى تونس فى أغسطس عام ١٩٢٠ . وطردته تونس إلى فرنسا بعد أربعة أشهر . ثم عاد إلى مصر بجواز سفر مزور فى ٢٠ مارس عام ١٩٢٢ .

وفى ٢٥ مايو عام ١٩٢٣ أبعده البوليس المصرى إلى فرنسا . وعام ١٩٣٢ رحلته السلطات الفرنسية إلى تونس ، وهناك عمل بجريدة «الزمان» ، وأصدر جريدة «الشباب» وهاجم فيها السلطات الفرنسية فرحلوه إلى سوريا عام ١٩٣٦ . ومن سوريا ولبنان كان يراسل الصحف المصرية «الإمام» و«أبوللو» و«الصاعقة» . وقدمت له «بديعة مصابنى» إحدى مسرحياته .

وفى ٨ أبريل عام ١٩٣٨ كانت إحدى السفن تحمله إلى «مارسيليا» وماأن شم هواء مصر ورائحة بر مصر حتى قفز إلى أرض مصر وعاد إلى القاهرة وكان الملك فؤاد قد توفى . واتصل بزوج ابنته «سعيد راتب» وصديقه «كامل الكيلانى» والشيخ «زكريا أحمد» و«سليمان نجيب» و«كامل الشناوى» وتحت هؤلاء جميعا وتحت ظروف المرض والحاجة نشر له «أنطون الجميل» رئيس تحرير الأهرام ، وأذاعت له الإذاعة استعطافا للملك فاروق وتحية بمناسبة عيد جلوسه فى ١١ فبراير عام ١٩٣٩م . وأغمضت وزارة الداخلية عيونها عنه . وألحقه صديقه «كليم أبو سيف» بعمل فى شركة بلجيكية . وتفرغ للصحافة وأصدر مع «أحمد شفيق» مجلة «ياهوه» الفكاهية . وأفردت له «أخبار اليوم» زاوية أسبوعية وتفرغ لجريدة «المصرى» عام ١٩٥٢ وأصيب بالربو عام١٩٥٤ ، وأسرعت إليه يد المنون فى ٥ يناير عام ١٩٦١م وكل الذين اتصلوا به أكدوا أن استعطافه للملك ظل ينغص عليه حياته حتى مات فى شارع المدبح تزفه إلى الآخرة غية الحمام التى يقتنيها .

بيرم والصحافة:

رغم ما عاناه من الصحافة فقد كان يفضلها على كل الأنشطة . بعد شهرته فى «المجلس البلدى» أصدر مجلة «السلة» ونشر فيها «البامية الملوكى والقرع السلطانى» ، وبعدها أصدر مجلة «الخازوق» ، وكانت الافتتاحية «لعنة الله على

المحافظ» وعمل فى جريدة «الزمان» فى تونس وأصدر مجلة الشباب وكتب كما قلنا فى مجلات «الإمام وأبوللو والصاعقة» بالقاهرة وفى أخبار اليوم والمصرى. وقال عنه «العقاد»: الزمان ضنين بأمثال هذه العبقرية لا ينفق منها بغير حساب.

الأسانيد:

١ ـ أحمد رشدى صالح . . الأعمال الكاملة لمحمود بيرم التونسى.

٢ ـ المجلس الأعلى للثقافة . . ندوة قومية مارس عام١٩٩٦ .

٣ ـ عبدالعليم القبانى . . محمود بيرم التونسى.

٤ ـ نعمان عاشور . . مع الرواد.

٥ ـ يسرى العزب «دكتور» . . أزجال بيرم التونسى.

٦ ـ مختارات بيرم التونسى ج١ ، ج٢ .

محمـــد التـــابعى



فى ١٤ يوليو من عام ١٩٣٤م صدر العدد الأول من مجلة «آخر ساعة» لمحمد التابعى الذى اختار «١٤ يوليو» بذكاء نادر - يوم الثورة الفرنسية بشعاراتها . . «الحرية - الإخاء - المساواة» . وقبل أن يغلق شهر يوليو الحالى أبوابه نهدى هذا المقال إلى زوجته العظيمة «هدى» وإلى ابنه «محمد» وإلى ابنته «شريفة» أينما كانوا .

سيدة شجاعة بعيدة الأفق امتشقت القلم بعد رحيل زوجها يوم الجمعة ٢٤ ديسمبر عام ١٩٧٦م ، وكتبت : إلى من كان . . ومازال وسيظل لى أبا ومعلما ، صديقًا وحبيبًا . . زوجا وأبا لأولادى . . إلى محمد التابعى . . والتوقيع هدى محمد التابعى .

قال الكثيرون وأعادوا عن الحياة الخاصة لمحمد التابعى ، وشهرت الزوجة الشجاعة الوفية قلمها وكتبت «هدى محمد التابعى» : عظماء التاريخ . . كانت لهم حياتهم الخاصة . . ولم تمنعهم هذه الحياة الخاصة جدًا من أن يصلوا إلى المجد ، وأن يشهد لهم التاريخ بذلك .

قالوا : إنه فنان أكثر مما هو صحفى . . وقالت «هدى محمد التابعى» : لقد كانت الصحافة بالنسبة للتابعى مبدأ والتزامًا قويًا بالحقيقة . وأطلقت «هدى» على البيت الذى ضمهما فى الزمالك - «بيت الذكريات» .

الرئيس الجليل مصطفى النحاس باشا كتب إلى محمد التابعى فى ٢٨ ذى الحجة

عام ١٣٥٨ هـ، الموافق ٣ أبريل عام ١٩٣٣م، وذلك بمناسبة احتفال زملاء وأصدقاء التابعى بمرور عشر سنوات على اشتغاله بالصحافة، قال النحاس باشا:

يسرني أن أعلم أنك اجتزت عشر سنين فى عالم الصحافة الحرة بأسلوبك الجديد الرائع الذى ابتدعته فى فن التحرير، وإنى أهنئك على ثباتك وإخلاصك لمبدأ الوفد القويم وسط الزوابع الهوجاء التى اكتنفت الصحافة الحرة واكتسحت حريات الأمة فوقاها الله شرها ووقانا معها، فكانت خير أمة أخرجت للناس . . مصطفى النحاس.

هو من هو؟

اسمه الأصلى «محمد التابعى محمد وهبة» واختصره إلى «محمد التابعى» وشقيقه الوحيد هو «حسين وهبة»، واسم «التابعى» كان تبركا باسم «الشيخ التابعى»، ولد على شاطىء بحيرة المنزلة وأسرته من المنصورة، وفى أوراق كثيرة مدون فيها عام الميلاد على أنه «١٨٩٦م»، ولكننا لاحظنا أن طلب استدعائه إلى محكمة الجنايات عام ١٩٢٨م مدون كالتالى: محمد أفندى التابعى ٣٠ سنة موظف بمجلس النواب ومقيم بشارع جلال رقم ١٠ ـ قسم الأزبكية للحضور فى جلسة الجنايات التى ستنعقد فى المحكمة المذكورة يوم السبت ٢١ مارس عام ١٩٢٨ الساعة ٨ أفرنكى صباحًا لمحاكمته فى قضية اتهامها.

وسوف نؤجل هنا الحديث عن الاتهامات التى وجهت للتابعى إلى حين الحديث عن القضايا التى حوكم بسببها، وإنما نلفت النظر إلى عمره المدون فى طلب الاستدعاء المؤرخ فى مارس عام ١٩٢٨م والمسجل به أن سن التابعى ٣٠ سنة وبطبيعة الحال فإن هذه السن نقلا عن محضر التحقيق معه والذى سجل هو فيه أن عمره وقت التحقيق «عام ١٩٢٨» كان ٣٠ سنة أى أنه ولد عام ١٨٩٨م وليس عام ١٨٩٦م.

ما علينا . . المهم عندنا أنه لم يكن يتحدث على طفولته أو شبابه أو أصدقائه، وتركه والده وهو فى السابعة من عمره عام ١٩٠٣ «على اعتبار أنه ولد عام ١٨٩٦»

وهو تاريخ الميلاد الذى تكرر كثيراً وهو الأرجح، وفى طفولته كان يلعب حافيًا بيده سيف من الصفيح ودرع وخوذة على رأسه «مقاتل من يومه» وفريقه الذى يلعب معه هو فريق الزناتى خليفة فى مواجهة فريق «الزير سالم». التحق بالمدرسة الأميرية الابتدائية فى المنصورة، وفى الصيف يقضى يومه فى مدرسة صغيرة يقرأ ويقرأ ويقول إن والده كان يعمل فى أشغال هندسية وترك له تركة كبيرة من البراجل والمساطر والأقلام والأوراق».

وحصل على الشهادة الابتدائية من مدرسة المنصورة الأميرية عام ١٩١٢م، وعلى العموم كان التابعى ضعيفًا جدًا فى «الخط العربى» وقد لازمته هذه الصفة مدة طويلة، وجاء إلى القاهرة والتحق بالمدرسة السعيدية الثانوية، وكان صديق عمره «فكرى أباظة»، ثم انتقل إلى مدرسة ثانوية داخلية فى حى محرم بك بالإسكندرية وحصل على شهادة التوجيهية عام ١٩١٧م والتحق بكلية الحقوق بالقاهرة، وكانوا أربعة أصدقاء يقضون لياليهم فى مسارح عماد الدين وهم «محمد التابعى وفكرى أباظة ومحمود حافظ وعلى شريف مسعود». حصل على ليسانس الحقوق عام ١٩٢٣ . وكان قبل ذلك قد عمل موظفًا فى إدارة التموين بمدينة السويس، وكان بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى يتولى الإشراف على توزيع مواد التموين على أهالى مدينة السويس، وجمعته الصدفة بإحدى الفرق المسرحية التى كانت تزور مدينة السويس، ثم انتقل إلى القاهرة وعمل موظفًا فى قلم الترجمة بمجلس النواب «مجلس الشعب حاليا»، وبدأت مرحلة جديدة فى حياة «محمد التابعى».

مواهب مبكرة:

أثناء دراسته بالحقوق عام ١٩٢١م. كتبت جريدة «الإجيبشيان ميل» مقالا تهاجم فيه المظاهرات الوطنية للطلبة فكتب طالب الحقوق «محمد التابعى» مقالا باللغة الإنجليزية يرد فيه على ما نشرته تلك الجريدة، ونشرت الجريدة رد التابعى فى مكان بارز، ثم أرسل مقالا ثانيًا يعالج فيه مواقف الموظفين الإنجليز فى الإدارة المصرية ونشرت الجريدة المقال الثانى، ثم طلب منه رئيس التحرير أن يكتب رؤية نقدية بالإنجليزية حول مسرحية «غادة الكاميليا» التى كان يقدمها مسرح رمسيس،

وانتقد طالب الحقوق عميد المسرح العربى «يوسف وهبى» بطريقة ساخرة، وراح بعدها يكتب فى جرائد السياسة وأبو الهول والنظام والأهرام بتوقيع «حندس»، وتميزت أفكاره بالوضوح الذى لا غموض فيه، وكلماته السهلة البسيطة حتى قيل عنه أنه بدأ مدرسة جديدة فى الصحافة، وقال عنه «يوسف وهبى» . . «الناقد الذى يسقينى السم فى برشامة». وكتب نقداً مسرحيًا لتمثيل روزاليوسف وعزيز عيد، وكان يوقع مقالاته الإنجليزية بحروف «م. ت. م» أى محمد التابعى محمد، وقد لفت «روزاليوسف مقاله فى نقد «غادة الكاميليا» أنه لم يجد ما يأخذه على روزاليوسف إلا أن كعب حذائها كان مزوداً بقطعة من الكاوتش! وقال عن «جورج أبيض» إنه «فوق النقد» وعن بشارة واكيم . . إن المسرح المصرى يفخر به.

حندس فى روزاليوسف:

نبتت فكرة المجلة فى محل حلوانى اسمه «كساب» ـ تطرق حديث الشلة إلى مجلة فنية، وكانت المفاجأة أن اقترحت السيدة اسم «روزاليوسف» اسمًا للمجلة، ويوم الأحد ٢٥ أكتوبر عام ١٩٢٥م ظهر العدد الأول من «روزاليوسف»، وكان التابعى فى ذلك الوقت بقلم الترجمة فى مجلس النواب ويكتب النقد الفنى لجريدة الأهرام بتوقيع «حندس»، وكان «زكى طليمات» يكتب عن الأدب العالمى وكان التابعى لا يكف عن السخرية بهذا الأدب العالمى، ودعت السيدة «روزاليوسف» محمد التابعى ليشارك فى تحرير المجلة والتحق التابعى بالمجلة. وكان مقر المجلة، هو سكن السيدة «روزاليوسف» فى البيت الذى يملكه أمير الشعراء أحمد شوقى رقم ١٠ شارع جلال ـ قسم الأزبكية، وحرص «التابعى» على أن يتعرف على بعض الأمور الفنية فى الصحافة مثل التوضيب والتصحيح والشطب، وتتلمذ فى ذلك على أيدى «المرحوم عزيز طلحة» بجريدة البلاغ، وحرص فى البداية على ألا يكتب فى السياسة، وبدأ بباب نسائى يحرره بتوقيع «الآنسة حكمت» ثم باب «حوارى» وبعض الموضوعات بتوقيع «حندس».

وكتب «إحسان عبد القدوس» يقول: كانت مجلة روزاليوسف تصدر من حجرتين فى بدروم عمارة يملكها الشاعر أحمد شوقى فى حارة جلال المتفرعة من

شارع عماد الدين، وكنت أنا أجتاز سن السادسة من عمرى «إحسان مواليد أول يناير ١٩١٩م» وأذهب أحيانًا لألعب فى بقايا سيارة قديمة مركونة فى جانب من الحارة، وكان يظهر أحيانًا شاب طويل رفيع يأتى من بداية الحارة فى خطى سريعة ويلقى تحية عابرة على الجالسين فى الحارة، ثم ينزل إلى مكتبه فى البدروم ويخرج ليركب دراجة وهو يحمل أوراقًا ويختفى بها ثم يعود أو لا يعود . . وكانت هذه هى أول صورة وعيتها لمحمد التابعى.

ثم انتقلت روزاليوسف من بدروم حارة جلال إلى مكتب فخم فى شارع مطل على ميدان التحرير، ولم يعد الشاب محمد التابعى يأتى ويختفى فوق دراجة وهو يحمل أوراق التحرير ليسلمها إلى المطبعة، بل أصبح رزينا رشيقا فى خطواته وأصبحت له رهبة فى نفسى كلما دخلت إليه فى مكتبه أو زرته فى «الفيللا» الفخمة المطلة على النيل التى أصبح يقيم فيها، ولم أكن أفهم منه شيئًا وهو يكلمنى وأنا فى صباى فكلامه يخرج متقطعًا ممزقًا بين شفتيه، ثم ترك التابعى روزاليوسف وخرج يقيم لنفسه مجتمعًا خاصا به يسميه «آخر ساعة» وأخذ معه فى هجرته كل العناصر الرئيسة التى تحمل مسئولية روزاليوسف وأهمها الرسام صاروخان ومصطفى أمين وسعيد عبده، وتحدت أمى الموقف وواجهت «آخر ساعة» بروزاليوسف اليومية «١٩٣٥» ، ووضعت محمود عزمى رئيسًا للتحرير وعباس محمود العقاد كاتبها الأول، وعندما هجر مصطفى أمين آخر ساعة ليعمل فى دار الهلال وقعت آخر ساعة فى نفس الأزمة التى سبق أن وقعت فيها «روزاليوسف» يوم هجرها محمد التابعى، ولم يكن التابعى فى قوة عناد وقوة احتمال أمى روزاليوسف، فاضطر أن يبيع آخر ساعة لمصطفى أمين «عام ١٩٤٦» .

هذه هى الصورة الشيقة التى كتبها إحسان عبد القدوس عن محمد التابعى.

عقب وفاة «سعد زغلول باشا» ـ ٢٣ أغسطس عام ١٩٢٧ . كان الحصول على مذكرات سعد باشا أمنية كل باحث وكل صحفى، وكان محمد التابعى لم يزل فى قلم الترجمة بمجلس النواب ويكتب بدون توقيع اسمه فى روزاليوسف، وحدث أن طلبت «السيدة صفية زغلول» من أحد أقربائها «فؤاد كمال» سكرتير عام مجلس النواب أن يختار من بين موظفى المجلس من يتولى تنظيم مكتبة سعد باشا . واختار

«كمال فؤاد» لهذا العمل اثنين من موظفى المجلس، وهما فى الوقت نفسه على صلة وثيقة بمحمد التابعى الموظف المعروف فى قلم الترجمة بالمجلس، وأثناء تنظيم المكتبة وجد الموظفان أجزاء من مذكرات سعد باشا مكتوبة فى كراسات متناثرة ووضعاها فى أحد الأدراج ثم وضعا الأمر كله بين يدى زميلهما وصديقهما «محمد التابعى» وبادر التابعى بالكتابة عن مذكرات سعد ـ وصورة منها أصبحت لديه ـ وبعد النشر ثارت «صفية زغلول» وأصيبت بانهيار عصبى لأنها كانت ترى أن هذه المذكرات ملك للشعب وليست ملكا لها أو لأى أحد ينشرها وقت ما يشاء، واستجاب «التابعى» لإرادة أم المصريين، وقامت أم المصريين بتسليم هذه المذكرات لمصطفى النحاس باشا باعتباره خليفة لسعد ورئيسًا للوفد بعد سعد، وقد أودع «النحاس باشا» مذكرات سعد إحدى خزائن بنك مصر، وفى أوائل الستينيات نشرت جريدة الأخبار بعض أجزاء منها ثم آلت المذكرات إلى «دار الوثائق القومية»، وعام ١٩٨٠م كان الشاعر «صلاح عبد الصبور» رئيسًا للهيئة المصرية العامة للكتاب، وكان كاتب هذه السطور مشرفا على مركز وثائق وتاريخ مصر الحديث، واستقر الرأى على نشر مذكرات سعد زغلول وطلبت هذه المذكرات من دار الوثائق، وعندما وجدت بعض الصعوبات من بعض كبار الموظفين غير الحريصين على نشر هذه المذكرات كتبت مقالا صريحًا فى جريدة الأخبار ـ وكنت من كتابها فى تلك الفترة ـ وأهاجم فيه من أسميتهم «كهان الميثاق»، وتقرر سرعة العمل فى المذكرات واستقر الرأى على اختيار «الدكتور عبد العظيم رمضان» لتحقيق المذكرات، وإعدادها للنشر، وبدأ العمل بحماسة وجدية، ثم سافر إلى لندن لمدة عام، وبعد أن عاد استكمل مسيرة نشر مذكرات سعد زغلول والتى نشر منها حتى الآن تسعة أجزاء.

التابعى كاتبًا سياسيا:

على صفحات الأهرام عرف القراء «محمد التابعى» ناقدًا فنيا ساخرا يسقى فريسته السم فى برشامة على حد تعبير يوسف وهبى وبسبب عمله بالحكومة كان يوقع باسم «حندس»، وعندما دعته «روزاليوسف» للمشاركة فى التحرير حرص

فى البداية على عدم الكتابة فى السياسة، وبدأ يكتب تعليقات سياسية منذ يونيو عام ١٩٢٦م، وفى الحقيقة كان قد بدأ يدخل مجال السياسة دون أن يدرى عندما ترجم وهو موظف حكومى مغمور ترجمة لمذكرات «اللورد إدوارد سسيل» المستشار المالى الإنجليزى للحكومة المصرية وهى مذكرات تهاجم الموظفين المصريين، ونشرت له الترجمة مطبعة صغيرة بالمنصورة.

ومنذ البداية وقف إلى جانب «سعد زغلول» وظل يمجد ذكراه وانتقل بعد ذلك للدعوة لمصطفى النحاس خليفة سعد زغلول وانغمس فى السياسة من أخمص قدمه إلى قمة رأسه ووقف أمام محكمة الجنايات عدة مرات وخاصة بعد أن تحولت «روزاليوسف» من مجلة فنية إلى مجلة سياسية، وخاضت المجلة ومعها التابعى المعارك إلى جانب الوفد ضد حكومات الأقلية، وراح التابعى يغمز فى الملك «أحمد فؤاد» وولى عهده «فاروق» وبعض الأمراء الآخرين، وفى صيف عام ١٩٢٧ بدأ فى تعرية ملوك وملكات أوروبا قاصدا تشويه صورة النظام الملكى، وفى ٢٨ يوليو عام ١٩٧٢ نشرت المجلة مقالا بعنوان «ولى عهد مصر يجرى فى عروقه دم فرنسى» لأن أمه الملكة نازلى هى حفيدة سليمان باشا الفرنساوى وهو الكولونيل «سيف» الذى دخل فى خدمة «محمد على الكبير»، وفى ٢٩ سبتمبر عام ١٩٢٧ كتب تحت عنوان «اعتدى على سلطة البرلمان فطاحت رأسه»، ومع الموضوع صورة لشارل الأول يذهب إلى ساحة الإعدام، وفى ١٥ ديسمبر عام ١٩٢٧ نشرت المجلة موضوعا بعنوان «ما بين الخديو إسماعيل والملكة فيكتوريا ـ معلومات لم يسبق نشرها»، وفى هذا يقول التابعى: دخلت السجن فى شهر ديسمبر من عام ١٩٢٧م، وكنت يومئذ موظفا بسكرتارية مجلس النواب ولم أكن رئيسا للتحرير ولا أوقع باسمى، وبادر رجال البوليس إلى القبض علىّ مع اثنين من أصدقاء المجلة، وأودعونا سجن التخشيبة، وأكبرت شهامة الصديقين فقد أنكر معرفتهما بكاتب المقال مع أنهما يعرفان جيداً أننى كاتب المقال، واعترفت فى الصباح.

وأفرج المحقق عن الصديقين وقرر استمرار حبسى إلا إذا دفعت كفالة قدرها خمسون جنيها ـ وبقيت سبعة أيام لعدم توافر الكفالة ثم أفرجوا عنى وعرفت أن صديقى اللدود «يوسف وهبى» هو الذى دفعها عندما علم أننى عجزت عن دفع الكفالة.

حارب التابعى بضراوة السفارة البريطانية والسراى الملكية ووزارتى محمد محمود إسماعيل صدقى. وكانت مجلة «الكشكول» تدافع عن إسماعيل صدقى وتهاجم الوفد، وفى هذا المجال كتب التابعى خطابًا مفتوحًا لإسماعيل صدقى:

لم يعد مخفيا عنا ولا على الناس أن الكشكول تنطق باسم معاليك وتشتم باسم معاليك وتجر معاليك إلى الحضيض.. هاجم الوفد إن شئت ودس له فى الظلام واختلق عنه الأكاذيب فهذا من حقك وللناس أن تسميك خصمًا شريفًا أو غير شريف، ولكن اتخذ لك مطية أصيلة لا دابة من ذوات القرون، واضرب بسلاح نظيف لا بسكين تلم حدها فى المطبخ والطبيخ.

وأعلن «محمد محمود» فور تسلمه السلطة «يونيو ٢٨ أكتوبر عام ١٩٢٩» أنه سوف يحكم البلاد بيد من حديد.. فسخر منه التابعى وقال «إن يده من صفيح لا من حديد» وأصدر «محمد محمود» قرارا بمصادرة المجلة، ونشر التابعى فى العدد التالى بروازًا فى الصفحة الأولى بعنوان «عطلها بأه» وفعلا قام محمد محمود بتعطيل المجلة ومصادرتها.

الحديث ذو شجون:

وقف التابعى أمام محكمة الجنايات يوم السبت ٢١ مارس عام ١٩٢٨م الساعة ٨ أفرنجى لمحاكمته متهما بـ:

١ - فى يوم ٢ أكتوبر عام ١٩٢٧ بمدينة القاهرة عاب علنا فى حق حضرة صاحب الجلالة شاه العجم.

٢ - فى يوم ٣ نوفمبر عام ١٩٢٧ بمدينة القاهرة عاب علنا فى حق حضرة صاحب الجلالة ملك السويد.

٣ - بمدينة القاهرة فى التاريخ السابق عاب فى حق ملك الدانمارك وملك النرويج والملكة فيكتوريا ملكة بريطانيا العظمى.

وصدر عليه الحكم بالحبس ستة أشهر مع إيقاف التنفيذ وصدر الحكم فى ١٥

أبريل عام ١٩٢٨ والقضية الثانية عرفت بقضية الحصاينة . . ويتلخص الحادث فى أن رجال الإدارة ذهبوا إلى قرية الحصاينة، مركز السنبلاوين فى فبراير عام ١٩٣٣، حيث عطلوا وابور الطحين ومضربا للأرز. يملكهما الشيخ «طلبة صقر» وهو من الوفديين المعروفين، وتصدى الشيخ طلبه صقر فأطلق البوليس النار وقتل ثلاثة، وكتب التابعى ساخرا من وزير العدل والمأمور ووجهت النيابة إلى التابعى تهمة القذف والسب فى حق وزير العدل أحمد باشا على، والنائب العام محمد لبيب عطية باشا ومأمور مركز السنبلاوين، ونظرت القضية يوم ٢٥ مايو عام ١٩٣٣م، وترافع عنه «محمد صبرى أبو علم باشا»، و«الدكتور محمد صلاح الدين بك»، وصدر الحكم فى ١٢ مايو عام ١٩٣٣ بالحبس مدة أربعة شهور.

دخل التابعى سجن «قره ميدان» وزاره فى السجن «محمد عبد الوهاب» و«روزاليوسف» ومحمد صبرى أبو علم، وكان معه فى السجن الرسام «رخا» الذى حكم عليه بالسجن ٥ سنوات للعيب فى ذات الملك أحمد فؤاد.

آخر ساعة والمصرى:

حاول التابعى أن يكون صاحب جريدة أكثر من مرة قبل أن يدب الخلاف بينه وبين السيدة «روزاليوسف»، فى ٢٥ نوفمبر عام ١٩٢٨ تقدم بطلب للترخيص له بإصدار مجلة أسبوعية أدبية مصورة اسمها «النهاردة»، وفى ١٥ ديسمبر عام ١٩٢٩ طلب تغيير الاسم من «النهاردة» إلى «أنا وأنت». وفى ١٩ فبراير عام ١٩٣٤ طلب إصدار جريدة أسبوعية مصورة باسم «الرئيس»، وفى ١٤ يوليو عام ١٩٣٤ صدر العدد الأول من مجلة «آخر ساعة» ورأس تحريرها فى ٥ فبراير عام ١٩٤٠ بعد أن كان يكتب فى الصفحة الأولى «شارك فى التحرير محمد التابعى» ورأس «مأمون الشناوى» التحرير فى ٥ أكتوبر عام ١٩٤١ بيعت آخر ساعة للأستاذ مصطفى أمين، وتنازل التابعى نهائيا عن امتيازها للأستاذ مصطفى أمين بك.

ثم عرف الجمهور أن «محمود أبو الفتح ومحمد التابعى وكريم ثابت» سوف يصدرون جريدة اسمها «المصرى» فى أكتوبر عام ١٩٣٦م، وقدم «محمد التابعى» جريدة المصرى للقراء بقوله: وعد واحد فقط هو الذى نتقدم به إلى القراء . . القصد

إلى الهدف من أقصر طريق فى عصر الأخبار والأخبار ودائما إلى الأخبار، فلن تجدوا فى المصرى صفحة كاملة عن أيهما أفضل . . البحترى أو أبو تمام . . فكلاهما عندنا رجل فاضل نقرأ على روحه الفاتحة، ولكننا لن نقرأ له سبعة أعمدة كاملة».

ونحن هنا نحرم أنفسنا متعة الحديث عن التابعى . . فالمساحة المتاحة محدودة.

الأسانيد:

١ ـ إحسان عبد القدوس . . إعداد نرمين القويسنى.

٢ ـ أنور الجندى ـ الصحافة السياسية.

٣ ـ حازم فودة . . نجوم شارع الصحافة.

٤ ـ صبرى أبو المجد ـ محمد التابعى.

٥ ـ فاطمة اليوسف ـ ذكريات.

٦ ـ هدى محمد التابعى . . مقدمة كتاب محمد التابعى.

محمــــد مفيــد الشــوباشي



«محمد مفيد محمد نجيب حمودة الشوباشي» مفكر مصرى وطنى دخل حياتنا الفكرية والثقافية تحت اسم «محمد مفيد الشوباشى» أو «مفيد الشوباشى»، والده المناضل المصرى الوطنى «محمد نجيب الشوباشى» أحد رجال الثورة العرابية، وبعد أن ألقى «عرابى» سيفه، هرب محمد نجيب الشوباشى إلى الصحراء الغربية، ومنها إلى تونس، وهناك استقبله الفرنسيون ومنحوه الحماية الفرنسية نكاية فى الإنجليز وسافر إلى فرنسا وفى باريس توثقت صلته بالسيد «جمال الدين الأفغانى» وبالشيخ «محمد عبده»، ثم عاد إلى الإسكندرية موطن الأسرة، وعاش ابنه «محمد مفيد الشوباشى» على تاريخ هذه الذكرى الوطنية يحكيها لأبنائه «على وسعيد وشريف» ويحكيها لبناته «فاتن وهدى وفريدة».

وعندما شكل «محمود فهمى النقراشى باشا» وزارته الأولى «٢٤ فبراير ٤٥ - ١٥ فبراير ١٩٤٦» اختار «عبد الرزاق أحمد السنهورى بك «وزيرا للمعارف العمومية» وأصدر «السنهورى» قرارا عام ١٩٤٦ بتعيين صديقه السكندرى القديم «محمد مفيد الشوباشى» مراقبا للثقافة فى الإدارة العامة للثقافة وظل بها حتى إحالته إلى المعاش، وتأثر به وهو فى هذا الموقع ثلاثة من شباب المثقفين أصبحوا فيما بعد من كبار مثقفى مصر وهم «عبد الرحمن الشرقاوى وأحمد بهاء الدين وفتحى غانم»، وعلى الرغم من أن «الشوباشى» عاش ٨٥ عاما «٨ سبتمبر ١٨٩٩ - ١٦ نوفمبر ١٩٨٤»، وعلى الرغم من الكتب المهمة التى ترجمها وألفها، وعلى الرغم من المثقفين المرموقين الذين اتصلوا به وأخذوا عنه، وعلى الرغم من أنه أصدر مجلة

«الأديب المصرى» عـام ١٩٥٠م إلا أنه غشيه سحاب مركوم حتى كاد يجهله المتخصصون وتوارى عن الأنظار وتوارت كتبه وكتاباته «٢٧ كتابا وديوان شعر ومجلة أدبية». وللتعريف به هنا رأينا أن نسير معه فى رحلته منذ مولده حتى رحيله.

فى نقطة التحول من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين فى مدينة الإسكندرية ٨ سبتمبر عام ١٨٩٩ ولد «محمد مفيد محمد نجيب حمودة الشوباشى» وفى تلك المدينة التاريخية الجميلة تلقى مبادىء التعليم الأول، فالتعليم الابتدائى والتعليم الثانوى، وكان أبوه محاميا ينتمى إلى أسرة موسرة فألحقه بإحدى المدارس الإنجليزية «كلية فكتوريا ـ النصر حاليا». وأصبح من المتضلعين فى اللغة الإنجليزية شأنه شأن «إبراهيم عبد القادر المازنى وعباس محمود العقاد ود. زكى نجيب محمود»، وأثناء خطواته الأولى فى التعليم اقترح ابن عم والدته ـ وكان ضابطا كبيرا فى الجيش العثمانى ـ اقترح على والد الطفل «محمد مفيد» أن يبعثه إلى تركيا ويستكمل تعليمه هناك ثم يصبح ضابطا فى الجيش العثمانى، ووافق الوالد وسافر الطفل إلى تركيا عام ١٩٠٧ وهو فى الثامنة من عمره. . ولم يطب المقام هناك، للطفل وعادوا به إلى الإسكندرية واستكمل دراسته فى «كلية فيكتوريا»، والتحق بمدرسة رأس التين الثانوية وحصل على البكالوريا عام ١٩٢٢، والتحق بمدرسة الحقوق وتخرج فيها عام ١٩٢٦م، وكان والده «محمد نجيب الشوباشى» محاميا معروفا بالإسكندرية وأول نقيب للمحامين بالإسكندرية وأحد أبرز المؤسسين لنقابة المحامين بمصر، كان والده هذا قد رحل عام ١٩١٤. وانتقل الفتى إلى كنف جده «حمودة الشوباشى».

وتطلع المحامى «محمد مفيد الشوباشى» إلى أن يجمع بين الثقافة القانونية والثقافة الأدبية، وقد سار على هذا المنوال «عبد الرحمن الشرقاوى وأحمد بهاء الدين وفتحى غانم» الذين تأثروا به عندما كان مديرا للشئون القانونية بوزارة المعارف، وقد زخرت مصر بعدد من الذين جمعوا بين الثقافة القانونية والثقافة الأدبية أمثال . . أحمد شوقى ومحمد حسين هيكل وتوفيق الحكيم ويحيى حقى ومحمد مندور ومصطفى عبد اللطيف السحرتى ومحمد زكى عبد القادر.

ومنذ بداية عمله بالمحاماة ترسم خطى «المهاتما غاندى» المحامى أيضا والداعية إلى التحرير بالوسائل السلمية .

نعود لنقول أن جده «حمودة الشوباشى» الذى كفله بعد وفاة والد «مفيد» ألحقه للعمل فى جمرك الإسكندرية وكان عمره «١٥ عاما» ، وهناك توثقت علاقته ببلدياته «عبد الرزاق السنهورى والشاعر عبد الحميد السنوسى» ، ثم عين الشاب «محمد مفيد الشوباشى» عام ١٩١٩ سكرتيرا لرئيس الوزراء «محمد باشا سعيد» ، ولكنه عاد إلى الإسكندرية وعمل محررا بجريدة «وادى النيل» ، وعام ١٩٣٨ نزح إلى الريف ثم القاهرة لمدة عام ونصف وعاد إلى الإسكندرية ليواصل عمله بالمحاماة حتى عام ١٩٤٦ ، وهو العام الذى عاد فيه إلى القاهرة ليستقر بها إلى آخر حياته ، وكان صديق صباه «عبد الرزاق السنهورى» قد أصبح وزيرا للمعارف وأصدر قراراً بتعيين صديقه القديم مراقبا بإدارة الثقافة بوزارة المعارف إلى آخر هذه المسيرة .

الإسكندرية فى الأربعينيات:

بدأت حركة معاناة الإسكندرية وهجرة بعض أقسام من الأهالى مع بداية الأربعينيات تحت وطأة غارات ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية . وكان «محمد مفيد الشوباشى» بعد أن نزح إلى الريف والقاهرة قد عاد إلى مدينته الجميلة فى أواخر عام ١٩٣٩ ، وكانت الإسكندرية قد عرفت حركة المثقفين لتحرير الوطن والمجتمع من الاستغلال ومحاربة الفقر والمرض والجهل ، وقد ظهر على سطح حركة المثقفين فى الأربعينيات «محمد حسين هيكل وعباس العقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم وسلامة موسى وأحمد أمين وزكى مبارك وأحمد حسن الزيات ومحمد مندور وعزيز فهمى ومحمد مفيد الشوباشى» .

وكان «محمد مفيد الشوباشى» فى طليعة المثقفين الوطنيين بالإسكندرية ، وقد كتب عن فترة الأربعينيات فى الإسكندرية أكثر من مرة وعن ظهور أسماء تالية لجيل «الشوباشى» . . الروائى «إدوار الخراط» وشهد «الخراط» بأن «الشوباشى» كان داعية للاستقلال الكامل يحارب الفاشية والنازية لمصلحة الحركة الوطنية المصرية ، وربما بسبب هذه المواقف وبسبب كتابات كثيرة خيمت عليه ظلال من الماركسية وهذه مسألة نجلوها من الفقرة التالية .

الشوباشى كاتبا تقدميا:

أكدت المصادر المختلفة أن «محمد مفيد الشوباشى» لم ينضم إلى أى تنظيم ماركسى، بل لم ينضم إلى أى تجمع فكرى أو ثقافى أو حزبى، ولم ينضم أيضا إلى أى تجمع أدبى حتى الجمعيات الأدبية التى تكونت فى الإسكندرية لم ينضم لواحدة منها رغم علاقته بأدباء الإسكندرية وعلاقتهم به كأديب ومفكر وشاعر ومترجم أيضا.

لقد تأثر بكتابات شبلى شميل وسلامة موسى وفى المقابل تأثر بجريدة اللواء وبمحمد فريد، تأثر بالمادية الجدلية وفى المقابل كان يرى الجمع بين العقلية الغربية والشرقية، كانت له علاقات بالقادة التاريخيين للتنظيمات الماركسية فى مصر، وفى المقابل لم يدرج اسمه فى قوائم الماركسيين والديمقراطيين واليساريين الذين جرى اعتقالهم فى يوليو من عام ١٩٤٦ على يد «إسماعيل صدقى باشا»، وكان له أسلوب خاص به فى علاقاته مع الشخصيات المختلفة، فقد عقد علاقات جيدة مع عناصر لها آفاق فكرية متناقضة ولا يتفق هو معهم فى أفكارهم . . «عباس محمود العقاد وتوفيق الحكيم وعبد الرزاق السنهورى وأحمد أمين وسيد قطب وسهيل إدريس زكى مبارك وأحمد حلمى رئيس حكومة عموم فلسطين». ومن الطريف أنه كان رافضا لشعر التفعيلة أو الشعر الحديث وكانت غالبية من نظموا هذا اللون من الشعر عرفوا بتوجهاتهم الماركسية، ورأى أن الشعر الحديث لا يمكن أن يدرج فى قائمة الشعر العربى، ولكنه غير رأيه بعد أن استمع إلى «عبد الرحمن الخميسى» الذى تزوج ابنته «فاتن» ورحلت على إثر حادث أليم فى مطبخ المنزل وبعد أن استمع أيضا إلى وجهة نظر صديقه «الشاعر حسن فتح الباب».

وفى رأى «د. عبد المنعم تليمة» أن محمد مفيد الشوباشى من أوائل العرب المحدثين الذين ردّوا الطريق إلى المذهب الاجتماعى فى فهم الأعمال الأدبية ونقدها ودراستها.

والعنصر البارز فى أعمال «محمد مفيد الشوباشى» كان يدور حول الحضارة العربية والهوية العربية، والأدب العربى، وروايته «الخيط الأبيض» تؤكد الذات المصرية، وروايته «طلائع الأحرار» دفاع عن مضمون التراث العربى، بل إن

«مسرحية أرميا» التى ترجمها عام ١٩٤٦ هى من أدبيات «التوراة» ودعوة إنسانية إلى السلام.

ولعل أدق الآراء فى التوجهات الفكرية عند «محمد مفيد الشوباشى» تلك التى أوردها «الناقد إبراهيم فتحى» : «فى أوائل الخمسينيات تعددت المنظمات والحلقات اليسارية السرية، واعتبره المثقفون اليساريون كاتبا تقدميا كان له موقف واضح ضد النازية والفاشية، وداعية للاستقلال الكامل لمصلحة الحركة الوطنية المصرية، وحينما اتجه «الشوباشى» نحو اليسار كان يدافع عن العدالة الاجتماعية والديموقراطية السياسية والواقعية فى الأدب، والعلمية فى الفلسفة، وتعرض للرقابة والتضييق والمنع أحيانا من الكتابة فى وسائل الإعلام المنتشرة فلجأ إلى النشر المستقل على حسابه مضحيا بالكثير، كان يؤمن بالتعددية فى اليسار وبالاتجاهات المختلفة لا بواحدية حديدية مغلقة، ولم يغفل فى الثقافة الخصوصيات القومية والوطنية.

واهتم «الكاتب عبد الرحمن أبو عوف» باستجلاء حقيقة الانتماء السياسى عند «محمد مفيد الشوباشى» . . «عرفت محمد مفيد الشوباشى من روايته «طلائع الأحرار» التى يؤرخ فيها للحركة الوطنية منذ ١٩٠٤ - ١٩١٩ .

وحاولت أن أتقصى منه عن مدى علاقته بالتنظيمات الشيوعية فلم أجد عنده إجابة شافية» .

الطائر فى القاهرة:

الاعتقاد السائد لدى الأدباء والفنانين فى الأقاليم هو أن الطائر يظل مقصوص الجناح فى بلده الصغير خارج القاهرة حتى يحط على أفق المحروسة التى تمثل بلاد الله الواسعة . . هكذا كان «سيد درويش» طلعت عليه شمس الشهرة بعد قدومه من الإسكندرية إلى القاهرة . . وهكذا كان «سلامة حجازى» ومحمود بيرم التونسى وعلى محمود طه وعبد اللطيف السحرتى، وهكذا أيضا «أم كلثوم» ومحمود حسن إسماعيل ومحمود البدوى وفوزى العنتيل والشاعر الأبيض محمد الأسمر.

هكذا فعل «محمد مفيد الشوباشى» حط رحاله فى القاهرة عام ١٩٤٦ وعام ١٩٤٧ فاز بجائزة المجمع اللغوى فى الشعر، وأتاح له مناخ القاهرة فى العمل والأدب والفن أن يتمكن من ترجمة عدد كثير من عيون الأدب الغربى لا سيما فى الرواية والقصة والدراسات الفلسفية والنقدية . . وأصدر سبعة وعشرين كتابا بينها ديوان شعرى وحيد، وأصدر مجلة «الأديب المصرى» عام ١٩٥٠ وأسس عام ١٩٥٧ مكتبة عصر الذرة لم يقدر لها أن تعمر كثيراً. عام ١٩٤٩م أصدر ترجمة لعدد من القصص وأطلق على المجموعة عنوان «قطوف نادرة من القصص» وقبلها عام ١٩٤٩ أصدر ترجمة لمسرحية «أرميا»، وهى دعوة إنسانية إلى السلام وهى من أدبيات «العهد القديم ـ التوراة» وصدر له . . الحضارة العربية المعطاءة والهوية العربية والأديب العربى، وله كتابات فى إدانة الحرب والتعصب القومى، أما رواية «طلائع الأحرار» فهى تؤرخ للحركة الوطنية المصرية منذ عام ١٩٠٤ ـ ١٩١٩، وترجم كتابا مهما فى «الأدب والفن فى ضوء الواقعية» وكتاب «العرب والحضارة الأوربية» وترجم «آسيا وجداول الربيع» وترجم «طلبة وطالبات». وعام ١٩٦٨ قدم «رحلة الأدب العربى إلى أوروبا» وعام ١٩٧٠ «الأدب ومذاهبه»، ويرى بعض النقاد أن كتابه «الفلسفة السياسية» الذى أصدره عام ١٩٥٥ كان رد فعل لضرب الديمقراطية فى أزمة مارس عام ١٩٥٤ التى وقعت فى صفوف الضباط الذين استولوا على السلطة فى يوليو عام ١٩٥٢ . وهكذا كان الموقف إزاء روايته «الصحوة الأخيرة فى عهد كليوباترا».

الشوباشى والواقعية:

تأثر ـ محمد مفيد الشوباشى فى حياته الفكرية الباكرة بكتابات «شبلى شميل» ومنحاها العلمى، وتأثر بأفكار «سلامة موسى» ومعطياتها عن الاشتراكية والمذهب الاجتماعى، وتأثر مباشرا وهو يتلقى التعليم فى الإسكندرية بالشاعر الناقد «عبدالرحمن شكرى «١٨٨٦ ـ ١٩٥٨» الذى حرص على الكشف عن أسرار النفس البشرية والكشف عن المواقف الفكرية السياسية والاجتماعية، كما أن «الشوباشى» عمل محامياً بالإسكندرية حتى عام ١٩٤٦ وجذبته هذه الخبرة الطويلة إلى الواقعية

والاشتراكية، وكما ذكرنا من قبل أن «الشوباشى» من أوائل العرب المحدثين الذين رادوا الطريق إلى المذهب الاجتماعى فى فهم الأعمال الأدبية ونقدها ودرسها.

وعندما صدرت رواية «الخيط الأبيض» للشوباشى التى تؤكد الذات المصرية رأى فيها «الكاتب الأديب عبد الرحمن الخميسى» إنها بداية المذهب الواقعى عندنا على أسس عالمية، وكتب مقالا فى جريدة الجمهورية فى ٢٨ نوفمبر عام ١٩٦٣ تحت عنوان «الكفاح من أجل التحرير الفكرى»

«الشوباشى . . من الناحية التاريخية، أول من نادى فى مقالاته النقدية الأدبية المنشورة فى مختلف الصحف والمجلات . . بأدب مستقل ينبع من واقعنا ويستهدف تطوير ذلك الواقع، ويعاونه على شق طريق التقدم، بل إنه يعتبر أول من أرسى المذهب الواقعى عندنا على أسس عالمية، وشيد منه صرحا متكاملا واضح المعالم».

ملامح وصفات:

ولما كنا فى مجال التعريف بهذا المفكر الكبير الذى كاد أن يطويه النسيان فإننا نتحدث عنه بالتصوير البطىء ونركز عن بعض صفاته وملامحه الشخصية كانت روح التحدى قوية عنده لأقصى حد يواجه بها كل ظروف المعاناة التى مر بها ومرت به فلم يأخذ موقعه الذى هو جدير به إلى جانب كبار المثقفين والأدباء. وكانت عنده صفة غريبة وهى أنه يكره السفر، ويكره الخروج من مصر.

عام ١٩٤٧ قدمت له جامعة طوكيو عرضا لإلقاء محاضرات عن الفكر والأدب العربى بمرتب مغر، ولعل ذلك الطبع ترسخ فى نفسه عندما سافر إلى تركيا مع قريب والدته، وكان فى السابعة من عمره، ويبدو أنه صادف هناك ما ترسب فى نفسه سلبا ضد مغادرة مصر فلم يغادرها أبدا حتى تاريخ رحيله فى ١٦ نوفمبر عام ١٩٨٤.

وعندما وصلت الحكومة المصرية دعوة من «اليونسكو» للمشاركة فى أحد المؤتمرات الثقافية، وتم ترشيح «محمد مفيد الشوباشى» للسفر اعتذر فى حسم ورشح زميلا غيره لهذه المهمة.

كان يتمتع بذاكرة حديدية وإلى ما قبل وفاته بشهور كان يلقى أشعار المتنبى وأبا تمام والبحترى وأبا العلا المعرى وجرير والأخطل والفرزدق وعمر بن أبى ربيعة وعنترة بن شداد .

وأنشد كأنه يقرأ الغيب :

سأظل أن شاركت مجتمعى حيـــا وإن أفنيت أعمـــارى

الأسـانيد:

* المجلس الأعلى للثقافة «ندوة الذكرى المئوية لمولد محمد مفيد الشوباشى» .

- إبراهيم فتحى - إدوار الخراط - حسن فتح الباب - عبد الرحمن أبو عوف - د . عبد الله سرور - د . عبد المنعم تليمة - على الشوباشى - د . فاطمة موسى - د . مصطفى ماهر - محمد جبريل - د. محمد خليفة حسن - محمود أمين العالم .

* عبد العليم القبانى . . رواد الشعر السكندرى فى العصر الحديث .

محمـــد المعـــلم



منذ حوالى عشرين عامًا إلا قليلاً . . كانت بالمجلس الأعلى للثقافة لجنة اسمها (لجنة النشر) ـ حاليا لجنة الكتاب والنشر ـ رئيسها «الدكتور السيد أبو النجا»، كنت قد جلست إليه جلسة التلميذ عامى ٧٠ ـ ١٩٧١ بمعهد الدراسات العليا للصحافة والنشر، وأمينها «الدكتور حسين الغمرى»، وكنا معا ونحن طلبة بجامعة فؤاد الأول شركاء فى مظاهرات يناير عام ١٩٤٨م ونادينا بسقوط الملكية وحياة الجمهورية وقبض علينا وأودعونا سجن الأجانب ـ الذى كان وقت ذاك قرب ميدان باب الحديد ـ وكانت سكرتيرة اللجنة السيدة الفاضلة «مديحة الحيوان» والتى أصبحت مديرة للنشر بالمجلس الأعلى للثقافة أيام كنت مستشاراً للنشر بالمجلس الأعلى للثقافة (٩٤ ـ ١٩٩٨). فى هذه اللجنة دارت مناقشات حول النشر وتعريفه وأصوله وكان القول الفصل بيننا نحن أعضاء هذه اللجنة . . «محمد المعلم» وأسانيده من دوائر المعارف ووثائق اليونسكو ومعرفته البصيرة بحركة النشر العربية.

شيخ الصحفيين مصطفى أمين كتب (فكرة) غداة رحيل «محمد المعلم» فى نوفمبر عام ١٩٩٤ . . كتب يقول: (لم تقبل الدكتاتورية أن تقوم فى مصر قلعة ثقافية ليست تحت سيطرتها. ولم ترض أن تطول قامة مصرى فى دولة من الأقزام، فأعلنت عليه الحرب ثم أممته وصادرت مكتبته ومطبعته وحرمته من كل ما يملك . . ولم يستسلم محمد المعلم).

وفى ضوء خبرتنا به فى حقل النشر لم يكن «محمد المعلم» مجرد أحد عمالقة

النشر العرب، وإنما كان بالدرجة الأولى ناشراً مثقفًا يتميز بحس ثقافي وطني. لم يرض أن يكون الناشر مجرد جهاز استقبال يكتفى بأن يأتى إليه المؤلف أو المترجم أو الكاتب ثم يوافق هو على نشر هذا الكتاب أو ذاك وإنما كان ذا حس وطنى ثقافى عربى إسلامى يسعى إلى الفكرة والكلمة إلى حيث تكون ويتعهدها بالنماء إلى أن تكون فى يده صالحة للنشر والأمثلة فى هذا المجال كثيرة نقدم هنا بعضها :

* حين انتصرت العروبة فى ٦ أكتوبر (العاشر من رمضان) عام ١٩٧٣م بادر بالاتصال بالكاتب «أحمد بهاء الدين» وطلب إليه أن يعد كتابا على وجه السرعة لينشره فى (دار الشروق) وأعد «أحمد بهاء الدين» كتابه المتميز (وتحطمت الأسطورة عند الظهر) المفاجأة هنا أن العنوان كان من اقتراح الناشر المثقف الوطنى العربى المسلم «محمد المعلم»، وكان الكتاب ردا على كتاب أشرفت عليه إسرائيل بعنوان (وتحطمت الطائرات عند الفجر). وكان «المعلم» يريد بذلك أن يزيل الآثار النفسية المدمرة التى أحدثتها هزيمة ٥ يونيو عام ١٩٦٧. وكان يريد أن يضع يوم ٦ أكتوبر فى موقعه الصحيح تطول به رقاب المصريين والعرب كافة التى انتكست فى ٥ يونيو وأصيب الكثيرون بالاكتئاب إلى درجة أن كاتبا وخطيبا مصريا عملاقا هو «توفيق دياب» اعتزل الجميع ولم يخرج من بيته بعد ٥ يونيو عام ١٩٦٧ إلا محمولا بعدها بشهور قليلة إلى مقره الأخير.

* القس الدكتور إكرام لمعى وهو رجل دين مسيحى له وضعه فى الطائفة الإنجيلية، سمعت منه أنه كتب مقالا عن محاولات الصهيونية التسلل إلى المسيحية وغزوها من الداخل. وفوجىء «الدكتور إكرام» بـ«محمد المعلم» يتصل به ويطلب منه أن يضع كتابا يعالج فيه الفكرة الرئيسة للمقال، وأن (دار الشروق) تطلب هذا الكتاب لتنشره. وهذا ما حدث أعد «القس الدكتور إكرام» هذا الكتاب ونشرته (دار الشروق). ومن جهتنا قدمنا هذا الكتاب فى إحدى ندوات (كاتب وكتاب) بمعرض القاهرة الدولى للكتاب ودعوت اثنين من المشتغلين بالثقافة الدينية للحوار مع المؤلف . . الأول هو القس الدكتور «صموئيل حبيب» رئيس الطائفة الإنجيلية والثانى هو «الدكتور محمد عمارة» الكاتب والمفكر الإسلامى، وكانت ندوة ناجحة بكل المقاييس والحضور طاغيًا تصدره فى الصف الأول «محمد المعلم» وإلى جواره «إبراهيم محمد المعلم».

* الكاتب الناقد «محمد سلماوى» رئيس تحرير «أهرام ابدو» فى شهر يوليو عام ١٩٨٤م كتب على صفحات جريدة الأهرام عرضا لكتاب (الانحياز) لستيفن جرين الذى صدر فى الولايات المتحدة الأمريكية يكشف انحياز أمريكا لإسرائيل. وفور قراءته لهذا الملخص اتصل «محمد المعلم»، بـ«محمد سلماوى» يعرض عليه أن يقوم بالترجمة الكاملة لهذا الكتاب المهم لحساب (دار الشروق) وعرض المكافأة التى يحددها محمد سلماوى بالإضافة إلى إخراج ممتاز عرفت به (دار الشروق).

* يوم رحيل الكاتب الكبير «عبد الرحمن الشرقاوى» وفى السرادق المقام إلى جوار مسجد عمر مكرم، فى زاوية منه جلسنا نحن الثلاثة . . عميد النشر العربى «محمد المعلم» وخبير الطباعة فى الوطن العربى «إسماعيل شوقى» وكاتب هذه السطور وكنت قريبا من هذين العملاقين فى النشر والطباعة بل إننى نهلت الخبرة فى الطباعة على يدى «إسماعيل شوقى» وكثيرا ما دعانى لزيارة مطابع دار المعارف لأقف على أحدث آلات وأساليب الطباعة. وهو الذى كان فى سنوات سابقة مشرفًا على الطباعة فى دار التحرير وأخذوه - دون أن يعرف سببا - إلى السجون وأذاقوه ما أذاقوه من المر والمر وفى النهاية، اتضحت براءته. المهم فى هذه الجلسة نظر إلى «محمد المعلم» وكنت فى ذلك العام أنشر على صفحات جريدة الوفد الأسبوعى - حلقات (هذا الرجل من مصر) قال لى الرجل فى نوفمبر عام ١٩٨٧م هذه السلسلة (هذا الرجل من مصر) لدار الشروق. فسعدت ورحبت وقلت ليس أفضل عندى من (دار الشروق) وقد كان . . بعد أن تجمع لدى حوالى مائة رجل أن تولى «مهندس إبراهيم المعلم» إصدار (موسوعة هذا الرجل من مصر) وهذا يفسر الإهداء على الصفحة الأولى عن الموسوعة (إلى روح أستاذنا عميد الناشرين المصريين والعرب الأستاذ محمد المعلم . . لمسة وفاء) رحم الله الأستاذين الجليلين محمد المعلم وإسماعيل شوقى.

* إحدى وظائفى بوزارة الثقافة قبل أن أصبح وكيلا للوزارة ورئيسا لقطاع النشر كنت مراقبا عاما للتوزيع. وكان من بين زملائى فى هذه المراقبة زميل تميز بالخبرة فى هذا المجال هو الزميل «عبد الوهاب عطية» فوجئت به يستقيل وعرفت منه أنه اعتزم أن يستقل بدار للنشر والطباعة والتوزيع . . قلت له هذا عبء كبير يحتاج إلى جهد عناصر كثيرة. وفاجأنى بقوله: البركة فى أستاذنا محمد المعلم الذى شجعنى ولم

يبخل عليّ بأى شيء . . ياه إلى هذا الحد يحرص «الأستاذ» على تشجيع أبنائه حتى ولو عملوا فى العمل نفسه الذى يعمل فيه .

هذه هى بعض صفات . . عميد النشر العربى «محمد المعلم» الذى أعطى للعاملين معه خبرته العميقة . والذى سعى إلى المثقفين والمفكرين يقترح عليهم التأليف والترجمة فيما هو نافع للوطن ولقضايا الناس .

* «محمد المعلم» كان صاحب فكرة العمل المهم كتاب (أنبياء الله) الذى قام به الكاتب الكبير «أحمد بهجت» وذاع الكتاب وشاع فى ربوع البلاد العربية وترجم أيضا إلى اللغة التركية .

المعلم والمعتقل:

صدر قرار بوضع (دار القلم) تحت الحراسة . وكان «محمد المعلم» قد أنشأ (دار القلم) عام ١٩٥٩ . وفى فترة قصيرة أصبحت (دار القلم) قوة ضاربة فى مجال النشر العربى . عام ١٩٦٠م ، قامت دار القلم بالاشتراك مع وزارة الثقافة بإصدار أنجح سلسلتين ثقافيتين ظهرتا فى مصر حتى اليوم . . السلسلة الأولى . . المكتبة الثقافية ، وكانت تعرض للقراءة بقرشين للعدد الواحد وتحمل موضوعات غاية فى الأهمية والتشويق فى كافة فروع المعرفة . . علم وأدب وفلسفة وفنون ولغة . . كان العدد الأول بقلم «عباس محمود العقاد» وموضوعه (الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين) . وغطت السلسلة الثانية (أعلام العرب) عددا من الأعلام الرواد التى تشحذ همم الأجيال الجديدة ، وتبين دور العرب فى الحضارة العالمية ، وكان العدد الأول عن (الشيخ محمد عبده) . . وسعر العدد من (أعلام العرب) خمسة قروش فقط لا غير .

وقد استطاعت غالبية القراء تكوين مكتبات تضم كتبا على مستوى رفيع من الإخراج ، فضلا عن كتاب كبار وموضوعات ممتازة .

واشترك عام ١٩٦٥ مع (مؤسسة فرانكلين) فى إصدار (الموسوعة العربية الميسرة) فى مجلد واحد من ٢٠٠٠ صفحة وأشرف عليها شيخ المؤرخين (د . أشرف غربال) ، وعملت معه «الدكتور سهير القلماوى» ود . زكى نجيب محمود .

واستقطبت دار القلم كبار الكتاب ونشرت لهم . . (عباس محمود العقاد والإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت، والشيخ عبد الجليل عيسى، والدكتور زكى نجيب محمود، وأنيس منصور، وموسى صبرى، وسيد قطب، ومحمد قطب، وفتحى عثمان، وعبد المنعم النمر، ومحمد عثمان نجاتى، وأحمد حسين، ومحمد صبيح، ود. محمد صبحى عبد الحكيم، ومحمد عبد الحليم عبدالله، وثروت أباظة، وصلاح عبد الصبور، ومحمود السعدنى، وناصر النشاشيبى، وعبد الله التل).

هذه المنارة الثقافية صدر قرار بوضعها تحت الحراسة. ولم يكتفوا بوضع الدار تحت الحراسة ولكنهم ـ اعتقلوه وسوف نعود بعد قليل إلى الاعتقال وانتهزوا فرصة وجوده بالمعتقل فأعلنت الحكومة شراءها وشكلت لجنة لتقييم أصول (شركة دار القلم) برقم (صفر صحيح)، وقد حرص ابناه إبراهيم وعادل محمد المعلم «على إخفاء الخبر عن والدهما وهو فى المعتقل ويشهد زميلنا «محمود بسيونى» الصحفى ورئيس التحرير فى (دار التعاون) وكان قد أرسلوه إلى مكانٍ أمين دون تحقيق ودون مجرد سؤال. كتب يقول: أن «محمد المعلم» دخل عليهم العنبر بمعتقل طره السياسى يوم ١٤ مايو عام ١٩٦٧م. ويقرر أن «محمد المعلم» لم يهتز ولم يفقد ثقته فى قيمه ولا فى خلقه ولا فى نفسه. كان عميق الايمان بالله وبعدل الله. وقضى محمد المعلم فى المعتقل سبعة شهور وأفرج عنه فى أواخر عام ١٩٦٧م.

الإصرار والتحدى:

قال عنه «عبد المغنى سعيد» وهو من المثقفين المصريين الذين لهم ماض وطنى: أن «محمد المعلم» ناشر وصحفى ومناضل عربى. وصفة النضال والتحدى ظهرت عنده بعد أن خرج من المعتقل فى أواخر عام ١٩٦٧م، وكانوا قد أمموا دار القلم ودار المعارف وبتأميم هاتين الدارين ازدهرت صناعة النشر فى بيروت وانتهت مقولة (القاهرة تطبع وبغداد تقرأ وبيروت توزع). ظهرت عنده صفة التحدى الكامنة فى نفسه وتوجه مباشرة إلى (بيروت) ليؤسس (دار الشروق) هناك، وثبتت خطاها فأنشأ (دار الشروق) فى القاهرة بعد أن أسسها فى بيروت، ثم ذهب إلى لندن ليقيم

(شروق أنترناشيونال) عام ١٩٨٣ منارة عربية إسلامية يؤمها المصريون والعرب والمسلمون. واختار لها موقعا بالقرب من محطة أكسفورد كان شخصية قيادية في الحياة والنشر قادراً على تجميع التوجهات الثقافية المختلفة. فتح أبواب النشر أمام الجميع دون عقد تصده عن الأفكار الجديدة ودون حساسية تبعده عن الرأى الآخر. كان يحب أن يجمع لا أن يفرق، جمّع حوله سيد قطب إلى جانب يوسف إدريس. نشر لموسى صبرى إلى جانب محمد حسنين هيكل. وجمع أنيس منصور إلى جانب العالم د. على مصطفى مشرفة. ووفق بين الشيخ محمد الغزالى والدكتور زكى نجيب محمود. كان مفكرا إسلاميا مستنيرا، وفى الوقت نفسه يؤمن بالديموقراطية والتعددية الحزبية والثقافية والفكرية، وكان يؤمن باحترام التخصص ويعطى العيش لخبازه. ووضح أسلوبه هذا فى (موسوعة الشروق الكبرى) حشد لها أكثر من ثلاثمائة مفكر ومثقف وعالم وراجع تجارب طباعتها قبل رحيله بأيام فى نوفمبر ١٩٩٤، وعندما أقام (دار الشروق) فى بيروت دعا الفنان «عبد السلام الشريف» لتصميم أغلفة الدار فى بيروت. وكان عبد السلام الشريف أستاذاً فى تصميم الأغلفة. وتعرف على «أنيس منصور» فى جريدة الأساس وقد عملا بها سويا فى منتصف الأربعينيات ثم نشر له لكتابه الشهير (حول العالم فى ٢٠٠ يوم).

بوصلة مستنيرة:

كانت تحكم عمل «محمد المعلم» فى النشر عقلية لها عناصر متعددة، أولها: الإيمان بقيمة العلم، والثانى: التوجه الإسلامى المستنيرة، والثالث: الحس الوطنى العربى، والرابع: المشاعر الإنسانية، والخامس: الشخصية المثقفة، والسادس: احترام قيمة العاملين معه، والسابع: السماحة الدينية، والثامن: حرصه على تحصين القراء من التيارات المناهضة للعروبة والإسلام، والتاسع: الاهتمام بثمرات المطابع الحديثة فى البلاد الخارجية، والعاشر: وهو الأهم الإصرار والتحدى والمثابرة.

هذه الصفات كلها تجمعت فى شخصية «عميد النشر العربى. . محمد المعلم» والأمثلة كثيرة. . احتفى بالمفكر الفرنسى «روجيه جارودى» الذى طاردته

الصهيونية لأنه كشف تعسفها ضد العرب وضد الشعب الفلسطينى . والتقى به فى إحدى القاعات الكبرى بالميرديان . واحتفى أيضا بإصدار الترجمة الخاصة بكتاب (البروسترويكا) للزعيم السوفيتى «جورباتشوف» والذى كان معبرا عن انتقال (روسيا) من النظام الشمولى إلى نظام السوق الحرة، وحصل من الكاتب الكبير «نجيب محفوظ» على حق إصدار أعماله الأدبية للأطفال، وأشرف على إعداد رواياته التى اهتمت بها الحركة الثقافية فى العالم وأشرف على إعدادها للأطفال العرب .

ولاهتمامه بالكلمة العلمية أصدر للعالم المصرى الكبير «د. على مصطفى مشرفة» أعماله عن (الذرة والقنابل الذرية). ونشر للدكتور «عبد الحميد سماحة» فى علم الفلك. ونشر أيضا للدكاترة «سيد رمضان هدارة، ومحمد النادى، وحسن فهمى ولعلماء آخرين».

وفى المؤتمر الثالث للكتاب العربى الذى عقد فى القاهرة فبراير عام ١٩٦٧، وكان وقتها رئيسا للشركة القومية للتوزيع . . قال: (إن الكتاب لابد أن يصل إلى القارئ حينما يكون دون أن ننتظر حتى يسعى القارىء إلى الكتاب فيأخذه بعد مشقة). وأعلن فى برنامجه عن إنشاء (نادى الكتاب).

مسيرة مثقف:

ولد الإنسان العالم المثقف (ابن كفر الشيخ) محمد المعلم عام ١٩١٧م والتحق بكلية العلوم ـ جامعة فؤاد الأول عام ١٩٣٧ وتخرج فيها عام ١٩٤٢ واختاره أستاذه العالم المصرى الكبير «على مصطفى مشرفة» معيدا بكلية العلوم، ولأنه متعدد المواهب فقد اضطر للعمل مدرسا للعلوم بالمدارس الثانوية، واشترك مع صديقه «عبد الفتاح غنيم والمهندس محمد صقر» فى مشروع صغير لإنتاج أحبار الطباعة، وفى مجال الصحافة عمل مع أسرة تحرير (جريدة الأساس) بتشجيع من «محمد صبيح» صاحب (دار التعاون) فيما بعد. واختير رئيسا لتحرير (مجلة الإذاعة).

وأصدر مجلة (إذاعات العالم) التى تعنى بنشر برامج الإذاعة العالمية. وبعد أن

وضع فى هذه المجلة كل ما يملك أصدر «صلاح سالم» وزير الإرشاد القومى وقت ذاك قرارا يحظر فيه نشر برامج الإذاعة المصرية إلا على المجلة الحكومية، وصادر أعداد (مجلة إذاعات العالم) ومنع صدورها. واستأجر المطبعة التى كان يصدر منها «أحمد شفيق» مجلة (المطرقة) فى درب الجماميز. وفى الإذاعة المصرية اختير رئيسا لقسم الإذاعات الموجهة.

غروب صاحب الشروق:

قاتل فى أكثر من ميدان وخرج ظافرا. اعتقلوه وعنده قرحة فى المعدة، وشاء الله له أن يخرج وقد شفاه من هذه القرحة. ترك بصماته فى الإذاعة ومجلة الإذاعة وفى الصحافة. وأسس دار القلم فدار الشروق فى بيروت، ومطابع الشروق فى بيروت ثم مطابع الشروق فى قليوب بمصر ودار الشروق فى القاهرة و(شروق أنترناشيونال) فى لندن. وأسهم فى إصدار (الموسوعة العربية الميسرة) وأشرف على الموسوعة الكبرى دار الشروق، واحتفى بروجيه جارودى، وكذلك بكتاب البروسترويكا لجورباتشوف. ونشر لليمين ولليسار وللمعتدلين . . كل هذا فى إطار يحفظ للثقافة العربية اتجاهها القويم بعيدا عن التيارات الدخيلة المناهضة لروح العروبة والإسلام. وترك صرحا عاليا فاز بلقب أفضل ناشر بمعرض القاهرة الدولى للكتاب، وأجمل كتاب فى معرض فرانكفورت.

وفى يومه الأخير - خارج مصر - كان فى صحوة الموت الخادعة وطلب من مرافقيه . . ابنه المهندس إبراهيم المعلم (رئيس اتحادى الناشرين العرب والمصريين حاليا) ومن شقيق حرم إبراهيم أن ينزلا للفسحة فهو بخير. وتركاه إلى فترة قصيرة وعادا ولكن السر الإلهى قد خرج «رحم الله» عميد النشر العربى - محمد المعلم.

الأسانيد:

١ - أنيس منصور . . الأهرام ١٨/ ١١/ ١٩٩٤ .

٢ - جمال الزهيرى . . الأهلى ١/ ١٢/ ٩٤ .

٣ـ جهاد فاضل . . الحوادث ٩/ ١٢/ ٩٤ .

٤ـ حازم هاشم . . الوفد ٢٢/ ١١/ ٩٤ .

٥ـ سيد الغضبان . . الشعب ٢٢/ ١١/ ٩٤ .

٦ـ شفيق خالد . . البلاد ٢٥/ ١١/ ٩٤ .

٧ـ عبد المغنى سعيد . . العمل عدد ديسمبر/ ٩٤ .

٨ـ عبد الرحمن فهمى . . الجمهورية ١٨/ ١١/ ٩٤ .

٩ـ عبد العزيز صادق . . الأهرام المسائى ٢٤/ ١١/ ٩٤ .

١٠ـ قاسم بن على الوزير . . الشورى ٢٧/ ١١/ ٩٤ .

١١ـ محسن محمد . . آخر ساعة ٣٠/ ١١/ ٩٤ .

١٢ـ محمد الجوادى . . الأهرام ٢١/ ١١/ ٩٤ .

١٣ـ محمد سلماوى . . الأهرام ٢٥/ ١١/ ٩٤ .

١٤ـ محمد إسماعيل . . التعاون ٢٩/ ١١/ ٩٤ .

١٥ـ محمد موسى . . كل الناس ٢٨/ ١١/ ٩٤ .

١٦ـ محمود عبد المنعم مراد . . الأخبار ٢٠/ ١١/ ٩٤ .

١٧ـ محمود بسيونى . . المجلة الزراعية عدد يناير ٩٤ .

١٨ـ محمود السعدنى . . المصور ٢٣/ ١١/ ٩٤ .

١٩ـ مصطفى أمين . . الأخبار ١٨/ ١١/ ٩٤ .

الدكتور محجوب ثابت



رحل «الدكتور محجوب ثابت» عن الدنيا بلا ولد ولا زوجة ولا مال ولا منصب، ولم يعد يذكره الناس وهو الذى عرفته محافل القاهرة وندواتها ومؤتمراتها خطيبا مفوها يلهب حماسة الناس داعيا للثورة الشعبية، وكان معلما من معالم الحياة السياسية والاجتماعية فى مصر بعامة، وفى القاهرة والإسكندرية بخاصة.

هل أصفه لكم لأن صورته ابتعدت عن أذهان الناس وقد رحل منذ أكثر من ستين عاما، كان يتفجر حيوية ويتحدث بالعربية الفصحى حتى فى تعاملاته اليومية وينطق بالشعر والأدب وإن كان ينطق «الكاف» قافا على عكس ما تفعله بعض المذيعات والممثلات فى نطق «القاف» كافا. عصاه لا تفارق يده يلوح بها إذا غضب ثم يهدأ فيضحك ويسعل ويواصل مسيرته، ويعرفه الناس بجسمه الممتلىء وظهره المقوس، وبلحيته التى تدور حول وجهه - وكان يقول عنها إنها لحية عربية، ويحرص على شارب كثيف يتصل بذقنه ويقول إنه يقلد فى ذلك علماء الغرب، نشيط الحركة والتنقل وإن كان بينه وبين دقة المواعيد خصومة لا بأس عنده إذا دعى على الإفطار فى رمضان أن يذهب إلى مضيفه والليل قد انتصف. يقول الكثيرون عنه إنه «طيب» ويقول البعض عنه إنه «ساذج».

زعيم الأمة سعد زغلول كتب فى مذكراته عن ليلة وفاة «قاسم أمين» ٢١ أبريل عام ١٩٠٨ ما يفيدنا بعلاقة «محجوب ثابت» بالزعيم سعد باشا: دعونا فتح الله بركات، وعبد الغفار، والمغازى، للحضور فى الأودة التى كنا بها حيث كانوا فى

الانتظار فى أودة أخرى، وإذ بالتليفون يدق، فدق قلبه لدقه، وسمعت «أحمد طلعت» فى التليفون يردد بصوت باك «قاسم أمين» مات فاعترانى هلع شديد. ومكثت فى بيت قاسم أمين إلى الساعة الواحدة بعد نصف الليل، وكان قد حضر رشدى باشا، وفتحى باشا، ومحمد راسم، ومحمد سعيد، ومحجوب ثابت.

وكان «سعد باشا» قبل ذلك التاريخ بعامين عندما كان ناظرا للمعارف «وزيرا» قد وضع سياسة تقضى بتعيين المصريين بدلا من الأجانب فى أية وظائف شاغرة أو تخلو من الذين يشغلونها، وكان سعد باشا حريصا أيضا على الاهتمام باللغة العربية، وخلت وظيفة للتدريس فى مدرسة الطب وكان من رأى «الدكتور كيتنج» أحد الإنجليز ذوى النفوذ أنه لا يوجد مصرى يصلح لوظيفة التدريس فى مدرسة الطب، وقال كيتنج عن «محجوب ثابت»: «إنه طيب ولا يعرف شيئا ويعرف أنه لا يعرف»، أما «سعد باشا» فقد كان له رأى آخر، وتمشيا مع سياساته فى إحلال المصريين بدلا من الأجانب أصدر قرارا بتعيين «الدكتور محجوب ثابت» للتدريس فى مدرسة الطب، ومن يومها والدكتور محجوب ثابت من المؤيدين لسعد باشا ومن خلصائه بل من المفتونين بسياسته.

ما قبل الحرب:

فى سنوات ما قبل الحرب العالمية الأولى «١٩١٤ - ١٩١٨» حصل «محجوب ثابت» على شهادة فى العلوم الطبية من جنيف وباريس، وأجاد اللغة الفرنسية، وعلى الرغم من ذلك كان يحرص فى الحديث مع الجميع باللغة العربية الفصحى وينطق الكاف قافا، وأصبح من رجال الحزب الوطنى ومن أنصار «الخديو عباس حلمى الثانى» جريا على موقف مصطفى كامل ومدرسة الحزب الوطنى، وافتتح عيادة فى شارع الكومى بحى السيدة زينب ظلت إلى ما بعد ثورة ١٩١٩، وإلى جانب دراسته الأصلية فى الطب، وعمله كطبيب كان متعدد الثقافات يتحدث فى الشئون الاقتصادية والإدارية، ويعرف عن السودان مالا يعرفه غيره، وعندما اشترك فى مؤتمر عقد فى «بروكسل» عام ١٩١٠ بهر الناس ببحوثه الممتازة على الرغم من دراسته الطبية، ظل إلى سنوات طويلة شعلة من النشاط يخطب فى

المقاهى وعلى قارعة الطريق وفى الاجتماعات وأمام المدارس يخطب ويناقش ويسأل الناس وأصبح جزءا لا غنى عنه فى الحياة اليومية، قال عنه صديقه «الشيخ عبد العزيز البشرى»: لو - لا إذن الله - جرى القدر على محجوب ثابت لكان لابد للأمة من «دكتور محجوب ثابت» بأى طريقة من الطرق، هو فى ميراثنا القومى لا يقل عن آثار سقارة، وجامع السلطان حسن، ومقابر الخلفاء، لقد أصبح على الزمان جزءا من تقاليدنا الأهلية كحفلة المحمل، ووفاء النيل، وشم النسيم.

لقد كان الناس يقرءون له ويقرءون عنه فى الصحف ويتابعون نوادره وطرائفه وغرائبه وصادق السياسيين والصحفيين والأدباء والعمال والشباب، وعرف نشاطه الواسع بين العمال ودوره المعروف فى تكوين النقابات العمالية.

لجنة الوفد المركزية:

عندما اعتزم أعضاء الوفد المصرى السفر إلى باريس «١١ أبريل عام ١٩١٩» أوصى «سعد باشا» بأن تؤلف «لجنة مركزية للوفد» فى القاهرة من ذوى الرأى والمكانة فى البلاد لتكون همزة الوصل بين الوفد للشعب وإذكاء الروح الوطنية، وتتولى تنظيم الجهاد داخل البلاد ضد الاحتلال فى الوقت الذى يتولى فيه الوفد العمل فى الخارج.

ويحدثنا «عبد الرحمن فهمى» فى مذكراته عن تكوين هذه اللجنة بمنزل «على شعراوى» على الوجه التالى: محمود سليمان باشا «رئيسا»، وإبراهيم سعيد باشا «وكيلا وأمينا للصندوق» ومحمود أبو حسين باشا «وكيلا» وعبد الرحمن بك فهمى «سكرتيرا عاما» وأمين الرافعى «مساعدا للسكرتير» ومحمد السيد أبو على باشا، وإبراهيم بك الهلباوى، ومرقص حنا بك، وتوفيق دوس بك، ومحمد محمود خليل بك، والشيخ محمد عز العرب بك، وعبد الرحمن بك الرافعى، والدكتور حسن بك كامل، والدكتور محمود بك عبد الرازق، والسيد بك خشبة، وعلى بك محمود أعضاء.

ثم تم ضم «فتح الله بركات باشا» على مسئولية عبد الرحمن فهمى الشخصية

تحت إلحاح محمد محمود خليل بك، وبتوالى الأيام ضمت اللجنة إلى أعضائها حضرات التالية أسماؤهم: الدكتور محجوب ثابت، وعبد الخالق مدكور باشا، ومحمد كامل جلال باشا، ومحمد محفوظ باشا، وكامل بك بطرس، والدكتور أحمد بك السعيد، والدكتور حبيب خياط، وحسنين بك عبد الغفار، وعلوى بك الجزار، وراغب عطية بك، وعلى المنزلاوى بك، والسيد حسين القصبى، وأحمد بك الشيخ، وفهمى بك ويصا، وحسين بك الشريعى، ومحمد زكى بك عبدالرازق، وعلى بك إسماعيل، وصاروفيم بك مينا، وفؤاد بك سلطان، وعبدالواحد بك الوكيل، ومحمود بك عبد النبى، وعنان بك سليط، وسالم بك السيد، وعبد الحليم بك العلايلى، وعبد الرحمن بك محمود، ومحمد كمال بك ابو جازية، وبسيونى بك الخطيب، وحسين بك هلال، وعبد الستار بك الباسل، ولاستكمال البيانات عن أعضاء لجنة الوفد المركزية وجدت صورة لأعضاء هذه اللجنة فى مذكرات «فخرى بك عبد النور» بها بعض أسماء لم ترد فى القوائم التى أوردها «عبد الرحمن فهمى» واضعها أمام القارئ وهى: على ماهر وفخرى عبد النور وعاطف بركات والقمص بولس غبريال.

العمال والثورة:

كان «الدكتور محجوب ثابت» يتمتع بنفوذ كبير فى أوساط العمال وشديد الولاء لسعد والثورة ووثيق الصلة بـ«عبد الرحمن فهمى» رئيس الجهاز السرى والسكرتير العام للجنة الوفد المركزية، وعندما يكون الوفد أثناء الثورة فى حاجة إلى الأموال ينفقها فى سبيل الدعوة كان محجوب ثابت يندفع إلى الأحياء الشعبية يخطب ويستنفر أريحية هذه الفئات فيتبرع الرجال بأموالهم والنساء يقدمن حليهن وهن يزغردن، ومحجوب ثابت يخطب هادرا لتحية وطنية الرجال والنساء، وكان المعاون المخلص لعبد الرحمن فهمى فى سعيه إلى حشد العمال حول الوفد وحول سعد باشا، ونجح عبد الرحمن فهمى بمعاونة محجوب ثابت فى تأسيس «الاتحاد العام لنقابات عمال وادى النيل»، وظل الأمر على هذه الحال إلى أن توقف نشاط هذا الاتحاد بمجرد اعتقال «عبد الرحمن فهمى» بتهمة الاشتراك فى حادث اغتيال

«السيرلى ستاك» سردار الجيش المصرى «نوفمبر عام ١٩٢٤» . واستقال عبدالرحمن فهمى من رئاسة الاتحاد بمجرد إطلاق سراحه «يناير عام ١٩٢٥» ووضع مكانه معاونه المخلص فى النشاط العمالى «الدكتور محجوب ثابت» وهو طبقا للوثائق البريطانية التى استند إليها د. رءوف عباس حامد فى كتابه . . «الحركة العمالية المصرية» من الشخصيات المستقلة ذات الصلات الوثيقة بالوفد، أى أن «محجوب ثابت» ظل وثيق الصلة بسعد باشا وبالوفد وبعبد الرحمن فهمى على الأقل حتى عام ١٩٢٥م. ولكن الإجراءات التى قامت بها حكومة «أحمد زيور» لتصفية الحركة النقابية أدت إلى الإجهاز على الاتحاد واحتجاب جريدته الأسبوعية «اتحاد العمال».

وبعد أن أنشىء حزب الاتحاد عام ١٩٢٥ برئاسة «أحمد زيور» وبتشجيع مع القصر والإنجليز سعى هؤلاء للسيطرة على الحركة العمالية ولكن العمال أعضاء «نقابة العمال المصريين» أسقطوا «السيد باشا أبو على عضو حزب الاتحاد عن الرئاسة، واختاروا الدكتور محجوب ثابت وثيق الصلة بالوفد رئيسا.

عاشق السودان:

لم تعرف الحياة السياسية فى مصر عاشقا للسودان أكثر من عشق الدكتور محجوب ثابت له، كان يعرف السودان معرفة دقيقة . . بلاده، ورموزه، وأشخاصه، وأجوائه، وعاداته، وتقاليد أهله، وكان يقدم السودان على كافة الأمور الأخرى فى مواقفه وسلوكه السياسى وفى أحاديثه ونشاطه بعامة، كان يؤمن إيمانا راسخا بوحدة مصر مع السودان . . وكان يهيم فى الحديث عن «وادى النيل» إلى درجة أن السودان كان البداية والنهاية فى أحاديثه وخطبه السياسية، وكان له أصدقاء عديدون من أهل السودان.

وفى كتابه «شخصيات مصرية» روى الزميل بهيئة الاستعلامات الراحل «عبدالمنعم شميس» رواية طريفة بطلها رجل من السودان اسمه «صالح عيسى السودانى»، وكان هذا الرجل السودانى شديد الوفاء للدكتور محجوب ثابت بعد رحيله، ولو جرت ذكراه على لسان أو نطق باسمه إنسان فإن «صالح عيسى السودانى» يجهش بالبكاء وتدمع عيناه، الغريب فى رواية «شميس» أن «صالح

السودانى» كان يحمل دائما حقيبة جلدية يمسكها بيده فى حرص شديد ويقول صالح إن بالحقيبة «مخطوطا» لكتاب عن «محجوب ثابت» ، وكان حريصا على ألا يترك المخطوط مدة طويلة فى أيدى الراغبين فى رؤيته ، كان يخشى أن أحدا يحاول أن «يقتبس» ما فيه من مادة عن «محجوب ثابت» وظل صالح عيسى السودانى يطوف على مطابع القاهرة يحدثهم عن «محجوب ثابت» وحبه للسودان وحب السودانيين له ، ويحدثهم عن المخطوط .

المهم ـ كما يروى عبد المنعم شميس أن «صالح السودانى» اختفى واختفى معه المخطوط الخاص بحياة محجوب ثابت .

أصدقاء محجوب ثابت:

ولم يكن «صالح عيسى السودانى» الصديق الوحيد الحميم لمحجوب ثابت وإنما كان له عديد من الأصدقاء المرموقين، وقد عرفنا التقدير المتميز الذى كان يكنه «الشيخ عبد العزيز البشرى» للدكتور محجوب ثابت ، وبنفس القدر من الود كانت العلاقة بين أمير الشعراء أحمد شوقى والدكتور محجوب ثابت وقد داعبه أحمد شوقى بعديد من القصائد وفيما يلى أبيات كتبها أمير الشعراء عن سيارة محجوب ثابت :

لكم فى الحى سيارة

حديث الجار والجارة

إذا حركها مالت

على الجنبين منهارة

فصبرا يافتى النيل

فنفس الحر صبارة

وقيل فى وصف تلك السيارة أن تلك السيارة الأثرية لا تستطيع دخولها والجلوس على مقاعدها ، إلا قفزا . . كأنها سيارة مصفحة لقائد عسكرى .

وكان من أصدقائه أيضا شاعر النيل حافظ إبراهيم وسليمان فوزى رئيس تحرير الكشكول، ومحمود فهمى النقراشى والذى كان يناديه الدكتور محجوب بعبارة «سى نقرش»، وإذا كان «عباس محمود العقاد» فى أحاديثه يستخدم عبارة «يامولانا» فإن «الدكتور محجوب» يردد عبارة «يا ولدى . . يا ولدى».

ولم يتركه أمير الشعراء فى راحة فقال عن «براغيث» الدكتور محجوب ثابت ويبدو أن منزله كان مرتعا خصبا للبراغيث . . قال أحمد شوقى:

براغيث محجوب لم أنسها ... ولم أنس ما طعمت من دمى
تشق خراطيمها جوربى ... وتنفذ فى اللحم والأعظم

وأما شاعر النيل حافظ إبراهيم فقد تناول الدكتور محجوب نفسه:

يرغى ويزبد بالقافات تحسبها ... قصف المدافع فى أفق البساتين
من كل قاف كأن الله صورها ... من خارج النار تصوير الشياطين
قد خصه الله بالقافات يملكها ... واختص سبحانه بالكاف والنون

عود إلى السردار:

كان له أصدقاء فى العالم العربى . . فى السودان وسوريا ولبنان وفلسطين وعندما وقعت حادثة اغتيال السردار «نوفمبر عام ١٩٢٤» واعتقل «عبد الرحمن فهمى» متهما هو وعدد من رفاقه بتدبير هذا الحادث، وكان وراء الدكتور محجوب تاريخ ثورى فى تأييد الثورة وفى إثارة العمال من أجل الثورة والوفد ومعروف بارتباطه بعبد الرحمن فهمى . . ودخل فى روعه أنه سوف يكون من المتهمين بارتكاب الحادث وفكر فى الهرب إلى السودان ولكنه تراجع عن هذه الفكرة خوفا من أن تقبض عليه سلطات الاحتلال الإنجليزى فى السودان، فسافر إلى سوريا وبقى هناك إلى أن اطمأن أن المتهمين بارتكاب الاغتيال هم: عبد الحميد عنايت - عبد الفتاح عنايت - إبراهيم موسى - محمود راشد - راغب حسن - على إبراهيم - شفيق منصور - محمود إسماعيل - محمود صالح محمود.

واطمأن أنه لم يرد له ذكر فى التحقيقات من قريب أو بعيد فعاد إلى مصر ومارس نشاطه كالمعتاد، وحضر فى محكمة الجنايات يوم المحاكمة فى أول يونية عام ١٩٢٥ .

الرجل الطيب:

عام ١٩٢٦م انتخب الدكتور محجوب ثابت عضوا فى مجلس النواب عن دائرة كرموز بالإسكندرية، وعلى الرغم من أنه فى ذلك العام لم يكن عضوا فى الوفد إلا أنه ظل طوال حياته وثيق الصلة بالوفد ومحبا لسعد باشا، وكان سعد باشا فى ذلك العام رئيسا لمجلس النواب . . وخطر لعدد من محبيه «حمد الباسل ومحمود فهمى النقراشى وعلى أيوب» أن يداعبوه إلى حين وأوعزوا إلى أحد النواب أن يقدم طعنا فى انتخاب الدكتور محجوب فى حين أن انتخابه سليم، وأبلغوا هذه الدعابة لسعد باشا رئيس المجلس الذى كان يحب محجوب حبا صادقا، وتحددت جلسة ٦ يوليو عام ١٩٢٧ لنظر الطعن، وأخذ المؤيدون للطعن يتكلمون والمدافعون عن سلامة الانتخاب يدافعون. وسعد باشا يضحك فى داخله ويبتسم.

وانتهى المشهد بالطبع برفض الطعن فاسترد الدكتور محجوب الطمأنينة، وتقدم أصدقاؤه وحملوه على الأعناق إلى بوفيه المجلس واحتفلوا بنجاحه وهم يتضاحكون، واكتشف محجوب «المقلب» الذى دبره الأصدقاء ليضحكوا أو يسمروا، وتتوطد العلاقات فى صفاء ومودة.

مداعبات الكبار:

ظل الدكتور محجوب ثابت محبا لسعد باشا مخلصا له حتى الأيام الأخيرة فى حياة سعد باشا، قبل رحيل زعيم الأمة بأيام قليلة كان معتكفا فى عزبة مسجد وصيف، وكان الدكتور محجوب ضمن مجموعة من الموالين لسعد باشا والذين ذهبوا يعودونه، وحضر إلى عزبة مسجد وصيف «الدكتور نجيب اسكندر» من القاهرة، وكان «البابا كيرلس الخامس» الصديق المخلص لسعد باشا قد توفى يوم

١٧ أغسطس عام ١٩٢٧ . وانتهز أصدقاء الدكتور محجوب الفرصة لمداعبته فأوعزوا إلى الدكتور نجيب اسكندر بألا يذكر أمام الدكتور محجوب أنه جاء لزيارة سعد باشا وإنما جاء ليطلب من الدكتور محجوب السفر معه إلى الحبشة لاستشارة الكنيسة الأرثوذكسية أديس أبابا عما يخلف البابا الراحل «كيرلس الخامس»، واشترك الدكتور نجيب اسكندر فى اللعبة، وطلب من الدكتور محجوب أن يسافر معه إلى الحبشة، وهنا انفعل الدكتور محجوب وصاح فى وجه الدكتور اسكندر قائلا : وهل فرغنا من السودان حتى نشغل أنفسنا بالحبشة «كان كما ذكرنا من قبل مهموما دائما بالسودان».

واستطرد الدكتور محجوب فى انفعال قائلا : اذهب أنت . . فأنت أولى بالمهمة، وهنا كان سعد باشا قد جاء لينضم إلى الجلسة . . وشرح له البعض تفاصيل المداعبة، وعن لسعد باشا بصفاء أن يشترك فى المداعبة فوجه كلامه للدكتور محجوب ثابت: يا دكتور أنت ذاهب للاستفسار فى موضوع أخينا البطريرك . . وسرعان ما هدأ الدكتور محجوب وأخذ يردد: لأجل خاطرك يا باشا . . نفعل والله كل شيء تأمر به . . نقبل يا باشا نقبل . . لقد سبق وأن شربت القهوة فى دير السلطان . . لأجل خاطرك يا باشا نذهب إلى أقصى مكان . . وضحك الجميع من القلب . . وأدرك الرجل الطيب أنه وقع فى «مقلب» جديد . . رحم الله الجميع .

الأسـانيد:

* د. رءوف عباس ـ الحركة العمالية المصرية فى ضوء الوثائق البريطانية .
* سعد زغلول ـ مذكرات جـ ١ تحقيق د. عبد العظيم رمضان .
* عباس محمود العقاد ـ سعد زغلول . . سيرة وتحية .
* عبد الرحمن فهمي ـ مذكرات ـ إشراف د. يونان لبيب رزق .
* عبد المنعم شميس ـ شخصيات مصرية .
* فتحى رضوان ـ مشهورون منسيون .

مرقص حنا باشا



منذ أيام قليلة احتفل الإخوة المسلمون فى مصر بعيد الأضحى المبارك، وشاركهم الاحتفال إخوانهم المسيحيون فى مصر بالزيارة وبالمسرة وبالنشر مهنئين، وبعد أيام قليلة سوف يحتفل المسيحيون فى مصر بعيد القيامة المجيد، وسيجدون من إخوانهم المسلمين التهنئة القلبية ومشاعر الحب والمودة.

ونقلب أوراق تاريخنا الحديث لنقرأ أن زعيم الأمة «سعد زغلول العظيم» قد خرج فى ٣ مايو عام ١٩٢١ ليهنىء أبناءه المسيحيين، وذهب مهنئا بعيد القيامة المجيد «سينوت حنا بك، وجورج خياط بك، ومرقص حنا بك، والدكتور نجيب اسكندر، والأستاذ ويصا واصف، والأستاذ مكرم عبيد»، ولقد تناولنا فيما سبق من حلقات سيرة «سينوت حنا، وويصا واصف، ومكرم عبيد» وأشرنا إلى مسيرة «جورج خياط، والدكتور نجيب اسكندر، ومرقص حنا» ونواصل الكتابة بتوسع هذا الأسبوع عن مسيرة (مرقص حنا).

الزعيم مصطفى كامل باشا رئيس الحزب الوطنى ومحرر جريدة «اللواء» شنت عليه الصحافة الإنجليزية حملة شعواء خرقاء واتهمته بالتعصب الدينى واضطهاد الأقباط فى مصر. ووجد «مصطفى كامل» فى أصدقائه وزملائه من دعاة وحدة الشعب «سينوت حنا، وقلينى فهمى، وويصا واصف، ومرقص حنا» الرد الحاسم على الإنجليز دعاة التفرقة وسعاة تمزيق وحدة الشعب، وتوفى «مصطفى كامل» عام ١٩٠٨م، وغادر خليفته «محمد فريد» البلاد إلى تركيا وألمانيا،

وحدثت تطورات مهمة على الساحة الحزبية فى مصر وتم تشكيل «الوفد» فى نوفمبر عام ١٩١٨م وظهر «سعد العظيم» يقود التحالف الشعبى الواسع على مستوى البلاد المصرية جميعها الدلتا والصعيد، وعلى مستوى القوى الاجتماعية المختلفة من فلاحين وعمال وأفندية ورأسمالية وطنية ومتوسطة، ومتوسطى المزارعين وكبار الملاك، ومن المسلمين والمسيحيين، وكان من الطبيعى جدا أن يبادر أقطاب الأقباط بالانضمام إلى هذا «التحالف الشعبى الواسع»، والذى يقوده «سعد العظيم» وكان من المنطقى أيضا أن يكون تسعة من الأقباط فى «الوفد» بطبقاته الأربع وعددها ٢٨ عضوا، تسعة أقباط، من ٢٨ يمثلون «القيادة العليا» للتحالف الشعبى أى «الوفد».

هؤلاء التسعة «واصف غالى، سينوت حنا، جورج خياط، راغب اسكندر، سلامة ميخائيل، فخرى عبد النور، ويصا واصف، مكرم عبيد، مرقص حنا».

الرعيل الأول:

حصل «مرقص حنا» على شهادة الحقوق من جامعة مونبلييه بفرنسا، وحصل على شهادة فى العلوم الاقتصادية من جامعة باريس، وعاد إلى مصر عام ١٨٩١م، وعمل وكيلا للنائب العام حتى عام ١٩٠٤م واستقال للعمل بالمحاماة، كان من الرعيل الأول للحركة الوطنية ومن المقربين للزعيم «مصطفى كامل»، ومن الدعاة المخلصين لوحدة الشعب. وشارك فى الدعوة إلى إنشاء الجامعة المصرية واختير عضوا بمجلس إدارتها، اختير وكيلا لنقابة المحامين عام ١٩١٤، ثم نقيبا للمحامين ٤ سنوات، وعام ١٩١٩م تم اختياره عضوا بلجنة الوفد المركزية التى كان يرأسها «محمود سليمان باشا» مؤسس ورئيس حزب الأمة، ومؤسس جريدة «الأمة» عام ١٩٠٧، وكان من كبار الملاك بالصعيد من أسرة معروفة بمديرية أسيوط.. يقول العامة إنها «بيت السلينى»، وكان عمدة لمدينة أبو تيج، وأشيع أن الإنجليز بعد إعلان الحماية ومنع «الخديو عباس حلمى» من دخول البلاد عرضوا عليه منصب «ملك مصر» ولكنه اعتذر، ولم أجد فى الوثائق التاريخية ما يؤكد هذه الشائعة.. على أية حال هو والد «محمد محمود باشا» الذى اعتقل مع «سعد باشا» يوم

٨ مارس ١٩١٩ وأصبح فيما بعد رئيسا للوزراء ورئيسا لحزب الأحرار الدستوريين.

أمرت السلطات البريطانية بإبعاد «محمود سليمان باشا» رئيس لجنة الوفد المركزية ومقرها القاهرة، إلى الصعيد بسبب دور هذه اللجنة فى إفشال مهمة «لجنة ملنر» . . وكان رد الوفد أن اختار «مرقص حنا بك» نقيب المحامين نائبا للرئيس وحل محل «محمود سليمان» بعد إبعاده إلى الصعيد.

لجنة الوفد المركزية:

كان «سعد زغلول» قد أوصى بأن تؤلف «لجنة الوفد المركزية» فى القاهرة من ذوى الرأى والمكانة فى البلاد لتكون همزة الوصل بين الأمة والوفد، وتتولى تنظيم الجهاد ضد الاستعمار فى الوقت الذى يتولى فيه الوفد العمل فى الخارج، تألفت هذه اللجنة برئاسة الشيخ الوقور محمود سليمان باشا ووكالة «الشيخ الجليل إبراهيم سعيد باشا» والد «الدكتور عبد الحميد سعيد» عضو الحزب الوطنى ورئيس جمعية الشبان المسلمين، وقام بأعمال السكرتارية «عبد الرحمن فهمى بك» وضمت إلى عضويتها عددا من ذوى الرأى والمكانة نذكر منهم «فخرى عبدالنور بك، وحسنين عبد الغفار بك، من كبار أعيان المنوفية ـ وأمين صندوق اللجنة» واختير «الدكتور فؤاد سلطان بك» أمينا للصندوق ـ أحد مديرى بنك مصر فيما بعد . . «ومرقص حنا بك» نقيب المحامين، و«على ماهر» و«عاطف بركات» والقمص «بول غبريال» و«الدكتور محجوب ثابت» و«خليل عفيفى» الذى قام بنقل جثمان «محمد فريد» على حسابه الخاص من ألمانيا إلى مصر فى ١٨ يونيو عام ١٩٢٠م، واستطاعت لجنة الوفد المركزية ان تفشل مهمة «لجنة ملنر» التى وصلت إلى مصر فى ٧ ديسمبر ١٩١٩م وكان رد المصريين جميعا على اللجنة أن «سعد زغلول» هو وحده الذى يتكلم باسمهم واسم الأمة، وبذلك فشلت مناورة سلطات الاحتلال التى أرادت أن تقلل من شأن التوكيلات التى قامت بها الأمة للوفد ولسعد زغلول.

الطبقة الثانية:

في ٢٠ ديسمبر عام ١٩٢١ وجهت سلطات الاحتلال إنذارا إلى «سعد زغلول ومصطفى النحاس وسينوت حنا ومكرم عبيد وجعفر فخرى وأمين عز العرب وصادق حنين» أن يبتعدوا عن القاهرة وأن يلزموا الإقامة فى الريف، واستشعر الزعيم أن الاتجاه إلى الاعتقال ووجه رسالة صغيرة إلى «حمد الباسل» الذى يقيم فى مواجهة بيت الأمة . . «عزيزى حمد» . . الاتجاه إلى الاعتقال . . واجبك أن تعود إلى الوفد رد الأمة هو عدم التضامن مع الإنجليز، ومقاطعة البنوك والشركات الإنجليزية، تشجيع بنك مصر . . التوقيع «سعد».

وصدقت فراسة سعد - فى ديسمبر ١٩٢١ - اعتقل الإنجليز «سعد زغلول ومصطفى النحاس، وسينوت حنا، وفتح الله بركات، ومكرم عبيد» وعاد «حمد الباسل» ليتقدم صفوف الوفد، ويعود معه «جورج خياط» وانضم إلى الوفد فى ظروف التحدى «مرقص حنا، وعلى الشمس، وعلوى الجزار، ومراد الشريعى، وعبد القادر الجمال»، وكان انضمام «محمد علوى الجزار بك من المنوفية، ومراد الشريعى بك من المنيا، وعبد القادر الجمال أمين سر تجار مصر وقت ذاك» يوم ٣ يناير عام ١٩٢٢، وكان انضمام «مرقص حنا بك» نقيب المحامين فى ٢٠ يناير، واختير الأستاذ «واصف بطرس غالى» سكرتيرا للوفد وأمينا لصندوقه، وصدر بيان الوفد فى ٢٣ يناير عام ١٩٢٢ صدر يحمل توجيهات «سعد زغلول» بالمقاطعة وسحب الأرصدة من البنوك الإنجليزية ووقع البيان «حمد الباسل، ومرقص حنا، وويصا واصف، وجورج خياط، ومراد الشريعى، وعلوى الجزار، وعلى الشمسى، وواصف غالى» أعضاء الطبقة الثانية للوفد، وفى يوم ٢٤ يناير عام ١٩٢٢ اليوم التالى على نشر بيان المقاطعة توجهت قوة من الجنود الإنجليز إلى منازل «حمد الباسل، ومرقص حنا، وواصف غالى، وعلى ماهر، ومراد الشريعى» فاعتقلتهم وأرسلتهم إلى ثكنات قصر النيل، أما «ويصا واصف» فلم يكن موجودا فى منزله، وعلمت السلطات العسكرية أنه موجود فى المحكمة المختلطة ليترافع فى إحدى القضايا. وذهبت القوة إلى المحكمة وويصا واصف يترافع، وحاولت القوة الإنجليزية اعتقاله فمنعها رئيس الجلسة وكان فرنسى الجنسية، وأمرها بالخروج من قاعة المحكمة، وقبضوا عليه بعد أن خرج من المحكمة، وخرج «على ماهر» على

الوفد فى فبراير عام ١٩٢٢ . وعقدت ٣ جلسات للمحاكمة فى ٩ و١٠ أغسطس ١٩٢٢ . وقال «حمد الباسل» للقضاة الإنجليز . . لكم أن تحكموا علينا ولكن ليس لكم أن تحاكمونا ، وصدر الحكم فى الجلسة الثالثة بالإعدام لأعضاء الوفد السبعة بتهمة التحريض على تخريب الاقتصاد والحض على كراهية السلطات ، والسبعة الذين حكم عليهم بالإعدام هم «حمد الباسل ، ومرقص حنا ، وواصف غالى ، وويصا واصف ، وجورج خياط ، ومراد الشريعى ، وعلوى الجزار» ، وقضى المحكوم عليهم بالإعدام مدة تقل عن سنتين بعد إلغاء حكم الإعدام والاكتفاء بالحبس وغرامة مالية وذلك تحت الضغط الشعبى ، وصدر قرار الإفراج عنهم يوم الثلاثاء الموافق ١٥ مايو عام ١٩٢٣ «يوم عيد الفطر» ويوم ٢٣ أغسطس عام ١٩٢٣ أعلن الوفد عن تشكيل هيئته الكاملة برئاسة «سعد زغلول» من ٢٨ عضوا من بينهم «مرقص حنا» .

الوزارة الشعبية:

فى ٢ يناير عام ١٩٢٤م تمت الانتخابات الحرة والتى لم يفز بها رئيس الوزراء «يحيى إبراهيم» أمام الأفندى مرشح «سعد زغلول» أحمد مرعى ، وانتهت الانتخابات باكتساح وفدى . . حصل الوفد على ١٩٥ مقعدا من مجموع مقاعد مجلس النواب البالغ عددها ٢١٤ مقعدا .

وأثناء تشكيل الوزارة اعترض «الملك فؤاد» على تعيين اثنين من الأقباط وزيرين والوزارة كلها برئيسها سعد «عشرة» واحتج الملك فؤاد بأن الشارع المصرى قد لا يرضى عن هذا التعيين . . قال سعد : أنا زعيم الأمة وأعرف نبض الشارع المصرى ، وأصر سعد على رأيه وتولى «مرقص حنا بك» «وزارة الأشغال العمومية» ، وتولى «واصف بطرس غالى أفندى» «وزارة الخارجية» .

ويقول الدكتور «محمد حسين هيكل باشا» فى كتابه «مذكرات فى السياسة المصرية جـ١ ص ١٨٠» . . «فى اليوم الذى تألفت الوزارة فيه فتح كثيرون عيونهم واسعة من شدة الدهشة ، لقد ألف الناس منذ عشرات السنين ، وفى عهد الإنجليز

أنفسهم أن يكون فى الوزارة قبطى واحد، أما سعد فقد أخذ فى وزارته اثنين من الأقباط» واستمرت وزارة الشعب من ٢٨ يناير ـ ٢٤ نوفمبر عام ١٩٢٤ .

وجاء «مرقص حنا» وزيرا للمالية فى وزارة عدلى يكن الثانية من «٧ يونيو ١٩٢٦ ـ ٢١ أبريل عام ١٩٢٧» وهى أولى وزارات الائتلاف الوفدية، وتولى «مرقص حنا» للمرة الثالثة منصب وزير الخارجية فى وزارة «عبد الخالق ثروت» الثانية من ٢٥ أبريل عام ١٩٢٧ ـ ١٦ مارس عام ١٩٢٨ وهى أيضا من وزارات الائتلاف الوفدية .

المظاهرة الكبرى:

فى ٢١ مارس عام ١٩١٩م، فى الساعة الثانية بعد الظهر، اندلعت مظاهرة كبرى فى القاهرة سار فيها علماء الأزهر وطلابه، ورجال القضاء بأوسمتهم، والمحامون والأطباء والمهندسون، وطلبة المدارس والعمال، وبينما هم فى ميدان الأوبرا أطلق الجنود الإنجليز الرصاص على المتظاهرين فسقط عدد من المصريين، وقرر المتظاهرون دخول قصر عابدين لعرض الاحتجاج على «السلطان فؤاد» فطلبوا منهم اختيار وفد يمثلهم للحديث أمام السلطان، فاختار المتظاهرون ثلاثة هم: «مرقص حنا بك نقيب المحامين، ومحمد زكى الإبراشى بك من رجال النيابة، ومحمد توفيق حقى بك من رجال القضاء» وقابلوا «السلطان أحمد فؤاد»، وتكلم «مرقص حنا» وأعلن باسم المتظاهرين استنكار الشعب لارتكاب سلطات الاحتلال الجرائم الوحشية ضد الآمنين. وكان «مرقص حنا» نقيب المحامين يرتجل الحديث والخطابة، وحدث أن أقام المحامون يوم الجمعة ١٥ من أبريل عام ١٩٢١ مأدبة لتكريم «سعد باشا» وارتجل فيها «مرقص حنا بك» ـ فيما بعد وزير الأشغال وعضو الوفد ـ ارتجل خطابا أشاد فيه بزعامة سعد للأمة وأشاد فيه بدور الوفد فى الحركة الوطنية، ورد «سعد باشا» عليه بكلمة بليغة، وعرف «مرقص حنا» بحبه وإخلاصه للزعيم «سعد زغلول»، وكان ينتهز كل فرصة للاحتفاء بزعيم الأمة والإشادة به. . يوم الجمعة ٣٠ سبتمبر عام ١٩٢١م أقام أعيان المنصورة وأهلها دعوة لتكريم «سعد باشا» والنواب الأحرار، ويوم الأحد ٢ أكتوبر أقام «مرقص حنا بك» حفل تكريم

للنواب الأحرار فى داره بشارع «سليمان باشا» بعمارة البكوات «حسنى وصبحى غالى» ـ مكان محل يعقوبيان الآن ـ وحضر الحفل «الزعيم سعد زغلول ومعه فتح الله بركات باشا، وعاطف بركات بك، والأستاذ عبد القادر حمزة، والأستاذ أمين عز العرب» وعدد غفير من المحامين والأطباء والأعيان وحضرها أيضا لفيف من كريمات وعقائل وأوانس الأسر المعروفة، وقامت باستقبالهن «حرم مرقص حنا بك» وكريماته وفى مقدمتهن كبراهن «الآنسة عايدة» ـ قرينة مكرم عبيد فيما بعد وألقى أصغر أنجال مرقص بك «نصيف مرقص حنا» ـ المحامى فيما بعد ـ خطبة رقيقة للترحيب بالزعيم سعد.

ويوم الاثنين ٣١ أكتوبر عام ١٩٢١م. أقيمت حفلة كبرى بنادى الرياضة البدنية «لمدرسة وادى النيل» بشارع المنيرة، وقد أعد لهذا الغرض سرادق كبير امتلأ بالألوف من أبناء الوفد، وحضره كثير من رجاله البارزين.

«فتح الله بركات باشا ومرقص حنا بك وواصف غالى بك وأحمد يحيى باشا والسيد حسين القصبى»، وألقى «مصطفى النحاس» رسالة نيابة عن «سعد زغلول» لمرضه.

عيد النيروز:

عيد النيروز هو مناسبة «رأس السنة الزراعية» فى مصر، ويتواكب مع الذكرى السنوية لشهداء الأقباط الذين ضحوا بحياتهم فى مواجهة الاضطهاد الرومانى: فهو على هذا النحو مناسبة غير دينية ومناسبة قومية، وقد شهدت الاحتفالات بعيد النيروز حضور زعيم الأمة «سعد زغلول»، وفيما بعد مشاركة خليفته «مصطفى النحاس» بكلمات الإشادة بالروح القومية فى عيد النيروز.

ويرجع الاحتفال بالنيروز عند قدماء المصريين إلى العالم المصرى القديم «توت» الذى جعل رأس السنة المدنية موافقة لظهور «نجمة الشعرى اليمانية ـ سيروس» مع الشمس فى وقت كان يفد منه أول الفيضان، ولهذا لم تكن له صيغة دينية.

وكان عدد من رجال الدولة وكبار الشعراء «إبراهيم ناجى، وأحمد زكى

أبو شادى ومحمد الأسمر، ومحمود محمد صادق» يلقون كلماتهم وقصائدهم التى تذكى المشاعر القومية، وعندما حلت مناسبة عيد النيروز - رأس السنة الزراعية ورأس السنة القبطية أيضا - فى ١٢ سبتمبر عام ١٩٢١ تألفت للاحتفال بهذا اليوم لجنة برئاسة «إبراهيم سعيد باشا» وكيل لجنة الوفد المركزية، وتقدم الحاضرين «الأمير محمد على توفيق وسعد زغلول باشا، ومحمد مظلوم باشا، وأحمد يحيى باشا»، وافتتح الاحتفال «إبراهيم سعيد باشا»، وألقى «مرقص حنا» خطبة سياسية حول الحركة الوطنية ودور الوفد ومبادئه ومفاوضاته، وتعد هذه الخطبة من الوثائق المهمة بالنسبة للوفد والوطن.

ولد «مرقص حنا باشا» عام ١٨٧٢م ورحل عام ١٩٣٤م بعد حياة امتدت ٦٢ عاما، قضى غالبيتها مناضلا ضد الاحتلال ومناديا بالاستقلال السياسى والاقتصادى، ومدافعا عن وحدة الشعب المصرى العظيم.

الأسانيد:

* جمعية التوفيق القبطية . . تقارير أعمال الجمعية.
* فخرى عبد النور . . مذكرات.
* قاموس التراجم القبطية.
* د. يونان لبيب رزق . . تاريخ الوزارات المصرية.

الدكتور محمد توفيق الطويل..



«الفلسفة» لها جاذبية خاصة . . في دراستها والانتماء لها والتعاطف بين خريجيها وحملة مؤهلاتها . وفي مشروعنا الحالي هذا الرجل من مصر على صفحات جريدتنا «الوفد» تناولت عدداً من هؤلاء الذين تركوا بصماتهم على مسيرة الحركة الفكرية والثقافية، بل على المسيرة العامة في هذا البلد . كتبنا عن حوالي «٢٠٠ مائتي رجل من مصر» من بينهم «أربعة» درسوا الفلسفة وتخصصوا فيها وقاموا بتعليمها لأجيال كثيرة، هؤلاء الأربعة هم: «الشيخ مصطفى عبدالرازق» شيخ الأزهر الذي جعل للفلسفة الإسلامية مكانا محترما في تاريخ الفلسفة بعامة وبخاصة . و«الدكتور زكي نجيب محمود» الذي اهتم في مرحلة عمره الأخيرة بـ «تجديد الفكر العربي» وتناولنا في الأسابيع القليلة الماضية رجلا لم يكن المال قضيته وإنما كان «الإيمان والتدين» فكرا وسلوكا - هما رسالته وحياته العقلية . . هو «يوسف كرم» . واليوم نقدم أحد أساتذة الفلسفة في مصر . . «الدكتور محمد توفيق الطويل» رائد الفلسفة الأخلاقية أو «الخلقية» . كانت قضيته الأساسية . . «التنوير» وكان يكمن عنده في عدة محاور . . «الأخلاق - الدين - العلم - التاريخ - اللغة» .

وحتى نرد الفضل لأصحابه في مجال التعريف برواد الفلسفة في مصر نقول . إن أستاذينا «الدكتور إبراهيم بيومي مدكور، والدكتور زكي نجيب محمود» توليا المشروع تفكيراً وتولاه زميلنا «الدكتور عاطف العراقي» إشرافا وتصديراً، ثم تولاه «المجلس الأعلى للثقافة» نشراً وانتشاراً .

في حى بولاق الشعبى وفى عبق التاريخ الوطنى لهذا الحى العريق، ولد الطفل «محمد توفيق الطويل» عام ١٩٠٩م، وكان والده يعمل فى قرية تابعة لمديرية البحيرة فأدخله عام ١٩١٨م كتاب القرية. وكان فقيه الكتاب حريصًا على أن يحتفظ بوجود الطفل الذى يدفع لشيخ الكتاب قرش صاغ «عشرة مليمات» كل أسبوع. وكانت أسرة الطفل تقدم للشيخ شيئًا من الفطير وعسل النحل. وتأخر التحاق «محمد توفيق الطويل» بالمدرسة الابتدائية إلى عام ١٩٢٠م. ثم جاء به والده إلى القاهرة وألحقه بمدرسة الأمير فاروق الثانوية «روض الفرج حاليًا» عام ١٩٢٥. وفى أكتوبر عام ١٩٣٠ التحق بكلية الآداب - جامعة فؤاد الأول «القاهرة حاليًا»، وتخرج فيها عام ١٩٣٤م «دفعة نجيب محفوظ» ومن قسم الفلسفة أيضًا.

وقد بدأ «محمد توفيق الطويل» نشاطه الفكرى وهو طالب بالجامعة ظهرت أيامه مجلة «النهضة الفكرية» التى أصدرها «الدكتور محمد غلاب» أحد أساتذة الفلسفة وهو غير «الدكتور محمد غلاب» أستاذ الجغرافيا المعروف. ظهرت مجلة «النهضة الفكرية» عام ١٩٣١م وتوقفت عام ١٩٣٤م. وعلى صفحاتها كتب «محمد توفيق الطويل» - وهو طالب بالجامعة - ١٣ مقالاً عن سرقات «إبراهيم عبد القادر المازنى - من الآداب الأجنبية، وعن ضعفه فى الترجمة عن الإنجليزية. ومن الطريف أن «عباس محمود العقاد» وهو صديق للمازنى أعجبته هذه المقالات.

ومن نشاطه الفكرى والثقافى وهو طالب أيضًا.. أنه أنشأ «جمعية البحث والمناظرة» كانت تقيم اجتماعاتها فى جمعية الشبان المسلمين وجمعية الشبان المسيحية، ويدعو للحديث فيها «طه حسين، وأحمد أمين، وتوفيق دياب، وسلامة موسى، وعباس العقاد، وإسماعيل مظهر، وعبد الرحمن الرافعى، وإبراهيم بيومى مدكور».

اختير معيدًا فمدرسًا فأستاذا مساعدًا فأستاذا فى قسم الفلسفة بكلية الآداب - جامعة فؤاد الأول. أصبح معيدًا فى أول فبراير عام ١٩٣٩ ومدرسًا بآداب الإسكندرية فى أول أكتوبر عام ١٩٤٢ وأستاذًا لكرسى علم الأخلاق بآداب القاهرة فى ٥ أبريل عام ١٩٦٢. واختير وكيلا لكلية الآداب - جامعة القاهرة فى يناير عام ١٩٦٤ وأصبح رئيسًا لقسم الدراسات الفلسفية والنفسية من ١٩٦٤ - ١٩٦٨ بكلية

الآداب ـ جامعة القاهرة. وأعير للتدريس ببعض الجامعات العربية و«ليبيا الكويت وبغداد والبصرة وقطر». وقام بتدريس الفلسفة فى الجامعات المصرية «القاهرة ـ الإسكندرية ـ عين شمس» وفى المجلس الأعلى للثقافة أصبح مقرراً للجنة الفلسفة والاجتماع إلى عام ١٩٨٢م.

واختير عضوا بمجمع اللغة العربية عام ١٩٨١م، وعضواً بشعبة الثقافة بالمجالس القومية المتخصصة.

مجمع اللغة العربية:

ويوم انتخابه عضواً بمجمع اللغة العربية فى عام ١٩٨١ قال الدكتور إبراهيم مدكور: «لقد عرفت الزميل توفيق الطويل منذ أربعين عاما أو يزيد فى يوم أن لقيته بكلية الآداب بجامعة القاهرة عام ١٩٣٧. وكان توفيق الطويل من الرعيل الأول الذى قدم الفكر الفلسفى للشباب فى أسلوب مقبول ولغة سهلة» وألقى «بدر الدين أبو غازى». . كلمة الاستقبال وقال فيها: «لقد شارك توفيق الطويل فى الحركة الوطنية فى الثلاثينيات خطيبًا وكاتبًا، وحمل مع زملاء له فكرة الدعوة إلى التحرر الاقتصادى. . وظل بعيداً عن مواقع السلطان قريبا من العلم. . واليوم إذ استقبلك، أراك كما كنت فى هذا الزمن البعيد وقور السمت، سمح الملامح، مستضيئًا بالحكمة والمثل».

وداخل المجمع كان يعمل خبيراً بلجنة الفلسفة وقد أسهم فى إعداد المعجم الفلسفى وأخذت لجنة الفلسفة بفضل نشاطه فى ترجمة مصطلحات المنطق وشرحها، وكان عضواً بلجنة ألفاظ الحضارة.

المحاور الخمسة:

لقد سار «محمد توفيق الطويل» فى مهمة التجديد والتنوير على خمسة محاور: الأخلاق ـ الدين ـ العلم ـ التاريخ ـ اللغة. .

وهذه المحاور ليست مستقلة بعضها عن البعض، والبعد الأخلاقى فى حياتنا تغلغل إلى سائر اهتماماته الأخرى. وأفرد للدين مكانة مؤثرة وبارزة فى كتاباته. ويرى أن الشعوب لا تحيا بغير دين تعتنقه. وفى صميم الدين - أى دين - ثقافة لا غنى عنها للشعب الذى يدين به. ويؤكد منذ البداية رفضه لكل سلطان دنيوى لرجال الدين. وأدان كل صفوف الاضطهادات الآثمة التى تعرض لها رجال الفكر على أيدى المتزمتين من رجال الدين.

وأفرد لمفهومه هذا كتابه «قصة الصراع بين الدين والفلسفة»، ثم أصدر كتابه المهم «قصة الاضطهاد الدينى بين المسيحية والإسلام» أهداه إلى أستاذه «الشيخ مصطفى عبد الرازق» الذى زاوج بين الإيمان والتسامح. والكتاب فى مجمله دعوة إلى التسامح ورفض لكل تعصب، واحترام عميق لحرية الاعتقاد. تناول فى الكتاب الاضطهاد الذى أنزله الرومان بالمسيحية وشهدائها فى مراحل تاريخها الأول. وكان حريصًا على تبرئة الأديان من تبعات الاضطهاد، فالأصل فى الأديان أنها رسالة حب ودعوة إلى السلام. ويؤكد «د. الطويل» أن الإسلام يدعو للحب ويبشر بالتسامح ولا يؤيد إكراه الناس على اعتناق الإسلام. ورفض «د. الطويل» فكرة الثورة الدينية وندد بالعنف الدينى.

والتاريخ بعد لاغنى عنه لأى شعب أو حضارة. وهو يؤرخ للعلم وللفكر الدينى والتصوف ويؤرخ للحضارة. وأرخ لخصائص التفكير العلمى عند العرب واللغة تصل بين ماضينا وحاضرنا وتهيىء لمستقبلنا.. والاستهانة بها وعدم الالتزام بقواعدها وعدم الحرص على إحيائها يعد جريمة فى حق الوطن كله. واللغة ضرورة لكل حضارة باعتبارها الوعاء الأصيل للفكر.

التراث المسلوب:

كان الدكتور «محمد توفيق الطويل» وفيا لتراث العرب العلمى ولحضارة مصر القديمة. فى أواخر السبعينيات قرأ عن كتاب للباحث الأمريكى «جورج جيمس» بعنوان «التراث المسلوب» نشرته المكتبة الفلسفية بنيويورك عام ١٩٥٤، وأعيد نشره فى فرانسيسكو عام ١٩٧٦، وأرسل فى إحضاره ووجده يسجل أن اليونانيين ليسوا

واضعى الفلسفة اليونانية ولكن أصحابها هم المصريون واليونانيون سرقوا الفلسفة المصرية التى كان الكهنة المصريون يعلمونها للخاصة من طلبة العلم. وقرأ ما عرضه الباحث الأمريكى عن حياة أشهر فلاسفة اليونان «سقراط وأفلاطون وأرسطو»، وقرأ أن الإلهيات التى كانت تدرس فى «منف» هى أساس كل المذاهب اليونانية. وليس بعيداً أن يكون مفكرو اليونان قد نقلوا عن المصريين حكمتهم وفلسفتهم ونظرياتهم دون أن يذكروا مصادرهم كما هى عادة مفكرى اليونان. ومن الطريف أن هذا الكتاب الذى صدر عام ١٩٥٤ وأعيد نشره عام ١٩٧٦ فى أمريكا وأشار إليه «د. توفيق الطويل» فى أواخر السبعينيات قد نشرت له ترجمة إلى اللغة العربية فى أواخر التسعينيات قام بها زميلنا المترجم المعروف «شوقى جلال» عن المجلس الأعلى للثقافة فى مشروعه المهم «المشروع القومى للترجمة».

العرب والعلم:

وكما اهتم «محمد توفيق الطويل» بحق المصريين القدماء فى الحضارة التى سرقها اليونانيون منهم اهتم بحق العرب فى التراث العلمى. واهتم بالكشف عن بعض الكنوز الدفينة فى تراث الفكر العربى فى مجال العلوم الطبيعية.

والرياضة والفلسفة وذلك إبان نهضة العرب التى بلغت أوجها فى عصر «بنى العباس»، وركز على الحركة العلمية العربية فى الشرق الإسلامى- بغداد منذ منتصف القرن الثامن م حتى نهاية القرن الحادى عشر. وفى الغرب الإسلامى- قرطبة منذ القرن العاشر م حتى القرن الثانى عشر.

وفى القرن الثانى عشر أخذت سيادة العلم العربى على الفكر فى التوقف وإن كانت البذور العربية فى البيئة الأوروبية قد أخذت تثمر فى الأرض الجديدة نهضة فى مطلع القرن السابع عشر م.

وقد ابتدع العرب «المنهج التجريبى» بكل خطواته ومراحله، مما أدى إلى سبقهم فى ابتداع العلوم الطبيعية. . وكان رواد ذلك المنهج العلمى جابر بن حيان وإخوان الصفا والحسن بن الهيثم والبيرونى، ومثلا فى الفيزياء أنشأ ابن الهيثم علم الضوء

وفسر ظاهرة الانكسار الضوئى والرؤية المزدوجة. وتوصل البيرونى إلى تقديرات للنقل النوعى وأبعاد الأرض وظواهر كسوف الشمس.. وفى الكيمياء توصل جابر بن حيان إلى كشف التبخر والتقطير والتبلور. وفى الصيدلة برع العرب فى تحضير العقاقير النباتية والحيوانية.. واستخدموا التخدير والكاويات فى الجراحة واستحضروا ماء الفضة والزرنيخ.. وفى الفلك نجح العرب فى تحديد مواقع النجوم ومساراتها. وفى الجغرافيا عنوا برسم الخرائط. وفى العلوم الرياضية أسهم الخوارزمى فى تقدم الحساب والجبر واخترع الصفر الذى يسر حل المعادلات الرياضية.

ويقصد الدكتور الطويل بالعلماء العرب كل من أسهموا فى تقدم العلم ممن كتبوا بالعربية أو عاشوا فى بلاد عربية أو تدين لسلطان العرب، وبهذا يدخل فى مفهوم اللفظ الفرس والهنود والترك والسوريون والمصريون والبربر والأندلسيون وغيرهم.

الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية:

كان «الدكتور محمد توفيق الطويل».. من أكبر المدافعين عن أصالة العقل العربى وبين دوره فى بناء الحضارة الإسلامية ونبه إلى دراسة تاريخ العلم عند العرب وإلى دراسة الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية. عرض لمواثيق السلام بين أوروبا فى الغرب والمسلمين فى الشرق، وبعد أن عرض مسيرة الحضارة الأوروبية فى القرون الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين م عرض لمسيرة الحضارة الإسلامية فى العصر العباسى، والحضارة الإسلامية فى عصر الترجمة من منتصف القرن الثامن حتى آخر القرن التاسع، ثم عرض للحضارة الإسلامية فى عصرها الذهبى فى القرنين العاشر والحادى عشر، ثم عقد موازنة بين الحضارتين الإسلامية والأوروبية، وعرض لالتقاء الشرق والغرب، وأوضح انفتاح العالم الإسلامى على اليونان قديمًا وقيام أوروبا بنقل التراث الإسلامى فى صقلية والأندلس وأثناء الحروب الصليبية.

وفى موقع آخر تتبع التبادل العقلى بين الشرق والغرب. فى الماضى القديم

انتقلت ثقافة الشرق إلى اليونان. وبعد أن سيطر الإسكندر الأكبر على الشرق الأدنى ساد الطابع الصليبى وامتزج الفكر اليونانى بالروح الشرقية. وانتقل التراث اليونانى إلى الشرق الأدنى. ثم حول الرومان الشرق إلى مقاطعة رومانية وحمل المسلمون القبس فى عصور الظلام حتى سلموه إلى المسيحيين فى أوروبا. أما فى عصرنا الراهن فقد بدأ هذا التراث العقلى يتسلل من أوروبا إلى الشرق.

نظرة نقدية لوسائل الإعلام:

فى أكتوبر عام ١٩٨٥م قدم «د. محمد توفيق الطويل» بحثًا لشعبة الثقافة بالمجلس القومى للثقافة والإعلام. تناول فيه الجانب الثقافى فى برامج التليفزيون المصرى، ونبه إلى أن الجديد عن الجانب الثقافى فى التليفزيون ينسحب الكثير منه على غيره من أجهزة الإعلام.

وفى نظرته النقدية لوسائل الإعلام يتجه إلى نقد أشمل يستوعب المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية. والضغوط الاقتصادية التى حملت الكثيرين من أفراد الشعب على الاستخفاف بالثقافة. والمشاهد - فى الدول النامية - يتلقى ما يعرض عليه فى وسائل الإعلام دون أن يبدى فى الأغلب والأعم اعتراضًا أو مناقشة. وهناك الاهتمام الكبير بالترفيه فى وسائل الإعلام على الثقافة المعاصرة. والمسئولون فى التليفزيون يقصدون الثقافة بمعناها الواسع الذى تدخل فيه مباريات الكرة على اختلافها والمصارعة الحرة وسائر فروع الرياضة ونشرات الأخبار ودروس محو الأمية، والمسلسلات والمسرحيات والإعلانات. ومن هذه البرامج أيضًا مسابقات «حاول تفتكر»، وفيه تقدم الدولة جوائز مالية لكل من يجيب عن سؤال من الأسئلة التالية:

ما اسم أول مذيعة ظهرت على شاشة التليفزيون عند بدء الإرسال؟!

وهكذا وهكذا، لمن يجيب عن أى سؤال جائزة مالية من «الدولة» اعترافًا بنبوغه وعبقريته!! بالإضافة إلى أخطاء تنشأ عن جهل المذيعات والمذيعين «المرجع التذكارى ص ٥٧»، كأن تعلن مذيعة فى برنامج عن «الإمام أحمد بن حنبل» فتنطق

الاسم بضم الحاء والباء لأنها لم تسمع عنه من قبل. وينبه د. الطويل إلى أن يهتم التليفزيون بنشر الوعى السياسى بين مشاهديه. ود. الطويل من دعاة تخصيص قناة فى التليفزيون للثقافة أسوة بالإذاعة المسموعة.. البرنامج الثقافى وبرنامج الموسيقى. وله رأى يجب علينا أن نشير إليه.. يطالب بأن يستقل ذلك الجهاز عن كل سلطة حكومية. ويدعو ألا يكون ذلك الجهاز «جراجًا» لمحاسيب أصحاب النفوذ.

وإلى هنا نتوقف رغم أننا لم نقدم للقارىء بيان أعماله والتعريف بها كاملة وبيان أفكاره المختلفة وتقطع علينا الطريق وفاته - رحمه الله - فى ١٢ فبراير عام ١٩٩١م.

الأسانيد:

١ - المجلس الأعلى للثقافة.. الدكتور توفيق الطويل، إشراف وتصدير د. عاطف العراقى.

المشاركون الأساتذة والدكاترة أبجديًا: ابراهيم مدكور - إبراهيم صقر - أحمد الجزار - أحمد صبحى - حسن الساعاتى - دولت عبد الرحيم - زينب الخضرى - زينب عفيفى - سعيد زايد - سعيد مراد - سهام العراقى - سيد ميهوب - صلاح قنصوة - عاطف العراقى - عبد العزيز شرف - عبد القادر الدسوقى - على العزبى - قدرية إسماعيل - مجدى الجزيرى - محفوظ عزام - محمد بيومى - محمود زيدان - ميرفت يالى - نازلى إسماعيل - نبيلة زكرى - وليم فرج.

٢ - بدر الدين أبو غازى.. استقبال د. الطويل فى مجمع اللغة العربية.

٣ - قسم الفلسفة - آداب القاهرة.. مذكرة الترشيح التقديرية عام ١٩٨٤.

٤ - د. محمد مهدى علام.. المجمعيون فى خمسين عامًا.

محمد المغازى باشا



هذا الرجل من مصر حمل مشاعل الحرية والوطنية والكرامة الإنسانية. «محمد المغازى عبد ربه» هكذا وجدت اسمه ثلاثيًا بين مجموعة أعضاء (الوفد المصرى) الذين تم اختيارهم عام ١٩٣٧م وحسب الترتيب التالى: «محمد سليمان الوكيل، ومحمد المغازى عبد ربه، وبشرى حنا، ومحمد الحفنى الطرازى، وكمال علما، وفهمى ويصا، وسيد بهنس، ومحمد صبرى أبو علم، وعبد الفتاح الطويل، ويوسف الجندى، وعلى زكى العرابى، وعلى حسين، وأحمد نجيب الهلالى، ومحمد محمود خليل، وعثمان محرم»، وانضم هؤلاء إلى الأعضاء القدامى «وهم: مصطفى النحاس، ومكرم عبيد، وأحمد حمدى سيف النصر، وكامل صدقى، ومحمود البسيونى، وإبراهيم سيد أحمد، وعبد السلام فهمى جمعة».

وهؤلاء الرجال من مصر عرضنا لعدد منهم فى حلقات هذا المشروع: مصطفى النحاس، ومكرم عبيد، وعبد السلام فهمى جمعة، ومحمد صبرى أبو علم، وعبد الفتاح الطويل، ويوسف الجندى، وعلى زكى العرابى، وأحمد نجيب الهلالى، وعثمان محرم.

ويبقى على هذا القلم دين الكتابة عن بقية هؤلاء الرجال من مصر إلى أن كانت أمامى فى الأيام الأخيرة أوراق تحمل بيانات مهمة عن «محمد فؤاد سراج الدين باشا»، عن «محمد المغازى باشا». وفؤاد باشا ـ متعه الله بالصحة والذاكرة الصافية ـ

يحرص على قراءة (الوفد) عقب صدورها، ثم تكون له توجيهات وملاحظات واقتراحات. وحفزتنى هذه البيانات إلى أن أعود لمذكرات سعد زغلول ومذكرات عبد الرحمن فهمى، وموسوعتى هذا الرجل من مصر، وكتاب شهداء ثورة ١٩١٩، ومجلد مصر للمصريين، والسيرة الذاتية للكاتب المبدع يحيى حقى، وأخيرا ـ وهو الطريف فى الأمر ـ رواية يحيى حقى (صح النوم).

الكاتب المبدع يحيى حقى كتب فى سيرته الذاتية التى نشرها مع روايته الرائعة (قنديل أم هاشم) يقول: فى أوائل القرن التاسع عشر قدم إلى مصر من مسلمى المورة شاب اسمه إبراهيم حقى. كانت خالته الست حفيظة ـ خازندارة قصر الخديو إسماعيل، وبواسطتها عين قريبها الوافد فى خدمة الحكومة المصرية.. وتدرج فى الوظائف حتى أصبح مديرا لإحدى المصالح فى بندر المحمودية ـ مديرية البحيرة. ويواصل يحيى حقى حديثه: فى المحمودية كان من الطبيعى أن تتوثق العلاقة بين أسرة جدى وأسرة «السيد حسين» وكيل مكتب البريد، فهو الآخر من أصل تركى وزوجته أرناء وطية (ألبانية).

ويحيى حقى هنا يقرب لنا المسافة بين أسرته التى استقرت فى مديرية البحيرة، وبين أسرة «محمد المغازى» التى استقرت فى قرية (طرنيبا) ـ مديرية البحيرة. وبين المحمودية وبرنيبا وبين دائرة (شبرا خيت) مديرية البحيرة وهى دائرة «محمد المغازى باشا» الذى كان يفوز بالتزكية عن تلك الدائرة لعضوية مجلس الشيوخ منذ بداية الحياة النيابية. ونحن هنا أمام معلومة مهمة، وهى أن أسرة يحيى حقى، وأسرة محمد المغازى بلديات وتنتميان لمديرية البحيرة.

السيدة والبحيرة:

وقياسا على هذا فإن يحيى حقى ومحمد المغازى بلديات تعود أصولهما إلى مديرية البحيرة. هذا على الرغم من أن «المغازى» ولد فى قرية (طرنيبا) و«حقى» ولد فى حى السيدة زينب بالقاهرة. ومن هنا قال القريبون من حقى ومن المغازى أن «يحيى حقى» عندما كتب روايته (صح النوم) فهو يقصد «المغازى» عندما تحدث عن

(الأستاذ) أو (وجيه من الأعيان) أو فى حديثه عن (العمدة). وكتب «يحيى حقى» رواية (صح النوم) فى شكل قصص متفرقة وكل واحد من الشخصيات السابقة بطل لقصة من هذه القصص، وقال «يحيى حقى» عن هذه القصص . . إننى أكتب هذه المذكرات، على مهل أنتزع لها الوقت قطعة قطعة انتزاعًا، ويلاحظ الباحثون أن «حقى» عندما تحدث عن (وجيه القرية) . . قال عنه . . الذى يملك أكثر أراضيها ومبانيها . . لعله يقصد «المغازى» الذى تنطبق عليه هذه الصفة. وعندما تحدث عن «الأستاذ» ووصفه بالتسامح والانتباه لحقوق الفرد كإنسان حى قبل أن يكون حجراً مسخراً فى بناء المجتمع. وأن الإخلاص وصواب الرأى توأمان . . حاول البعض أن يجد فى هذه الصفات وغيرها ما تنطبق على «المغازى باشا» وهكذا فالباحثون يكادون يجمعون على أن (صح النوم) هى رواية، عن البحيرة على اتساعها أو عن (شبراخيت) على تحديدها. المهم أن «المغازى» هو «بطل» هذه الرواية فى صورة (العمدة أو الوجيه أو الأستاذ). ورواية (صح النوم) انتهى «يحيى حقى» من كتابتها فى ٦ فبراير عام ١٩٥٥م ونشرت طبعتها الأولى فى أبريل من العام نفسه.

قريتنا:

والذين يذهبون إلى هذا الرأى يستندون إلى ما كتبه «حقى» فى وصف القرية سواء كانت (برنيبا) أو (شبراخيت) أو (مديرية البحيرة) يقول يحيى حقى: قريتنا أهل ظرف وتسامح وطيبة . . ومعروفون أيضًا بسذاجتهم وتوكلهم على خالق الكون مقسم الأرزاق. ومنازل القرية المتداعية كإخوان الصفا متماسكة فى حضن بعض لا تزعزها زلزلة القطار وأهل القرية أسرة واحدة كبيرة . . تنقل أفرادها قليل، ولكن إذا جاء النداء هبت جماعتهم ـ كما ينطلق سرب الطيور المهاجرة فجأة من على الشجرة ـ وسافرت لحضور مولد السيد ووفاء النذور. وأهل القرية هم ملح الأرض، يكسبون رزقهم بشق الأنفس، يكابدون ـ كالحيوان ـ من مطلع الشمس إلى مغربها، و«الأستاذ» عنده اهتمام بالغ بالقرية وأحوالها، وما لحق أهلها من ضنك وفاقة وما عمهم من ظلم وجور. وهى صفات عرفت عن «محمد المغازى باشا».

و«يحيى حقى» يتكلم هنا عن قرية بذاتها معروفة لديه وبطلها ـ مهما تعددت

صورته ـ معروف لدى القراء وتنطبق صفاته على «محمد المغازى» عام ١٨٨٢ فى قرية (طرنيبا) مديرية البحيرة. لم يولد وفى فمه ملعقة من ذهب أو فضة أو حتى من صفيح.

النشأة والتكوين:

نشأ الصبى «محمد المغازى عبد ربه» وهو يجتر أحاديث كبار السن عما حدث فى القرية فى ثورة «أحمد عرابى»، ففى عام ١٨٨٢ (عام مولده)، قام الفلاحون بتقسيم أراضى الضيعة فيما بينهم وقاموا بزراعتها ذرة شامى. وكان الناس يطلقون على ثورة أحمد عرابى (ثورة الفلاحين). ونشأ المغازى عاشقًا للأرض محبا لها متفانيا فى حبها. وتعلم فى الأزهر. وعندما أصبح فى الثامنة عشرة من عمره أخذ يجوب البلاد من أقصاها إلى أقصاها، يمر بالقرى والنجوع، يتاجر فى الغلال والحبوب، وجمع من المال ما استطاع أن يدخل به إلى عالم تجارة الأقطان. وأصبح اسمه على بالات القطن (طويل التيلة) رمزًا للثقة والجودة، وكان قوى الشكيمة «شديد المراس» عنيدا غير وجل أو هياب . . عنيدا فى الحق. إذا ما نطق كلمة (استبينا) وهى كلمة إيطالية معناها (اتفقنا) كلمة مشهورة فى عالم تجارة الأقطان. قال عنه «محمد فرغلى باشا» تاجر الأقطان المعروف . . لقد علمنا المغازى باشا . . معنى كلمة (استبينا) . . كانت الكرامة عنده أغلى من الحياة وكان النجاح الذى حققه «المغازى باشا» فى عالم التجارة والمال هو سنده فى قصة النجاح الذى حققه فى ميدان الزراعة واستصلاح الأراضى. استطاع أن يحيى بإذن الله موات ثمانية آلاف فدان من الأراضى البور فى مديرية البحيرة. ويقابل هذه الجهود فى إصلاح الأراضى جهود أخرى لقد بنى الدور للفلاحين . . وبنى لهم المساجد والمستشفيات. ومد خطوط الترووللى لتربط القرى بعضها ببعض. وأقام لعمال التراحيل الخيام للإيواء ووفر لهم الغذاء والدواء بخلاف أجورهم. وأعطاهم الأرض بعد إصلاحها يزرعونها بالإيجار. وكان أول من أدخل زراعة الأرز بطريقة (الشتل) ولم تكن معروفة فى مصر وقت ذاك. وأخذ هذه الطريقة عن اليابانيين وانتشرت بعد ذلك فى مصر.

الثورة الشعبية:

فى الثورة الشعبية الكبرى عام ١٩١٩م كان عمره ٣٧ عاما. وبدأت فى مديرية البحيرة المظاهرات فى ١٧ مارس عام ١٩١٩. واعتدى المتظاهرون على مدير المديرية «إبراهيم حليم باشا» وقتل جنود الاحتلال ١٢ متظاهراً. واستؤنفت المظاهرات فى دمنهور فى اليوم التالى ١٨ مارس، وهجم عدد كبير من المتظاهرين على مركز البوليس فى كوم حمادة. وفى ١٣ أبريل عام ١٩١٩ وقعت أحداث (كفر مساعد) وسقط الشهيد «يوسف مبروك» واشتعلت المظاهرات فى بلده (شبرا الشرقية) و(كفر الحاجة) والعزب التابعة لها. وتسجل الوثائق أن «محمد المغازى» انضم إلى أحد أعيان كفر الحاجة وهو «محمد أفندى توفيق عمران المحامى» و«جرجس أفندى بولس» أخر أعيان كفر مساعد. وتكاتف الأعيان ومن بينهم «محمد المغازى» على تخفيف المصائب التى ألحقتها سلطات الاحتلال بالفلاحين وقراهم.

وكان الوفد يقود الثورة الشعبية، وكان سعد زغلول يوجه حركة الوفد فى القاهرة والأقاليم. وفى نوفمبر عام ١٩١٩ تشكل حزب صغير باسم (الحزب الحر المستقل) أطلق عليه البعض اسم (حزب الاستقلال) ورأس هذا الحزب «عرفى باشا» وهو أحد أعيان الأقاليم، واستطاع «عرفى باشا» أن يضم إليه «محمد المغازى» نائبًا لرئيس الحزب. ونادى الحزب بأن مهمته الرئيسة هى (مفاوضة ملنر)، وأمام الزعامة الطاغية لسعد زغلول وأمام تأييد الجماهير الجارف للوفد انتهى الحزب الجديد فى شهر مولده (نوفمبر عام ١٩١٩)، وتراجع اسم «عرفى باشا» ولكن منذ هذه الواقعة عبر «محمد المغازى» عن تأييده وحبه الصادق لسعد زغلول ووضع نفسه وإمكانياته تحت تصرفه لصالح التحالف الشعبى بقيادة سعد زغلول. وانضم «محمد المغازى» إلى الوفد فى ظل حياة «سعد زغلول» عام ١٩٢٥. وسار مؤيدا ومواليا لمبادىء الوفد تحت زعامة «مصطفى النحاس»، وذكرنا فى المقدمة أنه اختير عضوا فى (الوفد المصرى) عام ١٩٣٧ مع المجموعة التى ذكرنا أسماءها.

بنـك مصــر:

فى ٨ مارس عام ١٩٢٠ تم تحرير العقد الابتدائى بين كل من: أحمد مدحت يكن باشا، ومحمد طلعت حرب، واسكندر مسيحة أفندى، ويوسف أصلان قطارى باشا، وعبد العظيم المصرى بك، وعبد الحميد السويفى بك، وعباس دسوقى الخطيب أفندى، والدكتور فؤاد سلطان» على تأسيس شركة مصرية مساهمة تحت عنوان بنك مصر.

وفى ٧ مايو عام ١٩٢٠ تم الإعلان عن قيام البنك برأس مال قدره ٨٠ ألف جنيه مصرى موزعة على ٢٠ ألف سهم وقيمة السهم الواحد ٤ جنيهات. وكان «محمد المغازى» فى مقدمة المساهمين.

وأصبح «المغازى» بعد هذه الفترة مؤيداً لسعد زغلول وللوفد وكان توجيه «سعد» قبل اعتقاله فى ٢٣ ديسمبر عام ١٩٢١ هو (تشجيع بنك مصر ومقاطعة البنوك والشركات الإنجليزية). وأصدر الوفد بيانه التاريخى فى ١٣ يناير عام ١٩٢٢ وجاء فيه: على المصريين أن يقبلوا على شراء أسهم بنك مصر حتى يصل رأس ماله إلى مبلغ يتناسب مع حالة البلاد الاقتصادية، وبذلك يتسنى له أن يساعد المشروعات الوطنية وتنشيط الصناعة والتجارة. واستجاب «محمد المغازى» لنداء الوفد دون أن يكون عضوا فيه بعد. وأسهم فى دعم بنك مصر رمز الاستقلال الاقتصادى الوطنى.

مستشفى المواساة:

فى عام ١٩١٠م فكر لفيف من أهل الإسكندرية فى إنشاء جمعية خيرية لمواجهة الأزمة الاقتصادية التى عصفت بالبلاد فى تلك السنوات الكادحة. وأطلقوا على هذه الجمعية اسم (المواساة). وكانت المجموعة التى أسست الجمعية تتكون من محمد مالك ومحمد الجمال ومحمد فهمى عبد المجيد - والد الدكتور أحمد عصمت عبد المجيد أمين عام الجامعة العربية السابق - وحسين فهمى وعبد الرازق أبو الخير.. وامتدت أعمال الجمعية إلى مساعدة الطلاب الفقراء فى التعليم، وإلى مساعدة الفتيات عند الزواج، وترعى نفقات الموتى من الفقراء. وتوفر للجمعية فى المدة من

عام ١٩٣٢ ـ ١٩٣٥ م ربع مليون جنيه شيد بها المستشفى، وكان قسم مهم من هذا المبلغ قد تبرع به «محمد المغازى». وتم افتتاح المستشفى فى نوفمبر عام ١٩٣٥م وأصبح لمحمد المغازى جناح باسمه فى مستشفى المواساة. وكان فى ذلك الوقت قد مضى عليه عشر سنوات عضوا فى الوفد. وفى الوقت نفسه لم يكن يبخل على الوفد بأية تبرعات يكون الوفد فى حاجة إليها.

سكرتارية الوفد:

منذ أن أصبح عضوا فى (الوفد المصرى) عام ١٩٣٧ ـ وهو قيادة الوفد العليا والمغازى باشا يرى أن منصب (سكرتير الوفد) فى حاجة إلى دماء شابة، وتحديدا فى شخص «محمد فؤاد سراج الدين»، وقد تحققت رؤيته هذه فى ظروف تالية. عام ١٩٤٧ عندما توفى «محمد صبرى أبو علم» سكرتير عام الوفد. وتولى «عبدالسلام فهمى جمعة» المنصب ولكن لإقامته الدائمة فى طنطا بعيدا عن القاهرة، ونظرا لظروفه الصحية قدم استقالته. وعرض المنصب على «عبد الفتاح الطويل» الذى اعتذر لإقامته الدائمة فى الإسكندرية. وفى عام ١٩٤٨م تم اختيار «محمد فؤاد سراج الدين باشا» سكرتيرا عاما، واختير «محمود سليمان غنام» سكرتيرا مساعدا، وصدق حدس، «محمد المغازى باشا» ففى فترة ولاية «فؤاد سراج الدين باشا» لسكرتارية الوفد تحققت إنجازات مهمة كان لفؤاد باشا دور مباشر فيها . . مجانية التعليم، قوانين العمال، وإلغاء المعاهدة، حركة الكفاح المسلح فى منطقة قناة السويس وغيرها من الأعمال التى كانت فى مصلحة الشعب والوفد.

الحس الدينى:

التحق «محمد المغازى» بالأزهر الشريف، وحصل على قسط من التعليم الدينى. وعندما رحل «الشيخ محمد عبده» عام ١٩٠٥ كان قد نشر على الساحة الدينية مناخا صحيا فى الإصلاح الدينى والتعاليم الدينية، وكان عمر «محمد المغازى» وقت ذاك ٢٣ عامًا وهو عمر يساعد على التحصيل الدينى. وتشكلت لدى «محمد المغازى» صورة صحيحة من الأخلاق والمعارف. فى فترة من حياته

كان قد أودع قسما مهما من أمواله لدى (بنك الكريدى ليونيه)، وطلب من مدير البنك عدم احتساب أية فوائد على أمواله المودعة لدى البنك. وسأله المدير عن حكمته فى هذا الطلب. قال «المغازى» لمدير البنك أنه يعتبر الفوائد نوعًا من الربا، والربا حرام فى الشريعة الإسلامية. وعندما علم مدير البنك فى باريس بهذه القصة حضر خصيصًا من باريس ليرى رجلا من مصر يرفض ألوف الجنيهات ليرضى ضميره الدينى. وأهداه المدير عصا من الذهب. كانت أيامًا وكانوا رجالا. رحم الله تلك الأيام وهؤلاء الرجال.

الأسانيد:

سعد زغلول.. مذكرات.. تحقيق د. عبد العظيم رمضان.

عبد الرحمن فهمى.. مذكرات (إشراف د. يونان لبيب رزق).

فؤاد سراج الدين باشا.. بيانات وملاحظات.

مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر.. شهداء ثورة ١٩١٩.

مركز الأهرام للدراسات السياسية - مصر للمصريين.

يحيى حقى - سيرة ذاتية - صح النوم.

محمود سامى البارودى



رب السيف والقلم «محمود سامى البارودى» نبدأ بالتقديم الموجز له إلى أن نركز الحديث عنه كرب للسيف ثم كرب للقلم. ولد عام (١٢٥٥هـ-١٨٣٨م) وهو التاريخ الذى نرجحه على تاريخ (١٨٣٩) أو تاريخ (١٨٤٠) اللذين وردا فى مصدرين مختلفين. وينتسب إلى مدينة (إيتاى البارود) محافظة البحيرة. تخرج فى المدرسة الحربية (١٢٧١ هـ-١٨٥٤م). توفى أبوه وهو فى السابعة من عمره. تعلم اللغتين التركية والفارسية فضلاً عن تمكنه فى اللغة العربية. سافر فى بعثة إلى فرنسا وانجلترا. بعد إعادة تنظيم الجيش زاول عمله فيه وترقى فى مراتبه. جده كان حاكماً لمديرية البحيرة، وأبوه كان أميراً للمدفعية فى عهد محمد على. فى عهد «إسماعيل» شارك فى حملة الجيش التركى لإخماد الفتنة فى جزيرة (كريت) التى تقع جنوبى شرقى اليونان والتى أعلنت العصيان بتشجيع من روسيا ومساعدة اليونان، وانتهت الحرب فى (١٩ سبتمبر عام ١٨٦٩م)، وفى كريت كتب قصيدته (الحنين إلى مصر)، وشارك أيضًا فى الحملة العثمانية ضد روسيا.

وأيد عرابى والعرابيين ومشى معهم فى مسيرة وعرة متشابكة ومعقدة إلى أن قبض عليه ونفى إلى سرنديب (سيلان) فى ديسمبر عام ١٨٨٢م، وظل فى المنفى ١٧ عامًا، وأصدر «الخديو عباس حلمى الثانى». قراراً بالعفو عنه وعاد إلى البلاد عام ١٨٩٩م وقد فقد بصره فى المنفى بعد أن نطق بالشعر عن مصر والحنين إلى مصر ورثاء زوجته. والآن إلى رب السيف والقلم تفصيلا.

في أكتوبر عام ١٨٦٦م أنشيء مجلس (شورى النواب) بقرار من «الخديو إسماعيل» نتيجة لضغوط داخلية وخارجية، فقد بدأ ضيق الشعب بالضرائب الفادحة. وبدأت الدول الأجنبية تفقد الثقة في الأمور المالية المصرية. وكان المجلس يتكون من ٧٥ عضواً لمدة ٣ سنوات. وعام ١٨٧٨م أرغم المجلس الخديو إسماعيل على التخلى عن بعض سلطاته لمجلس وزراء برئاسة «نوبار باشا» وتم تمثيل المصالح الأوروبية بوزيرين.. أحدهما: إنجليزى للمالية، والثانى: فرنسى للأشغال.

وتصاعدت المعارضة داخل المجلس ضد وزارة «نوبار باشا» التى بدأت أعمالها بإحالة ٢٥٠ ضابطًا منهم «أحمد عرابى» إلى الاستيداع. وقام الضابط بمظاهرة (١٨ فبراير عام ١٨٧٩) فسقطت وزارة نوبار. وتولى الوزارة «محمد توفيق» ابن إسماعيل. وتشكلت جبهة من المعارضة التى أصدرت (اللائحة الوطنية) ورفعتها إلي «إسماعيل» الذى ترجمها وأرسلها إلى قناصل الدول الأجنبية، وسقطت وزارة «توفيق» وأسند رئاسة الوزارة إلى «محمد شريف باشا». وأدركت الدول الأجنبية أن «الخديو إسماعيل» يقف وراء هذه التحركات وقررت عزله ووضع ابنه «محمد توفيق» مكانه وتم هذا فى ٢٦ يونيو عام ١٨٧٩م. وفى ذلك العام شكل «أحمد عرابى» جمعية سرية داخل الجيش، وفى اجتماع ١٤ يناير عام ١٨٨١ عقد اجتماع بمنزل «أحمد عرابى» واتخذ التنظيم شكله النهائى برئاسة «أحمد عرابى»، وفى أول فبراير عام ١٨٨١م رفع الضباط مذكرة لرئيس مجلس النظار يطالبون بأن يكون وزير الحربية مصريًا بدلا من «عثمان رفقى» وتمت خدعة للضباط واستدرجوهم وقبض على عرابى واثنين من رفاقه. وشكلت محكمة فى اليوم نفسه، واقتحم البكباشى «محمد عبيد» مقر المحكمة وهرب عثمان رفقى من إحدى النوافذ واختفى فى أحد المخازن، وأحس «الخديو توفيق» بخطورة الأمر وعزل «عثمان رفقى» وعين «محمود سامى البارودى» وزيراً للحربية بقصد تهدئة الموقف داخل الجيش.

البارودى فارس السيف:

أعطى «الخديو توفيق» للبارودى التعليمات بأن يعمل على تقليص دور أحمد عرابى وزملائه. ولكن البارودى لم ينفذ تعليمات الخديو بل انحاز تمامًا إلى أحمد

عرابى والعرابيين . وطالب باعتباره وزيراً للحربية بزيادة مرتبات الضباط والعساكر لعدم تناسبها مع ظروف المعيشة، وأجيب البارودى لطلباته . وانضم «عبد الله النديم» . وأحس الخديو بتزايد خطر عرابى والعرابيين فأقال «البارودى» من وزارة الحربية فى ٢٣ أغسطس عام ١٨٨١ ، ويكون البارودى قد مكث فى نظارة (وزارة) الحربية لأول مرة حوالى ستة أشهر أنجز فيها أعمالا مهمة لصالح العرابيين، وكان «الخديو توفيق» بعد أن أقال «البارودى» جاء بصهره «داود يكن» مكان «البارودى» ، وكانت مهمة «داود يكن» الحد من نشاط الوطنيين داخل صفوف الجيش، وفرض الرقابة على العرابيين ولاحقهم بالجواسيس وشتت شملهم بتنفيذ حركة تنقلات كبيرة بين ضباط عرابى .

٩ سبتمبر عام ١٨٨١:

وأدرك عرابى وجماعته العسكرية أن الخطر يحدق بهم فحشد عدداً كبيراً من الجماهير فى ميدان عابدين، وقرر الزحف العسكرى إلى الميدان فى الساعة الثالثة والنصف من عصر يوم ٩ سبتمبر . وكانت مفاجأة للخديو توفيق وللقناصل الأجانب . وأصبحت قوات عرابى وسط الميدان وخلفها جماهير الشعب وحضر الخديو . وطالبه «عرابى» بإسقاط وزارة رياض المستبدة، وتشكيل مجلس نواب على النسق الأوروبى وزيادة عدد قوات الجيش، ورفض الخديو فى البداية مطالب عرابى وقال عبارته الاستفزازية (.. **ما أنتم إلا عبيد إحساننا**) ورد عليه عرابى . . (**فوالله الذى لا إله إلا هو لا نورث ولا نستعبد بعد هذا اليوم**) . وأوضح «الخديو» لعرابى أن هذه المطالب ليست من اختصاص رجال الجيش وكان رد عرابى حاسماً : (**لست أطلبه وأنا عسكرى الصفة، بل أنا نائب هذه الأمة الواقفة**)، وأشار إلى المتجمهرين خلف الجيش ورفض عرابى أن تترك قواته ساحة عابدين إلا بعد أن تجاب المطالب . واضطر الخديو إلى أن يعزل «رياض» من رئاسة الوزارة وأسندها إلى «شريف باشا» الذى كان مقبولا من العسكريين . وفى التشكيل الجديد تم إسناد منصب وزارة الجهادية (الحربية) لمحمود سامى البارودى . وهكذا عاد البارودى وزيراً للحربية مرة ثانية .

البارودى رئيساً للنظار:

وتطورت الأمور ووقع خلاف بين «شريف باشا» ومجلس النواب. وتقدم «شريف» بمشروع قانون يمنع النواب من الإشراف على الميزانية. ورفض النواب وأصروا على ضرورة إشراف المجلس على الميزانية. وتدخل البارودى وكان من رأيه ضرورة إشراف المجلس على الميزانية ومناقشتها، وعزل شريف باشا إذ لم يوافق على ذلك. واضطر شريف باشا إلى الاستقالة مما أدى إلى انتقال مقاليد الأمور إلى الحزب العسكرى وأنصاره.

وذهب النواب إلى «الخديو» وطالبوا بإشراف المجلس على الميزانية واختيار «محمود سامى البارودى» رئيسًا للوزراء ووافق الخديو مضطرا وشكل «محمود سامى البارودى» الوزارة وجاء فيها «أحمد عرابى» وزيراً للحربية. واستهل «البارودى» عهده بأن جعل من حق النواب النظر فى الميزانية، وأعلن احترام الارتباطات الدولية، واستطاع العرابيون فى ظل وزارة البارودى السيطرة على زمام الموقف والحد من سلطة الخديو.

وأصدرت وزارة البارودى قرارات بإحالة عدد كبير من الضباط الأتراك والشراكسة إلى الاستيداع ودبر بعضهم مؤامرة لاغتيال عرابى والبارودى وقادة العرابيين. واكتشفت المؤامرة وعقد مجلس عسكرى قضى بنفى أربعين عن المتهمين إلى السودان مدى الحياة وتجريدهم من الرتب العسكرية والنياشين. ورفض الخديو بإيعاز من القناصل الأجانب التصديق على الأحكام. ودخل البارودى ثائراً على الخديو وطلب منه التصديق على الأحكام وإلا فإنه لن يكون آمنا على نفسه ولا على حياة الأوروبيين فى البلاد. وسوف تحدث مجزرة لا ينفعه فيها القناصل والدول الأجنبية.

وطلب البارودى من الخديو أن يدعو المجلس للتشاور فى هذا الأمر. ولكن الخديو رفض دعوة المجلس، فقام «البارودى» بدعوته دون موافقة الخديو، وتم الاجتماع بمنزل «محمد سلطان باشا» رئيس المجلس. طالب عرابى بخلع الخديو وطالب «سلطان» بتأييد الخديو. وانتهى المجلس إلى قرار وسط مؤازرة الوزارة بأغلبية ٤٥ ضد ٣٠ صوتا، وإذا استمر الخديو فى الاستماع إلى النصائح الأجنبية

فلابد من خلعه ومحاكمته. وكان العرابيون ينقسمون إلى جناح متشدد «محمد عبيد وعبد الله النديم» وجناح معتدل «البارودى وعبد السلام المويلحى» ويقف فى الوسط «أحمد عرابى».

المؤامـــرة:

فى ٢٥ مايو عام ١٨٨٢ طالبت انجلترا وفرنسا بإسقاط وزارة «محمود سامى البارودى» وإبعاد «أحمد عرابى» عن مصر وتحديد إقامة «على فهمى وعبد العال حلمى» فى الريف. ورفض «البارودى» هذه المذكرة ورفضتها معه غالبية الأمة. ووافق الخديو عليها فقدم «البارودى» فى ٢٦ مايو استقالته احتجاجًا على قبول الخديو للمذكرة، واحتجاجًا على التدخل الأجنبى فى شئون مصر الداخلية. وأيدت الأمة العرابيين وتحت الضغط الشعبى اضطر «الخديو» إلى إعادة «أحمد عرابى» ناظرًا للجهادية والبحرية ولكنه قبل استقالة «البارودى» وإن كان قد أبقى البلاد دون رئيس الوزراء لمدة ثلاثة أسابيع إلى أن عهد إلى «راغب باشا» بتشكيل الوزارة مع الإبقاء على «أحمد عرابى» ناظرًا للجهادية. ولجأ الأجانب والخديو ومحافظ الإسكندرية إلى مؤامرة أحداث الشغب فى الإسكندرية. ووقع «عبد الله النديم» فى خطأ تهييج العامة ضد الأوروبيين. ووقعت مذبحة الإسكندرية فى ١١ يونيو عام ١٨٨٢. وأحزنت هذه المذبحة «البارودى» و«عرابى» وكانت النتيجة يوم الثلاثاء الحزين ١١ يوليو عام ١٨٨٢، فى الساعة السابعة صباحًا. . وفتح الأسطول الإنجليزى نيرانه على القلاع والسفن فى الإسكندرية، وبدأت قصة الاحتلال البريطانى لمصر وليس هنا مجالها.

البارودى فارس القلم:

بعد أن تراجع الشعر العربى لسنوات طوال جاء «البارودى» لإحياء الشعر وتجديده، ومهد الطريق لأمير الشعراء «أحمد شوقى» ولشاعر النيل «حافظ إبراهيم».

وقال بعض الشعراء والباحثين المحدثين إن «البارودى» لو كان قد قدر له أن يعاصر بعض الشعراء الأقدمين لكان له حينما لهؤلاء الشعراء من شخصية ممتازة كالأخطل والفرزدق وجرير والشريف الرضى وبشار بن برد وأبو نواس ولوقف بينهم متفوقًا ومعقودة له الإمارة.

وأنشد البارودى الشعر لموهبته ومطاوعة لما استقر على لسانه من رصيد لغوى غنى، وأتقن أوزانه لما انطبع فى حسه من ضوابط النغم والإيقاع. لقد تفجرت طاقة البارودى حينما عين قائداً لفرقة من الفرسان جهزت لقمع الفتنة فى جزيرة كريت. وقال فى قصيدة طويلة لوصف الحرب:

أدور بعينى لا أرى غير أمة

من الروس بالبلقان يخطئها العد

والمتأمل فى شعر البارودى يجد أنه يتسم بالتصوير الواقعى والسلاسة دون الاعتماد على المحسنات البديعية. وأنشد قصائده على غرار قصائد الشعراء القدامى.

عقد له لواء رئاسة وزارة الثورة العرابية، ولواء التجديد فى الشعر. وكان يتشبه بـ «صلاح الدين الأيوبى» فى الحراسة الأمينة للتراث العربى. وإلى جانب هذا أبدع فى (شعر الشباب).

ديوان البارودى:

توفى «محمود سامى البارودى» فى شهر شوال (١٣٢٢هـ) - شهر ديسمبر عام ١٩٠٤م. وترك ديوانا لم يطبع فى حياته إلى أن تم جمع أشعاره وتولى شرحها «الشاعر على الجارم» و«الشاعر محمد شفيق معروف»، وكتب مقدمة للديوان «الدكتور محمد حسين هيكل»، وقامت (دار الكتب المصرية) بنشر الجزء الأول عام ١٩٤٠م وقامت (المطبعة الأميرية) بنشر الجزء الثانى عام ١٩٥٢.

وسوف نقدم للقارىء هنا بعض النماذج من شعر البارودى التى قالها فى أماكن مختلفة وفى مناسبات مختلفة.

• الحنين إلى مصر:

أنشد هذه القصيدة وهو يحارب الفتنة فى جزيرة كريت كما أشرنا سابقًا:

سرى البرق مصريًا فأرقنى وحدى ... وأذكرنى ما لست أنساه من عهد
فيا برق حدثنى، وأنت مصدق ... عن الآل والأصحاب ما فعلوا بعدى
ونحن روضة المقياس تجرى خلالها ... جداول يسديها الغمام بما يسدى
نعمت، بها دهرًا، وما كل لفحة ... حسبتك بها الأيام إلا إلى الرد
فوا أسفًا إذ ليس يجدى تأسف ... على ما طواه الدهر من عيشنا الرغد
فهذا الذى ألقاه منك على النوى ... فراخى وثاقى يا ابنة القوم أوشدى
يمزق أستار الظلام بأعين ... تطير شرارًا كالسقاط من الزند
أصبر عنك النفس وهى أبية ... وهيهات صبر الظامئات عن الورد
إليك سكبت العين طيب منالها ... وفيك رعيت النجم فى أفقه وحدى

فى المنفى:

مكث «محمود سامى البارودى» فى سرنديب (سيلان) ١٧ عامًا من ديسمبر ١٨٨٢ - سبتمبر ١٨٩٩ . . وهذه قصيدة مما أنشده.

لكل دمع جرى من مقلة سبب ... وكيف يملك دمع العين مكتئب؟
لولا مكابدة الأشواق ما دمعت ... عين، ولا بات قلب فى الحشا يجب
فيا أخا العدل لا تعجل بلائمة ... على فالحب سلطان له الغلب
لو كان للمرء عقل يستضىء به ... فى ظلمة الشك لم تعلق به النوب
ولو تبين ما فى الغيب من حدث ... لكان يعلم ما يأتى ويجتنب
لكنه غرض للدهر يرشقه ... بأسهم ما لها ريش ولا عقب

● رثاء زوجته:

توفيت زوجته وهو فى المنفى فرثاها بهذه الأبيات:

يادهر فـيـمـا فـجـعـتنى بحـليلة؟ كـانت خـلاصـة عـدتى وعـتـادى
لم أدر هـل خطب ألـم بسـاحـتى فـأناخ أم سـهم أصـاب سـوادى؟
أبلـتنى الحـسـرات حـتى لم يـكد جـسـمى يـلوح لأعين الـعـواد
لكـنهـا الأقـدار لـيس بـناجـع فـيـهـا سـوى التـسليم والإخـلاد
إن كنت لـم ترحم ضنـاى لبـعـدها أفـلا رحـمت مـن الأسى أولادى؟

الأسانيد:

١ - الأسرة (مكتبة) . . المختار من شعر البارودى.

٢ - د. سمير محمد طه . . أحمد عرابى.

٣ - مركز الدراسات - الأهرام . . مصر للمصريين (الثورة العرابية).

٤ - محمد البرعى . . شعر وشعراء.

الدكتور محمــود عـــزمى



تصاعدت فى الفترة الأخيرة أمواج الحديث عن «حرية الصحافة والصحفيين» ونقدم هنا مؤسس الدراسات الصحفية فى مصر الذى حرص على تأهيل الصحفيين علميّا ومهنيّا وأسهم فى تأسيس «معهد التحرير والترجمة والصحافة ـ ١٩٤٠» وكانت قضيته الأساسية فى داخل مصر وخارجها «حرية الصحافة والصحفيين».

وقف «الدكتور محمود عزمى» فى وجه سياسة «محمد محمود باشا» الدكتاتورية وخرج لهذا السبب على «الأحرار الدستوريين»، واشترك مع «محمد توفيق دياب» فى إصدار عدد من الصحف المعارضة لحكم محمد محمود. وأعاد إصدار جريدة «الشرق الجديد» فى القاهرة وأمر محمد محمود بإغلاقها.

وعاد من لندن وأصدر مع «محمد توفيق دياب» (جريدة اليوم) أوائل عام ١٩٣٠ على مبادىء الوفد. وضيق عليه «إسماعيل صدقى» الخناق فسافر إلى فرنسا عامى ١٩٣١ و١٩٣٢ وأصدر فى لندن صحيفة (العالم العربى) بالإنجليزية دفاعا عن الديمقراطية وحرية الصحافة ومعارضًا لدكتاتورية إسماعيل صدقى. وكانت قضية محمود عزمى الرئيسة هى الدفاع عن حرية الصحافة ضد التشريعات المقيدة لها.

يقول إسماعيل صدقى باشا:

فى «مذكراته» .. على أثر إقالة «مصطفى النحاس باشا» فى يوليو عام ١٩٢٨

وصلنى خطاب شبه رسمى لتأليف الوزارة. وفوجئت بتكليف «محمد محمود باشا» بتأليف الوزارة الجديدة! المهم فى مجالنا الحالى أن وزارة «محمد محمود» استمرت من «٢٥ يونيو عام ١٩٢٨ - ٢ أكتوبر عام ١٩٢٩م»، وأعلن «محمد محمود» فى خطبة عن سياسة «اليد الحديدية» والتى قال عنها «عباس محمود العقاد»: يد من حديد فى ذراع من جريد.. وعلق «محمد محمود» الحياة النيابية ثلاث سنوات قابلة للتجديد. وأعاد العمل بقانون المطبوعات القديم الصادر عام ١٨٨١. وألغى ترخيص نحو مائة صحيفة وأنذر وعطل عدداً من صحف المعارضة.

وكان الدكتور «محمود عزمى» مشاركًا فى تحرير صحيفة «السياسة اليومية» التى يصدرها «حزب الأحرار الدستوريين»، وابتكر «عزمى» فيها باب «النقد البرلمانى».. وإزاء مواقف «محمد محمود» رئيس «حزب الأحرار»، لم يتردد «محمود عزمى» لحظة واحدة فى الخروج على حزب الأحرار الدستوريين وترك جريدة السياسة. واتفق مع «محمد توفيق دياب» على إصدار عدد من الصحف لمعارضة «محمد محمود» وكما ذكرنا فى المقدمة إصدر جريدة «وادى النيل» فى الإسكندرية وجريدة «الشرق الجديد» فى القاهرة، وأمر «محمد محمود» بإغلاقهما. وسافر «عزمى» إلى لندن. وتولى «إسماعيل صدقى» رئاسة الوزارة «١٩ يونيو عام ١٩٣٠ - ٤ يناير عام ١٩٣٣» وإلى جانبها وزارة الداخلية وبدأت وزارة صدقى عهدها بإصدار القرارات بتأجيل جلسات البرلمان الوفدى لمدة شهر. واستبدل دستور ١٩٣٠ بدستور ١٩٢٣ «الباء تدخل على المتروك». وضيق الخناق على حرية الصحافة والصحفيين وكان «عزمى قد أصدر مع «دياب» «جريدة اليوم» على مبادىء الوفد. وسافر «عزمى» إلى فرنسا عامى ٣١ و٣٢ حيث عمل مستشاراً للخديو المعزول «عباس حلمى الثانى» وفى عام ١٩٣٣ - كما أسلفت - أصدر صحيفة «العالم العربى» بالإنجليزية دفاعًا عن الديمقراطية وحرية الصحافة ومعارضًا لدكتاتورية صدقى. وعام ١٩٣٤ شارك «محمد توفيق دياب» فى تحرير جريدة «الجهاد» التى عرفت بدفاعها عن مبادىء الوفد. وانبرى لعبد الفتاح يحيى الذى خلف إسماعيل صدقى عام ١٩٣٤ فى رئاسة الوزارة.. ونشر «عزمى» سلسلة مقالات دفاعًا عن حرية الصحافة والصحفيين، وهاجم

مشروع القانون الجديد الذى أعده «عبد الفتاح يحيى» وأسماه «مشروع تنظيم الصحافة».

وفى ٩ مايو عام ١٩٣٦ شكل «مصطفى النحاس باشا» وزارته الثالثة «٩ مايو ٣٦ - ٣١ يوليو عام ١٩٣٧» وأشاد «محمود عزمى» بما جاء فى خطاب العرش من اعتزام الوزارة «بأن تخص الصحافة بما هى أهل له من الامتيازات التى تمكنها من تأدية رسالتها الاجتماعية فى حرية واحتفاظ بالكرامة، واعتزام الوزارة استصدار عفو شامل عن الجرائم السياسية التى وقعت - فى فترة الحكم الاستثنائى والتى أخضعت له مصر فى سنة ١٩٣٠ - ١٩٣٤.

دستور ١٩٢٣:

التحق بالقسم الفرنسى بمدرسة التوفيقية الثانوية بالقاهرة وتتلمذ على الأساتذة الفرنسيين وتشبع منهم بمبادىء الحرية والإخاء والمساواة - مبادىء الثورة الفرنسية. وسافر فى بعثة إلى فرنسا عام ١٩١٩، واشترك فى مجلس إدارة الجمعية المصرية التى كونها الطلبة المصريون فى باريس. وتأثر بشكل عام بالتوجهات العقلانية للحضارة الغربية. وتتلمذ على أيدى عالم الاجتماع المعروف «إميل دور كايم». وعاد وهو يدعو إلى «الليبرالية» والاتجاهات وحرية التعبير. ولهذا وقف فيما بعد فى خندق واحد مع «الوفد» فى الدفاع عن «دستور ١٩٢٣» الذى عصف به «محمد محمود وإسماعيل صدقى وعبد الفتاح يحيى»، ويقول فى تبرير ذلك «أن المادة - ١٥ - فى دستور ١٩٢٣ تنص على أن الصحافة حرة فى حدود القانون. وأن الرقابة على الصحف محظورة، وإنذار الصحف أو وقفها أو إلغاءها بالطريق الإدارى محظور، إلا إذا كان ذلك ضروريًا لوقاية النظام الاجتماعى. ولهذا كان من الطبيعى أن ينضم «محمود عزمى» إلى صفوف المعارضين لحكم «محمد محمود وإسماعيل صدقى وعبد الفتاح يحيى». وعندما جاء «توفيق نسيم» عام ١٩٣٥ هاجم «عزمى» تباطؤ «نسيم» فى إلغاء قانون المطبوعات الذى وضعه «إسماعيل صدقى» وكان جريئًا فى دفاعه عن الدستور إلى حد أنه اتهم بالعيب فى الذات الملكية ولكن التحقيق حفظ.

محمود عزمى صحفيًا:

حصل على الدكتوراة من باريس عام ١٩١٢، وعاد إلى مصر ليعمل فى جريدة «العلم» وهى من جرائد الحزب الوطنى ورأس تحريرها الصحفى المصرى الوطنى «أمين الرافعى»، ثم اختير ليعمل أستاذاً للاقتصاد فى مدرسة التجارة العليا ولكنه استقال فى أواخر عام ١٩١٨. وتولى رئاسة تحرير جريدة «المحروسة» فى أكتوبر عام ١٩١٩م. وأثناء مفاوضات «سعد- ملنر- عمل محمود عزمى مراسلاً لجريدة الأهرام فى فرنسا وانجلترا عام ١٩٢٠. وأصدر جريدة «الاستقلال» عام ١٩٢١ واستمر مديراً لتحريرها. وانضم لتحرير صحيفة «السياسة اليومية» التى صدرت فى أكتوبر عام ١٩٢٢ عن حزب الأحرار وابتكر باب «برلمانيات»، وشارك أيضًا فى تحرير «السياسة الأسبوعية» وكان يرأس تحريرها فى غياب «الدكتور محمد حسين هيكل». ومنذ ٢٥ أكتوبر عام ١٩٢٥ وقد صدرت مجلة «روزاليوسف» كان يكتب فيها عن «السياسة الخارجية» وكتبت «روزاليوسف» فى «ذكرياتها»: نبتت فكرة المجلة فى محل حلوانى اسمه كساب، كان يوجد فى المكان الذى تشغله الآن سينما ديانا. وكنت جالسة ساعة العصر مع الأصدقاء محمود عزمى وأحمد حسن وإبراهيم خليل نتحدث عن الفن.. وتطرق الحديث إلى حاجتنا الشديدة إلى صحافة فنية محترمة ونقد فنى سليم. وطرحت على الزملاء سؤالا: ماذا نسمى المجلة وفاجأتهم باقتراح غريب لماذا لا نسميها «روزاليوسف».. وهكذا ولدت فكرة مجلة روزاليوسف فى حضور محمود عزمى. وبعد عشر سنوات عام ١٩٣٥ رأس تحرير جريدة «روزاليوسف» - ٢٥ مارس- وأضفى عليها التجديد الصحفى الفنى والتبويب المبتكر مقلدا «للبارى سوار» و«الديلى هيرالد»، واهتم بنشر الأخبار المهمة والصور الفوتوغرافية للحوادث فى الصفحة الأولى والأخبار المحلية فى الصفحة الثانية. وكانت أول مجلة تصدر فى شكل الجريدة اليومية. ويرى «أحمد كامل مرسى» فى تعليقه على ذكريات روزاليوسف أن تجربة جريدة روز اليوسف كانت سابقة على تجربة «أخبار اليوم» التى صدرت عام ١٩٤٤. وعام ١٩٣٦ رأس تحرير صحيفة الشباب الأسبوعية لصاحبها «محمد على الطاهر»، وغادر مصر إلى العراق حيث عمل أستاذاً للاقتصاد فى جامعة بغداد.. وعاد إلى مصر ليعمل فى مصلحة الضرائب.

عزمى أستاذا صحفيا:

كان «محمد شفيق غربال» قد تقدم فى ١١ أبريل عام ١٩٣٩م بمشروع لإنشاء «معهد الترجمة والتحرير والصحافة» ووافق على المشروع مجلس جامعة فؤاد الأول فى ١٧ نوفمبر عام ١٩٣٩ . وبدأت الدراسة فى المعهد فى فبراير عام ١٩٤٠م، وتكونت هيئة التدريس من: د. محمود عزمى - د. طه حسين - د. أحمد الشايب - د. محمد مندور - د. مصطفى مشرفة - د. عزت عبد الكريم - د. أمين روفائيل وثلاثة من أساتذة اللغات الأجنبية.

ووضع د. محمود عزمى منهجًا . . ضرورة تأهيل الصحفيين علميّا ومهنيّا - المطالبة بأقصى درجات الحرية للصحافة والصحفيين - أهمية التدريب لطلاب الصحافة - الصحافة كسلطة رابعة إلى جانب السلطات القضائية والتشريعية والتنفيذية - واستقال من التدريس فى المعهد عام ١٩٤٦ - وخلال فترة عمله شارك فى تحرير الصحف الوفدية وأخبار اليوم، ومجلة «الكاتب المصرى» التى صدرت عام ١٩٤٥.

وكان له طابعه الخاص به فى التحرير الصحفى . . اهتم بالسياسة الخارجية، واهتم بالمقال إلى جانب اهتمامه بالخبر، وحرص على العناوين الاستفهامية، والمقدمات التاريخية للموضوعات، والإيجاز فى المقالات.

وإذا كان «سلامة موسى» قد اشتق كلمتى «الاشتراكية والثقافة» فإن «محمود عزمى» ابتدع كلمات «الأمية - التدويل - التأميم - الإعلام - الماجريات، واستخدام كلمات: إيتاليا بدلا من إيطاليا وبريتانيا بدلا من بريطانيا - ودبلوماتيه بدلاً من دبلوماسية.

وقد برزت شخصيته المتميزة فى سائر الصحف التى أصدرها أو التى شارك فى تحريرها . . الأهرام - المصرى - صوت الأمة - الجهاد - العلم - المحروسة - الأفكار - السياسة اليومية - السياسة الأسبوعية - الاستقلال - وادى النيل - الكاتب المصرى - والشباب - وروز اليوسف وأخبار اليوم.

شخصية قلقة:

عرف فى نشاطه الصحفى بشخصيته القلقة وعدم الاستقرار . . سافر إلى المغرب إبان الاحتلال الفرنسى وضاقت به السلطات الفرنسية لأنه حمل لواء الدعوة إلى القومية العربية والتحرر من الاحتلال . وعام ١٩٢٦ طالب الشباب وطلبة المدارس بأن يرتدوا (القبعة) بدلا من الطربوش وبادر هو بارتداء القبعة وله صور كثيرة بها ولو أنه خلعها عام ١٩٣٦ بعد أن ظل يرتديها لعشر سنوات . وعمل مراسلاً فى أوروبا للأهرام وكوكب الشرق والبلاغ ، وعمل سكرتيراً للخديو عباس حلمى الثانى ، وسافر إلى الحجاز ، وراسل جريدة (السياسة) من لوزان عام ١٩٢٣م ، أثناء انعقاد مؤتمر الصلح بتركيا والحلفاء . وتنقل بين الصحافة والتدريس . وأعلن فى نوفمبر عام ١٩٢٨ خلال الاحتفال بعيد الجهاد انضمامه للوفد ثم بقى مستقلا عن الأحزاب . وعمل مراسلاً لصحيفة (الجهاد) من لندن . وكان يميل للخبطات الصحفية ، ومن هذه الخبطات حصوله على مشروع ملنر فى مفاوضات الوفد المصرى الأول عام ١٩٢١ . وكان «ملنر» قد أرسل المشروع لسعد باشا ـ وسلم سعد باشا «نسخة منه» لعدلى يكن الذى تعهد بعدم إذاعته . وذهب «محمود عزمى» إلى سعد باشا وطلب المشروع لينشره وقال له «سعد باشا» لقد تعهدنا بعدم إذاعته قبل وصوله إلى القاهرة . وذهب «محمود عزمى» إلى «عدلى يكن» فسلمه المشروع وأسرع «عزمى» بنشره كاملاً . . وكانت أزمة بين سعد وعدلى لأن محمود عزمى ذكر لسعد باشا أنه أخذ المشروع من «عدلى باشا» . وفى ١٧ مايو عام ١٩٣٤ سافر إلى السعودية واليمن وأرسل أخبار القتال بين السعودية واليمن .

وذكر البعض أنه توفى فى (نوفمبر عام ١٩٥٤) على أثر أزمة نفسية والقلق الذى استبد به فى تلك الأيام .

خارج الحدود:

ولم يقتصر «محمود عزمى» على نشاطه من أجل الصحافة المصرية داخل الحدود وإنما نقل نشاطه إلى الخارج . وكان على اتصال بهيئة الأمم المتحدة فاختير لتمثيل مصر فى لجنة (حرية تداول الأنباء) التابعة للأمم المتحدة عام ١٩٤٩ . وقدم مشروعًا لتنظيم

حرية تداول الأنباء يقضى بحماية المراسلين الأجانب أثناء سعيهم للحصول على الأنباء. وفى يوليو عام ١٩٥١ مثل مصر فى مؤتمر الشئون الصحفية - إيفيان بفرنسا. وفى مارس عام ١٩٥٢ انتخب رئيسًا للجنة حرية الأنباء. وقدم بالاشتراك مع مندوب فرنسا ولبنان ويوغسلافيا مشروع اتفاقية لتصحيح الأنباء تتيح لكل دولة نشر عنها خبر خاطىء داخل دولة أخرى أن تطلب تصحيحه وأن ينشر هذا التصحيح.

والحقيقة أن اتصال محمود عزمى بالمحافل الدولية بدأ عندما كان مديراً للتشريع فى مصلحة الضرائب، حيث مثل مصر فى لجنة الضرائب الدولية التابعة لعصبة الأمم المتحدة فى يونية عام ١٩٣٩.

وقام بمتابعة عصبة الأمم صحفيا من خلال اجتماعات مؤتمرات الصلح والاقتصاد. ثم قام بمتابعة أنشطة الأمم المتحدة بعد إعلانها عام ١٩٤٥. وفى سبتمبر عام ١٩٥٠ فى أثناء انعقاد الجمعية العامة رأس وفد مصر «الدكتور محمد صلاح الدين» وزير الخارجية واختير محمود عزمى ضمن أعضاء الوفد الذى مثل مصر. وكان محمود عزمى معروفًا فى الخارج بدفاعه عن حرية الصحافة وتم اختياره عام ١٩٥١ لتمثيل مصر فى لجنة حقوق الإنسان المنوط بها أن تقدم للمجلس الاقتصادى والاجتماعى اقتراحات وتوصيات وتقارير خاصة بإعلان دولى لحقوق الإنسان وتقارير خاصة بحقوق المرأة وحماية الأقليات.

وعدم التمييز بسبب الجنس أو النوع أو اللون أو اللغة أو الدين. وكان محمود عزمى معروفًا بمناصرته لحقوق المرأة وبتوجهاته الليبرالية فاختير رئيسًا للجنة حقوق الإنسان (مارس عام ١٩٥٣) وأعيد انتخابه فى (مارس عام ١٩٥٤).

نقابة الصحفيين:

على صفحات جريدة (المؤيد) للشيخ على يوسف فى العقد الأول من هذا القرن طرحت فكرة تأسيس أول تنظيم للعاملين فى الصحافة المصرية. ولكن الفكرة دفع بها إلى الخلف لأن الصحافة كانت مهنة (مزرية) أو (وضيعة) على حد ما تردد فى المحكمة أثناء قضية زواج الشيخ على يوسف من ابنة «الشيخ السادات». فى

العشرينيات ظهرت أشكال متعددة تحت مسمى (رابطة المحررين) أو (رابطة أصحاب الصحف). وعام ١٩٣٦ وضع «محمود عزمى» مشروعًا باسم (جمعية الصحفيين).

وعام ١٩٤١ قدم «محمود أبو الفتح» أول طلب للحكومة لإنشاء (نقابة الصحفيين)، ووافقت الحكومة بشرط توفير مقر فتبرع «محمود أبو الفتح» بشقته فى عمارة الأيموبيليا. واختاره الصحفيون أول نقيب فى عهد حكومة الوفد (٤٢ - ١٩٤٤)، وخصصت حكومة الوفد الأرض الموجودة فى شارع عبد الخالق ثروت للنقابة. وتبرع «محمود أبو الفتح» بالجزء الأكبر من نفقات المبنى. وحينما تقرر افتتاح مقر النقابة كان «محمود أبو الفتح» قد استنفد مرات انتخابه كنقيب، فاختار الصحفيون أخاه «حسين أبو الفتح» نقيبًا بالتزكية.

مواقف وطنية وقومية:

وإلى جانب اهتمام «محمود عزمى» بحرية الصحافة والصحفيين وبالارتفاع بالمستوى العلمى والمهنى للصحفيين فقد كانت له مواقفه الثابتة الوطنية والقومية. تبنى قضية وحدة مصر والسودان، ومؤازرة القضية الفلسطينية، والوحدة العربية والقومية العربية بل بالوحدة الآفروآسيوية وعدم الانحياز.

وبدأت حياة د. عزمى عام ١٨٨٩ فى قرية (شيبة قش) مركز منيا القمح - مديرية الشرقية من أسرة متوسطة وانتهت فى نوفمبر عام ١٩٥٤ على أثر أزمة قلبية وهو يلقى كلمة مصر فى مجلس الأمن.

الأسانيد:

١ - أنور الجندى. . الصحافة السياسية.

٢ - د. عواطف عبد الرحمن. . جريدة الأهرام ٢٠/ ١/ ١٩٩٩.

٣ - فاطمة اليوسف . . ذكريات.

٤ - محمود عزمى . . خفايا سياسية.

٥ - نجوى كامل . . محمود عزمى (رائد الصحافة المصرية).

الدكتور مصطفى الديـوانى



الإعلان التليفزيونى - أحد الإعلانات القليلة المفيدة للأسرة - الإعلان الذى ينادى فيه «أبو حميد» على جاره «حنا» بأن يسرعا بالأطفال إلى مركز التطعيم ضد شلل الأطفال، هذا الإعلان أوحى لى أن أكتب عن صديقى الطبيب الأديب «مصطفى الديوانى» الذى دخل فى معركة ضد «فيروس شلل الأطفال» فوفقه الله فيها بقدر معقول . . على غير صديقه الحميم «نابليون بونابرت» الذى هزمه الإنجليز فى معركة «واترلو»، والدكتور «الديوانى» كان صديقا وفيا للأطفال ولأصدقائه فى مصر والبلاد العربية وخارج مصر، وكان نابليون بونابرت حلم صباه، قرأ كل ما كتب عنه وفرح لانتصاراته وحزن لهزيمته فى «واترلو» ثم نفيه إلى جزيرة «سانت هيلانة»، حيث سامه حاكمها «هوسون لو» كل أنواع العذاب حتى قضى نحبه ذليلا مهيض الجناح فى ٥ مايو عام ١٨٢١، وعندما كان الطبيب «مصطفى الديوانى» فى زيارة لابنته «مايسة» وزوجها الدبلوماسى «محمد شلقامى» فى بلجيكا ذهب لزيارة أرض المعركة التى هزم فيه نابليون.

والشاعر الكبير «عزيز باشا أباظة» كتب يقدم «الطبيب مصطفى الديوانى» أو بالأحرى يقدم كتابه «قصة حياتى»: «كما أعرف الدكتور مصطفى الديوانى طبيبا له فى فنه ومكانته وأستاذيته، أعرفه كذلك أديبا له قدره، وقبل أن أقدم لك هذا الكتاب، أرجو أن أنبهك إلى أن قدرا من الترخص فى صحيح اللغة العربية قد انقض على تعبيرات فيه قليلة أو كثيرة، وربما كان تعمق الأطباء للحياة فاضلا على تعمق سواهم لأنهم كثيرا ماتبتدئ على أيديهم الحياة، وكثيرا أيضا ماتنتهى على أيديهم الحياة».

نابليـون بونابرت هزمـه الإنجليـز فى «واترلو»، ولكن الله وقف إلى جـانب «الدكتـور مـصطفى الديوانى» فى مـعـركتـه مع فـيروس شلل الأطفـال . يقـول الديوانى : كـان الله دائمـا إلى جـانبى، لم يخـذلنى أبدا لأنه جل جلاله يعـرف كم أحببته وكم عبدته، كم أخلصت لتعـاليمه التى أنزلها فى كتبه السمـاوية، لم أعرف السيجارة أو السينما أو الخمر أو القمار طوال حياتى ثم يقـول : (شاهدت فى أحد معابد المصريين القدماء صورة منقوشة تمثل كاهنا اسمه «رومة» عاش فى أيام الأسرة الثـامنة عشـرة ـ أى منذ ١٥٠٠ سنة قبل الميلاد ـ وقد بدا واضـحـا من سـاقه اليـمنى الضـامرة المشوهة أنه قد أصيب فى طفولته بمرض شلل الأطفال، ويظهر أن جرثومة الشلل كمنت منذ ذلك التاريخ فى أجسام أطفال بلادنا) .

وجعلته العزيزة «راندة» يهب كل جهوده ضد فيروس شلل الأطفال : (أشد ما يعـصـر قلبى . . العـزيزة «راندة» التى لم تكد تتم الشـهـر التـاسع من عـمـرها وقـد أحضـروها على عجل من دمياط . . وخيل إلى أنها تنظر فى امتنان قـاتل . . وأنا أنقلها بيدى بعد منتصف الليل بقليل إلى الرئة الصناعية بمعهد الشلل . . لقد ظلت عيناها مصوبتين نحوى كأنها تودعنى . . وقضت المسكينة إلى ربها بعد ساعات» .

نحـن وهـم والشـلل:

كنت أزور مدينة براغ عـاصـمة تشيكوسلوفاكيا ـ الديوانى هو الذى يتكلم ـ فى شهـر أغسطس عام ١٩٦٣، وتعـجبت عندما أخبرنى صديقى الأستاذ «هوستك» رئيس قسم الأطفال أن مرض شلل الأطفال قد اختفى تماما من تشيكوسلوفاكيا، وفى بريطانيا تسبب ظهور إصابتين «٢» فى مشكلة قومية فى عـام «١٩٦٤» وجرت بسببها تحقيقات عديدة لتلافى هذا مستقبلا، وفى الولايات المتحدة كان ظهور «٢٥» حالة موضع استغراب وأسى!

أمـا هنا ـ عندنا فى مصر ـ كانت المعركة مع فيروس شلل الأطفال شرسة وقـاسية والسلبـيـات كثـيـرة . . «فوزارة الصـحـة تعـمـم التطعيم ويقـبل أفـراد على الجرعـة الأولى، ثـم يأخذ عـددهم فى النقصان حتى يصل إلى الثلث عند الجرعـة الثـالثة . وتطفح المجارى وتمتلىء الشوارع بالمواد البرازية وهى السم الزعاف» .

وخلال عام ١٩٣٩م لم يتردد على العيادة الخارجية المكتظة أكثر من ٣٩ حالة شلل أطفال، ثم جاءت الحرب العالمية الثانية «٣٩ـ١٩٤٥» وامتلأت البلاد بجنود كثيرين حاملى جرثومة هذا الشلل، وخاصة الأمريكان منهم، اشتدت حدة الوباء فى القاهرة فبلغ عدد الإصابات بمعهد شلل الأطفال التابع لجامعة القاهرة والذى يديره د. الديوانى ـ ١٤٧٦ حالة عام ١٩٥٧ و٢٥٤٨ حالة عام ١٩٥٨ و٢٤٤٣ حالة عام ١٩٦٠، وأدخل الدكتور الديوانى أسلوب التطعيم عن طريق الفم، «طعم سايين» وهبط الرقم إلى «١٣٧١» عام ١٩٦٢م وبدأ الرقم يهبط تدريجيا.

وقد خصص «د. الديوانى» جانبًا مهما من رحلاته إلى الخارج للزيارات الدينية والطبية.

فى صيف عام ١٩٥٧ سافر إلى جنيف لحضور مؤتمر شلل الأطفال الدولى الرابع.

وكعادته فى المؤتمرات التى يشارك فيها يزور المستشفيات ويقف على أحدث الأدوية لعلاج هذا المرض المتأصل فى مصر منذ أيام الفراعنة، وتعرف على «الدكتور سايين» العظيم صاحب «الطعم» الذى عرف باسمه «سايين» وهو طعم عن طريق الفم، ثم ظهر دواء «كوتس» ودواء «كوبرفسكى» وكان نشاط «سايين فى كوبنهاجن، ونشاط «كوتس» فى معامل «ليدرل» و«كوبر وفسكى» فى فلادفيا، وقد جمع الاتحاد السوفيتى هذه الأدوية الثلاثة فى علاج مرض شلل الأطفال، كانت له رحلة سنوية إلى أوروبا وأمريكا.

الرحلات الدينية:

ولم يحل وجوده بأوروبا وأمريكا دون مواظبته على الصلاة، (وكانت زيارة أراضى الحجاز المقدسة من أبدع أمنيات حياتى، وقد سعدت بهذه الزيارة أعوام ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٤. وما كاد يستقر بى المقام ساعة أو أقل حتى دعانى الهاتف الأزلى أن قم وأد واجب الطواف حول الكعبة والسعى بين ربوتى الصفا والمروة، وسعيت سبع مرات بين الصفا والمروة مرتلا مختلف الأدعية، وفى الروضة الشريفة

كان يغمرنى خليط من الخشوع والحب والتدلة فقير محمد وصاحبيه الفاروق عمر والصديق، أبو بكر على يسارى ومنبر الرسول إلى يمينى، والقبلة أمامى».

وفى أغسطس عام ١٩٦٤م أحسنت الدولة صنعًا بسماحها لستين عالمًا مصريًا بالسفر إلى القدس لحضور مؤتمر اتحاد الأطباء العرب الذى عقد فى القدس، وكان لى شرف التبرك بزيارة مسجد الصخرة بعد ترميمه، ويقع المسجد الأقصى فى الجهة الجنوبية للحرم الشريف، ومن مميزات منبر المسجد الأقصى أنه ليس فيه مسمار واحد، وقد كان لى شرف التبرك فى تأدية صلاة الظهر بجواره عندما أذن الإمام خلال زيارتنا له.

وقيل أن يقودنا المرشد «محمد هاشم» إلى طريق الآلام وكنيسة القيامة مررنا على جدار المبكى الذى كان اليهود يبكون عنده وهو جزء من جدار المسجد الأقصى، وأصبح مزارا للسائحين، وكانت مفاتيح كنيسة القيامة قد سلمت إلى المسلمين منذ أيام «صلاح الدين» حتى لا يقع من أتباع المسيحية شئ من التناحر وبقى الوضع كما هو حتى يومنا هذا.

واقترح علينا تلميذى «حكم توفيق أبو زهرة» أن نزور مدينتى الخليل وبيت لحم، وفى الأولى الحرم الإبراهيمى وفى الثانية كنيسة، ووصلنا بيت لحم حيث ولد السيد المسيح وزرنا كاتدرائية الميلاد.

من وحى كربلاء:

زرت بغداد عام ١٩٦٢ بمناسبة انعقاد المؤتمر الطبى العربى، واستلفت نظرى برنامج أسموه «زيارة العتبات»، ويشمل مسجد الحسين بن على، ومسجد أخيه العباس بكربلاء، ومسجد الإمام على بالنجف، ومنزله ومكان مقتله بالكوفة، وصلت مدينة كربلاء وما كدت أستنشق عبيرها حتى تخيلته لا يزال ممتزجا بدم الحسين ومن معه من الشهداء، ودخلت المسجد حيث مرقد «العباس بن على» شقيق الحسين فدخلت لأقرأ الفاتحة على روحه وجلست بجانب المقام خاشعا، وما كدت أصل إلى مرقد الحسين حتى أحسست بالرهبة واقتربت من قبره الطاهر

وجلست متربعا بعد أن صليت ركعتين. والواقع أن معركة كربلاء قد قضت فى بضعة أيام على معظم ذرية الإمام على.

كما زار عام ١٩٦٢ قبر «على خان» حسب وصيته، ومر على مكان مصرعه فى «سان كلو» من ضواحى باريس وقرأ الفاتحة على روحه.

نابليون والطبيب الأديب:

كان «نابليون بونابرت» حلم صباه وقرأ كل ما يكتب عنه وفرح لانتصاراته وحزن لهزيمته، وكتب عنه قصة بعنوان «السر المكنون» ونشرتها له مجلة «الدنيم الروائى» التى كانت تصدر عن مؤسسة «المقطم والمقتطف» ويرأس تحريرها «إسحق صروف» وتقع إدارتها ومطبعتها فى شارع الترجمان رقم ٤ المتفرح من شارع محمد على - العتبة الخضراء، ومكتوب تحت لافتة المجلة «النديم الروائى» يصدر يوم الأحد من كل أسبوع، ثمن النسخة ٥ مليمات، وعلى صفحات هذه المجلة ظهر أدباءشبان سليمان حزين، وعادل الغضبان، واللواء عبدالرحمن زكى، وعبدالرحيم طه، والشافعى البنا، وكامل البنا.

بدأ الديوانى يسهم فى تحرير المجلة وهو طالب فى السنة الثانية الثانوية، وذلك عن طريق المراسلة، كان طابع البريد من فئة ٥ مليمات يكفيه مشقة الذهاب والإياب والمواجهة، وفى السنة الثالثة الثانوية كتب قصة مسلسل تخيل وقوع فئة أثناء حملة نابليون بونابرت على مصر، وأرسلها فى مظروف وكلفته طوابع البريد المسجل ما أرهق ميزانيته المتواضعة وفوجئ بإعلان فى جريدة «المقطم المسائية» بأنها ستبدأ نشر سلسلة من روائع الكاتب الألمعى الشهير «مصطفى أفندى الديوانى»! كان ذلك عام ١٩٢٢.

وظهرت ٦ حلقات من «السر المكنون» والتى نشرها فيما بعد فى كتابه «رحلات العمر» دون أن يغير منها حرفا.

وتوقف عن الكتابة تماما بعد أن دخل كلية الطب «مدرسة الطب» عام ١٩٢٣م،

وبعد بضع سنوات قرأ وهو طالب فى كلية الطب عن وفاة «إسحق صروف» (فطفر الدمع من عينى إذ كان مهذبا رقيق الحاشية) ومضت سنوات . . ونابليون بونابرت وراءه، وعام ١٩٤٣ ذهب يصطاف فى رأس البر وكان «الشيخ أحمد أمين» رئيس تحرير «مجلة الثقافة» هناك، وأخذ «الديوانى» يترجم كتابا عن «حياة نابليون بونابرت»، ويقدم الحلقات لأحمد أمين الذى سر بها وكان يرسلها أولا بأول لتنشر فى مجلة الثقافة.

وهكذا بدأت هواية الكتابة عنده على صفحات جريدة المقطم عن نابليون وحياته، وبعد أن عمل مدرسا بكلية الطب عام ١٩٣٦ عرف طريق مجلة «الثقافة»، وكان «أحمد أمين» يشجعه ثم بدأ ينشر كتبه . . «حياة الطفل» الذى أعيدت طباعته عشر مرات. ثم رحلات العمر وحديث فى الطب و(نابليون على فراش الموت).

الحزن يصنع الطبيب والأديب:

يتحدث «الديوانى» عن والده ووالدته وإخوته حديثا يتقاطر فى حواشيه ما يشبه التقديس، حتى الحى الذى نشأ فيه قادته قدماه إليه ودفعه الحنين إلى تلمس جدران المنزل الذى كانو يقطنون فيه، وتذكر والدته التى رأى دموعها الأولى فى عام ١٩١٧ وهو بعد فى الحادية عشرة من عمره «ولد مصطفى صلاح الدين الديوانى فى ١٩ يناير عام ١٩٠٦»، انطلقت صرختها مدوية ذات صباح مشئوم ورأى أمه وقد تجللت بالسواد، لقد أصيبت أخته الكبرى بمرض التيفود ورحلت إلى بارئها. وعام ١٩٢٢م أطلقت والدته صرختها الكبرى معلنة انتصار الموت على الوالد ورب الأسرة، وجاء عام ١٩٤٥ وتمطى الموت وتثاءب فنكبت الأسرة فى ولدها «محمود» وهو فى قمة مجده وكان محاميا ناجحا، وعام ١٩٤٣ نكب «الديوانى» فى أخيه الأكبر «عبدالمنعم» وبعد عام ١٩٥٠ رحلت الأخت الحبيبة والوحيدة «زهيرة»، ثم رحلت الأم الحزينة المهمومة، «هذه السيدة الجليلة» بعد أن فقدت الزوج ومحمود وعبدالمنعم وزهيرة.

ذهبى الشعر:

ولد «مصطفى صلاح الدين الديوانى» الذى اشتهر باسم «الدكتور مصطفى الديوانى» فى ١٩ يناير عام ١٩٠٦ ، وكان فى طفولته «ذهبى الشعر» - الفتحة على الشين وليست الكسرة - كما أخطأ صديقه الحميم «محمد عبدالوهاب» فى إحدى أغانيه ، تلقى دروسه الابتدائية فى مدرسة عباس بالسبتية منذ عام ١٩١٤ ، وكانت المدرسة تبعد عن منزلهم بشارع ابن الرشيد بجزيرة بدران فيركب العربة ذات الجوادين ويسوقها «الأسطى رفاعى» ، وعام ١٩١٩ اندلعت ثورة «سعد زغلول» ، واقتحمت المدرسة مظاهرة يتزعمها طالب الحقوق «رياض شمس» - الذى عرف فيما بعد بالدكتور رياض شمس القانونى الضليع والوفدى الصميم - وفى اليوم الذى اعتدى فيه «عريان يوسف سعد» على رئيس الوزراء «يوسف وهبة باشا» قبض البوليس على شقيق ذهبى الشعر «عبدالمنعم» طالب الطب ، التحق بالمدرسة التوفيقية فى أكتوبر عام ١٩١٩ - يونيو عام ١٩٢٣ ، وبدأ دراسة الطب عام ١٩٢٣ ، وبدأت زمالته وصداقته المخلصة مع زميله «بول غليونجى» وتخرجا عام ١٩٢٩م ، وقضى فترة التمرين فى مستشفى الانكلستوما بطنطا ، وكان مدير المستشفى «الدكتور صبحى حنا» نعم المعلم ونعم رئيس العمل ، ثم أصبح «حكيمباشى» مستشفى الانكلستوما فى قويسنا ، وبعدها تولى وظيفة نائب قسم الأطفال بقصر العينى ، وسافر إلى لندن للتخصص عام ١٩٣٤ ، وعاد من انجلترا فى شهر نوفمبر عام ١٩٣٦م ، وتزوج عام ١٩٣٧ من كريمة «محمد نبيه سعيد الشيخ» . وبدأت حياة «مصطفى الديوانى» طبيبا ينازل «فيروس شلل الأطفال» فى معركة شرسة وأديبا بأسلوب حلو جذاب وصديقا وفيا لكل من عرفهم حتى رحل إلى رحاب الله فى ٢٨ ديسمبر عام ١٩٩٣م .

الأســانيد:

* الدكتور مصطفى الديوانى - قصة حياتى - حديث فى الطب .
* رحلات العمر .
* نابليون على فراش الموت .

محمـــود مختـــــار



«مختار» جبار الجرانيت ابن بلدة «فشا - قرية طنبارة - إحدى قرى المحلة الكبرى - فى قلب الريف المصرى» سافر إلى مدينة النور والفن والجمال واللهو «باريس» عام ١٩١١ حتى عام العودة ١٩٢٠م. فترة ليست قصيرة يقطعها الشوق إلى مصر فى زيارة خاطفة قبيل الحرب العالمية الأولى عام «١٩١٤» وكانت مصريته فى أوروبا طاغية ولم يزده سحر باريس إلا إيمانًا بعظمة بلاده.

وهناك فى باريس - فى تلك الفترة - كان جيل من أبناء مصر ينهلون من المعرفة ويصنعون لمصر بعض أمجادها . . «طه حسين» رغم ظروفه يهز أروقة السوربون برسالته عن ابن خلدون وفلسفته الاجتماعية سابقًا «دور كايم» وغيره من أساتذة علم الاجتماع، والشيخ «مصطفى عبد الرازق» يعد رسالته عن الإمام الشافعى ويحاضر فى الفلسفة الإسلامية بجامعة ليون، ويعود إلى مصر ليرسى قواعد الفلسفة الإسلامية فى الجامعة ويختار شيخًا للجامع الأزهر. وهناك كتب ابن الدقهلية «محمد حسين هيكل» روايته الرائدة «زينب» والتى كان ينشرها فى مصر بتوقيع «فلاح» . . وهناك أيضًا «محمد صبرى» الذى عرف باسم «الدكتور صبرى السوربونى» وأخذ يكتب تاريخ مصر وثورتها. وبسبب صراع شخصى بينه وبين وزير المعارف منعوا عنه درجة «مدير عام» لدار الكتب.

وكان هناك «مختار» ينحت تماثيل «خالد بن الوليد وطارق بن زياد وعلى بن أبى طالب» وتمثال «عايدة» الذى استوحاه من أوبرا «فيردى» . . وغيرها وغيرها . .

واختاروه مديراً لمتحف «جريفان»، وتلقت مصر هذا الخبر مزهوة لتقدير النبوغ المصرى. وفى أحد الاحتفالات ألبسوه تاج الفراعنة على رأسه وطافوا به فى شوارع باريس مكتوبًا على التاج «رمسيس الثانى».

كان الحس السياسى والوطنى والاجتماعى موجوداً بقوة فى أعمال مختار. واستوعب التراث المصرى القديم، وفهم القيم الصحيحة لفن النحت إلى جانب القيم الأكاديمية. وتمتع بقدر عال من الخيال والشخصية التعبيرية، والقدرة على تحليل الشكل الفنى وتركيبه وفق قوانين الهندسة الداخلية للبناء التشكيلى. ولم يجعل البعد السياسى على حساب المستوى الفنى. وهذه القيم تضمنها مشروع «النهضة» لدى مختار.

وهو فى باريس استطاع أن يصنع لبلاده، وهو بعيد عنها رمزاً لنهضتها، لقد صاغ فكرته عن «تمثال نهضة مصر» فقال عنه أستاذه «لابلانى» فى مدرسة الفنون الجميلة بالقاهرة وكان يقضى إجازته فى أوروبا: «إن مختار سيكون فخراً لمصر بل فخراً للعالم». وكانت فكرة التمثال تعبيراً عن اليقظة التى بدأت فى بلاده. . الفلاحة المصرية أم الأجيال التى أقامت حضارة مصر وأبو الهول رمز الحضارة المصرية القديمة» . . وكان يزمع أن يقدم نموذج تمثاله هذا فى المعرض الكبير المزمع إقامته فى باريس. وكان «سعد زغلول» هناك يرأس وفد الدعوة لقضية مصر. وشهد رجال الوفد أعمال مختار فى متحف «جريفان» وتمثال النهضة، وأدركوا أن هذا الفنان يجب أن يحتل مكانه اللائق فى بلاده. وكان «ويصا واصف» عضو الوفد فى باريس أكثر أعضاء الوفد ملازمة لمختار ومتابعة أعماله، ويبدو أنه كان صلة الوصل بين مختار والزعيم «سعد زغلول». وأقام الوفد حفل تكريم لمختار حضره جميع أعضاء الوفد وأعضاء الجماعة المصرية فى باريس.

وانتقلت أخبار «تمثال النهضة» إلى مصر. ووضع «أمين الرافعى» رئيس تحرير جريدة «الأخبار» الجريدة تحت تصرف الدعاة لتمثال نهضة مصر، فكتب «محيى الدين حفنى ناصف وحافظ عفيفى وواصف غالى وويصا واصف وأمين الرافعى» نداء إلى الأمة للاكتتاب لإقامة تمثال نهضتها وقدموا «مختار» للأمة. وانطلق اسم «محمود مختار» سريعًا بين الجماهير واعتبروه بطلاً قوميًا. وأقيم احتفال بالقاهرة

واحتفال بالإسكندرية، وبدأت حركة الاكتتاب وأخذت الأقاليم وأفراد الشعب يتنافسون في مجال التبرع. وتوالت مقالات الكتاب وقصائد الشعراء.

مسيرة التمثال:

وتشكلت لجنة التمثال برئاسة «حسين رشدي باشا» . . الذى كان رئيسًا للوزراء في عدة وزارات، وعضوية «واصف غالي وويصا واصف وحافظ عفيفي وأمين الرافعي، ومحمد محمود خليل وعبد الخالق مدكور وفؤاد سلطان وعبد القوى أحمد». ووقعت أول أزمة للتمثال في وزارة «عدلي يكن باشا» الأولى «١٦ مارس - ٢٤ ديسمبر عام ١٩٢١». وعلى الرغم من اهتمام «عدلي يكن» بالتمثال إلا أن وزارة الأشغال التى رأت أن التمثال يقع فى اختصاصها طلبت من «محمود مختار» شهادة بحسن السير والسلوك . . وهنا ظهرت شخصية «مختار» الذى يحترم فنه ويعرف قيمة الفن في المجتمع كتب رسالة إلى «عدلي يكن» يقول فيها: «كنت أرى دائمًا يا صاحب الدولة أن إشراف الإدارة الحكومية في الحالة الراهنة على شئون الفن ليس فقط عديم الفائدة ولكنه ضار. أليس مضحكًا ومثيرًا في الوقت نفسه وصاية وزارة الأشغال على الفنون الجميلة. وجاء في رده على طلب وزارة الأشغال له بتقديم شهادة حسن سير وسلوك «لقد طلب منى أن أقدم شهادة حسن سير وسلوك، ولما كنت سيىء السلوك والخلق وقضيت في السجن خمسة عشر يومًا وأننى أعزب فأنا في استحالة مطلقة من أن أقدم الشهادة وقضى على ألا أكون أبدًا موظفًا حكوميًا». واهتم «عدلي يكن» بالرسالة وزار مختار في موقع التمثال.

وكان الأهالى قد جمعوا ٦٥٠٠ جنيه «ستة آلاف وخمسمائة» وتبرعت مصلحة السكك الحديدية بنقل الأحجار من أسوان إلى القاهرة . . وخصصت وزارة «عبدالخالق ثروت الأولى» «أول مارس - ٢٩ نوفمبر عام ١٩٢٢» مبلغ ٣٠٠٠ جنيه «ثلاثة آلاف جنيه» . . ثم تعثر العمل في التمثال وأوقع «أولاد الحرام» بين مختار و«الأمير يوسف كمال» فأفسدوا العلاقة القوية بينهما . . وظل الأمر على هذه الحال إلى أن جاء «سعد زغلول» رئيسًا للوزارة الشعبية ووقف «ويصا واصف» في برلمان الشعب يدافع عن تمثال النهضة ويدعو الحكومة إلى تخصيص الاعتماد اللازم

لاستكماله، فأعلن «سعد زغلول» رئيس الوزارة الشعبية الأولى «يناير ـ نوفمبر عام ١٩٢٤» أن حكومة النهضة يجب أن تتكفل بتمثال النهضة. ووضع «المهندس عثمان محرم» بتكليف من «سعد زغلول» تفاصيل المشروع. وصدر قرار من وزير المعارف بوزارة «سعد زغلول» محمد سعيد باشا بتشكيل لجنة سميت «لجنة الفنون الجميلة» ضمت إلى عضويتها «محمود مختار» لمدة ثلاث سنوات، وقررت اللجنة الاهتمام بشئون البعثات الفنية واعتماد ميزانية للفنون الجميلة والعناية بتنظيم الدراسات الفنية فى مصر وتنظيم مدرسة الفنون الجميلة وإنشاء مصنع فى أسوان لتعليم فن قطع الجرانيت ونحت التماثيل.

وتعثر المشروع بعد استقالة «سعد باشا» من رئاسة الوزارة فى «نوفمبر عام ١٩٢٤»، وظل على هذه الحال إلى أن جاءت وزارة «عدلى يكن الثانية» «٧ يونية ١٩٢٦ ـ ٢١ أبريل عام ١٩٢٧». وكان «عدلى» رئيسًا للوزارة و«سعد» رئيسًا لمجلس النواب، و«رشدى» رئيسًا لمجلس الشيوخ .. ووقف «ويصا واصف» فى البرلمان يدافع عن «التمثال» وقرر البرلمان إجراء تحقيق فى تعثر المشروع .. واعتمد البرلمان المبالغ اللازمة لإتمام التمثال، وتعاقدت الحكومة على إنجازه فى ١٣ شهراً.

وأزيح الستار عن التمثال:

وفى أولى وزارات الائتلاف الوفدية «٧ يونيو عام ١٩٢٦ ـ ٢١ أبريل عام ١٩٢٧»، وكانت هى الوزارة الثانية لعدلى يكن وشارك فيها من الوفد: محمد فتح الله بركات للزراعة، ومرقص حنا باشا للمالية، ومحمد نجيب الغرابلى باشا للأوقاف وعلى الشمسى أفندى للمعارف، وعثمان محرم بك للأشغال. وفى عهد تلك الوزارة حظيت ساحة التمثال بزيارات من «سعد زغلول» وعدلى يكن وحسين رشدى، وعبد الخالق ثروت» وعدد من أظهر شخصيات الدولة وهم جميعًا يقدرون عمل مختار ويعجبون بحماسه. وأصدر وزير المعارف «على الشمسى» قراراً بإنشاء مكتبة خاصة بوزارة المعارف تطور إلى مراقبة عامة للفنون الجميلة. وأعطيت صلاحيات للجنة الفنون الجميلة ومختار عضو بها .. وانفصلت مراقبة

الفنون الجميلة عن مراقبة التعليم الصناعى . تم إنشاء «المدرسة التحضيرية للفنون الجميلة والزخرفية» .

وتقدم «مختار» لوزير المعارف «على الشمسى» بمشروع لإنشاء «مجلس أعلى للفنون برئاسة وزير المعارف» للإشراف على الحركة الفنية ورسم الاتجاهات الأساسية لها ، والاهتمام بدراسة الفنون وتاريخ مصر القديمة وعلم الجمال وفلسفة الفنون والعناية بمدرسى الرسم فى المدارس وإنشاء معهد للموسيقى على أسس سليمة .

واستقبل الملك فؤاد «الفنان مختار» الذى قدم له تمثال «امرأة القاهرة» وفى عهد وزارة «مصطفى النحاس باشا الأولى ١٩ مارس - ٢٥ نوفمبر عام ١٩٢٨» انتهى العمل فى التمثال وأقيم فى ميدان باب الحديد «رمسيس حاليًا» وأزاح الملك فؤاد الستار عن التمثال فى ٢٠ مايو عام ١٩٢٨ ، وألقى رئيس الوزراء «مصطفى النحاس باشا» خطاب الدولة ، وألقى أمير الشعراء «أحمد شوقى» قصيدته :

من يبلغ الكرنك الأقصرى ... ويبنى طيبة أطلالها

ويسمع ثم بوادى الملوك ... ملوك الديار وأقيالها

لقد بعث الله عهد الفنون ... وأخرجت الأرض مثالها

والتقى الاحتفال الرسمى بالحماس الشعبى فجعل من إزاحة الستار يومًا قوميا .

تمثال سعد زغلول:

وإذا كان تمثال «نهضة مصر» قد أهمل فى بعض العهود إلى أن أعطاه «سعد زغلول» دفعة مهمة فى عهد وزارته الشعبية ، وتم استكمال العمل فى التمثال وإزاحة الستار عنه فى عهد «مصطفى النحاس باشا - وزارته الأولى ١٦ مارس - ٢٥ نوفمبر عام ١٩٢٨» فإن العمل فى تمثالى سعد زغلول فى القاهرة والإسكندرية قد حورب بشكل مكشوف .

وفى عهد حكومة مصطفى النحاس باشا الثانية «أول يناير عام ١٩٣٠ - ١٥ يونية عام ١٩٣٠» تم التعاقد بين الحكومة وبين «محمود مختار» على إقامة تمثالين لزعيم الأمة «سعد زغلول» تمثال فى القاهرة وتمثال فى الإسكندرية . كان «مختار» فى ذلك

الشهر بباريس. وكان أربعون تمثالا من أعماله تتألق فى قاعة «برنهيم» بشارع «سانت هوندريه» وحولها حشد من رجال الفن والأدب ومن رجال السياسة والمجتمع. وصدر كتيب يعرف بالفنان المصرى وبأعماله المعروضة. وعندما دعته بلاده للتعاقد على إقامة تمثالين لزعيم الأمة «سعد زغلول» ترك كل شيء وحضر على الفور لأن إقامة التمثالين كانت أمنية لمختار بعد رحيل «سعد زغلول» فى أغسطس عام ١٩٢٧ غير أن التقلبات السياسية فى مصر حالت دون تنفيذ الفكرة وقت ذاك.

ولأن «مختار» مصرى صميم المصرية ينتسب إلى أقوى الأصول وينحدر من قومية صحيحة ناصعة.. حضر إلى مصر فوراً تاركاً كل هذا التمجيد فى الخارج.

ووضع «مختار» تصوراً لتمثال «سعد» فى القاهرة.. يطل على النيل وتلوح من مطلع الطريق إيماءة يده كأنها إشارة البعث والانتصار.. وحوله صور من حياة الشعب والقيم، التى كرس لها جهاده «العدالة والدستور». وفى مقدمة التمثال «تحية للزعيم» تتمثل فى مصر تحمل رمزى الشمال والجنوب ولوحة لمديريات القطر وقد أقبلت تؤدى تحية الإجلال والوفاء.

وتصور «مختار» تمثال سعد فى الإسكندرية رمزاً لتحطيم القيود وجعل من انقباض يده وصرامة ملامحه، ومن العزم الأكيد الذى يبدو فى خطوته رمزاً لتجمع إرادة الأمة ولعزيمتها التى هبت تحطم الأغلال.

ويمضى «مختار» إلى وادى الجرانيت فى أسوان فى جمع من عمال الصعيد لينتقى الأحجار. وحين كان مندفعًا فى تيار الحماسة والعمل بين القاهرة والإسكندرية تغير الاتجاه السياسى فى مصر وجاءت حكومة «إسماعيل صدقى» وساومته على عدم إقامة التمثالين ولاموه لمجرد تفكيره فى التمثالين وعرضوا عليه المال والمناصب ولكنه أعرض عن المغريات جميعها ومضى يتنقل بين الإسكندرية والقاهرة وأسوان. وتدخلت الحكومة بشكل سافر وحاولت أن تجمع الأحجار من أسوان وأن تمنع نقل ما تم إعداده منها إلى القاهرة أو إلى أسوان.. وظل فى هذه المتاعب من «١٩ يونيو عام ١٩٣٠ - ٤ يناير عام ١٩٣٣» فترة حكم إسماعيل صدقى. ولكن المعاونين له والعمال بدافع وطنى تحدوا إرادة حكومة صدقى وتم استكمال التمثالين.

كيف عاش:

عاش «مختار» أغلب أطوار حياته وحظه من المال قليل. لم يحرص على متاع فى الدنيا من مال أو زواج حرصه على خدمة فنه وأداء رسالته. ولد فى ١٠ مايو من عام ١٨٩١. ووالده «الشيخ إبراهيم العيسوى» وأمه إحدى بنات «البدراوى أبو أحمد». وأصول الأسرة تمتد إلى الخليفة الراشد «على بن أبى طالب»، وفى البيت كان يستمع إلى قصة أجداده، ويقضى طفولته على ضفة الترعة تحت شجرة الجميز. يصنع من الطين خيولاً وفرسانًا وجوارى. ثم يحمل التماثيل إلى الفرن فى البيت فيجففها. وألحقوه بالكتاب ولكنه كان يهرب إلى شاطىء الترعة يتابع هوايته. وأقامت الأسرة فى القاهرة وتعددت الإقامة بين حوش الشرقاوى والحنفى وعابدين. وكان أقرانه يطلقون عليه . . «العمدة».

وعندما أسس «الأمير يوسف كمال» مدرسة الفنون الجميلة بدرب الجماميز فى ١٣ مايو عام ١٩٠٨» كان «محمود مختار» فى السابعة عشرة من عمره. فذهب «مختار» وقابل ناظر المدرسة ووافق على قبوله فى عداد تلاميذ المدرسة.

وفى إحدى المظاهرات انقض على حكمدار القاهرة الإنجليزى وجذبه من على حصانه فهوى إلى الأرض. قبض عليه وأودع السجن ثم أفرج عنه بعد ١٥ يومًا. وعاد إلى المدرسة يقود الطلاب إلى الحركة الوطنية وفصلوه من المدرسة ومعه زميلاه «يوسف كامل» و«محمد حسن». وعام ١٩١٠م اشترك فى معرض لأعمال طلبة مدرسة الفنون الجميلة بكلوب محمد على بشارع المدابغ ولقيت أعمال مختار كل إعجاب وتقدير. وبعث به «الأمير يوسف كمال» إلى باريس لإتمام دراسته هناك، ثم هفه الشوق إلى مصر فعاد إليها فترة قصيرة وسافر إلى باريس، وكانت الحرب العالمية الأولى «١٩١٤ - ١٩١٨» قد فرقت الصحاب واضطر إلى العمل فى مصانع الذخيرة يعمل عشر ساعات ليلاً فى إعداد القنابل وحمل الذخائر.

معركة النهاية:

وبدأ المرض يناوش جبار الجرانيت منذ عام ١٩٣١ . . واستقبل العام التالى وقد صار هشيمًا. فيهجر فرنسا إلى مصر يلتمس الدفء لجسده المكدود . . وبعدها

استعاد شيئًا من صحته فانطلق مرة أخرى إلى باريس وكأنه أراد أن يودع باريس ويودع الصحاب هناك. وفى يوليو عام ١٩٣٣، أجريت له جراحة أضنته وانتشرت بعدها سموم الجرح فى جسده. وأعانته إرادة الحياة على الانتصار وخيل إليه أنه خلص تمامًا من أمراضه. ولكن آلام الوجيعة عاودته.

ولم يجد الأطباء إلا أن ينصحوه بالعودة إلى وطنه عله يجد فى تربته الشفاء. ودع أصدقاءه وألقى نظرة حزينة على مرسمه. وكانت رحلة أسوأ رحلات حياته. وعندما اقتربت الباخرة من الإسكندرية لمعت فى ذهنه فكرة جديدة. أن يصنع تمثالاً للإسكندر الأكبر يضعه فى مدخل الإسكندرية. وكان فى انتظاره صديقه الفنان «محمود سعيد»، وفى الصباح مضى به القطار إلى القاهرة واستقر كعادته بفندق «الكونتيننتال». ثم استأجر منزلاً بهليوبوليس على مقربة من الصحراء التماسًا للشمس. وفى زيارة من بعض أصدقائه حدثهم عن اعتزامه السفر إلى برلين ليقدم الفن المصرى للشعب الألمانى، ولكن العلة اشتدت ونقلوه إلى المستشفى. وكان يحيى زواره بكلمة «الوداع».

وفى ٢٧ مارس عام ١٩٣٤ خرجت القاهرة تودع «محمود مختار» وسار النعش من المستشفى وعلى مقربة من تمثال «نهضة مصر» توقف المشيعون قليلاً بجثمان «مختار».. وتكونت «جماعة أصدقاء مختار» من «هدى شعراوى والشيخ مصطفى عبد الرازق والدكتور على إبراهيم وحافظ عفيفى وعلى الشمسى، وعثمان محرم، وعلى ماهر، وبهى الدين بركات، ود. طه حسين وخليل مطران وأحمد راسم» وجميع هؤلاء الأصدقاء رحلوا إلى رحاب الله .. رحم الله الجميع.

الأسـانيد:

١ - بدر الدين أبو غازى .. مختار.

٢ - صبرى أبو المجد .. أمين الرافعى.

٣ - عز الدين نجيب .. التوجه الاجتماعى للفنان المصرى المعاصر.

٤ - محمد كامل سليم .. سعد فى أوروبا.

الدكتور مهـــدى عـــلام



بعيدًا عن تزكية النفس ومشهدًا ربه تعالى على تحرى الصدق . . عرض علينا «الدكتور محمد مهدى» قصته مع ثورة ١٩١٩م . إبان ثورة ١٩١٩م تكونت «لجنة المدارس العليا» التى كانت تعمل فى سرية تامة لتغذية الروح الوطنية فى الشعب، وكانت على اتصال سرى بالمرحوم عبد الرحمن فهمى . وكانت اللجنة تتلقى توجيهات «الرئيس سعد زغلول» وهو فى باريس مع سائر أعضاء الوفد - عن طريق «عبد الرحمن فهمى» . . وكانت هذه اللجنة تعد المنشورات السرية وتكتبها وتطبعها وتسلمها لأجهزة خاصة لتوزيعها فى أنحاء البلاد . وللتاريخ ذكر «الدكتور مهدى علام» أسماء هؤلاء الأعضاء : مدرسة المهندسخانة «المرحوم عبد العزيز عز العرب مدير بلدية القاهرة الأسبق، مدرسة الحقوق المرحوم إبراهيم عبد الهادى رئيس الوزراء الأسبق ومعه المرحوم حسين إدريس المستشار بمحكمة الاستئناف العالى، مدرسة التجارة العليا محمد سكر الذى لم تطل مدته وانقطع عن اللجنة ثم توفى، مدرسة الطب المرحومان إبراهيم خليل وحلمى الجيار، وأصبحا طبيبين معروفين، مدرسة الطب البيطرى المرحوم حافظ شرف الدين كبير الأطباء البيطريين سابقًا . «مدرسة الصيدلة» المرحوم حسين النحاس صاحب صيدلية ابن النيل سابقًا . مدرسة المعلمين السلطانية المرحوم محمود عوضين طه من كبار رجال التربية، مدرسة القضاء الشرعى، محمد عبد الرحمن الجويلى وكيل الوزارة للشئون الإسلامية بمجلس الوزراء والشيخ أمين الخولى وكيل كلية الآداب الأسبق . ومدرسة دار العلوم مهدى علام الذى نكتب عنه هذه الحلقة .

عبد الرحمن فهمى مهندس الأعمال السرية فى ثورة ١٩١٩م. . وهو ابن عم «على وأحمد ماهر» . . وكان مقر نشاطه منزل الأسرة ١٠٤ شارع قصر العينى «مقر دار الأدباء حاليا» . وإلى يسار الداخل باب صغير أسفل المبنى يؤدى إلى طابق سفلى «البدروم» . واختار «عبد الرحمن فهمى» اثنين من أعضاء «لجنة المدارس العليا» . . مهدى علام من مدرسة دار العلوم، وعبد العزيز عز العرب من مدرسة المهندسخانة لكتابة المنشورات الثورية السرية والإشراف على طباعتها وتسليمها لجهاز التوزيع، والعمل بين مهدى وعبد العزيز بالتناوب. ومن عليه الدور يذهب إلى مقابلة «عبد الرحمن فهمى» متخفيًا فى ثياب بائع جرايد ليعرض عليه صيغة المنشور ويتلقى تعليماته وتوجيهاته. وكان يصلح من المنشور الواحد «١٥٠» ألف نسخة، وكان أصحاب المطابع وطنيين لا يتقاضون من «مهدى أو عز العرب» سوى ثمن الورق. وحتى يتجنبوا المتاعب أحضر «عبد الرحمن فهمى» مطبعة يدوية أخذها عم «أحمد حجازى» أحد معاونى «عبد الرحمن فهمى» إلى بيته ليعمل عليها أعماله الطباعية الخاصة ويقوم بطباعة المنشورات السرية بالتعاون مع «مهدى وعز العرب» .

ويجدر بالذكر أن اختيار مندوبى المدارس العليا فى اللجنة تم بطريقة سرية .

جريدة المصرى الحر:

وإلى جانب المنشورات الثورية السرية كانت اللجنة تصدر «جريدة المصرى الحر السرية» . ولتضليل البوليس كانوا يستخدمون أسلوب التمويه . . فهذا الموضوع من مراسل الجريدة فى أسوان أو الإسكندرية حتى يغطوا مصادرهم الأصلية التى تواليهم بالأخبار، وكان «مهدى وعز العرب» يشتريان الورق للمنشورات والجريدة من شارع جامع البنات بجوار محكمة مصر - القريب من بين الصورين . . وكان «عبد الرحمن فهمى» يحاسبهما على كل مليم . . وكانت تنبيهاته» لهما أنهما بعد انتهاء العمل فى الجريدة والمنشورات لا يعودان إلى منزليهما حتى لا يضار الأهل إذا ما قبض عليهما .

ووقعت لمهدى علام حوادث طريفة أثناء هذا العمل السرى . . حدث له عام

١٩٣٢ كان يطبع كتابًا له بعنوان «فلسفة الكذب» فى مطبعة بالخرنفش اسمها «مطبعة شرف» ويفاجأ بأن صاحب هذه المطبعة هو نفسه «عم أحمد حجازى» الذى كان يقوم بطباعة الجريدة والمنشورات فى بيته.

وفى أحد امتحانات دار العلوم.. كان المراقب «زكى المهندس» - والد صفية وفؤاد المهندس - وكان رئيس لجنة الامتحان «أسعد بك برادة» وحضر أحد الضباط الذى اصطحب الطالب «مهدى علام» للقيام بتفتيش بيته، وقبل الانصراف من لجنة الامتحان إلى البيت مال عليه الضابط يقول له: تحب نرسل حد للبيت ينبههم؟ فقال «مهدى علام» ليس لدى شىء أخاف منه. ويقول مهدى علام: دخلنا البيت ونزلت أمى على «الزيطة»، وفوجئت بالضابط يجرى نحو أمى ويقبل يدها وإذا بأمى تقول للضابط.. جاى تعمل إيه هنا يا عبد العزيز؟ وتم التفتيش وطلب الضابط من «مهدى» كتابًا ليقرأه فأعطاه نسخة من كتاب لسعد زغلول عنوانه «ملاحظات على الجمعية التشريعية». وكتب الضابط المحضر وعاد الاثنان إلى لجنة الامتحان حيث سمح رئيس اللجنة لمهدى علام باستكمال الامتحان لأنه لم يكن فى حالة تسمح له بالغش فى المادة التى يمتحن فيها.. «كان رئيس لجنة الامتحان ومراقب اللجنة والضابط جميعًا وطنيين».

ومن الطريف أن الزمن قد حفظ نسخة من «جريدة المصرى الحر» ونسخة لأحد المنشورات.. ويقول «د. مهدى علام» فى ذكرياته التى أملاها على تلميذه «أبو بكر عبد الرازق»: لقد أعطيت الجريدة والمنشور لـ «عبد الصبور مرزوق» - هو الآن الدكتور عبد الصبور مرزوق نائب رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية والداعية الإسلامى المرموق - عندما كان يعد رسالته للدكتوراه عن «أدب ثورة ١٩١٩» بكلية دار العلوم. وأثناء مناقشة الرسالة اصطحب «عبد الصبور» معه «الشيخ محمد عبد اللطيف دراز» أحد ثوار ثورة ١٩١٩ والدكتور مهدى علام صاحب السيرة الحالية و«عريان سعد» أحد أعضاء المجموعة السرية لعبد الرحمن فهمى والذى تصدى لمحاولة اغتيال «يوسف وهبة باشا» الذى قبل رئاسة الوزراء حتى لا يتقدم شاب مسلم لهذا العمل فتحدث فتنة طائفية. وقدم «عبد الصبور» الثلاثة كمراجع حية لرسالته التى كانت مطروحة للمناقشة: وقدم جريدة المصرى الحر ونسخة المنشور كوثائق ضمن وثائقه فى رسالته للدكتوراه.

مدرس الأمير فاروق:

فى عام ١٩٣٠م اختارت وزارة المعارف العمومية معلمًا خاصا لولى العهد، الأمير فاروق. وكان معه فى فريق مدرسى الأمير «شفيق زاهر» للرياضة والرسم، ومستر هانواى «للغة الإنجليزية» و«مسيو رابينا» للغة الفرنسية، وإبراهيم خيرى باشا، لركوب الخيل، وباقى المواد مسئولية «محمد مهدى علام». كان الأمير يخطو نحو الحادية عشرة من عمره ويشرف على تربية الأمير أحد الباشوات لا يفهم شيئًا فى شئون التربية والتعليم «لم يذكر مهدى علام اسم هذا الباشا غير أننى سمعت من عزيز على المصرى فى مقابلة له فى بيته بشارع الجزيرة بالزمالك عام ١٩٦٢ أن الذى أفسد تربية فاروق عن عمد وترصد . . على ماهر باشا وأحمد حسنين باشا ـ راجع موسوعتنا «هذا الرجل من مصر ص ٣٤٠ـ٣٤٨» ـ ويواصل الدكتور مهدى علام ذكرياته: اقترحت على هذا الباشا أن يختار خمسة أو ستة من الأولاد فى عمر الأمير ليكونوا معه أثناء الدرس لتتجاوب غرائزهم ويتنافسوا بعضهم مع بعض، ويخف عن التلميذ الوحيد ضغط استقباله وحده لخمسة أساتذة كل يوم . . ولكن هذا الاقتراح رآه الباشا «معيبًا ومهينًا». وزدت الأمر سوءًا عندما قلت أن هذا الاقتراح كان متبعًا فى تعليم أولاد «الخديو عباس الثانى» السابق. واتضح للباشا أن آرائى ثورية. وطلبوا منى أن أعلم الأمير بأن والده «الملك فؤاد» جاء بعد والده «الخديو إسماعيل»، وقلت وماذا أفعل بتوفيق وعباس الثانى وحسين كامل . . المهم أن مهمتى فى التدريس للأمير ألغيت وانتهت.

مسيرة التعلم والثقافة:

هذا الثائر الذى سار فى طريق الكفاح السرى فى ثورة ١٩١٩ من مواليد مدينة القاهرة ـ قسم الدرب الأحمر فى الثالث من أكتوبر عام ١٩٠٠م. تلقى تعليمه الابتدائى فى مدرسة اسمها «مدرسة جوهر اللالا» وهو اسم تركى، ثم انتقل إلى «مدرسة عثمان ماهر باشا» وبقى فيها ٥ سنوات. وعام ١٩١٦م تقدم لامتحان الالتحاق بدار العلوم. كان عدد المتقدمين ٣٥٠ طالبًا نجح منهم فى الامتحان التحريرى خمسون كان أولهم « محمد مهدى علام»، وحصل على الدرجات

النهائية فى الامتحان التحريرى والشفوى. وكان أحد ممتحنيه «على الجارم» ـ الشاعر المعروف ـ وحفظ له «د. مهدى علام» الود.. وعندما شرع ابنه «د. أحمد على الجارم» فى جمع تراث أبيه وأعد كتابًا عنه، كانت مقدمة هذا الكتاب للدكتور مهدى علام. تخرج فى يونيو عام ١٩٢٢م وسافر فى بعثة علمية إلى إنجلترا درس فيها الأدب الإنجليزى واللغات العبرية والفارسية والألمانية وعلم النفس وحصل على درجة الدكتوراه. كان سفره الأول إلى إنجلترا عام ١٩٢٢م، وانتهت المدة الأولى من البعثة عام ١٩٢٥، ثم تجددت البعثة من ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧، وأكمل دراسته فى اللغتين الفارسية والعبرية.

وعاد إلى مصر عام ١٩٢٨ وعمل بها حتى عام ١٩٣٦ ـ وسوف نتحدث عن تلك الفترة فيما بعد ـ ولقى «د. مهدى علام» من المتاعب والدسائس وأنقذه الله منها عام ١٩٣٦ عندما طلبته جامعة مانشستر للتدريس بها، فسافر وظل بانجلترا من عام ١٩٣٦ ـ ١٩٤٨م. وشهد فترة الحرب العالمية الثانية «٣٩ ـ ١٩٤٥» بإنجلترا والأهوال التى لقيها الشعب الإنجليزى وغارات ألمانيا النازية عليها وسلوك الشعب الإنجليزى فى مواجهة النازية. ومن الطرائف التى ذكرها.. أنه كان يسكن فى بيت واحد مع «على مصطفى مشرفة» الذى أصبح من أعلام العلوم فيما بعد. ويذكر أن «ساعة بج بن» ظلت سليمة وسط الدمار الذى أحدثته غارات الألمان.

٨ سنوات فى مصر:

ظل فى مصر بعد العودة من إنجلترا لمدة ٨ سنوات.. أصبح فيها عضواً بهيئة التدريس فى دار العلوم وفى قسم التخصص بجامعة الأزهر «١٩٢٨ ـ ١٩٣٦» وخلال تلك الفترة حدثت له تنقلات وانتدابات وقدم أعمالا تجدر الإشارة إليها. نشرت «الأهرام» خبر نقله مفتشًا على مدارس الإسكندرية دون رغبته ودون رغبة «دار العلوم». وقضى ١٨ يومًا فى مذكرات ورجاء لوزير المعارف «أحمد لطفى السيد»، وتمسكت به «دار العلوم» إلى أن عاد إليها بعد ١٨ يومًا. ثم أوكلت إليه وزارة المعارف العمومية إعداد مشروع لإصلاح التعليم فى مصر. ويقول فى ذكرياته أنه وضع ما أسماه «برنامج فلسفة التعليم» وأنه صاحب فكرة تقسيم التعليم

الثانوى إلى مرحلة ٤ سنوات تنتهى بشهادة «الثقافة» ثم سنة خامسة تعرف بـ«التوجيهية» التى تؤهل الحاصلين عليها للالتحاق بالجامعة. ويقول إنه وضع قاعدة تقضى بأن يوقع الطالب الذى يسلم ورقة الإجابة أمام المراقب وألغى التقليد الذى كان يقضى بأن يأخذ الطالب الذى يسلم ورقة الإجابة وتضع أعلى درجة فى فرقته وليس على النهاية العظمى فى الدرجات. ومن المواقف الطريفة له فى هذا المجال أن «الدكتور أحمد فتحى سرور» عندما كان وزيراً للتربية والتعليم أعلن فى أحد الاجتماعات أنه - أى الدكتور سرور - أول من استحدث نظام أعلى درجات الفرقة وليس الدرجات العظمى فى حالة فقد أوراق الإجابة. يقول «د. مهدى علام» إنه انبرى للوزير وسجل أنه - أى د. مهدى - هو أول من استحدث هذا النظام منذ ثلاثين سنة - وعمل مفتشًا للتعليم. وفى عهد وزارة «توفيق نسيم» الثالثة «نوفمبر ١٩٣٤ - يناير عام ١٩٣٦» كان «أحمد نجيب الهلالى» وزيراً للمعارف فعهد إليه بمهام مدير المكتب الفنى للوزير. ويقول إن الدسائس أحاطت به من كل جانب وطلبه «العراق» للعمل به ورفض وكانت النجدة له فى الانتداب إلى جامعة مانشستر وبقى هناك من عام ١٩٣٦م - حتى عام ١٩٤٨م ١٢ عامًا متصلة قضاها فى إنجلترا هو وأسرته كانت من السنوات الهادفة المريحة له ولأولاده. وعاد إلى مصر - وإن طال الغياب - عام ١٩٤٨م.

ما بعد العودة:

عين مفتشًا للغة العربية بوزارة المعارف العمومية - عمله السابق - من عام ١٩٤٨م - ١٩٥٠م. وعام ١٩٥٠م شغل كرسى الأستاذية للغة العربية واللغة الإنجليزية فى كلية الآداب - جامعة عين شمس وكان قد أسهم فى إنشاء الكلية. وأصبح عميداً للكلية ٧ سنوات «١٩٥٤ - ١٩٦١م» وأستاذاً للنقد الأدبى بالمعهد العالى للتمثيل من عام ١٩٥٢ - ١٩٥٧م. وقام بالتدريس فى كلية الدراسات الإنسانية بجامعة الأزهر «١٩٦٢ - ١٩٨٣». ورأس مجلس إدارة مؤسسة التأليف والترجمة والنشر «١٩٦٢ - ١٩٦٤». وكان قبل ذلك مستشاراً للمؤتمر الإسلامى «١٩٥٦ - ١٩٦٢» وعضواً لمجلس إدارة دار الكتب «١٩٤٩ - ١٩٧٠م». ويعد من الأعضاء المؤسسين لمجمع

البحوث الإسلامية منذ عام «١٩٦٠م». واختير عضواً بمجمع اللغة العربية بالقاهرة فى أبريل عام ١٩٦١م. وأميناً عامّا للمجمع عام ١٩٧٧ ونائبًا للرئيس عام ١٩٨٣م. وكان لى شرف مزاملته عضواً بلجنة «المكتبة العربية» بالمجلس الأعلى للثقافة من عام ١٩٨٤ ـ حتى عام ١٩٨٧ برئاسة «الدكتور إبراهيم بيومى مدكور» رئيس مجمع اللغة العربية. وكان عضواً بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية منذ إنشائه عام ١٩٥٦، وعضواً بالمجلس الأعلى للثقافة منذ إنشائه عام ١٩٨٠، وعضواً بالمجلس القومى للثقافة، وعضواً بالمجمع العلمى المصرى.

الملك فؤاد وروفس:

عرضنا من قبل عن تدخل القصر لدى «د. مهدى علام» لتزييف التاريخ المصرى الحديث. طلبوا منه أن يضع الملك فؤاد لاحقًا فى الترتيب التاريخى بوالده «الخديو إسماعيل» ورفض د. مهدى علام أن يغفل الخديو توفيق والخديو عباس حلمى الثانى والسلطان حسين كامل. وتعرض «د. مهدى علام» لتجربة أخرى أيام «جمال عبد الناصر». . كان هناك طالب اسمه «روفس» من زنوج أمريكا وحضر إلى مصر ليدرس الطب. ولم يكن روفس يعرف من اللغة العربية شيئًا. ومن الضرورى أن يدخل «معادلة» ينال بعدها شهادة بأنه يعرف اللغة العربية وذلك حتى يتاح له تسلم شهادة التخرج وأنه نجح فى امتحان اللغة العربية ومن ثم يصرح له بالسفر لممارسة مهنته. وكان المسئول عن مثل هذه المعادلة «الدكتور مهدى علام»، وفوجىء «الدكتور علام» باتصال تليفونى من «الدكتور حشاد» وكيل الجامعة يطلب منه تسجيل نجاح «روفس» فى اللغة العربية ـ رغم أنه لا يعرف منها شيئًا ـ وذلك تنفيذًا لتعليمات «جمال عبد الناصر» ورفض «الدكتور مهدى علام» أن يعطى شهادة لروفس لا تطابق واقع الحال. وطلب من الدكتور وكيل الجامعة أن يرسل له ما يريده مكتوبًا وينص فيه على أن هذا الطلب بناء على تعليمات «جمال عبد الناصر». وأرسل وكيل الجامعة رسالة مسجلاً فيها ما طلبه الدكتور مهدى علام. ورغم هذا تخلص «الدكتور مهدى علام» من هذا المطب وأعطى شهادة تفيد بسفر

الطالب «روفس» إلى بلاده ليمارس مهنة الطب دون أن يشير من قريب أو بعيد لمسألة نجاحه فى امتحان اللغة العربية أو إلى المعادلة.

ويبقى التراث الطيب:

وفى ١٩ مايو عام ١٩٩٢م رحل عن دنيانا «الأستاذ الدكتور محمد مهدى علام» نائب رئيس مجمع اللغة العربية، عضو المجلس الأعلى للثقافة والمجلس القومى للثقافة، والمجمع العلمى المصرى وعضو الخلية الثورية السرية التى أصدرت «جريدة المصرى الحر» ومنشورات ثورة ١٩١٩. وترك من الأعمال المهمة: «تربية الشباب فى الإسلام - العفو فى القرآن - عائشة أم المؤمنين - فلسفة المتنبى - والروح الثورية لبرنارد شو «بالإنجليزية» - وترجمة بالإنجليزية لقصيدة السلام الذى أعرفه لمحمود حسن إسماعيل - ومراجعة لدائرة المعارف الإسلامية» ومئات من الإذاعات العربية والإنجليزية. رحمه الله وطيب ثراه.

الأسانيد:

١ - أبو بكر عبد الرزاق . . نصف قرن من ذكريات مهدى علام.

٢ - عبد الرحمن فهمى «حلقة فى موسوعة هذا الرجل من مصر ص ٢٤٣ - ص ٢٤٥».

٣ - عزيز المصرى «حلقة فى موسوعة هذا الرجل من مصر «ص٣٤٠ - ٣٤٨».

٤ - د. مهدى علام . . المجمعيون فى خمسين عاماً.

نجـــيب الريحـــانى



يوم رحيله منذ خمسين عامًا وحفنة أيام لم يزل محفورًا فى الذاكرة. فى موقع الامتحان لطلاب كلية الآداب - جامعة فؤاد الأول خلف قسم الجغرافيا المطل على النيل، اليوم ٨ من شهر يونيو عام ١٩٤٩م وبعض طلاب قسم الفلسفة يتأهبون لدخول امتحان آخر العام - هانت ففى العام القادم (يونيو ١٩٥٠م) سوف يتخرجون وقد حصلوا على ليسانس الفلسفة. هذه المجموعة شغلت نفسها فى ذلك اليوم بالحديث عن وفاة «نجيب الريحانى» وعن غرائب القدر وأنا أستعيد ذكرى هذا اليوم الذى مضى عليه خمسون عامًا أجد غالبية هذه المجموعة قد اختارها الله إلى جواره بعد أن تخرجنا وأصبح لكل واحد منا اسم مرموق: الدكتور أبو الوفا الغنيمى التفتازانى نائب رئيس جامعة القاهرة، والسفير أحمد فؤاد أبو سريع، وإبراهيم سرور - أول الدفعة وعم الدكتور أحمد فتحى سرور رئيس مجلس الشعب، والدكتورة فوقية حسين محمود الأستاذة بكلية البنات رحمة الله عليهم جميعًا. وشاءت إرادة الله أن أبقى على قيد الحياة وأكتب هذه السطور عن «نجيب الريحانى» وعن زملاء وزميلات أعزاء اعتزلوا الحياة فى أوقات متفرقة بعد رحيل نجيب الريحانى. ولكن ماذا عن وفاة نجيب الريحانى فى ٨ يونيو عام ١٩٤٩م؟

بديع خيرى الكاتب المسرحى والروائى والزجال وصديق عمر نجيب الريحانى كتب فى مذكراته عن رحيل نجيب الريحانى:

كنا فى الإسكندرية - فى أوائل يونيو عام ١٩٤٩م - وبعد الليلة الثانية أحس نجيب

بسخونة وضعف وقال لى: أنا تعبان يا بديع وموش حاقدر أكمل. وعدنا إلى القاهرة وهو منهك القوى، ورقد فى فراشه فى سكنه بعمارة الأيموبيليا . . أعاونه أنا وخادمته الوفية اليونانية كريستين. ويتولى علاجه الدكتور عمر الدمرداش. ونقلناه إلى المستشفى اليونانى للاشتباه فى تيفود وأرسلنا فى إحضار دواء (الأكرومايسين) من أمريكا. وتعاطى أول جرعة من الأكرومايسين فاسترد عافيته. . وما كدت أصل إلى بيتى وأبدأ بخلع ثيابى حتى دق جرس التليفون . . وإذ بالمتحدثة كريستين . . لقد مات نجيب الريحانى. لقد ذهب شريك العمر ورفيق الجهاد والكفاح . . والأخ الشقيق، الوفى الحنون . . وفرق القدر القاسى بيننا إلى الأبد بعد أن كنا لا نفترق لحظة.

وقدر لنجيب ألا يدخل الفيللا الكبيرة الضخمة التى كان قد فرغ من بنائها. اشترى ستة أفدنة جهة عرب المحمدى. بنى قصراً صغيراً، فيه صالة أندلسية، ومسرحًا صغيراً لإقامة الحفلات الخاصة. ولم تكد أعمال التشطيب النهائية تتم حتى مرض نجيب مرضه الأخير ومات . . دون أن ينام ليلة واحدة فى قصر أحلامه. وتم إحياء ليلة الأربعين فى شقة نجيب الريحانى فى عمارة الأيموبيليا. وتنازع على الميراث ابن شقيقه الأكبر توفيق وشقيقاه الآخران . . يوسف وجورج، وزوجته بديعة مصابنى.

نجيب وبديع:

فى أعقاب الحرب العالمية الأولى كان نجيب الريحانى - على حد تعبير بديع خيرى - فى أوج عظمته، وكان يقوم بالتأليف للفرقة «أمين صدقى» واحتاج الريحانى لمؤلف . . جرب ثلاثة هم: حسنى رحمى المحامى، وشعبان عونى، وإبراهيم شدودى ولم يوفقوا فى التعاون مع الريحانى. وكان هناك صديق مشترك للريحانى وبديع خيرى من أصل سورى هو «جورج شفتشى» يعرف موهبة التأليف عند بديع خيرى فأخذ منه ثلاث مسرحيات هى: (على كيفك وكله من ده واستعراض) وباعها للريحانى على أنها من تأليفه وقبض الثمن الذى أعطى منه جزءاً لبديع الموظف الصغير وقت ذاك. ولكن «نجيب الريحانى» أحس من البداية

بخيال ظل وراء «شفتشى» وتحدث فى ذلك مع صديق آخر اسمه «توفيق ميخائيل» الذى أكد له أن المسرحيات من تأليف «بديع خيرى» الموظف الصغير. وطلب الريحانى من توفيق أن يحضر له بديع حالا من تحت الأرض . . ونترك بديع خيرى يصف لنا كيف قابل نجيب الريحانى لأول مرة . . (يوم قررت أن أذهب استولى علىّ الارتباك وأخذت أتصور كيف ستكون هذه المقابلة . . طبعا سأدخل على السكرتير أولا، ثم يدخلنى السكرتير على نجيب الريحانى . . وعندئذ كيف أواجهه، وكيف أقف أنا الصغير البسيط أمام العملاق الكبير . . وذهبت إلى مسرح الإجبسيانا، وبعد أن اجتزت بابه الخلفى أرانى كما لو كنت فى سوق العصر . . قوالح الذرة ومصاصة القصب تملأ الأرض وقادونى إلى غرفة نجيب بلا سكرتير وبلا أبواب مقفلة. ورأيت نفسى أمام نجيب . . قفطان ملقى فى ناحية، وفردة مركوب فى ناحية أخرى . . واستقبلنى الفنان الكبير بترحاب قائلا : أنا فهمت الحكاية وكنت بأشك من الأول. واتفقنا . . وكتبنا العقد فى ١٨ أغسطس عام ١٩١٨م . . وهو نفس اليوم الذى ولدت فيه (١٨ أغسطس عام ١٨٩٣م)، وكان يوم مولدى الفنى هو يوم مولدى إلى الدنيا .

وظلت هذه العلاقة منذ عام ١٩١٨م إلى أن افترقا بوفاة الريحانى عام ١٩٤٩ . أكثر من ثلاثين عاما قال عنها «نجيب الريحانى» فى مذكراته : (. . رأيت إذا افترقنا حل البؤس والشقاء بكلينا، وإذا اجتمعنا كان الخير فى ركابنا وضحكت الدنيا لنا) .

نجيب وطليمات:

كان الفنان المثقف «زكى طليمات» يهاجم نجيب الريحانى وعلى الكسار هجومًا لاذعًا فى الصحف. ثم كان أول لقاء بين طليمات والريحانى عام ١٩٢٢ . وكانت المقابلة مثيرة. المهم أن «زكى طليمات» يقول فى كتابه (ذكريات ووجوه): (أحببت نجيب الريحانى بعد كره، وصافيته بعد عداء، وصرت أحرص على أن إلقاه) .

وقد سجل «زكى طليمات» أول لقاء له مع نجيب الريحانى عام ١٩٢٢م فى مقهى (فينكس) الذى يقع على بعد مائة متر من مسرح الريحانى :

الريحانى ـ بأه حضرتك . . الأستاذ زكى طليمات؟

طليمات ـ أيوه يا سى أستاذ الريحانى .

ـ إيه الحكاية بينى وبينك يا أخى . . هو أنا اتجوزت الست والدتك؟

ـ ياريت . . يا أخى .

ـ هل قلت عنك إنك ممثل كحيان . . أو موظف بتغير ريقك على طبق ملوخية؟

ـ يا ريت . .

ـ أمال نازل فينا طحن ليه؟

ـ مزاج؟

ـ مزاج إيه العكر ده . . حضرتك فتوة؟

ـ عند اللزوم وضحك الريحانى، ولكننى لم أضحك . . وأعاد سؤاله مستفسراً عن أسباب هذا الحقد الذى ننفثه فيما نكتبه عنه، فأجبت فى عناد :

ـ انت بتشتغل فى التمثيل علشان تعمل فلوس؟

ـ وعايزنى أشتغل فى التمثيل وألحس صوابعى؟

وكان الريحانى يتكلم بكل جارحة فى جسمه، وأدرت ظهرى وسرت خطوات، وقد لفنى العرق البارد فتلمست منديلى فلم أجده، وسرعان ما ارتفع صوت الريحانى وهو يقول .

ـ استنى شويه يا أستاذ .

واقترب منى ومد يده قائلا . . يظهر أنى أخذت منديلك وأنا مش واخد بالى، أنشف به عرقى .

فابتسمت وابتسم هو بدوره، وتحولت الابتسامة على الشفاه إلى ضحك وربت على كتفى قائلا :

ـ عرقى وعرقك فى منديل واحد. لازم حاييجى يوم نحب بعض. وعاد إلى

المسرح وقطع على عجبى وإعجابى ضحك صاخب يرتفع من صالة المسرح فقلت إن الريحانى يضحك الجمهور وهو يبكى . . ولا يستطيع أن يمسح دموعه. وقد كان أحب زكى طليمات نجيب الريحانى بعد كره، وصافاه بعد عداء، وصار يحرص على أن يلقاه .

حياة عاصفة:

وهذا الممثل الذى كان يضحك الجمهور أحيانًا من خلال الدموع ـ على حد تعبير زكى طليمات ـ عاش حياة عاصفة. الأب من أصل عراقى (أشورى). والأم مصرية صعيدية «خالتى لطيفة» عاشا معا فى إحدى حوارى حى باب الشعرية الشعبى بالقاهرة. الأب يتاجر فى الخيول، أحيانا معه فلوس وأحيانا أخرى على فيض الكريم .

والأولاد . . الأكبر توفيق توفى مبكرًا . . ثم نجيب ويوسف وجورج. «نجيب» ينتقل خلال طفولته وصباه بين مدرستى الفرير والخرنفش وتعلم الفرنسية والعربية، وقبل أن يتم تعليمه وجد نفسه فى الشارع لأن الأسرة لم تتمكن من دفع مصروفات التعليم . . سافر إلى (نجع حمادى) بصعيد مصر وعمل موظفًا صغيرًا فى شركة السكر. ثم اختلف مع (الباشكاتب) وتم طرده من الشركة وعاد خالى الوفاض إلى حوارى باب الشعرية. أحد المصادر ذكر أنه ولد عام (١٨٩٢)، ولكن غالبية المصادر أشارت إلى أنه من مواليد عام (١٨٨٧م)، وهذا هو الأرجح.

ترددت فى أفلامه ومسرحياته عبارة (لا توجد وظائف خالية) وهى عبارة عرفها فى حياته وهو يطوف فى شوارع القاهرة بحثًا عن عمل. ورزقه الله بوظيفة صغيرة فى (البنك الزراعى)، وهناك تعرف إلى «عزيز عيد» الذى كان له شأن فى حياته. واثناء العمل فى البنك عرف نجيب وعزيز طريقهما إلى الأبواب الخلفية للمسرح. وأخذ متعهدو الكومبارس بأيديهما إلى مجموعات الفرق الأجنبية التى قدم عروضها فى القاهرة. وكانا يواصلان سهراتهما حتى مطلع الفجر ويذهبان متأخرين إلى العمل بالبنك الزراعى، وأثناء العمل لا يعملان وإنما يتحدثان إلى الموظفين حول المسرح. استغنى البنك عنهما فالتحقا بفرقة «عكاشة» التى أسندت

إليهما تقديم فاصل فكاهى بين الفصول الغارقة فى الحزن والدموع . كل منهما يمسك بمقشة ويضع طرطوراً على رأسه . أعمال أقرب إلى التهريج من الفن . وقرر المهرجان إنشاء فرقة مسرحية خاصة بهما!

مع المسرح:

فى أيام البؤس وقت أن كان «نجيب الريحانى» موظفًا صغير الشأن فى شركة السكر بمدينة «نجع حمادى» بصعيد مصر تعرف إلى المهندس الممثل «محمد عبدالقدوس» ـ والد إحسان عبد القدوس ـ وعام ١٩١٢م كان «جورج أبيض» قد عاد وأرسل «عزيز عيد» خطابًا إلى صديقه «نجيب الريحانى» يدعوه فيه إلى العودة للقاهرة لأن التمثيل علا شأنه بفضل «جورج أبيض» وفرقته . وعاد «الريحانى» والتحق بفرقة جورج أبيض، الذى فصله بعد عشرين يومًا لعدم لياقته للتمثيل! وفى أول مايو عام ١٩١٦م مر «استيفان روستى» على بوفيه مسرح برنتانيا ووجد صديقه «الريحانى» فى حالة يرثى لها من البطالة فأخذه ليعمل معه فى ملهى تياترو برنتانيا . وأسندوا إليه دور خادم بربرى يظهر فى اسكتش خيال الظل لقاء أجر يومى ٤٠ قرشًا . ثم قام الريحانى بدور عمدة فى الريف باع محصول القطن وجاء إلى القاهرة وجيوبه مليئة بالمال والتفت حوله الحسان لالتهام الثروة . . ونجح نجاحًا كبيراً . . ورفع الخواجة «زوزانى» صاحب القهوة أجره إلى ٦٠ قرشًا فى اليوم بدلاً من أربعين .

وعام ١٩١٦م كتب الريحانى قصة هزلية بعنوان «فصل مضحك»، وكتب مسرحية بعنوان «الجنيه المصرى» اقتبسها من قصة فرنسية «نوباز» للسخرية من أوجه النقص بالمجتمع . وأتقن تمثيل شخصية الموظف الحكومى الصغير الذى يعانى من عدم احترام الكبار له ولكنه يتمسك بمثله العليا على الرغم من فقره .

فرقة عزيز عيد:

أنشأ عزيز عيد ونجيب الريحانى فرقة عرفت باسم «فرقة عزيز عيد» وضمت

الفرقة إليها «روزاليوسف وحسن فايق وأمين عطاالله وأمين صدقى» وقدمت روايات فرنسية معربة «خلّى بالك من إميلى» و«يا ست ما تمشيش كده عريانة». وأثناء الحرب العالمية الأولى امتلأت المسارح والملاهى الليلية بجنود الحلفاء، وهؤلاء يريدون التهريج. ثم دبت الخلافات بين عزيز عيد ونجيب الريحانى. عزيز عيد يريد أن يقدم النص الأجنبى كاملاً، وهذا يجعل العمل قريبًا من الجو الأجنبى. ونجح «عزيز» فى تقديم «الملك لير» لشكسبير «والجريمة والعقاب» لدوستو فيسكى و«سافو» لألفونس دوديه، و«الشعلة المقدسة» لسومرست موم. وفى المقابل كان «الريحانى» يرى أن العمل يقدم لجمهور مصرى فلابد من تمصيره وتقديمه فى جو مصرى. وقدم شخصية «كشكش بك» . . عمدة كفر البلاص الطيب الساذج الذى يعبر عن الثراء المفاجىء الذى أصاب بعض أغنياء الريف وبعض تجار القطن مع بدايات الحرب العالمية الأولى. ويصل العمدة إلى القاهرة بعباءته ولحيته، واتجه إلى الملاهى الليلية حيث الخمر والقمار والنساء والغناء.

الميلاد الحقيقى:

إذا كان «بديع خيرى» بعد يوم «١٨ أغسطس عام ١٩١٨» الذى وقع فيه العقد مع نجيب الريحانى يوم مولده الفنى كان بعض النقاد يعتبرون هذا التاريخ هو يوم مولد مسرح الريحانى الحقيقى: وفيه وضع «الريحانى» كل ثروته فى مسرح «الإجبسيانا» ليقدم عليه مسرحيات من النوع الاستعراضى ويقوم بكتابتها بديع خيرى.

التفت بديع خيرى إلى ملحن موهوب بدأ صيته ينتشر فى القاهرة بعد قدومه من الإسكندرية . . هو «سيد درويش» الذى انضم لفرقة الريحانى ليلحن الأغانى. وانطلق الثلاثى . . الريحانى للإخراج وبديع خيرى للتأليف وسيد درويش بمجموعة ألحانه الوطنية التى عبرت بحق عن روح ثورة ١٩١٩ مثل لحنه الشهير «قوم يا مصرى . . مصر دايما بتناديك» . . وكان الريحانى من أبناء ثورة ١٩١٩ المخلصين ومن مؤيدى سعد زغلول. وقد عبر الثلاثة بحسهم الوطنى عن عمق المأساة التى كان يعيشها أبناء جيلهم فى ظل الاحتلال. وكان الثلاثة يحبون مصر

مثل حب سيد درويش لأمه التى ولدته. كان سيد درويش باراً بأمه لا يقبض مالا إلا ويخصص منه هدية ثمينة لأمه، ولا يسلم عليها إلا وهو راكع على الأرض يقبل يدها. وظل الريحانى محبا لمصطفى النحاس وقام بإحياء حفل لتكريمه أقامه الأمير محمد على واشترك الريحانى فى هذا الحفل بمشهد ثلاثى بينه وبين ميمى شكيب واستيفان روستى.

وقرأ الريحانى مسرحية من الأدب الفرنسى بعنوان «اللحية الزرقاء» وعهد إلى «محمد تيمور» بتمصيرها وأن تكون فى جو «ألف ليلة وليلة» وكتب الأزجال «بديع خيرى» وقام بالتلحين سيد درويش . . وعهد إلى «عزيز عيد» بإخراجها وكانت فى النهاية العمل المشهور «العشرة الطيبة» ويؤرخ البعض للمسرح الاستعراضى الغنائى الفكاهى فى مصر بالعشرة الطيبة، فى ثورة على القديم وثورة على مسرح يوسف وهبى.

شر ناقد إذا نقد:

مصطفى لطفى المنفلوطى صاحب النظرات والعبرات فى الجزء الثالث من «النظرات» وجه أقسى سهام النقد إلى عروض الريحانى ووصفها «بالمقاذر العامة» ونصح الناس بهدم مثل هذه الأماكن والإعراض عنها. وجاء «د. على الراعى» فى دراسته «فنون الكوميديا . . من خيال الظل . . إلى نجيب الريحانى» جاء ليقول كلمة إنصاف عن الريحانى: وأن الريحانى عاش عيشة الفقراء واقترب من جمهوره وتعلم منذ البداية أن الكوميديا يجب أن تنبع من عرض مسرحى ناجح على أن يسمح هذا العرض بالنقد الاجتماعى وبشىء من الفكر والعاطفة فى الوقت المناسب. وأما «يحيى حقى» فقد أمسك عصاه التى اشتهر بها من الوسط. أبدى تحفظات على مسرح الريحانى إلا أنه اعترف له بموهبة الحضور وقدراته على أن يستبد بالنظارة ويجذب إليه قلوبهم وتطيب نفوسهم ويزول عنهم الهم والغم ويتعالى الضحك.

مهما يكن من أمر فقد مضى على أعمال الريحانى أكثر من نصف قرن ومع هذا

لم تفقد سحرها. واحتفظت بحضورها المتجدد ولا تزال تنبض بالحياة. وهكذا الأمر فى مسرحياته وأفلامه وإسكتشاته وتعبيراته وحتى فى خطواته المرتبكة التى تعبر تمامًا عن وضعه الطبقى.

الأسـانيد:

١ - أمين بكير . . كشكش بك.

٢ - بديع خيرى . . مذكرات «إعداد إبراهيم حلمى».

٣ - زكى طليمات . . ذكريات ووجوه.

٤ - فاطمة اليوسف . . ذكريات.

٥ - كمال رمزى . . نجوم السينما المصرية.

٦ - نجيب الريحانى . . مذكرات.

يوسف السباعى



أبو حجاج أو يوسف السباعى، ذو الوجه الباسم، فاتح ذراعيه للأحباب والصحاب الذى لم يكره أحداً ولم يخاصم أحداً تلقى فى وداعه الأطفال الرصاصات الغادرة التى أطلقت عليه فى نيقوسيا عاصمة قبرص يوم السبت ١٨ فبراير عام ١٩٧٨م.

معذرة أبا حجاج . . تأخرنا فى المشاركة على مرور ذكراك الواحدة والعشرين بعد الرحيل. نحن هنا لا نريد أن نضع الملح على الجراح فالأمة العربية الآن تمر بمأزق لا نريد أن يتسع الرتق بالحديث عن هذه الدولة العربية أو تلك والتى تناولتها الأخبار عندما وضعت رأسك على صدر أمك مصر وأسلمت الروح. والأشقاء يكفيهم ما بهم وهم يسيرون على الطريق الوعرة . . يكفى أن نشير إلى ما كتبه صديقك ورفيقك فى رحلة الموت إلى قبرص «عبد الرحمن الشرقاوى» الذى رأى بعينى رأسه تراخى الحراسة حولك والأشقياء يطلقون الرصاص عليك . . رأى بعينيه أن حارس الأمن كان على بعد عشرة أمتار أو أقل ولم يحرك ساكنا. وهو الذى تحسر على رحيل صديقك «مكاريوس» رئيس قبرص الذى رحل قبل أن ترحل أنت. لو كان على قيد الحياة رئيساً لقبرص والتى ترأس مؤتمر التضامن الآسيوى الإفريقى ربما لم يكن جرى الذى جرى. نكتفى هنا أن نحيل القراء إلى ما كتبه «عبد الرحمن الشرقاوى» فى جريدة الأهرام - ٢٤ فبراير عام ١٩٧٨ ليقف القارىء على كل ملابسات الغدر والتواطؤ من هنا وهناك.

الكاتب الكبير أحمد أبو الفتح قال عن يوم الاغتيال - حزن يوم الفرح . . كان يوم السبت يوم خشوع القلوب لله سبحانه وتعالى فهو يوم ذكرى سيد الخلق أجمعين سيدنا محمد ﷺ . الناس فى خشوع والناس فى فرح ولكن يد الغدر والإثم أبت إلا أن تقتلع الفرح من القلوب وتأبى إلا أن تصرف الناس عن الخشوع . يد الغدر والإثم تمتد فى يوم هو أعز الأيام على المسلمين لتقيم المأتم فى كل نفس مسلمة وغير مسلمة . بكى الناس يوم الفرح . . الاستشهاد هو أعظم ما يتوج حياة الفناء . الاستشهاد ذكرى فى الدنيا مغفرة فى الآخرة . . لكل أجل كتاب . جاء أجل يوسف السباعى يوم ذكرى سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام . ذهب ليقتل رغم تحذير الأحباء والمخلصين . . بكاه كل الناس .

يا أبا الحجاج . . هل ترضيك كلمات صديقك «أحمد أبو الفتح» أم أنك لم تزل تشفق على «إسماعيل» ابنك لأنك عشت تخشى عليه من يوم موتك . . لأنك بقيت سنة كاملة بعد وفاة أبيك «محمد السباعى» لا تصدق أنه رحل وتتوقع أنه سيعود إليك رغم أنف عزرائيل أو (نائب عزرائيل) كان «محمد السباعى» الكاتب والمترجم يرسل ابنه الصبى «يوسف» بأصول المقالات إلى المطابع ليتم جمعها أو صفّها على حد تعبير الشوام ثم يذهب الصبى يوسف ليعود بها ليتم تصحيحها وبعدها الطباعة لتصدر للناس . حفظ «يوسف» أشعار عمر الخيام التى ترجمها عن الإنجليزية والده «محمد السباعى» الذى كان متعمقًا فى الآداب العربية شعرها ونثرها ومتعمقًا فى الفلسفات الأوروبية الحديثة يساعده إتقانه اللغة الإنجليزية . السباعى الأب ترجم كتاب (الأبطال وعبادة البطولة) لتوماس كارليل . وكتب فى مجلة (البيان) للشيخ عبد الرحمن البرقوقى . وفى أخريات حياته كتب قصة (الفيلسوف) . ولكن عزرائيل أو نائبه لم يمهله فتوفى وترك القصة لم تكتمل . وأكمل القصة «يوسف السباعى» وطبعت عام ١٩٥٧ بتقديم للدكتور «طه حسين» وعاش فى أجوائها «يوسف» . . القصة جرت فى حى السيدة زينب ، وأحداثها فى العقود الأولى من القرن العشرين . . وحسن أفندى مدرس اللغة الإنجليزية فى مدرسة أهلية هو (الفيلسوف) وصور محمد السباعى أزمة حسن أفندى العاطفية تصويراً حيّا .

كان «يوسف» أكبر إخوته فى الرابعة عشرة من عمره عندما ، اختطف عزرائيل

والده الذى امتلأت نفسه بحبه وفاخر أقرانه به وعاش على اسمه الذى ملأ الدنيا، ولم يصدق أن أباه قد مات. وتخيل أن والده غائب وسوف يعود إليه ليكمل الطريق معه، وظل عامًا كاملاً فى حالة نفسية مضطربة يتوقع أن يعود أبوه بين لحظة وأخرى. ولهذا كان «يوسف» محبًا للحياة يريد أن يعيش بسبب واحد هو ألا يقع ابنه «إسماعيل» فى تجربة موت الوالد.

العمر لحظة:

وكان قدر «إسماعيل يوسف السباعى» أن يستقبل والده «يوسف السباعى» الذى سافر إلى نيقوسيا يوم الجمعة ١٧ فبراير عام١٩٧٨م، وتنطلق إلى قلبه رصاصات الغدر ليعود إلى القاهرة يوم الأحد ١٩ فبراير، مسجى فى نعشه الأخير. ويجتر «إسماعيل» خوف أبيه من اللحظات التى كان يشفق عليه من مواجهتها.

ولم يكن الشارع المصرى ولا أحد من عارفى يوسف السباعى ولا هو نفسه يتوقع أن تنطلق الرصاصات عليه من الذين أطلقوها. لم تكن قبرص التى اغتيل فيها هى قبرص (مكاريوس) صديقه الذى كان قد رحل وحل مكانه رئيس آخر. وأكدت المصادر المختلفة أن الجريمة وقعت تحت أعين رجال الأمن القبارصة، وأن أحدًا لم يتحرك وقيل إن أحد رجال البوليس القبرصى كان يقف على مسافة أقل من عشرة أمتار. وضاع دم يوسف السباعى.. هذه هى شهادة عبد الرحمن الشرقاوى. وأما شهادة الكثيرين فى حق يوسف السباعى فإنه نادى دائمًا بحقوق شعب فلسطين، وهو الذى رتب أول دعوة لياسر عرفات فى موسكو، وهو الذى حصل من الدول الاشتراكية على اعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية. وهو الذى تناول المأساة الفلسطينية فى عدد من أعماله (طريق العودة - يناير عام ١٩٥٦م) و(ابتسامة على شفتيه يناير عام١٩٧١م).

دموع الأصدقاء:

ذهب السباعى وبقيت دموع الذين عرفوه عن قرب. قال «أحمد أبو الفتح» لم

أصادف فى حياتى ليوسف السباعى عدوا، كان صديق كل إنسان. باسمًا فى وجه كل إنسان. متلطفًا كريمًا مع كل إنسان. واعتبر «أحمد حسين» مصرع يوسف السباعى منعطفًا تاريخيا. وقال «أحمد رشدى صالح» إنه كان يلقى الأصدقاء فاتحًا ذراعيه. وقال «أحمد بهجت». . قتلوا الفارس الذى ظل ينشر ـ نحن لا نزرع الشوك. وقال «عبد العزيز الصادق». . إنه يشرق بابتسامة عزبة حلوة . . إنه فارس غريب . . إنه مهذب. وقال «حازم فودة». . يحب كل الناس الذين يعرفهم . . والذين لا يعرفهم . . رجل حمال أسية، ومليء بالوفاء. وقال «توفيق الحكيم» . . سهل عذب باسم ساخر.

كانت هذه دموع بعض من عرفوه، أما دموعه هو فقد رآها الذين عملوا معه فى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية. كان قد نهر أحد السعاة بعنف وشدة مما أفزع الرجل، وبعدها وضع رأسه بين يديه وانهمرت دموعه واستدعى الساعى وقبّل رأسه وطيب خاطره.

الأمن الثقافى:

أطلق «توفيق الحكيم» لقب «رائد الأمن الثقافى» على يوسف السباعى وذلك بسبب الدور الذى قام به فى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ونادى القصة، وجمعية الأدباء.

وهذه المجالس وغيرها لها قصة كتبناها من قبل أمانة للتاريخ الأدبى وغير الأدبى. كان صاحب اقتراح إنشاء المجلس هو «إحسان عبد القدوس» الذى طلب من «يوسف» أن يحصل على موافقة «جمال عبد الناصر» خشية اعتراض عبدالناصر إذا تقدم إحسان بالاقتراح وذلك بسبب بعض الحساسيات بينهما. وبالفعل وضع «يوسف السباعى» قصة الاقتراح أمام عبد الناصر الذى وافق على أن يكون «السباعى» السكرتير العام ولا مانع أن يكون إحسان عضواً فى مجلس الإدارة وهذا ما حدث. صدر قرار جمهورى بإنشاء المجلس عام ١٩٥٦ وأن يعين «توفيق الحكيم» عضواً متفرغًا للمجلس ـ بمثابة الرئيس ـ وأن يكون يوسف السباعى سكرتيرا عاما ـ فى يده كل الأمور.

وتكرر الوضع نفسه عند إنشاء (نادى القصة) ورأس يوسف السباعى تحرير (الكتاب الذهبى) الذى تم ضمه فيما بعد إلى دار روز اليوسف.

وقد سجل يوسف السباعى واقعة إنشاء نادى القصة.. جاءه إحسان عبدالقدوس وأبدى اقتراحًا بشأن تكوين ناد للقصة والقصاصين. وعند إنشاء (جمعية الأدباء) تولى يوسف السباعى رئاستها.

مع صاحبة الجلالة:

فى مدرسة شبرا الثانوية كان يجيد الرسم ويدأ يعد مجلة يكتبها ويرسمها وتحولت المجلة إلى مجلة للمدرسة بعد أن أعجبت إدارة المدرسة بمجلة التلميذ يوسف محمد السباعى وأصبحت تصدر باسم (مجلة مدرسة شبرا الثانوية) ونشر بها أول قصة يكتبها بعنوان (فوق الأنواء) عام ١٩٣٤ وكان عمره ١٧ عامًا ولإعجابه بها أعاد نشرها فيما بعد فى مجموعته القصصية (أطياف) ١٩٤٦م.

وأما قصته الثانية بعنوان (تبت يدا أبى لهب وتب) نشرها له «أحمد الصاوى محمد» فى المجلة التى كان يصدرها باسم (مجلتى) عام ١٩٣٥ إلى جانب أسماء الدكتور طه حسين وغيره من الأسماء الكبيرة وعام ١٩٤٥ كانت تصدر فى مصر كل يوم سبت (مجلة مسامرات الجيب) صاحبها «عمر عبد العزيز أمين» صاحب (دار الجيب) التى كانت تصدر أيضًا روايات الجيب. ويرأس تحرير (مسامرات الجيب) «الأستاذ أبو الخير نجيب» الذى عرف بمقالاته الساخنة، وكان يوسف السباعى ضابطًا صغيرًا فى الجيش يكتب قصة كل أسبوع. وكانت المجلة تنشر لوحة فنية كل أسبوع ويكتب لها يوسف السباعى قصة هذه اللوحة الرائعة التى كانت تدفعنا إلى الاحتفاظ بها. ومن الطريف أننى ـ وكنت وقت ذاك طالبًا بالتوجيهية بأسيوط ـ كتبت للمجلة مقالا بعنوان (مصطفى النحاس المفترى عليه) وأرسلته بالبريد وفوجئت بالمجلة تنشر المقال. ثم مضت السنوات وعملنا مع «عمر عبد العزيز أمين» عندما عملت منذ عام ١٩٦٢ بالدار القومية للطباعة والنشر وكان هو مستشاراً لهذه الدار. أما أبو الخير نجيب فقد قابلته فى يناير عام ١٩٤٨، وكان رئيسًا لتحرير جريدة (النداء) التى أصدرها «الأستاذ يسن سراج الدين» وكان مقرها أعلى عمارة فى

شارع قصر النيل. والمناسبة كنت متهما فى قضية المظاهرات ضد الملك بالجامعة وأودعونا سجن الأجانب - بجوار الهلال الأحمر بشارع رمسيس الآن، وكان هناك أحد المعتقلين العرب من المعتقلين وحملنى رسالة على ورق البافرة لتسليمها لأبى الخير نجيب. كان ذلك ونحن نتخذ إجراءات الإفراج وذهبت إليه وأهتم بالرسالة الوافدة من السجن ونشرها وأحدثت ضجة فى حينها. وعلى صفحات مسامرات الجيب قرأت ليوسف السباعى قصة (إنى راحلة) فى حينها عام ١٩٤٥م أيضًا.

وكتب فيما بعد «يوسف السباعى» أنه كان يمشى من مسكنه فى روض الفرج إلى مقر مسامرات الجيب بشارع فاروق (الجيش فيما بعد) قرب العتبة على الأقدام. وأصدر (الرسالة الجديدة) عن دار التحرير وعمل معه «أحمد حمروش» مديراً للتحرير وعمل معه محمد عبد الحليم عبد الله وفوزى العنتيل، وعباس خضر، ثم ماتت الرسالة الجديدة مثلما ماتت رسالة الزيات القديمة.

حصل يوسف السباعى على دبلوم معهد الصحافة - جامعة فؤاد الأول بالقاهرة ورأس مجلس إدارة مؤسسة (روزاليوسف) عام ١٩٦١. ورأس تحرير مجلة آخر ساعة عام ١٩٦٧م، ورئيسًا لمجلس إدارة دار الهلال عام ١٩٧١م، ورئيسًا للمجلس الأعلى لاتحاد الاذاعة والتليفزيون. وعام ١٩٧٧ اختير نقيبًا للصحفيين وكان رئيسًا لتحرير الأهرام ورئيسًا لمجلس الإدارة رحلة طويلة من مجلة مدرسة شبرا الثانوية إلى نقيب الصحفيين.

الصحافة الأدبية:

أثناء مسئولياته المختلفة الثقافية والتنفيذية والأدبية والصحفية عمل على إنشاء عدد من مجلات الأدباء العرب والرسالة الجديدة وزهور والثقافة والقصة ولوتس ومختارات القصة الآسيوية الإفريقية، ومختارات الشعر الآسيوى الإفريقى. وإصدر مجلة لكتاب آسيا وإفريقيا.

ومن الطريف أن (اتحاد الكتاب) بعد أن قام «يوسف السباعى» بدور كبير فى

إنشائه وحرص على أن يكون «توفيق الحكيم» رئيسًا للاتحاد وهو نائب للرئيس . وفي الفترة التي كنت فيها عضواً بمجلس إدارة الاتحاد أثناء رئاسة ثروت أباظة - كان نائب الرئيس «سعد الدين وهبة» ووجدنا غالبية الأعمال والإجراءات المهمة موكولة لنائب الرئيس. وفسر لنا «سعد الدين وهبة» هذه الظاهرة. وذلك يرجع إلى أن لائحة الاتحاد تم وضعها أيام كان «يوسف السباعي» نائبًا لرئيس الاتحاد وأسوة بالمجلس الأعلى للفنون والآداب وجمعية الأدباء ونادي القصة، وكذلك كان دور السباعي ملحوظًا في اتحاد الكتاب . . ألم يكن الحكيم على حق عندما أطلق على يوسف السباعي أنه (رائد الأمن الثقافي؟).

أدب السباعي:

ولتوفيق الحكيم قول آخر . . لاشك أن الأجيال التي جاءت وتجيء بعد يوسف السباعي ستجد في مؤلفاته زاداً غزيراً يلهمها من حيث الأسلوب العذب الساخر ومن حيث تصوير الشخصيات التي عايشها في بعض أحياء القاهرة. أما «السباعي» فقد كان له رأي في النقد . . كان يرى النقد نوعًا من الهجوم المذهبي يجعل التقييم لاصلة له بالإنتاج العقلي. كان القارىء يجد في كل عمل أدبي من أعمال السباعي هدفًا اجتماعيا . . (أرض النفاق) كشف للفساد الذي يشيع في المجتمع . . و(نحن لا نزرع الشوك) تدور حول البحث عن الذات . . ومجموعاته القصصية (أبو الريش، وجنينة ياميش ويا أمة ضحكت، والشيخ زعرب تقدم صوراً واقعية للحياة المصرية . . وكانت (نائب عزرائيل) عام ١٩٤٧ أولى رواياته . . وآخر رواياته (أقوى من الزمن) تعبيراً عن حرب أكتوبر . . وفي (إني راحلة) يصور الرفض لأساليب التربية التي يفرضها الجيل السابق. أما مجموعته (سماء الليالي) فإنه يدعو فيها إلى السلام. ويداعب الموت في (أم رتيبة) وأشار إلى تسلط الجهل في (يا أمة ضحكت) وإلى نقد نظام الانتخابات في (نابغة الميضة) . . وقدم عدداً من المسرحيات أشهرها (جمعية قتل الزوجات) على أية حال فإنه قد عنى بالجانب الاجتماعي دون التاريخي.

فى بيته:

رأينا كيف كان «يوسف السباعى» محبا لوالده سائراً على درب حياته الثقافية ومحبًا لولده إسماعيل، وتمنى ألا يرى اليوم الذى يموت فيه السباعى. وكان أبوه «محمد السباعى» محبا لأولاده يوسف ومحمود وأحمد . . ويقول يوسف بكل الود عن أمه . . (كانت أمى ترانى طفلا مهما كبرت، تسأل دائمًا عن معدتى . . مليانة واللا فاضية . . كانت مهمتها أن تعلفنى وكانت دموعها أقرب الأشياء إليها . . كان يوسف يرى فى أبيه مثقفًا وفنانًا بوهيميا . . ولكن عانى من تنقلات السكن الكثيرة فتنقل يوسف تبعًا لها إلى مدارس كثيرة . . وادى النيل . . الكمال . . محمد على . . الخديو إسماعيل . . شبرا الثانوية . . وكانت الحالة مستورة وعلى (قد الحال) مما يضطره إلى أن يمشى من أقاصى شبرا إلى العتبة على قدميه. وكان قريبًا من عمه «طه السباعى» الوزير فى فترة من حياته. وتزوج يوسف ابنة عمه «طه» ورزق منها بابنته «بيسه» وابنه «إسماعيل» والطريف أن «يوسف السباعى» لم يلتحق فى مرحلة (التوجيهية) بالقسم الأدبى، وإنما التحق بالقسم العلمى، وكان أقرب المدرسين إليه الأستاذ «شعث» مدرس اللغة العربية «والأستاذ» فؤاد عبد العزيز «مدرس الرسم الذى يعاونه فى إخراج (مجلة شبرا الثانوية)، وكان يلتحق بالفنون الجميلة قبل أن يقدم أوراقه للالتحاق بالكلية الحربية .

مشوار العمر:

ولد فى ١٠ يونيو عام ١٩١٧م . . حصل على البكالوريا القسم العلمى من مدرسة شبرا الثانوية عام ١٩٣٥م والتحق بالكلية الحربية وتخرج فيها عام ١٩٣٧م وعام ١٩٤٠م بدأ التدريس لطلبة الكلية الحربية - سلاح الفرسان. وأصبح مدرسًا للتاريخ العسكرى بالكلية الحربية عام ١٩٤٣ . واختير مديراً للمتحف الحربى عام ١٩٤٩ . وعام ١٩٥٦ عين سكرتيراً عاما للمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية. وعام ١٩٥٧ سكرتيرا عاما لمنظمة تضامن الشعوب الإفريقية الآسيوية. عام ١٩٦٠ عين عضوا بمجلس إدارة مؤسسة روز اليوسف. ورئيسًا لمجلس إدارة دار الهلال ورئيسًا للتحرير عام ١٩٧١ . واختير عام ١٩٧٣ وزيراً

للثقافة . وعام ١٩٧٦ رئيسًا لاتحاد الإذاعة والتليفزيون . ورئيسًا لمجلس إدارة مؤسسة الأهرام ورئيسًا للتحرير . وفى ١٨ فبراير من عام ١٩٧٨م أسند رأسه على صدر مصر ومات على أثر رصاصات غادرة أطلقت عليه فى قبرص .

سبع البحر:

كان يؤمن بأن للأدب دوراً كبيراً للتمهيد للسلام فى مختلف العصور ، ولم يكتب من خلال نظرية فنية أو سياسية ولو خير بين مناصبه التى تولاها وبين الإبداع الأدبى لاختار الكتابة كما فعل طوال حياته . جمع بين النشاط العسكرى والنشاط الأدبى . وكان على حد تعبير - الدكتور محمد مندور - لم يقبع فى برج عاجى وإنما نزل إلى السوق . لم تكن له (شلة) ثنائية أو ثلاثية كما كان عليه الحال على أيام والده ، كانت هناك ثلاثية (محمد السباعى وعباس حافظ وحسين شفيق المصرى) .

وهذه استمرت لأنها لم تتعرض لصراعات فيما بينهم . وثلاثية (عبد الرحمن شكرى ، وإبراهيم عبد القادر المازنى ، وعباس محمود العقاد) ، وهذه تمزقت بفعل الخلافات . وثلاثية (طه حسين وأحمد ضيف وزكى مبارك) ، وهذه تمزقت وبقى منها طه حسين .

ومن الصعب أن نقول إن يوسف السباعى كانت له معارك . قال «يوسف إدريس» منافسه فى انتخابات نقابة الصحفيين أن «يوسف» كان يلقاه مرحبا فاتحا ذراعيه . المعارك فرضت عليه من مخالفيه السياسيين والمذهبيين . قال «عبد الرحمن الشرقاوى» بعد هزيمة ٥ يونيو عام ١٩٦٧ ، فى أحد اجتماعات اتحاد الكتاب العرب وقف مندوب أحد الوفود يطلب عزل يوسف السباعى . وعلى الفور أعلن يوسف استقالته وانسحب إلى حجرته وجاء مندوبو الوفود جميعًا وفى مقدمتها ممثل الحزب الشيوعى وقال . . هذا العضو الذى طالب بعزل يوسف السباعى مفصول من الحزب ، وقد سلم وثائق الحزب للمخابرات المركزية الأمريكية . . وعاد يوسف وعادت الوفود إلى الاجتماع لتطرد هذا العضو الذى أثار الزوبعة . وفى اجتماع الكتاب الآسيويين الإفريقيين فى سبتمبر عام ١٩٧٣ . كان الاجتماع فى (الما آتا) فى الاتحاد السوفيتى وحاولوا عزله فطرح الثقة بنفسه وفاز بأغلبية ساحقة . لم يكن

يفرض المعارك على الآخرين. كان يسبح فى الحياة كما يسبح (سبع البحر) على حد تعبير طاهر الطناحى فى عالم البحر الواسع الملىء بالقصص والأساطير وعجائب الحيوان وصراع الطبيعة للإنسان.

الأسانيد:

١ - حازم فودة . . نجوم شارع الصحافة.

٢ - طاهر الطناحى . . حديقة الأدباء.

٣ - عبد الرحمن الشرقاوى . . الأهرام - ٢٤ فبراير عام ١٩٧٨م.

٤ - علاء الدين وحيد . . عالم يوسف السباعى.

٥ - عماد الدين عيسى . . يوسف السباعى فلسفة قلم وحياة.

٦ - محمد شلبى . . مع رواد الفكر والفن.

٧ - يوسف السباعى فى ذكراه الأولى . . مجموعة من الكتاب.

يحـــيى حـــقى



معذرة عطر الأحباب وشهرته «يحيى حقى». كنت قد اعتزمت أن أكتب عنك بمناسبة رحيلك «٨ ديسمبر عام ١٩٩٢م» ثم فاجأنى أشهر ظرفاء العصر وشهرته «كامل الشناوى» بذكرى مولده «٧ ديسمبر عام ١٩٠٨م». وأنت تعرف بالطبع مقالب كامل الشناوى ونوادره. وقلت لنفسى لا بأس أن تؤجل موضوع «يحيى حقى» إلى مناسبة تاريخ مولده «٧ يناير عام ١٩٠٥م». ثم تأخر نشر الموضوع إلى اليوم «٢١ يناير» من «باب العشم» وقلنا: على أية حال فإن النشر يقع فى شهر يناير و«خليها على الله».

وعام ١٩٧٠م كنت مديراً لإدارة المجلات الثقافية التى تصدرها وزارة الثقافة. وحدثت تغييرات كان منها أن يحتل د. عبد القادر القط رئاسة تحرير مجلة «المجلة» محل «يحيى حقى» الذى بقى رئيساً لتحرير المجلة من عام ٦٢ - ١٩٧٠م.

وكان زميلنا الكاتب الصحفى والقاص «سامى فريد» سكرتيراً لتحرير «المجلة» والذى انتقل إلى «جريدة الأهرام». وفى الفترة الأخيرة أودع ذكرياته مع «يحيى حقى» كتابه الأخير «يحيى حقى عازف الكلمات» وألقى عليه الأضواء د. ماهر شفيق فريد .. فى مقاله بجريدة الأهرام ١٨ ديسمبر عام ١٩٩٨م.

وقد عشت مع أعمال يحيى حقى الثمانية والعشرين طوال فترة إعادة إصدارها بهيئة الكتاب بداية من «٨٥ - ١٩٩٠م» والفضل فى إعدادها للنشر ومراجعتها للزميل الراحل «فؤاد دوارة» الذى عمل سنوات عديدة مع «يحيى حقى» فى مجلة «المجلة».

ثم عدت أنشغل به وبأعماله فى ندوة مهمة أعددتها عنه بالمعرض الدولى للكتاب ودعوت إليها للحديث زميلى «د. مصطفى ماهر» الأستاذ بكلية الألسن، والأديب الصديق «خيرى شلبى» الكاتب المبدع وذلك فى يناير عام ١٩٩٣م عقب رحيله فى ٨ ديسمبر عام ١٩٩٢، والآن إلى نسمات طيبة مع عطر الأحباب يحيى حقى.

شأنه شأن الكبار «محمود سامى البارودى وقاسم أمين، وأحمد شوقى، وتوفيق الحكيم» به عرق تركى. وهم جميعًا انتموا لمصر بأخلص ما يكون الانتماء، وتركوا لمصر من كنوز المعرفة بأرقى ما تكون المعرفة. نشأ «يحيى حقى» فى حى مصرى شديد المصرية هو حى «السيدة زينب». ظهر من خلف مقام «الست» وعاش مع دراويشها وهم يغنون «تواشيح المولد». أوحى له مناخ الحى بأن يأخذ الكتاب بقوة فأصدر «قنديل أم هاشم» وكانت روحه الشعبية طاغية.. عندما أصبح رئيسًا لمصلحة الفنون، بعث «زكريا الحجاوى» ابن بحيرة المنزلة إلى كفور مصر ونجوعها ليجمع المغنيات والمغنين فى فرقة للرقص والغناء والفن الشعبى الأصيل.

وأصبح ذوو العرق التركى «البارودى وقاسم أمين وشوقى والحكيم وحقى» جنبًا إلى جنب المصريين الخلص «رفاعة رافع الطهطاوى ومحمود مختار وعباس محمود العقاد وسيد درويش وطه حسين، وإبراهيم عبد القادر المازنى، وسلامة موسى وعلى مصطفى مشرفة» وأصبحوا جميعًا من أعمدة الحكمة «بناة مصر الحديثة».

وأصبح «يحيى حقى».. قنديل أم هاشم، وفجر القصة المصرية، وصح النوم ودماء وطين، وعطر الأحباب ويا ليل يا عين وخليها على الله وصفحات من تاريخ مصر ومن فيض الكريم وتراب الميرى ومن باب العشم وكناسة الدكان.. أصبح مصريًا صحيحًا من شعر رأسه إلى أخمص قدميه.. قرأ بالإنجليزية والفرنسية والإيطالية دون أن يفقد لحظة واحدة انتماءه الشرقى الإسلامى العربى المصرى. ترجم لمسترلنك وياسترناك وتوماس مان وسنيفان زفايج وفروست وفرويد ومالرو.. وأصدر مقابل هذا كله من تراب مصر حوالى ثلاثين عملاً أتخيله الآن يدق بعصاه القصيرة مثله ويقول بجديته التى عاش وعرف بها.. ثمانية وعشرين عملاً يا مطيعى.

وأتركه يقدم لنا هذا العرق التركى . . يقول فى سيرته الذاتية : فى أوائل القرن التاسع عشر قدم إلى مصر من مسلمى المورة شاب اسمه «إبراهيم حقى» كانت خالته الست حفيظة - خازندارة قصور الخديو إسماعيل وبواسطتها عين قريبها الوافد فى خدمة الحكومة المصرية . عمل فترة بدمياط وأصبح مديراً فى إحدى مصالح مديرية البحيرة .

وقد رزق «إبراهيم حقى» بثلاثة أبناء هم : «محمد ومحمود طاهر وكامل» . . التحق ابنه الأكبر محمد - وهو ابى - بالأزهر ، ثم انتقل للدراسة بمدرسة فرنسية وعين بوظيفة بوزارة الأوقاف . وتزوج أبى «محمد» بابنة السيد حسين وكيل مكتب البريد . وأثمر هذا الزواج «إبراهيم وإسماعيل ويحيى وزكريا وموسى وفاطمة وحمزة وصالح ومريم» كنت أنا الابن الثالث بين إخوتى ، ولدت فى ٧ يناير عام ١٩٠٥م بحارة الميضة وراء مقام السيدة زينب فى بيت صغير . . ولا أنسى تأثير هذا الحى على حياتى وتكوينى النفسى والفنى .

بطاقة خاصة:

- ولد فى ٧ يناير عام ١٩٠٥م بحارة الميضة بالسيدة زينب .

- تعلم فى كتاب السيدة زينب ثم مدرسة والدة عباس باشا وحصل على الابتدائية عام ١٩١٧م .

- تخرج من المدرسة الخديوية الثانية عام ١٩٢١م .

- حصل على ليسانس الحقوق عام ١٩٢٥م .

- عمل فترة محامياً تحت التمرين فى الإسكندرية ودمنهور .

- عين معاوناً للإدارة بمنفلوط مديرية أسيوط فى يناير عام ١٩٢٧م . وعاش هناك أهم سنتين فى حياته إذ تعرف خلالهما على أهل الصعيد عن قرب .

- نقل أميناً للمحفوظات بقنصلية مصر فى جدة عام ١٩٢٩م ، ونقل منها إلى استانبول بتركيا من عام ١٩٣٠م - حتى عام ١٩٣٤م . وتعلم اللغة التركية .

ـ عمل بقنصلية مصر بروما من عام ١٩٣٤ ـ حتى عام ١٩٣٩م وعاش فترة الفاشية فى إيطاليا والنازية فى ألمانيا وتعلم اللغة الإيطالية .

ـ نقل عام ١٩٣٩ إلى ديوان وزارة الخارجية حيث عمل مديراً لمكتب الوزير مع «مصطفى النحاس» .

ـ تزوج لأول مرة عام ١٩٤٢ من كريمة «عبد اللطيف سعودى المحامى» عضو مجلس النواب عن الفيوم . وعاشت معه ثلاثة أشهر وتوفيت بعد أن أنجبت له وحيدته «نها» ، وهى حرم زميلنا الكاتب بالوفد «المستشار سعيد الجمل» .

ـ عمل سكرتيراً أول لسفارة مصر بباريس من عام ٤٩ ـ إلى عام١٩٥١م وهناك تعرف بزوجته الثانية وهى فنانة فرنسية وكان الزواج الثانى عام ١٩٥٤م .

ـ نقل مستشاراً لسفارة مصر بأنقرة عامى ٥١ و١٩٥٢م .

ـ عمل عام ١٩٥٣ وزيراً مفوضاً لمصر فى ليبيا .

ـ وبسبب زواجه من فرنسية نقل عام ١٩٥٤ من وزارة الخارجية إلى مصلحة التجارة بوزارة التجارة .

ـ فى عام ١٩٥٥ عين مديراً لمصلحة الفنون حتى عام ١٩٥٨ .

ـ عام ١٩٥٩ عين مستشاراً فنيًا لدار الكتب المصرية .

ـ شغل منصب رئيس تحرير مجلة المجلة من عام ٦٢ إلى عام١٩٧٠م .

ـ نال جائزة الدولة التقديرية فى الآداب عام ١٩٦٩ .

ـ ثم جمع أعماله فى كتب حتى عام ١٩٩٠م .

ـ توفى فى ٨ ديسمبر عام ١٩٩٢م .

السيرة الثقافية:

يقول بعباراته الخاصة الحلوة :

لا قياس عندى لعمرى إلا بهذه اللحظات التى نبض منها عرق فى روحى مهتزاً

بجدل قدسى عند التقائى بالفن وعند التقائى بالشعر والموسيقى ثم النحت ثم التصوير ثم العمارة. لست أدرى أين أضع بينها لقائى برشاقة الإنسان فى فن الباليه.

ولا ولوج إلى ساحة السعادة - فى اعتقادى - إلا من أحد أبواب ثلاثة: الإيمان والفن والحب.

كان علينا فى فن القصة أن نضرب على من يحكى لنا قصة حياته، ويقول اكتبوها فهى قصة جميلة حقًا. ونقول: لا . . القصة شىء مختلف أشد الاختلاف. وأعترف أننى إلى اليوم أنتفض من شدة الضيق حين أقرأ: الفنان الخالق، فلان خلق هذا العمل . . إنى لا أعترف بخالق الا «الله» وحده أحب أن أكتب بدلها: «الفنان المبتكر».

وينبغى لى أن أعترف أن اللغة العامية قد داعبتنا أول الأمر. ولكننا تحولنا - بدافع غريزى - إلى الفصحى لأنها الأقدر على بلوغ المستويات الرفيعة على ربط الماضى بالحاضر على توحيد الأمة العربية.

ثم قفزنا بعد ذلك إلى أن نكون لنا «قصة مصرية» لحمًا ودمًا. ولكننا لم نستطع أن نتقدم فى هذه الطريق . . حتى تمد الفنون الشعبية رواقها فى ظل الاشتراكية.

وبجانب هذا التيار تيار آخر، تيار ثقافة تقول بعالمية الفن. وقد حاولنا عقد صلح بين التيارين.

نشأت فى بيئة تعشق القراءة . . والدتى وأبى . . وكذلك أخى الأكبر إبراهيم. حينما كانت تظهر قصيدة لأحمد شوقى فى الصفحة الأولى من الأهرام كان البيت كله يقف على رجل.

وحاول «يحيى حقى» أن يضع معياراً للثقافة. يرى أن كلمة «أدب» فى اللغة العربية كانت فى الأصل - تعنى تغذية البدن. فيقال أدب فلان «بفتح الدال» أو «بتسكين الدال» بمعنى صنع مأدبة. ثم أصبحت تعنى أيضًا «تغذية العقل والروح».

فلا تنفصل الأخلاق عن العلم، ولا الروح عن العقل. ولا الفرد عن المجتمع،

وقد آن الأوان لأن نلح إلحاحًا شديداً على تفهيم العامة بأن الثقافة تتضمن كل المعانى التى كانت تتضمنها كلمة «أدب» فى عز مجدها. ولو سألتنى ما هو أصدق معيار عندك لارتفاع مستوى الثقافة أقول: حين أجد حياة المثقف فى بيته أو فى معاملته مع الناس تنم عن ذوق مهذب معتدل، يورث صاحبه مزيداً من الإدراك للثقافة من وظيفة اجتماعية.

وهكذا كان «يحيى حقى» مثقفًا بمعنى الكلمة بين أقرانه من المثقفين وفى تعامله مع أجيال القراء والمتصلين به من الشباب فابتكر منهم «ولا أقول خلق» عناصر واعدة مرموقة. وقد عرف عند هؤلاء الشباب ومحبيه بالدقة والتجديد وبأنه يفضل الشعر على القصة لأن فيه قدراً أكبر من الإيجاز.

وعرف فى مجلة «المجلة» بأنه مربى الشباب «يجلس كشيخ العمود يستمع إليهم معتمداً بوجهه على راحتيه متابعًا قصيدة أو قصة أو مقالاً لناقد مصححًا موضحًا موجهًا باذلاً نصحه وخلاصة تجربته ورؤيته فى إخلاص كثير وتواضع جم. يمسك عصاه ثم يرفع رأسه أو يومئ، أو يقول لازمته الشهيرة.. أفندم».

شيخ عمود.. أديب كبير.. مثقف عظيم. مرب فاضل.

كيف يرى أعماله:

ذكرنا من قبل عدداً من أعماله التى تكشف عن مصرية يحيى حقى الأصيلة وقبل أن نسجل مؤلفات يحيى حقى وهى بأكملها تؤكد هذه «المصرية».. قبل هذا وذاك نورد هنا كيف كتب هو عن بعض هذه الأعمال.

* فى أول يناير عام ١٩٢٧م تسلمت عملى معاونًا للإدارة بمركز منفلوط حيث قضيت أهم سنتين فى حياتى على الإطلاق. أتيح لى خلالهما أن أعرف بلادى وأهلها وأخالط الفلاحين عن قرب، وأعيش فى الحقول بين نباتها وحيواناتها. بل وجدت فيهما سعادتى عندما أصبح الحمار يزاملنى طول النهار. وسجلت تلك المرحلة على مستويين: المستوى الوصفى فى «خليها على الله» وجعلت محورها أسباب الهوة التى تفصل بين الحكومة والفلاحين.

أما المستوى الثانى فهو التصوير القصصى فى مجموعة «دماء وطين»، وهى عبارة عن صعيديات تدور فى منفلوط ولها بقية فى مجموعة «أم العواجز».

* نقلت من جدة إلى استانبول عام ١٩٣٠، وهنا أتيح لى أن أرقب تلك التجربة الخطيرة التى قام بها مصطفى كمال. وبعد أربع سنوات حافلة قضيتها فى تركيا نقلت إلى روما. فانتقلت من دكتاتورية أتاتورك إلى فاشية موسولينى. وطوال تلك السنين لم أنقطع عن التفكير فى بلادى وأهلها. كنت دائم الحنين إلى تلك الجموع الغفيرة من الغلابة والمساكين الذين يعيشون برزق يوم بيوم. وحين عدت إلى مصر عام ١٩٣٩ شعرت بجميع الأحاسيس التى عبرت عنها فى «قنديل أم هاشم» إن بطل القصة شاب يريد أن يهز الشعب المصرى هزا عنيفًا. وخرجت قصة «قنديل أم هاشم» من قلبى مباشرة كالرصاصة واستقرت فى قلوب القراء.

** وإلى الذين يعشقون الاحتفاظ بتفاصيل سير الأدباء المفضلين لديهم نورد فيما يلى: مؤلفات يحيى حقى:

١ - قنديل أم هاشم - مع سيرة ذاتية للمؤلف.

٢ - فجر القصة القصيرة - مع ٦ دراسات من نفس المرحلة.

٣ - فكرة فابتسامة.

٤ - صح النوم.

٥ - خطوات فى النقد.

٦ - دمعة فابتسامة - مع الدعابة فى المجتمع المصرى.

٧ - دماء وطين - مع قصص أخرى من الصعيد.

٨ - تعالى معى إلى الكونسير.

٩ - ناس فى الظل مع شخصيات أخرى.

١٠ - أم العواجز.

١١ - حقيبة فى يد مسافر ورحلات أخرى.

١٢ ـ عطر الأحباب مع ٢٠ دراسة أخرى .

١٣ ـ عنتر وجوليت .

١٤ ـ ياليل يا عين ـ سهراية مع الفنون الشعبية .

١٥ ـ أنشودة للبساطة ـ مقالات فى فن القصة .

١٦ ـ خليها على الله .

١٧ ـ صفحات من تاريخ مصر .

١٨ ـ من فيض الكريم .

١٩ ـ الفراش الشاغر وقصص أخرى .

٢٠ ـ مدرسة المسرح .

٢١ ـ هموم ثقافية .

٢٢ ـ تراب الميرى .

٢٣ ـ عشق الكلمة .

٢٤ ـ من باب العشم .

٢٥ ـ فى السينما .

٢٦ ـ هذا الشعر .

٢٧ ـ فى محراب الفن «موسيقى ـ تشكيل ـ عمارة» .

٢٨ ـ كناسة الدكان .

أيام الثورة:

عندما توفى «مصطفى كامل» فى فبراير عام ١٩٠٨م كان «يحيى حقى» فى الثالثة من عمره ، وبعد أن شب عن الطوق وجد «اللواء» هى الجريدة المفضلة لدى

الأسرة. وعندما انتشرت أحداث ثورة ١٩١٩م كان فى الرابعة عشرة من عمره وأخذت الأسرة تتعلق بسعد زغلول وتتابع أحداث الثورة. وكان يصحب أباه وشقيقيه إبراهيم وإسماعيل إلى بيت الأمة وإلى الأزهر وإلى السرادقات ليستمع إلى خطباء الثورة وبهرته أصواتهم المجلجلة حتى أصبحت الخطابة من بين هواياته.

وكان الإنجليز حين يسدون الطريق المؤدية للأزهر ليمنعوا الجماهير من حضور اجتماعات الثورة، كان الفتى حقى يسير مع أبيه وأخويه فى طرق ملتوية وأزقة ضيقة حتى يصلوا إلى الأزهر ويستمعوا إلى خطباء الثورة وكان أفراد الأسرة يتخاطفون بلهفة شديدة ما يصل إلى أيديهم من منشورات الثورة. وقد سار الشاب حقى فى بعض المظاهرات الصاخبة التى كانت تكتسح شوارع القاهرة. ويقول فى سيرته الذاتية: «ومازلت أذكر إلى اليوم الجموع الغفيرة من جميع طبقات الأمة التى خرجت لتشييع جنازة ابن القباقيبى فى حى الركيبة، وكان قد قتل برصاص الإنجليز. وهكذا التحقت بمدرسة الحقوق وقد تشبع وجدانى حتى الثمالة بحب مصر».

حقى دبلوماسيًا:

فى أول يناير عام ١٩٢٧م تسلم عمله الجديد معاونًا للإدارة بمركز منفلوط، حيث مضى أهم سنتين فى حياته على الإطلاق - على حد تعبيره. وفى منفلوط وقع نظره على إعلان لوزارة الخارجية بأنها ستعقد مسابقة تعيين الفائزين فيها بوظائف أمناء المحفوظات فى القنصليات والمفوضيات. وتقدم للمسابقة ونجح وصدر الأمر بتعيينه أمينًا لمحفوظات القنصلية المصرية فى «جدة». وفى جدة فيما بين عامى ١٩٢٩ و١٩٣٠ رأى المسلمين يأتون للحج من جميع أرجاء العالم فيكونون لوحة شاسعة كان لها أقوى الأثر فى نفسه. وفى جدة التقى بالعقلية الغربية المنظمة ممثلة فى بعض رجال السلك الدبلوماسى.

ونقل من جدة إلى استانبول بتركيا عام ٣٠م، والتقى بمصطفى كمال أتاتورك أكثر من مرة، وهناك ارتدى القبعة لأول مرة. وتعلم التركية وأتقنها. وقابل الشاعر «عبد الحق حامد» شكسبير تركيا فى آخر أيامه.

وعام ١٩٣٤ نقل إلى روما ورأى فاشستية موسوليني وعرف نازية هتلر وأقبل على الأدب الإيطالي واغترف منه وتعلم الإيطالية. وبدأ اتصاله بالحضارة الأوروبية ودرس الموسيقى والتصوير والمعارض والمتاحف والمسارح. وعاد إلى مصر عام ١٩٣٩م حيث عمل بديوان وزارة الخارجية.

وفي عام ١٩٤٩ عمل سكرتيراً أول لسفارة مصر بباريس حتى عام ١٩٥١م وعاش في باريس ذلك الإحساس الغامر بطعم الحرية، ولم يكن قد ذاق ذلك الطعم - على حد تعبيره - «لا في القاهرة ولا في جدة ولا في تركيا ولا حتى في روما».

وعلى درب الفن التقى بزوجته الثانية «جان ميرى جيهو» لفتت لوحاتها وتماثيلها نظره. فتزوجها عام ١٩٥٤ ومن أجلها ترك السلك الدبلوماسي ليعمل في وزارة التجارة والصناعة . . وبدأت مسيرته في مسالك وزارة الثقافة.

نادى مجلة المجلة:

وإذا كان «يحيى حقى» يقول في سيرته الذاتية إن أهم سنتين في حياته على الإطلاق هما ١٩٢٧ - ١٩٢٨ قضاهما في «منفلوط مديرية أسيوط»، ففي تقديرنا أن أهم سنوات عمره على الإطلاق هي السنوات من عام ١٩٦٢ - ١٩٧٠م التي قضاها رئيساً لتحرير مجلة «المجلة». ومجلة المجلة وشعارها «سجل الثقافة الرفيعة» بدأت برئاسة تحرير «د. محمد عوض محمد» الأديب عالم الجغرافيا وبعده «د. حسين فوزى» العالم الموسيقى الأديب، ثم «الدكتور على الراعى» المثقف الدوغرى إذا صح هذا التعبير. وجاء «يحيى حقى» شيخ العمود وعمل معه فؤاد دوارة وسامى فريد. وتحولت «المجلة» إلى خلية نحل من أدباء الأقاليم، وكان يحرص «حقى» على مراسلتهم ومقابلتهم وخرج منهم أدباء أوفياء وواعدون. وكان مع الأدباء جميعًا جم للتواضع وعلى حد تعبير هؤلاء الأدباء «يحيى حقى رجل بقلب طفل» وكانت قصصه - في رأيهم - منمنمات محكمة أو نقوش على العاج يمر الزمن فلا يزيدها إلا ثباتا ورسوخا كان جاداً في أعماله كافة، يكفى أن نقول ما قاله هو أنه أعاد كتابة قصة «الفراش الشاغر» ٣٥ مرة. كان مصريًا مخلصًا

فقرأت عنده وأنا أبحث عن رجال من مصر . . وجدته قد كتب عن: أحمد عبد المجيد - ابن القباقيبي - فؤاد السيد - محمد توحيد السلحدار وغيرهم من «ناس فى الظل».

الأسانيد:

أحمد تيمور «د» . . الأهرام ١٩/ ١٢/ ١٩٩٨م.

سامى فريد . . يحيى حقى عازف الكلمات.

ماهر شفيق فريد «دكتور» . . الأهرام ١٨/ ١٢/ ١٩٩٨م.

يحيى حقى: -

أ- . . قنديل أم هاشم وسيرة ذاتية.

ب- . . صفحات من تاريخ مصر.

ج- . . . ناس فى الظل.

د- . . . هموم ثقافية.

هـ- . . . فجر القصة المصرية.

و- . . . خطوات فى النقد.

يحيى حقى . . مجلة الثقافة «يناير ١٩٧٥».

يوسف بك وهبى



فنانتان كبيرتان مرموقتان عملتا معه واقتربتا منه وكتبتا عنه . . روزاليوسف الصحفية والفنانة فى «ذكريات» وفاطمة رشدى - سارة برنار الشرق فى كتابها عن زوجها وأستاذها «الفنان عزيز عيد» . والفنان المعلم الأستاذ زكى طليمات فى كتابيه «فن الممثل العربى - وذكريات ووجوه» ، والكاتب الفنى الباحث الأستاذ كمال رمزى فى كتابه «نجوم السينما المصرية» . ثم تأتى «مذكرات محمد كريم جـ١ ، جـ٢» التى أعدها : محمود على .

وفى مئوية ميلاده نحتفل هنا بهذا الرجل من مصر «يوسف وهبى» هل نصفه لكم قبل أن نسير معًا فى سيرة حياته وما فيها من أمجاد وصعاب؟ . . قوام فارع وممتلىء فى غير ترهل . . ملامح حادة التقاطيع فى تكوين الوجه . . عنده نزعة إلى التحدى . . يتمتع بذكاء حاد ورهافة فى الحس . . اتزان فى الانفعال . . نبر صوتى ذو جرس نافذ . . قوة الطبع . . ووفرة الحيوية . . صوته يهدر ساخنًا مليا بالانفعالات . أيسر يأكل ويكتب باليد اليسرى . . يعرف كيف يستثير الجمهور . . صوت جهير وإشارات وحركات جياشة . . شخصية جريئة ومقتحمة . . طاقة جبارة وأعصاب من حديد .

قال عنه «زكى طليمات» صديقه اللدود : يوسف هو «العظامى» بحسبه إذ هو البك ابن الباشا ابن الباشا وهو «العصامى» إذ هو نزل إلى كسب عيشه بطريق العمل الشاق . ابن المهندس عبد الله باشا وهبى كبير مهندسى الرى فى الأشغال سابقًا .

كان أول عرض شاهده فى مدينة سوهاج، كانت مسرحية «عطيل لشكسبير» . . وفى المسرحية قائد وأمير ودسيسة وغيره وصلاة وقتل، ودماء وحب. ودخل المسرح إلى دماء الصبى الصغير.

انتقلت الأسرة إلى القاهرة عام ١٩١٢م. وغرق الصبى فى المسرح والتمثيل ورأى «جورج أبيض» العائد حديثًا من فرنسا، ومحمد كريم العائد حديثًا أيضًا من أوروبا. وانضم إلى جمعية أنصار التمثيل ورأى محمد ومحمود تيمور وزكى طليمات وعبد الوارث عسر، ومحمد عبد القدوس، وسليمان نجيب، والكاتب إبراهيم رمزى، وانزلق الصبى الهاوى إلى إلقاء المونولوجات الحفلات الخيرية، وألحقه عزيز عيد بأعماله ليلقى بعض المونولوجات أثناء التمثيل. كل هذا والأسرة لا تدرى عن ابنها الصبى شيئًا . . رايح فين؟ إلى المدرسة . . جاى منين، من المدرسة، إلى أن شاهد والده عبد الله باشا وهبى . . كبير مهندسى الرى، شاهد اسم ابنه «يوسف وهبى» على إعلان لمسرحية اسمها «حنجل بوبو» ولم يصدق الباشا عينيه إلى أن دخل وشاهد المسرحية المتواضعة، ورأى ابنه فى دور هزيل يدعو إلى السخرية. وبكى الباشا على ابنه وريثه فى مقتبل الأيام وعلى مستقبله.

حنجل بوبو إلى إيطاليا:

وأقسم الباشا على ألا يبقى ابنه يومًا واحدًا فى مصر، وأن يسافر فورًا إلى إيطاليا وشدد عليه بأن يدرس فى إيطاليا أى شىء فيما عدا التمثيل والمسرح. وسافر «الولد» إلى إيطاليا لينغمس فى كل شىء يتصل بالتمثيل والمسرح وفنونه ولا يفعل شيئًا آخر. وأجبر الأب ابنه على أن يترك القصر لأنه احترف التمثيل فى فرقة «عزيز عيد» وأصبح لأول مرة - كما يقال - ضمن الذين لا تقبل شهاداتهم فى المحاكم. كان على يوسف أن يعيش عيشة من لا قصر له وأن يركب أول سفينة إلى إيطاليا . . ومكث فى إيطاليا عدة سنوات . . تعلم اللغة الإيطالية، وظهر فى صفوف الكومبارس فى بعض الأفلام الإيطالية. وتجول فى كل أنشطة السينما والمسرح كما أنه - كما يقول زكى طليمات - أعطى للشيطان حقه.

وكانت المفاجأة عام ١٩٢٢ . . وفاة عبد الله وهبى باشا وترك ثروة تقدر بعشرة آلاف جنيه ذهبًا، غير أملاك أخرى، وعقارات . . وتذكر «فاطمة رشدى» عن زوجها وأستاذها «عزيز عيد» أنه كان أمهر الناس فى اقتناص المال ويجيد كيف يوقع بالفريسة الثرية. وفاجأ عزيز عيد زوجته وتلميذته الصغيرة فاطمة رشدى باعتزامه السفر إلى إيطاليا ليعود ومعه يوسف وهبى الشاب الذى أصبح غنيًا ليقيما معًا مشروعًا فنيًا كبيرًا. وأكد عزيز لفاطمة أنه سينجح فى تلك المهمة. وتقول «روزاليوسف» فى ذكرياتها ما يؤكد كلام فاطمة رشدى: «وعلم عزيز عيد بأن والد يوسف قد مات وأن الشاب الذى يهوى التمثيل قد أصبح وارثًا غنيا . . وبسرعة البرق حزم عزيز عيد حقائبه وأعلن أنه مسافر إلى إيطاليا ليقابل يوسف وهبى ويقنعه بإنشاء فرقة تمثيلية».

ومضى شهران أو ثلاثة ورست الباخرة فى الإسكندرية تحمل «عزيز عيد» ومختار عثمان - كان قد سافر إلى إيطاليا مع عزيز، وتحمل أيضًا يوسف وهبى، ومعه زوجته وهى سيدة أمريكية تربت فى إيطاليا تقول عنها «روزاليوسف» إنها كانت سيدة محترمة مهذبة جدًا» . . وأصبح يوسف وهبى فى بلده مصر.

فرقة رمسيس:

بتأثير ثورة ١٩١٩ كان شعار «مصر للمصريين» هو السائد فى الفكر والأدب والفن. أطلقت ثورة ١٩١٩ العبقرية المصرية من عقالها وبدأ تجاه العودة إلى «المصرية» و«الفرعونية» وجدنا هذا لدى «أحمد حسين» رئيس جماعة «مصر الفتاة» ودعوته إلى كتائب أحمس، ولدى الكاتب «محمد حسين هيكل» رئيس تحرير جريدة السياسة، بل وجدناه لدى الناقد «سيد قطب» فى بداية حياته الثقافية ثم تحول فى نهاية حياته إلى «التيار الإسلامى».

وعلى الرغم من المدة التى قضاها «يوسف وهبى» فى إيطاليا، وعلى الرغم من زوجته الأمريكية التى تربت فى إيطاليا إلا أن مشاعر المصرية والفرعونية كانت

تسرى فى دمائه. واتفق مع «عزيز عيد» على تكوين الفرقة التمثيلية الجديدة باسم «فرقة رمسيس» نسبة إلى الملك المصرى العظيم «رمسيس».

وانطلق «عزيز عيد» مخرج الفرقة يجمع الممثلين والممثلات. واكتملت فى البداية فرقة صغيرة من ١٥ ممثلا وممثلة .. باقة بديعة من الممثلين والممثلات. من الممثلات روزاليوسف وكانت زوجة وقت ذلك للفنان المعروف «زكى طليمات» وافقت روزاليوسف ورفض «زكى طليمات» وإن كان قد عاد وانضم إلى الفرقة فى جولة قادمة. وانضمت إلى الفرقة منذ البداية «فاطمة رشدى» مع زوجها وأستاذها «عزيز عيد» صاحب الكلمة الطولى داخل الفرقة. وانضمت أيضًا إلى الفرقة «زينب صدقى» ومن الفنانين الذين بادروا بالانضمام إلى فرقة رمسيس إلى جانب المخرج الكبير «عزيز عيد» كان «أحمد علام وحسين رياض وحسن فايق».

ورفع الستار عن مسرحية «المجنون» فى مارس عام ١٩٢٣ ولقيت الفرقة نجاحًا كبيراً وتوالى انضمام الفنانين والفنانات إلى فرقة رمسيس .. انضم إليها «جورج أبيض» نفسه بقامته الفنية الكبيرة. وانضم إليها «استفان روستى، منسى فهمى، حسن البارودى، علوية جميل، أمينة رزق، عبد السلام النابلسى، روحية خالد، زكى رستم، دولت أبيض، بشارة واكيم، فؤاد شفيق عبد العزيز خليل»، وانضم للفرقة إلى جانب المخرج المحدودب «عزيز عيد» المخرجان زكى طليمات وفتوح نشاطى. وجمعت الفرقة حولها من الكتاب المرموقين .. أمير الشعراء «أحمد شوقى» برواية «قمبيز» وتوفيق الحكيم، وأنطون يزبك وحبيب جاماتى وإبراهيم المصرى، باختصار ولدت «فرقة رمسيس» عملاقة يدور فى فلكها كبار الممثلين والممثلات، عظماء المخرجين ونوابغ الكتاب. وارتفع اسم «يوسف وهبى» فى سماء الفن المصرى، وارتفع اسم فرقة رمسيس.

الفرقة ويوسف بيه:

عاشت فرقة رمسيس نابضة بالحياة بين تقدم وتراجع منذ عام ١٩٢٣م إلى عام ١٩٦١م، وقدمت طوال هذه المدة ٢٢٤ مسرحية بعضها نال بها «يوسف بيه» تقديرا وإعجابا مثل «راسبوتين» عن الشيطان الذى ظهر فى روسيا فى صورة رجل دين،

ومثل «كرسى الاعتراف» وتألق فى دور «الكاردينال» والذى حاز إعجاب «الفاتيكان».

وتقول «روزاليوسف» فى «ذكريات»: «اليوم أصل إلى مرحلة مهمة من مراحل التاريخ المسرحى فى مصر. وأقصد بها تلك المرحلة التى لمعت فيها فرقة رمسيس.. الفرقة التى مازال الناس يذكرونها كصفحة مجد للمسرح المصرى».

وتشهد «فاطمة رشدى» بأن زوجها وأستاذها «عزيز عيد» قال: إن فرقة رمسيس لا تقل بأى حال من الأحوال عن مستوى الفرق العالمية.. وقال: كنا فى فرقة رمسيس ننافس الفرق الأجنبية ولا أبالغ إذا قلت إننا كنا ننافس فرقة «الكوميدى فرانسيز» وغيرها من الفرق الأجنبية.

كان «يوسف وهبى» خلال فترة فرقة رمسيس يؤلف للفرقة ويترجم ويقتبس ويدير الشئون الإدارية. ويحمل رتبة البكوية من الملك فاروق.

ولا ينكر أحد أن «يوسف وهبى وروزاليوسف» تأثرا بأسلوب عزيز عيد الذى كان يفرض شخصيته على الذين يعملون معه ولا يقبل المناقشة ولا المراجعة. من الناحية الأخرى فقد كان يوسف وهبى وروزاليوسف كلاهما شخصية غير انقيادية.

وظهرت كفاءة «يوسف وهبى» فى إدارة العمل.. عندما انتهى يوسف وعزيز من تكوين الفرقة أن عثرت الفرقة على صالة أرضها بلاط وصاحبها يهودى. وأثبت «يوسف» كفاءة فى الإدارة وذوقًا فى الدعاية يحسد عليها.. وتحولت الصالة إلى مكان للفرقة يصلح للعمل على مستوى طيب.

وكانت رمسيس والسينما:

وأيا كان الموقف من «يوسف وهبى بك» بين المادحين والقادحين، إلا أن «فرقة رمسيس» أصبحت حقيقة راسخة فى المسرح المصرى وأصبحت أفلامه واقعًا مهما فى السينما المصرية. ولقد حرص «يوسف بيه» على أن يكون فى مسرحياته وأفلامه الفتى الأول أو «البطل» وليس أى دور آخر.

ورفع الستار عن مسرحية «المجنون» فى ١٠ مارس عام ١٩٢٣ . وكان من بين شهودها الناقد «إبراهيم عبد القادر المازنى» ويعمل فى جريدة «الأخبار» التى يصدرها «أمين الرافعى» وقد أثنى «المازنى» على جميع الممثلين والممثلات وهاجم «يوسف وهبى» وحده وهو صاحب الفرقة والبطل . وقدم المازنى النقد إلى رئيس التحرير «أمين الرافعى» وتصادف وجود «عبد الخالق مدكور باشا» وهو صهر أسرة يوسف وهبى . ونجح مدكور باشا فى عدم نشر النقد ونقل ما حدث إلى قريبه «يوسف وهبى» ومن يومها كف المازنى عن نقد يوسف وهبى وحرص يوسف عن العلاقة الطيبة بالنقاد .

وانفجر العمل الثانى بالنجاح وهو مسرحية «غادة الكاميليا» التى ترجمها الصحفى الكبير ـ فيما بعد ـ الأستاذ محمود عزمى . وكتب محمود كامل وتوفيق دياب ومحمد التابعى نقداً هو الثناء الخالص لهذا العمل الفنى الكبير . وتوارى قلم «المازنى» فى النقد الفنى .

والعرض الثالث كان «راسبوتين» الذى نجح فيه يوسف وهبى نجاحًا منقطع النظير . وترجم «حبيب جاماتى» الذى عرف بسلسلة «ما أهمله التاريخ» ترجم مسرحية «ميذورا» . ثم انضم «جورج أبيض» ومعظم أفراد فرقته إلى فرقة رمسيس وقدم رواية «سيرانو ، دى برجراك» وهى رواية للكاتب الفرنسى «أدمون روستان» وكان قد عربها «مصطفى لطفى المنفلوطى» ونشرها تحت اسم «الشاعر» . واستمر تمثيل الرواية فى الليلة الأولى من الساعة التاسعة مساء حتى الرابعة فى الفجر . وتروى «روزاليوسف» أن المتفرجين عندما خرجوا من المسرح وجدوا الصباح قد أشرق ، والمدينة بدأت تستيقظ وتقول «روزا» فى ذكرياتها صفحة ٨٦ . . «وفى اليوم التالى اجتاحت القاهرة موجة من الطلاق بسبب هذا الحادث الفنى الفريد . فكم من زوجة لم تصدق زوجها حين جاء إليها الفجر وأقسم لها أنه كان فى المسرح . وكم من زوج لم يصدق زوجته التى عادت إليه فى الصباح» .

أما على مستوى السينما . . وافق «يوسف وهبى» على إنتاج قصة «زينب» للدكتور محمد حسين هيكل ، وعرض الفيلم فى ١٢ أبريل عام ١٩٣٠م . وحقق

نجاحًا كبيراً. وفى عام ١٩٣١ ـ ١٩٣٢م قام ببطولة فيلم «أولاد الذوات» وشاركته التمثيل «أمينة رزق»، وقدم مسرحية «الدفاع» عام ١٩٣٤ وحولها إلى فيلم عام ١٩٦٢ الذى يعرض حاليا بمناسبة مئوية يوسف وهبى. وأخذ يحول بعض مسرحياته الناجحة إلى أفلام سينمائية مثل «عاصفة على الريف عام ١٩٤١» وهكذا الدنيا عام ١٩٤٠. وسفير جهنم ١٩٤٤، وكرسى الاعتراف عام ١٩٤٨ وبيومى أفندى عام ١٩٤٩. ثم بدأ الفشل يزحف إلى فرقة رمسيس ولكنها كانت قد قدمت الكثير من الأعمال الناجحة.

مبعوث العناية:

ونلاحظ أن «يوسف وهبى بك» شأنه شأن غيره من الفنانين تستهويه الألقاب سواء التى يطلقها الجمهور أو التى يخترعها ويروجها الفنان نفسه. والأمثلة كثيرة .. على الكسار «بربرى مصر الوحيد» ونجيب الريحانى «كشكش بيه» وبشارة واكيم «أبو الشوام» وفريد شوقى «الملك أو ملك الترسو أو وحش الشاشة» وجورج أبيض «تلميذ سيلفان» وهو ممثل فرنسى تتلمذ جورج أبيض على يديه. ولدينا محمد عبد الوهاب «مطرب الأجيال» وأم كلثوم «كوكب الشرق» وكان الأمر كذلك بالنسبة ليوسف وهبى.. اللقب الشائع «مبعوث العناية الإلهية» والقول فى هذا اللقب يختلف.. البعض يقول إن الناس أطلقوه على فنانهم المحبوب والبعض يقول إنه من اختراع يوسف بيه نفسه وروجه على أنه من صنع المعجبين.

على أية حال فقد اشتهر ببعض العبارات التى كان يطلقها بطريقته المتميزة مثل «يا للهول» وعبارته التى يحلو للبعض أن يرددها «شرف البنت زى عود الكبريت مايولعش غير مرة واحدة».

ولنا بعد هذا كله ملاحظات حول الذين كتبوا عن «مبعوث العناية الإلهية» حرصت «روزاليوسف» فى ذكرياتها عن «يوسف وهبى» أن تسبق اسمه بكلمة «الأستاذ» وحرص «زكى طليمات» أن يقرر الحقيقة حول قدرات يوسف وهبى وعن المدرسة الفنية التى أوجدتها فرقة رمسيس، وحرصت فاطمة رشدى على تسجيل فرحتها عند انضمامها للفرقة بدعوة من يوسف بك وقال «كمال رمزى»

عبارة لها مدلولها وهو يكتب عن «يوسف وهبى» إنه الرجل الذى عاش ألف عام. أما «محمد كريم» فى مذكراته «٥٠ سنة سينما» فيذكر «يوسف وهبى» بصفته رفيق صباه. رحم الله رجلا من مصر اسمه يوسف عبد الله وهبى.

الأسانيد:

١ - زكى طليمات: فن الممثل العربى - ذكريات ووجوه.

٢ - فاطمة اليوسف: ذكريات.

٣ - فاطمة رشدى: الفنان عزيز عيد.

٤ - كمال رمزى: نجوم السينما المصرية.

٥ - مذكرات محمد كريم جـ١ وجـ٢: إعداد محمود على.

يوسف كرم



تباركت اللهم تباركت . . تلك هى العبارة التي ختم بها «يوسف كرم» – المفكر العربى مؤرخ الفلسفة ـ كتابة «الطبيعة ومابعد الطبيعة» الذي صدر يوم وفاته الخميس٢٨مايو عام ١٩٥٩م . وليس هذا من قبيل الصدفة ، فإن «يوسف كرم» له تعريف للإنسان بأنه «حيوان متدين» ويقدم مذهبه الفلسفى بأنه «يتسم باليقين والإيمان . . وبدونهما لا حياة للإنسان بما هو إنسان» . وفى القسم الثانى من كتابه المشار إليه . . يقدم براهين وجود الله وبطلان الإلحادية . وعام ١٩٥٦ أصدر أول كتاب له عن أفكاره هو لا عن أفكار الفلاسفة التى شغل بها من قبل ، الكتاب اسمه «العقل والوجود» . . يرى أن الفلسفات الحديثة عقيمة لأنها خالية من العقل ، خالية من الروح ، وخالية من الإيمان . وكتب عنه صديق «الدكتور محمد يوسف موسى» . . «يتطلع من صميم ذاته للعودة إلى الله خالقه . . وكل الفلسفات التى تتنكر لهذا يراها مصابة بالعقم الذى كان مصيرها على مر الأجيال» . . وقال تلميذه وصديقه «الدكتور مراد وهبة» . . «مات يوسف كرم بعد أن فتح أمام العقلية المصرية أبواب الفلسفة وأمام العقلية الإلحادية أبواب الإيمان . . وأمام طلاب العلم قلبه الكبير» .

الدكتور محمود حمدى زقزوق رئيس الجمعية الفلسفية المصرية ووزير الأوقاف فى كلمته فى افتتاح ندوة ـ الفلسفة وتاريخ العلوم فى مصر فى مائة عام ـ التى عقدت بقاعة ابن سينا ، كلية العلوم جامعة القاهرة من ٥ إلى ٧ ديسمبر عام ١٩٩٩م . . قال : عندما نودع هذا القرن فلن ينسى الدارسون والباحثون فى الفلسفة تلك

البصمات الخالدة التى تركها فى سجل هذا القرن رواد عظام من أمثال: مصطفى عبد الرازق وزكى نجيب محمود وإبراهيم بيومى مدكور وعثمان أمين وتوفيق الطويل ويوسف كرم ومحمود الخضيرى وعلى سامى النشار ومحمود قاسم وزكريا إبراهيم وغيرهم كثيرون.

وقد حدد «الدكتور إبراهيم مدكور» رئيس مجمع اللغة العربية، موقع «يوسف كرم» من مؤرخى الفلسفة فى مصر بقوله: «قامت أسرة الفلسفة بآداب القاهرة على أربعة من المصريين.. الشيخ مصطفى عبد الرازق وإبراهيم بيومى مدكور ويوسف كرم وأبو العلا عفيفى».

وفى حديثه الشخصى عن يوسف كرم قال د. إبراهيم مدكور: ظل دائماً رفيق الطفولة وسنى الشباب الأول. كان فى حكمه على الأحياء لا يطعن فى أحد ولا يبحث عن وسائل التشفى بأية صورة ولا يترك لانحواءات القلب الخفية أو لتلاطم الأهواء أن تتحكم من الطعن فى الحقيقة.

النشأة والحياة المتواضعة:

فى ٨ سبتمبر عام ١٨٨٦م ولد فى مدينة «طنطا» محافظة الغربية واستمر يرتبط بهذه المدينة حتى عندما قام بتدريس الفلسفة فى جامعتى القاهرة والإسكندرية. وتوفى فى بيته فى شارع الشيتى رقم ١٠. وكانت حياته كحياة الفيلسوف الألمانى «كانت» فهو لم يتزوج، وعاش مع أخته يكتب ويفكر بانتظام. ولد فقيراً وتعلم فقيراً والتحق بوظيفة صغيرة فى البنك الأهلى. وادخر جزءاً من مرتبه وسافر إلى باريس حيث درس الفلسفة هناك. وعاش فى حجرة صغيرة فى شقته المتواضعة. وعلى حد تعبير «الدكتور عاطف العراقى» الذى أشرف على الكتاب التذكارى عن يوسف كرم.. «زهد بريق الشهرة وارتضى لنفسه عزلة الفكر وصومعة الفلسفة». وعاش فى صمت ومات فى صمت.

درس فى طنطا الابتدائية والثانوية. وفى فرنسا حصل على دبلوم الدراسات العليا من جامعة السوربون واشتغل بإحدى المدارس الثانوية الفرنسية. وفضلاً عن

الأصدقاء زملائه . . الشيخ مصطفى عبد الرازق والدكتور إبراهيم بيومى مدكور والدكتور أبو العلا عفيفى أحاطه بالود عدد من تلاميذه الأوفياء . . د . عبد الرحمن بدوى و د . عاطف العراقى والأب جورج شحاته قنواتى و د . مراد وهبة وأ . سعيد زايد و د . نبيلة زكرى زكى ، و د . توفيق الطويل ، و د . يحيى هويدى ، و د . زينب محمود الخضرى ، و د . عبد القادر محمود ، و د . عزت قرنى ، و د . محمود صبحى ، و د . محمود زيدان ، و د . محمد يوسف موسى ، و د . عثمان أمين ، و د . نجيب بلدى .

الأصدقاء الأوفياء:

كتب «الدكتور محمد يوسف موسى» الذى أصبح من أخلص أصدقائه : كنت على نية السفر إلى فرنسا لتحضير رسالة دكتوراه فى الفلسفة أمام جامعة السوربون . وكنت وقتئذ فى حاجة إلى دراسة تناول بها الفيلسوف العربى «الكندى» موضوع «العقل» ولم يبق لدينا منها سوى ترجمته إلى اللاتينية . . وكان الأستاذ «يوسف كرم» قد ترجمها إلى العربية وعلى أثر ذلك فاتحت المرحوم «فضيلة الشيخ مصطفى عبدالرازق» فشجعنى على الكتابة إلى «الأستاذ يوسف كرم» وعلى المضى فى سعيى . وكتبت إليه . . ولم يتأخر الرد وصلتنى الترجمة مشفوعة برسالة غاية فى الرقة . . وقرأت فيما بعد كتبه فى تاريخ الفلسفة عبر العصور ولمحت فيها منهجًا جديدًا مقرونًا بشعور دينى مع إيمان عميق . ولست مغاليًا إذا قلت إنه لم يصادفنى أبدًا عالم بلغ عنده التواضع ما بلغه عند «يوسف كرم» . . كان هو مسيحيًا وكنت أنا مسلما ، كان جامعيًا حقيقيًا وكنت أزهريًا حقيقيًا . يتطلع هو من صميم ذاته للعودة إلى الله خالقه . . وكتب «د . عثمان أمين» . . عرفت «يوسف كرم» فى عام ١٩٢٦ عندما بدأ يدرس لنا الفلسفة فى الجامعة . ويوم الجمعة الماضى اعترانى شعور قوى وملح دعانى إلى الذهاب مع مجموعة من الأصدقاء لزيارته فى صومعته . ذهبنا إلى حيث يقطن بطنطا وقضينا ساعة طيبة مع فيلسوفنا العزيز وكان باديًا أن زيارتنا راقت له . انفرجت أسارير وجهه عندما رآنا ندخل عليه ودب فيه النشاط . . وعندما هممنا بالانصراف تردد فى مد يده كما لو كان يريد أن يستبقينا

معه مدة أخرى. وأراد قبل أن انصرف إهدائى كتابه الأخير مشفوعًا بكلمة إهداء سوف يبقى لى دومًا موضع فخار. «كانت هذه الزيارة يوم الجمعة ٢٢ مايو عام ١٩٥٩، ورحل يوسف كرم الخميس التالى ٢٨ مايو عام ١٩٥٩.

المرء حيًا لا أحد إليه يلتفت

وبعد رحيله الكل لخسارته يتحسر.

وقال «الأب جورج قنواتى».. انتقل «يوسف كرم» إلى رحمة الله فى ٢٨ مايو عام ١٩٥٩ فى هدوء بمدينة طنطا بعد مرض طويل.. وقبل ذلك بعشرة أيام كنا كالمعتاد قد ذهبنا لنزوره فى بيته الهادىء. ولو انه كان متعبًا ولكن لم يكن باديًا عليه ما ينبىء بنهاية سريعة على هذا النحو. كان يواصل على المهل وبصعوبة مؤلفه الخاص عن «الأخلاق».. مستسلمًا فى تواضع إلى الإرادة الإلهية، وقابلاً مسبقًا بدافع عن حب عميق ما قدره الله له.

أما تلميذه وصديقه «د. مراد وهبة» فقد اعتاد أن يزوره على امتداد عدة سنوات.. فى صيف عام ١٩٤٨ كان جالسًا معه فى بيته بطنطا وسأله:

- متى تنتهى من تأليف كتاب «الأخلاق»؟

- انتهيت منه ولكننى لن أطبعه»

- لماذا؟

- لأننى لست قانعًا بما كتبت.

ومضت عشر سنوات وفى شهر نوفمبر عام ١٩٥٨ كان فى زيارته وكان جسم «يوسف كرم» عاجزًا عن الحركة بسبب شلل أصابه فى أسفل منذ عام ١٩٥٤. وكان من أجل ذلك حبيس الحجرة، يجلس على كرسى من الخشب، وأمامه رقعة خشبية لها أربع أرجل يبدو أنه يستخدمها كمكتب. والحجرة خالية من كل شىء إلا من سرير بسيط وهذا الكرسى وتلك المنضدة.. وانهار المنزل الذى كان يقيم فيه سابقًا قبل أن ينتقل منه بيومين.

وسأله د. مراد بلهفة: وكتاب «الأخلاق» أين الآن؟

ـ مأساة يا أستاذ فقد فرغت من تأليفه، وفى اليوم الذى قررت فيه طبعه انهار المنزل الذى كنت أقيم فيه، واختفت «الأخلاق». وساد الحجرة صمت رهيب، وفجأة استأنف الحديث . . أحاول كتابة «الأخلاق» من جديد. ولكن الصداع يبدأ فى الثامنة صباحًا وينتهى فى الثانية بعد الظهر . . ومات «يوسف كرم» يوم أن تسلم نسخ كتابه «الطبيعة وما بعد الطبيعة» يوم الخميس ٢٨ مايو عام ١٩٥٩ .

فى ركاب الحيـاة:

ولد فى مدينة طنطا فى ٨ سبتمبر عام ١٨٨٦ من أبوين مسيحيين نزحا من لبنان واستوطنا مصر. وعام ١٨٩٣ التحق بالقسم الابتدائى بمدرسة «سان جورج» بطنطا وحصل على الشهادة الابتدائية. التحق بالقسم الثانوى بالمدرسة نفسها حتى عام ١٩٠٢، ثم التحق بمدرسة «القديس لويس» بطنطا أيضًا. اشتغل موظفًا فى البنك الأهلى بطنطا عام ١٩٠٣ ليساعد عائلته الفقيرة. فى أوائل الحرب العالمية الأولى ترك وظيفته فى البنك الأهلى . . وسافر إلى باريس ليدرس الفلسفة. حصل عام ١٩١٧ على «دبلوم الدراسات العليا» من السوربون وعين مدرسًا للفلسفة فى مدرسة ثانوية فرنسية.

عاد إلى مصر عام ١٩١٩ وبقى فى عزلة تامة لعدة سنوات، وكتب إليه «د. طه حسين» بعد أن وقف على ظروفه وسيرته يخبره «أن الجامعة فى حاجة إلى أمثاله». كتب فى مجلة «السياسة الأسبوعية» عام ١٩٣٠ . وأخذ يقوم بالتدريس فى جامعة فؤاد الأول وجامعة الإسكندرية يقيم أساسًا فى طنطا وأحيانًا فى الإسكندرية ويعكف على أعماله المهمة. ويقاوم المرض الذى أقعده منذ عام ١٩٥٤ حتى توفى عام ١٩٥٩ .

الثلاثية وأعمال أخرى:

ارتبط اسم «يوسف كرم» بالثلاثية الفلسفية الشهيرة، جاءت هذه الموسوعة الضخمة التى تعرض لآراء الفلاسفة عبر العصور على النحو التالى:

* تاريخ الفلسفة اليونانية عام ١٩٣٦ .

* تاريخ الفلسفة الأوروبية فى العصر الوسيط عام ١٩٤٦ . وفى العام نفسه أصدر كتابه دروس فى تاريخ الفلسفة .

* والعمل الثالث من الموسوعة هو تاريخ الفلسفة الحديثة عام ١٩٤٩م .

وبالاشتراك مع «د. إبراهيم بيومى مدكور» أصدرا «المعجم الفلسفى» و«دروس فى تاريخ الفلسفة عام ١٩٤٦»، ومن أعماله المهمة «العقل والوجود» عام ١٩٥٦ وشرح فيه مذهبه العقلى المعتدل، وهو مذهب يؤمن بالعقل ويؤمن بالوجود وبقدرة العقل على تعقل هذا الوجود. وكانت له دراسات مختلفة. . ثلاثة دروس فى ديكارت عام ١٩٣٧ ، وكان قد قام بترجمة الأحكام التقويمية عام ١٩٢٩ ، وهى عبارة عن ترجمة من الفرنسية إلى اللغة العربية للأستاذ «لالاند» وكان «يوسف كرم» يعمل مساعداً له فى كلية الآداب. ثم عمله الشهير «الطبيعة وما بعد الطبيعة» الذى قلنا عنه أنه صدر فى يوم رحيله ٢٨ مايو عام ١٩٥٩ .

الفيلسوف ومؤرخ الفلسفة:

تقديرى الخاص يتلخص أننا فى مصر ليس بيننا فلاسفة وإنما هناك مؤرخون للفلسفة. وقد جاء عنوان الكتاب التذكارى الذى اقترح فكرته «د. زكى نجيب محمود» عندما كان رئيساً للجنة الفلسفة بالمجلس الأعلى للثقافة. . جاء عنوان هذا العمل الضخم «يوسف كرم» مفكراً عربيّا ومؤرخًا للفلسفة. . ويرى يوسف كرم أن مؤرخ الفلسفة هو فيلسوف ويؤيد هذه الفكرة «الدكتور إبراهيم بيومى مدكور» رئيس مجمع اللغة العربية. ولا ينكر تلاميذ يوسف كرم وأصدقاء عليه صفة الفيلسوف. إذ أنه فى أعماله عامة دافع عن العقل دفاعا مجيدا. وهذا موقف فلسفى بالدرجة الأولى. وأضفى عليه «د. مراد وهبة» صفات «الفيلسوف العقلى المعتدل». وكانت دراسة تلميذه «د. عثمان أمين» بعنوان «يوسف كرم الفيلسوف». وكرر د. عثمان أمين كلمة «فيلسوف» صفة ليوسف كرم أكثر من مرة. . وقال فى بداية كلمته: «ما كنت أتصور مطلقًا فى يوم الجمعة الماضى وأنا ذاهب لأزور

الفيلسوف يوسف كرم فى طنطا أن زيارتى هذه ستكون الأخيرة له». والدكتور «إبراهيم بيومى مدكور» على الرغم من أنه وضع لكلمته عنوان «يوسف كرم: مؤرخ الفلسفة» نجده قد ختم هذه الكلمة بقوله: «وقبل أن أختتم حديثى أرى من واجبى أن أشير إلى أن يوسف كرم لم يكن مؤرخًا فحسب، بل كان فيلسوفًا قبل أن يضطلع بالتاريخ للفلسفة، وفى كتبه التاريخية درس عميق وفلسفة دقيقة، وقد عالج فى استقلال قضايا فلسفة أخرى وقضايا فلسفية قائمة بذاتها «كالطبيعة وما بعد الطبيعة» و«العقل والوجود» وهذان البحثان يعالجان الأساس الحقيقى للفكر الفلسفى. وبهذا الرأى يكون شيخ المثقفين «د. مدكور» قد أفى صفتى الفيلسوف ومؤرخ الفلسفة على زميله وصديقه «يوسف كرم».

مؤلفات مؤرخ الفلسفة:

كان «يوسف كرم» يكتب دراساته ويلقى محاضراته باللغة العربية واللغة الفرنسية، وعلى الرغم من المرض الذى ألزمه بيته واتخذ من البيت صومعة للبحث والتأليف. يأنس لأصدقائه وتلاميذه ومحبيه بنفس تأبى محاولات الإشفاق عليه. وقد حاول أحد أصدقائه وعارفى مكانة «المفكر العربى يوسف كرم» وهو «صلاح البيطار» الوزير السورى فى الوزارة الاتحادية للجمهورية العربية المتحدة، أن يفعل أى شىء من أجله، ولكن كان الموت أسرع من «صلاح البيطار» فى ٢٨ مايو عام ١٩٥٩.

ومن مؤلفاته التى وضعت يوسف كرم فى صفوف مؤرخى الفلسفة هى كما أوردها «محمد سعيد زايد» أحد معاونى رئيس مجمع اللغة العربية على الوجه التالى:

١ - تاريخ الفلسفة اليونانية عام ١٩٣٦ وهى فلسفة الشرق الأدنى منذ فتوح الإسكندر، وفلسفة العرب منذ أن استولى الرومان على بلاد اليونان فى منتصف القرن الثانى قبل الميلاد.

٢ - دروس فى تاريخ الفلسفة عام ١٩٤٦ بالاشتراك مع «الدكتور إبراهيم مدكور»

وكان هذا الكتاب بين أيدينا عام ١٩٤٦ كطلاب للتوجيهية. القسم الأدبى إذ أن هذا الكتاب وضع خصيصًا لتلك المرحلة الدراسية بتكليف من وزارة المعارف العمومية.

٣ - تاريخ الفلسفة الأوروبية فى العصر الوسيط عام ١٩٤٦، ويتناول الرواد من القرن الرابع إلى القرن التاسع الميلادى.

٤ - تاريخ الفلسفة الحديثة عام ١٩٤٩ تحدث فيه عن بعض المحدثين الذين تأثروا بأفلاطون أو بابن رشد. وعرض لأمهات المذاهب الفلسفية الحديثة وفلاسفة القرن الثامن عشر فى إنجلترا وفرنسا وألمانيا، ثم فلاسفة النصف الأول من القرن التاسع عشر. . وتجيء بعد ذلك بحوث أخرى مثل: ثلاثة دروس فى ديكارت وترجمة بالعربية لمحاضرات «لالاند» والمعجم الفلسفى، والآراء الفلسفية لإخوان الصفا والمدينة الفاضلة للفارابى، وموقف الغزالى من الفلاسفة ومنطق أرسطو ومنطق إسلامى، وعديد من البحوث الأخرى التى نشرتها له كبرى المحلات بالفرنسية والعربية.

مؤلفات الفيلسوف:

المؤلفات والبحوث السابقة وضعت يوسف كرم فى صفوف مؤرخى الفلسفة، وله مؤلفات أخرى وضعته فى صف الفلاسفة بجدارة على حد رأى زميله وصديقه «د. إبرهيم بيومى مدكور» وغيره من أساتذة الفلسفة. . وهذه المؤلفات التى تعبر عن آراء «يوسف كرم» نفسه هى:

١ - الطبيعة وما بعد الطبيعة عام ١٩٥٩ يوم وفاته ٢٨ مايو. . وختم المؤلف هذا الكتاب بتسبيح وتمجيد الذات الإلهية وذلك فى ختام حديثه عن الله والمادة والحياة وعلم ما بعد الطبيعة وبراهين وجود الله، وصفات الذات الإلهية.

٢ - العقل والوجود عام ١٩٥٦ وتحدث فيه عن وجود العقل ونقد العقل ومشكلات الشك واليقين والعقل وما بعد الطبيعة والحق والباطل والمقارنة بين المعنى والصورة ورفض ما يراه «الحسيون» من إنكار وجود المعانى والاختصار على

الحسيات، وناقش حجج الشكاك منذ فلاسفة اليونان حتى عصرنا الحاضر ودافع عن الحقيقة لأن وجود الخطأ دليل على وجود الحقيقة. ويدافع عن علم ما بعد الطبيعة وهو ضروري لأنه كلي وأوضح «كرم» أن مذهبه الفلسفي يتسم باليقين والإيمان.

٣ـ الأخلاق.. وهو كتاب مأساة أوله مأساة فقد أصوله بين أنقاض منزل تهدم كما ذكرنا من قبل.. والذين يريدون الحديث عن مذهبه في «الأخلاق» يعودون إلى كتابيه «الطبيعة وما بعد الطبيعة ـ والعقل والوجود» ودراساته في تاريخ الفلسفة كافة. ويكفيه أنه ختم واحداً من أهم كتبه بتمجيد الذات الإلهية.. وتباركت اللهم تباركت.

الأسانيد:

* يوسف كرم.. مفكراً عربيا ومؤرخًا للفلسفة «الكتاب التذكاري عن المجلس الأعلى للثقافة. فكرة د. زكي نجيب محمود وإشراف د. عاطف العراقي وشارك فيه: «إبراهيم مدكور وأحمد محمود صبحي وتوفيق الطويل والأب جورج قنواتي وزينب محمود وسعيد زايد وسهير فضل الله الشافعي وعبد القادر محمود وعاطف العراقي وعزت قرني وعثمان أمين ومراد وهبة ومحمود فهمي زيدان ومحمود حمدي زقزوق ومحمد يوسف موسى ونبيلة زكريا زكي ونجيب بلدي ويحيى هويدي.

المحتـــوى

الإهـــداء ٥
تقـــديم ٧
قيثارة الســماء أم كلثوم ١١
إســتر فــهــمى ويصا ١٩
زرقاء اليمامة أمينة السعيد ٢٩
تحــيــة كــاريــوكــا ٣٧
الدكـتورة درية شفـيق ٤٦
روز اليـــوسف ٥٤
زينب هانم الوكيل ٦٢
سلـوى حــجــازى ٧١
الدكتورة سهير القلماوى ٨٠
ســيــزا نبــراوى ٩٠
الدكتورة سمـيرة موسى ٩٨
صفية زغلول أم المصريين ١٠٦
الدكتورة عائشة عبدالرحمن ١١٤
الدكتورة لطـيفة الزيات ١٢٣
ملك حفنى ناصف ١٣٠

نبوية موسى ١٣٨
هدى شعراوى ١٤٦
هذا الرجل من مصر ١٥٥
إبراهيم عبدالقادر المازنى ١٥٧
إبراهيم فرج باشا ١٦٥
الدكتور إبراهيم ناجى ١٧٥
أحمد بهاء الدين ١٨٣
أحمد حافظ عوض ١٩٣
أحمد رامى ٢٠٠
إحسان عبدالقدوس ٢٠٩
الدكتور إسماعيل سراج الدين ٢١٨
أحمد شوقى.. وحافظ إبراهيم ٢٢٨
أحمد عرابى ٢٣٦
الشيخ أمين الخولى ٢٤٥
أحمد كامل مرسى ٢٥٤
الدكتور أنور المفتى ٢٦٤
أقباط الوفد المصرى ٢٧٢
الدكتور السيد أبو النجا ٢٨٢
أمين الرافعى ٢٩١
بدر الدين أبو غازى ٣٠٠
جورج أبيض ٣٠٨
الشيخ حسنين مخلوف ٣١٦

الدكتور رشاد رشدي ٣٢٢
زكي طليمات ٣٣١
الدكتور زكي نجيب محفوظ ٣٤١
الدكتور سيد عويس ٣٤٩
سيف وأدهم وانلى ٣٥٨
سيد درويش ٣٦٦
صلاح عبدالصبور ٣٧٤
عبدالله النديم ٣٨٤
عباس محمود العقاد ٣٩٢
عبدالخالق ثروت ٤٠٠
عبدالفتاح عنايت ٤٠٩
الخديو عباس حلمي الثاني ٤١٨
الدكتور عبدالفتاح شكرى محمد عياد ٤٢٧
الدكتور جمال حمدان ٤٣٦
عبداللطيف البغدادى ٤٤٤
على الجارم ٤٥٤
التوأم على ومصطفى أمين ٤٦٢
عثمان أحمد عثمان ٤٧٠
عبدالحميد جودة السحار ٤٧٩
سيد مرعى ٤٨٨
الشيخ على يوسف ٤٩٦
عثمان محرم باشا ٥٠٤

عــــــــزيــز أبــاظــة ٥١٢
الشيخ الدكتور عـبدالرحـمن تاج ٥٢٠
عــوض ويوسف الجندى ٥٢٨
الدكـتـور على الراعى ٥٣٨
عــلى الـكـســــــار ٥٤٦
فـــــوزى العنـتـــيل ٥٥٤
كـــــامل الـشـنـاوى ٥٦٤
الدكتور لويس عوض ٥٧٢
مـــحــــمـــد بدران ٥٨٠
الشيخ محمد متولى الشعراوى ٥٨٨
الشاعر محمد الأسمر ٥٩٦
البكباشى محمد كامل ٦٠٣
مصطفى لطفى المنفلوطى ٦١١
مــحــمـــد بـيـــومى ٦١٨
مــــصطفى شـــردى ٦٢٥
محمد فؤاد سراج الدين ٦٣٣
الشيخ محـمد الغزالى ٦٤٣
مـــحـمـــود تـيـمـــور ٦٥٢
عـبدالحـمـيـد الديب ٦٦٠
على عـبدالرازق باشـا ٦٦٩
محمود فـهمى النقراشى ٦٧٧
محمود حسن إسماعيل ٦٨٦

محمد عبدالوهاب ٦٩٥
محمود بيرم التونسى ٧٠٤
محمد التابعى ٧١٥
محمد مفيد الشوباشى ٧٢٥
محمد المعلم ٧٣٣
الدكتور محجوب ثابت ٧٤٢
مرقص حنا باشا ٧٥١
الدكتور محمد توفيق الطويل ٧٥٩
محمد المغازى باشا ٧٦٧
محمود سامى البارودى ٧٧٥
الدكتور محمود عزمى ٧٨٣
الدكتور مصطفى الديوانى ٧٩١
محمود مختار ٧٩٨
د. محمد مهدى علام ٨٠٦
نجيب الريحانى ٨١٤
يوسف السباعى ٨٢٣
يحيى حقى ٨٣٣
يوسف بك وهبى ٨٤٤
يوسف كرم ٨٥٢

رقم الإيداع ٢٠٩٠ / ٢٠٠٢
الترقيم الدولى 8 - 0789 - 09 - 977

مطابع الشروق
القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت:٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

موسوعة

نساء ورجال

من مصر

هذه الموسوعة

هذه موسوعة جديدة فى شكل جديد ومضمون جديد.. المجلد الثانى يضم عدداً من النساء والرجال.. أثروا الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية والثقافية والاقتصادية.

ويضم المجلد الثانى إلى شقيقه المجلد الأول الذى صدر فى طبعتين لإثراء ذاكرة الأمة وعقل المجتمع ووعى المواطن. وقد لمعت هذه النجوم الزاهرة فى سماء مصر واختلفت درجات الإضاءة التى تبعث بها، ولكنها أعطت بقدر ما أتيح لها من رؤية فى حدود زمانها وموقعها.

دار الشروق
القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب: ٣٣ البانوراما - تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨٠٧٢١٣ - فاكس: ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)

6 221